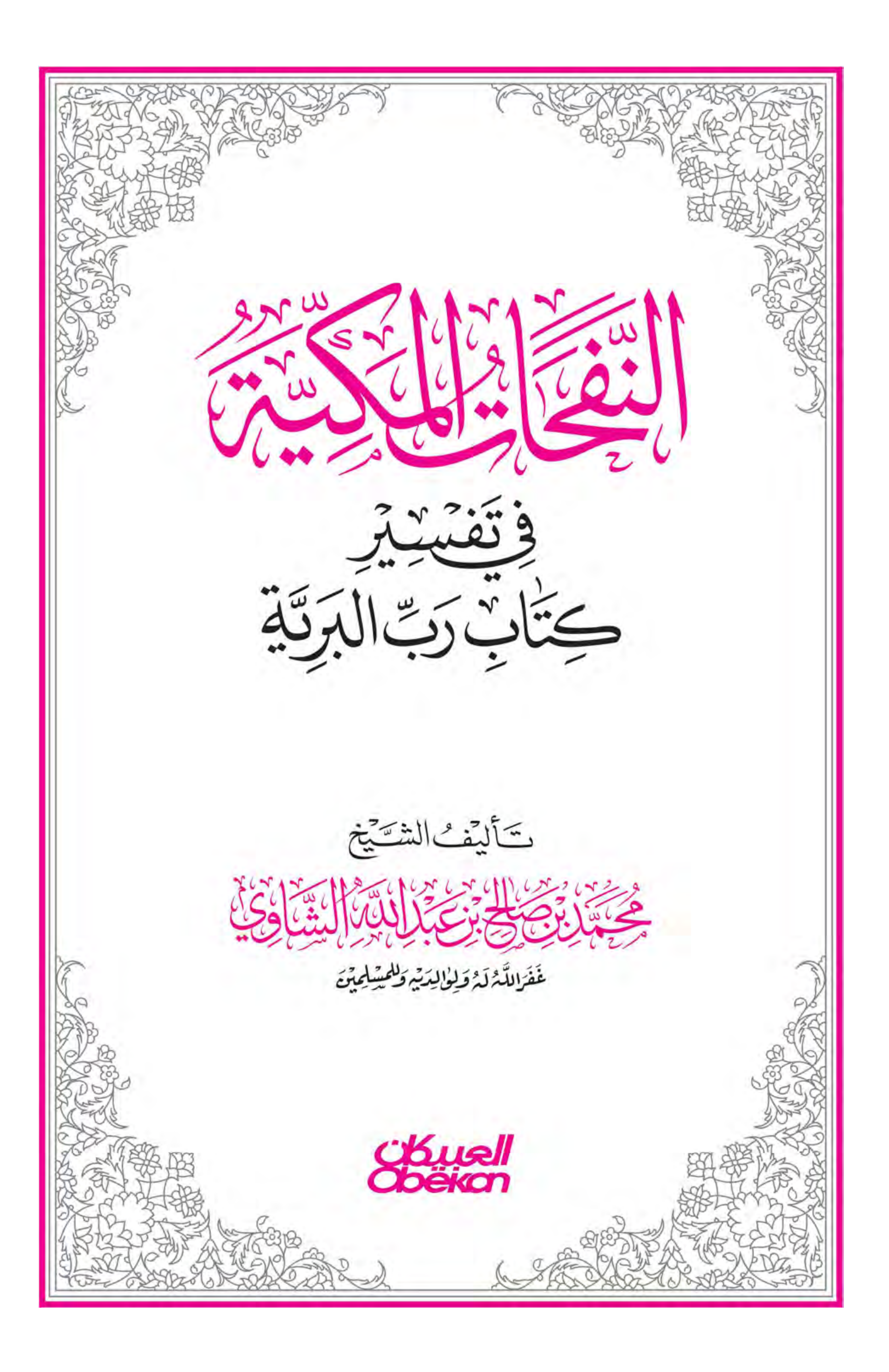


النفحات المكية

في تفسير كتاب رب البرية

تأليف الشيخ

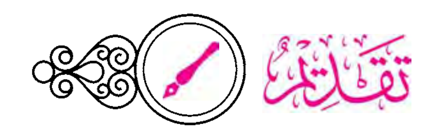
محمد بن صالح بن عبد الله الشاوي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

العبيكان
Obeikan



تقديم



الحمد لله وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده، أما بعد:

فإن الله تعالىٰ خلقنا لغاية عظيمة، ومهمة جسيمة، وهي عبادته وحده لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وفرض علينا سبحانه فرائض، فمِن أحب الأشياء إليه سبحانه؛ أن يلتزم العبد بما فرضه عليه، وأن ينتهي عما نهاه عنه، والعاقل من يغتنم أيام عمره وساعاته ولحظاته في طاعة ربه، والتقرب إليه بأنواع العبادات والقربات، والخاسر من أضاع عمره في اللهو واللعب والجري وراء الشهوات، وإن من أعظم الطاعات والقربات ملازمة كتاب الله عز وجل؛ تلاوة وحفظًا وفهمًا وتدبرًا، ففي هذا الكتاب الهدىٰ والرحمة والبشرىٰ والموعظة والذكرىٰ لأهل الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل:٨٩].

وهذا القرآن يأتي يوم القيامة منافحًا عن صاحبه الذي كان يتعاهده بالتلاوة والتدبر، فعن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**»[(١)]، ومنزلة صاحب القرآن يوم القيامة هي أعلىٰ المنازل وأرفعها، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران**»[(٢)]، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**»[(٣)]، ومن هنا كان النبي ﷺ وهو من أنزل عليه القرآن يكثر من تلاوته وتدبره وكان يدارس جبريل القرآن في كل ليلة من رمضان[(٤)].

وكان السلف رحمهم الله يتعاهدون هذا الكتاب بالتلاوة والتدبر والفهم، فهذا ابن مسعود رحمه الله يقول: لا تهذوا القرآن هذَّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة، ومع ذلك فقد كان رحمه الله يختم القرآن في كل أسبوع مرة، وفي رمضان في كل ثلاث ليال مرة.

ولقد رأيت من الوالد حفظه الله عناية بكتاب الله تلاوة وحفظًا وفهمًا وتدبرًا، حتىٰ أنه ترك لأبنائه جميع أعماله وتجارته، منذ ربع قرن تقريبًا، وذهب إلىٰ مكة وسكن بجوار الحرم المكي، حتىٰ لا يشغله شيء عن القرآن ومدارسته، وكان الوالد حفظه الله ولا يزال يختم القرآن في كل يوم مرة، لا يثنيه عن ذلك إلا الضرورة القاهرة، هذا بخلاف عباداته الأخرىٰ من الصلاة والقيام والطواف، وحضور دروس الحرم المكي، وكتابة الفوائد والمعاني التي تتعلق بالآيات علىٰ هامش مصحفه الخاص الذي يقرأ فيه.

وبعد استشارة الوالد حفظه الله قمت بجمع هذه الفوائد وطبعها في كتاب لينتفع به، وقد أسماه حفظه الله: (نفحات قرآنية)، ثم أشار بعض الأخيار علىٰ الوالد بأن يكمل العمل في كافة سور وآيات القرآن، فاستجاب لهم حفظه الله، علىٰ الرغم من أن عمره قد تجاوز الثمانين، فواصل العمل من سورة الفاتحة إلىٰ سورة الناس حتىٰ انتهىٰ منه بفضل الله ومعونته وكرمه، وقد أسماه: (النفحات المكية في تفسير كتاب رب البرية).

فنسأل الله أن يمتعه بالصحة والعافية، وأن يجزيه خير الجزاء علىٰ ما قدم ويقدم، وأن يجعل هذا العمل في موازين أعماله، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتىٰ الله بقلب سليم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وكتبه



---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

(٣) أخرجه مسلم (٨١٧).

(٤) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).



الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه، **أما بعد:**

فإن القرآن العظيم هو كتاب الله الذي أنزله علىٰ نبيه محمد ﷺ، لهداية الخلق وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، وفرقانًا بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال، قال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

وهذا الكتاب فيه الهدىٰ والنور والرحمة، وهو طريق السعادة في الدنيا والآخرة لمن تمسك به وعمل بما فيه، وفيه المخرج من كل فتنة، والسلامة من كل حيرة، عند التباس الطرق واشتباه الأمور؛ **لذا** حري بكل مسلم أن يتعاهده بالتلاوة والحفظ والفهم والتدبر آناء الليل والنهار، فقد قال ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[(١)]، وأن يحذر كل الحذر من هجره والإعراض عنه.

ولما كان الانتفاع بالقرآن متوقفًا علىٰ فهم معانيه، شرُف علم التفسير علىٰ سائر العلوم، لأنه متعلق بفهم معاني أعظم الكتب وأشرفها، وتبيين أحكام الله عز وجل التي أنزلها في هذا الكتاب للناس، وهذه وظيفة الرسل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، فمن اشتغل بالقرآن وتفسيره وفهم معانيه حاز قصَب سبق العلوم، ونال شرف الخيرية التي ذكرها رسول الله ﷺ لمتعلم القرآن ومعلمه.

وإن من التحدث بنعمة الله عز وجل أنَّ الله وفقني لحفظ القرآن قبل البلوغ، وبعد انخراطي في العمل وتدرجي في الوظائف الحكومية، ثم اشتغالي بالتجارة بعد ذلك أنسيت كثيرًا من سور القرآن، ثم قررت بعد ذلك أن أترك ما يشغلني عن القرآن وأستعيد حفظه، فسكنت بجوار الحرم المكي، وأقبلت علىٰ قراءة القرآن، وتدبره وفهم معانيه، وكنت كلما أشكل علي شيء راجعت تفسيره وعلقت علىٰ هامش مصحفي الذي أقرأ فيه، فتحصل عندي تعليقات كثيرة من معاني الآيات وفوائدها التربوية، أو اللطائف التفسيرية.

ثم أشار علي بعض المحبين أن أجمع هذه التعليقات في كتاب لينتفع بها، وبعد جمعها ومراجعتها طُبعت في كتاب أسميته: **(نفحات قرآنية)**، ثم طلب مني بعض أهل العلم والزملاء والدكاترة أن تكون هذه المعاني والفوائد شاملة لجميع آيات القرآن الكريم، فاستعنت بالله عز وجل ومررت علىٰ جميع سور وآيات القرآن، مبيِّنًا معانيها وبعض ما فيها من الفوائد واللطائف والأحكام والتنبيهات، فكان هذا المختصر الذي أسميته: **(النفحات المكية في تفسير كتاب رب البرية)**.

ثم أشار علي ابني صلاح حفظه الله أن يُطبع هذا التفسير على حاشية صفحات مصحف المدينة النبوية؛ حيث أنه أكثر انتشارًا وقبولًا، فيجمع بين القرآن والتفسير، فتم ذلك ولله الحمد والمنة.

وإني لأشكر الله عز وجل علىٰ تمكيني من إتمام هذا العمل، وأسأله سبحانه أن يجعله خالصًا لوجهه، صوابًا علىٰ سنة نبيه ﷺ، كما أشكر كل من ساعدني وتعاون معي في هذا العمل، وأسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يجعله لي ولكل من عمل فيه زادًا إلىٰ حسن المصير إليه، وعتادًا إلىٰ يُمْنِ القدوم عليه، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والحمد لله أولًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا.

وكتبه



---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٠٢٧).

تَرجَمَةٌ مُوجَزَةٌ لِلمُؤَلِّفِ
فَضِيلَةِ الشَّيخِ مُحَمَّدِ بنِ صَالِحٍ الشَّاوِيِّ
حَفِظَهُ اللهُ [1]

هو: محمد بن صالح بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن سليمان بن محمد بن غانم الشاوي البقمي الأزدي.

ولد في البكيرية، بتاريخ: (٢٣/ ٩/ ١٣٥٠هـ)، الموافق: ٣١/ ١/ ١٩٣٢م.

نشأ الشيخ محمد بين أبوين محافظين ومتدينين، فقد كان والده فضيلة الشيخ صالح بن عبدالله الشاوي عالمًا من علماء البكيرية، وكان من الموسرين ولله الحمد والمنة، ولذلك اعتذر لما كلف بالقضاء مرتين؛ لأن القضاء سوف يشغله عن الاستمرار في تحصيل العلم وإلقاء الدروس وعن أعماله التجارية.

ثم حفظ الشيخ محمد القرآن منذ نعومة أظفاره، حيث بدأ بالحفظ علىٰ يد الشيخ عبدالله الخليفي قبل أن يكون إمامًا للحرم المكي، ثم أكمل حفظه علىٰ الشيخ عبدالرحمن بن كريديس في مسجد تركي.

وبعد أن حفظ القرآن بدأ بمسيرة طلب العلم؛ حيث اهتم به والده وبدأ بإحضاره إلىٰ مجالس العلماء ليتعلم ويستفيد منهم، وكان أول ذلك عندما بلغ التاسعة من عمره، حيث كان يجلس مع طلبة العلم الذين يدرسون عند والده فضيلة الشيخ صالح بن عبدالله الشاوي رحمه الله في كتب ابن القيم، وكتب التفسير، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، والسيرة النبوية، ولهذا يعتبر والده هو شيخه الأول الذي تعلم عليه بعض العلوم الشرعية.

ولما بلغ الحادية عشرة من عمره، رغب إليه والده أن ينضم إلىٰ الحلقة في المسجد الجامع ليدرس علىٰ الشيخ محمد بن عبدالله بن سبيل إمام الحرم المكي، والشيخ عبدالعزيز بن سبيل، والشيخ العلامة محمد المقبل وغيره من علماء ذلك الزمان، وفي السنة الثالثة عشرة من عمره سافر إلىٰ الرياض وانضم مع طلبة العلم في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ وأخيه الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم، وغيرهم من العلماء آن ذاك.

ولما قدم ابن العم عبدالله ابن العم الشيخ محمد بن عثمان الشاوي رحمه الله من الطائف؛ أقنعه بالالتحاق بدار التوحيد في الطائف، فالتحق ودرس بها، وبعد أن أخذ شهادة المتوسطة من دار التوحيد عاد إلىٰ الرياض، وأكمل الثانوية في المعهد العلمي بالرياض، وفي عام ١٣٧٢هـ الْتحق بكلية الشريعة والتي كانت تسمىٰ آنذاك (دار العلوم الشرعية)، واستمر فيها حتىٰ تخرجه عام (١٣٧٦هـ)، وكان من ضمن أول دفعة تخرجت من الكلية، وكان من مشايخه وأساتذته الذين درس عليهم في الكلية: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مؤلف تفسير أضواء البيان، والشيخ عبدالعزيز بن باز، والدكتور عبدالرزاق عفيفي، وغيرهم من أهل العلم آنذاك.

وبعد تخرجه من كلية الشريعة عام ١٣٧٦هـ تم تعيينه قاضيًا في المنطقة الشرقية في بلدة النعيرية بتاريخ: ١٥/ ٢/ ١٣٧٧هـ، وقام بتأسيس المحكمة الشرعية فيها، وعُيِّن رئيسًا لها، واستمر عمله في مجال القضاء حتىٰ تاريخ: ١٦/ ٨/ ١٣٧٩هـ، وفي أثناء وجوده في النعيرية قاضيًا تولىٰ إمامة جامع النعيرية، وتولىٰ الخطابة يوم الجمعة وفي الأعياد والمناسبات، ومن المهام التي تولاها أثناء عمله قاضيًا في النعيرية تأسيس هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها، ثم عُيِّنَ رئيسًا لها، وتولىٰ أعمال الحسبة فيها لفترة وجيزة حتىٰ تم تعيين رئيس مستقلٍّ لها.

وبعد عامين تقريبًا من عمله في مجال القضاء طلب منه سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله الانتقال إلىٰ الرياض لتأسيس وافتتاح كتابة العدل ورئاسة العمل فيها، والقيام بعمل اللازم لها؛ حيث لم يكن هناك كتابة عدل رسمية بهذا الاسم قبل ذلك في منطقة الرياض والقصيم، وبعد الانتهاء من عمليه تأسيس وافتتاح كتابة العدل عُيِّن رئيسًا لها؛ فكان أول رئيس لكتابة العدل بالرياض، وقد رتب فضيلته ما يلزم لها من الأنظمة والقوانين والموظفين وباشر العمل فيها بتاريخ: ١٨/ ٨/ ١٣٧٩هـ.

وخلال فترة عمله رئيسًا لكتابة العدل كلِّف بالعمل عضوًا قضائيًا احتياطيًّا بهيئة المنازعات التجارية في الفترة المسائية

---

(١) هذه الترجمة كتبها ابنه الشيخ صالح بن محمد الشاوي.

في حالة تغيب أحد أعضاء الهيئة، وذلك بتاريخ: ٢٨/ ٥/ ١٣٨٩هـ، ثم صار بعد ذلك عضوًا رسميًّا بعد أن طلب الشيخ محمد بن جبير رحمه الله أحد الأعضاء الإعفاء للتفرغ إلىٰ عمله الرسمي.

ومن الأعمال التي تولاها قيامه بعقود الأنكحة بين الناس، حيث عمل مأذونًا للأنكحة، وقد تم تعيينه في هذا العمل بتاريخ: ٥/ ٤/ ١٣٩٢هـ، بجانب عمله في كتابة العدل بالرياض، ومن الأعمال التي تولاها أيضًا تعيينه عضوًا مؤسسًا في مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، ثم انتخب أيضًا من قبل زملائه وعيِّن عضوًا إداريًا بتاريخ: ١/ ٨/ ١٣٩٨هـ، كل ذلك بجانب عمله في كتابة العدل.

ومن الأعمال أيضًا تعيينه مستشارًا لمعالي وزير العدل آنذاك الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ بتاريخ: ١٥/ ٣/ ١٣٩٨هـ، وبعد فترة وجيزة من عمله مستشارًا طلب الإعفاء والتقاعد المبكر فتحقق له ما يريد وذلك بتاريخ: ٩/ ٢/ ١٣٩٩هـ؛ لأنه يريد إراحة نفسه من الأعمال الرسمية، والتفرغ لكتابة البحوث والعبادة ونحو ذلك.

وبعد التقاعد قرر الانتقال إلىٰ مكة المكرمة حرسها الله، وسكن بجوار الحرم المكي، وكان يصلي فيه الصلوات الخمس، ويحضر الدروس والمحاضرات، وقد ساعده ذلك علىٰ استعادة حفظه لكتاب الله.

وأما عن مؤلفاته فلم يشغل الشيخ محمد نفسه كثيرًا في التأليف؛ لأنه كان مشغولًا في أول حياته بالوظائف الحكومية والخطابة وغيرها من الأعمال، وبعد التقاعد انشغل كثيرًا في مجال الأعمال الحرة والتجارة والاهتمام بالعبادة وغيرها، ومع ذلك لم يهمل الشيخ بعض البحوث والكتابات المفيدة والتي جمعناها في المؤلفات التالية:

١- قبسات من الحرم المكي، ٢- خطبة المنبر، ٣- حِكَمٌ مُختاراتٌ من عيون الشعر والأدب، ٤- الرد الوارف علىٰ من أباح ربا المصارف، ٥- القضاء والقدر عند أهل السنة والجماعة، ٦- قطوف دانية ـ عبارة عن مقالات وموضوعات متنوعة، ٧- تراجم علماء الشاوي، ٨- نفحات قرآنية، ٩- النفحات المكية في تفسير كتاب رب البرية.




النفحات المكية
في تفسير
كتاب رب البرية

سورة الفاتحة

الفاتحة سورة مكية وآياتها سبع آيات.

وهي أم الكتاب، وأعظم سورة في القرآن، يقول العلماء: (إن القرآن كله مُرَكَّزٌ في هذه السورة)، أي: أنها خُلاصته، وخُلاصتها قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾. ولها عدة أسماء ذكرها المفسرون. وقال الأئمة أحمد ومالك والشافعي: (الفاتحة ركن من أركان الصلاة، ولا تصح الصلاة إلا بها)، واستدلوا بحديث: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»[1]، أما أبو حنيفة فقال: (الفاتحة ليست بركن، وتصح الصلاة بما تيسر من القرآن)، واستدل بحديث المسيء صلاته، الذي قال له النبي ﷺ بعد ما بين له صفة الصلاة: «**ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن**»[2].

[١] بدأ جل وعلا الفاتحة بالبسملة، فقال تعالىٰ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ومعناها: أبتدئ قراءة القرآن باسم الله، مستعينًا به، فإنه سبحانه المستحق لإفراده بالألوهية والعبادة، وهو صاحب الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وقوله: ﴿ٱللَّهِ﴾، علم علىٰ الرب لا يطلق علىٰ أحد غيره، وقيل: إنه اسم الله الأعظم. و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، اسمان من أسماء الله تعالىٰ، يتضمنان صفة الرحمة اللائقة به سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وأن كل اسم يتضمن صفة تليق به، وهكذا يقال في جميع أسماء الله الواردة في الكتاب والسنة، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: اسم دال علىٰ عموم رحمته لجميع خلقه، مؤمنهم وكافرهم، و﴿ٱلرَّحِيمِ ﴾: اسم دال علىٰ رحمته الخاصة بالمؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣] والراجح أن البسملة ليست آية من الفاتحة، ولكنها آية مستقلة من القرآن، ولهذا لا يجب الجهر بها في الصلاة الجهرية.

[٢] ثم أخبر جل وعلا أن له الحمدَ التامَّ الكامل، وأنه المحمود علىٰ كل حال، والحمد هو: الثناء علىٰ الله باللسان معتقدًا ذلك، ونحمده سبحانه لأنه رب العالمين، أي: رب كل شيء ومليكه، والرب: اسم من أسماء الله، لذا يصح أن يقال: عبدالرب.

[٣] ثم بين سبحانه أننا نحمده لأنه الرحمن الرحيم، أي: صاحب الرحمة الواسعة العظيمة، وقد سبق الإشارة لمعنَيَيْهما.

[٤] وبين سبحانه أننا نحمده لأنه مالكٌ ليوم الدين، وهو يوم القيامة، الذي هو يوم الجزاء والحساب.

[٥] ولمَّا كان سبحانه بهذه العظمة والملك والرحمة استحق من عباده أن يخصُّوه بالعبادة والاستعانة في كل أمورهم الدنيوية والأخروية؛ وهذا يعني أنه لا يجوز للعبد أن يصرف شيئًا من أنواع العبادة؛ كالدعاء والاستغاثة والذبح وغيرها إلا لله وحده، وكذلك لا يجوز له أن يستعين بأحد سوىٰ الله في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، وأيضًا لا يجوز له أن يتعلق قلبُه بأحد سوىٰ الله، وهذا لا ينافي الأخذ بالأسباب.

وقدم سبحانه العبادة علىٰ الاستعانة لأهميتها، ولأنها الغاية التي



من أجلها خُلق الثقلان، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] **وقال ابن تيمية**: **العبادة**: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. وكرر قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ لإثبات اختصاصه بالعبادة والإعانة عليها.

[٦] ثم بين جلَّ وعلا أعظم مطلوبٍ لعباده، وهو طلب الهداية إلىٰ الطريق الواضح البين الذي يوصل إلىٰ الجنة وهو الإسلام؛ ومع أن العبد مهتد وعلىٰ الإسلام فقد شُرِعَ له طلب الهداية لقصد الاستمرار عليها؛ وحيث أن الصراط تتشعب منه طرق يمنة ويسرة؛ فكان الواجب علىٰ العبد أن يطلب من الله أن يثبته علىٰ الهدىٰ وعلىٰ الصراط المستقيم.

[٧] ثم بين جل وعلا أن الصراط الذي أمروا أن يسلكوه هو صراط المنعم عليهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء:٦٩]، وهذا الصراط المستقيم ليس صراط المغضوب عليهم وهم: اليهود؛ الذين علموا المنزَّل فحرَّفوه، وليس صراط الضَّالين وهم: النَّصارىٰ؛ الذين عبدوا الله علىٰ جهالة.

ولا شك أن كل من ينطبق عليه أحد هذين الوصفين فهو مقصود بهذه الآية. وبعد قراءة الفاتحة يجب علىٰ المصلي -إمامًا ومأمومًا ومنفردًا- أن يقول: (آمين)، وهي اسم فعل بمعنىٰ: اللهم استجب، وأجمعوا علىٰ أنها ليست من الفاتحة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧).



سورة البقرة

سورة البقرة مدنيّة وآياتها ستّ وثمانون ومائتا آية.

وقد جاء في فضل سورة البقرة بعض الأحاديث، ومن ذلك ما ورد أن البقرة وآل عمران سُمِّيتا بالزهراوين، وأنهما يكونان يوم القيامة غمامتين يظللان فوق رأس من يحفظهما[1].

[١] وردت أقوال كثيرة في الحروف المقطعة في أول السور، وأفضلها قولان:

الأول: أن هذا القرآن كلام الله، وهو مكون من هذه الأحرف العربية.

والثاني: الله أعلم بمراده بها؛ حيث قال هؤلاء: إن لكل كتاب سرًّا وإنها سرٌّ القرآن، وقد نسبوا هذا الكلام لأبي بكر الصديق رضي الله عنه. وقد اختار الجمهور ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن كثير والزمخشري القول الأول بأنها ذُكرت لتدل علىٰ أن القرآن العظيم نزل باللغة العربية التي تتكون من هذه الأحرف: (أ، ب، ت، ث...إلخ).

والمقصود: أنها أعلام وتحَدٍّ لمن عارض، أو كان عنده شك أنه من عند الله بأن يأتي بحديث مثله، وهذا هو الأرجح في هذه المسألة. والحروف المقطعة في أوائل السور يجمعها قول: (كلامه سر حصين قطع).

[٢] يخبر جل وعلا أن هذا الكتاب العظيم وهو القرآن الكريم لا شك فيه ولا ارتياب، وقد أنزله الله هداية للمتقين الذين امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه. وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، إشارة لفخامة القرآن وعلو مكانته وأنه عظيم الشأن.

ومعلوم أن كل الكتب التي تؤلف يعتذر مؤلفوها عن الأخطاء التي فيها، ويطلبوا من القراء العفو والمعذرة عما يبدو فيها من نقص أو تقصير، أما القرآن فلا ريب ولا شك ولا خلل ولا اختلاف فيه، وهذا من إعجاز الله ومن تحديه لمن يعارض من أهل الكفر والضلال من قريش، الذين كانوا يفتخرون ويعتزون بلغتهم، ويتحدُّون أنه لا يستطيع أحد أن يباريهم بها.

[٣] ثم أخبر جل وعلا أن **من صفات هؤلاء المتقين:** أنهم يؤمنون بالغيب، والغيب: هو ما غاب عن الحس والمشاهدة مما ذكر الله عن كيفية ذاته وأمور الآخرة والبرزخ، ومن ذلك أخبار الأمم والأنبياء السابقين والعرش والملائكة والجن، وغير ذلك.

ومن صفاتهم: أنهم يحافظون علىٰ أداء الصلوات في أوقاتها المحددة مع جماعة المسلمين إلا أصحاب الأعذار الذين عذرهم الله، ويؤدونها بسكينة ووقار وحضور قلب وخشوع وخضوع، ويكثرون من أدائها لأهميتها وعظيم فضلها.

والصلاة في اللغة: الدعاء، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب:٥٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:١٠٣].

وسُمِّيت الفروض الخمسة صلاة لاشتمالها علىٰ الدعاء.

ومن صفاتهم: أنهم ينفقون مما أعطاهم الله من المال، فيخرجون الزكاة الواجبة والصدقات المستحبة قربة لله عز وجل.

[٤] **ثم ذكر سبحانه أن من صفات هؤلاء المتقين:** أنهم يصدقون بما أُنزل عليك يانبي الله وهو القرآن، ويصدقون بكل الكتب السماوية التي أُنزلت علىٰ الأنبياء من قبلك، ويؤمنون باليوم الآخر وهو يوم القيامة، ويعلمون علم اليقين أنه حق لا ريب فيه.

واليقين ثلاثة أنواع:

١- يقين خبر، وهو: علمُ اليقين، وهو التصديق التامُّ، ودليله قوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٥].

٢- يقين مشاهدة ورؤية، وهو: عين اليقين، ودليله قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٧].

٣- يقين مباشرة ووقوع وإحساس بالشيء، وهو: حق اليقين، ودليله قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾.

وَصِدْقُ اليقين بالآخرة هو الاستعداد لها.

[٥] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المتقين الذين يتصفون بهذه الصفات الحميدة علىٰ هدىٰ ونور من ربهم، وأنهم الفائزون بنعيم الله في الآخرة.

والفلاح المذكور في هذه الآية، قيل معناه: الفوز والنجاح بالمطلوب، والنجاة في الآخرة من عذاب الله، وقيل معناه: البقاء السرمدي في النعيم. وهذه الآيات الخمس الأولىٰ جاءت في ذكر صفات المؤمنين المتقين.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦

٣

[٦-٧] أخبر سبحانه أن الذين كفروا لا يؤمنون، وقطعًا ليس المقصود جميع الكفار، وإنما المقصود وقت نزول هاتين الآيتين صنفان من الكفار: **الصنف الأول**: بعض زعماء قريش كأبي جهل وأبي لهب، وآخرين ممن كرهوا التوحيد والداعين إليه، وعاندوا وعذبوا المسلمين، واضطروهم للهجرة إلىٰ الحبشة، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص:٥]، وقالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ [سبأ:٣١]، أي: بالرسالات التي قبله، وبلغ بهم الكره والحقد أن قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال:٣٢]؛ مع أن الله خلقهم علىٰ الفطرة، وجعلهم مختارين كسائر الناس، لكنهم اختاروا الضلال وأصروا علىٰ الكفر؛ فمهما خوفتهم يانبي الله أم لم تخوفهم فإنهم لن يؤمنوا أبدًا؛ ولهذا ختم الله علىٰ قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وهذا الختم والطبع جاءهم جزاء وليس ابتداءً. **والصنف الثاني**: هم الذين آمنوا ثم ارتدوا ونافقوا، وهؤلاء قال الله عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [المنافقون:٣].

وأما الكفار الآخرون فهم محل الدعوة.

والدليل علىٰ أن المقصود وقت نزولهما الصنفان السابقان: أن جميع الكفار في مكة وما حولها أسلموا بعد الفتح وحاربوا مع المهاجرين والأنصار لإعلاء كلمة الله؛ بل صار منهم قادة كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

ثم ختم سبحانه الآية مخبراً أنه أعد لهذين الصنفين عذابًا أليمًا يوم القيامة لا يعلم حجمه إلا الله. ولا شك أن جميع من اتصف بصفات هذين الصنفين فإنهم مثلهم ويشملهم حكمهم.

[٨] ثم أخبر جل وعلا عن صنف من الناس أشد علىٰ الإسلام من الكفار، وهم المنافقون الذين يقولون: إنهم آمنوا بالله ورسوله وباليوم الآخر، فكذبهم الله وأخبر أنهم ليسوا بمؤمنين، وأنهم يضمرون الكفر والعداوة للمسلمين.

[٩] ثم بين سبحانه أن المنافقين يظنون أنهم يخادعون الله والذين آمنوا، وفي الحقيقة أنهم ما يخدعون إلا أنفسهم، ولكنهم لا يَحُسُّون بذلك بسبب جهلهم وغفلتهم وحقدهم علىٰ الدعوة والقائمين بها.

[١٠] ثم أخبر سبحانه أن المنافقين في قلوبهم شك ونفاق؛ كما قال ابن مسعود، فزادهم الله مرضًا، أي: شكًا. وبين أن هؤلاء المنافقين لهم يوم القيامة عذاب موجع شديد بما كانوا يكذبون. وهذه الآية وصفت جهل المنافقين وضلالهم، ورفضهم اتباع النور الذي جاءت به رسلهم، وبهذا يسقط اعتراض بعضهم: ما دام أن الله ختم علىٰ قلوبهم فمنعهم عن الهدىٰ، فكيف يستحقون العقوبة؟ لأنها أثبتت أن الختم كان بعد ردهم الحق وإصرارهم علىٰ الكفر.

[١١] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المنافقين إذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض بنشر الكفر والمعاصي، ردُّوا: بأنهم يريدون الإصلاح والخير.

[١٢] ولذلك فضحهم الله، وأخبر أنهم هم المفسدون، ولكنهم لا يَحُسُّون أنهم أهل الفساد حقيقة بسبب جهلهم وعنادهم.

[١٣] وكذلك إذا قيل لهؤلاء المنافقين: آمنوا كما آمن الصحابة رضي الله عنهم بالنبي ﷺ إيمانًا حقيقيًّا؛ جادلوا وقالوا: كيف نفعل مثل فعل هؤلاء الجهلاء ضعاف العقول؟؛ فرد الله عليهم مبينًا أنهم هم الجهلاء والسفهاء، ولكنهم لا يعلمون سوء ما فعلوه وقبيح ما ارتكبوه من العناد والكفر والضلال.

[١٤] ثم أخبر جل وعلا أن المنافقين إذا قابلوا المؤمنين واختلطوا بهم أظهروا لهم الإيمان؛ فإذا رجعوا إلىٰ رؤسائهم في الكفر قالوا: نحن معكم قلبًا وقالبًا، وإنما كنَّا نستخفُّ بالمؤمنين ونسخر منهم.

[١٥] ثم بين سبحانه أنه جزاءً لهم علىٰ استهزائهم وسخريتهم بعباد الله المؤمنين فإنه يستهزئ بهم؛ فيمهلهم في الدنيا ليزدادوا ضلالًا إلىٰ ضلالهم، ويتخبطون حيارىٰ لا يدري أحدهم ما يفعل.

والاستهزاء المذكور في هذه الآية، وكذلك المكر في قوله: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنفال:٣٠]، وما شابه ذلك؛ هذه أسماء لكل منها وجهين: وجه سَيِّئ وآخر حسن؛ فلا يصح أن تذكر بالنسبة لله إلا مقيدة؛ حتىٰ لا يتطرق إلىٰ الذهن الوجه السيئ؛ فيقال في الاستهزاء: إنه يستهزئ بالمجرمين المستهزئين بالله وآياته ورسوله، ويقال في المكر: أنه يمكر بصدق وخير بالماكرين.

[١٦] ثم بين جل وعلا سبب خسران هؤلاء المنافقين وشقائهم؛ فأخبر أنهم استبدلوا الضلالة بالهدىٰ والكفر بالإيمان؛ فلم يربحوا في تجارتهم، ولم يكونوا من المهتدين، وهذا هو الخسران المبين.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ
بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ
الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ
يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ
الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

[١٧] شبه جل وعلا حال قوم من المنافقين بحال من كان في ظلمة شديدة، ثم طلب من يوقد له نارًا يستدفئ ويستضيء بها؛ فلما سطعت وأنارت ما حوله واطمأن واستأنس، أطفأ الله عليه هذه النار؛ فبقي في ظلمة لا يرىٰ شيئًا، ولا يهتدي إلىٰ طريق ولا مخرج؛ فكذلك هؤلاء المنافقون الذين آمنوا ظاهرًا فَحُقِنَتْ دماؤهم وحفظت أموالهم، ولكنهم كفروا باطنًا فصاروا يتخبطون في ظلمة الكفر والضلال والنفاق والمعاصي؛ فلما فاجأهم الموت جاءتهم ظلمة القبر، وبعدها ظلمة النار.

[١٨] ثم بين سبحانه أن حال هؤلاء المنافقين كحال الصم الذين لا يسمعون الحق، وكالخُرس الذين لا ينطقون بالحق، وكالعمي الذين لا يبصرون الهدىٰ والنور؛ ولهذا السبب فإنهم لا يرجعون عن غيهم وضلالهم. قال عبدالله بن مسعود وبعض أصحابه رضي الله عنهم: (إن أناسًا دخلوا في الإسلام؛ فعلموا الحلال والحرام، وعاشوا في نور الإسلام، ثم نافقوا؛ فنزلت هذه الآية). وهي تنطبق علىٰ كل من شاكلهم.

[١٩] ثم شبه جل وعلا حال قوم آخرين من المنافقين بحال جماعة يمشون في صحراء؛ فأصابهم مطر شديد مصحوب بظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، مع رعد مخيف، وبرق يَخْطَفُ الأبصار، وصواعق محرقة، ومن شدة الرعب والخوف وضعوا أصابعهم في آذانهم خوفًا من الهلاك. وهكذا المنافقون فإن في قلوبهم ظلمات، ظلمة الكفر وظلمة الشك وظلمة النفاق؛ فلما سمعوا القرآن نفروا من تعاليمه، وسدُّوا آذانهم عن سماعه كفرًا وحقدًا، ونسوا أن الله محيط بهم وقادر عليهم، وأنه لا مهرب لهم منه.

[٢٠] ثم بين جل وعلا أن هذا البرق كاد من شدة لمَعَانه أن يذهب بأبصارهم؛ فكلما أضاء لهم الطريق لحظةً من الزمن مشوا في ضوئه، وإذا ذهب أظلم عليهم فيقفون في أماكنهم، ولو شاء سبحانه لسلب سمعَهم بقصف الرعد، وسلب أبصارهم بوميض البرق؛ فإنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وهكذا المنافقون ينتفعون بالإسلام ظاهرًا في الحياة الدنيا، ثم لهم العذاب الأليم الدائم في نار جهنم.

وهذه الآيات من الآية الثامنة إلىٰ الآية العشرين كلُّها جاءت في وصف المنافقين؛ لأنهم أسوأ من الكفار، فهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر؛ لذا كانوا أشد عقوبة من الكفار الأصليين.

[٢١] هذا أول نداء من الله للخلق جميعًا؛ حيث أمرهم سبحانه أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ فهو وحده المستحق للعبادة، وهذه العبادة هي المقصود الأعظم من الخلق، وأمرهم سبحانه بالعبادة؛ لأنه ربهم الذي أوجدهم وأوجد الذين من قبلهم من العدم، وأمرهم سبحانه بالعبادة؛ ليكونوا من المتقين، الذين يتقون سخط الله وعذابه، بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[٢٢] وكذلك أمر جل وعلا الناس بعبادته لأنه هو الذي مهد لهم الأرض ليستقروا عليها، وجعل لهم السماء محكمة البناء، وأنزل المطر من السحاب فأخرج لهم به من ألوان الثمرات وأنواع النباتات رزقًا لهم، ولهذا يجب عليهم أن لا يُشركوا مع الله أحدًا غيره، وهم يعلمون أن الله ليس له شريك ولا نظير لا في الخلق ولا في الرزق ولا في الألوهية والكمال.

[٢٣] ثم وجه سبحانه الخطاب لهؤلاء الكفار المعاندين الذين أشركوا معه غيره، فقال لهم: فإذا كنتم في شك من القرآن الذي أنزلناه علىٰ نبينا محمد ﷺ فأتوا بسورة تماثل سورة من سوره في البيان والبلاغة، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وفُصحائكم؛ إن كنتم صادقين أنكم تستطيعون التحدي.

[٢٤] ثم قال لهم سبحانه: فإذا عجزتم أيها الكفار عن هذا التحدي؛ ولا محالة أنكم ستعجزون؛ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة؛ وذلك بالإيمان بالله وتصديق نبيه ﷺ، واعلموا أن هذه النار أعدها الله للكافرين به وبرسوله ﷺ.

وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: يستدل بها أهل السنة والجماعة علىٰ أن الكفار ومن علىٰ شاكلتهم كالملاحدة والدهريين وغيرهم؛ مخلدون في النار؛ أما العصاة من المؤمنين فيخرجون منها بعد أن يأخذوا جزاءَهم ويُطَهَّروا. ويستدلون بها أيضًا علىٰ أن الجنة والنار مخلوقتان، وأنهما باقيتان أبدًا بإبقاء الله لهما.

ويقال: إن هذه الآية من آيات الإعجاز؛ حيث أن الذين نزلت عليهم لم يجرؤ أحد منهم علىٰ محاولة الإتيان بمثله.

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

[٢٥] يأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يبشر أهل الإيمان والعمل الصالح، أن الله أعد لهم جنات فيها حدائق وبساتين ذات أشجار وثمار جميلة؛ تجري الأنهار من تحت أشجارها ومساكنها، وكلما رزقهم الله نوعًا من أنواع الثمرات، ظنوا –قبل أن يذوقوه– أنه نفس النوع الذي أكلوه من قبل؛ لأنه يشبهه في المنظر، فهي ثمار متشابهة في الألوان مختلفة في الطعم.

ثم أخبر سبحانه أنه أعد لأهل الإيمان أيضًا زوجات جميلات مطهرات من كل دنس وعيب حسي: كالبول والعادة الشهرية، ومعنوي: كسوء الخلق والكذب وغيره، ومع هذا النعيم فهم دائمون لا يموتون ولا ينقطع عنهم نعيمهم.

[٢٦] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أنه لا يستحيي من الحق؛ فيضرب الأمثال بما شاء من خلقه، صغيرًا كان أو كبيرًا؛ كالبعوضة والذباب والنملة وغيرها، فالمؤمنون يعلمون حكمة الله في هذه الأمثال، وأنها صدق لا مِرْيَةَ فيها؛ فيزدادوا إيمانًا علىٰ إيمانهم.

وأما الكفار فَيَسْخَرُونَ ويعترضون ويتحيرون، ويقولون: ماذا يريد الله بهذا المثل؟، ويزدادوا كفرًا إلىٰ كفرهم، ولذلك يُضل الله بهذه الآيات أقوامًا فينكرونها ويَسْخَرُونَ منها؛ فيُطبع علىٰ قلوبهم، ويهدي بها آخرين فيؤمنون بها ويعملونَ بمقتضاها؛ ثم بين سبحانه أنه ما يضل بهذه الآيات إلا الفاسقين الخارجين عن طاعة الله، المعادين لله وَلِمَا جاءت به رسل الله.

[٢٧] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الفاسقين الخارجين عن طاعة الله هم الذين ينكُثون العهود والمواثيق التي بينهم وبين الله، وكذلك ينكثون العهود والمواثيق التي بينهم وبين الخلق، وذلك من بعد توكيدها علىٰ أنفسهم، وأيضًا يخالفون أمر الله بوصل الأرحام؛ فيقطعون الأرحام وينشرون الفساد والضلال في الأرض؛ ولذلك فإنهم خاسرون في الدنيا والآخرة.

[٢٨] ثم سأل سبحانه علىٰ سبيل الإنكار والاستغراب، فقال: كيف تجحدون أيها الكفار المشركون وحدانية الله الذي خلقكم من العدم، ووهبكم كل هذه النعم، ثم بعد ذلك يميتكم فتُقْبَرُوا، ثم يخرجكم من قبوركم للحساب؛ ثم إليه ترجعون؛ فيجازيكم علىٰ أعمالكم؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

[٢٩] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق لأجلكم جميع ما على الأرض من النعم للانتفاع والاستمتاع والاعتبار بها، كرامة ونعمة منه سبحانه للناس أجمعين، ثم قصد سبحانه إلى خلق السماوات فأبدعهن وجعلهن سبع سماوات، ثم بين أنه بكل شيء عليم؛ وأن علمه محيط شامل جميعَ خلقه سبحانه جل شأنه.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: هذه الآية تدل على أن جميع ما على الأرض مباح للإنسان، ما عدا ما نُصَّ على تحريمه.

الجُزْءُ الأَوَّلُ — سُورَةُ البَقَرَةِ

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

٦

[٣٠] واذكر يانبي الله يوم أن قال ربك للملائكة أنه سوف يجعل في الأرض خليفة لإعمارها وتنفيذ أحكامه ابتلاءً وتكليفًا لآدم عليه السلام وذريته، وأنه هو وذريته سوف يخلف بعضهم بعضًا في تعميرها، وأن الملائكة سيوكلون بحفظه وكتابة أعماله هو وذريته، وإخبار الله للملائكة بذلك تعظيمًا وإظهارًا لفضل آدم عليه السلام، ثم سأل الملائكة ربهم عز وجل قائلين: أتجعل ياربنا في الأرض من يفسد فيها بإراقة الدماء وفعل المعاصي والفجور، ونحن ننزهك عما لا يليق بجلالك، ونعظمك، ولا نعصيك أبدًا؟، وسؤالهم هذا يدل علىٰ أنهم رأوا خلقًا قبل آدم يسفكون الدماء، أو أن الله أخبرهم بذلك؛ كما ذكر ذلك بعض المفسرين. فرد سبحانه عليهم مبينًا لهم أنه يعلم ما لا يعلمون من سر الخلق وعواقب الأمور.

[٣١] ثم أخبر جل وعلا أنه علَّم آدم الأسماء كلها، أي: أقدر آدم علىٰ تسمية كل شيء باسمه المناسب، وجعل عِلْمَ الأسماء ضمن خِلْقته، بأن خلقه عارفًا عالمًا بذلك، وأعطاه مفاتيح العلوم واللغات والأسماء، ثم إنه سبحانه عرض المسمَّيات علىٰ الملائكة لاختبارهم إن كانوا صادقين في ظنهم أنهم أفضل من آدم وذريته.

[٣٢] فلما تبين للملائكة فضل آدم عليهم قالت: ياربنا إننا نقدسك ونتزهك من الاعتراض عليك ومخالفة أمرك، وليس لنا علم إلا ما علمتنا؛ فإنك أنت وحدك العليم الذي أحاط علمك بكل شيء، وأنت الحكيم في تدبير الأمور.

[٣٣] ثم أمر جلّ وعلا آدم أن يذكر للملائكة أسماء المسمَّيات لما عجزوا عن معرفتها ليُظهرَ فضلَه وشرفه، فلما أنبأ آدم عليه السلام الملائكة بالأسماء، حينها قال سبحانه للملائكة: ألم أخبركم أيها الملائكة أني أعلم ما خفي عنكم في السماوات والأرض، وأعلم كل ما تظهرونه وما تخفونه؟.

[٣٤] ثم أمر جلَّ وعلا الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تحية واحترام، إكرامًا وتعظيمًا له، فامتثل الملائكة أمر الله وسجدوا له، إلا إبليس فلم يسجد تكبرًا وعنادًا، ولذلك صار من الجاحدين العاصين لأمر الله.

وقد أخبر سبحانه أن إبليس من الجن وليس من الملائكة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف:٥٠]، وأَمَرَ جل وعلا إبليس بالسجود لآدم عليه السلام بأمر خاص به؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف:١٢]، وَذُكِرَ معهم لأنه أُمِرَ في نفس الوقت الذي أُمِرت فيه الملائكة بالسجود.

[٣٥] ثم أمر جلّ وعلا آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجه حواء في الجنة، ويتمتعا من ثمارها في أمن وأمان، ونهاهم عن أكل ثمرة شجرة عينها لهما ابتلاء وامتحانًا؛ حتىٰ لا يقعا في المعصية فيكونا من الظالمين بسبب عصيان الله سبحانه وتعالىٰ.

[٣٦] ثم بين سبحانه أن الشيطان زين لآدم وزوجه الأكل من الشجرة، وأخبرهما أن الأكل منها يكسبهما الخلود في الجنة، وأقسم أنه ناصح ومخلص لهما، فلم يزل الشيطان يوسوس لهما حتىٰ حملهما علىٰ الخطيئة التي أزالتهما وأخرجتهما من الجنة ونعيمها، ولهذا أمر سبحانه آدم وحواء وإبليس بالنزول إلىٰ الأرض، وجعل بعضهم يعادي بعضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[فاطر:٦]، ثم أخبرهما سبحانه وتعالىٰ أنه جعل الأرض سكنًا ومعاشًا لآدم وذريته حتىٰ يأذن الله بقيام الساعة وانتهاء الآجال، قال تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[طه:٥٥].

[٣٧] ثم أخبر جل وعلا أن آدم تلقىٰ كلمات التوبة والاستغفار التي ألهمه الله إياها، فتاب الله عليه وغفر له، إنه سبحانه كثير القبول لتوبة من تاب وأناب من عبادة، وواسع الرحمة بهم.

قال أكثر المفسرين: الكلمات التي ألهمها الله لآدم المذكورة في هذه الآية هي في قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[الأعراف:٢٣].



....

....

[٣٨] كرر جل وعلا أمره لآدم وحواء بالنزول إلىٰ الأرض، وبين لهما أنه سيأتيهما وذريتهما ما فيه هدايتهم إلىٰ الحق، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ فمن آمن واتبع هدىٰ الله فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

[٣٩] ثم بين سبحانه أن الذين جحدوا وكذبوا بالحق فأولئك جزاؤهم نار جهنم خالدين فيها لا يخرجون منها أبدًا.

[٤٠] ثم نادي سبحانه وتعالىٰ بني إسرائيل وهم ذرية يعقوب عليه السلام وأمرهم أن يتذكروا نعم الله الكثيرة عليهم، وذلك بالشكر والطاعة، كما أمرهم سبحانه أن يتموا وصية الله لهم، وهي: الإيمان بالله وبكتبه ورسله والعمل بشرائعه؛ فإن فعلوا ذلك نصرهم وأعزهم في الدنيا، وأكرمهم في الآخرة؛ ثم أمرهم عز وجل أن لا يخافوا أحدًا سواه.

وإسرائيل هو: يعقوب حفيد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وهو أبو الأسباط يوسف وإخوانه عليهم السلام أجمعين.

[٤١] ثم أمر المولىٰ عز وجل بني إسرائيل أن يؤمنوا بالقرآن الذي أُنزل علىٰ محمد ﷺ الموافق لصحيح التوراة، وحذرهم أن يكونوا أول من يكفر بالرسول ﷺ والقرآن، وحذرهم أيضًا من أن يستبدلوا بآيات الله ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا الزائل، ثم أمرهم أن يكونوا من المتقين وذلك بطاعة الله وترك معصيته.

[٤٢] ثم حذَّر سبحانه بني إسرائيل أن يخلطوا الحق بالباطل، وحذَّرهم أيضًا أن يكتموا الحق الذي ظهر وبانت أدلته عندهم، وهو الإيمان بنبوة محمد ﷺ وصدق رسالته، وهم يعلمون من الكتب التي بين أيديهم أنه رسول من عند الله.

[٤٣] ثم أمر جل وعلا بني إسرائيل أن يقيموا الصلاة كما جاء بها النبي ﷺ، وأن يؤتوا الزكاة المفروضة علىٰ الوجه المشروع، وأن يشهدوا الصلاة جماعة مع المسلمين.

[٤٤] ثم خاطب عز وجل بني إسرائيل علىٰ سبيل التوبيخ؛ فقال لهم: أتأمرون الناس بالإيمان بالله ورسله وإقام الصلاة وغيرها من أعمال الخير، وتتركون أنفسكم فلا تأمرونها بذلك؛ في حين أنكم تقرؤون التوراة التي فيها الحجج والبراهين الواضحة البينة، أفلا تستعملون عقولكم استعمالًا صحيحًا يدعوكم إلىٰ الفضائل ويزجركم عن الرذائل.

[٤٥] ثم أمر جل وعلا بني إسرائيل بالاستعانة بالصبر بجميع أنواعه في أمورهم كلها، وكذلك المداومة علىٰ الصلاة التي تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، وبين سبحانه أن الصلاة من الأعمال الشاقة إلا علىٰ الخاشعين.

[٤٦] ثم بين سبحانه صفة هؤلاء الخاشعين أنهم هم الذين يخشون

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

الله ويرجون ما عنده، ويستيقنون أنهم ملاقو ربهم، وأنهم إليه راجعون يوم القيامة للحساب والجزاء.

[٤٧] ثم كرر جل وعلا النداء لبني إسرائيل وأمرهم أن يتذكروا نعم الله الكثيرة عليهم، وذلك بالشكر والطاعة، ومن النعم أن الله سبحانه فضل آباءهم أتباع موسىٰ عليه السلام علىٰ عالِمِي زَمَانِهم؛ لأن أتباعَ كل نبي مفضَّلون علىٰ عالِمِي زمانهم.

ولا شك أن تفضيل الآباء شرف للأبناء، وتفضيل الله لهم كان بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأنه جعل منهم سادة وملوكًا.

وقوله سبحانه هذا لبني إسرائيل جاء بعد اتخاذهم العجل وعبادته تبكيتًا ولومًا.

[٤٨] ثم أمر جل وعلا بني إسرائيل أن يخافوا يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يُغني فيه أحد عن أحد شيئًا، ولا يقبل الله في ذلك اليوم أن يشفع أحد في الكافرين، ولا يقبل سبحانه من كافر فدية، ولا يملك أحد في هذا اليوم أن يُعِينَ كافرًا، أو ينصره، أو ينجيه، من عذاب الله الشديد.


....
....
....

وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ
مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ
وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ
أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ
ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ
خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ
جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم
مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ
ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ
مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾

[٤٩] يذكِّر جل وعلا بني إسرائيل بنعمته عليهم يوم أن أنقذهم من بطش فرعون وأتباعه، الذين أذاقوهم كل ألوان العذاب، ومن ذلك ذبح كل مولود ذكر، وترك كل مولود أنثىٰ لاستخدامها للخدمة في بيوت آل فرعون، واعلموا أن فيما حل بآبائكم من العذاب هو اختبار وامتحان عظيم لكم من الله، لتمييز المؤمن من الكافر، والبر من الفاجر.

[٥٠] ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمته عليهم يوم أن أنقذهم من فرعون وجنوده بتجميد البحر حتىٰ صار طُرُقًا يابسة؛ فأنجاهم وأغرق فرعون وجنوده أمام أعينهم.

[٥١] ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمته عليهم يوم أن ذهب موسىٰ للموعد الذي حدده الله والذي كان بعد إغراق فرعون وجنوده بأربعين ليلة لكي يُنزِّل عليه التوراة التي فيها الهدىٰ والنور لكم، ولكنكم كفرتم باتخاذكم العجل معبودًا من دون الله بعد ذهاب موسىٰ، وقد ظلمتم أنفسكم بهذه الجريمة الشنيعة. [٥٢] ثم بين سبحانه أنه مع كل هذه الجرائم التي وقعوا فيها فإن الله عفا عنهم وقبل توبتهم؛ لعلهم يشكرونه علىٰ هذه النعمة. [٥٣] ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمته عليهم يوم أن أكرم موسىٰ بالتوراة الفارقة بين الحق والباطل؛ ليهتدوا ويسترشدوا بها من الضلال.

[٥٤]ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمته عليهم يوم أن قال موسىٰ لهم: لقد ظلمتم أنفسكم بعبادة العجل، ولذا يجب عليكم أن تتوبوا إلىٰ ربكم، وذلك بأن يقتل بعضكم بعضًا تطهيرًا لكم من هذا الذنب؛ حيث كان تكفير الذنب في بني إسرائيل أن يقتل البريءُ منهم المذنبَ، وهذا من الآصار التي رفعت عن أمة محمد ﷺ؛ حيث جعل الله لهذه الأمة التوبة كفارةً للذنب مهما كبر، مع القِصَاص من المعتدي؛ إلا إذا عفىٰ المعتدىٰ عليه، واعلموا أن طاعتكم وامتثالكم لأمر الله خير لكم؛ لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، ولذلك تاب الله عليكم ورحمكم لمَّا امتثلتم أوامر الله، واعلموا أن الله هو التواب الذي يقبل توبة من تاب من عباده، الرحيم بهم. [٥٥] ثم ذكَّرهم سبحانه بنعمته عليهم يوم أن قال أولئك السبعين الذين اختارهم موسىٰ: لن نصدق برسالتك ياموسىٰ حتىٰ نرىٰ الله عيانًا، وقد قالوا ذلك تعجيزًا وليس شوقًا لرؤية الله، ولشناعة هذا المطلب أنزل الله عليهم نارًا من السماء رأوها بأعينهم؛ فأهلكتهم جميعًا.

[٥٦] ثم أخبر سبحانه أنه أحياهم بعد ذلك تحقيقًا لرغبة موسىٰ وشفاعته؛ ليعلموا عظيم نعمة الله عليهم فيشكروه.

في الآية السابقة سأل بنو إسرائيل موسىٰ رؤية الله فأنزل الله عليهم صاعقة من السماء قتلتهم وأحرقتهم.

وفي آية أخرىٰ سأل موسىٰ رؤية ربه ولم ينزل عليه شيئًا؛ بل وضَّح الله له أن رؤيته في الدنيا لا يطيقها البشر، قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾ [الأعراف:١٤٣]؛ فموسىٰ لما رأىٰ انهيار الجبل صعق، ولكن صعقته كانت غيبوبة، ولم يمت بدليل قوله: ﴿**فَلَمَّآ أَفَاقَ**﴾. **والفرق بين السؤالين**: أن سؤال موسىٰ هو سؤال حب واشتياق، أما سؤالهم فهو سؤال تعنت وتعجيز.

وفي هذه السورة – أي: سورة البقرة – أرىٰ الله عباده قدرته علىٰ إحياء الموتىٰ في أربعة مواضع، هذه **إحداها**. **والموضع الثاني**: القتيل الذي تَمَارَوْا في قتله؛ فأمر الله موسىٰ بأخذ عضو من بقرة مذبوحة فيُضرب به الميت، فلما ضربه انتصب قائمًا، وأخبرهم بالذي قتله، وذلك في الآيتين (٧٢ – ٧٣). **والموضع الثالث**: قصة إبراهيم مع الطير التي مزقها إربًا، ثم وزعها علىٰ الجبال، ثم أمر الله نبيه إبراهيم بدعوتهن فأتته تسعىٰ، وذلك في الآية (٢٦٠). **والموضع الرابع**: الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت؛ فأماتهم الله ثم أحياهم، وذلك في الآية (٢٤٣).

[٥٧] ثم ذكر جل وعلا نعمته علىٰ بني إسرائيل حين تاهوا في الأرض؛ حيث جعل السحاب عليهم كالمظلة تقيهم حرَّ الشمس، وأنزل عليهم المنَّ الذي يشبه العسل، والسلوىٰ وهو طير لذيذ اللحم يشبه السُّماني؛ وقال الله لهم: كلوا مما رزقناكم من هذه الطيبات، ولكنهم لم يشكروا نعم الله، ولم يمتثلوا أوامره؛ بل استمروا علىٰ كفرهم ومعاصيهم، فبين الله بأنهم لم يضروه بكفرهم ومعاصيهم التي ارتكبوها، ولكنهم أضروا أنفسهم؛ لأنهم عرَّضوها لغضب الله وعذابه.

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

[٥٨] ومن نعم الله عليكم يابني إسرائيل أنه أمركم بدخول مدينة بيت المقدس ليكون لكم وطنًا ومسكنًا، وأمركم أن تأكلوا من خيراتها وثمارها هنيئًا مريئًا، وأمركم حين دخولكم أن تكونوا خاشعين خاضعين شكرًا لله، داعين ربكم أن يَحُطَّ عنكم خطاياكم ويغفر ذنوبكم؛ فإنه جلّ وعلا يغفر لمن تاب وأناب، ويزيد المحسنين فضلًا منه وكرمًا علىٰ إحسانهم.

[٥٩] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الظالمين السفهاء من بني إسرائيل حرَّفوا كلام الله وغيَّروا وبدَّلوا حسب أهوائهم؛ حيث دخلوا يزحفون علىٰ إساتهم، وقالوا: حبة في شعيرة، مستهزئين بدين الله؛ فعاقب سبحانه هؤلاء الظالمين بأن أنزل عليهم عذابًا من السماء نكَّل بهم جزاءَ فعلهم وفسقهم وبغيهم.

[٦٠] وتذكروا يابني إسرائيل نعمة الله عليكم حين كنتم عِطَاشًا في التيه، فطلب موسىٰ من الله أن يسقيكم ماءً لتشربوا منه، فأمره سبحانه أن يضرب الحجر، فانفجر اثني عشر عينًا، لكل سبط منكم عينٌ معلومة يشرب منها، وقال لكم سبحانه: كلوا واشربوا من رزق الله ولا تُخرِّبوا في الأرض بالبغي والإفساد فيها.

وقوله: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾، يعني: خرج الماء منها بكثرة.

وأما قوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ [الأعراف:١٦٠]، يعني: خرج الماء منها بقلة.

والمعنىٰ: أن عيون الماء لمَّا كانت قوية عبَّر الله عنها بالانفجار، ثم بعد زمن فَتَرَتْ هذه العيون، وقل ماؤها؛ بسبب كثرة ذنوبهم وعنادهم؛ فعبَّر الله عنها بالانبجاس.

[٦١] ثم ذكَّر جل وعلا بني إسرائيل بنعمته عليهم يوم أن هيأ لهم أحسن الطعام، ولكنهم تضجروا وأصابهم الملل؛ فقالوا: ياموسىٰ لن نصبر علىٰ نوع واحد من الطعام؛ مع أنه كان طعامًا جامعًا لعناصر التغذية، وطلبوا منه أن يدعُوَ الله أن يخرج لهم من الأرض بعض النباتات مثل: الخيار والثوم والعدس والبصل؛ فاستنكر موسىٰ طلبهم، وقال لهم: كيف تستبدلون هذه الأطعمة الرديئة بالأطعمة الجيدة النافعة التي اختارها الله لكم؟!. لذا عليكم أن تنتقلوا من أرضكم هذه إلىٰ أي بلدة أخرىٰ لتجدوا فيها ما تحبون وتشتهون من الأطعمة في الحقول والأسواق.

فلما انتقلوا تبيَّن لهم أنهم قدّموا اختيارهم وشهواتهم علىٰ اختيار الله، لذلك ضُربت عليهم الذلة والمسكنة ولزمتهم، واستحقوا غضب الله عليهم بسبب ارتكابهم الكثير من الجرائم والمعاصي، ومن ذلك: كفرهم بآيات الله وتحريفُها، وقتلهم الأنبياء ظلمًا وعدوانًا؛ وكان هذا العقاب الشديد الذي أصابهم؛ من غضب الله عليهم، ومن الذلة والمسكنة؛ بسبب عصيانهم وتجاوزهم حدود الله.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

[٦٢] يخبر جلّ وعلا أن الذين آمنوا من هذه الأمة - أمة محمد ﷺ -، والذين آمنوا من الأمم السابقة؛ من اليهود أتباع موسىٰ، ومن النصارىٰ أتباع عيسىٰ، ومن الصابئين الذين كانوا علىٰ دين إبراهيم عليه السلام؛ بأنَّ من آمن من هؤلاء بالله وبيوم القيامة وصدَّقوا رسلهم، وعملوا الصالحات؛ فإن لهم الأجر العظيم عند ربهم، ولا خوفٌ عليهم مما ينتظرهم يوم الجزاء والحساب، ولا هم يحزنون علىٰ ما فاتهم من أمور الدنيا.

وهذه الآية في أهل الكتاب والصابئة الذين كانوا قبل بعثة محمد ﷺ، وأما بعد بعثته ﷺ فلا يقبل الله إلا دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

[٦٣] ثم ذكَّر سبحانه وتعالىٰ بني إسرائيل بما أخذه عليهم من العهد والميثاق بالعمل بما شرعه الله لهم في التوراة والإيمان برسله، ثم خوّفهم برفع جبل الطور حتىٰ صار كالمِظَلَّة فوق رؤوسهم، وأمرهم بالجد والاجتهاد في أخذ التوراة وإلا أسقط عليهم الجبل؛ وأمرهم أن يتمسكوا بالتوراة قولًا وعملًا، وأن يحفظوها ويعملوا بما فيها، لعلهم يتقون عذاب الله وسخطه.

[٦٤] ثم بين جل وعلا أن بني إسرائيل نكثوا العهد والميثاق الذي أخذ عليهم، وخالفوا أمر الله وعصَوْه، ولولا فضله سبحانه عليهم ورحمته بأن أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة لصاروا من الخاسرين في الدنيا والآخرة، ونسوا أن الذي خوفهم برفع الجبل فوق رؤوسهم قادر علىٰ أن يعيد ذلك عليهم مرة أخرىٰ.

[٦٥] ثم أخبر جل وعلا عن قصة أهل أَيْلَةَ فقال سبحانه: ولقد عرفتم يامعشر اليهود قصة أهل أَيْلَةَ الذين عصوا أمر الله واحتالوا لاصطياد السمك يوم السبت الذي حُرِّم عليهم الصيد فيه؛ حيث احتالوا فوضعوا الشباك وحفروا البرك للسمك قبل يوم السبت، وفي يوم السبت سقط السمك في الشباك فتركوه حتىٰ جاء يوم الأحد فاصطادوه، فعاقبهم الله علىٰ فعلهم بأن مسخهم قردة منبوذين مقبوحين.

[٦٦] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل القرية التي حلّت بها هذه العقوبة عِظَةً وعبرةً لمن شاهدها وسمع بها، ولمن يأتي بعدهم ممن أراد أن يفعل مثل هذا الفعل، وهي أيضًا موعظة وتذكرة للصالحين المتقين والبشر أجمعين علىٰ مر العصور والأزمان.

[٦٧] وذكَّر المولىٰ سبحانه وتعالىٰ بني إسرائيل يوم أن قتلوا قتيلًا واختلفوا في قاتله، وكادت أن تقع بينهم فتنة، فاختصموا إلىٰ موسىٰ عليه السلام، فقال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فكان الواجب عليهم المبادرة بامتثال الأمر وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم ظنوا أنها سخرية منه فقالوا: أتهزأ وتسخر منا ياموسىٰ؟، فردَّ عليهم موسىٰ قائلًا: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين؛ فإن الجاهل هو الذي يستهزئ بالناس ويسخر منهم، أما العقلاء فلا يقع منهم ذلك؛ فكيف يقع من الأنبياء والرسل المعصومين.

[٦٨] فقال بنو إسرائيل: ياموسىٰ ادع لنا ربك أن يبين لنا أوصاف هذه البقرة، فقال لهم موسىٰ: إنها بقرة ليست كبيرة ولا صغيرة، أي: وسط بين ذلك، فَبَادِرُوا إلىٰ ما أمرتكم به، واتركوا التشدُّد والتعنت في كثرة الأوصاف، ولكنهم شدَّدوا فشدد الله عليهم.

[٦٩] ثم قال بنو إسرائيل: ياموسىٰ ادع لنا ربك أن يبين لنا ما لون هذه البقرة؛ فقال لهم: إن الله يقول: إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة تُبهج وتَسُرَّ من ينظر إليها.

قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٧٦﴾

[٧٠] ثم قال بنو إسرائيل: ياموسىٰ ادع لنا ربك يوضح لنا شأن هذه البقرة؛ لأن البقر كثير، وقد اشتبه علينا ما تريد، وإنا إن شاء الله لنهتدي إلىٰ ما تريد فنذبحه.

[٧١] فقال لهم موسىٰ عليه السلام: إن الله يقول: إنها بقرة ليست مذللة للعمل في حراثة الأرض للزراعة، وليست معدةً للسَّقي، خالية من العيوب، ولها لون واحد فقط.

وبعد أن سمعوا هذه المواصفات قالوا: الآن جئت بالحق فقد عرفنا هذه البقرة، وهذا يدل علىٰ مدىٰ صلفهم وغطرستهم؛ وإلا فهل أتىٰ عليه السلام بغير الحق قبل ذلك؟! ثم بحثوا عن هذه البقرة بهذه الصفات حتىٰ تحصَّلوا عليها وذبحوها، وكادوا أن لا يجدوا بقرة بهذه الصفات بسبب تشددهم وتعنتهم وعنادهم.

[٧٢] ثم ذكَّر جل وعلا بني إسرائيل يوم أن قتلوا نفسًا معصومة واختلفوا في القاتل، كل يدفع عن نفسه تهمة القتل، ولكن الله سوف يكشف ما كتموا من أمر القاتل.

[٧٣] فقال موسىٰ لبني إسرائيل: خذوا عضوًا من أعضاء هذه البقرة التي ذبحتموها، واضربوا به القتيل؛ فضربوه فأحياه الله وأخبر بمن قتله، ثم أخبر سبحانه أنه كما أحيا هذا الميت أمام أعينكم، فسوف يحيي الموتىٰ يوم القيامة؛ لتروا كمال قدرة الله تعالىٰ لعلكم تراجعون عقولكم، فتمتنعون وتنزجرون عن معاصيه.

[٧٤] وبعد هذه الآيات الباهرة والمعجزات الخارقة التي حدثت معكم يابني إسرائيل، لم تنتفعوا ولم تمتثلوا أوامر الله؛ بل غَلُظَتْ قُلُوبكم واشْتَدَّت بعد كل هذه النعم العظيمة الكثيرة؛ حتىٰ صارت قاسية كالحجارة أو أشد قسوة؛ بل إن من الحجارة ما هو ألين من قلوبكم؛ حيث إن منها ما يتفجر فيصبُّ منها الأنهار، ومنها ما يتشقق فيخرج منه الماء كما هو مشاهد في كثير من البلدان، ومنها ما يسقط من أعالي الجبال خشية ورهبة منه جل وعلا، واعلموا أن الله ليس بغافل عن أفعالكم؛ بل هو عالم بها حافظ لها، وسيجازيكم عنها يوم القيامة يوم الحساب والجزاء.

[٧٥] ثم خاطب جل وعلا المؤمنين فقال لهم: هل تطمعون أيها المؤمنون أن يؤمن اليهود بكتابكم ويتبعوا نبيكم؟! وقد علمتم كيف كان علماؤهم يسمعون كلام الله من التوراة ثم يحرفونه بعد أن عرفوه، وهم يعلمون أنهم يحرفون كلام الله علىٰ غير مراده.

[٧٦] ثم ذكر جل وعلا حال المنافقين من اليهود الذين إذا لقوا المؤمنين قالوا لهم بلسانهم دون أن تؤمن قلوبهم: لقد آمنا بدينكم ورسولكم المبشَّر به في التوراة، فإذا خلا هؤلاء المنافقون من اليهود مع بعضهم البعض قالوا لهم مستنكرين: أتظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم بما بيَّن الله لكم في التوراة من أمر محمد فيكون ذلك حجة علينا عند الله يوم القيامة، أليست لكم عقول تبين لكم خطورة ما تفعلون، وما يكون فيه ضرر عليكم، وتمنعكم من أن تحدِّثوا المؤمنين بما يقيم لهم الحجة عليكم يوم القيامة؟.

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

١٢

[٧٧] ثم وبخ جلَّ وعلا هؤلاء اليهود علىٰ جهلهم بحقيقة علمه، فقال سبحانه: ألا يعلم هؤلاء اليهود المنافقون من بني إسرائيل أن الله يعلم ما يخفونه من الكفر والحقد علىٰ المؤمنين، وما يظهرونه من الإيمان الكاذب الذي لا حقيقة له؟!

[٧٨] ثم أخبر جل وعلا أن من اليهود جماعة عوامٌ مقلدون، وليسوا من أهل العلم، ولا يعلمون من التوراة إلا التلاوة فقط، ولا يفهمون شيئًا مما يتلونه، وما عندهم إلا ظنون وتقاليد وأكاذيب فاسدة.

[٧٩] ثم توعد جلّ وعلا بالهلاك والعذاب أولئك الذين يكتبون كلامًا من عند أنفسهم ثم يقولون: هذا من عند الله كذبًا وزورًا، وهدفهم من هذا الفعل المشين أن يأخذوا مقابل ذلك شيئًا من عرض الدنيا الفاني، ولا شك أن الأثمان من أولها إلىٰ آخرها مهما كانت كبيرة فهي يسيرة بالنسبة لما عند الله في الآخرة من الثواب والعقاب، ثم عاد سبحانه وتوعدهم بالهلاك والعذاب بسبب ما كتبت أيديهم من الكذب والتزوير، وبسبب ما أكلوا من أموال الناس بالباطل.

[٨٠] ومع كل هذه الأفعال القبيحة فإن اليهود قبحهم الله يزكّون أنفسهم ويقولون: لن تمسنا النار إلا الأيام القليلة التي عبدنا فيها العجل، فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء اليهود علىٰ سبيل الإنكار: هل عندكم عهد من الله بهذا؟! فإن كان عندكم عهد بذلك فإن الله لا يخلف العهد، أم أنكم مُتقوِّلون علىٰ الله فتكذبون وتفترون عليه؟! وهذا هو الواقع، والحال أنهم كاذبون وآثمون وفي النار خالدون.

[٨١] يخبر جلّ وعلا أن من ارتكب الآثام وأحاطت به حتىٰ أوصلته إلىٰ الشرك، واستولت عليه الذنوب والمعاصي من جميع الجوانب؛ فأولئك هم المشركون والكفار، وهم أصحاب النار الخالدين مخلدين فيها، لا يخرجون منها أبدًا؛ بسبب ما اكتسبوا من الشرك والكبائر.

[٨٢] ثم أخبر سبحانه أن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الصالحات بإخلاص لوجه الله متبعين فيها سنة رسل الله، فأولئك هم أصحاب الجنة خالدين مخلدين فيها أبدًا بفضل الله ورحمته.

[٨٣] ثم ذكَّر سبحانه بني إسرائيل يوم أن أخذ عليهم العهود والمواثيق أن لا يعبدوا إلا الله وحده لا شريك له، وأمرهم ببر الوالدين والإحسان إليهما، وبصلة الأرحام، والإحسان إلىٰ اليتامىٰ الذين فقدوا آباءهم وهم دون سن البلوغ، والإحسان إلىٰ المحتاجين من المساكين، وأن يقولوا للناس حُسنًا؛ كبذل السلام والابتسامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك من أعمال الخير، وأمرهم أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ولكنهم أعرضوا ونقضوا العهود والمواثيق، واستمروا علىٰ إعراضهم ونقضهم للعهود إلا قليلًا منهم عصمهم الله وثبتهم علىٰ الحق.

[٨٤] ثم ذكَّر سبحانه بني إسرائيل يوم أن أخذ عليهم المواثيق والعهود الملزمة أن لا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يُخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، ثم اعترفوا بهذه المواثيق وشهدوا علىٰ أنفسهم بالالتزام والوفاء بها.

[٨٥] ثم وجه جل وعلا الخطاب لبني إسرائيل الموجودين في عهد النبي ﷺ؛ حيث أخبر أنهم خالفوا العهود والمواثيق التي أقروا بها وشهدوا عليها، وأنهم الآن يقتل بعضهم بعضًا؛ ويخرجون بعضهم من ديارهم، وهذا الأمر وقع بين طوائف اليهود وهم: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وذلك قبل بعثة النبي ﷺ؛ حيث إنهم لما نزلوا المدينة وجدوا الأوس والخزرج يقتتلون؛ فقامت كل فرقة من فرق اليهود وحالفت فرقة من أهل المدينة، وكانوا إذا اقتتلوا تظاهرت كل فرقة من اليهود وأعانت حليفها من أهل المدينة بالإثم والعدوان، فيقتل اليهوديُّ اليهوديَّ ويخرجه من دياره، وبعد أن تضع الحرب أوزارها فدىٰ بعضهم بعضًا، وهم يعلمون أصلًا أن إخراجهم من ديارهم كان محرمًا.

ثم وبخهم سبحانه وأنكر عليهم؛ فقال لهم: أفتؤمنون ببعض ما شرعه الله في التوراة، وهو فداء الأسير، وتكفرون ببعض، وهو: سفك الدماء، وإخراج بعضكم بعضًا.

فاعلموا يابني إسرائيل أن عقوبة من يخالف أوامر الله فإن له الخزي والعار في الحياة الدنيا، ويوم القيامة له أشد العذاب وأعظمه، وما الله بغافل عن أعمالكم الشنيعة، وستلقون جزاء ما كنتم تعملون.

[٨٦] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين كفروا من بني إسرائيل وغيرهم الذين استحبوا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة لن يخفَّف عنهم العذاب، وليس لهم ناصر ينصرهم من عذاب الله يوم القيامة.

[٨٧] ثم امتن جلّ وعلا علىٰ بني إسرائيل أن أعطىٰ موسىٰ عليه السلام التوراة، وأرسل من بعده رسلًا يَتْبَعُ بعضهم بعضًا، وكذلك أعطىٰ عيسىٰ بن مريم عليه السلام المعجزات الواضحات؛ كإحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه والأبرص، وأيده بالروح القدس، وهو جبريل عليه السلام.

وسُمِّي روحًا: لأنه يحمل الرسالات للأنبياء التي فيها حياة القلوب.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

ومع ذلك كلما جاءكم يابني إسرائيل رسول من عند الله لا يوافق أهواءكم، استعليتم عليه، وكذبتم بما جاء به من الهدىٰ عنادًا وتكبرًا؛ بل وصل بكم الأمر أن قتلتم بعض الأنبياء ظلمًا وعدوانًا.

[٨٨] ثم قال بنو إسرائيل للرسول ﷺ معتذرين له بأعذار باطلة كاذبة: يامحمد قلوبنا مغطاة بأغشية فلا نفهم ما تقول، يظنون أن هذا – بزعمهم – عذر لهم عن قبول الدعوة والإيمان بالله تعالىٰ، ولكن الله جلّ في علاه لعنهم، بأن طردهم من رحمته بسبب جحودهم وكفرهم وضلالهم، وكان هذا اللعن سببًا في أنه لم يؤمن منهم إلا نفرٌ قليلٌ؛ كعبدالله بن سلام، وأبي بن كعب، ووهب بن منبه.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)

[٨٩] ثم أخبر سبحانه أن بني إسرائيل لما جاءهم القرآن المُنزل بحقٍ علىٰ محمد ﷺ مصدقًا لما معهم من التوراة، وكانوا قبل رسالته يستنصرون ويفتخرون به، ويتوعدون مشركي العرب بخروجه، وأنهم سوف يقاتلونهم معه، ولكن لما بُعِثَ ﷺ وعرفوا صفاته وصدقه، كفروا به حسدًا وبغضًا؛ لأنه لم يبعث من اليهود، ولهذا استحقوا لعنة الله؛ فلعنة الله علىٰ كل من كفر بمحمد ﷺ، وكفر بما أنزل عليه من القرآن الكريم.

[٩٠] ثم وبخ جل وعلا بني إسرائيل لأنهم باعوا أنفسهم بثمن بخس؛ فبئس ما اختاروا لأنفسهم؛ حيث اختاروا الكفر علىٰ الإيمان ظلمًا وحسدًا بأن القرآن نزل علىٰ محمد ﷺ، وقد كرهوا أن ينزل الله الوحي علىٰ غيرهم.

ثم بين سبحانه أنه يُنزل فضله علىٰ من يشاء من عباده، فالأمر أَمْرُهُ والخلق خَلْقُهُ، لكنَّ كبرياءهم حملهم علىٰ أن يحسدوا الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله، ولذا استحقوا غضب الله، بسبب حسدهم وجحودهم للنبي ﷺ بعد غضب الله عليهم، بسبب تحريفهم التوراة وكفرهم بعيسىٰ عليه السلام.

ثم بين سبحانه أن للكافرين من بني إسرائيل خصوصًا، وكل من كفر بآيات الله عمومًا؛ عذابًا أليمًا يُذلهم ويخزيهم يوم القيامة.

[٩١] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود إذا أُمِرَوا بالإيمان بالقرآن الذي أُنزل علىٰ محمد ﷺ، ردُّوا قائلين: نحن لا نؤمن إلا بما أنزل الله علينا في التوراة، ونكفر بكل ما أنزل الله من الكتب السماوية، وخاصة القرآن؛ مع أن القرآن حق ومصدِّق لما جاء في التوراة.

ثم أمر عز وجل نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم لن تؤمنوا إلا بما أُنزل الله عليكم؛ فَلِمَ قتلتم أنبياء الله من قبل وهم منكم؟!

[٩٢] ثم ذكَّرهم جل وعلا أن موسىٰ عليه السلام جاءهم بالمعجزات وبالأدلة الواضحات المبينة، ومع ذلك فقد عبدوا العجل بعد أن ذهب موسىٰ إلىٰ ميقات ربه؛ ولهذا كانوا ظالمين متجاوزين لحدود الله.

[٩٣] ثم ذكَّر سبحانه بني إسرائيل عندما أخذ عليهم العهود والمواثيق ولكنهم نقضوها؛ فرفع سبحانه فوقهم الطور كأنه سحابة ليسقطه عليهم إن عصوه سبحانه، وليكون دليلًا علىٰ عظيم قدرته جل في علاه لعلهم يخافون ويؤمنون، ثم قال لهم جل وعلا: خذوا التوراة بجد وصدق، واسمعوا وأطيعوا، فكان جوابهم: سمعنا بالآذان وكذبنا بالجَنَان والأركان؛ لأن قلوبهم شُغفت بعبادة العجل، بسبب كفرهم وجحودهم.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المجرمين: قبحًا لهذا الإيمان الذي يأمركم بالكفر والضلال؛ إن كنتم صادقين بما أنزل الله عليكم.

قال الشيخ المفسر محمد متولي الشعراوي: إنهم قالوا: (سمعنا وأطعنا)، ولكنهم لم يطيعوا، فحكىٰ الله فعلهم وهو العصيان وَتَرَكَ قولهم: (أطعنا).

....

....

....

....

....

....

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

١٥

[٩٤-٩٥] أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لليهود: إن كانت الجنة خالصة لكم من دون الناس فتمنوا الموت لتدخلوها إن كنتم صادقين في دعواكم، ولكن الله بين أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، بسبب أفعالهم السيئة ودعواهم الكاذبة.

ولا شك أن الموت مكروه؛ بل هو مصيبة، قال تعالىٰ: ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [المائدة:١٠٦]؛ فسماه الله مصيبة؛ بل إن آدم عليه السلام لم يستطع إبليس إغواءه إلا لمَّا ذَكَرَ له: أنه إذا أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها فلن يأتيه الموت، قال تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [طه:١٢٠]، أي: عدم الموت.

وقد نهىٰ النبي ﷺ عن تمني الموت حتىٰ لو كان المسلم عالمًا أنه برحمة الله من أهل الجنة؛ بل إن موسىٰ كليم الله الذي اختاره الله واصطفاه لنفسه أي لحمل رسالته لما جاءه ملك الموت لطمه، مع أن موسىٰ لا يشك في أنه برحمة الله من أهل الجنة. فهذه كلها أدلة تؤيد نهي النبي ﷺ عن تمني الموت. **ولكن يستثنىٰ من النهي بعض الحالات:** فيستثنىٰ تمني الإنسان الشهادة في سبيل الله.

ويستثنىٰ أيضًا ما يسمىٰ في عصرنا: بـ(التحدي)، **وتسمىٰ شرعًا:** المباهلة؛ سواء كانت بين طرفين كالتي طلب الرسول ﷺ من وفد نصارىٰ نجران لما خالفوه في القول بعيسىٰ ابن مريم عليه السلام، وهي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١]، أو من طرف واحد كالتي طُلبت من اليهود في هذه الآية، أو في سورة الجمعة، وهي أن يدعو الإنسان علىٰ نفسه بالهلاك واللعنة إن كان كاذبًا في دعواه. وفي مسند أحمد عن ابن عباس: (ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار)[1]. أما وفد نصارىٰ نجران فوافقوا علىٰ المباهلة ثم لم يفعلوا ودفعوا الجزية. وأما اليهود فلم يوافقوا لأنهم يعلمون أنهم كاذبون.

ثم ختم سبحانه الآيتين فأخبر أنه عليم بالظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، وسينالون جزاءهم علىٰ ظلمهم وكفرهم.

[٩٦] واعلم يانبي الله أن اليهود من أشد الناس حبًّا وتعلقًا بالبقاء في الحياة الدنيا؛ بل أشد حرصًا علىٰ الحياة من المشركين، وإنَّ أحدهم يتمنىٰ لو يعيش ألف سنة لشدة حرصه علىٰ الحياة، أو لِشَكِّهِ في الآخرة، ثم بين سبحانه أنهم لو عمَّروا هذه السنين الطويلة فإن ذلك لن يُنجِيَهم من عذاب الله، واعلموا أن الله مطلع علىٰ أعمال عباده لا تخفىٰ عليه خافية أبدًا.

[٩٧] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لليهود: اعلموا أيها اليهود أن من كان عدوًّا لجبريل فإنه عدو لله، لأن جبريل هو الأمين علىٰ وحي الله يبلغه لجميع رسله، وهو الذي نزل بالقرآن علىٰ قلب محمد ﷺ، وهذا القرآن مصدق لما قبله من الكتب، ومبشر بالجنة للمؤمنين المصدقين.

[٩٨] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن من عادىٰ الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال؛ فإن الله عدو للكافرين الجاحدين للحق، وما أُنزل علىٰ محمد ﷺ.

[٩٩] واعلم يانبي الله أن الله جل وعلا أنزل إليك آيات بينات واضحات الدلالة، وما يكفر بهذه الآيات ويجحدها إلا من فسق عن أمر ربه وخرج عن طاعته.

[١٠٠] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء اليهود كلما عاهدوا عهدًا نقضه فريق منهم، فهم قوم ليست لهم عهود، ثم بين سبحانه أن أكثر هؤلاء اليهود لا يؤمنون بالتوراة التي أنزلها سبحانه علىٰ رسولهم، والسبب أنهم قومٌ بهتٌ طبيعتهم الكذب، كما قال ذلك عنهم حبرهم عبدالله بن سلام لرسول الله ﷺ؛ فهم يعرفون أن محمدًا ﷺ صادقٌ كما يعرفون أبناءهم، ولكن حيث إن الوحي لم ينزل عليهم فإن الحسد أعمىٰ قلوبهم.

[١٠١] وأخبر جل وعلا أن هؤلاء اليهود لما جاءهم النبي ﷺ من عند الله مصدقًا للتوراة في أصول الدين، ومقرًّا لنبوة موسىٰ عليه السلام؛ كذَّب علماؤهم التوراة وطرحوها وراء ظهورهم عنادًا وتكبرًا؛ لأنها أخبرت بنبوة محمد ﷺ، ثم بين سبحانه أنهم تركوا التوراة وأعرضوا عنها وكأنهم لا يعلمون ما فيها من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٢٥)، والبزار في مسنده (٤٨١٤).

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

[١٠٢] أخبر جل وعلا أن اليهود نبذوا التوراة وراء ظهورهم واتبعوا ما تقوله الشياطين من السحر؛ حيث زعموا أن سليمان عليه السلام ساد أهل زمانه به، ولكن بين سبحانه أن سليمان لم يكفر لأنه لم يتعلم السحر ولم يستخدمه، أما الشياطين فقد كفروا لأنهم علموا الناس السحر لإضلالهم وإفسادهم، وكذلك اتبعوا السحر الذي أُنزل علىٰ الملكين هاروت وماروت بأرض بابل بالعراق، والملكان أُنزلا ابتلاء من الله ولحكمة بالغة، وقد صرّحا أنهما أُنزلا ابتلاءً، وحذَّرا كل من يأخذ علم السحر منهما من الوقوع في الكفر، ومع ذلك استمر الناسُ في تعلُّم السحر منهما؛ بل في تعلم أقبح أنواعه وهو التفريق بين الرجل وزوجه، مع أن السحرة لا يستطيعون الإضرار بأحد إلا بإذن الله وقضائه، ومعلوم أن السحرة إنما يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علم اليهود أن من تعلم السحر وترك الحق وهو الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ليس له في الآخرة نصيب من الرحمة والثواب، ويالخسارة ما استعاضوا به من تركهم الإيمان واتباع الرسل وتعلقهم بالسحر والدجل؛ لو كان عندهم علم أو عقل يحملهم علىٰ التمييز بين الحق والباطل والنافع والضار.

وقد اختلف أهل العلم في السحر:

هل هو ثابت وله حقيقة؟

أم أنه مجرد تخيلات؟.

والجواب: أن مذهب الجمهور ثبوت السحر، وأن له حقيقة، أما المعتزلة فقالوا: لا حقيقة له؛ بل هو تخيل.

والحق أن السحر نوعان:

الأول: حقيقة، أي: ينفذ في الجسم، ويُمرض، ويُفرق بين المرء وزوجه.

والثاني: تخييل، أي: يُخيل لك أن الحبل حية، ونحو ذلك.

[١٠٣] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء اليهود لو آمنوا بالنبي ﷺ، وما أُنزل عليه من القرآن، واجتنبوا ما وقعوا فيه من السحر والكفر لحصلوا علىٰ منافع كثيرة، ومن ذلك ثواب الله الذي هو خير لهم مما اختاروا لأنفسهم لو كانوا يعلمون أن ثواب الله خير لهم من السحر، وخير لهم مما اكتسبوا به؛ بل وخير لهم من الدنيا وما فيها.

[١٠٤] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ عباده المؤمنين أن يراعوا الأدب في مخاطبة الرسول ﷺ تجنبًا لبعض الكلمات التي تحمل أكثر من معنىٰ مثل كلمة: ﴿رَاعِنَا﴾؛ حيث إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يقولون للرسول ﷺ: ﴿رَاعِنَا﴾، أي: راعي أحوالنا وأمهلنا، ولكن اليهود بعد أن سمعوها أخذوا يقولونها علىٰ سبيل السب، أي: من الرعونة وهو الحمق، فنهىٰ الله المؤمنين أن يقولوها، وأمرهم أن يقولوا بدلًا منها: ﴿انظُرْنَا﴾، أي: أمهلنا وترفق بنا، فعليكم أيها المؤمنون أن تسمعوا لما تؤمرون به من طاعة الله ورسوله ﷺ، ثم توعد جلّ وعلا الكافرين من اليهود وغيرهم بالعذاب الأليم الموجع.

[١٠٥] يخبر جلّ وعلا أن الكفار من اليهود والنصارىٰ ومشركي العرب لا يريدون أن يُنزِّل الله علىٰ رسوله وعلىٰ المؤمنين منكم أدنىٰ خير من قرآن أو علم أو نصر أو بشارة؛ حسدًا منهم وبغضًا بكم، ولكن اعلموا أيها الكفار أن الله يختص برحمته من يشاء من عباده بالنبوة أو الرسالة، وقد اختص محمدًا ﷺ بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، ولذا فلن يضره حسد الحاسدين ولا جحودهم، ثم بين جل في علاه أنه صاحب الفضل العظيم والمنّة الكبرىٰ علىٰ عبادة المؤمنين، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

[١٠٦] يخبر جل وعلا أنه ما يبدل من آية من حكم إلىٰ حكم، أو يمحُها من القلوب؛ إلا ويأت بأفضل وأنفع منها، أو مثلها في النفع والفضل، لحكمة يعلمها سبحانه، والنسخ خاص بالأوامر والنواهي، أما الأخبار فلا يدخلها النسخ، وقد كان اليهود يُنكرون النسخ مع أنه مذكور عندهم في التوراة، ثم ختم سبحانه الآية قائلًا علىٰ سبيل التقرير: ألم تعلم يانبي الله أن الله قادر علىٰ كل شيء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؟.

[١٠٧] ثم أقام جل وعلا دليلًا واضحًا بيِّنًا علىٰ قدرته فقال سبحانه علىٰ سبيل التقرير: ألم تعلم يانبي أن الله يملك كل ما في السماوات والأرض، وهو المتصرف فيهما، يفعل فيهما ما يشاء؟ ثم بين سبحانه أنه ليس للناس من ولي غير الله يتولىٰ أمورهم ويرعىٰ شؤونهم ومصالحهم، وليس لهم نصير ينصرهم إلا الله وحده، ومن كان الله وليه ونصيره فنعم المولىٰ ونعم النصير.

[١٠٨] ثم أنكر عز وجل علىٰ الذين يكثرون سؤال النبي ﷺ، فقال سبحانه: أتريدون أن تكثروا علىٰ نبيكم محمد ﷺ أسئلة التعنت والعناد والمكابرة، كما فعل بنو إسرائيل مع موسىٰ؛ حيث كانوا يكثرون من أسئلة التعنت والعناد، كقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥]، وقولهم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، وغير ذلك.

أما سؤال التعلم والتفقه والاسترشاد فهذا مطلوب وممدوح، واعلموا أيها الناس أن من اختار الكفر علىٰ الإيمان فقد ضل صراط الله المستقيم.

[١٠٩] ثم يخبر جل وعلا أن أكثر أهل الكتاب يتمنون أن ترجعوا أيها المؤمنون بعد إيمانكم كفَّارًا حسدًا من عند أنفسهم، بعد أن تبين لهم أنكم علىٰ الحق؛ فاعفوا واصفحوا وتجاوزوا عمَّا كان منهم، من إساءة وخطأ وجهل حتىٰ يأذن الله بقتالهم، واعلموا أن الله علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[١١٠] ثم أمر سبحانه المؤمنين بإقامة الصلاة علىٰ الوجه الأكمل كما شرع الله، وإخراج زكاة أموالهم لمستحقيها طيبة بها نفوسهم، واعلموا أيها الناس أن ما تقدمونه من خير وعمل صالح سوف يعود نفعه عليكم، وستجدونه عند الله يوم القيامة؛ فإنه مطلع علىٰ أعمالكم وسيجازيكم عليها؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

﴿۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾

[١١١] يخبر سبحانه وتعالىٰ أن اليهود يدَّعون أنه لن يدخل الجنة إلّا من كان يهوديًّا، وأن النصارىٰ يدَّعون أنه لن يدخل الجنة إلّا من كان نصرانيًّا، ثم أخبر جل وعلا أن هذه الدعاوىٰ باطلة، وما هي إلا أماني وأوهام وافتراءات فاسدة؛ ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: أعطوني دليلكم علىٰ هذه الدعاوىٰ إن كنتم صادقين؟

[١١٢] ثم إن الله جل وعلا كذبهما بقوله: ﴿ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾، أي: لن يدخل الجنة إلا من أخلص أقواله وأعماله لله وحده لا شريك له، واتبع الهدىٰ الذي جاءت به الرسل، ثم أخبر سبحانه أن من كانت هذه صفاتهم فإن لهم أجرًا وثوابًا عظيمًا عند الله، وهو دخول الجنة مطمئنين لا يخافون من عذاب النار في الآخرة، ولا يحزنون علىٰ ما فاتهم من نعيم الدنيا؛ لأن الله سوف يعوضهم بالأجمل والأكمل في الجنة.

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ
لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ
قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن
مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ
أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي
ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ
وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥
وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ
كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ
قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ
بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩

[١١٣] يخبر جل وعلا أن كلًّا من اليهود والنصارىٰ لا يعترف بالآخر؛ مع أنهم يقرؤون التوراة والإنجيل، ويعلمون ما فيهما من وجوب الإيمان بجميع الرسل؛ بل قال اليهود أشنع من هذا؛ قالوا: إن عيسىٰ عليه السلام وَلَدُ بَغِي، أي: ولد زنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، والعياذ بالله من قذف المحصنات الطاهرات، ثم قال سبحانه: وكما أن اليهود والنصارىٰ يكفر كل منهما الآخر، فإن مشركي العرب وغيرهم كل منهم يضلل الآخر ويكفره؛ واعلموا أيها الناس أن الله سوف يحكم بينكم يوم القيامة بحكمه العدل فيما كنتم فيه تختلفون.

[١١٤] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنه لا أحد أشد ظلمًا من الذين منعوا ذكر الله في المساجد، واجتهدوا في تخريبها بالهدم أو الإغلاق ونحو ذلك، وكان الأولىٰ بهم أن يدخلوا هذه المساجد وهم علىٰ وجل وخوف من الله، ولذا كانت عقوبة الذين سعوا في تخريب المساجد الخزي والعار والفضيحة في الدنيا، والعذاب الأليم الشديد في الآخرة، نسأل الله العفو والعافية.

[١١٥] ثم أخبر جلّ وعلا أنه يملك مشارق الأرض ومغاربها وما بينهما، فأينما توجهتم أيها الناس في أرض الله الواسعة وأردتم الصلاة فتوجهوا إلىٰ الجهة التي يغلب علىٰ ظنكم أنها القبلة، أي: البيت العتيق، وبهذا تكونوا قد أديتم ما أمركم الله به، واعلموا أن الله واسع عليم يسع علمه كل شيء.

وهذه الآية دليل علىٰ وجوب أداء الصلاة في أي مكان من الأرض إذا حضر وقتها.

وفيها إثبات صفة الوجه لله كما يليق بجلاله، وأن له وجهًا لا يشبه الوجوه المعروفة لنا.

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عن هذه الآية، فقال السائل: هذه الآية يُفهم منها أن الله في كل مكان، ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾ [الزخرف:٨٤].

فأجاب: إن من يقول: إن الله في كل مكان؛ كافر، ثم قال: هذه آيات متشابهة قد يُفهم منها ما ذكره السائل، وقال: إن المُجمل يُحمل علىٰ المُفصَّل، والمتشابه يحمل علىٰ المصرح الموضّح. ثم ذكر الآيات التي تثبت استواءَه علىٰ العرش، وحديث الجارية التي سألها الرسول ﷺ: «أين الله؟» فقالت: في السماء[(١)]، **ثم قال:** إن هذه الجارية علىٰ مذهب هؤلاء الذين يتبعون المتشابه كافرة.

وقال أيضًا: ومن الآيات التي تدل علىٰ أنه في السماء، قوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلىٰ:١]، ولم يقل: الأسفل، ولا الذي في كل مكان. وهناك أدلة كثيرة لا يسع المقام لذكرها تصرح أن الله فوق عرشه، وأن العرش أعلىٰ المخلوقات فوق السماء السابعة، وهو سقف العالم.

[١١٦] ثم أخبر جل وعلا بمقولة اليهود: أن عزيرًا ابن الله، ومقوله النصارىٰ: أن المسيح ابن الله، ومقوله مشركي مكة: أن الملائكة بنات الله، فكذبهم الله جميعًا، وأخبر أنه تنزَّه وتقدّس عن هذا القول الآثم الذي نسبوه له جلّ وعلا؛ وأخبر أن جميع من في السماوات والأرض عبدٌ خاضعٌ له، وتحت تصرفه وحكمه وتدبيره.

[١١٧] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنه خالق السماوات والأرض ومبدعهما علىٰ غير مثال سابق، وإذا أراد سبحانه أن يخلق شيئًا فإنما يقول له: (كن) فيكون.

وأُنبه هنا إلىٰ مقولة بعض الناس: إنما أمره بين الكاف والنون، وهذا القول خطأ، والصواب أن يقال: إنما أمره بعد الكاف والنون.

[١١٨] ثم أخبر جل وعلا أن أهل الكتاب والمشركين قالوا للرسول ﷺ: لن نؤمن يامحمد حتىٰ يكلمنا الله مباشرة ويخبرنا أنك رسول، أو تأتينا علامة تدل علىٰ نبوتك وصدقك، ومثل هذا القول قالت به اليهود والنصارىٰ من قبل؛ وهذا دليل علىٰ أن قلوبهم قد تشابهت في الكفر والضلال، ثم أخبر سبحانه أنه بيَّن الآيات ووضحها لمن يعترفون بالحق ويصدقون به تصديقًا جازمًا.

[١١٩] ثم أخبر المولىٰ عز وجل أنه أرسل نبيه محمدًا ﷺ بهذا الدين الحق المُؤيَّد بالأدلة والبراهين، وأنه أرسله مبشرًا للمؤمنين بخيري الدنيا والآخرة، ومخوفًا الكافرين من عذاب الله، وأخبره أنه ليس مسئولًا عن كفر وضلال هؤلاء المشركين الكفار بعد البلاغ؛ فإنهم هم وحدهم مسئولون عن مصيرهم وهو دخول النار وبئس المصير.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

[١٢٠] يخبر جلّ وعلا أن اليهود والنصارىٰ لن يرضوا عن النبي ﷺ حتىٰ يترك دينه ويتبع دينهم، لذا أمره سبحانه وتعالىٰ أن يقول لهم: اعلموا ياأهل الكتاب أن الدين الصحيح الذي هداني الله إليه هو دين الإسلام، ثم بين له جل في علاه أنه إذا اتبع أهواءهم وتشبَّه بهم بعد الحق الذي جاءه من عند الله؛ فليس له من الله وليٌّ يتولاه وينفعه، ولا نصير ينصره.

وهذا الخطاب وإن كان موجَّهًا للرسول ﷺ فإن المقصود به أن يبلغ أمته ذلك؛ لأنه معصوم مما هو أقل من ذلك.

[١٢١] ثم أخبر جلّ وعلا أن الذين أنزل عليهم الكتاب من اليهود والنصارىٰ وقرأوه قراءة صحيحة واتبعوه حق الاتباع، فأولئك هم المؤمنون بالله وبمحمد ﷺ وبما أُنزل عليه، كعبدالله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود والنصارىٰ، أما الذين بدّلوا وحرّفوا فأولئك كفروا بمحمد ﷺ وبما أُنزل عليه، وهؤلاء هم أشد الناس خسرانًا عند الله يوم القيامة.

[١٢٢] ثم كرر المولىٰ سبحانه وتعالىٰ النداء لبني إسرائيل وأمرهم أن يتذكروا نعم الله الكثيرة عليهم، وذلك بأن يتذكروها بقلوبهم، ويتذكروها بألسنتهم، ويتذكروها بجوارحهم، لأن شكر النعم يكون بهذه الأمور الثلاثة: القلب واللسان والجوارح، ومن النعم التي أنعم الله بها عليهم أنه فضل آباءهم أتباع موسىٰ عليه السلام علىٰ عالِمِي زَمَانِهِم؛ لأن أتباعَ كل نبي مفضَّلون علىٰ عالِمِي زمانهم، ولا شك أن تفضيل الآباء شرف للأبناء، وتفضيل الله لهم كان بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأنه جعل منهم سادة وملوكًا لاتِّبَاعِهِم لِهُدَىٰ الله.

[١٢٣] ثم أمر جل وعلا بني إسرائيل أن يخافوا يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يُغني فيه أحد عن أحد شيئًا، ولا يقبل الله في ذلك اليوم من كافر فدية، ولا تنفع الشفاعة أحدًا كفر بالله ورسوله ﷺ، ولا يملك أحد في ذلك اليوم أن يُعِينَ كافرًا، أو ينصره، أو ينجيه من عذاب الله الشديد.

[١٢٤] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أنه امتحن عبده وخليله إبراهيم عليه السلام بجملة من التكاليف الشرعية، وبين جل وعلا أن إبراهيم عليه السلام أتمها وقام بها أحسن قيام؛ ولذا فإن الله شكره وكافأه بأن جعله إمامًا للناس في الدين؛ ثم إن إبراهيم عليه السلام طلب من ربه أن تُمْنَحَ الإمامة أيضًا لذريته من بعده، فقال سبحانه: اعلم يا إبراهيم أن الإمامة في الدين أمرها عظيم، ولذا لن ينالها أحد ظلم نفسه بالكفر والمعاصي.

[١٢٥] ثم أخبر المولىٰ عز وجل نبيه ﷺ أنه جعل هذا البيت وهو الكعبة قبلة للناس يستقبلونها ويتوجهون إليها، ومرجعًا يرجعون إليه، ومجمعًا لهم في الحج والعمرة، وجعله أيضًا بيتًا آمنًا لا يخاف

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

فيه أحد، وهذا الجعل شرعي تكليفي، ثم أمر سبحانه الناس أن يتخذوا من مكان إبراهيم عليه السلام مكانًا للصلاة فيه، ثم أوحىٰ عز وجل إلىٰ إبراهيم وابنه إسماعيل بتطهير البيت من الأوثان والكفار والنجاسات؛ لكي يكون مهيئًا لمن أراد أن يطوف أو يعتكف أو يصلي فيه.

ولاحظ أن الله جل في علاه قال في هذه الآية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾، ولم يقل: (البلد) كما قال في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ [إبراهيم:٣٥]؛ لأن البيت لم يكن وقت مجيء هاجر وابنها قائمًا معمورًا، وإنما عمر واستوطن بعد أن كبر إسماعيل وساعد أباه في بناء الكعبة.

[١٢٦] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن إبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يجعل مكة بلدًا آمنًا، وأن يرزق أهلها من كل أنواع الثمرات، ثم إن إبراهيم قيّد هذا الرزق بالمؤمنين الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، فقال له جلّ في علاه: ومن كفر منهم يا إبراهيم سوف نرزقه أيضًا في الدنيا كسائر الناس، ونمتعه متاعًا قليلًا، ثم يرد إلينا يوم القيامة مرغمًا ومكرهًا لنذيقه عذاب النار؛ فبئست النهاية وبئس المصير للكافرين.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

[١٢٧] ثم بيَّن جل وعلا لنبيه ﷺ حال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عندما كانا يبنيان الكعبة ويرفعان قواعدها؛ حيث كانا يدعوان الله بهذه الأدعية المباركة قائلين: ياربنا تقبل منا هذا العمل المبارك، واجعله خالصًا لوجهك الكريم، فإنك يارب أنت السميع لأقوال عبادك، العليم بأعمالهم وأحوالهم.

[١٢٨] ثم إن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام دَعَوْا لأنفسهما وذريتهما بالبقاءِ علىٰ دين الإسلام، فهو أعظم نعمة يمنُّ الله بها علىٰ عباده، ثم سألا الله جل في علاه أن يعلمهما أمور دينهما وعبادتهما عمومًا، وما يتعلق بأعمال الحج خصوصًا؛ كالطواف والسعي والوقوف وغير ذلك، ثم سألاه سبحانه أن يمنَّ عليهما بالتوبة النصوح؛ لأن العبد عرضة للذنب والتقصير، فإنك يارب كثير التوبة لعبادك واسع الرحمة بهم.

[١٢٩] ثم سأل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الله جل في علاه أن يبعث في هذه الأمة رسولًا من ذريتهم، يتلو عليهم آيات الله، ويعلمهم القرآن والفقه، وأمور دينهم، ويطهرهم من الكفر الشرك وسائر الذنوب والمعاصي؛ فاستجاب سبحانه لدعائهم؛ فبعث فيهم رسوله محمدًا ﷺ، وقد روي أنه ﷺ كان يقول: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»[1].

ثم ختم سبحانه الآية بقول إبراهيم عليه السلام: إنك يارب أنت العزيز الذي لا يغلبك أمر، ولا يمتنع عليك أحد، والحكيم الذي تضع الأشياء في مواضعها.

[١٣٠] ثم بين جل في علاه أن من يختار دينًا غير دين إبراهيم عليه السلام فهو سفيه جاهل؛ لأن الله اصطفىٰ إبراهيم في الدنيا وجعله نبيًّا ورسولًا، وإنه في الآخرة لمن الصالحين الذين لهم أعلىٰ الدرجات.

[١٣١] ثم بين جل وعلا أن سبب هذا الاصطفاء أن إبراهيم عليه السلام انقاد لأمر الله قولًا وعملًا دون تردد؛ عندما أمره بالإسلام والتوحيد لله رب العالمين.

[١٣٢] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام حثّا أبناءَهما علىٰ الثبات علىٰ الإسلام، فقالا: إن الله اختار لكم هذا الدين وهو الإسلام فلا تتركوه ولا تفارقوه، ولا تموتوا إلا وأنتم علىٰ ملة الإسلام.

[١٣٣] ثم خاطب جل وعلا اليهود فقال لهم مستنكرًا: هل كنتم حاضرين حين جاء يعقوب الموتُ؛ حيث جمع أبناءه وسألهم علىٰ وجه الاختبار: ما تعبدون من بعد موتي؟ فقالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا لا شريك له، ونحن منقادون وخاضعون له؛ فجمعوا بين التوحيد والعمل.

[١٣٤] ثم أخبر جل شأنه أن تلك الجماعة من الأنبياء والرسل وأتباعهم من المؤمنين الذين قصصنا عليكم شيئًا من سيرتهم مع أقوامهم مضوا وانتهوا، وأن لهم أعمالهم، ولكم أعمالكم، وكل سيجازىٰ بما قدم، ولن يؤاخذ أحد بذنب غيره، ولن ينفع الإنسان يوم القيامة إلا إيمانه وتقواه، وما نشره من الأعمال الصالحة المتعدي نفعها والذرية المؤمنة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٥٦٦) وصححه، والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ٨٣)، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

....

....

....

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن
رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا
فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ
عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ
اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

[١٣٥] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود قالوا لأتباع النبي ﷺ: كونوا يهودًا لأن الهدىٰ معنا، وأن النصارىٰ قالوا لهم: كونوا نصارىٰ لأن الهدىٰ معنا، فأمره سبحانه وتعالىٰ أن يقول لهم: بل الواجب أن نتبع جميعًا دين إبراهيم عليه السلام، دين الحنيفية السمحاء التي مالت عن كل دين باطل، ثم بين جل علا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من المشركين الضالين.

[١٣٦] ثم وجه جل وعلا الخطاب للمؤمنين آمرًا لهم أن يقولوا لليهود والنصارىٰ: لقد آمنا بالله وحده لا شريك له، وآمنا بما أنزل إلينا من القرآن، وما سنّه لنا نبينا محمد ﷺ، وآمنا بالصحف التي أنزلت علىٰ إبراهيم وابنيه إسماعيل واسحاق، ويعقوب والأسباط، وهم: الأنبياء من ولد يعقوب، وهم اثنا عشر سبطًا، وآمنا بالتوراة التي أعطيت لموسىٰ عليه السلام، وبالإنجيل الذي أعطي لعيسىٰ عليه السلام، وآمنا بكل ما أعطي النبيون من وحي ربهم، لا نفرق بينهم؛ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض!! بل نؤمن بجميع الرسل، ونحن منقادون إلىٰ ربنا خاضعون له بالطاعة والعبادة، معلنين هذا المعتقد وهذا المبدأ علىٰ الملأ، لا نخاف في الله لومة لائم.

[١٣٧] ثم بين جل وعلا أن أهل الكتاب إذا آمنوا بالله إيمانًا كإيمانكم مماثلًا له من كل الوجوه؛ فقد اهتدوا إلىٰ الحق وإلىٰ الصراط المستقيم، وإن أعرضوا وجانبوا الحق فإنهم في خلاف وتفرق وفتنة، واعلم يانبي الله أن الله سوف يكفيك شرَّهم ومكرهم وينصرك عليهم، فإنه سبحانه هو السميع لأقوالكم، فلا تختلف عليه اللهجات وتعدد اللغات، والعليم بالظواهر والبواطن، فلا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

[١٣٨] ثم أخبر جل وعلا أن هذا دين الله فالتزموه وتمسكوا به وقوموا به قيامًا تامًّا، فليس هناك دين أحسن من دين الله، ولا هَدْيَ أحسن من هَدْيِ الله، وقولوا لكل الناس: نحن طائعون لربنا منقادون لأوامره مخلَصون له وحده.

[١٣٩] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: أتجادلوننا في دين الله وهو ربنا وربكم، وخالقنا وخالقكم، ورازقنا ورازقكم، وكل منا ومنكم له عمله، فكيف بعد ذلك تدّعون أنكم أولىٰ بالله منّا؟! وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، ولذا تعين أن يكون المؤمنون هم أولىٰ بالله من غيرهم لأنهم أخلصوا لله وحده لا شريك له.

[١٤٠] ثم أخبر المولىٰ عز وجل عما يزعمه اليهود أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط الاثني عشر الذين هم من ولد يعقوب كانوا يهودًا، ويزعم النصارىٰ أنهم كانوا نصارىٰ، وهذا كذب وافتراء علىٰ أنبياء الله، ولذا أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: أأنتم أعلم أم الله؟! فالله سبحانه أخبرنا أنهم مسلمون.

ثم بين جل وعلا أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن أخفىٰ الحقيقة التي بينها ووضحها سبحانه في التوراة والإنجيل، وهي أن الأنبياء كانوا علىٰ الإسلام، ثم بين سبحانه أنه ليس بغافل عن شيء من أعمالكم القبيحة ياأهل الكتاب؛ بل إنه جل في علاه محصيها لكم وسيجازيكم عليها.

[١٤١] ثم كرر جل وعلا هذه الآية فأخبر أن تلك الجماعة من الأنبياء والرسل وأتباعهم من المؤمنين الذين قصصنا عليكم شيئًا من سيرتهم مع أقوامهم مضوا وانتهوا، وأن لهم أعمالهم، ولكم أعمالكم، وكل سيجازىٰ بما قدم، ولن يؤاخذ أحد بذنب غيره، ولن ينفع العبد يوم القيامة إلا إيمانه وتقواه، وما نشره من الأعمال الصالحة المتعدي نفعها والذرية المؤمنة.

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ
عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا
جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ
بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ
وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

[١٤٢] يخبر جل وعلا أن السفهاء والجهلاء من اليهود وأمثالهم سيقولون: لماذا ترك محمد وأصحابه قبلتهم التي كانوا يتوجهون إليها، وهي بيت المقدس، وتوجهوا إلىٰ الكعبة؟! فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أن المشرق والمغرب وما بينهما ملك لله وحده لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وأنه سبحانه يهدي من يشاء من عباده إلىٰ طريق الهداية والاستقامة.

[١٤٣] ثم أخبر جلّ وعلا أنه كما هداكم أيها المؤمنون إلىٰ دين الإسلام، وإلىٰ قبلة أبيكم إبراهيم عليه السلام، فكذلك جعلكم عدولًا خيارًا لا إفراط ولا تفريط؛ لتشهدوا علىٰ الأمم يوم القيامة أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، ويكون الرسول ﷺ شهيدًا عليكم فيزكيكم ويشهد بصدقكم، ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ أنه ما جعل القبلة التي كان يصلي لجهتها وهي بيت المقدس ثم حوَّله إلىٰ الكعبة؛ إلا امتحانًا واختبارًا للناس ليتبين من يتبعه ويؤمن به، ومن يرفض ويرتد عن دينه، وبين سبحانه أنه يعلم أن تحويل القبلة أمر عظيم وشاق إلا علىٰ الذين هداهم الله، ومنَّ عليهم بالإيمان والتقوىٰ، واعلموا أيها المؤمنون أن الله ما كان ليضيع إيمانكم – أي: صلاتكم – قبل تحويل القبلة، وسمَّىٰ سبحانه الصلاة إيمانًا تعظيمًا لشأنها.

ثم ختم جل شأنه الآية مخبرًا أنه رؤوف بعباده المؤمنين وأنه رحيم بهم، ومن رحمته فإنه لن يضيع سبحانه صلاة من مات قبل تحويل القبلة، وذلك أن بعضهم سأل رسول الله ﷺ عن صلاة أولئك الذين ماتوا قبل تغيير القبلة هل هي باطلة أم لا؟

وقد أخبر سبحانه في مواضع من كتابه أنه لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثىٰ، قال تعالىٰ: ﴿**أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ**﴾ [آل عمران:١٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ **وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا** ﴾ [النساء:١٢٤]، وغيرها من الآيات.

[١٤٤] ثم يقول جل وعلا لنبيه ﷺ: إننا نرىٰ كثرة نظرك إلىٰ السماء يانبي الله شوقًا وانتظارًا لنزول الوحي في شأن القبلة؛ فالآن سوف نوجِّهك إلىٰ قبلة تحبها وترضاها.

ثم أمره سبحانه وتعالىٰ أن يتوجَّه في صلاته إلىٰ جهة الكعبة، وأمر المسلمين في أي مكان كانوا وأرادوا الصلاة أن يتوجهوا إلىٰ الكعبة.

واعلم يانبي الله أن الذين أعطيناهم الكتاب من اليهود والنصارىٰ يعلمون أنك علىٰ حق في استقبال الكعبة، ولكنهم عاندوا وكابروا بغيًا وحسدًا، وما الله بغافل عن أعمالهم فإنه محصيها لهم وسيجازيهم عليها.

[١٤٥] ثم أخبر جل شأنه نبيه ﷺ أنه لو جاء لهؤلاء اليهود والنصارىٰ بكل برهان ودليل علىٰ أن توجهك إلىٰ الكعبة هو الحق فإنهم لن يتبعوا قبلتك عنادًا واستكبارًا، وأيضًا فإنه لا يجوز لك أن تعود مرة أخرىٰ فتستقبل قبلتهم، كما أن اليهود والنصارىٰ لن يتبع بعضهم قبلة بعض، واعلم يانبي الله أنك إذا اتبعتَ أهواء اليهود والنصارىٰ الباطلة بعد أن عرفتَ الحق فإنك حينئذ ظالم لنفسك.

وهذا الخطاب وإن كان موجهًا للنبي ﷺ فإن أمته هي المقصودة أيضًا؛ لأنه ﷺ معصوم مما هو أقل من ذلك؛ ولأن الله حقق رغبته في الاتجاه إلىٰ الكعبة.

الجُزْءُ الثَّانِي — سُورَةُ البَقَرَةِ

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

٢٣

[١٤٦] يخبر جلّ وعلا أن اليهود والنصارىٰ يعرفون محمدًا ﷺ ويعرفون أنه مرسل من عند الله، كما يعرفون أبناءهم، ولكن طائفة منهم يكتمون الحق بغيًا وحسدًا؛ مع أنهم يعلمون أنه مرسل من عند رب العالمين.

[١٤٧] واعلم يانبي الله أن هذا الذي أُنزل عليك وهو القرآن الكريم هو الحق من ربك؛ فلا تكونن من الشاكّين فيه.

وهذا الخطاب وإن كان موجهًا للنبي ﷺ إلا أن المقصود: إبلاغ أمته؛ لأنه معصوم ﷺ من الشك، ومما هو أقل من ذلك.

[١٤٨] ثم يخبر جل وعلا أن لكل أهل ديانة شريعة وقبلة يتوجهون إليها، ولا يعني هذا إقرار الكفار علىٰ كفرهم، وإنما المقصود تسلية المؤمنين وتثبيتهم علىٰ الحق الذي هم عليه؛ ولهذا أمر سبحانه المؤمنين بالمبادرة إلىٰ ما أمرهم به من فعل الخيرات، وذلك باستقبال الكعبة التي وجههم إليها، واعلموا أيها الناس أينما تكونوا؛ سواء كنتم في بر أو بحر أو جو؛ فإن الله سوف يجمعكم يوم القيامة جميعًا، ثم يجازيكم علىٰ أعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فإنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء.

[١٤٩] ثم خاطب جلّ وعلا نبيه ﷺ لإبلاغ أمته فقال سبحانه وتعالىٰ: ومن أي مكان خرجت يانبي الله قاصدًا السفر فتوجه في صلاتك إلىٰ المسجد الحرام، واعلم يانبي الله أن هذا هو الحق من ربك، وما الله بغافل عما تعملون أيها الناس من الأعمال، وسوف يجازيكم عليها.

[١٥٠] ثم كرر جلّ وعلا الأمر لنبيه ﷺ بالتوجه إلىٰ المسجد الحرام، فقال له: ومن أي مكان خرجت يارسول الله فتوجه في صلاتك إلىٰ المسجد الحرام، ثم أمر سبحانه المؤمنين في أي موضع من الأرض كانوا أن يتوجهوا في صلاتهم إلىٰ المسجد الحرام؛ لكي لا يكون للمخالفين من أهل الكتاب احتجاج عليهم بالمخاصمة والمجادلة، إلا أهل الظلم والعناد منهم؛ فهؤلاء لا سبيل لإقناعهم، ثم أمر سبحانه المؤمنين أن لا يخافوا من هؤلاء المجرمين من أهل الكتاب، وعليهم أن يخافوا من الله وحده، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، واعلموا أيها الناس أن الله أمركم بالتوجه للمسجد الحرام لكي يتم عليكم نعمته وهو التوجه لأفضل بيت بناه؛ لعلكم تهتدون إلىٰ ما ضلت عنه الأمم السابقة.

[١٥١] ثم بين سبحانه أنه كما أنعم عليكم أيها الناس باستقبال الكعبة؛ فقد أنعم عليكم من قبل بإرسال رسول منكم تعرفون نسبه وصدقه وأمانته، يتلو عليكم القرآن الكريم، ويطهركم من كل رجس ودنس، ويعلمكم أحكام القرآن والسنة النبوية، وأحكام الشريعة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعرفونه من علوم الدين والدنيا.

[١٥٢] ثم أمر جل وعلا عبادة بالإكثار من ذكره، فإن مَنْ أكثر من ذكر الله فسوف يجازيه الله بأفضل الجزاء، وهو ذكر الله له في الملأ الأعلىٰ، وقد قيل: من أكثر من ذكر الله أحبه الله وذكره، ثم أمر سبحانه عباده أن يكثروا من شكره علىٰ ما أنعم عليهم من النعم، وحذرهم من إنكار هذه النعم وجحودها.

[١٥٣] ثم أمر جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يستعينوا به في جميع أمورهم الدينية والدنيوية بالصبر والصلاة، وأخبر سبحانه وتعالىٰ أنه مع الصابرين المؤمنين يعينهم ويوفقهم ويسددهم.

والاستعانة بالصبر تكون علىٰ ثلاثة أقسام:

* صبر علىٰ طاعة الله.
* وصبر عن معصية الله.
* وصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة.

أما الاستعانة بالصلاة فيكون ذلك بأدائها في أوقاتها المحددة بكامل أركانها وسننها وواجباتها، بخشوع وخضوع، وأن يستحضر المصلي أنه واقف بين يدي ربه، ويعلم أن الصلاة يجب أن تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر.

وفي هذه الآية إثبات معيّة الله الخاصّة بالمؤمنين التي تقتضي محبتُه ومعونته ونصره.

أما معيّة الله العامة المقتضية للعلم والإحاطة والقدرة فهي لجميع الخلق.

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

[١٥٤] ثم طلب جل وعلا من المؤمنين أن لا يقولوا لمن يُقتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا: بأنهم أموات؛ بل هم أحياء يرزقون؛ حياة خاصّة لا يعلم كيفيتها إلا الله سبحانه وتعالىٰ، ولكنكم لا تُحِسُّون أيها الناس بهذه الحياة.

وفي هذه الآية: أعظم حث علىٰ الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، وفيها إثبات نعيم البرزخ وعذابه.

[١٥٥] ثم بين جل في علاه أنه سوف يختبركم أيها الناس بشيء من المصائب والشدائد، ومن ذلك: الخوف من الأعداء، والجوع بقلة الغذاء، ونقص الأموال بفقدها أو صعوبة الحصول عليها، وفقدان الأبناء والأحباب بالموت، وهلاك الثمار، ثم أمر سبحانه أن يبشر الصابرين الذين صبروا علىٰ أقدار الله المؤلمة.

[١٥٦] ثم بين سبحانه أن أولئك الذين إذا أصابتهم مصيبة صبروا واحتسبوا وقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

[١٥٧] ثم أخبر سبحانه أن أولئك الصابرين المحتسبين لهم ثناء وتمجيد ورحمة عظيمة من ربهم، وأنهم موفقون للخلاص من الابتلاءات، والهداية إلىٰ طريق الرشاد والسعادة والفلاح.

[١٥٨] يخبر جلّ وعلا أن الصفا والمروة من أعلام دينه الظاهرة التي تعبَّدَ بها عباده؛ فمن أراد الحج أو العمرة فلا إثم عليه أن يطَّوَّف بينهما سبعة أشواط؛ بل يجب عليه فعل ذلك، وذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم بعد أن منَّ الله عليهم بالإسلام، تحرجوا في الطواف بين الصفا والمروة في وجود الأصنام، وخافوا أن يكونوا مشابهين للكفار، فبين سبحانه أنه لا إثم عليهم في ذلك؛ لأنه أمر خارج عن إرادتهم.

وبعد فتح مكة تم ولله الحمد تطهير الكعبة وجميع المسجد الحرام من مظاهر الشرك والكفر.

واعلموا أيها الناس أن من فعل الطاعة مخلصًا بها لله وحده لا شريك له؛ فإن الله شاكر يُثيب علىٰ القليل بالكثير، وهو عليم بمن يستحق الثواب بحسب نيته وإيمانه وتقواه، وعليم بمن لا يستحق.

[١٥٩] يخبر جلّ وعلا أن كل من كتم الحق من أهل الكتاب أو من هذه الأمة بعد أن بينه الله وأظهره للناس في التوراة والإنجيل والقرآن؛ فإن الله يلعنه فيطرده من رحمته، ويلعنه جميع الخلق من أهل السماوات والأرض.

[١٦٠] ثم بين سبحانه أن من تاب وأناب ورجع واعترف بخطئه، وأصلح ما أفسده، وبيّن ما كتمه؛ فأولئك يقبل الله توبتهم ورجوعهم؛ لأنه التواب علىٰ من تاب، والرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

[١٦١] ثم أخبر جلّ وعلا أن الذين جحدوا الإيمان وأصروا علىٰ جحودهم واستمروا علىٰ ذلك حتىٰ ماتوا وهم كفار؛ فأولئك عليهم لعنة الله فيطردهم من رحمته، وتدعوا عليهم الملائكة وجميع الناس باللعنة.

[١٦٢] ثم بين سبحانه إنهم خالدون في نار جهنم لا يخفف عنهم العذاب، ولا يمهلون، أو يُعذرون.

[١٦٣] واعلموا أيها الناس أن إلهكم إله واحد؛ أحدٌ فردٌ صمدٌ، متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا شبيه له ولا مثيل، ولا ند ولا نظير، لا معبود بحق إلا هو، الرحمن الرحيم؛ المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يماثلها رحمة أحد من الخلق.

[١٦٤] يخبر جلّ وعلا أن في خلق السماوات بارتفاعها وعظمتها، وفي خلق الأرض وما فيها من الجبال والسهول والبحار، وفي خلق الليل والنهار وتعاقبهما علىٰ الدوام، وفي خلق السفن والمراكب التي تجري في البحار لنفع الناس، وما أنزل الله من السماء من المطر لإحياء الأرض الميتة، وما نشر سبحانه في الأرض من الدواب علىٰ اختلاف أنواعها وأشكالها، وما أنعم الله به من تقلب الرياح والسحاب المسير بين السماء والأرض؛ لأدلة وبراهين عظيمة علىٰ قدرة الله ووحدانيته وعظيم سلطانه ورحمته؛ لكل من كان له عقل يتدبر به، ولمن يفهم أدلته سبحانه وتعالىٰ، ويعرف معناها ومقصودها.

[١٦٥] ثم قال جل في علاه: ومع هذه الأدلة القاطعة الواضحة البينة الدلالة علىٰ عظيم سلطانه وقدرته وحكمته سبحانه وتعالىٰ يوجد من الناس بسبب جهلهم وعنادهم وتكبرهم من يتخذون من دون الله أصنامًا وأوثانًا يجعلونهم شركاء لله، يحبونهم كحب المؤمن لله، وهناك من المسلمين من يلتجئ إلىٰ الصالحين ويعطونهم من المحبة والتعظيم في قبورهم ما لا يليق إلا بالله وحده.

ثم بين سبحانه أن الذين آمنوا بالله أشد وأعظم حبًّا لله من حب الكفار لآلهتهم؛ لأنهم أخلصوا المحبة لله وحده، ولو يعلم الذين أشركوا بالله كيف تكون حالهم يوم يرون العذاب يوم القيامة، ويعلمون أن القدرة لله وحده، وأنه سبحانه شديد العذاب؛ لما اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها ويتقربون إليها من دونه جل شأنه؛ فهم لا يعذرون بجهلهم في هذا، لأن الدعوة وصلتهم.

[١٦٦] يخبر جلّ وعلا أن أئمة الكفر والضلال يتبرؤون يوم القيامة ممن اتَّبعوهم علىٰ الكفر والشرك بعد أن رأوا العذاب الذي لا طاقة لهم به؛ بل وتنقطع بينهم المودة والصِّلات والمصالح التي ارتبطوا بها في الدنيا، وتظهر بينهم العداوة والبغضاء.

[١٦٧] ثم أخبر جل وعلا أن التابعين يتمنون لو أنهم يُردُّون إلىٰ الدنيا فيتبرأون من متبوعيهم، كما تبرأ المتبوعون منهم، ثم يُقبِلوا علىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ولكن هيهات لقد فات الأمر؛ فكما رأوا شدة العذاب، فإنهم سوف يرون أعمالهم الباطلة حسرات عليهم، ثم يكون مآلهم إلىٰ نار جهنم يدخلونها ولن يخرجوا منها أبدًا.

إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ
ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥
إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ
لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ
أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم
بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩

[١٦٨] يخاطب جلّ وعلا الناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم ويأمرهم أن يأكلوا مما أباحه لهم في الأرض، ويحذرهم أن يسلكوا طريق الشيطان في التحليل والتحريم؛ لأن الشيطان يتدرج في إخراج المؤمن من الصلاح شيئًا فشيئًا، ثم بين سبحانه أن الشيطان عدو ظاهر العداوة لجميع الناس.

[١٦٩] وبين سبحانه أن الشيطان يأمركم أيها الناس بكل الذنوب والمعاصي، وأن تفتروا علىٰ الله الكذب بالتحليل والتحريم بلا علم، وأن تبدلوا وتغيروا في شرع الله كذبًا وافتراءً.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا
عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا
يَهۡتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ
بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ
١٧١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ
وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ
ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ
أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦

[١٧٠] يخبر جلّ وعلا عن حال الكفار إذا أُمروا باتباع ما أُنزل علىٰ رسول الله ﷺ، ردُّوا قائلين: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فقال سبحانه منكرًا عليهم: أتتبعون آباءكم حتىٰ لو كانوا سفهاء، لا عقل يردعهم، ولا هدي يدلهم علىٰ طريق الحق؟! وقال تعالىٰ في آية أخرىٰ شبيهة بهذه الآية: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ**﴾ [المائدة:١٠٤]، وفي هذا تبكيت ولوم لهم.

[١٧١] ثم أخبر جلّ وعلا أن هؤلاء الكفار عند دعوتهم إلىٰ الهدىٰ والحق والإيمان، مثل الراعي الذي يصيح بغنمه فهي تسمع صوته ولا تفهم مراده، واعلموا أن هؤلاء الكفار صُمٌّ عن سماع الحق، خُرْسٌ عن النطق به، عُمْيٌ عن مشاهدة آيات الله الباهرة في السماوات والأرض؛ وأنهم كمن فقد عقله وصار كالأنعام التي لا عقل لها.

[١٧٢] يأمر جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يأكلوا من كل ما استلذ وطاب من الأطعمة التي رزقهم وأحلّها لهم، وعليهم أن يشكروا هذه النعم إنْ كانوا يعبدون الله بحق.

[١٧٣] واعلموا أيها المؤمنون إنما حرَّم الله عليكم أكل ما يضركم؛ كالميتة التي ماتت من غير تذكية شرعية، والدم المسفوح، أما الدم الذي يبقىٰ في العروق واللحم والعظام والكبد والقلب ونحو ذلك فلا شيء فيه، وكذلك مما حرم الله عليكم لحمُ الخنزير، وكل ما ذُبح لغير الله؛ كالذي يُذبح للأصنام وللأضرحة وغيرها، ولكن من ألجأته الضرورة إلىٰ أكل شيء من هذه المحرمات فإن الله أباح له ذلك، وأنه لا إثم عليه؛ بشرط أن يأكل بقدر ما يحفظ حياته؛ فلا يأكل من غير ضرورة، ولا يتجاوز في أكله قدر الضرورة، ثم ختم سبحانه الآية مبينًا أنه كثير المغفرة لعباده المؤمنين، وأنه رحيم بهم، ومن رحمته أنه أباح لهم ما حُرم عليهم إذا ألجأتهم الضرورة لذلك.

[١٧٤] يخبر جل وعلا أن الذين يخفون ما أنزل الله من الحق ويأخذون مقابل ذلك ثمنًا قليلًا؛ سوف يجعل الله في بطونهم نارًا بسبب ما أكلوه من المال الحرام، ولن يكلمهم سبحانه يوم القيامة بسبب غضبه وسخطه عليهم، ولن يطهرهم من دنس الكفر والمعاصي، ولهم يوم القيامة عذاب أليم موجع لا يطاق.

ولا شك أن الثمن الذي يؤخذ مقابل كتمان آيات الله أو تحريفها، فإنه مهما كان كثيرًا فهو قليل بالنسبة لعقوبة الله، وبالنسبة لما أعده سبحانه للمتقين.

[١٧٥] ثم أخبر جلّ وعلا أن أولئك الكفار الذين كتموا آيات الله قد اختاروا الضلالة علىٰ الهدىٰ، واختاروا العذاب في النار علىٰ مغفرة العزيز الغفار؛ فما أشد جرأتهم علىٰ النار التي لا تطاق لما فيها من العذاب الأليم. والاشتراء: هو بذل الثمن لامتلاك السعلة المطلوبة، ثم تُوُسِّعَ فيه فاستعمل في الرغبة عن الشيء طمعًا في غيره.

[١٧٦] ثم بين جلّ وعلا أن هذا العذاب الذي استحقوه بسبب كفرهم بما أنزل الله علىٰ رُسُلِهِ من الحق، وبين أن الذين اختلفوا في الكتاب فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه لفي محادّة لله، ونزاع بينهم، وبُعْدٍ عن الرشد والصواب.

[١٧٧] واعلموا أيها الناس أن الخير ليس محصورًا في توجه الإنسان في الصلاة إلىٰ جهة المشرق والمغرب فقط، ولكنْ هناك أنواعٌ من الخير يجب الحرص عليها، ومن ذلك: الإيمان بالله، باتباع أوامره واجتناب نواهيه، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالملائكة، والإيمان بجميع الكتب السماوية، والإيمان بجميع الرسل دون تفريق بينهم، وكذلك الخير في التصدق بالمال – مع شدة حبّه له – علىٰ ذوي القربىٰ، وعلىٰ اليتامىٰ المحتاجين، وعلىٰ المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم ويسد حاجتهم، وعلىٰ ابن السبيل الذي انقطعت به السبل، وعلىٰ السائلين الذين اضطروا للسؤال لشدة حاجتهم، وفي تحرير الرقيق والأسرىٰ، وكذلك الخير في إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، والوفاء بالعهود والمواثيق، والصبر علىٰ الفقر والمرض، والصبر في شدة القتال؛ ثم بين سبحانه أن كل من اتصف بهذه الصفات فقد صدق في إيمانه وإخلاصه، وأنه من أصحاب التقوىٰ حقًّا؛ لأنهم اتقوا عذاب الله بالبعد عن الذنوب والمعاصي.

وقوله: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ﴾، جاءت مرفوعة للاختصاص وبيان أهمية الوفاء بالعهود.

[١٧٨] وهذا نداء من الله لعباده المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه بين فيه أنه فرض عليهم القصاص من كل من وقع في جريمة القتل عمدًا، وذلك بقتله؛ ثم فصَّل سبحانه فأخبر أن الحر يقتل بالحر، والعبد يقتل بالعبد، والأنثىٰ تقتل بالأنثىٰ، ثم بين أن من عَفَىٰ وأسقط حقه في القصاص ورضي بالدية؛ فعلىٰ صاحب الحق أن يقبل بالدية من غير أن يشق علىٰ خصمه، وعلىٰ القاتل أن يدفع الدية من غير تسويف أو مماطلة، ولا شك أن إسقاط القصاص والقبول بالدية هو تخفيف ورحمة من ربكم؛ فمن اعتدىٰ بعد ذلك وقام بقتل القاتل بعد العفو عنه وأخذ الدية؛ فله من الله عذاب أليم شديد موجع، وذلك بالاقتصاص منه في الدنيا، والعذاب في النار في الآخرة.

قال المفسرون: المقصود من هذه الآية: منع التعدي علىٰ غير الجاني، وتفيد أيضًا: شرعية القصاص الذي يجب أن ينفذه الحكام وأمراء المؤمنين.

وقد ورد أن الإمام الثوري وأبي حنيفة يقولان بقتل الحر بالعبد، والمؤمن بالكافر، وأن التفاضل في النفس غير معتبر بدليل قتل الجماعة بالواحد. وأما مالك والشافعي فلا يقولان بقتل الحر بالعبد، ولا المؤمن بالكافر، وهو قول الجمهور.

[١٧٩] واعلموا ياأصحاب العقول السليمة والأفكار القويمة أن الله سبحانه وتعالىٰ شرع لكم القصاص لكي تُحقن الدماء وتتحقق الحياة الآمنة، ولكي تتقون الله فتكفوا عن البغي والعدوان والظلم، ولا شك أن من فكر في اقتراف جريمة القتل وعرف أنه سيقتل جزاءً، عَدَلَ عن هذه الجريمة؛ فكان في تركه القتل حياة للطرفين.

۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾

[١٨٠] يخبر جل وعلا أنه فرض علىٰ كل مؤمن منَّ الله عليه بمال وعليه التزامات وديون وشعر بقرب الأجل وعلامات الموت؛ أن يكتب وصيته للوالدين والأقربين بالعدل، بشرط أن لا تزيد الوصية لهم عن الثلث، ثم أخبر سبحانه أن هذه الوصية حق واجب علىٰ المتقين الذين يخافون الله في السر والعلن، أما إذا لم يكن عليه ديون أو التزامات فإنه يستحب له الوصية وليست فرضًا.

وقد ورد في هذه الآية قولان:

القول الأول: أنها نُسخت بآية المواريث.

والقول الثاني: وهو الأحسن، أنها للوالدين المحجوبين الذين لا يستحقان من الفروض الإرثية شيئًا؛ كالجد المحجوب بأب الميت، والجدة المحجوبة بالأم المباشرة، ونحوهم من الأقارب الذين ليس لهم فروض إرثية؛ فلا يحرمون من الوصية إذا أوصىٰ لهم الوارث.

[١٨١] ثم أخبر سبحانه أن من غَيَّر هذه الوصية أو حرَّف فيها أو كتمها؛ فإن إثمها علىٰ من ارتكب ذلك؛ واعلموا أيها الناس أن الله سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم؛ فهو يسمع ويرىٰ كل ما تم في هذه الوصية، ويعلم عمل الموصي ونيته.

فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ
عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ
مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى
ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا
فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ
ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ
مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ
عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

[١٨٢] ثم أخبر جلّ وعلا أن من تخوف من ميل الموصي في الوصية علىٰ سبيل الخطأ أو العمد فيضر بالورثة؛ كأن يوصي بحرمان بعض الورثة، أو يوصي بأكثر من الثلث، فإنه لا يجوز تنفيذ مثل هذه الوصية، وعلىٰ من حضر الوصية أن ينصح الموصي بأن يَعْدِلَ في الوصية؛ فإذا لم يرضَ فعليه أن يسعىٰ في الإصلاح بين الورثة بأن يغيروا الوصية لتصبح كما شرع الله؛ وليس علىٰ المصلح ذنب بهذا التغيير؛ لأن المقصود من هذا التغيير هو الوصول إلىٰ الحق، والله عظيم المغفرة يغفر لمن يشاء من عباده، رحيم بهم وقد وسعت رحمته كل شيء.

[١٨٣] وهذا نداء من المولىٰ عز وجل لعباده الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه، بيَّن فيه أنه فرض عليهم الصيام كما فُرض علىٰ الذين من قبلهم؛ لعلهم بهذا الصوم أن يكونوا من المتقين الذين يتقون الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

ومعلوم أن صوم رمضان يجب برؤية هلال رمضان، واختلف أهل العلم: إذا رؤي الهلال في بلد فهل يجب الصوم علىٰ جميع أهل البلدان؟ أم لكل أهل بلد رؤيته؟

قال الإمام مالك وأبو حنيفة وأحمد: إذا رؤي الهلال في بلد وجب الصوم علىٰ كل المسلمين.

أما الشافعي فقد فصل حيث قال: إذا رؤي الهلال في بلد لزم الصوم أهل البلاد القريبة دون البعيدة، وأما البلاد البعيدة فلكل بلد رؤيته، أي: حسب تعدد المطالع، وعمل المسلمين اليوم علىٰ هذا القول.

[١٨٤] ثم أخبر جلّ وعلا أَنَّهُ فرض عليكم أيها الناس الصيام أيامًا معدودة؛ فمن كان منكم مريضًا لا يطيق الصيام، أو كان مسافرًا يشق عليه الصيام؛ فقد رخص الله له في الفطر، وعليه أن يقضي الأيام التي أفطرها بعد رمضان، أما الذين يشق عليهم الصيام ولا يقدرون عليه؛ كالشيخ الكبير والمريض الذي لا يُرجىٰ شفاؤه؛ فعليهم فدية عن كل يوم يفطرونه، وهي إطعام مسكين، ومن زاد في الفدية فهو فضل وخير له، ثم بين سبحانه أن الصيام مع تحمل المشقة أفضل لكم من الفطر وإعطاء الفدية، إن كنتم تعلمون أيها الناس فضل الصيام ومنافعه وفوائده.

قال أكثر المفسرين: الرخصة الواردة في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، منسوخة بالآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

وقال آخرون: إنها نسخت بالنسبة للقادر، أما الشيخ الكبير العاجز، والعجوز الكبيرة العاجزة، أو المصاب بمرض لا يُرجىٰ زواله، وقد قرر الطبيب المختص أن الصوم يضره، ومن كانت ظروفه شبيهة بهذه الحالات؛ فإنها غير منسوخة في حقِّه، وهذا هو الذي عليه عمل المسلمين اليوم.

[١٨٥] ثم أخبر جلّ وعلا أن شهر رمضان هو الشهر الذي أُنزل فيه القرآن الكريم، وهذا القرآن جعل الله فيه الهدىٰ والنور للناس، وهو كتاب واضح في أحكامه ودلائله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد فرق الله به بين الهدىٰ والضلال، والحق والباطل؛ ولذا يجب علىٰ من حضر منكم شهر رمضان فعليه أن يصومه، وأما من كان مريضًا لا يطيق الصيام، أو كان مسافرًا؛ فيرخص له بالفطر، ولكن عليه أن يقضي ما أفطره بعد انتهاء الشهر؛ واعلموا أيها الناس أن الله يريد لكم اليسر والتسهيل، ولا يريد لكم المشقة والعسر، وعليكم أن تتموا صيام الشهر بقضاء ما أفطرتم، وأن تختموا شهركم بتكبير الله تعظيمًا له علىٰ أن هداكم ووفقكم ويسر أموركم، وأن تشكروه سبحانه علىٰ نعمه التي أنعم بها عليكم، ومن ذلك إخراج زكاة الفطر ودفعها لمستحقيها فهذا من شكر الله علىٰ إتمام صيام شهر رمضان.

[١٨٦] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ إذا سأله الناس هل هو قريب أم بعيد؟ أن يجيبهم بأنه قريب من عباده؛ وأنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه؛ مع أنه فوق عرشه، وعليهم إذا أرادوا إجابة دعائهم أن يستجيبوا لأوامر الله، وأن يثبتوا علىٰ الإيمان الصحيح؛ لعلهم يهتدوا إلىٰ طريق الفلاح والإيمان والعمل الصالح.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ
لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ
تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ
بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ
ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ
عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟
أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ
لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ
وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ
مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ
يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

[١٨٧] يخبر جل وعلا أنه أباح للناس في ليالي رمضان جماع نسائهم؛ لأنهن ستر وحفظ لهم، وهم ستر وحفظ لهن؛ وذلك أنه كان في أول فرض الصيام يحرم الأكل والشرب والجماع في الليل بعد النوم؛ فشق ذلك عليهم، وكان بعضهم يحدث نفسه بالجماع وبالأكل والشرب وربما وقع فيه، ورحمة بكم وشفقة عليكم أيها الناس فإن الله سبحانه تاب عليكم وعفا عمَّا وقعتم فيه من خطأ، ورخَّص لكم أن تجامعوا نساءكم في ليالي رمضان، ولتكن نيتكم من هذا الجماع هو التمتع بالنساء للإعفاف والحصول علىٰ الولد، واعلموا أيها الناس أن الله أباح لكم الجماع والأكل والشرب منذ غروب الشمس حتىٰ يظهر ضياء الصباح من سواد الليل؛ فإذا طلع الصبح فيجب عليكم أن تمسكوا عن الجماع والأكل والشرب، وعليكم أن تستمروا في صيامكم حتىٰ غروب الشمس، ثم نهىٰ سبحانه أن يجامع أحدكم زوجته ليلًا وهو معتكف في المسجد؛ لأن ذلك يفسد الاعتكاف، ثم أخبر سبحانه أن هذه الأحكام التي بينها ووضحها هي حدوده التي حدّها لكم فلا تتجاوزوها وتنتهكوها، وبمثل هذا التوضيح والتبيين الذي بينه الله لكم في هذه الأحكام، يُبيِّن سبحانه أدلته وحججه للناس لكي يحفظوا أنفسهم من الوقوع في الآثام والمعاصي، وأن يحذروا عقاب الله وعذابه الأليم.

[١٨٨] واحذروا أيها الناس أن تتعدوا في معاملاتكم الشرعية فيأكل بعضكم مال بعض بالباطل بكل أنواعه؛ كالربا والسرقة والنصب والاحتيال وغير ذلك، ولا تقدموا للحكام رشوة أو حججًا باطلة تكون سببًا في أكل أموال بعض الناس بالباطل، وأنتم تعلمون حرمة ذلك، وتعلمون أنكم علىٰ باطل، وجاء التعبير بالأكل لأن الأموال المقصود منها الأكل والاستمتاع.

[١٨٩] ثم بين سبحانه أن الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبي ﷺ عن الحكمة من هذه الأهلة، فأمره أن يقول لهم: لقد جعل الله هذه الأهلة علامات للناس يعرفون بها أوقات عباداتهم كالصيام والحج والعمرة، ويعرفون أمورهم التي تحتاج إلىٰ توقيت؛ كعدة الوفاة وعدة المطلقة وغير ذلك، واعلموا أيها الناس أنه ليس من الخير أن تأتوا البيوت من ظهورها كما كان أهل الجاهلية يفعلون حين يحرمون بالحج والعمرة، ولكن الخير كل الخير من اتقىٰ الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، وعليكم أن تدخلوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله في كل أموركم لعلكم تفوزون بكل ما تحبون من خيري الدنيا والآخرة.

وقد روي أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غَنْم سألا النبي ﷺ عن صيرورة الهلال، يبدأ هلالًا، ثم بدرًا، ثم يعود هلالًا، وهكذا؛ فنزلت هذه الآية إجابة ولكن ليس لما سألوا عنه، وإنما لما هو أهم وهو ما يترتب علىٰ ذلك من أمر العبادات.

وهكذا ينبغي للعالم والأب إذا سُئل عن أشياء ولو كانت بسيطة وهامشية؛ فعليه أن يوضح للسائل المراد والمنافع والفوائد المهمة.

[١٩٠] يأمر جلّ وعلا المؤمنين أن يجاهدوا في سبيل الله لنصرة دين الله، وأن يقاتلوا الذين يقاتلونهم من الكفار، ولا يتجاوزوا في قتل من ليس من أهل القتل، كقتل الأطفال والنساء والشيوخ وغيرهم؛ فإن الله لا يحب الظالمين الذين يتجاوزون حدوده.

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ
أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ
فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ
بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ
وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ
فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ
مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ
فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ
وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

[١٩١] يأمر جلّ وعلا المسلمين بقتال الكفار الذين سبق أن قاتلوهم وأخرجوهم من بلادهم وهي مكة، فعليكم أيها الناس أن تقتلوهم حيث وجدتموهم وأمسكتم بهم؛ وأن تخرجوهم وتشردوهم من حيث أخرجوكم؛ واعلموا أن الفتنة التي يدبرونها لتحويل المسلمين إلىٰ الكفر والشرك أشدُّ وأعظم من قتلكم إياهم، ثم استثنىٰ سبحانه من ذلك قتالهم عند المسجد الحرام؛ فإن ذلك لا يجوز، إلا إذا ابتدأ الكفار بالقتال فإنهم يُقتَلُون؛ لأنهم انتهكوا حرمة الحرم، ثم بين سبحانه أن هذا هو جزاء المجرمين الباغين.

ولاحظ أن الله جل في علاه قال: ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ ولم يقل: (فقاتلوهم)؛ لأنهم ارتكبوا جرمين:

الأول: البغي.

والثاني: انتهاك حرمة بيت الله الحرام.

[١٩٢] ثم أمر سبحانه المسلمين بالتوقف عن قتال الكفار إذا توقفوا عن قتالكم، وتابوا ودخلوا في دين الله؛ وفي هذه الحال عليكم أن تعفوا وتصفحوا عنهم؛ واعلموا أن الله غفور لعبادة التائبين، رحيم بهم، وأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

[١٩٣] ثم أمر جلّ وعلا المسلمين أن يقاتلوا الكفار حتىٰ تنكسر شوكتهم وتنهار قوتهم، وحتىٰ لا يفتنوا المسلمين عن دينهم، ويصبح دين الله هو الظاهر علىٰ سائر الأديان؛ فإن توقفوا عن قتالكم فلا تعتدوا عليهم، ومن اعتدىٰ بعد ذلك فقاتلوا المعتدي؛ لأنه من الظالمين المتجاوزين لحدود الله.

[١٩٤] ثم بين سبحانه أنه في حال قاتلكم المشركون في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام، مجازاة لهم علىٰ عدوانهم؛ لأن من ارتكب محرمًا عوقب بمثله؛ فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه مِثْلًا بمثل وسواء بسواء، واتقوا الله فلا تتجاوزوا في الاعتداء والعقوبة؛ واعلموا أن الله مع المتقين يعينهم وينصرهم ويؤيدهم.

[١٩٥] يأمر جلّ وعلا بإنفاق المال في سبيل الله لنصرة دينه وإعلاء كلمته، فإن من ترك الجهاد في سبيل الله أو الإنفاق فيه، فقد عرّض نفسه للهلاك، وأحسنوا في أعمالكم واجعلوها خالصة لوجهه الكريم؛ فإن الله يحب المحسنين.

[١٩٦] ثم أمر جل وعلا الذين أحرموا بالحج والعمرة أن يُتِمُّوا ما أحرموا به كما هو مشروع ولو كان نفلًا؛ فإن مُنعوا أو حُجزوا عن الحرم بعد الإحرام؛ بسبب مرضٍ، أو ذهاب نفقةٍ، أو أي مانع قهري؛ فحينئذ عليهم إذا أرادوا أن يتحللوا من الإحرام، أن يذبحوا ما تيسر من الهدي، وعليهم أن لا يحلقوا رؤوسهم حتىٰ ينحروا هديهم في الموضع الذي أُحصروا فيه، أما غير المحصَرِ فلا ينحر هديه إلا في الحرم، أما من كان مريضًا، أو كان به أذًىٰ في رأسه واضطر أن يحلق رأسه وهو مُحرم فله أن يحلق، ولكن يجب عليه في هذه الحال فدية، وهي: إما أن يصوم ثلاثة أيام، أو يتصدق علىٰ ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، أو يذبح شاة توزع علىٰ فقراء الحرم، فإذا كنتم أيها الناس آمنين وتمكنتم من الوصول إلىٰ الحرم في أمن وأمان وصحة وعافية، ثم أديتم العمرة في أشهر الحج، ثم أحرمتم بالحج في نفس العام فعليكم ذبح ما تيسر من الهدي؛ فمن لم يتمكن من شراء الهدي إما لفقد مال أو لعدم الحصول علىٰ الهدي ونحو ذلك؛ فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة أيام إذا رجع إلىٰ بلده، فهذه عشرة أيام يجب صيامها، واعلموا أن هذا الهدي وهذا الصيام لمن لم يكن من سكان الحرم؛ لأن سكان الحرم ليس عليهم هدي.

ثم ختم سبحانه الآية بأمر الناس بتقوىٰ الله في جميع أمورهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك العمل بكل هذه الأحكام وغيرها التي شرعها الله لهم، واعلموا أن من حَادَ عن التقوىٰ وارتكب المحرمات فإن الله شديد العقاب.

وقد اختلف أهل العلم: هل العمرة سنة أو واجبة؟ فعند أبي حنيفة: أنها سنة، وعند أحمد والشافعي ومالك: أنها واجبة كالحج في العمر مرة واحدة علىٰ المستطيع.

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

[١٩٧] يخبر جلّ وعلا أن الحج أشهر معلومات وهن: شوال وذو القَعْدَةِ وعشر من ذي الحجة، فمن أحرم فيها بالحج لزمه ذلك، وحينئذٍ يحرم عليه الرفث وهو الجماع ومقدماته، ويحرم عليه تجاوز أحكام الشرع؛ كما يحرم ذلك عليه في كل الشهور، ويحرم عليه أيضًا الجدال والمخاصمة، واعلموا أن كل ما تفعلوه من الأعمال الصالحة والطاعات والقربات فإن الله عليم بها، ثم بين سبحانه أن من عزم علىٰ الحج فعليه التزود بما يحتاجه من قوت ورفقة صالحة، واعلموا أن الزاد الأهم هو التقوىٰ؛ فإنه أعظم زاد؛ لأنه يوصل إلىٰ رضوان الله، وإلىٰ الجنة دار القرار، ثم أمر سبحانه أصحاب العقول السليمة أن يتقوا ربهم ويخافوا عذابه ويخشوا عقابه.

[١٩٨] ثم أخبر جل وعلا أنه ليس علىٰ الحجاج حرج في البيع والشراء في موسم الحج، مع عدم الإخلال بالشعائر المطلوبة؛ فإذا خرجتم من عرفات متوجهين إلىٰ مزدلفة فاذكروا الله عند المشعر الحرام، وأكثروا من ذكره شكرًا علىٰ هدايته لكم إلىٰ الصراط المستقيم؛ وتذكروا حالكم قبل الهداية حيث كنتم في شر وضلال عظيم وقد أنجاكم الله منه.

[١٩٩] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ الحجاج أن يفيضوا من مزدلفة صباح العيد متوجهين إلىٰ منىٰ، وعليهم حال الإفاضة بكثرة الاستغفار؛ فإن الله غفور لعباده المستغفرين، رحيم بهم.

[٢٠٠] ثم وجه المولىٰ عز وجل الحجاج إذا أتموا مناسك الحج فعليهم أن يذكروا الله ذكرًا كثيرًا كما كانوا يفتخرون بآبائهم قبل الإسلام وذلك في منىٰ؛ بل عليهم ان يذكروا الله أعظم من ذلك؛ واعلموا أيها الناس أن منكم من يكون همه وغاية مراده الدنيا فقط، فهؤلاء ليس لهم في الآخرة حظ ولا نصيب.

[٢٠١] واعلموا أن منكم من يدعو ربه بخيري الدنيا والآخرة؛ فيدعو الله أن يرزقه المال والصحة والعلم ونحو ذلك، ويسأل الله أن يدخله الجنة ويَصرِفَهُ عن عذاب النار. وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، دعاء عظيم جامع، وقد كان ﷺ يردده كثيرًا بين الركنين أثناء طوافه بالكعبة المشرفة.

[٢٠٢] واعلموا أيها الناس أن أولئك الذين سألوا الله خيري الدنيا والآخرة لهم نصيب وحظ وافر من الأجر والثواب العظيم بسبب ما كسبوه من الأعمال الصالحة، والله سريع الحساب لعباده علىٰ كثرتهم؛ فإنه سيجازيهم في وقت واحد لا يتصوره أحد، ولا يشغله شأن عن شأن.

۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

[٢٠٣] يأمر جلّ وعلا حجاج بيت الله بكثرة ذكره في أيام الحج لأنها أيام معدودات قليلة، وهي يوم عيد الأضحىٰ والثلاثة الأيام التي بعده والتي تسمىٰ بأيام التشريق، وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة، ثم بين سبحانه أن من أراد التعجل وخرج من منىٰ قبل غروب شمسِ اليوم الثاني عشر بعد رمي الجمار فلا حرج ولا إثم عليه، ومن أراد التأخر، أي: بات في منىٰ حتىٰ يرمي جمار اليوم الثالث عشر من ذي الحجة فلا حرج ولا إثم عليه، وذلك لمن اتقىٰ الله في حجه وأدىٰ المناسك كما شُرعت؛ وعليكم أيها الناس بتقوىٰ الله وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، واعلموا أنكم سوف تحشرون يوم القيامة إليه، وسيجازيكم علىٰ أعمالكم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٢٠٤] يخبر جلّ وعلا أن بعض المنافقين إذا تكلم أُعجب السامع بكلامه، لفصاحته وبلاغته، بل يُخبر أن الله يعلم ويشهد علىٰ ما في قلبه وأنه مطابق لما يقول، وهو في الحقيقة كاذب في أقواله واعتقاداته؛ بل إنه شديد العداوة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

[٢٠٥] ثم بين جل وعلا أن هذا الذي أعجبكم أيها الناس قوله فإنه إذا خرج من عندكم سعىٰ في الأرض فسادًا بنشر الكفر والذنوب المعاصي وَزَرْعِ الفتنة بين الناس؛ فتهلك بسبب ذلك الزروع والثمار والأنعام، وفي هذا دليل علىٰ أن الذنوب والمعاصي سبب في هلاك الزروع والثمار والحيوانات، واعلموا أن الله لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين.

[٢٠٦] ثم أخبر جل وعلا أن هذا المنافق إذا نُصح وأُمر بتقوىٰ الله تكبَّر وعاند وأخذته العزة بالإثم، وهذا ليس له إلا نار جهنم وبئس المصير والمستقر والمسكن.

[٢٠٧] ثم بين جل وعلا أن هناك صنفًا من الناس موفقون لأنهم باعوا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله بالجهاد في سبيله، والله رؤوف بالعباد ومن رأفته بهم توفيقهم لمرضاته.

[٢٠٨] يأمر جل وعلا عباده المؤمنين أن يقبلوا بجميع شرائع الإسلام وأحكامه، ولا يتركوا منها شيئًا، ولا يتبعوا طرق الشيطان الخبيثة؛ فإنه لهم عدوٌّ مبين ظاهر العداوة. وقوله: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: تفيد أن الشيطان من خبثه يتدرج مع الإنسان لإيقاعه في الكفر والذنوب والمعاصي، وزرع الفتنة بين الناس، والتشكيك في دين الله؛ بحيث يأخذه خطوة خطوة حتىٰ يحير من يصغىٰ إليه.

[٢٠٩] ثم حذر سبحانه الناس إذا ضلوا عن طريق الحق بعد أن ظهرت لهم الدلائل والبراهين؛ وعليهم أن يعلموا أن الله عزيز ينتقم ممن عصاه، وحكيم في أمره ونهيه؛ فلا يعاقب من ليس من أهل العقاب.

[٢١٠] ثم هدد سبحانه الذين رفضوا الدخول في دين الله بعد أن أقيمت عليهم الحجج والبراهين، فقال سبحانه: ما ينتظر هؤلاء المفسدون في الأرض المُتَّبِعون لخطوات الشيطان إلا أن يأتيهم الله عز وجل يوم القيامة يوم الجزاء علىٰ الأعمال في ظُلَل من السحاب علىٰ الوجه اللائق به سبحانه وتعالىٰ؛ ليفصل بين العبَّاد بعدله، وقد قُضي الأمر وفُرغ منه وهو إهلاكهم، واعلموا أيها الناس أنه إليه وحده جلّ في علاه تعود أمور الخلائق.

وفي قوله: ﴿أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾، فإن أغلب الفرق الإسلامية كالأشاعرة والمعتزلة وغيرهم يؤولون بعض الصفات، ومن ذلك (إتيان الله)؛ فيقولون: يأتي أمره.

أما أهل السنة والجماعة فيثبتونها كما أثبتها الله لنفسه من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تشبيه، ولا تكييف، ويقولون: إن الله يأتي لكنه إتيان يليق بجلاله وعظمته لا نعرف كيفيته، كما لا نعرف كيفية ذاته ولا نعرف كيفية مجيئه.

سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ
لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ
﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ
فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ
إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ
وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ
ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ
مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ
وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾

[٢١١] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يسأل بني إسرائيل: كم أعطاهم الله من الآيات البينات الواضحات؟ فكذبوا وأعرضوا وبدلوا ولم يشكروا نعم الله عليهم، ولذا فإن من بدل دين الله وكفر به من بعد أن جاءته البينات والأدلة الواضحات؛ فقد استحق العذاب الأليم والعقاب الشديد.

[٢١٢] يخبر جلّ وعلا أن الذين جحدوا دين الله زُيِّنَتْ لهم الحياة الدنيا فأحبوها وقدموها علىٰ الآخرة، وسَخِرُوا من المؤمنين، وما عَلِمُوا أن هؤلاء المؤمنين الذين يخشون ربهم قد جعلهم الله في أعلىٰ المنازل والدرجات في الجنة، وأما أنتم أيها الكفار المستهزؤون بالله ورسوله وآياته والمؤمنين فقد جعلكم الله في أسفل دركات النار، واعلموا أن الله يرزق من يشاء من خلقه بغير حساب.

[٢١٣] ويخبر جل وعلا أن الناس كانوا متفقين علىٰ الإيمان؛ وكانوا فرقة واحدة من آدم إلىٰ نوح عليهم السلام، عشرة قرون وهم علىٰ ذلك كما قال ابن عباس رضي الله عنه، ثم في عهد نوح اختلفوا، وهكذا في القرون التي بعده، فأرسل الله الرسل تباعًا مبشِّرين ومنذرين لئلّا يكون للناس علىٰ الله حجَّة، وأنزل معهم الكتب التي فيها بيان أمور دينهم ودنياهم ليتحاكم إليها الناس فيما اختلفوا فيه، ولكن خالف اليهود والنصارىٰ في نبوة محمد ﷺ، وخالفوا في القرآن بعد أن جاءتهم الأدلة الصحيحة الواضحة التي تدل علىٰ صدقه؛ حسدًا وبغيًا من عند أنفسهم، وكذلك خالف في نبوة محمد ﷺ جماعات كثيرة غير اليهود والنصارىٰ، كالكفار بجميع معتقداتهم، والعلمانيين، والدهريين، وغيرهم كثير، ثم وفَّق الله الذين آمنوا بالله ورسوله إلىٰ التمسك بالحق والنور والإيمان الذي خالف فيه أهل الكتاب وغيرهم، والله سبحانه يوفق ويهدي من يشاء إلىٰ طريقه المستقيم الموصل إلىٰ جنة رب العالمين.

[٢١٤] هذا خطاب للنبي ﷺ وأتباعه تشجيعًا وحثًّا لهم علىٰ الثبات والمصابرة ليحصلوا علىٰ النصر، فيقول جل وعلا: هل تظنون أيها المؤمنون بأنكم ستدخلون الجنة بدون أن تُمْتَحَنُوا وَتُبْتَلَوْا، كما حدث لمن قبلكم من المؤمنين الذين أصابهم الفقر والأمراض والخوف والرعب وزلزلت قلوبهم بكل أنواع المخاوف وهددوا بالقتل والتشريد؛ حتىٰ قال الرسول وأتباعه الذين معه: متىٰ يأتي نصر الله؟ فاعلموا أن نصر الله قريب من عباده المؤمنين، وأن فَرَجَهُ آت؛ فلا تيأسوا أيها المؤمنون من نصر الله.

[٢١٥] يخبر سبحانه وتعالىٰ أن أصحاب النبي ﷺ سألوا نبيهم: بماذا يتصدقون؟ وعلىٰ من يتصدقون؟ فأمره جل وعلا أن يقول لهم: تصدقوا بما تيسر عندكم من الخير والمال الحلال، واجعلوا صدقتكم للوالدين أولًا فهم أولىٰ الناس، بل إنه يجب النفقة عليهم إذا كانوا فقراء، وكذلك للأقربين من أهلكم وأرحامكم، ثم اليتامىٰ الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ، ثم المساكين، ثم ابن السبيل الذي انقطعت به السبل، واعلموا أن كل خير تفعلوه قليلًا كان أو كثيرًا فإن الله يعلمه، وهو محفوظ لكم عنده وسوف يجازيكم عليه علىٰ حسب نيتكم وإخلاصكم.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

[٢١٦] يخبر جلّ وعلا رسوله وعباده المؤمنين أنه فرض عليهم قتال الكفار والمشركين وهو يعلم أن القتال مكروه لهم لمشقته وكثرة مخاطره، ثم أخبر أن ما يكرهونه قد يكون فيه الخير، وما يحبونه قد يكون فيه الشر، والله يعلم ما فيه صلاحكم وفلاحكم أيها الناس وأنتم لا تعلمون، فيجب عليكم التسليم لله تعالىٰ في كل ما شرعه لكم، والمبادرة في تنفيذه.

[٢١٧] ثم أخبر سبحانه أن المشركين سألوا النبي ﷺ عن الشهر الحرام، هل يجوز القتال فيه؟ وكان سؤالهم عن الشهور الأربعة التي حُرِّمَ فيها القتال، والمذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة:٣٦]، فأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أيها الكفار أن القتال وسفك الدماء في الشهر الحرام محرم وإثمه عظيم، ولكن مَنْعُ الناس من الإسلام، ودعوتهم للكفر بالله، ومنعهم من دخول المسجد الحرام، وإخراج النبي وأصحابه منه؛ كل هذا أعظم إثمًا عند الله من القتال في الشهر الحرام، واعلموا أن شرك المشركين في الحرم وإرغام المسلمين علىٰ ترك دينهم أعظم عند الله إثمًا من انتهاك حرمة الأشهر الحرم. ثم اعلموا أيها المسلمون أن الكفار سوف يستمرون في قتالكم حتىٰ يردوكم عن دينكم إلىٰ الكفر إن استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلًا؛ فمن يطعهم ويرتد عن دينه ويموت علىٰ الكفر فأولئك ذهبت أعمالهم هباءً في الدنيا والآخرة، وصاروا من أصحاب النار خالدين مخلدين فيها.

وهذه الأربعة أشهر جعلها الله رحمة لعباده؛ حيث إن الثارات والغارات كانت من عادات القبائل والعشائر طوال أيام السنة، ففرض الله هذه الأشهر الحرم رحمة بعباده لكي يضعوا فيها السلاح ويلتزموا بالسلام والأمان، ويتركوا هجوم بعضهم علىٰ بعض، واستمر هذا في أول الإسلام، ثم دانت أكثر الأمم بالإسلام، وأصبح الذي يحكم بالدماء هم القضاة الشرعيون، وأصبحت السنة كلها أشهر حُرُم لا يَقْتَصُّ أحد لنفسه؛ لأن الحكم في ذلك يعود لشرع الله وللحكام القائمين به.

[٢١٨] ثم أخبر جل وعلا أن الذين آمنوا بالله ورسوله، والذين تركوا بلادهم وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله، أولئك يطمعون في رحمة الله التي تُدْخِلَهم الجنة، والله عظيم المغفرة، واسع الرحمة.

[٢١٩] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أنهم سألوا النبي ﷺ عن حكم شرب الخمر وشرائه وبيعه، وعن حكم الميسر وهو القمار بكل أنواعه؛ والخمر: هو كل ما خامر العقل، وهو السُّكْر، والقمار: هو جميع المغالبات التي تتم بعوض بين الطرفين؛ فأمره جل وعلا أن يقول لهم: اعلموا أيها الناس أن في الخمر والميسر أضرارًا ومفاسدَ كثيرة في الدين والدنيا، وليس فيهما منافع إلا شيئًا يسيرًا من جهة كسب الأموال وغيرها، وهو لا يعادل شيئًا مقابل مضارهما الكبيرة. ثم سألوا النبي ﷺ ماذا ينفقون؟ فأمره الله أن يقول لهم: أن ينفقوا من أمولهم ما كان زائدًا عن الحاجة الضرورية، واعلموا أن بمثل هذا البيان الشافي الكافي يبين الله لكم الآيات والدلالات الواضحة علىٰ شرعه لكي تستعملوا أيها الناس أفكاركم فيما ينفعكم في الدنيا والآخرة.

قال صاحب تفسير التنوير: إن بعض الصحابة قال: من زوج ابنته لشارب خمر فقد قادها إلىٰ الزنا.

وقال الشاعر عن الخمر:

أرىٰ كل قوم يحفظون حريمهم

وليس لأصحاب النبيذ حريم

والنبيذ هنا المقصود به: الخمر.

....

....

....

....

فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾

[٢٢٠] ثم سألوا النبي ﷺ عن اليتامىٰ الذين مات أباؤهم وهم دون سن البلوغ، فأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يخبرهم أن المهم هو إصلاح أموالهم بحفظها وتنميتها، وإن خلطتم أموالهم مع أموالكم مع عدم الإضرار بمال اليتيم فأنتم إخوان في الدين، والله يعلم من يريد إفساد مال اليتيم ممن يريد إصلاحه، ولو أراد الله لضيَّق عليكم بتحريم المخالطة، ولكن يسر الله عليكم ثقة في حرصكم علىٰ الأمانة، وحرصكم علىٰ تنميتها كما تنمون أموالكم، واعلموا أن الله عزيز في ملكه، حكيم في أمره؛ لا يفعل إلا ما هو مقتضىٰ حكمته سبحانه وتعالىٰ.

[٢٢١] ثم نهىٰ جلّ وعلا المؤمنين أن يتزوجوا من النساء المشركات حتىٰ يدخلن في الإسلام؛ وبين أن الزواج من الأمة المسلمة خير من هذه المشركة، ولو كانت هذه المشركة ذات مال وجمال ونسب، وقد استثنىٰ سبحانه من ذلك نساء اليهود والنصارىٰ العفيفات الطاهرات؛ فإنه يجوز التزوج منهن، ثم نهىٰ المؤمنين أن يُزَوِّجوا بناتهم المؤمنات للمشركين، وبين أن تزويجها لعبد مسلم فقير خير من تزويجها لمشرك، ولو كان هذا المشرك ذا مال وحسب ونسب؛ لأن المشركين يدعون كل من يعاشرهم ويخالطهم إلىٰ النار، وإلىٰ كل سبب يُدْخِلُ النار، والله سبحانه وتعالىٰ يدعو إلىٰ الجنة، وإلىٰ كل سبب يُدْخِلُ الجنة ومغفرة الذنوب، والله يوضح لكم أيها الناس آياته لكي تتذكروا فتعتبروا.

[٢٢٢] ثم سأل الصحابة النبي ﷺ عن الحيض، الذي هو: دم يسيل من رحم المرأة في أوقات مخصوصة؛ فأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أيها الناس أن الحيض أذىٰ وأنه مضرٌ؛ فعليكم اعتزال النساء وعدم مجامعتهن أثناء فترة الحيض، وعليكم أن لا تجامعوهن حتىٰ ينقطع دم الحيض ثم يتطهرن؛ فإذا طهرت المرأة واغتسلت فجامعوها من حيث أمركم الله وهو بالقبل، واعلموا أن الله يحب التوابين من ذنوبهم، ويحب المتنزهين عن الفواحش والأقذار.

[٢٢٣] يخبر جلّ وعلا أن زوجاتكم موضع انجاب أولادكم فجامعوهن كيفما تريدون مقبلة أو مدبرة، بشرط أن يكون في القبل - أي: الفرج -؛ لأنه محل الحرث الذي يحصل منه الولد، وقدموا لأنفسكم من الخير الذي ينفعكم عند الله عز وجل، ومن ذلك أن تكون نيته عند جماع امرأته تحصين فرجه وفرج أمرأته وطلب الولد الصالح، وعليكم بتقوىٰ الله في اجتناب ما نهاكم عنه فإنكم غدًا ملاقوه ومحاسبون علىٰ أعمالكم، وبشر يانبي الله المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله بما يفرحهم ويسرهم مما أعد الله لهم من النعيم المقيم في جنات رب العالمين يوم القيامة.

وهذه الآية دليل علىٰ تحريم الوطء في الدبر، كما دلت كثير من الأحاديث علىٰ تحريم جماع المرأة في دبرها.

[٢٢٤] ثم حذر سبحانه المسلمين أن يجعلوا اليمين بالله مانعًا لهم عن فعل الخير والعمل الصالح والتقوىٰ والإصلاح بين الناس، فإذا طلب أحد منك عمل خير فلا تمتنع بحجة أنك أقسمت أو حلفت أن لا تفعل كذا وكذا، واعلموا أيها الناس أن الله يسمع أقوالكم، ويعلم أعمالكم وأحوالكم، وهو بكل شيء عليم.

ولقد حدثني أحد أصدقائي فقال: إنه كان بحاجة لمبلغ من المال فطلب من ابنه أن يقرضه هذا المبلغ فرد الابن قائلًا: والله إنني حلفت يمينًا أن لا أقرض أحدًا، فسبحان الله!! ألم يكن الأولىٰ به أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير ويبرَّ بأبيه؟!

وهذه اليمين المذكورة في هذه الآية هي التي عن المستقبل، وهي التي فيها الكفارة، أما إذا كان الحالف جاهلًا بالواقع ويرىٰ أنه صادق فلا كفارة عليه، وهو ما يُسمىٰ باللغو عند الإمام أبي حنيفة.

أما اليمين عن الماضي فإن كان المقسم كاذبًا فهي التي تُسمىٰ باليمين الغموس، ولا كفارة لها عند أبي حنيفة، وعند الشافعي تجب فيها الكفارة، وعند الجمهور لا كفارة لها إلا التوبة، وطلب المغفرة من الله، ورد المظالم إلىٰ أهلها.

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ
قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ
أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنۡ عَزَمُواْ
ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ
ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ
إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي
ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ
فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ
مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ
فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ
بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا
غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

[٢٢٥] يخبر جلّ وعلا أنه لا يعاقبكم بما يجري علىٰ ألسنتكم من أَيْمَانٍ بغير قصد، ولكن يعاقبكم بما تقصدونه من الكذب، واعلموا أن الله غفور لمن تاب وأناب ورجع عن خطئه، حليم حيث لم يعاجل بالعقوبة، فيصفح ويستر مع قدرته.

[٢٢٦] ثم بيَّن جل وعلا أن الذين حلفوا أن لا يجامعوا زوجاتهم أبدًا للإضرار بهن، أن يُعْطَوْا مهلة أربعة أشهر؛ فإن كفَّر أحدهم عن يمينه وجامع زوجته بقيت عنده وحلّت له، وإن لم يفعل أجبره القاضي أن يطلقها، واعلموا أن الله غفور لما وقع منكم من الأيمان، رحيم بكم؛ حيث جعل لأيمانكم كفارة وتَحِلة.

[٢٢٧] ثم أخبر سبحانه إذا أصر الزوج علىٰ حلفه، وهجره لزوجته، ورفض أن يجامعها، وأصر علىٰ موقفه، ففي هذه الحال إما أن يطلقها، أو يقوم القاضي بتطليقها، واعلموا أيها الناس أن الله سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم، يعلم السر وأخفىٰ.

[٢٢٨] ثم أمر جلّ وعلا المطلقة أن تنتظر ثلاث حيضات بعد طلاقها لضمان استبراء الرحم، وإذا كانت لا تحيض فإنها تنتظر ثلاثة أشهر، وهذه هي عدة المرأة التي دخل بها زوجها، ولا يحل لها أن تكتم ما خلق الله في رحمها؛ سواءً كان حملًا أو حيضًا لتُبْطل حق الزوج من الولد والرجعة؛ إن كانت تؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر يوم الجزاء والحساب، واعلموا أن للزوج الحق أن يُرجع زوجته قبل انتهاء العدة إن كان يريد المعاشرة الحسنة، وليعلم الزوجان أن لكل منهما حقوق علىٰ الآخر، وأن للزوج علىٰ الزوجة رتبة ومنزلة أعلىٰ بحكم الإنفاق والقوامة، والله عزيز له العزة القاهرة والسلطان العظيم، حكيم يضع الأمور في موضعها المناسب.

[٢٢٩] واعلموا أيها الناس أن الطلاق الصحيح الذي يملكه الزوج هو طلقتان فقط، يمكن للزوج أن يراجع زوجته فيهما؛ فمن وقعت منه الطلقة الأولىٰ أو الثانية فله أن يراجع زوجته، ويحسن معاشرتها، أو أن يطلقها بلا ظلم ولا عدوان، ولا يحل للزوج أن يأخذ شيئًا من مهرها إذا طلقها، إلا عن طريق الخلع، فإذا عرفتم أنه لا يمكن الإصلاح بين الزوجين وتأكدتم من عدم قدرتهما علىٰ القيام بالحقوق الزوجية؛ فإنه والحال هذه يجوز للمرأة أن تفدي نفسها بمخالعة زوجها بمقابل مالي لكي يطلقها، واعلموا أن هذه الأحكام هي أوامر الله فلا تتجاوزوها؛ فإن من يتجاوزها فأولئك هم الظالمون لأنفسهم.

[٢٣٠] واعلم أيها الزوج أنك إذا طلقت امرأتك الطلقة الثالثة فإنها لا تحل لك حتىٰ تتزوج رجلًا آخر؛ فإن طلقها الزوج الثاني وانتهت عدتها فلا مانع أن يعود الزوج الأول فيتزوجها، ولكن بعقد وصداق جديدين، بشرط أن يكونا متأكدين أنهما سيقيمان حدود الله وأوامره، واعلموا أن تلك أحكام الله العادلة يبينها لقوم يعلمون الحق ويعملون به.

[٢٣١] يأمر جلّ وعلا إذا طلق أحدكم امرأته الطلقة الأولىٰ والثانية ثم قاربت الانتهاء من عدتها، فإما أن يراجعها ويعاشرها بالمعروف أو يتركها حتىٰ تنقضي عدتها، ويحرم عليكم أن تراجعوها بنية الإضرار بها والاعتداء علىٰ حقوقها، وإن من يفعل ذلك فقد ظلم نفسه لأنه عرضها للعقاب.

واحذروا أيها الناس أن تتخذوا آيات الله لعبًا بعدم الامتثال لها، واذكروا نعمة الإسلام عليكم، وما أُنزل عليكم من القرآن والسنة التي فيها الخير والنصح والإرشاد لكم، وخافوا الله وراقبوه فإنه بكل شيء عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

[٢٣٢] ثم أمر جل وعلا الأولياء أن لا يمنعوا المرأة من العودة لزوجها الذي طلقها دون الثلاث، وقد انقضت عدتها، وعلموا أنهم قد تراضوا بينهم، بشرط أن يكون ذلك بعقد وصداق جديدين، وهذا الحكم والتوجيه يتعظ به من كان يؤمن منكم بالله واليوم الآخر، واعلموا أن عودة المطلقة لزوجها وعدم عضلها خير لكم وأطهر من ارتكاب الذنوب والآثام؛ والله يعلم ما يصلح لكم أيها الناس، وأنتم لا تعلمون، ومن ذلك أن كلًا منهما قد علم القصور الذي عند الآخر وقرر عدم المؤاخذة عليه.

[٢٣٣] يخبر جل وعلا أنه يجب علىٰ الوالدة المرضعة المطلقة أن تُرضع ولدها عامين كاملين إذا أراد الوالدان إتمام الرضاعة، ويجب علىٰ الآباء النفقة علىٰ الأم المرضعة بحسب حالهم من الغنىٰ والفقر؛ فإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولا يحل للأب أن يضر بالأم بسبب ولدها بأن تُمنع من الرضاعة، أو لا تُعطىٰ ما يجب لها من النفقة، وكذلك لا يحل للأم أن تمتنع من إرضاع ولدها فيتضرر، أو تطلب زيادة في النفقة علىٰ الواجب المعروف.

وإذا كان والد الطفل ميتًا فيجب علىٰ وارثه ما يجب علىٰ مورثه من النفقة والكسوة؛ فإذا أراد الوالدان بالتراضي والتشاور بينهما فِطَامَ

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾

الطفل قبل انتهاء السنتين فلا حرج في ذلك، وإذا اتفق الوالدان أن يستخدموا من ترضع الطفل غير أمه فلهم ذلك بشرط أن تُعطىٰ الأم حقها، وتُعطىٰ المرضعة الأجرة المتفق عليها، وخافوا الله أيها الناس وراقبوه في جميع أحوالكم، فإنه بصير بما تعملون وسيجازيكم علىٰ جميع أعمالكم.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ
أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ
وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ
مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى
ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ
فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ
أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ
وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

[٢٣٤] بين جل وعلا أن الرجل إذا مات وكان عنده زوجة أو زوجات وجب عليهن العدة، وهي: أن ينتظرن أربعة أشهر وعشرة أيام، وذلك لأمرين:

الأول: تقديرًا واحترامًا لزوجها المتوفَّىٰ.

والثاني: ليتبين إن كانت حاملًا أم لا.

وليس لها في هذه المدة أن تخرج من منزل زوجها إلا لضرورة، وتكون نفقتها من التركة، وليس لها أن تتجمل أو تتعرض للخُطَّاب، فإذا انتهت المدة المقررة شرعًا فلا إثم عليها من التزين والخروج والتزوج ونحو ذلك كما شرع الله، واعلموا أن الله بما تعملون خبير فاحذروه ولا تخالفوا أمره.

[٢٣٥] ثم أخبر جل وعلا أنه لا إثم عليكم في التعريض بخِطبة المرأة بطريق التلميح دون التصريح قبل أن تنتهي عدتها، ولا إثم أيضًا فيما أخفيتموه في أنفسكم من الخِطبة والزواج، فإن الله يعلم أنكم لن تصبروا علىٰ السكوت عنهن لذا رخص لكم في التلميح أو الإضمار في النفس، واحذروا أن تتفقوا علىٰ الزواج في أثناء العدة، إلا أن تقولوا قولًا يُفهم منه الرغبة في الزواج كالتلميح فهذا جائز، ولا يحل لكم أن تعزموا عقدة النكاح حتىٰ تنتهي العدة، واعلموا أن الله مُطَّلِع علىٰ أسراركم فاحذروه، وأنه غفور لمن تاب من ذنوبه، حليم علىٰ العاصين حيث لم يعجِّل عقوبتهم.

[٢٣٦] واعلموا أيها الرجال أنه لا إثم عليكم إذا طلقتم النساء بعد العقد عليهن وقبل الخلوة بهن، ولم تحددوا لهن مهرًا، ففي هذه الحال عليكم أن تمتعوهن بشيء من المال جبرًا لهن لما أصابهن من ألم الطلاق، والمتعة تكون بحسب الحال من الغنىٰ والفقر وعلىٰ الوجه المعروف شرعًا، وهي حق واجب علىٰ أهل الإحسان والكرم، أما إذا خلا الزوج بزوجته فقد وجب لها المهر كاملًا؛ حتىٰ لو لم يجامعها؛ فإن كان محددًا وإلا فمهر المثل.

[٢٣٧] ثم اعلموا أنكم إذا طلقتم النساء قبل أن تدخلوا بهن وقد فرضتم لهن مهرًا محددًا فالواجب عليكم أن تدفعوا لهن نصف ما اتفقتم عليه، إلا إذا تسامحت المطلقة وتنازلت عن نصفها فلها ذلك، أو يسامح الزوج عن نصفه فيترك المهر كله أو جله لها، واعلموا أن العفو أقرب لتقوىٰ الله وخشيته، ولا تنسوا المودة والإحسان بينكم؛ فإن الله يعلم المحسن منكم من المسيء.

وفي قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ لم يحدد العافي ليعم الجميع، أي: الزوج أو أولياء الزوجة، وليحث الموسرين من الطرفين علىٰ التخلي عن حقّه للثاني.

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ
قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ
فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ
﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا
وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ
خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ
مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ
بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ
فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٤﴾ مَّن
ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا
كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

[٢٣٨] يأمر جل وعلا المسلمين بالمحافظة علىٰ الصلوات في أوقاتها جماعة، وخاصة صلاة العصر، والمحافظة عليها يكون بأدائها في وقتها، والإتيان بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وأدائها بخشوع وخضوع جماعة إن لم يكن هناك مانع، وإذا قمتم إلىٰ الصلاة فعليكم أن تقوموا لها ذاكرين خاشعين خاضعين.

وقد اختلف أهل العلم في الصلاة الوسطىٰ، وأرجح الأقوال أنها صلاة العصر؛ لقول الرسول ﷺ بعد انتهاء غزوة الأحزاب لما توجه إلىٰ الغادرين المتمالئين مع الكفار، قال: «**حبسونا أو شغلونا عن الصلاة الوسطىٰ**»[(١)]، وكانت صلاة العصر، وقيل: كل صلاة هي وُسطىٰ لأنها تقع بين صلاتين.

وقال فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: الصلاة الوسطىٰ، أي: الفُضلىٰ، مثل قول الله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة:١٤٣]، أي: أفضل الأمم، وليست بمعنىٰ: الوسط بين الشيئين.

[٢٣٩] ثم بين جل وعلا أنه إذا حصل خوف من عدو وغيره ولم تتمكنوا من أداء الصلاة علىٰ الوجه المطلوب، فَصَلُّوا علىٰ أي هيئة تستطيعونها؛ سواء كنتم ماشين علىٰ أرجلكم أو راكبين علىٰ الخيل والإبل وغيرها من المركوبات، ولو لم تستقبلوا القبلة؛ فإذا زال الخوف فأدوا الصلاة علىٰ الوجه المطلوب، وأكثروا من ذكر الله واشكروه علىٰ نعمة الأمن ونعمة العلم، وقد كنتم من قبل علىٰ جهل وضلال.

[٢٤٠] يخبر جل وعلا أنه يجب علىٰ الزوج أن يوصي قبل وفاته: أن تبقىٰ زوجاته سنة كاملة في منزل زوجها ولا يحق للورثة أن يخرجوهن مدة السنة، وذلك جبراً لخاطرهن؛ فإذا رغبت الزوجات في الخروج قبل انتهاء المدة فلا إثم عليكم، ولا إثم عليكم أيضًا في أن تأذنوا لهن بالتجمل والتزين بما هو مباح من أجل الخِطْبَةِ والزواج، واعلموا أن الله عزيز في ملكه، حكيم في أمره ونهيه، يضع الأمور في مواضعها.

وهذه الآية قيل: إنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا ﴾ [البقرة:٢٣٤] وأن الأربعة أشهر وعشرة: هي الواجبة، والعمل علىٰ هذا عند أهل العلم.

[٢٤١] واعلموا أن للمطلقة حق علىٰ زوجها وهو أن يُمتِّعها بشيء من المال أو الكسوة ونحوها بقدر استطاعته؛ ليجبر خاطرها ويخفف ألم الطلاق عليها، وهذا يفعله الذين يخافون الله ويتقونه في كل أمورهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ ﴾ [البقرة:٢٣٧].

[٢٤٢] ثم اعلموا أن كل هذه الأحكام التي بيناها لكم لكي تتعلموها وتعقلوها وتعملوا بها.

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧)

[٢٤٣] ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال له: ألم تعلم يانبي الله بأولئك الذين فروا من أرضهم وبيوتهم وهم ألوف خوفًا من الهلاك من مرض الطاعون الذي ظهر بها، فأماتهم الله بكلمة ثم أحياهم بكلمة ليبين لهم أنه لا مفر من قدر الله، وأن الله علىٰ كل شيء قدير، واعلموا أن الله ذو فضل علىٰ الناس، ولكن أكثر الناس يجحدون نعمة الله ولا يشكرونها.

وقد قيل: إن الذين خرجوا كان عددهم عشرة آلاف.

[٢٤٤] يحث جلّ وعلا عبادة المؤمنين علىٰ الجهاد في سبيله لإعلاء كلمة الله، وأن لا يتأخروا متىٰ دعوا للجهاد بالنفس والمال، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم وإن خَفَتَتْ، عليم بنياتكم وإخلاصكم.

[٢٤٥] ثم حثَّ جل وعلا عباده علىٰ الإنفاق في سبيل الله لمرضاة ربهم ونصرة دينه محتسبين الأجر في ذلك؛ وقد تعهد الله بمضاعفة نفقاتهم أضعافًا كثيرة، وبيَّن سبحانه أن مفاتِحَ الرزقِ بيده؛ يضيق علىٰ من يشاء ويوسع علىٰ من يشاء، واعلموا أنكم إليه وحده ترجعون بعد الموت، فيجازيكم علىٰ أعمالكم؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ
قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ
قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ
قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ
نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ
قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ
بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ
اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ
وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ
التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

[٢٤٦] يقصُّ جلّ وعلا علىٰ نبيه ﷺ قصة الأشراف من بني إسرائيل الذين جاءوا بعد زمان موسىٰ عليه السلام، فقال جلّ وعلا: ألم تعلم يانبي الله بخبر القوم من بني إسرائيل الذين جاءوا بعد موسىٰ عليه السلام؛ حين طلبوا من نبيهم شمعون أن يولي عليهم قائدًا ملكًا يجتمعون تحت رايته ويقاتلون في سبيل الله.

فقال لهم نبيهم: أخشىٰ إن أوجب الله عليكم القتال ألّا تقاتلوا.
فقالوا: لماذا لا نقاتل في سبيل الله وقد شَرَّدنا عدونا من ديارنا وفرَّقَنا عن أبنائنا؟

فلما أوجب الله عليهم القتال مع القائد الذي عينه لهم فرَّ أكثرهم وتركوا القتال جُبنًا وخوفًا، ولم يصبر منهم إلا فئة قليلة ثبتت بفضل الله، واعلموا أيها الناس أن الله عليم بالظالمين الذين ينكُثون ما عاهدوا الله عليه.

[٢٤٧] ثم قال لهم نبيهم: إن الله قد اختار لكم طالوت ملكًا وقائدًا تقاتلون تحت رايته، فاعترضوا كعادتهم وقالوا: كيف يكون ملكًا علينا وهو ليس أهلًا لذلك، ثم عللوا سبب اعتراضهم، فقالوا:

أولًا: نحن أحق بالملك منه؛ لأنه لم يكن من سبط يهودا، والملك كان في سَبْطه.

ثانيًا: أنه لم يكن من أهل الثراء والغنىٰ.

فرد عليهم نبيهم فقال: اعلموا ياقوم أن الله اختاره وهو أعلم بمن يختار، وقد أعطاه الله سعة في العلم وقوة في الجسم.؟

واعلموا أن الله يعطي الملك لمن يشاء من عباده، والله واسع الفضل كثير الإحسان، عليم بخفايا الأمور وأسرارها، وهو أعلم بمن هو أهل للملك فيصطفيه علىٰ غيره من الخلق.

[٢٤٨] ثم قال لهم نبيهم أيضًا: إن علامة ملكه أن يُحضر لكم الصندوق الذي استولىٰ عليه الأعداء؛ والذي فيه التوراة وفيه طمأنينة من ربكم، وفيه بقايا من آثار موسىٰ وهارون، مثل العصا والثياب، تأتي به الملائكة وتضعه بين يدي طالوت.

واعلموا أن في ذلك دليل وبرهان لكم علىٰ اختيار طالوت ملكًا عليكم بأمر من الله، إن كنتم تصدِّقون بالله ورسوله وتعملون بشرعه.

....

....

....

....

....

....

....

....

[٢٤٩] ثم أخبر سبحانه أن طالوت لمَّا فصل بالجنود لقتال العمالقة؛ قال لهم طالوت: إن الله مختبركم بنهر سوف تمرون عليه فمن شرب منه فليس من جندي، ومن لم يذقه فإنه من جندي؛ إلا من اغترف غرفة واحدة بيده.

وهذا من رحمة الله ولطفه بجنده أنه أذن لمن اشتد به العطش أن يبلَّ شفتيه وحلقه بحفنة من الماء.

فلما وصلوا إلىٰ النهر وقد بلغ بهم العطش مبلغه شرب أكثرهم إلا نفر قليل صبروا، فلما تجاوز طالوت النهر هو والقلة من المؤمنين الذين معه، ورأوا كثرة عدوهم وعدتهم قالوا: لا طاقة لنا بجالوت وجنوده، فردّ أولئك الصادقون الصابرون وقالوا: كم من مجموعة قليلة مؤمنة صابرة غلبت مجموعة كثيرة كافرة بإذن الله وأمره وتأييده، واعلموا أن الله مع الصابرين يؤيدهم وينزل السكينة عليهم.

وهكذا ربط الله الانتصار في المعركة بالانتصار علىٰ النفس، وأن من لم يستطع الانتصار علىٰ هواه فإنه مغلوب، كما قال الشاعر:

عليك بالنفس فاحكمها فمن ملكت

قيادَه النفسُ عاش الدهر مخذولًا

وقوله: ﴿فَصَلَتِ﴾، أي: خرج، كما قال تعالىٰ في قصة يوسف: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ ﴾ [يوسف:٩٤]، أي: ولما خرجت العير من مصر.

[٢٥٠] ولما التقىٰ الجيشان، جيش طالوت وجيش جالوت، قال جيش طالوت: يارب مدنا بصبر من عندك، وثبت اقدامنا أمام عدونا، وانصرنا علىٰ الأعداء الكافرين الجاحدين المجرمين.

[٢٥١] ثم بين جل وعلا أن جيش طالوت هزم جيش جالوت بإذن الله وفضله، وأن داود قتل جالوت، وحصل بذلك الفتح والنصر، ولذا فقد كافأ الله داود عليه السلام وأعطاه الملك والنبوة في بني إسرائيل، وعلّمه مما يشاء من العلوم، ثم بين سبحانه أنه لولا دفع الله بعض أهل الشر ببعض أهل الخير لفسدت الأرض وعم الكفر وتمكن الشر، ولكن الله جل في علاه ذو فضل علىٰ المخلوقين جميعًا.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

قال بعض المفسرين: إن طالوت قال للثابتين معه: من يقتل جالوت العدو وهو ملك الكفار فسوف أتنازل له عن الملك، وكان من بين جنود طالوت رجل اسمه داود، فباشر داود فقتل جالوت فتنازل طالوت عن الملك له، فصار داود عليه السلام ملكًا وآتاه الله النبوة، وعلمه مما يشاء من العلوم والمعرفة.

[٢٥٢] واعلم يانبي الله أن هذه الأخبار والآيات هي حجج وبراهين وأدلة نقصُّها عليك بالحق وحيًا يُتلىٰ عليك؛ وأنك رسول صادق أمين مرسل من عند رب العالمين.

۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

[٢٥٣] يخبر جلّ وعلا أنه فضل بعض الرسل علىٰ بعض؛ فمن هؤلاء الرسل من كلم الله مثل آدم وموسىٰ ونبينا محمد عليهم السلام أجمعين، ومنهم من رفعه الله درجات كمحمد ﷺ، ثم بين سبحانه أنه أعطىٰ عيسىٰ بن مريم عليه السلام المعجزات الباهرات كإبراء الأكمه وإحياء الموتىٰ، وأيده بجبريل وذلك بإعانته ومؤازرته، ورفعه سبحانه إلىٰ السماء لما همَّ اليهود بقتله وصلبه، ثم بين سبحانه أنه لو أراد ما اقتتل الناس بعد أن جاءهم الأنبياء والرسل بالأدلة والبراهين، ولجمعهم علىٰ الهدىٰ، ولكن اقتضت حكمته سبحانه وتعالىٰ أن يجعلهم مختارين، ولذلك اختلف أتباعهم؛ فمنهم من ثبت علىٰ إيمانه، ومنهم من أصر علىٰ كفره وضلاله، ولو أراد الله ما اقتتلوا ولا وقع بينهم الاختلاف، ولكن الله يفعل ما يريد في خلقه وملكه ويختار.

وهذه الآية دليل علىٰ أن الصراع بين الحق والباطل باقٍ إلىٰ قيام الساعة، وفيها إثبات صفة الكلام لله جلّ وعلا علىٰ الوجه اللائق بجلاله وعظمته من غير تشبيه أو تأويل أو تعطيل.

[٢٥٤] يحث جلّ وعلا عبادة المؤمنين علىٰ الإنفاق في سبيل الله وفي جميع وجوه الخير ببعض ما رزقهم من أنواع النعم قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا بيع فيه ولا فداء ولا صداقة ولا شفاعة تنفعكم، واعلموا أن الكافرين الجاحدين بآيات الله هم الظالمون المتجاوزون لحدود الله.

[٢٥٥] يخبر جل وعلا أنه وحده المستحق للألوهية، وهو حي دائم باق لا يموت ولا يفنىٰ، وأنه قائم علىٰ تدبير الخلق وتصريف الكون، لا يأخذه النعاس ولا النوم، وأنه يملك كل ما في السماوات وما في الأرض، ولا يشفع أحد لأحد إلا إذا أذن للشافع ورضي عن المشفوع، وأن علمه محيط بجميع الكائنات، ويعلم ما بين أيدي الخلائق في مستقبلهم وما خلفهم مما مضىٰ، ولا يطلع أحد من الخلق علىٰ شيء من علمه إلا بما أعلمه الله وأطلعه عليه، وأنه وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يثقله سبحانه حفظهما، وهو العلي بذاته وصفاته له العظمة والكبرياء.

وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ﴾، هو أعظم الأسماء التسعة والتسعين؛ لأنه دال علىٰ الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها، وقال الجمهور: إنه الاسم الأعظم مطلقًا، وقال آخرون: الاسم الأعظم: هو الحي القيوم.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، قال شيخنا الشيخ ابن باز رحمه الله: الكرسي من مخلوقات الله العظيمة، وهو فوق العرش الذي هو سقف العالم، ومحيط بالكون كله، والله جل وعلا فوقه، ولا يشبهه شيء، ولا يُعلم من صفاته إلا ما أعلَمَ عنها الله في كتابه، أو أعلم عنها نبيه ﷺ.

وقال رحمه الله: ولم يضق كرسيه لبسطته وسعته عن السماوات والأرض، فهو محيط بالسماوات والأرض، والعرش محيط بالكل، قال ﷺ: «**ما السماوات السبع والأرضون السبع من الكرسي إلا كحلقة في فلاة**»[1].

وقال رحمه الله أيضًا: وفَضْلُ العرش وسعته علىٰ الكرسي كفضل تلك الفلاة علىٰ تلك الحلقة، والله سبحانه أعظم وأجل وأكبر.

وهذه الآية تسمىٰ آية الكرسي، وقد أخبر ﷺ أنها أفضل آية في القرآن، وورد في فضلها أحاديث كثيرة.

[٢٥٦] نهىٰ جل وعلا أن يكره علىٰ الإسلام من يدفع الجزية؛ لأنه قد تبين الهدىٰ من الضلال، فمن يكفر بكل ما عبد من دون الله، ويؤمن بالله وحده لا شريك له فقد استمسك بالطريقة المثلىٰ التي لا تنقطع، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بنياتكم، وسيجازي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

والنهي الوارد في هذه الآية نهي خاص بأهل الكتب السماوية، أما المشركون والملحدون والدهريون فإنهم لا تقبل منهم الجزية؛ بل قال تعالىٰ في حقهم: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح:١٦].

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٨١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٣٠). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩).

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾

[٢٥٧] واعلموا أيها الناس أن الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض هو ولي المؤمنين يتولىٰ أمورهم فيحفظهم ويرعاهم، ويخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلال إلىٰ نور الهداية والعلم والإيمان، أما الذين جحدوا آيات الله وكفروا بها فأولياؤهم وأنصارهم الشياطين من الجن والإنس؛ الذين يسعون جاهدين في إخراجهم من نور الهداية والإيمان إلىٰ ظلمات الكفر والضلال، وهؤلاء الجاحدون هم أصحاب النار خالدون فيها أبد الآبدين.

[٢٥٨] يخبر جل وعلا عن الحوار الذي جرىٰ بين إبراهيم عليه السلام والملك الطاغية النمرود، فقال سبحانه لنبيه ﷺ: هل رأيت يانبي الله إلىٰ جرأة هذا الملك الطاغية الذي خاصم نبينا إبراهيم عليه السلام في توحيد الله وربوبيته وعبوديته، فقد أعطيناه الملك فطغىٰ وتكبر وغره ملكه ولم يشكر ربه الذي اعطاه هذا الملك، فدعاه إبراهيم عليه السلام لتوحيد الله وربوبيته وعبوديته، فسأل الملك الطاغية إبراهيم عليه السلام عن ربه، فأجابه عليه السلام: ربي الذي يحيي ويميت، فردّ هذا الطاغية الجاحد فقال: وأنا أيضًا أحيي وأميت، ألا ترىٰ أنني أقتل من شئت وأعفو عمن شئت فأكون قد أحييته، فقال له إبراهيم: وما دام الأمر كذلك؛ فأنت تعلم أن الله يأمر الشمس فتخرج كل يوم من جهة المشرق؛ فهل تستطيع أن تغير سنة الله وتجعلها تخرج من جهة المغرب، فتحير هذا المجرم الفاجر وانقطع عن الجدال بعد أن أفحمه إبراهيم عليه السلام، وهذا شأن كل ظالم فإن الله لا يهديه إلىٰ الحق والصواب.

[٢٥٩] ثم تحدث جل وعلا عن رجل متعجب من قدرة الله تعالىٰ؛ حيث مر علىٰ قرية قد تهدمت وخربت، فقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد دمارها وموت أهلها؟ فأماته الله مائة عام وأمات معه حماره، ثم بعثه، وقال له: كم لبثت ميتًا؟ فقال: لبثت يومًا أو بعض يوم، فقال له ربه: بل بقيت ميتًا مائة عام، ثم أمره أن ينظر إلىٰ طعامه وشرابه كيف حفظه الله ولم يفسده، وأمره أن ينظر إلىٰ حماره الذي مات معه لكي يرىٰ كيف ينشأ وتبث الحياة فيه بعد أن كان عظامًا متفرقه، واعلم أن الله أراك ذلك لتعلم قدرته، ولتكون دلالة ظاهرة للناس علىٰ البعث بعد الموت، ثم أمره جل وعلا أن ينظر إلىٰ حماره ويشاهد درجات تركيب جسمه كيف يصل العظام بعضها ببعض، ويرفع بعضها علىٰ بعض، ثم يكسوها لحمًا، ثم ينفخ فيها الروح لتعود إليها الحياة، فلما تبين له ورأىٰ قدرة الله بعينه اعترف بعظمته، وأنه علىٰ كل شيء قدير.

قال بعض المفسرين: إن الذي مر علىٰ هذه القرية هو عُزير أحد أنبياء بني إسرائيل، لهذا قال اليهود - عليهم من الله ما يستحقون -: عُزير ابن الله، ولذا عبدوه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

[٢٦٠] ثم أخبر جل وعلا بالحوار الذي جرىٰ بينه وبين إبراهيم عليه السلام، حيث طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيفية إحياء الموتىٰ، فقال الله عز وجل: ألم تؤمن يا إبراهيم بأني قادر علىٰ إحياء الموتىٰ؟

فرد إبراهيم قائلًا: بلىٰ، ولكني أرغب أن أرىٰ كيفية الإحياء لأزداد إيمانًا ويقينًا، فأمره جلّ في علاه أن يأخذ أربعة من الطير فيضمها إليه، ثم يذبحها ويقطعها، ثم يخلطها ببعضها البعض، ثم يجعل علىٰ كل جبل منهن قسمًا، ثم أمره أن يناديها، فلما ناداها أتته مسرعة بعد أن ردَّ الله إليها روحها، وعاد كل عضو إلىٰ أصله، واعلم يا إبراهيم أن الله عزيز لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، حكيم يضع كل شيء في موضعه المناسب بحكمة وإحسان.

قال الشيخ المفسر محمد متولي الشعراوي: إن إبراهيم عليه السلام لم يشك في قدرة الله تعالىٰ، ولكنه أراد معرفة الكيفية، ولم يكن يريد أن يزيد إيمانه.

ومعلوم أن الأشاعرة وأغلب الفرق والطوائف يقولون: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، أما أهل السنة والجماعة فيقولون: إن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي وهذا هو الصواب الذي دل عليه الكتاب والسنة.

[٢٦١] يحث جلّ وعلا عباده علىٰ الإنفاق في سبيل الله، وشبَّه سبحانه الذي ينفق ماله في سبيله كمن يزرع حبة قمح، وهذه الحبة تنبت سبع سنابل، وفي كل سنبلة مائة حبة، فيكون الناتج من حبة واحدة فقط سبعمائة حبة، وهكذا فإن الذي ينفق ماله في إعلاء كلمة الله فإن الله يضاعف له الأجر والثواب مضاعفات كثيرة، والله واسع الفضل والكرم، عليم بما تكنه صدوركم ونياتكم.

[٢٦٢] ثم بشر جلّ وعلا أن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله لنصرة دينه وإعلاء كلمته، ثم لا يُتبعون صدقاتهم بالمنّ ولا أذية السائلين، فإن لهم الأجر والثواب من ربهم بحسب نفقتهم ونيتهم، وهؤلاء لا خوف عليهم مما يرون يوم القيامة من الأهوال، ولا يحزنون علىٰ ما فاتهم من حطام الدنيا.

[٢٦٣] ثم أخبر جلّ وعلا أن الكلمة الطيبة التي يُرد بها الفقير، والعفو عما بدر منه من إلحاح وغيره، خير من صدقة يتبعها أذية وكلام سيِّيء ونحوه، واعلموا أن الله غني عن أموالكم، حليم لا يعاجل بالعقوبة من يخالف أمره.

[٢٦٤] يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه وتصدقوا في سبيله؛ لا تضيعوا أجر صدقاتكم بالمنّ علىٰ الفقير والمحتاج، والإساءة إليه بكلام أو فعل جارح، وتكونوا كمن ينفق ماله ليراه الناس فيثنوا عليه، وهو لا يؤمن بالله ولا يؤمن بيوم القيامة، واعلموا أن عمل هذا المرائي يشبه التراب الموجود علىٰ حجر أملس، ثم هطل عليه مطر فأزاح التراب وترك الحجر أملس ليس للغيث أثر عليه، وهكذا المنافق المرائي تذهب أعماله عند الله هباء، ولا يجد ثوابًا علىٰ ما قدم من نفقات، والله لا يوفق الكفار إلىٰ ما يسعدهم وينجيهم لإصرارهم علىٰ الكفر وعدم قبول الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [المنافقون:٣].

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

[٢٦٥] ثم أخبر جلّ وعلا أن الذين ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله، وهم ثابتون مطمئنون؛ كمثل بستان في مكان مرتفع من الأرض أصابه مطر غزير فأثمر ضعف إنتاجه؛ فإن لم يصبه مطر غزير فيكفيه أن يصيبه الندىٰ الخفيف، وهكذا من ينفق أمواله مريدًا بها وجه الله والدار الآخرة، فإنها تُقبل عند الله وتضاعف أضعافًا كثيرة، واعلموا أن الله مطلع علىٰ أعمالكم بصير بها، وسيجازيكم عليها.

[٢٦٦] ثم يسأل جل في علاه عباده فيقول لهم: أيحب أحدكم أيها الناس أن يكون له بستان مثمر بالنخيل والأعناب، تجري من تحت أشجاره المياه، ويحتوي علىٰ كل أنواع الثمار؟

وكان صاحب البستان رجلًا كبيرًا في السن، وله أبناء صغار لا يقدرون علىٰ الكسب، وفي هذه الأثناء هبت ريح عاصف فيها نار أصابت هذا البستان فأحرقته، فكيف تكون حسرته وحزنه؟

وهكذا الذي ينفق أمواله رئاء الناس، يأتي يوم القيامة وقد ذهبت حسناته، وبمثل هذا يوضح سبحانه وتعالىٰ الأمثال للناس لكي يتدبروا ويعتبروا.

[٢٦٧] يحث جلّ وعلا عباده المؤمنين علىٰ الإنفاق مما كسبوا من الحلال الطيب في التجارات، ومما تُخرج الأرض لهم من الحبوب والثمار والمعادن وغير ذلك، ونهاهم سبحانه عن الإنفاق من الأموال الرديئة التي لو بُذلت لهم لم يقبلونها إلا بالكره وغض الطرف عنها؛ فكيف يرضون أن تكون نفقاتهم لله من الرديء ولا يرضونها لأنفسهم؟!، واعلموا أن الله غني عنهم وعن نفقاتهم، وأنه تعالىٰ مستحق للثناء ومحمود في كل حال.

[٢٦٨] ثم حذر جلّ وعلا من الشيطان ووساوسه؛ وأخبر أنه يخوفكم من الفقر حتىٰ لا تتصدقوا، وفي المقابل يأمركم بالمعاصي فتنفقون أموالكم فيها، وتبخلون بها في الخير، واعلموا أن الله سبحانه وتعالىٰ يأمركم بالإنفاق في سبيله لتكون النفقة سببًا في مغفرة ذنوبكم، ويُخلِف عليكم فيما أنفقتموه، كما أن في الإنفاق سدًّا لحاجات إخوانكم المحتاجين، والله واسع الفضل كثير الإحسان، وهو عليم يعلم من يستحق الثواب والثناء.

[٢٦٩] واعلموا أيها الناس أن الله يعطي العلم من طَلَبَهُ وسعىٰ في تحصيله رغبة في العلم، ثم بين سبحانه أن من أنعم الله عليه وشرح صدره للعلم والفقه فقد حصل علىٰ خير كثير، كما قال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[1]، وما يتعظ بهذه الآيات وهذه التوجيهات الربانية إلا أصحاب العقول النيرة والأحلام الكاملة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)، عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

[٢٧٠] يخبر جلّ وعلا أنه يعلم كل نفقه أنفقتموها في وجه الخير، وكل نذر ألزمتم أنفسكم به، وأن أعمالكم محفوظة لكم وسيجازيكم عليها، بحسب نياتكم، واعلموا أن من منع حق الله من الزكاة وغيرها فإنه ظالم لنفسه، وليس للظالمين من نصير ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله.

[٢٧١] واعلموا أيها المؤمنون أنكم إذا أعلنتم صدقاتكم وأظهرتموها بلا رياء ولا سمعة فَنِعْمَ ما فعلتم؛ لا سيما إن قصدتم أن تكونوا قدوة للآخرين، وإن تخفوها وتعطوها للفقراء سرًّا فهذا خير لكم وأنفع؛ فإنه جلّ وعلا يكفر عنكم سيئاتكم بهذه الصدقات، وخاصَّة إذا كانت خالصة لوجه الله، والله خبير بأعمالكم ونياتكم لا تخفىٰ عليه خافية.

[٢٧٢] واعلم يانبي الله أن الله لم يُوَكِّلْ إليك أمر هداية الكفار والمعاندين، وإنما عليك التوجيه والبلاغ، وأما الهداية والتوفيق فمن الله وحده، يهدي من يشاء إلىٰ دينه، واعلموا أن ما تنفقونه من المال يعود عليكم نفعه، واعلموا أن كل ما تنفقونه في سبيل الله لطلب رضىٰ الله مخلصين فيه لله وحده فإن أجره وثوابه يعود عليكم أضعافًا مضاعفة، والله عادل لا يظلم مثقال ذرة.

[٢٧٣] يحث جل وعلا عباده أن يجعلوا صدقاتهم للفقراء المجاهدين في سبيل الله الذين منعهم الجهاد من التكسب، فهم أشد الناس حاجة، ويظن من لا يعرفهم أنهم أغنياء لكونهم متعففين عن المسألة، ولكن يُعرفون بعلامات، وآثارُ الحاجةِ عليهم، وأنهم لا يسألون الناس أبدًا، وإن سألوا مضطرين فإنهم لا يُلِحُّون في المسألة، واعلم أيها المتصدق أن الله عليم بكل ما تنفقه، وأنه محفوظ، وسيجازيك عليه أعظم الجزاء.

وهذه الآية تعم جميع الفقراء المتعففين، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «**ليس المسكين بالذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين المتعفف، اقرءوا إن شئتم:** ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾»[1].

[٢٧٤] واعلموا أيها المؤمنون أن الذين يتصدقون بأموالهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهرًا؛ لهم ثواب عظيم عند الله، ولا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة، ولا يحزنون علىٰ ما فاتهم من نعيم الدينا الفاني.

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٦)، ومسلم (١٠٣٩).

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

[٢٧٥] ثم ذكر جلّ وعلا حال المرابين يوم القيامة أنهم يقومون من قبورهم كالمجانين حَالُهُمْ كحالِ من يُصرع في الدنيا بمس الشيطان، لأنهم كانوا يقولون: إنما البيع مثل الربا، فكذبهم الله وبين أن البيع حلال لما فيه من المصالح والمنافع للناس، وأن الربا حرام لما فيه من ظلم واستغلال للأفراد والمجتمعات، ثم بيّن سبحانه أن من بلغه تحريم الربا فامتثل وانزجر فله ما مضىٰ مما كسبه قبل أن يبلغه التحريم أو قبل توبته من الربا، وأَمْرُهُ إلىٰ الله يقضي فيه ما يشاء، وأما من استمر علىٰ تعاطي الربا بعد أن بلغه التحريم فأولئك قد وجبت عليهم العقوبة وهي دخول النار خالدين فيها.

والخلود المذكور في هذه الآية هو خلود أبدي في النار لمن كان عارفًا بالتحريم مستحلًّا له، لأنه يكذب حكم الله، وأما من تعاطىٰ الربا وهو يعلم ويعتقد أنه حرام فهو يعتبر مرتكبًا لكبيرة من كبائر الذنوب؛ فيعاقب في النار بقدر ذنوبه ثم يخرج منها بعد أن يطهره الله، أو يخرج بشفاعة الشافعين، أو رحمة أرحم الراحمين.

وقد أنكر بعض العلماء اقتحام الجني جسم الإنسان ودخوله فيه، وقالوا: إن المس غير الدخول، والجمهور ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية علىٰ خلاف ذلك، وذكروا أن الله أعطاه قدرة خاصَّة تمكنه من دخول بدن الإنسان، وبالأخص علىٰ الذين لا يتحصنون بذكر الله صباحًا ومساءً وعند النوم وغير ذلك.

[٢٧٦] ثم أخبر جلّ وعلا أنه بعدله يمحق الربا ويمحق مكاسب المرابين، وأنه بفضله يُنَمِّي صدقات المنفقين، ويكثرها لهم، والله لا يحب كل كافر معاند لشرع الله وحدوده، مستحل لأكل الربا، متمادٍ في الذنوب والمعاصي.

[٢٧٧] ثم وعد جل وعلا كل من آمن بالله ورسوله وعمل بشرعه، وعمل الأعمال الصالحة الطيبة، وأدّىٰ الصلاة علىٰ الوجه المطلوب كما أمر الله ورسوله، وأخرج زكاة ماله الواجبة عليه، بأن لهم الأجر والثواب العظيم من الله، وأنه لا خوف عليهم يوم القيامة، ولا يحزنون في الدنيا علىٰ ما فاتهم من حظوظها الفانية.

[٢٧٨] ثم أمر جلّ وعلا عبادة المؤمنين أن يخافوه، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأن يتركوا ما بقي لهم من أموال ربويةٍ عند الناس قبل تحريم الربا، ويكتفوا بأخذ رؤوس أموالهم؛ إن كانوا مؤمنين حقًّا، وصادقين في توبتهم من الربا.

[٢٧٩] ثم هدد سبحانه وتعالىٰ المرابين إذا لم يمتثلوا أمر الله بأن ينتظروا حربًا من الله ورسوله قاسية، أما إن تابوا ورجعوا عن أكل الربا فلهم فقط أصول أموالهم بلا زيادة، لا يَظْلِمُونَ أحدًا بأخذ الزيادة منه ظلمًا وعدوانًا، ولا يَظْلِمَهُم أحدٌ بإنقاص أصول أموالهم.

[٢٨٠] واعملوا أن الذي عليه الدين إذا كان معسرًا لا يستطيع سداد ما عليه؛ فأمهلوه حتىٰ ييسر الله أمره، وإن تصدقتم عليه بإسقاط بعض الدين أو إسقاط الدين كله؛ فهذا لا شك أنه أفضل لكم، إن كنتم تعلمون فضل ذلك، وعظيم ثوابه عند الله.

[٢٨١] واحذروا أيها الناس ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة الذي سوف تعودون فيه إلىٰ ربكم؛ فيجازي كل واحد بعمله، فالمحسن يجازىٰ علىٰ إحسانه، والمسيء يجازىٰ علىٰ إساءته، دون أن يُظلم أحد في ذلك اليوم.

قال بعض المفسرين: هذه آخر آية نزلت من القران.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى
فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ
كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ
ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ
مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ
مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ
أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ
وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢

[٢٨٢] ينادي جل وعلا عباده المؤمنين قائلًا لهم: ياأيها الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه إذا تداينتم بدين إلىٰ وقت معلوم فاكتبوه حفظًا للحقوق، ومنعًا للخلاف والنزاع، واختاروا كاتبًا أمينًا ضابطًا يكتب بينكم.

ومن طُلب منه الكتابة وهو قادر فلا يمتنع، وعليه أن يحتسب الأجر والثواب في ذلك، وأن يشكر الله الذي أنعم عليه بالعلم.

ويجب علىٰ المدين أن يكتب كل ما عليه من الحقوق، ويراقب الله في ذلك، ولا يُنقص منها شيئًا.

فإن كان الذي عليه دين سفيهًا، أي: محجورٌ عليه لسبب من الأسباب الشرعية، أو كان ضعيف العقل، أو كان طفلًا، أو أبكمًا، ولا يستطيع أن يكتب الحقوق التي في ذمته؛ فيقوم مقامه وليّه، ويكتب ما له وما عليه من الديون دون زيادة أو نقصان.

وعليه أن يُشهد علىٰ الوثيقة شاهدين عدلين من الرجال؛ فإذا لم يوجد رجلان فلا مانع أن يكون الشهود رجلًا وامرأتين ممن ترضون من النساء؛ حتىٰ إذا نسيت إحداهن ذكرتها الأخرىٰ لغلبة النسيان عند النساء، وبالأخص في الأمور التجارية.

ولا يجوز للشهود الامتناع عن الشهادة إذا دعوا إليها حتىٰ لا تضيع حقوق المشهود لهم.

ثم أخبر جلّ وعلا أنه يجب عليكم كتابة الديون إلىٰ وقتها المعلوم؛ سواء كانت قليلة أو كثيرة، وعليكم أن لا تضجروا من ذلك، وهذا أصح وأحفظ عند الله، وأثبت للشهادة، وأقرب إلىٰ نفي الشك في مقدار الدين والأجل.

ثم استثنىٰ جلّ وعلا من ذلك ما يحصل من البيع والشراء باستلام السلعة ودفع ثمنها في الحال؛ فهذه لا إثم عليكم في عدم كتابتها وتوثيقها.

وعليكم أن تشهدوا علىٰ العقود في مبايعاتكم، وخاصة في الأمور الكبيرة؛ كبيع الأراضي والبيوت والمتاجر والشركات ونحو ذلك.

ولا يجوز الإضرار بالكاتب والشهود؛ كأن يكلف بالسفر من بلد إلىٰ بلد لأداء الشهادة دون أن يُعطىٰ تكاليف السفر؛ بل يجب إكرامه وتعويضه؛ فإن حصل منكم إضرار فقد عصيتم الله وخرجتم عن طاعته.

واتقوا الله أيها الناس وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإنه يعلمكم سبحانه جميع ما يُصْلِحُ أمور دنياكم وآخرتكم، وهو بكل شيء عليم، لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وهذه الآية تسمىٰ آية الدين، وهي أطول آية في كتاب الله، أما أقصر آية فهي في سورة المدثر، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر:٢١].

وقد اشتملت هذه الآية علىٰ أحكام وأوامر كثيرة متعلقة بالبيوع؛ فالواجب علىٰ المسلم أن يتعلمها ويعمل بها؛ حتىٰ يكون من الفائزين والناجين في معاملاتهم المالية.

[٢٨٣] ثم بين سبحانه لمن كان في سفر واحتاج للاقتراض إلىٰ أجل محدد، وقد تعذرت الكتابة بسبب السفر أو أي مانع آخر؛ فعلىٰ صاحب الحق أن يأخذ رهنًا يقوم مقام الكتابة ليَحْفَظُ به حقَّه؛ فإذا وَثِق صاحب الحق في ذمة صاحبه وأمانته فلا حرج في ترك الكتابة والإشهاد إن كان ذلك غير ممكن، ويكتفىٰ بالرهن؛ فإن لم يوجد فعلىٰ صاحب الحق أن يتقي الله ويؤدي ما عليه من الحقوق التي اؤتمن عليها؛ فإذا أنكر من عليه الدين وكان هناك من حضر وشهد فعليه أن يشهد بما علم ولا يكتم شهادته، ومن كتم شهادته فإنه فاجرٌ وآثم قلبه، واعلموا أن الله مطلع علىٰ سرائركم، وما تخفيه قلوبكم، وسيجازيكم علىٰ جميع أعمالكم.

وقد ذكر سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية الرِّهان، وهو التوثيق الثاني للعقد بعد الكتابة، والثالث: هو الكفالة، وَذِكْرُ السفر هنا ليس شرطًا، وإنما ذُكِرَ لأنهم في الماضي لا تتهيأ لهم أدوات الكتابة في السفر، ثم اعتمد الرهن في السفر وغيره.

[٢٨٤] يخبر جلّ وعلا أنه يملك جميع ما في السماوات والأرض، وأن كل ما تظهرونه أو تخفونه في أنفسكم أيها الناس فإن الله يعلمه وسيحاسبكم عليه، وإنه سبحانه يعفو عمن شاء من عباده التائبين، ويعذب من شاء من عباده المعاندين المُصِرِّين علىٰ الذنوب والمعاصي، وهو علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٢٨٥] ثم أخبر جلّ وعلا أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين آمنوا بما أُنزل إليهم من ربهم من القرآن والوحي، وأن كلًّا منهم آمن بالله وحده لا شريك له، وآمنوا بالملائكة الكرام، وآمنوا بالكتب التي أُنزلت علىٰ الرُّسل، وآمنوا بالرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله، وأنهم لا يفرقون بين الرسل فيؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض كما فعلت اليهود والنصارىٰ؛ بل يؤمنون بهم جميعًا، وقالوا - أي: الرسل والمؤمنون -: سمعنا يارب قولك وأطعنا أمرك، فنسألك أن تغفر لنا - بفضلك - ذنوبنا وتقصيرنا، فأنت ربنا ليس لنا رب سواك، وأنه إليك وحدك مصيرنا ومرجعنا.

[٢٨٦] ثم يخبر جلّ وعلا أنه رحمة بالعباد لا يكلف نفسًا إلا ما تطيق؛ وأن لكل نفس جزاء ما عملت من خير، وجزاء ما عملت من شر، ويقول المؤمنين عند دعائهم ربهم: ربنا لا تعاقبنا إن نسينا أو أخطأنا؛ فأنت تعلم أننا بشر ضعاف مقصرون، ويا ربنا لا تكلفنا ما لا نطيق من الأغلال التي كانت علىٰ من قبلنا، ويا ربنا لا تحمِّلنا ما لا نستطيعه من التكاليف والمصائب التي نعجز عنها، وامْحُ ذنوبنا، وكفر سيئاتنا، وارحم ضعفنا وتقصيرنا؛ فأنت مولانا ومالك أمرنا، ولا رب لنا سواك، وانصرنا يا ربنا علىٰ الكفار الذين جحدوا دينك، وكذبوا نبيك محمدًا ﷺ.

وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

وقوله: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾، **الآصار**: هي الأغلال، وقد استجاب جل وعلا فله الحمد والشكر؛ حيث قال: قد فعلت.

وقد نزلت هذه الآية تخفيفًا عن المؤمنين لما اشتكوا إلىٰ الرسول ﷺ وقالوا: إننا امتثلنا التكاليف التي نطيق، أما الخواطر النفسية فهذه من الأمور التي لا يسلم منها أحد، يشيرون بذلك إلىٰ الآية التي قبل هذه، وهي قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ...﴾؛ فأكرم الله المؤمنين وعفىٰ عن الخواطر النفسية[1].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أن من قرأ الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه[2]، أي: كفتاه من جميع الشرور، لما احتوتا عليه من المعاني الجليلة.

(١) أخرجه مسلم (١٢٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه مسلم أيضًا (١٢٦)، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٧)، عن أبي مسعود البدري رضي الله عنهما.

سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن
قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ
عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦ هُوَ
ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ
ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ
مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ
إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ
رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ
إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ
إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩

سورة آل عمران

سورة المائدة مدنيّة وآياتها مائتا آية، وقد جاء في فضلها بعض الأحاديث، ومن ذلك ما ورد أن البقرة وآل عمران سُمِّيتا بالزهراوين، وأنهما يكونان يوم القيامة غمامتين يظللان فوق رأس من يحفظهما[(١)].

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] يخبر جلّ وعلا أنه هو الله الذي لا معبود بحق إلا هو، الحي الذي له الحياة الكاملة الدائمة، القائم بنفسه علىٰ شئون الخلق وتدبير الكون.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الاسم الأعظم فذكر أنه في آية الكرسي ومقدمة سورة آل عمران وسورة طه[(٢)]، وبناءً علىٰ هذا قال الأكثرون: إنه ﴿ٱللَّهُ﴾، وقال آخرون: هو ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، والعلم عند الله. وقد أخفاه جلّ وعلا لحكم، منها: أن أسماءه كلها عظمىٰ، والأرجح: أن الاسم الأعظم لا يخرج عن هذين القولين.

[٣] واعلم يا نبي الله أن الله جل في علاه نزَّل عليك القرآن بالحكمة التي اقتضتها إرادته، وبالعدل والصدق في أحكامه، ومؤيدًا ومصدقًا للكتب السماوية التي قبله، وأنه أنزل التوراة علىٰ موسىٰ، والإنجيل علىٰ عيسىٰ عليهما السلام.

[٤] ثم بين جل وعلا أنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن؛ لأجل هداية الناس جميعًا، ثم أنزل ما يفرق بين الحق والباطل وهو القرآن الكريم، ثم ذكر سبحانه أن الذين جحدوا آيات الله البينة الواضحة لهم عذاب شديد دائم في نار جهنم، والله عزيز لا غالب له، ينتقم ممن خالفه وأعرض عن دينه.

[٥] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنه عالم الخفيات، ومطلع علىٰ المغيبات، لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماوات، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

[٦] ثم أخبر جل وعلا أنه وحده الذي يخلقكم في بطون أمهاتكم كما يشاء، من اللون والجنس والشكل، فلا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، العزيز الذي لا غالب له، الحكيم في خلقه وأمره وشرعه.

[٧] واعلم يا نبي الله أن الله جل في علاه أنزل عليك القرآن منه آيات قطعية الدلالة واضحة المراد منها لا اشتباه فيها، وهي جُلّ ما في القرآن، وهي التي تحتوي علىٰ التكاليف الشرعية وأخبار الأمم الماضية والخلق والبعث، كما قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود:١].

وأما الآيات الأُخَرُ المتشابهة فهي أقل ما في القرآن، وهي تحتملُ عدة تفاسير يفهمها الراسخون في العلم، ومنها: أمر الحياة البرزخية، وجُلّ أمور الغيب، ومنها كيفية الذات الإلهية، ثم بين سبحانه أن الذين في قلوبهم مرض يتعلقون بالآيات المتشابهة ليشككوا بها المؤمنين، ويؤيدوا باطلهم الذي هم عليه، ويثيروا الفتنة بين الناس، ولا يعلم تأويل الآيات المتشابهات علىٰ القطع إلا الله وحده، وأن الراسخين في العلم يؤمنون بهذه الآيات المتشابهات كما يؤمنون بالآيات المحكمات، وأنها كلها من كلام الله المنزل علىٰ نبيه ﷺ، ولكن لا يفهم ولا يتدبر هذه المعاني علىٰ وجهها الصحيح إلا أصحاب العقول السلمية الرزينة، والعقائد السليمة.

[٨] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن المؤمنين الصادقين في إيمانهم يسألون ربهم الثبات، فيقولون: ربنا لا تصرف قلوبنا عن الهدىٰ بعد أن هديتنا إلىٰ الحق، وامنحنا من عندك رحمة ترحمنا بها في دنيانا وآخرتنا، إنك كثير الفضل والعطاء، تعطي من تشاء بغير حساب، فلا إله غيرك، ولا رب لنا سواك.

[٩] ثم أخبر سبحانه أنهم يقولون أيضًا: والله يا ربنا إننا نؤمن بيوم القيامة الذي هو يوم الجزاء والحساب، وإننا نشهد أنك جامع الناس في ذلك اليوم الذي لا شك فيه، وإنك سبحانك لا تخلف الميعاد.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦)، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

[١٠] يخبر جلّ وعلا أن الذين جحدوا دين الله وأنكروه لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله وغضبه؛ بل ستكون حسرة عليهم؛ سواء في الدنيا أو في الآخرة، وسوف يكونون حطبًا تشتعل بهم نار جهنم؛ فبئست النهاية وبئس المصير.

[١١] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن أولئك الكفار الذين جحدوا آياته مصيرهم مصير آل فرعون، والذين كفروا من قبلهم؛ فكلهم جحد الآيات الواضحات البينات؛ فعاقبهم الله وأهلكهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم من الكفر والتكذيب والعناد وغير ذلك، واعلموا أن، عذاب الآخرة أكبر، وأن الله شديد العقاب لمن جحد دينه وكفر به.

[١٢] وقل يانبي لهؤلاء الكفار والمشركين: إنكم أيها الكفار ستهزمون في هذه الدنيا، ويوم القيامة ستجمعون ثم تساقون إلىٰ جهنم، فبئس الفراش فراشهم الذي سيفترشونه وهو نار جهنم.

[١٣] واعلموا أيها اليهود أنه قد كان لكم عبرة وعلامة ودلالة عظيمة في ما وقع بين جماعتين التقتا في معركة بدر، جماعة تقاتل من أجل إعلاء كلمة الله وهم الرسول ﷺ وصحابته الكرام، وجماعة تقاتل مع الشيطان دفاعًا عن الباطل وهم المشركون، ولقد كان المؤمنون يرون الكفار أكثر منهم في العدد والعدة؛ حيث كانوا يرونهم أكثر منهم مرتين، رؤية حقيقية، ومع ذلك لم يهابوا من عدوهم ولم يجبُنوا عند اللقاء، ولكن الله بقدرته أيد المؤمنين ونصرهم، وهزم الكافرين وأذلهم، والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده؛ واعلموا أن في هذه الحادثة لعبرة وعظة لأصحاب العقول والبصائر المتفكرة الموقنة بأن النصر من الله يهبه لأوليائه الصالحين.

[١٤] ثم ذكر جلّ وعلا حال الناس في إيثار الدنيا علىٰ الآخرة؛ فأخبر أن الناس حُبِّبَت لهم الشهوات من النساء والبنين، والأموال الكثيرة المخزنة من الذهب والفضة، والخيل المعلمة بأحسن الألوان وأبهجها، والأنعام من الإبل والبقر والغنم، والأرض المزروعة بالخضرة والنباتات المثمرة، وهذه كلها من متاع الحياة الدنيا وزينتها، ولكن الله عنده المرجع الحسن والنزل الكريم لعباده المؤمنين، وهي جنة عرضها كعرض السماوات والأرض؛ فيها كل ما تشتهيه الأنفس.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

[١٥] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للناس: ألا أخبركم أيها الناس بأحسن وأفضل مما زُيِّن لكم في الحياة الدنيا من الشهوات، وهو ما أعطاه الله للمؤمنين الذين يخشونه ويخافون عقابه من جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها وبساتينها الأنهار؛ خالدين فيها خلودًا لا يلحقه موت، ولهم أيضًا أزواج طاهرات من كل دنس، ومن كل طمث، ومن كل سوء خلق، وأعظم من ذلك أن يحل عليهم رضوان الله، واعلموا أن الله بصير بعباده يعلم الصادق من المنافق، وسيجازي كلًّا بحسب إيمانه وعمله.

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

[١٦] واعلموا أيها الناس أن هؤلاء المتقين الذي ذكروا في الآية السابقة من صفاتهم أنهم يدعون ربهم فيقولون: ياربنا إننا آمنا بك، وصدقنا بكتابك، واتبعنا نبيك محمدًا ﷺ، فندعوك أن تتجاوز عن زلاتنا وأخطائنا، ونَجِّنا برحمتك من عذاب النار.

[١٧] ثم بين سبحانه أن من صفاتهم: أنهم صابرون علىٰ البأساء والضراء بكل أنواع الصبر؛ وأنهم صادقون في أقوالهم وسائر أحوالهم، وأنهم مطيعون لله دائمًا، وأنهم ينفقون سرًّا وعلانية، وأنهم يستغفرون ربهم في آخر الليل وقت نوم الناس وراحتهم؛ لأنه وقتُ تنزُّلِ الربِّ ومَظِنَّةُ إجابة الدعاء.

[١٨] ثم أخبر جلّ وعلا عباده بالأدلة والآيات والبراهين القاطعة التي تشهد بوحدانيته، وقد شهد لنفسه أنه الواحد الأحد الفرد الصمد، وأنه المتفرد بالألوهية، وشهد بذلك الملائكة وأهل العلم، وأنه سبحانه قائم بالعدل بين عباده فيما يقسم من الآجال والأرزاق، وأنه لا معبود بحق سواه، وهو العزيز الذي لا يغالبه أحد في ملكه، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها المناسبة.

[١٩] واعلموا أيها الناس أن الدين الحق الذي ارتضاه الله لخلقه وأرسل به الرسل هو دين الإسلام الذي يجمع الإيمان والقول والعمل، وهو الدين الخاتم لجميع الأديان، وما اختلف اليهود والنصارىٰ في أمر الإسلام ونبوة محمد ﷺ إلا بعد أن عرفوا الحقيقة، وعلموا أن محمدًا ﷺ هو الرسول المذكور عندهم في كتبهم، وما حملهم علىٰ هذا الاختلاف إلا اتباع الهوىٰ والبغي والحسد للمؤمنين، ومن يكذب بآيات الله فإن الله سريع الحساب، لا يشغله أمر عن أمر، وسيجازي كلًّا بحسب عمله.

[٢٠] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ إذا جادله أهل الكتاب في أمر الدين والرسالة أن يقول لهم: لقد أخلصت ديني لله وحده لا شريك له، وكذلك كل من اتبعني من المؤمنين فقد أخلصوا دينهم لله وحده لا شريك له، ثم أمره أن يقول لليهود والنصارىٰ والمشركين: هل أسلمتم؟ فإذا أسلموا فقد أصابوا الحق، وإن أعرضوا وعاندوا؛ فليس عليك يانبي الله إلا البلاغ المبين، وقد بلغ ﷺ أمته، وأدىٰ الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، واعلموا أيها الناس أن الله بصير بالعباد، عالم بجميع أعمالهم، لا تخفىٰ عليه خافية من أمرهم.

[٢١] واعلموا أيها الناس أن الذين يجحدون آيات الله الواضحة البينة، ويقتلون الأنبياء بغير حقٍّ، ويقتلون الذين يأمرونهم بالعدل من أتباع الأنبياء؛ فهؤلاء شر الخلق فبشِّرهم بعذاب أليم في نار جهنم.

[٢٢] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن هذا العذاب الأليم الذي استحقوه، لأن أعمالهم بطلت في الدنيا والآخرة بسبب كفرهم وجحودهم، وليس لهم من ينصرهم ويدفع عنهم شيئًا من عذاب الله.

[٢٣] يقول جل وعلا لنبيه ﷺ: ألا تعجب يانبي الله من حال هؤلاء اليهود الذين آتيناهم حظًّا وافرًا من الخير وهو التوراة، وعرفوا ما فيها من أحكام، وعلموا أن ما جئت به الحق؛ فإذا دُعُوا للتحاكم إلىٰ القرآن ليفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، فإن فريقًا منهم يتولون بأبدانهم ويعرضون بقلوبهم، لأن حكم الله لم يوافق أهواءهم؛ ولأن من عادتهم الإعراضَ عن الحق واتباعَ الهوىٰ؛ مع أن حكم القرآن موافق لما عندهم في التوراة.

وفي هذا تحذير لنا أن نفعل فعل هؤلاء اليهود ونحذو حذوهم؛ فنعرض عن حكم القرآن؛ فيصيبنا ما أصابهم من الذم والعقاب، ولهذا الواجب علىٰ كل من دعي إلىٰ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ السمع والطاعة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

[٢٤] ثم بين جل وعلا أن إعراض هؤلاء اليهود عن حكم الله هو بسبب ما سولته لهم أنفسهم وشياطينهم بأنهم لن تمسهم النار إلا الأيام التي عبدوا فيها العجل، وهي أربعون يومًا، واغتروا بما كانوا يقولون ويفترون: بأن دخولهم النار فقط تَحِلَّةً للقسم، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١]، واغتروا أيضًا بأن أنبياءهم سيشفعون لهم، وقالوا: إن الله وعد يعقوب ألا يعذب أولاده إلا تَحِلَّةَ القسم، وقالوا: إنهم أبناء الله وأحباؤه، إلىٰ آخر افتراءاتهم التي تكررت حتىٰ تقررت في نفوسهم واعتقدوها.

[٢٥] وهؤلاء اليهود الذين اغتروا بهذه الأماني والافتراءات كيف سيكون حالهم إذا أحضرناهم للحساب يوم القيامة الذي لا شك ولا ريب في وقوعه، وقد أخذ كل واحد منهم جزاءه مما كسب من الخير أو الشر، بلا ظلم أو اعتداء عليه.

[٢٦] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يعظم ربه في دعائه فيقول: اللهم يامن بيده الملك ومقادير الأمور، أنت الذي تعطي الملك من تشاء من عبادك، وتنزعه ممن تشاء، وتعز الذليل متىٰ تشاء، وتذل العزيز متىٰ تشاء، بيدك الخير، إنك وحدك سبحانك القادر علىٰ النفع والضر، لا يعجزك شيء في الأرض ولا في السماء.

[٢٧] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن مما يدل علىٰ عظيم قدرته أنه يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، فيطول هذا ويقصر ذاك، ويخرج الحي من الميت كإخراج النبات من الحبة، ويخرج الميت من الحي كإخراج البيضة من الدجاجة، ويرزق من يشاء من عباده بغير حساب.

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٥ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩

[٢٨] ثم حذر جلّ وعلا المؤمنين أن يتخذوا الكافرين الجاحدين أعوانًا وأنصارًا يبادلونهم المحبة والمودة والمناصرة، ومن يفعل ذلك فإن الله بريء منه، أما إذا كنتم ضعفاء وتخشون الضرر منهم فقد رخَّص الله لكم أن تظهروا الكلام اللين والخطاب الجميل، دون أن يؤثر ذلك علىٰ قلوبكم لتتقوا شرهم وأذيتهم، واعلموا أن الله يخوفكم من عقابه وانتقامه الشديد، وأنه إليه وحده الرجوع، وسيجازي جميع الخلائق علىٰ أعمالهم ؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

[٢٩] ثم أمر جل في علاه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين علىٰ سبيل النصح والإرشاد والتحذير: اعلموا يامن تكتموا موالاة الكفار ونصرتهم في قلوبكم، أو تظهروها؛ فإن الله يعلم ذلك ولا تخفىٰ عليه خافية؛ بل إن علمه جل في علاه محيط بكل ما في السماوات والأرض، وإنه ذو قدرة نافذة علىٰ كل شيء، ومن ذلك قدرته علىٰ عقوبتكم إذا توليتم هؤلاء الكفار.

يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

[٣٠] واعلموا أيها الناس أن الجزاء الحقيقي يكون يوم القيامة، يوم تجد كل نفس في ذلك اليوم كل ما فعلته في دنياها من خير أو شر، وأنه ينتظرها، فتتمنىٰ حينها النفوس الفاسقة لو أن بينها وبين هذا العمل ما بين السماء والأرض، ويحذركم الله نفسه فخافوه واتقوه، ومع شدة عقابه وعذابه فإنه رؤوف رحيم بعباده المؤمنين.

[٣١] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للكفار والمشركين: إن كنتم أيها الكفار صادقين في ادعائكم محبة الله فيجب عليكم أن تتبعوني وتؤمنوا بي ظاهرًا وباطنًا؛ لأني رسول الله، واعلموا أن من اتبعني فإن الله سوف يحبه ويمحو ذنوبه ويعفو عنه، والله كثير المغفرة رحيم بعباده.

قيل: نزلت هذه الآية لما قال كعب بن الأشرف زعيم اليهود وأتباعه: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فهي عامة لكل من أراد حب الله فعليه اتباع ما أمر به النبي ﷺ، وترك ما نهىٰ عنه.

[٣٢] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يأمر الناس فيقول لهم: أيها الناس أطيعوا الله بطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، وأطيعوا الرسول باتباع سنته وطريقته، فإنْ كذَّبتم وأعرضتم؛ فاعلموا أن الله لا يحب الكافرين الجاحدين.

[٣٣] واعلموا أيها الناس أن الله اختار لرسالته صفوة خلقه، ومن هؤلاء الذين اختارهم الله: آدم ونوحٌ وإبراهيم وآل إبراهيم وآل عمران، عليهم السلام أجمعون، ثم اصطفىٰ كل واحد منهم وأتباعه علىٰ عالمي زمانهم.

[٣٤] واعلموا أيها الناس أن هؤلاء الأنبياء وأتباعهم كلهم سُلالة واحدة بعضهم من بعض، لا تختلف عقائدهم، ودينهم واحد، واعلموا أن الله سميع لأقوال عباده، عليم بأحوالهم وأفعالهم.

[٣٥] واذكر يا نبي الله لقومك يوم أن قالت امرأة عمران: يا رب إني نذرت لك ما في بطني خالصًا لك لخدمة بيت المقدس، فتقبل يا رب مني هذا العمل، إنك تسمع كلامي، وتعلم صدقي وإخلاصي.

[٣٦] فلما أكملت امرأة عمران حملها ووضعت مولودها، وإذ به يخرج أنثىٰ، فقالت: يا رب إني وضعتها أنثىٰ، - ولا شك أن الله يعلم بما وضعت قبل أن تضع-، وأنت تعلم يا رب أن الأنثىٰ لا تصلح في خدمة بيت المقدس كالذكر، وإني سميتها يا رب مريم، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان المطرود من رحمتك. وكان من فضل الله أن استجاب لدعائها فحفظ مريم وابنها عيسىٰ عليهما السلام ولم يقربهم الشيطان أبدًا.

وقوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ﴾، قالت ذلك ندمًا وأسفًا علىٰ أنها لم تضع ولدًا ذكرًا يجعلها تفي بنذرها، ولله الحكمة البالغة؛ فهي لا تدري أنها وضعت سيدة نساء عالم زمانها؛ بل هي الأولىٰ من النساء الأربع اللّاتي كملن، كما قال ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «**كمُل من النساء أربع وهن: مريم، وآسية زوجة فرعون، وخديجة بنت خويلد أم المؤمنين، وفاطمة الزهراء**»[1]، ولم يخطر ببالها أن ابنتها مريم سوف تضع آية عظمىٰ، ونبيًّا كريمًا، وهو عيسىٰ عليه السلام.

[٣٧] ثم أخبر سبحانه أنه استجاب لأم مريم دعاءَها، وتقبل منها نذرها؛ فحفظ لها ابنتها وتولاها وأنبتها نباتًا حسنًا، ثم إن زكريا زوج خالتها عليه السلام كفلها؛ وكان كلما دخل عليها المحراب، وهو مكان الصلاة التي تصلي فيه؛ وجد عندها أكلًا لم يقم بإحضاره لها من قبل؛ فسألها: من أين لك يا مريم هذا؟ فأجابته قائلة: هو رزق جاء من عند الله؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ يرزق من يشاء من عبادة بغير حساب.

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١)، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

[٣٨] فلما سمع زكريا إجابة مريم عليهما السلام، ورأىٰ ما تفضل الله به عليها من الخير والكرم، انتبه إلىٰ أمر كان غائبًا عنه أو مُسْتَبعِدًا لحصوله وهو الولد الصالح؛ حيث إن امرأته عاقر، وقد بلغ سن الشيخوخة؛ فما كان منه عليه السلام إلا أن توجَّه عليه السلام إلىٰ ربه فيدعاه أن يرزقه الذرية الصالحة الطيبة فقال: يا رب امنحني من فيض جودك وكرمك ذرية صالحة طيبة تقر بها عيني، وتكون خلفًا من بعدي، إنك يا رب سميع مجيب لمن دعاك.

وكان سبب دعائه أنه خاف علىٰ الدعوة والتوحيد أن يتلاعب بهما الخلف، كما وضح هو ذلك بقوله في سورة أخرىٰ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:٥].

[٣٩] ثم أخبر سبحانه أنه استجاب دعوة زكريا عليه السلام، وجاءت الملائكة تبشره بالولد، وهو قائم يصلي في المحراب، وقالت له: يا زكريا إن الله يبشرك بولد اسمه يحيىٰ، وهذا الولد سوف يصدِّق بعيسىٰ بن مريم عليه السلام، وسيكون سيدًا في قومه، ولا يقع في الذنوب والشهوات، ولا يقرب النساء لتفرغه للعبادة، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَحَصُورًا﴾، أي: خَلَّص نفسه للدعوة والعبادة، وسوف يكون نبيًّا من الصالحين الذين بلغوا أعلىٰ درجات الصلاح.

ولاحظ أن الله سبحانه وتعالىٰ ذكر في هذه الآيات المحراب مرتين:

الأولىٰ: لما رأىٰ الرزق عند مريم عليها السلام.

والثانية: لما نادت الملائكة زكريا وهو يصلي في المحراب وبشرته بيحيىٰ عليهما السلام.

كما أنه ذكر المحراب أيضًا في آية سابقة لما خرج زكريا عليه السلام علىٰ قومه.

ويفهم من هذا: أن رحمات الله تتنزل غالبًا علىٰ الذين يتوجهون إلىٰ الله مخلصين بالعبادة والدعاء له في الصلاة، ولذلك كان ﷺ كلما حزبه أمر فزع إلىٰ الصلاة[1].

[٤٠] عند ذلك قال زكريا عليه السلام علىٰ سبيل التعجب: رب كيف يكون لي غلام مع أني قد كبر سني وامرأتي عقيم؟ فقال الله سبحانه وتعالىٰ: اعلم يا زكريا أنه بمثل هذا الفعل فإنا نفعل ما نشاء من الأفعال المعجزة المخالفة للعادة.

[٤١] وبعد أن بشَّرتِ الملائكة زكريا عليه السلام بالولد، توجه داعيًا الله أن يجعل له علامة تخبره أن زوجته حملت، وقصده بذلك أن يصوم ويدعو شاكرًا الله؛ فأخبره جلّ وعلا أنه سوف يصبح عاجزًا عن الكلام مع الناس لمدة ثلاثة أيام إلا بالإشارة إليهم، ثم أمره الله أن يكثر في هذه المدة من ذكره في أول النهار وفي آخره.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

[٤٢] ثم وجه جل في علاه الخطاب لنبيه ﷺ وأخبره أن الملائكة قالت لمريم عليها السلام: يا مريم إن الله اخْتارَكِ وطهَّرَكِ من الوقوع في الأخطاء، واخْتارَكِ من بين نساء العالمين.

وكرر سبحانه الاصطفاء في هذه الآية للأمر الخارق للعادة، وهو إيجاد الولد من غير أب.

[٤٣] ثم أمر جل وعلا مريم عليها السلام أن تخلص العبادة لله وحده لا شريك له، وأن تكثر من السجود والركوع مع الراكعين، شكرًا لله علىٰ نعمه وأفضاله.

[٤٤] واعلم يا نبي الله أن ما قصَّه الله عليك من هذه الأخبار الغيبية، هو من الغيب الذي أوحاه الله إليك، وما كنت تعلمها لولا أن الله أخبرك بها، وما كنت حاضرًا معهم وهم يقترعون بالسهام لِيُعْلَمَ بالقرعة من يكفل مريم، وما كنت معهم وهم يختصمون في نيل هذا الشرف العظيم، وإنما جاءك العلم بهذه الأخبار من عند الله؛ لتكون دليلًا لك علىٰ صدق نبوتك.

[٤٥] واذكر يا نبي الله يوم أن قالت الملائكة لمريم عليها السلام: يا مريم إن الله يبشرك أنه وهب لك ولدًا يحصل بكلمة الله تعالىٰ، وهذا المولود اسمه: المسيح عيسىٰ بن مريم عليه السلام، وسوف يكون ذا جاه وشرف في الدنيا وفي الآخرة، ومن المقربين لله تعالىٰ فصار من أولي العزم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود (١٣١٩) عن حذيفة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١١٩٢)، وصحيح الجامع (٤٧٠٣).

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾

[٤٦] ثم أخبر جل وعلا أن هذا المولود وهو عيسىٰ عليه السلام سوف يُجري الله علىٰ يديه بعض المعجزات، ومن ذلك: أنه يكلم الناس وهو في مهده وقت رضاعه، كما يكلمهم في كبره، وسوف يكون من الصالحين الذين يعملون الأعمال الصالحة؛ بل إنه صار أحد أولي العزم من الرسل.

[٤٧] فقالت مريم عليها السلام علىٰ سبيل التعجب: يا رب كيف يكون لي ولد ولم يمسَّني بشرٌ بجماع؟ فأجابها جبريل عليه السلام: هكذا أمر الله يا مريم؛ سوف يَخْلُق منكِ ولدًا من غير أب، وهو جل في علاه يخلق ما يشاء، وإذا حكم بوجود شيء فإنما يقول له: (كن) فيكون، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران:٥٩].

[٤٨] ثم أخبر جل وعلا أنه سوف يعلِّم عيسىٰ عليه السلام الكتابة والحكمة، وهي وضع الأشياء في مواضعها المناسبة، وهي هنا النبوة، ويعلمه أيضًا التوراة التي نزلت علىٰ موسىٰ عليه السلام، والإنجيل الذي أنزله الله عليه.

[٤٩] وأخبر جل وعلا أنه جعل عيسىٰ عليه السلام رسولًا لبني إسرائيل، وأن عيسىٰ أخبر بني إسرائيل أنه جاء بالأدلة التي تثبت أن الله بعثه رسولًا إليهم، ومن هذه الأدلة: أنِّي أصنع لكم من الطين ما يكون علىٰ شكل الطير ثم أنفخ فيه فيصير طيرًا بإذن الله، وأنِّي أرد للأعمىٰ بصره، وأشفي من به برص بإذن الله، وأنِّي أحيي من كان ميتًا بإذن الله، وأخبركم بما تأكلون وما تدخرون من الطعام في بيت كل واحد منكم بإذن الله، واعلموا أن في هذه الآيات العظيمة التي لا يقدر عليها أحد من البشر لَدَليلٌ وإثباتٌ لكم أني نبي ورسول من الله تعالىٰ، إن كنتم تؤمنون وتصدقون بحجج الله وآياته.

وقد كرر سبحانه في هذه الآية قوله: ﴿ **بِإِذۡنِ ٱللَّهِ** ﴾، مع كل معجزة ليؤكد أنه إنسان مثلهم، وأن هذه الخوارق هي بإقدار الله له وبإذنه حتىٰ لا يقدسوه ويعطوه صفة الربوبية، ومع ذلك لم يَسْلَمْ فقد وقع ما خوفهم منه.

[٥٠] ثم قال عيسىٰ عليه السلام لقومه: لقد جئتكم يا قوم مصدقًا للتوراة التي أنزلت علىٰ موسىٰ عليه السلام، ولست مخالفًا لشيء من أحكامها الخاصة بتوحيد الله، وأيضًا جئت لأخفّف عنكم بعض الأحكام المشددة فيها، فأُحِلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم، وقد جئتكم بحجج وبراهين تدل علىٰ صدق ما قلت لكم؛ فخافوا الله عز وجل وأطيعوني فيما جئتكم به من الله.

[٥١] واعلموا يا قوم أن الذي أرشدكم إلىٰ عبادة الله وحده هو الله ربي وربكم، وخالقي وخالقكم؛ فاعبدوه وأطيعوه، وهذا هو الطريق المستقيم الذي يوصلكم إلىٰ جنة ربكم.

[٥٢] فلما شعر عيسىٰ عليه السلام بإصرارهم علىٰ الكفر والجحود نادىٰ في بني إسرائيل فقال: من ينصر دين الله ورسوله منكم معي، فقال الخُلَّص من المؤمنين: نحن أنصار دين الله ورسوله، وصدقنا بالله، واتبعناك علىٰ الحق الذي جئت به، ونطلب منك يانبي الله أن تشهد يوم القيامة علىٰ تصديقنا واتباعنا لك.

[٥٣] ثم دعا الحواريون ربهم فقالوا: ربنا صدّقنا بما أنزلت علىٰ عيسىٰ عليه السلام من الإنجيل واتبعناه؛ فاكتبنا مع الشاهدين الذين يشهدون أنك أنت الله الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو.

[٥٤] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود مكروا وتآمروا علىٰ قتل عيسىٰ عليه السلام، مدعين أن الآيات التي أتىٰ بها سحر، وقرروا عمل الجريمة، وعينوا من يتولىٰ ذلك، ولكن الله مكر بهم بأن رفع عيسىٰ عليه السلام، وألقىٰ شَبَهَهُ علىٰ رئيسهم في المؤامرة فقتلوه، واعلموا يامن مكرتم وتآمرتم علىٰ قتل عيسىٰ عليه السلام أن الله خير الماكرين، أي: أَنْفَذُ إِرَادَةً وَأَقْدَرُ علىٰ إيصال الغير ما يستحقه. وفي هذه الآية إثبات صفة المكر المقيد لله كما يليق بجلالِهِ وعظمتِهِ. والمكر نوعان: مكر سيِّءٌ ومكر حسن.

فالسيِّءُ: هو الإضرار بالآخرين بغير حق.

والحسن: هو دفع الظلم والانتقام من المجرمين.

والله جل وعلا يوصف بالمكر المقيد بالعلو والأفضل، فلا يقال: إن الله ماكر إلا إذا أضيفت له صفة الكمال، أي: المكر الأعلىٰ، أو المكر بالماكرين.

[٥٥] ومن مَكْرِ الله بهم أن الله جل في علاه قال: اعلم يا عيسىٰ أني قابضك ورافعك إليَّ بجسدك وروحك، ومخلصك من كيد الذين كفروا بك، وسأجعل الذين اتبعوا ما جئت به من الحق مُعَزَّزِينَ ومنصورين علىٰ الذين كفروا وجحدوا نبوتك إلىٰ يوم القيامة، ثم إلىٰ الله مرجعكم جميعًا يوم القيامة، يوم الجزاءُ والحساب ليحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون في أمر عيسىٰ عليه السلام وغيره.

[٥٦] ثم أخبر جل وعلا أن الذين كفروا من اليهود والنصارىٰ والمشركين وغيرهم؛ سوف يعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي والجزية، وفي الآخرة بالنار والعذاب الأليم، وليس لهم من يمنعهم من عذاب الله أبدًا.

[٥٧] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه وعملوا الأعمال الصالحة؛ سوف يعطيهم الله جزاء أعمالهم غير منقوصة، واعلموا أيها الناس أن الله لا يحب المتجاوزين لحدوده المقترفين لمعاصيه.

[٥٨] واعلم يا نبي الله أن ذلك الذي قصصناه عليك في شأن عيسىٰ عليه السلام هو من الدلائل علىٰ صدق رسالتك، وهو من القرآن الكريم المشتمل علىٰ العلم النافع المحكم المنجي من العذاب.

[٥٩] ثم بين المولىٰ سبحانه أن خَلْقَهُ لعيسىٰ عليه السلام من غير أب، كمثَل خلقه آدم عليه السلام من غير أب ولا أم؛ بل أمر آدم أغرب وأتَم في الإعجاز؛ حيث إن الله خلقه من تراب، ثم قال له: ﴿كُن﴾، فكان بشرًا سويًّا، وقد اتفق الجميع علىٰ أن آدم عبد من عباد الله؛ فكذلك عيسىٰ عليه السلام عبد من عباد الله.

[٦٠] واعلم يا نبي الله أن الحق الذي جاءك في شأن عيسىٰ عليه السلام هو ما قلناه وبيَّنَّاه لك فلا تكن من الشاكِّين.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

وهذا أمر وتوجيه من الله ليعرف المؤمنون عمومًا وأتباع عيسىٰ - الذين يعتقدون أنه قتل وصلب -، خصوصًا وغيرهم؛ أن عيسىٰ عليه السلام لم يقتل، وأنه عبد الله ورسوله، أما نبينا محمد ﷺ فهو معصوم مما هو أقل من الشك فيما يبلغ عن ربه.

[٦١] ثم قال سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ: فإذا جادلك يانبي الله هؤلاء في عيسىٰ عليه السلام وزعموا أنه فوق منزلة العبودية، من بعد ما أخبرك القرآن أنه عبد الله ورسوله فادعهم للمباهلة، وقل لهم: تعالوا نجمع أقرب الناس وأحبهم إلينا من أبنائنا وأبنائكم ونسائنا ونسائكم، ثم ندعوا الله أن ينزل عقوبته ولعنته علىٰ الكاذبين المُصِرِّين علىٰ عنادهم وجحودهم.

وهذه الآية تسمىٰ: آية المباهلة، وتُسمىٰ في عصرنا الحاضر: بالتحدي، وقد نزلت في نصارىٰ نجران الذين جادلوا النبي ﷺ لما قدموا عليه في المدينة فدعاهم إلىٰ الإسلام، فأصروا علىٰ أنهم علىٰ حق، فأمره الله أن يدعوهم إلىٰ المباهلة، ووعدهم النبي ﷺ بالحضور للمباهلة نهار الغد، ومن الغد حضر الرسول ﷺ في الموعد وحضر معه الموجود من أسرته، ولكن لم يحضر النصارىٰ في الموعد لخوفهم وعلمهم بما سيترتب علىٰ ذلك، وقال بعضهم: إنْ باهلناه حلَّت بنا اللعنة، أي: تأكدوا أنهم كانوا يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾

[٦٢] واعلم يا نبي الله أن هذا الذي قصصناه عليك في شأن عيسىٰ عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته، لهو من القصص الحق الذي لا مرية فيه، ثم اعلم أنه ما من إله حق إلا الله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، وأنه جل في علاه هو العزيز الذي لا يمنعه مانع، ولا يغلبه غالب، الحكيم في خلقه وتدبيره سبحانه.

[٦٣] ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ أنه إذا أعرض هؤلاء الجاحدون عن تصديق ما جئت به من التوحيد والحق بعد كل هذه الحجج والبراهين الواضحة؛ فأخبرهم أن الله عليم بما تنطوي عليه نفوسهم من الفساد، لا يخفىٰ عليه شيء من أمرهم وما تخفيه صدورهم.

[٦٤] ثـم أمـر جـل وعـلا نبيـه ﷺ أن يقـول لهـؤلاء اليهـود والنصـارىٰ: تعالـوا إلـىٰ كلمـة عادلـة بيننـا وبينكـم، وهـي أن نعبـد الله وحـده ولا نشـرك معـه في العبـادة أحـدًا، وأن لا يطيـع بعضنـا بعضًـا في تحليـل مـا حـرم الله أو تحريـم مـا أحـل الله؛ فـإن أعرضـوا عـن هـذه الدعـوة الحقـة وعـن توحيـد الله؛ فقولـوا لهـم أيهـا المسـلمون: اشـهدوا يـا أهـل الكتـاب أننـا مسـلمون منقـادون ومستسـلمون لله وحـده، ومخلصـون لـه في العبـادة، وقـد بلغناكـم بالديـن الحـق ومـا علـىٰ الرسـول إلا البلاغ المبين.

[٦٥] وأمره سبحانه وتعالىٰ أن يقول لهؤلاء اليهود والنصارىٰ: لماذا تجادلون في إبراهيم بأنه يهودي أو نصراني، وأن كل فريق منكم يزعم أنه منهم، وأنتم تعلمون أن اليهودية والنصرانية ما جاءت إلا بعد التوراة والإنجيل، وتعلمون أن بين إبراهيم وموسىٰ ألف سنة، وبينه وبين عيسىٰ ألفان؛ فكيف تزعمون وتدعون أن إبراهيم منكم؟ أليس لكم عقول تجعلكم تفكرون في أقوالكم ومزاعمكم حتىٰ لا تجادلوا بالباطل؟!.

[٦٦] ثم قال جل شأنه: ها أنتم يا أهل الكتاب جادلتم الرسول في ما لكم به علم من أمر دينكم؛ كجدالكم في شأن عيسىٰ عليه السلام، أو ما جاء في التوراة من أحكام، فَلِمَ تجادلون في أمور لا علم لكم بها، كجدالكم في شأن إبراهيم عليه السلام؟ والله يعلم كل شيء في هذا الوجود، فهو يعلم حال إبراهيم ودينه، ويعلم حالكم ونياتكم، أما أنتم فلا تعلمون شيئًا من أمور الغيب.

[٦٧] ثم أخبر جل وعلا أن إبراهيم عليه السلام الذي يعظمه اليهود والنصارىٰ والمشركون لم يكن علىٰ مّلة أحد منهم؛ بل كان مسلمًا موحدًا لله، مخلصًا له في العبادة، ولم يكن من المشركين الضالين.

[٦٨] واعلموا يا أهل الكتاب أن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته هم الذين أجابوا دعوته في زمنه فوحّدوا الله مخلصين، وكذلك النبي محمد ﷺ؛ لأنه دعا إلىٰ التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم عليه السلام، وكذلك المؤمنون الذين اتبعوا النبي ﷺ في دعوة التوحيد والإيمان، واعلموا أن الله ولي المؤمنين المخلصين يتولىٰ أمورهم؛ فيوفقهم ويهديهم إلىٰ الطريق المستقيم.

[٦٩] ثم أخبر جل وعلا أن بعض اليهود والنصارىٰ كانوا يتمنون أن يردوكم عن دين الإسلام، وتعودوا لدين الكفر والضلال، وما علموا أنهم بهذا التمني ما يهلكون إلا أنفسهم، بسبب كفرهم وضلالهم، ولكنهم لا يحسون بذلك، ولا يعلمون أنهم في ضلال وغواية.

[٧٠] وهذا نداء من الله جل وعلا لأصحاب التوراة والإنجيل يقول فيه: يا أهل الكتاب ما الذي دعاكم إلىٰ الكفر بآيات الله مع علمكم أن ما أنتم عليه باطل؟ وأن ما جاءكم به محمد ﷺ هو الحق الذي لا تَشُكُّونَ فيه، وتشهدون أنه حق، وفي كتبكم ما يؤيده.

....

....

....

....

[٧١] وهذا نداء آخر موجه أيضًا لأهل الكتاب يقول فيه: ياأهل التوراة والإنجيل ما الذي جعلكم تخلطون الحق بالباطل بأن تحرفوه وتزوروه، وتكتمون صفة النبي ﷺ الموجودة في كتبكم، وأنتم تعلمون أنه رسول الله حقًّا.

[٧٢] ثم أخبر جل وعلا أن طائفة من اليهود قالوا لأتباعهم: آمنوا بالقرآن الذي نُزِّل علىٰ محمد وأتباعه من المؤمنين أول النهار، واكفروا في آخره؛ لعلكم بهذا الفعل تفتنون المسلمين وتشككونهم في دينهم، فيرجعون عنه.

[٧٣] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ عن مكر اليهود وخبثهم وكيدهم للنبي ﷺ وللمؤمنين، حيث قال بعضهم لبعض: ولا تعترفوا أيها اليهود لأحد من الناس إلا لمن تبع دينكم فكان علىٰ اليهودية؛ ولا تعترفوا للمسلمين بالرسالة ولا بما عندكم من العلم، حتىٰ لا يكون حجة عليكم يوم القيامة، ولهذا أمر جل شأنه نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أيها اليهود أن الهداية بيد الله وحده، وأنه سبحانه يهدي من يشاء، وكذلك فإن أمر الرسالة بيد الله وليس بأيديكم يعطيها من يريد من عباده، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه واسع الفضل، عليم بمن يستحق هذا الهُدىٰ والفضل.

[٧٤] واعلموا ياأهل الكتاب أن الله جل وعلا يعطي النبوة والرسالة من يشاء من عباده، وأنه سبحانه يهدي من يشاء للإيمان، وهو جل في علاه وحده صاحب الجود والفضل العظيم.

[٧٥] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن من اليهود من إن تأمنه بمال كثير يؤده إليك لأمانته، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك لخيانته؛ إلا ما زلت ملحًّا بالمطالبة عليه، وهذا تحذير من معاملتهم وعدم الاغترار بأمانة بعضهم، ثم بين سبحانه السبب الذي حملهم علىٰ الخيانة وهو قولهم: ليس علينا في العرب بأس ولا إثم؛ ولذلك فإنهم يستحلون أكل مال من عداهم من الأمم، ويقولون علىٰ الله الكذب؛ وهم يعلمون أن ما يقولونه كذب وافتراء علىٰ الله.

[٧٦] واعلموا أن الأمر ليس كما زعم اليهود؛ فإنَّ من أدَّىٰ حق غيره ووفَّاه في وقته كما عاهده عليه وخاف الله واتقاه؛ فإنه يفوز بمحبة الله؛ لأنه فعل ما أمره الله، وانتهىٰ عما نهاه الله.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧

[٧٧] واعلموا أن الذين يستبدلون بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بالرسول المصدِّق لما معهم، وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه؛ مقابل متاع الدنيا القليل الزائل بالنسبة لثواب الآخرة؛ فأولئك لا نصيب لهم يوم القيامة من الثواب، ولا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة نظر رحمة، ولا يطهرهم من ذنوبهم، ولهم عذاب مؤلم.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

[٧٨] يخبر جل وعلا أن من اليهود طائفة يلوون ألسنتهم عند الكلام، ويرتلونه كترتيلهم للوحي، يريدون بذلك أن يُفهموا السامع أن ما ينطقون به هو من التوراة، وما هو من التوراة؛ بل يقولون كذبًا وافتراءً أنه من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون علىٰ الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون في أقوالهم ودعواهم.

[٧٩] ويخبر جل وعلا عن النصارىٰ في كذبهم أن عيسىٰ عليه السلام أمرهم بعبادته، وأن يعتقدوا أنه إله، فرد سبحانه علىٰ مقولتهم: اعلموا أيها النصارىٰ أنه يمتنع ويستحيل علىٰ بشر بعد أن مَنَّ الله عليه بإنزال الكتاب والرسالة أن يقول للناس: كونوا عبادًا لي من دون الله؛ فهذا من المحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، ولكنْ أمرهم أن يكونوا علماء حكماء، يعلِّمون الناس، ويوضحون لهم ما يحتاجونه من العلم؛ وبما يدرسونه منه.

[٨٠] ثم أخبر جل وعلا أنه لا يحق لنبي أن يأمر الناس بعبادة غير الله تعالىٰ؛ سواء كان ذلك الغير ملَكًا مكرمًا، أو نبيًّا مرسلًا، أو وليًّا من الأولياء؛ بل ينكر عليهم ذلك، ثم رد سبحانه مستنكرًا قولهم: أيعقل أن يأمركم بالكفر بعد أن أسلمتم، ودخلتم في دين الله؟!. وهذه الآية وما قبلها في الرد علىٰ النصارىٰ الذين اعتقدوا بألوهية عيسىٰ عليه السلام.

[٨١] واذكروا يا أهل الكتاب يوم أخذ الله من النبيين وأممهم الميثاق أنه مهما آتاهم من كتاب وحكمة ثم جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه، ثم قال سبحانه : هل أقررتم بما أمرتكم به وقبلتم عهدي؟ فقالوا: نعم أقررنا يا ربنا، فقال سبحانه: إذن فاشهدوا علىٰ أنفسكم بما أقررتم به، وأنا معكم من الشاهدين.

[٨٢] ثم أخبر جل وعلا أن من أعرض عن هذا الميثاق ولم يَفِ به يعتبر فاسقًا، وسيلقىٰ جزاء الفاسقين. وقد نقض هذا الميثاق اليهود والنصارىٰ، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به.

[٨٣] وبعد هذا البيان الواضح هل تطلبون يا أهل الكتاب دينًا غير دين الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعًا؟، وهو الدين الذي خضع له كل من في السماوات والأرض، إما طوعًا بالإرادة والاختيار، أو كرهًا بدون اختيار، واعلموا أن جميع الخلق سيرجعون إلىٰ الله يوم القيامة، وسيجازيهم علىٰ أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن
يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ
يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ
ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ
ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

[٨٤] أمر جل وعلا نبيه ومن معه أن يقولوا: لقد صدَّقنا بالله المعبود وحده، وصدقنا بما نزَّله الله علينا من القرآن والشريعة، وصدقنا بما نزَّله الله من كتب وشرائع علىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده الأسباط الاثني عشر، وصدقنا بما أنزل الله علىٰ موسىٰ من التوراة وعلىٰ عيسىٰ من الإنجيل، وما أنزل علىٰ سائر النبيين لا نفرق في الإيمان بين أحد منهم، ونحن بذلك قد أسلمنا وجهنا لله وحده.

[٨٥] واعلموا أن من يدين لله بغير دين الإسلام، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو الدين الحق، دين الإخلاص لله واتباع الرسل، وهو في الآخرة من الأشقياء المستحقين للعذاب، وخسران الجنان.

[٨٦] يخبر جل وعلا عن أهل الكتاب الذين كفروا بالله ورسوله محمدٍ ﷺ بعد أن آمنو به عليه الصلاة والسلام قبل مبعثه، وشهدوا أنه الرسول الحق بحسب ما عندهم في التوراة؛ وقد جاءتهم الدلائل والبراهين التي تدل علىٰ صدقه، وأنه رسول من عند الله؛ لذا قال سبحانه علىٰ سبيل التعجب والاستغراب والإنكار والاستبعاد: كيف يهدي الله هؤلاء ويدخلهم الجنة بعد كفرهم وضلالهم؟!، واعلموا أن الله لا يوفق لطريق السعادة الظالمين الذين كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بما جاءوا به.

ويدخل في هذه الآية المنافقون الذين آمنوا حقًّا ثم نافقوا.

[٨٧] ثم بين جل وعلا أن عقوبة أولئك المكذبين لرسالة محمد ﷺ أن عليهم لعنة الله، أي: الطرد من رحمته، وأيضًا عليهم لعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين.

[٨٨] ومن عقوبتهم أنهم ماكثون في نار جهنم، لا يخفف عنهم من عذاب النار، ولا هم يُمهلون.

[٨٩] ثم أخبر جل وعلا أن الذين تابوا فآمنوا بالله وصدقوا برسوله وعملوا بشرعه، وأصلحوا أعمالهم؛ فإن الله يغفر لهم ما فات من ذنوبهم، إنه سبحانه كثير المغفرة لعباده، رحيم بهم.

[٩٠] ثم أخبر جلّ وعلا أن الذين جحدوا دين الله بعد أن آمنوا، واستمروا علىٰ كفرهم وضلالهم حتىٰ الممات؛ فهؤلاء لن تُقبل توبتهم؛ لأنهم هم وأشكالهم من الشَّاكِّين الحائرين، الذين لا يتوبون إلا بعد أن يحضُرَهم الموت، أي: بعد الغرغرة؛ وحينها لن تقبل توبتهم، واعلموا أن أولئك هم المُسْتغرقون للضَّلال كله.

ويدخل في هذه الآية جميع الكفار؛ لأنهم كلهم ضالون ومستمرون علىٰ ضلالهم.

[٩١] ثم أخبر جل وعلا أن الذين كفروا، واستمروا علىٰ كفرهم وضلالهم، وماتوا وهم كفار؛ فلوا أنفق أحدهم ملء الأرض ذهبًا؛ علىٰ سبيل الافتراض؛ ليفتدي به من عذاب الله فلن يقبل الله منه؛ وسوف ينال أولئك عقابهم الأليم؛ بسبب كفرهم وضلالهم، وليس لهم من ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله يوم القيامة.

لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ ۞كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ
﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ
إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ
مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿٩٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا
مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

[٩٢] واعلموا أيها المؤمنون أنكم لن تنالوا تقوىٰ الله تعالىٰ وثوابه ومغفرته؛ حتىٰ تتصدقوا مما تحبون من أموالكم، وما تنفقوا من شيء تحبونه في سبيل الله، فإن الله عليم به، وهو محفوظ لكم، وسيجازيكم عنه يوم القيامة خير الجزاء.

وهذه الآية فيها حث علىٰ الإنفاق في سبيل الخير.

[٩٣] ثم أخبر جل وعلا أن كل المأكولات كانت حلالًا لبني إسرائيل، وهم أبناء يعقوب عليه السلام، ولم يكن هناك شيء من الطعام مُحرَّم عليهم إلا ما حرَّم يعقوب علىٰ نفسه خاصَّة، وهو لحوم الإبل وألبانها لنذرٍ نذره، وكان ذلك قبل أن تُنَزَّل التوراة، وهم يعلمون أن التوراة نزلت علىٰ موسىٰ بعد إبراهيم ويعقوب عليهما السلام؛ فكيف يدَّعون أن إبراهيم كان لا يأكل لحوم الإبل ولا يشرب ألبانها؛ فإذا جادلوك يا نبي الله في هذه المسألة فقل لهم: فأتوا بالتوراة فاقرؤوها إن كنتم صادقين في دعواكم، ثم حرم الله علىٰ اليهود بعض الأطعمة بسبب ظلمهم وعصيانهم لربهم.

[٩٤] واعلموا أن من اختلق الكذب علىٰ الله من بعد ما أقيمت عليهم الحجَّةُ، وظهرت البينة، وزعموا أنَّ ما حرمته التوراة من الطعام كان أيضًا محرمًا علىٰ الأنبياء وأممهم، وليس بسببِ بغي اليهود وظلمهم؛ فأولئك هم الكاذبون المتجاوزون لحدود الله.

[٩٥] وقل يا نبي الله لهؤلاء اليهود: اعلموا أيها اليهود أن الله صادق في كل أخباره وأنتم الكاذبون؛ والواجب عليكم أن تتبعوا ملة إبراهيم عليه السلام وهو دين الإسلام؛ فقد كان عليه السلام مائلًا وبعيدًا عن الباطل وأهله، واعلموا أن إبراهيم عليه السلام ما كان من المشركين؛ بل كان يعبد الله وحده لا شريك له.

[٩٦] ثم أخبر جل وعلا أن أول بيت بُني لعبادة الله في الأرض هو بيت الله الحرام، وهذا البيت بيت مبارك؛ فالحسنات فيه مضاعفة، وتتنزَّل فيه الرحمات، ويُسْتَقْبَلُ في الصلاة، ويُقْصَدُ لأداء الحج والعمرة، وهو هداية للناس، كما قال تعالىٰ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾[المائدة:٩٧].

وهذه الآية نزلت لما حُوِّلت القبلة إلىٰ الكعبة، فقال اليهود: بيت المقدس هو المستحق للعبادة فيه، وإليه التوجه؛ لأنه أرض المحشر، ومُهَاجَر الأنبياء، وأقدم بيت للعبادة؛ فكذَّبهم الله، وقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾، وبكة: المكان المزدحم، وهو من أسماء مكة لوجود الازدحام بها.

[٩٧] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل في هذا المسجد المعظم دلالات واضحات علىٰ فضله وشرفه وقدسيته، فمن هذه الآيات: وجود آثار أقدام أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام علىٰ الحجر الذي كان يقف عليه حينما كان يرفع بنيان البيت مع ابنه إسماعيل عليهما السلام. ومن الآيات: أمنُ من دخله، وحرمة القتال فيه؛ إلا إذا بدأهم عدو فإن لهم أن يدفعوا المعتدي. ومن الآيات: وجوب حَجِّه قبل الإسلام، ثم لما جاء الإسلام جعل حَجَّه ركنًا من أركان الإسلام وفرضًا علىٰ المستطيع. ويدخل في الآيات: إهلاك من قَصَدَهُ بسوء كأصحاب الفيل وغيرهم. ثم أخبر جلّ وعلا أن من أنكر فريضة الحج فقد كفر، والله جلّ شأنه غني عنه، وعن حجِّه، وعن جميع أعماله؛ بل غني عن سائر خلقه.

[٩٨] وقل يا نبي الله لأهل الكتاب: لماذا تكفرون بهذا القرآن الذي فيه الحجج والبراهين الواضحة البينة علىٰ صدق نبوة خاتم المرسلين؟، واعلموا أن الله سبحانه مطلع علىٰ أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

[٩٩] وقل يا نبي الله لأهل الكتاب: لماذا تحاولون صرف مَن آمن بالله ورسوله واتبع الصراط المستقيم عن الهدىٰ والإيمان، وتريدون أن تبينوا أن دين الله فيه عوج وخلل، وأنتم تعلمون أنه الدين الحق، وما الله بغافل عن أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

[١٠٠] يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه؛ إن تطيعوا بعض اليهود والنصارىٰ فتتقبلوا منهم بعض ما يأمرونكم به؛ فإنهم يضلونكم عن دينكم، ويعملون جاهدين حتىٰ ترجعوا عن دينكم الحق.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

[١٠١] وكيف يسوغ لكم أيها المؤمنون أن تكفروا بالله ورسوله والقرآن يتلىٰ عليكم، والرسول ﷺ بين أظهركم يعظكم ويأمركم بطاعة الله وينهاكم عن معصيته؟، واعلموا أن من يتمسك بدين الله، ويلتجئ إليه في جميع أحواله فقد أُرشده الله إلىٰ الدين الحق، وإلىٰ الطريق الذي لا اعوجاج فيه.

[١٠٢] يأمر سبحانه وتعالىٰ عباده الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه، أن يتقوا الله حق تقاته، ، وذلك بأن يستفرغوا وسعهم في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وجميع ما يسخطه، وعليهم أن يسْتَمِرُّوا علىٰ تقواهم وتمسكهم بهذا الدين العظيم حتىٰ آخر لحظة في حياتهم، فيموتون علىٰ الإسلام.

[١٠٣] ثم يأمر جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يتمسكوا بدين الله مجتمعين عليه، ولا يتفرقوا، ويتذكروا نعمة الله عليهم يوم أن كانوا في الجاهلية متعادين، فَأَلَّف بين قلوبهم بالإسلام فأصبحوا إخوانًا متحابين، وكانوا بسبب كفرهم علىٰ طرف حفرة من النار فخلَّصهم الله منها بالإسلام؛ واعلموا أن بمثل هذا البيان البديع يبين الله لكم الدلائل والبراهين لتهدوا إلىٰ طريق الله المستقيم، وتفوزوا بسعادة الدارين.

[١٠٤] يوجه جل وعلا عباده المؤمنين بدعوة الناس إلىٰ الخير والصلاح عن طريق تكوين جماعة يدعون إلىٰ كل ما يحبه الله ورسوله، ويأمرون بكل ما فيه خير ونفع للناس، وينهون عن كل شر وفساد يضر بالمجتمع، واعلموا أن هؤلاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر هم الفائزون بجنات النعيم.

و(من) في قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ علىٰ القول الراجح: للتبيين، مثل قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠].

ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب علىٰ كل مسلم، كما في قوله ﷺ: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[١].

وقد طبق الملك عبدالعزيز رحمه الله ذلك حينما استتب له الحكم، فشكل هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المملكة العربية السعودية، وقد كان لها النفع الكبير في العباد والبلاد مما يشهد به القاصي والداني.

[١٠٥] ثم نهىٰ جل وعلا عباده المؤمنين بأن لا يكونوا كاليهود والنصارىٰ الذين تفرقوا واختلفوا بعد أن جاءتهم الدلائل والبراهين الواضحة المبينة للحق؛ ولكنهم اختلفوا وتعادوا وكفَّر بعضهم بعضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [البقرة:١١٣]، وبسبب اختلافهم وبعدهم وضلالهم أعد الله لهم يوم القيامة عذابًا عظيمًا لا يعلم قدره إلا الله.

ويدخل في هذا التهديد كل اختلاف وضلال وبُعد عن الحق.

[١٠٦] ثم يخبر جل وعلا عن يوم القيامة ذلك اليوم الذي تبيضُّ فيه وجوه المؤمنين بالفرح والسرور، وتسودُّ وجوه المجرمين بالحزن والكآبة؛ فأما الذين اسودَّت وجوههم فيقال لهم علىٰ وجه التوبيخ: كيف آثرتم الكفر والضلال علىٰ الإيمان والهدىٰ؟! فذوقوا العذاب بسبب كفركم وضلالكم.

[١٠٧] ثم أخبر سبحانه أن الذين ابيضَّت وجوههم فرحًا بسبب إيمانهم وصدقهم وإخلاصهم؛ ففي الجنة التي رحمهم الله بها هم فيها خالدون خلودًا أبديًّا لا يخرجون منها أبد الآبدين.

[١٠٨] واعلم يا نبي الله أن تلك آيات الله نقصُّها عليك بالحق الذي لا شك ولا ريب فيه، وما يريد الله جل في علاه ظلم أحد من الناس فيعذبه بغير ذنب ارتكبه؛ وإنه لا يعذب سبحانه إلا بعد الإعلام والإنذار.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

[١٠٩] واعلموا أيها الناس أن لله وحده ملك السماوات والأرض، وأن له الخلق والرزق والتدبير، وجميع ما في الكون ملك له، وإليه وحده جل في علاه مصير جميع الخلائق، ثم يحاسبهم جميعًا بحسب ما قدموا من خير أو شر.

[١١٠] واعلموا يا أمة الإسلام أنكم كنتم ولا زلتم خير الأمم، لأنكم تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتصدقون الله، ثم قال سبحانه: ولو آمن اليهود والنصارىٰ بالقرآن وبالنبي محمد ﷺ إيمانًا حقيقيًّا لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة، ثم بين جل شأنه أن فئة قليلة من أهل الكتاب آمنوا بالله وصدقوا بمحمد ﷺ، وأما أكثرهم فقد امتنع عن دين الله وطاعته.

[١١١] واعلموا أيها المؤمنون أن هؤلاء اليهود لن يضروكم إلا ضررًا يسيرًا كأن يؤذونكم باللسان؛ كالنميمة والوعيد والتهديد والافتراء ونحو ذلك، فإن قاتلوكم وأنتم متمسكون بدينكم فلن يصبروا علىٰ قتالكم وسوف يمدكم الله بنصر من عنده، ولن ينتصروا عليكم؛ بل سينهزمون أمامكم ويولون الأدبار بسبب ما يلقي الله في قلوبهم من الرعب والخوف. وقد وعد الله نبيه والمؤمنين الانتصار علىٰ اليهود؛ فصدق الله وعده؛ فلم يقاتل يهود المدينة رسول الله ﷺ إلا انهزموا.

[١١٢] يخبر جل وعلا أنه ضرب علىٰ اليهود الهوان والصَّغار حيثما وجدوا، فلا عز ولا عصمة لهم ولأموالهم إلا إن خضعوا لحكم المسلمين وأدوا الجزية؛ لكن في عصور انحطاط المسلمين وتخلفهم ساندت اليهودَ وحَمَتْهم أممٌ ذات شوكةٍ كما هو الواقع والله المستعان.

ثم أخبر سبحانه أنهم قد استحقوا غضب الله ولعنته لنقضهم العهود والمواثيق، وضربت عليهم الذلة والمسكنة؛ لأنهم كانوا يكفرون بآيات الله بغيًا وعنادًا، ويقتلون أنبياء الله – الذين يرشدونهم ويحسنون إليهم – بغير حق، وما جرأهم علىٰ ذلك إلا ارتكابهم المعاصي وإكثارهم منها، واعتداؤهم وتجاوزهم لحدود الله.

وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، لا يعني أن الأنبياء يمكن أن يقتلون بحق؛ فالأنبياء لا يقتلون بحق مطلقًا، وإنما قال: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، ليبين شناعة جرمهم وتضخيمه.

[١١٣] ثم أخبر جلّ وعلا أن أهل الكتاب غير متساوين في الحال؛ فمنهم أمة علىٰ الإيمان والدين الصحيح، وهم الذين أسلموا وآمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه؛ ومن صفاتهم: أنهم يتهجدون في الليل، ويتلون آيات الله في صلاتهم، ويكثرون من السجود لله، وهذا ثناء عليهم بكثرة الصلاة.

[١١٤] ومن صفاتهم أيضًا أنهم: يصدقون بالله ورسوله، ويعتقدون بوحدانيته جل وعلا، ولا يشركون به شيئًا، ويؤمنون بيوم القيامة، ويأمرون بالطاعات، وينهون عن المعاصي والمنكرات، ويبادرون إلىٰ فعل الخيرات، وهؤلاء عند الله من عداد الصالحين.

[١١٥] ثم بين جل وعلا أن كل ما يفعله أهل الكتاب وغيرهم من العمل الصالح ومن الخيرات لن يُجْحَدُوه، وسوف يثابون عليه الثواب المضاعف، والله عليم بالمتقين فلن يضيع ثوابهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص:٥٤].

وقيل: إن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد ﷺ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

[١١٦] واعلموا أيها الناس أنَّ الذين كفروا بالله ورسوله لن تَدْفَعَ عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا من عذاب الله، ولن تُجْدِي عليهم شيئًا من ثواب الله؛ بل ستكون حسرة وندامة عليهم، وسيعاقبون علىٰ عدم شكرها وعلىٰ الكفر بها، وهؤلاء الكفار مآلهم إلىٰ النار خالدين مخلدين فيها أبد الآبدين.

[١١٧] يشبه جل وعلا ما ينفقه الكفار في هذه الحياة الدنيا من برٍّ، وصدقة، وصلة رحم، وغير ذلك؛ كمثل ريح فيها بردٌ يضرُّ الحرث والنبات، أصابت تلك الريح زرعَ قومٍ ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، فأهلكت الريح ذلك الحرثَ، ثم بين سبحانه أنه ما ظلمهم بهذا الجزاء، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمحرمات.

وهذا جزاؤهم في الآخرة، وأما في الدنيا فقد أخذوا الجوائز والسمعة ومتع الحياة الفانية.

[١١٨] يحذر جل وعلا عباده المؤمنين من اتخاذ الكفار أولياء يستشيرونهم ويطلعونهم علىٰ أسرارهم؛ فإن هؤلاء الكفار لا يفترون عن إفساد أموركم الدينية والدنيوية؛ بل يفرحون بمشقتكم وعنتكم، وقد ظهرت شدة البغض في كلامهم، وما يخفونه في صدورهم من العداوة والبغضاء أشدُّ وأعظم، وقد بين الله لكم أيها المؤمنون الحجج والبراهين الدالة علىٰ حقدهم وبغضهم، ولذا يجب عليكم أن لا تتخذوهم أولياء إن كنتم تعقلون.

وقوله: ﴿بِطَانَةً﴾: بطانة الرجل هم خواصُّ أصحابه الذين يعرفون أسراره ويرتاح للحديث معهم في خلواته؛ لهذا يجب أن يختار الإنسان الأصحاب الصالحين المستقيمين الذين يشجعونه علىٰ الخير، ويحذرونه من مزالق السوء وكيد الشيطان.

والآية تعم هؤلاء المنافقين الذين يظهرون الإسلام، وإن كان نزولها في بعض المسلمين الذين لهم أصحاب من الكفار والمنافقين يرتاحون لهم ويستمعون لما يبثون لهم من شكوك وشرور، كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٧].

[١١٩] ثم حذر جل وعلا من محبة المنافقين فقال سبحانه: فها أنتم أيها المؤمنون تحبونهم، وترجون لهم الهداية والخير، وهم لا يحبونكم؛ بل يكرهونكم ويعادونكم، ويتمنون لكم الشر؛ مع أنكم تؤمنون بالكتب المنزَّلة كلها؛ وإذا لقوكم نافقوا وقالوا: آمنا بالله وبرسوله، وإذا خلوا بأنفسهم عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، وعض الأنامل: عادة يفعلها المتغيِّظُ الحاقد إذا لم ينل من عدوه، فقل يا نبي الله لهؤلاء: استمروا علىٰ غيظكم حتىٰ تموتوا، فإن الله عليم بما في قلوبهم من الكراهية والبغض للمؤمنين.

[١٢٠] واعلموا أيها المؤمنون أنه إن تمسسكم حسنة من نصر أو غنيمة أو غير ذلك من نعم الله؛ تُحْزِنُ هؤلاء المنافقين، وإن تصبكم هزيمة أو فقر أو قتل وغيره يفرحوا بها، و﴿يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ [التوبة:٥٠]، أي: احتطنا فنجونا، وإن تصبروا علىٰ عداوتهم، وعلىٰ ما تسمعون من أذاهم، وتتقوا الله فتعملوا بطاعة الله وتكُفُّوا عن موالاتهم، فلن تضركم عداوتهم وبغضهم شيئًا، والله عالم بما يدبرون لكم من المكائد، لا يخفىٰ عليه سبحانه شيء من أمرهم.

[١٢١] واذكر يانبي الله يوم أن لبست ملابس القتال وخرجت من بيتك لتوحد وتنظم صفوف المحاربين وتوزع الأبطال بين الميمنة والميسرة في غزوة أحد، وأقمت الفرسان في المكان الذي في الجبل الذي يمكن أن يلج منه فرسان الكفار فيهجمون علىٰ صفوف المسلمين من خلفهم فتحصل لهم كارثة، وأوصيتهم أن لا يتركوا مكانهم؛ سواء انتصر المسلمون أو هُزموا، والله سميع لأقوالكم عليم بأفعالكم.

إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

[١٢٢] واذكر يانبي الله ما وقع من بني سلمة وبني حارثة؛ حيث حدثتهم أنفسهم بترك القتال معك في غزوة أحد والرجوع مع زعيم المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول؛ حيث حاول أن يقنعهم بترك المعركة والرجوع للمدينة، وكاد عدوُّ الله أن ينجح، ولكن الله سلَّم فتولىٰ أمرهم؛ وثبتهم، وصدهم عن النكوص، وساروا مع النبي ﷺ متوكلين علىٰ الله، وعلىٰ الله وحده فتوكلوا أيها المؤمنون.

[١٢٣] وتذكروا أيها المؤمنون يوم أن منَّ الله عليكم ونصركم علىٰ المشركين في معركة بدر مع خوفكم وضعفكم وقلة عددكم، لذا يجب عليكم أن تخافوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر؛ لعلكم تكونون من الشاكرين لله علىٰ نعمه وفضائله.

[١٢٤] وتذكر يانبي الله يوم أن قلت لأصحابك: أما يكفيكم في طمأنينة نفوسكم إعانة ربكم لكم بثلاثة آلاف من الملائكة مرسلين من عند الله لتقويتكم وتثبيتكم.

[١٢٥] ثم قال ﷺ لهم: نعم يكفيكم هذا العدد، وإذا صبرتم علىٰ لقاء العدو واتقيتم الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ثم هاجمكم العدو بشجاعة فإن الله سوف يمدكم في حينها بخمسة آلاف من الملائكة معلَّمين بعلامات مخصوصة.

[١٢٦] ثم بين جل وعلا أنه ما جعل إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بالنصر، ولتستريح به قلوبكم، واعلموا أن النصر من عند الله العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم الذي يضع النصر في موضعه المناسب.

[١٢٧] واعلموا أيها المؤمنون أن النصر الذي حصل لكم ببدر لكي يُهْلِكَ طائفة من الذين كفروا، ويغيظ الباقين ويذلهم ويخزيهم، فيرجعوا منهزمين خاسرين.

[١٢٨] يخبر جل وعلا بما حدث للنبي ﷺ في معركة أحد؛ حيث شجوه وكسروا رَباعيته؛ فدعا عليهم صلوات الله وسلامه عليه، فعاتبه جل في علاه، وقال له: ليس لك من أمر العباد شيء، وإن الأمر كله بيد الله وحده، واعلم أن من هؤلاء الذين يقاتلونك سوف يتوب الله علىٰ بعضهم؛ ومنهم من سوف يعاقبهم الله لأنهم ظالمون مستحقون للعقوبة.

وهؤلاء الذين تاب الله عليهم لعلمه سبحانه أنهم سيسلمون وينصُرون الإسلام، وقد أسلموا فتاب الله عليهم ونصروا الإسلام والمسلمين، وكان من هؤلاء: سيف الله خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة، وأبو سفيان، رضي الله عنهم أجمعين.

[١٢٩] ثم أخبر جل وعلا أن الأمر له وحده؛ لأن جميع ما في السماوات وما في الأرض ملكه، يغفر لمن يشاء من عباده، ويعذب من يشاء منهم، والله غفور لذنوب من تاب من عباده، رحيم بهم.

[١٣٠] ثم حذر سبحانه عباده المؤمنين من التعامل بجميع أنواع الربا، ونهاهم عن أكله أضعافًا مضاعفة، وأمرهم بمخافة الله وتقواه، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وبين أن هذا هو سبيل الفوز بخيري الدنيا والآخرة.

وهذه الآية تتحدث عن الربا مع أن ما قبلها وما بعدها يتحدث عن الحرب والجهاد؛ ليبين سبحانه أن الدين كله مرتبط ببعضه البعض، وأن المسلمين لن يُهزموا إلا إذا ابتعدوا عن دينهم، وتركوا أوامر الله في كل شيء.

قال المفسر الشيخ الشعراوي: جاءت هذه الآية في وسط آيات القتال لِيُعْلَمَ أن الدين كله مهم؛ بل هو شيء واحد.

وقال آخرون: بل جاءت لأن الهزيمة حصلت بسبب الطمع في المال، قالوا: إن المسلمين انتصروا في أول المعركة، وبدأ بعضهم بجمع الغنائم؛ فلما رأىٰ الرماة ذلك تركوا مواقعهم من أجل جمع الغنائم؛ لذا حذر الله من أخذ المال بالباطل، وأن لا يحول المال بين المرء ونصرة الإسلام والمسلمين.

[١٣١] ثم أمر جل وعلا عباده المؤمنين أن يخافوا نار جهنم التي هيأها سبحانه للكافرين المجرمين، وذلك بترك كل ما يؤدي إلىٰ دخولها، ومن ذلك ترك الربا.

[١٣٢] ثم أمر جل وعلا عباده بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، في جميع الأوامر والنواهي؛ حتىٰ يُرحموا في الدنيا والآخرة.

[١٣٣] يأمر جل في علاه عباده المؤمنين بالمسارعة إلىٰ العمل الصالح، حتىٰ ينالوا من الله مغفرة ذنوبهم لأنه المالك لأمرهم، وينالوا جنة واسعة عرضها كعرض السماوات والأرض هُيئت لمن يتقون الله بفعل الطاعات واجتناب المحرمات.

[١٣٤] ثم بين جل وعلا أن من صفات هؤلاء المتقين: أنهم ينفقون أموالهم في حال العسر واليسر، وإذا حصل لهم من غيرهم أذية فإنهم يكظمون ما في قلوبهم من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة السيئة؛ بل يعفون عن كل من أساء إليهم بقول أو فعل، والله يحب المحسنين الذين يتصفون بمثل هذه الصفات العظيمة.

[١٣٥] ومن صفات هؤلاء المتقين أيضًا: أنهم إذا فعلوا كبيرة كالزني وغيره، أو ظلموا أنفسهم بارتكاب ما دونه، ذكروا الله لاجئين تائبين إليه، يطلبون منه أن يغفر لهم ذنوبهم، وهم يعلمون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، ولا يصرون علىٰ معصيةٍ، ويعلمون أن التوبة إذا قُبلت تمحوا ذنوبهم.

[١٣٦] ثم بين جل وعلا أن أولئك المتقين الذين يتصفون بهذه الصفات الجليلة جزاؤهم عند الله مغفرةٌ لذنوبهم، ولهم حدائق وبساتين تجري أنهار الجنة من بين أشجارها وقصورها، وأنهم ماكثون في الجنة لا يخرجون منها أبد الآبدين، ونعم هذا الجزاء وهذا الثواب للعاملين بطاعة الله حسب تعليمات رسوله ﷺ.

[١٣٧] يخاطب جل وعلا عبادة المؤمنين فيقول لهم: اعلموا أيها المؤمنون أنه قد مضىٰ من قبلكم أجيال وأمم جرىٰ لهم ما جرىٰ لكم من الابتلاء والامتحان؛ فسيروا في الأرض وانظروا كيف أهلك الله الذين كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم.

وفي هذا حث للناس علىٰ الاعتبار والاتعاظ.

[١٣٨] واعلموا أيها الناس أن فيما ذكرناه لكم من أخبار الأمم السابقة دلالة ظاهرة ليتبين لكم الحق من الباطل، وفيه هداية وموعظة للمتقين؛ لأنهم هم المنتفعون بالآيات والمواعظ، وأما غير المتقين فهي بيان وتحذير وتهديد لهم.

[١٣٩] ثم يسلي جل وعلا المؤمنين عما أصابهم يوم أحد بأن لا يضعفوا عن جهاد الأعداء بسبب ما نالهم من الهزيمة، وأن لا يحزنوا علىٰ ما فاتهم من الغنيمة، وستكون لهم العاقبة بالنصر والظفر إن كانوا مؤمنين؛ لأن الإيمان يرفع عن المؤمن الوهن والحزن، ويؤمله بنصر الله إذا امتثل أمر الله.

۞ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴿١٣٣﴾ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴿١٣٤﴾ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴿١٣٥﴾ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴿١٣٦﴾ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴿١٣٧﴾ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴿١٣٨﴾ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴿١٣٩﴾ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴿١٤٠﴾

[١٤٠] ثم يخاطب سبحانه وتعالىٰ عباده المؤمنين تعزية وتسليه لهم بعد أن قتل منهم سبعون في معركة أحد، فقال لهم: اعلموا أيها المؤمنين إن كان قد أصابتكم جراح وألام يوم أحد فقد أصابت المشركين جراح مثلها يوم بدر، وتلك أيام الدنيا نداولها ونصرفها بين الناس؛ فمرة لكم ومرة عليكم، وإنما نجعل الدُّولَةَ للكفار علىٰ المؤمنين ليميز الله المؤمن المخلص من المنافق الذي يرتد عن دينه إذا أصابته نكبة، وأيضًا ليكرم بعض المؤمنين بالشهادة فيرتقي في الجنة في أعلىٰ الدرجات، والله لا يحب الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي والنفاق.

وفي هذه الآية تعليم للمؤمنين المحاربين: أن من يخالف أمر القائد مثل ما فعل الرماة لالتقاط الغنائم، فإنه لا يضر نفسه فقط؛ بل يضر الجيش كله، وربما يتحول النصر إلىٰ هزيمة.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ
حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ
مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن
قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣ وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ
ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ
ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَمَا كَانَ
لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ
ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ
وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ
رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ
وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن
قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا
وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ
ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨

[١٤١] واعلموا أيها المؤمنون أن ما وقع يوم أحد من هزيمة كان اختبارًا وتصفية وتطهيرًا للذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، وتخليصًا لهم من المنافقين المندسين بينهم، وأيضًا إهلاكًا للكافرين علىٰ أيدي المؤمنين ومحوًا لأثرهم.

[١٤٢] ثم سأل سبحانه علىٰ سبيل الإنكار والاستبعاد فقال: هل تظنون أيها الصحابة الكرام أنكم ستدخلون الجنة ولم تجاهدوا في سبيل الله جهاد الصابرين علىٰ شدائده ومتاعبه؟ فاعلموا أنه لن يدخل الجنة أحد منكم حتىٰ يتميز أهل الإيمان والصدق والجهاد والصبر من غيرهم، وأن من أراد الفوز والظفر؛ سواء في أمور الدنيا أو الآخرة فلابد أن يعمل بجد وإخلاص مع الصبر علىٰ الابتلاء.

كما قال الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

إن السفينة لا تجري علىٰ اليبس

وقالوا في الأمثال: (من جد وجد، ومن زرع حصد).

[١٤٣] ثم ذكَّر جل وعلا بعض الصحابة الذين كانوا يتمنون الموت والشهادة في سبيل الله؛ عندما فاتتهم معركة بدر التي انتصر فيها المسلمون؛ وقد تمنَّوا ذلك قبل أن يلاقوا العدو ويروا القتال وشدته، فالآن رأيتم الموت يوم أحد بأم أعينكم؛ ورأيتم إخوانكم وهم يقتلون أمامكم، فلماذا جَبُنتم وانهزمتم؟ أليس هذا هو الموت الذي كنتم تتمنونه والشهادة التي كنتم تنشدونها؟

ولا شك أن سبب انهزامهم أن الرماة تركوا مواقعهم فأتاهم العدو من خلفهم ومن أمامهم، ولكن مع ذلك كان الأولىٰ بهم الاستبسال والثبات بدلًا من الفرار.

[١٤٤] واعلموا أيها الناس أنَّ محمدًا ﷺ ما هو إلا رسول قد مضت من قبله رسل كثيرون، وهؤلاء الرسل ماتوا جميعًا عندما جاء أجلهم، وهكذا محمد ﷺ سوف يأتيه أجله ويموت كغيره ممن سبقه من الرسل، أفإن مات أو قتل تركتم ما جاءكم به من الإيمان والعمل الصالح كالجهاد وغيره؟؛ فاعلموا أن من ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه، والله غني عنه، وسوف يثيب الله الشاكرين الذين ثبتوا علىٰ دينه، وعبدوه في كل أحوالهم.

[١٤٥] ثم أخبر سبحانه أن الآجال بيده وحده، وأنه لا يمكن لنفس أن تموت إلا بأمر الله؛ حين ينتهي أجلها المحدد بوقت معلوم لا يعلمه إلا الله، فإذا جاء أجلها فإنها لا تستأخر ساعة ولا تستقدم، واعلموا أيها الناس أن من يريد بعمله ثواب الدنيا؛ فإن الله سوف يؤتيه ما كتب له منها، وليس له حظ في ثواب الآخرة، ومن يريد بعمله ثواب الآخرة، وما أعده الله للمتقين؛ فإن الله يؤتيه منها ما يستحقه من النعيم المقيم، ومن أراد ثواب الدنيا والآخرة فرحمة الله وكرمه تسعه، وسيجزي جل في علاه الشاكرين علىٰ قدر شكرهم في الدنيا والآخرة خيرًا.

[١٤٦] ثم أخبر جل وعلا أن كثيرًا من الأنبياء قاتلوا لإعلاء كلمة الله، وقاتل معهم كثير من المؤمنين المخلصين لربهم؛ وأصابهم ما أصابهم في سبيل الله؛ فلم تضعف قلوبهم، ولم تفتر عزائمهم، ولم يخضعوا لأعدائهم بسبب ما أصابهم، واعلموا أن الله يحب الصابرين علىٰ الأهوال والشدائد، ويثيبهم سبحانه علىٰ البلاء.

[١٤٧] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الذين قاتلوا مع أنبيائهم وصبروا كان دعاؤهم وهم في ساحات القتال: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وما وقع منّا من تجاوز في أمر ديننا، وثبِّت أقدامنا حتىٰ لا نولي الأدبار، وانصرنا علىٰ مَن جحد وحدانيتك ونبوة نبيك.

[١٤٨] ثم بين سبحانه أنه أعطاهم ثواب الدنيا من النصر والمغنم، وأعطاهم في الآخرة الفوز برضاه، والجنة والنعيم المقيم، والله يحب المحسنين الذين أحسنوا في عبادة ربهم وأحسنوا في معاملة الخلق.

[١٤٩] ياأيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ وعملوا بشرعه إن تطيعوا الكفار والمنافقين فسوف يُرجعونكم إلىٰ أول أمركم من الكفر والشرك بالله فتعودوا بالخسارة والهلاك في دينكم ودنياكم.

[١٥٠] واعلموا أيها المؤمنين أن هؤلاء الكفار لن ينصروكم أبدًا؛ بل الله جل في علاه هو الذي سينصركم ويتولىٰ أمركم، وهو سبحانه أعظم الناصرين.

[١٥١] يخبر جل وعلا أنه سَيَقْذِفُ في قلوب الذين جحدوا دين الله ورسالة نبيِّه ﷺ الخوف والفزع منكم؛ فلا يستطيعون مقاتلتكم بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم للأصنام والأوثان من غير أن ينزل الله لهم بذلك حجة أو برهانًا، ثم مرجعهم إلىٰ النار، وساء المقام مقام الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي.

[١٥٢] ثم أخبر جل وعلا أنه حقق وعده لكم بالنصر في أول المعركة عندما كنتم تزيلون رؤوس المشركين بسيوفكم وتقتلونهم قتلًا شديدًا متتابعًا، وكان الرماة يحرسونكم من خلفكم، ويمنعون تقدم خيَّالة المشركين خالد بن الوليد وزملائه الفرسان عن الوصول إليكم؛ فلما كثر القتل في المشركين ورأىٰ الرماة الغنائم، تنازعوا واختلفوا وعصوا أمر رئيسهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه؛ الذي ثبت مع قلة منهم حتىٰ قتل؛ فكان من نتائج هذا الاختلاف والعصيان أن تركوا أماكنهم بعد أن رأوا النصر بأعينهم، وسارعوا إلىٰ جمع الغنائم فهجم خالد بن الوليد وفرسانه عليهم من خلفهم؛ فتحول النصر إلىٰ هزيمة، وشُجَّ رسول الله ﷺ، وكُسرت رَباعيته، وتبين أن منكم من كان يريد الدنيا، ومنكم من كان يريد الآخرة، وما أعد الله فيها من الأجر والثواب لمن يجاهد ويُقْتَلُ في سبيله أو ينتصر، ثم صرف الله وجوهكم عن عدوكم لمخالفتكم أمر نبيكم، ثم إنه سبحانه عفا عنكم لمّا علم ندمكم وتوبتكم، والله ذو فضل عظيم علىٰ المؤمنين الصادقين التائبين.

وهذه الآية نزلت لما رجع المسلمون من معركة أحد؛ فقال بعضهم: كيف هزمنا وقد وعدنا الله النصر؟؛ فنزلت هذه الآية شرحًا لسبب الهزيمة.

ولو استمر النصر للمسلمين مع المخالفة لقالوا: خالفنا الأوامر وانتصرنا؛ فلا قيمة للاحتياطات وامتثال الأوامر، وهذا درس استفاد منه المسلمون في كل المعارك التي بعدها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمَّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

[١٥٣] وتذكروا يا أصحاب رسول الله ﷺ يوم أن رجعتم هاربين لا يلتفت بعضكم إلىٰ بعض بسبب الخوف والرعب الذي أصابكم، والرسول ﷺ ثابت يناديكم من خلفكم قائلًا: إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، حيٌّ لم أقتل، وأنتم لا تسمعون ولا تلتفتون إليه، فجازاكم الله علىٰ فعلكم غمًّا بسبب غمِّكم لرسول الله ﷺ لكي لا تحزنوا علىٰ ما فاتكم من نصر وغنيمة، ولا ما حلَّ بكم من خوف وهزيمة، واعلموا أن الله مطلع علىٰ كل ما حصل منكم، لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

[١٥٤] ثم أخبر جل وعلا أنَّه بعد الغم الشديد الذي أنزله علىٰ الصحابة رضي الله عنهم جزاءً لغمهم لرسول الله ﷺ؛ أنزل سبحانه السكينة والنعاس علىٰ المسلمين المهاجرين والأنصار، أما المنافقون فقد أصيبوا بالرعب والقلق، وكان همهم خلاص أنفسهم؛ بل أساؤوا الظن بالله وبدينه وبرسوله ﷺ، يقولون: لسنا مسئولين عن هذه الهزيمة؛ لأنه لم يكن لنا رأي، وليس في يدنا شيء من الأمر، فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن الأمر كله بيد الله، ثم قال سبحانه لنبيه: واعلم أنهم يخفون في أنفسهم ما لا يظهرونه من الشك والكفر والنفاق، ويقولون: لو كان لنا في هذه المعركة رأي واختيار ما قتلنا هاهنا، ولو كان محمدٌ محقًّا لانتصرنا كما وعدنا؛ وهذا إنكار وتكذيب بِقَدَرِ الله، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أن الأعمار بيد الله؛ فحتىٰ لو كنتم في بيوتكم ولم تخرجوا للقتال؛ لجعل الله الذين كتب عليهم القتل يخرجون إلىٰ أماكن قتلهم فيقتلوا فيها؛ فإن الأجل إذا جاء لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، وما جعل الله ذلك إلا ليختبر ما في صدوركم من الشك والنفاق وضعف الإيمان، وليميز المؤمن من المنافق، والله عليم بما في صدوركم من خير أو شر، لا يخفىٰ عليه شيء من أموركم.

[١٥٥] ثم عاتب جل وعلا الصحابة الذين فرُّوا من القتال يوم التقىٰ المؤمنون والمشركون في غزوة أحد، وأخبر سبحانه بأن الشيطان أوقعهم في هذا الذنب بسبب أخطائهم؛ ولكنهم ندموا وتابوا واستغفروا الله فعفا عنهم، وَقَبِلَ توبتهم، وَقَبِلَ الرسول ﷺ اعتذارهم، لأنه سبحانه غفور واسع المغفرة، حليم لا يعاجل العاصي بالعقوبة. وهكذا امتلأت غزوة أحد بالدروس والاختبارات والتمحيص.

[١٥٦] ياأيها الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله ﷺ وعملوا بشرعه؛ لا تشابهوا المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، وقالوا لإخوانهم في النسب أو في النفاق إذا خرجوا للتجارة أو خرجوا للجهاد: لو لم يسافروا وبقوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وفي هذا تكذيب لقضاء الله وقدره؛ لأن قضاء الله تعالىٰ لا يُدفع، وأمره لا يُرد، وقد قالوا ما قالوا معتقدين أن ذلك فيه مضرة للمؤمنين، ولكن كان عاقبة قولهم حسرة في قلوبهم، واعلموا أن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، وأن بيده مقادير كل شيء، وأنه مطلع علىٰ أعمال عباده، وسوف يجازيكم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[١٥٧] واعلموا أيها المؤمنون أنكم إذا قُتلتم في الجهاد في سبيل الله، أو مُتم علىٰ فرشكم؛ وأنتم تنوون الجهاد في سبيل الله؛ فسوف تظفرون بالشهادة التي هي أسمىٰ مطالب المجاهدين؛ لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وتظفرون أيضًا برحمة الله الواسعة، وهذا كله خير لكم مما تجمعون من حطام الدنيا الفاني.

[١٥٨] واعلموا أيها المؤمنون بأنكم سواءٌ مُتُّم علىٰ فُرُشِكم، أو قُتلتم في الجهاد؛ فلن تذهب أعمالكم هباءً؛ بل ستحشرون إلىٰ الله فيجازيكم علىٰ جهادكم وإخلاصكم.

[١٥٩] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن النبي ﷺ كان رحيمًا بأصحابه، ولهذا كان ﷺ لين الجانب معهم، مع أنهم خالفوا أمره وعصوه؛ سواء الرماة، أو الذين انسحبوا، وتسببوا في أخطاء غيرت مجرىٰ النصر إلىٰ هزيمة، ثم بين له سبحانه أنه لو كان سيِّيء الخلق قاسي القلب معهم لانصرفوا عنه ونفروا منه؛ ثم أمره سبحانه أن يعفو عمّا صدر منهم من التقصير، ويستغفر لهم، ويشاورهم في الأمور التي يحتاج فيها إلىٰ مشاورة؛ فإذا اجتمع رأيك علىٰ أمر من الأمور فاعزم عليه معتمدًا علىٰ الله وحده، فإن الله يحب المتوكلين عليه اللاجئين إليه.

و(ما) في قوله: ﴿ فَبِمَا ﴾ زائدة لتأكيد الرحمة التي منحها جل وعلا لنبيه ﷺ.

[١٦٠] واعلموا أيها المؤمنون أن الله إذا أراد لكم النصر والعز والتمكين؛ فلن يستطيع أحد أن يغلبكم أبدًا، ولو اجتمع عليكم أهل الأرض جميعًا؛ لأنه لا غالب له سبحانه، وإذا أراد هزيمتكم؛ فمن ذا الذي يستطيع أن ينصركم غيره جل في علاه، وهذا يعني: أن الأمر كله أولًا وأخرًا بيد الله وحده، وعلىٰ الله توكلوا؛ لأنه هو الناصر والمعين وحده، وأن الاعتماد علىٰ غيره شرك.

[١٦١] يخبر جل وعلا أنه لا ينبغي ولا يصح لنبي أن يخفي شيئًا من الغنيمة؛ لأن من يخون ويخفي شيئًا من الغنيمة فإنه يأتي يوم القيامة حاملًا له ليفضحه الله علىٰ وجوه الخلائق، ثم تعطىٰ كل نفس ما كسبت من خيرٍ أو شرٍّ، دون أن يُظلم أحد.

وَذِكْرُ النبي في هذه الآية مبالغة في التحذير من الغلول؛ وإلا فإن النبي ﷺ معصوم، ولا يمكن أن يقع منه الغلول.

والمقصود من هذه الآية: هو التحذير من الغلول، الذي هو أخذ شيء من الغنائم قبل قسمتها، وكما أن الأنبياء منزهون ومترفعون عن أخذ شيء من الغنائم وإخفائها، فكذلك يجب علىٰ المحاربين أن لا يختلس أحد منهم شيئًا من الغنائم.

[١٦٢] ثم قال جل في علاه: هل يستوي أيها الناس الذي يتقي الله ويسعىٰ في تحصيل رضا الله بالطاعة والعمل الصالح، مع الذي باء بغضبٍ عظيمٍ من الله بسبب الذنوب والمعاصي التي ارتكبها، ثم يكون منزله ومصيره جهنم، وبئس ذلك المصير والمنقلب؟، ولا شك أنهما لا يستويان أبدًا، والاستفهام استنكاري، يعني: أنهما لا يستويان.

[١٦٣] فلا شك أيها الناس أنهم متفاوتون في الدرجات؛ فالذين اتبعوا رضوان الله لهم أجر عظيم وثواب جزيل، وأما الذين باءوا بغضب الله فأولئك لهم عذاب أليم مهين، والله بصير بجميع أعمال

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

عباده لا تخفىٰ عليه منها خافية مهما دقت.

[١٦٤] واعلموا أيها الناس أن نِعَمَ الله جلّ وعلا علىٰ عباده غامرةٌ كثيرةٌ، ومن أهمها أن بعث فيهم هذا الرسول الزكي الطاهر المنزَّه عن العيوب، يقرأ عليهم آيات الله، ويطهر قلوبهم من الشرك والأخلاق السيئة، ويعلمهم القرآن والسنة، وإن كانوا من قبل مجيء محمد ﷺ لفي ضلال واضح ظاهر لا يخفىٰ علىٰ أحد.

وقد كان ﷺ حريصًا علىٰ هداية الخلق، وكان يسعىٰ ليلًا ونهارًا لإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، لا يفتر مهما واجهه من صعوبات، ومهما لحقه من أضرار وأذيات؛ فصلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

[١٦٥] ثم عاتب جل وعلا الصحابة الذين كانوا سببًا في الهزيمة يوم أحد، ووقعت المصيبة؛ حيث قتل منهم سبعون، فأخبر سبحانه أنهم قد أصابوا مثليها؛ حيث قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين، وكان النصر حليفهم، ثم قالوا متعجبين: كيف ننهزم وقد وعدنا الله بالنصر؟! فقل لهم يانبي الله: أنتم سبب الهزيمة؛ لأنكم عصيتم رسول الله بمخالفة الرماة أمره، ثم فراركم من المعركة تاركين القتال، واعلموا أن الله علىٰ كل شيء قدير لا يعجزه شيء من أمر عباده في الأرض ولا في السماء.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمَّآ﴾، للمعاتبة والتقريع.

وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

[١٦٦] يخبر جلّ وعلا أن ما أصاب المؤمنين من جراح أو قتل في غزوة أُحدٍ يوم الْتقىٰ المسلمون والمشركون كان بتقدير اللهً وتدبيره، وليتميز المؤمنون الصادقون من المنافقين المجرمين؛ فيظهر إيمان المؤمنين علىٰ حقيقته، وكفر المنافقين علىٰ حقيقته، ويتميز من يريد الدنيا عمن يريد الآخرة؛ كما هو معلوم لله في الأزل.

[١٦٧] ثم أكد جل وعلا أن ما أصاب المسلمين يوم أحد ليتميز المنافقون الذين انكشف أمرهم عندما طلب منهم المؤمنون أن يأتوا ليقاتلوا معهم في سبيل الله، أو يأتوا عونًا وحمية، ولتكثير سواد المسلمين، فقال المنافقون: لو كنا نعلم أن هناك قتالًا لخرجنا نقاتل مع رسول الله ﷺ؛ فأخبر سبحانه بأنهم بهذا القول أصبحوا أقرب للكفر منهم للإيمان لأنهم كذبوا، وأنهم يقولون بأفواههم خلاف ما في قلوبهم، والله جل في علاه كاشف أمرهم لا تخفىٰ عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور.

[١٦٨] ثم أخبر جل وعلا بما قاله الذين تخلّفوا عن القتال ورجعوا إلىٰ المدينة، في شأن الذين خرجوا وقُتِلُوا؛ حيث قالوا عن إخوانهم الذين استشهدوا: لو أنهم أطاعونا وقعدوا مثلنا لنجَوا من القتل كما نجونا؛ فقل لهم يانبي الله: إن كنتم صادقين فيما تقولون فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كان الحذر يمنع من الموت كما تزعمون.

[١٦٩] ثم قال سبحانه وتعالىٰ: ولا تظنوا أيها الناس أن الذين استشهدوا من أجل إعلاء كلمة الله أمواتٌ؛ بل أحياء بجوار ربهم حياةً خاصَّة.

وقوله: ﴿يُرۡزَقُونَ﴾، تأكيد لحياتهم، وأنهم يتمتعون بثمار الجنة ونعيمها وتحفها.

[١٧٠] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الشهداء فرحون ومسرورون بما أتاهم الله من فضله، وهو رضوان الله والشهادة والنعيم الخالد، وأنهم فرحون بإخوانهم المجاهدين الذين تركوهم خلفهم في الدنيا، متمنين لهم الشهادة ليفوزوا بنعيم الجنة كما فازوا، وهؤلاء الشهداء لا خوف عليهم يوم القيامة مما يُرىٰ من أهوال ذلك اليوم، ولا هم يحزنون علىٰ ما فاتهم من نعيم الدنيا الفاني.

[١٧١] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الشهداء فرحون بما منّ الله به عليهم من نعمة الشهادة في سبيله، وبما منَّ عليهم من نعيم الجنة الدائم، ثم أخبر سبحانه بأنه لا يضيع أجر الشهداء المؤمنين الصادقين.

[١٧٢] ثم بين جل وعلا أن هذا النعيم وهذه الكرامة التي حصل عليها هؤلاء الشهداء؛ لأنهم استجابوا لدعوة الله ورسوله في استئناف الجهاد من بعد ما أصابهم من الهزيمة في غزوة أُحد، وبذلك أحسنوا واتقوا عصيان أمر الله ورسوله، فاستحقوا علىٰ جهادهم وتضحيتهم الأجر العظيم من الله تعالىٰ.

[١٧٣] ثم مدح جل وعلا المؤمنين علىٰ ثباتهم، ولم يلتفتوا إلىٰ ما قاله بعض المرجفين من أنصار المشركين؛ حيث إن أبا سفيان قد واعد رسول الله ﷺ أن يوافيه العام المقبل من يوم أحد ببدر الصغرىٰ للاقتتال؛ فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان مع قومه حتىٰ نزل بمر الظهران، فألقىٰ الله الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فلقي نُعيم بن مسعود الأشجعي وطلب منه أن يذهب إلىٰ المدينة لِيُجْبِنَ المؤمنين عن لقائه، فلما وصل نُعيم إلىٰ المدينة قال: أيها الناس إن قريشًا بقيادة أبي سفيان قد جمعوا الناس لقتالكم فخافوهم ولا تأتوهم؛ فازداد المؤمنون بذلك القول إيمانًا وثباتًا في دينهم ونصرة نبيهم، ولم يلتفتوا إلىٰ ما قال؛ بل قالوا: حسبنا الله سيكفينا أمرهم وشرهم، وهو سبحانه نعم الملجأ ونعم النصير، وهو حافظنا ومتولي أمرنا.

[١٧٤] وبعد أن قالوا هذه الكلمة العظيمة -حسبنا الله ونعم الوكيل-؛ خرجوا مع رسول الله ﷺ للقاء العدو؛ لكنهم لم يلقوه؛ لأنه أسرع خائفًا إلىٰ مكة مخذولًا؛ ثم أن الصحابة رضي الله عنهم وافقوا السوق وكانت معهم بعض التجارات فباعوا واشتروا وربحوا، ثم رجعوا إلىٰ المدينة مع الرسول ﷺ، وقد فازوا بنعمة السلامة، وطاعة الله ورسوله، ولم يمسسهم سوء؛ حيث أنعم الله عليهم بفضله وكرمه العظيم ورضاه.

[١٧٥] ثم بين جل وعلا للمؤمنين أن أولئك الذين يخوفونكم لِتَجْبُنُوا عن لقاء عدوكم ليسوا إلا أعوانًا للشيطان الذي يخوف أتباعه فيجعلهم جُبناء، وأنتم لستم منهم؛ فلا تخافوهم وخافوا الله -وحده- إن كنتم صادقين في إيمانكم.

[١٧٦] ثم يسلي جلّ وعلا نبيه ﷺ ويقول له: لا تحزن يانبي الله علىٰ هؤلاء الذين يُصِرُّون علىٰ الجحود والضلال؛ فإنهم لن يضروا الله شيئًا؛ بل إن مضرتهم علىٰ أنفسهم، وأنهم هم الخاسرون، كما قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، فالرسول ﷺ يتألم ويحزنه مبادرتهم للكفر بعدما وَضَّح لهم ما ينجيهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة، واعلم أن الله لا يريد لهم ثوابًا وأجرًا في الآخرة؛ بل لهم عذاب شديد وأليم وفظيع.

[١٧٧] واعلموا أن هؤلاء المنافقين الذين استبدلوا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئًا بكفرهم وضلالهم، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم جزاء كفرهم وضلالهم.

[١٧٨] ثم يقول جل وعلا: ولا يظن هؤلاء المشركون أن إمهالنا لهم بطول العمر وسعة العيش والنعيم خير لهم، إنما إمهالنا لهم حتىٰ يستمروا في زيادة الإثم، ويستحقوا العذاب المهين في الآخرة؛ لأنها دار الجزاء الحقيقي الذي من شدته يتمنون الموت.

[١٧٩] ثم أخبر جل وعلا أنه ليس من شأنه أن يترك المؤمنين عامة علىٰ ما هم عليه؛ حتىٰ يتبين المؤمن الصادق من المنافق الكاذب؛ فالله جل شأنه وهو العالم بكل شيء، يريد أن يبين المندسين بين المسلمين، وهم المنافقون المخذِّلون الذين يبطنون الكفر والعداوة للمسلمين؛ لكي يفضحهم الله ويظهرهم ويبين حقيقتهم للمسلمين السَّماعين لهم، كما قال جل وعلا: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٧]، ثم أخبر سبحانه أنه ليس من حكمته أن يُطلع عباده المؤمنين علىٰ الغيب وعلىٰ أسرار العباد؛ ولكن يميزهم بالابتلاءات والمحن فيظهر المؤمن من المنافق، إلا أنه سبحانه يختار رسله ممن يشاء من عباده فيطلعهم علىٰ بعض الغيب الذي استأثر به بوحي منه، ثم أمرهم سبحانه بالإيمان بالله ورسوله؛ لأن من آمن بالله ورسوله إيمانًا صادقًا مُخلصًا، واتقىٰ الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ فله من الله أعظم الأجور، وهو رضاه ودخول الجنة.

فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠

[١٨٠] ثم أخبر جل وعلا بسوء مصير الذين يبخلون بنعم الله ولا يؤدون زكاة أموالهم؛ فقال سبحانه: ولا يظن هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من الأموال ونعيم الدنيا هو خيرٌ لهم؛ بل هو في الحقيقة شرٌّ لهم؛ لأن الله سيجعل ما بخلوا به علىٰ شكل طوق من نار جنهم يُلف علىٰ أعناقهم، ويعذبون به، واعلموا أيها الناس بأنكم سوف تموتون، وأن الله وحده له ميراث السماوات والأرض، وهو الوارث لما في أيديكم، فلماذا تبخلون بما مَنَّ الله عليكم من نعمه وأفضاله؟، والله خبير ومطلع علىٰ أعمالكم، لا يخفىٰ عليه شيء. وهذا تهديد للذين يمنعون الحقوق ويجحدون فضل الله، وما أوجبه في أموالهم من زكاة وواجبات أخرىٰ، كالصلة والصدقات والإنفاق في سبيل الله؛ أما الذين يؤدون الحقوق والواجبات فكما قال ﷺ عنهم: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[(١)].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٧٦٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، عن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٩٩).

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ
ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ
عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو
بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ
فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ
أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ
وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

[١٨١] يخبر جل وعلا أنه سمع هذه المقولة الشنيعة التي قالها اليهود؛ حيث قالوها لمّا سمعوا قوله تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد:١١]، فقالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء لأنه يطلب منّا أن نقرضه، تعالىٰ الله عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، وقد أخبر سبحانه في مواضع أخرىٰ من القرآن بجرأة هؤلاء اليهود علىٰ الذات المقدسة؛ فقد قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، وغير ذلك، والأغرب والأعجب هو صبر الله عليهم وإرجاء عقوبتهم للآخرة، فقال جل في علاه: سنكتب ونحفظ هذه المقولة التي قالوها مع أقوالهم وأفعالهم الأخرىٰ، مثل ما فعله أباؤهم من قتلهم الأنبياء بغير حق، ثم نحاسبهم ونعاقبهم علىٰ هذه الأقوال وهذه الأفعال، ونقول لهم علىٰ سبيل التهكم والاستهزاء: ذوقوا عذاب النار المحرقة التي كنتم بها تكذبون.
والله سبحانه ذكر أقوالهم في كتاب يُتلىٰ إلىٰ يوم القيامة؛ فضيحة لهم وتحذيرًا للمؤمنين من الثقة بهم، فنسأل الله السلامة من خبثهم وكيدهم.
[١٨٢] ثم بين جل وعلا أن هذا العذاب الشديد الذي كتبه علىٰ اليهود كان جزاءً لهم بسبب ما اقترفته أيديهم من الجرائم والمعاصي التي ارتكبوها في حياتهم الدنيا، ثم بين سبحانه بأنه لا يظلم الناس شيئًا فيعاقبهم بغير جرم البتة.
[١٨٣] ثم أخبر جل وعلا بما قال اليهود -عندما دعاهم الرسول ﷺ إلىٰ الإسلام-؛ فقالوا: إن الله أمرنا في التوراة أن لا نؤمن لرسول إلا إذا أتىٰ بدليل علىٰ صدقه بأن يأتينا بشيء يقربه لوجه الله، وتنزل نار من السماء فتأكله؛ فقل لهؤلاء يانبي الله: لقد جاءتكم رسل من قبل بالمعجزات الساطعة التي لا شك فيها وبالذي طلبتم، فَلِمَ كذبتموهم وقتلتموهم، إن كنتم صادقين بأنكم مؤمنون.
[١٨٤] ثم يسلي جل وعلا نبيه فيقول له: فإن كذبوك يانبي الله فلا تحزن؛ فلست وحدك من كُذِّب من الرسل؛ بل كُذِّبت من قبلك رسل كثيرون، جاءوا بمثل ما جئت به من الحجج والبراهين العقلية والنقلية، وجاءوا أقوامهم بالزُّبُر، وهي: الصحف والكتب السماوية التي زُبِرَتْ، أي: جَمَعَتْ الآيات والحجج البينات، وجاءهم الكتاب المنزل من عند ربك عليك وهو القرآن الكريم الذي فيه النور والهدىٰ والحِكَم الواضحة البينة.
[١٨٥] ثم أخبر جلّ وعلا أن كل نفس ستذوق الموت لا محالة، ويوم القيامة سوف يرجع جميع الخلق إلىٰ ربهم ليحاسبهم، وهناك توفون أجوركم علىٰ أعمالكم كاملة غير منقوصة؛ واعلموا أن من زحزح عن النار، ولم يسقط في نار جهم عند عبوره علىٰ الصراط؛ فقد ظفر بما كان يريد، وحصل له الفوز العظيم، وما الحياة الدنيا أيها الناس بكل ما فيها إلا متعة مؤقتة؛ سوف تذهب وتزول.
وهذا وعد للمصدق بما عند الله من ثواب الجنة، ووعيد للمكذب والمنافق بالعذاب الأليم في الآخرة.
[١٨٦] واعلموا أيها المؤمنون بأنكم سوف تُمتحنون في أموالكم بإخراج النفقات الواجبة والمستحبة، وبالكوارث والحوادث التي تصيبكم، وفي أنفسكم بالأمراض والموت، وسوف تسمعون من اليهود والنصارىٰ والمشركين ما يؤذيكم من السخرية والاستهزاء والطعن في دينكم ونبيكم، وألفاظ الكفر والشرك، وغير ذلك من الأذىٰ الكثير والكبير في كل الأزمنة والعصور، وإن تصبروا علىٰ ذلك بالثبات علىٰ دينكم، وتتقوا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه؛ فإنه لا يضركم كيدهم شيئًا، وإن ذلك مما يجب عليكم أن تعزموا عليه وتنافسوا فيه.
وهذه الآية تأكيد أن الحياة الدنيا كلها ابتلاءات واختبارات؛ ليتميز المحسن من المسيء، والخبيث من الطيب، ووعد سبحانه المحسنين الصابرين بالنجاة والسلامة من كيد الكافرين والباغين، ومن المنافقين المندسين بين المؤمنين.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

[١٨٧] واذكر يانبي الله يوم أن أخذ الله العهد علىٰ اليهود والنصارىٰ بأن يبينوا للناس صفة النبي ﷺ في كتبهم وأن لا يخفوا من ذلك شيئًا، وأن يؤمنوا به وبما جاء به من الهدىٰ والحق، ولكنهم كتموه ونبذوه وراء ظهورهم ولم يلتفتوا إليه، واستبدلوا بذلك شيئًا حقيرًا من متاع الدنيا الفاني؛ فبئس هذا الشراء، وبئس هذا الثمن، وهذه الصفقة الدنيئة.

[١٨٨] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ولا تَظُنَنَّ يانبي الله أن هؤلاء الذين يفرحون بما أَتَوا من أفعال سيئة، ويحبون أن يمدحهم الناس بما لم يفعلوا؛ فلا تظنَّنَّهم بعيدين عن العذاب في الحياة الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب موجع مؤلم.

[١٨٩] واعلموا أيها الناس أن لله جل وعلا مُلْكُ وأَمْرُ السماوات والأرض وما فيهما، وأنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[١٩٠] واعلموا أيها الناس أن في خلق السماوات والأرض، وما فيهما من عجائب، واختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان، والضياء والظلام؛ لدلائل وحجج وبراهين ساطعة بينة لذوي العقول الراجحة السليمة.

[١٩١] ثم بين جل وعلا أن من صفات أصحاب العقول السلمية أنهم: يذكرون الله حال قيامهم وقعودهم وحال اضطجاعهم، أي: أنهم يذكرون الله في كل حال، ويُعْمِلُونَ عقولهم بالتفكير في خلق السماوات والأرض؛ ليستدلوا بها علىٰ قدرة الله سبحانه؛ وأمام هذه العظمة الإلهية يدعون ربهم قائلين: ربنا ما خلقت هذا الخلق الذي نشاهده عبثًا؛ بل دليلًا علىٰ كمال قدرتك وحكمتك، فتنزهت ذاتك وتقدست عن العبث وعن كل ما لا يليق بك، فنجنا ياربنا يوم القيامة من عذاب النار الأليم الذي لا يطاق.

وهذه الآيات من قوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ...، إلىٰ قوله: ... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾، روي أن النبي ﷺ قال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**»(١).

[١٩٢] وبين سبحانه أن من دعاء أصحاب العقول السليمة قولهم: ياربنا إن من أمرت بإدخاله النار من عبادك بسبب ما اقترف من الذنوب والمعاصي؛ فقد أذللته وأهنته وفضحته، وليس للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي من أنصار يدفعون عنهم عذاب الله.

[١٩٣] وكان من دعائهم أيضًا قولهم: ياربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان، وهذا المنادي هو الرسول ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد أمرنا أن نؤمن بالله خالقنا ورازقنا، وأن نؤمن برسوله ﷺ، وأن نؤمن باليوم الآخر؛ فاستجبنا لكل ما أمرنا به ﷺ؛ فاستر لنا ياربنا عيوبنا، وامحُ عنّا ما سلف من سيئاتنا، وأَلْحِقْنَا بأهل الإيمان والصدق والصلاح الفائزين برضوان الله.

[١٩٤] ويستمرون في دعائهم قائلين: ياربنا أكرمنا وانجز لنا ما وعدتنا به علىٰ ألسنة رسلك من النصر والتمكين في الدنيا، ومن الفوز برضوانك وجنتك في الآخرة، فإنك سبحانك لا تخلف الميعاد.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠)، عن عائشة رضي الله عنها. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨): حسن.



فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ
مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ
ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ
رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ وَإِنَّ مِنۡ
أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ
وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠

سُورَةُ النِّسَاءِ

[١٩٥] ثم أخبر جلّ وعلا أنه استجاب لهم دعاءهم، وأخبر بأنه لا يُضَيِّعُ علىٰ عامل منهم ثواب عمله؛ سواء كان ذكرًا أم أنثىٰ، وهم سواء في قبول الأعمال والثواب عليها؛ ثم أخبر سبحانه بأن الذين هاجروا يريدون وجه الله وأخرجوا من ديارهم ونالهم الأذىٰ في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله، وقُتل منهم من قُتل، سيمحو الله عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنات تجرىٰ من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، جزاءً من عند الله، والله وحده عنده الأجر والثواب الحسن.

[١٩٦] ثم أمر جل وعلا رسوله ﷺ بأن لا يغتر بما يراه من نعيم مغدق علىٰ الكفار الجاحدين في الدنيا.

[١٩٧] واعلم يانبي الله أن نعيم الدنيا متاع قليل ثم يزول، ثم يكون مصير هؤلاء الكفار في الآخرة إلىٰ النار، وبئس الفراش الذي فرشوه لأنفسهم في جهنم.

والمقصود: أن يبلغ النبي ﷺ تابعيه أن إمداد الكفار بالنعم والمكاسب أمر وقتي، وأنهم سوف يحاسبون ويجازون بعذاب مستمر في النار لا يقاس أو يقارب ما أُعطوا من الرفاهية والمتع المحدودة الوقت في الدنيا.

[١٩٨] يخبر جلّ وعلا أن الذين خافوا ربهم واتبعوا دينه وسنة نبيه ﷺ لهم جنات تجري من تحت قصورها وبساتينها وأشجارها الأنهار، خالدين مخلدين فيها لا يخرجون منها أبدًا، وهذه الجنات هي منزلهم الدائم ثوابًا من عند الله، وما عند الله أفضل وأعظم لأهل الطاعات الصادقين.

وفي قوله: ﴿نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، معلوم أن النُّزُل هو ما يُعَدُّ للضيف إكرامًا له، وليس جزاءً أو أجرة له علىٰ عمله، وقد قال ﷺ: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[(١)].

وفي كثير من الآيات يقول تعالىٰ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، وفي مواضع أخرىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الواقعة:٢٤].

وهذا لا يعارض الحديث والآية التي تنص علىٰ النُّزُل.

والتحقيق: أن دخول الجنة إنما يكون بسبب الأعمال الصالحة إذا قبلها الله برحمته؛ فصار ذلك العمل المقبول سببًا لدخوله الجنة.

والعمل الصالح المقبول هو ما تحقق فيه شرطان: الإخلاص لله، وموافقة ما جاءت به رسل الله، والذي تحقق فيه هذان الشرطان من العمل فإن صاحبهُ يتغمده الله برحمته فيقبل عمله ويدخله الجنة جزاءً علىٰ أعماله الصالحة، فإذا دخل الجنة أكرمه الله بالنُّزُل التي تعد للضيف إكرامًا له.

ومذهب أهل السنة: أن الباء في قوله: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**»، هي باء العوض، مثل: اشتريت هذا القلم بريال، والباء في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، هي باء السببية، أي: بسبب أعمالكم الصالحة المقبولة.

وأظنُّ: أن هذا وذاك مرجعهما رَحْمَةُ الله بعد إخلاص العمل له، ومطابقته لسنة نبينا محمد ﷺ[(٢)].

[١٩٩] واعلموا أن من اليهود والنصارىٰ من يؤمن بالله، ويؤمن بنبوة محمد ﷺ؛ كعبدالله بن سلام والنجاشي وغيرهم، ويؤمنون بالقرآن والتوراة والإنجيل، متذللين لله وحده، ولم يبدلوا أو يكتموا ما أنزل الله في التوراة والإنجيل مقابل ثمن قليل من متاع الدنيا الفاني، ثم بين سبحانه بأن هؤلاء لهم ثواب أعمالهم كاملًا، واعلموا أن الله سريع الحساب، لا يحتاج إلىٰ وقت طويل في حساب خلقه.

[٢٠٠] ثم ختم جل وعلا هذه السورة بالنصح للمؤمنين؛ بأن يصبروا علىٰ الإيمان، وأن يصابروا أعداءهم علىٰ القتال وأهواله، وأن يجادلوهم بالتي هي أحسن، لأن المؤمن حياته كلها اختبارات وابتلاءات، فربما قابل مُشكِّكين ومكابرين من الكفار والمنافقين، الذين يطمع محبوهم بإيمانهم؛ فيكابروا ويجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وأمرهم بأن يرابطوا في الثغور وجهاد الأعداء، وأن يتقوا الله بالخوف منه في جميع الأحوال، ويكون ذلك باتباع أوامر الله ورسوله واجتناب نواهيه، وبهذا يكسبون الفلاح في الدنيا، والفوز برضوان الله وثوابه في الآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

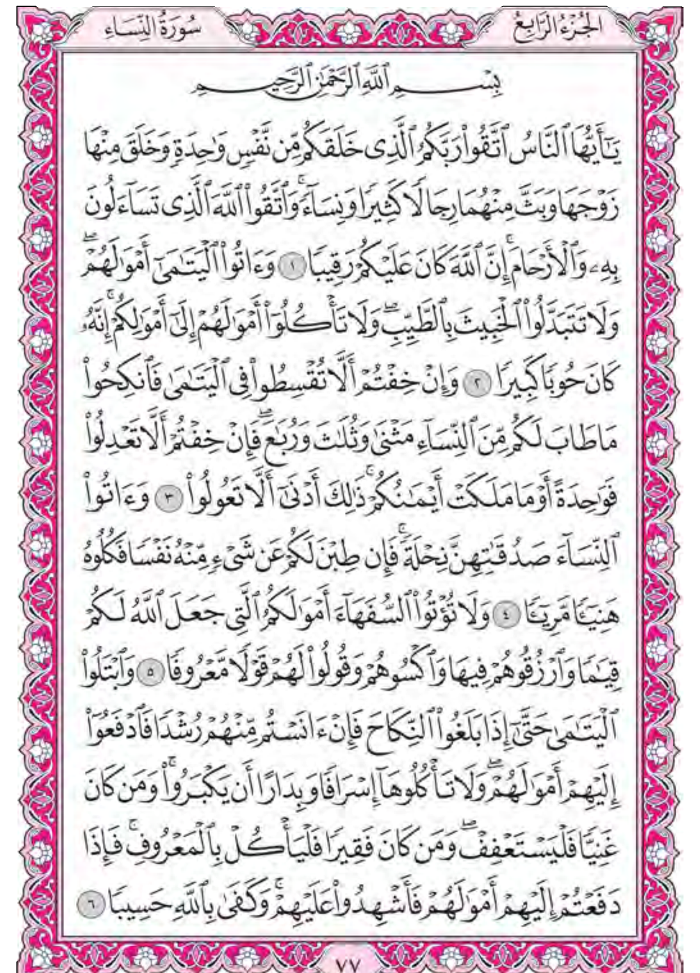
(٢) ينظر: أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٣٤٩، ٣٥٤ – ٧/ ٥٢٦).

سورة النساء

سورة النساء مدنيّة وآياتها ستّ وسبعون ومائة آية، ويقال لها: سورة النساء الكبرىٰ، كما يقال لسورة الطلاق: سورة النساء الصغرىٰ، وهي أطول سورة في القرآن بعد سورة البقرة، وقد حفلت بجل أمور العباد من تكاليف دنيوية وأخروية.

[١] أمر جل وعلا جميع البشر مؤمنهم وكافرهم أن يخافوا ربهم الذي أنشأهم من نفس واحدة وهي نفس آدم عليه السلام، وخلق من آدم زوجه حواء، ونشر منهما في الأرض خلقًا كثيرًا رجالًا ونساءً، وهذا الأمر يتناول جميع الناس الموجودين في وقت نزولها ومن بعدهم إلىٰ يوم القيامة، ثم أمرهم سبحانه أن يراقبوا ربهم الذي يسأل به بعضكم بعضًا، وحذرهم أن يقطعوا أرحامهم لأن في قطعها فسادًا كبيرًا وخللًا عظيمًا في حياتهم، واعلموا أن الله مراقب لأعمالكم، وسيجازيكم عليها؛ لذا ينبغي للمؤمن أن يتقي ربه ويستشعر أنه لا يغيب عن مراقبته. وفي قوله: ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ**﴾، هذه تحكي حالهم في الجاهلية؛ فإن أحدهم يقول لصاحبه: أسألك بالله وبالرحم إذا كان من أسرته أو قبيلته، أما بعد الإسلام فقد حرَّم الله السؤال بغيره؛ سواء كان رحمًا أو أي شيء معظم عندهم. قال بعض المفسرين: **الأرحامَ**: بفتح الميم تعني: الأمر بعدم قطيعة الرحم؛ فيكون تفسيرها: اتقوا الله واتقوا الأرحام لا تقطعوها؛ **أما الأرحامِ**: بكسر الميم في قراءة حمزة، فتكون قَسَمًا، أي: الذي تسألون به وبالرحم. [٢] ثم أمر سبحانه بالتواصي باليتيم الذي مات والده قبل سن البلوغ، وأمر الأولياء أن يعطوا اليتامىٰ أموالهم إذا عرفوا منهم القدرة علىٰ حفظها، أو بلغو الرشد، وأمرهم أن يتقوا الله في أموالهم بعدم استبدال الجيد منها بالرديء؛ لما في ذلك من الضرر والخيانة لليتيم، ونهاهم أن يخلطوا أموال اليتيم مع أموالهم إذا كان لقصد الإضرار؛ فمن خلطها بقصد الإضرار فقد ارتكب إثمًا كبيرًا، وأما إذا كان لقصد الإصلاح والتنمية فلا بأس بذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ**﴾[البقرة:٢٢٠].

[٣] ثم قال جل وعلا: وإذا خفتم أيها المؤمنون أن لا تقوموا بحق النساء اليتامىٰ اللاتي تحت ولايتكم بأن لا تعطوهن حقهن في المهور إذا تزوجتموهن فعليكم أن تتزوجوا غيرهن من النساء مثنىٰ أو ثلاث أو رباع؛ فإذا خفتم ألا تعدلوا وخشيتم من الجور معهن فاكتفوا بواحدة من النساء، أو بما تملكون من الإماء، وهذا أقرب للعدل وعدم الظلم. وقوله: ﴿**أَلَّا تَعُولُواْ**﴾، من العول، وهو الظلم، أو من العيلة، وهو الفقر، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ**﴾[الضحى:٨]. [٤] ثم أمر جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يعطوا النساء حقهن من المهور التي فرضها الله علىٰ الرجال لأزواجهم؛ فإذا سمحت الزوجة بشيء من مهرها سواء لزوجها أو لغيره بطيب نفس منها فلا حرج أن تأخذوه حلالًا طيبًا. [٥] ثم نهىٰ جلّ وعلا



أولياء الأمور أن يعطوا أموال اليتامىٰ للسفهاء الذين لا يعقلون ولا يرشدون، وذلك خشية إفسادها وإضاعتها في غير وجهها، وعبر في الآية بقوله: ﴿**أَمۡوَٰلَكُمُ**﴾، وهي في الحقيقة أموال اليتامىٰ، بدليل قوله في الآية التالية: ﴿**فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ**﴾، والمقصود: اجعلوها كأموالكم في العناية بها والمحافظة عليها وتنميتها؛ ثم أخبر سبحانه أنه جعل هذه الأموال قيامًا لعباده في مصالحهم الدينية والدنيوية؛ وأمر الأولياء أن ينفقوا عليهم ويكسوهم من هذا المال، وأن يبذلوا منه كل ما يتعلق بحياتهم الدينية والدنيوية، ثم أمر الأولياء أن يلينوا في القول مع اليتامىٰ ويقولوا لهم كلامًا طيبًا. [٦] ثم أمر جلّ وعلا باختبار من تحت أيديكم من اليتامىٰ، وذلك بتدريبهم علىٰ إدارة أعمالهم شيئًا فشيئًا حتىٰ يُعرف أنهم لن يفرطوا فيها؛ فإذا وصلوا سن النكاح وعلمتم منهم حسن التصرف والتدبير في أموالهم فسلموها إليهم، ولا يحق لكم أن تأكلوا أموالهم علىٰ وجه الإسراف والسرعة قبل أن يكبروا حتىٰ لا يطلبوها إذا كبروا، ومن كان غنيًّا فليتعفف عن أموالهم ولا يأخذ منها شيئًا، ومن كان فقيرًا فليأخذ بقدر الحاجة؛ فإذا سلّمتم إليهم أموالهم؛ بعد التأكد من أنهم قادرون علىٰ حفظها؛ فأشهدوا عليهم حتىٰ لا يأتي أحدهم فينكر أنه استلم شيئًا من ماله، واعلموا أن الله شاهد ورقيب عليكم، ومحاسبكم علىٰ جميع أعمالكم.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

[٧] فرض جل وعلا للذكور نصيبًا مما ترك الوالدان والأقربون من المال، وأيضًا فرض للنساء نصيبًا مما ترك الوالدان أو الأقربون من المال، قليلًا كان أو كثيرًا، وهذا النصيب فرضه الله وحده لكل وارث. وهذه الآية تعتبر تحويلًا بالأمة المسلمة عمَّا كان سائدًا في الجاهلية: أن الميراث يأخذه الذين يدافعون عن القبيلة ويحمونها، أما النساء والصبيان فلا نصيب لهم من الميراث؛ فلما جاء الإسلام قضىٰ علىٰ هذه الجاهلية، وحدد لكل وارث نصيبه.

[٨] يأمر جل وعلا الورثة أن يعطوا أقرباء الميت الذين لا يرثون، أو بعض اليتامىٰ والمساكين الذين يحضرون التقسيم شيئًا يسيرًا من المال قبل قسمة التركة بما لا يضر بالورثة، وهذا من باب الإحسان وصلة الرحم للميت؛ وهو علىٰ وجه الاستحباب وليس الوجوب؛ فإذا تعذر العطاء لأن في الورثة يتامىٰ أو سفهاء؛ فعليهم أن يردُّوهم بكلمة طيبة واعتذار جميل تطييبًا لنفوسهم.

[٩] ثم أمر جلّ وعلا الأوصياء علىٰ اليتامىٰ أن يخافوا الله فيهم، ويتذكروا حال أولادهم إذا ماتوا وتركوهم يتامىٰ وضعفاء، هل يرضون لهم الذل والإهانة؟! فلذا عليكم أيها الأوصياء أن تخافوا الله في من تحت أيديكم من اليتامىٰ، وعليكم أن تخاطبوهم كما تخاطبون أولادكم بعبارات اللين والعطف والحنان.

[١٠] واعلموا أيها المؤمنون أن الذين يعتدون علىٰ أموال اليتامىٰ، ويأخذونها بغير حق مباح؛ إنما يأكلون في بطونهم نارًا والعياذ بالله؛ وسيكون مصيرهم نارًا هائلة مستعرة لا تطاق، وفي هذا وعيد شديد للذين يعتدون علىٰ أموال اليتامىٰ ظلمًا وعدوانًا.

[١١] هذه الآية توضيح وتفصيل للآية رقم (٧) السابقة، وهي قوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ...﴾.

وقد بدأت الآية بوصية الآباء بالأبناء، وهذه هي المرة الوحيدة التي أوصىٰ الله فيها الآباء بالأبناء؛ لأن محبتهم وعنايتهم بأبنائهم طبيعية جِبِلِّيَّةٌ منذ الطفولة؛ بل من قبل ذلك؛ حيث يختارون الأم ذات الصلاح والنسب، أما الأولاد فأوصاهم الله بآبائهم مرات كثيرة؛ قريبًا من عشر مواضع؛ لأن اهتمام الأولاد بآبائهم وأمهاتهم تكلُّف، لذا كرر سبحانه وصية الأبناء بالآباء كثيرًا؛ بل جعل ذلك بعد الأمر بالتوحيد مباشرة؛ لأن الأبوين هما السبب الثاني لإيجاد الأبناء، وجحودهم أو هجرهم والتقصير بحقهم، سوف يكون جحودًا، وربما يكون كفرًا بالذي أوجدهم أولًا، وهو الله جلّ في علاه.

ثم بدأ جل في علاه ببيان ميراث الأولاد، فأخبر أنه إذا مات أحدكم وترك أولادًا ذكورًا وإناثًا؛ بعد أن يُحصىٰ ماله، وتُقضىٰ جميع ديونه، وتنفذ وصيته إن كانت لا تزيد عن الثلث؛ أن يُقسم ما تبقىٰ من الميراث بين أولاده للذكر ضعف الأنثىٰ إذا لم يكن هناك وارث غيرهم، وقد بين العلماء سببَ أن للذكر ضعف الأنثىٰ؛ لأن الذكر عليه التزامات مالية كثيرة، كالمهر، والنفقة، ومصروفات الأسرة ونحو ذلك، في حين أن الله سبحانه لم يلزم الأنثىٰ بأي نفقات نحو الرجل أو الأسرة؛ ثم أخبر سبحانه أن الميت إذا ترك نساءً فقط، وكن بنتين فأكثر فلهن ثُلُثا التركة؛ وإذا كانت ابنة واحدة فقط فلها نصف التركة؛ فإذا كان للميت ولد واحد فأكثر ذكرًا كان أو أنثىٰ؛ فلوالديه لكل واحد منهما السدس؛ فإذا لم يكن له ولد وورثه والداه فقط فلأمه الثلث ولأبيه الباقي؛ فإذا كان للميت إخوة اثنان فأكثر، ذكورًا أو إناثًا فلأمه السدس وللأب الباقي ولا شيء للأخوة، أما إذا كان له أخ أو أخت واحدة فقط فلأمه الثلث وللأب الباقي ولا شيء للأخ أو الأخت، وهذا هو القول الراجح، واعلموا أن هذا التقسيم الذي ذكرناه إنما يكون بعد تنفيذ وصية الميت، وقضاء ما عليه من الديون، ثم اعلموا أيها المؤمنون أن آباءكم وأبناءكم الذين فرضنا لهم هذا الإرث لا تعرفون أيهم أقرب لكم نفعًا في الدنيا والآخرة؛ ولهذا تولىٰ المولىٰ عز وجل تقسيم المواريث بنفسه؛ حتىٰ لا تضيع الحقوق، ويحصل الظلم بين الناس؛ فإنه جلّ وعلا عليم بخلقه، حكيم فيما شرعه لهم.

[١٢] وهذه الآية توضيح وتفصيل لحق الأزواج والكلالة؛ حيث بين فيها سبحانه الميراث بالمصاهرة وهما الزوج والزوجة.
فأخبر أن الزوجة إذا ماتت وتركت مالًا، ولم تترك ولدًا من زوجها الذي ماتت عنه، ولا من زوج آخر غيره؛ فإن الزوج في هذه الحالة يأخذ نصف التركة.
أما إذا ماتت الزوجة وتركت ولدًا من زوجها الذي ماتت عنه، أو كان لها ولد من زوج آخر غيره؛ فإن الزوج يأخذ ربع التركة.
ثم بين سبحانه أن هذا التقسيم يكون بعد إخراج الوصايا التي ليس فيها ضرر على الورثة، وتسديد الديون المتعلقة بالميت.
أما إذا مات الزوج وترك زوجة واحدة فأكثر؛ فإنها تأخذ ربع التركة إذا لم يكن له ولد.
أما إذا مات الزوج وكان له ولد؛ فإن الزوجة تأخذ ثمن الميراث.
ثم بين سبحانه أن هذا التقسيم أيضًا يكون بعد إخراج الوصايا التي ليس فيها ضرر على الورثة، وتسديد الديون المتعلقة بالميت.
فإذا مات الرجل أو المرأة، وليس لهم أصول أو فروع أحياء، أي: قد مات آباؤهم وأجدادهم، وليس لهم أولاد، ولا أحفاد، لا ذكور ولا إناث؛ فإنه يسمى أو تسمى في هذه الحالة كلالة؛ حيث لا يرثه إلا أخ لأم أو أخت لأم، فيكون في هذه الحالة لكل واحد منهما السدس.
فإذا كان الأخوة لأم أو الأخوات لأم أكثر من واحد فهم شركاء في الثلث، يقسم بينهم بالتساوي للذكر نفس حظ الأنثى.
وقد أجمع العلماء أن المقصود بقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ﴾، أي: الأخ لأم أو الأخت لأم، أما الإخوة الأشقاء أو الأخوة لأب فقد وضح سبحانه نصيبهم في آخر آية من هذه السورة.
ثم بين سبحانه أن هذا التقسيم يكون بعد إخراج الوصايا التي ليس فيها ضرر على الورثة، وتسديد الديون المتعلقة بالميت، أما الوصايا التي فيها ضرر على الورثة، بأن يكون قد أوصى بأكثر من الثلث، أو أمر بحرمان بعض أقاربه وهكذا؛ فلا يجوز تنفيذها.
واعلموا أيها الناس أن الله أوصاكم بهذا، وهي وصية نافعة لكم، والله عليم بما يصلح الخلق، وهو حليم لا يعاجل بالعقوبة من عصاه.

۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾

[١٣] ثم أخبر جلّ وعلا أن الأحكام والمقادير التي حددها في هذه الآيات لا يجوز لأحد تجاوزها، واعلموا أن من يطع الله ورسوله في هذه الأحكام وغيرها؛ فإن جزاءه عند الله أن يُدخله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين مخلدين في نعيمها أبد الآبدين، وذلك هو الثواب العظيم من الله.
[١٤] واعلموا أيها الناس أن من يتعدى هذه الحدود المقدرة، ويعصي الله ورسوله فيها، ولا يعمل بها، ويتجاهلها، وربما سخر منها، واستهزأ بأحكام الله فيها وفي غيرها، ومات على ذلك؛ فإن جزاءه جهنم، خالدًا مخلدًا فيها، وله عذابٌ شديد؛ فيه ما فيه من الإهانة والإذلال.

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

[١٥] يخبر جل وعلا أن النساء اللاتي وقعن في هذه الفاحشة القبيحة، وهي فاحشة الزنا؛ فعليكم أن تستشهدوا عليهن أربعة رجال مؤمنين صادقين؛ فإن شهدوا وأثبتوا ذلك عليهن؛ فيجب عليكم أن تحبسوهن في البيوت حتىٰ يأتيهن الأجل، أو يحكم الله فيهن، ويجعل لهن طريقًا للخلاص.

وقد فسر الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله الفاحشة في هذه الآية بأنها: السحاق، وهو أن تجامع الأنثىٰ أنثىٰ مثلها.

[١٦] ثم أخبر جل وعلا أن اللذين يقعان في فاحشة الزنا؛ فعليكم تأديبهما وضربهما؛ حتىٰ يرتدعا عن هذه الفاحشة القبيحة؛ فإذا أقلعا عنها، وتابا إلىٰ الله، وعملا الأعمال الصالحة؛ فاصفحوا عنهما، واتركوهما؛ فإن الله كثير التوبة لعبادة التائبين؛ عظيم الرحمة والإحسان بهم.

وقد فسر الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾: أي: واللذان يفعلان اللواط.

وقد قال جمهور المفسرين: إن هاتين الآيتين منسوختان بآية الزنا في سورة النور، وهي قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ...﴾ [النور: ٢-٣].

وهذا في الزانيين الغير متزوجين؛ حيث يجلدان مائة جلدة ويغربان عامًا، أو يُغَرَّب الرجل دون المرأة، علىٰ خلاف بين العلماء. أما المحصن فحده الرجم حتىٰ الموت، كما ثبت ذلك في السنة النبوية.

[١٧] واعلموا أيها المؤمنون أن التوبة الصحيحة التي يقبلها الله إنما تكون من الذين يرتكبون المعاصي ويجهلون عاقبتها في الدنيا والآخرة، وسرعان ما يعودون ويتوبون ويندمون ويقلعون عن الذنوب.

قال مجاهد: من عصىٰ ربه فهو جاهل حتىٰ ينزع عن معصيته، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنه. وقال أبو العالية: سألت أصحاب محمد ﷺ عن هذه الآية فقالوا لي: كل من عصىٰ الله فهو جاهل، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب. وأصل السيئات: الجهل وعدم العلم.

ثم بين سبحانه أن الذين يعصون الله ثم يتوبون؛ فإنه يتوب عليهم ويتجاوز عمّا فعلوه من الذنوب والمعاصي، واعلموا أن الله عليم بخلقه، يعلم الصادق من الكاذب في توبته، حكيم في تدبيره وتقديره.

[١٨] ثم أخبر جل وعلا أن التوبة لا تكون من المصرِّين المستمرين علىٰ المعاصي؛ فإذا حضر أحدهم الأجل، قال: إني تبت الآن حين علم أن حياته انتهت، وكذلك لا تكون التوبة للذين يموتون وهم كفّار، أي: ماتوا وهم جاحدون لآيات الله ورسله؛ فهؤلاء مصيرهم النار، يعذبون فيها عذابًا أليمًا موجعًا، ومن دخل النار من الموحدين بسبب الذنوب والمعاصي فإنه بعد التطهير يخرج منها ويدخل الجنة.

[١٩] يخبر جل وعلا بما كان شائعًا بين الناس قبل الإسلام من الظلم الذي كان علىٰ النساء؛ حيث كانت المرأة تورث كما يورث المتاع؛ فإذا مات الرجل وترك زوجة فإن أكبر أولاده من غيرها أو أخاه أو ابن عمه يتصرف بها كما يشاء؛ إما أن يتزوجها أو يزوِّجها للآخرين، أو يمنعها من الزواج، وهي كارهة لهذا كله؛ فأبطل الإسلام هذا الظلم، وأصبح للمرأة عِدَّةً ونصيبًا من الميراث ونحو ذلك، ثم أخبر سبحانه أنه لا يجوز للزوج إذا كره زوجته أن يضارها لكي تتنازل عن بعض ما أعطاها من المهر، إلا إذا وقعت في أمر فاحش وسَيِّىءٍ واضح كالزنا؛ فحينئذ له الحق أن يضيق عليها حتىٰ تفتدي بشيء من مهرها حتىٰ يطلقها، أو يطلقها من غير عوض؛ بل يمتعها، وعليكم أيها الناس أن تعاشروا نساءكم بالمعروف؛ فإذا كره الزوج زوجته لسبب دنيوي وهي لم تأت بفاحشة؛ فعليه أن يصبر عليها، وأن يستمر في صحبتها والإحسان إليها؛ فربما يجعل الله في هذه التي كرهتها خيرًا كثيرًا؛ بأن تنقلب الكراهية إلىٰ محبة، أو ترزق منها بالولد الذي تقرُّ به عينك.

[٢٠] يبين جلّ وعلا إذا أراد أحدكم أن يتزوج امرأة بدل التي طلقها، وكان قد أعطىٰ زوجته التي طلقها مهرًا كثيرًا؛ فإنه لا يحق له أن يأخذ منه شيئًا؛ لأنها استحقته بالعقد والدخول بها فصار ملكَها، واعلموا أن أخذه بغير حق بهتان وإثم عظيم، أما إذا أتت بفاحشة، أو هي كرِهت الزوج؛ فلها أن تفتدي نفسها بشيء من المال تدفعه للزوج ليطلقها، وهذا ما يسمىٰ: بالخلع.

[٢١] ثم أنكر جل وعلا علىٰ من يأخذ مهر المرأة بدون وجه حق، وقد حصلت بينهما العشرة الزوجية والاستمتاع بالجماع ونحوه، واتفقوا علىٰ ذلك بعقد النكاح الذي هو بمثابة الميثاق الغليظ بينهم.

[٢٢] ثم نهىٰ جلّ وعلا عما كانت تفعله الجاهلية من نكاح الرجل زوجة أبيه التي ليست أمه بعد وفاة أبيه إذا رغب؛ حيث كان يرثها من ضمن المتاع؛ ثم بين سبحانه أن من سبق نكاحُها في وقت الجاهلية فهو عمل جاهلي والإسلام يهدم ما قبله، واعلموا أيها المؤمنون أن هذا الفعل أمر فاحش وقبيح، والله يبغضه، وبئس ذلك طريقًا ومنهجًا لمن سلكه.

[٢٣] ثم بين جلّ وعلا النساء التي يحرم علىٰ الرجل نكاحُهن بسبب النسب والرضاع والمصاهرة، أي: يحرم نكاحُهن إما حرمة دائمة أو حرمة مؤقتة.

*** فبدأ سبحانه بذكر النساء التي يحرم نكاحهن بسبب النسب والقرابة، وهن سبع:**

١ - الأمهات، ويدخل فيهن الجدات.

٢ - والبنات ويدخل فيهن بناتهن.

٣ - والأخوات، ويدخل فيهن الأخوات الشقيقات، والأخوات من الأب، والأخوات من الأم.

٤ - والعمات، ويدخل فيهن أخوات الآباء وأخوات الأجداد.

٥ - والخالات، ويدخل فيهن أخوات الأمهات وأخوات الجدات.

٦ - وبنات الأخ ويدخل فيهن بناتهن.

٧ - وبنات الأخت، ويدخل فيهن بناتهن.

*** ثم ذكر سبحانه النساء التي يحرم نكاحهن بسبب الرضاع، وهن:**

١ - الأم من الرضاع ويدخل معها الجدات من الرضاع.

٢ - والأخوات من الرضاع، ويدخل فيهن الأخوات الشقيقات، والأخوات من الأب، والأخوات من الأم.

فهؤلاء محرمات بسبب الرضاعة، وقد ثبت في السنة أن المحرمات من الرضاعة سبع كالمحرمات من النسب؛ لقوله ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»(١).

ولهذا يضاف علىٰ ما سبق ما يلي:

٣ - البنات من الرضاع ويدخل فيهن بناتهن.

٤ - والعمات من الرضاع ويدخل فيهن أخوات الآباء من الرضاع وأخوات الأجداد من الرضاع.

٥ - والخالات من الرضاع ويدخل فيهن أخوات الأمهات من

(١) أخرجه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧)، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه البخاري (٢٦٤٦)، ومسلم (١٤٤٤)، عن عائشة رضي الله عنها.

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

الرضاع وأخوات الجدات من الرضاع.

٦ - وبنات الأخ من الرضاع ويدخل فيهن بناتهن.

٧ - وبنات الأخت من الرضاع ويدخل فيهن بناتهن.

*** ثم ذكر سبحانه النساء التي يحرم نكاحهن بسبب المصاهرة، وهن:**

١ - أم الزوجة.

٢ - وبنت الزوجة المدخول بها؛ لأنها تكون ربيبة، وأما إن عقد علىٰ أمها، ولم يدخل بها فإنها لا تحرم عليه، ويجوز له في هذه الحال نكاحها.

٣ - وزوجة الابن الحقيقي الذي هو من صلب أبيه.

٤ - وزوجة الابن الذي من الرضاع، أما الابن المتبنىٰ فلا تحرم زوجته.

٥ - وكذلك أخت الزوجة لا يجوز أن يتزوجها الرجل وأختها ما زالت في عصمته، حتىٰ تَبِينَ من الزوج أو تموت وتنقضي عدتها، أما من سبق له أن نكح أختين في وقت الجاهلية، فهو عمل جاهلي، والإسلام يهدم ما قبله.

وقد ثبت في السنة أيضًا النهي عن الجمع بين الزوجة وعمتها والزوجة وخالتها(٢).

ثم بين سبحانه أنه عفا عنكم أيها الناس ما كان قد وقع منكم في الجاهلية من الأنكحة المحرمة، إنه كان ولم يزل سبحانه غفورًا لمن تاب وأناب؛ رحيمًا بعباده.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٠٩)، ومسلم (١٤٠٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

۞وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾

[٢٤] بين جل وعلا أن من النساء المحرمات في النكاح: نكاح المرأة المتزوجة؛ فإنه لا يجوز نكاحها إلا بعد أن تفارق زوجها بطلاق أو وفاة، وتنتهي عدتها، ثم استثنىٰ سبحانه المرأة المتزوجة التي تُسبىٰ في الحرب؛ فإنه يجوز لمن ملكها أن يطأها، ولكن بعد أن تستبرئ رحمها بحيضة، واعلموا أيها الناس أن الله حرَّم عليكم من سبق ذكرهن من النساء فالتزموا أوامره واهتدوا بهديه، ثم اعلموا أن الله أحل لكم أن تطلبوا بأموالكم نكاح سوىٰ ما ذكر من المحرمات لتعفُّوا أنفسكم ونساءكم عن الوقوع في الحرام، ثم أمر سبحانه أن تعطوا من رَغِبْتُمْ في الزواج منهنَّ ما فرضه الله لهنَّ من الصَّداق، ولا إثم عليكم فيما اتفقتم عليه من الصَّداق زيادة أو نقصانًا بعد ثبوت الفريضة، إن الله عليم بحالكم، حكيم بما يصلُح به شأنكم.

[٢٥] ثم بين جلّ وعلا أن من لم يقدر علىٰ دفع الصداق لنكاح النساء الحرائر المؤمنات غير المتزوجات؛ فيجوز له أن ينكح المملوكة المؤمنة بحسب ما يقدر عليه بإذن مالكها، والله أعلم بالمؤمن الصادق من الكاذب، وعليكم أن تتزوجوا المملوكات بموافقة مُلَّاكِهن، وأن تعطوهن حقهن من الصَّداق بحسب ما اتفقتم عليه بطيب نفس منكم، ولا يجوز الزواج من الأمة إلا إذا كانت عفيفة عن الزنا ظاهرًا وباطنًا، وليس لها أخلاء أو أصدقاء في السرّ؛ فإذا تزوجت الأمة أو أسلمت ثم أتت بفاحشة بعد الزواج فعليها الحدّ، وهو نصف ما علىٰ الحرائر، وهو الجلد وليس الرجم؛ لأن الرجم لا يتنصف.

ولهذا فإن (العذاب) المذكور في هذه الآية المقصود به الجلد، أي: أن تجلد خمسين جلدة. والعلة في كون حدّ الأمة نصف حدّ الحرة وهو الجلد؛ لأن الرجم سيؤدي إلىٰ إهلاكها، وهذا فيه إتلاف لمال مالكها الذي اشتراها ولا ذنب له في ذلك، أما العذاب فليس كذلك، وحتىٰ أشد العذاب لا يسمىٰ موتًا؛ كما قال نبي الله سليمان عليه السلام في الهدهد: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل:٢١]، فسليمان عليه السلام فرّق بين العذاب والذبح وهو الموت.

ومن رحمة الله أنه جعل عقوبة الإماء والرقيق فقط الجلد؛ لأن الإماء والرقيق مبتذل، وكونهم مبتذلين وممتهنين لا ينفي أن يكون بعضهم في تقواه ومراقبته وعبادته لله أفضل من كثير من الأحرار، ومعلوم أن الأفضل هو الأتقىٰ لله، كما ورد في الحديث أنه: «**لا فضل لعربي علىٰ أعجمي إلا بالتقوىٰ**»[1]، وقال الشاعر:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأمُّ حواء

ثم بين سبحانه أنه شرع النكاح وأباحه من المملوكة عند الضرورة لمن خاف علىٰ نفسه الوقوع في الحرام، ولا شك أن الصبر عن الزواج بالمملوكة مع العفة أولىٰ وأفضل.

والعلة في عدم الرغبة في الزواج بالمملوكات؛ لأنهن ضعيفات مغلوبات علىٰ أمرهن، فهن عُرضة للاغتصاب من كل فاسق، أما الحرائر فإنهن أقدر منهن في المحافظة علىٰ شرفهن وشرف أهلهن، وأكثر صونًا لأنفسهن، كما قالت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وقت البيعة يوم الفتح حينما قرأ عليهن الرسول ﷺ شروط البيعة التي تؤخذ عليهن هي والنساء اللاتي حضرن معها للمبايعة؛ فذكر ﷺ من شروط البيعة: «**أن لا يزنين...**»، فقالت هند: (وهل تزني الحرة؟!)[2]. ثم ختم سبحانه الآية مبينًا أنه غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

(والطَّوْلُ) المذكور في هذه الآية هو: القدرة المالية، وكذلك (المحصنات) المذكورة في هذه الآية: هن الحرائر غير المتزوجات، بخلاف المذكورة في أول الآية التي قبلها فإن المقصود بها المتزوجات.

[٢٦] ثم بين جل وعلا أنه شرع لكم هذه الأحكام؛ ليبين لكم ما حرم عليكم وما أحل لكم، ويدلكم علىٰ طريق الذين من قبلكم من الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم، وأن يوفقكم للتوبة مما وقعتم فيه من الأخطاء، واعلموا أن الله عليم بما تصلح به أموركم، حكيم فيما شرعه لكم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٤٨٩)، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٥٧٤)، عن عائشة رضي الله عنها.

[٢٧] ثم بين جل وعلا أنه يريد بهذه الأحكام التي شرعها لكم أن يطهركم من الذنوب والمعاصي، ويتوب عليكم، وأما أهل الفسوق والكفر الذين يتبعون الشهوات فيريدون أن يصرفوكم عن تقوىٰ الله؛ لتنحرفوا عن دينكم وتبتعدوا عنه ابتعادًا عظيمًا.

[٢٨] ثم بين جل وعلا أن من رحمته بهذه الأمة أن شرع لهم هذه الأحكام ليخفف عنهم التكاليف التيأالْزَمُوا أنفسهم بها، فرخص للمضطر في الزواج بالأمة، وأبطل التبني، وحطَّ عنهم الآصار التي كانت علىٰ الأمم السابقة، وبيَّن لهم سنن الأنبياء والصالحين من الأمم السابقة ليقتدىٰ بها، وبيَّن العقوبات التي حلَّت بالأمم التي رفضت الهداية؛ فنعمه جل في علاه علىٰ أمة الإسلام لا حصر لها، ثم بيَّن سبحانه أنه شرع هذا التخفيف لأن الإنسان خلق ضعيفًا؛ ولذا فإنه لا يصبر علىٰ مشاق الطاعات، ولا يصبر أمام منازعة النفس وشهواتها وهواها، ولا يصمد ولا يصبر أمام المغريات من النساء والمال والمناصب.

[٢٩] ثم نهىٰ جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بغير حق، ولكن يباح لهم أن يجعلوها تجارة قائمة علىٰ مبدأ التراضي؛ وحينئذ يكون الربح حلالًا، ثم حذر سبحانه أن يقتل بعضكم بعضًا، وأن يقتل أحدكم نفسه؛ كما يفعل بعض الجهال اليوم من الانتحار، أو تعريض النفس للتهلكة بدون مبرر شرعي، واعلموا أن الله رحيم بعباده فيما شرعه لهم، ومن رحمته أنه نهاهم عما فيه مضرة عليهم، وأباح لهم ما فيه مصلحة لهم.

[٣٠] واعلموا أيها الناس أن من يقبل هذه المعاصي وغيرها من القتل، وأكل المال بغير وجه حق؛ فسوف يكون عقابه دخول نار جهنم، وكان هذا العذاب سهلًا ويسيرًا علىٰ الله لاستحقاق المسيء.

[٣١] ومن فضل الله وإحسانه علىٰ عباده المؤمنين أنه وعدهم أنَّ من اجتنب كبائر الذنوب والمعاصي والفواحش؛ فإنه سوف يغفر له صغائر الذنوب، ويدخله الجنة دار السرور والحبور، فله الحمد والمنّة. واعلموا أيها الناس أن من رحمة الله تعالىٰ ولطفه بعباده أن أردف بهذه الآية بعد قوله تعالىٰ في الآية السابقة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾؛ فلعلمه جل وعلا بضعفنا وَعَدَ بتكفير الصغائر، فله الحمد والشكر أولًا وآخرًا.

[٣٢] ثم نهىٰ جلّ وعلا عباده المؤمنين عن تمني ما فضَّل الله به بعض عباده علىٰ بعض علىٰ صفة الاحتجاج أو الحسد؛ فكونه أعطىٰ هذا ومنع هذا من علم أو مال أو مكانة؛ فاعلموا أن

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

لكل واحد من الرجال والنساء نصيبًا قدّره الله وكتبه له بحسب علمه بعباده، ومن ذلك جعل للرجال ميزة علىٰ النساء كالقوامة وغيرها، ولذا عليكم أن تسألوا الله دائمًا من فضله وعظيم كرمه؛ فإنه سبحانه عليم بما يصلح لعباده في دينهم ودنياهم.

[٣٣] ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ أنه جعل لكل ميت من الآباء والأقرباء عصبة يرثون أموالهم، وبيَّن أن لكل من هؤلاء الورثة نصيبه المفروض والموضح في كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، وأيضًا جعل للذين تحالفتم معهم بالأيمان المؤكدة شيئًا من الميراث؛ فيجب أن تعطوهم نصيبهم المقدر لهم، وكان هذ معمولًا به في الجاهلية وفي أول الإسلام ثم نسخه جل وعلا فقال: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٧٥]، وبقيت الوصية، فللمورث أن يوصي لمواليه إن شاء، واعلموا أيها الناس أن الله مطلع علىٰ جميع أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ
بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ
حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ
نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ
وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا
فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن
يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
خَبِيرٗا ٣٥ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ
وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ
وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ
وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ
وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ
ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧

[٣٤] يخبر جلّ وعلا أن الرجال قوَّامون علىٰ النساء، فيتولون رعايتهن ونصحهن وإرشادهن، وحفظهن من أن يغتصبن أو ينحرفن، وإبعادهن عن مواقع الفتن والانحراف، وذلك بسبب ما خصهم الله به من التفضيل في قوة البدن والسعي في الأرض للكسب، وأنهم هم الذين ينفقون علىٰ النساء، ثم بيَّن سبحانه حال النساء الصالحات، وأخبر أنَّهن مطيعات لله، وقائمات بحقوق أزواجهن، وأنهن حافظات لأزواجهن في حال غيابهم، وهذا من حفظ الله وتوفيقه لهن، أما التي ترفض طاعة زوجها في المعروف؛ فعليه أن يؤدبها بأن ينصحها بالكلمة الطيبة والأسلوب الحسن؛ فإذا لم تتأثر بالنصيحة فله أن يهجرها في الفراش ولا يجامعها؛ فإذا استمرت في عنادها وترفعها فله أن يهددها، ثم يضربها ضربًا خفيفًا لا ضرر فيه؛ فإذا أطاعت زوجها بعد ذلك فاحذروا أن تظلموها، واعلموا أن الله أعلىٰ منكم وأكبر، وهو منتقم ممن يظلم النساء ويبغي عليهن.

[٣٥] وإذا علمتم أيها الناس أن بين الزوجين خلافًا وخصومة، وخفتم اشتدادَ الخلافِ بينهما؛ فابعثوا حكمًا عدلًا من أهل الزوج، وحكمًا عدلًا من أهل الزوجة؛ ليدرسا المشكلة التي كانت سببًا في الخلاف بينهما، وينظرا فيها، ثم يحكما بما فيه مصلحة الزوجين؛ فإذا كانت نية الحكمين صافية ويريدان الإصلاح بصدق؛ فإن الله سوف يوفق بين الزوجين، ويجمع بينهما، وتنحل جميع مشكلاتهما، واعلموا أن الله عليمٌ لا يخفىٰ عليه شيء من أمر عباده، وخبير بما سوف يصلح نفوسهم.

[٣٦] ثم أمر جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يعبدوه ويوحدوه، ولا يجعلوا معه شريكًا آخر في العبادة، وهذا من حق الله علىٰ عباده، ثم أمرهم بالإحسان إلىٰ الوالدين ببرهما وطاعتهما وإكرامهما، والإحسان إلىٰ الأقارب الذين جمعت بينكم وبينهم رابطة القرابة والنسب، والإحسان إلىٰ اليتامىٰ الذين مات آباؤهم قبل سن البلوغ، وذلك بالعطف عليهم ورحمتهم، والإحسان إلىٰ المساكين بمد يد العون لهم ومساعدتهم، والإحسان إلىٰ الجار الذي يربط بينك وبينه حق الجوار وحق القرابة، والإحسان إلىٰ الجار الذي لا قرابة بينك وبينه، والإحسان للأصدقاء الملازمين لك؛ سواء في السفر أو التجارة أو الدارسة وغير ذلك، والإحسان إلىٰ ابن السبيل الذي انقطع عن بلده بإكرامه وهدايته للطريق، وإعطائه ما يوصله لبلده، والإحسان للعبيد المماليك الذين يخدمون أسيادهم بالرفق بهم، وإعانتهم، وعدم تكليفهم أكثر من طاقتهم، ويدخل في ذلك الرفق بالبهائم، بإطعامها، وعدم إيذائها، وعدم تحميلها ما يشق عليها، واعلموا أن الله لا يحب من كان معجبًا بنفسه، ولا يحب من يتكبر علىٰ الناس ويتفاخر عليهم، كما أنه لا يحب العنف في التعامل؛ فما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما كان العنف في شيء إلا شانه، ويحب سبحانه المتواضعين؛ فمن تواضع لله رفعه في الدنيا والآخرة.

[٣٧] ثم بيَّن جل وعلا أن من صفات هؤلاء البخلاء المتفاخرين علىٰ الخلق: أنهم يمتنعون عن الإنفاق في سبيل الله؛ بل يأمرون غيرهم بالبخل، ويجحدون نعمة الله عليهم، ويكتمون ما أعطاهم الله من النعم والعلم، ثم أخبر سبحانه أنَّه أعد للجاحدين نعمه عذابًا أليمًا مخزيًا يوم القيامة.

وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

[٣٨] وبين جل وعلا أن من صفات هؤلاء البخلاء المتكبرين المتفاخرين علىٰ الخلق أيضًا: أنهم في حال إنفاقهم لبعض أموالهم فإنهم ينفقونها رياءً وسمعة، ومن صفاتهم: أنهم لا يصدقون بالله ولا بيوم القيامة، واعلموا أيها الناس أن من كان الشيطان له صاحبًا فبئس هذا الصاحب وبئس هذا القرين الذي يريد إهلاك مَنْ صاحَبَهُ.

[٣٩] ثم وبَّخ جل وعلا هؤلاء الكافرين، فقال سبحانه: وماذا يضرهم لو أنهم صدّقوا بالله وبيوم القيامة، وأنفقوا في سبيل الله مما رزقهم الله من المال، وابتغوا بهذا الإنفاق وجه الله سبحانه وتعالىٰ، واعلموا أن الله عليم بما في قلوب هؤلاء الكافرين، وعليم بأعمالهم، وسيجازيهم عليها.

[٤٠] واعلموا أيها الناس أن الله جلّ وعلا تنزه عن الظلم حتىٰ ولو كان بمقدار ذرة؛ فلا يظلم سبحانه أحدًا من الناس؛ لا بإنقاص شيء من حسناته، ولا بزيادة في سيئاته، بل لو كانت هذه الحسنة من أعمال الخير بمقدار ذرة، فإن الله يضاعفها عنده أضعافًا كثيرة؛ بل يعطي سبحانه من عنده عطاءً جزيلًا زيادة علىٰ ثواب أعمالهم بأن يدخلهم الجنة.

وفي الحديث: «**يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا...**»[(١)].

[٤١] وبعد أن علمت يانبي الله أن الله لا يظلم مثقال ذرة، فكيف يكون حال هؤلاء الكفار المجرمين يوم القيامة إذا جاء الله من كل أمة برسولها ليشهدوا عليهم بما عملوا، ثم جئنا بك يانبي الله لتكون شهيدًا علىٰ العصاة من أمتك الذين بلغتهم رسالة ربهم، هل امتثلوا أوامر الله ورسوله ﷺ ونفذوها، أم لا؟.

[٤٢] ثم بين جل وعلا أن الكفار الذين لم يتبعوا الرسول محمدًا ﷺ يتمنون يوم القيامة لو أن الله جلّ وعلا لم يبعثهم، أو تسوىٰ بهم الأرض فيصيروا مثل التراب حتىٰ لا يَرَوْا هذا اليوم، أو تنشق بهم الأرض فتبلعهم؛ كل ذلك حتىٰ يتخلصوا من ذلك اليوم العصيب الرهيب، ثم أخبر سبحانه أنهم في ذلك اليوم لا يستطيعون أن يكتموا الله سبحانه وتعالىٰ شيئًا مما فعلوا؛ لأن أعضاءَهم تشهد عليهم بكل ما فعلوا في الدنيا.

[٤٣] ثم خاطب جلّ وعلا عباده المؤمنين الذين فَرَضَ عليهم الصلوات الخمس في اليوم والليلة أن لا يقربوا الصلاة وهم سكارىٰ حتىٰ تكون عقولهم واعية يميزون بين الخطأ والصواب، وهذا كان قبل تحريم الخمر، ونهاهم أن يقربوا المساجد وهم جنُبٌ إلا إذا أرادوا أن ينتقلوا من باب إلىٰ باب؛ حتىٰ يتطهروا بالاغتسال، وإذا كانوا مرضىٰ لا يقدرون علىٰ استعمال الماء، أو كانوا في سفر، أو انتقض وضوؤهم بأحد نواقض الوضوء، أو جامع أحد امرأته؛ فلم يجدوا ماءً يتطهرون به؛ فعليهم بالتيمم وهو التطهر بالتراب؛ بأن يضرب الأرض بكفيه، ثم يمسح وجهه ويديه مرة واحدة، واعلموا أيها الناس أن الله كثير العفو والمغفرة لذنوب عبادة المؤمنين.

[٤٤] ثم قال سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ: ألا تعجب يانبي الله من أمر أحبار اليهود الذين أُعطوا حظًّا من العلم الذي جاءهم في التوراة، ومع ذلك فإنهم يستبدلون الضلالة بالهدىٰ، أي: يستحبون البقاء علىٰ ما هم عليه بعد أن تبين لهم أن الإسلام هو الدين الحق؛ بل يتمنون لكم أن تبتعدوا مثلهم عن الحق، وهو صراط الله المستقيم.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، عن أبي ذر رضي الله عنه.

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

[٤٥] يخبر جل وعلا أنه أعلم بأعدائكم منكم أيها المؤمنون؛ ولذلك فهو سبحانه حذركم منهم، ومما يكيدون لكم من الشرور؛ وبعد أن عرفتم واقتنعتم بعداوة الكفار لكم؛ فعليكم أن تكتفوا بولاية الله ونصرته؛ فهي تغنيكم عن موالاة جميع الكفار.

[٤٦] ثم أخبر جل وعلا أن من اليهود قومًا يحرفون ما جاء في التوراة عن معناه، ويبدلون مواضع آيات التوراة عن أماكنها، ومن ذلك إخفاؤهم ذكر النبي عليه الصلاة والسلام في التوراة، ويقولون: سمعنا كلامك يامحمد وعصيناه، واسمع منا ما لا يسرك، لا أسمعك الله، وهو دعاء عليه ﷺ بالصمم، قاتلهم الله أنىٰ يؤفكون، ويقولون عند مخاطبة الرسول ﷺ: راعنا يامحمد، يريدون بذلك الدعاء عليه بالرعونة، وهي الحمق والطيش، يلوون ألسنتهم بهذه الكلمة علىٰ سبيل التهكم والسخرية لصرف الكلام عن معناه الصحيح، وقصدهم بذلك الطعن في الدين، ثم أخبر سبحانه: لو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا، بدل: و(عصينا)، وقالوا: واسمع بدل: (غير مسمع)، وقالوا: وانظرنا، أي: ارفق بنا، بدل: (راعنا)؛ لكان ذلك خيرًا لهم مما قالوه وأعدل قولًا، ولكن أبعدهم الله عن رحمته بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلًا، ومن القليل الذين آمنوا: عبدالله بن سلام، وأبي بن كعب، وأصحابهم، رضي الله عنهم أجمعين.

[٤٧] ثم أمر جل وعلا اليهود الذين نزلت عليهم التوراة أن يصدِّقوا بالقرآن الذي أنزله الله علىٰ نبيه محمد ﷺ؛ لأن هذا القرآن مصدق لما جاء في التوراة من أحكام، ثم أنذرهم سبحانه بسوء العاقبة في حال إعراضهم عن نداء الله لهم بالإيمان بالقرآن، فقال جل في علاه: يامعشر اليهود آمنوا بهذا القرآن وصدقوا بما جاء فيه من قبل أن نأخذكم بذنوبكم، فنمحو وجوهكم ونشوهها حتىٰ تصير مطموسة أو نجعل الوجه فوق الرأس بدلًا من كونه فوق الصدر، أو نلعنكم كما لعنا بعض أسلافكم المفسدين من أصحاب السبت، وذلك بمسخهم قردة وخنازير، واعلموا أن أمر الله نافذٌ لا محالة، وهو لا يخلف الميعاد.

[٤٨] وهذا إعلان من الله جل وعلا أنه لن يغفر لمن أشرك به أحدًا من البشر أو غيرهم من المخلوقين، ومات علىٰ ذلك، وأخبر سبحانه أنه يغفر جميع الذنوب والمعاصي التي دون الشرك لمن شاء، واعلموا أن من يشرك بالله أحدًا غيره فقد ارتكب ذنبًا عظيمًا وإثمًا شنيعًا يخرجه من دين الإسلام.

[٤٩] ثم قال سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ: ألا تعجب يانبي الله من هؤلاء اليهود الذين يزعمون أنهم مُطَهَّرون من الذنوب والمعاصي؛ فمرة يقولون: إنهم أبناء الله وأحباؤه، ومرة يقولون: إن الله لن يعذبهم إلا أيامًا معدودة، ومرة يقولون: إن الجنة لهم وحدهم؛ مع أنهم غارقون في الكفر والشرك والمعاصي، وتكذيب النبي ﷺ، وما أُنزل عليه من القرآن، ثم أخبر سبحانه أنه هو الذي يمدح ويَأْجُرُ ويجزي من يشاء من عباده، وأنهم لن يُظلموا شيئًا من أعمالهم ولو كان قليلًا؛ بل ولو كان فتيلًا، أي: كان بمقدار الخيط الرفيع الذي يكون في شِقِّ نواة التمرة.

[٥٠] ثم أكد جل وعلا عجبه من هؤلاء اليهود، فقال سبحانه: فانظر يامحمد كيف يقول هؤلاء علىٰ الله الكذب في تزكية أنفسهم، وكفىٰ بهذا الكذب والافتراء علىٰ الله معصيةً كبيرة بينة.

[٥١] ثم قال جل شأنه لنبيه ﷺ: ألا تعجب يانبي الله من هؤلاء اليهود الذين أُعْطُوا قدرًا من علم التوراة؛ ومع ذلك فإنهم يؤمنون بكل ما يُعبد من دون الله من الأصنام والطواغيت، ثم يقولون لكفار مكة الذين حاربوا دين رسول الله ﷺ: إنكم أقوم وأعدل طريقًا من أولئك الذين آمنوا، يقصدون محمدًا عليه الصلاة والسلام وأصحابه، وهذا إضافة إلىٰ أنه كذب؛ فهو محاربة وحسد وحقد علىٰ الدعوة؛ لأن الرسالة خرجت من ذرية يعقوب إلىٰ ذرية إسماعيل عليهما السلام.

[٥٢] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك اليهود الذين أيدوا المشركين قد طردهم من رحمته، واستحقوا العذاب الشديد بفعلهم القبيح، واعلموا أن من يطرده الله من رحمته فلن تجدوا له ناصرًا أو معينًا.

[٥٣] ثم وصف جل وعلا اليهود بشدة البخل والشح، وبين أنهم ليس لهم حظ من الملك أبدًا، لأنهم يزعمون أن الملك سيعود إليهم في آخر الزمان، ثم بين سبحانه أنهم لو أعطوا الملك فإنهم لن يؤتوا أحدًا من الناس شيئًا بسبب بخلهم وشحهم؛ بل ولبخلوا بأقل القليل ولو كان نقيرًا، والنقير: هو النقرة التي تكون في ظهرِ نواة التمرة. وفي هذه الآية إنكار وذم لليهود بالبخل.

[٥٤] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء اليهود مع شدة بخلهم يحسدون النبي محمدًا ﷺ وأصحابه علىٰ ما أعطاهم الله من القرآن والحكمة، وهم يعلمون أن الله كما أعطىٰ محمدًا ﷺ القرآن والحكمة فقد أعطىٰ ذرية إبراهيم من قَبْلُ الكتب المنزَّلة والنبوة والملك العظيم، وذلك إشارة إلىٰ ما خص الله به داود وسليمان عليهما السلام من الملك العظيم، وفي هذه الآية إنكار وذم لليهود بالحسد.

[٥٥] ثم أخبر جلّ وعلا أن مِنَ اليهود مَنْ آمن بمحمد ﷺ فنال بذلك السعادة في الدنيا والآخرة، ومنهم من كفر وصد عنه حسدًا وعنادًا فحصل لهم ما حصل من الشقاء الدنيوي، ويكفيهم ما سينالونه من عذاب جهنم التي تسعر بهم يوم القيامة.

[٥٦] يخبر جل وعلا أن الذين كفروا بالقرآن، وكفروا بنبوة محمد ﷺ؛ سوف يدخلهم نارًا عظيمة، وكلما احترقت جلودهم وذابت في هذه النار بدل الله جلودهم بجلود غيرها ليستمروا في ألم العذاب؛ لأن الجلد مصدر الإحساس، واعلموا أن الله جل في علاه عزيز لا يغالب، وله سبحانه العزة العظيمة، والحكمة البالغة في خلقه وأمره وثوابه وعقابه.

[٥٧] ثم يخبر جل وعلا أن الذين آمنوا بالله ورسوله، وتركوا الشرك والكفر والمعاصي، وعملوا الأعمال الصالحة؛ فإنه سوف يدخلهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، يتمتعون في هذه الجنات، ولا يخرجون منها أبدًا، ولهم فيها أزواج طهرها الله مِن القاذورات ومن الأخلاق الرديئة، ثم يدخلهم سبحانه ظلًّا كثيفًا ممتدًا في جنات النعيم؛ فلا يرون شمسًا ولا زمهريرًا.

[٥٨] يأمر جل وعلا عباده أن يُرْجِعُوا ما ائتمنوا عليه من الحقوق إلىٰ أهلها، ثم أمرهم إذا قضوا بين الناس أن يقضوا

أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾

بحكم الله فيهم ولا يظلموهم، وبين سبحانه أن نِعْمَ ما أمر الله به عباده هو أداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل، واعلموا أن الله كان ولم يزل سميعًا لما تقولون، بصيرًا بما تفعلون.

وهذه الآية نزلت علىٰ النبي ﷺ يوم فتح مكة، وهو داخل الكعبة، ثم سلم مفتاح الكعبة لبني شيبة؛ لأنهم كانوا حملته قبل فتح مكة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

[٥٩] يأمر جل وعلا عباده المؤمنين أن يطيعوا الله، وأن يطيعوا الرسول ﷺ، وذلك بالتزام أوامرهما واجتناب نواهيهما، ثم أمر بطاعة ولاة الأمر المسلمين، وطاعة أولياء الأمور تكون في المعروف؛ ثم بيَّن سبحانه أنه إذا حصل خلاف في أمر من أمور الدين أو الدنيا وجب ردُّ ذلك إلىٰ كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فيما حكما فيه، وقبولُ حكمها، وبهذا تكونون مؤمنين بالله إيمانًا حقيقيًّا، ومؤمنين بيوم القيامة إيمانًا حقيقيًّا، واعلموا أن ما أمركم الله به من رد الحكم إلىٰ الله ورسوله خير وأحسن عاقبة لكم في الدنيا والآخرة لأنه حق.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

[٦٠] ثم قال جل في علاه لنبيه ﷺ: ألا تعجب يانبي الله من هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن الذي أنزل عليك؛ بل يزعمون أنهم آمنوا بجميع الكتب السماوية التي أنزلت علىٰ الرسل من قبلك، ومع زعمهم هذا فهم يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوت، والطاغوت هو كل رأس في الضلال؛ من ساحر وكاهن ونحوهما، مع أنهم أُمروا أن يكفروا بكل باطل، ومن ذلك أنهم أمروا أن يكفروا بالطواغيت، وينقادوا لحكم الله وحده، فكيف بعد ذلك يفضلون حكم الطواغيت، ويرفضون حكم الله؟، وهذا من إضلال الشيطان لهم، لأنه يريد أن يصدهم عن طريق الحق والهدىٰ فيضلهم عنه ضلالًا بعيدًا. ولهذا فمن أدعىٰ أنه مؤمن ثم اختار حكم الطاغوت علىٰ حكم الله فإنه كاذب في دعوىٰ الإيمان.

[٦١] وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: تعالوا إلىٰ حكم الله وإلىٰ حكم رسوله ﷺ، ففيهما كل الخير والسعادة؛ رأيت المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وبما أنزل علىٰ الرسل من قبلك، يمتنعون من التحاكم إلىٰ القرآن وإلىٰ النبي ﷺ، ويعرضون عنك إعراضًا شديدًا؛ بسبب نفاقهم وضلالهم وحقدهم وكرههم لدين الله؛ لكن إذا كان الحكم في صالحهم، فإنهم يقبلونه، ليس حبًّا في الدين وفي رسول الله ﷺ، ولكن لأنه جاء وفقًا لهواهم.

[٦٢] ثم أخبر جل وعلا عن حال هؤلاء المنافقين إذا جاءتهم عقوبة أو أصابتهم مصيبة بسبب ما اقترفوه من الكفر والمعاصي، ثم يأتونك معتذرين يحلفون لك الأيمان الكاذبة أننا ما أردنا بالتحاكم إلىٰ غيرك إلا الصلح والتأليف بين المتخاصمين، وليس القصد أن نرفض حكمك؛ فنعتذر لك طالبين منك أن لا تؤاخذنا بما حصل منا، ولا شك أنهم كاذبون في اعتذارهم.

[٦٣] ثم بيَّن جل وعلا أنه يعلم ما في قلوب هؤلاء المنافقين من النفاق والنية السيئة؛ فلا تبالِ يانبي الله بهم، ولا تهتم، وبيِّن لهم خطورة ما هم عليه من النفاق بأسلوب لين فيه موعظة وترقيق لقلوبهم، وانصحهم سرًّا بينك وبينهم، وبالغ في زجرهم؛ لعلهم يتأثرون فيرتدعون عما هم فيه من النفاق والضلال.

[٦٤] ثم بين جل وعلا أنه ما أرسل رسولًا من الرسل إلا من أجل أن يطيعه قومه فيما يأمرهم وينهاهم، وعليهم أن يعلموا أن طاعة الرسول فرض، وأن من أعرض عن طاعة رسول الله ﷺ فقد كفر بالله، ولو أن هؤلاء المنافقين الذين أعرضوا عن التحاكم إليك جآءوك يامحمد تائبين مستغفرين الله، صادقين في توبتهم، ثم استغفرتَ لهم وشفعتَ لهم، لوجدوا الله قابلًا لتوبتهم واستغفارهم، رحيمًا بهم.

[٦٥] ثم أقسم جلّ وعلا بنفسه الكريمة أن هؤلاء المنافقين وغيرهم لا يكونون مؤمنين بالله إيمانًا حقيقيًا؛ حتىٰ يجعلوك حكمًا فيما يكون بينهم من نزاع، ثم لا يجدوا في صدورهم أدنىٰ شك في صحة حكمك وعدالته، ولا تضيق صدورهم بما حكمت به، ويذعنوا لحكمك إذعان المؤمنين المصدِّقين.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

[٦٦] يخبر جل وعلا أنه لو فرض علىٰ الناس الأوامر الشاقة كأن يقتلوا أنفسهم كما فرض ذلك علىٰ بني إسرائيل حينما أرادوا التوبة من عبادة العجل، أو يخرجوا من ديارهم كما فرض ذلك علىٰ المهاجرين من بني إسرائيل؛ لما استجاب لك يانبي الله إلا عدد قليل من المؤمنين المخلصين، وهذا من فضل الله ورحمته بالأمة أن جعل إعلان التوبة كاف لقبولها لأن قتل النفس من الآصار التي خففت عن هذه الأمة، ثم أخبر سبحانه أنهم لو فعلوا ما أمروا به من طاعة الله ورسوله والوقوف عند حكمهما؛ لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة، وأشدَّ ثباتًا لهم في الدين.

[٦٧] ثم بيَّن جل وعلا أنهم لو آمنوا بالله ورسوله إيمانًا حقيقيًا وأطاعوا أمر الله ورسوله؛ لأعطاهم سبحانه من عنده ثوابًا كبيرًا، وهو الجنة.

[٦٨] ثم بين سبحانه أيضًا أنهم لو آمنوا بالله ورسوله إيمانًا حقيقيًّا لهداهم إلىٰ الطريق الحق المستقيم الموصل إلىٰ جنات رب العالمين، وهو الإسلام.

[٦٩] ثم أخبر جل وعلا أن من يطع أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ فسوف يدخله الله الجنة مع الذين أنعم الله عليهم وهم: الأنبياء الأبرار، والصدِّيقين الذين صدّقوا الرسل، والشهداء في سبيل الله، والصالحون المؤمنون من عباد الله، وحسن أولئك رفقاء في الجنة بالاجتماع بهم والأنس بقربهم.

[٧٠] ثم بين جل وعلا أن هذا الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي نالوه من الله هو الذي وفقهم لذلك، وكفىٰ به سبحانه عليمًا بمن يستحقَّ هذا الثواب الحسن، وهذا الفضل العظيم.

[٧١] يأمر جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يكونوا حذرين دائمًا من أعدائهم، وأن يكونوا مستعدين لردهم، وأن يخرجوا لقتالهم جماعات متفرقة، جماعة بعد جماعة، أو يخرجوا لهم مجتمعين.

[٧٢] واحذروا أيها المؤمنون هؤلاء المنافقين الذين يتأخرون في الخروج للقتال معكم؛ بل يثبطون غيرهم عمدًا وإصرارًا؛ فإن أصابتكم هزيمة في الجهاد قال ذلك الفريق المتخلف شامتًا: قد أنعم الله علينا حيث لم نكن معهم في هذا القتال.

[٧٣] ثم أخبر جل وعلا أنه إذا أصابكم أيها المؤمنون فضل من الله؛ من نصر أو غنيمة؛ فإن هذا الفريق المتخلف يقول متندمًا علىٰ ما فاته من نصر وكسب: يا ليتنا كنَّا معهم فنفوز بما فازوا به من الغنائم.

[٧٤] ثم أمر جل وعلا أن يجاهد في سبيل الله المؤمنون الصادقون الذين يبيعون الحياة الدنيا بكل ما فيها من متع ولذات بالجنة الباقية التي اختاروها علىٰ البقاء في الدنيا، واعلموا أن من يجاهد في سبيل الله فيستشهد، أو يَغلِبَ العدو ويظفر به؛ فسوف يؤتيه الله ثوابًا كبيرًا.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

[٧٥] ثـم حـث جـل وعـلا المؤمنيـن علـىٰ الجهـاد في سـبيل الله، لتحرير المستضعفين من الرجال الذين منعهم الكفار من الهجرة، وتحرير النساء والأطفال الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ثـم بيَّـن سـبحانه أن هـؤلاء المستضعفين يدعـون ربهـم قائليـن: ياربنا أخرجنا من هـذه القرية وهي مكة؛ التي ظلم أهلها بالكفر والضلال، وإيذاء المؤمنين بأنواع الأذىٰ والتعذيب، وياربنا اجعل لنا من عندك وليًّا يتولىٰ أمرنا، ونصيرًا ينصرنا علىٰ أعدائنا.

[٧٦] ثم أخبر جل وعلا أن الذين آمنوا بالله ورسوله يجاهدون في سبيل الله نصرة للحق وأهله وإعلاءً لكلمة الله، وأما الذين كفروا فإنهم يقاتلون في سبيل الكفر والظلم والطغيان؛ ثم أمر سـبحانه المؤمنيـن أن يجاهـدوا أوليـاء الشـيطان وهـم الكفـار، وأن لا يخافوهـم، ثـم بيـن سـبحانه أن كيـد الشـيطان كان ومـا يـزال ضعيفًـا، فـلا يضركـم، ولا يثبـت أمـام جيـش المؤمنيـن.

[٧٧] يخبـر جـل وعـلا عمَّـا حصـل للمؤمنيـن في مكـة في أول الدعوة من أذىٰ الكفار؛ حيث آذَوْا المسلمين أذًىٰ بالغًا؛ بل وآذوا النبـي ﷺ؛ فتحمـس بعضهـم وطلـب مـن الرسـول ﷺ الإذن بأخـذ الثـأر منهـم، وكان المسـلمون قليليـن وَضِعَافًـا؛ فلـو أذن لهـم ﷺ لبطش بهـم الكفار وقضوا عليهـم؛ لـذا فإن الله لـم يـأذن لرسـوله ﷺ بالمقاومـة؛ وأمـر ﷺ الصحابـة بالمسـالمة وأداء مـا فرضـه الله عليهـم مـن الصلاة التي تربي نفوسـهم وتخلصهـا مـن أدران المآثـم، وأداء الـزكاة التي تطهـر النفوس من الشح والبخل، وتقـوِّي رابطـة الأخـوة والمحبـة بيـن النـاس، وأمرهـم أن يسـتمروا علـىٰ ذلـك حتـىٰ يـأتي أمـر الله ويكون للمسـلمين قوة وشـوكة، فلما تمت الهجرة، واسـتعد المسـلمون للجهـاد وأخـذ الثـأر، وأُذِنَ لهـم بالقتـال استثقل ذلـك بعـض المسـلمين، وأصبحـوا يخافـون مـن النـاس كمـا يخافـون مـن الله؛ بـل خوفهـم مـن النـاس كان أشـد، وقالـوا: يـا ربنـا لـم أوجبت علينـا القتـال؟، وتمنـوا لـو تأخـر الإذن بالقتـال إلـىٰ وقـت آخـر، وذلك رغبـة منهـم في الاسـتمتاع في الحيـاة الدنيـا، فقـل لهـم يـا محمـد: إن متـاع الدنيـا قليـل مهمـا طـال، وإن الآخـرة ومـا فيهـا مـن النعيـم المقيـم خيـر وأبقـىٰ لمـن اتقـىٰ الله، ثم بيـن سـبحانه أنـه لا يبخـس مـن ثـواب أحـد شـيئًا مهمـا كان، ولـو كان بمقـدار الخيـط الـذي يكـون في شـق نـواة التمـرة.

[٧٨] يخبـر جـل وعـلا أن المـوت سـوف يلحقكـم أيهـا النـاس في أي زمـان ومـكان؛ حتـىٰ لـو كنتـم في حصـون وقصـور منيعـة، واعلمـوا أن هـؤلاء المنافقيـن إذا أصابتهم حسـنة من خير أو مال وغيـر ذلـك مـن النعـم فإنهـم يقولـون: هـذه مـن عنـد الله إكرامًا لنـا، أمـا إذا أصابهـم مكـروه مـن جـوع أو هزيمـة نسـبوه إلـىٰ الرسـول ﷺ، فقـل لهـم يانبـي الله: اعلمـوا أن ذلـك كلـه مـن عنـد الله وحـده، بقضائـه وقـدره، وإذا كان الأمـر كذلـك فمـا لهـؤلاء المنافقيـن لا يفهمـون مـا يقـال لهـم مـن النصائـح والمواعـظ.

وهـذه الآيـة قيـل: نزلـت في قـوم مـن الصحابـة لمـا أمـروا بالقتـال كرهـوه خوفًـا مـن المـوت، فعاتبهـم جـل وعـلا وأخبرهـم أن أيـام الحيـاة قليلـة وأن الآجـال محـددة.

وقيل: نزلت في المنافقين وهذا هو الأظهر والأنسب من سياق الآية.

قـال الشـيخ محمـد الشـعراوي في تفسـير قولـه: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: إن كل مـا يحصـل في الكـون هـو مـن عنـد الله تقنينًـا كونيًّـا ينتظـم الحركـة والسـكون؛ فـالله هـو الـذي جعـل المـرء قـادرًا علـىٰ العمـل حَسَـنِهِ وسـيئِه، والثـواب والعقـاب يرتـب بتوجيـه الطاقـة، فـإذا هـو اختـار عمـل الخيـر وأقـدم عليـه فإنـه يثـاب علـىٰ اختيـاره ونيتـه وإقدامـه، وإذا اختـار عمـل الشّـر وأقـدم عليـه فإنـه يعاقـب علـىٰ اختيـاره وعملـه، ويسـمىٰ: كسـبًا.

فـإذا قيـل: إن الله أراد ذلـك منـه. **قيـل**: نعـم هـو أراده كونًـا ولـم يـرده شـرعًا؛ فـالله خلـق الإنسـان وجعلـه مختـارًا لهـذا أو لهـذا، ومـن أجـل ذلـك فهـو مريـد كونًـا مـا يكـون منـه، فـإن فعـل الخيـر فهـو مـراد شـرعًا وكونًـا؛ وإنْ فَعَـلَ الشـر فهـو لـم يخـرج عـن مـراد الله؛ فـالله قـد هـداه النجديـن وأقـدره علـىٰ فعـل كل مـا يريـد، لكنـه جـل وعـلا لا يريـد شـرعًا الشـر، ولا يأمـر بالفحشـاء.

[٧٩] واعلـم أيهـا الإنسـان أن مـا أصابـك مـن نعمـة وعافيـة وسـلامة فمـن فضـل الله عليـك، وأن مـا أصابـك مـن شـدة وأذىٰ ومكـروه فمـن نفسـك بسـبب تقصيـر أو ذنـب ارتكبتـه، ثـم أخبـر سـبحانه أنـه أرسـل محمـدًا ﷺ للنـاس كافـة ليبلغهـم ديـن الله، وليخرجهـم مـن ظلمـات الكفـر والضـلال إلـىٰ نـور الإيمـان والتوحيـد، وكفـىٰ بـالله شـهيدًا علـىٰ تبليغـك وعلـىٰ إجابتهـم.

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

[٨٠] واعلموا أن الاستجابة لمحمد ﷺ هي استجابة لله، وأن من أعرض منهم وعصاك يارسول الله؛ فدعه ولا تلتفت إليه؛ فما أرسلناك حافظًا لهم ورقيبًا علىٰ أعمالهم، وليس لك أن تحاسبهم؛ بل حسابهم علينا؛ فإذا بلَّغتَ فقد أعذرتَ وأنذرتَ.

[٨١] ثم يخبر جل وعلا أن المنافقين إذا جاءوا عند الرسول ﷺ يقولون: نحن نطيعك فيما أمرت؛ فإذا خرجوا من عنده أظهر جماعة منهم وهم رؤساؤهم خلاف ما قاله ﷺ، وما علموا أن الله يعلم ما يضمرون، وأنه قد كتبه في صحائف أعمالهم ليعاقبهم عليها؛ وما دام أن هذا هو شأن هؤلاء المنافقين فأعرض يانبي الله عنهم، ولا تعاتبهم علىٰ فعلهم، وتوكل علىٰ الله واعتمد عليه، وكفىٰ به وكيلًا وكفيلًا.

[٨٢] وبعد أن كشف الله ما في قلوب هؤلاء المنافقين من النفاق، وسوء النوايا والخبايا، وظهر لهم سوء عاقبة الكافرين وحسن عاقبة المؤمنين، ألا يدفعهم ذلك إلىٰ الإيمان وإلىٰ تدبر القرآن، ليروا ما فيه من تشريع حكيم، ونور مبين، وآيات ودلالات تشهد أن هذا القرآن من عند الله، وأنه لو كان من غير الله لوجدوا فيه كثيرًا من الاختلافات والتناقضات في أحكامه وألفاظه.

[٨٣] واعلموا أن هؤلاء المنافقين وبعض ضعاف الإيمان إذا جاءهم خبر مهم يتعلق بأمن المسلمين أو خوفهم، أذاعوه ونشروه قبل أن يتثبتوا من صحته للتشويش علىٰ المسلمين وإرباكهم، وبلبلة الأفكار بين صفوفهم، ولو أنهم هم ومن يستمع إليهم ردوا ذلك الخبر إلىٰ الرسول ﷺ وإلىٰ أولي الأمر من كبار الصحابة وأمراء السرايا والعلماء؛ لعلم هؤلاء حقيقة الخبر ومصدره ومعناه وما يترتب عليه من منافع أو أضرار، ثم يترك الأمر لهم فينظروا هل من المصلحة إفشاؤه أو عدم إفشائه، ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بإرسال هذا النبي إليكم، ورحمته بكم بإنزال القرآن عليكم، وتثبيت قلوبكم علىٰ الإيمان، وتوفيقكم إلىٰ الطاعة والأعمال الصالحة؛ لاتبع أكثركم الشيطان، ووقعتم في وساوسه وضلالاته، إلا نفرًا قليلًا من الذين أخلصوا دينهم لله، واعتصموا به فليس للشيطان عليهم سبيل.

[٨٤] ثم أمر جلّ وعلا رسوله محمدًا ﷺ أن يجاهد في سبيل الله لأجل إعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه؛ حتىٰ ولو لم يخرج إلا وحده فهو مأمور بتبليغ الرسالة، ثم أمره سبحانه أن يحث المؤمنين علىٰ القتال معه من أجل نصرة دين الله؛ عسىٰ الله أن يكف بأس الذين كفروا فيسلط عليهم رسوله والمؤمنين فيهزموهم، فلا يبقىٰ لهم بأس ولا قوة، واعلموا أن الله تعالىٰ أشد بأسًا من كل ذي بأس، وأشد عقوبة وتعذيبًا لأعداء الدين.

[٨٥] يخبر جلّ وعلا أن من يَسْعىٰ لمساعدة من يستحق المساعدة في أمر من أمور الخير كان له نصيب من الأجر والثواب، وهذا النصيب يضاعفه الله له أضعافًا كثيرة، وهكذا من يسعىٰ لمساعدة إنسان علىٰ أمر من أمور الشرِّ كان عليه وزر، وهذا الوزر يكتبه الله كما هو لا يزيد ولا ينقص، وهذا من رحمة الله بعباده، أن الحسنة تضاعف، وأما السيئة فتكتب كما هي ولا تضاعف، واعلموا أن الله كان ولم يزل علىٰ كل شيء شاهدًا وحفيظًا وحسيبًا.

[٨٦] ثم أمر جلّ وعلا المسلم إذا سلَّم عليه أخوه أن يجيبه بأفضل مما سلم، أو يردَّ عليه السلام بمثل ما سلم، فإذا قال لك أخوك: (السلام عليكم ورحمة الله)؛ فرد عليه قائلًا: (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته)، وهذا هو الأفضل، أو ترد عليه بمثل ما قال فتقول: (وعليكم السلام ورحمه الله)، واعلموا أن الله كان وما يزال بصيرًا بكل أقوالكم وأعمالكم، وسيحاسبكم عليها يوم القيامة، وسيجازيكم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾ ۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾

[٨٧] يقسم الله جل في علاه الذي لا معبود بحق سواه أنه سيبعثكم أيها الناس من قبوركم بعد مماتكم، وسيحشركم إلىٰ موقف الحشر والحساب يوم القيامة الذي لا شك ولا ريب فيه، واعلموا أن هذا قول الله جل شأنه، وأي قول أصدق من قول الله؟.

[٨٨] وبعد أن عرفتم أيها المؤمنون حال المنافقين، وانكشف لكم خبثهم وكيدهم للإسلام والمسلمين؛ فلماذا أنتم مختلفون في أمرهم إلىٰ فريقين؟، فريق يرىٰ أن يقتلوا، وفريق يرىٰ أن لا يقتلوا لأن ظاهرهم الإسلام؛ فالواجب عليكم أن لا تختلفوا في أن المنافقين مارقون خارجون من الإسلام لأنهم يظهرون الكفر الصريح، وقد أوقعهم الله في الكفر والضلال بسبب نفاقهم وأعمالهم السيئة، وعليكم الجهر والتصريح بذلك، لأن بعض المسلمين يرتاحون لهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٧]، ثم إن فريقًا من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلىٰ البادية فالتحقوا بالمشركين؛ فالله جل وعلا أراد من عباده أن يعلموا أنهم أشد عداوةً من الكفار؛ لأن الكفار عداوتهم وحربهم مكشوفة، وهؤلاء مخذِّلون مثبطون من الداخل كالسوس؛ فهل تريدون بعد ذلك هداية من أضله الله؟، واعلموا أن من أضله الله عن دينه الحق واتباع أوامره فلن تجد طريقًا إلىٰ إصلاحه.

وهذا الإضلال هو إضلال جزائي وليس إضلالًا ابتدائيًّا، وهو مبني علىٰ ضلالهم الاختياري؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف:٥]، أي: أنهم لما ضلوا بعد أن عرفوا الحق وأصروا علىٰ الضلال، طبع الله علىٰ قلوبهم جزاءً لهم؛ فمن يهديهم إذًا؟!

[٨٩] ثم بيَّن جل وعلا أن هؤلاء المنافقين يتمنون أن تكفروا كما كفروا؛ فتكونون أنتم وهم في الكفر سواء؛ فإياكم أن توالوهم وإن أظهروا الإيمان حتىٰ يهاجروا في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دين الله؛ حتىٰ يكون ذلك دليلًا علىٰ صدق إيمانهم؛ فإن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله، وبقوا علىٰ ما هم عليه من الكفر والضلال؛ فاقتلوهم حيث وجدتموهم، واحذروا أن تتخذوا منهم وليًّا توالونه، أو ناصرًا تنتصرون به علىٰ عدوكم.

[٩٠] ثم استثنىٰ جلّ وعلا من قتال المنافقين ثلاث فئات؛ فالفئة الأولىٰ: الذين لجأوا إلىٰ قوم بينكم وبينهم عهد؛ فهؤلاء يدخلون فيهم بالحلف والجوار، فلا يجوز قتالهم، والفئة الثانية: الذين جاءوا إليكم وقد ضاقت صدورهم ولم تسمح نفوسهم لا بقتالكم ولا بقتال قومهم، ولو أراد الله لسلط هؤلاء الكفار عليكم لقتالكم، ولكن من لطف الله ورحمته بكم أن كف شرهم عنكم؛ فإذا تركوكم ولم يقاتلوكم؛ بل سالموكم، وانقادوا للصلح والأمان ورضوا به؛ فلم يجعل الله لكم طريقًا لقتالهم أو أسرهم.

[٩١] ثم أخبر جل وعلا عن الفئة الثالثة: وهم الذين يريدون مصلحة أنفسهم؛ فإن انتصرتم علىٰ المشركين كانوا معكم، وإن ظهر المشركون عليكم كانوا مع المشركين، فهم يريدون أن يأمنوا المسلمين ويأمنوا قومهم من المشركين، وهؤلاء كلما دعوا إلىٰ الكفر وقتال المسلمين انتكسوا عن عهدهم وانهمكوا في الفتنةِ وعادوا لذلك؛ فإذا لم يتركوا قتالكم ويستسلموا لكم ويمتنعوا عن العدوان عليكم؛ فهؤلاء خذوهم أسرىٰ، واقتلوهم حيث وجدتموهم، واعلموا أن هؤلاء المنافقين الذين وصفهم الله لكم أيها المؤمنون قد جعل الله لكم حجة واضحة في أخذهم وقتلهم بسبب خيانتهم وغدرهم بكم.

الجُزْءُ الخَامِسُ — سُورَةُ النِّسَاءِ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

٩٣

[٩٢] يخبر جلّ وعلا أنه لا يجوز للمؤمن الاعتداء علىٰ أخيه المؤمن وقتله بغير وجه حق، إلا إذا وقع القتل عن طريق الخطأ، وليس عمدًا، واعلموا أن من يقتل أخاه المؤمن خطأ، فعليه كفارة وهي تحرير رقبة مؤمنة، وتسليم دية إلىٰ ورثته، إلا إذا تصدق الورثة بالعفو عن الدية، فهذا وشأنهم، أما إذا كان المقتول من قوم كفار محاربين لكم أيها المؤمنون، وكان القاتل مؤمنًا بالله ورسوله؛ فعلىٰ القاتل كفارة وهي عتق رقبة مؤمنة، وليس عليه دفع الدية، وأما إذا كان المقتول من قوم كفار، ولكن بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق؛ فعلىٰ القاتل في هذه الحال تسليم دية إلىٰ ورثته وتحرير رقبة مؤمنة، ثم بين سبحانه أن من لم يقدر علىٰ عتق رقبة مؤمنة فعليه أن يصوم شهرين متتابعين لا يفطر فيهما من غير عذر. وقد ذكر الشيخ عبدالله المطلق أن بعض العلماء يقولون: إنْ لم يستطع الصيام فعليه أن يطعم ستين مسكينًا، قياسًا علىٰ الظهار.

واعلموا أن هذه الكفارة المغلظة التي أوجبها الله علىٰ القاتل ليتوب الله عليه، وكان الله ولم يزل عليمًا بعباده، مطلعًا علىٰ أعمالهم، حكيمًا فيما شرعه لهم.

[٩٣] ثم أخبر جلّ وعلا بالوعيد الشديد لمن أقدم علىٰ قتل مؤمنٍ متعمدًا؛ فبين سبحانه أن عقاب من ارتكب هذه الجناية العظيمة هو دخول جهنم يتعذب فيها مدة الله أعلم بمقدارها، مع سخط الله عليه بسبب هذا الجرم الذي وقع فيه، وطرده من رحمته، وبعد هذا كله فقد أعد الله له عذابًا عظيمًا يوم القيامة بسبب هذه الجريمة العظيمة التي ارتكبها.

قال الشيخ صالح بن حميد: فسر العلماء الخلود في هذه الآية: بالمكث الطويل، وليس الخلود الأبدي الذي يختص به المشركون والكفار والمنافقون؛ لأن صاحب الكبيرة الذي لم يُغْفَرُ له يمكث في النار زمنًا حتىٰ يتطهر، ثم يخرج من النار ويدخل الجنة، وهذا هو تفسير أهل السنة والجماعة.

[٩٤] يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه إذا خرجتم مسافرين للغزو والجهاد في سبيل الله فتأكدوا ممن تلقونهم في طريقكم، هل هم مسلمون فتكفوا عنهم؟، أو كافرون فتقاتلوهم؟، ولا تقولوا لمن ألقىٰ عليكم تحية الإسلام أو نطق بالشهادتين: لستَ مسلمًا لتنالوا منه سَلَبَهُ، ومن أراد الغنيمة فعند الله لكم مغانم كثيرة، كذلك كنتم من قبل تخفون إيمانكم خوفًا من قومكم فمنَّ الله عليكم وأظهر دينه ونصركم؛ لذا يجب عليكم أن تتبينوا قبل الإقدام علىٰ قتل أي أحد حتىٰ تتأكدوا من كفرِهِ، واعلموا أنَّ الله كان ولم يزل عليمًا بأعمالكم، وسوف يحاسبكم عليها، وهو علىٰ كل شيء قدير.

لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

[٩٥] يخبر جل وعلا أن أولئك القاعدين الذين لم يخرجوا للجهاد في سبيل الله من غير مانع شرعي؛ لا يتساوون مع أولئك الذين خرجوا يقاتلون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله لرفع راية الإسلام، وإعزاز دين الله، ثم بيَّن سبحانه أنه فضَّل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيله علىٰ القاعدين بسبب مانع شرعي كالأعمىٰ والأعرج وغيرهم درجة عالية في الجنة، لأن أولئك الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم بذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، ثم وعد الله كلًّا من المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين بسبب العذر الشرعي الجنة، ثم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم علىٰ القاعدين بغير مانع شرعي بأجور عظيمة.

[٩٦] ثم بيَّن جل وعلا أن هذه الأجور العظيمة التي أعطاها سبحانه للمجاهدين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ترفعهم درجات ومنازل عالية في الجنة بعضها أعلىٰ من بعض، مع المغفرة لذنوبهم والرحمة بهم، وكان الله ولم يزل غفورًا لمن تاب وأناب، رحيمًا بعباده الطائعين والمجاهدين في سبيله. والمقصود من هذه الآية والتي قبلها هو لوم القاعد عن الجهاد في سبيل الله لرفع راية الإسلام وإعزاز دين الله، مع قدرته علىٰ الجهاد مع إخوانه.

[٩٧] ثم وبخ جل وعلا أولئك الذين تركوا الهجرة مع قدرتهم عليها، فأخبر سبحانه أنهم ظلموا أنفسهم بالمقام في دار الشرك والخروج مع المشركين لقتال المسلمين يوم معركة بدر، فتسألهم الملائكة توبيخًا وتبكيتًا لهم: أين كنتم عندما هاجر إخوانكم، ولم تهاجروا معهم؟ فردوا قائلين: لقد كنا مستضعفين في مكة؛ فتقول لهم الملائكة: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا من أرضكم إلىٰ أي أرض أخرىٰ كما هاجر إخوانكم؛ وتركوا أهليهم وأموالهم، ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين تقاعسوا عن الهجرة مأواهم جهنم وبئس المصير؛ بسبب قدرتهم علىٰ الهجرة ولم يهاجروا، وهذا العقاب الشديد لا يشمل العجزة والمرضىٰ ونحوهم.

[٩٨] ثم استثنىٰ جلّ وعلا من هؤلاء المتقاعسين عن الهجرة: المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا قوة لهم علىٰ الهجرة، ولا نفقة معهم، ولا يهتدون طريقًا إلىٰ أرض الهجرة.

[٩٩] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك المستضعفين من الرجال والنساء والولدان يُرجىٰ عفو الله عنهم، لأن من شأنه سبحانه العفو والغفران.

[١٠٠] ثم أخبر جلّ وعلا أن من خرج مهاجرًا لنصرة دين الله وإقامة شرعه سيجد سعة في الرزق والعيش وراحة البال، ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلىٰ الله ورسوله، ثم يموت في طريق هجرته، وإن لم يصل إلىٰ دار الهجرة؛ فقد وجب أجره علىٰ الله وافيًا، ويغفر الله تعالىٰ له ما كان من تقصير سابق، ويرحمه برحمته.

[١٠١] واعلموا أيها المؤمنون أنكم سافرتم للجهاد في سبيل الله أو للتجارة؛ فلا إثم عليكم أن تقصُروا الصلاة؛ فتجعلوا الصلاة الرباعية ركعتين، وذلك إن خفتم من عدوان الكفار عليكم، واعلموا أن الكفار أعداء ألدَّاء لكم فاحذروهم. وهذه الآية نزلت في إباحة قصر الصلاة في السفر، وقوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾: ليست للشرط، وإنما هي لبيان الواقع، لأن غالب أسفار الرسول ﷺ كانت من أجل الحرب، ومعلوم أن الحروب يكون فيها الخوف والفزع دائمًا.

....

....

....

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ
مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟
مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟
مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ
أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ
وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ
كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى
ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ
بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

[١٠٢] وإذا كنت يانبي الله مع المجاهدين وقت القتال، وحان وقت الصلاة وأردت أن تصلي بهم، فاجعلهم طائفتين، طائفة تصلي معك وتحمل معها أسلحتها، والطائفة الثانية تقف في مواجه العدو، فإذا انتهت الطائفة الأولىٰ من الصلاة فلتأت الطائفة الثانية لكي تصلي معك، والطائفة الأولىٰ تعود لتقف في مواجهة العدو، وليأخذ الجميع سلاحه ويكونوا حذرين من العدو؛ لأن العدو يتمنىٰ لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيأخذكم علىٰ حين غرة فيحمل عليكم حملة واحدة للقضاء عليكم، واعلموا أنه لا إثم عليكم أيها المؤمنون إن كان بكم أذىٰ من مطر، أو كنتم مرضىٰ لا تستطيعون الاستمرار في حمل السلاح؛ أن تضعوا أسلحتكم أمامكم ولا تحملوها، ولكن مع أخذ الحذر والحيطة، واجعلوا أسلحتكم قريبة منكم وفي متناول أيديكم، إن الله أعد للكافرين في الدنيا والآخرة عذابًا عظيمًا مؤلمًا مخزيًا.

[١٠٣] فإذا انتهيتم أيها المؤمنون من أداء الصلاة كما أمر الله؛ فأكثروا من ذكر الله بالتسبيح والتهليل والتحميد في حال قيامكم وقعودكم واضطجاعكم، أي: اذكروه سبحانه علىٰ كل أحوالكم، فإذا أمنتم وذهب الخوف فالواجب عليكم أداء الصلاة في أوقاتها بكامل أركانها وواجباتها، واعلموا أن الصلاة كانت علىٰ المؤمنين فريضة مقدرة بأوقات محددة؛ فلا يجوز تأخيرها عن وقتها، إلا لمن نسيها أو نام عنها فليصلها حال ذكرها أو القيام من النوم كما في الحديث، وكذلك لا يجوز أداؤها قبل وقتها، ولا يجوز ترك شيء من أركانها وواجباتها إلا في حال السفر والحرب.

[١٠٤] ثم حث جل وعلا المؤمنين علىٰ مواصلة الجهاد في سبيله، فقال سبحانه: ولا تضعفوا أيها المؤمنون في طلب أعدائكم من الكافرين لتقاتلوهم؛ واعلموا أنكم إذا كنتم تتألمون من جراح الحرب ومن القتل؛ فإنهم يتألمون أيضًا مثلكم، ولكنكم ترجون بهذه الآلام رضوان الله والنصر أو الشهادة، أما هم فلا يرجون شيئًا من ذلك، والله عليم بأعمالكم وأعمالهم، حكيم في تشريعه وأحكامه، يجازي كلًّا بعمله.

[١٠٥] واعلم يانبي الله أن الله أنزل إليك هذا القرآن مشتملًا علىٰ الحق في أخباره وأحكامه وتشريعاته؛ لكي تحكم بين الناس بما أعلمك الله وأوحىٰ إليك؛ ولا تكن مدافعًا عن الخائنين، وتنحاز لطرفهم، وابذل جهدك في تحري الحق واتباعه.

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

[١٠٦] يأمر جل وعلا رسوله ﷺ أن يستغفر الله مما صدر منه، وأن يرشد قومه للإكثار من استغفار الله في جميع الأحوال، واعلموا أن الله كان ولم يزل غفورًا يغفر الذنوب جميعًا، رحيمًا بعباده.

[١٠٧] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يخاصم ولا يدافع عن هؤلاء المنافقين الذين يخونون أنفسهم بارتكاب الذنوب والمعاصي؛ فإن الله لا يحب من كان من شأنه الخيانة، وكانت وصفًا من أوصافه، وأيضًا لا يحب من يرتكب الذنوب، وكانت عادة من عاداته السيئة.

[١٠٨] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المنافقين الخونة يستترون بخيانتهم من الناس، حياءً وخوفًا منهم، ولا يستترون من الله، وكان الواجب عليهم أن يستحوا من الله، فهو أحق أن يستحيىٰ منه، وأن يخاف من عقابه، ونسوا أن الله معهم بعلمه، مطلع علىٰ أقوالهم وأعمالهم، يعلم بما كانوا يدبرون ويخططون ليلًا مما لا يرضاه سبحانه من القول، وكان الله ولم يزل محيطًا إحاطة كاملة بأعمالهم وأقوالهم لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وسيحاسبهم عليها يوم القيامة.

[١٠٩] ثم وبخ جل وعلا هؤلاء المدافعين عن الخائنين، فقال سبحانه: ها أنتم حاججتم ودافعتم عنهم اليوم في هذه الحياة الدنيا، فمن يتولىٰ الدفاع عنهم أمام الله يوم القيامة في يوم لا تملك فيه نفس لنفس شيئًا، والأمر كله لله؟ بل من الذي يستطيع أن يكون وكيلًا عن هؤلاء الخائنين يوم القيامة؟!.

[١١٠] ثم فتح جل وعلا باب التوبة لهؤلاء الخائنين وغيرهم، فأخبر سبحانه أن من يعمل ذنبًا يؤذي به غيره، أو يظلم نفسه بارتكاب الذنوب والمعاصي، ثم يندم علىٰ ما عمل، ويستغفر الله، فإنه يجد الله بفضله وكرمه غفورًا لذنبه، وواسع الرحمة به، إلا إذا ترتب علىٰ إساءته إضاعة حق، فالواجب عليه أن يرد ذلك الحق لصاحبه مع التوبة والندم.

[١١١] ثم أخبر جل وعلا أن من يكسب ذنبًا من الذنوب، أو معصية من المعاصي، أو جريمة من الجرائم، فإنما يعود ضرر ذلك الذنب علىٰ نفسه، ثم بين سبحانه أنه عليم بكل ما يقع من عباده من أعمال صالحة أو سيئة، حكيم في تشريعه وتدبيره، وسوف يعامل عباده بمقتضىٰ حكمته من العذاب أو العفو.

[١١٢] ثم بين جل وعلا أن من يرتكب ذنبًا صغيرًا كان أو كبيرًا، ثم يتهم بذلك الذنب شخصًا بريئًا لم يرتكبه، فقد تحمل بسبب فعله هذا جريمة الكذب والافتراء علىٰ الأبرياء، وتحمل ذنبًا كبيرًا واضحًا بيِّنًا لا شك فيه.

[١١٣] ثم بين جل وعلا أنه لولا فضل الله عليك يانبي الله بالنبوة وإنزال القرآن عليك، ورحمته لك بأن عصمك من الوقوع في الأخطاء؛ لهمت جماعة منهم أن يضلوك عن القضاء بالحق بتلبيسهم عليك، وهم في الحقيقة ما يضلون إلا أنفسهم بتعاونهم علىٰ الإثم والعدوان، واعلم أنهم لا يستطيعون إيذاءك لأنك بنعمته معصوم، ثم أخبر سبحانه أنه أنزل عليك القرآن والحكمة وعلمك من الشرائع والأحكام ما لم تكن تعلمه إلا بوحي منه، وكان فضل الله عليك عظيمًا.

وهذه الآيات من آية رقم ١٠٥ إلىٰ آية رقم ١١٣ نزلت في رجل يقال له طعمة بن أبيرق من أهل المدينة، سرق درعًا، ثم لما شعر أنه سيعرف ويخاصم، رمىٰ بالدرع الذي سرقه في بيت يهودي، فتتبع أمره فعرف فلما خاصمه مالك الدرع ادعىٰ أنه بريء، وأن اليهودي هو السارق بقرينة أن الدرع وجد في بيته؛ ثم إن جماعة السارق فزعوا معه إلىٰ رسول الله ﷺ يدافعوا عنه خشية العار، فنزلت هذه الآيات فافتضحت أمره[١].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٣).

۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

[١١٤] يخبر جل وعلا أنه لا خير في كثير من الأحاديث التي يتحدث بها الناس في الخفاء؛ ومعلوم أن الشر لا ينمو إلا في الخفاء، لكن إذا كان الحديث في الخفاء من أجل التواصي ببذل الصدقات، وأعمال البر والخير، والإصلاح بين المتخاصمين، فإن ذلك من الخير، واعلموا أيها الناس أن من يفعل هذه الأعمال الصالحة طلبًا لمرضاة الله؛ فإن الله سوف يعطيه ثوابًا كبيرًا علىٰ أعماله الصالحة في الدنيا والآخرة.

[١١٥] واعلموا أيها الناس أن من يخالف أمر الرسول ﷺ من بعد ما ظهر له الحق، وسلك طريقًا غير طريق الموحدين، فإن الله سوف يتركه وما اختار لنفسه، ثم يدخله جهنم، وبئست مرجعًا ومصيرًا لهؤلاء المجرمين.

[١١٦] ثم أخبر جل وعلا أنه لن يغفر لأحد من الناس ذنب الشرك أبدًا، وأما سائر الكبائر والصغائر فإن الله إن شاء غفر للعبد، وإن شاء طهره بالنار ثم أدخله الجنة، واعلموا أن من يشرك بالله فقد ابتعد عن الحق بُعْدًا كبيرًا.

[١١٧] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين ما يعبدون من دون الله إلا أصنامًا سموها بأسماء الإناث؛ كاللات والعزىٰ ومناة وغيرها، وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، لأن النافع والضار هو الله وحده، ثم بين سبحانه أنهم في الحقيقة ما يعبدون إلا شيطانًا متمردًا خارجًا عن طاعة الله تعالىٰ؛ وهو إبليس اللعين المطرود من رحمة الله، الذي دعاهم لعبادة غير الله، ودعاهم لكل الشرور والمعاصي؛ لأنه يريد إهلاكهم.

[١١٨] ثم بعد ذلك لعن جل وعلا هذا الشيطان اللعين المتمرد، واللعن: هو الطرد من رحمة الله، وبعد أن طرد الله إبليس من رحمته، أقسم اللعين مهددًا فقال: وعزتك وجلالك يا رب لأغوين وأُضِلَّن من عبادك قسمًا كبيرًا معلومًا مقدرًا، وهذا النصيب هم من أتباع الشيطان الذين ورد ذكرهم في الحديث الصحيح.

[١١٩] ثم وَاصَلَ عدو الله إبليس تبجحه فأقسم أن يصرف قسمًا من الناس عن الحق، وعن عبادة الله وحده، وأن يعدهم بكثرة الأماني الكاذبة، وأن يأمرهم بتقطيع آذان الأنعام وتشقيقها، وهي دعوة لتغيير أحكام الله؛ فيحللون الحرام ويحرمون الحلال، وأن يغيروا خلق الله والفطرة التي فطر الناس عليها، ومن ذلك ما نشاهده من كثرة البدع والشرك والمعاصي المنتشرة اليوم؛ كالوشم والنمص والخصاء، وسعي الرجل إلىٰ تحويل نفسه إلىٰ أنثىٰ، والأنثىٰ تسعىٰ للتحويل إلىٰ رجل، وغير ذلك مما يطول، واعلموا أيها الناس أن من يستجيب لهذا الشيطان، ويجعله ناصرًا له من دون الله؛ فقد هلك هلاكًا كبيرًا واضحًا.

قال عالم الإعجاز القرآني الشيخ عبدالمجيد الزنداني معلقًا علىٰ هذه الآية: إذا نجح الباحثون في الغرب في الاستنساخ البشري؛ فإن هذه الآية تنطبق عليهم.

ولا شك أنها تنطبق عليهم؛ سواء نجحوا أم لم ينجحوا؛ لأنهم يسعون في تغيير خلق الله، وليس بعد الكفر ذنب.

[١٢٠] واعلموا أيها الناس أن هذا الشيطان اللعين يعد أولياءه وأتباعه بالوعود الكاذبة والأماني الباطلة، وما يعدهم هذا اللعين إلا تغريرًا ومخادعة لهم.

[١٢١] ثم بين جلّ وعلا أن أولئك الذين يتبعون الشيطان سوف يكون مصيرهم ومستقرهم نار جهنم، لا نجاة ولا مهرب لهم من عذابها.



وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ
وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن
يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ
أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ
مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ
فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ
وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾

[١٢٢] يخبر جل وعلا أنه وعد الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات أن يدخلهم حدائق وبساتين تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، يتمتعون فيها دائمًا وأبدًا، وهذا وعد من الله، ووعدُ الله لا يكون إلا حقًّا؛ لأنه لا أحد أصدقُ منه حديثًا أو قولًا.

[١٢٣] ثم بين جل وعلا أن الوصول لرضوان الله ودخول الجنة ليس كما يتمنىٰ هؤلاء المشركون الذين يعلقون أملهم في دخول الجنة علىٰ أوثانهم، ولا كما يتمنىٰ اليهود والنصارىٰ الذين يعلقون أملهم علىٰ أنبيائهم في الشفاعة لهم؛ وإنما الأمر أنَّ من يعمل سيئة يُجْزَ بها، وَيَنَلْ عقابه عليها، ولن يجد له أحدًا غير الله يتولىٰ أمره، ولا نصيرًا يمنعه من عذاب الله تعالىٰ.

[١٢٤] واعلموا أيها الناس أن من يعمل الأعمال الصالحة؛ سواء كان ذكرًا أو أنثىٰ، وهو مؤمن بالله مخلصًا له في العبادة؛ فهؤلاء سوف يدخلون يوم القيامة الجنة، ولا يظلمون شيئًا، ولو كان نقيرًا، أي: ولو كان شيئًا يسيرًا بحجم النقرة التي تكون في ظهر النواة.

[١٢٥] يخبر جل وعلا أنه لا أحد أفضل وأحسن دينًا ممن توجه بعبادته إلىٰ الله خاضعًا له، وهو مؤمن موحد لله سبحانه، ومتبع لدين إبراهيم عليه السلام، وهو دين النبي محمد ﷺ، وهو دين الحق والاستقامة، واعلموا أن الله اصطفىٰ إبراهيم عليه السلام بالرسالة والنبوة، واتخذه خليلًا. وفي هذه الآية إثبات صفة الخلة لله، وهي أعلىٰ درجات المحبة، منحها الله لإبراهيم عليه السلام، كما منحها أيضًا لنبينا محمد ﷺ.

[١٢٦] واعلموا أن لله وحده جميع ما في السماوات والأرض من جن وإنس وملائكة وغيرها من المخلوقات، وأنه محيط بكل ما يقع منهم، لا تخفىٰ عليه خافية من شئون عباده، وسوف يجازيهم علىٰ أعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[١٢٧] واعلم يانبي الله أن أصحابك يطلبون منك أن تبين لهم الأحكام التي تتعلق بالنساء، كالإرث والصداق ونحو ذلك، فقل لهم: أبشروا فإن الله سوف يبين لكم جميع الأحكام المتعلقة بهن، وقد بين لكم سبحانه في الكتاب ما يتلىٰ عليكم في شأن يتامىٰ النساء اللاتي تريدون نكاحهن، ولا تعطونهن ما فرض الله لهن من الصداق كما يجب؛ حيث بين الله لكم أن من كانت تحت ولايته يتيمة غير حسنة الخلقة لا يرغب في نكاحها، فليعطها مالها وليزوجها غيره، كما قيل:

لكل ساقطة في الحي لاقطة وكل كاسدة يومًا لها سوق

وله أن يتزوج هو من شاء من النساء، ولا يحل له أن يحبسها في بيته طمعًا في ميراثها، وإن كانت جميلة وأراد أن يتزوجها فليعطها مهر مثيلاتها من النساء ولا يبخس منه شيئًا، ويفتيكم سبحانه أيضًا: في الضعفاء من الأولاد الصغار؛ حيث يأمركم أن تعطوهم حقوقهم من الميراث كاملة إذا رشدوا، ويأمركم أن تعدلوا بين اليتامىٰ في الميراث والصداق؛ سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا، واليتامىٰ هم: الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ، واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما تفعلونه من الخير فإن الله كان به عليمًا، لا يخفىٰ عليه منه شيء، وسيجازيكم عليه سبحانه خير الجزاء.

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

[١٢٨] ثم ذكر جل في علاه بعض الأحكام المتعلقة بالنساء، فقال سبحانه: إذا رأت المرأة من زوجها جفاءً أو أذىٰ أو إعراضًا عنها، وعدم مجامعتها ومجالستها ومؤانستها؛ فلا إثم ولا حرج علىٰ الزوجين أن يصلحا بينهما صلحًا يتفقان فيه علىٰ إنهاء الخلافات الزوجية، واستمرار المحبة والمودة الزوجية؛ سواءً اصطلحا هما من غير وسيط أو اتخذا حَكَمًا من أسرتيهما، ولا شك أن الصلح خير وأفضل من الإعراض والتخاصم، واعلموا أن النفوس جبلت علىٰ الشح والبخل وهو الحرص علىٰ حظ النفس، فإن تحسنوا أيها الرجال العشرة والصحبة وتتقوا الله بالبعد عن الجور والميل؛ فإن الله عالم بما تعملون، وسيجازيكم علىٰ أعمالكم.

وفي هذه الآية حث للزوجينِ علىٰ أن يصبر كل واحد منهما علىٰ الآخر، ويتحمل ما يقع منه من أخطاء أو تقصير، وفي حالة حدوث مشكلة يجب عليهما حلها بهدوء، وأن يتنازل كل واحد منهما للآخر، وأن يتصالحا بينهما؛ فإن الصلح فيه خير كثير كما أخبر سبحانه بذلك.

[١٢٩] ثم أخبر جل وعلا أنكم لن تقدروا أيها الرجال علىٰ العدل بين النساء في المحبة القلبية؛ لأنكم لن تقدروا علىٰ كبح ميل القلب، ولو بذلتم الجهد في ذلك؛ لذا عليكم أن لا تبالغوا في الميل إلىٰ التي تحبون في النفقة والقسمة ميلًا كبيرًا، وتتركوا الأخرىٰ كأنها معلقة في النفقة والمبيت، كالتي ليس لها زوج، واعلموا أيها الأزواج أنكم إن تصلحوا وتتقوا الله وتعدلوا في القسمة بين زوجاتكم؛ فإن الله سوف يغفر لكم ما وقع منكم من جور في المحبة القلبية نحو نسائكم، وسوف يرحمكم سبحانه كما رحمتم زوجاتكم.

[١٣٠] ثم وعد جلّ وعلا الزوجين اللَّذَيْنِ لم يوفقا للصلح، وانتهت العلاقة بينهما بالفراق؛ فإن الله جل في علاه سوف يغني كلًّا منهما عن الآخر، واعلموا أن الله كثير الفضل، واسع الرحمة بعباده، حكيم في تشريعه وأحكامه.

[١٣١] ثم ذكَّر جل وعلا عباده أنَّ له وحده ملك جميع ما في السماوات والأرض، وما دام أن الأمر كذلك فإنه غير متعذر عليه سبحانه أن يرزق الزوجين الذين افترقا من سعته، ثم أخبر سبحانه أنه وصىٰ اليهود والنصارىٰ ومن سبقهم من الأمم بما وصىٰ به المسلمين، وهو تقوىٰ الله، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه؛ فإذا جحدتم وحدانية الله وعبادته؛ فاعلموا أن لله جميع ما في السماوات والأرض، ولن يضره سبحانه كفركم وجحودكم، وكان الله ولم يزل غنيًّا عنكم وعن أعمالكم، حميدًا سبحانه في صفاته وأفعاله.

[١٣٢] ثم أعاد جل وعلا وكرر أن له وحده ملك جميع ما في السماوات وما في الأرض، فهو المدبر لهما، وكفىٰ به سبحانه أن يكون هو المتولي أمر الكون لينتظم بأمره.

[١٣٣] ثم بين جل وعلا أنه قادر علىٰ إفنائكم من الوجود، وايجاد قوم آخرين من البشر غيركم، يكونون أكثر منكم عبادة وطاعة لله، وهو سبحانه قادر علىٰ كل ذلك، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[١٣٤] ثم بين جل وعلا أن من كانت همته وإرادته بعمله ثواب الدنيا وحدها، ولا يريد ثواب الآخرة؛ فإن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة؛ فليطلب منه جلّ في علاه ما شاء من خيري الدنيا والآخرة فإن الله غني كريم، وإنه سبحانه سميعٌ لأقوال عباده، بصيرٌ بجميع أمورهم وأحوالهم.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

[١٣٥] يأمر جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يقوموا بالعدل في كل شيء، وأن يؤدوا الشهادة لله بالحق ولو كانت على أنفسهم، أو على آبائهم وأمهاتهم، أو على أقاربهم، ويحذرهم أن يمتنعوا من أداء الشهادة، سواءً كان المشهود عليه غنيًّا أو فقيرًا، فإن الله أولى باللطف بهما منكم، وأعلم بما فيه صلاحهما، فلا يحملنكم الهوى وشهوات النفس والتعصب على ترك العدل، وإذا حرفتم الشهادة وأتيتم بها على غير حقيقتها، أو تركتموها؛ فاعلموا أن الله كان بما تعملون خبيرًا، يعلم أعمالكم خفيها وجليها وسيجازيكم عليها.

[١٣٦] يأيها الذين آمنوا اثْبُتُوا على إيمانكم واعتقادكم، وصدقوا رسولكم ﷺ الذي أنزل الله عليه القرآن، وآمنوا بكل الكتب السماوية التي أنزلها الله من قبل على الأنبياء والمرسلين، واعلموا أن من يكفر بالله تعالى، وملائكته المكرمين، وكتبه التي أنزلها لهداية الناس وإرشادهم، ورسله الذين اصطفاهم من بين سائر الخلق لتبليغ رسالته، واليوم الآخر الذي هو يوم الجزاء والحساب؛ فقد ابتعد عن طريق الحق والهدى ابتعادًا كبيرًا، وخرج من دين الله تعالى.

[١٣٧] ثم أخبر جلّ وعلا أن الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ، ثم جحدوا دين الله، ثم رجعوا إلى الإيمان، ثم جحدوا مرة أخرى، ثم أصرُّوا على الكفر واستمروا فيه؛ فاعلموا أن هؤلاء المنافقين الذين اتصفوا بهذه الصفة لن يغفر الله لهم، ولن يهديهم طريقًا ينجون به ويَسْعَدُونَ به في الدنيا والآخرة.

[١٣٨] ثم أمر جلّ وعلا نبيه ﷺ أن يبشر المنافقين بالعذاب الأليم في نار جهنم؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥].

[١٣٩] ثم بين جل وعلا سبب تبشير المنافقين بالعذاب الأليم؛ فأخبر أنهم يعطون محبتهم ونصرتهم وولاءهم للكافرين، ويتركون ولاية المؤمنين، فهل يطلب هؤلاء العزة والمنعة والغلبة من الكافرين؟؛ فاعلموا أنهم لا يملكون ذلك؛ لأن العزة والقوة والمنعة لله سبحانه وحده؛ فمن أعزه الله عزَّ، ومن أذله ذلَّ.

[١٤٠] واعلموا أيها المؤمنون أن الله بين لكم في كتابه العزيز أنه يجب عليكم عند حضور مجالس الكفر والمعاصي وسمعتم في هذه المجالس من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها؛ فلا تستمروا في الجلوس معهم حتى يخوضوا في حديث غيره؛ فإذا قعدتم معهم مع كفرهم واستهزائهم بآيات الله تعالى فإنكم تكونون مثلهم في الكفر؛ لأن السامع الراضي شريك المتكلم، ويستثنى من ذلك إذا كان الجالس أحد العلماء ويريد أن يفند مزاعم وتشكيك هؤلاء الكفار، ويرد على شبههم، واعلموا أن الله سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا؛ لينالوا فيها سوء العذاب؛ بسبب كفرهم وعنادهم.

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ
أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ
أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ
بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا
قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ
ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ
هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ
أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ
ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا
﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ
دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ
إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾

[١٤١] واعلموا أيها المؤمنون أن المنافقين ينتظرون ما يحدث لكم من خير أو شر؛ فإذا منَّ الله عليكم بالنصر وحصلتم علىٰ المغانم، قالوا: ألم نكن معكم فنؤازركم؟! فأعطونا نصيبنا من الغنيمة، وإذا كان للكافرين ظهور ونصر عليكم، قالوا للكافرين: ألم نساعدكم ونخذِّل المؤمنين عنكم؟ فأعطونا نصيبنا من الغنيمة؛ فأخبر جلّ وعلا أنه سوف يحكم بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، ثم بين سبحانه أنه لن يجعل للمنافقين والكافرين علىٰ المؤمنين طريقًا واستيلاء وغلبة وحجة لإفنائهم واستئصالهم بالكلية، وما يحدث من نصر وغلبة للكافرين علىٰ المؤمنين أحيانًا فهذا له أسبابه وهو من الابتلاء، ولكن تكون العاقبة في النهاية للمتقين.

[١٤٢] ثم بيَّن جل وعلا أن المنافقين يظنون أنهم يخادعون الله، ويخفون عنه حقيقة أمرهم، والحقيقة أن الله خادع لهؤلاء المخادعين لا محالة، وقد قلنا: إن الخادع والمخدوع تحتمل المدح وتحتمل الذم، فلذا لا يصح أن تطلق علىٰ الله إلا بعد أن يُذكر الذي قبلها أو يضاف بعدها كلمة: (المخادعين)؛ فيقال مثلًا: (الله خادع المخادعين)؛ حتىٰ يُعلم أنه جل وعلا خدعهم بحق، ثم أخبر جلّ وعلا أن من صفات المنافقين السيئة: أنهم إذا قاموا إلىٰ الصلاة قاموا متثاقلين بدون رغبة فيها، ويقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ومخادعة المؤمنين، ومن صفاتهم السيئة: أنهم لا يذكرون الله إلا ذكرًا قليلًا لإيهام المؤمنين أنهم منهم.

[١٤٣] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المنافقين من شأنهم التردد والحيرة والاضطراب، فهم مترددون بين الكفر والإيمان، فإذا كانوا مع المؤمنين أظهروا الإيمان، وإذا كانوا مع الكافرين أظهروا النفاق، واعلموا أن من يضلله الله ويصرف قلبه عن الإيمان به جزاء إصراره علىٰ الكفر؛ فلن تجد له طريقًا لهدايته.

وإضلال الله لهؤلاء المنافقين هو إضلال جزائي لا ابتدائي، وهو مبني علىٰ ضلالهم الاختياري، لأن الله جعل العبد مختارًا ولم يجبره؛ فاختار الشك والحيرة والضلال علىٰ الهدىٰ؛ فثبته الله علىٰ ما اختار.

[١٤٤] ثم نهىٰ جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يتشبهوا بأقبح صفة من صفات المنافقين، وهي موالاة الكافرين، ويتركوا موالاة إخوانهم المؤمنين، فهل تريدون أيها المؤمنون أن تجعلوا لله حجةً واضحة عليكم بموالاتكم لهم فتكونوا مثلهم فينالكم عذاب الله؟

[١٤٥] ثم بين جلّ وعلا أن المنافقين بسبب نفاقهم وكفرهم جعلهم الله في أسفل منازل النار، وأحط دركاتها يوم القيامة، ولن تجد لهم ناصرًا يدفع عنهم العذاب؛ وهذا العذاب الشديد لهؤلاء المنافقين لأن ضررهم أكبر من ضرر الكفار.

[١٤٦] ثم بيَّن جل وعلا أن الذين تابوا من النفاق، وعملوا العمل الصالح، والتجؤوا إلىٰ الله وحده، وعبدوه مخلصين له الدين بدون رياء ولا سمعة؛ فأولئك سوف يحشرهم الله مع المؤمنين يوم القيامة، وسوف يعطي الله المؤمنين ثوابًا عظيمًا جزاء إيمانهم وعملهم الصالح.

[١٤٧] ثم بيَّن جل وعلا جانبًا من جوانب رحمته بعباده؛ فأخبر أن فضل الله وحكمته أجلُّ وأسمىٰ من أن يعذبكم أيها الناس إذا آمنتم بالله وشكرتموه علىٰ نعمه، واعلموا أن الله سبحانه شاكر لعباده طاعتهم وعبادتهم، وأنه يجازيهم عليها يوم القيامة، وهو سبحانه عليم بأحوالهم ظاهرها وباطنها.

۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

[١٤٨] بين جلّ وعلا أنه لا يحب قول السوء ولا يحب الجهر به إلا لمن وقع عليه ظلم؛ فيباح له أن يشكو ظالمه، وكان الله ولم يزل سميعًا لكلام المظلوم، عليمًا بظلم الظالم.

[١٤٩] واعلموا أيها الناس أنكم إذا أظهرتم أعمال الخير، أو أخفيتموها، أو عفوتم عمن أساء إليكم ابتغاء مرضاة الله؛ فإن الله كثير العفو عمن عفا، مع قدرته سبحانه علىٰ الانتقام من الظالم.

[١٥٠] ثم أخبر جل وعلا أن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله؛ مثل اليهود الذين آمنوا بموسىٰ، ولم يؤمنوا بعيسىٰ ولا محمد ﷺ، ومثل النصارىٰ الذين آمنوا بعيسىٰ، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ، ويقولون: نؤمن ببعض الرسل، ونكفر ببعضهم، ويريدون بقولهم هذا أن يتخذوا بين الكفر والإيمان طريقًا وسطًا، وهذا لا يمكن؛ فإما الكفر وإما الإيمان.

[١٥١] ثم أخبر جل وعلا أن من كان هذا شأنهم وهذه أوصافهم القبيحة، -أي: يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعضهم-؛ فقد حكم الله عليهم بالكفر الحقيقي، وأعد لهم سبحانه عذابًا أليمًا إهانة وخزيًا لهم.

[١٥٢] ثم أخبر جل وعلا أن الذين يؤمنون بكل ما أخبر الله به، وبكل ما جاءت به الرسل، ولم يفرقوا بين أحد من الرسل؛ بل آمنوا بهم كلهم؛ فأولئك سوف يؤتيهم الله جزاء إيمانهم الأجور العظيمة، وكان سبحانه غفورًا لذنوب عباده، رحيمًا بهم.

[١٥٣] يسلي جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ فأخبر أن أهل الكتاب من اليهود يسألونه أن يُنَزِّلَ عليهم صحفًا من عنده مكتوبة تدل علىٰ نبوته وصدق رسالته، فأخبره سبحانه أن لا يتعجب من سؤالهم؛ فقد سأل أسلافهم موسىٰ عليه السلام أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله عيانًا؛ فعاقبهم سبحانه بصاعقة أهلكتهم؛ بسبب ظلمهم وعنادهم ثم أحياهم، وأيضًا اتخذوا العجل من دون الله بعد أن عاينوا معجزات موسىٰ عليه السلام لفرعون وقومه، ومع ذلك فقد عفا الله عنهم بعد أن أحياهم بعد الصعقة وأنابوا إليه، ثم بين سبحانه أنه أيد موسىٰ عليه السلام بالحُجة والبيان الذي يدلُّ علىٰ صدق نبوته.

[١٥٤] ثم أخبر جل وعلا أنه رفع فوق رؤوس بني إسرائيل جبل الطور عندما امتنعوا من قبول شريعة التوراة، والالتزام بالميثاق الذي أُخِذَ عليهم، وعندما أُمِرُوا بدخول بيت المقدس خاضعين متواضعين فدخلوا وهم يزحفون علىٰ أستاهِهِم، أي: التي يجلسون عليها، ويقولون علىٰ سبيل الاستهزاء: (حبةٌ في شعيرة) بدلا من (حطة)، أي: حط عنا خطايانا، وعندما أُمِرُوا أن لا يصطادوا السمك في يوم الراحة وهو يوم السبت فاعتدوا عليه وصادوه يوم السبت بحيلة؛ حيث وضعوا الشباك وعملوا الحفر يوم السبت فوقع السمك فيها، ثم أخذوه يوم الأحد؛ مع أن الله أخذ منهم عهدًا مؤكدًا في أن لا يصطادوا يوم السبت، ولكنهم نقضوه.

الجُزْءُ السَّادِسُ — سُورَةُ النِّسَاءِ

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

١٠٣

[١٥٥] ثم بين جل وعلا أن من أسباب لعن الله لليهود وإذلالهم وغضب الله عليهم: نقضهم للعهود والمواثيق، وجحودهم لآيات الله ومعجزات الرسل، وقتلهم الأنبياء ظلمًا بغير برهان، وقولهم للنبي ﷺ: قلوبنا عليها غطاء؛ فرد سبحانه عليهم وبين أن الأمر ليس كما زعموا؛ بل ختم الله عليها؛ فلا تفهم الرشد، ولا تعي الإيمان؛ بسبب رفضهم الهدىٰ وإصرارهم علىٰ الكفر؛ ولهذا لم يؤمن منهم إلا عدد قليل، مثل: عبدالله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهم، وهذا الطبع هو طبع جزائي وليس ابتدائي.

[١٥٦] وبين جل وعلا أن من أسباب لعنهم وإذلالهم وغضب الله عليهم أيضًا: كفرهم بعيسىٰ عليه السلام، واتهامهم لمريم عليها السلام بفحاشة الزنا؛ لأنها ولدت عيسىٰ عليه السلام من غير أبٍ، وقد برأها الله، واصطفاها، وفضلها علىٰ نساء العالمين في زمنها.

[١٥٧] وبين جل وعلا أن من أسباب لعنهم وإذلالهم وغضب الله عليهم أيضًا: ادعاءَهم علىٰ سبيل الافتخار أنهم قتلوا رسول الله المسيح عيسىٰ ابن مريم عليه السلام؛ بل عزمهم وإقدامهم علىٰ ذلك، والحقيقة أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، ولكنهم قتلوا شبيهًا له في شكله، ثم بين سبحانه أن من ادَّعىٰ قَتْلَ عيسىٰ ابن مريم من اليهود، ومن أَسْلَمَهُ إليهم من النصارىٰ؛ كلهم واقعون في شك وحَيْرَة دائمة، ولا عِلْمَ لديهم في حقيقة من قتلوه إلا اتباع الظن الذي لا يقوم عليه دليل ولا برهان، ثم بين سبحانه أنهم غير متيقنين من قتله؛ بل إنهم شاكُّون في ذلك.

[١٥٨] ثم أكد جل وعلا عدم قتل عيسىٰ عليه السلام من قبل اليهود؛ فأخبر أنه رفعه إلىٰ السماء ببدنه وروحه، وبهذا يكون عليه السلام نجا من شرهم وكيدهم، وأنه سوف ينزل في آخر الزمان ويحكم بشريعة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، ثم بين سبحانه أنه كان ولم يزل عزيزًا يعز من يلجأ إليه وينصره ويحميه، حكيمًا في تدبيره لشئون خلقه.

[١٥٩] ثم أخبر جل وعلا أن الأحياء من اليهود والنصارىٰ الموجودين حين نزول عيسىٰ عليه السلام في آخر الزمان وقتله الدجال، سوف يرونه ويؤمنون به قبل موته، ثم أخبر سبحانه أن عيسىٰ عليه السلام سوف يشهد عليهم يوم القيامة أنه بلغهم رسالة الله، وأنه عَبْدُ الله ورسوله، وأن اليهود كذبوه، والنصارىٰ عبدوه.

[١٦٠] ثم بين جل وعلا أنه بسبب ظلم اليهود واعتدائهم حرم عليهم كثيرًا من الطيبات التي كانت حلالًا عليهم، وأيضًا بسبب منعهم كثيرًا من الناس من الهدىٰ، ومن الدخول في دين الله وهو الإسلام.

وقد ذكر سبحانه أن هذه المحرمات هي من الآصار والأغلال التي كانت عليهم، فجاء ﷺ ورفع عنهم هذه الآصار والأغلال؛ لكنهم عاندوا واستكبروا وبقوا علىٰ دينهم وضلالهم، قال تعالىٰ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

[١٦١] وبين جل وعلا أيضًا أنه حرم عليهم كثيرًا من الطيبات بسبب أكلهم الربا، وقد نهاهم الله عنه في التوراة، وأيضًا بسبب أكلهم أموال الناس بالباطل بالرشوة في الحكم وغيره، ثم أخبر سبحانه أن الجاحدين لدين الله من هؤلاء اليهود أعد الله لهم عذابًا مؤلمًا في الآخرة.

[١٦٢] ثم مدح جل وعلا أولئك الذين ثبت العلم في قلوبهم من اليهود، والمصدقين بالله ورسوله، والذين آمنوا بهذا القرآن الذي أنزله الله علىٰ نبيه محمد ﷺ، وآمنوا بما أنزل الله علىٰ الرسل من قبل محمد ﷺ؛ كالتوراة والإنجيل وغيرها، ويحافظون علىٰ الصلاة في أوقاتها، ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم، ويؤمنون بالله وباليوم الآخر وما فيه من البعث والجزاء وغير ذلك، ومن كانت هذه صفاتهم سوف يعطيهم الله ثوابًا عظيمًا، وهو جنة عرضها السماوات والأرض.

وفي قوله: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، نصب علىٰ المدح، أو علىٰ التخصيص؛ لقصد الاهتمام بالصلاة، أي: إن المقيمين للصلاة والمحافظين عليها سوف نؤتيهم أجرًا عظيمًا، وذلك لأهمية الصلاة ومكانتها في الإسلام.

۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

[١٦٣] يخبر جلّ وعلا أنه أوحىٰ إلىٰ محمد ﷺ أن يبلغ رسالة ربه كما أوحاها إلىٰ نوح عليه السلام وإلىٰ النبيين الذين جاءوا من بعده، وكذلك أوحاها إلىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسىٰ وأيوب ويونس وهارون وسليمان عليهم السلام أجمعين، ثم أخبر سبحانه أنه أعطىٰ داود عليه السلام كتابًا اسمه الزّبور، وهو عبارة عن صحف مزبورة، أي: مكتوبة، وقد جمعت فيها المواعظ والحِكَمُ والتحميد والتقديس والثناء علىٰ الله. والمقصود من الآية: أن نبينا محمدًا ﷺ ليس بدعًا من الرسل الذين قبله.

[١٦٤] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل رسلًا كثيرين، ذَكَرَ سبحانه بعضهم للنبي ﷺ وما جرىٰ لهم مع أقوامهم، للاعتبار والاتعاظ، وتسلية له ﷺ، وأرسل أيضًا رسلًا ولكن لم يذكرهم له ﷺ ربما اكتفاءً بالمذكورين، ثم أخبر سبحانه أنه خاطب موسىٰ عليه السلام مخاطبة حقيقة من غير واسطة، وبكيفية لا يعلمها إلا هو سبحانه، وهذا تشريف له عليه السلام، ولذلك اشتهر موسىٰ عليه السلام عند الناس بقولهم: موسىٰ كليم الرحمن. وفي هذه الآية إثبات صفة الكلام لله عز وجل كما يليق بجلاله، بخلاف ما تعتقده المعتزلة وفرقٌ أخرىٰ بدعوىٰ أن التكلم يستلزم لسانًا وشفتين، وجهلوا أن الله يتحدث عن نفسه لا عن إنسان؛ فهو ليس كمثله شيء في كل صفة من صفاته.

[١٦٥] ثم بين جل وعلا أنه أرسل هؤلاء الرسل مبشرين بالثواب لمن أطاع الله ورسوله، ومنذرين بالعقاب الشديد لمن عارض وعاند؛ حتىٰ لا يكون للناس حجة فيعتذرون ويقولون: ما جاءنا من نذير ولا بشير، وكان الله ولم يزل عز وجل عزيزًا في ملكه، حكيمًا في تدبير شؤون خلقه.

[١٦٦] وإذا كان هؤلاء اليهود يانبي الله لم يشهدوا لك بالنبوة، فإن الله يشهد أنك نبيه ورسوله الذي أنزل عليك هذا القرآن العظيم الذي يشهد بنبوتك، وأنه أنزله عليك بعلمه واطلاعه، وأيضًا الملائكة يشهدون أنك نبي الله ورسوله، واعلم أن شهادة الله وحدها كافية؛ فهو سبحانه خير الشاهدين، وإن لم يشهد أحد لك.

[١٦٧] ثم أخبر جلّ وعلا أن الذين جحدوا نبوتك يارسول الله، وجحدوا دين الله، ومنعوا غيرهم من الدخول في دين الله بكافة السبل؛ قد أجرموا وبعُدوا عن الحق بعدًا كبيرًا.

[١٦٨] ثم أكد جل وعلا مرة أخرىٰ أن الذين جحدوا نبوتك يامحمد، وجحدوا دين الله، وظلموا بصدهم الناس عن دين الله، واستمروا علىٰ الجحود والظلم، لم يكن الله ليغفر لهم ذنوبهم؛ لأنهم أصروا علىٰ الكفر والمحاربة؛ فطبع الله علىٰ قلوبهم؛ وبسبب إصراهم لن يدلهم الله علىٰ طريق الحق الذي ينجيهم.

[١٦٩] ثم بين جل وعلا أنه سوف يدلهم علىٰ طريق واحد فقط، وهو الطريق المؤدي إلىٰ جهنم، التي أوجبها الله لكل من كفر بدين الله ومات علىٰ ذلك، وأنهم سوف يمكثون فيها أبد الآبدين، وكان ذلك علىٰ الله سهلًا يسيرًا؛ لأنه لا يعجزه سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء.

[١٧٠] يا أيها الناس قد جاءكم الرسول محمد ﷺ بالإسلام دين الحق من عند ربكم، فآمنوا بالله إيمانًا حقيقيًّا، وصدقوا برسوله وبما جاء به ﷺ؛ يكن خيرًا لكم في الدنيا والآخرة، وإن جحدتم وأعرضتم فإن الله الذي له جميع ما في السماوات والأرض غني عنكم وعن إيمانكم، وكان سبحانه ولم يزل عليمًا بأحوال خلقه، حكيمًا في تدبير شئونهم.

[١٧١] ثـم يخاطـب جـلَّ وعـلا النصـارىٰ، فيأمرهـم: أن لا تتشـددوا في دينكـم، ولا تتجـاوزوا الحـد المشـروع والمسـموح بـه، ولا تقولـوا علىٰ الله إلا الحق، ومـن ذلـك أنـه ليـس لله ولـد ولا زوجـة ولا شـريك، وأن عيسـىٰ ابـن مريـم عليـه السـلام عبـد الله ورسـوله، وقـد خلقـه الله بكلمـة: ﴿كُن﴾؛ حيـث نفـخ جبريـل عليـه السـلام في جيـب مريـم بأمـر الله؛ فالواجـب عليكـم أن تؤمنـوا بـالله وحـده لا شـريك لـه، وأن تؤمنـوا برسـله وبمـا جـاءوا بـه مـن الدلائـل والبراهيـن والآيـات البينـات، ولا تقولـوا: آلهتنـا ثلاثـة، يعني: قولكـم: الله وصاحبتـه وابنـه، تعالىٰ الله عـن ذلـك علـوًّا كبيـرًا، وانتهـوا عـن هـذا القـول وابتعـدوا عنـه خيـرًا لكـم ممـا أنتـم عليـه مـن الكفـر والضـلال، واعلمـوا أن الله هـو الإلـه الواحـد الأحـد الوتـر الصمـد، تنـزّه وتقـدس عـن أن يكـون لـه ولـد؛ ولأن جميـع مـن في السـماوات والأرض تحـت ملكـه وتصرفـه؛ فتوكلـوا عليـه، وكفـىٰ بـالله وكيـلًا.

[١٧٢] يخـبر جـل وعـلا أن المسـيح عيسـىٰ ابـن مريـم عليـه السـلام لـن يأنـف أو يتكـبر أن يعـترف أنـه عبـد مـن عبـاد الله، وكذلـك لـن يمتنـع الملائكـة الكـرام مـن الإقـرار بالعبوديـة لله، واعلمـوا أيهـا النـاس أن مـن يمتنـع عـن عبـادة الله وحـده ويرغـب عنهـا؛ فسـيجمع الله الخلـق جميعًـا يـوم القيامـة، ويحكـم بينهـم بالعـدل، وسـيجازي كلًّا بمـا يسـتحق؛ إن خيـرًا فخيـر، وإن شـرًّا فشـر، وسـيجد المسـتكبر عـن ديـن الله الصَّغـار والمهانـة والعـذاب الشـديد.

[١٧٣] ثـم أخـبر جـل وعـلا أن الذيـن آمنـوا بـالله ورسـوله وعملـوا الأعمـال الصالحـة؛ سـوف يوفيهـم جـزاء أعمالهـم أجـورًا عظيمـة، ويدخلهـم جنـة عرضهـا كعـرض السـماوات والأرض، ويزيدُهـم مـن فضلـه بـأن يرضـىٰ عنهـم، ثـم يـرون وجهـه الكريـم جـل في عـلاه، وأمـا الذيـن امتنعـوا ورغبـوا عـن طاعـة الله، واسـتكبروا عنهـا، ولـم يذعنـوا لهـا، فقـد أعـد الله لهـم عذابًـا شـديد الإيـلام، لـن يدفعـه عنهـم مُعِيـن، ولـن يمنعهـم منـه نصيـر.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

[١٧٤] يا أيهـا النـاس قـد جاءكـم مـن ربكـم حجـج ودلائـل واضحـة، جـاء بهـا محمـد ﷺ، وأنزلنـا إليكـم نـورًا مبينًـا وهـو القـرآن الكريـم، وهاديًـا بـإذن ربـه وصراطًـا مسـتقيمًا.

[١٧٥] ثـم أخـبر جـل وعـلا أن الذيـن آمنـوا بـالله ورسـوله، واستمسـكوا بالقـرآن الـذي بيـن أيديهـم؛ وتمسـكوا بدينهـم؛ فسـيدخلهم ربهـم في خيـر ونعمـة منـه سـبحانه وفضـل كبيـر، وهـي الجنـة، ويوفقهـم إلىٰ طاعتـه والعمـل الصالـح، والطريـق المسـتقيم الموصـل الـىٰ مرضاتـه.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ
لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن
لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ
وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

سُورَةُ المَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ
إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ
وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ
الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن
تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

[١٧٦] ثم ختم جل وعلا السورة بالجواب عن السؤال عن الكلالة، والكلالة: مصدر، بمعنىٰ: الكلال، وهو ذهاب القوة من التعب والإعياء؛ فكأن الوالد والوالدة والأبناء هم سند وقوة الشخص، فإذا لم يكن أحد منهم موجودًا وارثًا للمتوفىٰ ومتولِّيًا لتركته وما خلَّف سُمِّي بذلك كلالة، فالكلالة رجل كان أو امرأة: هو الذي يموت وقد مات والداه وأجداده وليس له ذرية، وحينئذ يتولىٰ أقاربه الأدنىٰ فالأدنىٰ تقسيم تركته؛ فإن لم يوجد له أقارب أبدًا فحينئذ تتولاها الدولة، وتدخلها في بيت مال المسلمين.

فأخبر سبحانه في هذه الآية أنه إذا مات رجل وليس له ولد أو والد فهو كلالة؛ فإن كان له أخت شقيقة أو أخت من الأب، فلها نصف التركة، وإذا ماتت امرأة وليس لها ولد أو والد فهي أيضًا كلالة؛ فإذا كان لها أخ شقيق أو أخ لأب، فله جميع التركة، وإن كان لمن ماتَ كلالة أختان فلهما الثلثان مما ترك، وإذا اجتمع لمن مات كلالة أخوة أشقاء أو من أب ذكورًا وإناثًا؛ فتقسم التركة عليهم للذكر مثل نصيب الأنثيين، واعلموا أيها الناس أن الله يبين لكم أحكامه في قسمة المواريث وحكم الكلالة؛ حتىٰ لا تضلوا عن الحق في ذلك، والله عليم بكل أحوالكم، لا يخفىٰ عليه شيء من أموركم.

سورة المائدة

سورة المائدة مدنيّة وآياتها عشرون ومائة آية، ونزلت بعد سورة الفتح، وهي آخر ما نزل من القرآن.

[١] بدأت السورة بنداء المؤمنين بلفظ الإيمان، وهو إعلام وتذكير لهم بالإيمان بالله، وهو عقد التزم به الإنسان الذي آمن بأركان الإسلام وأركان الإيمان، وبجميع ما أُمر به المسلمون وما نهوا عنه؛ حسب المقدرة؛ فلا يكلف الله نفسًا إلا وُسعها، ثم أمر سبحانه المؤمنين أن يحافظوا علىٰ الوفاء بالعقود، والعقد هو: توثيق ما يتفق عليه الطرفان؛ سواء كانت عقود تجارية أو ضمانية أو صلحية، ويشمل ذلك المحافظة علىٰ العقود التي بين الناس وبين الله، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والمحافظة علىٰ العقود التي بينهم وبين الرسول ﷺ بطاعته واتباعه، والمحافظة علىٰ العقود التي بينهم وبين الناس، كعقود المعاملات والتبرعات وحقوق المسلمين وغير ذلك، ثم بين سبحانه أنه أحلّ لكم أيها الناس أكل لحوم الأنعام من الإبل والبقر والغنم إلا ما جاء النص بتحريمه، ثم بين أنه لا يجوز لكم صيدُ البرِّ إذا كنتم محرِمين بالحج أو العمرة، أو كنتم داخل حدود الحرم المكي أو المدني، واعلموا أن الله يقضي بحكمته ما يريد من أحكام.

[٢] يا أيها الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله ﷺ وعملوا بشرعه لا تتعدوا حدود الله التي حدها لكم من إحلال الحلال وتحريم الحرام، ولا تنتهكوا الأشهر الحرم بالقتال فيها، والأشهر الحرم هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ولا تستحلوا حرمة ما يُهدىٰ إلىٰ البيت الحرام من الأنعام في حج أو عمرة وغير ذلك؛ فتتعرضوا لها بسرقة أو غصب ونحو ذلك، ولا يجوز التعرض للهدايا التي يوضع في عنقها قلائد، أي: علامات ليعرف الناس أنها مهداة لبيت الله الحرام، ولا تمنعوا قاصدي البيت عن الوصول إليه، ولا تقاتلوهم؛ لأنهم أحرموا يبتغون فضل الله ورضاه وإقامة شعائره، وإذا تحللتم من الإحرام جاز لكم الصيد في غير الحرم، ولا يحملنكم أو يدفعنكم بغض القوم الذين منعوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم أو تظلموهم؛ يريد الله بذلك أن يطهر قلوبكم من الرغبة في الانتقام للنفس، ويطلب منكم أن يكون كفاحكم وقتالكم لنصرة الإسلام؛ فهو الذي يستحق التضحية بالنفس والنفيس، أما عن ما لحقكم من أذىٰ وتضييق وبغضهم لكم، فإنكم تحتسبون أجرهم فيه عند الله، ثم أمر سبحانه أن يتعاون بعضكم مع بعض أيها المؤمنون علىٰ فعل الخير وطاعة الله، ولا تتعاونوا علىٰ المعاصي وظلم الناس، واتقوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، فإن الله شديد العذاب لمن خالف أمره.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ
وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ
السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ
غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا
أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ
مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ
وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾
الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ
وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ
بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾

[٣] ثم بين جل وعلا المحرمات من المطاعم، ومن ذلك: **أنه حرم الميتة**: وهي التي ماتت من غير ذكاة شرعية، ويستثنىٰ من ذلك الجراد والسمك؛ فإنه حلال بنص الحديث، **وحرم الدم**: أي: الدم المسفوح، **وحرم لحم الخنزير**: وهو الحيوان المعروف وهو من جملة الخبائث المحرمة، **وحرم ما أهل لغير الله**: أي: الذي ذكر اسم غير الله عليه، كأن يذكر عند ذبحه اسم صنم أو ولي أو كوكب ونحو ذلك، وهذا من الشرك بالله، وهذه محرمة مطلقًا حتىٰ ولو ذكر اسم الله عليها، **وحرم المنخنقة**: وهي التي تم خنقها بحبل ونحوه، **وحرم الموقوذة**: وهي التي صُعقت أو ضربت علىٰ رأسها حتىٰ ماتت، **وحرم المتردية**: وهي التي سقطت من شاهق كجبل ونحوه، **وحرم النطيحة**: وهي التي نطحها حيوان ونحوه فأهلكها، **وحرم ما أكل السبع**: وهي التي عدا عليها ذئب أو أسد أو افترسها طير، فإذا ماتت بسبب ذلك فإنه لا يحل أكلها. وهذه الخمسة إذا وجدت وفيها حياة، فإنه يحل أكلها بعد ذبحها؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، أي: ما أدركتم منهن وفيه حياة، فذبحتموه ذبحًا شرعيًّا.

وحرم ما ذبح علىٰ النصب: وهي التي كانت تذبح عند الآلهة والأصنام؛ فهذه لا تحل حتىٰ لو ذكر اسم الله عليها، **وحرم الاستقسام بالأزلام، وهي**: القداح التي كانوا يستقسمون بها إذا أرادوا أمرًا.

واعلموا أيها الناس أن من تناول شيئًا مما سبق تحريمه فإن ذنبه عظيم لخروجه عن طاعة الله، ثم أخبر سبحانه أنه في هذا اليوم – أي: يوم عرفة – الذي أتم الله فيه الدين يئس الكفار كل اليأس أن ترجعوا عن دينكم أيها المؤمنون، فلا تخافوهم بعد الآن، وخافوا الله بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ثم أخبر سبحانه أنه في هذا اليوم أكمل لكم أحكام دينكم، وأتم عليكم نعمته بإعزازكم وتثبيت أقدامكم علىٰ هذا الدين، وأنه اختار لكم الإسلام دينًا؛ فمن اضطر إلىٰ شيء من المحرمات التي ذُكرت بسبب جوع أو غيره، غير متعمد لمعصية بأكل أكثر مما يسد رَمَقه ويضمن حياته ونحو ذلك؛ فإن الله يعفو ويغفر له ما أكل، وهو رحيم بعباده حيث رخص لهم في تناول ما حرَّم عليهم عند الضرورة.

وفي قوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾، نزلت حين انتصر المسلمون علىٰ اليهود والكفار وانتشر الإسلام، أما اليوم فقد ضعف المسلمون وتكالبت الدول العظمىٰ علىٰ حربه؛ فنسأل الله أن يعيد للإسلام عزته، وأن يبعث للمسلمين من يصحح عقيدتهم ويوحدهم.

وفي قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، نزلت في عرفة في حجة الوداع؛ والرسول ﷺ يخطب بعرفة؛ كما قال ذلك عمر رضي الله عنه لليهودي الذي قال: لو نزلت هذه علينا لجعلنا يوم نزولها عيدًا؛ فاللهم لك الحمد والشكر علىٰ ما أسديت.

[٤] يخبر جل وعلا أن الصحابة سألوا النبي ﷺ: ماذا أحل الله لهم من أنواع الطعام وغيره؟ فأمره الله أن يقول لهم: أحل لكم الطعام الطيب الذي تستطيبه النفوس، وأحل لكم صيدُ الكلاب والصقور المُعَلَّمَةِ التي دربتموها مستمدين ذلك مما علمكم الله، فكلوا مما تصيد هذه الجوارح لكم، وعليكم أن تذكروا اسم الله عند إرسالها، واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه سريع الحساب.

[٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أُحلَّ لكم الطعام الطيب الذي تستطيبه النفوس، وأُحلّ لكم طعامُ اليهود والنصارىٰ وذبائحهم مما لم يرد نص بتحريمه، كما أُحلّ طعامكم لهم، وأحل لكم نكاح الحرائر العفيفات من المؤمنات، والعفيفات من نساء اليهود والنصارىٰ إذا أدّيتم لهن مهورهن بقصد الزواج وليس بقصد استباحة العلاقات غير الشرعية، ولا اتخاذهن كعشيقات، واعلموا أن من يكفر بالله الذي يجب الإيمان به فقد حبط عمله إذا مات علىٰ ذلك، وهو في الآخرة ممن خسر الثواب والجنة.

قال الشافعي: الذين يحبط عملهم الصالح الماضي قبل إسلامهم هم الذين يموتون علىٰ الكفر، أمَّا الذين يتوبون قبل الممات فإن أعمالهم الماضية الصالحة أيام كفرهم لا تحبط، واحتج بقوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة:٢١٧]، وعند أبي حنيفة: أن الردة تحبط الأعمال مطلقًا القديمة والحديثة، وإن تاب وعاد إلىٰ الإسلام، واحتج بقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾

[٦] يخبر جل وعلا في هذه الآية عن فرائض الوضوء التي يجب على المسلم أن يقوم بغسلها إذا أراد الصلاة، فقال سبحانه: يا أيها الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وعملوا بشرعه إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم مُحْدِثون حدثًا أصغر فتوضؤوا الوضوء الشرعي؛ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، أي: مع المرافق؛ حيث إن المرفقين داخلانِ في المغسول، وهذا قول الجمهور، ثم امسحوا رؤوسكم، ثم اغسلوا أرجلكم إلى الكعبين، والكعبان: هما العظمان الناتئان في كل رجل عند مفصل الساق من القدم.

أما إذا كنتم على جنابة، أي: محدثين حدثًا أكبر؛ بسبب نزول مني أو جماع ونحو ذلك، فيجب عليكم أن تغتسلوا، أي: تغسلوا جميع بدنكم بالماء، ثم بين سبحانه الأعذار التي تبيح للإنسان استعمال التيمم عن الصلاة أو الطواف أو قراءة القرآن عند العجز عن استعمال الماء، فقال سبحانه: فإذا كنتم مرضى وعجزتم عن استعمال الماء، أو كنتم على سفر في حال الصحة، أو قضى أحدكم حاجته، أو جامع زوجته؛ فلم تجدوا ماءً فاقصدوا الأرض الطاهرة واضربوا بأيديكم وجه الأرض ضربة واحدة، وامسحوا وجوهكم وأيديكم من ذلك الصعيد الطيب. واعلموا أن الله سبحانه لا يريد أن يُضَيِّقَ عليكم، فوسع وشرع ذلك ليطهركم ظاهرًا وباطنًا، وليتم نعمته عليكم، ولتشكروا الله على هدايته وتمام نعمته.

[٧] ثم أمر جل وعلا عباده المؤمنين أن يذكروا نعمه عليهم، وأعظم هذه النعم نعمة الإسلام، وأن يذكروا عهده وميثاقه الذي أخذه عليهم، وهو الإيمان بالله ورسوله والسمع والطاعة لهم، وقد قيل: المراد بالعهد والميثاق الذي أخذ على بني آدم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، قال المفسرون: وإن كنا لا نذكره فقد أُخبرنا به. وقيل: هو العهد والميثاق الذي أخذه النبي على الأنصار بأمر من الله في بيعة العقبة وهو السمع والطاعة في كل ما أمر ونهى، ثم أمر سبحانه عباده أن يخافوا الله في جميع أحوالهم، في سرهم ونجواهم؛ فإنه سبحانه عليم بخفيات قلوب عباده، ومجازيهم عليها.

[٨] يا أيها الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وعملوا بشرعه قوموا لله بكل حق يلزمكم القيام به، من العمل بطاعته والاستقامة على شرعه، والتزموا العدل في الشهادة، ولا يحملنكم شدة بغضكم للكفار والمشركين على ترك العدل معهم؛ فيؤدي بكم ذلك إلى الاعتداء عليهم وظلمهم، ثم أمر سبحانه بالعدل مع المؤمنين ومع الأعداء، وبين أن ذلك أقرب لخشية الله واتقاء ناره حتى لا تصيبكم، واتقوا الله أيها المؤمنون بالعمل بطاعته والبعد عن معصيته، إنه سبحانه خبير بما تعملون، وسيجازيكم على أعمالكم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٩] ثم وَعَدَ جل وعلا الذين صدَّقوا الله وآمنوا برسوله، وعملوا الأعمال الصالحة؛ أن يعفو عن ذنوبهم، ويغفر لهم، ويجزل لهم الثواب، وهذا الوعد تَفَضُّلٌ منه سبحانه، والله لا يخلف الميعاد.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

[١٠] واعلموا أيها الناس أن أولئك الذين كفروا بالله، وجحدوا دينه، وكذبوا بآياته الدالة علىٰ وحدانيته، وصدق رسالته، هم أهل النار وأصحابها، خالدين في جهنم لا يفارقونها أبدًا.

[١١] ياأيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله وعملوا بشرعه اذكروا نعمة ربكم عليكم وقت الشدّة حين همَّ قوم من المشركين أو اليهود أن يقتلوكم ويقتلوا نبيّكم، فأحبط الله كيدهم وكفّ أيديهم عنكم؛ فاتّقوا الله الذي أراكم قدرته بكف أيديهم عنكم، وتوكّلوا عليه وحده في جميع أموركم، إنه خير كافل وأفضل معين.

[١٢] ثم بين جل وعلا أنه أخذ العهد والميثاق علىٰ بني إسرائيل علىٰ أن يعملوا بما في التوراة، وأمر سبحانه موسىٰ عليه السلام أن يجعل عليهم اثني عشر نقيبًا، أي: مسئولًا رئيسًا عليهم يأخذون عليهم العهد والميثاق بالسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه، ثم قال الله لبني إسرائيل: اعلموا أني معكم بالعون والنصر والتأييد إذا أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة المفروضة، وصدَّقتم برسلي، ونصرتموهم، وأنفقتم في وجوه الخير؛ فإذا فعلتم هذه التكاليف فسوف أمحوا عنكم سيئاتكم، وأدخلكم جناتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار؛ فمن جحد هذا العهد والميثاق منكم بعد أن عرف هذه الأوامر؛ فقد ضل وحاد عن الطريق السويِّ المستقيم.

وإسرائيل: هو يعقوب عليه السلام، وأولاده اثنا عشر ولدًا، وكل واحد منهم تكونت منه قبيلة بالتناسل، وكل قبيلة جعل عليها نقيبها البارز من رجالها الذي يعرف خصائصهم ويجلونه.

[١٣] ثم بين جل وعلا أنه بسبب نقض بني إسرائيل العهود والمواثيق طردهم من رحمته، وجعل قلوبهم قاسيةً كالحجارة أو أشد قسوة، ثم بين سبحانه أن من جرائم بني إسرائيل أنهم يحرّفون كلام الله عن معناه الأصلي إلىٰ ما يوافق أهواءهم، وتركوا نصيبًا وافرًا وقسمًا نفيسًا مما أمروا به في التوراة فلم يعملوا به، واعلم يانبي الله أنك لا تزال ترىٰ منهم الخيانة والغدر، فلا تظنَّ أنك آمن من كيدهم؛ فهم قوم غدّارون لا أمان لهم، إلا قليلًا منهم ممن أسلم ولم يخن العهد، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يتجاوز وأن يصفح عن سوء معاملتهم، وأن يحسن إليهم، لأن الله يحب المحسنين.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

[١٤] ثم أخبر جل وعلا أنه أخذ كذلك العهد والميثاق علىٰ الذين ادَّعوا أنهم اتباع المسيح عيسىٰ بن مريم عليه السلام، كما أخذه علىٰ اليهود، وهؤلاء أيضًا تخلّوا عن دينهم، وتركوا نصيبًا وافرًا وشيئًا نفيسًا من تعاليم دينهم التي أمروا بها؛ فعاقبهم الله بأن جعل بينهم العداوة والبغضاء إلىٰ يوم القيامة، وسوف يخبرهم الله يوم القيامة بما كانوا يعملون، وسيعاقبهم علىٰ أفعالهم القبيحة التي كانوا يعملونها،

[١٥] ثم وجَّه جل وعلا النداء لليهود والنصارىٰ، فقال: يامعشر اليهود والنصارىٰ قد جاءكم الرسول محمد ﷺ داعيًا إلىٰ الحق، ومبينًا لكم كثيرًا مما كنتم تكتمونه عن الناس من التوراة والإنجيل، وتاركًا كثيرًا مما أخفيتموه مِمَّا لم تدع الحاجة إلىٰ إظهاره، واعلموا أن نبي الله محمدًا ﷺ جاءكم من عند الله بأحكام هي نور في ذاتها، وهذه الأحكام مبينة في كتاب واضح وهو القرآن الكريم.

[١٦] ثم بين جل وعلا أن هذا القرآن العظيم الذي أنزله علىٰ نبيه محمد ﷺ يهدي به الله من اتبع رضىٰ الله، ويهديهم إلىٰ سبل النجاة في الدنيا والآخرة، ويخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلىٰ نور الإسلام والإيمان بتوفيقه، ويرشدهم إلىٰ طريق الحق الواضح المستقيم.

[١٧] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء النصارىٰ قد كفروا؛ لأنهم ادعوا أن الله هو المسيح ابن مريم، وهذا من أقبح الكفر؛ حيث جعلوا المخلوق خالقًا، فقل لهم يانبي الله: فمن يقدر أن يدفع عن المسيحِ شيئًا أراده الله تعالىٰ؟، كأن يريد سبحانه أن يهلك عيسىٰ ابن مريم وأمه؛ بل ويهلك جميع مَن في الأرض؛ واعلموا أن لله جميع ما في السماوات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء علىٰ أي مثال أراد، فقد خَلَقَ عيسىٰ من غير أب، وخلق حواء من غير أم، وخلق آدم من غير أب وأم، والله جل في علاه عظيم القدرة المطلقة، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[١٨] ثـم أخبر جل وعـلا بمـا قالـت اليهـود والنصـارىٰ؛ حيث قالـت كل واحـدة منهمـا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾؛ فقـل يانبـي الله لهـؤلاء: إن كنتـم كمـا تقولـون: إنكـم أبنـاء الله وأحبـاؤه؛ فَلِمَ يُعَذِّبُكُـم بذنوبكـم؟ وأخبرهـم أنهـم بشـر كسـائر بنـي آدم؛ وأنـه سبحانه يغفر لمـن تـاب مـن اليهـود والنصـارىٰ وجميـع الكفـرة الجاحديـن لنبـوة محمـد ﷺ، ويعـذب كل مـن جحـد نبـوة محمـد ﷺ، ومـات علـىٰ ذلـك، واعلمـوا أن لله جميـع مـا في السماوات والأرض وما بينهمـا، وأن إليـه مصير ومرجع جميع العبـاد، ثـم يحكـم بينهـم بالعـدل، ويجـازي كلًّا بمـا يسـتحقه. وقـد قـال تعالـىٰ في آيـة أخـرىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [البقرة:١١٣]، وعلـىٰ هـذا فتكـون اليهـود قالـت عـن نفسـها فقـط، والنصـارىٰ قالـت عـن نفسـها فقـط؛ لأن كل فريـق منهمـا يعتقـد ضلال الآخر.

[١٩] واعلمـوا يامعشـر اليهـود والنصـارىٰ أنـه قـد جاءكـم رسـول الله محمـد ﷺ يدعوكـم لعبـادة الله وحـده لا شـريك لـه، وذلـك بعـد فـترة انقطـاع مـن الرسـل والأنبيـاء، وضـلال كبـير في العقائـد والمعامـلات والأفـكار؛ لكـي لا تقولـوا يـوم القيامـة: مـا جاءنـا مـن بشـير ولا نذيـر؛ فقـد جاءكـم بشـير ونذيـر وهـو محمـد ﷺ، يبشـر المؤمنيـن بالجنـة، وينـذر العاصيـن والكافريـن مـن النـار، واعلمـوا أن الله قـادر علـىٰ عقـاب العاصيـن، وإثابـة الطائعيـن، لا يعجـزه شـيء عـن ذلـك.

[٢٠] واذكـر يانبـي الله للنـاس حيـن قـال موسـىٰ عليـه السـلام لقومـه: ياقـوم اذكـروا نعمـة الله عليكـم بالشـكر؛ فقـد اختـار منكـم أنبيـاء كثيريـن، وصـار كل واحـد منكـم مالـكًا علـىٰ نفسـه وأهلـه وأمـره، وجعلكـم تعيشـون في أمـن وأمـان وحريـة واسـتقلال، بعد أن كنتـم عبيـدًا عنـد فرعـون وقومـه، كمـا حكـىٰ الله عـن فرعـون أنـه قـال: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٧]، ومنحكـم سـبحانه مـن النعـم الأخـرىٰ مـا لـم يـؤت أحـدًا غيركـم مـن العالميـن.

[٢١] ثـم قـال موسـىٰ عليـه السـلام لقومـه: ياقـوم ادخلـوا الأرض المطهـرة التـي طُهِّـرت مـن الشـرك، وجعلـت مسـكنًا للأنبيـاء،

وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣

وهـي: بيت المقدس، ولا ترجعوا عن قتـال الجبارين فتخسـروا خسـرانًا مبينًا.

[٢٢] ثـم قـال بنـو إسـرائيل لموسـىٰ عليـه السـلام: ياموسـىٰ إن في هـذه الأرض قومًـا أشـداء ذوي قـوة، وكانـوا مـن بقايـا عـاد، يقـال لهـم: العمالقـة، واعلـم أننـا لا يمكـن أن ندخلهـا وهـم فيهـا؛ فـإن خرجـوا منهـا فإنَّـا داخلـون.

[٢٣] ثـم أخـبر جـل وعـلا عـن رجليـن مـن الذيـن يخشـون الله تعالـىٰ، قـد أنعـم الله عليهمـا بالإيمـان، وهمـا: يوشـع بـن نـون وكالـب بـن يوفنا، قـالا: ياقـوم لا تخافـوا هـؤلاء القـوم الجباريـن، ولا تغرنكـم أجسـامهم الضخمـة، فـإن قلوبهـم ضعيفـة؛ فاسـتعدوا وادخلـوا عليهـم بـاب المدينـة، وواجهوهـم علـىٰ حيـن غـرة؛ فـإذا فعلتـم ذلـك فإنكـم ستنتصـرون بـإذن الله، وتوكلـوا علـىٰ الله وحـده في كل أموركـم إن كنتـم صادقيـن في إيمانكـم، واعلمـوا أن مـن يتـوكل علـىٰ الله فسـوف ينصـره الله ويعـزه.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

[٢٤] ولكن قوم موسىٰ عليه السلام أصروا علىٰ العناد والتمرد، ومخالفة أوامره، فقالوا: إنَّا لن ندخل الأرض المقدسة يا موسىٰ أبدًا ما دام فيها هؤلاء القوم الجبارين؛ فدعنا واذهب أنت وربك فقاتِلاهما وحدكما، إنا هاهنا قاعدون، ولن نتحرك من مكاننا، ولن نشاركَكما أبدًا.

فانظر كيف كان تعامل اليهود السيِّيء مع نبيهم عليه السلام؛ فهم قوم بهت لا يريدون الحق، ولهذا غضب الله عليهم بسبب كفرهم وضلالهم ووقاحتهم مع أنبيائهم.

[٢٥] وبعد أن رفض قوم موسىٰ دخول الأرض المقدسة؛ حينها قال موسىٰ عليه السلام معتذرًا إلىٰ الله من عناد قومه وفسوقهم ورفضهم نصرة دين الله؛ فقال: يارب إني لا أجد أحدًا مؤيدًا لي علىٰ قتال هؤلاء القوم الجبارين؛ فأنا لا أملك إلا أمر نفسي، وكذلك أمر أخي هارون، ففافصِل يارب بيننا وبين هؤلاء القوم الفاسقين، العاصين لله ولرسوله، الذين خرجوا عن طاعتك، ورفضوا أوامرك.

[٢٦] فقال جل وعلا لموسىٰ عليه السلام: اعلم ياموسىٰ أن الأرض المقدسة محرمة علىٰ هؤلاء اليهود أربعين سنة لا يدخلونها أبدًا، ولا يتمتعون بخيراتها؛ ويسيرون علىٰ وجوههم تائهين؛ لا يبلغون مقصدهم أبدًا؛ عقوبة لهم علىٰ عصيانهم وجبنهم، وعدم استماعهم لكلام ربهم ونصح نبيهم؛ ثم قال جل وعلا لموسىٰ عليه السلام تسلية له: فلا تحزن ياموسىٰ علىٰ هؤلاء القوم العاصين لله.

قال الدكتور أحمد نوفل: إنها محرمة عليهم دائمًا وأبدًا، أما الأربعون سنة فهي مدة التيه، وليست مدة التحريم.

وقد قيل: إنه لم يدخل الأرض المقدسة أحدٌ ممن قال: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾؛ بل هلكوا جميعًا في التيه، وإنما قاتل الجبابرةَ أولادُهم.

[٢٧] ثم ذكر جل وعلا قصة ابني آدم عليه السلام؛ فقال سبحانه: واقصص يامحمد علىٰ قومك خبر ابني آدم عليه السلام، وهما: هابيل وقابيل؛ حيث قرَّب كل واحد منهما قربانًا؛ فتقبل من أحدهما، وهو هابيل؛ لأنه كان تقيًّا، ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر، وهو قابيل؛ لأنه لم يكن تقيًّا، والقربان: اسم لكل ما يُتقرب به إلىٰ الله؛ فقال قابيل لأخيه هابيل: والله لأتخلص منك ياهابيل بالقتل؛ فرد عليه هابيل: اعلم ياقابيل أنما يتقبل الله من المتقين، الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ولو كنت تقيًّا لتقبل الله قربانك.

[٢٨] ثم قال هابيل لأخيه قابيل: اعلم ياقابيل إذا دعتك نفسك ومددت يدك لتقتلني ظلمًا وعدوانًا؛ فإنني لن أقابلَك بالمثل؛ لأني أخاف الله ربي وربك، ورب جميع العالمين.

[٢٩] ثم قال هابيل: فإن فعلت ياقابيل وقمت بقتلي فاعلم أنك حملت إثم قتلي، والآثام التي فعلتها في حياتك كلها، وبذلك ستكون في الآخرة من أهل النار، واعلم أن هذا جزاء المعتدين.

[٣٠] ثم أخبر جل وعلا أن قابيل حملته نفسه علىٰ قتل أخيه هابيل فقتله؛ وبهذه الجريمة العظيمة خسر قابيل نفسه، وأوردها موارد الهلاك في الآخرة، وخسر أخاه هابيل؛ حيث فَقَدَ الناصر والمعين في الدنيا الذي كان سنده ومؤنسه، كما قيل:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لاَ أَخَا لَهُ ... كَسَاعٍ إِلَىٰ الهَيجَا بغَيرِ سِلاَحِ

[٣١] ثم إن قابيل لما قتل أخاه هابيل لم يعرف كيف يتصرف في جسد أخيه الذي عز عليه أن تأكله السباع والطير؛ فأرسل الله غرابًا يحفر في الأرض برجله ومنقاره ليدفن غرابًا آخر ميتًا ليريه كيف يخفي جسد أخيه؛ لأنه كان يحمله علىٰ عاتقه ويمشي به لا يدري ما يفعل به؛ فلما رأىٰ قابيل ما صنع الغراب قال نادمًا: ياويلي وياهلاكي أعجزت أن أفعل كما فعل هذا الغراب فأخفي جسد أخي؛ فصار من النادمين علىٰ جهله وجريمته الشنيعة.

[٣٢] ثـم بيـن جـل وعـلا أنـه بسـبب مـا قـام بـه قابيـل مـن قتـل أخيـه هابيـل حسـدًا وظلمًـا فـرض سـبحانه وتعالـىٰ علـىٰ بنـي إسـرائيل أنـه مـن قتـل نفسًـا بغيـر قصـاص أو بغيـر فسـاد منهـا في الأرض فكأنـه قتـل النـاس جميعًـا، لأن قَتْـلَ النَّفْـسِ الواحـدة كقتـل الجميـع في اسـتجلاب غضـب الله وعذابـه، ثـم بيـن سـبحانه أن مـن أحيـا نفسًـا كأن اسـتحق عليهـا القتـل فعفـا عنهـا، وتركهـا لله؛ فإنـه يُعطـىٰ أجـر مـن أحيـا النـاس جمعيًـا؛ وكذلـك مـن أنقـذ نفسًـا مـن هـلاك، كمـا جـاء عـن مجاهـد أنـه قـال: إحياؤهـا إنجاؤهـا مـن غـرق أو حـرق أو هـدم أو هلكـة، فهـذا أيضًـا كأنمـا أحيـا النـاس جميعًـا؛ لأن الحفـاظ علـىٰ حرمـة إنسـان واحـد حفـاظ علـىٰ حرمـات النـاس جميعًـا، ثـم أخبـر جـل وعـلا أن بنـي إسـرائيل جاءتهـم الرسـل بالحجـج والبراهيـن الواضحـة، ولكـن كثيـرًا منهـم خالفـوا هـذه الحجـج والبراهيـن وأسـرفوا في الأرض بكثـرة المعاصـي والبغـي والعـدوان.

[٣٣] يخبـر جـل وعـلا أن الذيـن يحاربونـه ويحاربـون رسـوله ﷺ ويسـعون في الأرض فسـادًا، بقطـع الطـرق وقتـل النـاس وترويعهـم، فإنهـم يعاقبـون في الدنيـا عقابًـا شـديدًا، بـأن يُقَتَّلُـوا أو يُصَلَّبُـوا مـع القتـل، أو تُقَطَّـعَ أيديهـم اليمنـىٰ مـع أرجلهـم اليسـرىٰ، فـإن عـادوا لذنبهـم فَتُقَطَّـعَ أيديهـم اليسـرىٰ مـع أرجلهـم اليمنـىٰ، أو يُنفـوا مـن بلدهـم إلـىٰ بلـد آخـر، واعلمـوا أن هـذا العقـاب ذل وفضيحـة لهـم في الدنيـا، ولهـم في الآخـرة عـذاب عظيـم، وذلـك لعظـم الجريمـة التـي ارتكبوهـا

[٣٤] ثـم أخبـر جـل وعـلا أن مـن تـاب وأنـاب مـن جريمتـه وعمـل عمـلًا صالحًـا ورد الظالـم إلـىٰ أهلهـا مـن قبـل أن يُلقـىٰ القبـض عليـه؛ فإنـه لا يجـوز معاقبتـه، واعلمـوا أن الله غفـور لذنـوب عبـاده التائبيـن، رحيـم بهـم. وهـذه الآيـة تسـمىٰ: آيـة الحرابـة، وهـي دليـل علـىٰ عظـم جريمـة قطـع الطريـق وإرهـاب الآمنين.

[٣٥] يأمـر جـل وعـلا عبـاده المؤمنيـن بـأن يطلبـوا رضـا الله بامتثـال أوامـره واجتنـاب نواهيـه، وهـذه هـي الوسـيلة إلـىٰ رضـاه جـل في عـلاه، ثـم حـض سـبحانه علـىٰ الجهـاد في سبيله؛

مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦

لأنـه مـن أجـلِّ الطاعـات وأفضـل القربـات إلـىٰ الله سـبحانه؛ ولأن فيـه الفـلاح والفـوز بالسـعادة الأبديـة، والنجـاة مـن عـذاب الله يـوم القيامـة، وأنـه سـنام الإسـلام، ومـا تـرك الجهـاد قـومٌ إلا ذلُّوا.

[٣٦] إن الذيـن كفـروا بـالله وجحـدوا دينـه لـو أن لهـم جميـع مـا في الأرض مـن الأمـوال وغيرهـا، ومثلـه أيضًـا، وأرادوا أن يجعلـوه فديـة لأنفسـهم مـن عـذاب الله يـوم القيامـة؛ فلـن يقبـل الله منهـم ذلـك، ولـن يكـون ذلـك سـبيلًا إلـىٰ خلاصهـم مـن العقـاب؛ بـل لهـم عـذاب مؤلـم شـديد موجـع يـوم القيامـة.

يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

[٣٧] يخبر جل وعلا أن الكفار الذين دخلوا النار يوم القيامة يتمنون أن يخرجوا منها، ولكن الله سبحانه أخبر أنهم لن يخرجوا منها أبدًا، ولهم فيها عذاب أليم دائم لا ينقطع.

[٣٨] ثم شرع جل وعلا في بيان حكم السرقة، فقال: والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما، أي: اقطعوا يمين كل منهما من مَفْصِل الكف ولا يؤخذ من الذراع شيءٌ، وجاء في السنة أن القطع يكون في ربع دينار فصاعدًا، وإذا عاد قطعت رجله اليُسرىٰ من مَفْصِل القدمِ، ثم اليد اليُسرىٰ، ثم الرجل اليمنىٰ، وبعد ذلك يعزرا عقوبة لهما علىٰ فعلهما المحرم، واعلموا أن هذا الحد مجازاة لهما بسبب اعتدائهما علىٰ أموال الناس بغير حق، وأيضًا هو ردع للآخرين الذين يفكرون بالسرقة، والله عزيز في ملكه، حكيم في أمره ونهيه.

[٣٩] ثم بين جل وعلا أن من تاب عن السرقة بعد ظلمه لنفسه باقترافها، وأعاد المسروق لأربابه إنْ قدر، وأصلح إيمانه بفعل الطاعات وترك المنهيات؛ فإن الله يقبل توبته ويغفر ذنبه، إن الله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم.

[٤٠] ألم تعلم أيها الإنسان أن الله وحده له جميع ما في السماوات والأرض، يعذب من يشاء تعذيبه بحكمته وعدله وقدرته، ويغفر لمن يشاء أن يغفر له بحكمته ورحمته؟، والله علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٤١] وهذا نداء من الله جل وعلا لنبيه ﷺ أن لا يتألم من الذين يسارعون في الكفر جاحدين نبوته، وهم المنافقون الذين يظهرون الإسلام، ولم تؤمن قلوبهم، ولا تتألم من اليهود الذين أنكروا نبوتك؛ فإنهم قوم يكثرون من الاستماع إلىٰ ما يقوله رؤساؤهم وأحبارهم من الكذب والافتراء، ويستمعون لقوم آخرين لا يحضرون مجلسك، وهؤلاء الذين لا يحضرون يدلون أحكام الله، ويقولون: إذا حكم لكم محمد بحكم يوافق هواكم فاقبلوا حكمه، وإذا حكم لكم بحكم لا يوافق هواكم فاحذروا أن تتبعوه، ثم بين سبحانه أن من شاء الله إضلاله من الناس - بسبب إصراره علىٰ الكفر وعناده؛ فإضلاله له هو تثبيته علىٰ ما اختاره لنفسه -؛ فاعلم يانبي الله أنك لا تملك أن ترد أمر الله، واعلم أن هؤلاء المنافقين واليهود لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الشرك والنفاق التي أشربته قلوبهم فطبع الله عليها، ولهم في الدنيا ذل وهوان، وفي الآخرة عذاب عظيم دائم.

سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ
فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن
يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ
وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ
ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ
فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ
لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن
كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ
وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا
عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ
بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ
قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن
لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

[٤٢] واعلم يانبي الله أن اليهود كثيرو الاستماع للكذب والافتراء، كثيرو الأكل للمال الحرام، فإذا تحاكموا إليك فاحكم بينهم، أو أعرض عنهم، حسب ما تراه صالحًا، وإن تعرض عنهم فلن يضروك أبدًا؛ لأن الله يحفظك من كيدهم، وإذا حكمت بينهم فاحكم بالعدل الذي أمرك الله به، حتىٰ لو كانوا مجرمين ظالمين، فإن الله يحب العادلين.

[٤٣] ثم قال جل وعلا متعجبًا من هؤلاء اليهود: كيف يطلب منك يانبي الله هؤلاء اليهود أن تحكم لهم في قضاياهم مع أن حكم الله منصوص عليه عندهم في شريعتهم وهي التوراة، ثم يرفضون ما حكمتَ به لأنه لم يوافق هواهم، فما وافق مصالحهم قبلوه، وما خالفها رفضوه، وسببُ ذلك أنهم ليسوا مؤمنين لا بشريعتهم ولا بشريعتك.

[٤٤] واعلموا أن الله أنزل التوراة علىٰ موسىٰ عليه السلام ليهدي بها قومه إلىٰ الإيمان والحق، ونورًا يستضاء به في ظلمات الضلال، ويحكم بها النبيون الذين انقادوا واستسلموا لله بعد موسىٰ، وكذلك يحكم بها أئمة الدين من عُبَّادِ اليهود العاملين بسبب أن الله استحفظهم علىٰ كتابه، وجعلهم أمناء وشهداء عليه، ثم أمر سبحانه علماء اليهود أن لا يخافوا أحدًا من الناس في بيان الحق؛ بل عليهم أن يخافوا الله وحده، وأن لا يكتموا الحق الذي معهم من أجل تحصيل شيء من متاع الدنيا الزائل، واعلموا أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

[٤٥] ثم بين جل وعلا أنه فرض علىٰ اليهود في التوراة القَوَدَ في النفس، والقِصَاص في الجراحات؛ فالنفس تقتل بالنفس، والعين تفقأ بالعين، والأنف يجدع بالأنف، والأذن تقطع بالأذن، والسن تكسر إن كسرت بالسن، وتقلع به إن قُلِعَتْ، والجروح بمثلها قصاص ومساواة؛ فمن تصدق علىٰ الجاني بالعفو عنه، وعدم المؤاخذة؛ فإن ذلك يكون كفارة لذنوبه، وإن لم يتصدق عليه، واقتص منه يكون ذلك كفارة لجنايته، واعلموا أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون المتجاوزون لحدود الله.

وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ
مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا
لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦
وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ
وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ
عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ
وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ
فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ
بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم
بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ
ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠

[٤٦] أخبر جل وعلا أنه أتبع أولئك الأنبياء السابقين من بني إسرائيل بعيسىٰ ابن مريم عليه السلام، وأخبر أنه مصدق لأحكام التوراة التي أنزلت علىٰ موسىٰ عليه السلام، وأن الله أعطاه الإنجيل فيه هدىٰ للناس ونور ينير لهم الطريق، ومعترفًا بأحكام التوراة، وهاديًا وواعظًا للمتقين الذين يخافون ربهم.

[٤٧] ثم أمر جل وعلا أهل الإنجيل وهم النصارىٰ أن يحكموا بما أنزل الله فيه، ولكنهم لم يحكموا بما فيه؛ بل حكموا تبعًا لأهوائهم، واعلموا أن من لم يحكم بما أنزل الله فهم الخارجون عن طاعة الله.

[٤٨] واعلم يانبي الله أن الله أنزل إليك القرآن بالحق والصدق الذي لا مرية فيه ولا ريب، وأنه مصدق لما قبله من التوراة والإنجيل، وأنه حاكمٌ عليها وناسخٌ لها؛ فالواجب عليك أن تحكم بينهم بما أنزل الله إليك، ولا تتبع أهواءهم، ولا تترك ما جاءك من الحق، واعلم أن الله جعل لكل أمة شرعًا وسبيلًا خاصًّا بهم، ولو شاء الله لجعلهم علىٰ شريعة واحدة لا يختلفون فيما بينهم، ولكن ابتلاهم فيما أعطاهم وأنزل عليهم؛ ليتبين المطيع من العاصي؛ فسارعوا إلىٰ طاعة الله، وبادروا بالأعمال الصالحة، فإن مرجعكم ومصيركم إلىٰ الله تعالىٰ وسوف يخبركم بما كنتم فيه تختلفون.

[٤٩] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يحكم بين اليهود بموجب الكتاب والسنة، ونهاه أن يتبع أهواء المتحاكمين إليه؛ وأن يحذر أن يصدوه عن بعض ما أُنزل إليه من الحق فيترك العمل به، فإن تولوا وأعرضوا ورفضوا الحق الذي حكمت به بينهم؛ فاعلم أن ذلك عقوبة لهم من الله بسبب بعض ما ارتكبوه من الذنوب والمعاصي، واعلم يارسول الله أن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم جاحدون لآياته مكذبون لشرائعه.

وهذه الآية نسخت الآية السابقة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾، أي: أن الحكم بعد بعثة محمد ﷺ لا يصح إلا حسب ما أنزل الله إليه.

[٥٠] ثم أنكر جل وعلا علىٰ هؤلاء اليهود توبيخًا لهم، فقال سبحانه: أيريد أولئك الخارجون عن طاعة الله أن يحكموا بأحكام الجاهلية التي بنيت علىٰ الهوىٰ والجور، بأن يجعلوا أساس الحكم الميل والمداهنة؟ وهل يوجد أحسن من حم الله لقوم يوقنون بالشرع ويذلون لله سبحانه.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

[٥١] يرشد جل وعلا عباده المؤمنين الذين صدَّقوا الله واتبعوا رسوله وعملوا بشرعه أن لا يتخذوا اليهود والنصارىٰ أولياء؛ لأن بعضهم أولياء بعض، يتناصرون فيما بينهم، ويكونون يدًا علىٰ من سواهم؛ فلا تتخذوهم أولياء، واعلموا أن من يتولهم منكم فإنه منهم؛ لأن التولي التام، يعني: عدم الإيمان بما أنت عليه من هدىٰ، والتولي القليل يدعو إلىٰ الكثير، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا، حتىٰ يكون العبد منهم، واعلموا أن الله لا يهدي القوم الظالمين لأنفسهم المتجاوزين لحدود الله.

[٥٢] ثم أخبر جل وعلا أن الذين في قلوبهم شك ونفاق يسارعون في ولاية الكافرين وصداقتهم، يقولون: نواليهم لأننا نخاف أن يتحول النصر فتصيبنا خسارة أو حادثة؛ فعسىٰ الله أن يأتي بالفتح أو بالنصر للمؤمنين، أو أمر من عنده؛ فيصبحوا علىٰ مآ أسرُّوا في أنفسهم من النفاق والمكر بالمؤمنين نادمين.

[٥٣] ثم أخبر جل وعلا بما قاله المؤمنون الصادقون علىٰ سبيل العجب؛ حيث قالوا مخاطبين اليهود: أهؤلاء أحبابكم وأصدقاؤكم الذين أقسموا وبالغوا في القسم بالله علىٰ أنهم معكم في الدين، وأنهم مؤمنون مثلكم؟ فاعلموا أنهم قد بطلت أعمالهم بسبب كذبهم، وصاروا خاسرين لأنفسهم، خاسرين للإيمان.

[٥٤] ياأيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله من يرجع منكم عن دين الإسلام إلىٰ الكفر؛ -حيث ارتد جماعة بعد موت النبي ﷺ-؛ فسوف يبدلكم الله بقوم يحبون الله ويحبهم، وأنهم رحماء عاطفون علىٰ المؤمنين، أشداء أعزاء علىٰ الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون في الله لومة لائم؛ كما يخاف المنافقون لوم الكفار، واعلموا أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله كثير الفضل عليم بعباده وخلقه.

[٥٥] واعلموا أيها المؤمنون إنما وليكم الله ورسوله والمؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ، الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وهم راكعون لله، خاضعون ومطيعون له.

[٥٦] ثم أخبر جل وعلا أن من يتخذ الله ورسوله والمؤمنين أولياءه؛ فإنه يكون من حزب الله، واعلموا أن حزب الله هم الفائزون في الدنيا والآخرة.

[٥٧] ياأيها الذين صدَّقوا الله واتبعوا رسوله ﷺ لا تصادقوا اليهود والنصارىٰ والكفار والمنافقين؛ الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا وسخرية واستهزاءً بالمؤمنين، ولا تتخذوهم أولياء من دون الله، وخافوا عقاب الله إن اتخذتموهم أولياء لكم من دون الله ورسوله إن كنتم مؤمنين إيمانًا حقيقيًّا.

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

[٥٨] ثـم أخبر جل وعلا أن هؤلاء اليهود والنصارىٰ والمنافقينَ إذا سمعوا المؤذن وهو ينادي للصلاة جعلوا يسخرون ويستهزؤون، وذلك لأنهم قوم لا عقل لهم يرشدهم إلىٰ حقيقة العبادة.

وقوله: ﴿نَادَيْتُمْ﴾ فيه إثبات أن الأذان مشروع وواجب بالقرآن كما ثبت بالسنة.

[٥٩] وقل يانبي الله لهؤلاء المستهزئين من اليهود والنصارىٰ والمنافقين: هل تنكرون علينا إيماننا بالله وكتبه المنزلة علينا، وعلىٰ من كان قبلنا؟ هل تنكرون علينا غير ذلك؟ وهذا بلا شك ليس فيه عيب أو منكر؛ بل هو مما يمدح ويشكر، ولكن لأن أكثركم خارجون علىٰ شريعة الله وعن طاعته كرهتم إيماننا وأنكرتموه علينا.

[٦٠] وقل يانبي الله لهؤلاء المستهزئين: هل أُخْبِرُكُمْ بشر من ذلك عقابًا وجزاءً عند الله، أولئك الذين لعنهم الله وغضب عليهم ومسخهم قردة وخنازير وعبدوا الشيطان، وذلك بطاعته والانقياد لما يأمرهم به، واعلموا أيها اليهود إنكم شر مكانًا يوم القيامة وأضل طريقًا.

[٦١] وإذا جاءكم أيها اليهود المنافقون يقولون لكم: آمنا بالله ورسوله، والحقيقة أنهم دخلوا عندكم كافرين، وخرجوا من عندكم وهم كافرون، والله أعلم بما يكتمون في صدورهم من الكفر والنفاق وخداع المؤمنين.

[٦٢] ثم أخبر جل وعلا أن كثيرًا من هؤلاء اليهود يتسابقون في الإثم والكذب والظلم، ويحرصون علىٰ ذلك كل الحرص، ومن صفاتهم أنهم كانوا يأكلون الحرام، كالربا والرشوة وغير ذلك، فبئست هذه الأعمال القبيحة، والصفات السيئة التي كانوا يعملونها ويتحلون بها.

[٦٣] ثم وبخ جل وعلا علماء اليهود علىٰ سكوتهم علىٰ المنكر، فقال: هلَّا ينهاهم العلماء الربانيون، -الذين التزموا أمر الله وابتعدوا عن معاصيه- عن المعاصي التي تقع منهم كقول الزور والكذب وأكلهم المال الحرام كالربا والرشوة؛ لبئس هذا العمل السيِّيء الذي صنعوه، وهو تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث كان سكوتهم متعمدًا لمنافع خاصة يحصلون عليها.

ويؤخذ من هذه الآية ذم العلماء الساكتين عن قول الحق، وتعليم الناس الخير وأمور دينهم.

[٦٤] يخبر جل وعلا نبيه ﷺ عن قول اليهود الشنيع عن الله جل في علاه؛ حيث قالوا: يد الله مقبوضة عن الإنفاق والإحسان؛ فأجابهم الله بمثل قولهم، فقال سبحانه: غلت أيديهم؛ فكانوا أبخل البشر، ولعنوا بقولهم هذا؛ ثم أخبر سبحانه أن يديه مبسوطتان ينفق كيف يشاء من وجوه الخير والبر، وكل خير ونعمة تنسب إليه سبحانه، فيداه سحَّاء الليل والنهار، ثم بين سبحانه أنه كلما أنزل علىٰ النبي ﷺ شيئًا من القرآن كفروا به فيزداد كفرهم وطغيانهم وبعدهم عن الله، ثم أخبر سبحانه أنه ألقىٰ بينهم العداوة والبغضاء إلىٰ يوم القيامة فجعلهم متباغضين غير متآلفين.

ثم بين سبحانه أنهم كلما أرادوا محاربتك وحرَّضوا الناس علىٰ الحرب علىٰ المؤمنين، فإن الله يُخَذِّلُهم ويبطل كيدهم ويفرق جنودهم، ومن صفاتهم السيئة أنهم يجتهدون بالسعي في الأرض فسادًا بنشر المعاصي والإجرام، والله لا يحب المفسدين؛ بل يبغضهم، وسيجازيهم علىٰ ظلمهم وإجرامهم وإفسادهم.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟
ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟
مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ
بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ
رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ
تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ
وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ
فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ
هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا
مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ
بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

[٦٥] يقول سبحانه وتعالىٰ: ولو أن أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ صدَّقوا الله، واتبعوا رسوله ﷺ، وتمسكوا بدين الإسلام، وخافوا الله واجتنبوا المعاصي، لمحىٰ الله عنهم سيئاتهم، وأدخلهم جنات يتنعمون فيها أبد الآبدين.

[٦٦] ثم أخبر جل وعلا لو أنَّ هؤلاء اليهود طبَّقوا التوراة والإنجيل وعملوا بما فيهما من أحكام؛ لأفاض الله عليهم من بركات السماء، ولأنبت لهم ثمرات الأرض، وهذا جزاؤهم في الدنيا، ولهم في الآخرة أعظم الجزاء، ثم أخبر سبحانه أن من هؤلاء اليهود فريقًا معتدلًا لا يحيد عن الحق، ولكن كثيرًا منهم ساء عملُه.

[٦٧] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يبلغ ما أُنزل إليه من ربه من الآيات والأحكام؛ ثم خوَّفه سبحانه أنه إذا قصَّر في التبليغ وكتم بعضها فليعلم أنه لم يبلغ الرسالة التبليغ الكامل، ولا شك أنه ﷺ بلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتىٰ أتاه اليقين؛ فمن ادعىٰ بعد ذلك أنه ﷺ كتم شيئًا مما أُنزل إليه فقد افترىٰ علىٰ الله ورسوله، ثم أخبر سبحانه أنه حافظ رسوله ﷺ من الناس وسوف يبطل كيدهم ويتولىٰ أمره صلوات الله و سلامه عليه، واعلموا أن الله لا يهدي الكفار الجاحدين لدين الله للإضرار به ﷺ وبالمؤمنين، ولا يمكِّنهم من ذلك.

وهذه الآية دليل علىٰ أن الرسول ﷺ معصوم، ولهذا قرأها ﷺ علىٰ بعض أصحابه الذين يحرسونه حتىٰ يطمئنوا ويتركوا الحراسة.

[٦٨] وقل يانبي الله لهؤلاء اليهود والنصارىٰ: إنكم لستم علىٰ دين وهدي صحيح حتىٰ تعملوا بما في التوراة والإنجيل، وما أنزل إليكم من ربكم، وقد بين جل وعلا صفة محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وأخذ العهد عليهم بالإيمان به وتصديقه، ولذا فإن الإيمان به من إقامة التوراة والإنجيل والعمل بما فيهما، ولتتيقَّن أيها الرسول أن معظم أهل الكتاب سيزدادون إنكارًا للقرآن ظلمًا وكفرًا حسدًا من عند أنفسهم؛ فلا تحزن عليهم فهذا طبعهم؛ فإنهم قوم كفروا بالله ودينه ورسوله، ولا يتورعون عن الإثم حتىٰ عن القدح في الذات الإلهية.

[٦٩] بين جل وعلا أن الذين آمنوا بالله، واليهود، والصَّابئين الذين هم فرقة من أهل الكتاب، والنصارىٰ؛ أن من آمن من هؤلاء بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فهو من أهل الفوز ومن أهل النجاة، وأنه لا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة، ولا يحزنون علىٰ ما تركوه وراءهم من نعيم الدنيا الفاني.

وكلمة (الصابئين) في هذه الآية جاءت مرفوعة؛ لأنها مبتدأ خبره محذوف تقديره (كذلك)، وظاهر السياق أن تكون علىٰ النصب؛ حيث نصبت علىٰ التخصيص فتُقرأ والصابئين، وأحيانًا يكون التخصيص للمدح، وأحيانًا يكون للذم كما في هذه الآية.

[٧٠] يخبر جل وعلا أنه أخذ علىٰ اليهود عهدًا بالقيام بالتوحيد وسائر الشرائع المنزلة عليهم، وأنه أرسل إليهم الرسل من أجل ذلك، ولكن كل العهود نقضوها؛ فكلما جاءهم رسول لا يسير علىٰ هواهم؛ فبعضهم يعاديه ويرفضه ويكذبه قومه، وبعضهم يتعرض للقتل.

ولذلك لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل علىٰ لسان داود وعيسىٰ عليهما السلام، وقد استثنىٰ جل وعلا الصالحين من النصارىٰ الذين إذا سمعوا ما أنزل إلىٰ الرسول: ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [التوبة:٩٢]؛ حيث عرفوا أنه الحق ولم تأخذهم العزة بالإثم كغيرهم.

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

[٧١] يخبر جل وعلا أن بني إسرائيل ظنوا أنه لن ينزل بهم عذاب بسبب عدم تصديقهم؛ فأعماهم الله عن الهدىٰ، وأصمهم عن سماع الحق جزاءً لهم؛ ولم ينتفعوا بما رأوا ولا بما سمعوا؛ ثم تابوا فتاب الله عليهم ورفع عنهم العذاب، ولكنهم رجعوا مرة ثانية إلىٰ العمىٰ والصمم والكفر والضلال والإجرام، واعلموا أن الله مطلع علىٰ أعمالهم، وسيجازيهم عليها.

[٧٢] ثم أخبر جل وعلا بكفر النصارىٰ الذين يقولون: إن المسيح عيسىٰ ابن مريم عليه السلام هو الله، أو ابن الله؛ لأنهم جعلوا عيسىٰ عليه السلام إلهًا يُعبد من دون الله، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهذا من أشد الكفر وأشنعه، ثم أخبر سبحانه أن المسيح عليه السلام قال: يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، وأول كلمة نطقها عيسىٰ عليه السلام عندما تكلم في المهد قال: إني عبد الله ورسوله؛ فهو ما أمرهم إلا بعبادة الله وحده لا شريك له، واعلموا أيها الناس أن من يشرك بالله فقد حرم الله عليه دخول الجنة، وجعل مأواه ومستقره نار جهنم خالدًا فيها أبدًا، ثم ذكر سبحانه أنه ليس للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال من أنصار ينصرونهم من عذاب الله يوم القيامة.

[٧٣] ثم أخبر جل وعلا بكفر النصارىٰ الذين قالوا: إنَّ الله يُجْمَعُ في ثلاثة أشياء: هي الأب، والابن، والروح القدس، ألا يعلم هؤلاء أنه ليس هناك إله حق إلا إله واحد، هو الله وحده لا شريك له؛ فإذا لم ينتهوا عن هذا القول الباطل فسيصيب الذين كفروا عذابٌ أليمٌ في نار جهنم التي هي مآلهم وهم فيها خالدون.

[٧٤] ثم رَغَّبَ جل وعلا هؤلاء النصارىٰ في التوبة، وفتح لهم باب رحمته، فقال سبحانه: ألا ينتهي هؤلاء عن هذا الإفك المبين، وهذه العقائد الباطلة؟، ويرجعوا إلىٰ الله بالتوبة وكثرة الاستغفار؛ فإنه سبحانه كثير المغفرة والرحمة لعباده التائبين.

[٧٥] واعلموا أيها النصارىٰ أن المسيح عيسىٰ ابن مريم عليه السلام ما هو إلا رسول من عند الله كغيره من الرسل الكثيرين الذين مضوا قبله، وأمه مريم عليها السلام صديقة في مرتبة تلي مرتبة الأنبياء وهم الصديقون، وهما من البشر، يأكلان الطعام، ويمشيان في الأسواق؛ فانظر يانبي الله كيف نوضح لهم الآيات الباهرة والحجج والبراهين الساطعة، ثم انظر كيف يصرون علىٰ الكفر والضلال، وينصرفون عن الحق مع وضوحه.

[٧٦] وقل يانبي الله لهؤلاء النصارىٰ الذين عبدوا المسيح: أتعبدون عيسىٰ عليه السلام من دون الله، وهو بشر مثلكم، لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا؟، واعلموا أن الله سميع لأقوال عباده، عليم بأحوالهم.

[٧٧] وقل يانبي الله: ياأهل الكتاب إن الله ينهاكم عن الغلو في دينكم غير الحق، أي: لا تتجاوزوا الحدود الشرعية التي أمر الله بها، ومن الغلو الذي وقعوا فيه: الرهبنة التي ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحديد:٢٧]، والله نهىٰ عن الزيادة كما حذر عن التقصير، ثم أمرهم أن لا يتبعوا أهواء الذين ضلوا عن الحق من أسلافهم، وأضلوا خلقًا كثيرًا عن الطريق الحق الواضح المستقيم.

[٧٨] ثـم أخبر جـل وعـلا أنـه لعـن اليهـود الذيـن كفـروا بـالله وجحـدوا دينـه، أي: طردهـم مـن رحمتـه علىٰ لسـان داود عليه السـلام في الزبـور، وعلىٰ لسـان عيسىٰ ابـن مريـم عليـه السـلام في الإنجيـل، وهـم أصحـاب السـبت، وأكلـة الربـا، والذيـن حرفـوا الكلـم عـن مواضعـه، وذلـك بسـبب عصيانهـم وكفرهـم وضلالهـم واعتدائهـم علىٰ الأنبيـاء والصالحيـن.

[٧٩] ثـم بيـن جـل وعـلا أنهـم كانـوا لا يتناهـون عـن منكـر فعلـوه، أي: لـم يكـن ينهـىٰ بعضهـم بعضًـا عـن المنكـر إذا فعلـوه، وهـذا مـن أقبـح مـا كانـوا يفعلـون، ولبئـس مـن كانـوا يفعلـون مـن أفعالهـم القبيحـة.

[٨٠] ثـم أخبر جـل وعـلا أن كثيـرًا مـن يهـود المدينـة يتولـون الذيـن كفـروا مـن المشـركين؛ يصاحبونهـم ويوادُّونهـم وينصرونهـم، وهـم يعلمـون أنهـم كفـار تحـرم موالاتهـم كمـا هـو مذكـور في كتابهـم، فياقبـح هـذا العمـل الـذي قامـوا بـه والـذي استوجب سـخط الله عليهـم ممـا كان سببًا في خلودهـم في العـذاب الأليـم.

[٨١] ثـم بيـن جـل وعـلا أن هـؤلاء اليهـود لـو أنهـم آمنـوا بـالله إيمانًـا حقيقيًّـا، واتبعـوا رسـوله ﷺ، وآمنـوا بالقـرآن العظيـم الـذي أنزلـه علىٰ نبيـه ﷺ؛ مـا اتخـذوا المشـركين أوليـاء مـن دون الله؛ لأن مـوالاة الكافرين كفـر، ولكـن كثيرًا منهم اسـتحقوا الطرد مـن رحمـة الله بسـبب فسـقهم وارتكابهـم المعاصـي.

[٨٢] واعلـم يـا نبي الله أنـك سـتجد أشـد النـاس حقـدًا وكرهًـا لـك ولدينـك، ولمـن آمـن بـك هـم اليهـود والمشـركون، وسـتجد أن أقـرب النـاس مـودة ومحبـة لـك هـم أتبـاع عيسىٰ عليـه السـلام الذين سـموا أنفسـهم نصارىٰ؛ لأن فيهم قسيسين ورهبانًـا يعلمـون الحـق ويخافـون الله عـز وجـل، ولأنهـم لا يسـتكبرون عـن سـماع الحـق وهـو القـرآن.

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾

١٢١

[٨٣] ثـم أخبـر جـل وعـلا أنهـم إذا سـمعوا مـا أُنـزل علـىٰ الرسـول مـن القـرآن تـرىٰ أعينهـم تفيـض مـن الدمـع خشـوعًا وتأثـرًا ممـا عرفـوا مـن الحـق، يقولـون: ربنـا صدَّقنـا بـك وبنبيـك وبكتابـك؛ فاكتبنـا مـع النبييـن والصديقيـن مـن أمـة محمـد ﷺ.

وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا
رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٨٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ
طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ
بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ
فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ
أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ
ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ
أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ
رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠

[٨٤] ثم قال هؤلاء القسيسون والرهبان الذين تفيض أعينهم من الدمع: وما الذي يمنعنا أن نؤمن بالله سبحانه وتعالىٰ، وبما جاءنا من الحق وهو القرآن العظيم، ونحن نرجو أن يدخلنا ربنا الجنة مع القوم الذين صلحت أعمالهم وأخلصوا نياتهم لله.

[٨٥] ثم بين جل وعلا أنه بسبب أقوالهم الطيبة وصدقهم جازاهم الله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين فيها خلودًا أبديًّا، وذلك الجزاء الذي أخذوه هو جزاء كل محسن أحسن عمله وآمن بالله ورسوله واتبع شرعه.

[٨٦] ولما ذكر جل وعلا جزاء أولئك الصادقين ذكر جزاء المسيئين الذين كفروا بالله وجحدوا دينه وكذبوا رسله وأنكروا الأدلة التي جاؤوا بها من عند الله، ثم بين سبحانه أن هؤلاء هم المستحقون للعذاب الشديد في نار جهنم.

[٨٧] ياأيّها الذين آمنوا بالله لا تحرِّموا علىٰ أنفسكم المطاعم والمشارب الطيبة التي أحلها الله لكم، وأكثروا من شكر الله سبحانه علىٰ هذه النعم، ولا تتجاوزوا حدود الله التي حدها لكم في كتابه وسنة نبيه ﷺ، باعتقاد حل ما حرم الله من المطاعم والمشارب؛ فإنه سبحانه يبغض ويمقت ويعاقب الظالمين المجاوزين لحدوده.

[٨٨] ثم أمر جل وعلا عباده أن يأكلوا من رزق الله الذي ساقه إليهم، وأمرهم أن يخافوا الله الذي هم به مصدِّقون، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

[٨٩] ثم أخبر جل وعلا أنه لا يؤاخذ باليمين التي تصدر من الإنسان علىٰ وجه اللغو، أي: اليمين التي لا يقصدها الحالف؛ بل تجري علىٰ لسانه عادة، ولا يترتب عليها إضاعة حق ولا ضرر علىٰ الغير، وإنما العقاب علىٰ اليمين المنعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنث فيها صاحبها.

وهذه كفارتها يُخَيَّرُ الحانث فيها بين ثلاثة أمور:

الأول: إطعام عشرة مساكين من أوسط طعام أهل البلد.

والثاني: كسوة عشرة مساكين بما يكفي في الكسوة عرفًا.

والثالث: تحرير رقبة، أي: إعتاق مملوك من الرق.

ثم بين سبحانه أنه إذا لم يستطع الحانث أي واحدة من هذه الثلاث فعليه بالأمر الرابع: وهو صيام ثلاثة أيام متتابعة، أي: أن الأمر الرابع وهو الصيام غير داخل في التخيير، وإنما يرجع إليه الحانث عند عدم القدرة علىٰ فعل أحد الأمور الثلاثة، وهذه اليمين غالبًا ما تكون في حاضر الحانث أو مستقبله، أما الأحداث التي حصلت من الحانث في الماضي فإن كان حلفه لإبطال حق مالي أو غير ذلك وكان كاذبًا، فإن هذه تسمىٰ باليمين الغموس التي تغمس صاحبها في النار، ولا كفارة لها إلا التوبة، ثم رد الحقوق التي ضاعت بسببها إن أمكن، ثم بين سبحانه أن هذه هي كفارة اليمين الشرعية التي أمركم الله بها إذا حنثتم في أيمانكم، ثم أمر سبحانه عباده بحفظ اليمين، ومن حفظها اجتناب اللغو فيها، ومن حفظها أيضًا الوفاء بما حلفتم عليه، ومن حفظها أداء الكفارة إذا لم تَفُوا بها، واعلموا أن بمثل هذا التوضيح لحكم الأيمان والتحلل منها؛ فقد أوضح لكم سبحانه آياته المتضمنة لشرائع دينه لتشكروه علىٰ هدايته وتوفيقه لكم إلىٰ الطريق المستقيم.

[٩٠] يا أيها الذين آمنوا بالله إنما الخمر وهو المسكر الذي يخامر العقل ويُذهبه، والقمار، والأصنام التي تنصب للعبادة، والقداح التي كان يستقسم بها أهل الجاهلية؛ كل هذه الأشياء خبث مستقذر من عمل الشيطان يزينه لكم لتفعلوه؛ فابتعدوا عن هذا الرجس المعبِّر عن هذه الأشياء؛ لعلكم تفلحون في الدنيا والآخرة.

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

[٩١] ثم بين جل وعلا أن الشيطان يغري الناس بفعل هذه الرذائل لأنه يريد أن يوقعهم في بعض الأمور التي تبعدهم عن دينهم وعن طاعة ربهم، **ومن ذلك**: أنه يريد أن يوقع بين الناس العداوة والبغضاء؛ فالسكران إذا فقد عقله يسبُّ ويضرب وربما يقتل، والمقامر يحقد علىٰ من غلبه لأنه أخذ جميع ماله.

ومن ذلك أيضًا: أنه يريد أن يبعد الناس عن ذكر الله وعن طاعته؛ فالسكران ذهب عقله، فلا يعرف ذكر الله، والمقامر مشغول باللهو واللعب؛ فلا يذكر الله إلا قليلًا، وربما لا يذكره أبدًا.

ومن ذلك أيضًا: أنه يريد أن يبعدهم عن الصلاة التي هي من أجلِّ العبادات؛ فالسكران لا يعقل الصلاة، والمقامر مشغول في اللعب واللهو، فتمضي الساعات وهو يقامر حتىٰ تخرج الصلوات عن وقتها.

ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بالانتهاء عن طاعة الشيطان في هذه الرذائل وفي غيرها من المنكرات والفواحش، والرجوع إلىٰ طاعة الرحمن.

[٩٢] ثم أمر جل وعلا عِبَادَهُ بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وأمرهم بالحذر من الوقوع في الذنوب والمعاصي، وبين لهم أن من أعرض عن طاعة الله فليس علىٰ الرسول ﷺ إلا البلاغ الواضح المبين الذي لا لبس فيه، ولا شك أنه قد فعل ﷺ **ذلك**؛ حيث بلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة وجاهد في الله حق جهاده حتىٰ أتاه اليقين.

[٩٣] ثم بين جل وعلا أن الذين آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة ليس عليهم إثم لا فيما أكلوا أو شربوا من الحلال الطيب، ولا فيما سبق أن أكلوه أو شربوه من المحرمات ثم ماتوا قبل تحريمها، إذا خافوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وآمنوا بالله إيمانًا حقيقيًّا، وعملوا الأعمال الصالحة، ثم استمروا علىٰ خوفهم من الله وعلىٰ إيمانهم طول حياتهم، ثم ازدادوا خوفًا من الله مع إحسانهم إلىٰ أنفسهم بكثرة الطاعات، وإلىٰ غيرهم بنفعهم بما يستطيعون من الخير، ثم بين سبحانه أنه يحب المحسنين الذين أخلصوا في أعمالهم وأدَّوها علىٰ وجه الكمال. والمقصود من الآية الصحابة الذين كانوا يشربون الخمر ثم ماتوا قبل تحريمها؛ فبين سبحانه أنه لا إثم عليهم بسبب إيمانهم وخوفهم من الله وإحسانهم.

[٩٤] هذا نداء من الله جل وعلا لبعض الصحابة رضي الله عنهم يُخبر فيه أنه سوف يختبرهم ببعض الصيد يسوقه إليهم وهم محرمون بالحج أو العمرة؛ بحيث يتمكنون من صيده بأيديهم ورماحهم بكل يسر وسهولة؛ ليعلم الله علمًا ظاهرًا بيِّنًا للخلق من يخشاه بالغيب، وهذا يعم المقصودين في هذه الآية وهم الصحابة الذين كانوا مُحرمين بالعمرة وهم في الحديبية فأتاهم الصيد من كل الجهات ابتلاءً لهم، ويعم أيضًا غيرهم؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وفي وقتنا الحاضر تنطبق علىٰ كل من يسافر إلىٰ الدول الغربية فإنه سوف يجد كل المحرمات في متناول يده؛ بل ربما بعض هذه المحرمات تدخل عليه في الفندق أو في مسكنه، ثم بين سبحانه أن من تجاوز حدود الله -بعد أن علم- فأقدم علىٰ الصيد وهو محرم؛ فإنه يستحق العذاب الأليم لاستهانته بأوامر الله تعالىٰ.

[٩٥] وهذا نداء آخر من الله تعالىٰ يحذر فيه عباده المؤمنين أن يقتلوا الصيد وهم مُحْرِمُونَ بالحج أو العمرة، ثم قال سبحانه: ومن قتله منكم متعمدًا وهو محرم فعليه جزاءٌ مماثل لما قتل من الأنعام، وهي: الإبل والبقر والغنم، وهذا المثل يقدره ويحكم به رجلانِ عدلانِ منكم، وما حكما به يذبح في الحرم ويوزع علىٰ فقراء الحرم؛ فإذا لم يكن للصيد مماثل من النعم ففي هذه الحالة تقدر قيمته ويشترىٰ بقيمته طعامًا يوزع علىٰ فقراء الحرم، لكل مسكين صاع من التمر أو الحب، ومن كان فقيرًا لا يملك المال فعليه أن يصوم أيامًا بعدد الفقراء الذين كانوا يستحقون الطعام لو أخرجه، وهذا الحكم لكي يحس المعتدي علىٰ حرمات الله بنتائج جرمه، ثم بين سبحانه أن من صاد وهو محرم قبل التحريم فقد عفا الله عما صدر منه، أما من رجع إلىٰ الصيد بعد العلم بالتحريم؛ فإن الله سوف ينتقم منه ويعاقبه عقابًا شديدًا، واعلموا أن الله لا يغلبه غالب، ولا يمنعه من الانتقام ممن عصاه مانع.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

[٩٦] واعلموا أيها المحرمون أن الله جل وعلا أحلَّ لكم صيد البحر أن تأكلوه، مما لا يعيش إلا في البحر كالسمك، كما أحل ما يقذفه البحر ان تجعلوه طعامًا لكم، لتتمتعوا بأكله في حال إقامتكم وفي حال سفركم، ثم بين سبحانه أنه حرم عليكم صيد البر وأنتم محرمون فقط، أما لو صاده غير المحرم فيجوز للمحرم أكله، كما ثبت ذلك في السنة، وعليكم أيها الناس أن تخافوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ فإنكم ستجمعون إليه يوم القيامة، فيجازيكم علىٰ أعمالكم، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

[٩٧] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل الكعبة قيامًا للناس؛ لأن أمور الدين والدنيا تتحقق فيها؛ فبها تحطُّ السيئات بالحج والعمرة، وبها تعرف المواقيت، وبها يجد التاجر من يشتري تجارته؛ فيربح في التجارة، ويربح في حط السيئات، وجعل سبحانه الأشهر الحرم وهي: (ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب)، قيامًا لمصالح الناس، لذلك لا يجوز لأحد أن يعتدي علىٰ أحد فيها، وجعل سبحانه الهدي متاعًا للفقراء والضعفاء، فلذلك لا يجوز الاعتداء علىٰ بهيمة الأنعام التي أهديت للحرم، ولا يجوز الاعتداء أيضًا علىٰ بهيمة الأنعام التي جعلوا عليها قلائد كشعار بأنها مما أهدي للحرم، كل هذا لتتيقنوا وتعرفوا أيها الناس أن الله جل في علاه يعلم جميع ما في السماوات والأرض، وأنه سبحانه هو المشرع، وأنه لا يشرع لعباده إلا الأحكام التي فيها مصلحتهم، ثم بين سبحانه أنه بكل شيء عليم؛ فلا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وقد سميت الكعبة بهذا الاسم لأنها مكعبة، أي: ذات أركان أربعة.

[٩٨] واعلموا أيها الناس أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وعمل الأعمال الصالحة.

[٩٩] ثم أخبر جل وعلا أنه ليس علىٰ الرسول ﷺ إلا إبلاغ الناس الهدىٰ، وليس عليه هدايتهم؛ فالهداية بيد الله وحده، ثم بين سبحانه أنه يعلم كل ما تبدون ظاهرًا أمام الناس، ويعلم كل ما تخفونه وتكتمونه.

[١٠٠] وقل يانبي الله للناس: اعلموا أنه لا يستوي الحرام الخبيث والحلال الطيب، ولو أعجبكم كثرة الخبيث، وذلك أن غالب أهل الدنيا يعجبهم كثرة المال وزينة الحياة الدنيا وزخرفها، ولهذا يجب عليكم أن تخافوا الله يا أصحاب العقول السليمة؛ لتفوزوا برضوان الله وبجنته.

[١٠١] نهىٰ جل وعلا عباده أن يسألوا نبيهم عليه الصلاة والسلام عما قد يسوؤهم إبداؤه، ويندموا بعد ذلك علىٰ السؤال عنها، ثم أباح سبحانه لهم أن يسألوا عن الأشياء التي نزل بها القرآن مجملة لمعرفة بيانها وتفاصيلها للحاجة إليها، ثم رحمة منه جل في علاه أنه عفا عن الأشياء التي نهاهم عن السؤال عنها، واعلموا أن الله غفور لمن تاب وأناب، وأنه حليم لا يعاجل بالعقوبة.

[١٠٢] ثم بين جل وعلا أن مثل هذه الأسئلة قد سألها أقوام مِن قبلكم رسُلَهم، فلما أُمِروا بها كفروا بها؛ فاحذروا أيها الناس أن تفعلوا فعلهم.

[١٠٣] ثم ذم جل وعلا بعض الخرافات والاعتقادات الباطلة التي كان يعملها المشركون في الجاهلية؛ حيث كانوا يضعون علىٰ بعض أنواع الإبل شعارًا ثم يحرِّموها ويتركوها في البر تقربًا للآلهة بدون دليل أو برهان، وهذا من جهلهم وتعديهم وتشريعهم في الدين ما لم يأذن به الله، فمن ذلك:

أولًا: البحيرة: وهي ناقة إذا وصلت لمرحلة معينه فإنهم يشقون أذنها ثم يحرِّمون ركوبها.

وثانيًا: السائبة: وهي ناقة أو شاة أو بقرة إذا بلغت سنًّا معينة اتفقوا أن يسيبوها ويحرِّموا ركوبها واستعمالها وأكل لحمها.

وثالثًا: الوصيلة: وهي الناقة التي يكون أول إنتاجها أنثىٰ فيجعلوها لهم، وإن كان أول إنتاجها ذكرًا قالوا: هي لآلهتهم.

ورابعًا: الحام: وهو جمل إذا وصل إلىٰ حالة معروفة بينهم حموا ظهره عن الركوب والحمل.

ولا شك أن هذه عبادات لم يأذن بها الله، ولكن الذين كفروا وجحدوا آيات الله فعلوا ذلك افتراءً وكذبًا علىٰ الله، ثم أخبر سبحانه أن أكثر هؤلاء الكفار لا عقول عندهم يفكرون بها، وأنهم لا يميزون بين الحق والباطل.

[١٠٤] واعلموا أيها الناس أنه إذا قال أحد المخلصين لهؤلاء المشركين ناصًحا لهم: تعالوا إلىٰ ما أنزل الله في القرآن، وإلىٰ ما بينه الرسول ﷺ في سنته في معرفة الحلال والحرام في هذه الاشياء التي ذكرت في الآية السابقة وغيرها، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من العادات والتقاليد، فرد سبحانه علىٰ سفه هؤلاء وضلالهم توبيخًا لهم، فقال: أيقولون هذا القول حتىٰ لو كان آباؤهم لا يفهمون شيئًا في الحلال والحرام، ولا يهتدون إلىٰ طريق الحق؟

[١٠٥] يا أيها الذين آمنوا بالله واتبعوا الرسول ﷺ عليكم أن تستمسكوا بشرع الله الذي أُنزل إليكم وتُلزموا أنفسكم باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، ولن يضركم بعد ذلك ضلال من ضل من الناس إذا نصحتم، وأمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر، وقمتم بالواجبات الإيمانية، والتزمتم الطريق المستقيم الذي أمر الله به، واعلموا أيها الناس أنكم جميعًا سترجعون إلىٰ الله يوم القيامة، وسوف يخبركم بما عملتم في الدنيا من الخير والشر، وسيجازيكم عليه بعدله ورحمته.

وسبب نزول هذه الآية: أن بعض الصحابة كانوا يتحسرون ويتألمون لإصرار بعض إخوانهم وأحبائهم في الجاهلية علىٰ الكفر.

وهذه الآية تفيد أن من لوازم الهداية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال وهو علىٰ المنبر: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها علىٰ غير ما وضعها الله: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ** ﴾، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم؛ فلم ينكروه، يوشك أن يعمَّهم الله بعقاب**»[1].

[١٠٦] يا أيُّها الذين آمنوا بالله حينما تظهر علىٰ أحدكم علامة الموت ويريد أن يوصي بشيء، فَلْيُشْهِدْ علىٰ الوصية رجلين عدلين من أقاربه، أو آخرين من غير أقاربه إذا كان في سفر وظهرت عليه أمارات الموت، وهذان الشاهدان إذا شككتم في أمرهما بخيانة ونحو ذلك؛ فعليكم أن تحبسوهما من بعد أداء الصلاة التي يجتمع عليها الناس؛ وتطلبوا منهما أن يَحْلِفا بالله قائلين: لا نستبدل بيمينه عوضًا، ولا نحلف بالله كاذبين، ولو كان الذي سنقسم من أجله أحد أقاربنا، واعلموا يقينًا أننا لن نخفي الشهادة التي أمرنا الله بأدائها علىٰ وجهها الصحيح، فإذا أخفيناها

وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨

١٢٥

أو قلنا غير الحق؛ لنكونن من الظالمين المستحقين لعذاب الله.

[١٠٧] ثم بين جل وعلا أنه إذا اتُّهم الشاهدان بعد ذلك بالكذب في الشهادة، وكان ذلك حقًّا، أي: ثبت أنهما كاذبان؛ فليقم مقامهما شاهدانِ آخَرَانِ من أقرباء الميت؛ أو من الموصي إليهم؛ فيحلفان بالله أن هذين الشاهدين قد كذبا، وأن يميننا أولىٰ بالقبول من يمينهما، ولن نتجاوز الحق في شهادتنا أبدًا، ولم نتهم الشاهدين زورًا وبهتانًا، وإننا لو فعلنا ذلك لنكون من الظالمين المعتدين لحدود الله.

[١٠٨] واعلموا أيها الناس أن ذلك الحكم المذكور أقرب إلىٰ أن يجعل الشهود يأتون بالشهادة عادلة لا ظلم فيها ولا جور، وأقرب إلىٰ أن يخافوا أن تُردَّ أيمانهم فلا يكذبوا خوف الفضيحة، وخافوا الله أيها الناس ولا تعصوه، واسمعوا ما يأمركم به وأطيعوه، فإن الله لا يوفق القوم الخارجين عن طاعته لرفضهم الهدىٰ، ولذا فإنه جل وعلا يتركهم وما اختاروا لأنفسهم.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٣)، والطبراني في الأوسط (٢٥١١).

۞ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

[١٠٩] وتذكروا أيها الناس يوم أن يجمع الله جل وعلا الرسل والخلائق جميعًا يوم القيامة؛ للحساب والجزاء، ثم يسأل سبحانه الرسل: عن استجابة أممهم لهم - وهو سبحانه أعلم -، وليس المقصود معرفته سبحانه، ولكن توبيخًا للكفار؛ كما في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير:٨-٩]؛ فالمراد: تأنيب وتبكيت الكفار والزنادقة والعصاة؛ فأجاب الرسل ربهم فقالوا: لا علم لنا يارب بجانب علمك، فأنت أعلم بما قالوا وما فعلوا، وإن معرفتنا لأمور الغيب ظاهرية، أما أنت فمعرفتك لما يُظهرون وما يُبطنون، إنك أنت العليم بكل ما خفي أو ظهر من أمور الخلق.

[١١٠] وتذكروا أيها الناس يوم يقول جل وعلا يوم القيامة: يا عيسىٰ ابن مريم اذكر نعمتي وفضلي عليك وعلىٰ والدتك؛ حيث خلقتك من غير أب، ثم اصطفيت والدتك علىٰ نساء العالمين، ثم أيدتك بجبريل عليه السلام فقواك وأعانك علىٰ أن تكلم الناس وأنت رضيع علىٰ غير العادة المعروفة، وكذلك أعنتُك علىٰ دعوة قومك إلىٰ التوحيد يوم أن صرت شابًّا مكتمل الشباب والقوة، وأنني علمتك القراءة والكتابة والحكمة، فكنت قادرًا علىٰ فهم التوراة التي أنزلتها علىٰ موسىٰ عليه السلام، وفهم الإنجيل الذي أنزلته عليك، وأني أعطيتك القدرة علىٰ أن تصنع من الطين صورة علىٰ شكل الطير ثم تنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، وعلىٰ أن تشفي الذي وُلد أعمىٰ فيبصر بإذن الله، وتشفي الأبرص فيعود جلده سليمًا معافىٰ بإذن الله، وأنك تحيي الموتىٰ فيقومون من قبورهم أحياء بإذن الله، وأنني منعت بني إسرائيل من قتلك عندما همُّوا بذلك؛ مع أنك جئتهم بالآيات البينات والدلائل الواضحات التي تدل علىٰ نبوتك، ثم بعد هذه المعجزات الباهرة جحدوا نبوتك وكفروا بالله؛ بل قالوا: إن كل ما جئت به هو من السحر الظاهر.

ولاحظ أيها المستمع أن الله كرر في هذه الآية قوله: ﴿بِإِذۡنِي﴾ مع كل معجزة؛ لإشعار المتلقين للرسالات من الحواريين، ثم من غيرهم ممن جاءوا بعدهم؛ أنه ليس له من الأمر شيء، ولا قدرة له إلا علىٰ ما أقدره الله عليه، ومع ذلك أَلَّهَهُ بعضهم، أما اليهود فجعلوه من السحر فقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

[١١١] وتذكر يا عيسىٰ نعمة الله عليك يوم أن أوحىٰ سبحانه لأنصارك الحواريين، وحي إلهام، وقذف في قلوبهم أن يؤمنوا بالله ويوحدوه ويتبعوك، فقالوا: آمنا بالله، ونشهد أننا مستسلمون منقادون لأمر الله.

[١١٢] وتذكر يا عيسىٰ يوم أن قال الحواريون لك: هل يستطيع ربك إن دعوناه أن ينزل علينا طعامًا من السماء؟ ولم يقولوا: (ربنا)، وهذا ما ينبئ عن طبيعتهم، وأن معرفتهم بالله لم تتمكن من قلوبهم، وكذلك قولهم في الآية التالية: ﴿أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾، فقال لهم عيسىٰ عليه السلام: اتقوا عذاب الله تعالىٰ، إن كنتم مؤمنين بالله إيمانًا حقيقيًّا.

وهذه الآية فيها دليل علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص، وهو ما تنكره كل الفرق ما عدا أهل السنة.

[١١٣] ثم قال الحواريون لنبيهم عيسىٰ عليه السلام: واعلم يا عيسىٰ أننا نريد بسؤالنا هذا أن نأكل من هذه المائدة لتطمئن قلوبنا بقدرته سبحانه، ونتأكد أنك قد صدقتنا فيما أخبرتنا عن الله سبحانه، وأنك نبي مرسل من عند الله، ونشهد لك بهذه المعجزة عند كل من لم يحضرها من الناس.

[١١٤] ثم أخبر جل وعلا أن عيسىٰ عليه السلام دعا ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، وسوف نجعل اليوم الذي تنزل فيه هذه المائدة عيدًا نعظمه، ويفرح فيه من هم في زماننا من أهل ديننا ومن يأتي بعدنا من المؤمنين، وتكون هذه المائدة آية منك دالة علىٰ عظيم قدرتك، وأنني نبي مرسل من عندك، وارزقنا ياربنا عليها طعامًا نأكله، فإنك أنت خير الرازقين.

[١١٥] فأجاب جل وعلا دعاء عيسىٰ عليه السلام، وأخبره أنه سوف ينزل علىٰ قومه هذه المائدة التي طلبوها، ثم هدد سبحانه أن من يكفر من بني إسرائيل بعد نزول المائدة أن الله سوف يعذبه عذابًا شديدًا لن يعذب مثله أحدًا من العالمين، ولكنهم خالفوا أمر الله ولم يوفوا بالوعد فعذبهم الله وكان عذابهم أنهم مُسخوا قردة وخنازير.

وقد ذكر المفسرون في نزول المائدة قولين:

القول الأول: أنها نزلت.

القول الثاني: أنها لم تنزل؛ لأنهم خافوا من التهديد الذي جاء في آخر الآية: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾، ولذلك عَدَلُوا عن طلبها.

والقول الأول هو قول الجمهور، وهو الصواب، لأن الله قال: ﴿**إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**﴾، ووعد الله ووعيده حقٌّ وصدق.

[١١٦] واذكر يانبي الله يوم أن يسأل جل وعل عيسىٰ عليه السلام ويقول له: هل قلت ياعيسىٰ للناس: اتخذوني وأمي إلٰهين يُعبدان من دون الله؟، وهذا سؤال لتبكيت وتأنيب عبدته وعبدة أمه، وهو مثل سؤال الرسل: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩]، ومثل قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨-٩]، فالمقصود: هو تبكيت ولوم وتأنيب الفاعلين لذلك، فقال عيسىٰ عليه السلام: إني أنزهك يارب عما لا يليق بك، وإنه لا يصح ولا يجوز لي أن أقول ما ليس لي بحق، فكيف لي أن أدعي الألوهية؟ تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا؛ ثم قال عيسىٰ: فإن كان صدر مني هذا القول الشنيع فإنك سوف تعلمه حتمًا؛ لأنك علام الغيوب؛ فتعلم ما أكنه في نفسي؛ فكيف بالذي أقوله بلساني؟ وأنا لا أعلم ما في نفسك حتىٰ تتكلم به، إنك أنت ياربنا علام الغيوب.

[١١٧] ثم قال عيسىٰ عليه السلام: ما قلت لهم يارب إلا ما أمرتني به، وهو عبادة الله خالقي وخالقهم، وقد كنت شهيدًا علىٰ أعمالهم وأنا مقيم فيهم؛ فلما رفعتني إلىٰ السماء كنت أنت الرقيب علىٰ أعمالهم، والمطلع علىٰ سرائرهم وضمائرهم، وأنت علىٰ كل شيء شهيد، قد أحاط علمك بكلِّ شيء.

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

[١١٨] ثم قال عيسىٰ عليه السلام: يارب إن تعذب من أقام منهم علىٰ الكفر فإنهم عبادك، وأنت خالقهم، تفعل ما تشاء فيهم، وإن تغفر لمن آمن منهم؛ فإنك أنت العزيز الذي لا يغالب، الحكيم في وضع الأمور في موضعها المناسب بحسب ما تقتضيه حكمته سبحانه.

[١١٩] ثم يقول جل وعلا يوم القيامة: واعلموا أن هذا هو اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقُهم، أي: الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه؛ فهؤلاء لهم جنات تجري من تحتها قصورها وأشجارها الأنهار، وهم مقيمون في هذا الجنات لا يخرجون منها أبدًا، يتمتعون فيها برضىٰ الله عنهم ورضاهم عنه؛ بسبب هذا العطاء وهذا الثواب العظيم. وذلك النعيم الذي حصلوا عليه هو الفوز العظيم والثواب الجزيل من رب العالمين.

[١٢٠] ثم ختم جل وعلا هذه السورة ببيان أن له وحده سبحانه ملك جميع ما في السماوات والأرض وما فيهن، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

سُورَةُ الأَنْعَامِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨

١٢٨

سورة الأنعام

سورة الأنعام مكية وآياتها خمس وستون ومائة آية، وقد نزلت هذه السورة كلها جملة واحدة غير مجزأة.

[١] بدأت هذه السورة بحمد الله تعالىٰ، وهناك خمس سور في القرآن بدأت بالحمد، وهي: هذه السورة، والفاتحة، والكهف، وسبأ، وفاطر، والألف واللام في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾، لاستغراق جميع المحامد؛ واللّام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾، لاختصاصه جل وعلا بالحمد، وأنه وحده الذي يستحق الحمد الكامل؛ فهو الذي خلق السماوات والأرض، وخلق الظلمات، أي: الليل والنهار، وذلك بخلق الشمس والقمر، ومع هذا الوضوح من الخلق والإبداع لهذه المخلوقات فإن الكفار يشركون مع الله غيره، ويساوون بينه سبحانه وبين الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا ترزق؛ فتنزه سبحانه عن الشبيه والمثيل.

[٢] ثم أخبر جل وعلا أنه هو الذي خلق أبانا آدم عليه السلام من طين، وخلق نسله من بعده من ماء مهين، وتعهد الله برعايتهم في مراحل خلقهم، ثم بين سبحانه أنه كتب مدة محددة لنهاية أعمار الناس بعد أن عاشوا زمنًا معينًا مقدَّرًا في حياتهم الدنيا إذا لم يستعجل أحدهم نفسه؛ بأن يقتل نفسه بانتحارٍ وغيره، وهذا ما يُسمىٰ بالعمر الاخترامي، وهذا هو المقصود بقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗا﴾، ثم بين سبحانه أنه كتب عمرًا آخر محددًا لا يعلمه إلا الله، يبدأ بموت الإنسان ويستمر حتىٰ يبعثهم الله من قبورهم؛ ليحاسبهم علىٰ أعمالهم، وهذا هو المقصود بقوله: ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، وبعد كل هذه الدلائل وهذه البراهين الواضحة فإنكم أيها المشركون تشكّون في قدرة الله علىٰ البعث بعد الموت.

[٣] ثم أخبر جل وعلا أنه هو الله المعبود بحق في السماوات وفي الأرض، وأنه العالم بالسر والجهر، ويعلم ما يكسب كل شخص من خير وشر، ثم يوم القيامة يجازي كلًّا بعمله.

[٤] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الكفار الجاحدين لدين الله ما تأتيهم من دلالة أو حجة واضحة تدل علىٰ وحدانية الله سبحانه وتعالىٰ، أو صدق نبوته ﷺ؛ إلا تراهم لا يلقون لها بالًا ولا يستمعون لها؛ بل يتلقونها بالإعراض والسخرية والاستهزاء.

[٥] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المشركين جحدوا الحق الذي جاء به نبينا محمد ﷺ؛ فسوف يعلمون يوم القيامة – بعد أن يروا العذاب – أن ما كانوا يستهزؤون به هو الحق والصدق، وهذا تهديد ووعيد شديد لهؤلاء المكذبين المستهزئين.

[٦] ثم قال جل وعلا علىٰ سبيل التحذير لأهل مكة: ألم تشاهدوا ياأهل مكة كم أهلك الله قبلكم من الأمم عبر عشرات القرون، وقد مكن الله لهم في الأرض ما لم يمكن لغيرهم من الأمم؟ وأعطاهم من النعيم ما لم يعط لغيرهم،؛ ومن ذلك أنه أرسل عليهم المطر متتابعًا وغزيرًا، وجعل الأنهار تجري من تحت بيوتهم، وسخر لهم الصناعات؛ حتىٰ عاشوا في نعيم ورفاهية، وبعد كل هذا التمكين وهذا النعيم أهلكهم الله ودمرهم؛ بسبب ما ارتكبوا من الذنوب والمعاصي وأعظمها الكفر والشرك بالله، ثم أخبر سبحانه أنه أنشأ بعد هذه الأقوام التي أهلكها ودمرها أقوامًا آخرين.

[٧] ثم أخبر جل وعلا بطلب بعض الكفار من النبي ﷺ أن ينزِّل عليهم القرآن مكتوبًا في أوراق ليلمسوه بأيديهم؛ وقد أوضح سبحانه طلبهم في آية أخرىٰ وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء:٩٣]، لكن الله سبحانه عالم السر وأخفىٰ أخبر نبيه ﷺ أنهم لو نُزِّلَ عليهم الكتاب ولمسوه بأيديهم لقالوا: إن ما جئت به يامحمد هو سحر واضح بيّن لا شك فيه.

[٨] وأخبر جل وعلا أيضًا أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن ينزِّل عليهم مَلَكًا من السماء، فقال سبحانه لنبيه ﷺ: حتىٰ لو أنزلنا يانبي الله عليهم ملكًا من السماء إجابة لطلبهم؛ لأصروا واستمروا علىٰ الكفر والضلال؛ وحينئذ سوف نهلكهم جميعًا ولا يُعْطَوْن فرصة للتوبة، وهذه سنة الله في الأمم السابقة إذا طلبوا معجزة ثم لم يؤمنوا فتنزل بهم العقوبة ويُستأصلون، والله سبحانه أراد بهذه الأمة أن تمثل الإسلام وتنشره في الأرض.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

[٩] ثم أخبر جل وعلا أنه لو جعل الرسول المرسل إليهم من الملائكة لجعله في صورة رجل من البشر حتىٰ يستطيعوا مجالسته والتحدث إليه إذ الحكمة تقتضي ذلك؛ لأنهم سوف تفزعهم رؤية الملك في صورته الحقيقية، ثم بين سبحانه حتىٰ لو أن هذا الملك جاءهم في صورة البشر لاشتبه الأمر عليهم كما اشتبهوا في أمر محمد ﷺ.

[١٠] يسلي جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ، ويخبره أن لا يحزن علىٰ تكذيب قومه له، فكما استهزأ بك وسخر منك يانبي الله قومك؛ فقد استهزأ الكفار بأنبيائهم الذين بعثوا إليهم من قبلك؛ فكانت النتيجة أن الله أنزل بهم العذاب الشديد الذي أحاط بهم من كل مكان؛ بسبب استهزائهم وضلالهم وكفرهم.

[١١] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المستهزئين من قومه: يامعشر المشركين سيروا في الأرض وانظروا واعتبروا كيف عاقب الله الأمم من قبلكم؛ فاحذروا وخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

ولا شك أن هذه سنة الله في الظالمين إذا استمروا في ظلمهم وشركهم وضلالهم.

[١٢] وقل يانبي الله لهؤلاء المنكرين للبعث والنشور علىٰ سبيل التوبيخ: من الذي له ملك ما في السماوات والأرض؟ فإن أجابوك؛ وإلا فقل لهم: إن جميع ما في الكون لله رب العالمين؛ وكما أنكم تقرون أن لله ملك ما في السماوات والأرض؛ فيجب عليكم أن تعبدوه وتوحدوه؛ ثم أخبر سبحانه أنه أوجب علىٰ نفسه الرحمة التي وسعت كل شيء، ومن ذلك أنها وسعت العصاة والطائعين، ثم يمهل سبحانه وتعالىٰ الجميع ولا يعاجل العصاة بالهلاك لحكمة يعلمها جل في علاه، ثم يجمع الله الخلق جميعًا يوم القيامة الذي لا شك فيه، وفي ذلك اليوم سوف يخسر أولئك الظالمون الذين أصروا علىٰ الكفر والعناد والضلال.

[١٣] أخبر سبحانه وتعالىٰ أن له وحده جميع ما استقر وتحرك من المخلوقات من إنس وجن وملائكة وحيوانات؛ في أي وقت ليلًا كان أو نهارًا؛ فكل شيء تحت قهره وتدبيره؛ واعلموا أيها الناس أن الله سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم وتحركاتهم.

وهذه الآية تُعد من آيات الشفاء التي تُقرأ علىٰ السن أو الضرس الذي به ألم، أو الإنسان المصاب بالحمىٰ؛ وذلك بوضع الإصبع علىٰ مكان الألم ويقرأ هذه الآية عدة مرات حتىٰ يزول الألم وتذهب الحمىٰ.

[١٤] يخبر جل وعلا بطلب الكفار من النبي ﷺ أن يعبد معهم آلهتهم سنة، ثم يعبدون معه إلهه سنة؛ فأمره سبحانه أن يقول لهم علىٰ سبيل التوبيخ: كيف أتخذ وليًّا ونصيرًا غير الله الذي خلق السماوات والأرض ومن فيهن، وهو الذي يُطْعِمُ ولا يُطْعَم؟! ثم أمره أن يقول لهم: اعلموا ياقومي أني أمرت أن أكون أول من خضع وانقاد لله بالعبودية، واسْتَسْلَمَ له بالألوهية، ونهاني أن أكون من المشركين الذين أشركوا مع الله غيره.

[١٥] وقل لهم أيها النبي أيضًا: إني أخاف إِنْ عَصَيْتُ ربي، وخالفت أمره؛ أن يَنزل بي عذابٌ عظيم يوم القيامة.

وهذه الآية تردُّ علىٰ أولئك الذين لا يعبدون الله إلا بالحب، ولا يخافون من النار، مثل رابعة العدوية وغيرها.

[١٦] ثم أخبر جل وعلا أن من يُصرف عنه العذاب يوم القيامة فقد فاز برحمة الله ونجا من عذابه، وذلك هو الفوز البين العظيم الذي ليس بعده فوز.

[١٧] واعلموا أيها الناس أن من أصابه شيء من البلاء كمرض أو فقر أو غير ذلك؛ فليعلم أن هذا البلاء من الله، وأنه لا رافع لهذا البلاء إلا الله سبحانه وتعالىٰ، وأن من يصيبه الله بخير من صحة أو غنىٰ أو غير ذلك؛ فليعلم أنه لا راد ولا مانع لهذا الخير إلا الله سبحانه وتعالىٰ، لأنه جل في علاه وحده الضار والنافع، وأنه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهذا لا يمنع التداوي والأخذ بالأسباب لأنه سبحانه هو الذي خلق الأسباب وأمر بالأخذ بها.

[١٨] ثم بين جل وعلا كمال قدرته؛ فأخبر أنه الغالب فوق عباده؛ فلا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن؛ إلا بمشيئته تعالىٰ، ثم أخبر أنه الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه؛ الخبير الذي لا يخفىٰ عليه شيء من أمور عباده.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

[١٩] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يسأل هؤلاء المشركين: أي شيء أعظم شهادة علىٰ صدق نبوتي أيها المشركون؟، فإن أجابوك وإلا فقل لهم: الله شهيد بيني وبينكم، ولا شك أن هذه أعظم شهادة؛ بل لا أحد أعظم وأصدق شهادة منه جل في علاه، واعلموا ياأهل مكة أن الله أوحىٰ إليَّ هذا القرآن ليكون نذيرًا لكم ولمن بلغه هذا القرآن منكم وممن بعدكم من غيركم، ثم قل لهم يارسول الله علىٰ سبيل التوبيخ: وبعد كل هذه الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة فإنكم تجعلون مع الله معبودات أخرىٰ!!، فأما أنا فأقول لكم: إنني لا أشهد علىٰ ما أقررتم به، وإنما أقول لكم: إنني أشهد أن الله سبحانه إله واحد، لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وإنني بريء من كل ما تشركون به من هذه المعبودات.

[٢٠] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود والنصارىٰ الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل يعرفون محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم، لأنه مذكور عندهم في التوراة والإنجيل بكل أوصافه؛ بل جاء فيهما أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ولكنهم اتبعوا أهواءهم فأصروا علىٰ إنكار نبوته ﷺ؛ وبسبب هذا الإنكار وعدم الإيمان به ﷺ خسروا أنفسهم بإلقائها في النار والعياذ بالله.

[٢١] ثم بين جل وعلا أنه لا يوجد أحد أشد ظلمًا من أولئك الذين افتروا علىٰ الله الكذب فادّعوا أن له ولدًا، وأن له شريكًا، وأن له صاحبة، وغير ذلك من الافتراءات، وكذلك لا يوجد أحد أشد ظلمًا من أولئك الذين كذبوا ببراهين الله وأدلته التي أيد بها الأنبياء والمرسلين؛ فاعلموا أيها الناس أن هؤلاء لن يفوزوا بخير الدنيا ولا بنعيم الآخرة؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بكذبهم وافترائهم علىٰ الله، وكذبهم بآيات الله.

[٢٢] ثم بين جل وعلا أنه سيجمع المشركين ومعبوداتهم يوم القيامة للحساب والجزاء، ثم يقول توبيخًا لهم: أين هؤلاء الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله زعمًا منكم أنها ستشفع لكم عند الله يوم القيامة؛ هلَّا أحضرتموهم أيها الكفار لتدفع عنكم العذاب؟

[٢٣] وبعد أن سمع المشركون هذا السؤال ورأوا بأم أعينهم يوم القيامة وما فيه من الحقائق، وغابت عنهم معبوداتهم التي كانوا يظنون أنها ستشفع لهم، وقعوا في حيرة، وأرادوا التخلص من هذا الموقف العصيب؛ فأقسموا بالله كاذبين أنهم ما كانوا مشركين لله في العبادة، ظنًّا منهم أن تبرأهم من هذه المعبودات سوف ينجيهم من عذاب الله.

[٢٤] ولهذا قال جل وعلا لنبيه ﷺ علىٰ سبيل التعجب: فتأمل يانبي الله كيف كذب هؤلاء المشركون علىٰ أنفسهم بقولهم: إنهم لم يكونوا مشركين؟، وتأمل أيضًا كيف غابت عنهم في ذلك اليوم معبوداتهم التي كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها؟.

[٢٥] ثم أخبر جل وعلا أن من هؤلاء الكفار من يستمع إليك يانبي الله إذا قرأت القرآن، ولكن بسبب عنادهم وجحودهم، ورفضهم الحق، وإصرارهم علىٰ الكفر، ونهي الناس عن الإسلام؛ جعل الله علىٰ قلوبهم أغطية لكي لا يفهموه ولا يؤثر فيهم، وجعل في آذانهم صَمَمًا فلا ينتفعون به، ومهما رأوا من علامات تدل علىٰ صدق رسالتك فإنهم لا يؤمنون بها؛ وإذا جاؤوك مخاصمين لك في الدين يقول من كفر منهم: إن هذا إلا أحاديث وأساطير الأمم السابقة وليست من عند الله.

[٢٦] ثم بين جل وعلا أن من أساليب هؤلاء المجرمين في محاربة الإسلام أنهم ينهون الناس عن اتباع النبي ﷺ، ويحذرونهم منه، كما أنهم يُبعدون أنفسهم عنه لكي لا يستمعوا الشيء من الحق الذي جاء به، وما علموا أنهم بفعلهم هذا ما يهلكون إلا أنفسهم، ولكنهم لا يحسون بعاقبة فعلهم بسبب غبائهم وحماقتهم وكبريائهم.

[٢٧] ثم بين جل وعلا حال هؤلاء الكفار يوم القيامة حين يُحبسون علىٰ الصراط فوق النار، ويَرَوْنَ أصناف العذاب، حينئذ يتمنون أن يُردوا إلىٰ الدنيا، ويعملوا الأعمال الصالحة، ولا يُكَذِّبوا بآيات الله، ويكونوا من المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورسوله ويتبعون شرعه، ولكن هيهات هيهات.

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

[٢٨] واعلموا أيها الناس أن الأمر ليس كما قال هؤلاء المشركون من التمني للرجوع إلىٰ الدنيا للهداية والعمل الصالح؛ وإنما الأمر أنه ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفونه من صدق ما جاءت به الرسل، وظهر لهم ما كانوا يخفون من أعمالهم السيئة، ولو فُرض أنهم رُدُّوا إلىٰ الدنيا لعادوا إلىٰ ما نُهوا عنه من الإشراك بالله والكفر والعناد والتكذيب؛ لأنهم كاذبون في كل ما يدعون؛ ولأنه سبحانه يعلم في علمه السابق ما سيفعله هؤلاء لو عادوا إلىٰ الدنيا.

وفي هذا إثبات لعلم الله بما لم يكن لو كان كيف يكون.

[٢٩] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المشركين لو ردُّوا إلىٰ الدنيا لعادوا إلىٰ ما نهوا عنه، ولقالوا: ليس لنا حياة إلا هذه الدنيا التي نعيش فيها ونتمتع بخيراتها، وبعد الموت ليس هناك بعث ولا حساب، ولا شك أن هذا إنكار منهم للبعث.

[٣٠] ثم أخبر جل وعلا عن حال هؤلاء المشركين يوم القيامة يوم أن يقفوا أمام ربهم، فيقول لهم موبِّخًا ومقرِّعًا: أليس هذا بالحق أيها المشركون؟ أي: أليس هذا هو البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا وتشاهدونه الآن أمام أعينكم هو حق لا ريب فيه؟ فيقولون: بلىٰ وربنا إنه الحق، فيقول الله لهم: فما دام الأمر كذلك فذوقوا العذاب؛ بسبب كفركم وشرككم وضلالكم وإنكاركم لهذا الحق؛ بل تحريض الناس علىٰ إنكاره والكفر به.

[٣١] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين قد خابوا وخسروا؛ لأنهم كذَّبوا بيوم البعث وأنكروا الحساب والجزاء، وأنهم سوف يستمرون في كفرهم وضلالهم وتكذيبهم بالبعث حتىٰ إذا جاءتهم الساعة فجأة قالوا: يا ندامتنا علىٰ ما ضيعنا في حياتنا الدنيا من الطاعة والعمل الصالح، ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المكذبين يحملون آثامهم وأوزارهم علىٰ ظهورهم يوم القيامة؛ فبئس ما يحملون من الأوزار والآثام.

[٣٢] واعلموا أيها الناس أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعب ولهو باطل لا فائدة منه، وأنها لذة عابرة وستزول، أما الآخرة فهي خير للذين يخشون عذاب الله بأداء الطاعات واجتناب المعاصي، أفلا تعقلون أيها المشركون الضالون فَتُقَدِّمُوا نعيم الآخرة الدائم علىٰ نعيم الدنيا الزائل.

[٣٣] ثم يسلي جل وعلا نبيه ﷺ ويخبره أنه يعلم أن تكذيب قومه لنبوته ورسالته يسبب له الحزن والألم؛ فاصبر واحتسب فإنهم لا يكذبونك فيما تقول؛ بل يعلمون أن ما تقوله حق وصدق، ولكن بسبب استكبارهم وظلمهم فإنهم يجحدون الأدلة والبراهين التي تدل علىٰ صدق نبوتك ورسالتك.

[٣٤] واعلم يانبي الله أن كثيرًا من الرسل الذين بعثوا من قبلك كذبتهم أقوامهم، وأوذوا في سبيل الله؛ فصبروا علىٰ ذلك؛ فاصبر يانبي الله كما صبروا حتىٰ يأتيك نصرنا، واعلم أنه لا مُغَيِّر لوعد الله بنصر الصابرين، وأنه لابد من تحقيق ذلك، ثم اعلم أن ما أخبرناك به من قصص هؤلاء الرسل ما هو إلا تسلية لك، وتثبيت لفؤادك.

[٣٥] ثم بين جل وعلا أنه لا يمكن لهؤلاء المنكرين أن يؤمنوا بالله بسبب استكبارهم وحسدهم؛ لذا قال سبحانه لنبيه: وإن كان عظُم عليك يانبي الله صدودهم وإنكارهم فإن استطعت أن تفتح نفقًا في الأرض، أو تصنع درجًا يصعد بك إلىٰ السماء فتأتيهم بآية فافعل، ولكن اعلم أنك بشر لا تقدر علىٰ ذلك، وعلىٰ فرض أنك استطعت أن تفعل شيئًا من ذلك فاعلم أنه لن يفيد في هداية هؤلاء المشركين، ولو شاء الله هداية جميع البشر لحملهم جميعًا علىٰ الإيمان بما جئت به، ولكن اقتضت حكمته سبحانه أن يبقيهم علىٰ الضلال الذي اختاروه وأصروا عليه، فاحذر يانبي الله أن تكون من الذين لا يعرفون سنن الله في خلقه التي اقتضتها حكمته؛ حيث جعلهم مختارين.

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

[٣٦] واعلم يانبي الله أنه لا يستجيب لدعوة الحق إلا المقبلون الراغبون بالهدىٰ، الذين يسمعون كلام الله سماع فهم وتدبر، وأما هؤلاء الكفار فإنهم لا يسمعون لأن قلوبهم معرضة؛ ولأن الحياة الحقيقية إنما تكون بالإسلام، ثم أخبر سبحانه أنه سيبعثهم يوم القيامة، ثم يرجعون إليه فيحاسبهم علىٰ أعمالهم السيئة.

[٣٧] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين قالوا علىٰ سبيل التعنت والاستكبار: هلّا أنزل الله علامة تدل علىٰ صدق هذا النبي، فقل لهم يانبي الله مجيبًا علىٰ تساؤلهم: إن الله قادر علىٰ أن ينزل عليكم ما تريدون، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون أن حكمة الله في إنزال الآيات تكون بمشيئته سبحانه وتعالىٰ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:١١]، ثم لو جاءتهم المعجزات التي طلبوها ولم يؤمنوا بها لحلت بهم العقوبة التي تقضي عليهم، والله لا يريد ذلك.

[٣٨] ثم بين جل وعلا أن من أقوىٰ الأدلة علىٰ قدرته وحكمته أنه ما من دابة تدب في ظاهر الأرض وباطنها، أو طائر يطير بجناحيه في الهواء إلا خلقها الله جماعات تماثلكم، وأن لها حياةً ونظامًا يخصها، كما قال تعالىٰ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، ثم بين سبحانه أنه ما ترك في اللوح المحفوظ شيئًا إلا أثبته، وأن جميع هذه المخلوقات مرجعها إلىٰ الله وحده، ثم يجازي كلًّا بما عمل.

[٣٩] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الكفار الذين لم يصدقوا بهذا القرآن العظيم مثلهم كمثل الصم الذين لا يسمعون ما ينفعهم وينجيهم، وكالبكم الذين لا يتكلمون، وفوق ذلك هم في ظلمات الكفر حائرون لا يهتدون إلىٰ طريق الاستقامة، ثم بين سبحانه أنه إذا أراد إضلال إنسان بسبب فساد قصده وإصراره علىٰ الفسوق يتركه وشأنه، وإذا أراد هدايته بسبب سلامة قصده يسّر له طريق الإيمان الواضح، وأن من شاء الضلال يسره الله له، ومن شاء الهداية أعانه الله، وكل يجازىٰ حسب كسبه.

[٤٠] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يسأل هؤلاء المشركين فيقول لهم: أخبروني إذا رأيتم الهلاك وأحاطت بكم المخاطر وأتتكم الكوارث أو أتاكم يوم القيامة الذي لا شك فيه؛ فإلىٰ من تلجؤون، وبمن تستغيثون؛ لينقذكم ويدفع عنكم البلاء؟! أليس إلىٰ الله؟!؛ أم أنكم سوف تدعون هذه الأصنام والأحجار التي عبدتموها من دون الله إن كنتم صادقين في أنها سوف تنفعكم وتنقذكم.

[٤١] ثم أكد جل وعلا أن هؤلاء المشركين لن يدعوا إلا الله وحده فقال سبحانه: بل إنكم لا تتجهون بالدعاء أيها المشركون في حال الشدة إلا إلىٰ الله وحده؛ فيكشف عنكم البلاء الذي أصابكم إن شاء سبحانه فضلًا منه وكرمًا، وفي هذه الحال تنسون الذين جعلتموهم شركاء؛ لأنكم تعلمون أن الله هو القادر علىٰ كشف الضر، وليس آلهتكم.

[٤٢] يخبر جل وعلا أنه بعث رسلًا إلىٰ أمم كثيرة قبل أمتك يانبي الله؛ فكذبوهم؛ فعاقبهم سبحانه بالشدائد، وبما يضرهم في أبدانهم، لعلهم يرجعون إلىٰ الله فيؤمنوا به؛ حتىٰ ينقذوا أنفسهم من عذاب الله الأليم.

[٤٣] ثم بين سبحانه أن هذه الأمم لم تتعظ ولم تعتبر بما أصابها من المصائب والشدائد؛ فهلّا تذللوا إلىٰ الله وتابوا وأنابوا إليه حين جاءهم العذاب ليرفع عنهم البلاء؛ ولكنهم لم يتذللوا ولم يتوبوا؛ بل استمروا في كفرهم وضلالهم حتىٰ قست قلوبهم وصارت كالحجارة أو أشد قسوة، وزيَّن لهم الشيطان ما هم فيه من الضلال والأعمال السيئة التي هم عليها.

[٤٤] وبعد أن تركت هذه الأمم ما وُعظوا وخوفوا به من البأساء والضراء؛ ابتلاهم الله بالنعم؛ ففتح عليهم أبواب كل شيء استدراجًا لهم؛ حتىٰ إذا اطمأنوا وفرحوا بهذه النعم التي أُغدقت عليهم أخذهم الله بالعذاب فجأة؛ فإذا هم يائسون من كل خير.

وعبر بالنسيان مبالغة في ابتعادهم عن الخير، وبالإبلاس، أي: الانغماس في الضلال والشهوات.

الجُزْءُ السَّابِعُ — سُورَةُ الأَنْعَامِ

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

١٣٣

[٤٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أهلك هذه الأمم الكافرة واستأصلها عن بكرة أبيها بالعذاب الذي لم يبق منهم باقية؛ بسبب ظلمهم وكفرهم وضلالهم؛ فالثناء الكامل والشكر التام لله رب العالمين الذي نصر رسله وأولياءه، وأزال الظالمين المجرمين وأهلكهم.

[٤٦] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: أخبروني لو أن الله أعماكم وأصمكم وطبع علىٰ قلوبكم، أي: سلب منكم أدوات المعرفة حتىٰ لا تعرفوا شيئًا، فهل هناك إله غير الله –كهذه الأصنام وهؤلاء الأولياء الذين تزعمون– يستطيع أن يرُدَّ عليكم ما سلبه منكم؟ وبعد هذا كله انظر يانبي الله كيف وضح الله لهم في القرآن الأدلة والبراهين الدالة علىٰ توحيد الله، ومع ذلك فهم يعرضون عنها.

[٤٧] وقل يا نبي الله لهؤلاء أيضًا: أخبروني إن حل بكم عذاب الله فجأة ليلًا ودون توقع، أو جاءكم في وضح النهار وأنتم تنظرون؛ فاعلموا أنه لا يُهلك بهذا العذاب إلا القوم الظالمون الذين صرفوا العبادة لغير الله تعالىٰ وكذّبوا رسله، أما لو عم العقاب والهلاك الجميع فإن المؤمنين يبعثون إلىٰ الجنة؛ فالعقاب الحق لا يكون إلا علىٰ الظالمين.

[٤٨] يخبر جل وعلا أن وظيفة الأنبياء والرسل الذين أرسلهم للناس هي تبشير أهل الطاعة بالجنة، وإنذار أهل المعصية بالنار؛ فمن آمن بالله ورسله وعمل الأعمال الصالحة؛ فأولئك لا يخافون في الآخرة، ولا يحزنون علىٰ شيء فاتهم من نعيم الدنيا.

[٤٩] ثم بين عاقبة الكافرين فأخبر أن الذين كذّبوا بالأدلة والبراهين الواضحة التي تدل علىٰ صدق ما جاء به الرسل؛ فسوف يصيبهم العذاب بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله وإصراهم علىٰ الكفر والعناد.

[٥٠] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: لا أقول لكم: إني أملك التصرف بما يملكه الله فأجيبكم إلىٰ ما تطلبون، ولا أدعي علم الغيب؛ لأن الله لم يطلعني عليه، ولا أقول لكم: إني ملك، وإنما أنا رسول من عند الله أتبع ما يوحي إليّ؛ وقل لهم أيضًا: فهل يستوي الكافر الأعمىٰ الذي عمي عن آيات الله تعالىٰ فلم يؤمن بها، والمؤمن الذي أبصر آيات الله فآمن بها؟ أفلا تتفكرون أيها الكفار في هذه الآيات؛ لتبصروا الحق فتؤمنوا به؟.

[٥١] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يحذِّر بهذا القرآن الذين يخافون أن يبعثهم الله ثم يجمعهم يوم القيامة للحساب والجزاء؛ حيث لا ناصر لهم ولا شفيع إلا بإذن الله؛ لعلهم يتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[٥٢] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يُبْعِدَ عن مجالسه المستضعفين من المؤمنين، الذين يعبدون ربهم دومًا ليلًا ونهارًا، يريدون بذلك وجه الله والدار الآخرة؛ واعلم أنك لست مسئولًا أمام الله عن شيء من أعمالهم، كما أنهم ليسوا مسئولين عن شيء من أعمالكم حتىٰ تطردهم؛ فإن فعلت وقمت بطردهم فسوف تكون من الظالمين.

وسبب نزول هذه الآية: أن صناديد كفار قريش قالوا لرسول الله ﷺ كيف تريد منا أن نستمع لدعوتك ونؤمن بما تدعو إليه، وأتباعك هم العبيد والضعفاء، كما قال قوم نوح لنبيهم نوح عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١].

....

....

....

....

....

....

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

[٥٣] يخبر جل وعلا أنه ابتلىٰ بعض الناس ببعض؛ فجعل هذا غنيًّا وذاك فقيرًا، وهذا شريفًا وذاك وضيعًا، وهذا قويًّا وذاك ضعيفًا، ولما كان الرسل يأتون لدعوة أقوامهم كان الذين يؤمنون بهم ويتبعونهم ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من أشراف الناس إلا القليل، مما جعل الأغنياء الشرفاء يقولون علىٰ سبيل الاستخفاف والاحتقار: أهؤلاء الصعاليك أراذل القوم هم الذين من الله عليهم بالإسلام من بيننا؟ فقال سبحانه ردًّا عليهم: أليس الله بأعلم بالذين يشكرون نعمته فيوفقهم إلىٰ الهداية، من الذين يكفرون به فيضلهم الله ويعمي أبصارهم.

[٥٤] ثم يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أنه إذا حضر مجالسه أولئك الصحابة الفقراء الذين يؤمنون بآيات الله إيمانًا حقيقيًّا؛ أن يقول لهم: تحية وسلامًا لكم أيها المؤمنون، وأبشروا بمغفرة الله ورحمته الواسعة؛ واعلموا أن الله ربكم كتب علىٰ نفسه الرحمة بعباده أن من اقترف ذنبًا بجهل منه -سواء كان مخطئًا أو متعمدًا عالمًا بالتحريم- ثم تاب بعد ذلك، واستمر علىٰ التوبة والعمل الصالح؛ فإن الله كثير المغفرة لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم.

[٥٥] واعلموا أيها الناس أن الله جل وعلا كما بين في هذه السورة الأدلة والبراهين المتنوعة الدالة علىٰ كفر المشركين وضلالهم؛ فكذلك بين لكم سبحانه أمور الدين لكي يتضح لكم طريق المجرمين وسيرتهم في الظلم والاستكبار والكفر والحسد.

[٥٦] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: إن الله عز وجل نهاني أن أعبد هذه الأوثان التي تعبدونها من دونه، وقل لهم أيضًا: ولن أتبع أهواءَكم في عبادتها لأنكم عبدتموها علىٰ سبيل الهوىٰ لا علىٰ سبيل الدليل والبرهان؛ ولو أني اتبعت أهواءَكم فيما تدعونني إليه فلن أكون من الذين سلكوا سبيل الهدىٰ والرشاد؛ بل سأكون من الضالين.

[٥٧] وقل يانبي الله لهؤلاء الذين يطلبون منك أن تتبع أهواءهم: اعلموا أيها المشركون إنني علىٰ شريعة واضحة منزَّلة من ربي، وأما أنتم فقد كذبتم بالله تعالىٰ، وليس في قدرتي إنزال العذاب الذي تستعجلون به، لأن الحكم لله وحده فهو الذي يقضي بيني وبينكم بالقضاء الحق، وهو خير الفاصلين الذين يفصلون بين الحقِّ والباطل.

[٥٨] وقل يانبي الله لهؤلاء الذين طلبوا منك أن تستعجل نزول العذاب الذي وعد الله به المشركين: واعلموا لو أن في قدرتي إنزال العذاب الذي تستعجلونه لأنزلته عليكم غضبًا لربي، ولقضي الأمر بيني وبينكم، ولكنّ الذي يملك ذلك هو الله وحده، وهو سبحانه أعلم بالظالمين الذين تجاوزوا حدَّهم فأشركوا معه غيره.

[٥٩] واعلموا أيها الناس أن الله جل وعلا عنده خزائن الغيب، ولا يعلم هذه الخزائن إلا هو، ومن ذلك: أنه يعلم جل في علاه كل ما في البر والبحر من الحيوانات والأشجار والرمال والحصىٰ والمعادن وغير ذلك، وما تسقط من ورقة إلاَّ ويعلم متىٰ سقطت وأين مكان سقوطها، ولا حبة تحت الأرض إلا ويعلم مكانها ونوعها ومتىٰ يكون إنباتها، ولا رطب وهو ما ينبت، ولا يابس وهو ما لا ينبت؛ إلَّا ويعلم سبحانه مكانه ووقت نباته وتفاصيل ذلك، واعلموا أن كل ذلك مثبت وواضح في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الله الخلق.

[٦٠] يخبر جل وعلا أنه وحده الذي يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل، ويعلم ما تكسبون بالنهار من حسنات وسيئات، ثم يوقظكم بالنهار لتبلغوا أجلكم المحدد لكم في اللوح المحفوظ، ثم مرجعكم يوم القيامة إلىٰ الله وحده؛ فيخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم علىٰ أعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٦١] ثم يخبر جل وعلا أنه هو القاهر فوق عباده، أي: الذي قهر كل شيء، وخضع وذل لعظمته كل شيء، وهذه الفوقية فوقية مطلقة، تعني: علو الذات والقدر، علوًّا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالىٰ، ثم أخبر سبحانه أنه يرسل عليكم ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها عليكم، ثم إذا انتهىٰ أجل الإنسان وحانت منيته فإن الملائكة بأمر من ملك الموت تَقْبِضُ روحه، وهم لا يُقصِّرون فيما يوكل إليهم من أعمال فيقومون بها حسب مراد الله.

[٦٢] ثم صرح جل وعلا أن مصير العباد إليه وحده بعد إحيائهم وبعثهم من قبورهم، فهو مولاهم الحق الذي يتولىٰ أمورهم، ثم يحكم سبحانه بينهم بحكمه العادل، وهو أسرع من يتولىٰ الحساب والجزاء في ذلك اليوم؛ لأنه جل في علاه لا يحتاج إلىٰ تفكير وبحث وروية وانشغال بحساب ونحو ذلك؛ فهو عالم ومحيط بكل ما يتعلق بخلقه، لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

[٦٣] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: من ينقذكم ويخلصكم من أهوال وشدائد البر والبحر؟ أليس هو الله الذي تلجؤون إليه وحده تدعونه علانية وسرًّا في خضوع ظاهر وباطن؟ قائلين: نقسم لك ياربنا لئن أنقذتنا من هذه الأهوال لنكونن من المقرين بفضلك، القائمين بشكرك وعبادتك وحدك.

[٦٤] وقل يانبي الله لهم أيضًا: إنكم تقرُّون وتعترفون أن الله وحده هو الذي ينقذكم من هذه الأهوال وهذه الكروب، ومن كل الشدائد، ومع ذلك لا تفون بوعدكم، وتعودون للشرك مرة أخرىٰ؛ فتشركون مع الله في العبادة غيره.

[٦٥] وقل يانبي الله لهم أيضًا: اعلموا أن الله قادر علىٰ أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم، أي: من السماء؛ كالرجم بالحجارة أو بالصواعق المحرقة أو بالريح المدمرة، أو يبعث عليكم عذابًا من تحت أرجلكم، أي: من الأرض؛ كالخسف والزلازل، أو يجعلكم فِرقًا وأحزابًا مختلفة الأهواء، ويذيق بعضكم بأس بعض بالقتل وغيره، فانظر يانبي الله: كيف نوع الله الحجج والبراهين الواضحة لهؤلاء المشركين لعلهم يتأملونها ويفهمون الحق، ويرجعون عمَّا هم فيه من الكفر والضلال.

وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ
يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ
وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ
رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ
أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن
ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ
هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ
ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٦٤ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن
فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم
بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥ وَكَذَّبَ
بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ
مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا
فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨

[٦٦] واعلم يانبي الله أن غالبية قومك كذبوا بهذا القرآن المنزل عليك بالحق من عند ربك، فقل لهم يانبي الله: اعلموا ياقومي أنني لست مفوضًا لأمنعكم من الكفر والضلال، وإنما أنا منذر، وقد قمت بما أمرني الله به؛ فأبلغتم وأنذرتكم، ويوم القيامة يحكم الله بيننا بحكمه العادل، وكان هذا قبل أن يأمره سبحانه بقتال الكفار والمشركين.

[٦٧] واعلموا أيها المشركون أن لكل خبر عظيم وقتًا محدَّدًا يقع فيه، ونهاية يستقر فيها، ومن ذلك عذابكم، وسوف تعلمون سوء فعلكم عندما يحل بكم العذاب الأليم.

[٦٨] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ: وإذا رأيت يا نبي الله الذين يسخرون أو يستهزؤون أو يكذبون بشيء من آيات القرآن فلا تجلس معهم، حتىٰ يتكلموا في حديث آخر، فإذا أنساك الشيطان هذا النهي وهذا التحذير وجلست معهم، ثم تذكرت بعد ذلك، فقم ولا تجلس مع هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم الكفر والمعاصي. والأمر له ﷺ هو أمر لأمته، والنهي عن الجلوس مع المستهزئين بآيات الله لمن لا يستطيع أن ينصحهم ويؤدبهم ويلزمهم باحترام شرع الله.

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

[٦٩] ثم بين جل وعلا أنه لا شيء علىٰ المؤمنين الذين يخافون من حساب الله لهؤلاء المستهزئين بآيات الله، ما داموا قد تركوا مجالستهم، والواجب علىٰ المؤمنين أن يذكروا الخائضين في آيات الله وينصحوهم ويبينوا لهم خطورة ما هم عليه من السخرية والاستهزاء؛ فإذا لم يستجيبوا فعليهم أن يقوموا من عندهم؛ لأن القيام من عندهم قد يُشْعِرُهُم أنهم مُخْطِئُون، ويكون ذكرىٰ لهم لعلهم يخشون عذاب الله ويكفُّون عن باطلهم وضلالهم.

[٧٠] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يترك هؤلاء المشركين الذين اتخذوا دين الله الحق لعبًا ولهوًا فيسخرون ويستهزؤون به، وقد خدعتهم شياطينهم والحياة الدنيا بزخرفها وبهرجها وتمسكوا بها، لأنك عندما تترك هؤلاء الساخرين سوف تتفرغ لتذكير الناس بهذا القرآن قبل أن تهلك نفوسهم بسبب ما كسبت من الذنوب والمعاصي، ثم لا تجد يوم القيامة أحدًا من دون الله يتولىٰ خلاصها، ولا شفيعًا يشفع لها فينجيها من عذاب النار، ولو بذلت كل ما تملك فداءً لها ولو كان ملء الأرض ذهبًا ما قبل منها، ولما نجت من عذاب النار، واعلم أن أولئك الذين أهلكهم الله بسبب ذنوبهم لا حجة لهم، ولهم شراب شديد الغليان، يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم، وعذاب أليم موجع علىٰ كفرهم وضلالهم.

[٧١] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل التوبيخ: هل يصح أيها الكفار أن نعبد غير الله ممن لا يملك جلب نفع، ولا دفع ضُرٍّ، ونتتكس في الشرك والضلال بعد أن وفقنا الله إلىٰ الإيمان؛ ونكون كالذي ذهبت به الشياطين فألقته في صحراء قاحلة، وتركته تائهًا ضالًّا لا يدري أين يذهب، وله أصحاب يدعونه إلىٰ الطريق المستقيم يقولون له: ائتنا فلا يستجيب لهم، بسبب حيرته وضلاله، وقل لهؤلاء يانبي الله: اعلموا أن ما هدانا الله إليه من الإسلام هو الهدىٰ وحده، وأما ما تدعوننا إليه من عبادة الأصنام والأوثان فهي الكفر والضلال، وقد أمرنا الله جميعًا أن نستسلم له وحده لا شريك له، في ألوهيته وربوبيته وعبادته؛ لأنه رب كل شيء ومالكه والمستحق وحده للعبادة.

[٧٢] وأمرنا سبحانه أيضًا أن نقيم الصلاة ونداوم علىٰ أدائها علىٰ أكمل وجه من الخشوع والخضوع، وأن نخافه جل في علاه بفعل الطاعات وترك المنكرات، وقل لهم: أنكم ستُجمعون يوم القيامة إلىٰ الله وحده؛ ليحاسبكم علىٰ أعمالكم.

[٧٣] يخبر جل وعلا أنه هو الذي خلق السماوات والأرض بالحق الذي اقتضته المشيئة الإلهية، ولم يخلقهما عبثًا، قال بعض المفسرين: خلق الله السماوات والأرض للدلالة علىٰ قدرته، وليُعْمَل فيهما بطاعته، وخلقهما ليبتلي عباده، ثم يجازي كلًّا بعمله، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وذلك ما عَلِمْنَا من الحكمة، وربما لله حِكَمٌ أخرىٰ لم نَعْلَم بها، ولم تصل إليها أفكارنا.

وقال الدكتور إبراهيم النابلسي: لن تستطيع أن تدرك كل حِكَمِ الله أو علمه؛ إلا إذا كان علمك كعلمه. وبكلامه هذا فقد أراحني جزاه الله خيرًا من أشياء كثيرة أزعجتني وأعياني الوصول إلىٰ حِكَمِهَا؛ سواءً في حكمة الخلق أو القدر؛ فالأمر لله أولًا وآخرًا.

ثم قال سبحانه: واذكر يانبي الله يوم القيامة حين يقول الله: (كن)؛ فيكون ما يريد كلمح البصر أو هو أقرب، واعلم أن قوله حق ووعده صدق، وله جل في علاه المُلك وحده يوم القيامة يوم أن ينفخ المَلَك في (القرن) النفخة الثانية التي يخرج بها الناس من قبورهم، وتعود الأرواح إلىٰ أجسادهم، وفي ذلك اليوم تنقطع كل الأملاك، ولا يبقىٰ إلا الله الملك الواحد القهار، الذي يعلم ما خفي عنكم وما تشاهدونه، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، الخبير بشئون خلقه يدبرها كيف يشاء.

ولا شك أن من كانت هذه صفاته كان هو المستحق للعبادة وحده سبحانه وتعالىٰ.

[٧٤] واذكر يانبي الله لقومك مُحاجَّة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر، يوم أن قال له علىٰ سبيل العتاب والتعجب: أتجعل ياأبتي هذه التماثيل المصنوعة من الحجارة آلهة تعبدها من دون الله؟! إني أراك وقومك الذين يشاركونك في هذه العبادة في بُعْدٍ واضح عن الطريق المستقيم.

[٧٥] وكما وفق الله إبراهيم عليه السلام للتوحيد الخالص، واستقباح ما كان عليه أبوه من عبادة الأصنام؛ أراه أيضًا مظاهر قدرته الموجبة لألوهيته في ملكوت السماوات والأرض، وما حوتا من عجائب المخلوقات؛ كالشَّمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب؛ وقد أراه الله تعالىٰ هذه الأشياء حتىٰ ينظر إليها نظر اعتبار مستدلًا بها علىٰ عظمة خالقها، وليكون من الراسخين في الإيمان.

[٧٦] يخبر جل وعلا عن المناظرة التي حدثت بين إبراهيم عليه السلام وقومه؛ فعندما أظلم الليل ورأىٰ عليه السلام كوكبًا من الكواكب مضيئًا في السماء قال لقومه: انظروا ياقومي هذا هو ربي!!، وذلك من باب التنزُّل مع القوم؛ فلما غاب هذا الكوكب واختفىٰ، قال: لا أحب هذا الإله الذي يذهب ويختفي.

[٧٧] ثم لما رأىٰ عليه السلام القمر طالعًا ليلة البدر ساطعًا بضوئه قال لقومه: انظروا ياقومي هذا هو ربي!!، فلما ذهب القمر واختفىٰ، قال: لئن لم يهدني ربي إلىٰ الحق وإلىٰ الصواب في توحيده لأكونن من القوم الضالين عن سواء السبيل، الذين يعبدون غيره سبحانه وتعالىٰ.

[٧٨] ثم لما رأىٰ عليه السلام الشمس ساطعة مضيئة قال لقومه: انظروا ياقومي هذا ربي هذا أكبر من الكوكب وأكبر من القمر!!، فلما ذهبت الشمس واختفت، قال حينها لقومه: ياقوم إنني برئ مما تشركون مع الله غيره في عبادته، وإنني بريء من هذه الأصنام والأحجار والكواكب والنجوم التي تعبدونها، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا تحيي ولا تميت، ولا ترزق ولا تخلق؛ بل كلها مخلوقات تسير بأمر الله الواحد الأحد الذي لا يستحق العبادة أحد سواه.

وهذه الآيات التي وردت في إبراهيم عليه السلام ليس المقصود منها أنه عليه السلام كان شاكًّا في إلهية الله، ولا يدل فعله أنه كان يبحث عن الحق؛ فهو عالم عارف للحق، ولكن قومه كانوا يعبدون هذه الكواكب فجاراهم عليه السلام بقوله، لأنه يريد أن يثبت لهم أن آلهتهم التي يعبدونها وهي الكواكب أنها تغيب، وأن الذي يغيب لا يصلح أن يكون إلهًا، وأن الذي يستحق أن يُعبد هو الذي خلقها وخلق الكون، وهو الذي لا يأفل ولا يغيب، وهو الله جلَّ في علاه.

[٧٩] واعلموا ياقومي أنني قصدت بعبادتي وتوحيدي الله وحده لا شريك له، الذي أبدع في خلق السماوات والأرض؛ بل سوف أكون

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

مؤمنًا موحدًا مائلًا عن كل دين باطل، ومتمسكًا بالدين الحق وهو دين الإسلام الذي أمر الله به، ثم أعلن عليه السلام براءته قائلًا: ثم اعلموا ياقومي أنني لست من المشركين الذين يعبدون مع الله آلهة أخرىٰ.

[٨٠] ثم بين سبحانه أن قومه جادلوه وهددوه وخاصموه بأن معبوداتهم قد تصيبه بسوء، ولكن إبراهيم عليه السلام قال لهم: إن الله هو الهادي الذي قد هداني، ولا أخاف من أصنامكم أن تصيبني بشيء، إلا إذا شاء الله وأراد شيئًا، فالأمر كله لله إنْ قدَّر علي شيئًا فذلك منه هو لا من آلهتكم.

[٨١] ثم قال عليه السلام لقومه علىٰ سبيل الإنكار والتعجب: وكيف أخاف ياقومي أصنامكم التي لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تعقل، وأنتم لا تخافون ربكم الحق الذي خلقكم، وقد أشركتم به أصنامًا ما أنزل الله عليكم في عبادتها حجة أو دليلًا؛ فمن أحق بالأمن والاطمئنان يوم القيامة: الموحِّدُ الذي يعبد الله وحده لا شريك له، أم المشرك الذي يعبد آلهة شتىٰ لا تسمع ولا تبصر؟ إن كان عندكم فهم وعلم بالبراهين والأدلة التي تميزون بها الشبه الباطلة.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

[٨٢] ثم بين جل وعلا أن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعة، ولم يخلطوا إيمانهم بشرك؛ فهؤلاء وحدهم هم الأحق بالأمن والطمأنينة يوم القيامة، وهم وحدهم المهتدون إلىٰ طريق الحق والخير.

[٨٣] ثم أخبر جل وعلا أنه هو الذي أعطىٰ إبراهيم عليه السلام تلك الحجة التي حاج بها قومه؛ فأظهر التوحيد وأبطل الشرك؛ وعلا عليهم، ثم بين سبحانه أنه يرفع من يشاء من عباده ويجعلهم درجات ومراتب في الدنيا والآخرة، إنه سبحانه حكيم في تدبير خلقه يضع الأمور في مواضعها المناسبة، عليم بجميع أحوالهم.

[٨٤] ثم أخبر جل وعلا أنه منَّ علىٰ إبراهيم عليه السلام فرزقه إسحاق ابنًا ويعقوب حفيدًا، ورزق سبحانه إسحق ويعقوب الهداية والاستقامة علىٰ طريقة أبيهم إبراهيم عليه السلام، ثم بين جل في علاه أنه هدىٰ نوحًا من قبل إبراهيم عليهما السلام، وأنه خلق من نسل إبراهيم: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون عليهم السلام أجمعين، وكلهم علمهم الحكمة وأعطاهم النبوة، وكذلك يجزي سبحانه كل من أحسن وسار علىٰ طريقهم وعمل بعملهم.

[٨٥] ثم أخبر جل وعلا أيضًا أن ممن هدىٰ الله ووفق من نسل إبراهيم عليه السلام: زكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس عليهم السلام، وكلهم آتاهم الله النبوة وجعلهم من الصالحين.

وقوله: ﴿وَعِيسَىٰ﴾، فيه إثبات أن الجدَّ لأمٍّ أبٌ، وقد احتج بهذه الآية العالِم الذي هدده الحجاج بالقتل إن لم يُثبت أن الحسين ابن رسول الله ﷺ.

[٨٦] ثم أخبر جل وعلا أيضًا أن ممن هدىٰ الله ووفق من نسل إبراهيم عليه السلام: إسماعيل واليسع ويونس عليهم السلام، أما لوطٌ عليه السلام فهو ابن أخيه أو ابن عمه، ثم بين سبحانه أنه جعلهم أنبياء وفضلهم علىٰ أهل زمانهم.

[٨٧] ثم أخبر جل وعلا أنه اصطفىٰ بعض آباء هؤلاء الأنبياء وذرياتهم وإخوانهم، ووفقهم إلىٰ طريق الحق الذي لا اعوجاج فيه. ومن هذه الآيات وغيرها يتبين أن عدد الأنبياء المذكورين في القرآن خمسة وعشرون نبيًّا، ذُكر في هذه الآيات ثمانية عشر نبيًّا، والباقون وهم سبعة جاء ذكرهم في آيات متفرقة، وقد ذكرهم الشاعر بقوله:

في تلـك حُجَّتُنَـا منهـم ثمانيـة

مـن بعـدِ عشـرٍ ويبقـىٰ سـبعةٌ وهـم

إدريـسُ هـودٌ شـعيبٌ صالـحٌ وكـذا

ذو الكفـلِ آدمُ بالمختـارِ قـد خُتمـوا

وفي قوله: (في تلك حُجَّتُنَا): يشير إلىٰ الآية السابقة رقم (٨٣).

[٨٨] واعلموا أيها الناس أن ذلك الفضل والإنعام الذي منَّ الله به علىٰ أولئك الرسل هو هدىٰ الله، يهدي به من يشاء الله من عباده ممن يعلم الله فيهم الاستعداد للإيمان والصلاح، ثم بين سبحانه لو أن أحدًا من أولئك الرسل الذي ذكرهم الله أشرك به جل في علاه – علىٰ وجه الافتراض والاستبعاد – لأحبط الله عمله.

[٨٩] واعلموا أن أولئك الأنبياء والرسل المذكورين هم الذين أنزل الله عليهم الكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف موسىٰ، وآتاهم العلم والفقه، وخصهم بالرسالة والنبوة؛ فإن يجحد بهذه الثلاثة مشركو مكة فقد أمر الله برعايتها والانتفاع بها قومًا آخرين يؤمنون بها وهم المهاجرون والأنصار، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم القيامة.

[٩٠] ثم اعلموا أيضًا أن أولئك الأنبياء والرسل المذكورون هم الذين هداهم الله ووفقهم إلىٰ الدين الحق وإلىٰ التوحيد؛ فعليك يانبي الله أن تتبع طريقهم وتسلك سبيلهم، وقل للمشركين من أهل مكة وغيرهم: إني لا أسألكم علىٰ تبليغ الرسالة والنبوة أجرًا؛ وما هذا القرآن الذي جئتكم به إلا موعظة وعبرة لجميع الخلق إنسهم وجنهم.

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

[٩١] يخبر جل وعلا أن اليهود ما عظَّموا الله حقَّ عَظَمَتِهِ، وما وصفوه حقَّ صفته؛ حيث قالوا: ما أنزل الله من السماء كتابًا علىٰ أحد من البشر، فقل لهم يانبي الله: إذا كان الأمر كما تزعمون، فمن الذي أنزل التوراة التي جاء بها موسىٰ عليه السلام إلىٰ قومه لتكون نورًا وهداية للناس؟ ثم جعلتموه في قراطيس متفرقة، تبدون بعض ما تحبُّون وتكتمون كثيرًا مما جاء فيها، ومن ذلك كتمانكم صفة محمَّد ﷺ، وقد علَّمكم الله في التوراة ما لم تعلموه أنتم ولا آباؤكم من قبل ومع ذلك لَمْ تنتفعوا بها؛ بل بدَّلتم وحرفتم، ثم قل يانبي الله لهؤلاء الجاحدين مجيبًا لهم: اعلموا أن الله هو الذي أنزل جميع الكتب السماوية، وبعد ذلك اتركهم يستمروا في كفرهم وضلالهم عابثين كالصبيان.

وهذه الآية نزلت جوابًا لليهودي الذي قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

[٩٢] واعلموا أيها الناس أن هذا القرآن كتاب أنزله الله كما أنزل التوراة والإنجيل من قبل، وهو كتاب معجز كثير الخير، باق إلىٰ يوم القيامة، مصدق لما تقدمه من الكتب المنزلة، وقد أنزله الله ليخوِّف به أهل مكة ومن حولها من أهل أقطار الأرض من عذاب الله وبأسه، ثم بين سبحانه أن الذين يؤمنون بالآخرة إيمانًا حقيقيًّا يؤمنون بهذا القرآن، ويحافظون علىٰ أداء شعائر الإيمان كلها، ومنها الصلاة التي هي من أجلِّ العبادات وأهمها.

[٩٣] واعلموا أيها الناس أنه لا أحد أظلم وأفجر ممن اختلق علىٰ الله جل في علاه قولًا كذبًا، كمن يحلل ويحرم بدون دليل من الشرع، أو ادعىٰ أن الله أوحىٰ إليه بالرسالة أو النبوة، وهو لم يوح إليه بشيء، أو قال: إنني أستطيع أن آتي بقرآن يشبه القرآن الذي أنزله الله علىٰ محمد ﷺ، كما قال أحد كفار مكة: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال:٣١].

ثم بين سبحانه مصير الظالمين المشركين فقال: ولو ترىٰ يانبي الله هؤلاء الظالمين وهم في سكرات الموت، وملائكة العذاب الموكلة في قبض أرواحهم تضربهم وتعذبهم حتىٰ تخرج أرواحهم وتقول لهم: أخرجوا أرواحكم من أجسادكم علىٰ سبيل الإهانة والتعنيف، فلو رأيتهم يانبي الله وهم في هذه الحال لرأيت عجبًا، ثم تقول لهم الملائكة: اليوم سوف تلقون عذاب الذل والخزي والإهانة بسبب كذبكم وافترائكم علىٰ الله بغير الحق، وكنتم تستكبرون عن اتباع آيات الله والانقياد لرسله.

وهذه الآية قيل: إنها نزلت في مسيلمة الكذاب والأسود العنسي الَّذيْن ادَّعيا النبوة، وهي تصدق علىٰ كل من ادعىٰ النبوة أو قال: سأُنزل مثل ما أنزل الله.

[٩٤] ثم يخبر جل وعلا عن حال المشركين عندما يعرضون للحساب، فيقول لهم سبحانه علىٰ سبيل التوبيخ: لقد بُعثتم أيها الكفار من قبوركم ثم جئتم إلينا فرادىٰ لا مال معكم ولا ولد ولا زوج ولا خدم ولا أصحاب، وقد تركتم وراءكم الدنيا بما فيها، وما نرىٰ معكم في الآخرة أوثانكم التي كنتم تعتقدون أنها ستشفع لكم، وتَدَّعون أنهم شركاء مع الله في العبادة؛ فاعلموا أيها المشركون أن العلاقة التي كانت بينكم قد تقطعت وتشتت جمعكم، وذهب عنكم ما كنتم تزعمون في الدنيا من شفاعتها، وضاع ما بينكم وبينهم من المودة والصداقة؛ فإن اليوم يوم الجزاء والحساب، وكل سوف يحاسب وحده.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١

[٩٥] يخبر جل وعلا أنه يشق الحب اليابس فيخرج منه النبات الأخضر اليانع المثمر، وأيضًا يشق النوىٰ اليابس فينبت منه النخلة التي تثمر أنواع الرطب اللذيذ، ثم أخبر سبحانه أنه يخرج الحي من الميت؛ ومن ذلك إخراج الإنسان أو الحيوان من النطفة الميتة، وكذلك يخرج الميت من الحي؛ ومن ذلك إخراج النطفة الميتة من الإنسان أو الحيوان؛ وهذا دليل علىٰ قدرة الله علىٰ خلق الأشياء المختلفة، والمقصود الحياة المثمرة والكاسبة، وإلا فالبذرة والحيوان المنوي فيهما حياة ناقصة، تكملها بالنسبة للحيوان المنوي نفخة الملك، وبالنسبة للنبات الماء، وكل ذلك بإذن الله، واعلموا أيها الناس أن الخالق لهذه الأشياء هو الله؛ فهو وحده القادر علىٰ فعل ذلك؛ فكيف تُصرفون عن الإيمان مع قيام الدليل والبرهان؟!.

[٩٦] واعلموا أن الله وحده هو الذي شق ضياء الصباح من ظلام الليل، وهو الذي جعل الليل مستقرًا وسكنًا، تسكن فيه المخلوقات من تعب النهار، وهو الذي جعل حركة الشمس والقمر تسير بنظام دقيق يعرف به الناس مواقيت عباداتهم ومعاملاتهم، وهذا كله من تدبير وتقدير العزيز الذي عزَّ سلطانه، العليم بمصالح خلقه وتدبير شئونهم.

[٩٧] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق لعباده هذه النجوم ليهتدوا بمواقعها في أسفارهم أثناء سيرهم في ظلمات البراري والبحار، واعلموا أن الله جل في علاه قد بيَّن الدلائل والبراهين الواضحة؛ ليتدبرها أهل العلم والمعرفة.

[٩٨] ثم أخبر جل وعلا أنه خلقكم من نفس واحدة، أي: خلقكم من صلب أبي البشر آدم عليه السلام؛ وجعل لكم مستقرًّا في أرحام الأمهات، ومستودعًا في أصلاب الآباء، وقد وضح سبحانه كلَّ مراحل خلقكم وبيّن دلائل قدرته لقوم يفهمون ما يتلىٰ عليهم ويتدبرون معناه علىٰ الوجه الصحيح.

[٩٩] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل من السماء ماء المطر؛ فأخرج به نبات كل شيء؛ وأخرج من النبات شيئًا غَضًّا طريًّا، ثم أخرج من هذا الزرع الأخضر حبًّا كثيرًا بعضه فوق بعض، وأخرج من هذا الماء أيضًا أشجار النخيل التي تثمر الطلع - وهو الغلافُ الحافظ للقنْوِ - الذي تتدلىٰ منه عذوقُ الرطب الجميلة ذات الطعم اللذيذ، وأخرج من هذا الماء أيضًا البساتين التي تتكون من أنواع الأعناب الكثيرة، وأخرج من هذا الماء أيضًا أشجار الزيتون والرمان التي تتشابه في أوراقها وتختلفُ في ثمارها؛ فانظروا أيها الناس نظر تفكر واعتبار في وقت طلوع هذه الثمار ووقت نضوجها وإيناعها، واعلموا أن في خلق هذه الزروع والثمار مع اختلاف أنواعها وأشكالها وألوانها؛ لدلائل وبراهين واضحة لقوم يؤمنون أن الذي أخرج هذا النبات من هذه البذور اليابسة الميتة قادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ.

[١٠٠] ثم أخبر جل وعلا أن المشركين جعلوا لله شركاء من الجن في عبادته؛ اعتقادًا منهم أنهم ينفعون ويضرون، مع أنهم يعلمون أن الله هو الذي خلق الجن، كما أن هؤلاء المشركين كذبوا علىٰ الله تعالىٰ حين نسبوا له سبحانه البنين والبنات؛ فزعم النصارىٰ أن المسيح ابن الله، وزعم المشركون وبعض العرب أن الملائكة بنات الله، وزعم اليهود أن عزيرًا ابن الله، وهذا كله جهل منهم وسفاهة؛ فتنزّه تعالىٰ وتقدس عمَّا يصفه به هؤلاء الضالون المجرمون.

قال بعض المفسرين: نزلت هذه الآية في المجوس الذين قالوا: إن الله خالق الخير، وإبليس خالق الشر، وهم الثنوية، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

[١٠١] ثم أخبر جل وعلا أنه خالق السماوات والأرض ومبدعهما علىٰ غير مثال سابق؛ فكيف يكون له ولد - كما يزعم هؤلاء الضالون - مع أنه لم تكن له زوجة؟!، ثم أخبر سبحانه أنه خلق جميع الأشياء، وهو عليم بكل ما يحدث في الكون، لا يخفىٰ عليه شيء من أمر خلقه؛ فالكل عبيده وتحت تصرفه.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

[١٠٢] واعلموا أيها الناس أن ذلكم الموصوف في الآيات السابقة بتلك الصفات الجليلة هو ربكم، لا معبود بحق سواه، خالق كل شيء مما كان ومما سيكون؛ فالواجب عليكم أن تخلصوا له العبادة لأنه هو وحده المستحق للعبادة، وهو سبحانه حفيظ ورقيب علىٰ عباده يدبر أمرهم ويتولىٰ جميع شئونهم.

[١٠٣] يخبر جل وعلا أنه لا تدركه الأبصار مطلقًا في الدنيا لعدم قدرة أبصارنا علىٰ رؤيته، كما قال تعالىٰ لموسىٰ لما سأله رؤيته: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣]، أما في الآخرة فإننا نُخلق خلقًا آخر، وحينئذٍ يتفضل الله علينا برؤيته، ولكن من غير إدراك كامل لذاته، أما هو سبحانه، فإنه يدرك الأبصار وما تحت الأبصار وما فوقها، وما احتوته، لا تخفىٰ عليه خافية، وهو سبحانه اللطيف بأوليائه الخبير بهم.

[١٠٤] واعلموا أيها الناس أنه قد جاءتكم دلائل وبراهين من الله جل في علاه واضحة بينة؛ تبصرون بها الهدىٰ من الضلال، فمن انتفع بهذه الدلائل فقد نفع نفسه، ومن أعرض عنها فقد أضر بنفسه، ثم بين سبحانه بأن الرسول ﷺ لم يبعث رقيبًا عليكم يحفظ أعمالكم، وإنما وظيفته تبليغ رسالة ربه؛ فبلغ ﷺ الرسالة، وأدىٰ الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده.

[١٠٥] وكما بين جل وعلا الأدلة الواضحة في مسائل التوحيد والنبوة واليوم الآخر وغير ذلك؛ فإنه بين الحُجج والبراهين في كل ما جهله هؤلاء الكفار، ومع ذلك فإنهم يقولون كذبًا وزورًا: لقد تعلمت يامحمد من كتب الماضين من أهل الكتاب، وجئت منها بهذا القرآن، ثم أخبر سبحانه أنه بيَّن ووضح هذا القرآن لمن هداهم الله، ولمن يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه.

[١٠٦] ثم يُسَلي جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ ويأمره أن يتبع ما أوحاه الله إليه من الأوامر والنواهي، وأخبره أنه وحده الإله المستحق للطاعة، وأمره أن لا يبالي بعناد المشركين الضالين، ولا يلتفت لأقوالهم و أفعالهم.

[١٠٧] ثم بين جل وعلا أنه قادر علىٰ أن يجعل جميع الناس مؤمنين لو أراد ذلك؛ بل قادر علىٰ أن يجعل جميع الإنس والجن كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، وكذلك قادر أن يوجههم إلىٰ الإيمان ويحببهم فيه، ولكنه لحكمة بالغة جعلهم مختارين ليختاروا ما يحبون من الخير أو الشر الذي وُضِّح لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، أي: دلهم علىٰ طريق الهدىٰ وضده؛ فمن سلك طريق الهدىٰ زاده الله هدىٰ، والذين في قلوبهم مرض وزيغ زادهم الله مما اشتهوا؛ مع أن الله لا يحب لعباده الكفر والضلال؛ لكن أعطىٰ كلًّا مراده الذي أحبه وأصر عليه، ثم وجه سبحانه الخطاب لنبيه ﷺ فأخبره أنه لم يجعله رقيبًا علىٰ أعمال الناس، وأنه ليس بمكلف أن يقوم بحفظ أعمالهم وتدبير شئونهم.

[١٠٨] ثم نهىٰ جل وعلا عن سب المعبودات عند من يعبدونها فقط؛ لأن ذلك يحملهم علىٰ الغضب فيسبوا معبودكم وهو الله سبحانه وتعالىٰ جهلًا وسفهًا منهم، وذلك سدًّا للذريعة، وإلا فهي باطلة تستحق التحطيم والإزالة، ثم أخبر سبحانه أنه كما زين لهؤلاء المشركين عبادة الأوثان وطاعة الشيطان جزاءً لامتناعهم عن قبول الهدىٰ؛ فقد زين لكل أمة عملهم من الخير والشر، ثم يوم القيامة مرجعهم جميعًا إلىٰ الله فيخبرهم بما كانوا يعملون في حياتهم الدنيا من خير أو شر، ثم يجازي كلًّا بعمله.

[١٠٩] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين حلفوا بالأيمان المغلظة لَئِنْ جاءهم محمد بعلامة خارقة من اقتراحهم فإنهم سوف يؤمنون بها؛ فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أن هذه الآيات هي من عند الله، فهو وحده القادر عليها، وليس لي يد فيها، وأما أنتم أيها المؤمنون الذين تطمعون في إيمانهم فما يدريكم لعلهم إذا جاءتهم لا يؤمنون بها؟؛ فيكونون كقوم صالح عليه السلام؛ حيث طلبوا منه الناقة فلما حقق الله لهم مطلبهم كفروا به ثم عقروها. وأما الله سبحانه وتعالىٰ فإنه يعلم أنهم لن يؤمنوا بها.

[١١٠] وبسبب إعراض هؤلاء المشركين عن دين الله فإنه سبحانه يحول بينهم وبين الإيمان؛ فلو جاءهم الله بالآيات التي اقترحوها فإنهم لن يؤمنوا بها أبدًا كما لم يؤمنوا بها أول مرة، ثم بين سبحانه أنه سوف يتركهم في هذه الحال في كفرهم وضلالهم الذي أُشربته قلوبهم، فرفضوا الهدىٰ حتىٰ صاروا متحيرين لا يهتدون إلىٰ الحق والصواب؛ وحينئذٍ تحل بهم العقوبة، وهذه الآية توضح شيئًا من القدر.

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

[١١١] يخبر جل وعلا عن كذب هؤلاء المشركين الذين أقسموا أنهم إذا رأوا الآيات فسوف يؤمنوا بها؛ فاعلم يانبي الله لو أن الله لم يقتصر علىٰ إنزال الآيات التي اقترحوها؛ بل أضاف إلىٰ ذلك فأنزل عليهم الملائكة فرأوهم عيانًا وشهدوا بصدقك، وأحيا لهم الموتىٰ فكلموهم وشهدوا لك بالصدق والنبوة، وكذلك لو جمع لهم جميع الخلائق وشهدوا بأنك علىٰ الحق، فلو فعل كل هذه الأشياء فإنهم لن يؤمنوا إلا أن يشاء الله؛ فقد شاء الله وجعلهم مختارين فاختاروا الضلال وأصروا علىٰ الكفر؛ ولو أنهم التمسوا من الله الهداية لوفقهم للهدىٰ، ولهذا قال الله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ثم أخبر سبحانه أن أكثر هؤلاء الكفار يجهلون الحق الذي جئت به من عند الله، لأنهم أصموا آذانهم عن سماع الحق، استكبارًا واستغناءً بعقائدهم الباطلة، كما قال آل فرعون لموسىٰ: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢].

ولا شك أن الله قادر علىٰ تحويلهم إلىٰ الهدىٰ لا يعجزه شيء عن ذلك، ولكنه جعلهم مختارين فثبتهم علىٰ ما اختاروا.

[١١٢] ثم سَلَّىٰ جل وعلا نبيه ﷺ وقال له: فكما ابتليناك يانبي الله بأعداء من المشركين فقد ابتلينا جميع الأنبياء عليهم السلام من قبلك بأعداء مِن مردة الإنس وأعداء من مردة الجن، يزين بعضهم لبعض القول الباطل ويزخرفونه حتىٰ يجعلوه في أحسن صورة ليغتر به السامعون فيضلون عن سبيل الله، ولو شاء الله ما عادىٰ هؤلاء المجرمون أنبياءَهم ولكنها سنة الابتلاء التي يبتلي بها عباده المؤمنين لتمحيص قلوبهم، وليميز الخبيث من الطيب، ثم أمره أن يترك هؤلاء الضالين وما يفترون من الكفر والأقوال الباطلة.

[١١٣] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول ليغتر به السامعون، ولتميل إلىٰ ذلك الزخرف والغرور قلوب الذين لا يصدقون بالبعث والجزاء؛ ليحبوه وليكتسبوا من الأعمال السيئة ما هم مكتسبون، وهذا فيه تهديد للضُّلَّالِ وتبصير للمؤمنين.

وفي هذه الآية بين سبحانه أن خطوات الشيطان في إضلال الناس تمر بمراحل ثلاث: فأولًا: الاستماع للشبهة، أخذًا من قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، وثانيًا: الرضىٰ بالشبهة واستحسانها، أخذًا من قوله: ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾، وثالثًا: اعتقاد الشبهة والعمل بها، أخذًا من قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

[١١٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: أفغير الله أطلب حكمًا قاضيًا بيني وبينكم، وهو الذي أنزل إليك القرآن مبينًا فيه كل أمور الدين بالتفصيل؟ ثم بين سبحانه أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه منزل من عند الله وأنه مشتملٌ علىٰ الحق، كما بشرت كتبهم بذلك؛ فلا تكونن يامحمد أنت ومن اتبعك من الذين يشكّون في الحق بعد بيانه.

والمقصود: تحذير أمته ﷺ، وإلا فهو معصوم مما هو أقل من الشك.

[١١٥] واعلم يانبي الله أن كلمات ربك قد تمت صدقًا فيما أخبر، وعدلًا فيما قضىٰ وقدر؛ فلا مغير لحكمه، ولا مخلف لوعده، وهو السميع لتضرع أوليائه ولقول أعدائه، العليم بأحوالهم وما في قلوبهم، يعلم الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر.

[١١٦] ولو فُرض يا نبي الله أنك أطعت أكثر أهل الأرض لأضلُّوك عن دين الله؛ لأنهم لا يسيرون إلا وراء الظنون والأوهام، ويتبعون الأهواء الشهوات، ولا يتكلمون إلا عن تخمين لا يُبنىٰ علىٰ برهان.

[١١٧] واعلم يانبي الله أن الله أعلم بمن ضل عن طريق الحق وخالف سبيل الهدىٰ والرشاد، وهو أيضًا أعلم بالمهتدين الذين اتبعوا صراط الله المستقيم، ثم إنه سبحانه سوف يجازي كل فريق بما كسب من الخير والشر؛ فالزم طريق الخير والهدىٰ وابتعد عن طريق الشر والضلال.

[١١٨] يأمر جل وعلا عباده أن يأكلوا من الذبائح التي ذُكر اسم الله تعالىٰ عليها عند ذبحها، والمقصود ما يذبح من البهائم التي لم يُحَرَّمْ أكلها؛ لأنها طعام حلال طيب، ما دام أنهم مؤمنون بالآيات التي ورد فيها بيان ما يحل وما يحرم من المآكل.

ويفهم من هذه الآية عدم الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

[١١٩] وما دام أنكم مؤمنون بالله ورسوله فأي شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه؟!، في الوقت الذي بين فيه جل وعلا لكم كل ما حرم عليكم من المآكل؛ إلا ما ألجأتكم الضرورة إليه؛ كمن خاف علىٰ نفسه الهلاك من شدة الجوع فإن له أن يأكل مما حرم الله علىٰ قدر الضرورة، ثم بين سبحانه أن كثيرًا من الكفار يُضلون غيرهم فيحلون ويحرمون بغير علم اتباعًا لأهوائهم الزائفة وشهواتهم الباطلة، وإن ربك يانبي الله هو أعلم بمن تجاوز حدوده، وهو الذي سيتولىٰ حسابه وجزاءه.

[١٢٠] ثم أمر جل وعلا عباده أن يتركوا جميع الذنوب والمعاصي، السرية والجهرية، واعلموا أن الذين يفعلون الإثم ظاهره وباطنه سيجزون بمقدار ما اقترفوا من سيئات وآثام.

[١٢١] ثم نهىٰ جل وعلا عن أكل الذبائح التي لم يُذكر اسم الله عليها عند الذبح، وبين سبحانه أن أَكْلَهَا خروج عن الهدىٰ، واعلموا أن العتاة المفسدين من إبليس وأعوانه ليوسوسون في صدور من استولوا عليهم ليجادلوكم في تحليل أكل الميتة، وهذا نهي منه سبحانه وتعالىٰ عن الاستماع لشبهة الكفار الذين يقولون للمؤمنين: كيف تحرِّمون ما أمات الله وتأكلون ما ذبحتم أنتم؟!، وهذا هو إيحاء الشياطين لهم، ثم حذر سبحانه المؤمنين من طاعة هؤلاء المشركين في استحلال ما حرمه الله عليهم؛ فإن أطاعوهم فإنهم مشركون مثلهم.

[١٢٢] وهل يعقل أيها المؤمنون أن من كان ميتًا بالكفر والضلال، ثم أحياه الله جل في علاه بالهدىٰ والإيمان، وجعل له نورًا يبصر به الحق بين الناس، كمن يتخبط في ظلمات الكفر والضلالة ليس بخارج منها، ثم بين سبحانه أنه كما زُيِّن للمؤمنين الإيمان فتمسكوا به فقد زُيِّن للكافرين عبادة الأصنام والأوثان جزاءً علىٰ رفضهم الهدىٰ.

[١٢٣] وكما جعل جل وعلا فساق مكة هم أكابرها؛ فكذلك جعل سبحانه فساق كل قرية أكابرها، يعني: رؤساءها ومترفيها؛ ليمكروا فيها بصد الناس عن الإيمان بالله وبرسله؛ وما يدري هؤلاء المجرمون أنهم ما يُهلكون إلا أنفسهم، وأن ضرر مكرهم يعود عليهم، ولكنهم لا يُحِسُّون بذلك؛ لأن الهوىٰ صدهم عن الهدىٰ، وحرصهم علىٰ الرئاسة والزعامة أطغاهم وجعلهم يحاربون الدعاة، وإلا فهم بشر كسائر البشر خلقوا علىٰ الفطرة.

[١٢٤] ثم أخبر جل وعلا عن لون من ألوان مكر هؤلاء المشركين؛ فقال سبحانه: وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجة واضحة تدل علىٰ صدق رسالة محمد ﷺ؛ فإنهم لا يذعنون لها، ويقولون علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء: لن نؤمن برسالتك يامحمد حتىٰ يَنْزِلَ علينا الوحي كما يَنْزِلُ علىٰ الرسل، فرد سبحانه علىٰ هؤلاء الضالين مبينًا أنه جل في علاه أعلم بمن هو أهل للرسالة، ثم بين سبحانه أنه بسبب تكبرهم وعنادهم سوف يجازون بالمذلة والهوان، وسينالهم العذاب الشديد في الآخرة بسبب تصرفهم وتدبيرهم السيئ، وإضلالهم لغيرهم.

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن
يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا
يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ
رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ
جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ
أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ
أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي
بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩
يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ
يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ
هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا
وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠

[١٢٥] واعلموا أن من طلب الهداية من الله فإن الله يوفقه ويشرح صدره للإسلام والإيمان والتوحيد، ومن يُرد الاستمرار علىٰ الضلال ويصر علىٰ البقاء كافرًا فإن الله يَطبع علىٰ قلبه، ويجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد إلىٰ مكان مرتفع فيصاب بضيق في التنفس، وكذلك يجعل الله العذاب علىٰ الذين لا يؤمنون بالله ورسوله.

وهذه الآية يؤيد ما ذكرنا في تفسيرها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [النساء:٤٠]، وقوله ﷺ في الحديث القدسي: «**ياعبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**...إلخ»[(١)]؛ فالإرادة العليا هي إرادة الله؛ فمن التجأ إليه والتمس منه الهدىٰ هداه وشرح صدره، ومن ضل وأصر علىٰ الكفر تركه وما اختار لنفسه؛ بل طبع علىٰ قلبه، وهذا الطبع جزائيًّا لا ابتدائيًّا.

[١٢٦] واعلم يانبي الله أن هذا الدين الذي جاءك من رب العالمين هو دين الإسلام، وهو طريق ربك المستقيم الذي لا عوج فيه؛ ثم أخبر سبحانه أنه بيَّن ووضَّح الآيات والحجج والبراهين لقوم يتعظون ويتذكرون.

[١٢٧] ثم أخبر جل وعلا أن لأولئك الذين يتعظون ويتذكرون بالآيات والحجج والبراهين لهم عند ربهم دار السلام وهي الجنة، وهي مضمونة لهم حتىٰ يدخلوها وهم في ولاية الله ومحبته ونصرته، جزاء أعمالهم الصالحة في الدنيا.

[١٢٨] واذكر يانبي الله لأهل مكة حال الظالمين من الإنس والجن يوم أن يحشرهم الله جميعًا يوم القيامة ويقول لمردة الشياطين: يامعشر الشياطين لقد أضللتم كثيرًا من الإنس بإغوائهم وتزيين الشهوات لهم، وقال الذين أطاعوهم من الإنس في الدنيا: ربنا لقد استمتع الجن بطاعة الإنس وانقيادهم لهم، واستمتع الإنس بالشهوات التي زَيَّنَتْهَا لهم الشياطين، حتىٰ بلغنا يوم القيامة الذي جعلته موعدًا لنا، أو الموت الذي جعلته نهاية لحياتنا واستمتاعنا، فقال جل وعلا ردًّا عليهم: إن النار مصيركم ومنزلكم جميعًا خالدين فيها أبد الآبدين، إلا من شاء الله عدم خلوده من عصاة الموحدين؛ لأن العاصي الموحد سوف يكون مصيره إلىٰ الجنة بعد تطهيره من الذنوب والمعاصي، واعلم أن ربك حكيم في تدبير شئون عباده، عليم بأحوالهم.

[١٢٩] واعلم يانبي الله كما تمكن الجن من إغواء الإنس وإضلالهم فكذلك سلط سبحانه بعض الظالمين علىٰ بعض حتىٰ يُضلَّ ويعذب بعضهم بسبب من اقترافهم للذنوب والمعاصي.

[١٣٠] يخبر جل وعلا أنه يقول يوم القيامة للمشركين من الإنس والجن علىٰ سبيل التوبيخ: يا أيها المشركون ألم يأتكم رسلٌ يخبرونكم بهذا الدين وهذا التوحيد، وهذه الآيات والدلالات الواضحة المشتملة علىٰ الأوامر والنواهي، ويحذرونكم لقاء الله يوم القيامة؟، فقالوا حينها: لقد شَهِدْنا علىٰ أنفسنا بأن الرسل قد بلغونا الدلائل والآيات فرفضنا الإيمان بالله وبرسله، وخدعتهم الحياة الدنيا بزخارفها ومتعها الفانية، وأقروا علىٰ أنفسهم أنهم كانوا جاحدين لهذه الآيات وللهدىٰ.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا
غَٰفِلُونَ ١٣١ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ
إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا
يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣
إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤ قُلۡ يَٰقَوۡمِ
ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ
مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥
وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا
فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ
لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦ وَكَذَٰلِكَ
زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ
شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ
وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧

[١٣١] واعلم يانبي الله أن ذلك الذي قصه الله عليك من أمر الرسل وعذاب من كذبهم؛ سببه أن ربك لم يكن من سننه أن يهلك أهل القرىٰ بسبب ظلمهم وكفرهم وضلالهم وهم لا يعلمون الحق؛ بل لا بد أن يبيِّنَ لهم طريق الحق والهدىٰ وينذرهم به، ولذلك أنزل سبحانه الكتب وأرسل الرسل ليبينوا للناس هذا الحق؛ فإذا رفضوا حلَّ بهم الهلاك.

[١٣٢] واعلموا أن لكل عامل من الجن أو الإنس مراتب ومنازل في الآخرة بحسب أعمالهم في الدنيا من خير أو شر، فمن عمل الخير ارتقىٰ في درجات الجنة بحسب عمله ثوابًا له، ومن عمل الشر نزل في دركات النار بحسب عمله عقابًا له، واعلم يانبي الله أنت ومن معك من المؤمنين أن الله ليس بغافل عما كان يعمل هؤلاء المشركون.

[١٣٣] واعلم يانبي الله أن ربك جل وعلا غني عن جميع خلقه؛ فهو سبحانه يعطي من يشاء ويرزق من يشاء بغير حساب؛ وأنه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، ولو شاء سبحانه لأهلككم جميعًا وأتىٰ بخلق آخر أطوع منكم يخلفكم علىٰ هذه الأرض وذلك علىٰ الله يسير؛ ثم بين سبحانه أنه كما أذهب القرون الأولىٰ وأتىٰ بغيرهم، فكذلك هو قادر علىٰ إذهاب قومك يانبي الله والإتيانِ بغيرهم.

[١٣٤] واعلموا أيها الناس أن الذي أَنْذَرَكُمْ الله به من عقاب، وَبَشَّرَكُمْ به من ثواب آتٍ لا محالة، وأنكم لن تعجزوا ربكم هربًا من وعيده، أو خروجًا عن قدرته سبحانه.

[١٣٥] وقل يانبي الله لقومك الرافضين لدعوتك: استمروا علىٰ كفركم ومعاصيكم ما دمتم رفضتم الهدىٰ، فأما أنا فإني عامل ما في استطاعتي من الإيمان بالله وطاعته، وسوف تعلمون يوم القيامة عند نزول عذاب الله بكم مَنْ تكون له العاقبة المحمودة، والنعيم المقيم في الآخرة، وبهذه النتيجة يُعلم أن الأمر يُحمل علىٰ التهديد لهم، ثم أخبر سبحانه أنه لن يفوز برضوان الله ونعيم الجنة أولئك المتجاوزون لحدوده الذين أشركوا معه غيره.

[١٣٦] يخبر جل وعلا عن بعض خرافات المشركين التي تدل علىٰ سفاهة عقولهم وتفكيرهم، ومن ذلك: أنهم كانوا في الجاهلية يجعلون لله قِسْمًا مما خلق من الزروع والأنعام والثمار، ويجعلون لأوثانهم وسدنتها قِسْمًا، ويقولون: هذا القسم لله كذبًا وافتراءً، والقسم الآخر لأوثانهم ومن يقوم عليها من السدنة، فما كان لأوثانهم وسدنتها ينفق عليها وحدها، وما كان لله أوصلوه إلىٰ شركائهم من الأوثانِ بطرقهم الملتوية، وما سقط أو اختلط بالقسم المخصص لأوثانهم، فإنه يضاف للأوثان بحجة أن الله غني عنه؛ فبئس هذا الحكم الجائر؛ وهذه القسمة الظالمة؛ لأنهم بهذه القسمة جعلوا الأوثان نظراء لخالق الحرث والأنعام، تشاركه في ملكه ورزقه، مع أن الله وحده هو الخالق الرازق.

[١٣٧] ثم أخبر جل وعلا عن خرافة أخرىٰ من خرافات المشركين، فقال سبحانه: وكما أن الشياطين زينت للمشركين جعل نصيب لله ونصيب للأصنام من الحرث والأنعام؛ فقد زينت لكثير من الآباء قتل أولادهم خشية الفقر والحاجة، ووأد البنات خشية العار؛ وكل هذا من خدع الشياطين ليوقعوا الآباء في الهلاك بقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وليخلطوا عليهم دينهم فتلتبس عليهم الأمور فلا يميزون بين الحلال والحرام؛ ولو شاء الله أن لمنعهم من هذه الأفعال، ولكن اقتضت إرادته وحكمته سبحانه بأن جعلهم مختارين، ثم أمر نبيه ﷺ أن يتركهم وما اختاروا وتَقَوَّلُوا وافتروا وابتدعوا فكل مرتهن بعمله.

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ
بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ
ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ
يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ
لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ
فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ
عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ
عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ
وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ
مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا
أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ
كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ
وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ
حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾

[١٣٨] ثم أخبر جل وعلا عن خرافة أخرىٰ من خرافات المشركين، حيث قالوا: هذه أنعام وزروع محرمة علينا لا يأكل منها إلا من نشاء من سدنة الأوثان والرجال فقط، أما النساء فلا يأكلون منها، بحسب زعمهم وافترائهم، وكذلك قالوا: هذه الإبل يحرم ركوبها والحمل عليها، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكذلك لا يذكرون اسم الله علىٰ بعض الإبل عند ذبحها لأوثانهم؛ بل يذكرون أسماء أوثانهم، ويزعمون أن الله أمرهم بهذه السفاهات وهذه الضلالات كذبًا وافتراءً عليه، ثم أخبر سبحانه أنهم سوف يلقون جزاءهم بما كانوا يفترون علىٰ الله الكذب.

[١٣٩] ثم أخبر جل وعلا عن خرافة أخرىٰ من خرافات المشركين؛ حيث خصصوا الأجنة التي بطون هذه الأنعام المحرمة وهي البحائر والسوائب لذكورهم فقط، أي: لا يأكل من لحومها ولا يشرب من ألبانها إلا الرجال فقط، وحرَّموه علىٰ إناثهم، وذلك في حال وَلَدَتْ مولودًا حيًّا، أما إذا وَلَدَتْ مولودًا ميتًا فيشترك في أكله الذكور والإناث، ثم بين سبحانه أنه سيجزيهم عذابًا أليمًا علىٰ قولهم الكذب علىٰ الله؛ لأنهم ادعوا أن هذا التحريم مِن الله جل في علاه، واعلموا أن الله حكيم في تدبيره، عليم بهم وبما يفعلون.

[١٤٠] ثم أقسم جل وعلا بأن من فعل هذه الخرافات من قتلهم لأولادهم بسبب خفة عقولهم وجهلهم، وتحريم بعض ما رزقهم الله من الطيبات، كل ذلك كذبًا وافتراءً علىٰ الله؛ حيث ادعوا أن الله أمرهم بهذه الخرافات؛ فقد خابوا وخسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد خسروا أولادهم بقتلهم وهم يعلمون أن الرازق هو الله، وأما في الآخرة فينتظرهم عذاب الله الأليم، ثم أخبر سبحانه أنهم ضلوا عن الطريق المستقيم، ولم يكونوا مهتدين؛ بل كانوا بعيدين كل البعد عن الهدىٰ والرشاد.

[١٤١] وبعد أن بين جل وعلا جملة من ضلالات وخرافات العرب في الجاهلية؛ أخبر سبحانه أنه هو الذي أبدع وخلق لعباده أنواعًا من النعم لكي يعبد وحده لا شريك له، ومن ذلك أنه خلق لكم حدائق متنوعة، منها ما يُغرس ويُرفع علىٰ دعائم ويتمدد حتىٰ يصبح عريشًا كالأعناب، ومنها ما لا يقوم علىٰ دعائم ويتمدد علىٰ وجه الأرض، كما أنه خلق أشجار النخيل وغيرها من الأشجار التي تُخْرِجُ ثمارًا لذيذة مختلفة في اللون والطعم والشكل والرائحة، كما خلق أشجار الزيتون والرمان المتشابهة في منظرها والمختلفة في ثمرها وطعمها، ثم أمر سبحانه أن نأكل من هذه الثمار اليانعة إذا أثمرت، وأن نؤدي حقها يوم حصادها من الزكاة المفروضة عليها، ثم نهىٰ سبحانه عن الإسراف في الأكل من هذه الثمار لأن الإسراف في الأكل يضر بصحة الإنسان، وأخبر أنه لا يحب المسرفين المتجاوزين حدود الله في الأكل والإنفاق في غير محله.

وقد أكد سبحانه في هذه الآية وفي آية الأنعام رقم (٩٩) السابقة علىٰ (الزيتون والرمان)، لأنهما متشابهان في الأوراق والأغصان ولا تكاد أن تفرق بينهما، لكنهما مختلفان في الثمار، فثمرة الزيتون تختلف في الشكل والطعم اختلافًا كبيرًا معروفًا عن ثمرة الرمان، فسبحان الله الخالق الذي خضعت لعظمته السماوات والأرض ومن فيهن.

وذكر أيضًا في هذه الآية الجنات لشكر الله والاستمتاع بأكل نعمه وأداء زكاة الثمار والزروع. أما ذكر الجنات في آية الأنعام رقم (٩٩) السابقة فقد ساقها سبحانه للاعتبار؛ حيث إن بعض الشجر يشبه الآخر وبينهما اختلاف كثير في الثمار؛ حيث قال: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾.

[١٤٢] ثم بين جل وعلا أنه خلق لكم الأنعام؛ فمنها ما لا يصلح إلا لحمل الأثقال كالمتاع والأرزاق، ومنها ما لا يصلح للحمل عليه لصغره وضعفه، ويصلح فقط للأكل، ثم أمر سبحانه بالأكل مما أُحِلَّ لكم من الأنعام والثمار والزروع التي جعلها الله رزقًا لكم، ونهىٰ سبحانه عن اتباع خطوات الشيطان في تحريم ما أحل الله؛ لأنه عدو لكم ظاهر العداوة؛ فاحذروا كيده؛ فقد أخرج أبويكم آدم وحواء من الجنة.

ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

[١٤٣] ثم فصَّل جل وعلا ما أجمله من الأنعام؛ فأخبر أنه خلق من الأنعام ثمانية أزواج للانتفاع بها؛ حيث خلق من كل نوع زوجين اثنين ذكرًا وأنثىٰ، فمن الضأن زوجين وهما الكبش والنعجة، ومن الماعز زوجين وهما التيس والعنز، ثم أمر سبحانه نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل الإنكار والتوبيخ: هل حرم الله الذكر فقط من هذين الزوجين؟ أم أنه حرم الأنثيين فقط من هذين الزوجين؟ أم أنه حرم فقط الأجنة التي في أرحام هذين الزوجين؟ فأخبروني أيها المشركون بدليل واضح بيِّن يثبت أن الله حرم شيئًا من هذه الأنواع إن كنتم صادقين فيما تزعمون من التحليل والتحريم؛ لأن الادعاء بغير دليل صحيح فهو ادعاء باطل.

[١٤٤] ثم أخبر جل وعلا بالأزواج الأربعة الأخرىٰ وهي: من الإبل زوجين وهما الجمل والناقة، ومن البقر زوجين وهما الثور والبقرة؛ ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل التوبيخ والإنكار: هل حرم الله الذكر فقط من هذين الزوجين؟ أم أنه حرم الأنثىٰ فقط من هذين الزوجين؟ أم أنه حرم فقط الأجنة التي في أرحام هذين الزوجين؟ أم كنتم أيها المشركون حاضرين عندما وصَّاكم الله بهذا التحريم؟ فاعلموا أنه لا أحد أشدُّ ظلمًا ممن افترىٰ علىٰ الله الكذب؛ لأنه نسب إليه سبحانه تحريم ما لم يحرم؛ يريدون بذلك إضلال الناس عن الطريق المستقيم بغير علم ولا بينة ولا برهان، ثم بين سبحانه أنه لن يهدي القوم الظالمين إلىٰ طريق الحق بسبب ظلمهم واختيارهم طريق الكفر والضلال.

[١٤٥] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: إني لا أجد فيما أُنزل علي من القرآن شيئًا مما تزعمون تحريمه؛ إلا إذا كان ميتة وهي التي ماتت بغير تذكية شرعية، أو دمًا سائلًا مصبوبًا، أو لحم خنزير لأنه نجس وقذر، أو كانت ذكاته خروجًا عن طاعة الله كالذي لا يذكر اسم الله عليه عند ذبحه؛ بل يذكر اسم صنم أو ولي ونحو ذلك، أو لم يذكر شيءٌ؛ ثم بين سبحانه أن من اضطر إلىٰ أكل شيء من هذه المحرمات بسبب جوع أو خوف الموت غير متجاوز قدر الضرورة فلا حرج عليه؛ واعلم يانبي الله أن ربك غفور رحيم، ومن رحمته أنه لا يؤاخذ من اضطر لأكل شيء من هذه المحرمات.

[١٤٦] ثم أخبر جل وعلا أنه حرم علىٰ اليهود كل ما لم يكن منفرج الأصابع من البهائم والطير – هكذا قال مجاهد –؛ فالبعير والنعامة ليست منفرجة الأصابع فهي لا تؤكل، أما الدجاج والعصافير فهي تؤكل لأنها منفرجة الأصابع، ثم أخبر سبحانه أنه حرم عليهم شحوم البقر والغنم، واستثنىٰ من ذلك الشحوم التي حملتها ظهورهما، أو التي توجد علىٰ الأمعاء، أو التي اختلطت بعظم، فإنه الله قد أحلها، واعلموا أيها الناس أن ذلك التحريم كان بسبب ظلمهم وبغيهم، واعلم يانبي الله بأنا صادقون فيما قلناه عنهم وفيما حرمنا عليهم.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾

[١٤٧] يحذر جل وعلا اليهود وأمثالهم من المشركين من تكذيب النبي ﷺ؛ لأن تكذيبه يعتبر كفرًا بالله، ولذا قال سبحانه لنبيه ﷺ: فإن كذبوك يامحمد فيما أوحيته إليك من الهدىٰ، وفيما أخبرتهم من تحريم بعض الطيبات عليهم، فاستمر في دعوتهم وقل لهم: إن ربكم ذو رحمة واسعة، يمهل بها المكذبين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، ولكن إذا جاء عذاب الله فإنه لا يُردُّ مع سعة رحمته عن القوم المجرمين. وفي هذا ترهيب وتحذير لكل من خالف الرسول ﷺ؛ سواء من اليهود والنصارىٰ والمشركين الذين خالفوا دينه ولم يسلموا، أو من المسلمين الذين تركوا هديه ﷺ، واتبعوا هدي الكفار والمشركين والضالين والمنحرفين.

[١٤٨] ثم أخبر جل وعلا بما سوف يقوله المشركون لك يانبي الله؛ وهو أن الله قادر علىٰ منعهم هم وآبائهم من الوقوع في الشرك وتحريم ما أحل الله، وهذا كلام حقٌّ؛ فالله لا يعجزه شيء، ولكنهم رتبوا علىٰ ذلك؛ حيث إنه لم يمنعهم فهو إذًا راضٍ بفعلهم، والحق أنه جل وعلا جعلهم مختارين؛ فَلَوْ مَنَعَهُمْ لكانوا غير مختارين؛ وقد كذَّبهم الله في ظنهم أنه راضٍ عن فعلهم، وأخبر أنها شبهة قديمة أثارها الكفار من قبلهم، وكذَّبوا بها دعوة رسلهم، واستمروا علىٰ كفرهم وضلالهم حتىٰ أنزل الله بهم بأسه وعذابه الشديد، ولهذا أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: هل عندكم حجة أو برهان من الله تدل علىٰ صحة وصدق قولكم فتظهروه لنا؟، ثم بين سبحانه بأن أقاويلهم هذه ما هي إلا مجرد ظنون فاسدة، وأكاذيب وافتراءات باطلة.

[١٤٩] وبعد أن عجز هؤلاء المشركون عن الإتيان بأي دليل علىٰ صدق مزاعمهم؛ أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أيها المشركون أن لله وحده الحُجَّة البالغة والبينة الواضحة علىٰ الناس جميعًا؛ حيث لا حجة لأحد عليه؛ وحجته تعالىٰ تقطع كل المعاذير، وتزيل سائر الشكوك؛ ولو شاء سبحانه لجعل الناس جميعًا مجبورين علىٰ الهدىٰ مثل الملائكة، وهو قادر سبحانه علىٰ ذلك، ولكن حكمته اقتضت غير هذا.

[١٥٠] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: أيها المشركون أحضروا لي أنصاركم الذين يشهدون لكم علىٰ صدق ما تزعمون من تحريم الله لبعض هذه الأمور، ثم أمره إن شهدوا بذلك فلا يصدقهم لأنهم كاذبون في دعواهم، وأمره أن لا يتبع أهواءهم؛ لأنهم كذبوا بالقرآن، وأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، وأنهم يساوون الله بمعبوداتهم وأوثانهم الباطلة.

[١٥١] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: أيها المشركون تعالوا أقرأ عليكم ما حرم ربكم، ثم سرد ﷺ عليهم جملة من المحرمات التي اتفقت عليها جميع الشرائع، ومن ذلك:

١- أن لا يشركوا مع الله أحدًا في العبادة.

٢- وأن يحسنوا إلىٰ الوالدين، ولا يسيئوا إليهما.

٣- وأن لا يقتلوا أولادهم بسبب الفقر، أو الخوف من المستقبل؛ فالله رازقكم ورازقهم.

٤- وأن لا يقربوا الفواحش؛ سواء كانت علانية أو كانت سرِّيَّةً.

٥- وأن لا يقتلوا أحدًا من الناس؛ إلا من قتل شخصًا فإنه يقتل به، أو قَتْل من ارتد عن الإسلام، أو قَتْل الزاني المحصن بالرجم حتىٰ الموت، واعلموا أيها الناس أن هذه الوصايا هي وصية من الله لكم لعلكم تتدبرون.

....

....

....

....

....

[١٥٢] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يخبرهم بجملة أخرىٰ من الوصايا، ومن ذلك:

١- أن لا يقربوا مال اليتيم إلا بما يُصْلِحُ ماله ويثمره وينميه، ويجب المحافظة علىٰ ماله حتىٰ يصل سن البلوغ ويكون راشدًا، ولا بأس أن يأكلوا منه بالمعروف إن احتاجوا إلىٰ ذلك؛ بحيث يكون علىٰ قدر عملهم في تنميته، ومن كان غنيًّا فليستعفف.

واليتيم هو الذي مات أبوه قبل سن البلوغ.

٢- وأن يتموا الكيل والميزان بالعدل بأن يتم وزنه من غير نقص، واعلموا أن الله لا يكلف نفسًا إلا طاقتها؛ فالتكاليف مأمور بها الإنسان حسب وسعه وطاقته.

٣- وإذا حكموا بين الناس، أو أرادوا أداء شهادة؛ فليحكموا بينهم بالعدل، ويؤدوا الشهادة علىٰ وجهها الصحيح، حتىٰ لو كان المحكوم عليه أو المشهود ضده من أقرب الناس إليكم.

٤- وأن يوفوا بالعهود التي عاهدوا بها الله، أو عاهدوا بها الناس، فالوفاء بالعهود من سمة أهل الإيمان.

واعلموا أيها الناس أن هذه الوصايا هي وصية من الله لكم لعلكم تتذكرون.

[١٥٣] ثم جاءت الوصية الأخيرة وهي:

٥- أن لا يحيدوا عن الطريق المستقيم الموصل إلىٰ سعادة الدنيا والآخرة؛ بل عليهم أن يتبعوه، ولا يتبعوا الطرق الباطلة التي نهىٰ الله عنها حتىٰ لا يتفرَّقوا ويبتعدوا عن طريق الله المستقيم. واعلموا أيها الناس أن هذه الوصايا هي وصية من الله لكم لعلكم تتقون عذابه في الآخرة.

وهذه الوصايا العشر - المذكورة في هذه الآية والتي قبلها - وردت في جميع الكتب السماوية؛ لأن كل الفطر تقبلها وترضىٰ بها، ولا ترفضها إلا النفوس الدنيئة التي ابتعدت عن شرع الله.

[١٥٤] يخبر جل وعلا أنه هو الذي أعطىٰ موسىٰ التوراة تمامًا لنعمته عليه وعلىٰ المحسنين من أهل ملته، وفيها تفصيل لجميع أحكام دينهم، وإرشاد لهم علىٰ الطريق المستقيم، وسبب لنيل رضوان الله ورحمته، لعلهم يؤمنون بيوم البعث، ويصدقون بثواب الله وعقابه فيعملون من أجل ذلك.

[١٥٥] واعلم يانبي الله أن هذا القرآن الذي أنزله إليك هو كتاب الله كثير البركة وكثير النفع والخير؛ فعليك أن تأمر الناس أن يتبعوه ويحذروا من مخالفته، وأن يتقوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، لعلهم يُرحمون به فينجون من عذاب الله.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

[١٥٦] واعلموا أن الله جل وعلا أنزل القرآن وبعث الرسل لكي لا يقول أحد يوم القيامة لم يأتنا رسول، ولم ينزل علينا كتاب، وإنما أنزل الكتاب علىٰ الذين من قبلنا وهم اليهود والنصارىٰ، وقد كنا جاهلين عن قراءة كتبهم حيث لم تكن باللغة العربية التي نجيدها، فكان إنزال القرآن باللغة العربية حجة عليهم.

[١٥٧] ثم بين جل وعلا أيضًا أنه أنزل القرآن خشية أن يقولوا معتذرين: لو أُنزل علينا كتاب من السماء كما أُنزل علىٰ اليهود والنصارىٰ لكنَّا أهدىٰ منهم لسعة عقولنا وطيب استعدادنا، فرد الله اعتذارهم وأخبر أنه جاءهم بحجة وبرهان من الله، وهو هذا القرآن المعجز، رحمة لهم، وعلامة علىٰ صدق محمد ﷺ؛ فمن كذب بهذا القرآن ولم ينتفع به فليس هناك أحد أشد ظلمًا ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها ولم يؤمن بها، ثم بين سبحانه أنه سيجزي من يعرض عن هذا القرآن بأشد أنواع العذاب بسبب إعراضه وكفره وضلاله، ومنع الناس عن الإيمان به .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

[١٥٨] وبعد تكذيبكم أيها المشركون لنبينا محمد ﷺ، وتكذيبكم للقرآن؛ فماذا تنتظرون؟ هل تنتظرون حتىٰ تأتيكم الملائكة لقبض أرواحكم؟ أو تنتظرون حتىٰ يأتي ربكم في موقف القيامة للفصل بين الخلائق؟ أو تنتظرون حتىٰ تأتي بعض علامات الساعة الكبرىٰ، والمراد بها هنا طلوع الشمس من مغربها؛ فاعلموا أنه يوم أن تأتي هذه العلامة لا ينفع حينئذ الإيمان لمن لم يؤمن من قبل، ولا تنفع التائب توبته، ولا يقبل من النفس المؤمنة عمل صالح لم تكن عملت به من قبل، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المكذبين: انتظروا أحد هذه الأمور لتعلموا الصادق منّا من الكاذب، فإنا منتظرون معكم لنرىٰ ما يحل بكم من سوء العاقبة.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾، الإتيان صفة من صفات الله التي وصف بها نفسه، وهو إتيان حقيقي من الله. وجلُّ الفرق الإسلامية كالأشاعرة والمعتزلة وغيرها يؤولون بعض صفات الله ومن ذلك صفة الإتيان، فيقولون: (يأتي ربك)، يعني: يأتي أمر ربك.

أما أهل السنة والجماعة فيثبتون كل صفة أثبتها الله لنفسه في كتابه، أو أثبتها له نبيه ﷺ، ومن ذلك صفة الإتيان، فيقولون: إن الله يأتي بذاته إتيانًا حقيقيًّا يليق بجلاله، لا نعرف كيفية إتيانه؛ كما لا نعرف كيفية ذاته جلَّ وعلا.

[١٥٩] واعلموا أن اليهود والنصارىٰ الذين فرَّقوا الدين الحق الصحيح، وأصبحوا بسبب ذلك فرقًا وأحزابًا، كل فرقة تعادي الأخرىٰ وتكفِّرُها، فإنك يانبي الله لست مثلهم، ولا مؤاخذًا بفعلهم، ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أن أمر هدايتهم لله وحده، وأما أنت فلا تملك هدايتهم، وسوف يخبرهم سبحانه يوم القيامة بما كانوا يفعلونه في الدنيا ويجازيهم عليه.

[١٦٠] ثم بين جل وعلا فضله الذي تفضل به علىٰ عباده المؤمنين فأخبر أنَّ من عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، ومن جاء بالخطيئة فجزاؤه مثلها دون زيادة عليها، ولا يُنقص من ثواب أعمالهم مثقال ذرة.

[١٦١] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: إن ربي أرشدني إلىٰ الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دينُ الإسلام الحق، وهو دين إبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام، واعلموا أن إبراهيم ما كان من المشركين بالله.

وهذا يؤيد ما قاله بعض المفسرين في قول إبراهيم عن الكوكب والقمر والشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٨]، أنه كان تنزلًا مع الخصم للمناظرة.

[١٦٢-١٦٣] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: إن صلاتي، وذبحي، وجميع عباداتي، وكل حياتي، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح، كله خالص لوجه الله تعالىٰ، لا شريك له في الخلق، ولا في الإلهية، وقد أمرني ربي بذلك، بأن أعبده وحده ولا أشرك به شيئًا، وأنا أول المستسلمين لأمره.

[١٦٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: أغير الله أبغي سيِّدًا وإلهًا وهو مالك كل شيء وسيده؟، واعلموا أنه لا تجني نفس ذنبًا إلا أُخذت به، ولا يحمل أحد جناية غيره، ثم بين سبحانه أن الخلق سوف يرجعون إلىٰ ربهم فيحاسبهم علىٰ أعمالهم، ويخبرهم بما كانوا يعملون في الدنيا.

[١٦٥] يخبر جل وعلا أنه جعل آدم وذريته خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضًا في عمارتها، كما قال تعالىٰ عن آدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]؛ وقال بعض المفسرين: إن الله جعل آدم وذريته خلفاء عنه في تنفيذ أحكامه ابتلاءً له، والآية تحتمل القولين، ثم بين سبحانه أنه رفع بعضكم فوق بعض في الشرف والرزق وغير ذلك؛ ليختبركم فيما أعطاكم من نعمة الجاه والمال كيف تشكرون تلك النعمة، ولكي تعمر الحياة؛ حيث يخدم بعضكم بعضًا لمصلحة الكل، واعلم يانبي الله أن ربك سريع العقاب لمن جحد وكفر، وأنه غفور رحيم لمن أطاعه وشكر نعمه.

سورة الأعراف

سورة الأعراف مكيّة وآياتها ستّ ومائتا آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] يخبر جل وعلا أنه أنزل هذا القرآن العظيم عليك يانبي الله فلا يكن في صدرك حرج في تبليغه؛ لتخويف الكفار وتذكير المؤمنين وتبشيرهم. وهذا الخطاب موجه لكل داعية من أمة محمد ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ قد شمَّر عن ساعده ودعا ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، ولم يُعرف أنه فتر أو تحرج منذ أن نزل قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر:١ - ٢].

[٣] ثم أمر جل وعلا الناس أن يتبعوا هذا القرآن العظيم الذي أُنزل إليهم من ربهم، وأمرهم أن لا يتخذوا غير الله وليًّا كالشياطين والأحبار والرهبان والأوثان، ولكن القليل من الناس من يتذكر ويتعظ بهذا القرآن.

[٤] واعلموا أيها الناس أن كثيرًا من القرىٰ أهلكها الله بسبب كفرهم وجحودهم وعدم استجابتهم لرسل الله؛ فكانت النتيجة أن جاءها عذاب الله مرة وهم نائمون ليلًا، ومرة أثناء استراحتهم نهارًا. ومعنىٰ هذا أنهم كانوا مغرقين في الغفلة، كما في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وقوله: ﴿وَكَم﴾ هنا تفيد التكثير، والفاء في قوله: ﴿فَجَآءَهَا﴾ تسمىٰ: (الفاء الفصيحة)، وهي التي تفصح عن أشياء كثيرة، وأيضًا تأتي للتفصيل بعد الإجمال.

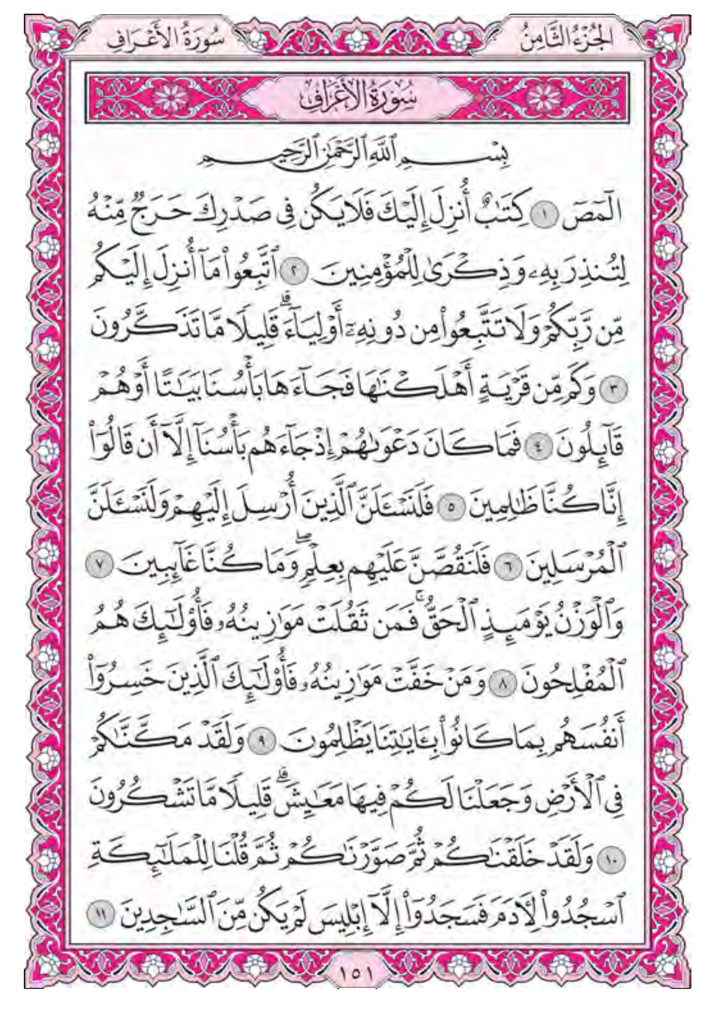
[٥] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم وجحودهم ما كان دعاؤهم وتضرعهم عندما نزل بهم العذاب إلا أن أقروا علىٰ أنفسهم أنهم مشركون وظالمون، وأنهم يستحقون هذا العذاب؛ ولكن للأسف لن ينفعهم هذا الاعتراف.

[٦] ثم بين جل وعلا أنه سوف يسأل الأمم الذين أرسل إليهم الرسل توبيخًا وتقريعًا لهم: هل أجابوا الرسل؟ وهل عملوا بما بلغوه إليهم؟، وبين أيضًا سبحانه أنه سوف يسأل الرسل تأنيسًا لهم: هل بلَّغتم رسالة ربكم كما طُلب منكم؟.

[٧] ثم بين جل وعلا أنه سوف يخبر جميع الخلق بما عملوا في الدنيا بعلم منه سبحانه بأعمالهم، ثم بين أنه لم يكن غائبًا عن خلقه في أي وقت من الأوقات؛ بل كان شاهدًا ومطلعًا علىٰ أعمالهم.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أن من مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة أن صحائف أعمالهم توزن بميزان العدل؛ فمن ثقلت موازين أعماله بالحسنات؛ فأولئك هم الفائزون بالثواب والنعيم المقيم.

[٩] ثم أخبر جل وعلا أن من خفت موازين أعماله بالسيئات؛



سورة الأعراف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم
مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ
٣ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ
قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ
إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧
وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ
١٠ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١

فأولئك الذين خَسِرُوا أنفسهم ثواب الله وجنته بسبب ظلمهم وجحودهم لآيات الله واستهزائهم بها في الدنيا.

وهذا الحكم خاصٌّ بالذين ماتوا علىٰ الكفر، أما المؤمنون الذين ارتكبوا بعض الذنوب والمعاصي وقد حكم الله عليهم بدخول النار، فبعد عقابهم فإن مآلهم إلىٰ الجنة.

[١٠] واعلموا يابني آدم أن الله جل وعلا مكَّن لكم في الأرض، ويسر لكم فيها سبل العيش، ومكنكم من السكنىٰ والبناء والزراعة فيها لتأمين مصالحكم الدنيوية، ومع ذلك فإن أكثركم لا يشكرون الله إلا قليلًا.

[١١] ثم أخبر جل وعلا أنه أنعم علىٰ عباده بخلق أبي البشر آدم عليه السلام من العدم، ثم خلق علىٰ صورة آدم وهيئته ذريته، ثم أمر سبحانه الملائكة بالسجود له، فامتثلوا أمر ربهم، تكريمًا لآدم واعترافًا بفضله؛ حيث إن الله علَّمه ما لم يعلمهم، ونفخ فيه من روحه، وخلقه بيده؛ لأن الخلائق خلقت بكلمة (كن)، أما إبليس فقد رفض السجود لآدم حسدًا علىٰ تكريم الله لآدم وتعظيمه، وادعىٰ أنه أحق من آدم بالتكريم والتفضيل؛ لأنه خُلق من نار، وآدم خُلق من تراب.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أنه قال لإبليس علىٰ وجه الإنكار: ما الذي حملك علىٰ ترك السجود لآدم؟ مع أني قد أمرتك وكان واجبًا عليك طاعة أمري، فرد إبليس علىٰ الرب سبحانه، فقال: أنا أفضل منه لأنك خلقتني من نار وخلقت آدم من طين، فتبين من كلام إبليس أن الذي منعه من السجود هو الاستعلاء والكبر والحسد.

وهذه الآية صريحة في أن الله سبحانه وتعالىٰ أمر إبليس بالسجود لآدم بأمر خاصٍّ به؛ سواء كان مقترنًا بأمره للملائكة أو منفصلًا، واستثناؤه من السجود مع الملائكة لما أمروا لأن الأمر في وقت واحد للجميع، وذلك بعد أن سوَّىٰ الله آدم في صورته الحسنة، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

[١٣] وقال جل وعلا لإبليس: فاهبط من الجنة دار السلام، فليس لك أن تتكبر علىٰ أمر الله وطاعته؛ واخرج منها وأنت صاغرٌ ذليلٌ حقيرٌ.

[١٤] فقال إبليس لله جل وعلا: اتركني ولا تُمِتْني وأمهلني إلىٰ يوم القيامة؛ فالله سبحانه لحكمة بالغة من أجلها خلق الجنة والنار منحه البقاء إلىٰ قيام الساعة، أي: النفخة الأولىٰ يوم يموت الثقلان؛ لأنه ليس بعد البعث موت وإنما حساب ثم جنة أو نار، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦ - ٢٧].

[١٥] فقال جل وعلا لإبليس: فإنك من المؤخرين المؤجل موتهم.

[١٦] فقال إبليس لله جل وعلا: فبسبب ما أغويتني، أي: جعلتني مختارًا وقادرًا علىٰ رفض السجود، وأنت خالق نفسي وتعلم غروري وكبريائي؛ فسوف أجتهد في إغواء بني آدم عن الصراط المستقيم، وأبذل جهدي في صدهم عن الإسلام.

[١٧] ثم قال إبليس: وسوف آتينَّ آدم وذريته من كل الجهات، من الأمام والخلف، وعن اليمين والشمال؛ لأرغبهم في دنياهم، وأزين لهم الذنوب والمعاصي، ولن تجد أكثرهم شاكرين لنعمك.

[١٨] فقال جل وعلا لإبليس: اخرج من الجنة مذمومًا بكبرك وعصيانك، خاسرًا رضىٰ الله والجنة، ثم أقسم سبحانه أن من استجاب من بنىٰ آدم لإغواء إبليس فسوف يكونوا حطب جهنم أجمعين.

[١٩] ثم أمر جل وعلا آدم أن يسكن هو وزوجه حواء الجنة، وأن يأكلا من ثمارها حيث شاءوا، وحذرهما من أكل شجرة معينة حددها لهم جل علا؛ وأخبرهما إذا أكلا منها فإنهما من الظالمين المتجاوزين لحدود الله.

[٢٠] ولكن إبليس اللعين وسوس لهما لإيقاعهما في معصية الله، ولتكون عاقبة الأكل والوسوسة كشف عوراتهما وَنَزْع الستر عنهما؛ ثم قال إبليس لآدم وحواء: لقد نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة من أجل أن لا تكونا ملكين، ولا تكونا مخلدين في الجنة؛ لأن من يأكل منها يخلد فلا يموت.

[٢١] ثم قال إبليس لآدم وحواء: أقسم لكم بربي إني لكما لمن الناصحين المخلصين في النصح.

[٢٢] ثم أخبر جل وعلا أن آدم وحواء خُدِعُوا بنصح إبليس لهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها؛ فلما أكلا منها انكشفت عوراتهما بعد أن كانت مستورة فجعلا يأخذان من ورق الجنة ويضعانه علىٰ عوراتهما ليسترا أنفسهما، ثم خاطبهما سبحانه معاتبًا وموبخًا لهما: ألم أنهكما عن الأكل من تلك الشجرة؟ وأحذركما من الشيطان، وأقل لكما: إن الشيطان عدوٌّ ظاهر العداوة لكما، وإنه لا يخفي عداوته أبدًا.

والذي يظهر أن هذه الشجرة – التي أكل منها آدم وحواء – هي من أشجار الكرة الأرضية، وأنها بقدرة الله حملت خصائص شجر الأرض؛ لأن أشجار الجنة ليس لها فضلات؛ ومعلوم أنَّ أَكْلَ وشربَ أهل الجنة يخرج عرقًا، وفضلات هذه الشجرة من براز أو بول كشفت لهما عن عوراتهما؛ لأن مخرجي الفضلات الكريهة لم يكن لهما عمل سابقًا؛ فلما أكلا من هذه الشجرة خرجت منهما الفضلات القذرة فطفقا يَلْزِقان عليهما من ورق الجنة؛ لأنهما قبل أكل الشجرة لم يكونا سَوْأَتَيْن، فهما مثل الأذن والأنف؛ لكن بعد أن خرجت منهما الفضلات والروائح الكريهة أصبحتا عورتين.

وللمفسرين أقوال كثيرة في نوع هذه الشجرة، فمنهم من قال: إنها شجرة التفاح، ومنهم من قال: إنها القمح، وإلىٰ غير ذلك، والعلم عند الله.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾

[٢٣] ثم قال آدم وحواء: ربنا ظلمنا أنفسنا بمعصيتنا وأكلنا من الشجرة، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الهالكين.

[٢٤] فقال جل وعلا لآدم وحواء وإبليس: انزلوا جميعًا من الجنة إلىٰ الأرض، وسوف يكون بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مكان تستقرون وتتمتعون فيه إلىٰ أجل مسمىٰ.

[٢٥] ثم قال جل وعلا: واعلموا جميعًا أنكم سوف تعيشون في هذه الأرض، وفيها تموتون، ثم تدفنون، ويوم القيامة سوف تبعثون منها.

[٢٦] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق لبني آدم من اللباس ما يسترون به عوراتهم، ومنه ما يتخذونه زينة يتجملون به في مناسباتهم، ولكن اعلموا أيها الناس أن لباس التقوىٰ خير لصاحبه من لباس الثياب؛ لأنه يكون سببًا في إدخال صاحبه الجنة، ثم بين سبحانه أن هذه الثياب من متاع الحياة الدنيا، ومن دلائل قدرة الله تعالىٰ وفضله، لعلهم يتذكرون هذه النعم فيؤمنون به.

[٢٧] يأمر جل وعلا بني آدم أن لا ينخدعوا بالشيطان فيطيعوه، فيكون ذلك سببًا في إخراجهم من نعم الدنيا والآخرة التي لا تتم إلا بالإيمان بالله، كما استجاب أبواكم آدم وزوجه لإبليس فأخرجهما من الجنة، ونزع عنهما لباسهما وأظهر لهما عوراتهما، واعلموا أن إبليس يراكم هو وذريته وأنتم لا ترونهم، ثم أخبر سبحانه أنه جعل الشيطان وأعوانه أولياء للذين لا يؤمنون بالله ورسوله.

[٢٨] ثم أخبر جل وعلا أن السفهاء المشركين إذا فعلوا فاحشة قالوا: لقد اقتدينا بآبائنا في فعل هذه الفاحشة، والله أمرنا بها، والمقصود بالفاحشة هنا: هو طوافهم بالبيت الحرام الكعبة وهم عراة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر؛ أتقولون علىٰ الله ما لا تعلمون كذبًا وافتراء عليه؟.

[٢٩] ثم قل يارسول الله لهؤلاء المشركين: لقد أمر ربي بالعدل والاستقامة علىٰ دينه، وأمر أن نتوجه إليه سبحانه في كل عبادة نتعبد الله بها، وأمر بإخلاص الدعاء له، واعلموا أنه كما خلقكم أول مرة من العدم فسيعيدكم إليه مرة أخرىٰ؛ ليحاسبكم علىٰ أعمالكم.

[٣٠] واعلموا أن الناس فريقان: فريق الْتمسوا الخير فوفقهم الله للهداية، وفريق استزلهم الشيطان واستزلتهم الشهوات فوجبت عليهم الضلالة بما كسبت أيديهم من المعاصي، واتخاذهم الشياطين أولياء يوالونهم ويعبدونهم من دون الله، ويظنون أنهم علىٰ الهداية والرشاد.

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ
وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا
بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ
بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ
٣٤ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ٣٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ
قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧

[٣١] يأمر جل وعلا بني آدم أن يلبسوا الملابس الحسنة التي تستر عوراتهم عند كل صلاة، وأن يأكلوا ويشربوا من الخيرات والملذات الحلال كما يشاؤون من غير إسراف ولا تجاوز لحدود المعقول، فإن الله لا يحب المسرفين المتجاوزين لحدوده.

[٣٢] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين الجهلة الذين حرَّموا بعض المآكل والمشارب والملابس بدون دليل من الشرع؛ قل لهم: من حرم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لعباده؟، وكذلك من حرم عليكم التلذذ بأنواع المآكل والشارب؟، ثم قل لهم: اعلموا أن ما أحله الله من هذه الطيبات هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ويشاركهم فيها المشركون والكفار تبعًا، أما يوم القيامة فسوف تكون خالصة للذين آمنوا يتنعمون بها وحدهم، أما الكفار فسوف يحرمون منها لأنهم لن يدخلوا الجنة أبدًا، وبهذا البيان الواضح يبين سبحانه آياته لقوم يعلمون أنها من عند الله فيعقلونها ويفهمونها.

[٣٣] وقل لهم يانبي الله: اعلموا أيها الكفار أن الله حرم الفواحش الكبيرة التي ظهر قبحها لكل عاقل؛ سواء ما كان منها سرًّا أو علانية، وكذلك حرَّم المعاصي بكل أنواعها، وحرم التعدي علىٰ الناس بغير الحق ظلمًا وعدوانًا، وحرم عليكم أن تجعلوا له سبحانه شركاء في العبادة، دون أن يكون لديكم حجة أو برهان، وحرم عليكم أن تفتروا عليه سبحانه الكذب بتحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل بدون علم بصحة ما تقولون وصدق ما تدعون.

[٣٤] واعلموا أن لكل أمة من الأمم مدة معلومة عند الله ينتهي أجلها عندها؛ فإذا انتهت هذه المدة المحددة ووقع عليهم الموت ومفارقة الحياة الدنيا، فإنهم لن يستطيعوا تقديم هذه المدة المحددة أو تأخيرها برهة من الزمن.

[٣٥] ثم خاطب جل وعلا كافة البشر فقال سبحانه: يا بني آدم: إذا أتتكم رسلي يتلون عليكم آيات ربكم ليبينوا لكم الشرائع فآمنوا بهم وصدقوهم، واعلموا أن من آمن وخاف الله، ولم يرتكب الذنوب والمعاصي، وعمل الأعمال الصالحة؛ فإنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الدنيا والآخرة.

[٣٦] ثم أخبر جل وعلا أن الذين كذبوا بآيات الله التي أنزلت علىٰ رسله، واستكبروا عنها، ولم يستجيبوا لها؛ فأولئك هم أهل النار ماكثون فيها لا يخرجون منها أبدًا.

[٣٧] واعلموا أنه لا أحد أشدُّ ظلمًا ممن افترىٰ علىٰ الله الكذب؛ بنسبة الشريك والولد له، وتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، أو كذَّب بآيات الله الواضحة البينة؛ فهؤلاء لهم نصيبهم المقدر لهم في اللوح المحفوظ؛ فيتمتعون في الدنيا قليلًا، ثم يعذبون يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها أبد الآبدين، ثم صور سبحانه حالهم عند قبض أرواحهم فقال: فإذا انتهت آجال هؤلاء المشركين وجاءت الملائكة لتقبض أرواحهم قال الملائكة موبخين لهم: أين أصنامكم التي كنتم تَدْعُونَ من دون الله؟ فيرد هؤلاء المشركون قائلين: لقد غابوا عنَّا ولا ندري أين ذهبوا، ثم اعترفوا علىٰ أنفسهم بأنهم كانوا علىٰ الكفر والضلال، وأنهم يستحقون العذاب الأليم.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

[٣٨] ثم يقول جل وعلا لهؤلاء الكفار يوم القيامة: ادخلوا أيها الكفار النار مع أمم أمثالكم في الكفر والضلال من الجن والإنس قد سبقوا قبلكم إلىٰ النار، ثم بين سبحانه بعض أحوالهم؛ حيث إنه كلما دخلت أمه النار لعنت من سبقتها؛ لأنهم ضلوا بسبب اتِّبَاعِهِم حتىٰ إذا اجتمعوا في النار جميعًا قالت أخراهم دخولًا إلىٰ النار لأولاهم دخولًا: ربنا هؤلاء هم سبب ضلالنا فَضَاعِفْ عليهم العذاب بأشدِّ مما تعذبنا به، فقال جل وعلا: كلَّا! فإن للتَّابع والمتبوع ضعف العذاب، ولكنكم لا تعلمون حقيقة هذا العذاب.

[٣٩] ثم قال الرؤساء لأتباعهم: اعلموا أيها الأتباع أنه لا فضل لكم علينا فيخفف عنكم العذاب، فقد اشتركنا جميعًا في الكفر والضلال؛ فحينئذ يقول جل وعلا للفريقين: فذوقوا العذاب جميعًا بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا من كفر وفسوق وإضلال للآخرين.

[٤٠] ثم أخبر جل وعلا أن الكفار الذين جحدوا آيات الله ولم يعملوا بها علوًّا واستكبارًا عنها؛ لن تُفَتَّحَ أبواب السماء لأرواحهم إذا قُبضت، ولن يصعَدَ لهم عمل صالح أو دعاء في حياتهم الدنيا، ولن يدخلوا الجنة إلا إذا دخل الجمل في ثقب الإبرة، والمقصود: استحالة ذلك، ومثَّل سبحانه بالجمل لأنه أضخم حيوان تعرفه العرب، ثم بين سبحانه أنه بمثل هذا العذاب الأليم يعاقب أولئك الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

[٤١] ثم أخبر جل وعلا أن النار تحيط بهؤلاء المجرمين في جهنم، فلهم من تحتهم فراش ومضجع من نار، ومن فوقهم أغطية من نار، واعلموا أن بمثل هذا العقاب الشديد نعاقب كل ظالم فاجر ظلم نفسه بالكفر بالله وبأنبيائه ورسله.

[٤٢] ثم بين جل وعلا مصير المؤمنين الأبرار الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات علىٰ قدر استطاعتهم، فإن الله لا يكلف نفسًا إلا ما تقدر عليه من العمل الصالح ويكون في استطاعتها، فأخبر سبحانه بأن أولئك المؤمنين هم أهل الجنة خالدون فيها، لا يخرجون منها أبد الآبدين.

[٤٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أَذْهَبَ ما في صدور هؤلاء المؤمنين الذين دخلوا الجنة من كل حقد وغل، وجعل أنهار الجنة تجري من تحت قصورهم وأشجارهم، ثم أخبر سبحانه أن أهل الجنة حينما دخلوها قالوا: الحمد لله الذي وفَّقنا للإيمان والعمل الصالح، وما كنَّا لنوفَّق إلىٰ هذا لو لا أَنْ هدانا الله سبحانه، وله الحمد حيث ثبتنا علىٰ هذا الإيمان، ثم قالوا: لقد جاءت رسل ربنا بالدين الصحيح الحق فكانوا سببًا في هدايتنا، ثم تنادي الملائكة هؤلاء المؤمنين وتخبرهم أن هذه هي الجنة التي وعدكم الله فقد أورثها الله لكم برحمته، وبسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة المقبولة.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾

[٤٤] ثم أخبر جل وعلا أن أهل الجنة ينادون أهل النار ويقولون لهم: لقد وجدنا ما وعد رَبُّنا بالجنة حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم من العذاب حقًّا؟ فأجابوهم: نعم، ثم ينادىٰ مناد بين أهل الجنة وأهل النار يسمعه أهل الجنة وأهل النار يقول: أن لعنة الله علىٰ الظالمين المجرمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال وارتكاب الذنوب والمعاصي.

[٤٥] ثم بين جل وعلا أن هذه اللعنة وهذا الطرد من رحمة الله جزاء الظالمين الكافرين الذين يصدون الناس عن اتباع دين الله وشرعه ورسله، ويريدون أن يكون دين الله معْوَجًّا غير مستقيم حسب أهوائهم، وهم بلقاء الله في الآخرة جاحدون مُكَذِّبُون.

[٤٦] ثم أخبر جل وعلا أن بين أهل الجنة وأهل النار حاجزًا عظيمًا مرتفعًا يقال له: الأعراف، وعلىٰ هذا الحاجز رجال تساوت حسناتهم وسيئاتهم، يعرفون أهل الجنة ببياض وجوههم، وأهل النار بسواد وجوههم، وإذا رأوا أصحاب الجنة نادوهم وقالوا: أن سلام عليكم ياأهل الجنة، ثم بين سبحانه أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة بَعْدُ، وهم يطمعون في رحمة الله بدخولها.

[٤٧] ثم أخبر جل وعلا أن أصحاب الأعراف إذا وقع بصرهم علىٰ أصحاب النار قالوا: ربنا لا تجعلنا في النار مع القوم الظالمين الهالكين.

[٤٨] ثم أخبر جل وعلا أن أصحاب الأعراف ينادون رجالًا من الكفار يعرفونهم بوجوههم، وقد كان لهم في الدنيا شرف ومال ومنصب، فقال لهم أصحاب الأعراف علىٰ سبيل التوبيخ والتقريع: ياأهل النار هل أغنت عنكم الأموال الطائلة التي جمعتموها في الدنيا؟، وهل نفعكم استكباركم علىٰ الحق وعلىٰ الرسول وعلىٰ المؤمنين؟.

[٤٩] ثم قال أهل الأعراف لأهل النار تقريعًا وتوبيخًا لهم: ياأهل النار أهؤلاء الذين أدخلهم الله الجنة برحمته كنتم تُقْسِمُوَن أن لا ينالهم الله برحمة منه احتقارًا لهم وازدراء؟، ثم يقال لأهل الأعراف: ادخلوا الجنة فقد غفر الله لكم، ولا خوف عليكم مستقبلًا من عذاب الله، ولا تحزنون علىٰ ما فاتكم من نعيم الدنيا الزائل؛ لأن الله أذهب عن أهل الجنة الحزن كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤].

[٥٠] وبعد أن يذوق الذين كفروا عذاب الله فإنهم ينادون علىٰ أهل الجنة طالبين منهم: أن يفيضوا عليهم بعض ما أنعم الله عليهم من الماء، أو مما رزقهم الله؛ فيجيبهم أهل الجنة: إننا لا نستطيع؛ لأن الله حرَّم ذلك علىٰ الكافرين.

[٥١] ثم بين جل وعلا أن الله حرَّم نعيم الجنة علىٰ الكافرين الذين جعلوا دين الله لهوًا وسخرية واستهزاءً ومخادعة ومحاربة للمؤمنين، واغتروا بالحياة الدنيا وزخارفها، ثم بين سبحانه أنه في هذا اليوم وهو يوم القيامة يجازيهم بتركهم في جهنم تركًا كالنسيان، جزاء لتركهم العمل لهذا اليوم، وبسبب جحودهم وكفرهم بآيات الله.

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدٗى وَرَحْمَةٗ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٥٣ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٥٤ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعٗا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرَۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٥٧

[٥٢] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل للناس علىٰ لسان نبيه ﷺ هذا القرآن العظيم، الذي فيه تفصيل كل شيء يحتاجه الخلق، وهذا كلُّه بعلم وتقدير من الله، وكذلك جعله سبحانه هدًىٰ لمن امتثله، ورحمة لقوم آمنوا به وتمسكوا بتعاليمه.

[٥٣] ثم قال سبحانه: هل ينتظر هؤلاء الجاحدون إلَّا وقوع ما أخبر به جل وعلا من العذاب والعقاب؟، فيوم يأتيهم ما وُعِدُوا به يوم القيامة يقول هؤلاء الكفار الذين نسوا لقاء هذا اليوم ندمًا وأسفًا: لقد تبين لنا الآن أن رسل الله جاءوا بالحق، فهل لنا من أصدقاء يشفعوا لنا عند ربنا فيرفع عنا العذاب؟، أو نرجع إلىٰ حياتنا الدنيا فنعمل الأعمال الصالحة، ولا نعمل الأعمال التي لا ترضي ربنا كالشرك والمعاصي وغير ذلك، ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن هؤلاء المشركين خسروا أنفسهم وضيعوا حياتهم وقت العمل بالدنيا بسبب كفرهم وضلالهم، فمأواهم النار والعذاب، وذهب عنهم ما كانوا يعتقدون من العقائد الباطلة، وما كانوا يفترونه علىٰ الله في الدنيا.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]، **التأويل نوعان:**

الأول: هو التفسير المعروف، وهو شرح الآيات وتبيين المراد منها.

الثاني: وهو المآل، أي: ما يؤول إليه الأمر بوقوعه وظهوره علىٰ الطبيعة؛ كما قال يوسف لأبيه: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ [يوسف:١٠٠].

[٥٤] يخبر جل وعلا أنه هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما علىٰ عظمهما في ستة أيام، ثم استوىٰ علىٰ العرش، أي: علا وارتفع عليه.

والاستواء صفة من صفات الله تعالىٰ التي وصف بها نفسه، وهو استواء حقيقي يليق بجلاله وعظمته، وكثير من الفرق الإسلامية كالمعتزلة والأشاعرة يؤولون هذه الصفة، فيقولون: (استوىٰ)، يعني: استولىٰ، كما يؤولون غيرها من صفات الله تعالىٰ، أما أهل السنة والجماعة فيقولون: (استوىٰ)، بمعنىٰ: علا وارتفع علىٰ العرش؛ استواء حقيقيًّا يليق بجلاله عز وجل، نعلم معناه ولا نعلم كيفيته؛ كما أننا لا نعرف كيفية ذاته جل وعلا.

ويقال للمؤولين: أليس الله قبل ذلك كان مستوليًا علىٰ العرش وغيره؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]؟!.

ثم أخبر سبحانه أنه يغشي الليل النهار، أي: أن ظلمة الليل تغطي النهار فتُذهب نوره، وكذلك يُدخل النهار علىٰ الليل حتىٰ يذهب ظلامه، وكلما جاء أحدهما ذهب الآخر، ثم أخبر سبحانه أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات وأنها تسير بأمر الله وقدرته، وأخبر أن له وحده الخلق والأمر، فتنزه سبحانه وتعاظم عن كل نقص وعيب، وهو رب الخلق أجمعين.

[٥٥] يأمر جل وعلا عباده المؤمنين أن يدعوه ويلحون عليه في الدعاء، مظهرين له الذل حال السؤال، واحذروا أن تعتدوا في الدعاء فإن الله لا يحب المعتدين المتجاوزين حدوده في الدعاء وغيره.

ولهذا يجب علىٰ الإنسان وهو يدعو أو يسبح أو يقرأ أن يُسمع نفسه ولا يُزعج من حوله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء:١١٠].

[٥٦] ثم يأمر جل وعلا الناس أن لا يفسدوا في الأرض بعمل المعاصي ونشرها، بعد إصلاحها بإرسال الرسل، وعمرانها بطاعة الله، وادعوه أيها المؤمنون خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه، واعلموا أن رحمة الله قريب من المحسنين.

يقول أهل السنة والجماعة: الخوف والطمع متلازمان واجبان علىٰ كل مؤمن كالجناحين للطائر، والمحبة كالرأس.

[٥٧] ثم بين جل وعلا نِعْمَةً من نِعَمِهِ علىٰ عباده وهي إرسال الرياح المبشرات للغيث الذي تثيره بإذن الله فيستبشر الخلق برحمته، حتىٰ إذا حملت الرياح السحاب المحمل بالمطر ساقه الله لإحياء بلد قد أجدبت أرضه وكادت أن تهلك حيواناته، ثم أنزل الماء الغزير من ذلك السحاب علىٰ هذه البلدة؛ فأنبت الله لهم الزرع والثمار، ثم بين سبحانه أنه كما أحيا هذه البلدة الميتة بالمطر؛ فإنه يحيي الموتىٰ ويخرجهم من قبورهم، لعلكم تتذكرون قدرة الله علىٰ البعث والنشور.

يقول بعض المفسرين: الرياح بصيغة الجمع في القرآن تعني: الرحمة، والريح بصيغة المفرد تعني: العذاب، وكان ﷺ إذا هبت الريح يدعو في الغالب بهذا الدعاء يقول: «**اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا**»[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٥٣٣)، وأبو يعلى في مسنده (٢٤٥٦).

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

[٥٨] ثم أخبر جل وعلا أن الأرض الطيبة التربة تنبت بعد إنزال المطر عليها، أما الأرض السبخة التربة ينزل عليها المطر فلا تنبت إلا قليلًا ولا يُنتفع بها، وهكذا العبد المؤمن ذو القلب الطيب إذا سمع ما ينزل من الآيات يزداد إيمانه، وتحسُن أعماله الصالحة، أما الكافر فعندما يسمع القرآن فإنه لا ينتفع به، فلا يعمل خيرًا ولا يترك شرًّا، وإن عمل خيرًا فهو بتباطؤٍ ونكد.

[٥٩] يخبر جل وعلا أنه بعث نوحًا عليه السلام إلىٰ قومه يدعوهم إلىٰ توحيد الله سبحانه وإخلاص العبادة له، فقال نوح لقومه: ياقومي اعبدوا الله وحده لا شريك له، واعلموا أنه ليس هناك إله يستحق العبادة غير الله سبحانه وتعالىٰ، وإنني أخاف أن يحلَّ عليكم يوم القيامة عذاب عظيمٌ هوله لشدة ما فيه من الأهوال والكروب.

[٦٠] فرد الرؤساء من قوم نوح علىٰ نبيهم قائلين: إنا لنراك يانوح في بُعْد بيِّن واضح عن الحق والصواب، لأنك تركتَ دينَ آبائك.

[٦١] فردَّ عليهم نوح عليه السلام قائلًا: اعلموا ياقوم أنه ليس بي كما تزعمون شيء من الضلالة، ولكني رسول من الله خالق العالم ورازقهم أجمعين.

[٦٢] واعلموا ياقوم أن وظيفتي التي كلفني الله بها أن أبلغكم رسالة ربِّ العالمين، وأنصحكم أن تستجيبوا لي، وتؤمنوا بالله ربكم؛ فإنه يوحىٰ إليَّ من الله جل في علاه أنما إلهكم إله واحد وهو الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

[٦٣] ثم قال نوح عليه السلام لقومه: كيف تعجبون أن جاءكم التذكير والنصح علىٰ يد رجل منكم تعرفونه وتعرفون صدقه وأمانته؟ لكي ينذركم عاقبة الشرك والكفر والضلال، وما أعد الله من العذاب الأليم للمشركين؛ ولكي تخافوا الله فتعملوا بطاعته وتجتنبوا معصيته؛ ولعل الله يرحمكم يوم القيامة بعد أن تفعلوا الأسباب التي تؤدي إلىٰ رحمته سبحانه وتعالىٰ.

وهذا تبكيت لهم؛ فلو جاءهم رسول من غير جنسهم فإنهم لن يفهموا منه، ولن يتأسوا به، ولرفضوه.

[٦٤] ثم أخبر جل وعلا أنه لم يؤمن بنوح عليه السلام إلا القليل من قومه الذين صدقوا به وآمنوا بالله، مع أنه دعا قومه إلىٰ التوحيد والإيمان بالله مدة طويلة من الزمان؛ وكانت النتيجة أن الله أنزل عليهم العذاب، فأنجىٰ سبحانه نوحًا والذين معه في السفينة، وأغرق الله الذين جحدوا بآيات الله ولم يؤمنوا به جل في علاه؛ ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنهم كانوا قومًا عُمْيَ القلوب عن قبول الحق بسبب طغيانهم وتكبرهم.

[٦٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قوم عاد أخاهم هودًا عليه السلام لأنه واحد منهم، فقال: ياقوم اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا معه في العبادة أحدًا؛ فليس لكم إلهٌ حقٌّ غيره، أفلا تخافون نقمته جل في علاه.

[٦٦] فقال كبار الكفار من قوم هود عليه السلام: إنا لنراك ياهود في جهالة وخفة عقل، ويغلب علىٰ ظننا أنك كاذب في رسالتك.

[٦٧] فرد عليهم هود عليه السلام قائلًا: والله ياقوم ليس بي جهالة بوجه من الوجوه، ولكني رسول من رب الخلق أجمعين، أرسلني إليكم لأنصح لكم، وأُخرجكم من الظلمات إلىٰ النور؛ فهو لم ينتصر لنفسه؛ بل اكتفىٰ بشرح مهمته.

[٦٨] ثم قال هود عليه السلام لقومه: اعلموا ياقومي أنني أحمل إليكم رسالة ربي حتىٰ أبلغكم بها، وأنا في ذلك ناصح لكم لا أريد لكم إلا النجاة من النار، وأنا أَمِينٌ مخلص أبلغكم وحي الله تعالىٰ في أرضه.

[٦٩] ثم قال لهم هود عليه السلام: لماذا تعجبون أن جاءكم ذِكْرٌ وموعظة من ربكم علىٰ لسان رسول أرسله الله إليكم، وهو رجل منكم، تعرفون نسبه وصدقه؛ ليخوِّفكم عذاب الله؟ ثم ذكرهم بنعم الله عليهم ومن ذلك أنه جعلكم خلفاء من بعد ما أهلك الله قوم نوح بالطوفان بسبب كفرهم وجحودهم، وكذلك زاد في أجسامكم قوة وطولًا، ثم عاد هود عليه السلام وذكرهم بنعم الله عليهم فقال: فاذكروا نعم الله الكثيرة عليكم، واشكروا الله عليها؛ لعلكم تفلحون وتفوزون في الدنيا والآخرة.

[٧٠] ثم قال قوم عاد لنبيهم هود عليه السلام: أجئتنا ياهود لتدعونا إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وترك ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام؟ ثم أن هودًا عليه السلام كان ينذرهم بالعذاب الأليم إذا لم يؤمنوا بالله واستمروا في كفرهم وضلالهم، فقال له قومه: فَأْتِنَا بالعذاب الذي تخوفنا به إن كنت ياهود صادقًا في دعواك.

[٧١] فقال لهم هود عليه السلام: اعلموا ياقوم أنكم ما دمتم مُصِرِّين علىٰ الكفر فقد وجب غضب الله وعذابه عليكم، وبعد أن هددهم قال لهم عليه السلام: أتجادلونني في أصنام أحدثتموها أنتم وآباؤكم وجعلتموها آلهة؟ وما نزَّل الله بها من حجة أو دليل؛ فانتظروا عقاب الله كما طلبتم، وأنا معكم سأنتظر عقوبة الله بكم.

[٧٢] ثم أخبر جل وعلا أنه أنجىٰ هودًا والذين آمنوا معه من المؤمنين برحمة من الله وفضل، وأنه أهلك القوم الذين كذبوا بآيات الله واستأصلهم، وما كانوا من المؤمنين لتكذيبهم بآيات الله وعدم تصديق رسوله ﷺ.

[٧٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قبيلة ثمود أخاهم صالحًا،

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

١٥٩

فقال لهم: ياقوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، واعلموا أنه ليس لكم إله غيره يستحق العبادة فتعبدوه، ثم قال لهم: وقد جئتكم بمعجزة من ربكم وهي ناقة عظيمة، خلقها الله وأخرجها من الصخرة حسب رغبتكم؛ لتكون دليلًا علىٰ صدق ما أدعوكم إليه، فاتركوها تأكل في أرض الله ولا تتعرضوا لها بإيذاء أو ذبح أو غيره، فإن فعلتم فسوف يأتيكم من الله عذاب أليم موجع.

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ
﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

[٧٤] وبعد أن بين صالح عليه السلام لقومه مهمته قال لهم: تذكروا ياقومي نعمة ربكم عليكم؛ حيث جعلكم خلفاء في الأرض بعد أن أهلك قوم عاد الذين كانوا من قبلكم؛ بسبب إجرامهم وطغيانهم، وأسكنكم في أرض الحِجْر تبنون في سهولها القصور الفارهة، وتنحتون من الجبال بيوتًا لقبور موتاكم؛ فاذكروا نعم الله عليكم، واشكروه سبحانه علىٰ ما تفضل عليكم بهذه النعم، واحذروا أن تنشروا في الأرض الفساد، فيهلككم الله كما أهلك من قبلكم، قوم عاد وغيرهم من الأقوام المفسدين.

[٧٥] فقال كبار الكفار الذين استكبروا من قوم صالح، مخاطبين من آمن من ضعفاء القوم علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء: هل أنتم متأكدون أن صالحًا مرسل من ربه؟ فأجاب المؤمنون الضعفاء قائلين: إنا بما أُرْسِلَ به صالح لمؤمنون.

[٧٦] فرد المستكبرون عليهم قائلين: أما نحن فإنا بالذي آمنتم به جاحدون وغير معترفين.

[٧٧] وبعد إصرار هؤلاء المجرمين علىٰ الكفر والجحود قاموا بعقر الناقة واستكبروا وتمردوا علىٰ دين الله ولم يطيعوه سبحانه، ثم قالوا علىٰ سبيل العناد والاستكبار والسخرية: ائْتِنَا ياصالح بالعذاب الذي توعدتنا به إن كنت من المرسلين حقًّا.

[٧٨] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أنه أمهلهم ثلاثة أيام ثم نزل بهم العذاب الشديد؛ كما قال تعالىٰ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥]؛ فزلزل الله الأرض من تحتهم؛ فأصبحوا في ديارهم جاثمين علىٰ رُكَبهم ووجوههم.

وقد وصف جل وعلا كِبَر جثثهم بجذوع النخل؛ فقال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، وهذا وصف لقوم عاد، وينطبق علىٰ قوم ثمود، وعلىٰ كل من أخذتهم الصيحة؛ حيث انتشرت جثثهم في العراء كأعجاز النخل الخاوية، إذ لم يُقْبَرْ أحد منهم؛ حيث أخذتهم الصيحة جميعًا، نعوذ بالله من غضبه وسخطه.

[٧٩] وبعد أن وقع العذاب علىٰ قوم ثمود وأفناهم الله جميعًا أعْرَضَ نبيهم صالح عليه السلام عنهم وتركهم لمصيرهم الذي استحقوه، وقال علىٰ سبيل الحزن والتحسر: والله ياقوم قد أبلغتكم أوامر الله عز وجل، ونصحتكم وحذرتكم أن ينزل بكم عذابه، ولكنكم لا تحبون من ينصحكم ويوجهكم.

وهكذا كل الذين لا يرغبون في الصلاح يكرهون من ينصحهم ويرشدهم.

[٨٠] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل لوطًا عليه السلام إلىٰ قومه ليدعوهم إلىٰ دين الله ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وبخاصَّةٍ عن تلك الفعلة الشنيعة التي ابتدعوها، وهي فاحشة أن يجامع الرجل رجلًا، وسميت لواطًا لأنهم هم الذين ابتدعوها؛ حيث قال لهم مستنكرًا عليهم: ياقوم أتأتون هذه الفاحشة البشعة القبيحة التي لم يفعلها أحد من قبلكم من العالمين.

[٨١] ثم قال لوط عليه السلام لقومه مستنكرًا عليهم: ياقوم إنكم لتأتون الذكور في أدبارهم شهوة منكم، وتتركون ما أحل الله لكم من نسائكم، إنكم قوم متجاوزون لحدود الله غارقون في الذنوب والمعاصي؛ فخافوا الله ربكم وأقلعوا عن هذه الجريمة.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

[٨٢] فما كان من هؤلاء السفهاء المجرمين إلا أن أجابوا نبيهم لوطًا عليه السلام ومن آمن معه فقالوا: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتنزهون عما نفعله من هذه الفواحش ومن إتيان الرجال في الأدبار، فيا سبحان الله لقد أصبح الذي يتطهر ويبتعد عن هذه الفواحش في نظر هؤلاء غير صالح لمساكنتهم.

وقوله: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، هذا هو ديدن الفساق في كل زمان أنهم لا يحبون أهل الصلاح؛ لأنهم يعكرون عليهم صفو حياتهم وفسقهم وفجورهم، ولذا فإنهم يسعون للتخلص منهم بإخراجهم وإبعادهم لتخلو لهم الأجواء.

[٨٣] ولما أراد جل وعلا أن يعاقب قوم لوط علىٰ فسقهم وإجرامهم أنجىٰ سبحانه لوطًا عليه السلام وأهله، إلا امرأته فإنها كانت من هؤلاء الضالين الباقين الذين بقوا في قريتهم فنالهم العذاب الأليم؛ حيث إنها لم تؤمن بلوط عليه السلام، ورضيَتْ بهذا الفعل من قومها ولم تستنكره؛ بل قيل: إذا جاء أضيافٌ لنبي الله لوط عليه السلام، فإن امرأته كانت تُسَلِّطَ عليهم أولئك المجرمين.

[٨٤] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل علىٰ هؤلاء المجرمين نوعًا عجيبًا من العذاب يناسب جريمتهم، لأنهم انتكسوا عن الفطرة فأتوا الرجال دون النساء؛ فكانت عقوبتهم أن أنزل الله عليهم أمطارًا من حجارة من طين متجمد، وقلب قريتهم التي كانوا فيها فجعل عاليها سافلها، فانظر أيها الرسول كيف صارت عاقبة هؤلاء الذين جحدوا آيات الله وكذبوا رسله وانتهكوا محارمه.

[٨٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قبيلة مدين شعيبًا الذي تربط بينه وبينهم رابطة النسب؛ فقال لهم: ياقوم اعبدوا الله وحده لا شريك له؛ فقد جاءتكم الآيات والحجج والبراهين التي تدل علىٰ صدق ما جئتكم به؛ وأتموا المكيال والميزان ولا تنقصوا شيئًا من حقوق الناس، ولا تفسدوا في الأرض بارتكاب الذنوب والمعاصي بعد أن بذل الأنبياء وأتباعُهم الصالحون جهدهم في إصلاحها وإصلاح أهلها؛ واعلموا أن هذه الأوامر التي أمركم الله بها هي خير لكم من الاستمرار في الظلم العدوان والإفساد في الأرض، إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر.

وقد ذكر المفسرون أن مدين تقع بقرب مدينة مَعَان جنوب الأردن علىٰ طريق الحجاز.

[٨٦] واستمر شعيب عليه السلام في نصح قومه فقال لهم: ولا تجلسوا ياقومي بكل طريق تخوفون من أراد الإيمان بالله بالقتل والتعذيب، وتبذلون جهدكم في صرف من آمن بالله عن الطريق المستقيم وعن الهدىٰ، وتسعون في أن يكون طريق الله المستقيم طريقًا معوجًا بإلقاء الشُّبهات وإشاعة الأباطيل، ثم قال لهم: واذكروا ياقومي نعمة الله عليكم يوم أن كان عددكم قليلًا فكثركم، وكنتم فقراء فأغناكم، وانظروا إلىٰ المفسدين ممن قبلكم كيف كانت نهايتهم؛ حيث كان آخر أمرهم الهلاك والدمار.

[٨٧] ثم نصح شعيب عليه السلام قومه أن يتحلوا بشيء من الصبر والعدل، فقال لهم: وإن كان جماعة منكم آمنوا برسالتي وصدقوني، وجماعة لم تؤمن بل أصروا علىٰ كفرهم وعنادهم، فاصبروا حتىٰ يحكم الله بيننا وبينكم بحكمه العادل وهو سبحانه خير الحاكمين؛ وعندها سينصر الله الحق وأهله، ويعذب المشركين الجاحدين؛ وحينئذٍ ترون أيها المكذبون الضالون أنكم كنتم في ضلال واضح مبين.

۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾

[٨٨] وبعد أن أفحم خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام قومه بالحجج والبراهين قال الزعماء والكبراء من قومه لشعيب وأتباعه: والله لنخرجك يا شعيب ومن معك من المؤمنين من قريتنا، أو ترجعون لديننا وتتركون ما تدعون إليه، فرد شعيب عليه السلام علىٰ هؤلاء السفهاء قائلًا لهم: أنتبع دينكم ونحن كارهون له ونعلم أنه باطل؟.

وبمثل هذا الأسلوب كان رد قوم نوح لنبيهم نوح عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦].

أما قوم إبراهيم عليه السلام فقد أوقدوا نارًا عظيمة لم يستطيعوا القرب منها فرموه بها بالمنجنيق، قال تعالىٰ: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٨ - ٦٩].

فالأنبياء والدعاة كلهم علىٰ مدىٰ الأزمنة والعصور غير مرغوب فيهم من الكفرة والفساق.

[٨٩] ثم قال شعيب عليه السلام لقومه: اعلموا يا قوم لو أنا أطعناكم وعدنا إلىٰ دينكم الباطل بعد أن نجانا الله منه بالإيمان والهداية إلىٰ الحق؛ فنكون إذًا قد ظلمنا أنفسنا وافترينا علىٰ الله أشنع أنواع الكذب، واعلموا أيضًا أنه لا يصح ولا يجوز لنا أن نغير دين ربنا إلا إذا شاء الله لنا العذاب والشقاء، فهو سبحانه صاحب المشيئة النافذة ولا رادَّ لمشيئته، وهو جل وعلا لا يرضىٰ لعباده الكفر؛ ولذا علىٰ المؤمن أن لا يغتر بنفسه؛ بل يقول كما في سورة آل عمران: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]، ثم قال شعيب عليه السلام: واعلموا أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، وأن كل ما يقع في هذا الكون فهو بقدره ومشيئته وعلمه، ومن علمه أنه يعلم ما يصلح للعباد وما يضرهم، ثم توجه شعيب عليه السلام إلىٰ الله فقال: يا ربنا إنا قد اعتمدنا عليك وحدك، فنسألك أن تحكم بيننا وبين قومنا الذين ظلمونا بالحق إنك خير الحاكمين.

[٩٠] ولم يكتف قوم شعيب بتهديد شعيب وأتباعه؛ بل أخذوا في تهديد الناس وتحذيرهم من أن يتبعوا شعيبًا ومن معه، وقالوا لهم: إن اتبعتم شعيبًا وجماعته فسوف تكونون من الهالكين الخاسرين لعزكم ومكانتكم وأموالكم.

[٩١] وبعد كل هذه المحاورات والمجادلات التي دارت بين شعيب وقومه، وإصرار قومه علىٰ الكفر والجحود والضلال، عاقبهم الله بالزلزلة الشديدة فأصبح عليهم الصبح في دارهم باركين علىٰ ركبهم موتىٰ هالكين.

[٩٢] واعلموا أن أولئك الذين كذبوا شعيبًا عليه السلام وهددوه وأتباعه بالإخراج من ديارهم لقد نزل بهم العذاب فصاروا كأنهم لم يسكنوا أو يقيموا في ديارهم، وكانت النتيجة أن الذين كذبوا شعيبًا قد خسروا خسرانًا مبينًا.

[٩٣] وبعد أن أصابهم ما أصابهم من العذاب والهلاك أعرض شعيب عليه السلام عنهم، وقال علىٰ سبيل التأسف والحسرة: ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فلم تستجيبوا لنصحي؛ فكيف أحزن وآسف علىٰ هلاككم وعذابكم؟.

[٩٤] يخبر جل وعلا عن الأمم التي كذبت رسلها؛ حيث ابتلاهم الله بالفقر والأمراض بسبب عنادهم وكفرهم، لعلهم ينيبوا إلىٰ الله ويرجعوا إلىٰ الحق؛ ولو أنهم رجعوا إلىٰ ربهم وسألوه الفرج وأنابوا إليه ضارعين متذللين لرفع عنهم البلاء والشدة وعوضهم بالرخاء والنعمة، ولعلهم يشكرون المتفضل المنعم الذي رفع عنهم الضراء والشدة.

[٩٥] وبعد أن ابتلىٰ جل وعلا هذه الأمم بالأمراض والفقر أخبر سبحانه أنه رفع عنهم البلاء وأعطاهم الصحة والعافية والغنىٰ والرخاء والسعة، كل ذلك لعلهم يشكرون الله المنعم المتفضل عليهم، فلما لم تلن قلوبهم مما حل بهم وقالوا: هذه طبيعة الدنيا، وهذه أحوال مرت علىٰ آبائنا وأسلافنا، وهذه أحوال الزمن وتقلبات الدهر والطبيعة، فسخط الله عليهم ثم أتاهم العذاب بغتة من غير شعور منهم؛ فأهلكهم الله وأفناهم.

[٩٦] يخبر جل وعلا عن تلك القرىٰ التي أهلكها لو أنهم آمنوا بالله وصدقوا الرسل، وخافوا الله باتباع ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر؛ لأنزل الله عليهم بركات السماء وهي المطر، وبركات الأرض وهي الثمار والنبات والخصب والنعيم، لكنهم جحدوا آيات الله وكذبوا رسله فعاقبهم الله بسبب كفرهم وعنادهم في الدنيا بالبأساء والضراء، وفي الآخرة بالنار.

[٩٧] ثم قال جل وعلا علىٰ سبيل التخويف والتحذير لهؤلاء الغافلين: هل أَمِنَ أهل تلك القرىٰ التي أهلكناها بسبب كفرها وجحودها أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم وهم غارقون في نومهم؟

[٩٨] ثم قال جل وعلا: أو أمن أهل تلك القرىٰ المهلكة أَمِنُوا أن يأتيهم عذابنا نهارًا وهم ساهون لاهون في غاية الغفلة والانشغال في ملذات الحياة الدنيا؟

[٩٩] ثم قال جل وعلا: هل أمنوا مكرنا واستدراجنا لهم بالنعم؟؛ حيث أمهلناهم في طغيانهم ونعيمهم؛ فاعلموا أيها الناس أنه لا يأمن مكر الله ويستمر في غيه وضلاله إلا الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، وذلك هو الخسران المبين.

[١٠٠] ثم قال جل وعلا: أَوَلَمْ يتبين لهؤلاء الكفار الأشقياء الذين ورثوا الأرض من بعد أهلها الذين أهلكهم الله بذنوبهم ثم ساروا علىٰ طريقتهم في الكفر والضلال؛ أَوَلَمْ يتبين لهم أن في قدرة الله أن يصيبهم العذاب الشديد بسبب كفرهم وضلالهم وذنوبهم كما أصاب من سبقهم، ثم يختم الله علىٰ قلوبهم فلا يستطيعون سماع النصح والإرشاد، ويستمرون علىٰ ذلك حتىٰ يموتوا علىٰ الكفر والضلال فيكون ذلك سببًا في دخولهم النار.

[١٠١] ثم أخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن تلك القرىٰ التي قصَّ سبحانه عليه شيئًا من أخبارها وما جرىٰ لها مع أنبيائها؛ ليكون ذلك عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتعظين، ثم بين سبحانه أن تلك الأقوام المكذِّبة جاءتهم رسلهم ودعوهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وقد أيدهم الله بالمعجزات الواضحات، ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتعظوا؛ بل استمروا في كفرهم وضلالهم، وبسبب ذلك طبع الله علىٰ قلوبهم عقوبة لهم جزاء ما فعلوه واقترفوه من الكفر والذنوب والمعاصي.

[١٠٢] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن أكثر الناس لا يوفون بالعهود؛ بل إن أكثرهم فاسقون خارجون عن طاعة الله؛ كما قال جل وعلا: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

وإخبار النبي ﷺ بذلك حتىٰ لا يضيق ذرعًا بأحوال من أرسل إليهم، وكأن الله سبحانه يقول له: انتبه يانبي الله فإنَّا أرسلناك إلىٰ أناس

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

١٦٣

يغلب علىٰ طبائعهم كذا وكذا؛ ليعرف كيف يتعامل معهم ﷺ.

[١٠٣] وبعد الأمم والأنبياء السابق ذكرهم؛ نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام، أخبر جل وعلا أنه بعث موسىٰ عليه السلام إلىٰ فرعون وقومه ومعه آيات الله البينة، والحجج والبراهين الواضحة، والمعجزات الباهرة؛ فآمن به السحرة وبنو إسرائيل، أما فرعون وقومه فجحدوا وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا، وكان فرعون وقومه إذا نزل بهم الضر قالوا لموسىٰ عليه السلام: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٩]، فإذا رفع الله عنهم الضر رجعوا عن وعدهم بالهداية وقالوا: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢]، وبهذا حلت بهم النقمة والغرق في البحر الأحمر، ولهذا قال سبحانه: فانظر يانبي الله كيف كانت نهاية المفسدين الظالمين لأنفسهم ولغيرهم.

[١٠٤] ثم بدأ الحوار بين موسىٰ عليه السلام وفرعون الطاغية الجبار، فقال موسىٰ عليه السلام لفرعون: اعلم أني مرسل إليك من الله خالق الخلق أجمعين، أرسلني بالهدىٰ ودين الحق؛ لأدعوك إلىٰ عبادته سبحانه وحده لا شريك له.

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

[١٠٥] ويبدو أن فرعون كذب موسىٰ في دعوىٰ الرسالة؛ لذلك رد عليه موسىٰ فقال له: اعلم يا فرعون أنه واجب وحق علي أن لا أخبر عن الله إلا بما هو حق وصدق، وقد جئتكم بحجة واضحة ومعجزة ساطعة تدل علىٰ صدقي؛ فاترك بني إسرائيل وحرِّرْهُم من الاستعباد والقهر؛ ليذهبوا معي إلىٰ الأرض المقدسة، حتىٰ يتمكنوا من عبادة الله وحده لا شريك له.

[١٠٦] فقال فرعون لموسىٰ: إن كنت جئت ومعك دليل من عند من أرسلك يدل علىٰ صدق ما تقول؛ فأظهره لي إن كنت من أهل الصدق فيما تدعي.

[١٠٧] فما كان من موسىٰ عليه السلام إلا أن ألقىٰ عصاه التي كانت بيمينه أمام فرعون، فإذا بهذه العصىٰ تتحول إلىٰ ثعبان ضخم ظاهر واضح للعيان.

[١٠٨] ثم أراه موسىٰ معجزة أخرىٰ؛ حيث أدخل يده في جيبه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء ناصعة البياض لكل من نظر إليها.

[١٠٩] فقال الأشراف من قوم فرعون حين بهرهم ما رأوا من الآيات: احذروا أيها الناس؛ إن هذا الرجل لعالم بالسحر، ماهر به.

[١١٠] فقال فرعون: واعلموا أن هذا الساحر يريد بسحره هذا أن يخرجكم من عقائدكم، كما قال تعالىٰ: ﴿**أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ**﴾[غافر:٢٦]؛ فأشيروا عليَّ ماذا نحن فاعلون بموسىٰ.

[١١١] فقال الأشراف من قوم فرعون: نشير عليك بأن تؤخر أمره هو وأخاه حتىٰ ترسل في كل المدن من يجمع لك كبار السحرة وخبراءهم ليناظروه.

[١١٢] وقال الأشراف أيضًا: وتكون مهمة هؤلاء الذين يجمعون السحرة أن يأتوك بكل ساحر قدير عالم بسحره؛ ليظهروا كذب موسىٰ.

[١١٣] ثم جاء السحرة إلىٰ فرعون، وقالوا له: هل لنا يافرعون جزاء حسنًا إن كانت الغلبة والنصرة علىٰ موسىٰ لنا؟

[١١٤] فقال فرعون: نعم لكم أجر كبير، ولكم أيضًا القرب مني، وعلو المنزلة عندي.

[١١٥] فقال السحرة: إما أن تلقي ياموسىٰ عصاك أنت أولًا، أو نلقي نحن ما بأيدينا من الحبال والعِصِي أولًا.

[١١٦] فقال لهم موسىٰ: بل أَلْقُوا أيها السحرة أنتم أولًا؛ فلما ألقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي سحروا أعين الناس وأخافوهم من هول سحرهم العظيم.

[١١٧] ثم أوحىٰ جل وعلا إلىٰ موسىٰ أن يُلقي عصاه، فألقاها كما أمره الله، فإذا عصاه تبتلع ما ألقوا من العصي والحبال.

[١١٨] ثم أخبر جل وعلا أن الحق ظهر وتبين، وظهر صدق موسىٰ عليه السلام ونصره الله علىٰ فرعون وقومه، وبطل عمل السحرة الباطل.

[١١٩] ثم أخبر جل وعلا أن فرعون وأتباعه غُلبوا وانصرفوا ذليلين.

[١٢٠] وبعد أن رأىٰ السحرة معجزة موسىٰ وهي العصا التي تحولت إلىٰ ثعبان ضخم ابتلعت كل ما حولها من عصيهم وحبالهم، عرفوا بخبرتهم أن ما حصل ليس سحرًا، وإنما هي معجزة من الله، ولذلك خرَّوا ساجدين عابدين مطيعين لله رب العالمين، معترفين بخطئهم وشناعة فعلهم.

[١٢١] وبعد أن تبين الحق للسحرة وخرُّوا لله ساجدين قالوا: لقد آمنا بالله ربنا ورب الخلق أجمعين.

[١٢٢] ثم قال السحرة: واعلموا أن هذا الرب الذي آمنا به هو رب موسىٰ وهارون. وقد أكدوا أنهم آمنوا برب موسىٰ وهارون حتىٰ لا يظن أحد المستمعين أنهم آمنوا بفرعون الذي كان يدعي الربوبية.

[١٢٣] فقال فرعون للسحرة: أصدقتم بموسىٰ من قبل أن تستأذنوني؟ إن هذا لأمر وحيلة صنعتموها فيما بينكم وبين موسىٰ لتستولوا علىٰ العقول وتخرجوا الناس من معتقداتهم؛ فسوف تعلمون ما أفعل بكم من العذاب والنكال.

[١٢٤] ثم قال فرعون: اعلموا أيها السحرة أنني سوف أقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف، أي: اليد اليمنىٰ مع الرجل اليسرىٰ، وَأُصَلِّبُكُم علىٰ جذوع النخل لتكونوا عبرة للآخرين.

[١٢٥] فقال السحرة: اعلم يا فرعون أننا راجعون لا محالة إلىٰ الله ربنا بعد أن نموت، فخير لنا أن نقابل ربنا بالتوحيد والإخلاص، من أن نقابله بالشرك والكفر والسحر والضلال.

[١٢٦] ثم قال السحرة: وهل تعاقبنا يا فرعون لأننا صدّقنا موسىٰ، وصدّقنا الآيات والمعجزات عندما جاءتنا، ثم دعوا الله فقالوا: ياربنا هب لنا صبراً واسعًا نقوىٰ معه علىٰ احتمال الشدائد، وتوفنا علىٰ الإسلام برحمتك يا أرحم الراحمين.

[١٢٧] فقال الأشراف من قوم فرعون محرضين علىٰ موسىٰ: أتترك يا فرعون موسىٰ وبني إسرائيل يفسدوا عليك العبيد في أرضك، ويتركك أنت وآلهتك فلا يعبدوها، وهذا دليل علىٰ أن قوم فرعون مِثْلُهُ في السوء ورد الحق، فقال فرعون: سوف نُقَتِّلُ أبناءَهم، ونبقي علىٰ نسائهم بدون قتل، وسوف نكون نحن الغالبون لموسىٰ ومن معه من بني إسرائيل.

[١٢٨] ثم قال موسىٰ لقومه بني إسرائيل، تسلية وتهدئة لهم: استعينوا بالله وتحلُّوا بالصبر علىٰ أذىٰ فرعون وقومه؛ فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وهي ولابد ستكون لمن آمن بالله وحده، وخافه بفعل المأمورات وترك المنهيات.

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

[١٢٩] فقال القوم من بني إسرائيل: لقد نالنا الأذىٰ ياموسىٰ قديمًا من قبل أن تأتينا بالرسالة، وحديثًا من بعد مجيئك بها، فقال موسىٰ لهم: لعل الله أن يهلك عدوكم الذي آذاكم، ويجعلكم خلفاء الأرض حتىٰ يعلم سبحانه ما أنتم عاملون، وهذا دليل علىٰ علم موسىٰ بقومه، وأنهم ينكثون العهود.

[١٣٠] ثم أخبر جل وعلا أنه عاقب آل فرعون بالجدب فلا ينبت لهم زرع، وعاقبهم بنقص الحبوب والثمار؛ كل ذلك لعلهم يتعظوا ويتذكروا فيؤمنوا بالله رب العالمين، ويتركوا ما هم فيه من الكفر والعصيان.

فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

[١٣١] يخبر جل وعلا أن فرعون وقومه استمروا في كفرهم وعنادهم ولم يتعظوا بما وقع لهم من أنواع العقوبات، ودليل ذلك أنهم إذا حصل لهم خير وخصب وسعة ورخاء قالوا: هذه نعم جاءت من أجلنا، ونحن مستحقون لها، ولم يشكروا المنعم الذي جاء بها وهو الله، أما إذا أصابهم الجدب والبلاء تشاءموا بموسىٰ ومن معه من المؤمنين؛ فليعلم هؤلاء الأشقياء أن ما أصابهم من الشر والبلاء هو من قضاء الله وقدره؛ بسبب كفرهم وفسوقهم، وليس بشؤم موسىٰ ومن معه، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

[١٣٢] ثم قال هؤلاء الأشقياء من قوم فرعون لموسىٰ عليه السلام: مهما جئتنا ياموسىٰ بأنواع الآيات التي تستدل بها علىٰ حقيقة دعوتك وصدق رسالتك، لكي تصرفنا عن ديننا، فلن نصدقك أو نتبع رسالتك التي جئت بها؛ بل نعتبر ذلك من السحر الواضح البيِّن.

[١٣٣] ثم بين جل وعلا بعض الآيات التي أُرسل بها موسىٰ عليه السلام، ومن ذلك: الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم؛ وذكر في الآية ١٠٨ السابقة آيتين، وهما: العصا، واليد البيضاء، وذكر أيضًا في الآية ١٣٠ السابقة آيتين، وهما: السنين، ونقص الثمرات؛ فيكون جميع الآيات التي أرسل بها موسىٰ عليه السلام تسع آيات، وهي آيات عظيمة لا يقدر عليها أحد سوىٰ الله جل في علاه، ثم بين سبحانه أن هذه الآيات كانت تتبع بعضها بعضًا، وهي دلائل وعلامات واضحة تدل علىٰ إقامة الحجة؛ ومع ذلك فقد استكبروا وعاندوا ورفضوا الإيمان بالله؛ بسبب أنهم كانوا مصرين علىٰ الكفر ومجرمين؛ فعاقبهم الله علىٰ إجرامهم وفسقهم وكفرهم وضلالهم.

[١٣٤] ثم أخبر جل وعلا أن فرعون وقومه عندما كان يقع عليهم نوع من العذاب المذكور في الآية السابقة يذهبون في كل مرة إلىٰ موسىٰ ويقولون: ياموسىٰ ادع لنا ربك بما عُرِفَ منكم من صلاح أن يرفع عنّا العذاب، ونقسم لك في حال رُفع عنَّا العذاب سوف نؤمن بك وبما جئت به، وسوف نرسل معك بني إسرائيل.

[١٣٥] ثم بين جل وعلا أنه في كل مرة يستجيب دعاء موسىٰ عليه السلام ويكشف عنهم العذاب، ويستمر كشف العذاب عنهم إلىٰ الوقت الذي أُجِّل لهم؛ فإذا هم ينقضون العهود والمواثيق التي عاهدوا عليها موسىٰ عليه السلام، ولم يؤمنوا برسالته، ويستمرون علىٰ كفرهم وضلالهم وعنادهم.

[١٣٦] فلما جاء الوقت المحدد لإهلاك هؤلاء المجرمين أخبر جل وعلا بنهايتهم الأليمة؛ حيث انتقم منهم سبحانه وتعالىٰ؛ فسلب نعمتهم وأغرقهم في البحر، لأنهم جحدوا آيات الله، وكانوا بها غير متعظين ولا ممتثلين.

[١٣٧] ثم أخبر جل وعلا أنه أورث بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين من فرعون وقومه؛ أورثهم مشارق الأرض ومغاربها، وهي أرض مصر والشام التي بارك الله فيها؛ وأصبح لا منازع ولا قوة تمنعهم من الاستمتاع والإصلاح في تلك البلاد، ثم بين سبحانه أنَّ وَعْدَه تم لبني إسرائيل بالتمكين لهم بسبب صبرهم علىٰ أذىٰ فرعون وقومه، وبين سبحانه أنه دمر ما كان يصنع فرعون وقومه من البيوت والقصور، وما كانوا يبنون من عرائش الأعناب والأشجار والحدائق. ولكنَّ بني إسرائيل لم يشكروا نعمة الله عليهم؛ بل آذوا موسىٰ عليه السلام إيذاءً شديدًا.

ومن ذلك: أنهم لما نجَوْ من البحر الذي أُغرق فيه فرعون وقومه رأوا قومًا يعبدون غير الله؛ فقالو: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨].

ومن ذلك أيضًا: أنه قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٢١]، فرفضوا أمر نبيهم وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة:٢٢]، فعاقبهم الله بالتيه كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٦].

[١٣٨] وبعد أن خرج موسىٰ ومعه بنو إسرائيل من مصر متجهين إلىٰ الأرض المقدسة تبعهم فرعون وجيشه لكي يعيدوهم إلىٰ أرض مصر، ولكن الله جل وعلا انتقم لهم فسهل لموسىٰ وبني اسرائيل تجاوز البحر، وأغرق فرعون وجيوشه - التي كانت تلاحقهم - بدوابهم ومعداتهم، ورأوا جثة فرعون علىٰ الساحل؛ حيث لفظها البحر بأمر الله؛ ليروا نهاية هذا الطاغية الذي ادَّعىٰ الألوهية، وبعد أن تجاوز بنو إسرائيل البحر أخبر سبحانه أنهم رأوا في طريقهم وهم ذاهبون إلىٰ الأرض المقدسة قومًا يعبدون الأصنام، فقالوا لموسىٰ: اجعل لنا إلهًا مثل هؤلاء، فرد عليهم موسىٰ موبخًا لهم: إنكم قوم تجهلون عظمة الله وقدرته، وهذا من أعظم الجهل، لأنه شرك وكفر بالله.

[١٣٩] ثم قال موسىٰ لبني إسرائيل: واعلموا ياقومي أن هؤلاء القوم العاكفين علىٰ عبادة هذه الأصنام متبر، أي: هالك ومدمر ما هم فيه من عبادة غير الله، وأن فعلهم هذا باطل؛ لأنهم يعبدون غير الله سبحانه، ومحكوم علىٰ عملهم هذا بالزوال، وسيظهر التوحيد وستصير العبادة لله وحده لا شريك له.

[١٤٠] ثم قال موسىٰ لبني إسرائيل علىٰ سبيل التعجب والإنكار مبينًا لهم فساد ما طلبوه وأن ما طلبوه هو شرك وكفر بالله، فقال: ياقومي هل تريدون أن أطلب لكم إلهًا غير الله تعبدوه؟ وأنتم تعلمون أن الله هو المألوه وحده، وأنه هو الذي خلقكم، وهو الذي أهلك عدوكم!!، وهو الذي اصطفاكم وفضلكم علىٰ عالمي زمانكم؟!.

[١٤١] ثم قال موسىٰ لبني إسرائيل: واذكروا ياقومي نعم الله عليكم؛ حيث أنجاكم من آل فرعون الذين ساموكم أشد العذاب؛ فكانوا يقتلون أبناءكم ويتركون نساءكم لخدمتهم، واعلموا أن ذلك العذاب كان اختبارًا وامتحانًا لكم من ربكم لتعتبروا وتتعظوا وتشكروا الله علىٰ نعمه وأفضاله عليكم.

بعد ذلك طلب منهم موسىٰ أن يدخلوا الأرض المقدسة فرفضوا وقالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، ولذلك عاقبهم الله بالتيه؛ لأنهم قوم سوء، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠].

[١٤٢] ثم أخبر جل وعلا أنه واعد موسىٰ عليه السلام قبل تكليمه ثلاثين ليلة لمناجاته، ثم زادها عشر ليالي لتصبح أربعين ليلة يتعبد فيها، لكي يكون متهيئًا ومستعدًّا للقاء الله؛ فتم ميقات الله لموسىٰ لتكليمه، ولما أراد موسىٰ أن يذهب للميقات الذي حدده الله لمكالمته وصَّىٰ أخاه هارون ليستخلفه علىٰ قومه حتىٰ يرجع، وطلب منه أن يقوم علىٰ شؤونهم بالعدل والرفق والإصلاح، وأن يَحْمِلَهُم علىٰ طاعة الله وعبادته، وحذَّره أن يسلك طريق المفسدين في الأرض.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

ومعلوم أن هارون نبي، ولا شك أنه سوف يصلح، وهو مكرم؛ بل معصوم من أن يكون مفسدًا؛ فكيف يقول له موسىٰ: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؟ فيفهم من هذا: أنه لا غنىٰ لأحد عن الوصية، وأنه يجب علىٰ كل أحد قبول النصح ممن جاء به، كما قيل:

ولكل شخص شهوة أو غفلة والمرء محتاج إلىٰ التنبيه

[١٤٣] ولما جاء موسىٰ عليه السلام علىٰ الموعد كلمه الله مباشرة من وراء حجاب كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورىٰ:٥١]؛ ولهذا سُمِّي موسىٰ عليه السلام كليم الرحمن؛ لأن الله كلمه من غير الواسطة التي يبلغ بها الرسل أحكام الله، وهو جبريل عليه وعلىٰ رسل الله الصلاة والسلام.

ثم إن موسىٰ طمع في رؤية الله فطلب منه النظر إليه، فقال الله له: لن تقدر ياموسىٰ علىٰ رؤيتي في الدنيا، ولكن انظر إلىٰ الجبل فإن استقر مكانه إذا تجلىٰ الله له فسوف تراني، فلما تجلىٰ الله إلىٰ الجبل جعله دكًّا مستويًا بالأرض، فعندها سقط موسىٰ مغشيًا عليه؛ فلما أفاق قال: إني أنزِّهك يا ربي وأعظِّمك عما لا يليق بك، وإني تبت إليك، وأنا أول المصدقين بك المسلِّمين لك.



....

....

....

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

[١٤٤] وبعد أن أفاق موسىٰ من صعقته قال له جل وعلا: ياموسىٰ إني اخترتك علىٰ الناس من أهل زمانك، برسالتي إلىٰ من أرسلتك إليهم، وبتكليمي إياك من غير واسطة؛ فخذ ياموسىٰ ما آتيتك من الأوامر والنواهي، وكن من الشاكرين لله علىٰ نعمه الظاهرة والباطنة، وعلىٰ ما آتاك من رسالته، وما خصك بكلامه.

[١٤٥] ثم أخبر جل وعلا أنه كتب لموسىٰ في ألواح التوراة كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل من أمور الدين، لتكون موعظة تؤثر في قلوبهم، وتبييناً للأوامر والنواهي وأحكام الحلال والحرام؛ ثم أمره الله أن يأخذ هذه الأحكام بجد وحزم، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها، أي: بأحسن الوجوه التي تفسر بها، ثم أخبر سبحانه علىٰ سبيل التهديد أن من خالف أمره سوف يريه منازل الفاسقين الذين سبقوهم كيف دمرها الله بسبب كفرهم وفسقهم وفجورهم.

[١٤٦] ثم أخبر جل وعلا أنه سوف يصرف عن دلائل قدرته وعظمته الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق بسبب فساد قلوبهم، ثم بين سبحانه أن هؤلاء الظالمين إذا رأوا أي آية دالة علىٰ أن الله هو الإله الحق الذي لا شريك له فإنهم لا يؤمنون بها، وإذا رأوا طريق الحق والهداية لا يتخذونه طريقًا، أما إذا رأوا طريق الضلال والكفر فإنهم يتخذونه طريقًا لهم يسيرون فيه، ثم بين سبحانه أن ذلك الانحراف عن دين الله وعن الهداية كان بسبب أنهم كذبوا بدلائل الله ومعجزاته بعد ظهورها واضحة، ولكنهم كانوا عنها لاهين غافلين.

[١٤٧] ثم أخبر جل وعلا أن الذين جحدوا بآيات الله وأنكروا لقاءه يوم القيامة؛ حبطت أعمالهم الخيرية من صدقة وصلة رحم ونحو ذلك، ولا يجزون يوم القيامة إلا بما كانوا يعملونه من الكفر والذنوب والمعاصي.

[١٤٨] وبعد أن ذهب موسىٰ لمناجاة ربه اتخذ قومه من بعده من ذهبهم وحليهم عجلًا صنعه السامري؛ حيث جَمَعَ الذهب الذي مع نساء بني إسرائيل اللاتي استعرنه من نساء قوم فرعون، ثم أذابه وصنع منه عجلًا له جسدٌ من الذهب، وله صوت يُسمع، وقال لهم السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه:٨٨]، ، أي: أنهم جعلوا هذا العجل إلههم، ثم عبدوه من دون الله، ثم قال سبحانه علىٰ سبيل الإنكار: ألم ير هؤلاء الجهلة أن هذا العجل لا يكلمهم ولا يهديهم طريقًا؛ فكيف اتخذوه إلهًا يعبد من دون الله؟ ثم قال سبحانه منكرًا عليهم: إنهم اتخذوا هذا العجل إلهًا بدون أن يفكروا بعقولهم؛ فهم ظالمون لأنفسهم ولغيرهم ممن يقتدي بهم.

[١٤٩] ولما عادوا إلىٰ رشدهم وندموا علىٰ عبادة العجل بعد أن تبين لهم أنها عبادة باطلة، وتبين لهم أنهم قد ضلوا عن الطريق المستقيم، قالوا: لئن لم يتب علينا ربنا ويرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء، ويتجاوز عن ذنوبنا؛ لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم فخسروا دنياهم وآخرتهم.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

[١٥٠] ثم أخبر جل وعلا أن موسىٰ رجع إلىٰ قومه وهو في غاية الغضب والحزن؛ لأن الله أخبره بما صنع قومه في أثناء غيبته، فلما وصل موسىٰ والتقىٰ بقومه قال لهم: بئس الخلافة التي خلفتموني مِن بعدي؛ حيث تركتكم علىٰ توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده، فهل استعجلتم تعاليم الله التي ستتم بمجيئي إليكم؟ ولما رأىٰ موسىٰ قومه وهم عاكفون علىٰ عبادة العجل، ألقىٰ ألواح التوراة التي بيده من شدة غضبه من فعلهم القبيح، وأمسك برأس أخيه يجره، فقال هارون مدافعًا عن نفسه بأسلوب الاستعطاف والترحم: ياابن أمي: لقد بذلت جهدي في نصحهم ولكنهم استضعفوني؛ بل حاولوا أن يقتلوني، فلا تَسُرَّ الأعداء بما تفعل بي، ولا تجعلني مثل هؤلاء القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بعبادة العجل، وإني بريء منهم ومن فعلهم.

[١٥١] ولما تبين الأمر لموسىٰ وتأكد أن أخاه لم يفرط، وأنه كان معذورًا، ندم علىٰ ما فعله بأخيه، وقال: رب اغفر لي ما فعلته بأخي، واغفر لأخي فقد بذل ما يقدر عليه، وأدخلنا في سعة رحمتك فإنك أرحم الراحمين.

[١٥٢] ثم قال جل وعلا علىٰ سبيل التهديد والإنكار: إن الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل، واتخذوه إلهًا من دون الله؛ سوف يصيبهم في الآخرة عذاب شديد من الله، وسوف تصيبهم كذلك الذلة والصغار في الحياة الدنيا، وبمثل هذا العقاب يُعَاقِبُ سبحانه كل من اتخذ إلهًا من دون الله.

[١٥٣] ثم فتح جل وعلا لعباده باب التوبة؛ فقال سبحانه: واعلموا أيها أناس أن الذين عملوا المعاصي والذنوب من شرك وكبائر وصغائر، ثم تابوا بعد تلك الأفعال السيئة، ورجعوا إلىٰ الله، وآمنوا به إيمانًا حقيقيًّا؛ فاعلموا أن الله جل شأنه من بعد هذه التوبة غفور لعباده التائبين، رحيم بهم.

[١٥٤] وحين سكن موسىٰ وهدأ من غضبه بعد أن تبين له عذر أخيه، وتوبة قومه من عبادة العجل؛ تراجع عما بدر منه، وأخذ الألواح التي ألقاها، ثم بين سبحانه أن هذه الألواح مشتملة علىٰ هداية ورحمة الناس الذين يخافون الله في سرهم وعلنهم، ويخشون عقابه في الدنيا والآخرة.

[١٥٥] وبعد أن تاب بنو إسرائيل، وعادوا إلىٰ عبادة الله وحده، اختار موسىٰ عليه السلام منهم سبعين رجلًا من أشراف قومه وخيارهم من الذين لم يعبدوا العجل، وذهب بهم إلىٰ الميقات الذي حدده الله لموسىٰ عليه السلام، ولما رأوا موسىٰ يكلم الله من وراء حجاب قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة:٥٥]؛ فأخذتهم الرجفة فصعقوا وماتوا جميعًا؛ فلما رأىٰ موسىٰ ما حصل التجأ إلىٰ ربه بالدعاء، وقال: يارب لو أردت لأهلكتنا من قبل هذا الميقات وأنا معهم، فماذا أقول لبني إسرائيل عندما أرجع إليهم وقد أهلكت خيارهم؟، يارب أتهلكنا بسبب ما فعله السفهاء الجهلاء منا؟، وهو تحدّيهم لموسىٰ وقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة:٥٥]؛ وإن هذه الفتنة التي وقع فيها هؤلاء السفهاء اختبار وامتحان للناس، تضل بها من تشاء من خلقك، وتهدي بها من تشاء، أنت ولينا وناصرنا ومتولي جميع أمورنا، فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا برحمتك الواسعة التي وسعت كل شيء، إنك خير من غفر الذنوب ورحم العباد، فأحياهم سبحانه من بعد موتهم إكرامًا لنبيه موسىٰ عليه السلام.

۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

[١٥٦] واستمر موسىٰ عليه السلام في دعائه فقال: وقدِّر لنا ياربنا في هذه الدنيا حياة سعيدة نهنأ بها، وفي الآخرة جنة نسعد بها، فإنا قد تبنا ورجعنا إليك، فقال الله سبحانه مجيبًا: اعلم ياموسىٰ أن عذابي أصيب به من أشاء من عبادي، وأن رحمتي وسعت كل شيء، ولن ينالها في الآخرة إلا الذين يخافون ربهم باجتناب الذنوب والمعاصي، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم، ويؤمنون بآياتي ويعملون بما فيها من الأوامر والنواهي.

[١٥٧] ثم تفضل جل وعلا بإيضاح أولئك الذين يتقون الله ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله؛ فأخبر أنهم الذين يتبعون النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهو محمد ﷺ الذي يجد أهل الكتاب صفته مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل، وهذا النبي يأمرهم بالتوحيد وجميع الطاعات، وينهاهم عن الشرك وجميع المعاصي، ويحل لهم الطيبات من المأكل والمشرب، ويحرم عليهم الخبائث، ويرفع عنهم الآصار والأغلال الشاقة التي فرضت عليهم؛ ثم بين سبحانه أن الذين آمنوا بالنبي محمد ﷺ وصدقوه ووقروه ونصروه، واتبعوا القرآن الذي أنزله الله عليه، فأولئك هم الفائزون بوعد الله لعباده المؤمنين بجنة عرضها السماوات والأرض.

وهذه الآية والتي بعدها من الآيات تثبت أنَّ رسالة محمد ﷺ للثقلين جميعًا الإنس والجن، وأنها خاتمة الرسالات.

[١٥٨] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول للناس: اعلموا أيها الناس أني أُرسلت إليكم من عند الله الذي له ملك جميع من في السماوات والأرض، وأنه لا إله إلا هو، ولا معبود بحق إلا هو، له القدرة البالغة، يحيي ويميت، فعليكم الإيمان به وبرسوله النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، والذي يؤمن بالله ربًّا وإلهًا، ويؤمن بكلماته الشرعية، فاتَّبِعُوه لعلكم تَرْشُدُون.

وأمِّيته ﷺ كمال له لتثبت أن كل ما يأتي به من تعاليم هي من عند الله.

[١٥٩] وبعد أن أخبر جل وعلا عن الضالين والمنحرفين من بني إسرائيل، أخبر أن من قوم موسىٰ عليه السلام جماعة بقوا علىٰ الدين الصحيح يهدون الناس بالحق، ويعدلون في تنفيذ الأحكام، وهذا بيان لحالهم قبل مجيء رسالة محمد ﷺ.

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَۙ لَا تَأْتِيهِمْۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

[١٦٠] يخبر جل وعلا أنه قسم بني إسرائيل فجعلهم اثنتي عشرة فرقة، وهم عدد أبناء يعقوب عليه السلام، ولما طلب بنو إسرائيل من موسىٰ السقيا بعد أن اشتد بهم العطش أوحىٰ سبحانه لموسىٰ أن يضرب بعصاه الحجر؛ فضربه فانبجست، أي: انفجرت منه اثنتا عشرة عينًا بعدد الفرق المذكورة، ثم علمت كل فرقة عينها الخاصة بها التي ستشرب منها، حتىٰ لا يتعدىٰ بعضهم علىٰ بعض، ثم منَّ الله علىٰ بني إسرائيل بنعمة أخرىٰ؛ حيث سخَّر السحاب ليظلهم ويسترهم من حر الشمس، ويسير معهم حيث ساروا، وكذلك منَّ الله عليهم بنعمة أخرىٰ؛ حيث أنزل عليهم المنَّ وهو طعام حلو لذيذ، وأنزل عليهم السلوىٰ وهو طير لذيذ اللحم، ثم قال الله لهم: كلوا من هذه الطيبات التي هي من رزق الله، واشكروه سبحانه عليها، ثم بين جل في علاه أنهم ما ظلموا الله حيث لم يشكروه، ولكن ظلموا أنفسهم لأنهم عرضوها لعذاب الله الأليم.

[١٦١] واذكر يانبي الله يوم أن قال الله لبني إسرائيل: ادخلوا بيت المقدس واسكنوا فيه، وكلوا مما أحل الله لكم من ثماره وحبوبه ونباته أين شئتم ومتىٰ شئتم، وقولوا حين تدخلون الباب: حطَّ عنا يارب خطايانا، وادخلوا خاضعين متذللين لربكم؛ فإن فعلتم ذلك غفر الله لكم خطاياكم وسيئاتكم، ومن كان منكم محسنًا سنزيده إحسانًا من خيري الدنيا والآخرة.

[١٦٢] ثم أخبر جل وعلا أن بعض بني إسرائيل الظالمين بدلوا وغيروا؛ ومن ذلك أنهم دخلوا الباب وهم يزحفون كلًّا علىٰ استه، وقالوا: (حبة في شعيرة) بدل أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾، أي: حط عنا خطايانا، وهي طلب المغفرة، كل ذلك سخرية منهم واستهزاء بأمر الله، لذا أرسل الله عليهم عذابًا شديدًا من السماء بسبب ظلمهم وعصيانهم ومخالفتهم أمر الله وتجاوزهم حدوده.

[١٦٣] ثم طلب جل وعلا من النبي ﷺ أن يسأل اليهود عن تلك القرية التي كانت علىٰ شاطئ البحر؛ حيث ابتلاهم الله بأن جعل الأسماك تختفي من شاطئهم طوال الأسبوع ما عدا يوم السبت، وهو يوم محرم عليهم فيه الصيد؛ لأنه يوم عيد عندهم؛ فكانوا يحتالون فيضعون حفرًا وشباكًا فإذا جاءت الأسماك والحيتان في يوم السبت وقعت في هذه الحفر والشباك، ثم لا تستطيع الخروج منها، ثم يأتون في اليوم الذي بعده وهو يوم الأحد فيأخذونها احتيالًا.

واعلموا أن الله ابتلىٰ هؤلاء اليهود بمثل هذا الابتلاء لينالهم عقابه وعذابه؛ بسبب فسقهم وفجورهم، وتعديهم لحدود الله، وتحايلهم علىٰ شرعه الحكيم.

وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ
عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤
فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥
فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦
وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ
سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ
١٦٧ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ
دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ
يَرۡجِعُونَ ١٦٨ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ
يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن
يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ
أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ
خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠

[١٦٤] وحيث كان هناك جماعة صالحون من اليهود قاموا بنصح هؤلاء الذين احتالوا علىٰ شرع الله، وحاولوا إرشادهم وهدايتهم فلم يفلحوا؛ قام بعض الرجال الصالحين يلومون زملاءهم الناصحين فقالوا لهم: لماذا تنصحون هؤلاء المحتالين الذين تمردوا علىٰ التعاليم؟، فإن نُصْحَهُمْ لا جدوىٰ منه؛ فاتركوهم يلاقوا مصيرهم المكتوب عليهم إما بإهلاك الله لهم، أو أن يعذبهم عذابًا شديدًا؛ فقال الناصحون ردًّ علىٰ هؤلاء: لقد نصحناهم حتىٰ نعذر أمام الله، ولعلهم يتذكرون بهذه النصيحة فيخافون الله ويتوبون إليه.

[١٦٥] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المتمردين لمَّا تَرَكُوا ما وُعِظُوا به حلّت بهم العقوبة، وكانت النتيجة أن الله سبحانه أنجىٰ الناصحين، أما الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان فقد أخذهم الله بعذاب شديد بسبب استمرارهم علىٰ الفسق والفجور وتجاوزهم لحدود الله.

أما الذين امتنعوا عن الأمر بالمعروف فلم يذكر جل وعلا نجاتهم، فربما عوقبوا معهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾ [الأنفال:٢٥]، وبهذا يفهم أن النصح سبب للنجاة ولو أيس الناصح من المنصوح.

[١٦٦] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المجرمين لمَّا أصروا واستمروا في طغيانهم وعنادهم واستكبارهم عما نهوا عنه من صيد السمك يوم السبت، أمر الله أن يكونوا قردة، فانقلبوا بإذن الله قردة ممسوخين.

قال بعض العلماء: إن الممسوخين لا يتوالدون، ولذا فإن قول العامة لليهود: أبناء القردة والخنازير لا مستند له.

[١٦٧] واذكر يانبي الله يوم أن صرح ربك وأوجب علىٰ نفسه أنه سوف يرسل علىٰ اليهود من يذيقهم سوء العذاب إلىٰ يوم القيامة بسبب كفرهم وإجرامهم، وانتهاكهم لحرمات الله، وإفسادهم في الأرض، ثم بين سبحانه أن عقابه سريع لمن أساء وظلم، وأنه واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا وأناب.

[١٦٨] ثم أخبر جل وعلا أنه فرَّق بني إسرائيل في الأرض طوائف وأممًا، ومزقهم شر ممزق بسبب كفرهم وجحودهم، ثم بين سبحانه أن من هؤلاء اليهود أناسًا صالحين وهم قليلون، وأن منهم أناسًا ظالمين لأنفسهم وهم السواد الأعظم والكثرة الغالبة، ثم أخبر سبحانه أنه اختبرهم تارة برغد العيش والنعم الكثيرة، وتارة بالشدة والمصائب والأمراض؛ رجاء أن يرجعوا إلىٰ ربهم فيؤمنوا به ويطيعوه، ويتركوا ما نهوا عنه من الذنوب والمعاصي.

[١٦٩] وبعد أن أخبر جل وعلا عن هؤلاء المذكورين في الآية السابقة الذين فيهم الصالحون والطالحون؛ أخبر أنه جاء من بعدهم قوم ورثوا التوراة عن آبائهم وأجدادهم، وهؤلاء من صفاتهم السيئة أنهم يأخذون الرشاوىٰ ويأكلون الحرام، ومع ذلك فإنهم يقولون بكل وقاحة: إن الله سيغفر لنا لأننا من نسل الأنبياء، ثم أخبر سبحانه أنهم كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا فإنهم يأخذونه؛ سواء كان من الحلال أو الحرام؛ ثم أنكر سبحانه عليهم فقال علىٰ سبيل التذكير والتوضيح: ألم يؤخذ عليكم أيها اليهود العهد والميثاق من التوراة أن لا تقولوا علىٰ الله إلا الحق؟، وقد قرأتم التوراة وعرفتم ما فيها من الأحكام؛ واعلموا أن الدار الآخرة خير للذين يخافون الله فلا يعصونه، أفلا تعقلون ذلك فتنتهون عن أكل الحرام؟.

[١٧٠] واعلموا أيها الناس أن الذين يتمسكون بكتاب الله فيحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويقيمون الصلاة بالمحافظة علىٰ أوقاتها وأركانها وواجباتها وسننها؛ فهؤلاء لن يضيع الله أجرهم جزاء إصلاحهم وصلاحهم.

۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

[١٧١] واذكر يانبي الله وذكِّر بني إسرائيل يوم أن رفع الله الجبل فوق رؤوس آبائهم فصار فوقهم مثل الظُّلة تظلهم؛ حتىٰ ظنوا أنه واقع عليهم؛ ليريهم سبحانه آية من الآيات التي تدل علىٰ قدرته سبحانه، وعلىٰ صدق موسىٰ عليه السلام، ثم قال جل شأنه آمرًا لهم: اعملوا يا بني إسرائيل بما عُهِدَ إليكم من أحكام التوراة بكل جد واجتهاد، ولا تنسوا ما التزمتم به لعلكم تتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وغضبه.

[١٧٢] واذكر يانبي الله للناس حين أخرج الله ذرية آدم من أصلاب آبائهم، وقررهم بإثبات الربوبية والتوحيد لله؛ فأقروا له بذلك، قال الجمهور: أي: أخذهم من ظهر آدم وأقرهم بلسان الحال والمقال، أما ابن تيمية وابن القيم وغيرهم من السلف فقالوا: أخذهم من ظهور آبائهم وأقرهم بلسان المقال، ثم أخبر سبحانه أنه أقرهم حتىٰ لا ينكروا يوم القيامة ويزعموا أن الحجة لم تقم عليهم؛ وليس عندهم علم بذلك، وأنهم كانوا عن ذلك غافلين لاهين.

والمقصود من أخذ العهد عليهم حتىٰ لا يحتجوا بأن أخذ العهد كان علىٰ آدم فلا يشملهم ولا يلزمهم.

هذه الآية تسمىٰ: آية الميثاق.

قال الشيخ الشعراوي: إن كل شخص أصله جزء حي من أبيه آدم منذ أن نُفخت في آدم الروح، فكل واحد من الأحياء تنقَّل أصله حيًّا في أصلاب آبائه؛ حتىٰ انتقل حيوانًا منويًّا إلىٰ رحم أمه، وهذا هو الذي أُخذ عليه العهد، وهذا هو الذي لم يَجْرِ عليه موت منذ أن أحيا الله آدم.

وقد قرأت فتوىٰ صادرة عن اللجنة الدائمة للإفتاء في السعودية[1]:

يقول السؤال: هل نفهم من نفخ الروح في الجنين بعد أربعة أشهر أن الحيوان المنوي المتحد ببيضة المرأة والذي يتكون الجنين منه لا روح فيه؟، أو ماذا؟

فأجابت اللجنة: لكل من الحيوان المنوي وبويضة المرأة حياةٌ تناسبه إذا سلم من الآفات، وتهيأ كل منهما بإذن الله وتقديره للاتحاد بالآخر، وعند ذلك يتكون الجنين إن شاء الله ذلك، ويكون حيًّا أيضًا حياة تناسبه، حياة النمو والتنقل في الأطوار المعروفة، فإذا نفخ فيه الروح سرت فيه حياة أخرىٰ بإذن الله اللطيف الخبير.

[١٧٣] ثم بين جل وعلا سببًا آخر لإشهاد بني آدم، حتىٰ لا يقولوا: ياربنا نحن ما أشركنا، وإنما آباؤنا هم الذين أشركوا، ونحن ذرية جئنا من بعدهم فقلدناهم وتبعناهم في باطلهم؛ فهل تعذبنا بما فعل آباؤنا وأجدادنا من قبلنا من الأعمال الشركية والكفرية الباطلة؟.

والمقصود من هذا كله أن لا تكون لأحد حجة علىٰ الله.

[١٧٤] واعلموا أيها الناس أن بمثل هذا التفصيل في دلائل قدرة الله ووحدانيته بيَّن جل وعلا آياته ووضح أحكامه ليتدبرها الناس لعلهم يتقون الله فيرجعون عمَّا هم فيه من الشرك والكفر والضلال والمعاصي.

[١٧٥] واقصص يانبي الله علىٰ الناس وعلىٰ اليهود قصة ذلك الرجل من بني إسرائيل؛ الذي آتاه الله علمًا كثيرًا من علم التوراة، ولكنه بسبب إغراءات المال والمنصب كفر بآيات الله وانسلخ منها كانسلاخ الجلد عن الشاة؛ فلما انسلخ من آيات الله تسلط عليه الشيطان حتىٰ صار قرينًا له، وصار من الضالين الراسخين في الضلال الذين يضلون عباد الله.

[١٧٦] ثم أخبر جل وعلا أنه لو شاء لرفع هذا الرجل بهذه الآيات، ولكنه اختار الضلال فمال إلىٰ الدنيا وسكن إليها، واتَّبع هواه، ثم بين سبحانه أن حال هذا الرجل كحال الكلب إن طردته وضربته يلهث، وإن تركته يلهث، وهكذا هذا الرجل إن نهيته عن الذنب لم ينته، وإن تركته لم يهتد، واعلموا أن هذا المثل السيِّء هو مثل كل من جحد آيات الله وكذب بها، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقص علىٰ الناس مثل هذه القصص النافعة التي أوحاها الله إليه؛ لعلها تكون سببًا في تفكرهم واتعاظهم وزجرهم عمَّا هم فيه من الكفر والضلال.

[١٧٧] ثم قال جل وعلا: لقد قبحت أشد القبح صفة أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا وجحدوا بها، وهم بهذا التكذيب وهذا الجحود ظلموا أنفسهم؛ لأنهم عرضوها لعذاب الله الشديد.

[١٧٨] ثم أخبر جل وعلا أن من رغب بالهداية وأحبها هداه الله ووفقه للإيمان، ومن أصرّ علىٰ الغواية والضلال فهو من الخاسرين الهالكين.

واعلموا أن إضلال الله للعبد هو إضلال جزائيٌّ، وليس إضلالًا ابتدائيًّا؛ لأنه لمّا زاغ عن الحق تركه الله وما اختار لنفسه.

---

(١) انظر: مجلة البحوث الإسلامية العدد ٣١ الصادر عام ١٤١١هـ فتوىٰ صادرة من اللجنة الدائمة للإفتاء في السعودية برئاسة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله رقم الفتوىٰ (٢٦١٢).

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

[١٧٩] اللام في قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾، هي لام العاقبة، أو كما قال الدكتور محمد راتب النابلسي: لام المآل، كما قال في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، فاللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾: هي لام العاقبة، وذلك لأنهم التقطوا موسىٰ من البحر لينفعهم أو يتخذوه ولدًا، لكن مآل الأمر وعاقبته هي أن موسىٰ قضىٰ علىٰ ملكهم، وإيضاح ذلك أن الله تعالىٰ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس:٤٤].

وعلىٰ هذا فيكون معنىٰ هذه الآية: أن الله خلق الثقلين الجن والإنس علىٰ الفطرة، وعرض عليهم الأمانة وهي التكاليف الشرعية فاختاروها والتزموا بها، ولما جاء التطبيق والعمل التزم قلة من الإنس والجن بهذه التكاليف، أما الكثرة فلم يلتزموا بها، فكان مصيرهم جهنم وبئس المصير.

ثم بين سبحانه الصفات التي أدت بهم إلىٰ هذا المصير السيِّيء؛ فأخبر أن لهم قلوبًا لا يعقلون بها آيات الله، ولهم أعين لا ينظرون بها ما في هذا الكون من دلائل قدرته، ولهم آذان لا يسمعون بها آيات الله سماع تدبر، والمقصود: أن هذه القوىٰ التي منحها الله لهم لم يستعملوها في الخير، كما قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧].

ثم بين سبحانه أن هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات هم كالبهائم التي لا تفهم ما يقال لها، ولا تعقل بقلوبها؛ بل هم أضل منها؛ ثم وصفهم سبحانه أنهم هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته.

[١٨٠] يخبر جل وعلا أن له الأسماء الحسنىٰ، التي يجب أن ندعوه بها، وأن نثني عليه بها، وأسماء الله نوعان: أسماء إجلال، وأسماء جمال، ثم أمر سبحانه أن نترك الذين يحرفون أسماءه، وأخبر أنه سوف يجازيهم علىٰ أعمالهم القبيحة.

ويدخل في هؤلاء -الذين هددهم الله- المؤولون والمحرفون لأسمائه بغير دليل شرعي.

[١٨١-١٨٢-١٨٣] ثم أثنىٰ جل وعلا علىٰ أمة محمد ﷺ؛ فأخبر أن من بعض الناس الذين خلقهم جماعة متمسكون بشرع الله، ويدعون الناس إليه، ويعدلون بين الناس في أحكامهم. ثم أخبر جل وعلا أن الذين جحدوا آيات الله الواضحة البينة سوف يستدرجهم من حيث لا يعلمون؛ بأن يُوسع لهم في الأرزاق وسبل العيش في الدنيا. ثم أخبر جل وعلا أنه سوف يمهل هؤلاء المجرمين المكذبين فترة من الزمن، حتىٰ يظنوا أنهم لن يعاقبوا، ثم يأخذهم سبحانه بالعذاب الشديد الذي لا يرد.

[١٨٤] ثم أمر جل وعلا هؤلاء الكفار أن يتفكروا بعقولهم: هل هذا الرجل الذي أرسل إليهم -وهو محمد ﷺ- به جنون؟ في حين أنهم يعرفونه حق المعرفة، ويعرفون أنه أكمل الناس عقلًا، ثم بين سبحانه بأن محمدًا ﷺ ما هو إلا نذير لهم ينذرهم من عذاب يوم أليم إن هم استمروا في كفرهم وضلالهم.

[١٨٥] ثم أمر جل وعلا هؤلاء المكذبين أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، وفي ما خلق الله من كل شيء؛ نظر استدلال واعتبار، ليتبين لهم صدق هذا النبي المرسل إليهم، وينظروا كذلك في آجالهم قبل أن يفاجئهم الموت فيهلكوا علىٰ الكفر والضلال، ويصيروا إلىٰ عذاب الله وأليم عقابه؛ فإذا لم يهتدوا بهذا القرآن مع وضوح الآيات والبراهين فبماذا يهتدون؟ فهم أصروا علىٰ الكفر والضلال فثبتهم الله علىٰ ما اختاروا.

[١٨٦] ثم بين جل وعلا أن من لم يوفقه الله للهداية وأصرّ علىٰ الكفر فطبع الله علىٰ قلبه فمن يهديه من بعد الله؟! والجواب: لا أحد؛ بل يتركهم الله في كفرهم وضلالهم متحيرين مترددين في الضلال، ولا شك أن طبع الله علىٰ قلوبهم هو طبع جزائي وليس ابتدائي، أي: أنهم أصروا علىٰ الكفر فثبتهم عليه فإضلال الله لهم هو إضلال جزائي وليس ابتدائي.

[١٨٧] ثم أخبر جل وعلا عن سؤال اليهود للنبي ﷺ عن يوم القيامة، فأمره أن يقول لهم: اعلموا أن علم وقتها عند ربي وحده، لا يظهرها إلا هو، وقد عظم أمرها في السماوات والأرض، ولن تأتي إلا فجأة، واعلم يانبي الله أنهم يسألونك عن هذا السؤال وكأنك مُلِحٌّ في البحث عنها، فقل لهم: إن علمها عند ربي، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله.

قُلْ لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

[١٨٨] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين المكذبين: إن الأمور كلها بيد الله وحده، وإني لا أقدر علىٰ جلب النفع لنفسي، ولا دفع الضر عني، إلا بمشيئة الله تعالىٰ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ودفعت عن نفسي الشرور المصائب، وما أصابني فقر أو مرض أو غيره؛ لأنني سأحترز منه لو علمت، وما أنا إلا نذير للكافرين الضالين من عذاب النار، وبشير للمؤمنين الصادقين بجنة عرضها السماوات والأرض.

[١٨٩-١٩٠] يحكي جل وعلا في هذه الآية قصة الخلق الأول، فأخبر سبحانه أنه هو الذي خلق الناس من نفس واحدة وهو آدم أبو البشر عليه السلام، ثم خلق منها زوجها وهي حواء ليأنس بها ويسكن إليها ولتتوالد منهما البشرية، فلما جامعها حملت حملًا خفيفًا لم تشعر به، ومع استمرار الحمل وَكِبَر بطنها وشعورها به دعوا الله لئن جعله ولدًا صالحًا ليكونن من الشاكرين الله علىٰ ما وهب لهما من الولد؛ فلما رزقهما الله ولدًا صالحًا، وتناسلوا جيلًا بعد جيل؛ جاءوا في عهد نوح عليه السلام وبعده فجعلوا لله شركاء فيما آتاهم؛ بأن سموا الأبناء عبدالحارث وعبدالعزىٰ وعبديغوث، ونحو ذلك مما فعله أهل الشرك والكفر والضلال؛ فتعالىٰ الله سبحانه وتنزه عن شركهم وكفرهم وضلالهم.

والمقصود: أنه في عهد آدم؛ بل القرون الأولىٰ لم يحصل فيها شرك، وإنما حصل ذلك في أحفاد الأحفاد.

[١٩١] ثم أنكر جل وعلا علىٰ هؤلاء الضالين الذين أشركوا بالله وعبدوا معه غيره، من الأصنام والأوثان، فقال سبحانه علىٰ سبيل الإنكار: كيف تعبدون هذه الأصنام التي لا تقدر أن تخلق شيئًا؛ بل هي أصلًا مخلوق من مخلوقات الله.

[١٩٢] ثم بين جل وعلا أن هذه الأصنام والأوثان التي عبدها هؤلاء المشركون لا تستطيع نصر الذين يعبدونها؛ بل لا تستطيع نصر نفسها إذا اعْتُدِيَ عليها.

[١٩٣] ثم بين جل وعلا أيضًا أن هذه الأصنام والأوثان التي عبدها هؤلاء المشركون إذا دعوها إلىٰ الهدىٰ والرشاد فإنها لا تتبعهم؛ سواء دعوها أو لم يدعوها.

[١٩٤] واعلموا أيها المشركون أن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله خَلْقٌ من خلق الله أمثالكم؛ بل أنتم أفضل منهم؛ لأن الله خلق لكم أدوات الفهم والمعرفة، وهي السمع والبصر والفؤاد والعقل، أما هذه الآلهة فهي جمادات لا تعقل ولا تفهم؛ فإذا كنتم مُصِرِّون أنها آلهة حقًّا فادعوهم لكي يستجيبوا لكم إن كنتم صادقين في دعواكم أنها آلهة، ولن يفعلوا.

[١٩٥] ثم سأل جل وعلا علىٰ سبيل الإنكار: هل لهذه الأصنام أرجل يمشون بها فتقضي حاجاتكم؟ أو لهم أيد يدفعون بها الضرّ عنكم؟ أو لهم أعين ينظرون بها فيعرِّفونكم ما خفي عنكم؟ أو لهم آذان يسمعون بها فيخبرونكم بما لم تسمعوه؟، فإذا كانت هذه الجمادات لا تملك هذه الأدوات فلماذا تعبدونها، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: ادعوا أيها الكفار آلهتكم واستعينوا بها علىٰ إيقاع الهلاك والضرر بي، من دون إمهال أو تأخير، واعلموا أنكم لن تستطيعوا الإضرار بي لأن الحافظ هو الله وحده، وهو الإله الحق سبحانه.

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾

[١٩٦] يأمر جل وعلا رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء الضالين: اعلموا أيها الكفار أن وليي الله الذي يتولىٰ أموري، وهو الذي نزَّل عليَّ هذا القرآن العظيم، وإن ولايته ليست خاصة بي؛ بل إن ولايته تعم الصالحين من عباده، بأن يحفظهم ويرحمهم؛ فنعم المولىٰ ونعم النصير.

[١٩٧-١٩٨] واعلموا أيها المشركون أن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ليس لها استطاعة ولا اقتدار علىٰ نصرتكم؛ بل ليس لها قدرة علىٰ نصر ذاتها. والدليل علىٰ ذلك أنكم لو دعوتم هذه الأصنام إلىٰ الهدىٰ والرشاد فإنها لا تستجيب لكم؛ لأنها جمادات، ثم ترون هذه الأصنام تنظر إليكم، وهم لا يبصرون في الحقيقة؛ لأنها صور مجسمة.

[١٩٩] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق فيقول له: تلطف يامحمد في معاملة الناس وتعامل معهم بالعفو والحلم والصفح، وأْمُرْهم بالأفعال الحسنة، وأعرض عن الجاهلين.
مع أنه ﷺ علىٰ خلق عظيم؛ ولكن المقصود: أن يتحلىٰ الدعاة خصوصًا والجميع عمومًا بالأخلاق الفاضلة.

[٢٠٠] يأمر جل وعلا إذا تعرَّض الشيطان لأحد بوسوسة؛ فعليه أن يستجير بالله ويلجأ إليه لكي يبعده عنه، فإن الله سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم، مجيب لمن استجار به.

[٢٠١] ثم بين جل وعلا أن الذين يخافون الله فيعملون بأوامره ويجتنبون نواهيه، إذا مسّتهم الوساوس والشكوك التي يلقيها الشيطان علىٰ نفس المؤمن؛ سواء كانت هذه الشكوك في الله، أو في الرسول ﷺ، أو غير ذلك من الوساوس التي تكدِّر علىٰ الإنسان نفسه، تذكروا ما أوجب الله عليهم من الطاعات والبعد عن المعاصي والمنكرات، ولجأوا إليه سبحانه واستعاذوا به من الشيطان الرجيم؛ فإذا هم مبصرون لخطئهم ومحبطون لكيد الشيطان.

[٢٠٢] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الشياطين يعاونون إخوانهم من الكفار والمشركين من الجن والإنس في الغي والضلال والفساد، ثم لا يدخر هؤلاء الكفار وسعًا في فعل الشر ونشره.

[٢٠٣] ثم أخبر جل وعلا أن الكفار طلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم بآية؛ أي أنهم طلبوا أمورًا تعجيزية، فإذا لم يأتهم بها قالوا له: إنك اخترتها من عند نفسك، فرد عليهم الرسول ﷺ قائلًا: إنه لا يجوز لي أن أختلق شيئًا من تلقاء نفسي؛ إنما أنا متبع لما يوحي إليَّ من عند الله، واعلموا أيها الكفار أن هذا القرآن الذي أتلوه عليكم إنما هو حجج وبراهين من الله، وأنه هدىٰ ورحمة لمن آمن بالله ورسوله.

[٢٠٤] ثم أمر جل وعلا عباده المؤمنين إذا تُلِيَ عليهم القرآن أن يصغوا إليه ويستمعوا له ويتدبروا معانيه، ولعلكم أيها الناس بهذا الاستماع والتدبر تفوزوا برحمة رب العالمين.

[٢٠٥] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يذكر الله في نفسه، وهو متواضع خاشع خائف، لأن الذكر طرد للغفلة وإبعاد للوسوسة؛ لأن النفس إذا لم تشغلها بالخير انشغلت بغير ذلك، ثم أمره سبحانه وتعالىٰ أن يكون صوته في الذكر والدعاء وسطًا، فلا يكون عاليًا يوقظ النائم ويزعج المصلي، ولا يكون منخفضًا بحيث لا يسمع نفسه، وأمره أن يذكر الله في أول النهار وآخره، كما أمره أن لا يكون من الذين يغفلون عن ذكره لانشغالهم في أمور حياتهم الدنيوية.

[٢٠٦] واعلموا أيها الناس أن الذين عند الله من الملائكة المقربين، وحملة العرش وغيرهم؛ يذعنون لأوامر الله ولا يستكبرون عن عبادته، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون عن عبادته، ويسجدون له وحده لا شريك له.

سورة الأنفال

سورة الأنفال مدنيّة وآياتها خمس وسبعون آية. والأنفال جمع: نفل، والنفل: هو الزيادة، ولهذا سميت بعض الصلوات: نفلًا؛ لأنها زيادة علىٰ الفروض، وسميت الغنائم: أنفالًا؛ لأنها منحة من الله للمجاهدين زيادة علىٰ أجورهم عند الله في الجهاد.

[١] بدأت السورة بإخباره سبحانه وتعالىٰ عن سؤال الصحابة للنبي ﷺ؛ حيث سألوه عن تقسيم الغنائم، فأمر سبحانه نبيه أن يقول لهم: اعلموا أن تقسيم الغنائم يرجع إلىٰ الله ورسوله؛ فعليكم أن تتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأن تصلحوا ما بينكم من التشاحن والبغضاء والخلاف، وأن تطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين بالله ورسوله.

ثم جاء الجواب علىٰ سؤالهم عن الأنفال في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنفال:٤١]، أي: أنه جاء بعد عدة آيات قُدِّمت علىٰ الجواب؛ لأنها أهم وأزكىٰ وأولىٰ؛ حيث بدأت بتصفية الإيمان والإخلاص لله، ثم بالسمع والطاعة، ثم بالثبات عند اللقاء، ثم بتقديم الأمر الذي يُعَزُّ به الإسلام وهو قمع شوكة العدو وكسر هيبته؛ فكل هذا مقدم علىٰ رغبة الغنيمة الباردة وهي العير، ومقدم علىٰ المغنم الذي يؤخذ بعد المعارك، وأيضًا: ليُري جل وعلا عباده أن عُدَّةَ العدو وعدده لا تضرهم إذا صدقوا الله في اللقاء بعزيمة المستمد من الله نَصْرَهُ ومُؤازَرَتَهُ لأن النصر من عنده.

[٢] ثم ذكر جل وعلا صفات المؤمنين بالله حقًا؛ فأخبر أن من صفاتهم: إذا ذُكِر الله عندهم وخُوِّفوا به رقَّت قلوبهم، وانقادوا لأمر الله، ومن صفاتهم: إذا قرئت عليهم آيات من القرآن زادتهم تصديقًا ويقينًا بالله، ومن صفاتهم: أنهم علىٰ ربهم يتوكلون وبه يثقون.

[٣] ثم ذكر جل وعلا أن من صفاتهم: أنهم يقيمون الصلاة ويحافظون عليها في أوقاتها، ويؤدون حقوقها وواجباتها وسننها، ومن صفاتهم: أنهم ينفقون مما أعطاهم عز وجل في طاعته وفي ما يرضيه سبحانه.

[٤] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الطيبة هم المؤمنين صدقًا من غير شك، ثم بين سبحانه أن لهم عند الله منازل رفيعة، ومغفرة ورزقًا كريمًا سرمديًّا، وقبل ذلك رضىٰ الله جل وعلا عنهم.

[٥] بدأ جل علا في الحديث عن غزوة بدر، وقال لنبيه ﷺ: اعلم يامحمد أنه كما أخرجك الله من المدينة إلىٰ بدر بالحق الذي أراده الله؛ فاعلم أن هناك فريقًا من المؤمنين - وهم قلة - كرهوا هذا الخروج وهذا القتال بعد أن دعوتهم إليه.



[٦] وبعد أن أخبر جل وعلا أن بعض الصحابة كرهوا الخروج وقتال كفار قريش؛ أخبر أنهم جادلوا النبي ﷺ في أمر القتال بعد أن بين لهم ﷺ أنهم سوف يُنصرون علىٰ أعدائهم، وسبب جدالهم أنهم يعلمون قوة العدو وتوفر عدته، ثم بين سبحانه أن كراهتهم للقتال مثل كراهة من يساق إلىٰ الموت وهم يشاهدونه أمامهم.

[٧] واذكروا أيها المجادلون يوم أن وعدكم الله علىٰ لسان نبيه ﷺ إحدىٰ الطائفتين: إما طائفة العير القادمة من الشام والمحملة بالأرزاق والأموال، وهي عير أبي سفيان والتي كنتم تودون أن تكون لكم؛ وإما الجهاد والنفير في سبيل الله ليعلوا الحق علىٰ الباطل، ويُنْصَرَ الإسلام وأهله بأمر الله لكم بقتال الكفار، وكسر شوكتهم بالقتال والنصر عليهم.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أنه اختار هذا القتال لنبيه ﷺ وصحابته حتىٰ يثبتَ الحقُّ ويزولَ الباطل، ويُعزُّ الله الإسلام وأهله، ويذل الشرك وأهله، ويقضي علىٰ زعمائهم، ولو كره ذلك المجرمون الذين أجرموا في حق الله بالشرك والكفر.

إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ
مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ
وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ
رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ
(١١) إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ
فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ
شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ
عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ
دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ
بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ (١٦)

[٩] واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم يوم أن قام النبي ﷺ ومعه المسلمون يستغيثون ربهم ويستنجدون به ويلحون عليه بالدعاء أن ينصرهم علىٰ عدوهم؛ فما كان منه جل وعلا إلا أن استجاب لهم، وأمدهم بألف من الملائكة متتابعين، أي: يتبع بعضهم بعضًا.

[١٠] ثم بين جل وعلا أنه ما جعل هذا الإمداد لكم بالملائكة إلا لتستبشر به نفوسكم، وتطمئن به قلوبكم، وإلا فإن النصر بيد الله، وليس بكثرة عَددٍ ولا عُددٍ، واعلموا أن الله عزيز لا يُغالب، حكيم يضع الأشياء في مواضعها.

[١١] واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم يوم أن ألقىٰ عليكم النُّعاس لتشعروا بالأمن والسكينة، ويذهب عنكم الخوف والقلق، وينزل عليكم المطر من السماء لتتطهروا به من الأحداث، ويذهب عنكم وساوس الشيطان، ويشد علىٰ قلوبكم بالصبر وعدم الجزع، ويثبت أقدامكم عند القتال بتلبيد الأرض بالمطر؛ حيث كانت الأرض قبل ذلك رملية يصعب المشي عليها.

[١٢] واذكر يانبي الله يوم أن أوحىٰ ربك للملائكة أنه معهم بالتأييد والنصر؛ وأوحىٰ لهم أن يُثَبِّتُوا المؤمنين وَيُشَجِّعُوهُم علىٰ قتال عدوهم، ثم أخبر سبحانه أنه سوف يلقي في قلوب الذين كفروا الخوف الشديد، فعليكم أن تضربوا رقاب الكفار بلا رحمة أو شفقة، وأن تضربوا أصابعهم؛ لأن الأصابع إذا ضُربت لم يستطع حينها حمل السلاح.

[١٣] واعلموا أيها المؤمنون أن ذلك الذي ذكره جل وعلا من أمر المؤمنين بقتال المشركين؛ لأن هؤلاء المشركين حاربوا الله ورسوله ولم يؤمنوا بشرعه جل في علاه، ثم بين سبحانه أن من يعادي الله ورسوله ويخالف شرعه الله سوف ينتقم منه؛ وله عذاب شديد عند الله يوم القيامة.

[١٤] واعلموا أيها المشركون أن هذا العذاب الذي كتبته الله عليكم من القتل والانتقام هو جزاؤكم في الدنيا، وأما في الآخرة فلكم عذاب شديد في جهنم وبئس المصير.

[١٥] ثم أمر جل وعلا الذين آمنوا بالله ورسوله إذا قابلوا الذين جحدوا دين الله أثناء القتال وكانوا قريبين منهم؛ أن لا يفروا من أمامهم؛ بل عليهم أن يثبتوا في ساحات القتال؛ إلا من أراد أن يخدعهم ويلتف عليهم من خلفهم.

[١٦] وبعد أن نهىٰ جل وعلا عن التولي يوم الزحف بين سبحانه أن من يفر من أمام العدو فقد استحق غضب الله؛ لأنه آثر الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، وسوف يكون مسكنه نار جهنم، وبئس هذا المأوىٰ وهذا المصير، ثم استثنىٰ سبحانه من هذا الغضب من كان يريد الهرب ليخدعهم، أو أنه أعد لهم كمينًا، أو أمرًا لصالح نجاح المعركة، أو يريد الانضمام لجماعة أخرىٰ من المسلمين.

[١٧] ولما انهزم المشركون يوم بدر وَقَتَلَهُم المسلمون شرَّ قِتْلَة، أخبر سبحانه أنهم لم يقتلوهم بحولهم وقوتهم، ولكن الله أعانهم وقوَّاهم علىٰ ذلك؛ حيث ثبت عن النبي ﷺ أنه دخل عريشًا ورفع يديه ودعا طويلًا، ومن ذلك أنه قال: «**اللهم إن تُهْلِكَ هذه العصابةَ، فلن تُعبد في الأرض**»[1]، ثم ألهمه الله أن يأخذ حفنة من تراب فيرميها علىٰ صفوف المشركين المقاتلين المواجهين للمسلمين في بدر؛ فجعل سبحانه هذه القبضة تعم كل المشركين فما من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فأشغلته عن حاله، فما كان منهم إلا أن ولَّوا مدبرين.

واعلم يانبي الله أنك ما رميت حين رميت قبضة التراب في وجوههم، ولكن الله هو الذي رمىٰ؛ حيث إنه بقدرته أوصلها لكل وجوه المشركين، ثم اعلموا أن هذا القتال الذي كتبه الله عليكم هو لاختباركم أيها المؤمنون، وليرفعكم بهذا الجهاد إلىٰ أعلىٰ الدرجات، إن الله سميع لأقوالكم، عليم بأحوالكم.

[١٨] واعلموا أيها المؤمنون أن هذا النصر الذي كتبه الله لكم يوم بدر، وهذه الهزيمة التي مني بها المشركون، هو منحة من الله لكم، وإنه سبحانه سوف يخذل مكر الكافرين وكيدهم للإسلام وأهله في مستقبل الأيام حتىٰ يذلوا وينقادوا لدين الله، أو يهلكوا وتكون عاقبتهم في الآخرة العذاب الأليم.

[١٩] لما أُخْبَرَ أبو جهل بنجاة العير وطُلب منه الرجوع إلىٰ مكة أقسم أن لا يرجع إلا بعد أن يُهزم المسلمون وينصره الله عليهم؛ حتىٰ تهابهم العرب، ولهذا خاطب جل وعلا المشركين علىٰ سبيل السخرية فقال: إذا كنتم أيها الكفار تطلبون من الله النصر علىٰ محمد وصحبه، فقد استجاب الله دعاءكم وفتح عليكم بأن نصر المسلمين في بدر، أما أنتم فقد جاءكم الفتح بهلاك رؤسائكم كأبي جهل ومن كان معه من صناديد قريش، ثم قال سبحانه: وإن تتوقفوا أيها الكفار عن الكفر بالله ورسوله والعداء لأولياء الله المؤمنين فهو خير لكم في الدنيا والآخرة، وإن أردتم أن تعودوا للحرب وقتال النبي ﷺ وصحبه، فسوف نعود لهزيمتكم، ولن تغني عنكم جماعتكم شيئًا مهما كثرت، واعلموا أن الله يؤيد الذين آمنوا به وبرسوله وينصرهم علىٰ أعدائهم الكفار.

[٢٠] ياأيها الذين آمنوا بالله وبرسوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﷺ واستمروا علىٰ هذه الطاعة، ولا تُعْرِضُوا عنه وأنتم تسمعون وتعون ما يقول.

[٢١] ثم أمر سبحانه المؤمنين أن لا يكونوا كالمنافقين الذين إذا سمعوا كتاب الله يُتلىٰ عليهم قالوا: سمعنا، وهم في الحقيقة ما سمعوا سماع إجابة ولا إذعان له؛ بل عصوا ونافقوا.

[٢٢-٢٣] واعلموا أيها المؤمنون أن شر من دب علىٰ وجه الأرض أولئك الكفار الذين صموا آذانهم عن سماع الحق،

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

١٧٩

وأخرسوا ألسنتهم عن النطق به، الذين لا يعقلون عن الله ما ينفعهم ويقدمونه علىٰ ما يضرهم. ثم أخبر سبحانه علىٰ سبيل الفرض والتقدير لو أنه علم في هؤلاء الكفار خيرًا وصلاحًا لأسمعهم مواعظ القرآن، ولكنه جل وعلا علم أنه لا خير فيهم، ولو فرض أن الله أسمعهم لتولوا عنه وهم معرضون عن قبوله كفرًا وجحودًا.

[٢٤] يأمر جل وعلا عباده المؤمنين بالاستجابة لله وللرسول ﷺ؛ فإن فيها حياة القلب والروح، واعلموا أيها الناس أن الله يحول بين المرء وقلبه، يُقَلِّبُ القلوب حيث شاء، ويصرفها أنَّىٰ شاء، يعني: أن الأمر كله بيد الله وهو سبحانه الهادي إلىٰ سواء السبيل، ثم أخبر سبحانه أنه إليه وحده يجمع جميع الخلق يوم القيامة ذلك اليوم الذي لا ريب فيه؛ فيجازي كلًّا بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه.

[٢٥] ثم أمر جل وعلا عباده المؤمنين أن يخافوا عذابه وانتقامه الذي إذا وقع، فإنه لن يخص الظالمين فقط؛ بل سوف يعم الهلاك الجميع الصالح والطالح، ويوم القيامة كل يجازىٰ بعمله؛ فالظالم يهلك بظلمه وعصيانه، والذي لم يَظْلِمَ يهلك لعدم منعه الظالم من الظلم، واعلموا أيها الناس أن الله شديد العقاب لمن تعرض لمساخطه وانتهك محارمه، وجانب رضاه وتقواه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا
اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ
وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ
أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ
فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

[٢٦] ذكر جل وعلا فضله علىٰ المؤمنين حينما كانوا مستضعفين في أرض مكة يخافون أن يأخذهم كفار وقريش وغيرهم من الأعداء بسرعة بسبب ضعفهم وقوة أعدائهم، فآواهم الله بأن هيأ لهم مأوىٰ وهو المدينة، وألف بين قلوبهم، وقواهم بالنصر علىٰ الكفار في غزوة بدر، ورزقهم من الطيبات ومنها الغنائم التي غنموها في حروبهم، لعلهم يشكرون الله علىٰ هذه النعم.

[٢٧] ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول بترك ما أُمرتم به، وفعل ما نُهيتم عنه، وكذلك لا تخونوا الله والرسول بموالاة أعداء الله من المشركين واليهود والنصارىٰ، وأيضًا لا تخونوا الأمانات التي تكون بينكم وقد ائتمنكم الناس عليها، وأنتم تعلمون أنها خيانة محرمة وعاقبتها وخيمه.

[٢٨] واعلموا أيها المؤمنون أنما أموالكم وأولادكم فتنه، أي: اختبار وامتحان لكم، ومعلوم أن الاختبار لا يحمد ولا يذم، وإنما يترتب الحمد أو الذم علىٰ نتيجة الامتحان، واعلموا أن الله عنده خير كثير وثواب عظيم لمن خافه واتقاه وعمل بأوامره واجتنب نواهيه.

[٢٩] ياأيها الذين آمنوا بالله ورسوله إن تخافوا الله وتلتزموا أمره يجعل لكم النصر والفصل بين الحق والباطل، ويكفر عنكم السيئات ويغفر لكم الذنوب والخطيئات، واعلموا أن الله ذو فضل عظيم يتفضل به عليكم في الدنيا بأن ينير بصائركم، وفي الآخرة بجنة عرضها كعرض السماوات والأرض.

[٣٠] واذكر يانبي الله فضل الله عليك لمّا كان الكفار يكيدون لك ويتآمرون علىٰ سجنك أو قتلك أو نفيك، ويحتالون بكل الطرق للتآمر عليك في جنح الظلام، ولكنَّ الله أبطل كيدهم ورده في نحورهم جزاء لهم؛ واعلم أن الله جل في علاه خير من يقدر علىٰ رد كيد ومكر المجرمين الظالمين، ومعلوم أن المكر لا يطلق علىٰ الله إلا مقيدًا بأنه خير الماكرين.

[٣١] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الكفار إذا تتلىٰ عليهم آيات القرآن قالوا علىٰ سبيل التكبر والعناد: قد سمعنا ما تقوله يامحمد بآذاننا وفهمنا ما تقول، ولو شئنا لقلنا مثل هذا الكلام، واعلم أن هذا الكلام الذي تتلوه علينا يامحمد ما هو إلا قصص وخرافات سطرها الأولون، وهذا الكلام يقولونه ليضلوا به سفهاءهم، وهو كذب وافتراء؛ لأن الله تحداهم أن يأتوا بمثله فلم يفعلوا؛ بل تحداهم سبحانه بأقل من ذلك بأن يأتوا بسورة من مثله فلم يفعلوا؛ ثم تحداهم بأقل من ذلك بأن يأتوا بآية من مثله فلم يفعلوا، ولذا كان القرآن هو معجزة نبينا محمد ﷺ الخالدة.

[٣٢] واذكر يانبي الله يوم أن دعا كفار مكة الله سبحانه وتعالىٰ، فقالوا علىٰ سبيل السخرية والتهكم: اللهم إن كان هذا الذي يتلوه علينا محمد هو حقًّا من عندك فأنزل علينا حجارة من السماء تهلكنا، أو ائتنا بعذاب مؤلم فظيع.

وهذا الدعاء بهذه الصفة حمق وسفاهة منهم، وهو يعبر عن شدة عداوتهم، وإلا لو كانوا عقلاء ومنصفين لقالوا: اللهم إن كان هذا الذي يتلوه علينا محمد هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

[٣٣] ثم بين جل وعلا سبب إمهاله لهؤلاء المشركين وعدم إجابة دعائهم عندما قالوا: ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ حيث أخبر أنه لم يعذبهم عذابًا يستأصل شأفتهم لأن النبي ﷺ كان بين أظهرهم، ولذ كان وجوده ﷺ بينهم أَمَنَةً لهم من العذاب الشامل والاستئصال الكلي، وهذا إكرام له ﷺ، ثم أخبر سبحانه عن سبب آخر لإمهال الله لهم وعدم تعذيبهم واستئصالهم، وهو استغفار المسلمين الذين كانوا بين أظهرهم بعد أن هاجر النبي ﷺ للمدينة، ولما خرج المسلمون وهاجروا إلىٰ المدينة عذب الله هؤلاء المشركين في غزوة بدر وغيرها من الغزوات.

[٣٤] وبعد خروجك يانبي الله وخروج المؤمنين من مكة لماذا لا يعذب الله هؤلاء المشركين الذين استحقوا العذاب؟!؛ فقد كانوا يمنعون المؤمنين من الدخول في الإسلام، وكانوا يمنعونهم من حجِّ بيت الله الحرام، ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين ليسوا أهلًا لأن يكونوا أولياء بيت الله الحرام، وليسوا أهلًا لأن يكونوا أولياء لله تعالىٰ، بسبب كفرهم وضلالهم، وإنما الذي يستحق هذه الولاية هم المتقون الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، ولكن أكثر هؤلاء الكفار لا يعلمون الحق بسبب جهلهم وضلالهم وكفرهم.

[٣٥] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين ما كانت عبادتهم ودعاؤهم وهم يطوفون حول الكعبة المشرفة إلا صفيرًا وتصفيقًا، وبسبب ذلك فذوقوا أيها المشركون العذاب في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار، بسبب جحودكم وكفركم بالله ومحاربتكم لأوليائه.

[٣٦] يخبر جل وعلا أن الذين كذَّبوا بآيات الله ورسوله ينفقون أموالهم لمحاربة الله ودينه، وذلك بمنع الناس عن الإيمان بالله ورسوله؛ فسوف ينفقونها ثم تكون عليهم ندامة شديدة ثم يهزمهم المؤمنون، واعلموا أن الذين جحدوا دين الله سوف يجمعهم الله في جهنم وبئس المصير.

[٣٧] واعلموا أن هؤلاء الذين جحدوا دين الله، وأنفقوا أموالهم لمنع الناس من الإيمان بالله ورسوله، سوف يحشرهم الله ويخزيهم يوم القيامة؛ ليميز تعالىٰ الخبيث من الطيب، ويجعل الخبيث بعضه فوق بعض متراكمًا، ثم يجعله في نار جهنم، وهؤلاء الكفار الذين عاشوا كفارًا وماتوا كفارًا هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

[٣٨] وقل يانبي الله لهؤلاء الذين جحدوا دين الله: إن انتهيتم عن الشرك والكفر بالله وآمنتم بالله ورسوله ﷺ؛ فإن الله سوف يغفر لكم ما سبق من أعمالكم السيئة، أما إذا اسْتَمْرَرْتُم علىٰ كفركم وضلالكم ومحاربتكم لدين الله؛ فاعلموا أن سنه الله معروفة في أعدائه وهي نزول العذاب بهم.

وهذا تلطف وكرم منه سبحانه؛ حيث فتح بابه للتائبين مهما كبرت جرائمهم.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

[٣٩] ثم أمر جل وعلا عباده المؤمنين أن يقاتلوا المشركين الضالين إذا استمروا في كفرهم وعدوانهم ومحاربتهم لدين الله، حتىٰ لا يعلوا الكفر وأهله، ويكون دين الله هو العالي والسائد، وله الأمر والنهي؛ ثم بين سبحانه إذا انتهىٰ المشركون عن الشرك والكفر فإن الله بما يعملون بصير لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

[٤٠] ثم أخبر جل وعلا أنه إن أعرض هؤلاء المشركون عن الإيمان بالله ورسوله؛ واستمروا في كفرهم وضلالهم، ومحاربتهم لدين الله؛ فاعلموا أيها المؤمنون أن الله متولي أموركم، وهو سبحانه نعم المولىٰ، ونعم الناصر والمعين والحفيظ لكم.

۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾

[٤١] يخبر جل وعلا عن جواب السؤال الذي جاء في أول السورة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِ﴾؛ فيقول سبحانه: واعلموا أيها المؤمنون أن أموال الغنيمة التي حصلتم عليها من عدوكم بجهادكم في سبيل الله، فإنها تقسم إلىٰ خمسة أخماس: أربعة أخماس للمجاهدين الذين حضروا المعركة، أما الخمس الباقي فإنه يجزأ إلىٰ خمسة أقسام:

الأول: لله وللرسول ﷺ فيُجعل في مصالح المسلمين.

والثاني: لذوي قرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب؛ حيث جعل لهم قسم من الخمس بدلًا من الزكاة، لأنها لا تحل لهم.

والثالث: للأيتام وهم الذين مات آباؤهم دون سن البلوغ.

والرابع: للمساكين الذين لا يملكون ما يسد حاجتهم.

والخامس: للمسافر الذي انقطعت به النفقة.

ولا يقوم بهذه القسمة إلا من آمن بالله وصدَّق بما أُنزل علىٰ محمد ﷺ من الآيات والمدد والنصر في اليوم الذي فرَّق الله به بين الحق والباطل وهو يوم بدر؛ حيث الْتَقَىٰ فيه جمع المؤمنين وجمع المشركين، واعملوا أن الله علىٰ كل شيء قدير؛ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٤٢] وتذكروا أيها المؤمنون يوم أن نزلتم بجانب الوادي الأقرب للمدينة ونزل الكفار في الجانب الأبعد من المدينة، والعير التي خرجتم لطلبها أسفل منكم مما يلي ساحل البحر، ولو تواعدتم أنتم وإياهم علىٰ موعد محدد لاختلفتم في الميعاد، ولكن الله جمعكم علىٰ هذه الحال ليقضي أمرًا كان مقدورًا؛ ليهلك من هلك علىٰ بصيرة وعلم أنه باطل، ويحيا المؤمنون عن حجة بينة وهي نصر الله، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم.

[٤٣] وتذكر يانبي الله يوم أن أراك الله في منامك قلة عدد جيش المشركين؛ فلما أخبرت المؤمنين اطمأنوا وقويت عزائمهم، ولو أراك الله أن عددهم كثير وأخبرت المؤمنين بذلك لجبُنوا واختلفوا في أمر قتالهم، ولكن الله سلم بما أراك في منامك، فإنه سبحانه عليم بمكنونات القلوب وما خفي فيها.

[٤٤] وتذكروا أيها المؤمنون يوم أن قلل الله أعداءكم في أعينكم لتزول هيبتهم من نفوسكم، وتقوىٰ عزائمكم؛ فتنهالوا عليهم بالنبال والسيوف، وقلل سبحانه المسلمين في نفوس الكفار ليأخذهم الغرور فيغتروا ويستهينوا بخصمهم، فأدار الله المعركة لصالح المؤمنين، وتم بحمد الله نصرهم علىٰ عدوهم، واعلم أن هذا الذي حدث لكي يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وهو تحقيق وعد الله للمؤمنين بالنصر والتمكين، واعلموا أيها الناس أن لله وحده ترجع جميع الأمور؛ فيجازي كلًّا بما يستحق، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عند تفسير هذه الآية عندما كان يُدرسنا في كلية الشريعة، وذلك قرابة عام ١٣٧٤هـ، قال: من أراد أن يعرف سر القدر فليقرأ هذه الآيات، أي: من الآية ٤٢ إلىٰ الآية ٤٤، ولم أجد هذا الكلام في تفسيره المعروف بـ (أضواء البيان).

[٤٥] وهذا نداء وأمر من الله جل وعلا لعباده المؤمنين المجاهدين؛ إذا التقوا مع جماعة من الكفار لمحاربتهم فعليهم أن يثبتوا ولا يجبُنوا، وأن يكثروا من ذكر الله تعالىٰ؛ لكي يفوزوا برضىٰ الله وجنته ونصره.

[٤٦] ثم أمر جل وعلا المؤمنين بطاعة أمر الله وأمر رسوله ﷺ، وأن لا يختلفوا فيما بينهم فيضعُفوا ويجبُنوا وتذهب قوتهم، وأن يصبروا عند لقاء عدوهم وتحمل المشاق والمكاره؛ فإن الله مع الصابرين يؤيدهم بعونه ويقويهم بتأييده، ولن يخذل سبحانه عباده المؤمنين المجاهدين.

[٤٧] ثم حذر جل وعلا المؤمنين أن يكونوا كالمشركين الذين خرجوا من مكة إلىٰ بدر بكبرياء وتفاخر وعتوٍّ وتجبر ورياء، ليمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، والله عالم بكل أفعالهم ومطلع عليها وسيجازيهم عليها.

والمتتبع للآيات الثلاث السابقة يجد أن الله علق الفوز والنجاح علىٰ عدة أمور:

أولًا: الاستمرار علىٰ ذكر الله تعالىٰ كثيرًا والتماس نصره.

ثانيًا: الثبات في المعركة، وهو الصبر والمصابرة.

ثالثًا: طاعة الله تعالىٰ في كل ما أمر.

رابعًا: امتثال أمر الرسول ﷺ في جميع الأحوال.

خامسًا: عدم التنازع والاختلاف.

سادسًا: عدم البغي والبطر.

[٤٨] وتذكر يانبي الله حين زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم؛ وحثهم علىٰ قتال المسلمين؛ حيث أتاهم في صورة سراقة بن مالك سيد كنانة، وقال لهم: لن تغلبوا اليوم من المسلمين، وإني بجانبكم، ولن أترككم؛ فلما التقىٰ الجيشان المسلمون والكافرون، ورأىٰ الشيطان أن الملائكة تقاتل مع المسلمين رجع علىٰ عقبيه؛ فقالوا له: أتخذلنا علىٰ هذه الحال؛ فرد عليهم قائلًا: إني بريء من جواركم، إني أرىٰ ما لا ترون، إني أخاف أن يهلكني الله، إن الله شديد العذاب.

[٤٩] وتذكروا أيها المؤمنون حين قال المنافقون وأصحاب القلوب المريضة: لقد اغتر هؤلاء المؤمنون بدينهم وظنوا أنهم سوف ينتصرون، وهذا الكلام صدر من رأس المنافقين، ومعه جماعة من المنافقين وضعيفي الإيمان، وذلك لما علموا عِدَّة الكفار وعددهم فهالهم ذلك، وقالوا - واصفين الرسول ﷺ والمؤمنين-: إنَّ تمسكهم بهذا الدين هو الذي غرَّهم وحملهم علىٰ القتال، فأجاب الله عن رسوله ﷺ وعن المؤمنين فقال: اعلموا أن من يتوكل علىٰ الله ويعتمد عليه ويفوض أمره إليه فإنه سوف يكون قويًّا لا يذل أبدًا؛ وأن الله مؤيده وناصره؛ لأن الله عزيز لا يغلبه أحد، حكيم يضع الأمور في مواضعها المناسبة، ويفعل بحكمته ما تستبعده العقول؛ فالحمد لله الذي أعزَّ عباده المؤمنين، وكَبَتَ الكفار والمنافقين.

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾

[٥٠] يخبر جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: لو عاينت يا نبي الله حال الكافرين الذين قتلوا ببدر حين تأخذ الملائكة أرواحهم، وهم يضربون وجوههم وظهورهم، ويقولون لهم: ذوقوا أيها الكفار عذاب الدنيا الأليم؛ لرأيت أمرًا عظيمًا لا يمكن أن يطاق من شده هوله وفظاعته.

[٥١] واعلموا أيها الكفار أن هذا العذاب الذي جاءكم بسبب ما قدمته أيديكم من الكفر والجحود والذنوب والمعاصي التي ارتكبتموها، وإنه جل وعلا ليس بظلام لأحد من خلقه، ولعذاب الآخرة أشد وأنكىٰ.

[٥٢] واعلموا أيها الكفار أن ما نزل بكم من العقاب هو سنة الله في المجرمين من الأمم السابقة؛ كأمثال فرعون ومن قبله من الأمم الذين كفورا وجحدوا آيات الله وعاندوا الرسل؛ فأهلكهم الله في الدنيا بسبب ذنوبهم، إن الله قوي البطش شديد العقاب، وإن أخذه أليم شديد في الدنيا والآخرة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

[٥٣] واعلموا أيها الناس أن ذلك العذاب والعقاب الذي حل بهؤلاء المشركين؛ هو من عدله سبحانه فيهم؛ حيث اقتضت حكمة الله أن لا يغير نعمة أنعم بها علىٰ قوم كالأمن والرخاء والخيرات؛ حتىٰ يغيروا هم ما بأنفسهم بأن يكفروا ويظلموا ويرتكبوا الذنوب والمعاصي، وعندئذ يغير الله تلك النعم بنقم لعلهم يهتدون ويؤمنون بالله ورسوله، وإذا لم يهتدوا فسوف يحل بهم عذاب الله الشديد، إن الله سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم.

[٥٤] واعلم يانبي الله أن هؤلاء الكافرين الذين يحاربونك مثلهم كمثل آل فرعون الذين كذبوا بموسىٰ عليه السلام، وكمثل الذين كذبوا رسلهم من الأمم السابقة فأهلكهم الله جميعًا بسبب كفرهم وجحودهم وذنوبهم، وأغرق آل فرعون في البحر، وكل هذه الأمم التي كذبت رسلها كانوا ظالمين لأنفسهم بمخالفتهم أمر الله وأمر رسوله ﷺ.

[٥٥] يخبر جل وعلا أن أشرَّ من دب علىٰ الأرض عند الله هم الكفار، الذين كفروا بالله ورسوله واستمروا علىٰ كفرهم وضلالهم.

والدواب: هي كل ما يدب علىٰ الأرض من مكلفين وغير مكلفين، كالبهائم وغيرها؛ فجعل سبحانه وتعالىٰ كل الكفار والمنافقين وجميع الضلال من أصحاب الفرق الضالة أشر هذه الدواب؛ لأن الدواب الغير مكلفة تسبح الله ليلًا ونهارًا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

ثم بين سبحانه أنه جزاءً لهم علىٰ عنادهم وإصراهم علىٰ الكفر والضلال، فإنه لا يمكن لهم أن يؤمنوا بالله وبرسوله أبدًا.

[٥٦] ثم ذكر جل وعلا أن من أولئك الأشرار يهود بني قريظة الذين عَقَدْتَ معهم يامحمد العهود والمواثيق بأن لا يحاربوك ولا يظاهروا عليك أحدًا، ولكنهم كانوا ينقضون العهود المرة تلو المرة، لأنهم لا يخافون الله، ولا يخافون عذابه.

[٥٧] ثم بين جل وعلا ما يجب علىٰ النبي ﷺ وعلىٰ المؤمنين فعله حول الذين ينقضون عهودهم، فقال سبحانه: فإذا ظفرت بعدوك وأحطت به فاجعله عبرة لغيره حتىٰ يُصاب أمثالهم بالرعب والرهب ويكفوا عن نقض العهود، ولعلهم يتعظون.

[٥٨] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ -إذا أحسَّ أو ألَمَّ بنفسه ما يتوقع غدرًا ونقضًا للعهد الذي بينه وبينهم-؛ أن يخبرهم أنه لا عهود بينه وبينهم حتىٰ يتساوىٰ الطرفان هو وهم بأنه لا عهد بين الطرفين ليأخذ كل فريق حذره، والمبرر لذلك: أن الله لا يحب من يخون الأمانة وينقض العهود.

[٥٩] ثم سلىٰ جل وعلا نبيه ﷺ فقال له: ولا يظن هؤلاء الكفار الذين نجوا من القتل يوم بدر أنهم قد أفلتوا من عقابنا وعذابنا؛ فليعلموا أنهم لن يعجزوننا في إدراكهم، ولكن لهم وقت معلوم سيأتي في الوقت المناسب.

[٦٠] ثم أمر جل وعلا المؤمنين بالاستعداد بالقوة التي تشتملُ السلاحَ والخيلَ لإرهاب أعداء الله وأعداء الإسلام الذين ظهرت عداوتهم، وأيضًا لإرهاب أعدائهم الآخرين من المنافقين وغيرهم الذين لم تظهر عداوتهم، لكن الله يَعْلَمُهُم ويَعْلَم مكرهم وكيدهم للإسلام وأهله، فإنَّ مَدَدَ الله يأتي بعد بذل الجهد والصدق في اللقاء ومواجهة الأعداء، واعلموا أن كل ما تبذلونه أيها المؤمنون في سبيل الله من المال والجهد قليلًا كان أو كثيرًا؛ فإنه محفوظ لكم عنده سبحانه، وسوف يدخر لكم ثوابه في الآخرة، وأنتم لا تنقصون من ثوابه شيئًا.

[٦١] ثم بين جل وعلا لنبيه ﷺ إذا مال هؤلاء الكفار إلىٰ الصلح وعدم الحرب فمل معهم للصلح، وعاهدهم علىٰ ذلك إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين، وفوض أمرك إلىٰ الله وثق به، إنه سبحانه سميع لأقوالكم عليم بأفعالكم.

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾

[٦٢] ثم بين جل وعلا لنبيه ﷺ إذا أراد هؤلاء الكفار بهذا الصلح أن يخدعوك لكي يعدُّوا العدة لحربك؛ فاعلم أن الله سوف يكفيك كيدهم، ويحفظك من مكرهم، فهو الذي أعانك ونصرك من قبل يوم أن كنت ضعيفًا، وقواك وشد أزرك بالأنصار.

[٦٣] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الأنصار الذين شد أزرك بهم جمع الله قلوبهم علىٰ المحبة بعد أن كانوا متفرقين ومتنافرين، واعلم يامحمد لو أنفقت جميع ما في الأرض من الأموال حتىٰ تجمع بينهم لما استطعت إلىٰ ذلك سبيلًا، ولكن الله هو الذي جمع بين قلوبهم، إنه تعالىٰ عزيز قوي لا يغالبه أحد، وحكيم في تدبير شئون عباده.

[٦٤] هذا وعدٌ من الله جل وعلا لنبيه ﷺ أن الله وحده كافيك وكافي أتباعك من المؤمنين، ومن كان الله معه فإنه لا يحتاج لأحد من المخلوقين.

[٦٥] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يحرض المؤمنين علىٰ القتال، لكي يفوزوا بإحدىٰ الحسنيين: إما النصر أو الشهادة، واعلموا أيها المؤمنون أنكم إذا كان منكم عشرون صابرون عند القتال فإنهم يغلبوا مائتين من الكفار، وإذا كان منكم مائة صابرة فإنهم يغلبوا ألفًا من الكفار؛ لأنهم قوم لا يفهمون ولا يعلمون ما يجب عليهم من حق الله.

[٦٦] ثم ذكر جل وعلا فضله علىٰ المؤمنين المجاهدين؛ فبين أنه يسّر عليهم الأمر؛ لأنه علم أن فيهم ضعفاء لا يقوون علىٰ قتال هذا الجمع الكبير، فإذا كان منكم أيها المؤمنون مائة فإنهم يغلبوا مائتين من الكفار، وإذا كان منكم ألفٌ فإنهم يغلبوا ألفين، كل ذلك بأمر الله وإرادته، واعلموا أن الله مع الصابرين بنصره وعونه وتأييده.

[٦٧] عاتب جل وعلا نبيه ﷺ والمؤمنين علىٰ أخذ الفداء من الأسرىٰ، وبين أن الأسر وأخذ الفداء لا يكون إلا بعد أن يبالغ في الجهاد وينتصر، وتقوىٰ شوكة المسلمين، ويكسبوا أكثر من موقع، وتهابهم الدول وتحترمهم؛ فحينئذ تتفضل علىٰ الأسرىٰ بالعفو أو أخذ الفداء.

ثم قال سبحانه: هل تريدون أيها المؤمنون بأخذكم الفداء من الأسرىٰ متاع الدنيا الزائل؟!، والله يريد لكم العزة والغلبة، واعلموا أن الله عزيز في ملكه كامل العزة، حكيم يبتلي بعض عباده ببعض.

[٦٨] واعلموا أيها الناس أنه لولا حكم من الله سبق به القضاء والقدر بالإذن لهذه الأمة لأخذ الغنائم والفداء؛ وأنه لا يعذب المخطئ المجتهد؛ لأصابكم عذاب عظيم؛ بسبب ما أخذتم من الغنيمة والفداء قبل أن ينزل بشأنها تشريع من الله؛ لأن الغنائم كانت في الأمم السابقة تُحرق.

[٦٩] وبعد أن عفا جل وعلا عن المؤمنين فيما وقعوا فيه من أخذ الفداء من الأسرىٰ؛ أباح لهم سبحانه الأكل من الغنائم وفداء الأسرىٰ التي حصلوا عليها؛ وأمرهم أن يأكلوها حلالًا طيبًا من عنده سبحانه، ثم أمرهم أن يخافوا الله تعالىٰ ويجتنبوا معاصيه، إنه جل في علاه غفور لمن تاب وأناب، رحيم بعباده المؤمنين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥

[٧٠] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لمن في ملكه من الأسرىٰ الذين دفعوا لكم الفدية ثم أُطلق سراحهم: لا تحزنوا علىٰ ما أخذ منكم من الفداء، فإنْ علم الله أنَّ في قلوبكم إيمانًا بالله، وإخلاصًا له وللمؤمنين فسيعوضكم في الدنيا خيرًا مما أُخذ منكم من الفداء، ويغفر لكم ما تقدم من ذنوبكم، إنه سبحانه غفور لعباده الذين تابوا رحيم بهم.

[٧١] ثم حذَّر جل وعلا هؤلاء الأسرىٰ إذا أرادوا خيانة النبي ﷺ بعد أن فك أسرهم وأظهروا الإسلام، فاعلم يانبي الله أنهم قد خانوا الله من قبل، وحاربوك؛ فأمكنك الله من النصر عليهم يوم بدر، والله عليم بما تكنه صدورهم، حكيم في تدبير شئون عباده.

[٧٢] يخبر جل وعلا أن الذين آمنوا بالله ورسوله وهاجروا إلىٰ بلد الإسلام، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وهم الصحابة رضي الله عنهم الذين هاجر بعضهم إلىٰ المدينة مع رسول الله ﷺ، وبعضهم هاجر قبله ﷺ، والذين أووا المهاجرين ونصروهم وهم أهل المدينة الأوس والخزرج؛ حيث استقبلوا الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وواسوهم في سكنهم، وآخوهم وناصروهم وجاهدوا معهم؛ فهؤلاء بعضهم نصراء بعض في المحبة والنصرة والجهاد والمؤاخاة، وقد أخبر سبحانه أن هؤلاء الذين هاجروا وجاهدوا والذين أووا ونصروا هم المؤمنون حقًّا كما قال تعالىٰ في الآية التالية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾، أما الذين آمنوا لكنهم بقوا في دار الكفر ولم يهاجروا فلستم مكلفين بحمايتهم ونصرتهم حتىٰ يهاجروا، لكن إذا طلبوا منكم النصرة بعد أن وقع عليهم ظلم من الكفار؛ فيجب عليكم نصرتهم، لكن إذا كان بين المسلمين والكفار عهد فلا يجوز لكم أن تخونوا العهد، والله بصير بأعمالكم وسيجازيكم عليها، وسوف ينصر المستضعفين إذا شاء.

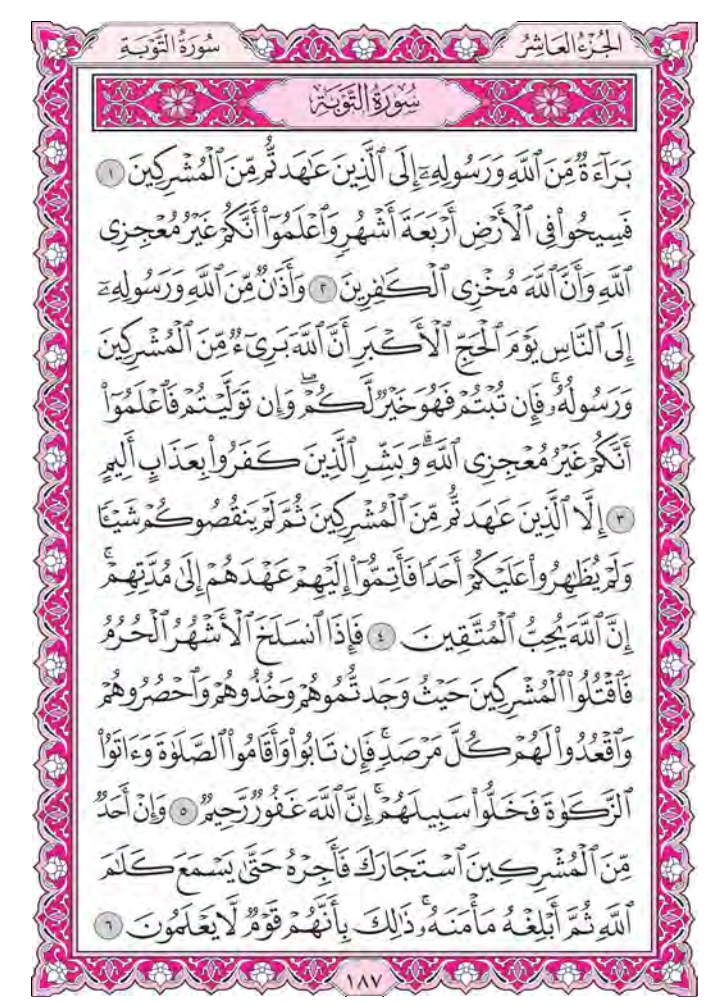
[٧٣] ثم أخبر جل وعلا أن الذين كفروا بالله ورسوله بعضهم نصراء بعض، أما المؤمنون فقد حذرهم سبحانه إذا لم ينصر بعضهم بعضًا فسوف تحصل في الأرض فتنة عظيمة، وفساد كبير، وذلك بصد المؤمنين عن دين الله، وتقوية الكفر وأهله.

[٧٤] ثم ختم جل وعلا السورة بذكر مآثر صنفين من المهاجرين والأنصار؛ فأخبر سبحانه أن الذين آمنوا بالله ورسوله وهاجروا من بلاد الكفر إلىٰ بلاد الإسلام، تاركين ديارهم وأموالهم، وجاهدوا في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، والذين أووهم ونصروهم وواسوهم بالمال والتأييد؛ هؤلاء هم المؤمنون الصادقون حقًّا في الدين ونصرة الإسلام، وأخبر سبحانه أن هؤلاء الذين سبق ذكرهم لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق واسع كريم في الدنيا والآخرة.

[٧٥] ثم ذكر جل وعلا الصنف الثالث وهم: الذين آمنوا بالله ورسوله من بعد أولئك المهاجرين والأنصار، ثم هاجروا وجاهدوا معكم في سبيل الله؛ فهؤلاء منكم أيها المؤمنون في الإخاء والنصرة والموالاة، ثم بين سبحانه أن أولوا الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض في التوارث في حكم الله، إن الله بكل شيء عليم، يعلم ما يصلح العباد وما ينفعهم.

وأولو الأرحام عند الفرضيين هم أقرباء الرجل من جهة أمه، وعند العموم هم أقرباء الرجل من كل الجهات؛ سواء كانوا أعمامًا أو أخوالًا، وهذا هو المقصود بالآية.

وقد كانت المؤاخاة في الإرث أول الهجرة ظرفًا استثنائيًا؛ فلما انتصر المسلمون وتحسنت أوضاعهم نُسخت المؤاخاة في الإرث فقط، ونزل قول الله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.



الجُزْءُ العَاشِرُ — سُورَةُ التَّوْبَةِ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦

١٨٧

سورة التوبة

سورة التوبة مدنيّة وآياتها تسع وعشرون ومائة آية.

لم تبدأ هذه السورة بالبسملة، وقد ورد في ذلك عدة أقوال، الأجود منها قولان:

القول الأول: أن سورة التوبة إعلان حرب وبراءة من الكفار، ومثل هذا لا يناسب الرحمة والتسمية.

و**القول الثاني:** أن سورة التوبة وسورة الأنفال موضوعهما متقارب؛ فكأنهما سورة واحدة؛ فإذا وُحدتا صارت نهاية السبع الطوال.

[١] بدأت السورة بإعلان من المولىٰ جل وعلا ورسوله ﷺ البراءة من جميع المشركين المعاهدين؛ بسبب نقضهم لعهودهم مع النبي ﷺ، وذلك بقطع جميع العلاقات معهم.

[٢] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ والمؤمنين أن يعطوا الكفار أربعة أشهر استراحة لكي يتفكروا ويقرروا: إما أن يُسْلِمُوا أو يُحَارُبوا، وهذا خاص بكفار جزيرة العرب لأنهم مشركون، أما أصحاب الديانات السابقة فلهم حديث آخر، واعلموا أيها المشركون أنكم خلال هذه الاستراحة لن تفلتوا من عقاب الله، واعلموا أيضًا أن الله مذل ومخز لكم في الدنيا، ولكم في الآخرة عذاب أليم شديد في نار جهنم.

[٣] واعلموا أيها الناس أن هذه الآيات إعلانٌ وإنذارٌ أن الله ورسولَهُ بريئان من المشركين الذين نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ، وسوف نعلن هذه البراءة يوم الحج الأكبر الذي هو يوم عرفه؛ حيث بعث ﷺ أبا بكر الصديق ليحج بالناس في السنة التاسعة من الهجرة، وبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسورة التوبة ليخطب في الحجاج ويقرأها عليهم، حتىٰ يعلم الجميع أن المشركين نجس، وأن لا يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وأعلن البراءة من الشرك والكفر وأعطاهم الأربعة أشهر، وكانت خطبته عامَّة لأمور المسلمين، ثم دعا سبحانه المشركين إلىٰ التوبة من الشرك، وبين لهم أن التوبة خير لهم، أما إذا أعرضوا ورفضوا قبول الحق وهو الدخول في دين الله؛ فلن يفلتوا من عقاب الله وعذابه، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يبشر الكفار بعذاب أليم ينتظرهم يوم القيامة بسبب كفرهم وجحودهم وعنادهم.

[٤] ثم استثنىٰ جل وعلا من قتال المشركين الذين بينهم وبين المسلمين عهد محدد بمدة، ولم يخونوا وينقضوا العهد، ولم يُعَاوِنُوا الأعداء علىٰ قتال المسلمين؛ فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلىٰ المدة المحددة بينكم، واعلموا أن الله يحب المتقين الذين عملوا بطاعة الله واجتنبوا معاصيه، والتزموا بالعهود والمواثيق.

[٥] واعلموا أيها المؤمنون أنه إذا انقضت المهلة وهي الأربعة أشهر فإن الله يأمركم بإعلان الحرب، وقتال المشركين في أي مكان لقيتموهم فيه؛ سواء في الحل أو الحرم، وحاصروهم في أماكنهم وبيوتهم، وترصدوهم في كل مكان وضيقوا عليهم في تحركاتهم؛ فإذا تابوا وأنابوا ودخلوا في دين الله وأقاموا الصلاة المكتوبة وأخرجوا زكاة أموالهم، فاتركوهم، ولا تؤذوهم؛ لأنهم أصبحوا إخوانكم في الدين، إن الله غفور لمن تاب وأناب ورحيم بعباده المؤمنين.

قال بعض المفسرين: هذه الآية تسمىٰ آية السيف، أي: آية إيجاب الجهاد.

[٦] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ إذا استأمنه أحد المشركين وطلب منه الجوار فعليه أن يُؤَمِّنَهُ حتىٰ يتروىٰ ويسمع القرآن ويتدبره، ويعرف شيئًا عن الإسلام يشجعه للدخول فيه، وهذا من رحمة الله بعباده؛ ومن إقامة الحجة عليهم، ثم أمر سبحانه النبي ﷺ أن يوصله إلىٰ المكان الآمن الذي يريده، واعلم يانبي الله أن هذا الذي أمرك الله به من إجارة المستجير من المشركين؛ لأنهم قوم لا يعلمون ما ينفعهم ويجهلون حقيقة الإسلام.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي تعليقًا علىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: الصوت صوت القارئ، والكلام كلام الباري، فالكلام صفة الله أزلًا وليس مخلوقًا كما تقوله الفرق الضالة.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

[٧] يخبر جل وعلا أنه لا ينبغي أن يكون للمشركين الغادرين عهد عند الله وعند رسوله؛ وهذا استبعاد لثبات المشركين علىٰ الحق، وأنهم إن سنحت لهم فرصة نقضوا العهد؛ ثم استثنىٰ سبحانه الذين عاهدتهم عند المسجد الحرام ما داموا مستمرين علىٰ العهد ولم ينقضوه، وذلك حرمة لبيت الله وللسكان المستظلين به، وصدق الله فإنه لا عهد للمشركين؛ فقد نقضوا العهود وقتلوا المسلمين ركّعًا وسجّدًا، واعلموا أن الله يحب المتقين الذين يخافون الله بالمحافظة علىٰ العهود وعدم نقضها.

وقد ذكر المفسرون عندما نقضت قريش العهد الذي بينها وبين رسول الله ﷺ، وآذوا المسلمين وعذبوهم جاء المستنصر يستنجد برسول الله وهو عمرو بن سالم الخزاعي فدخل علىٰ رسول الله ﷺ وأخبره بما فعلت قريش فيهم وأنشد أبياتًا مطلعها:

اللهُـمَّ إنِّـي نَاشِـدٌ مُحَمَّـدًا ... حِلْـفَ أَبِينَـا وَأَبِيـهِ الأَتْلَـدَا

فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْرًا أَعْتَدَا ... وَادْعُوا عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَـدَدَا

هُـمْ بَيَّتُونَـا بِالْوَتِيـرِ هُجَّـدَا ... فَقَتَلُونَـا رُكَّعًـا وَسُـجَّدَا

فقال ﷺ حينها: «**لا نُصِرْتُ إن لم أنصركم بما أَنْصُرُ به نفسي**»[(١)]، ثم أخذ ﷺ يستعد سرًّا للزحف علىٰ مكة، وكان بحمد الله أن فتحت مكة شرفها الله.

[٨] ثم قال جل وعلا: بأي صفة يكون للمشركين عهد أو ميثاق وهم لو غلبوكم وتمكنوا منكم لن يرحموا فيكم أحدًا، ولن يراعوا قرابة أو عهدًا؟، ولا تغتروا بما تسمعونه منهم من الكلام المقبول والمعاملة الحسنة حال خوفهم وتمكنكم منهم؛ فهم يرضونكم بهذا الكلام ولكن قلوبهم مليئة حقدًا وبغضًا عليكم، وأكثرهم ناقضون للعهود والمواثيق بعيدون عن الحق كل البعد.

[٩] ثم بين جل وعلا السبب الأصيل الذي حمل هؤلاء المشركين علىٰ الغدر والخيانة أنهم استبدلوا بآيات الله: الكفرَ، وأعراضَ الدنيا التافهة الحقيرة الزائلة، فأدىٰ ذلك إلىٰ إعراضهم عن سبيل الحق، ولم يكتفوا بهذا؛ بل صدوا غيرهم وصرفوهم عن الحق، ومنعوهم من الدخول في الإسلام، فبئس ما عملوا. **قال الشيخ محمد متولي الشعراوي**: إن ذمة كل شخص قابلة للانصهار بالذهب، لكن الخلاف في الكميات، فالبعض بعشر، والآخر بمائة، والبعض بألف، والنادر بمليون أو ملايين، ويقصد الشيخ في كلامه: أن بعض النفوس تشتريها بالرشوة، ولكن تتفاوت قيمة هذه الرشوة من شخص لآخر، نسأل الله العافية، وتعميمه فيه نظر؛ فقد شمل حتىٰ من رحم الله وهم قله.

[١٠] واعلموا أيها المؤمنون أن هؤلاء المشركين لا يراعون قرابة أو عهدًا أو حلفًا؛ بل إنهم ضرر علىٰ الإسلام وأهله، وهم المتجاوزون لحدود الله بغدرهم ونقضهم العهود والمواثيق.

[١١] ثم وجه جل وعلا المؤمنين وأخبرهم بكيفية التعامل مع المشركين إذا رجعوا عن شركهم، وأقلعوا عن عبادة غير الله، ووحدوا الله ولم يشركوا به شيئًا، ثم التزموا شرائع وأحكام الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فإنهم بذلك يكونون إخوانًا لكم في الإسلام، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، ولا يحل لكم أيها المسلمون قتالهم، والله جل وعلا يبين آياته ويوضحها ويميزها لقوم ينتفعون بها.

[١٢] ثم وجه جل وعلا أيضًا المؤمنين وأخبرهم بكيفية التعامل مع المشركين حالَ نقضهم العهود والمواثيق، فقال سبحانه: فإذا نقض هؤلاء المشركون الأيمان، ونكثوا العهود التي أبرموها معكم، وذلك بأن يقاتلوكم أو يعينوا عليكم، أو يطعنوا في الإسلام بأن يعيبوه أو يسخروا منه، أو ينالوا من القرآن، أو الرسول ﷺ؛ فحينئذٍ عليكم بقتال أئمتهم وقاداتهم -وغيرهم تبع لهم- قتالًا لا هوادة فيه، فإنهم لا يراعون عهودًا ولا مواثيق، لعلهم ينتهون عن كفرهم ونكثهم وطعنهم في دين الإسلام.

[١٣] يحض جل وعلا عباده المؤمنين ويهيجهم لقتال هؤلاء المشركين، ذاكرًا أوصافهم الشنيعة، وأفعالهم القبيحة من نكث للعهود والمواثيق وسعيهم وعزمهم علىٰ إخراج الرسول ﷺ من وطنه مكة، وبدئهم ومبادرتهم بقتالكم وإيذائكم؛ فهذه الصفات كفيلة لكم أيها المؤمنون لقتالهم وعدم خشيتهم وعدم الخوف منهم، ثم يحث جل وعلا عباده المؤمنين مرة أخرىٰ بسؤالهم: أتخافون أن ينالكم منهم مكروه فتتركوا قتالهم؟، فاعلموا أن الله هو الذي أمركم بقتالهم، وهو أحق أن تخافوه، فإنه هو الضار النافع، إن كنتم مؤمنين حقًّا.

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٦١- ١٦٢) بنحوه عن عائشة.

قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ
عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ
قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥
أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ
وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ
وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ
أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ١٧ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ
ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى
ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ
ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨ ۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ
ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ
١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠

[١٤-١٥] كرر جل وعلا أمره لعباده المؤمنين بقتال المشركين، وبين لهم فوائد ذلك بأن يعذبهم الله بأيديكم بقتلهم وأسرهم، ويذلهم بالخزي والهزيمة، ويرزقكم النصر والغلبة عليهم، ويشفِ بذلك صدوركم التي طالما لحقها الحزن والغم من كيدهم ومكرهم، وأيضًا يذهب الله تعالىٰ بغلبكم إياهم الغيظ الذي في قلوبهم عليكم؛ بحيث يقتنعوا بأن النصر من الله وأن الله يديل الحق علىٰ الباطل، بسبب حربهم لله ورسوله وسعيهم في إطفاء نور الله، كما قال شاعرهم وهو فروة بن مسيك يسلي قومه:

وَمَا إِنْ طِبُّنَا جُبْنٌ وَلَكِنْ　　　مَنَايَانَا وَدَوْلَةُ آخَرِينَا

ومع ذلك فإن الله يتوب علىٰ من يشاء من هؤلاء المحاربين بدخولهم في الإسلام، والله عليم بصدق من تاب منهم، وهو حكيم يضع الأشياء في مواضعها.

[١٦] ثم يقول جل وعلا: أتظنون أيها المؤمنون أن تُتركوا دون اختبار وامتحان يتبين من خلاله الصادق من الكاذب؟ ذلكم الابتلاء هو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وحده، وعدم اتخاذ بطانة وأولياء من المشركين؛ والله خبير بجميع أموركم وأحوالكم، وسيجازيكم عليها.

[١٧] واعلموا أيها الناس أنه لا يليق بالمشركين أن يعمروا بيوت الله، وهم يعلنون الكفر بالله، ولا شك أن عمارتهم للكعبة عمل متناقض؛ حيث إنهم يعمرون المسجد ثم يضعون فيه الأصنام؛ فلا شك أن عملهم هذا حابط لا قيمة له عند الله، وفي نار جهنم خالدين مخلدين أبدًا إلا من تاب وأناب منهم ودخل في دين الإسلام.

[١٨] واعلموا أيها الناس أن العمّار الحقيقيين للمساجد، هم المصدقون بدين الإسلام وباليوم الآخر، العاملون الأعمالَ الصالحة من صلاة وزكاة، الذين يخافون الله، ولا يخافون في الله لومة لائم، أولئك هم عمّار المساجد حقًّا، وأولئك هم المهتدون صدقًا.

[١٩] يخبر جل وعلا أنه لا يمكن المساواة بين أعمال المشركين وأعمال المؤمنين، فقال سبحانه: أجعلتم أيها المشركون أعمالكم كتوفير ماء الشرب للحجاج، والاهتمام ببناء المسجد الحرام وغيرها؛ كأعمال المؤمنين؛ مِنَ الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال؟ فاعلموا أنه لا يمكن المساواة بينها، ولو كانت أعمال المشركين أعمال خير وإحسان، لأنها أعمال حابطة ما دام أن القائم بها مصرٌّ علىٰ الكفر والشرك وعبادة الأصنام، واعلموا أن الله لا يوفق للهداية ومعرفة الحق الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والبعد عن دين الله وأصروا علىٰ ذلك.

[٢٠] واعلموا أن الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا بما أُنزل علىٰ محمد ﷺ، وهاجروا من بلاد الكفر إلىٰ بلاد الإسلام، وأنفقوا أموالهم في سبيل الله، وجاهدوا الكفار بأنفسهم؛ لإعلاء كلمة الله؛ لا شك أن هؤلاء أعظم درجة عند الله، وهم الفائزون برضوان الله وجنته ونعيمه.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

[٢١] ثم بين سبحانه أنه برحمته بعباده المؤمنين يبشرهم في الدنيا برضوان الله عليهم، وما لهم في الآخرة من الجنات والنعيم المستمر الذي لا ينقطع أبدًا.

[٢٢] ثم بين سبحانه أنهم خالدون مخلدون في تلك الجنات، وأن الله عنده أجر عظيم لا يعادله شيء من خيرات الدنيا.

[٢٣] ياأيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أحبابًا وأنصارًا من دون الله؛ إذا استمروا في كفرهم وضلالهم، وفضلوا الكفر علىٰ الإيمان، واعلموا أن من يتخذهم أولياء من دون الله فأولئك هم العاصون لله الظالمون لأنفسهم ظلمًا عظيمًا.

وهذا لا ينافي البر بالوالدين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:٨].

وهذه الآية نزلت لتوجيه الصحابة؛ لأن بعض الصحابة لما عزموا علىٰ الهجرة إلىٰ المدينة تعلق بهم آباؤهم وزوجاتهم، وقالوا: إذا ذهبتم ضِعنا وتعبنا فأنتم الذين تجلبون لنا الرزق والأمن؛ فأمر الله المؤمنين بعدم الرضوخ لرغباتهم ما داموا مستحبين الكفر رافضين للإيمان مع برهم والإحسان إليهم.

[٢٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المؤمنين: إن فضلتم وآثرتم الآباء والأمهات والإخوان – في النسب والعشرة –، والأزواج، والقرابات، والأموال المكتسبة، والتجارة التي تخافون عدم رواجها، والبيوت الحسنة المزخرفة الموافقة لأهوائكم، إن آثرتم ذلك وفضلتموه علىٰ حب الله ورسوله ﷺ والجهاد والهجرة في سبيل الله – بهذه الأعذار والحجج الباطلة –؛ فأنتم فسقة ظلمة تفضلون الدنيا علىٰ الآخرة، وتقدمون الفاني علىٰ الباقي؛ فانتظروا نكال الله وعقابه الذي لا مرد له، والله لا يرشد ولا يوفق الخارجين عن طاعته، الذين يقدمون محبوباتهم علىٰ محبته ورضاه سبحانه وتعالىٰ.

وقد جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزَّرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتَّىٰ ترجعوا إلىٰ دينكم**»[١].

[٢٥] وتذكروا أيها المؤمنون يوم أن نصركم الله في غزوات عديدة بفضله وكرمه جل وعلا؛ مع ضعفكم وقلة عددكم وعدتكم وكثرة عدوكم كما في غزوة بدر، أما في غزوة حنين فقد تلقىٰ المسلمون درسًا لكنه ليس كدرس أُحُد؛ حيث كان درسًا قاسيًا استفاد منه المسلمون في حروبهم التالية؛ ففي غزوة حنين كان مع الرسول ﷺ عشرة آلاف ثم انضم إليهم أهل مكة فصار الجمع كبيرًا لا مثيل له من قبل، ولهذا قال بعض الصحابة: لن نُغلب اليوم من قلة، يعني: اعتزوا واغتروا بقوتهم، وفاتهم أن النصر من عند الله وليس بالكثرة؛ فكَمِنَ لهم العدو بمضائق الأودية ثم فاجأوا المسلمين بوابل من السهام من كل جانب فانهزم المسلمون ولم يجدوا ملجأً في الأرض فهربوا وتركوا رسول الله ﷺ، إلا قلة بقوا معه ﷺ، ثم أمر رسول الله ﷺ العباس – وكان صوته جهوريًّا عاليًا – أن ينادي أصحاب بيعة الرضوان وأهل بدر فرجعوا؛ ثم بحمد الله تحولت الهزيمة إلىٰ نصر بإذن الله تعالىٰ.

[٢٦] ثم بين جل وعلا أنه أنزل سكينةً تُثبِّت القلوب وتطمئنها وقت الفزع والزلزلة، أنزلها الله علىٰ رسوله ﷺ، وعلىٰ المؤمنين فهدأ روعهم، وثابت لهم عقولهم، وأقبلوا – مرة أخرىٰ – علىٰ عدوهم، وأنزل الله الملائكة معونة ونصرة لهم؛ فكان أنْ عذَّب الله الكفار علىٰ أيديهم، فهزمهم المسلمون، وقتلوا المقاتلين، وسبوا نساءهم، واستولوا علىٰ أموالهم وأولادهم، وتلك عقوبة الله للكافرين.

ولا شك أن الدروس المستفادة من غزوة حنين كثيرة لكن الدرس الأهم: أن لا يُعجب المسلمون والمجاهدون بكثرتهم ولا بعدتهم ولا يغتروا بأنفسهم، وليس معنىٰ هذا أن يتركوا الاستعداد وأخذ الحيطة، ولكن عليهم أن يستعينوا بالله ويعتمدوا عليه في كل شئون حياتهم، وعليهم أن يستمدوا النصر منه وحده سبحانه مع أخذ العدة اللازمة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢).

ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾

[٢٧] وبعد هذه العقوبة الشديدة التي حلَّت بالكافرين؛ فتح الله لهم باب التوبة، فتاب علىٰ كثير منهم فأسلموا ورد النبي ﷺ عليهم نساءهم وأولادهم، وهذا من عظيم مغفرة الله ورحمته بعباده، فهو سبحانه ذو مغفرة واسعة ورحمة عامة، يقبل توبة التائبين، وإنابة المنيبين.

[٢٨] وهذا نداء لأهل الإيمان، ليبين لهم أن المشركين نجس، أي: خبثاء العقائد والأعمال، فإياكم أن تمكنوهم من الاقتراب من المسجد الحرام - لأي سبب كان - بعد هذا العام، وهو العام التاسع الهجري، ولا تخافوا الفقر والحاجة إذا منعتموهم، فإن الله باسط لكم من رزقه الواسع العميم، وفاتح عليكم من فضله العظيم إن شاء، فالله عليم بحالكم، وهو سبحانه يضع الأشياء في مواضعها.

وفي قوله: ﴿نَجَسٌ﴾، أن نجاسة الكفار المعنوية ثابتة، والخلاف في نجاستهم الجسمية.

[٢٩] يأمر جل وعلا المسلمين بقتال الكفار الذين لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بالبعث والجزاء، ولا يُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله من الزنا والخمر وأكل الميتة وغيرها من المحرمات، ولا يتحاكمون إلىٰ دين الله وشرعه من اليهود والنصارىٰ، حتىٰ يدفعوا الجزية وهم خاضعون ذليلون.

وقد ذكر العلماء أن الكفار ينقسمون إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يُقاتَلُون حتىٰ يُسلِموا، ولا يُقبل منهم شيء آخر غير الإسلام، وهم المرتدون والمشركون من عرب الجزيرة.

القسم الثاني: يُقاتَلُون حتىٰ يُسلموا أو يدفعوا الجزية، وهم اليهود والنصارىٰ، وقال الرسول ﷺ: المجوس يعاملون مثل اليهود والنصارىٰ، تؤخذ منهم الجزية، ولكن لا تؤكل ذبائحهم ولا يُتزوج من نسائهم إلا إذا أسلمت.

القسم الثالث: عبدة الأوثان الذين ليسوا من عرب الجزيرة كالهنود والأتراك وغيرهم؛ فهذا القسم قال فيهم أبو حنيفة رحمه الله وأصحابه: تؤخذ منهم الجزية حتىٰ يُسلموا؛ فَأَخْذُ الجزية منهم ليس إقرارًا لهم علىٰ باطلهم، ولكن لعلهم يسلمون إذا فَهِموا أن الإسلام دين الحق وأنه دين الرحمة، وأن ما هم عليه ضلال؛ فمعاملتهم تختلف عن معاملة المرتدين والمشركين في الجزيرة العربية؛ لأن كفار الجزيرة عاصروا الدعوة، وعلموا أنها حق، ومع ذلك أصروا علىٰ باطلهم.

[٣٠] يخبر جل وعلا عن مقولة اليهود التي قالوها شركًا وظلمًا وزورًا وبهتانًا: إن عزيرًا ابن الله، وعن مقوله النصارىٰ التي قالوها شركًا وظلمًا وزورًا وبهتانًا: إن المسيح ابن الله، وقولهم هذا بهتان مختَرَع من عند أنفسهم نطقت به ألسنتهم، يتشبهون فيه بالمشركين عبدة الأوثان الذين قالوا: اللات والعزىٰ ومناة والملائكة بنات الله -تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا-، فلعن الله المشركين وقاتلهم جميعًا، كيف يعدلون عن الحق إلىٰ الباطل!!

[٣١] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود اتخذوا علماءهم أربابًا آلهة من دون الله، وأن النصارىٰ أيضًا اتخذوا عبَّادهم أربابًا آلهة من دون الله، يحلون لهم ما حرَّم الله فيتبعونهم، ويحرمون عليهم ما أحلَّ الله فيطيعونهم، واتخذوا أيضًا عيسىٰ عليه السلام إلهًا فعبدوه من دون الله، ولم يأمرهم الله بذلك الشرك؛ بل أمرهم أن يوحدوا الله وأن يفردوه بالعبادة وحده دون غيره، تنزه وتقدس وتعالت عظمته عن شركهم وكفرهم وافترائهم.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

[٣٢] يخبر جل وعلا عن اليهود والنصارىٰ ومن شابههم أنهم يريدون إطفاء نور الإسلام، وذلك بسعيهم لإبطال حجج الله وبراهينه؛ وبكذبهم وافترائهم بألسنتهم، ويأبىٰ الله إلا أن يحفظ دينه وينصره ويعليه، ولو كره الجاحدون.

[٣٣] يبين جل وعلا أنه أرسل رسوله ﷺ بالقرآن الذي فيه الهدىٰ للخلق جميعًا، وبالإسلام – الدين الحق – الذي يحث علىٰ كل الأعمال الصالحة، وينهىٰ عن ما سواها؛ ليعليه ويرفعه علىٰ سائر الأديان، بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، ولو كره ذلك المشركون ورغمت أنوفهم.

[٣٤] ثم يخبر جل وعلا عباده المؤمنين، أن كثيرًا من علماء وعباد أهل الكتاب يأخذون أموال الناس بغير حق ويأكلونها سحتًا وظلمًا عن طريق الرشوة أو ليحكموا لهم بغير ما أنزل الله؛ ومع ذلك يصدون الناس عن الإسلام وينفرونهم منه؛ فاحذروا أيها المؤمنون من هذا الصنف من الناس، ثم اعلموا أن من يدخر الأموال من الذهب والفضة وغيرهما ادخارًا محرمًا وذلك بأن لا يؤدي حقها من النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة في سبيل الله إذا وجبت؛ أن له العذاب الموجع المؤلم في الآخرة.

[٣٥] ثم بين جل وعلا أن هذا العذاب الأليم الذي أوجبه علىٰ الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقون منها في سبيل الله؛ حيث توقد النار علىٰ الذهب والفضة حتىٰ تشتد حرارتها، ثم تُحرق بها جباه هؤلاء وجنوبهم وظهورهم، ومع هذا العذاب الحسّي الشديد يعذبون عذابًا نفسيًّا معنويًّا، فيقال لهم علىٰ سبيل التهكم والتوبيخ واللوم: هذه أموالكم التي ادخرتموها لتنفعكم، وهذه كنوزكم التي أمسكتموها؛ فذوقوا العذاب والحسرة والنكال الأليم بسبب كنزكم وإمساككم ومنعكم حق الله في هذه الأموال.

[٣٦] يخبر جل وعلا أن عدد شهور السنة في قضائه وقدره: اثنا عشر شهرًا – منها يتكون العام –، قد أثبت الله ذلك في حكمه القدري من يوم أن خلق السماوات والأرض، ومن هذه الشهور: أربعة أشهر حرم، وهي: رجب الفرد، وذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، وسميت بذلك: لزيادة حرمتها وتحريم القتال فيها، والظلم فيها أشد من غيرها، واعلموا أن ذلك هو الدين المستقيم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب والمعاصي وما يغضب الله، ولا بالقتال فيها وهتك حرمتها، وقاتلوا أيها المؤمنون مجتمعين جميع أنواع الكافرين والمشركين، مثلما يقاتلونكم جميعًا، واعلموا – أيها المؤمنون – علم اليقين أن الله مع أهل التقوىٰ بنصره وتأييده، وإذا كان الله معكم فأنتم – لا محالة – منصورون.

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠

[٣٧] يخبر جل وعلا عن فعلة منكرة يفعلها المشركون، وهي أنهم ينسؤون، أي: يؤخرون حرمة شهر من الأشهر الحرم إلىٰ شهر آخر، وذلك إذا احتاجوا للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، كأن يُحلُّوا شهر المحرم، ويحرمون بدلًا منه شهر صفر في سنة، وفي التي تليها يغيرون ذلك، وهكذا، زاعمين - بهذه الفتوىٰ الشيطانية - أنهم لم يقعوا في مخالفة القتال في الشهر الحرام، فأخبر سبحانه أن فعلتهم هذه زيادة في الكفر والضلال؛ ذلك أنهم غيروا حكم الله وبدلوا شرعه بتلاعبهم، وبتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال، وقد زين لهم الشيطان هذه الأعمال السيئة وحسنها لهم فرأوها حسنة، والله سبحانه وتعالىٰ لا يوفق ولا يرشد القوم الكافرين للحق والصواب والخير - بسبب عنادهم وتكذيبهم-.

[٣٨] ينادي جل وعلا عباده المؤمنين بوصف الإيمان المقتضي تقديم ما يحب الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ محبوبات النفس: ما بالكم إذا دعيتم للجهاد في سبيل الله لقتال أعدائكم، واستُنفرتم لذلك؛ تباطأتم وتكاسلتم وملتم إلىٰ الأرض ولزمتم مساكنكم؟!! أفضلتم أيها المؤمنون الدنيا ولم تبالوا بالآخرة!! آأثرتم الفاني علىٰ الباقي!! فاعلموا أن النعيم الأبدي الخالد في الآخرة إنما ينال بالجهاد والهجرة والنفير في سبيل الله، واعلموا أن نعيم الدنيا التي قدمتموها علىٰ الآخرة -مهما عظُم-؛ فهو حقير وتافه وزائل وقليل بالنسبة لنعيم الآخرة الذي لا انقطاع له، ولا حدَّ لنهايته، واعلموا أن الذي وقر الإيمان في قلبه حقًّا لا يؤثر الدنيا علىٰ الآخرة.

[٣٩] يتوعد جل وعلا من استُنفِر ولم ينفر؛ أن يعذبه الله عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة، وذلك لعظم جُرمه؛ فإنه قد عصىٰ الله، وآثر الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، ولم يساعد في نصرة الدين، والذب عن عباد الله الموحدين، فاعلم يامن هذه حاله أن الله سبحانه سيأتي بقوم آخرين ينفرون إذا استُنفروا، ويتولون الله وينصرون نبيه ﷺ، واعلموا أنكم بقعودكم وتخلفكم عن الجهاد وإلقائكم أمر الله ظهريًّا؛ لا تضرون الله شيئًا، فإن الله تعالىٰ غني عنكم، ومتكفِّلٌ بنصر دينه ورسوله ﷺ وأوليائه، واعلموا أنكم أنتم الذين تحتاجون للجهاد، وأنكم أنتم الفقراء إلىٰ الله، والله سبحانه وتعالىٰ علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء، وهو قادر علىٰ استبدالكم، وعلىٰ نصر دينه ونبيه ﷺ وأوليائه بغيركم.

[٤٠] ثم توعد جل وعلا إذا لم تنصروا رسول الله ﷺ فإن الله سوف ينصره ويؤيده، كما نصره يوم أن أخرجه كفار قريش من بلده مكة هو وصاحبه أبو بكر الصديق والتجأوا إلىٰ غار ثور هربًا من المشركين، وفي أثناء وجودهما في الغار وفي هذه الظروف العصيبة يقول ﷺ لصاحبه أبي بكر لما رأىٰ ما عليه من الحزن الشديد: لا تحزن إن الله معنا، يعني: اصبر واطمئن وتوكل علىٰ الله، فأنزل الله سكينته عليه، أي: علىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ لأن الرسول ﷺ قد أُنزلت عليه السكينة من قبل، وقد استمر أثر هذه السكينة عليه رضي الله عنه في حياته كلها؛ كما في الحديبية، وكما في وفاة الرسول ﷺ، وكما في قتال المرتدين؛ فقد كان رابط الجأش، فرضي الله عنه وأرضاه، ثم أيد الله النبي ﷺ بالملائكة وبالرعب الذي ألقاه في أعدائه، وأنجاه من عدوه، وجعل الله كلمة الذين كفروا ذليلة مغلوبة، وكلمة الله هي العليا، وذلك بإعلاء شأن الإسلام، والله عزيز لا يُغالبه أحد، حكيم يضع الأشياء في مواضعها المناسبة.

ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ
﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ
وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ
لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ
حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ
﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن
يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾
إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞وَلَوۡ
أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ
فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم
مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ
ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

[٤١] يحرض جل وعلا عباده المؤمنين علىٰ الجهاد في سبيله آمرًا لهم بالنفير في جميع أحوالهم فينفروا في عسرهم ويسرهم، منشطهم ومكرههم، في ضعفهم وقوتهم، وينفروا: شبابًا وشيوخًا، رجالًا وفرسانًا، أغنياء وفقراء، من عنده عيال ومن لا عيال له، ويبذلون جهدهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فإن فعلتم ذلك ونفرتم؛ فقد نلتم الخير كل الخير في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون؛ لأن ذلك هو الذي ينشر الدين.

[٤٢] ثم يبين جل وعلا لعباده المؤمنين بمثال عملي قُبْحَ ترك النفير والخلود إلىٰ الأرض، - كما فعل المتخلفون عن غزوة تبوك -، وأن هذا من صفات المنافقين الذين يفضلون الدنيا علىٰ الآخرة، فيقول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: لو كان ما دعوت إليه غنيمة سهلة، أو منفعة دنيوية يتيسر الحصول عليها، أو كان السفر ميسورًا لا مشقة فيه؛ لاتبعوك وما تخلفوا عنك، ولكن لمّا كان الحال بخلاف ذلك من بُعْد المسافة إلىٰ أطراف الشام، وصعوبة السفر لشدة الحر؛ تثاقلوا عن النفير، وتخاذلوا عن الجهاد، واستثقلوا الخروج، ثم عللوا ذلك واعتذروا بأعذار واهية يعلم الله وَهَنها، وأكدوا هذه الأعذار الواهية بالحلف والأيمان أنهم لم يستطيعوا النفير، وأنهم لو تيسرت لهم السبل لنفروا، فأخبر سبحانه المطلع علىٰ ما تُكِنُّ الصدور أنهم بهذا التخلف عن الجهاد، وبهذه الأعذار الواهية، وبهذه الأيمان الكاذبة؛ يُهلكون أنفسهم، ويعرضونها للعذاب الشديد، فالله يعلم كذبهم في حلفهم، ويعلم أنهم تركوا الجهاد نفاقًا وزهدًا في الخير.

[٤٣] لما انتدب رسول الله ﷺ الصحابة للذهاب معه إلىٰ تبوك لغزو الروم استأذن المنافقون والذين في قلوبهم مرض الرسول ﷺ في التخلف عن المعركة؛ فأذن لهم في التخلف؛ فعاتبه الله علىٰ السماح لهم، وعتاب الله لرسوله ﷺ ليس لذنب، ولكن لأنه استعجل في السماح لهم؛ حيث كانوا مستطيعين وعندهم العدة للخروج؛ فلو تأخر في الإذن حتىٰ يتبين له خبثهم بأنهم سوف يتخلفون أذن أو لم يأذن؛ وحتىٰ يعرف الصحابة والرسول ﷺ نفاقهم وعصيانهم وكذبهم؛ فكان عدم التعجل في الإذن أولىٰ، لذلك تمت المعاتبة التي ليست من أجل ذنب، ولكن من ترك الأولىٰ.

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلىٰ هذا اللطف: بدأ بالعفو قبل ذكر المعفىٰ عنه، وذكرني قول سفيان بقول القائل:

عَتَبْتُمْ فلَم نَعلَمْ لطيبِ حديثِكمْ أذلِكَ عَـتْـبٌ أمْ رِضىً وَتَوَدّدُ

[٤٤] يخبر جل وعلا أنه ليس من شأن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر أن يستأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، والله عليم بالمتقين الذين يعملون بأوامر الله ويجتنبون نواهيه.

[٤٥] واعلم يانبي الله إنما يستأذنك في التخلف عن الجهاد في سبيل الله أولئك المنافقون الذين لم يؤمنوا بالله ورسوله ﷺ واليوم الآخر، والذين في إيمانهم دخن وفي قلوبهم شك ونفاق، والشَّاكّون في صحة ما أُنزل عليك من الإسلام والشرائع، ولا زالوا مستمرين في شكِّهم وحيرتهم ومترددين في أمر الخروج والقعود.

[٤٦] ثم قال جل وعلا: لو أحب هؤلاء المنافقون الخروج معك يارسول الله للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله، لاستعدوا وتهيؤوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب للخروج، ولكنه سبحانه ما أحب خروجهم معك بسبب نفاقهم؛ فأعاقهم عن الخروج، وقيل لهم: تخلفوا مع القاعدين من المرضىٰ والضعفاء والنساء والصبيان.

[٤٧] ثم بين جل وعلا لرسوله ﷺ وللمؤمنين أن تخلفهم كان من صالح المسلمين الصادقين، فقال: لو ذهبوا معكم ما زادوكم إلا ضررًا وفشلًا وهزيمة، ولأفسدوا بينكم بالنميمة والبغضاء، واعلموا أيها المؤمنون أن فيكم أناسًا ضعاف النفوس ينصتون لشكوكهم وافتراءاتهم، كما قال المنافقون في غزوة بدر: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾ [الأنفال:٤٩]، والله عليم بالمنافقين الظالمين وسيجازيهم علىٰ أعمالهم.

[٤٨] واعلموا أن هؤلاء المنافقين أرادوا فتنة المؤمنين وصدهم عن دينهم، وتفريق كلمتهم من أول الأمر حين الهجرة إلىٰ المدينة، وقبل هذه الغزوة بكثير، حين فعلوا ما فعلوا في أُحُد وفي الخندق، وغيرها، وأخذوا يصرفون الأمور ويكيدون ويخدعون، حتىٰ نصر الله عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فبطل كيدهم، وضل سعيهم، وهم كارهون لرفعة هذا الدين، ولانتصار المؤمنين.

[٤٩] ثم أخبر جل وعلا أن من هؤلاء المنافقين من يستأذنك يانبي الله في التخلف عن الجهاد، ويبرر ذلك بحجة واهية قائلًا: إني أخشىٰ إن خرجت معك أن أفتتن بنساء بني الأصفر، فَأْذَنْ لي بالقعود حفاظًا علىٰ ديني، وطلبًا لسلامتي، والحقيقة: أنهم بتخلفهم عن الجهاد، ومعصيتهم للرسول ﷺ قد سقطوا في فتنة النفاق الكبرىٰ، وليعلموا أن النَّار محيطة بمن كفر بالله واليوم الآخر؛ لا يستطيع منها هربًا، ولا يجد سبيلًا للخلاص.

[٥٠] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المنافقين يبغضونك ويبغضون دينك، لذا؛ إن حصل لك سرور ونصر وتمكين؛ حزنوا وأصابهم الهم والغم، وإن حصل لك حزن وأصابك مكروه من جراحات وشدة، وقتل في سبيل الله؛ يقولون: نحن قد احتطنا لأنفسنا ونجونا من هذا الهلاك بتخلفنا وقعودنا، وينصرفون مسرورين بما أصاب المؤمنين، فرحين بعدم مشاركتهم.

[٥١] وقل يانبي الله لهؤلاء المنافقين: لن يصيبنا أي شيء إلا بقضاء الله وقدره، ونحن قد امتثلنا ما أُمرنا به، والله ناصرنا ومتولينا، فنحن نعتمد عليه، ونفوض أمرنا إليه.

وفي قوله: ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، أي: ما كتب لصالحنا، ولذا لم يقل جل وعلا: ما كتب الله علينا.

[٥٢] وقل لهم يانبي الله: هل تنتظرون بنا إلا أن يكرمنا الله بإحدىٰ خصلتين حَسَنَتَيْن: إما النصر وظهور الدين والعز والتمكين، وإما الشهادة التي هي أرفع وأسمىٰ مراتب العبادة؟، وكلا الخصلتين نافع لنا غاية النفع، وحسَن لدينا غايةَ الحُسْن، أما أنتم فنحن ننتظر لكم أسوأ العقوبتين، وإحدىٰ السوأتين: إما أن يهلككم الله بعذاب من عنده، أو يسلطنا عليكم، ويكون

لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

عذابكم وقتلكم علىٰ أيدينا، فانتظروا تحقق ما أخبرناكم به، فإنا معكم منتظرون.

[٥٣] وقل يانبي الله لهؤلاء المنافقين: إن نفقاتكم -راضين أو ساخطين-؛ مردودة عليكم، وغير مقبولة منكم، ذلكم أنكم خرجتم عن دين الله وطاعته.

[٥٤] واعلموا أن هناك أسبابًا حالت بين المنافقين وبين قبول نفقاتهم، وهي: أنهم كفروا بالله ورسوله، -والإيمان شرط في قبول العمل الصالح-، ثم أنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم متثاقلون عنها، ثم أنهم لا ينفقون إلا بضيق صدر، وكره شديد للإنفاق؛ لأنهم لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا.

فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦١﴾

[٥٥] يوجه جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يستحسن ما لدىٰ المنافقين من أموال أو أولاد؛ ذلك أن هذه الأموال والأولاد سبب لشقائهم في الدنيا -بتعبهم في تحصيلها وتعلق قلوبهم بها-، وفي الآخرة لتركهم مراعاة حق الله فيها، ثم إن من أعظم العقوبات وأكبر المصائب أن تخرج نفوسهم، وتأتيهم منيتهم، وهم قائمون علىٰ الكفر بالله وتكذيب رسوله ﷺ.

[٥٦] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المنافقين يحلفون بالله الأيمان المغلظة كذبًا وزورًا -وهذه صفة لازمة لهم- أنهم منكم ومعكم، وحقيقة الأمر: أنهم كاذبون، وأنهم ليسوا معكم، وحلفهم الكاذب هذا بسبب خوفهم علىٰ أنفسهم منكم، ومن ملاقاة الأعداء، فالخوف والفزع والهلع صفات لازمة لهم.

[٥٧] ثم أكد جل وعلا علىٰ جبن هؤلاء المنافقين؛ حيث أخبر أنهم لو يجدون ملجأ يلجؤون إليه، أو كهوفًا في الجبال يختفون فيها، أو أنفاقًا تحت الأرض يستترون فيها هربًا منكم ومن النفير للجهاد؛ لانصرفوا إليها مسرعين لا يلوون علىٰ شيء.

[٥٨] ثم أخبر جل وعلا أن من هؤلاء المنافقين من يعيبك في تقسيم الصدقات يانبي الله، فإذا أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا وسكتوا وأثنوا عليك، وإن لم تعطهم ما يطمعون فيه؛ سخطوا وتذمروا وأظهروا عدم الرضا؛ ذلك أنهم يتبعون أهواءَهم، ويميلون مع حظوظ أنفسهم الدنيئة الدنيوية.

[٥٩] ثم بين جل وعلا المنهج الصحيح الذي كان يجب أن يتبعه هؤلاء المنافقون؛ حيث قال سبحانه: لو أن هؤلاء المنافقين قنعوا ورضوا بما قُسم لهم، وأوكلوا أمرهم إلىٰ الله بقولهم: الله كافينا، وسيرزقنا ويوسع علينا من فضله العظيم، فنحن نطمع في كرمه وإحسانه سبحانه وتعالىٰ؛ لكان خيرًا لهم، وأنفع وأجدىٰ، لكنهم غير راغبين فيما عند الله.

[٦٠] ثم ذكر جل وعلا مصارف الزكاة التي لا تُصرف إلا لهؤلاء الثمانية المذكورين، وهي ليست مثل الصدقات المطلقة العامة التي مصارفها كل ما أريد به وجه الله؛ فالفقراء هم الذين لا يملكون شيئًا، والمساكين هم الذين لا يملكون نصف ما يكفيهم، والعاملون عليها هم الذين يقومون علىٰ جمع الزكاة وإدارة شؤونها، والمؤلفة قلوبهم هم الذين يُرجىٰ إسلامهم، أو دفع شرهم، وفي الرقاب هم الذين اشتروا أنفسهم من سادتهم فيُسَاعَدُونَ لفك رقابهم، والغارمون هم أصحاب الديون العاجزون عن الوفاء، والذين تحملوا غرامات الإصلاح بين المتخاصمين والمتحاربين، وفي سبيل الله هم المجاهدون، ويدخل فيهم الذين تفرغوا لطلب العلم، والدعوة إلىٰ الله، وابن السبيل هو المسافر الذي انقطعت به النفقة حتىٰ ولو كان غنيًّا في بلاده، واعلموا أن هذه الزكاة فريضة من الله أوجبها علىٰ المسلمين وقدّر مقاديرها موضحة بالسنة، والله عليم بما تصلح به أمور عباده، حكيم في تدبيره وشرعه.

[٦١] يخبر جل وعلا أن المنافقين أرادوا ذم النبي ﷺ فقالوا: إنه يستمع لكل ما يقال له من المستفتين والمشتكين والشاكين والناصحين فيصدقهم، وأنه لم يجعل بينه وبين الناس حرَّاسًا، ولكون هذا الكلام يؤذي النبي ﷺ أبطل الله كيدهم، وبيّن أنها صفة مدح فيه ﷺ، ولذا أجاب عنه بقوله: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾، أي: أن يسمع العذر ويصدقه خير من أن يقطب الجبين؛ كما قال سبحانه في صفته: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وليس المقصود في قوله: ﴿هُوَ أُذُنٞ﴾: النميمة؛ بمعنىٰ أن النبي ﷺ يستمع لأصحاب النميمة وهم ينقلون له كلامًا عن بعضهم البعض، فكيف يكون هذا هو المعنىٰ وهو ﷺ قد حذر أصحابه من النميمة ومن خطرها، فقال ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**»[١].

ثم مدح سبحانه نبيه ﷺ وبين أنه يصدق بالله وكتابه، وأنه يصدق المؤمنين فيما يخبرونه، وأنه رحمه للذين آمنوا بالله ورسوله منكم، ثم اعلموا أن الذين يؤذون النبي ﷺ بأي نوع من أنواع الأذىٰ لهم عذاب مؤلم وموجع في جهنم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٨).

يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ
أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن
يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ
ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن
تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم
بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ
بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ
بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ
عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ
إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ
حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾

[٦٢] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المنافقين يحلفون لكم الأيمان الكاذبة متبرئين مما صدر منهم من أذية، مستجلبين رضاكم أيها المؤمنون، متغافلين عن حق الله ورسوله ﷺ، وأن إرضاء الله أولىٰ من إرضاء أي إنسان، وهذا دليل علىٰ جهلهم وانتفاء إيمانهم.

[٦٣] ثم أنكر جل وعلا علىٰ هؤلاء المنافقين، فقال سبحانه: ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن من يشاقق الله ورسوله بمخالفة أوامر الله؛ أن له عذابًا شديدًا موجعًا دائمًا في نار جهنم؟! وإن هذا لهو الذل العظيم، والهوان المبين.

[٦٤] يخبر جل وعلا عن حال المنافقين وخوفهم من أن ينزِّل الله سورة علىٰ نبيه ﷺ تفضحهم وتهتك أسرارهم، وتبين حقيقة ما يبطنون ويعتقدون، فقل لهم يانبي الله: استمروا في استهزائكم وسخريتكم، ولكن اعلموا أن الله مظهرٌ ما تكتمون، ومبيِّن ما تخفون، وقد حصل ذلك بإنزال هذه السورة التي فضحتهم وهتكت أستارهم، ويظهر ذلك في هذه الآية وما بعدها من الآيات.

[٦٥] ثم بين جل وعلا لونًا آخر من معاذيرهم الكاذبة، فقال سبحانه: لئن سألت يانبي الله هؤلاء المنافقين عن استهزائهم بالإسلام وطعنهم فيك وفي أصحابك -بقولهم: (لم نر مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا وأجبن عند اللقاء) في غزوة تبوك وغيرها-؛ ليكونن جوابهم: إنما كنا نمزح ونقطع عناء الطريق، ولم نكن نقصد حقيقة ما تفوهنا به، ونحن نعتذر أشدَّ الاعتذار عما بدر منا، فقل لهم يانبي الله: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون؟!!

[٦٦] ثم أكد جل وعلا بطلان عذر هؤلاء المنافقين، فقال سبحانه: لا تعتذروا أيها المنافقون، فإن عذركم غير مقبول، فقد اتضح كفركم -بهذا الاستهزاء-، وبان نفاقكم بعدما كنتم تبطنونه وتظهرون الإيمان، فإن نعفُ عن فئة منكم تابت حقًّا واستغفرت وندمت، ورجعت للإسلام، وأخلصت في ذلك؛ نعذب فئة أخرىٰ بسبب إجرامهم وإصرارهم علىٰ كفرهم ونفاقهم.

[٦٧] ثم أخبر جل وعلا عن بعض صفات المنافقين، ومن ذلك: أنهم -ذكورًا وإناثًا- يتولىٰ بعضهم بعضًا، وأنهم مشتركون في إظهار الإسلام وإبطان الكفر.

ومن صفاتهم: أنهم يأمرون بالمنكر والكفر والفسوق والعصيان، وينهون عن المعروف والطاعة والإيمان.

ومن صفاتهم: شحُّهم وبخلُهم وإمساكهم وبغضهم للنفقة والصدقة. ثم هم مع ذلك قد نسوا الله فلا يذكرونه إلا نادرًا، ونسوا طاعته وتقواه؛ فجازاهم الله من جنس عملهم بأن نسيهم، أي: تركهم وأبعدهم من رحمته فلا يوفقهم لخير في الدنيا، ولا ينجيهم من العذاب في الآخرة، واعلموا أن المنافقين هم الخارجون عن طاعة الرحمن والإيمان به، وهم في الدرك الأسفل من النار، كما أخبر بذلك سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

[٦٨] ثم وعد جل وعلا المنافقين والمنافقات والكفار أن يجتمعوا في نار جهنم، وألا يخرجوا منها أبدًا، وهذه النار هي عقاب لهم، وأنهم فيها مُبعَدون ومطرودون من رحمة الله، فلا أمل في الخروج منها؛ وهم فيها ماكثون مقيمون أبد الآبدين؛ ومن شدة العذاب أنهم يشعرون بالموت ويأتيهم من كل جزء من أجزاء أجسامهم ويتمنُّون ذلك ولكنهم لا يموتون زيادة لهم في العذاب.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

[٦٩] يحذِّر جل وعلا المنافقين من أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة التي كذبت برسلها، مع أن تلك الأمم كانت أشد منهم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا، وتمتعوا بكل شهوات الدنيا وملذاتها، وأنتم أيضًا تمتعتم بشهوات الدنيا كما تمتعوا، وخضتم في المعاصي والباطل والكفر والكذب علىٰ الله كما فعل أولئك، فاعلموا أن أولئك الذين كانت هذه أوصافهم قد بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الخاسرون بتفضيلهم نعيم الدنيا الزائل علىٰ نعيم الآخرة الدائم فاحذروا أيها المنافقون وياأيها المؤمنون مصير هؤلاء المجرمين.

[٧٠] ثم ساق جل وعلا لهؤلاء المنافقين – علىٰ سبيل الاتعاظ والتذكير – بعض أخبار وأحوال الأمم السابقة وما حصل لهم من العذاب الشديد، بسبب كفرهم وجحودهم، فقال سبحانه: ألم تأتِ هؤلاء المنافقين أخبار الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم، ولم يؤمنوا بهم فأهلكهم الله؟!؛ كقوم نوح الذين أُهلكوا بالغرق!، وعاد الذين أهلكوا بالريح!، وثمود الذين أُهلكوا بالصيحة!، وقوم إبراهيم الذين سلبهم الله النعم، وأحل بهم النقم!، وأصحاب مدين – وهم قوم شعيب – الذين أهلكهم الله بالرجفة!، وقوم لوط – وهم سكان سدوم – الذين أهلكهم الله بالحجارة وبقلب قراهم!!، فهؤلاء جميعًا جاءتهم أنبياء الله ورسلهم بالآيات الواضحات، والدلائل الظاهرات علىٰ وحدانية الله جل وعلا؛ فكذبوهم ولم يؤمنوا بهم، فأهلكهم الله بسبب تكذيبهم لرسلهم، وجحدهم لآيات ربهم، وما ظلمهم الله شيئًا، ولكن هم الظالمون لأنفسهم بتكذيبهم وعنادهم وإصرارهم علىٰ كفرهم.

[٧١] وحيث إن القرآن وُصف أنه مثاني، أي: يذكر الأمر ثم يذكر ما يقابله؛ فبعد أن أخبر جل وعلا عن بعض صفات المنافقين؛ أخبر سبحانه عن بعض صفات المؤمنين –ذكورًا وإناثًا–، ومن ذلك: أنهم يتولىٰ بعضهم بعضًا في المحبة والموالاة والنصرة والتأييد.

ومن صفاتهم: أنهم يأمرون أنفسهم وغيرهم بكل معروف حسَن من العقائد والأعمال والأخلاق، وينهون عن ضد ذلك من العقائد الباطلة، والأعمال السيئة، والأخلاق الرذيلة.

ومن صفاتهم: أنهم يقيمون الصلاة إقامة حسنة بخلاف المنافقين الذين لا يأتون إلىٰ الصلاة إلا وهم كُسالىٰ.

ومن صفاتهم: أنهم يعطون الزكاة والنفقة لمستحقيها بخلاف المنافقين الذين يقبضون أيديهم، وهم مع ذلك ملازمون لطاعة الله ورسوله فيما أُمروا بفعله، وفيما نُهوا عنه.

واعلموا أن أولئك المتصفين بهذه الصفات سيدخلهم الله في رحمته، وينجيهم من عذابه، إن الله عزيز في ملكه، غالب قوي قاهر، ومع قوته سبحانه فهو حكيم يضع الشيء في موضعه اللائق به، سبحانه وتعالىٰ.

[٧٢] ثم أخبر جل وعلا بما أعد لعباده المؤمنين – ذكورًا وإناثًا –، فقد وعدهم الله بجنات تنبع من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين في هذه الجنات أبدًا لا يخرجون منها، ولا يتحولون عنها، ولهم – أيضًا – مساكن حسنة جميلة مزخرفة، – تطيب نفوسهم بالنظر إليها –، كل ذلك في دار إقامة لا فناء فيها، ولا تحوّل عنها، ثم يحل الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ أهل الجنة رضاه، وهذا أكبر من كل ما أُعطوا، ومن جميع ما أوتوا، فأعظم نعيم أهل الجنة علىٰ الإطلاق: رؤية الكريم الرحمن، ورضاه عنهم، وذلك هو الفوز العظيم –الذي لا يعادله فوز–، والفلاح الكبير –الذي لا يعادله فلاح–، نسأل الله الكريم من فضله ورحمته أن يجعلنا والمسلمين منهم.

الجُزْءُ العَاشِرُ — سُورَةُ التَّوْبَةِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

١٩٩

[٧٣] وهذا أمر من الله جل وعلا لنبيه ﷺ أن يبالغ في جهاد الكفار والمنافقين، وأن يُشَدِّد عليهم، ويريهم الخشونة والقسوة، وذلك بالقتال بالسيوف والسنان، وبالحجة والبيان، هكذا تكون معاملتهم في الدنيا، أما في الآخرة فإن مقرهم الذي يمكثون فيه ولا يخرجون منه هو نار جهنم، وبئس المقر والمستقر إن لم يؤمنوا.

وهذا خاصٌّ بالمعاندين، أما المسالمون فَيُدْعَوْنَ بالَّتي هي أحسن.

[٧٤] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المنافقين يحلفون أنهم ما أساؤوا إليك يارسول الله وإلىٰ المؤمنين أبدًا، وقد كذبهم سبحانه وفضحهم، وبين أنهم قالوا كلمة الكفر التي أخرجتهم من الإسلام، وأن بعض المنافقين همُّوا بقتل الرسول ﷺ عند عودته من غزوة تبوك؛ فَأَعْلَمَ الله رسوله بخطتهم وأفشلها، وما عاب هؤلاء المنافقون علىٰ رسول الله وعلىٰ المؤمنين إلا أن الله أغناهم بعد فقر بما تفضل عليهم من الغنائم، فإن يتوب المنافقون والكفار ويرجعوا إلىٰ الإيمان فهو خير لهم، وإذا أصروا واستمروا علىٰ كفرهم ونفاقهم وعنادهم فإن الله سوف يعذبهم عذابًا موجعًا شديدًا في الدنيا علىٰ أيدي المؤمنين وفي الآخرة بنار جهنم، وليس لهم ولي يحفظهم أو ينفعهم، ولا نصير يدفع عنهم العذاب.

[٧٥] ثم أخبر جل وعلا أن من هؤلاء المنافقين صنف كانوا من الفقراء، فأعطوا الله العهد والميثاق لئن أعطاهم الله المال، وأغناهم؛ لَيُنْفِقُنَّهُ في وجوه الخير من صلة وصدقة وبر، وليكونن من عباد الله الصالحين.

[٧٦] ثم أخبر جل وعلا أنه بعد أن أعطاهم المال وأغناهم؛ نقضوا عهدهم، وأخلفوا وعدهم، وبخلوا به، وأمسكوه، ولم يؤدوا حقّه، ولم ينفقوه في وجوه الخير؛ بل تولوا عما تعهدوا به، وانصرفوا معرضين عن أوامر الإسلام والحق والخير؛ بل إن أحدهم منع الزكاة وقال: إنها أخت الجزية.

[٧٧] فكان جزاء إخلافهم للوعد: أنْ أخلفهم الله نفاقًا مستمرًّا مستقرًّا في قلوبهم، لا يستطيعون دفعه، ولا التخلص منه إلىٰ أن يلقوا الله سبحانه وتعالىٰ، وذلك بسبب نفاقهم وإخلافهم للوعد وكذبهم.

[٧٨] ثم بين جل وعلا لهؤلاء المنافقون أنه يعلم السر وما أخفىٰ، فقال سبحانه: ألم يعلم هؤلاء المنافقين أن الله يعلم ما يخفون في صدورهم من إضمار لإخلاف الوعد، ومن نفاق!، ويعلم ما يتحدثون به سرًّا مع بعضهم البعض من انتقاص وتكذيب، ومن كيد للإسلام وأهله! ألم يعلموا أن الله علام للغيوب!! وأنه لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء!، وأنه سبحانه سيجازيهم علىٰ كل ما عملوا!.

[٧٩] ولم يكتفِ هؤلاء المنافقون بإخلافهم للوعد، وببخلهم وشحهم؛ بل أخذوا يلمزون ويهزؤون ويعيبون المتصدقين ويؤذونهم، فإذا تصدق غني بمال كثير، قالوا: ما فعل هذا إلا رياء، وإذا تصدق فقير بمال قليل -حسب طاقته-، قالوا باستهزاء وسخرية: إن الله غني عن صدقة هذا، فكان جزاؤهم -من جنس جريمتهم- أن سَخِرَ الله منهم بأنْ أهانهم وأذلهم في الدنيا، ولهم العذاب الأليم الموجع الدائم في الآخرة.

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ
خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا
لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن
تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟
مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ
عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ
﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ
أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

[٨٠] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن استغفاره لهؤلاء المنافقين أو عدمه سواء، فمهما بالغت يانبي الله في الاستغفار لهم فإن الله لن يغفر لهم، واعلم أن ذلك الحكم الذي ذكره الله بعدم مغفرة ذنوبهم سببه أنهم كفروا بالله ورسوله ﷺ؛ بل وأعظم من ذلك أنهم وقعوا في النفاق وهو أعظم من الكفر، فلا ينفع معه استغفار ولا إنفاق، والله لا يوفق للهداية قومًا خرجوا عن طاعته وتمردوا علىٰ أمره، وردوا الحق الواضح البين.

[٨١] يخبر جل وعلا أن بعض المنافقين استأذن رسول الله ﷺ للقعود عن الجهاد والجلوس في المدينة - بلا عذر إلا لنفاقهم، وكرههم للجهاد بالمال والنفس - فأذن لهم، ففرحوا وسُرُّوا بهذا القعود، ولم يكتفوا بذلك؛ بل قاموا بتثبيط غيرهم، قائلين: لا تنفروا في هذا الحر الشديد، فقل لهم أيها الرسول: إن حرارة جهنم أشد وأبقىٰ من هذا الحر الذي فررتم منه، لو كنتم تفهمون.

[٨٢] ثم توعد جل وعلا المنافقين وعيدًا شديدًا علىٰ ما اقترفوا من الموبقات والآثام، فقال سبحانه: فليضحكوا ملء أفواههم، وليفرحوا بتخلفهم عن الجهاد، وبُعدهم عن الحر قليلًا في هذه الحياة الدنيا، ثم ليبكوا طويلًا في الآخرة، في نار جهنم الحارة حقًا، وليمكثوا فيها لا يخرجون منها أبدًا، جزاء ما قدموا، ونظير ما صنعوا، وهذا جزاء ما اكتسبوا.

[٨٣] ثم بين جل وعلا ما يجب علىٰ نبيه ﷺ نحو هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد كرهًا له، فقال سبحانه: فإن ردك الله يانبي الله من هذه الغزوة إلىٰ جماعة من المنافقين الذين تخلفوا من غير عذر، وفرحوا بهذا التخلف، فاستأذنوك للخروج معك ومرافقتك إلىٰ غزوة أخرىٰ، فلا تسمح لهم بذلك تصغيرًا لشأنهم وتبكيتًا لهم، وقل لهم عقوبةً لهم: لن تصحبوني أبدًا، ولن تقاتلوا معي عدوًّا أبدًا، فسيُغني الله عنكم، وعن خروجكم، فإنكم قد رضيتم واطمأنت نفوسكم للقعود أول مرة، فَاسْتَمِرُوا علىٰ قعودكم، وابقوا في بيوتكم مع الخالفين من النساء والصبيان، لينالكم الذل والعار في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

[٨٤] وبعد أن حكىٰ جل وعلا ما اتصف به المنافقون من منكرات نهىٰ رسوله ﷺ عن الصلاة عليهم، والدعاء لهم، وتشييع جنائزهم؛ لأنهم كفروا بالله وبرسوله، وماتوا وهم خارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

[٨٥] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يغتر بما أعطاهم الله من الأموال والأولاد، فإنها ستكون وبالًا وحسرة عليهم في الدنيا بمكابدة الشدائد والمشاق في تحصيلها، ثم يموتون علىٰ الكفر وأنفسهم متعلقة بهذه الأموال.

[٨٦] وفي استمرار الحديث عن المنافقين يبين جل وعلا أنه إذا أُنزلت سورة علىٰ النبي ﷺ تأمر بالإيمان بالله ورسوله ﷺ، وتأمر بالجهاد مع الرسول ﷺ؛ استأذن أصحاب الأموال الذين منَّ الله عليهم بالمال والأولاد، وقالوا: اتركنا يارسول الله نقعد مع أهل الأعذار من الصبيان والعجزة والنساء، وهذا يدل علىٰ جبنهم وخورهم وكسلهم وفشلهم، وشكِّهم في البعث والجزاء للشهداء؛ إذ لو آمنوا حقًّا لما تخلفوا.

رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

[٨٧] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المنافقين الذين استأذنوا النبي ﷺ رضوا بأن يقعدوا مع الخوالف أصحاب الأعذار، وفضلوا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة؛ فختم الله علىٰ قلوبهم لإصرارهم علىٰ النفاق والكفر، فلا يصل الحق إليها أبدًا، وبسبب تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله والخروج مع الرسول ﷺ، فهم لا يفهمون مصالحهم وما ينفعهم أو يضرهم.

[٨٨] وبعد أن بين جل وعلا عن حال المنافقين مع رسول الله ﷺ؛ أخبر سبحانه عن حال الصحابة معه ﷺ؛ حيث أخبر أنهم جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم؛ وفي هذا حث لهم علىٰ الإخلاص وتصحيح العبادة لله والجهاد مع رسول الله ﷺ، وأن لا يكونوا مثل الذين استأذنوك في التخلف مع أنهم لا عذر لهم؛ فعندهم العدة والمراكب وهم أصحاء؛ بل إن بعضهم يتسلل من غير استئذان، ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم لهم الخيرات التي تسر نفوسهم في الدنيا، وهم المفلحون الفائزون برضوان الله في الآخرة

[٨٩] ثم أخبر جل وعلا أنه أعد لهؤلاء المفلحين الفائزين في الآخرة جنات تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها، ماكثين فيها أبدًا، وهذا هو الفوز والفلاح الحقيقي الكامل.

[٩٠] يخبر جل وعلا أنه جاء إلىٰ النبي ﷺ جماعة من الأعراب يعتذرون، ويستأذنون في التخلف عن الجهاد، وجلست جماعة أخرىٰ من منافقي العرب كانت قد تخلفت عن الجهاد بلا عذر، وهؤلاء قد كذبوا في ادعائهم الإيمان أصلًا، وسيصيبهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

[٩١] ثم بين جل وعلا أصحاب الأعذار الحقيقية المباح لهم القعود والتخلف عن الجهاد، وهم: الضعفاء من النساء والصبيان، والمرضىٰ مرضًا لا يستطيعون معه الجهاد، وأيضًا: الذين لا زاد لهم ولا راحلة، ولا يملكون ما يتجهزون به للخروج؛ فهؤلاء ليس عليهم إثم ولا حرج بشرط أن ينصحوا لله ولرسوله ﷺ وأن تكون نياتهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وعليهم أن يفعلوا ما بوسعهم من العمل بالشريعة، والتحريض علىٰ الجهاد، فإنه ما علىٰ المحسنين الصادقين المعذورين من طريق لمعاتبتهم أو معاقبتهم ، والله غفور رحيم بعباده، ومن ذلك: عفوه عن العاجزين جسديًّا وماليًّا.

[٩٢] ثم بين جل وعلا لنبيه ﷺ صنفًا آخر من أهل الأعذار الصادقين، وهم الذين جاؤوا يطلبون ما يركبون من الدواب، ويطلبون الزاد للجهاد مع رسول الله ﷺ، فأجابهم معتذرًا: لا أجد ما أحملكم عليه، فكان من حالهم أن انصرفوا عنك وقد فاضت أعينهم من الدموع أسفًا وحزنًا وحسرة علىٰ ما فاتهم من شرف المشاركة في الجهاد، بسبب انعدام ما يبلغهم مقصودهم.

[٩٣] ثم بين جل وعلا أن طريق اللوم والمؤاخذة والمعاقبة يتوجه للذين جاؤوا يستأذنون للتخلف عن الجهاد وهم أغنياء المنافقين الذين يجدون ما يتجهزون به، وهؤلاء لحقارتهم ومهانتهم رضوا لأنفسهم أن يتركوا رسول الله ﷺ، وأن يقعدوا مع أهل الأعذار ومع النساء والصبيان في البيوت، ثم أخبر سبحانه أنه ختم علىٰ قلوب أولئك بالنفاق، فلا يدخلها إيمان ولا خير، ولا يعلمون ما فيه ربحهم، ولا يعلمون سوء عاقبتهم؛ فباؤوا بالخسران العظيم.

يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾

[٩٤] يخبر جل علا عباده المؤمنين، أنهم إذا رجعوا من غزوتهم، فإن المنافقين سوف يبدون لهم الأعذار الكاذبة لتخلفهم وقعودهم، ثم يأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون؛ لأن الله قد أخبرنا بحقيقة حالكم، وبما تخفون من نفاقكم، وسيرىٰ الله عملكم ورسوله، لأن العمل هو الميزان، وبه يتضح هل تبتم من نفاقكم وأخلصتم؟ أم أنكم مصرّون علىٰ عنادكم ونفاقكم؟ وبعد ذلك سترجعون إلىٰ من لا تخفىٰ عليه خافية فيخبركم بأعمالكم، ويجازيكم عليها.

[٩٥] ثم يخبر جل وعلا نبيه ﷺ والمؤمنين أنهم إذا رجعوا إلىٰ المدينة فإن المنافقين سيحلفون لهم بالله -الأيمان الكاذبة- معتذرين عن تخلفهم حتىٰ يُتركوا دون مساءلة أو لوم أو توبيخ، فاتركوهم واهجروهم واجتنبوهم تحقيرًا لشأنهم؛ فإنهم قذر، خبثاء، ومصيرهم ومكانهم اللائق بهم في الآخرة نار جهنم، بسبب أعمالهم الخبيثة، وبسبب ما اقترفوا من الآثام والنفاق.

[٩٦] ثم يخبر جل وعلا أن كثرة الحلف من صفات المنافقين، ولذلك فإنهم سيحلفون لكم أيها المؤمنون لغرض جديد، غير الأغراض السابقة، وهو أن ترضوا عنهم كأنهم لم يفعلوا شيئًا، فاحذروا ذلك أيها المؤمنون، فإن الله لم يرض عنهم، وعليكم موافقة ربكم في رضاه وغضبه، وهؤلاء قام بهم مانع من رضىٰ الله، وهو كونهم مستمرين علىٰ الفسق، والخروج عن طاعة الله وأمره.

[٩٧] ثم أخبر جل وعلا أن الأعراب وهم سكان البادية والبراري؛ أنهم أشد كفرًا ونفاقًا من غيرهم، وذلك لجفائهم وغلظ أخلاقهم، ولبعدهم عن سماع كتاب الله وما جاءت به الرسل، فهم لذلك أحق ألا يعلموا حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام، والله عليم بخلقه، حكيم في شرعه، وفي تدبير أمور عباده.

[٩٨] ثم أخبر جل وعلا أن بعض هؤلاء الأعراب يجعل ما ينفقه في الزكاة أو الجهاد في سبيل الله غرامة وخسارة ونقصًا؛ لأنه لا يحتسب فيها، وذلك لنفاقه وعدم قرار الإيمان في قلبه؛ بل وينتظر أن تحل بالمسلمين الدواهي والمصائب والآفات حتىٰ يمنع هذه النفقات، وهذا سينعكس عليهم، بأن ينقلب حالهم وتدور عليهم دائرة الهزيمة والشر والعذاب والبلاء والمكروه، والله سميع لما يقولونه، عليم بنيات العباد، وما يضمرونه.

[٩٩] ثم ذكر جل وعلا صنفًا ثانيًا من الأعراب محمودًا ممدوحًا، وهم الذين يؤمنون بالله ويصدقون باليوم الآخر، والجزاء والحساب، وهؤلاء يحتسبون نفقاتهم في الجهاد والزكاة وغيرها لوجه الله، ويتقربون بها إلىٰ الله، ويجعلونها وسيلة ينالون بها دعاء الرسول ﷺ واستغفاره لهم، فهذا مقبول منهم، ودعاء الرسول نافع لهم، فهم داخلون في رحمة الله وجنته، والله غفور يغفر سيئات من تاب، رحيم وسعت رحمته كل شيء.

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ
لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ
ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ
مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ
نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٖ ١٠١ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ
١٠٢ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ
إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ
وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ
إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦

[١٠٠] يبشر جل وعلا طوائف من عباده ببشريات عظيمة، وفي مقدمة هؤلاء: السابقون الذين سبقوا غيرهم إلىٰ الإيمان والهجرة والجهاد والنصرة، ومنهم المهاجرون الذين تركوا قومهم ووطنهم ومالهم ابتغاء مرضات الله، ومنهم الأنصار الذين آووا ونصروا رسول الله والمؤمنين، وآثروهم علىٰ أنفسهم، وهذه البشرىٰ تشمل أيضًا من اتبعوهم بإحسان في الاعتقادات والأقوال والأعمال الصالحة ممن جاء بعدهم إلىٰ يوم القيامة، تلك الطوائف: رضي الله عنهم، وتقبل منهم، وتجاوز عنهم -وهذا أعظم نعيم أهل الجنة-، وَرَضُوْا عَنْهُ بما حباهم من فضله، وأعطاهم من كرمه، وفوق ذلك: هيأ لهم جنات فيها قصور فخمة وأشجار جميلة تجري تحتها الأنهار، وهم ماكثون فيها أبدًا، وذلك هو الفلاح العظيم.

[١٠١] يخبر جل وعلا رسوله ﷺ وعباده المؤمنين أن المدينة النبوية حولها منافقون من الأعراب، وأيضًا في المدينة نفسها منافقون تمرسوا علىٰ النفاق ومهروا فيه، لدرجة أنك لا تعرفهم يانبي الله، وهذا لا يضر، فالله يعرفهم، وسينالون العذاب الشديد مرتين، وذلك: بفضيحتهم وبمصائب تصيبهم في أنفسهم وأهليهم في الدنيا، ويعذبون عند سكرات الموت وفي قبورهم، ثم يوم القيامة يردون إلىٰ العذاب العظيم في الدرك الأسفل من نار جهنم.

[١٠٢] ثم يخبر جل وعلا عن طائفة أخرىٰ من المدينة وممن حولها، خلطوا عملهم الصالح من إيمان وهجرة وجهاد، بعمل آخر سيِّيء من تخلفٍ عن هذه الغزوة بدون عذر، ثم ندموا علىٰ ذلك أشد الندم واستغفروا وتابوا، فهؤلاء عسىٰ الله أن يتقبل منهم توبتهم، إن الله غفور يغفر ذنب من تاب ورجع، رحيم بعباده، وسعت رحمته كل شيء.

[١٠٣] يأمر جل وعلا رسوله ﷺ أن يأخذ من أموال هؤلاء التائبين الزكاة المفروضة إذْ بها تَطْهُر نفوسهم من دنس الذنوب، وبها يزداد ثوابهم وتنمىٰ أموالهم، وادع لهم يامحمد بعد ذلك، واستغفر لهم، ففي ذلك رحمة بهم، وطمأنينة وتزكية لنفوسهم، والله سميع لتوبتهم، ولدعائك واستغفارك لهم، عليم بنيَّات وأقوال وأعمال العباد.

[١٠٤] ثم حرض جل وعلا عباده علىٰ التوبة وأخبر أنه يقبل توبة من تاب من عباده مهما كان ذنبه! وأنه يتقبل منهم الصدقات! ثم أخبر سبحانه أنه كثير القبول لتوبة التائبين! ولو تكررت أخطاؤهم ثم تابوا! وأنه هو الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء!

[١٠٥] وقل يا نبي الله لهؤلاء التائبين وغيرهم: اعملوا الخيرات من الأعمال، فإن الله مطلع عليكم، عليم بحالكم، وأعمالكم هذه سيراها الله ورسوله ﷺ والمؤمنون، وسيتبين أمركم، ثم بعد ذلك تُرْجَعون إلىٰ من يعلم السرَّ وأخفىٰ، فيخبركم بجميع أعمالكم، ويجازيكم عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وهذا فيه حث لهم علىٰ العمل الصالح.

[١٠٦] ثم بين جل وعلا عن حال قسم آخر ممن تخلفوا، فقال سبحانه: وآخرون ممن تخلفوا عن غزوة تبوك مؤخرون ومؤجلون، وأمرهم إلىٰ الله، وقد ندموا علىٰ التخلف عن الغزو؛ فهؤلاء إما أن يعذبهم بعدله وحكمته، وإما أن يعفو عنهم بفضله ورحمته، والله عليم بعباده، حكيم في أقواله وأفعاله، وقد فعل سبحانه؛ حيث شملهم برحمته وعفىٰ عنهم بعد أن صدقت توبتهم؛ كما أخبر بذلك سبحانه في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

[١٠٧] يحكي جل وعلا عن طائفة من المنافقين أنهم بنوا مسجدًا مضارَّة وكيدًا، ومؤامرة علىٰ المؤمنين، وكفرًا بالله، وتفريقًا بين المؤمنين، وذلك أنهم أرادوا أن يمكِّنوا ببنائه لأهل النفاق والكفر، وانتظارًا لذلك المنافق الذي افتضح أمره وهرب إلىٰ الشمال وهو أبو عامر الراهب الفاسق، فهم ينتظرونه ليجتمعوا في هذا المسجد ليخططوا للكيد للإسلام؛ فالله أفشلهم وفضح أمرهم، وكلف رسول الله ﷺ بعض الصحابة بهدم المسجد وحرقه، وجعلت أرضه مكانًا للنفايات والزبالة، ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المنافقين سيحلفون أنهم ما أرادوا ببنائهم هذا المسجد إلا الخير ونفع المسلمين، والتيسير علىٰ ضعيفهم وكبيرهم وضريرهم، والله يشهد إنهم لكاذبون في أَيْمَانِهِم، وشهادة الله عليهم بالكذب أوثق من أَيْمَانِهِم، وأصدق من حلفهم.

[١٠٨] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يصلي في هذا المسجد الضرار ولا يقوم فيه أبدًا؛ فإن الله قد أغناك عنه بمسجدك؛ حيث أخبر ﷺ أن المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم هو مسجده، وقيل: إنه مسجد قباء؛ فهو أحق بالصلاة والقيام والذكر والعبادة فيه، فهو مسجد فاضل كأهله الذين يحبون الطهارة الحسية والمعنوية، والله سبحانه يحب المتطهرين من الأحداث والذنوب. وقد ثبت في الأحاديث أن مسجد رسول الله ﷺ وهو المسجد النبوي أفضل من مسجد قباء ومن غيره من المساجد ما عدا مسجد الكعبة.

[١٠٩] يبين جل وعلا أنه لا يستوي مَنْ أسس بنيانه علىٰ قواعد محكمة وأساس متين خوفًا من ربه، قاصدًا رضىٰ الله سبحانه، ومَنْ أسس بنيانه علىٰ طرف مائل للسقوط متداع للانهدام قاصدًا التفريق بين المؤمنين، فانهار به بنيانه هذا وسقط به في نار جهنم، والله لا يهدي ولا يوفق القوم الظالمين المتجاوزين لحدوده.

[١١٠] ثم أخبر جل وعلا أن هدم وحرق مسجد الضرار الذي بنوه لا يزال يبعث النفاق والشك في قلوب هؤلاء المنافقين، ولا ينتهي هذا النفاق والشك إلا أن تتقطع قلوبهم بقتلهم أو موتهم، والله عليم بما في قلوب هؤلاء المنافقين، حكيم في تدبير شؤون عباده.

[١١١] وعد جل وعلا وعدًا صادقًا لا رجعة فيه، وأخبر خبرًا صادقًا لا مرية فيه؛ عن أعظم الصفقات علىٰ الإطلاق، في هذه الصفقة: يكون الله جل في علاه هو المشتري، والعوض فيها أعظم ما يكون: جنة عرضها السماوات والأرض، والثمن فيها أعظم ما يمكن بذله علىٰ الإطلاق، وهو: نفس المؤمن التي بين جنبيه -والجود بالنفس أقصىٰ غاية الجود-، ثم ما يملك من مال الدنيا، كل ذلك في سبيل الله لإعلاء دينه في الأرض، فيقاتلون أعداء الله فيَقتُلون منهم، ولهم علىٰ ذلك أجر وغنيمة، أو يُقتَلون ويُستشهدون، فيكرمهم الله جل في علاه، وتكون لهم المنازل العالية في الجنة، وأرواحهم في حواصل طير خضر تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلىٰ قناديل معلقة تحت العرش، ثم يؤكد سبحانه هذه الصفقة العظيمة بأنواع من التأكيدات: بأن ذلك مكتوب، ومُثْبَتٌ، ومُسَطَّرٌ في أعظم الكتب التي نزلت علىٰ أولي العزم من الرسل، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم يستفهم سبحانه استفهامًا بمعنىٰ النفي، فيقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾!!، أي: لا أحد مطلقًا أوفىٰ من الله بالعهود، والله لا يخلف الميعاد، ثم يأمر جل وعلا أصحاب هذه الصفقة الرابحة - مقَدَّمًا -، أن يفرحوا ويستبشروا، ويبشر بعضهم بعضًا بهذه التجارة الرابحة التي لم يربح أحد من الناس مثلها، وبهذا الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه، ولا أكبر ولا أجلّ.

اللهم إنا نسألك من فضلك ياكريم أن تجعلنا منهم. ولاحظ أن هذه الآية الوحيدة التي قُدمت فيها النفس علىٰ المال في الجهاد، ولا شك أن المال أعظم نفعًا للمجاهدين.

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

[١١٢] وصف جل وعلا عباده المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله بصفات، منها: أنهم ملازمون للتوبة في جميع أحوالهم، وأنهم عابدون طائعون مخلصون لله في عبادتهم، وأنهم يحمدون الله في كل أحوالهم وأوقاتهم، وأنهم يسافرون في طاعة الله ومرضاته؛ فيحجون ويعتمرون ويطلبون العلم، ويجاهدون في سبيل الله، ويكثرون من الصلاة ويحافظون عليها؛ لذا تراهم دائمًا في ركوع وسجود، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويحفظون حدود الله ويقفون عندها؛ فمن اتصف بهذه الصفات يانبي الله فبشره بالفوز العظيم والفلاح المبين.

[١١٣] يخبر جل وعلا أنه ما ينبغي للنبي والذين آمنوا أن يطلبوا المغفرة للمشركين الذين كفروا بالله وعبدوا معه غيره، وماتوا علىٰ ذلك، ولو كان هؤلاء المشركون أقرب نسبًا، فإن من مات علىٰ الشرك كان من أصحاب الجحيم لا محالة.

[١١٤] ثم أخبر جل وعلا أن استغفارَ إبراهيم عليه السلام لأبيه كان عن موعدة وعدها لأبيه بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم:٤٧]، وذلك قبل أن يتبين له عداوة أبيه لربه بالشرك، وأنه من أهل النار، فلما تبين له ذلك تركه وتبرأ منه، ولم يعد يستغفر له، واعلموا أن إبراهيم عليه السلام كثير التضرع والرجوع إلىٰ الله، وكثير العفو والصفح عمن آذاه.

[١١٥] ثم أخبر جل وعلا أنه ما كان ليضل قومًا بعد أن مَنَّ الله عليهم بالهداية حتىٰ يبين لهم جميع ما يحتاجون إليه من أحكام الدين، إنه سبحانه عليم بكل شيء، وقد علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ونسبة الإضلال إلىٰ الله لأنه هو الذي أقدرهم عليه؛ حيث جعل سبحانه الثقلين الإنس والجن مختارين، وبين لهم الخير والشر وهداهم لأخذ أحد الأمرين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، أي: الطريقين، وبين لهم ما يتقون؛ فإذا أخذ أحدٌ سبيل الضلال وأصر علىٰ الكفر حينئذٍ يكون إضلال الله له إضلالًا جزائيًا وليس ابتدائيًّا، وكذلك الطبع والختم.

وهكذا في القرآن كله فإن إضلال الضالين يكون بعد إبلاغهم وإيضاح الحق لهم؛ فإذا رفضوا وأصروا علىٰ الكفر طبع الله علىٰ قلوبهم وحقق لهم مرادهم؛ وإلا فإن الله سبحانه لا يحب ولا يرضىٰ لعباده الكفر، لكن حكمته أن جعل الإنسان مختارًا، ومن أجل أن لا يكون للناس علىٰ الله حجة كانت الرسالات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٤]، فإذا اتضحت للمكلف سبل السلامة وسبل الهلاك فاختار طريقًا منهما فهو المسئول عن اختياره فلا يلومن إلا نفسه.

[١١٦] يخبر جل وعلا أن له ملك السماوات والأرض، أي: خلقًا وملكًا وتصرفًا، وهو وحده سبحانه الذي يحيي ويميت؛ فإذا تخلىٰ الله عنكم فما لكم من أحد غير الله يتولاكم بجلب ما ينفعكم ودفع ما يضركم، وما لكم من دون الله من نصير ينصركم علىٰ عدوكم.

[١١٧] ثم ذكر جل وعلا أنه تاب علىٰ النبي ﷺ ومن معه من المهاجرين والأنصار الذين خرجوا معه لقتال العدو في غزوة تبوك وقد كانت في حر شديد وقلة زاد، وبعد أن كاد أن يتخلف بعضهم عن الجهاد، ولكن الله ثبت قلوبهم وتاب عليهم، إنه جل وعلا كثير الرأفة والرحمة بعباده.

والتوبة المذكورة في هذه الآية هي رفع الدرجة والتوفيق لها.

وَذِكْرُ النبي هنا مع أنه ﷺ معصوم ولم يخطئ إلا فيما عاتبه الله عليه بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]، ولكن كما قال ابن عباس رضي الله عنه: (فَذِكْرُهُ معهم هنا تلطيفٌ وتأليفٌ، ولئلَّا تستولي عليهم الحسرة، وليعلموا أنها صفحة طويت)؛ فالحمد لله علىٰ كرمه ولطفه بعباده.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ
بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ
مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم
مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ
بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ
وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا
يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ
لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ
فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

[١١٨] وكما تاب جل وعلا علىٰ النبي ﷺ وعلىٰ المهاجرين والأنصار؛ فقد تاب سبحانه علىٰ أولئك النفر الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، بعد أن حزنوا حزنًا شديدًا، وضاقت عليهم الأرض الواسعة، وضاقت عليهم أنفسهم من شدة الحزن، وتأكدوا أنه لا ملجأ لهم من غضب الله إلا بالتوبة والصدق، فوفقهم سبحانه لطلب التوبة والندم علىٰ المعصية؛ فتاب الله عليهم إنه هو التواب علىٰ عباده التائبين، الرحيم بهم.

[١١٩] وهذا نداء من الله جل وعلا لعباده المؤمنين، وأمر لهم بأن يحققوا التقوىٰ بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وبأن يكونوا مع الصادقين في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

[١٢٠] واعلموا أنه لا يصح ولا يحسن ولا يليق بأهل المدينة من مهاجرين وأنصار، ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا ويتأخروا في الغزو مع رسول الله ﷺ؛ ولا يرضوا لأنفسهم البقاء والراحة، ويقدموها علىٰ نفس رسول الله ﷺ الكريمة، وهو ﷺ مثلهم الأعلىٰ؛ فقد قدم ﷺ نفسه للجهاد وهو إمام المسلمين وقدوتهم؛ فعليهم أن لا يشحوا بأنفسهم وأن يقتدوا به ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿**لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ**﴾ [الأحزاب:٢١]، ثم أخبر سبحانه أن لهم في الخروج ثوابًا عظيمًا؛ فهم لا يصيبهم في ذلك الخروج للجهاد عطش ولا تعب ولا جوع شديد، ولا يدوسون أرض الكفار فيغيظونهم بذلك، ولا يصيبون منهم قتلًا أو أسرًا، أو هزيمة أو غنيمة؛ إلا كتب الله لهم ذلك في أعمالهم الصالحة التي سيثابون عليها أعظم الثواب؛ فخطواتهم في الذهاب والإياب مسجلة لهم، والله جل وعلا لا يضيع أجر المحسنين المخلصين الصادقين الذين أحسنوا في مبادرتهم واستجابوا لأمر الله.

[١٢١] وهؤلاء الذين خرجوا للجهاد في سبيل الله مع رسول الله ﷺ لا ينفقون نفقة في الجهاد قليلة ولا كثيرة، ولا يقطعون واديًا ذهابًا للعدوِّ أو إيابًا، إلا كتب الله لهم أجر ذلك العمل الصالح؛ ليجزيهم الله علىٰ جهادهم وتضحيتهم أحسن ما يكون الجزاء وأوفاه.

[١٢٢] واعلموا أنه ما ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعًا للجهاد، ولا ينبغي لهم أيضًا أن يقعدوا جميعًا عن الجهاد؛ بل يخرج منهم للجهاد جماعة تحصل بهم الكفاية، ويبقىٰ من لم يخرج للجهاد ليتفقهوا في الدين ويتعلموا العلم الشرعي، ثم يعلمونه غيرهم، ويُنذِرون قومهم ويحذرونهم بما تعلموه عند رجوعهم، لعلهم يحذرون عذاب الله وعقابه.

[١٢٣] يرشد جل وعلا المؤمنين أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب من الكفار، وليجدوا فيكم شدة وصبراً ومصابرة، واعلموا أن الله مع المتقين الذين يعملون بأوامر الله ويجتنبون نواهيه، فهو يؤيدهم وينصرهم.

[١٢٤] ثم وضح جل وعلا موقف المنافقين المخزي عند نزول القرآن؛ حيث يقولون سخرية واستهزاءً: أيكم زادته هذه السورة تصديقًا بالله وآياته؟، ثم بين سبحانه موقف المؤمنين المستبشرين برحمة من الله، أن هذه الآيات زادتهم إيمانًا ويقينًا وتصديقًا، وأنهم يفرحون بما أنزل الله من الآيات والسور علىٰ نبيه ﷺ، وبما فيها من الفوائد والأحكام.

[١٢٥] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين في قلوبهم شك ونفاق فقد زادتهم السورة شكًّا وحيرة ونفاقًا، واستمروا في كفرهم حتىٰ ماتوا وهم كافرون جاحدون بآيات الله وبرسوله ﷺ في قلوبهم.

[١٢٦] ثم وبخ جل وعلا هؤلاء المنافقين علىٰ قسوة قلوبهم وغفلتهم، فقال سبحانه: أولا يرىٰ هؤلاء المنافقون أن الله يبتليهم ويختبرهم بالبلايا من قحط ومرض وجوع، وبإظهار ما يبطنون من النفاق كل سنة مرة أو مرتين، ومع ذلك لا يتوبون ولا يرجعون عما هم عليه من الشر، ولا هم يذَّكَّرُون فلا يعملون ما ينفعهم، ولا يتركون ما يضرهم!

[١٢٧] ثم أخبر جل وعلا أنه إذا أنزل علىٰ رسوله ﷺ سورة من القرآن، وهم جلوس يسمعون، فإنهم لنفاقهم وشكِّهم يخافون أن تفضحهم هذه السورة وتنبئكم بما في قلوبهم، فينظر بعضهم إلىٰ بعض غمْزًا وإنكارًا وسخريةً، وعزْمًا علىٰ عدم تصديقها أو العمل بها، ثم يتساءلون في ريبة: هل يراكم أحد من المؤمنين؟! فإن لم يرهم أحد قاموا سراعًا متسللين مختفين -خشية الفضيحة-، ثم انصرفوا من ذلك المجلس، فعاقبهم الله -من جنس عملهم- فصرف قلوبهم وصدَّها وخذلها عن الحق ومعرفته، وعن الإيمان والانتفاع بهداية القرآن، بأن جعلهم لا يفهمون ولا يتدبرون.

[١٢٨] ثم ختم جل وعلا السورة بذكر مِنَّتَهُ العُظمىٰ علىٰ عباده المؤمنين بأن بعث فيهم رسولًا من جنسهم، ومن أفضلهم؛ يتألم بألمهم ويفرح بفرحهم، وهو حريص علىٰ إيصال الخير لهم ودفع الشر عنهم؛ وكثير الرأفة والرحمة بالمؤمنين، وهو الأمثل

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سُورَةُ يُونُس

والأصلح لأن يكون أسوة وقدوة لكل المؤمنين؛ فلله الحمد والشكر علىٰ نعمه التي لا تُحصىٰ، وأجلها وأكبرها أن حبب إلينا الإيمان، وأرسل إلينا أفضل رسله، وهو نبينا محمد ﷺ الذي هدانا الله لاتباع النور الذي جاء به.

وفي قوله: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾، أي: من جنسكم، وفي قراءة: (من أَنْفَسِكُم)، أي: من أَفْضَلِكم.

[١٢٩] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ: إذا أعرض بعض الناس عن دعوتك والإيمان بك يانبي الله فلا تيأس، وامض علىٰ سبيلك قائلًا: حسبي الله، يكفيني جميع ما أهمني، لا معبود بحق سواه، عليه اعتمادي وثقتي، وإليه التجائي، وبه استعانتي، وهو رب العرش العظيم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

سورة يونس

سورة يونس مكيّة وآياتها تسع ومائة آية. قال بعض المفسرين: إنها نهاية السبع الطوال، والأرجح: أن السبع الطوال انتهت بسورة التوبة.

[١] سبق الكلام علىٰ الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة. ثم أخبر جل وعلا أن ما يأتي من الآيات في هذه السورة؛ بل في آيات القرآن كله؛ هي آيات حكمة وبلاغة وهداية لمن كان له قلب واعٍ.

[٢] أنكر جل وعلا علىٰ كفار قريش تعجبهم من إنزال الوحي بالقرآن علىٰ رجل منهم وهو محمد ﷺ، مع أنه ليس في ذلك أي عجب، فإن من عادة الله في الأمم السابقة إرسال المرسلين من البشر ليبلغوا أقوامهم رسالة الله، فلو كان النبي ﷺ غير بشر فهل يصلح أن يكون أسوة؟ وهل سيعرف نفسيات البشر وضرورياتهم الحياتية؟ ثم يستعجبون كون الرسول بشرًا، ولا يستعجبون أن يعبدوا حجرًا أو صنمًا لا يضر ولا ينفع؛ فسبحان الله رب العالمين!!، والمراد بقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، الكفار عمومًا، وإنْ كان نزولها لكفار مكة. ثم بين سبحانه أنه أنزل هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ لِيُنذر الناس ويخوفهم من عذاب الله، ويبشِّر الذين آمنوا بالله ورسوله بأنَّ ما قدموه من الأعمال الصالحة هو ذخر لهم وقدم صدق يقدره الله لهم ويرفع به درجاتهم عنده، أما الذين كفروا بهذا القرآن فيقولون: إنَّ ما جاء به محمد سحر بين ظاهر البطلان، وهكذا يقال لكل الرسل: ساحر، كذاب، كاهن، به جِنَّةٌ؛ فكل من شَرِقَ بالدعوة وأحب الاستمرار في الضلال فإنه يتهم الرسل والدعاة إلىٰ الله بنفس هذه الاتهامات وغيرها.

[٣] يخبر جل وعلا أنه هو الذي أوجد السماوات والأرض وأبدعهما في ستة أيام، ثم ارتفع وعلا واستوىٰ علىٰ العرش؛ استواء يليق بجلاله، وهو سبحانه مستوٍ علىٰ العرش قبل خلق السماوات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]. والمقصود: أنه بعد أن خلق السماوات والأرض استوىٰ علىٰ عرشه؛ فأحاط عرشه بالسماوات والأرض؛ أي أن العرش سقف العالم كله، ولذلك إذا أراد امرؤ من الناس – في أي موضع كان من الأرض – أن يدعو الله فإنه يرفع يديه بالدعاء نحو العرش الذي استوىٰ عليه الله، والله من فوق عرشه يرىٰ القاصي والداني، ويسمع الداعي ولو دعا في سِرِّه. وهذا قول عامة أهل السنة والجماعة، أما الفرق الإسلامية الأخرىٰ فإنهم يؤولون هذه الصفة كغيرها من الصفات، فيقولون: (استوىٰ)، بمعنىٰ: استولىٰ، ولذلك يقال لهم: أليس الله قبل ذلك كان مستوليًا علىٰ كل شيء بما في ذلك العرش وغيره؟!. ثم بين سبحانه أنه من فوق عرشه يُقدِّر أمر الكائنات علىٰ ما قضت به حكمته، وأنه لا يتقدم أحد للشفاعة يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن الله له بالشفاعة، واعلموا أن ربكم الموصوف بهذه الصفات يجب عليكم أن تعبدوه وتخلصوا له العبادة، أفلا تتعظون وتعتبرون أيها الناس بهذه الآيات البينات والبراهين الواضحات؟.

[٤] يقرر جل وعلا في هذه الآية بدء الخلق في الدنيا ثم البعث، والرجوع إليه سبحانه، وأن هذا وعد صادق لا شك ولا مرية فيه، فالذي أنشأ وبدأ الخلق أول مرة من العدم قادر –من باب أولىٰ– علىٰ إعادته وبعثه، وذلك حتىٰ يلقىٰ الناس نتيجة أعمالهم ويحاسبوا عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فالذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله ﷺ، وعملوا بجوارحهم الأعمال الصالحة؛ يجازيهم الله أحسن الجزاء وأوفره بالعدل، وأما الذين جحدوا وكذبوا؛ فأولئك جزاؤهم جهنم لهم فيها ماء حار يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم، ولهم أنواع وأصناف من العذاب الأليم بسبب كفرهم وتكذيبهم وضلالهم.

[٥] واعلموا أن نِعَمَ الله علىٰ عباده لا حصر لها، ومنها المصالح الدنيوية والأخروية؛ فالشمس جعلها الله ضياء وسراجًا ليسعىٰ الناس إلىٰ مصالحهم؛ فحرارتها تبخر البحار فتتكون السحب والأمطار، وتجعل الثمار تستوي؛ وبها وبالقمر تعرف السنون والأبراج والفصول، وغير ذلك من المنافع الدنيوية. واعلموا أن الله ما أوجد الشمس والقمر إلا لِحِكَمٍ عظيمة، وأعظم هذه الحِكَم أنها دالة علىٰ كمال قدرة الله وحكمته، والله يبين هذه الأدلة والبراهين لقوم يعلمون الحكمة من إيجاد الخلق.

[٦] يخبر جل وعلا أن في تعاقب الليل والنهار، وكل ما خلق في السماوات والأرض من عجائب مخلوقاته، وما فيهما من جمال وإبداع ونظام؛ لأدلة وبراهين واضحة علىٰ عظمة خالقها، وهذه الآيات لا يفهمها إلا من يخشىٰ عقاب الله وسخطه وعذابه.

[٧] تحكي هذه الآية حكاية الدهريين والطبيعيين وكفار مكة الذين لا يؤمنون بالبعث ولا بالحساب، ويقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، ويقولون أيضًا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان:٣٥]، أي: وما نحن بمبعوثين؛ فهؤلاء لا يطمعون في لقاء الله، وقد رضوا بالحياة الدنيا الفانية، واطمأنوا إلىٰ زينتها وزخرفها، وهم ساهون لاهون عن آيات الله الواضحة البينة.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين لا يطمعون في لقاء الله أن مصيرهم ومقرهم نار جهنم خالدين فيها جزاء بما كسبوا من الأعمال السيئة والشرك والضلال والكفر.

[٩] ثم أخبر جل وعلا عن حال أهل الإيمان، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل بمقتضاه من الأعمال الصالحة بالجوارح، مع إخلاصهم ومتابعتهم، فهؤلاء: يرزقهم الله الهداية بسبب هذا الإيمان الصادق، وهذا يوصلهم إلىٰ الخلود في جنات تجري الأنهار من تحت بساتينها وقصورها، يُنَعَّمُونَ فيها نعيمًا تامًّا، وأعظم نعيمهم: النظر إلىٰ وجه الرحمن جل جلاله.

[١٠] ثم أخبر جل وعلا أن دعاء المؤمنين وعبادتهم ونداءَهم في الجنة قولهم: سبحانك اللهم؛ فدعاؤهم في الجنة تسبيح الله وتقديسه، وبه تطمئن قلوبهم، ويُلْهَمُونه كما يُلهَمون النفس، أما التحية من الله، أو من الملائكة، أو لبعضهم البعض فهي: سلام، وآخر دعائهم قولهم: الحمد لله رب العالمين.

[١١] قال بعض كفار مكة لمحمد ﷺ -لما ذكر لهم الآخرة والنار وَأَخْذَ الله للظالمين في الدنيا قبل الآخرة-، قالوا: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص:١٦]، أي: أعطنا نصيبنا من العذاب في الدنيا قبل يوم الحساب؛ وقد قالوا ذلك علىٰ سبيل الحماقة والسخرية؛ فأخبر جل وعلا ردًّا عليهم: أنه لو عجَّل لهم إجابة دعائهم في الشرِّ كاستعجاله لهم في الخير لهلكوا، وما أمهلوا طرفة عين؛ فالله سبحانه لطيف بعباده؛ فهو العَالِمُ أن منهم من سَيُسْلِمُ، ومنهم من سيلد ذرية صالحة، وأنهم سوف يساعدون المسلمين في الجهاد ونشر الإسلام، وهكذا تم؛ فلله الحمد والشكر، ثم بين سبحانه أنه يترك الذين لا يطمعون في لقائه في تمردهم وضلالهم يترددون حائرين لاهين في دنياهم.

[١٢] وهذا أبلغ وصف للإنسان إذا حاصرته الشدائد والنكبات فإنه يلتجئ إلىٰ الله عز وجل، ويجأر بالدعاء والتضرع إليه في الشدة، وكذلك يلتجيء إلىٰ الله في كل الأحوال؛ سواء كان مضطجعًا علىٰ الفراش، أو قائمًا، أو قاعدًا، ثم إذا أزال الله مخاوفه وكشف الضر وشفي ربما – إذا كان مؤمنًا – حمد الله وشكره، ثم إذا مر الزمان نسي ألطاف الله وكرمه عليه، ونسي ما كان فيه من الشدة والبلاء وتفريج الله عنه؛ ككثير من البشر، والآية حكت أبلغ وصف في نكران الجميل والإحسان.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

فنسأل الله السلامة، وأن يعافينا من هذا الاختبار؛ فَقَلَّ من ينجح في هذه الابتلاءات؛ بل إن بعضهم ينسب نجاة مركبه إلىٰ مهارة القائد، وشفاء مريضه إلىٰ مهارة الطبيب، وينسىٰ المتفضل الأول وهو الله. ثم بين سبحانه أنه كما زيِّن لهذا الإنسان القدرة علىٰ الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء، فإنه زيِّن للذين أسرفوا ما كانوا يعملون من الذنوب والمعاصي، أي: أنه أعطىٰ كلًّا اختياره.

[١٣] يخبر جل وعلا عن حال الأمم السابقة التي ظلمت نفسها بالشرك، وكذبت الرسل، فكان أنْ أهلكهم الله بعدما جاءتهم الرسل بالآيات الواضحات والمعجزات الباهرات التي تدل علىٰ صدقهم، فلم يؤمنوا ولم ينقادوا ولم يذعنوا، فكان مصيرهم الإهلاك، وهو مصير كل مجرم مكذب متجاوز لحدود الله. وفي الآية تحذير شديد لأهل مكة إن هم لم يؤمنوا، فإن سنة الله ماضية عليهم، وأن مصيرهم الهلاك والبوار.

[١٤] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل الناس خلفاء في الأرض، أي: يخلف بعضهم بعضًا؛ بعد أن أهلك تلك الأمم السابقة الجاحدة المكذبة، ليرىٰ ماذا يعملون من الخير والشر؛ ولا شك أن الله عالم سلفًا كيف يعملون قبل عملهم، لكنه سبحانه لعدله لا يحاسب إلا عندما يقع العمل منهم فعلًا، فيثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ
لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ
إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل
لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ
فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا
عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا
فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا
كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا
ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

[١٥] بين جل وعلا تعنت أولئك المنكرين للبعث الذين لا يعجبهم ذكر الحشر والنار؛ والذين يريدون قرآنًا حسب أهوائهم، وربما ينتظرون لعله أن يتغير شيءٌ مما قال محمد ﷺ فيثبتوا أنه كذَّاب؛ فيكون مدخلًا لهم لتشكيك أتباعه من المؤمنين، ومعلوم أن مكائد هؤلاء الكفار كثيرة، ولكن الله حافظ رسوله ﷺ منهم ومن غيرهم، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: لا ينبغي ولا يجوز لي أن أبدل شيئًا من هذا القرآن من تلقاء نفسي، فإنما أنا عبد ورسول مأمور أن أتبع ما يأتيني به الوحي؛ وإني أخاف إن عصيت وخالفت أمر ربي أن يعاقبني في ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة.

[١٦] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: لو شاء الله ما قرأت هذا القرآن عليكم، ولا أَعْلَمَكم بما فيه من النور والهداية، ولتركَكم في ضلالكم وغيكم تعمهون، وأنتم تعلمون أني عشت فيكم أربعين سنة ولم تجربوا عليَّ كذبًا، أفلا تستعملون عقولكم وأفكاركم ثم تشكرون نعمة الله عليكم حيث أنزل رسالته فيكم.

[١٧] يخبر جل وعلا أنه لا أحد أشدَّ ظلمًا من صنفين:

الأول: الذي يتقول علىٰ الله ويختلق عليه الكذب.

والثاني: الذي يكذب بآيات الله ويجحدها بعدما جاءته.

فهؤلاء خائبون لا يفلحون ولا يظفرون بمطلوب أبدًا.

[١٨] ثم يخبر جل وعلا عن هؤلاء المشركين: أنهم يدعون مع الله آلهة أخرىٰ لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًّا، ويبررون هذا الشرك بقول باطل لا دليل عليه: أن هذه الآلهة تقربهم وتتوسط لهم عند الله، فقل لهم يانبي الله: أتخبرون الله بأمر خَفِيٍّ عليه وعَلِمْتُمُوه أنتم؟!! تقدَّس الله في علاه، وتنزه أن تكون معه آلهة أخرىٰ، وهذا تبكيت لهم.

[١٩] يخبر جل وعلا أن جميع الناس كانوا مؤمنين متفقين علىٰ دين الإسلام، ثم اختلفوا؛ فمنهم من بقي علىٰ إيمانه، ومنهم من بدَّل وكفر، ولولا كلمة سبقت من الله سبحانه بإمهال العاصين، وعدم تعجيل العقوبة لهم؛ لقضىٰ الله بنجاة المؤمنين، وهلاك الكافرين، ولكن يؤخرهم ليوم لا ريب فيه، وهذا ينطبق علىٰ قوم نوح عليه السلام وعلىٰ من شاكلهم.

[٢٠] يقترح هؤلاء المكذبون المعاندون فيقولون: لو لا أُنزل علىٰ محمد آية خارقة – وكأنهم لم يعتدُّوا بما أنزل الله عليه من الآيات البينات–، فأخذوا يقترحون معجزات من قبل أنفسهم، فقل لهم يانبي الله عند طلبهم هذه الآيات: إنما الغيب لله، فلا يعلم الغيب أحد إلا الله، فانتظروا حكم الله بيننا، إني منتظر ذلك، وسوف تعلمون عاقبة تكذيبكم وعنادكم.

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ
فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ
٢١ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ
وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ
وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ
دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ
مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ
ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣
إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ
بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ
عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ
بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ
إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥

[٢١] بين جل وعلا حال المشركين إذا بدّل حالهم من العسر لليسر، ومن المرض للصحة، ومن الفقر للغنىٰ، ومن الجدب والقحط إلىٰ المطر والبركة، فإنهم يقولون هذه سنن الدهر، ولا يعترفون بأن الله هو المقدر لذلك كله، ويقولون: ﴿قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف:٩٥]، وسرعان ما يستهزؤون بآيات الله ويكذبون بها، فقل لهم يانبي الله: الله أعجلُ عقوبةً، وأسرع مكرًا واستدراجًا لكم، واعلموا أن الحَفَظَةَ من الملائكة يكتبون ما تعملون.

[٢٢] ثم يخبر جل وعلا أنه وحده هو الذي يسيركم في البر علىٰ الدواب وغيرها، وفي البحر علىٰ السفن وغيرها، وفي الجو علىٰ الطائرات، ثم وصف سبحانه حال الكفار عندما يركبون البحر وتجري بهم السفن بريح طيبة، ويفرح الركاب بهذه الريح، وفجأة تأتي ريح شديدة تعصف بهم، ثم تأتي الأمواج العالية في البحر وتحيط بهم، وتأكدوا أن الهلاك قد أحاط بهم من كل جانب؛ لجأوا إلىٰ الله مخلصين له الدين، ونسوا أوثانهم وأولياءهم؛ وهكذا لو أحاطت بهم الكوارث في البر كالزلازل والبراكين، أو اشتدت بهم العواصف وضربتهم الفياضانات، عند ذلك يقولون: لئن أنجيتنا ياربنا من هذا الكرب وهذا البلاء لنكون من الشاكرين لك علىٰ نعمك.

[٢٣] ثم بين جل وعلا أنه إذا فرَّج كربهم وأنجاهم، وأزال الخطر الذي أحاط بهم رجعوا إلىٰ ما كانوا عليه من البغي والفساد في الأرض بغير الحق، وقالوا: هذه كوارث طبيعية، أو نسبوا النجاة لبراعة القائد أو الطبيب، ونسوا الذي استغاثوا به فأنقذهم، فاعلموا أيها الناس إنما بغيكم سوف يعود عليكم، فاستمتعوا بنعيم الدنيا الزائل ما شئتم؛ فإنما إلىٰ الله مرجعكم ومصيركم، ثم يخبركم سبحانه بكل ما عملتموه في الدنيا، ويجازيكم عليه؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٢٤] ثم ذكر جل وعلا الحياة الدنيا ووصفها بأبلغ وصف تصله العقول، فهي كالأرض إذا نزل عليها المطر تزدهر وتطيب وتحلو للناظرين، وتنبت بها أنواع الزروع والأشجار والثمار التي يأكل منها الناس والحيوانات؛ حتىٰ إذا ظهر حسنُ هذه الأرض وجمالها، وظن سكانها أنهم في نعيم مستمر، وأنهم قادرون علىٰ حصادها والانتفاع بها، فجأة يحل بها قضاء المَلِكُ ليلًا أو نهارًا فتصبح حصيدًا وهشيمًا كأن لم تزدهر وتطيب بالأمس؛ فكذلك سوف يقع الفناء علىٰ ما تتفاخرون به من دنياكم، فيحصل الموت للأهل والأقارب وخراب البيوت والقصور، وهذه سنة الله في خلقه فهو الذي كتب علىٰ الدنيا وأهلها الفناء، وكما بيَّن لكم سبحانه حال الدنيا ونهايتها؛ فقد بيَّن الحجج والبراهين الواضحة لقوم يتفكرون في آيات الله ويتدبرون ما ينفعهم في الدنيا والآخرة. فنسأل الله تعالىٰ الخاتمة الحسنة.

[٢٥] واعلموا أيها الناس إنسًا وجنًّا أن الله يدعوكم إلىٰ الجنة، ثم يمنُّ بالهداية إلىٰ الصراط المستقيم علىٰ من يشاء من عباده ممن أراد الهداية ويعينه علىٰ ذلك؛ فالدعوة عامة وفضل الله خاص بالمستجيبين الراغبين برضوان الله.

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

[٢٦] يبين جل وعلا أن جزاء الذين أحسنوا في عبادة الله في الدنيا: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي: الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾، وهي: رؤية وجه الله الكريم يوم القيامة، فنسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وقارئي هذه الأسطر من المحسنين أصحاب الزيادة، التي هي رؤية وجه الله الكريم، كما جاء ذلك عند مسلم وأحمد عن صهيب رضي الله عنه، ثم أخبر سبحانه أنه لا تَسْوَدُّ وجوههم من دخان النار عند البعث، ولا يشعرون بالخزي والخذلان، وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم أصحاب الجنة باقون فيها أبد الآبدين في نعيم دائم لا ينقطع.

[٢٧] يحب جل وعلا المحسنين ويزيدهم من فضله، ويكره الكفار والظالمين والفاسقين، ولكنه يترفع عن ظلمهم وزيادة العقوبة عليهم، فلذا أخبر سبحانه أن جزاء السيئة لا يضاعف عليهم، وأنها تكتب بسيئة مثلها، ويوم القيامة تغشاهم ذلة من الهوان والخزي، وليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من عذاب الله وسخطه، وتراهم كأنما غطَّت وجوههم أجزاء من سواد الليل المظلم من شدة ما يحيط بهم من دخان جهنم، ونهاية أمرهم أنهم من أصحاب النار خالدون فيها لا يخرجون منها أبدًا.

فانظر يارعاك الله الفرق بين الفريقين؛ فريق الجنة وفريق السعير!!.

[٢٨] وتذكر يانبي الله يوم أن يُحشر الناس جميعًا يوم القيامة للحساب والجزاء، ثم يقول سبحانه للمشركين تقريعًا وتبكيتًا لهم: الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم في الدنيا من دون الله حتىٰ نحكم بينكم وبينهم وتروا ما يحل بكم، ثم يفرق الله بين العابد والمعبود؛ فيتبرأ المعبودون ممن عبدوهم ويقولون لهم: لم نأمركم بعبادتنا في الدنيا وإنما عبدتم أهواءَكم وشياطينكم الذين أغووكم وأمروكم بعبادتنا فأطعتموهم.

[٢٩] ثم إن الله ينطق هذه الأصنام والأوثان فتقول: كفىٰ بالله شهيدًا بيننا وبينكم أننا لم نأمركم ولم نرض بعبادتكم لنا، فقد كنا جمادًا لا روح فينا، لذا كنا في غفلة عن عبادتكم؛ ولم نشعر أنكم كنتم تعبدوننا.

[٣٠] ثم بين جل وعلا أن كل شخص يوم القيامة يرىٰ نتيجة ما عمل في الدنيا، ثم ترد كل نفس إلىٰ ربها الحقيقي، فيضمحل الباطل الذي اصطنعه الكفار، واختفت عنهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، فلم تشفع لهم ولم تدفع عذاب الله وعقابه الذي كُتِبَ عليهم.

[٣١] وقل يارسول الله لهؤلاء المشركين والكفار: من الذي يرزقكم من السماء والأرض؟ ومن الذي يحيي؟ ومن الذي يميت؟ ومن الذي يملك ما تتمتعون به من السمع والأبصار؟ ومن الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي؟ إلىٰ آخر هذه الأسئلة التي سيجيبونك بعدها: بأنه الله؛ حينئذ قل لهم يانبي الله: أفلا تخشون عقوبة الله إذا عبدتم غيره.

[٣٢] وقل لهم يانبي الله: فاعلموا أن هذا الذي اعترفتم أنه: الخالق الرازق، المحيي المميت، الذي يملك سمعكم وأبصاركم، ويخرج الحي من الميت والميت من الحي، وغير ذلك؛ اعلموا أنه هو ربكم الإله الحق الذي يستحق أن تفردوه بالعبادة، فماذا أيها الضالون بعد الحق إلا الضلال المبين، ثم أجبهم يانبي الله علىٰ سبيل التعجب والإنكار: فكيف تصرفون عن عبادته وشكره سبحانه إلىٰ عبادة ما سواه؟

[٣٣] واعلموا أنه كما صَرَفَ هؤلاء المشركون أنفسهم عن الحق إلىٰ الضلال، وأصروا علىٰ الكفر بعد أن قامت عليهم الحجة؛ فكذلك حقت ووجبت عليهم كلمة الله بعدم هداية الذين يخرجون عن طاعته وصرفهم عن هدايته، فلا يؤمنون بوحدانية الله، ولا يصدقون برُسُله، وهذا اختيارهم؛ حيث جعلهم الله مختارين فاختاروا الكفر والضلال واستمروا عليه فثبتهم الله علىٰ ما اختاروا جزاءً وليس ابتداءً.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾

[٣٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل السخرية: هل يستطيع أحد ممن تدعون من دون الله أن يُنشيء خلقًا من عدم ثم يفنيه ثم يعيده مرة أخرىٰ؟ ثم قل لهم: اعلموا أن الله وحده هو الذي ينشيء الخلق ثم يفنيه ثم يعيده مرة أخرىٰ؛ فكيف تنصرفون وتنحرفون عن عبادته سبحانه إلىٰ عبادة غيره؟!

[٣٥] وقل لهم يانبي الله: هل من شركائكم من يرشدكم إلىٰ مصالحكم في الدنيا والآخرة؟ أو يدلكم علىٰ طريق الحق والاستقامة؟ فسوف يقولون: لا؛ فحينئذ قل لهم: إن الله وحده الذي يهدي إلىٰ الحق، ثم قل لهم: أليس الذي يرشد الناس إلىٰ الحق وإلىٰ ما يصلحهم -وهو الله- أحق بالعبادة والاتباع؟! أم أن الذي لا يستطيع هداية نفسه -وهي الأصنام-، ولا تهدي أحدًا هي الأحق بالاتباع؟!؛ فما الذي دهاكم وأتلف عقولكم؟ وكيف تحكمون هذا الحكم الفاسد؟.

[٣٦] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المشركين لا يتبعون في عبادتهم إلا الظن والوهم والتخرُّص، ولا شك أن الظن الفاسد لا يغني من اليقين والحقيقة شيئًا أبدًا، ومعلوم أن أمر الدين والعقيدة لا ينفع فيه الظن والشك؛ لأنه مبني علىٰ العلم الذي جاءت به الرسل، والذي يتضح به الحق من الباطل، واعلموا أن الله عليم بكفر هؤلاء وشركهم وتكذيبهم، وفي هذا تهديد ووعيد لهم، وأن الله مجازيهم علىٰ ذلك.

[٣٧] ثم بين جل وعلا أن هذا القرآن كلام الله لا يستطيع أن يقوله أحد من الخلق، أو أن يأتي بمثله؛ لإعجازه لفظًا ومعنىً وبلاغةً، وَلِمَا يحتويه من علوم الأولين والآخرين وعلوم الغيب، ثم أخبر سبحانه أنه كلام الله ووحيه أنزله مصدقًا للكتب السماوية السابقة، وأنه تبيين وتوضيح لأحكام الله وفرائضه وشرائعه، وأنه لا شك ولا مرية في أنه وحي نزل من رب الخلائق أجمعين.

[٣٨] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين المكذبين -عنادًا وبغيًا- يقولون: إن هذا القرآن لم يوحَ إلىٰ محمد؛ بل افتراه واختلقه من عند نفسه، ثم أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم: إذًا، فأتوا أنتم بسورة واحدة مثله في البلاغة والفصاحة والإعجاز، وادعوا من شئتم يظاهركم ويعاونكم في ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم أن هذا القرآن مُخْتَلَقٌ من قِبَل محمد.

[٣٩] بين جل وعلا أن الكفار استعجلوا في تكذيب القرآن قبل أن يتفهموه ويعرفوا فوائده ومقاصده، وقد ذمهم جل وعلا علىٰ التقليد وترك النظر والتعقل والتفكر في مقاصده ومعرفة ما سيئول إليه أمره، والتأويل عند المفسرين هو شرح الآية وتوضيحها، ويأتي كما ذكر هنا بمعنىٰ: مآل الأمر، أي: حدوثه ورؤيته عيانًا، وربما يكون المقصود الأول وهو: أنهم لم ينتظروا شرحه وتفسيره فبادروا بالإنكار والتكذيب، كما قال يوسف لأبيه لما سجدوا له: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف:١٠٠]، يقصد تفسيرها، ثم بين سبحانه أنه كما كذب مشركو مكة نبيهم ﷺ؛ فكذلك كان تكذيب آيات الله وجحدها من الأمم السابقة؛ فانظر يانبي الله كيف أهلكناهم وعذبناهم بسبب تكذيب رسلنا ظلمًا وعلوًّا وكفرًا وعنادًا.

[٤٠] واعلم يانبي الله أن من قومك من يصدق بالقرآن، ومنهم من لا يصدق به؛ فجحده ورفض الإيمان به مكابرة وحسدًا وظلمًا وعنادًا وإفسادًا كأبي جهل وغيره، ثم بين سبحانه أنه أعلم بالمفسدين، وفي هذا تحذير لمن يصد الناس ويصرفهم عن دين الله.

[٤١] أرشد جل وعلا نبيه ﷺ إذا كذبه قومه ورفضوا الهدىٰ الذي جاء به؛ أن يقول لهم: إن جزاء أعمالي علي، وجزاء أعمالكم عليكم، وأنتم بريئون أمام الله من أعمالي، وأنا بريء أمام الله من أعمالكم، وقوله: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡ﴾ [يونس:٤١]، شرح لقوله تعالىٰ: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، أي: أن البراءة تكون بعد الدعوة والتبليغ، وبعد أن يكذبوا بالرسالة.

[٤٢] واعلم يانبي الله أن من هؤلاء الكفار من يستمع إليك وقت تلاوتك القرآن، استماعًا يتطلبون فيه عثرة لك حتىٰ يكذبوك، ولذلك حُرموا التوفيق للهداية؛ فهؤلاء كالأصم الذي لا يعقل؛ فهل تستطيع يانبي الله أن تُسمعه كلام الله؟ فكذلك هؤلاء الكفار الذين أغلقوا آذانهم عن سماع الحق لا يمكن أن تُسمعهم كلام الله إسماعًا ينتفعون به.

وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

[٤٣] واعلم أيضًا يانبي الله أن من هؤلاء الكفار من ينظر إلىٰ هديك وأخلاقك وأعمالك، ويرىٰ آثار النبوة ظاهرة عليك، ومع ذلك لا يهتدي، ولا يرىٰ ببصيرته نور الإيمان، فهؤلاء كالأعمىٰ الذي لا يبصر؛ فهل تستطيع يانبي الله أن تخلق له بصرًا يهتدي به إلىٰ الطريق؛ فكذلك هؤلاء الكفار الذين فقدوا بصيرتهم لا يمكن أن تهديهم إلىٰ طريق الله المستقيم.

[٤٤] ثم أخبر جل وعلا أن الله لا يظلم الناس شيئًا؛ فلا ينقص من حسناتهم ولا يزيد في سيئاتهم؛ بل خلقهم علىٰ أكمل وجه، وجعل لهم من الإدراك ما يميزون به الخير من الشر، والحق من الباطل، ولكن الناس يظلمون أنفسهم باتباع أهوائهم وإعراضهم عن الحق، ومخالفتهم أمر الله ونهيه لشهوة أو شبهة، والشيطان يحسن لهم ما هم فيه من الضلال.

[٤٥] يخبر جل وعلا عن مشهد من مشاهد يوم البعث، فبعد أن يُحْشر الناس في صعيد واحد يشعرون بسرعة انقضاء الدنيا وزوالها، كأنهم ما لبثوا فيها إلا ساعة واحدة من النهار يتعرف بعضهم علىٰ بعض كحالهم في الدنيا ثم يفترقون، ففي ذلك الموقف العظيم يفوز وينجو من آمن بالله وامتثل أوامره وصدَّق بالبعث، ويهلك ويخسر من كفر وكذَّب بالبعث وبلقاء الله، ومن كانت هذه حاله فما هو بموفق ولا هو برشيد.

[٤٦] يخاطب جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: إما أن نريك بعض ما وعدنا الكفار به من العذاب في الدنيا بقتلهم وأسرهم؛ فتقر بذلك عينك، وتطمئن نفسك، وإما أن نتوفينك قبل ذلك، ثم يكون إلينا مرجع ومصير هؤلاء الكفار، فنعذبهم في الآخرة العذاب الشديد، ونحن شهداء عليهم، لا يخفىٰ علينا من أمرهم ولا من أعمالهم شيءٌ، وفي هذا وعيد شديد لهم، وتسلية وطمأنة للنبي ﷺ.

[٤٧] يخبر جل وعلا أنه ما من أمة مضتْ إلا جاءها رسول من عند الله يدعوهم إلىٰ التوحيد؛ فإذا جاءهم بالآيات فإن الناس ينقسمون فمنهم من آمن وصدق، ومنهم من كذب وكفر؛ فيقضي الله بينهم بالقسط والعدل فينجو من آمن، ويهلك من كذَّب، ولا يظلم الله الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

[٤٨] ويقول المشركون للنبي ﷺ ومن معه من المؤمنين علىٰ وجه الإنكار والتكذيب والعناد: متىٰ ميعاد قيام الساعة التي سنُعَذَّب فيها! إن كنتم صادقين فيما تقولون؟ وهم بهذا يستعجلون عذاب الله وسخطه.

[٤٩] فقل لهم أيها الرسول الكريم: ليس لي من الأمر شيء، فأنا لا أستطيع دفع الضر عن نفسي، ولا جلب النفع لها -إلا بإذن الله-، وما عليَّ إلا البلاغ والبيان، واعلموا أن لكل أمة وقتًا محددًا لها تنقضي فيه آجالهم وتفنىٰ فيه أعمارهم؛ فإذا جاء ذلك الوقت فلا يستأخرون ساعة واحدة ولا يستقدمون.

[٥٠] وقل يانبي الله لهؤلاء المستعجلين للعذاب: أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلًا أو نهارًا هل تطيقونه وتقدرون علىٰ تحمله؟! فأي مكسب استعجلتموه! وأي عقاب وعذاب ابتدرتموه أيها المجرمون!، ثم إنه لو جاء لا يمكنكم الرجوع والتوبة.

[٥١] ثم يقال لهؤلاء المشركين زيادة في تأنيبهم: أتستمرون في التكذيب والعناد؛ فإذا وقع عليكم العذاب تقولون آمنّا!! وحينئذ لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل، ولهذا يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: آلآن!! تؤمنون بعدما عاينتم العذاب وأنتم في شدة ومشقة؟! وقد كنتم تستعجلون بالعذاب تكذيبًا منكم واستنكارًا.

[٥٢] ثم يقال للذين ظلموا أنفسهم بالشرك وتجاوُز حدود الله علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء بهم: ذوقوا العذاب الشديد الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، فأنتم في نار جهنم خالدون، وهل هذا إلا جزاء ما كسبت أيديكم من الكفر والتكذيب واستعجال العذاب!

[٥٣] ثم يخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين المعاندين يقولون علىٰ وجه التعنت: أحق وصحيح يامحمد حشر العباد وبعثهم؟! أحق وصحيح ما تَعِدُنا به من عذاب يوم القيامة؟! فقل لهم أيها الرسول: أقسم لكم بربي إنه لحق لا مرية فيه، وما أنتم بمعجزين لله، ولا مفلتين منه، فسيبعثكم ويجازيكم علىٰ أعمالكم.

[٥٤] ثم أخبر جل وعلا لو أنَّ لكلّ نفس ظلمت بالكفر والشرك والمعاصي ملء الأرض ذهبًا وفضةً وغيرهما وأمكنها أن تفتدي به من العذاب لفعلت، ولكن هيهات، فإن ذلك لن ينفعها أبدًا، وإنما الذي ينفعها هو الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، ثم بين سبحانه أن الذين ظلموا أخفوا ندامتهم وحسرتهم لما عاينوا عذاب الله وعقابه، وبين سبحانه أيضًا أن من عدله أنه قضىٰ بينهم بالعدل التام الذي لا ظلم فيه.

[٥٥] ثم أخبر جل وعلا أن جميع ما في السماوات والأرض ملك لله تعالىٰ يتصرف فيها كيف شاء، ثم نبه سبحانه وذكَّر أن لقاء الله ووعيده بعذاب المشركين حق وكائن وواقع لا محالة، ولكن أكثر الناس في غفلة وإعراض عن حقيقة ذلك.

[٥٦] ثم أخبر جل وعلا أنه وحده القادر علىٰ الإحياء والإماتة -لا شريك له في ذلك-، وإليه مرجع جميع الخلائق يوم القيامة فيحاسبهم علىٰ أعمالهم.

[٥٧] وهذا نداء من الله جل وعلا لجميع الناس إنسهم وجنهم مسلمهم وكافره، يخبرهم فيه أنه أنزل لهم أعظم موعظة وهو هذا القرآن الذي بين أيدينا، وما اشتمل عليه من الآيات، يذكرهم عقاب الله ويحذرهم وعيده، ويصلح أخلاقهم وأعمالهم، ثم بين سبحانه أن في هذا القرآن دواء لما في القلوب من أمراض الجهل والشرك وغيرها من الأمراض، وهداية وَرُشْدًا لمن اتبعه وتدبر آياته واهتدىٰ بهداه، ورحمة لعباده المؤمنين الذين صدقوا بآياته وآمنوا بما جاء به من العبر والمواعظ والأحكام والشرائع والحلال والحرام، وعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه.

وهذه الآية من آيات الشفاء التي يستعملها الرقاة لشفاء المرضىٰ؛ لأن فيها الهدىٰ والرحمة والشفاء؛ فلله الحمد والشكر علىٰ ألطافه ورحمته بعباده، وهي خير من حطام الدنيا مهما كثر.

[٥٨] وقل يانبي الله لجميع البشر: اعلموا أن الفرح الحقيقي هو بما جاءهم من الهدىٰ ودين الحق، ولقاء الله، وثوابه للمؤمنين ورحمته بهم، والفوز بجنته، هذا هو الفرح الحقيقي الذي يدوم ولا ينقطع، وهذا خير مما يجمعون من حطام الدنيا الزائل.

وقد قيل في تفسير قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾، أي: القرآن، ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾: أي الرسول ﷺ.

[٥٩] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين المعاندين: أخبروني عن الرزق الذي ساقه الله إليكم فقسمتموه علىٰ أهوائكم فجعلتم بعضه حلالًا وبعضه حرامًا: هل أذن الله لكم في ذلك؟!، أم هذه الأحكام من قبل أنفسكم؟! فاعلموا أنكم تقولتم وكذبتم في هذه الأحكام علىٰ الله؟!.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحْمَةٞ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٞ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٖ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٖ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٖ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

[٦٠] ثم أنكر جل وعلا عليهم جرأتهم وكذبهم علىٰ الله، فقال: ماذا يظن ويتوقع هؤلاء الذين يكذبون علىٰ الله -فيُحِلُّون ويُحَرِّمُون حسب أهوائهم- أن يُصنع بهم يوم القيامة؟! وهم بين يدي الله؟! واعلموا أن الله لذو فضل ومَنٍّ وإحسان علىٰ الناس، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ولكن أكثر الناس لا يشكرون نعم الله، فلا يعترفون لِمُنْعِمِهَا بالفضل؛ بل يستعملونها في معصيته، وقليل من عباد الله الشكور.

[٦١] واعلم يانبي الله أنك ما تكون في أمر من أمورك الهامة، وما تتلوا من القرآن، وما يعمل أحد من الناس عملًا؛ إلا كان الله مطلعًا عليه مراقبًا له عند شروعه في ذلك العمل وبدئه فيه، وما يغيب عن علم الله جل وعلا وزن ذرة أو أكبر أو أصغر منها، إلا كان ذلك مسجلًا في كتاب واضح بيِّن.

وهذا خطاب للنبي ﷺ ليبلغ الناس أنهم تحت رقابة الله لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأن كل فعل أو قول مسطر محفوظ.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

[٦٢] أخبر جل وعلا أن أولياءه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقد بين سبحانه صفات هؤلاء الأولياء في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٣-٥].

[٦٣] ثم أخبر سبحانه أن أولياء الله هم الذين اتصفوا بالإيمان بالله ورسوله وعملوا بشرعه، وكانوا يخشون الله باتباع ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر.

[٦٤] وأخبر أيضًا أن أولياء الله لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا والآخرة، ثم بين سبحانه أنه لا يخلف وعده ولا يبدله، وأن ذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده؛ لأنه اشتمل علىٰ النجاة من كل محذور، والظَّفَر بكل مطلوب محبوب، وهذا من أعظم المطالب والمقاصد التي يسعىٰ لها المؤمنون الصادقون.

[٦٥] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن النبي ﷺ كان حريصًا علىٰ إيمان الكفار والمشركين، وكان يحزنه إصرارهم علىٰ الكفر، ومعاداتهم وأذاهم للمؤمنين المستضعفين، ولذا قال جل وعلا رحمة برسوله ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦]؛ فالمصطفىٰ ﷺ بذل قصارىٰ جهده في إبلاغ رسالة ربه، وآلمه كثيرًا أن لا يستجيبوا ولا يؤمنوا؛ فالله سبحانه طلب منه الرفق بنفسه، وأخبره أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون من مكر وعداوة للمؤمنين، واعلم يانبي الله أن المتفرد بالقوة الكاملة والقدرة التامة والغلبة الشاملة في الدنيا والآخرة؛ هو الله جل في علاه؛ وهو سميع لأقوال عباده، عليم بكل ما يصدر منهم من أقوال وأفعال.

[٦٦] ثم أخبر جل وعلا أن له جميع من في السماوات والأرض خلقًا وملكًا وتصريفًا وتدبيرًا، وما دام الأمر كذلك فهؤلاء الذين اتخذوا شركاء من دون الله علىٰ أي شيء اتخذوهم شركاء؟ وبأي حق صرفوا لهم العبادة؟! إن يتبعون إلا الوهم والكذب والبهتان والشك الذي لا يغني من الحق شيئًا، وما هم إلا متقولون كاذبون.

[٦٧] ثم يخبر جل وعلا أنه وحده هو الذي جعل الليل وهيأه للسكن فيه والهدوء والنوم والراحة بسبب الظلمة التي تكسو وجه الأرض، وهو وحده سبحانه الذي جعل لكم النهار مضيئًا لتتمكنوا فيه من العمل وكسب الرزق، واعلموا أن في تقلب الليل والنهار واختلافهما دليلًا واضحًا علىٰ وحدانية الله جل في علاه، وهذه الآيات تنفع الذين يستمعون سَمْعَ فهم وقبول واسترشاد وتفكر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

[٦٨] ثم أخبر جل وعلا عن فرية عظيمة افتراها المشركون والنصارىٰ، وهي قولهم: إن الله اتخذ له ولدًا!!، فنزَّه سبحانه نفسه عن ذلك، وبين بطلان فريتهم بثلاثة أشياء:

الأول: أنه هو الغنيُّ الغنىٰ المطلق التام، وأنه الحي القيوم الذي لا يموت، وإذا كان كذلك فَلِمَ يتخذ الولد؟!

الثاني: أنه سبحانه له جميع ما في السماوات والأرض، وكل ذلك داخل في ملكه وعبوديته؛ فَلِمَ يتخذ الولد؟!

الثالث: سألهم سبحانه: هل عندكم دليل أو حجة أو برهان تدل علىٰ أن لله ولدًا؟! فلو كان عندهم دليل لأظهروه، وبما أنهم مفترون كاذبون فلن يأتوا بدليل، فعُلِم بطلان ما قالوه، ثم وبخهم سبحانه بقوله: أتقولون علىٰ الله ما لا تعلمون؟!

[٦٩] وقل لهم يانبي الله متوعدًا إياهم: إن الذين يفترون الكذب علىٰ الله، ومن ذلك ادعاؤهم له الولد والشريك؛ هؤلاء لا يفلحون ولا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة.

[٧٠] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الذين يفترون علىٰ الله فيدعون له الولد أنهم يتمتعون في الدنيا متاعًا قليلًا مع كفرهم وكذبهم وافترائهم، ثم تنقضي آجالهم ويرجعون إلىٰ الله فيذيقهم العذاب الشديد المؤلم الموجع جزاء كفرهم وكذبهم وافترائهم علىٰ الله، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم كانوا يظلمون.

[٧١] ذكر جل وعلا لنبيه ﷺ ما لاقىٰ الأنبياء السابقون من أقوامهم، ومنهم نوح عليه السلام؛ حيث دعا قومه ليلًا ونهارًا وسرًّا وجهارًا، فرأىٰ ضجر قومه منه وإصرارهم علىٰ البقاء علىٰ الضلال، وقد أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقرأ علىٰ مشركي قريش قصة نوح عليه السلام؛ حيث قال نوح لقومه: ياقوم إن كان عظم عليكم مقامي فيكم وتذكيري إياكم بحجج الله وبراهينه؛ فعلىٰ الله وحده أعتمد وبه أثق، فاجتمعوا وتهيؤوا واطلبوا من شركائكم أن يساعدوكم، ثم لا تجعلوا أمركم سرًّا؛ بل اجعلوه ظاهرًا منكشفًا، ثم تخلصوا مني وأعطوني الشهادة في سبيل الله ولا تمهلوني ساعة من نهار؛ لأنهم هددوه بالقتل والرجم إذا لم يتوقف عن دعوتهم وتذكيرهم بالله، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]؛ فسلمه الله منهم وأنجاه هو ومن معه في الفلك.

[٧٢] ثم قال نوح لقومه: فإن أعرضتم عن دعوتي ولم تستجيبوا إلىٰ ما أرسلت به إليكم؛ فأنا لم أسألكم أجرًا ولا مالًا مقابل دعوتي إياكم؛ لأن أجري وثوابي علىٰ الله وحده، وهو الذي أمرني أن أكون من المسلمين المنقادين لشرعه وحكمه.

[٧٣] ثم أخبر جل وعلا أن قوم نوح استمروا علىٰ تكذيبهم لرسولهم ولم يؤمنوا به، فنجىٰ الله نبيه نوحًا ومن آمن معه في السفينة التي أمره الله بصنعها، ومكّن الله لهم في الأرض وجعلهم خلفًا لأولئك المكذبين الهالكين، ثم بين سبحانه أنه أغرق المكذبين بالطوفان بعدما قامت عليهم الحجة وجاءهم البرهان، فانظر يانبي الله كيف كانت نهاية ومصير من كذب برسل الله، أنْ أهلكهم الله وأخزاهم ولعنهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

[٧٤] يخبر جل وعلا عن حال الأمم بعد هلاك قوم نوح، وأنه أرسل في كل أمة رسولًا يدعوهم إلىٰ التوحيد، وأيده بمعجزات ظاهرات، وآيات بينات واضحات تدل علىٰ صدقه وأنه رسول من عند الله، فما صدقوا ولا آمنوا؛ بل كذبوا وأعرضوا، وفعلوا كما فعل قوم نوح فعاقبهم الله كما عاقب قوم نوح بأنْ ختم علىٰ قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان، وهذا مصير كل معتدٍ علىٰ الأنبياء مبادرٍ لتكذيبهم، مخالفٍ لما جاؤوا به من عند الله.

[٧٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل بعد هؤلاء الرسل موسىٰ وهارون عليهما السلام إلىٰ فرعون وملائه وأيدهما بالآيات التسع؛ فاستكبروا عن الاعتراف بها بعد أن أيقنوا بها في قلوبهم، كما قال الله عن فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، وقال موسىٰ لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢]، ولهذا أخبر سبحانه أن فرعون وملأه كانوا قومًا مشركين مكذبين بآيات الله ورسله.

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

[٧٦] فلما جاء موسىٰ إلىٰ فرعونَ وقومَهُ بالحق وأيقنوا به، قالوا علىٰ سبيل العناد والغرور: إن الأدلة والبراهين والمعجزات التي جاء بها موسىٰ إنما هي سحر ظاهر وليست من عند الله جل وعلا.

[٧٧] ثم قال موسىٰ لفرعون وقومه علىٰ سبيل التعجب من تكذيبهم بالأدلة والبراهين: أتدَّعون ظلمًا وزورًا أن الحق الذي جئت به هو من السحر، وأنتم تعلمون أنه لا يفلح ولا يفوز الساحرون؛ بل ينكشف سحرهم وينفضح أمرهم.

[٧٨] ثم قال فرعون وقومه لموسىٰ وهارون عليهما السلام: إنك أتيت لتنزع الرئاسة منَّا، وتصرفنا عمَّا وجدنا عليه آباءنا الأولين، وهدفكما أن تكون لكما العظمة والسلطان والمنصب في أرض مصر، كما قال تعالىٰ: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ [القصص:٤٨]، واعلما أننا لسنا لكما بمقرِّين ومعترفين بأنكما رسولان من رب العالمين؛ لعبادة الله وحده لا شريك له.

ومعلوم أنه لم يؤمن من الأمم السابقة التي أرسل إليها الرسل إلا قوم يونس عليه السلام، كما قال تعالىٰ في هذه السورة: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

[٧٩] ثم قال فرعون لقومه: أحضروا لي كل ماهر في السحر متقن له.

[٨٠] فلما قَدِمَ السحرة قال لهم موسىٰ: انشروا سحركم، واطرحوا ما لديكم علىٰ الأرض من عِصِيٍّ وحبال ليثبت بطلانه.

[٨١] فلما ألقىٰ السحرة حبالهم وعصيهم، وخُيِّل للناس أنها حيات، قال موسىٰ: إن هذا الذي صنعتموه إنما صنعتموه لتنصروا به الباطل، وتصدوا به عن الحق، ومع ذلك: فإن الله سيبطله وسيمحقه وسيجعله هباء؛ فيعلم الناس حقيقة باطلكم، واعلموا أن الله لا يصلح عمل المفسدين.

[٨٢] ثم ألقىٰ موسىٰ عصاه فانقلبت حيّة عظيمة التهمت كل ما ألقاه هؤلاء السحرة، فبطل سحرهم، وظهر باطلهم، وسجد السحرة حيث أيقنوا بالحق، وبين الله الحق للناس وأظهره وأعلاه وثبته بكلماته وأمْرِهِ، ولو كره ذلك الحق من كرهه من المجرمين الذين يريدون علوًّا في الأرض وفسادًا.

[٨٣] ثم بين جل وعلا أنه لم يؤمن مع موسىٰ إلا ذرية قليلة من بني إسرائيل، وهم مع ذلك خائفون وجلون من بطش فرعون وملئه أن يصدهم ويفتنهم عن دينهم بأصناف العذاب، فإن فرعون كان ظالمًا متسلطًا مستبدًا مستكبراً، وكان من المتجاوزين للحد المتغطرسين.

[٨٤] وقال موسىٰ لمن آمن معه: إن كنتم آمنتم بالله حقًّا، وأسلمتم له صدقًا، فثقوا به واعتمدوا عليه، وسلِّموا أمركم له، والجأوا إليه، واطلبوا منه النصر والتمكين.

[٨٥] فامتثل قوم موسىٰ لقوله قائلين: علىٰ الله توكلنا، وفوضنا أمرنا إليه، ودعوا الله قائلين: يارب لا تُمكّن القوم الظالمين منّا، ولا تسلطهم علينا؛ فيعذبونا ويفتنونا عن ديننا، ويفتنوا غيرنا ممن ينظر لحالنا.

[٨٦] ودعوا الله أيضًا قائلين: ونجِّنا يارب من هؤلاء القوم الكافرين؛ حتىٰ نقيم دينك وشرعك.

[٨٧] ولما اشتد الحصار علىٰ أتباع موسىٰ عليه السلام ومنعوهم من أداء شعائرهم الإسلامية في الكنائس أوحىٰ الله إلىٰ نبيه موسىٰ وأخيه هارون وقومهم أن يتخذوا لهم في مصر بيوتًا ويجعلوا فيها أماكن متجهة إلىٰ القبلة يؤدون فيها صلاتهم وشعائرهم، ثم أمر سبحانه بالمحافظة علىٰ الصلوات المفروضة في أوقاتها، وأمر موسىٰ أن يبشر المؤمنين المطيعين لله بالنصر والتمكين في الدنيا، والثواب الجزيل من الله سبحانه وتعالىٰ في الآخرة.

وقوله: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فيها قولان:

الأول: اجعلوا بيوتكم يقابل بعضها بعضًا ليسهل حراسة بعضكم بعضًا.

والثاني: اجعلوا صلاتكم في بيوتكم متجهين للقبلة.

[٨٨] ثم دعا موسىٰ عليه السلام علىٰ فرعون وملئه لما طغوا وتجبروا وأعرضوا، فقال: ربنا إنك أعطيت فرعون وقومه زينة يتزينون بها، وأعطيتهم أمولًا كثيرة فاستعانوا بذلك علىٰ الصدِّ عن سبيلك وإضلال الناس، اللهم ربنا أتلف أموالهم فلا ينتفعون بها، اللهم وقسِّ قلوبهم، واختم عليها، فلا تنشرح للإيمان فلا يؤمنوا إلا إذا عاينوا عذاب الله وعقابه فلا ينفعهم حينها الإيمان.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةًۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

[٨٩] وكان هارون عليه السلام يؤمِّن علىٰ دعاء موسىٰ، لذا قال الله لهما: قد استجبت دعوتكما، فاثبتا علىٰ الدين، واستمرا في الدعوة إلىٰ الله، ولا تتبعا سبيل من انحرف عن دين الله، وضل وجهل.

[٩٠] ثم أخبر جل وعلا أنه يسَّر لموسىٰ وقومه مجاوزة البحر بعد أن جعل لهم فيه طريقًا يبسًا علىٰ ماء متجمد؛ فلحقهم فرعون وجنوده ظلمًا واعتداءً، ودخلوا البحر ومشوا علىٰ الطريق اليبس؛ فلما خرج موسىٰ وقومه من البحر؛ أمر الله الماء المتجمد أن يذوب، فانطبق البحر علىٰ فرعون وقومه فأغرقهم جميعًا، فلما أيقن فرعون بالهلاك، قال: ءامنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل، وأنا من المسلمين؛ فآمن حين لا ينفع الإيمان.

[٩١] فرد جل وعلا علىٰ فرعون فقال له: آلآن تؤمن وتقر بالعبودية؟ وقد عصيت من قبل وكفرت وكذّبت وادعيت الألوهية! وكنت من المفسدين في الأرض ومن المستكبرين؛ فهذا وقت لا ينفع فيه الإيمان؛ لأن الموت قد حضر، وأُغلق باب التوبة.

[٩٢] ثم أمر جل وعلا البحر أن يقذف بجثة فرعون علىٰ الساحل بعد هلاكه ليكون عبرة للمعتبرين، وآية للناس أجمعين، فلا يسلكوا طريق العناد والكبر والتكذيب وادعاء الألوهية ومحاربة أولياء الله، ومع ذلك فإن كثيرًا من الناس عن هذه الآيات والعبر وغيرها غافلون لاهون، لا يتعظون ولا يعتبرون.

[٩٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل بني إسرائيل -بعد نجاتهم- منزلًا مباركًا طيبًا صالحًا، وأغدق عليهم سبحانه رزقًا حلالًا طيبًا، فاستمروا علىٰ الإيمان والوحدة، وما اختلفوا في أمر دينهم وفي الحق، ولا تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم الموجب لاجتماعهم ووحدتهم، ولكن بغىٰ بعضهم علىٰ بعض واتبعوا أهواءهم، فحصل لهم الاختلاف والفرقة، فالله سبحانه سيقضي بينهم يوم القيامة بالعدل في جميع ما كانوا فيه يختلفون.

[٩٤] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ: فإذا كنت يانبي الله في ريب من هذه الأخبار التي أوحيناها إليك فاسأل أولئك الذين يقرأون التوراة والإنجيل؛ فسوف تجد ذلك ثابتًا في كتبهم، واعلم أنه قد جاءك الحق من ربك أنك رسول الله، ولكن اليهود والنصارىٰ ينكرون ذلك مع علمهم به، فلا تكوننَّ من الشاكِّين في صحة ذلك وحقيقته.

ومعلوم أنه ﷺ لم يشك وحاشاه ذلك، وقد علق الشيخ الشنقيطي في تفسير أضواء البيان علىٰ هذه الآية وعلىٰ قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الزمر:٦٥]، وقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٢٢]، وقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود:١٠٩]، وقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:٦٠]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[الإنسان:٢٤].

فقال: (ومعلوم أنه ﷺ لا يفعل شيئًا من ذلك، ولكن الله يخاطبه ليوجه الخطاب إلىٰ غيره). ثم قال: (ومن الآيات الدالة علىٰ أنه ﷺ يوجه إليه الخطاب، والمراد بذلك التشريع لأمته لا نفس خطابه هو قوله تعالىٰ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣]، لأن معنىٰ قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾، أي: إذا بلغ والداك أو أحدهما الكبر ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، ومعلوم أن والديه ﷺ قد ماتا قبل ذلك بزمن طويل؛ فتبين أن المراد التشريع لغيره ﷺ).

فالحاصل: أن الرسول ﷺ لم يشك ولم يسأل وحاشاه ذلك، والمقصود هنا المنافقون وغيرهم ممن تراودهم الشكوك، فعليهم أن يحزموا أمرهم ويتأكدوا ويسألوا الراسخين في العلم ممن يقرأون الكتاب حتىٰ لا يفجأهم الموت فيخسروا الدنيا والآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه الآية حضٌّ لكل من في نفسه شك أن يسرع في البحث وإزالة الشك لئلا يدركه الموت وهو في شك فيخسر الدنيا والآخرة.

[٩٥] ثم وجه سبحانه الخطاب لنبيه ﷺ فقال له: ولا تكونن يانبي الله من الذين كذَّبوا وجحدوا آيات الله وأدلته الظاهرة، فإن جزاء من فعل ذلك: الخسران المبين؛ وهو ﷺ مبرأٌ مما هو أقل من ذلك ولكن المراد تبليغه لأتباعه.

[٩٦] واعلم أن الذين حقت ووجبت عليهم كلمة الله بالطرد والإبعاد من رحمته -بسبب إعراضهم وردهم للحق أول مرة- هؤلاء جزاؤهم أنهم لا يؤمنون أبدًا.

[٩٧] ثم أخبر جل في علاه أن هذا الصنف من الناس مهما جاءته المواعظ والعبر فإنه لن يؤمن ولن يصدق حتىٰ يشاهد ويعاين العذاب الأليم؛ كما فعل فرعون، وهذا الإيمان لا ينفعهم، ولا يُقبل منهم، ولا يجدي عليهم شيئًا.

فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

[٩٨] ثم سلىٰ سبحانه نبيه ﷺ فقال له: واعلم يانبي الله لو أن أي قرية من قرىٰ المكذبين الجاحدين آمن أهلها عندما نزل بهم العذاب لم ينفعها إيمانها؛ لأن العذاب إذا نزل لا يرفع، ثم استثنىٰ سبحانه قوم يونس، فإنهم أوشكوا أن ينزل بهم العذاب فأسلموا وتابوا إلىٰ الله وأنابوا إليه، فرفع الله عنهم العذاب المخزي الذي كاد أن ينزل بهم ويستأصلهم، ثم تركهم جل وعلا إلىٰ حين انقضاء آجالهم في الحياة الدنيا.

[٩٩] ثم سلىٰ جل في علاه نبيه ﷺ فقال له: ولو شاء ربك يانبي الله لجعل أهل الأرض كلهم مؤمنين، ولكن اقتضت حكمته سبحانه أن يجعلهم مختارين فيؤمن قوم ويكفر آخرون، وليس في إمكانك يانبي الله ولا في قدرتك ولا في وسعك أن تُكره الناس علىٰ الدخول في الإيمان؛ فما عليك إلا البلاغ.

[١٠٠] واعلموا أنه ما كان لأي نفس أن تؤمن بالله وتصدق به إلا بإرادة الله ومشيئته وتوفيقه، ويجعل سبحانه الشر والضلال والعذاب والخزي علىٰ الذين لا يعقلون حجج الله ولا يفهمون آياته ولا يتدبرونها، وقد أَذِنَ جل في علاه وجعل الثقلين مختارين؛ فمنهم من اختار الهدىٰ، ومنهم من اختار الكفر والضلال، عدلًا منه وفضلًا حتىٰ ينفي الظلم عن نفسه.

[١٠١] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يأمر قومه بأن ينظروا ما في السماوات والأرض، وما حل بالأمم السابقة، ولكن الآيات والعبر المنزلة والرسل المبعوثة بالحجج والبراهين والمعجزات لا ينتفع بها من كفر بالله وجحد آياته، وأعرض عن دينه، وإنما تنفع المطيع لربه، المنقاد لأوامره ونواهيه.

[١٠٢] ثم قال عز وجل: فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا يومًا يرون فيه عقاب الله وعذابه كما وقع بمن كفر من أسلافهم؟ فيعلمون أن مصير الضالين الهلاك، فقل لهم يانبي الله: انتظروا عذاب الله وعقابه فإني منتظر معكم عقاب الله بكم، وأما أنا فمنتظر نصر الله وتأييده لي عليكم.

[١٠٣] يخبر الله جل وعلا أن الرسل وأتباعهم هم أهل النجاة، فينجيهم الله من شدائد ومصائب الدنيا والآخرة، وهذا حق أوجبه الله علىٰ نفسه، فالله سبحانه يدافع عن الذين آمنوا.

[١٠٤] يأمر جل وعلا سيد المرسلين أن يقول للمعارضين: إن كنتم تشكّون في صحة ما جئتكم به من الحق وهو الإسلام الذي دعوتكم إليه المؤيد بالآيات الواضحات؛ فإنني أخالفكم وأنكر ما أنتم عليه من عبادة الأصنام والأوثان، وأتوجه وأخلص عبادتي لله ربي وربكم الذي هو يحييكم ويميتكم، وإنني أقدس أمره وأمتثله، وأمرت أن أكون من المصدقين به العاملين بشرعه.

[١٠٥] بعد أن نهىٰ جل وعلا عن الشكوك في أَمْرِهِ ﷺ أَمَرَهُ أن يستقيم علىٰ دين الإسلام غير مائل إلىٰ دين غيره كاليهودية والنصرانية، كما أمره أن لا يشرك في عبادته أحدًا غيره.

هذا وإن كان الخطاب موجَّهًا للنبي ﷺ إلا أنه موجَّه لعموم الأمة، والمعنىٰ: أن يأمر ﷺ المؤمنين أن يستقيموا علىٰ دين الإسلام ويخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له.

[١٠٦] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن لا يَدْعُ من دون الله شيئًا من الأوثان والأصنام؛ لأنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًّا، وبين أن العبادة الحقة إنما يستحقها الله الذي بيده الضر والنفع؛ فَمَنْ عدل عن عبادته وأشرك معه غيره فقد ظلم نفسه بالشرك والمعصية وخسر الدنيا والآخرة. وهذا الخطاب وإن كان موجَّهًا للنبي ﷺ إلا أن المقصود أن يبلغه أمته.

[١٠٧] وإذا أصابك الله أيها النبي بشيء فيه ضرر فاعلم أنه لا يكشف الضر إلا هو، وإذا أرادك الله بخير فاعلم أنه لا يردُّ فضلَ الله أحد من الناس، فله الأمر كله؛ فإنه جل وعلا يصيب بالخير والضر من يشاء من عباده، وهو الغفور لذنوب من تاب وأناب من عباده، الرحيم بمن آمن به وأطاعه واتبع هدي نبيه ﷺ.

[١٠٨] قل يانبي الله للناس جميعًا: لقد جاءكم رسول الله بالقرآن الذي فيه هدايتكم وإرشادكم إلىٰ الحق وهو الإسلام؛ فمن اهتدىٰ وصار علىٰ الطريق المستقيم فإن فائدة ذلك تعود علىٰ نفسه، وكذلك من ضل وانحرف عن الحق فإن ضلاله يعود علىٰ نفسه، واعلموا أني لست بحافظ لكم ولست موكلًا بإلزامكم حتىٰ تكونوا مؤمنين، وإنما الحفيظ والوكيل هو الله جل في علاه.

[١٠٩] ختم جل وعلا السورة بأمر النبي ﷺ أن يتبع ما يوحىٰ إليه من ربه، وأن يعمل به، ثم أمره بالصبر علىٰ طاعة الله، وعن معصيته، وعلىٰ أذىٰ الناس، وأن يحتسب ذلك عند الله؛ حتىٰ يحكم الله ما هو مقدَّر عنده لك ولهم، واعلم أنه جل وعلا صاحب العدل الكامل الذي لا معقب له، والمقصود بالأمر أمته والدعاة من بعده.

سورة هود

سورة هود مكية وآياتها ثلاث وعشرون ومائة آية.

لقد سألتُ والدي رحمه الله -وكان يُدرِّس التفسير- عن قول الرسول ﷺ لما سُئل عن الشيب الذي به، فقال: «**شيبتني هود وأخواتها**»(١)، فسألته: ما الذي أراده الرسول ﷺ بذلك؟ وما الذي أهمه وأزعجه في هذه السورة؟ فقال رحمه الله: أغلب الأقوال أنها قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ [هود:١١٢]، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:٦٠]، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود:٦٨]، وغيرها من الآيات. فَأَمْرُهُ ﷺ بالاستقامة هو ومن معه مع ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ومآل الأمم المهلكة المبعدة أثرت في نفسه ﷺ.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

ثم أخبر جل وعلا أن هذا الكتاب وهو القرآن الكريم حُبكت ونظِمت آياته نظمًا متناسبًا لا يعتريه نقص ولا خلل، ثم قُسِّمت آياته إلىٰ مواضيع عدة، شيء يتعلق بالعباد، وشيء يتعلق بالمعبود والإخلاص له، وشيء يتعلق بالتكاليف الشرعية كالحج والزكاة وأمور البيع والشراء والمعاملات العامة، وكل الأمور التي يحتاجها الخلق في حياتهم وبعد مماتهم، واعلموا أن ذلك كله من الله الحكيم في شرعه، الخبير بشؤون عباده.

[٢] بدأ جل وعلا بذكر بعض هذه التفاصيل؛ فبدأ بذكر العبادة؛ لأنها أهم الأعمال؛ فأمر العباد أن لا يعبدوا إلا الله وحده لا شريك له؛ ولذلك كانت دعوة جميع الرسل هي توحيد الله، واعلموا أيها الناس أنني لكم نذير أنذركم من العواقب السيئة، وبشير أبشركم

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٨٠٤)، وأبو يعلىٰ في مسنده (٨٨٠).

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ هُود

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

بالنتائج الحسنة المفرحة للأعمال الصالحة، وأهمها توحيد الألوهية وهو جعل العبادة خالصة لله وحده.

[٣] ثم أمر جل وعلا العباد بكثرة الاستغفار والتوبة إليه، ووعد من امتثل أمره بالمتاع الحسن في الدنيا، أما في الآخرة فيثيب المؤمنين بحسب درجاتهم؛ فمنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات، ومنهم الظالم لنفسه؛ فإنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملًا، وإن تولوا وتركوا الهدىٰ فإن الله من محبته لهدايتهم يخوفهم من العذاب الشديد السرمدي في جهنم يوم القيامة، ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب.

[٤] واعلموا أيها الناس أن عودتكم ورجوعكم إلىٰ الله جميعًا بعد موتكم يوم البعث، فيجازيكم علىٰ أعمالكم، والله علىٰ كل شيء قدير، ومن ذلك إحياؤكم وبعثكم بعد الموت، ثم محاسبتكم ومجازاتكم.

[٥] يخبر جل وعلا عن بعض أفعال المشركين، وأنهم يطأطؤون رؤوسهم ويميلونها علىٰ صدورهم يظنون بذلك أنهم أخفوا أنفسهم وحجبوها عن الله!!، وهذا من أعظم ما يكون من الجهل والغباء، وقد ردَّ الله عليهم وبين خطأهم في هذا الظن؛ أنهم لو غطوا أجسادهم بثيابهم لَعَلِمَ كل ما يعملون ويسرون من الأقوال والأعمال، وهم علىٰ هذا الحال؛ بل أبعد من ذلك، وهو كونه سبحانه يعلم ما في صدورهم من النيّات والضمائر والأسرار، وما يخطر في نفوسهم مما لم يتفوهوا به.

۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

[٦] يخبر جل وعلا أنه ما من شيء يدب علىٰ الأرض إلا وقد تكفل الله له برزقه المناسب له، وتكفل له بتيسير طريق الحصول علىٰ ذلك الرزق، وجميع هذه الدواب يعلم جل وعلا مكان إقامتها واستقرارها ومأواها، ويعلم مكانها الذي تعيش فيه وتموت فيه، وقد كتب الله ذلك في كتاب واضح بيِّن عنده، وهو اللوح المحفوظ.

[٧] يخبر جل وعلا أنه خلق السماوات والأرض وما فيهن في ستة أيام، وقد فصّل سبحانه ذلك في سورة فصلت فأخبر أنه خلق السماوات في يومين، وخلق الأرض في يومين، وخلق ما علىٰ الأرض مما تقتضيه حياة البشر والحيوان في يومين، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت:٩-١٢]، وهذه الأيام ليست من أيام الدنيا المعروفة بأربعة وعشرين ساعة؛ لأنها قبل إيجاد الليل والنهار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧].

ثم أخبر سبحانه أنَّ عرشه كان قبل خلق السماوات والأرض علىٰ الماء، وهذا دليل علىٰ أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السماوات والأرض، وأخبر أنَّ خلق السماوات والأرض ليختبر عباده أيهم أحسن له طاعة وعملًا، ومعلوم أن العمل لا يقبل عند الله إلا إذا تحقق فيه شرطان: أن يكون خالصًا لله، وموافقًا لِمَا كان عليه رسول الله ﷺ. ولئن قلت يانبي الله لهؤلاء المشركين: إن الله سوف يبعثكم بعد موتكم؛ لقالوا لك مكذبين: ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلا سحر واضح بيّن.

[٨] واعلموا أيها المشركون لو أن الله فضلًا منه وكرمًا أخر عنكم العذاب إلىٰ مدة معدودة من الدهر لقلتم سخرية واستهزاءً: ما الذي يحبسه، أي: ما الذي يمنعه من النزول؟ وهذا دليل علىٰ تكذيبهم لهذا العذاب، فاعلموا أيها الكفار إذا نزل بكم العذاب فإنه لا يستطيع أن يصرفه عنكم صارف، ولا يدفعه دافع، وسوف يحيط بكم العذاب الذي كنتم تستهزئون به من كل جانب، وحينئذ لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

وقوله: ﴿أُمَّةٖ﴾: معناها هنا: المدة أو الحين أو الزمن، وتأتي أيضًا بمعنىٰ الجماعة، ولها تصاريف أخرىٰ يوضحها السياق.

[٩] ثم وصف جل وعلا حال الإنسان بأنه إذا رزق خيرًا ونعمة وبركة؛ ثم نزعها الله منه بسبب عدم شكرها، فإنه يؤوس كفور، أي: شديد اليأس من رحمة الله، وهذا وصف للبشر كلهم، وقيل: المراد بالإنسان هو الكافر، وهو أبلغ وصف لطبيعة الإنسان.

[١٠] ثم وصف جل وعلا حال هذا الإنسان إذا أسبغ الله عليه النعم، وأغناه بعد الفقر، وشفاه بعد المرض، وأمَّنه بعد الخوف؛ أنه يقول: ذهبت المصائب وزال أثرها عني، ولا ينسب الفضل في ذلك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، ولا يشكره؛ بل يقول: هذه حال الدهر ويفرح فرحًا مبالغًا فيه، ويبطر بالنعم، ويتعالىٰ علىٰ الناس ويتطاول عليهم ظنًّا منه أن ذلك الخير سيدوم له بلا انقطاع!

[١١] واستثنىٰ جل وعلا منهم فئة قليلة وهم الصابرون العاملون للصالحات؛ فإنهم مكرمون لا يحصل منهم شيء مما ذكر، ولهم أجرٌ كبير في الآخرة؛ لأنهم ينسبون الفضل لله ويشكرونه علىٰ النعم ويصبرون علىٰ المصائب ويحتسبون أجرهم علىٰ الله.

[١٢] يسلي جل وعلا نبيه ﷺ ويواسيه فيخاطبه قائلًا: لعلك يامحمد تارك تبليغ بعض ما أُنزل إليك، ولعلك يامحمد ضائق صدرك بسبب ما تراه من المشركين من تكذيب وتعنت وإصرار علىٰ الكفر، وبسبب اقتراحهم بعض الآيات عنادًا وكفرًا؛ كاقتراحهم أن يُنزَل عليك مال كثير، أو يُنزَل عليك ملك من السماء يصدقك في رسالتك، فلا عليك يانبي الله، ولا يضيق صدرك بمثل هذا؛ ما عليك إلا تبليغ ما أُمرت به، وتحذيرهم من الشرك والكفر والمعاصي، ولست مطالبًا بهدايتهم جبرًا، فالله سبحانه هو الرقيب الحفيظ وهو الهادي وهو علىٰ كل شيء وكيل، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم، وسيجازيهم عليها بما يستحقون.

[١٣] يقول المشركون: بل إنك يامحمد افتريت هذا القرآن، فقل لهم علىٰ سبيل التحدي: إن كان الأمر كما تقولون فأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن مفتريات أي: مثله في البلاغة وحسن السبك، واستنجدوا بالبلغاء والفصحاء أيًا كانوا من خلق الله ليعينوكم علىٰ ذلك، إن كنتم صادقين في دعواكم، ولم يفعلوا لعجزهم عن ذلك. وقوله: ﴿أَمۡ﴾، هنا منقطعة، بمعنىٰ: بل، والهمزة للتوبيخ والإنكار بأنه افتراه.

[١٤] ثم قال جل في علاه: فإن لم يستجيبوا لكم أيها المؤمنون لما تدعونهم إليه، ولم يقوموا لهذا التحدِّي؛ لِعَجْزِهم عن ذلك وعدم استطاعتهم علىٰ الإطلاق؛ فليعلم الجميع أن هذا القرآن منزَّلٌ من عند الله، وأن البشر لا يستطيعون الإتيان بمثله، وليعلم الجميع أنه لا إله إلا الله، وأنه وحده هو المستحق للألوهية، والإفراد بالعبادة، فهل أنتم مستسلمون لله، منقادون لدينه ولرسوله ﷺ!.

[١٥] واعلموا أيها الناس أن من آثر الحياة الدنيا ومتعها علىٰ الآخرة نعطيهم مرادهم وما قُسِمَ لهم من ثواب أعمالهم في الحياة الدنيا، وهم لا يُنقصون شيئًا مما قدَّره الله لهم، وهذا الإطلاق قُيِّد في قوله تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]، أي: نعطيه من متاعها ما نريد مما كُتب في اللوح المحفوظ.

[١٦] ثم يخبر جل وعلا عن جزاء هؤلاء: أن جزاءهم في الآخرة هو نار جهنم، لا جزاء لهم غير ذلك، وقد خاب كيدهم، وبطل عملهم؛ لأنه لم يكن لوجه الله تعالىٰ، ولأنه لم يتوفر فيه شروط قبول الأعمال.

[١٧] ثم قال سبحانه: أفمن كان علىٰ يقين وبصيرة وحجة من الله جل وعلا بالوحي الذي أنزله الله علىٰ محمد ﷺ، وكان معه دليل آخر وحجة ثانية وهي الفطرة السليمة والعقل الصحيح، وقيل: إن الدليل الثاني هو محمد عليه السلام، ثم شاهد ودليل ثالث قبل ذلك، وهي التوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ عليه السلام إمامًا للناس يأتمون بها في أمر الدين والحياة، ورحمة لهم من عذاب الله إذا آمنوا بها واتبعوها، وتشهد للقرآن وتصدقه، أفمن كان معه هذه البينات والأدلة كمن هو في الظلمات همه الحياة الدنيا وزينتها؟!! لا يستوون عند الله، إنَّ الذين معهم هذه البينات والأدلة يصدقون بالنبي ﷺ، ويؤمنون بالقرآن حقيقة، ومن يكفر بهذا القرآن ويجحده من الطوائف والأحزاب من أهل مكة وغيرهم فجزاؤه نار جهنم خالدًا فيها، فلا تَكُ يانبي الله في شكٍّ من القرآن، ولا تَكُ في شكٍّ من أن النار موعدٌ وجزاءٌ لمن يكفر به، فالدين والقرآن من عند الله، وهو الحق، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بذلك ولا يؤمنون به، مع ظهور الدلائل والحجج والبراهين.

أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩

ومعلوم أنه ﷺ لم يشك في أمر القرآن، وكونه من عند الله سبحانه بعد ما شهدت بذلك الأدلة والحجج والبراهين، وإنما يؤمر ويُنهىٰ ليبلغ أمته.

[١٨] يخبر جل وعلا أنه لا أحد أشدُّ ظلمًا ممن يختلق علىٰ الله الكذب، باتخاذ شريك معه أو وصفه بما لا يليق بجلاله أو اختلاق شيء ونسبته إليه، وغير ذلك؛ فهذا من أشدِّ الناس ظلمًا علىٰ الإطلاق، وأصحاب هذه الجريمة سيقفون بين يدي الله جل وعلا يوم العرض عليه، وسيسألهم ويحاسبهم علىٰ افترائهم الكذب، وحينها سيُدلي الأشهاد -من الملائكة والرسل والعلماء- بشهاداتهم علىٰ هؤلاء المجرمين، قائلين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ ألا بعدًا لهم وطردًا من رحمة الله وجنته.

[١٩] ثم بين جل وعلا بعض صفات هؤلاء المجرمين: فأخبر أنهم يصرفون أنفسهم، ويمنعون غيرهم من الدخول في دين الله، ويصفون سبيل الله بالاعوجاج تنفيرًا للناس عنها، وهم مع ذلك لا يصدقون بالآخرة ولا بالبعث والجزاء.



أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

[٢٠] بين جل وعلا حقيقة هؤلاء الكفار ومقدارهم، وأنهم لا يفوتون الله هربًا، فهو سبحانه مدركهم ومعذبهم متىٰ أراد، وبين سبحانه أنه ما كان لهؤلاء الكفار أيضًا من أنصار يدفعون عنهم ما يكرهون من عذاب ونحوه، أو يجلبون لهم ما يحبون، ولهم في الآخرة عذاب مضاعف مُغَلَّظ، بسبب افترائهم علىٰ الله الكذب، وتركهم للإسلام وصدهم غيرهم عنه، وهؤلاء الكفار لتفريطهم وإعراضهم كانوا لا يرغبون أن يسمعوا القرآن سماعًا ينتفعون به، وكانوا أيضًا لا يبصرون آيات الله في كَوْنِهِ الدالةِ علىٰ وحدانيته إبصار تفكر واعتبار.

[٢١] يخبر جل وعلا عن عاقبة هؤلاء الكفار، وأنهم خسروا أنفسهم بالشرك والصد عن سبيل الله، وذلك بأن فوتوا علىٰ أنفسهم الإيمان والثواب، فاستحقوا العذاب والعقاب، وحينها قد ذهب وغاب عنهم ما كانوا يدعون من الآلهة الباطلة، ويزعمون أنهم شركاء لله.

[٢٢] واعلموا أنه لا محالة ولا شك أن الكفار هم أشد النَّاس خسارة في الآخرة؛ لأنهم إضافةً إلىٰ جريمة كفرهم فقد كانوا يصدّون النَّاس عن الإسلام.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ تأتي في القرآن بمعنىٰ: حقًّا، وتحمل معنىٰ القسم.

[٢٣] يخبر جل وعلا عن صفات جليلة من صفات المؤمنين، وما أعد الله لمن تحلىٰ بهذه الصفات، وهي: الإيمان والاعتراف بالله جل وعلا، وتصديق ذلك بالعمل بالجوارح بفعل الأوامر وترك النواهي، والإخبات إلىٰ الله، أي: الذل والخضوع والاستكانة والخشوع لله جل وعلا مع محبته وخوفه ورجائه؛ فمن جمع تلك الصفات فهو من أهل الجنة خالدين فيها لا يخرجون منها أبدًا.

[٢٤] ثم ضرب سبحانه وتعالىٰ مثلًا لفريق أهل الإيمان السعداء، ومثلًا لفريق الكفار الأشقياء، فمثل الكفار الأشقياء كمثل رجل أعمىٰ لا يبصر، وأصم لا يسمع، فالكفار الأشقياء قد عمّوا أبصارهم عن الحق، وصمّوا آذانهم عن الهدىٰ، ومثل المؤمنين السعداء، كرجل مبصر يسمع، وهم قد أبصروا نور الإسلام فآمنوا، وسمعوا داعي الله فأجابوا، فهل يستوي هؤلاء الفريقان حالًا وصفةً؟!!، والجواب: لا، أفلا تتفكرون في ذلك وتتدبرون فيه؟!

[٢٥] يخبر جل وعلا أنه أرسل نوحًا عليه السلام إلىٰ قومه لدعوتهم إلىٰ التوحيد، وتحذيرهم من الشرك والكفر، فدعاهم لذلك وبيَّن لهم وقال: إني منذر لكم من سخط الله تعالىٰ، ومبيِّن لكم بيانًا يزول به كل إشكال.

[٢٦] ثم إن نوح عليه السلام دعا قومه إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ثم قال لهم: واعلموا ياقوم إذا لم تطيعوني وتتبعوني في ما آمركم به فإني أخاف عليكم يوم القيامة عذابًا أليمًا موجعًا في النار.

[٢٧] فلما دعا نوح عليه السلام قومه إلىٰ التوحيد، أجابه أشراف قومه وكبراؤهم: اعلم يا نوح أنك بشر مثلُنا، وعليه فنحن لا نعترف بنبوتك، ثم إن الذين اتبعوك من قومنا هم الجهلة والفقراء، ومن لا حسب لهم ولا نسب، وليس لهم رأي ولا عقل راجح؛ اتبعوك مباشرة دون تفكير ولا نظر، ثم لا نرىٰ لكم مزيَّةً علينا -في عقل أو جاهٍ أو مالٍ- حتىٰ نتبعكم وننقاد لكم؛ وفوق هذا نظنكم ونعتَقد أنكم كاذبون فيما تقولون وتدَّعون.

[٢٨] ثم قال نوح عليه السلام لقومه مجيبًا لهم: لقد أتيتكم بالحق الواضح من ربي وربكم، وقد اختصني بالنبوة رحمة منه فاستكبرتم وأخذتكم العزة بالإثم فأقفلتم آذانكم؛ فهل نجبركم علىٰ قبول الرسالة التي هي عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه؟، وأنتم كارهون لذلك.

والاستفهام في قوله: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾، هنا إنكاري، أي: ما كان لي ذلك وأنتم كارهون لها، والهمزة للاستفهام والمضارع، والكاف هو المفعول الأول، والهاء هي المفعول الثاني، والواو حرف للإشباع للفصل بين الفاعل الأول والفاعل الثاني، وفاعله ضمير مستتر.

وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾

[٢٩] ثم إن نوح عليه السلام رد علىٰ قومه وأخبرهم أنه لا يريد منهم مالًا مقابل دعوته إياهم ومقابل نصحه لهم، وبين لهم أن الذي سيجازيه علىٰ ذلك ويكافئه هو الله جل في علاه، ثم قال نوح عليه السلام لهم: واعلموا ياقوم أنني لست بطارد الذين آمنوا من الفقراء، فإن ذلك لا يحق ولا ينبغي لي؛ فإنهم سيلقون الله جل وعلا وهو مثيبهم ومجازيهم علىٰ إيمانهم بي وتصديقهم لي، ولكني أراكم أنتم قومًا تجهلون، ومن جهلكم: أمركم لي بطردهم، ورفضكم طاعتي بدعوىٰ أن هؤلاء الفقراء من أتباعي!!

[٣٠] ثم قال نوح عليه السلام: ويا قوم من يحول بيني وبين عقاب الله ويمنعني منه إن عصيته، وأطعتكم في طرد هؤلاء المؤمنين!! أفلا تذكَّرون وتتفكَّرون في حقيقة أمركم وفعلكم!!

[٣١] ولا زال نوح عليه السلام يجيب قومه ويحاورهم ويبين لهم، فقال لهم: لا أقول لكم: إن بيدي مفاتيح خزائن الله أُعطي من أشاء وأمنع من أشاء، ولا أدعي كذلك معرفة ما لم يقع في المستقبل من علم الغيب فأخبركم بشيء من ذلك، ولا أدَّعي أني مَلَكٌ من الملائكة -وذلك ردٌّ عليهم لما قالوا: ما نراك إلا بشرًا-، غاية أمري أني بشر مثلكم أرسلني الله إليكم، ولا أقول للذين تحتقرونهم وتزدرونهم من الفقراء الذين آمنوا بي وصدقوني: إن الله لن يعطيهم الثواب الجزيل علىٰ إيمانهم؛ بل مرجع الجميع إلىٰ الله الذي يعلم ما تُخفي كل نفس وما تُبدي، فإني لو فعلت ذلك أكون من الظالمين المتجاوزين لحدودي، وأكون بذلك ظلمت نفسي وظلمت غيري.

[٣٢] ولما لم يكن لقوم نوح حجة مقنعة يتكلموا بها، قالوا: يانوح إنك بالغت وأكثرت علينا في سرد الحجج ومهما تأتنا به من حجة فلن نؤمن بما جئت به؛ فعجِّل لنا العذاب -الذي تخوفنا به- بإنزاله علينا إن كنت من الصادقين في دعوتك لنا، وفي زعمك أنك رسول من عند الله.

[٣٣] فأجابهم نوح عليه السلام بأن الله وحده هو الذي يأتيكم بالعذاب في الوقت الذي يريده هو -عاجلًا أو آجلًا- متىٰ شاء ذلك، وما أنتم ياقوم بهاربين من عقاب الله في الوقت الذي يحدده هو، ولا أنتم قادرون علىٰ منع عذاب الله.

[٣٤] ثم قال نوح عليه السلام: واعلموا ياقوم أن نصحي لكم وبذلي ما أستطيع لإبلاغكم لن ينفعكم؛ إن كان الله يريد لكم البقاء عل ما اخترتم لأنفسكم من الغواية والضلال؛ بسبب ردكم للحق وعنادكم؛ فإنَّ أمركم إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ ﴾[الزمر:٧]، وإرادة الله غالبة، وهو ربكم وجعلكم مختارين، وإليه ترجعون يوم القيامة فيحاسبكم علىٰ ما اخترتم، ويجازيكم عليه.

[٣٥] ومع هذا كله فإن قوم نوح ردوا قائلين: إن نوحًا افترىٰ علىٰ الله هذا القول واختلقه من قِبَلِ نفسه!؟ فأمر سبحانه نبيه نوح عليه السلام أن يقول لهم: اعلموا ياقوم إن كنت افتريته فعليَّ وزر ذلك، وأتحمل عاقبته، وإن كنت صادقًا وأنتم المفترون فعليكم إثم ذلك ووزره، وتتحملون جرمكم، وأنا بريء من ذلك.

وقد قيل: إن هذه الآية -معترضة- في قصة نوح عليه السلام، والخطاب فيها لمحمد ﷺ؛ والمعنىٰ: إذا قال لك يا نبي الله كفار مكة: إنك افتريت القرآن واختلقته -ومن ضمن ذلك قصة نوح مع قومه-، فقل لهم: إن كنت من المفترين فأنا أتحمل وزري، وعاقبة أمري، وإن كنتم أنتم المفترين فأنا بريء منكم ومن أفعالكم، وهذا يدل علىٰ أن دعوة الأنبياء واحدة.

[٣٦] وبعد أن يئس نوح عليه السلام من دعوة قومه، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦]، فأخبره جل وعلا رحمة ولطفًا به أنه لن يؤمن من قومك إلا مَنْ قد آمن من قبل، فلا تحزن يانوح عليهم ولا يضيق صدرك بهم ذرعًا بسبب أعمالهم السيئة، واعلم أن حسابهم وجزاءهم علىٰ الله.

[٣٧] ثم أمر جل وعلا نبيه نوحًا أن يصنع سفينةً تحت بصره وبمرأىٰ منه كيْ يلهمه كيفية صناعتها، ثم أمره سبحانه أن لا يسأل ولا يطلب منه إنجاء الظالمين، وهذا إعلام لنوح أن لا يشفع لأحد منهم مثل ابنه؛ لأن هؤلاء قد حُكِم عليهم بالغرق بالطوفان.

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾

[٣٨] يخبر جل وعلا عن امتثال نوح لأمره بصناعة السفينة، وابتدائه في ذلك، ولمّا مرَّ عليه قومه ورأوه وهو يصنعها أخذوا يسخرون منه ويستهزؤون به ويقولون: كان يدَّعي النبوة فصار نجارًا، كيف يصنع سفينة في البر؟ وكيف يصنع سفينة ولم يُعْرف بالنجارة! فكان رد نوح علىٰ هذا الاستهزاء: فكما تسخرون منَّا اليوم يا قوم، فإنا سنسخر منكم حين يأتيكم العذاب ويعلوكم ماء الطوفان.

[٣٩] ثم قال لهم نوح: وسوف تعلمون ياقوم في المستقبل من يأتيه عذاب يخزيه في الدنيا – وهو الغرق –، ثم بعد ذلك يحل به وينزل عليه عذاب مقيم دائم لا ينقطع، – وهو نار جهنم في الآخرة –.

[٤٠] ولقد سئم قوم نوح من استمرار نوح في دعوتهم وإلحاحه عليهم، كما وصف جل وعلا حاله معهم في سورة كاملة هي سورة نوح؛ فقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٥ - ٩]، وأنهم هم الذين طلبوا أن تحل بهم العقوبة سخرية واستهزاء، فقالوا: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود:٣٢].

ولكن نوح عليه السلام استمر في صنع السفينة التي أَمَرَهُ الله بصنعها حتىٰ إذا وقع أَمْرُ الله، وحان إهلاك المشركين من قومه، وبدأ نبع الماء بقوة من التنور الذي يخبز فيه للدلالة علىٰ مجيء العذاب، وهو الطوفان الذي عمَّهم واستأصلهم عن بكرة أبيهم؛ إلا الثلّة القليلة التي آمنت معه، وأَمَرَ جل وعلا نوحًا أن يحمل في السفينة التي صنعها من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرًا وأنثىٰ، ويحمل فيها جميع أهل بيته إلا من لم يؤمن بدعوته؛ كابنه وزوجته، ويحمل فيها أيضًا كل من آمن معه من قومه، ومعلوم أنه لم يؤمن معه إلا القليل؛ مع أنه بذل جهده في دعوتهم، طول المدة والمقام فيهم.

[٤١] وقال نوح لمن آمن معه: ابتدِؤوا ركوب السفينة بذكر اسم الله، فهي باسم الله تبدأ سيرها فوق الطوفان الذي يغرق الأرض، وهي باسم الله ترسو وتقف علىٰ الجبل الجودي بعد غرق وهلاك الظالمين، إن ربي لغفور: كثير المغفرة لمن استغفر وتاب، ورحيم: كثير الرحمة لمن رجع وأناب، ومن رحمته بنا أن نجانا من القوم الظالمين.

[٤٢] ثم وصف جل وعلا جريان السفينة لمَّا جاء الطوفان، وأنها تمخر الماء والأمواج من حولها عالية جدًّا كعلو الجبال!!، وَلَمَحَ نوح عليه السلام ابنه في مكان معزول فناداه بعاطفة الأبوة: يابني أسلم لله، واركب معنا لتنجو وتسلم مع المؤمنين، ولا تكن مع الكافرين فتغرق وتهلك معهم، وأنسته عاطفة الأبوة قول الله له: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٧].

[٤٣] فرد الابن العاق فقال: إني سأصعد وأحتمي بجبل عالٍ من الماء فلا يدركني الغرق، فأجابه نوح عليه السلام: إنه لن ينجو أحد من عذاب الله، ولا ينفع في ذلك جبل ولا غيره، لا تنفع إلا رحمة الله، وهي لمن آمن وأسلم، ثم انقطع الحوار بين نوح وابنه بموجة عالية بعدها غرق الولد العاق، وهلك مع الهالكين.

[٤٤] ثم أمر جل وعلا الأرض أن تشرب ما عليها من الماء، وأمر السماء أن تقطع ما ينزل منها من الماء، فامتثلتا، فنضب الماء ونقص حتىٰ جفت الأرض، وقُضي أمر الله بهلاك الظالمين وغرقهم، ونجاة المؤمنين وفرحهم، ثم توقفت السفينة ورست علىٰ الجودي – وهو جبل معروف في الموصل –، وقيل: بعدًا وهلاكًا وطردًا من رحمة الله للقوم المتجاوزين حدودهم، الذين لم يؤمنوا بما جاءت به الرسل.

[٤٥] ثم دعا نوح عليه السلام ربَّه جل وعلا قائلًا: ياربّ إن ابني من جملة أهلي، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، ولن تُخلف ما وعدتني به، فوعدك الحق –وقد ظن نوح أن الوعد بالنجاة لعموم أهله من آمن ومن لم يؤمن–، وأنت يارب أحكم الحاكمين وأعلمهم وأعدلهم، وقد فوضت أمري إليك.

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

٢٢٧

[٤٦] فقال جل وعلا مجيبًا لنوح: اعلم يانوح أن ابنك هذا ليس من أهلك الذين وَعَدْتُكَ بنجاتهم؛ لأنه عمل غير صالح؛ بل إنه ممن سبق عليه القول بسبب كفره؛ ولذا فإن الوعد لا يشمله.

قال الدكتور جمال فاضل السامرائي: إن ابنك هذا كله عمل غير صالح، وإنه كتلة فساد.

وقال بعض المفسرين: إنه ليس من أهلك الناجين؛ لأنه غارق في الكفر، وإن دعاءك لنجاته عمل غير صالح.

لذا نهىٰ سبحانه نوحًا أن يطلب منه أمرًا لا علم له به، وقال له: إني أعظك أن تكون من الجاهلين فتسألني ما ليس لك به علم؛ لأنه نسي قول الله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠]، أي: من أهله.

ويؤخذ من هذه الآية أنه لا يجوز الدعاء بالجنة للكافر الذي لا يؤمن بالله ورسوله ﷺ، ولكن يجوز أن تدعو الله أن يهديه، والواجب أن تبذل الجهود في دعوته للإسلام.

[٤٧] فقال نوح عليه السلام مبادرًا ومعتذرًا ونادمًا: رب أعوذ وألتجئ وأحتمي بك يا إلهي أن أسألك بعد الآن ما ليس لي علم بصحته وجوازه، وإن لم تتداركني بمغفرة منك ورحمة لأكونن من الخاسرين في أعمالهم الذين لا ربح لهم ولا فلاح.

[٤٨] ثم نادىٰ جل وعلا علىٰ نوح وقال له -بعد أن جف الماء-: انزل إلىٰ الأرض بأمن منّا وتحيات وخيرات، ونعم ثابتة، عليك وعلىٰ من معك من المؤمنين وغيرهم من الأزواج التي حُملت في السفينة، واعلم يانوح أن هناك أممًا من ذريتك الذين نجوا معك في السفينة ستُمتَّع في الحياة الدنيا بالعيش والرزق فيها، ثم يكون مصيرهم العذاب الأليم الشديد الموجع في الآخرة بسبب كفرهم بأنبياء الله ورسله.

وكل الذين كانوا مع نوح في السفينة ماتوا ولم يتناسلوا، وكل الأمم التي تناسلت بعده هي من ذرية نوح عليه السلام، هكذا قال العلماء، ويؤيد قولهم قول الله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧].

[٤٩] ثم خاطب جل وعلا رسوله محمدًا ﷺ، وأخبره أن هذه القصة من أخبار الغيب السابقة التي ما كنت تعرفها أنت ولا قومك علىٰ هذا التفصيل، -ومجيئها بهذا التفصيل دليل علىٰ نبوتك ورسالتك، وأنك يوحىٰ إليك من الله-، فاصبر علىٰ ما تلاقيه من قومك من التكذيب والإعراض، فإن لك في صبر نوح عليه السلام علىٰ قومه قدوة وأُسوة، واعلم يانبي الله أن الفوز والعاقبة المحمودة الطيبة في الدارين للمتقين الذين يخافون الله ويخشونه، ولا يشركون به شيئًا.

[٥٠] يخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قوم عاد الذين سكنوا الأحقاف شرق الجزيرة العربية أخاهم في النسب هوًاد عليه السلام، يدعوهم إلىٰ التوحيد، وعبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وأخبرهم أنهم بعبادة غير الله مفترون كاذبون؛ لأن العبادة حق خالص لله.

[٥١] قال هود عليه السلام لقومه: يا قوم لا أطلب منكم علىٰ هذه الدعوة مالًا، إنما أجري وثوابي علىٰ ربي الذي خلقني وأرسلني إليكم، أفلا تعقلون؟! أفلا تميِّزون، فلو كان مطلبي مالًا وأجرًا منكم لكان من الممكن أن تتهموني.

[٥٢] ثم نصحهم هود عليه السلام قائلًا: يا قوم آمنوا بربكم، واطلبوا منه أن يغفر لكم ذنوبكم وإسرافكم علىٰ أنفسكم بالشرك والمعاصي، ثم توبوا إلىٰ ربكم وعودوا إليه بالتوحيد الذي هو أصل كلِّ خير، فإنكم إن فعلتم ذلك؛ أنزل الله عليكم المطر الصيب النافع فتخضر به أرضكم وينبت به زرعكم، ويستقيم حالكم، ويزيدكم الله قوة إلىٰ قوتكم وعزًّا إلىٰ عزِّكم، وأحذِّركم ياقوم أن تعرضوا عمّا دعوتكم إليه من التوحيد والإيمان؛ فتصبحوا بذلك مجرمين.

[٥٣] فقال له قومه عنادًا واستكبارًا: ياهود ما جئتنا ببينة وحجة واضحة ودليل قاطع علىٰ قولك حتىٰ نؤمن لك، ولهذا لن نترك عبادة آلهتنا اتباعًا لقولك: إنها لا تستحق العبادة، وما نحن لك بمصدقين، ولا برسالتك مقتنعين.

وقوله: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾، **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله**: إنهم كَذَبُوا بقولهم هذا؛ لأن هودًا جاءهم بعدد من الآيات والبينات؛ بل كذبهم الله بقوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، أي: إن عادًا جحدوا الآيات والبراهين والبينات التي جاء بها نبيهم هود، وهذا تكذيب من الله لهم بإنكارهم الآيات؛ والآيات تشمل المعجزات.

إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي
جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ
مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ
رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا
وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي
هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةٗ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا
بُعْدٗا لِّعَادٖ قَوْمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ
ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ
﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّٗا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ
مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾

[٥٤-٥٥] ثم قالوا علىٰ سبيل العناد والاستكبار: ما نقول إلا أن بعض آلهتنا قد أصابتك بخبال وجنون بسبب نهيك عن عبادتنا إياها، فأصبحت تهذي وتقول كلامًا غريبًا، فأجابهم عليه السلام قائلًا: إني أُشهد الله، وأُشهدكم أنتم وأوثانكم أني بريء من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، فَأَجْمِعُوا أمركم أنتم وآلهتكم المزعومة واطلبوا لي الضرر، وامكروا بي -إن استطعتم ذلك-، ولا تمهلوني، أي: أهلكوني إن استطعتم.

[٥٦] ثم قال لهم هود عليه السلام: إني اعتمدت علىٰ الله ربي وربكم وفوضت أمري إليه، وهو كافيني وحافظني وعاصمني من كيدكم، ثم اعلموا أنه ما من شيء يتحرك ويسكن إلا بإذن الله، وكل شيء تحت ملك الله وتصرفه وقهره سبحانه، فهو سبحانه علىٰ عدل وقسط وحكمة بالغة.

[٥٧] ثم ختم هود الحديث مع قومه فقال لهم مهددًا: فإن تتولوا وتعرضوا وتصروا علىٰ الكفر والعناد؛ فقد أَدَّيْتُ ما عليَّ من البلاغ والدعوة إلىٰ التوحيد والنهي عن الشرك، وبيَّنت لكم غاية البيان، وحيث لم تؤمنوا؛ فإن الله قادر أن يهلككم، ويستخلف في الأرض قومًا غيركم يعبدونه لا يشركون به شيئًا، ويكون ضرركم عائدًا علىٰ أنفسكم لا علىٰ غيركم، إن ربي علىٰ كل شيء حفيظ رقيب مهيمن، سيجازي كلًّا بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

[٥٨] ولكن قوم هود أصروا علىٰ كفرهم وعنادهم فكانت النتيجة ما ذكره المولىٰ عز وجل، حيث قال سبحانه: وحين جاء عذابنا -الذي لا يرد عن القوم المشركين-؛ نجينا هودًا عليه السلام ومن آمن معه بلطفٍ ورحمة منّا -لأنه لا نجاة لأحد إلا برحمة الله-، فنجاهم الله من الريح الصرصر العاتية التي دمرت كل شيء فأصبحوا لا يُرىٰ إلا مساكنهم، ونجيناهم في الآخرة أيضًا من عذاب غليظ شديد.

[٥٩] وفي نهاية قصة قوم هود مع نبيهم هود عليه السلام قال جل في علاه: وتلك هي قصة عاد -وهم قوم هود- مع نبيهم؛ فقد كفروا بآيات الله، وأصروا علىٰ الكفر، وكذَّبوا نبيهم هودًا عليه السلام، واتّبعوا أهواءهم وقادة الكفر والضلال فيهم، وأطاعوا كلَّ مستكبر علىٰ الله لا يتبع الحق ولا ينقاد إليه.

[٦٠] ولذلك كانت النتيجة ما أخبره عز وجل أن هؤلاء المشركين من قوم هود أُتبعوا لعنة وطردًا من رحمة الله، وذِكْرًا سيِّئًا في الدنيا، وفي يوم القيامة لا تنفك عنهم هذه اللعنة، وذلك لأنهم جحدوا بآيات ربهم، وجحدوا توحيده وإفراده بالعبادة، ألا فبعدًا لهم عن كل خير، وهلاكًا بيِّنًا لهم، فليتعظ بهم من بعدهم.

[٦١] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قوم ثمود -الذين يسكنون الحِجْر بين المدينة والشام- أخاهم في النسب: صالحًا عليه السلام، يدعوهم إلىٰ التوحيد، وعبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه؛ فإنه سبحانه لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، ثم ذكّرهم صالح بأنه سبحانه هو الذي ابتدأ خلقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم، ثم استخلفكم في الأرض من بعد قوم عاد وجعلكم من عُمَّارِها، فاطلبوا المغفرة من ربكم بأن يغفر لكم ذنوبكم وإسرافكم علىٰ أنفسكم بالشرك والمعاصي، ثم توبوا إلىٰ ربكم وعودوا إليه بالتوحيد الذي هو أصل كلِّ خير، فإن الله سبحانه وتعالىٰ قريب ممن دعاه، مجيب لمن طلب منه ورجاه.

[٦٢] فكان ردهم علىٰ دعوة التوحيد أن قالوا: ياصالح قد كنّا نؤمل فيك العقل والنفع، ونرجو أن تكون فينا سيِّدًا مُطاعًا قبل أن تقول هذا القول الذي نستنكره منك، ثم قالوا مُنكِرين: أتنهانا ياصالح عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا من قبل؟! فنحن في شكّ وتردد واضطراب من دعوتك إيانا عبادةَ الله وحده، وَتَرْكَ ما كان يعبد آباؤنا من قبل.

[٦٣] فقال لهم صالح عليه السلام: أخبروني ياقوم إذا كنت علىٰ بينة من الإيمان بربي ومعي حجة ظاهرة وبرهان قاطع يزيل ما لديكم من شكٍّ واضطراب، ثم مع ما آتاني الله ومنَّ به عليَّ من رسالة ونبوة، أفأترك كلَّ ذلك وأتَّبِعُكم؟! وإن فعلت ذلك فحينها من ينصرني من الله ويدفع عني عقابه وغضبه؟! فما تَزيدونني بتثبيطكم إياي إلا خسارة وتعرُّضًا لعقوبة الله جل وعلا.

[٦٤] ثم جاءهم صالح عليه السلام بآية وبمعجزة ظاهرة تدلّ علىٰ نبوته هم اقترحوها، وهي تلك الناقة التي خرجت من جوف الصخرة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، وأمرهم أن يتركوها تأكل من أرض الله، وألا يقربوها بأي نوع من أنواع الإساءة من عَقْرٍ ونحوه، فإنهم إن فعلوا ذلك أخذهم الله بعذاب قريب.

[٦٥] ثم أخبر سبحانه أن قوم ثمود كذبوا نبيهم صالحًا عليه السلام وخالفوا أمره، واستهانوا به وعاندوه، وعقروا الناقة، فقال لهم صالح: استمتعوا بما بقي لكم في حياتكم خلال ثلاثة أيام، ثم يأتيكم العذاب ويحل بكم، وهذا وعْدٌ حق لا بد من وقوعه وتحققه.

[٦٦] فلما انتهت الثلاثة أيام وجاء أمر الله بنزول العذاب علىٰ قوم ثمود وهلاكهم، نجَّىٰ الله صالحًا والذين ءامنوا معه بلطف ورحمة منه سبحانه، وكذلك نجاهم الله من خزي يوم القيامة وفضيحته، واعلم يانبي الله أن ربك هو القوي القادر علىٰ كل شيء، العزيز الذي قهر وغلب كل شيء.

[٦٧] ثم أخبر جل في علاه أن هلاك قوم ثمود كان بالصيحة الشديدة التي أخذتهم بسبب ظلمهم وكفرهم وعنادهم؛ فَقُطِّعت قلوبهم؛ فأصبحوا في ديارهم خامدين لا حراك لهم.

[٦٨] ولشدة العذاب الذي نزل بقوم ثمود وسرعته أخبر سبحانه وتعالىٰ كأن هؤلاء القوم لما أخذهم العذاب لم يعيشوا في تلك الديار ولم يعمروها، ولم يهنأوا ويستمتعوا فيها، وإنما أصابهم ما أصابهم بسبب جحودهم وكفرهم بالله وآياته، ألا بعدًا لهم وشقاءً وطردًا من رحمة الله.

[٦٩] ثم ساق جل في علاه جانبًا من قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه؛ فأخبر سبحانه أن الملائكة جاءت لإبراهيم تبشره هو وزوجته بإسحاق، ومن بعد إسحاق يعقوب، وقد أتوه عليه السلام علىٰ صورة بشر، فسلموا عليه، فرد عليهم التحية، ثم ذهب بسرعة وأحضر عجلًا سمينًا حنيذًا إكرامًا لهم.

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾

[٧٠] ولما رأىٰ إبراهيم عليه السلام أن ضيوفه لم يقدموا أيديهم للمائدة أخذته منهم رهبة وروعة؛ فطمأنوه وأخبروه أنهم رسل من رب العالمين، وأنهم أُرسلوا إلىٰ قوم لوط عليه السلام.

[٧١] ولمّا أخبر الملائكة إبراهيم عليه السلام بمهمتهم التي جاءوا من أجلها سمعت زوجته التي كانت واقفة ما قالوا؛ فضحكت استبشارًا بإهلاك قوم لوط، ثم بشَّروها بأنها ستلد ولدًا اسمه إسحاق ومن نسل إسحق يعقوب، فما كان منها إلا أن صكت وجهها، أي: لطمته فزعة من هذا الخبر العجيب، وقالت علىٰ سبيل الاستغراب: إنني عجوز عقيم، أي: لا ألد، كما ذكر ذلك سبحانه في قوله: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ [الذاريات:٢٩].

قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾
إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ
قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا
يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾
قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ
﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ
مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾

[٧٢] ولمّا سمعت زوجة إبراهيم عليه السلام ما قاله الملائكة لها لطمت وجهها، واستعجبت أن تحمل وتلد؛ لأنها تعدت سن اليأس، وأن زوجها رجل طاعن في السن، وقالت: إن هذا لأمر عجيب.

[٧٣] فأزال الملائكة عجبها وقالوا لها: أتعجبين من قدرة الله ولطفه ورحمته على الخُلَّص من عباده، رحمة الله وبركاته وسعادته عليكم يا أهل بيت إبراهيم، إنه جل وعلا محمود بإفضاله وإنعامه، وإنه ذو مجدٍ وثناء وكرم.

[٧٤] فلما ذهب عن إبراهيم عليه السلام الروع واطمأن من أنهم رسل الله وسمع بشارة الملائكة له بإسحاق ويعقوب، تذكر عليه السلام صديقة وابن أخيه لوطًا عليه السلام، فأخبرهم أن لوطًا ما زال معهم عندما أرادوا إهلاك قومه؛ فطمأنوه أنه لن يهلك معهم. وبعد أن أطمأن على ابن أخيه لوط عليه السلام أخذ يحاور الملائكة في قوم لوط لعلهم يعطونهم فرصة ليتوبوا؛ فأخبروه أن الأمر محسوم، فَأَمْرٌ وَاحِدٌ أَحْزَنَ إبراهيم عليه السلام وأفرح امرأته.

[٧٥] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن إبراهيم عليه السلام كثير التأوه والألم، منيب إلىٰ الله، ملتجئ إليه.

[٧٦] ثم قالت رسل الله من الملائكة لطفًا بنبيه إبراهيم: يا إبراهيم اترك مجادلتنا في إمهال عذاب الله وعقوبته علىٰ قوم لوط؛ فإنه قد جاء أمر الله، وحلَّ بهم وقت العذاب، وأن الأمر محسوم ولا مرد له، وأن أمر الله نافذ غير مردود عنهم ولا مدفوع.

[٧٧] ولمّا جاءت رسل الله من الملائكة للوط عليه السلام في صورة أضياف تضايق لذلك، واغتم وحزن حزنًا شديدًا، وقال هذا يوم شديد؛ وذلك لأنهم شباب بأحسن صورة؛ فخاف علىٰ أضيافه من قومه الذين يأتون الذكران من العالمين.

[٧٨] فما لبث أن علم قومه بأمر أضيافه فجاؤوا مسرعين مهرولين، طالبين الفاحشة من أضيافه – وهم قبل ذلك قد اعتادوا علىٰ هذه الفاحشة –، فقام لوط عليه السلام ناهيًا ومدافعًا فقال: هؤلاء بناتي –أي: النساء– فتزوجوهن فهن أطهر وأحلُّ وأنْزه لكم، فاتقوا الله وخافوا عقابه، ولا تذلوني وتهينوني في ضيفي، ألا يوجد منكم رجل واحد رشيد ينهاكم ويزجركم ويمنعكم من الفعل القبيح؟

[٧٩] فأجابوه بخسَّة ودناءةٍ قائلين: لقد علمت يالوط أنّا ليس لنا رغبة ولا حاجة بالنساء، وعلمت أنّا لا نريد إلا الرجال. وقولهم: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾، يوضح أن الناس إذا استمروا علىٰ ارتكاب المحرم استمرؤوه وصار حقًّا عندهم.

[٨٠] فعندها قال لوط عليه السلام: لو أن لي قبيلة تمنعني أو أنصارًا يقفون معي؛ لَمَنَعْتُكُم بالقوة ونكَّلت بكم، ولِمَا يعلم عليه السلام من فسوقهم نسي أن يأوي إلىٰ الركن الشديد، وهو أقوىٰ الأركان الذي لا يغلبه أحد، وهو الله جل في علاه.

[٨١] ولمّا رأىٰ الملائكة ما حل بنبي الله من همٍّ وضيق، جاء فرج الله للوط عليه السلام، ونطقت الملائكة، وأخبروه أنهم رسل الله، وأنهم جاؤوا لإهلاك هؤلاء المجرمين، وطمأنوه بأن هؤلاء المجرمين لن يستطيعوا فعل شيء يسوؤه، وأمروه بالخروج هو وأهله الذين آمنوا معه من هذه القرية الظالم أهلها، وأن يكون خروجهم في الليل، وأمروه ألا يلتفت أحد ممن سيخرج معه لكي لا يشاهد ما يروعهم ويحزنهم، واستثنوا زوجته من أهله لأنها كانت من القوم الكافرين، وأنه سيصيبها ما أصابهم من العذاب، وأن موعد إهلاكهم هو الصبح، وهو موعد قريب.

فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا
حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ
وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ
شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ
وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ
وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ
أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ
أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ
ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم
بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ
مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ
لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ
عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ
أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ
مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

[٨٢] فلمّا جاء أمر الله بنزول العذاب فيهم وحلوله بهم؛ قلب الله ديارهم عليهم فجعل عالي القرية أسفلها بعد أن أمطرهم الله بحجارة من النار شديدة الحرارة متتابعة تُهْلك من أصابته.

[٨٣] وأخبر سبحانه أن هذه الحجارة: معلَّمة وموسومة عليها علامة العذاب والغضب، وقيل: عليها اسم من ستهلكه، وهي ليست من المتجاوزين حدودهم ببعيد، فليست ببعيدة عمّن يعمل عمل قوم لوط، وليست بعيدة عن كفار قريش.

[٨٤] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قبيلة مدين -وهو قوم يسكنون مدين في أدنىٰ فلسطين- أخاهم في النسب: شعيبًا عليه السلام، فدعاهم إلىٰ التوحيد، وعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، ثم بدأ ينهاهم عن خُلُقٍ سيىءٍ كانوا قد اعتادوا عليه في التعامل في ما بينهم، وهو أنهم ينقصون المكيال والميزان؛ فنهاهم عن ذلك، وأمرهم أن يوفوا المكيال والميزان، وقال لهم: إني أراكم بخير ونعمة وسعة في أرزاقكم ووفرة في أولادكم، وإني ياقوم أخاف عليكم -إن بقيتم علىٰ الشرك وعلىٰ تطفيف المكيال والميزان- عذابًا يحيط بكم فيهلككم جميعًا، ولا ينجو منه أحد.

[٨٥] ثم كرر شعيب عليه السلام علىٰ قومه الأمر بإتمام المكيال والميزان بالعدل، ونهاهم عن نقص الناس حقوقهم وأموالهم، ثم نهاهم عن السعي في الأرض بالفساد.

[٨٦] ثم قال شعيب عليه السلام: واعلموا ياقوم إن ما تبقىٰ لكم بعد أن توفوا المكيال والميزان من الحلال خير لكم وأكثر بركة من التطفيف والبخس؛ إن كنتم تؤمنون بالله وتصدقون بما أرسلت به إليكم، واعلموا أني لست عليكم برقيب ولا بحسيب.

[٨٧] فأجابه قومه بتهكم وسخرية قائلين: ياشعيب أمحافظتك ومداومتك علىٰ صلاتك وعبادتك لربك جعلتك تنهانا أن نستمر في عبادة ما كان يعبد آباؤنا من قبل؟! وجعلتك تنهانا أن نتصرف في كسب أموالنا بالطريق التي تعودنا عليها؟! إنك ياشعيب لأنت الحليم الرشيد، ويقصدون عكس ذلك، أي: إنك لأنت السفيه الغويّ، وهذا من شدَّة كفرهم وعنادهم واستهزائهم بشعيب عليه السلام.

[٨٨] فأجابهم شعيب عليه السلام قائلًا: ياقوم أخبروني إن كنت علىٰ بينة ودليل قاطع وبرهان ساطع علىٰ صحة ما جئت به ودعوتكم إليه، مع ما رزقني الله به من الرزق الحسن من النبوة والحكمة ووفرة المال؛ أخبروني: هل أترك كل ذلك وأجاريكم وأتابعكم علىٰ باطلكم، ثم إني ياقوم لا مصلحة شخصية لي في نهيكم عن هذه الأفعال بحيث أقوم أنا بارتكابها؛ بل أنا أول المنتهين عن ما نهيتكم عنه، وما أريد من هذا كلّه إلا أن أصلح من شأنكم قدر ما أستطيع وقدر طاقتي، وما يحصل لي من التوفيق للهداية والرشد والصواب والخير، والبعد عن الغواية والخطأ والضلال والشر؛ إلا بالله تعالىٰ وحده، ومنحي إياه، لا حول لي ولا قوة إلا بالله، عليه اعتمدت في أموري كلها، وفوضت أمري إليه، وإليه أرجع وأتوب.

وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴿٩٧﴾

[٨٩] ثم قال لهم شعيب: ويا قوم لا يحملنكم حب مخالفتي ومشاقتي ومعاندتي علىٰ الإصرار علىٰ ما أنتم عليه من الشرك والمعاصي، فيصيبكم بسبب ذلك من العذاب والهلاك ما أصاب الأمم المعاندة من قبلكم؛ كقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وما عذاب قوم لوط منكم ببعيد في الزمان ولا في المكان، فاعتبروا بذلك.

[٩٠] ثم قال لهم أيضًا: ويا قوم اطلبوا من الله أن يغفر لكم ذنوبكم، ثم توبوا وارجعوا وأنيبوا إليه واعملوا بطاعته، واحذروا معصيته، إن ربي رحيم بعباده وسعت رحمته كل شيء، ودود لمن تاب وأناب، فيقبل منه ويعفو عنه ويحبه.

[٩١] فقال له قومه: ياشعيب ما نفهم كثيرًا مما تحدثنا به لأنك تَحْمِلَنَا علىٰ أمور ليست مألوفة عندنا كالحساب والعذاب والبعث والنشور؛ مع أنهم قد فقهوا كل قول قاله لهم شعيب من النصائح والمواعظ، ولهذا سُمي شعيب بخطيب الأنبياء، ولمَّا أفحمهم بالحجج والبراهين ولم يجدوا جوابًا يقولونه؛ قالوا له: ياشعيب ما نفقه قولك وأنت مستضعف عندنا ولست من أهل الجاه والمال، ولولا مراعاة عشيرتك لقتلناك رجمًا بالحجارة، وما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع.

[٩٢] فأجابهم شعيب علىٰ وجه الاستغراب من منطقهم الفاسد قائلًا: ياقوم أجماعتي وقبيلتي وعشيرتي أعزّ وأكرم عليكم من الله؟ فراعيتم ذلك، ولم تراعوا حق الله؟! ونبذتم أمر الله كله بالتوحيد وفعل الطاعات ورميتموه وراء ظهوركم غير مبالين به ولا آبهين؟!

ثم قال لهم مُحذِّرًا: اعلموا أن الله محيط بجميع أعمالكم، مطَّلع عليها، لا تخفىٰ عليه خافية، وسوف يجازيكم عليها أتم الجزاء وأوفاه.

[٩٣] ولمّا لم يستجيبوا وأصروا علىٰ كفرهم وعنادهم قال مهدِّدًا لهم ومتوعِّدًا إياهم: ياقوم اعملوا قدر استطاعتكم علىٰ الإضرار بي، فإني عامل ومستمر علىٰ دعوة التوحيد وعلىٰ عبادتي؛ فسوف تعلمون من منَّا علىٰ الصواب والحق، وستعلمون من منَّا سينجو، ومن منَّا سيأتيه عذاب يخزيه ويذلَّه ويفضحه، وتعلمون حينها مَن الصادق ومَن الكاذب، وانتظروا ياقوم ما سيحل بكم، إني معكم من المنتظرين.

[٩٤] ولمّا جاء أمر الله بهلاك قوم شعيب ونزول العذاب بهم، نجَّىٰ الله شعيبًا والذين ءامنوا معه برحمة وفضل ولطف منَّا، أمَّا الذين تجاوزا حدَّهم فأشركوا، ولم يؤمنوا، وتجاوزوا حدَّهم فأنقصوا المكيال والميزان، فأخذتهم الصيحة من السماء فخلعت قلوبهم، وأخذت أرواحهم، فبركوا علىٰ ركبهم جاثمين، وسقطوا – لا حراك لهم – ميِّتين.

[٩٥] يخبر جل وعلا عن حال مدين قوم شعيب بعد هلاكهم؛ كأنهم لم يقيموا في هذه البلاد ولم يعمروها، ولم يتمتّعوا فيها، ألا بعدًا لهم، وطردًا لهم من رحمة الله، كما أُبعدت وطُردت ثمود، والجامع بين هاتين الأُمَّتَيْن: الاشتراك في الكفر وتكذيب الرسل، ثم الاشتراك في النهاية، وهي العذاب، والطرد والإبعاد من رحمة الله.

[٩٦] ثم يخبر جل وعلا أنه أرسل نبيه موسىٰ عليه السلام بالآيات والمعجزات، والحجج الظاهرة البيِّنة التي تدل علىٰ صدق رسالته، وهي: الآيات التسع.

[٩٧] ثم بين سبحانه أنه أرسله إلىٰ فرعون وأشراف قومه –إذْ غيرهم من قومهم تبعٌ لهم–، فكفر فرعون بموسىٰ عليه السلام، وتابعه قومه علىٰ ذلك، ولم يؤمنوا بموسىٰ ولا برسالته؛ بل اتّبعوا أمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد؛ بل هو ضلال وغواية، وعناد وانحراف.

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

[٩٨] ثم أخبر جل وعلا أن فرعون يتقدم قومه يوم القيامة إلىٰ النار فيوردهم إياها، فيتبعونه كما تبعوه في الدنيا، فبئس هذا النصيب المقدر الذي قدِموا عليه.

[٩٩] ثم أخبر أنهم في هذه الدنيا ملعونون معذَّبون بالغرق، وفي البرزخ: تعرض أرواحهم علىٰ النار صباحًا و مساءً، وفي الآخرة ملعونون ومطرودون من رحمة الله، ومعذَّبون في نار جهنم؛ يلعنهم الله والملائكة والناس أجمعون، فبئس ما اجتمع لهم وما أعطوا من العذاب واللعنة في الدنيا والآخرة.

[١٠٠] واعلم يانبي الله أن ذلك الذي تقدم من خبر الأنبياء مع أقوامهم أخبرناك به تثبيتًا وتسليةً لك، ودليلًا علىٰ نبوتك ورسالتك، وتذكرة وعبرة للمعتبرين، وتلك الأقوام التي هلكت بعضها لها آثار لم تتلف ولم تذهب؛ بل هي باقية للعظة والعبرة، وبعضها ذهب وانمحىٰ وهو الحصيد.

[١٠١] واعلم أيضًا أننا ما ظلمناهم لمَّا أخذناهم بالعذاب والنكال؛ بل هم ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، واتخاذهم آلهة من دون الله، فما نفعتهم هذه الآلهة، ولا دفعت عنهم العذاب لمّا حلَّ بهم؛ بل زادتهم خسارة علىٰ خسارتهم، وهلاكًا علىٰ هلاكهم.

[١٠٢] وكذلك يانبي الله كما أخذ ربك هذه القرىٰ وأهلكها بالعذاب بسبب كفرهم وشركهم وظلمهم؛ سيكون هذا جزاء كل من حذا حذوهم، ونحا نحوهم، وإن أخذ ربك بالعقوبة للظالمين وإهلاكهم لشديد مؤلم موجع.

[١٠٣] واعلموا أن في ما مضىٰ من أخذ الأقوام الكافرين بالعذاب الشديد لعبرة وموعظةً لمن يعتبر ويتعظ، ويخاف عذاب الله وعقابه يوم القيامة، ذلك اليوم الذي تُجمع فيه الخلائق كلها ثم يجازيهم الله علىٰ أعمالهم، وذلك يوم سوف يشهده أهل المحشر كلهم.

[١٠٤] ثم أخبر سبحانه أن هذا اليوم لا يؤخر مجيئه إلا لوقت محدود حدده الله وقضاه.

[١٠٥] وعندما يأتي يوم القيامة فإن الناس لا يتكلمون من شدة الأهوال إلا بإذن الله، وقد انقسموا إلىٰ فريقين، فريق الأشقياء الذين استحقوا النار، وفريق السعداء الذين آمنوا واتّبعوا ما جاءت به رسلهم.

[١٠٦] ثم أخبر جل وعلا أن أهل الشقاوة يدخلون النار ويعذَّبون فيها أشدَّ العذاب، ومن ذلك أنهم يُدخلون النَّفَس ويخرجونه بشدّة وصوت عال.

[١٠٧] ثم أخبر سبحانه أن الكفار ماكثون في النار ما دامت السماوات والأرض، لا ينقطع عنهم العذاب ولا ينتهي؛ إلَّا إذا شاء ربك أن يُخرج أحدًا من عصاة الموحدين بعد أن يطهرهم الله من ذنوبهم، وإن ربك يانبي الله يفعل ما يشاء كما شاء إذا شاء.

والاستثناء المذكور بالنسبة لأهل النار في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، مع قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ:٢٣]، قالوا: إن الأحقاب لها نهاية، وأن الكفار بعد أن يمكثوا في النار أحقابًا عديدة وأزمنة مديدة فبإذن الله يموت من فيها وتفنىٰ، وهذا القول يعارض ما صح عن النبي ﷺ بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ويدخل أهل النار النار؛ فيُؤتى بالموت علىٰ صورة كبش فيذبح، ثم يقال لأهل الجنة وأهل النار: خلود فلا موت، مع آيات كثيرة تذكر الخلود الأبدي لأهل النار.

وقد نُسب إلىٰ ابن تيمية وابن القيم أنهما قالا: بفناء النار، وقد سُئل الشيخ ابن باز عن صحة ما نسب إليهما فنفىٰ أن يقو لا بفنائها، وقال: إنهما استعرضا القول وقالا: إن رحمة الله لا حدود لها. وقدرة الله نافذة، ولكن مذهب أهل السنة والجماعة أن النار لا تفنىٰ وأن الكفار مخلدون فيها.

ومع أنني مع أهل السنة وجمهور المسلمين الذين يرون خلود أهل النار فيها فقد استعرضت بعض حجج القائلين بفنائها وموت من فيها؛ لأن قولهم له وجهة من النظر؛ ولأن الله قال: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، وقال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]؛ ولأن رحمة الله عظيمة؛ ولأن الذي جعل الموت بصورة كبش ثم ذبحه قادر علىٰ إحيائه، كما أنه قادر علىٰ كل شيء؛ فسبحان من لا حدود لقدرته، ولا أحد يحجب رحمته.

[١٠٨] وأما أهل السعادة الحقّة الذين استجابوا الله ولرسوله ﷺ فيدخلون الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا إذا شاء ربك؛ عطاءً سرمديًّا غير منقطع عنهم ولا ممنوع، وأن بقاءهم هو بإبقاء الله لهم.

قال الشيخ عبدالله البسام: والاستثناء المذكور بالنسبة لأهل الجنة في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هو خاص بالعصاة الذين يدخلون النار، فهم ماكثون في النار حتىٰ يُطهَّروا، وبعد أن تتم مشيئة الله بتطهيرهم يدخلون الجنة، فهم خالدون في الجنة بعد ذلك أبدًا؛ إلا المدة التي تم تطهيرهم فيها. وأما الخلود الأبدي الذي لا استثناء فيه فهو لمن يدخل الجنة برحمة الله ابتداءً، ولمن يدخل النار كافرًا.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٖ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٖ ١٠٩ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكّٖ مِّنْهُ مُرِيبٖ ١١٠ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١١٥ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٖ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧

[١٠٩] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: فلا تك يا نبي الله في شكّ من بطلان عبادة هؤلاء المشركين لأصنامهم من دون الله، فليس لهم دليل عقلي ولا نقلي، وغاية أمرهم أنهم يقلدون آباءهم وأجدادهم في عبادة غير الله، وإنا يانبي الله لمعطوهم نصيبهم مما كتبنا لهم من الدنيا كاملًا، وموفونهم ومجازينهم علىٰ أعمالهم في الأخرىٰ.

[١١٠] يخبر جل وعلا أنه أعطىٰ موسىٰ عليه السلام التوراة وأنزلها عليه، فاختلف بنو إسرائيل في قبولها؛ فمنهم من آمن بها ومنهم من كفر، والذين آمنوا بها اختلفوا فيما بينهم أيضًا اختلافًا مذمومًا، ولولا قضاء الله وحكمه السابق بتأخير الجزاء علىٰ الأعمال إلىٰ يوم القيامة لقضىٰ بينهم بتعذيب وهلاك الظالمين، وفوز ونجاة المؤمنين، واعلم يانبي الله أن المتجاوزين لحدودهم من اليهود والمشركين في شكّ وحيرة واضطراب من هذا القرآن.

[١١١] واعلم يانبي الله أن الله سيجازي كل عامل بما عمل؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، والله جل وعلا خبير خبرة تامّة بأعمال الجميع، ولا يخفىٰ عليه منها شيء سبحانه.

[١١٢] يأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يستقيم علىٰ دين الله كما أمره ربه هو ومن تاب معه من الذين آمنوا علىٰ الحق، ولا يتجاوزوا ما حدده الله تعالىٰ، واعلموا أن الله مراقب لأعمالكم كلِّها لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وسيجازيكم عليها.

[١١٣] ينهىٰ جل وعلا أتباع النبي ﷺ من المؤمنين عن الركون والميل للظالمين؛ فإنهم إن مالوا إليهم وركنوا لهم؛ فإنهم بذلك يكونون قد وافقوهم علىٰ ظلمهم أو رضوا به، ويكونون بذلك قد حسَّنوا طريقتهم وزينوها للناس، وحينها يكونون مثلهم ويلقون مثل جزائهم فتمسهم النار، ثم يأتي التهديد والوعيد لمن هذه حاله، بأنه ليس له من الله وليٌّ يمنعه من عذاب الله، ولا ناصر ينقذه من مسِّ النار، ويدفع عنه العذاب؛ فليحذر كل مائل للظالمين من هذا المصير.

[١١٤] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ، ويدخل في هذا الأمر أمته بأن يقيم الصلاة ويؤديها علىٰ الوجه المطلوب طرفي النهار، أي: أوله وآخره، ويشمل ذلك صلاة الفجر والظهر والعصر، وأن يقيمها أيضًا زلفًا من الليل، ويشمل ذلك صلاتي المغرب والعشاء، ويدخل فيه قيام الليل، واعلم أن الحسنات – ومن أعظمها: أداء الصلوات الخمس – تُذهِب السيئات من الصغائر وتمحوها، واعلم أن الاستقامة علىٰ أمر الله كما أمر، وترك مجاوزة الحد، وعدم الميل والركون للظالمين، وأداء الصلوات علىٰ الوجه المطلوب؛ اعلم أن ذلك كله ذكرىٰ للذاكرين، وموعظة للمتعظين، وهداية للمتقين.

[١١٥] أمر جل وعلا نبيه ﷺ بالصبر؛ لأن المأمورات لا بدّ من الصبر علىٰ فعلها، والمنهيات لا بد من الصبر علىٰ تركها، واعلم أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ولا يخيب من امتثل أمره وانتهىٰ عن نهيه، واسْتَقَامَ كما أُمر؛ بل يجازيه علىٰ ذلك أحسن الجزاء وأوفاه.

[١١٦] فلما كان من الأمم الهالكة أصحاب أولوا بقية من دين وعقل؛ ينهون أقوامهم عن الفساد في الأرض بالشرك وتكذيب الأنبياء؟! لم يوجد من هؤلاء إلا القليل، وقد نجَّاهم الله من العذاب، أما الذين ظلموا فإنهم اتّبعوا أهواءَهم وشهواتهم، وغرقوا في نعيم الدنيا الزائل وآثروها علىٰ الآخرة؛ فكانوا بذلك مجرمين؛ فاستحقوا الهلاك والعذاب.

[١١٧] يخبر جل وعلا رسوله ﷺ أنه لا يُهلك القرىٰ والأمم بظلم منه لهم حاشاه سبحانه، ولم يكن الله ليهلكهم وفيهم مصلحون قائمون علىٰ الإصلاح في الأرض، مستمرون عليه، ولكن الناس يظلمون أنفسهم بالشرك والفساد في الأرض؛ فيستحقون عذابه وغضبه.

[١١٨] يخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن في قدرته أن يجعل الناس كلهم أمة واحدة متفقين علىٰ الحق، ولكن اقتضت حكمته أن يجعلهم مختارين، ولا يزال الناس مختلفين في ذلك، فمنهم من يكون علىٰ الصراط المستقيم باتباع الأنبياء، ومنهم من يَضِل ويخالف باتباع هواه وما يزينه له الشيطان.

[١١٩] ثم استثنىٰ سبحانه الذين رحمهم الله فآمنوا به فإنهم لا يختلفون في توحيد الله وما جاءت به الرسل، وقد اقتضت حكمته جل وعلا أنه خلق الناس جميعًا لعبادته وجعلهم مختارين للهدىٰ والضلال، ثم جعل رحمته للمهتدين، وعذابه علىٰ الضالين، وبهذا تتم حكمته ويتحقق وعده ووعيده الذي قضاه وقدّره وأقسم عليه بقوله: لأملأن جهنم من عصاة الجن وعصاة الإنس الذين اتّبعوا إبليس وجنده ولم يسلكوا طريق الإيمان والهداية.

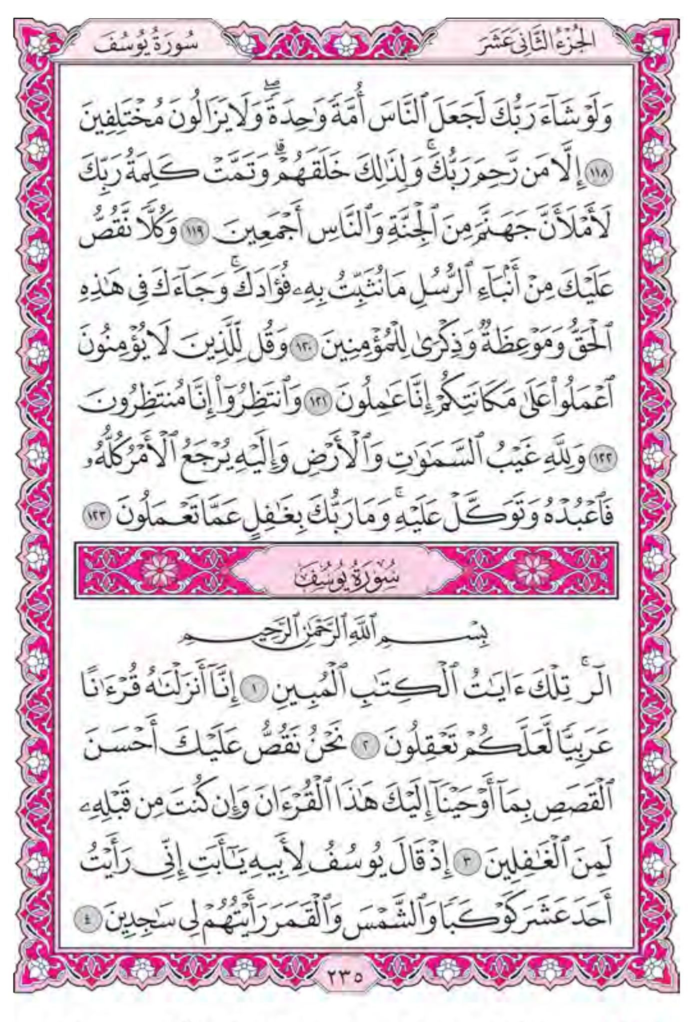
[١٢٠] يخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن قصص الأمم الماضية أنزلها تثبيتًا لفؤاده وأتباعه، ولكي تجعله لا يستغرب ما يلقاه من قومه، ولا شك أن الرسول ﷺ معصوم من كل الشكوك وكل ما يشين، ومراد الله جل وعلا أن يعلِّم نبيه ما لاقىٰ الأنبياء من الأذىٰ والردود السيئة التي أجيب بها الأنبياء السابقون وصبْرهم وثباتهم، وهذا مما يجعله هو وأتباعه من الدعاة والمصلحين يعرفون أن الخلق يكرهون الانتقال مما عليه آباؤهم وأسلافهم؛ مما لا يكلفهم صيامًا ولا صلاة ولا جهادًا، واعلم يانبي الله أنه قد جاءك في هذه السورة وغيرها من سور القرآن الحق الثابت الذي أنت عليه، والمواعظ الحكيمة التي يرتدع بها الكافرون، والذكرىٰ النافعة للمؤمنين.

[١٢١-١٢٢] وقل يانبي الله للذين لم يصدقوا برسالتك علىٰ سبيل التخويف والتحذير: ابقوا علىٰ حالتكم، واعملوا علىٰ شرككم والصدّ عن سبيل الله؛ فإنا باقون علىٰ حالنا من الإيمان والدعوة إلىٰ التوحيد. وانتظروا وترقبوا عاقبة الأمر، وما سيحل بنا وبكم، فإنا منتظرون ومترقبون عاقبة أمركم، وما سيحلُّ بنا وبكم.

[١٢٣] يخبر جل وعلا أن له علْم جميع ما غاب عن العباد في الكون كله، وهو سبحانه إليه مصير ومرجع ومآل أمور العباد والأعمال يوم القيامة، فاعبده يامحمد بفعل كل ما يحبه الله ويرضاه من العبادة وتبليغ الرسالة، والابتعاد عن كل ما يكرهه الله ويأباه، وفوض أمرك إليه، وما ربك بغافل عما يعمل الناس من الخير والشرّ؛ لا تخفىٰ عليه خافية، وسيجازي كلًّا بعمله.

سورة يوسف

سورة يوسف مكيّة وآياتها إحدىٰ عشرة ومائة آية. وقد ذكر جل وعلا في هذه السورة جملة من الابتلاءات المتنوعة التي أصابت نبي الله يوسف ووالده يعقوب عليهما السلام، كان أولها الحسد، ثم إلقائه في البئر، ثم بيعه بثمن بخس، ثم بعد أن صار رقيقًا وكبر أولعت سيدته بحبه حبًّا تعدّت فيه حدود الحشمة، ثم السجن، قال ابن عطاء: (لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح).



[١-٢] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. ثم أخبر جل وعلا في أول هذه السورة أن آيات القرآن الكريم هي آيات واضحة جليةٌ لفظًا ومعنىً ومبيِّنة للعقائد والأحكام والأخلاق، وأخبر أنه أُنزل باللغة العربية التي هي أعظم اللغات وأشرفها وأقدرها علىٰ إيضاح المعاني وتبيانها؛ لعلكم تفهمون وتتدبرون ما اشتمل عليه هذا الكتاب العزيز.

[٣] واعلم يانبي الله أننا نوضح لك أحسن ما يُقص مما تعرَّض له الصالحون المستقيمون من عباد الله، بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وإن كنت من قبل إنزاله من الغافلين الذين لا يعلمون بهذه القصص التي لا يمكن معرفتها إلا عن طريق الوحي. ولا شكّ أن قصة يوسف تعتبر أحسن القصص لما احتوت عليه من العبر والثبات علىٰ المبدأ الحق، والاستقامة، وعدم الانسياق لرغبات النفس من الشهوات، والصبر علىٰ المحن، وما ترتب علىٰ ذلك من نجاح ورفعة في الدنيا والآخرة.

[٤] يخبر جل وعلا أن يوسف عليه السلام قال لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام: يا أبتِ إني رأيت في منامي أحد عشر كوكبًا، والشمس والقمر رأيتهم كلهم يسجدون لي؛ ففهم يعقوب عليه السلام أن ابنه سيكون له شأنٌ عظيم.

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾ ۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

[٥] ثم إن يعقوب عليه السلام أوّل رؤيا ابنه يوسف تأويلًا عامًّا، وأخبره أن الله سوف يصطفيه ويعطيه النبوة كما أنعم علىٰ آبائه من قبل، أما تفاصيلها فجاءت علىٰ لسان يوسف بعد سجود أخوته له، والحاصل: أن يعقوب عليه السلام أمر ابنه يوسف أن لا يخبر أحدًا بهذه الرؤيا وخاصة أخوته حتىٰ لا يحسدوه ويعادوه؛ لأن الحسد قد يقع بين الإخوان لا سيما وهو أصغرهم سنًّا وأمه غير أمهم، ولأن الشيطان عدو للإنسان ظاهر العداوة، وبسبب هذه العداوة سوف يحثُّ إخوته ويرسم لهم خططًا للإضرار به.

[٦] وكما أراك الله جل وعلا هذه الرؤيا فسوف يصطفيك لحمل رسالته ويلهمك تأويل الأحلام، ويتم نعمته عليك وعلىٰ آل يعقوب بالنبوة والرسالة كما أنعم من قَبْل علىٰ أبويك إبراهيم وإسحاق بالنبوة والرسالة، واعلم أن ربك عليم يعلم من يستحق الاصطفاء من عباده، حكيم في تدبير شؤون خلقه.

[٧] يخبر جل وعلا أن في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته آيات وعظات وعبر للسائلين المتطلعين الذين يريدون معرفة حقيقة تلكم القصة العظيمة.

[٨] قال إخوة يوسف بعضهم لبعض: إن أبانا يحب يوسف وشقيقه ويفضلهما علينا، ونحن جماعة، ولا نحبّ ذلك، وإن أبانا بفعله هذا لفي خطأ واضح بيّن جليّ.

وهذا يثبت أن الغيرة جِبلة خلقية ليست في النساء فقط؛ بل حتىٰ في الرجال وهي من أسلحة الشيطان.

[٩] لمّا رأىٰ أخوة يوسف أن أباهم يعقوب توسَّم في يوسف النجابة وصار يهتم به ورأوا أن وجه أبيهم منشغل عنهم، أخذتهم الغيرة؛ وخاصّة أنهم هم الذين يكدحون في طلب الرزق ويخدمون يعقوب وأسرته؛ ولذا قال بعضهم لبعض: اقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض مجهولة بعيدة حتىٰ تتخلصوا منه، وحتىٰ يتفرغ لكم أبوكم ويُقْبِل عليكم بالحب والشفقة والحفاوة والتكريم، وبعد قتل يوسف أو إخفائه تتوبون إلىٰ الله من هذا الذنب العظيم، فَقَدَّمُوا العزم علىٰ التوبة قَبْل الوقوع بالذنب، وهذا لا يرفع عنهم الإثم فقد يحول الله بين المرء وقلبه ولا يتوفق للتوبة فيخسر خسرانًا عظيمًا، وأيضًا حسدهم ليُوسف غير مبرر لارتكاب الجريمة، ويبقىٰ له حق ثابت حتىٰ لو تابوا.

[١٠] قال أحد إخوة يوسف: إن كنتم عازمين علىٰ إخفاء يوسف عن أبيه؛ فلا تقتلوه لبشاعة ذلك وشناعته، ولكن خذوه وألقوه في بئر عميق مظلم، فيأتي المسافرون فيأخذونه ويبتعدون به، ولا يُعرف له مكان، وهذا رأيي إن كنتم عازمين مصرّين علىٰ إخفائه وإبعاده.

[١١] ولِمَا كان من حرص يعقوب عليه السلام علىٰ يوسف؛ كان لا يتركه يفارقه، فقال له بنوه: يا أبانا: لماذا لا تأتمننا علىٰ يوسف؟ ولماذا تخاف عليه منَّا، ونحن إخوته نحب له الخير كما نحبه لأنفسنا؟.

[١٢] ثم قالوا لأبيهم: يا أبانا ابعثه معنا غدًا يتنزَّه ويتنشط ويفرح ويلعب، وسيكون تحت رعايتنا وحراستنا وحفظنا.

[١٣] فأجابهم قائلًا: إن ذهابه معكم لا يسوؤني، ولكن الذي يسوؤني ويشق عليَّ حقًّا هو أن يأتيه الخطر كأن يأكله الذئب وأنتم بعيدون عنه بطلب الصيد.

[١٤] فردوا عليه قائلين: يا أبانا: كيف يأكله الذئب ونحن معه جماعة، نحوطه ونحرسه؟! لَئِنْ حصل ذلك بأنْ أكله الذئب من بيننا؛ فنحن إذًا لا خير فينا، ولا يُرجىٰ نفعنا، ولا يُعتمد علينا بعد ذلك في شيء.

فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

[١٥] وهكذا وقع كما تخوف يعقوب عليه السلام؛ أن ما حصل لابنه يوسف عليه السلام هو من تدبير إخوته، وليس كما ادعوا أنَّ الذئب أكله؛ حيث دبَّروا التخلص من يوسف، وتم ما خططوا له بأن ألقوه في جوف البئر؛ لكن رحمة الله بيوسف عليه السلام لإيناسه وإنزال السكينة عليه، أوحىٰ الله إليه أنه سوف ينجو، وسوف يأتي يوم فَيُذَكِّرُهُم بجريمتهم هذه، وهم لا يحسُّون بذلك الأمر بحيث يفاجئهم به.

[١٦] ثم رجع إخوة يوسف إلىٰ أبيهم بعد العشاء وهم يبكون، ويُظهرون الحزن والألم.

[١٧] ثم قالوا معتذرين: يا أبانا، إنا ذهبنا نتسابق بيننا، ولم نأخذ يوسف معنا حتىٰ لا يشق ذلك عليه، وتركناه عند متاعنا، فلمّا رجعنا إذا به قد أكله الذئب، ونحن نعرف أنك لشدَّة حبك ليوسف أنك لن تصدقنا، حتىٰ ولو كنَّا صادقين.

[١٨] ثم أخبر جل وعلا أن أخوة يوسف لطَّخوا قميصه بدم كذب ليس دم يوسف، ليشهد لهم عند أبيهم أنهم صادقون، ولكن هذا كان دليلًا علىٰ كذبهم لأن القميص لم يمزق، قال بعض المفسرين: إنهم ذبحوا سخلة ولطَّخوا القميص بدمها ولم يمزقوه؛ فقال يعقوب: لمْ أر في حياتي ذئبًا لطيفًا مثل هذا الذئب جرَّده من ثيابه ثم أكله، ثم قال لهم: بل حسَّنت وزيَّنت لكم أنفسكم أمرًا سيئًا فليس لي إلا أن أصبر صبراً جميلًا لا شكوىٰ فيه لأحد سوىٰ الله، فإنه هو المعين وحده علىٰ ما قمتم به من الكذب وفعل السوء.

قال بعض المفسرين: لقد فعل أخوة يوسف فعلتهم قبل أن يصيروا أنبياء، وأكثر المفسرين قالوا: لم يكونوا أنبياء لا قبل هذه الجريمة ولا بعدها؛ لأن المعروف عن الله سبحانه أنه يحفظ أنبياءه، ولكن قتْل موسىٰ للقبطي ينفي هذا القول.

[١٩] ومن رحمة الله بيوسف عليه السلام أن أُناسًا مسافرين مروا علىٰ البئر التي أُلْقِيَ فيها يوسف فجلسوا قريبًا من البئر، ثم أرسلوا واردهم ليجلب لهم الماء من البئر؛ فلمّا أنزل الرجل الدلو في البئر ليملأه؛ تعلق به يوسف؛ فلما أخرج الدلو من البئر وجد يوسف متعلقًا به؛ ففرح وابتهج وصاح قائلًا: يا بشرىٰ هذا غلام، واعتبروه صيدًا ثمينًا، وأخفوا خبر التقاطه من البئر، واعتبروه بضاعة وأسرُّوا بيعه، ثم أخبر سبحانه أنه عليم بما عمله أخوة يوسف بأخيهم، وعليم بالذين باعوه والذين اشتروه، لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء.

[٢٠] ثم باع أهل القافلة يوسف عليه السلام بيعة بخسة بدريهمات معدودة، وكانوا زاهدين فيه لأنهم لم يملكوه بحق ولم يدفعوا ثمنًا لشرائه.

[٢١] ومن رحمة الله بيوسف أيضًا أن الذي اشتراه هو عزيز مصر، أي: وزير التموين؛ حيث توسم فيه الخير ووصّىٰ أهله بالعناية به؛ لعله أن ينفعهما فيخدمهما ويقوم مقام الولد منهما، وكما أنجىٰ الله يوسف عليه السلام وجعل عزيز مصر يكرمه ويعطف عليه؛ فكذلك مكّنَ الله ليوسف في قلوب من يراه مثل عزيز مصر وزوجته وخدمه وغيرهم؛ حيث كان له حَظْوة وعناية ليس كالأرقاء الممتهنين، وهذا التمكين هو في القلوب ونفوس المحيطين به من سادة وخدم بإلقاء محبته في نفوسهم، وهو غير التمكين الذي حصل عليه يوسف عندما عبَّر رؤيا الملك ثم قابله بعد أن أثبت براءته من: ﴿ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ فقال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف:٥٦]؛ فهذا الأخير تمكين سيادة وسلطة وحرية يتنقل ويسكن حيث يشاء، ثم أخبر سبحانه أنه علَّم يوسف تفسير الأحلام، وأخبر سبحانه أنه غالبٌ علىٰ أمره، لا يغلبه غالب، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون قضاء الله وحكمته، وأن الأمر كلّه بيد الله الواحد الأحد.

وقد قيل: إن اسم امرأة عزيز مصر: راعيل، وقال ابن عباس: لقبها (زليخا)، وقيل أيضًا: أفرس الناس عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

[٢٢] ولمّا اكتمل يوسف جسمًا وجمالًا وعقلًا، أعطاه الله الحكمة والبصيرة والفهم لتأويل الأحلام، ومثل هذا الجزاء الذي أعطيناه لعبدنا المحسن يوسف كذلك نجزي كل محسن علىٰ إحسانه، فإن خزائن الله لا تنفذ، فهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾

[٢٣] ثم أخبر جل وعلا أن امرأة العزيز عندما بهرها جمال يوسف لم تملك أعصابها وغلبتها الشهوة فأرادت أن يجامعها، وبذلت في ذلك كل ما تستطيع من الجهد وتكرار الطلب؛ لذلك دعته لنفسها في بيتها وغلقت الأبواب عليها وعلىٰ يوسف، وقالت له: هلم إليّ، وفي قراءة: (هِئْتُ لك)، أي: تهيأت لك، ولكن عصم الله يوسف وهرب، وقال: معاذ الله إنه -أي: عزيز مصر- ربي، أي: سيدي الذي اشتراني وأكرم مقامي؛ فهو يذكرها بفضل زوجها عليه، وأنه لا يستحق أن يخونه، وقد قدم يوسف خوف الله أولًا فقال: معاذ الله، أي: إنني أستجير بالله من الذي تدعينني إليه؛ وأخبرها أنه لا يفلح ولا ينجح من ظلم وفعل هذا الفعل.

[٢٤] ثم أخبر سبحانه أن امرأة العزيز مالت نفسها لفعل الفاحشة مع يوسف عليه السلام وعزمت عزمًا جازمًا علىٰ ذلك، وكذلك حدثت يوسف نفسه حديث خطرات للاستجابة لها، ولولا أن رأىٰ آية من آيات ربه تزجره عما حدثته به نفسه لكاد أن يقع معها في ما حرم الله، وإنما أراه الله ذلك رحمة منه ليدفع عنه السوء والفاحشة، وقد قال بعض المفسرين: إن الله أراه صورة أبيه، ثم بين جل في علاه أن يوسف عليه السلام من عباد الله المطهرين الذين اصطفاهم للرسالة، والذين أخلصوا في عبادته وتوحيده وطاعته، وعصمهم الله من كل ما يغضبه جل علا.

قال الشيخ الشنقيطي في تفسير أضواء البيان: لم يهم يوسف بها أصلًا؛ لأنك لو قلت: سقط فلان في البئر لولا أحمد؛ فإنه لم يقع في البئر. وقال الشيخ ابن باز: إنه هم بها، وقال بمثل قوله كثير من العلماء.

قلت: وربما قالوا ذلك تأدبًا مع لفظ القرآن الكريم (همّت وهمّ)، وفضيلته يعلم أن لولا حرف امتناع لوجود.

[٢٥] ثم بين سبحانه أن يوسف عليه السلام أسرع هربًا منها ومن طلبها، وأسرعت هي لتلحق به، فأدركته قبل أن يخرج من الباب فأمسكت بقميصه من الخلف فشقَّتْه، وعندها وجدا العزيز عند الباب، فبادرته امرأته قائلة: ما مصير وعقاب من أراد بأهلك فعل الفاحشة؟، إنَّ جزاءه أن يدخل السجن، أو يعذب عذابًا شديدًا موجعًا.

[٢٦] فقال يوسف مدافعًا عن نفسه: إن سيدتي هي التي طلبت منّي ما رمتْني به، ثم يسَّر الله شاهدًا فحكم وفصل بينهما بقرينة من يمتلكها يكون هو الصادق، فقال هذا الشاهد: انظروا إلىٰ مكان شق قميص يوسف، فإن كان الشَّقُّ من الأمام فهذا دليل علىٰ أنه هاجمها، وهي دافعت عن نفسها حتىٰ شقت قميصه، وحينها تكون صادقةً في ادعائها ويكون هو من الكاذبين.

[٢٧] ثم قال الشاهد: وإن كان العكس بأنْ كان شقُّ القميص من الخلف فهذا دليل علىٰ هربه منها، وإمساكها به من الخلف، وحينها يكون هو صادقًا، وتكون هي من الكاذبين.

[٢٨] فلما رأوا أن القميصَ مشقوقٌ من الخلف؛ عَلِمَ أنه هو الصادق، فقال لامرأته: إنَّ ما فعلتِ إنَّما هو من مكركنَّ أيتها النساء، وإن مكركنَّ عظيم، وحِيَلَكُنَّ كبيرة.

وقد أمر الله بغض البصر عن المرأة الأجنبية؛ لأنه الوسيلة الأولىٰ للتعلق والحب، لذا فليحذر المؤمن من النظر للنساء الأجنبيات عنه، ولا يغتر بثقته في نفسه؛ فإن النظر هي مقدمة الخطيئة، والقلب قُلَّبٌ، وربَّ نظرة صرعت صاحبها.

[٢٩] ثم طلب عزيز مصر من يوسف أن يصرف النظر عن الموضوع، وأن لا يخبر به أحدًا، وطلب من زليخا أن تستغفر الله وتتوب من خطئها الذي وقعت به، وقال لها: إنك كنت من الآثمين في طلبك من يوسف فعل الفاحشة معه، ومن الآثمين في افترائك عليه. وقد استغرب بعض المفسرين من عدم غيرته، وقال بعضهم: إنه عاقب زوجته وأقسم أن لا ينام معها أربعين ليلة، وأنه حرمها من رؤية يوسف وأخذه معه في مقر عمله لمساعدته في تصريف أمور الدولة، وقالوا: إنَّ ذلك أهَّلَ يوسف ليقول للملك عندما فسَّر له الرؤيا فقال: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾، فقال يوسف: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٥٥]، أي: خزائن الدولة، وهذا تواضع منه لأن قول الملك له: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾، أي: إنك اليوم أصبحت رئيسًا للوزراء.

[٣٠] ثم بين سبحانه أن خبر يوسف عليه السلام وامرأة العزيز شاع وانتشر في البلاد، وتكلمت بعض النسوة عن ذلك، واستنكرْن فعل امرأة العزيز؛ وقلْن في استغراب: امرأة عزيز مصر في مكانتها تراود فتاها وخادمها عن نفسه؟! إنَّا لنراها بفعلها هذا في خطأ واضح، وضلال جليٍّ بيِّن.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

[٣١] وصل خبر النسوة وما تكلمن فيه إلىٰ امرأة العزيز، فلما علمت بذلك؛ بعثت إليهن، وهيأت لهنّ مكانًا يجلسن فيه متكئاتٍ، وقدمت لهنَّ فاكهة، وأعطت كلّ واحدة من النسوة سكّينا يستخدمْنها في الأكل وتقطيع الفاكهة، ثم أمرت يوسف عليه السلام أن يخرج عليهنّ، فخرج فلمَّا رأته النسوة بُهِرْن ودُهِشْن لجماله ولحسن طلعته، وذَهِلن عن السكاكين اللاتي بأيديهن فجرحن بها أيديهنّ، ثم قلْن في دهشة واستعظام: معاذ الله أن يكون هذا الفتىٰ بهذا الجمال من البشر، ما هذا إلا مَلَكٌ كريم من الملائكة.

[٣٢] حينها قالت لهنَّ امرأة العزيز: هذا هو الفتىٰ الذي لمتنني في مراودته، ولقد راودته عن نفسه فامتنع وأخذ بالعصمة ولم يستجب، ولئن لم يفعل ما طلبته منه مستقبلًا ليكونن مصيره السجن، وليكوننَّ من الأذلاء الصاغرين.

[٣٣] حينها التجأ يوسف عليه السلام لربه خاضعًا متذللًا قائلًا: يارب إن السجن أهون عليّ مما يدعونني إليه، يارب إن لم تعنِّي وتلطف بي وتصرف عني كيد هؤلاء النسوة أخشىٰ أن أضعف فأميل إليهنّ، وأفعل فعل الجاهلين.

[٣٤] فاستجاب الله جل وعلا لعبده يوسف حين دعاه، واعتصم به، فصرف عنه كيد ومكر هؤلاء النسوة، إنه سبحانه هو السميع الذي يسمع دعوة المضطر، العليم الذي يعلم صدق من يلتجيء إليه في الشدائد فينجّيه.

[٣٥] ثم ظهر وبدا للعزيز ومن معه -بعدما علموا براءة يوسف- أن يسجنوه إلىٰ أجل غير مسمىٰ حتىٰ ينقطع كلام الناس، وتنمحي آثار تلك الفضيحة، وحتىٰ يوهموا أن امرأة العزيز بريئة.

ومن رحمة الله به أنه بهذا السجن صار داعية لتوحيد الله وعُرف إحسانه وصلاحه كما قال له زملاؤه في السجن: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]، ثم أن ذلك أعطاه فرصة ليؤوِّل رؤيا الملك التي بعدها تولىٰ وزارة حكومة مصر بعد أن استخلصه الملك لنفسه كما قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف:٥٤].

[٣٦] ولمّا دخل يوسف عليه السلام السجن؛ دخل معه فتيان، فرأىٰ كل منهما رؤيا منامية، فقصَّاها علىٰ يوسف عليه السلام، فقال الأول: إني رأيت في منامي أنّي أعصر خمرًا، وقال الآخر: وأنا رأيت أنّي أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه، فأخبرنا يايوسف بتعبير هذه الرؤىٰ، فإنا -بمعاملتك إيانا ومعاشرتنا لك- عرفنا أنك من أهل الإحسان والعلم.

[٣٧] فأجابهما يوسف قائلًا: لا يأتيكما طعام في هذا السجن إلا أخبرتكما بنوعه وماهيته قبل أن يأتيكما، وهذا مع ما سأعبره لكما؛ مما علمنيه ربي وفتح به عليَّ، ثم استغلَّ يوسف عليه السلام فرصة إصغائهما واستماعهما إليه في دعوتهما إلىٰ التوحيد، فقال لهما: إني ابتعدت عن دين قوم لا يصدقون بالله ولا باليوم الآخر، وهم بالبعث والنشور والحساب والجزاء جاحدون.

ثم استمر في دعوتهما إلىٰ التوحيد فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، كما سيأتي.

وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾

[٣٨] ثم قال يوسف عليه السلام متكلمًا عن نفسه: ولقد استقمت علىٰ الدين الصحيح الذي سبقني إليه آبائي من قبلي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وهو عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وما يليق بنا ولا يحقُّ لنا أن نشرك مع الله أحدًا من مخلوقاته، لا ملَكًا مقرَّبًا ولا نبيًّا مرسلًا، وهذا التوحيد هو أفضل نعمة -علىٰ الإطلاق- منَّ الله بها علينا وعلىٰ كلِّ موحِّد، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يشكرون الله حق شكره علىٰ هذه النعمة العظيمة.

[٣٩] ثم واصل يوسف عليه السلام دعوتهما إلىٰ التوحيد بلطف ولين قائلًا: يا صاحبي السجن: أعبادة آلهة متفرقة مختلفة عاجزة مخلوقة خير، أم عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد! الذي قهر كل شيء وغلب وعلا وارتفع علىٰ كلّ شيء عزة وملكًا وقهرًا؟!

[٤٠] ما تعبدون من دون الله إلَّا آلهة باطلة أطلقتم عليها اسم الآلهة، وهي ليست كذلك، هذه مسميات أطلقتموها أنتم وآباؤكم، ليس معكم عليها دليل منزَّلٌ من عند الله؛ بل الدليل علىٰ عكس ذلك، واعلموا أن الحكم لله وحده لا شريك له، ولا ربَّ سواه، وهو الذي أمركم بعبادته وحده وترك عبادة ما سواه، ذلك التوحيد هو الدين المستقيم الثابت، والملّة الصحيحة القويمة، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون ذلك.

[٤١] ثم بدأ يوسف عليه السلام بتعبير الرؤىٰ لصاحبيه، فقال لهما: أما الأول الذي رأىٰ أنه يعصر الخمر؛ فإنه سيخرج من السجن ويكون ساقي الخمر للملك، وأما الآخر الذي رأىٰ أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه؛ فإنه سيقتل ثم يُصلب ثم تأكل الطير من رأسه، ثم قال لهما: هذا جواب ما سألتُماني عنه، وهذا أمر قد قضاه الله وقدَّره كما شاء.

[٤٢] ثم قال يوسف عليه السلام للذي ظنَّ أنه سينجو منهما: اذكرني عند الملك، وذكِّره بأني سُجنت ظلمًا، فنسي الرجل أن يُذكِّر سيده؛ فمكث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين، والبضع من الثلاث إلىٰ التسع، وذلك لِحِكَم يعلمها الله، منها: أن يموت عزيز مصر فيحل محله يوسف عليه السلام، ومنها: أن يؤِّل رؤيا الملك.

قال بعض المفسرين: إن الذي نسي ذكر ربه هو يوسف عليه السلام، قالوا: إن الضمير في قوله: (فأنساه الشيطان ذكر ربه) عائد علىٰ يوسف عليه السلام، وهذا القول ضعيف، والصواب: أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربِّه في الآية هو الرجل الذي طلب منه يوسف عليه السلام أن يذكره عند الملك، وليس هو يوسف عليه السلام؛ لأن يوسف عليه السلام لم ينس ذكر ربِّه، وليس في قول يوسف عليه السلام له: (اذكرني عند ربك) شيء مما يخلُّ بمنصب الرسالة، أو التوكل علىٰ الله وإنزال الحوائج به، وقد رجح ذلك الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوىٰ.

[٤٣] ثم رأىٰ الملك في منامه رؤيا كانت بداية الفرج ليوسف عليه السلام، فقال: إنّي رأيت في منامي سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات هزيلات، قد سقطت قوتهن، ورأيت سبع سنبلات خضر، وسبعًا أيضًا يابسات، ثم وجّه نداءً للوجهاء والأشراف في قومه قائلًا: عبِّروا لي هذه الرؤيا، إن كنتم تستطيعون ذلك.

[٤٤] فأجابوه قائلين: هذه ليست رؤيا، هذه أضغاث أحلام، ثم تراجعوا واعترفوا بعجزهم وقالوا: لا علم لنا بتعبير الرؤىٰ.

[٤٥] وقال أحد الرجلين اللذين كانا مع يوسف في السجن ثم نجا من القتل وصار ساقيًا للملك؛ حيث تذكّر بعد فترة طويلة ما طلبه منه يوسف، وتذكر كيف كان يوسف يفسر الأحلام تفسيرًا صادقًا، فقال الساقي: أنا أستطيع أن آتيكم بتفسير هذه الرؤيا التي خفي تفسيرها علىٰ الملك؛ فأمرني أن أذهب إلىٰ من يفسرها لي تفسيرًا واضحًا بينًا.

[٤٦] فجاء الذي نجا إلىٰ يوسف عليه السلام واصفًا إيّاه بالصدق قائلًا: أخبرنا يا يوسف بتعبير هذه الرؤيا: سبعُ بقراتٍ سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، فسِّرْ لي هذه الرؤيا حتىٰ أرجع إلىٰ الملك وإلىٰ الناس بتفسيرك فيعرفون تأويل الرؤيا، ويعرفون فضلك وعلمك ومكانتك؛ حيث إن الجميع قد عجز عن تفسيرها.

[٤٧] فأجابه يوسف عليه السلام معبِّرًا للرؤيا: إنكم تزرعون سبع سنين متتالية متتابعة، وإذا حصدتم زرعكم فاتركوه مدَّخرين له في سنابله، إلا القليل الذي تأكلون منه.

[٤٨] ثم أكمل يوسف عليه السلام تفسير الرؤيا فقال: ثم يأتي بعد ذلك سبع سنين جداب شداد لا خصب فيهن ولا زراعة؛ فيأكل الناس ما ادّخرتم من قبل، ولا يبقىٰ إلا شيء قليل مما حبستموه من الحبِّ ولم تقدموه للنَّاس.

[٤٩] واستمر يوسف عليه السلام في تفسير الرؤيا فقال: ثم يأتي بعد ذلك عام خصب كثير الأمطار والسيول، فيحلّ الفرج والسعة علىٰ النَّاس، حتىٰ أنهم ليعصرون الثمار من كثرتها وزيادتها.

[٥٠] وبعد أن سمع الملك تفسير الرؤيا طلب من حاشيته أن يأتوا بالرجل الذي فسّر الرؤيا؛ فلمّا جاءوا إلىٰ يوسف في السجن وطلبوا منه الحضور للملك، قال لهم يوسف: ارجعوا إلىٰ سيدكم الملك، واسألوه قبل خروجي من السجن: لماذا سجنت، وما حقيقة التهمة؟ أي: أنه طلب إعادة التحقيق، وأراد يوسف بذلك إظهار براءته وكشف الحقيقة للنّاس، وأراد أيضًا أن يُثْبِتَ للملك براءته ممّا رمته به امرأة العزيز، إن الله جل وعلا وحده العليم بمكرهنَّ وأفعالهن لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، وهو الذي سوف يتولىٰ حسابهنَّ.

[٥١] ثم جمع الملك النسوة وقال لهنَّ: ما شأنكنَّ لمّا راودتنّ يوسف عن نفسه؟ قلن: معاذ الله، ما عرفنا عنه إلا الطهر والعفاف،

قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

ومعاذ الله أن يكون قد استجاب أو ظهر منه ما يدل علىٰ ذلك، ثم نطقت امرأة العزيز بعد أن هدأ غليان الشهوة عندها، قائلة: الآن تمحصّ الحقّ وظهر وبان بلا دخن ولا خفاء ولا تلبيس، أنا التي راودته عن نفسه، وطلبت منه ذلك، وقد امتنع وأبىٰ، وإنه في تبرئته لنفسه لمن الصادقين، وربما كلامها موجه ليوسف اعتذارًا عن التهمة السابقة، وأنها لم تستمر عليها في غيبته.

[٥٢] ثم قالت امرأة العزيز: وهذا الاعتراف والإقرار مني بذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه وهو غائب عني، أي: لم استمر علىٰ اتهامه حال غيبته، وغاية ما حصل مني هي المراودة، فتبين من هذا أنها هي المتحدثة وهي المبرِّأةُ ليوسف عليه السلام، ولم تتحدث عن زوجها ولا هو تحدث عنه، واعلموا أيها الناس أن الله لا يهدي ولا يسدِّد كيد الخائنين؛ بل إن كيدهم في خسارة وبوار وضلال.

۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

[٥٣] ثم قالت امرأة العزيز: ومع أني لا أُزكِّي نفسي، ولا أبرِّؤها من حصول المراودة، والهم، والسعي في ذلك، فإن النفس كثيرة الأمر لصاحبها بالسوء إلا من يرحمه الله فينجّيه بتوفيقه من نفسه الأمارة بالسوء، إن الله غفور يغفر لمن استغفره وتاب إليه، رحيم يرحم من رجع وأناب إليه.

[٥٤] ولما تيقن الملك من براءة يوسف، وظهر له علمه ورجاحة عقله؛ أرسل في طلبه، وعزم أن يجعله في الوظيفة اللائقة بعلمه وقدرته، ويستعين به علىٰ تدبير أمور مملكته، فجاء يوسف عليه السلام معزّزًا مكرَّمًا، فلما كلمه الملك أُعجب به أيَّما إعجاب فقال له: يا يوسف إنك اليوم عندنا متمكِّن في مملكتنا، وأمينٌ نأتمنك علىٰ أسرارها، أي: جعله رئيس الحكومة.

[٥٥] ولكن يوسف عليه السلام تواضع وقال للملك: اجعلني أيها الملك مسئولًا علىٰ خزائن مصر، أي: وزيرًا للتموين؛ فإني حفيظ أمين لها، ولا شك أن قوله: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: هما أهم الشروط المطلوبة لوزير التموين.

وللمفسرين في طلب يوسف للعمل أقوال: منها: أنه يجوز طلب العمل إذا كان الشخص يريد أن يخدم الأمة وينقذها من مجاعة كما فعل يوسف، أو يجيد عملًا ويريد أن ينفع أمته.

وقال الشيخ الكبيسي: إن الملك جعله رئيسًا للحكومة لأن الله قال عن جبريل: مكين أمين فهو أعلىٰ الملائكة وهو الأمين علىٰ حمل رسالاته.

ثم قال: فإن يوسف تواضعًا منه طلب فقط وزارة التموين لعلمه وخبرته التي استفادها لمّا كان عند عزيز مصر.

[٥٦] وهكذا مكَّن الله جل وعلا ليوسف في الأرض يتنقَّل فيها حيث شاء، وينزل منها حيث أراد، -بعد أن كان في رقٍّ وضيق وسجن وشدّة-، وهذا من رحمة الله به في الدنيا، مع ما ينتظره في الآخرة من مجازاته بأحسن ما كان يعمل، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

[٥٧] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن أجر وثواب الآخرة خير وأعظم من أجر الدنيا، وهذا يناله الذين آمنوا بالله وصدقوا برسالاته، واتبعوا أنبياءه، وكانوا يتّقون الله فيجعلون بينهم وبين عذابه وقايةً وحاجزًا بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[٥٨] وبعد أن تولىٰ يوسف عليه السلام هذه المكانة؛ جاء إخوته يطلبون شراء الغذاء من مصر، أي: التزود من الأطعمة لأهلهم كغيرهم من الناس الذين يأتون مصر للتزود من الأطعمة لأسرهم؛ حيث حلَّ الجدب والقحط بأرض الشام وسيناء ومصر، وأكثر البلاد؛ فدخلوا عليه، فعرفهم مباشرة وهم لم يعرفوه ولم يخطر ببالهم أنه يوسف، لطول الفراق، وتغير الهيئة والحال، ولأنه فارقهم وهم رجال وهو كان صغيرًا.

[٥٩] فلمّا كَالَ لهم يوسف عليه السلام، وأعطاهم ما طلبوا من الميرة، وزوّدهم بما يحتاجه المسافر؛ -وكان قد سألهم عن حالهم فأخبروه، وذكروا له أن لهم أخًا عند أبيهم، وهو شقيقه- قال لهم: في المرة القادمة لا بدّ أن تأتوني بهذا الأخ، ألا ترون إحساني لكم وتوْفيتي لكيْلِكم!، ألا ترون إكرامي لكم، وحسن ضيافتي إياكم؟!

[٦٠] واعلموا أنكم - في المرة القادمة - إن لم تأتوا معكم بأخيكم هذا، فلن أكيل لكم، ولن أعطيكم الميرة؛ بل لا تُقْبِلوا عليَّ أصلًا.

[٦١] فأجابوه قائلين: سنحاول مع أبيه أن يسمح لنا بالإتيان به معنا في المرة القادمة، وسنبذل جهدنا في ذلك.

[٦٢] قال يوسف لخدمه وغلمانه: اجعلوا بضاعتهم التي دفعوها لشراء الميرة في داخل رحالهم، وأخفوها فيها، -إحسانًا إليهم- ولعلهم إذا رجعوا إلىٰ أهليهم وفتحوا متاعهم يجدون ذلك، فيحثهم علىٰ العودة مرة أخرىٰ، ومعهم الأخ الشقيق.

[٦٣] ثم رجع إخوة يوسف إلىٰ أبيهم، وأخبروه برحلتهم، وإكرام العزيز إيَّاهم، وأخبروه أنهم ممنوعون من أخذ الكيل والميرة مستقبلًا إلا أن يصحبهم أخوهم -الذي أخبروا به يوسف-، فلا بدّ أن يصحبنا في الرحلة القادمة، ثم قالوا له: نحن سنتعهَّد بحفظه والمحافظة عليه، وردِّه لك سالمًا.

[٦٤] هنا تذكّر يعقوب عليه السلام ما حصل منهم مع يوسف، فقال لهم: لقد التزمتم من قبل أن تحفظوا يوسف، وتعهدتم بذلك، ولم توفوا، فلم أعد أثق في تعهداتكم، وإني ملتجئٌ إلىٰ الله في حفظ ما أريد حفظه، فهو خير حافظًا، وهو سبحانه وتعالىٰ عليم بحالي وما أصابني من الكرب لفقدان يوسف، وهو أرحم الراحمين، وأنا أدعوه أن يرحم حالي فيحفظ لي ولدي هذا، ويرد علي يوسف.

[٦٥] ولمّا فتح إخوة يوسف متاعهم بعد أن وضعوا رحالهم؛ فوجئوا أن الملك قد ردّ لهم الثمن الذي دفعوه مقابل الكَيْل والميرة، فكان دافعًا لهم في ترغيب أبيهم أن يرسل معهم أخوهم، فقالوا: ياأبانا ما نريد أذىً لأخينا، ولا نريد أكثر من ذلك إحسانًا لنا؛ فقد ردّ الملك لنا ثمن كَيْلِنَا وميرتنا، فما أيسر أن ترسل معنا أخانا نأتي بالطعام والميرة التي نحتاجها، ونتعهد بحفظ أخينا وردِّه سالمًا، وأيضًا نزداد كيل بعير، وقد كان الملك لا يعطي الرجل أكثر من كيل بعير لشدة تلك السنوات والجدب فيها، فهذا أمر سهل، ومصلحة ميسورة، لا ينبغي أن نفوتها.

[٦٦] فأجابهم يعقوب عليه السلام قائلًا: لن أرسله معكم حتىٰ تعطوني ما أثق به وأركن إليه؛ من الحلف بالله أيمانًا مغلّظة أن تتعهّدوا بحفظه، وتُرجِعوه إليّ، وتبذلوا في ذلك كل ما تستطيعون، إلا أن يحصل شيء خارج عن إرادتكم، وفوق استطاعتكم يستولي عليكم جميعًا؛ ففعلوا ذلك، وأعطوه العهود المغلظة عليه، فقال يعقوب عليه السلام بعد ذلك: اعلموا يا أبنائي أن الله علىٰ ما نقول وكيل، وشهيد ومطلع، قد ارتضينا واكتفينا به فهو حسبنا ونعم الوكيل.

[٦٧] ثم قال لهم بعد ذلك ناصحًا ومشفقًا: ياأبنائي إذا وصلتم إلىٰ مصر؛ فخذوا بالأسباب ولا تدخلوا مجتمعين من مدخل واحد؛ فإن عددكم كبير ومنظركم جميل، فأخشىٰ عليكم العيْن، وهذا إنما هو مجرد سبب، وإلا فأنا لا أغني ولا أدفع عنكم من قضاء الله وقدره شيئًا، فالحكم والقضاء والقدر لله وحده لا شريك له في ذلك، فما قضاه وقدَّره لا بد أن يقع، وإني توكلت واعتمدت ووثقت وفوّضت أمري لله، عليه وحده يعتمد ويتوكل المؤمنون الصادقون.

[٦٨] ولما دخل أبناء يعقوب عليه السلام مصر دخلوا متفرقين حسب نصيحة والدهم الذي خاف عليهم العين بسبب كثرتهم،

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

ومع أن العين حق فهي من قدر الله، ومع أن الأسباب وأخذ الحيطة من قدر الله فأمر الله نافذ، ولكن كانت هذه النصيحة شفقة منه علىٰ أبنائه أن تصيبهم العين، واعلموا أن يعقوب علىٰ علم واسع جليل لما علمناه عن طريق الوحي، وهذا ثناء من الله تعالىٰ علىٰ يعقوب عليه السلام؛ لمعرفته أن العين حق وأن الحيطة حسنة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون عواقب الأمور وإنما يعلمها يعقوب وأمثاله ممن أعطاهم الله البصر والبصيرة.

[٦٩] ولمّا دخل إخوة يوسف عليه قام إلىٰ شقيقه واعتنقه وضمَّه بعد أن استفرد بأخيه بحيث لم يره أحد من أخوته، وقال له سرًّا: أنا أخوك يوسف، فلا تحزن لما ترىٰ من الخطة التي سوف أدبرها لاستبقائك عندي.

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ
وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ
وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيْخٗا كَبِيرٗا
فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

[٧٠] فلمّا كَالَ يوسف عليه السلام لكل واحد منهم مكْياله، وأعطاه ميرته، ووضعه علىٰ بعيره، أمر مساعديه بدسِّ الصواع الذي يُكال به في رحل شقيقه، وهم لا يشعرون، فلما انطلقوا ذاهبين نادىٰ منادٍ: ياأهل هذه القافلة: إنكم لسارقون.

[٧١] ففزع إخوة يوسف وجاؤوا مقبلين علىٰ هذا المنادي قائلين: ماذا تفتقدون؟ ما الذي ضاع منكم؟!

[٧٢] قال المنادي ومن معه: يا أصحاب العير المحملة إننا نفقد صُواع الملك الذي يُكال به، والذي سيأتي به سنكافأه بحمل بعير من الطعام، وأنا أضمن وأتكفل بهذه المكافئة.

[٧٣] فقال إخوة يوسف حالفين بالله: لقد علمتم ما قَدِمْنا للسعي في الأرض بالفساد، وما كنّا سارقين، فهذه فعلةٌ قبيحةٌ نحن نترفع عنها.

[٧٤] فقال المنادي ومن معه من الباحثين عن المفقود: ما جزاؤكم إن كنتم كاذبين فيما تدَّعونه من البراءة من السرقة، وما جزاء وعقوبة من فعل ذلك منكم؟، وبماذا تحكمون علىٰ من يُسْتَخرج الصواع من رحله؟!.

[٧٥] فأجابوا قائلين: من وجدتموه في رحله فله الجزاء المعروف – وقد كان في دينهم أن من سرق وثبتت عليه التهمة يكون عبدًا لمن سرقه لمدة عام –، وقالو: وهذا جزاء كل ظالم يعتدي علىٰ مال غيره.

[٧٦] فبدأ المفتِّش بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه دفعًا للتهمة، ثم استخرج الصواع من وعاء أخيه، ثم أخبر سبحانه أنه يسَّر ليوسف عليه السلام هذه المكيدة بهذه الطريقة وعلمه إياها، ليستطيع أن يأخذ أخاه عنده، لأنه لم يكن هذا هو حكم السارق في شريعة ملك مصر، واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه يرفع من يشاء درجات عاليات بالعلم – كما رفع يوسف عليه السلام –، واعلموا أيضًا أن فوق كل صاحب علم من الناس من هو أعلم منه؛ حتىٰ ينتهي العلم إلىٰ عالم الغيب والشهادة جلَّ في عُلاه.

[٧٧] وهنا أُسقط في أيدي إخوة يوسف، فقالوا محاولين تبرئة أنفسهم: إن يسرق هذا الأخ فقد سبقه إلىٰ ذلك أخ شقيق له – يقصدون يوسف عليه السلام –، فهو الآن فعل مثل فعلته، فكتم يوسف عليه السلام هذا الافتراء والبهتان في نفسه، ولم يُظهِر لهم ذلك، ثم قال في نفسه: أنتم – بفعلتكم التي فعلتم – أشر ممن تتهمونه كذبًا وزورًا، والله أعلم بكم وببهتانكم وافترائكم.

[٧٨] فقالوا له علىٰ وجه الاسترحام والاستعطاف: ياأيها الملك، إن والد هذا الأخ شيخ كبير طاعن في السن يحبه حبًّا شديدًا ولا يطيق فراقه، ولا يصبر عليه، فخذ أحدنا بدلًا منه، وقد أحسنت إلينا إحسانًا عظيمًا، فاجعل موافقتك علىٰ طلبنا هذا من جملة إحسانك إلينا.

قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾

[٧٩] فأجابهم يوسف عليه السلام قائلًا: أعوذ بالله أن نأخذ أحدًا غير الذي وجدنا متاعنا عنده، فإنَّا إن فعلنا ذلك، فلن يكون هذا من باب الإحسان؛ بل سيكون هذا من الظلم ومجاوزة الحدّ، ووضْع العقوبة في غير موضعها.

[٨٠] فلما استنفد إخوة يوسف جميع الطرق لاستنقاذ أخيهم والرجوع به إلىٰ أبيهم ويئسوا من ذلك؛ اجتمعوا لوحدهم وأخذوا يتشاورون، فقال أكبرهم سنًّا: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم العهود والمواثيق، وحلفنا له الأيمان المغلظة أن نرجع به؟!، وقد أخلفنا معه في المرة الأولىٰ من عدم حفظ يوسف وإرجاعه إليه، فأنا لا أستطيع أن أواجه أبي هذه المرة، فلن أتحرك من مكاني، ولن أترك هذه الأرض حتىٰ يسمح لي أبي بذلك أو يأتي الله بحكم من عنده، فأرجع بأخي أو لوحدي، والله خير الحاكمين، وأحسن الفاصلين.

[٨١] وقال لهم أخوهم الكبير موصيًا إياهم بم يلقون به أبيهم، فقال لهم: أخبروه بما حصل وقولوا له: يا أبانا إن ابنك قد سرق صواع الملك، فأخذه الملك بسرقته، وقد حاولنا مع الملك بجميع الطرق أن نسترده ونرجعه معنا فرفض وأبىٰ، ولم نشهد بشيء لم نعلمه؛ بل رأينا بأعيننا الصواع يُستخرج من رحل ابنك، وما كنّا بعالمين للغيب أنه سيسرق فحرصنا علىٰ أخذه معنا هذه المرة أشدَّ الحرص، فلو علمنا ذلك ما أخذناه معنا.

[٨٢] ثم قال إخوة يوسف لأبيهم: وإن لم تصدقنا أو شككت في قولنا فاسأل أهل مصر التي كنا فيها وجئنا منها، واسأل القافلة التي رجعنا معها، والله إنا لصادقون في قولنا، لم نكذب فيه ولم نغيِّر شيئًا، وهذه هي الحقيقة.

[٨٣] فقال لهم أبوهم: متهمًا إياهم بتدبير مكيدة له كما فعلوا بيوسف من قبل: بل زينت لكم أنفسكم أمرًا منكرًا لتُبعِدوه عني، فسأصبر صبراً جميلًا لا تسخط فيه ولا شكوىٰ ولا جزع، عسىٰ الله أن يلطف بحالي، وأن يرد عليَّ جميع أبنائي -يوسف وأخاه، والذي تخلف في مصر-، إن الله هو العليم بكل شيء وهو عليم بحالي وما أعاني من فقد أولادي، وهو الحكيم الذي له الحكمة البالغة في كل ما قضىٰ وقدّر.

[٨٤] ثم انصرف يعقوب عليه السلام عن بنيه، وبِهِ من الأسىٰ والأسف ما لا يعلمه إلا الله، وقد هيَّجت هذه الحادثة ذكر يوسف في قلبه، وشوقه إليه الذي لم يفارقه لحظة، فقال بلوعة وأسىٰ: يا أسفىٰ علىٰ يوسف، ثم بكىٰ بكاءً مرًّا حتىٰ ابيضَّت عيناه وذهب نورها من كثرة ذلك البكاء واستمراره، وهو مع امتلاء قلبه بالحزن والهم والشوق يكظم ذلك ولا يبديه ويظهره للناس.

[٨٥] فقال له أبناؤه متعجبين من حاله، ومشفقين عليه أن يشق البكاء كبده: يا أبانا إنك لا تزال تذكر يوسف وتتذكره في كل لحظة حتىٰ أفسد ذلك عليك معاشك، هل تريد أن تستمرَّ علىٰ ذلك حتىٰ تموت كمدًا وحزنًا، فخفف عنك وهوِّن عليك.

[٨٦] فردَّ عليهم قائلًا: أنا لا أشكو لكم شيئًا من حالي، وإنما أشكو حزني وهمِّي إلىٰ الله وحده، وأنا علىٰ علم من الله لا تعلمونه ولا تعلمون حكمته.

يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

[٨٧] ثم قال لهم: يا بنيَّ اذهبوا فتلمَّسوا أخبار يوسف وأخيه وتحسسوهما، وفتِّشوا عنهما، وابذلوا جهدكم في ذلك، ولا تيأسوا وتقطعوا رجاءكم من رحمة الله وفضله وكرمه، وقُرْب فرجه وتنفيسه، ولا تيأسوا من الحصول عليهما، واعلموا أنه لا ييأس ولا يقطع رجاءه من روْح الله وفرجه ورحمته إلا الكافرون الجاحدون، فلا تتشبهوا بهم.

[٨٨] فامتثل إخوة يوسف ما أمرهم أبوهم، وعادوا راجعين لمصر يحاولون جهدهم إخراج أخيهم، والعودة به لأبيهم، فلمّا دخلوا علىٰ يوسف عليه السلام قالوا له مستعطفين مسترحمين: ياأيها العزيز قد انتشرت المجاعة بسبب الجدب والقحط، ووصل بنا وبأهلنا الحال إلىٰ الاضطرار، وقد جئناك ببضاعة رديئة وثمن قليل، فاغفر لنا ذلك، واقبله منّا، فوفِّ لنا كيلنا، وتمِّمْه، وتصدَّق علينا بزيادة من عندك، فإنَّ الله يجازي المتصدقين علىٰ المحتاجين أجرًا عظيمًا.

[٨٩] حينها: رقَّ يوسف عليه السلام لأخوته، وتملكته الرحمة والشفقة بهم مما أصابهم، فقرر أن يكشف لهم عن نفسه، ويعرفهم بحقيقة الأمر، فقال لهم معاتبًا: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه؟! وذلك حين جهلكم، وطيْشكم، وعدم معرفتكم بعاقبة ذلك!! وهو بهذا يعلمهم بجرمهم ويعتذر عنهم ليخفف هول المفاجأة.

[٩٠] فقالوا في دهشة واستغراب: أإنك لأنت يوسف؟ هل أنت يوسف؟ فأجابهم: نعم، أنا يوسف، وهذا أخي، قد أكرمنا الله، ومنَّ علينا، إنه من يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ثم يصبر علىٰ ما حل به من المصائب وعلىٰ أقدار الله؛ فإنه من المحسنين الذين لهم أجر ثابت عند الله لا يضيع، ولا يذهب سُدىٰ؛ فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

[٩١] فقالوا: والله لقد فضَّلك الله واختارك علينا بما حباك به من الصبر وحسن الأخلاق وجميل الصفات، وبالعلم والعمل والفضل، وإنا نقر معترفين أنَّا كنَّا مخطئين لِمَا فعلناه بك عمدًا، وبما أوصلناه لك ولأخيك من أذىٰ.

[٩٢] قال يوسف لأخوته: لا معاتبة ولا لوم عليكم اليوم، ثم دعا لهم بالمغفرة، يعني: صفح عنهم وزادهم أن طلب من الله أن يغفر لهم، فإنه جل وعلا أرحم الراحمين بمن تاب وأناب من عباده.

[٩٣] ثم قال لهم يوسف عليه السلام –وقد أخبروه بذهاب بصر أبيه من حزنه عليه–: خذوا قميصي هذا وألقوه علىٰ وجه أبي؛ يرجعْ إليه بصره مرة أخرىٰ، وأقدموا عليَّ جميعًا بأولادكم وعشيرتكم وتوابعكم.

[٩٤] ولمَّا تحركت القافلة من مصر، وخرجت منها، قال يعقوب عليه السلام لمن حضره من أهله: إني الآن أجد ريح ابني يوسف؛ ولولا أنكم سوف تنسبون إليَّ الجهل وذهاب العقل، وتسخرون مني وتقولون: إن هذا الكلام صدر من غير شعور، لقلت لكم: والله إني أشعر بأن لقائي بيوسف قد اقترب كثيرًا وحان زمانه.

[٩٥] فأجابوه علىٰ سبيل التسلية بما ظنَّ فيهم، فقالوا: والله إنك لا تزال علىٰ طريقتك القديمة من إفراط حبك ليوسف، وتوهم حياته، وأنك ستراه، وما هذا الذي أنت فيه ياأبانا إلا ضلال بين وخطأ واضح.

....

....

....

....

....

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

[٩٦] فلمّا وصلوا ومعهم البشير الذي يحمل القميص؛ ألقىٰ القميص علىٰ وجه يعقوب عليه السلام كما أمره يوسف، فما لبث أن رجع إليه بصره، فقال – لمن حضره من أهله – فرحًا مستبشرًا: ألم أقل لكم: أني علىٰ علم من الله لا تعلمونه أنتم؟!، حيث كنت أرجو وأترقب لقاء يوسف، وزوال الهم والحزن لثقتي بالله.

[٩٧] حينها قال إخوة يوسف معترفين مقرّين: ياأبانا اطلب لنا المغفرة من الله لذنوبنا علىٰ ما وقع منّا من خطأ وزلل، وتقصير في حقك، وحق يوسف وأخيه.

[٩٨] فأجابهم النبي الكريم بوعده إياهم أن يفعل ذلك، وقال: سوف أطلب لكم المغفرة من الله، وأرجو أن يغفر لكم وأن يرحمكم، إنه هو الغفور الرحيم.

وفي قوله: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾، قيل: كان يقصد أن يدعو لهم آخر الليل.

[٩٩] وتجهَّز يعقوب مع زوجه وبنيه، وانطلقوا إلىٰ مصر للقاء يوسف، وقد حان اللقاء بعد طول فراق، وبلغ الشوق مبلغه، واقترب العناق، فلمّا وصلوا إليه ودخلوا عليه قام يوسف إلىٰ أبويه وضمهما إليه والتزمهما وعظّمهما وبالغ في التعبير عن حبه وشوقه، – فيالله ما أعظم اللقاء، وياالله ما أجمل هذه اللحظات – ثم قال للجميع: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، من الخوف والجوع والقحط والجدب، وآمنين من جميع المخاوف والمكاره.

[١٠٠] رحب يوسف بوالديه وأجلسهما بجانبه علىٰ سرير الملك الذي يجلس عليه تكريمًا لهما؛ ثم سجدا هما وأبناؤهما ليوسف، وكانت هذه تحية واعترافًا بفضله ونعمة الله عليه بالنبوة، وكان ذلك جائزًا في شرعة الأولين وليست عبادة للمسجود له؛ فيعقوب نبي وأبناؤه مثله مخلصون لعبادة الله وحده لا شريك له، أما في شريعتنا فقد حرِّم السجود لغير الله، ثم قال يوسف لأبيه متحدثًا بنعمة الله عليه: يا أبت هذا هو تفسير رؤياي التي قصصتها عليك قديمًا في صغري، لقد جعلها ربي حقًّا، وهذا الذي رأيت هو تأويلها بعد أن مضىٰ عليها زمنٌ طويلٌ، قال بعضهم: كان بين الرؤيا وبين ظهور تأويلها أربعون سنة، ثم قال يوسف: وقد تفضَّل عليَّ عندما أخرجني من السجن، ثم تفضل علي مرة ثانية عندما جمعني بكم في مصر بعد أن كنتم مقيمين في البادية، من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي، ولا شك أن إخراجه من البئر أكثر تفضلًا من إخراجه من السجن، ولكن لم يُرِدْ أن يذكِّرهم بجرمهم حتىٰ لا يجرح شعورهم وخاصَّة بعد عفوه عنهم، ثم قال يوسف: إن ربي لطيف التدبير لما يشاء تدبيره من أمور عباده، إنه هو العليم بأحوال خلقه، الحكيم في جميع أقواله وأفعاله.

[١٠١] ثم ختم يوسف بدعاء الله وثنائه عليه فقال: ربِّ قد أعطيتني شيئًا عظيمًا من ملك مصر، وهو ما ولَّاه عليه من تصريف خزائن الأرض، قال بعض المفسرين: إنه فعلًا صار الحاكم المالك لمصر، وقال آخرون: إنه صار سيد نفسه بعد أن كان رقيقًا وسيدًا لمرؤوسيه الذين يساعدونه وينفذون تعليماته، وأيضًا علَّمتني يارب شيئًا كثيرًا من تفسير الرؤىٰ، فياخالق السماوات والأرض ومبدعهما، أنت ناصري ومعيني ومتولي جميع شأني في الدنيا والآخرة، توفني إليك مسلمًا، وألحقني بعبادك الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

[١٠٢] واعلم يانبي الله أن ذلك الخبر العجيب هو من أخبار الغيب التي لا يعلمها إلا الله، وهو الذي أوحاه إليك، ولولا إخبارنا إياك بهذا الخبر؛ لكان من المستحيل أن تعرفه أو تطَّلِع عليه، فإنك ما كنت حاضرًا مع إخوة يوسف حينما عقدوا عزمهم وأكدوا أمرهم علىٰ المكر بيوسف بإبعاده عن أبيه، ولا سبيل لمعرفة هذه القصة بتفاصيلها إلا عن طريق الوحي، وهذا دليل علىٰ أنك رسول من عند الله، يوحىٰ إليك.

[١٠٣] ثم قال جل في علاه لنبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام تسلية له: وما أكثر الناس يانبي الله ولو حرصت علىٰ هدايتهم بداخلين في الإيمان، ولا بمصدِّقين، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

[١٠٤] وما تطلب يانبي الله ممن تدعوهم إلىٰ الإسلام والإيمان مقابل ذلك مالًا يدفعونه إليك، ولا غيره، فالقرآن وما أوحينا إليك ذكرٌ وهدايةٌ وعظةٌ للناس أجمعين.

[١٠٥] وكم من آية كونية منتشرة في السماوات والأرض تدلُّ علىٰ وحدانية الله جلَّ في علاه، يمر عليها ويشاهدها هؤلاء المشركون، وهم عنها معرضون لا يلتفتون إليها، ولا يتأملونها، ولا يتفكرون فيها.

[١٠٦] وما يؤمن ولا يوقن ويقرُّ ويصدِّق أغلب من يؤمن بهذه الآيات الكونية، وأن الله هو الخالق الرازق المدبِّر؛ إلا وهم يشركون في توحيد الألوهية، فيتخذون مع الله آلهة أخرىٰ، ويشركون معه غيره في العبادة.

[١٠٧] أفأمن هؤلاء المشركون الذين فعلوا هذا الفعل الشنيع من الإعراض عن آيات الله، واتخاذ شركاء معه، أفأمنوا من عذاب الله؟! هل هم في مأمن من أن يعمهم الله بعذاب ويغمرهم بعقاب يستأصلهم، ويمحوهم! أم هم في مأمن من أن تأتيهم الساعة ويبغتهم يوم القيامة فجأة، فتكون مصيبتهم أعظم، وعذابهم أشدَّ في الآخرة؟!!

[١٠٨] وقل يانبي الله: هذه طريقتي في التوحيد ومنهجي في الدعوة إليه، وأنا علىٰ بصيرة وبيِّنة وعلم يقينيٍّ من أمري، أنا ومن اتبعني أيضًا يسير علىٰ نفس طريقتي، وأنزِّه الله جل في علاه عمَّا يقوله ويفعله هؤلاء المشركون من عبادة غيره معه، وأعلن براءتي من المشركين، فلست منهم، ولا هم منّي، ولا أرتضي ما هم عليه.

[١٠٩] وما أرسلنا قبلك يانبي الله إلا رجالًا من البشر من أهل القرىٰ والمدائن، اخترناهم وأوحينا إليهم، فَلِمَ يكذّبك قومك ولا يصدقونك؟! أفلم يسيروا ويضربوا ويسافروا في الأرض فينظروا كيف كانت نهايات الأقوام السابقة الذين كذّبوا رسلهم؟!! وكيف أن الله أهلكهم وجعلهم عبرةً للمعتبرين؟!! واعلموا أن الدار الآخرة أفضل، وثوابها أعظم، وذلك يكون للذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بإخلاص التوحيد له، ونفي الشريك عنه، وبفعل أوامره واجتناب نواهيه، أفلا تعقلون وتتفكرون في ذلك؟! أليس لكم عقول تدلكم علىٰ أن ما عند الله خير وأبقىٰ وأدوم؟!!

[١١٠] ثم قال سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ تسلية له: حتىٰ إذا استبطأت الرسل من إيمان قومهم وأيقنوا أنهم قد كذبوهم، وأنه لا أمل في إسلامهم وإيمانهم، جاءهم نصرنا الذي وعدناهم به عند شدة الكرب؛ وهو العذاب الأليم في نار جهنم، فنجا من نشاء إنجاءه من الرسل وأتباعهم المؤمنين، ولا يُرَدُّ عذابنا عمَّن أجرم وتجرَّأ علىٰ الله. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ.

قال الشيخ البسام: قوله: ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ في هذه الآية بمعنىٰ: تيقنوا، يعني: تيقنوا وتأكدوا أن أممهم كذَّبتهم وأصرت علىٰ الكفر بالله.

أما الدكتور السامرائي فقد قال: إنهم - أي: أقوامهم - ظنّوا أن الوحي كَذَّبهم، فالأنبياء معصومون مما هو أقل من هذا.

[١١١] لقد كان في قَصص الأنبياء مع أقوامهم، وفي قصة يوسف مع إخوته عبرة وموعظة وذكرىٰ ينتفع بها أصحاب العقول الراجحة، والفطر السليمة؛ حيث مرت قصته بفتن وابتلاءات ودروس كثيرة، بدأت بعداوة إخوانه وحقدهم عليه، ثم رميه في البئر، ثم بيعه عبدًا رقيقًا، ثم جاءت الفتنه العظيمة حيث أولعت به امرأة العزيز وبذلت جهدها لإيقاعه في شراكها، ثم افتتان النسوة اللاتي قطعن أيديهن به؛ فسبحان الذي أنجاه وحكي لنا قصته التي ما قرأها محزون أو مكلوم إلا صغرت مصيبته وهانت عليه فارتاح وعرف أنه في عافية.

ثم قال جل وعلا: واعلم يانبي الله أن هذا القرآن ما كان حديثًا عاديًّا من الممكن أن يُفْترىٰ وأن يُختلَق كما يزعم المشركون!، ولكنه مصدِّقٌ لما بين يديه من الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل والزبور، يوافقها ولا يخالفها في توحيد الله، ويشهد لها بالصحة، وأنها منزَّلة من عند الله، وفي هذا القرآن تبيان وتفصيل لكل شيء مما يحتاج إليه العباد في العقائد والأحكام والأخلاق، وجميع ما يُصلح دينهم ودنياهم، ثم هو هدىً لكل من طلب الهداية وبحث عنها في الدنيا وأراد أن ينجو من الضلال، وهو رحمة في الآخرة لمن آمن به، وعمل بما فيه، واتّبع أوامره، واجتنب نواهيه.

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

سورة الرّعد

سورة الرعد مكيّة وآياتها ثلاث وأربعون آية، واسمها مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾[الرعد:١٣].

[١] سبق الكلام علىٰ الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة. ثم بدأت السورة بالثناء علىٰ القرآن الكريم والتذكير بأن هذا القرآن وآياته التي أنزلت علىٰ محمد ﷺ من عند الله هي الحق الخالص، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به، وينكرون أنه من عند الله مكابرة وحفاظًا علىٰ ما كان عليه آباؤهم وعلىٰ سيادتهم. وهذه الآية تذكير بالآية التي قبلها في ختام سورة يوسف: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف:١١١]؛ لأن كفار قريش يقولون: إنك يا محمد تأتي بهذا القرآن من نفسك، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّىۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف:٢٠٣]، وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾[يونس:١٥].

[٢] ثم بين سبحانه وتعالىٰ بعض الأدلة التي تدل علىٰ كمال قدرته، ومن ذلك: أنه خلق السماوات السبع وجعلها مرتفعة علىٰ أعمدة كأعمدة سقف البيت ولكنها لا تُرىٰ، ومما يدل علىٰ أن لها أعمدة هو الجاذبية؛ فسبحان الخالق المبدع، ثم أخبر سبحانه أنه استوىٰ علىٰ العرش استواء يليق بجلاله، وقد سبق التعليق علىٰ مسألة الاستواء في الآية (٥٤) من سورة آل عمران، والآية (٥) من سورة طه، وأخبر أنه أوجد الشمس والقمر كلًا يؤدي خدمة لمصلحة العباد مرسومة له لوقت محدد وهو فناء الدنيا، ثم بين سبحانه أنه يُصَرِّفُ أمور الدنيا والآخرة علىٰ أحسن الوجوه وأكملها، ويوضح لكم الآيات الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته لعلكم توقنوا بلقاء الله ولا تشكُّوا به أبدًا، فيحملكم ذلك علىٰ أن تصدقوا بوعده ووعيده وأن تُخْلصوا العبادة له وحده.

[٣] ومما يدل علىٰ كمال قدرته سبحانه وتعالىٰ أيضًا: أنه هو الذي خلق الأرض ومهدها لعباده وبسطها ووسعها ومدَّدها وجعل فيها ما يصلح حالهم وشأنهم، وجعل فيه: جبالًا عظيمةً كبيرةً تثبّتها، لئلا تميد الأرض وتتحرك وتضطرب بما عليها، وجعل فيها: أنهارًا تجري فيشرب منها البشر والدواب، ويُنتفع بها، وتنمو بها الأشجار، وتخرج بها الزروع والثمار، وجعل فيها من كل الثمرات صنفين اثنين، ذكرًا وأنثىٰ حلوًا وحامضًا، وهو سبحانه الذي جعل الليل يُغطي النهار ويشمله بظلمته فتسكن الحركة وتخلد المخلوقات للراحة والسكون، وفي كل ما مضىٰ آيات بينات وعلامات واضحات تدلُّ علىٰ وحدانية الله جل وعلا واستحقاقه العبادة دون ما سواه، وإنما ينتفع بهذه الآيات الذين يتفكرون فيها، ويُعْملون عقولهم ويتدبرون.

[٤] ومن مظاهر وكمال قدرته جل وعلا أنه جعل الأرض كتلة واحدة متماسكة؛ وأنها تحتوي علىٰ بقاع متجاورة كثيرة؛ لكن هذه البقاع تختلف كل واحدة عن الأخرىٰ في أوصافها وطبيعتها؛ فمنها سبخ لا يُنتج نباتًا ولا ينفع ماؤه، وبعضها صخور وجبال، وبعضها رياض تُنبت كل أنواع الثمار والزروع بإذن ربها، وتجدها في روضة واحدة، وتُسقىٰ بماء واحد، ولكن تجد الثمار متنوعة منها الأصفر والأحمر والأبيض والكبير والصغير؛ وهذا حلو وهذا حامض، وبعضها أفضل من بعض في المذاق والأكل، فتبارك الله أحسن الخالقين، واعلموا أن في ذلك كله لأدلة وبراهين لقوم يتفكرون ويتأملون في عظيم قدرته سبحانه.

[٥] ثم قال سبحانه علىٰ سبيل التعجب: وإن تعجب أيها السامع من تكذيب الكفار لمحمد ﷺ فاعلم أن الذي يستحق العجب هو قولهم: أإذا متنا وكنا ترابا فهل نُبعث من جديد؟، فيا سبحان الله يتعجبون من الإحياء بعد الموت، ولا يتعجبون من بداية خلق الإنسان، فهذا أبي بن خلف يأخذ عظمًا باليًا ويفركه وينفخه ثم يقول: أيُحيي الله مثل هذا يا محمد؟! فقال ﷺ: «**نعم يُحيي الله هذا، ويميتُك، ويُدخلك النار**»[1]، وفعلاً قُتل أبي بن خلف في أحدٍ، قتله رسول الله ﷺ، ومات كافرًا محاربًا لله ولرسوله ﷺ، ولا يُعلم أن رسول الله ﷺ قتل أحدًا من المشركين بيده إلا أبي بن خلف لعنه الله، واعلم يانبي الله أن جزاء الكفار الذين كفروا بالله وأنكروا البعث؛ أن توضع في أعناقهم يوم القيامة سلاسل من نار، وأنهم أصحاب النار يدخلونها ولا يخرجون منها أبدًا، نسأل الله تعالىٰ العفو والعافية.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٢٤٩٨).

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

[٦] ويستعجلك يانبي الله المكذبون بطلب السيئة وهي العقوبة والعذاب قبل الحسنة وهي العافية والإيمان بالرسالة، وهذه السيئة التي استعجلوها هي المذكورة في قوله: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[العنكبوت:٢٩]، ولم يعتبروا بما حصل للأمم السابقة من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم. واعلم يانبي الله أن الله كثير المغفرة لمن تاب وأناب من الناس الذين ظلموا أنفسهم بالذنوب والمعاصي، ثم اعلم بأن الله شديد العقاب لمن أصرَّ علىٰ ذنبه، واستكبر وعاند واستمر في ظلمه وكفره بالله.

[٧] ويقول كفار مكة للنبي ﷺ: هلا أُنزلت عليك معجزة خارقة غير هذا القرآن تدل علىٰ صدقك، يبغون بذلك العناد والمماطلة، والحال يامحمد أنك ليس لك من الأمر شيء، وأنك منذرٌ ومبيِّن لهم، وإنزال الآيات إنما يكون بأمر الله، ولكل قوم داع يدعوهم إلىٰ الحق والتوحيد، والبعد عن الشرك والضلال، والمقصود بالهداية هنا: هداية الدلالة والإرشاد.

[٨] يخبر جلا وعلا أنه يعلم ما تحمل كل أنثىٰ في بطنها، وقوله: ﴿كُلُّ﴾ هنا تعني: عموم الإناث من الناس والحيوان وغيرهما؛ ويعلم أذكر هو أم أنثىٰ؟ وشقي أم سعيد؟ ويعلم ما تغيض الأرحام، أي: يعلم ما يسقط قبل إتمام الحمل، وقال الحسن: الذي يولد في الثامن، وقال جمهور المفسرين: الذي ينزل من الرحم سقطًا؛ سواء كان مضغة أو نفخ فيه الروح ولم يكتمل نموه، ويعلم الذي تمّ واكتمل نموه ثم وُلد؛ سواء مات بعد ولادته أو عاش حينًا من الدهر.

قال عالم الإعجاز الشيخ عبدالمجيد الزنداني: الغيض يكون خلال عشرة أيام من الجماع، أما بعدها فيعلمه الملك والبشر بوسائلهم، واعلموا أن كل شيء عند الله مقدر: حياته وموته وكماله ونقصه وحجمه لا ينقص ولا يزيد.

[٩] ثم بين سبحانه أنه عالم بكل شيء، فهو العالم بما غاب عن الناس، والعالم بما يشاهدونه، وهو سبحانه الكبير في ذاته وأسمائه وصفاته، لا أحد أكبر منه ولا أعظم، وهو سبحانه المتعالي علىٰ جميع مخلوقاته ذاتًا وقدرةً وقهرًا لا إله غيره ولا ربَّ سواه.

[١٠] يخبر جل وعلا أنه يستوي عنده علم السر والعلانية، لا تخفىٰ عليه خافية، فيستوي من أسرَّ وأخفىٰ قوله بمن تكلَّم به علانية، كما يستوي عنده عمل من يستخفي ويستتر بظلمة الليل؛ أو يستتر في سرب أو مغارة أو نحو ذلك، بعمل مَن يجهر به وفي وضح النهار، فهو سبحانه يعلم السرَّ وأخفىٰ.

[١١] يخبر جل وعلا أن له ملائكة يتناوبون بعضهم يخلف بعضًا يحفظون الإنسان من كل جوانبه بأمر الله لهم، وأخبر أنه لا يمكن أن يسلب من قوم نعمة أنعمها عليهم إلا إذا غيَّروا سلوكهم الحسن إلىٰ سيىء، فأسرفوا وبطروا، وصرفوا نعم الله في الحرام؛ فحينئذ تحل بهم النقم والكوارث، ثم أخبر بأنه إذا أراد بقوم بلاءً أعمىٰ بصائرهم وحلّت بهم النقم ولا راد لقضائه، وليس لهم عند ذلك والٍ يتولىٰ أمرهم ويدفع عنهم ما يحل بهم من عذاب الله؛ فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه. والحاصل: أن نعم الله علىٰ عباده كثيرة لا تحصىٰ، ولطفه ورحمته بهم متتابعة في حياتهم كلها؛ فيغمرهم بفضله، ويتابع نعمه عليهم طول الزمن الذي يعترفون فيه لله بالفضل والشكر، فإذا كفروا بنعمه وجحدوها ولم يشكروها أتاهم أمر الله من العقوبات التي تحل بهم في الدنيا والآخرة.

[١٢] ثم يخبر سبحانه وتعالىٰ أن مظاهر قدرته أنه يريكم البرق -وهو النور اللامع- بحسب احتكاك السحب ببعضها؛ فبعضكم يخاف أن تنزل منه الصواعق المحرقة، والسيول المدمرة، وبعضكم يطمع في أن ينزل معه المطر النافع الذي يعم الناس بالخير والرحمة والرزق، ويخبر أيضًا أن من مظاهر قدرته أنه يوجِدُ السحابَ المحمَّل بالماء الكثير ثم يرسله من مكان إلىٰ مكان بحسب ما تقتضيه الحكمة والمشيئة الإلهية.

[١٣] ثم يخبر جل شأنه أن من مظاهر قدرته: أن الرعد وهو صوت احتكاك السحب أو ارتطام بعضها ببعض، يسبح بحمده نطقًا؛ خوفًا من الله وإجلالًا لمقامه وذاته، وقيل: أصواته وتنقله تسبيح وشهادة بعظمة الله وحمدٌ له، وتسبيح الرعد بحمد الله من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها ونفوض كيفيتها إلىٰ الله تعالىٰ، ويخبر سبحانه أن من مظاهر قدرته أيضًا أن الملائكة تسبح تعظيمًا لله وخوفًا منه، ويخبر جل وعلا أن من مظاهر قدرته أيضًا أنه يرسل الصواعق وهي كتل نارية محرقة فيهلك بها من يشاء من خلقه، وثم أخبر جل وعلا أن الكفار يخاصمون الرسول ﷺ ويكذبونه في قدرة الله، وهو جل وعلا شديد العقوبة لمستحقها من خلقه.

لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾

[١٤] بعد أن بين جل وعلا أن الكفار يُكذِّبون الرسل في قدرة الله وعظمته، ويكذبونهم في أنه قادر علىٰ الانتقام وإحياء الموتىٰ، بين سبحانه أن دعوته هي الدعوة الحقَّ، وأن له وحده دعوة التوحيد، وأنه هو الذي يجيب الدعاء بحق، وأن آلهة الكفار التي يدعونها من دون الله ليس لها من الأمر شيء، وأنها لا تستجيب لدعاء من دعاها، وأن الذي يدعو إلهًا من دون الله كالعطشان الذي يشير بكفيه إلىٰ ماء بعيد يريد أن يصل إلىٰ فمه لكن الماء لا يأتيه لأنه لا يستجيب إلا لمن سعىٰ إليه، ثم بين سبحانه أن دعاء الكافرين وعباداتهم في ضلالٍ وضياعٍ وخسرانٍ لأنه لا إجابة له لإشراكهم بالله غيره.

[١٥] ذكر جل وعلا أن المخلوقات العلوية والسفلية كلها تسجد لله خاضعة منقادة لعظمته؛ فيسجد ويخضع له المؤمنون طوعًا، ويخضع له الكافرون والشياطين ونحوهم رغمًا عنهم كرهًا، وكذلك تخضع لعظمته ظلال كل الكائنات في أول النهار وآخره.

[١٦] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين: مَنْ خالق السماوات والأرض ومدبرهما؟! فأجبهم مباشرة بما يعتقدونه وهو أنه: (الله) الخالق الرازق المدبر المحيي المميت، ثم قلْ لهم: إذا كنتم تقرّون بذلك فَلِمَ اتخذتم من دونه آلهة تعبدونها وتتقربون إليها، وتطلبون منها وتسألونها، وهذه الآلهة لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا فضلًا عن أن تملك ذلك لغيرها؟!، فأين ذهبت عقولكم؟!، ثم قل لهم: هل تساوون بين الأعمىٰ والبصير؟! وبين الظلمات والنور؟! فكذلك لا يسوَّىٰ الكفر بالإيمان، ولا الشرك بالتوحيد، ولا الضلال بالهدىٰ، ثم قل لهم علىٰ سبيل الإنكار والتعجب: أم أن هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله استطاعوا أن يخلقوا بعض المخلوقات فاشتبهت عليكم، ولم تستطيعوا أن تميزوا بينها وبين خلق الله فاعتقدتم استحقاقهم للعبادة مع الله؟! وهم يعلمون أن معبوداتهم لا تستطيع ذلك، ثم قل لهم: الله تعالىٰ وحده خالق كلِّ شيء، وعليه فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، وهو الواحد المتفرد بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة، وهو الواحد أيضًا في ألوهيته، وهو القهَّار الذي قهر الجميع، وذلَّ له كل شيء سبحانه وتعالىٰ.

[١٧] يخبر جل وعلا أنه أنزل من السماء ماءً كثيرًا متدفقًا فسالت علىٰ إثره الأودية بحسب صغرها وكبرها كل بما يملأه، وهذا السيل مع شدة جريانه يحمل فوقه غثاء طافيًا لا نفع فيه، وهذا مثلٌ ضربه الله للحق والباطل، وضرب سبحانه مثلًا آخر في المعادن التي توقد عليها النار لصهرها طلبًا للزينة أو الانتفاع بها، فيخرج منها خبثها مما لا فائدة فيه كالذي يطفو علىٰ الماء، وبمثل هذا يضرب الله الأمثال للحق والباطل؛ فالباطل لا خير فيه، فهو كالغثاء الذي يطفو علىٰ وجه الماء فيرمي به السيل علىٰ جانِبَي الوادي فتذروه الرياح ثم يضمحل ويزهق ويذهب جفاء فلا بقاء له ولا فائدة منه، وأمّا الحق فإنه ظاهر ونافع؛ كالماء الصافي الذي يثبت في الأرض وكالمعادن النقية التي ينتفع بها الناس، وسوف يظهر ويعلو مهما كاد له الأعداء، وبمثل هذا البيان البديع يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون فيؤمنون بالله الإيمان الحق، ويميزون بين الخير والشر، والمعروف والمنكر.

[١٨] بين جل وعلا مآل من آمن به وأطاعه واتَّقاه، ومآل من كفر به وعصاه؛ فالذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ، واستجابوا طائعين، لهم الحالة الحسنة في الدنيا، والثواب الحسن في الآخرة، في جنات النعيم، لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، وأما الذين لم يستجيبوا لله ورسوله ﷺ، ولم يلبوا داعي الإيمان حين أتاهم؛ فأولئك لهم الخزي والخسار، والعذاب الشديد في النار، وهؤلاء لو أنهم يمتلكون ضعف ما علىٰ الأرض من أصناف الأموال، وقدموها فديةً لأنفسهم لينجو من عذاب يوم القيامة؛ ما نفعهم ذلك، ولا أغنىٰ عنهم شيئًا، وأولئك سيجدون جميع ما قدموا من الأعمال ينتظرهم هناك، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فيحاسبون علىٰ ذلك أشدَّ الحساب وأقساه، ثم يكون مكانهم ومستقرهم ومسكنهم: نار جهنم، فبئس المكان والمقرّ، وبئس الفراش والمستقرّ.

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

[١٩] يقول جل وعلا علىٰ وجه الإنكار والاستبعاد: وهل الذي يعلم يانبي الله أن ما أُنزل إليك من ربك هو التوحيد، فيؤمن به، ويعمل بمقتضاه؛ يستوي مع أعمىٰ القلب الذي لا يعلم ذلك؟! والجواب: قطعًا سيكون: لا يستويان، ثم مدح سبحانه أصحاب العقول الراجحة والعقول النيرة الذين يتعظون بذلك ويدركون الفرق بينهما فيتبعون سبيل أهل الإيمان.

[٢٠] يخبر جل وعلا أن من صفات أولي الألباب: أنهم يوفون ويتمّون جميع ما عاهدوا الله عليه، ومن تمام وفائهم بذلك أنهم لا ينقضون جميع العهود والمواثيق التي أخذوها علىٰ أنفسهم، وتعهدوا بوفائها، كالأيمان والنذور وغيرها فيؤدونها كاملة.

[٢١] ومن صفاتهم أنهم: يصلون جميع من أمر الله بوصله، فيصلون الله ورسوله بالطاعة بأداء الواجبات والمستحبات، ويصلون الوالدين ببرِّهما، ويصلون الأقارب والأرحام بما لهم من صلة الرحم، ويصلون أزواجهم بالعشرة بالمعروف، ويصلون ما تحت أيديهم وما ولُّوا بحسن الرعاية، ومع ذلك: يخافون الله ويخافون عذابه وعقابه، فيعبدونه مستقيمين علىٰ طاعته، ويخافون من الحساب وشدته يوم القيامة.

[٢٢] ومن صفاتهم أنهم: يصبرون علىٰ الطاعات، وعن المعاصي، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة؛ فلا يتجزعون ولا يتسخطون، وهم في ذلك مخلصون لوجه الله سبحانه وتعالىٰ، فلا مقصد لهم، ولا غرض إلا رضا المولىٰ سبحانه، ويقيمون الصلاة علىٰ أحسن وجه وأكمل صفة، ويخرجون أموالهم لله طيبة بها نفوسهم، زكاة وصدقة، ويجعلون إنفاقهم في السر -وهو أدعىٰ للإخلاص-، وفي العلن -لِمَا فيه مصلحة تشجيع غيرهم-، وأيضًا يقابلون السيئة بالحسنة؛ فيعفون عمن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات لهم العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة.

[٢٣] ثم بين جل وعلا هذه العاقبة الحميدة، فأخبر أنها: جنات عدن، أي: إقامة دائمة لا انقطاع لها ولا زوال، يدخلونها وبصحبتهم من آمن وصلح لدخولها من الآباء والأمهات والأزواج والذريَّات، ليحصل لهم تمام الأنس، وكمال الفرح والسعادة بالاجتماع في دار الكرامة، ثم هم مع ذلك النعيم، تدخل عليهم الملائكة من كل باب يهنؤونهم بفوزهم، وبرضوان الله عليهم.

[٢٤] وبين سبحانه أن الملائكة تسلم علىٰ أهل الجنة سلامًا خاصًّا؛ وتخبرهم أنهم حصلوا علىٰ ذلك النعيم برحمة الله لهم، ثم بإيمانهم وصبرهم ومصابرتهم، فنعمت هذه العاقبة، وهذا المآل.

[٢٥] ثم ذكر جل وعلا حال أهل النار، الذين لم يستجيبوا لله ورسوله ﷺ، وذكر الله شيئًا من صفاتهم؛ فمن ذلك: أنهم ينقضون العهد الذي أخذه الله عليهم وأكّدَه بالمواثيق الغليظة بأن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من طاعتهم لله وبرِّهم بآبائهم وصلتهم بأرحامهم، وأنهم يسعون في إفساد الأرض بالشرك، وارتكابهم المعاصي، والصدِّ عن سبيل الله، وإفساد البلاد والعباد، وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات جزاؤهم اللعنة والطرد والإبعاد من رحمة الله، ثم لهم نار جهنم دارًا لهم، فبئس ما صنعوا، وبئس ما إليه آلوا.

[٢٦] يخبر جل وعلا أنه هو الرزّاق، وأن مقادير الأرزاق بيده وحده سبحانه، فهو يوسع علىٰ من يشاء اختبارًا وابتلاءً، ويضيق علىٰ من يشاء امتحانًا، ثم أخبر أن الكفار لجهلهم وقلة إدراكهم فرِحوا بالحياة الدنيا، ورضوا بها، واطمأنوا إليها، وغفلوا عن الآخرة، وما حقيقة هذه الحياة الدنيا - بكل ما فيها - إلا متاع قليل زائل.

[٢٧] أخبر جل وعلا أن الذين كفروا يقولون: هلا أنزل الله علينا معجزة كونية تدل علىٰ صدق محمد كالمعجزات الحسِّية التي أنزلت علىٰ الأنبياء من قبله، وهذا يعني أنهم يرون أن المعجزة التي أنزلت علىٰ محمد وهي القرآن الكريم لا تكفي أو لا تصلح أن تكون معجزة تدل علىٰ صدقه ﷺ، فقل لهم: إن الله يضل من يرغب الضلال، ويهدي من يرغب الهداية؛ يعني: أن الله جعلهم مختارين؛ فالذين اختار الضلال وأصروا علىٰ الكفر ثبتهم الله عليه، كما أن الذين آمنوا وتابوا هداهم الله، وكلا الأمرين بعلم الله وإرادته الكونية.

[٢٨] ثم بين سبحانه أن الذين آمنوا بالله وصدَّقوا رسوله ﷺ لهم علامة تدلّ عليهم، وهي اطمئنان قلوبهم وسكونها واستئناسها وفرحها، وزوال الاضطراب عنها عند ذكر الله جل وعلا، ألا بذكر الله وأسمائه وصفاته تطمئن القلوب، وتهدأ النفوس، وتسكن الجوارح.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾
كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ
عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا
سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ
بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ
ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم
بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ
ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن
قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ
لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم
بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾

٢٥٣

[٢٩] ثم أخبر جل في علاه أن الذين آمنوا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدقوا رسوله ﷺ، وقاموا بمقتضىٰ ذلك من الأعمال الصالحة؛ أولئك لهم حياة طيبة، وقرة عيْن، وحسن منقلب، ومن ذلك شجرة طوبىٰ في الجنة، وهي شجرة عظيمة يسير الراكب في ظلها مائة عام، ورضوان من الله أكبر.

[٣٠] وكذلك أرسلناك يانبي الله في أمتك ولست أوّلَ رسول أرسله الله إلىٰ قومه؛ بل أرسلنا قبلك رسلًا إلىٰ قومهم، فلسْت بدعًا من الرسل ليكذّبوك، وقد أرسلناك إليهم لتقرأ عليهم هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، لتأمرهم بالتوحيد وتنهاهم عن الشرك، ولتزكو نفوسهم وتتطهر قلوبهم، والحال يامحمد أن قومك جاحدون بتوحيد الرحمن، ومقيمون علىٰ الشرك والكفران، فقل لهم: إن ربي هو الله الذي لا رب سواه، ولا معبود بحق إلّا هو، عليه توكلت واعتمدت ووثقت في جميع أموري، وإليه مرجعي وتوبتي.

[٣١] ثم بين سبحانه أنه لو كان هناك كتاب من الكتب الإلهية تتأثر به الجبال فتنتقل عن أماكنها، أو تقطَّع به الأرض جنات وأنهارًا، أو تُكلَّم به الموتىٰ لكان هو هذا القران؛ لأنه هو الغاية القصوىٰ والحق المطلق في الهداية والتذكير، أفلا يعلم هؤلاء المكذبون أن الله لا يعجزه أن يأتي بما طلبوا من المعجزات، ولكن ليعلم هؤلاء أن الأمر له وحده في كل شيء، أفلم يعلم المؤمنون أن الله قادر علىٰ أن يجعل الجميع يؤمنون؟، ولكن حكمته أنه جعلهم مختارين؛ فمن اختار الضلال فمهما رأىٰ من المصائب سواء حلّت به أو بجيرانه فإنه لن يؤمن حتىٰ يرىٰ الموت أو القيامة إلّا من شاء الله سلامته، ولا يزال الكفار تنزل بهم المصائب من القتل والأسر في الحروب والغزوات، أو تنزل قريبًا من دارهم؛ حتىٰ يتم وعد الله لنبيه وأتباعه بالنصر عليهم؛ إن الله لا يخلف الميعاد.

[٣٢] يخاطب جل وعلا رسوله ﷺ، ويسلّيه حين كذّبه قومه، فقال له: يانبي الله لقد أرسلنا رسلًا من قبلك إلىٰ قومهم، فلم يؤمنوا بهم؛ بل قابلوهم بالاستهزاء والسخرية، فأمهلت وأنظرت هؤلاء المكذِّبين المستهزئين مدّة، ثم أخذتهم وأهلكتهم بأشد وأقسىٰ أنواع العقوبات، فكيف كان إهلاكي إياهم، وهذه نهاية ومصير كل من يستهزئ بالرسل، ويسخر منهم.

[٣٣] ثم أخبر سبحانه بقوله: أفمن هو قائم علىٰ كل نفس بما كسبت من خير أو شرّ، يحصي لها ذلك، ثم يجازيها عليه بالعدل والقسط، وهو الله جل وعلا، كمن ليس كذلك من الآلهة المزعومة؟!!، وقد اتخذ هؤلاء المشركون مع الله آلهة أخرىٰ، وجعلوها شركاء لله، فقل لهم يانبي الله: اذكروا أسماء هذه الآلهة وحقيقتها، وما تملك من النفع والضر، أم تخبرون الله وتُعْلِمونه أيها المشركون بشيء لا يعلمه في الأرض، وهذا من أبطل الباطل، فإن الله عالم الغيب والشهادة، أم غاية أمركم أنكم تذكرون هذه الآلهة المزعومة بقول ظاهر فقط بألسنتكم، وهو قول لا حقيقة له، ولا دليل عليه، ولكن حُسِّن وجُمِّلَ للذين كفروا مكرهم من الإعراض عن التوحيد، والإقامة علىٰ الإشراك والتنديد، وبفعلهم هذا صُدُّوا وصُرِفوا عن طريق الحق والتوحيد، واعلموا أن من لم يلتجئ إلىٰ الله فلن يوفقه الله للهداية ويرشده إليها؛ وليس له هادٍ يهديه، ولا ناصر ينجّيه من عذاب الله.

والمقصود: أن من أصر علىٰ الكفر فَحَكَمَ الله عليه بالضلال فليس هناك قوة تهديه؛ وإضلال الله له هو إضلال جزائي وليس ابتدائي.

[٣٤] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين الضالين لهم عذاب في الحياة الدنيا بالقتل والأسر والذل، ولهم في الآخرة عذاب أشد وأشق وأدوم وأبقىٰ، وليس لهم مانعٌ ولا عاصمٌ ولا ناصرٌ -من آلهتهم المزعومة -يدفع عنهم عذاب الله وسخطه.

....

....

....

۞ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

[٣٥] يصف جل وعلا الجنة التي أعدَّها لعباده المتقين الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً بتوحيده وفعل أوامره واجتناب نواهيه، هذه الجنة تجري تحت قصورها وأشجارها أنهار الماء والخمر واللبن والعسل المصفىٰ، وأكلها دائم لا ينقطع، وظلها دائم وعريض لا يتقلّص ولا يذهب، وهذه المثوبة جزاء ومآل الذين خافوا الله واتقوه واستجابوا لرسوله ﷺ، أما مصير الكافرين المكذّبين، فهي نار حارقة، وبئس المصير.

[٣٦] يخبر سبحانه أن الذين أعطاهم الكتاب وهم الذين أُنزل عليهم التوراة والإنجيل وآمنوا بالنبي ﷺ وصدقوه فهؤلاء يفرحون فرحًا شديدًا بما أنزل إليه من القرآن وذلك لتصديقه لما في التوراة والإنجيل، وهناك طوائف قد تحزبت ضد الحق واتحدوا علىٰ الكفر، فمنهم من ينكر بعض هذا القرآن ويكذب به ولا يصدقه، فقل لهم يانبي الله: إني أمرت أن أوحد الله وأخلص العبادة له وحده، ولا أشرك به شيئًا، هو ربي لا إله إلا هو، فأنا أدعو الناس إلىٰ عبادة الله وتوحيده، وأنهاهم عن الشرك به، وإليه مرجعي وإيابي.

[٣٧] ثم يخبر سبحانه أنه كما أنزل الكتب علىٰ الرسل بلغات قومهم أنزل علىٰ النبي ﷺ القرآن بلغة قومه وهي اللغة العربية ليسهل حفظه ونشره في سكان الأرض كلها، وهو جامع لأصول الشرائع السماوية لتحكم بالعدل والصواب بين العباد في جميع شئونهم من أمور العبادة وأمور الدنيا من تجارة وعلاقات وكل ما يحتاجه البشر، وإذا اتبعت يا نبي الله أهواء المشركين في عبادة غير الله بعد الحق الذي جاءك فاعلم أنه ليس لك ناصر من دون الله يدفع عنك العذاب ولا من يحميك من عقاب الله.

ولا شك أنه ﷺ معصوم مما هو أقل من هذا، والمقصود: إبلاغ أمته وتحذيرهم من الضلال بعد الهدىٰ.

[٣٨] واعلم يانبي الله أن الله أرسل من قبلك رسلًا إلىٰ قومهم يدعونهم إلىٰ التوحيد، ويحذرونهم من الشرك، وقد كانوا بشرًا مثلك، وكانت لهم زوجات، ولهم ذرية، فلا يحزنك ما يعيبك به هؤلاء المشركون، فهذا ليس بعيب ولا منقصة، فإخوانك الأنبياء من قبلك كانت لهم أزواج وذرية، ثم أخبر قومك يارسول الله: أن الرسول إنما هو مبلّغ عن الله، ليس في يده أن يأتي بالمعجزات من عند نفسه، إنما يأتي بها إذا أُوحي إليه بها، ولكل أمر قضاه الله وقدَّره وقت لا يتأخر عنه، وساعة لا يتقدم عليها ولا يتأخر.

[٣٩] يبين جل وعلا أن قدرته لا حدود لها، وأنه يفعل ما يشاء مما تقتضيه الحكمة، فيمحو ما يشاء ويبقي ما يشاء، وعنده أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ.

ومعلوم أن أحكام الله وأقداره المكتوبة في اللوح المحفوظ علىٰ قسمين: قسم لا يعتريه التغيير وهو الذي لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وقسم معلق بأسباب ومبررات وهي التي تخضع للمحو والإثبات.

[٤٠] يخاطب جل وعلا رسوله ﷺ، فيقول: يانبي الله إن أريناك بعض الذي وعدنا به قومك - المكذبين - من العذاب؛ فذاك، وإن توفيناك قبل ذلك فلا عليك، فلن يفوتونا ولن يفلتوا منا، فأنت إنما عليك البلاغ والبيان والدلالة والإرشاد، ونحن علينا الحساب والجزاء، وستُوفَّىٰ كلّ نفس ما عملت، وتُجازىٰ بما كسبت.

[٤١] ثم يخاطب سبحانه نبيه ﷺ فيقول: أولم يشاهد الكفار أن الله مكن المسلمين من الاستيلاء علىٰ أرض الكافرين بلدة بلدة حتىٰ أذن الله بفتح أم القرىٰ، وهذا قول أكثر المفسرين، وقال آخرون: إن الرمال تزحف حتىٰ تغطي بعض البحار فيعلو البحر ويطمر البلاد الساحلية، وقال الشيخ محمد السبيل رحمة الله: نقصان الأرض هو موت العلماء، وقد جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما. ثم أخبر جل وعلا أنه يحكم بما يشاء في خلقه لا يتعقب أحد ما حكم به، كما أنه لا راد لحكمه وقضائه، وهو سبحانه يحاسب الخلق جميعًا في وقت سريع.

[٤٢] ثم يخبر سبحانه أن الأقوام السابقة قد مكرت برسلها وبالمؤمنين، ودبَّروا لهم المكائد، وكان عاقبة ذلك خسارتهم وندمهم وخزيهم في الدارين، إذِ المكر لله جميعًا، وأيّ مكر لا قيمة له ولا تأثير في مواجهة مكر الله جل وعلا بالماكرين، فهو سبحانه يبطل مكرهم وكيدهم، ويعلم ما تكسب كل نفس من خير أو شر، وسيُجازي كلّ نفس بما عملت، وسيعلم الكفار الجاحدون للتوحيد، المقيمون علىٰ الشرك لمن تكون النجاة، ولمن يكون الفوز والفلاح، ولمن تكون العاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾
ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ
لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۢ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ
أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ
فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ
ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

[٤٣] ختم جل وعلا السورة بذكر تكذيب الكفار الذين ينكرون رسالتك ونبوتك يانبي الله، فكذبهم الله وشهد بصدقه، وشهادة الله أنه أيده بالبينات والمعجزات والقرآن الذي تحداهم بالإتيان بمثله، وكذلك شهد بصدقه علماء أهل الكتاب الذين عرفوه كما يعرفون أبناءهم فآمنوا وشهدوا له بالنبوة والرسالة فصلىٰ الله عليه وسلم؛ فهو الصادق الأمين حتىٰ قبل النبوة.

سورة إبراهيم

سورة إبراهيم مكيّة وآياتها ثنتان وخمسون آية.

[١] سبق الكلام عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، وجبريل يوحيه إليه ليخرج المكلفين من العباد من ظلمات الجهل والكفر إلىٰ نور الهدىٰ والصلاح. وَجَمَعَ الظلمات لتعددها وتنوعها، وأفرد النور وهو الصراط المستقيم والإيمان وإخلاص العبادة لله وحده. وكل ذلك لا يتم إلا بعون الله وغوثه وتوفيقه فهو الهادي إلىٰ سواء السبيل، قال تعالىٰ: ﴿**وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ**﴾[البلد:١٠].

وقوله: ﴿**رَبِّهِمْ**﴾: تشعر بلطف الله ورحمته وتربيته لعباده وإنارة السبيل لهم، وكما أنه يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور؛ فإنه أيضًا يخرجهم إلىٰ طريق الله العزيز الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ، الحميد المحمود بكل لسان.

[٢] يخبر سبحانه أن له مُلْكَ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما؛ مُلكًا وتدبيرًا وتصريفًا، وله الأمر والحكم جل وعلا، وويل للذين يجحدونه ولا يؤمنون برسله من عذاب غاية في الشدّة والقسوة والغلظة.

[٣] وضح جل وعلا أن الهلاك والعذاب علىٰ الكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، ويمنعون الناس عن الإيمان والصلاح بالتهديد والوعيد والإيذاء، ويريدون أن تكون الطرق معوجة حسب أهوائهم، وهؤلاء الموصوفون بهذا الصفات في ضلال وبُعدٍ كبير عن الحق.

[٤] واعلم يارسول الله أن الله ما بعث من رسول لأمة من قبلك إلّا منهم وبلغتهم؛ ليوضح لهم التوحيد وتفاصيل العبادة لله، حتىٰ لا يكون لأحد منهم حجة، ثم بعد ذلك يضل الله من يختار الضلال، أي: يتركه وما اختار، كما قال تعالىٰ: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾[الصف:٥]. وكذلك من يرغب الهدىٰ والصلاح يهديه هداية التوفيق والإعانة، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ**﴾[محمد:١٧]، والله هو العزيز في ملكه لا يغلبه غالب، الحكيم في كل أفعاله وتصرفاته.

[٥] يخبر جلا وعلا أنه أرسل موسىٰ عليه السلام إلىٰ بني إسرائيل، وأيده ببعض الآيات البينات والمعجزات الباهرات، الدالة علىٰ صدقه، وأمره أن يدعو قومه إلىٰ الإيمان لإخراجهم من ظلمات الكفر والضلال إلىٰ نور الهدىٰ والإيمان، وهكذا كل الرسل مهمتهم إخراج أقوامهم من الظلمات إلىٰ النور، كما أمره أن يبالغ في نصحهم وتذكيرهم بما حصل للأقوام السابقة مثل قوم نوح وعاد ومدين وغيرهم ممن حاق بهم العذاب وحلّت عليهم النكبات لمّا عاندوا وكذّبوا الرسل، واعلموا إن ما حلّ بالأمم الماضية آيات لكل صبّار كثير الصبر وكثير الشكر لنعم الله وهدايته.

وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩ ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠

[٦] واذكر يا نبي الله قصة موسىٰ يوم أن قال قومه علىٰ سبيل العظة والتذكير: اذكروا نعمة الله عليكم بلسانكم وقلبكم، واشكروه علىٰ ذلك أعظم الشكر؛ إذ نجّاكم وخلّصكم من فرعون وقومه لما كانوا يذيقونكم أشدّ العذاب وأقساه، وذلك أنهم كانوا يذبحون أبناءكم الصغار فور ولادتهم حتىٰ لا يخرج منهم من يُسقط مُلك فرعون، وكانوا يعذبونكم باستبقاء نسائكم للخدمة والامتهان والإذلال، وفيما حصل لكم من أفعال هؤلاء الظالمين امتحان واختبار عظيم لكم.

[٧] واذكروا يا قوم أن الله أعلمكم إعلامًا صريحًا، ووعدكم وأكّد لكم أنكم إن شكرتم نعمته فإنه سيزيدكم منها، أما إن كفرتم بنعمة الله وجحدتموها ولم تؤدوا شكرها فاعلموا أن زوالها قريب، واعلموا أن عذاب الله شديد، وأنه سيصيبكم لا محالة إنْ كفرتم.

[٨] وقال موسىٰ لقومه: اعلموا أن الله غني عن العالمين، لا تنفعه طاعة الطائع، ولا تضره معصية العاصي؛ فإن كفرتم أنتم وجميع أهل الأرض؛ فإن ذلك لا يضر الله شيئًا، لأن الله سبحانه وتعالىٰ كامل الغني، لا يحتاج لإيمانكم، ولا لشكركم، وهو سبحانه الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

[٩] ثم قال جل في علاه: ألم يأتكم يا أمة رسول الله خبر من كان قبلكم من الأمم، قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، ومَنْ جاء مِنْ بعدهم من الأمم الذين لا يعلم عددهم وكثرتهم إلّا الله وحده، جاءتهم رسلهم بالآيات والأدلة الواضحات؛ فلم يؤمنوا بما جاءوا به، ولذا رَدّوا أيديهم في أفواههم وعضّوا أناملهم من شدّة الغيظ والحَنَق تألمًا واستكبارًا وعنادًا عن قبول الحق، وقالوا لرسلهم: إنا نكذّبكم ولا نصدق بما جئتم به، وإننا لفي شكّ كبير ممّا دعوتمونا إليه من الإيمان والتوحيد.

[١٠] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن الرسل سألت أقوامهم علىٰ سبيل الإنكار: أفي الله وربوبيته وألوهيته ووحدانيته شكّ؟ وهو سبحانه خالق السماوات والأرض وموجدهما من العدم علىٰ غير مثال سابق!، وهو سبحانه وتعالىٰ يدعوكم لتوحيده والإيمان به وطاعته، فإنّ جزاء ذلك: أن يغفر لكم ما سبق من ذنوبكم وشرككم، وأن يؤخر آجالكم، فلا يستأصلكم بعذاب في الدنيا، فكان جوابهم أن قالوا معاندين: ما أنتم إلا بشر مثلنا، لا مزية ولا فضل لكم علينا، وأنتم تريدون أن تُبعدونا وتَحْرفونا عمّا وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والأوثان، فأتونا بحجة ظاهرة، وآية بينة، وعلامة واضحة.

[١١] فأجابتهم رسلهم قائلين: نعم ما نحن إلا بشر مثلكم، ولكن هذا لا يمنع أن يتفضل الله علىٰ من يشاء من عباده فيخصه برسالته ونبوَّته، واعلموا أنه لا يحق لنا وليس بإمكاننا أن نأتيكم بآيات وبراهين إلا بإذن الله وأمره ووحيه، فعليه اعتمدنا، وفوضنا أمرنا إليه، وعليه وحده سبحانه توكلنا وعليه يتوكل المؤمنون في جلب منافعهم ودفع مضارِّهم لا إله غيره ولا رب لنا سواه.

[١٢] ثم قالت الرسل: وأي شيء يمنعنا من التوكل علىٰ الله والاعتماد عليه، وما عُذْرنا في ترك تفويض الأمر إليه؟!!، وهو سبحانه قد دلَّنا وأرشدنا ووفقنا لسلوك طريق التوحيد الموصلة إليه، وإلىٰ رحمته وجنته، ونحن ياقوم مستمرون علىٰ دعوتكم إلىٰ التوحيد والإيمان، وقد هيأنا أنفسنا ووطدناها علىٰ الصبر علىٰ ما يصيبنا منكم من أذىٰ حسِّي ومعنوي؛ احتسابًا للأجر، ورغبة في هدايتكم ونجاتكم، وعلىٰ الله وحده يعتمد المعتمدون، ويفوِّض إليه المفوِّضون.

[١٣] ذكر جل وعلا مجادلة الرسل للأمم التي بعثهم الله لإنقاذها من الضلال؛ فبدلًا من الترحيب بهم والانصياع للحق كل أمة قالت: لنطردنَّكم أيها الرسل من أوطاننا، أو لتعودنَّ في ديننا وملتنا، فأوحىٰ جل وعلا لرسله أنه سيهلك الظالمين الذين هددوكم بإخراجكم من دياركم أو العودة إلىٰ دينهم وملتهم.

[١٤] ثم أخبر سبحانه أنه سوف يُمَكِّنُ لرسله وأتباعهم في الأرض بعد إهلاك الكافرين، ولكن قبل ذلك يجب علىٰ المؤمنين أن يخشوا مقامهم بين يدي الله يوم القيامة، ويخشوا وعيده وعذابه حتىٰ يتحقق لهم النصر والتمكين.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾: فيه رد علىٰ مذهب رابعة العدوية والمعجبين بكلامها الذين قالوا: لا نعبد الله إلا بالحب ولا نخاف من النار، وهذا خطأ؛ لأن العبادة بالحب وحده زندقة، والصحيح: أنه يجب ضم الحب إلىٰ الخوف والرجاء.

[١٥] واستفتح الكفار بطلبهم تعجيل العقوبة لهم إن كان هؤلاء الرسل علىٰ حق، فلجأت الرسل إلىٰ ربها، واستغاثوا به، وطلبوا نصره وتأييده؛ فأجابهم وأعطاهم ما وعدهم من النصر والتمكين، وأنزل علىٰ أهل الكفر والعناد الخزي والعذاب الأليم، وحينها ضلَّ كل من تكبر علىٰ الحق، وهلك من استكبر علىٰ الخلق، وخسر من عاند الرسل ولم يوحّد الله الحق.

[١٦] وهذا الجبار العنيد ينتظره في الآخرة عذاب شديد، وتنتظره جهنم فيدخلها ويقاسي حرها وجوعها وعطشها، وإذا طلب الماء، فإنه يشرب من صديد أهل النار وقيحهم وعرقهم - عياذًا بالله من ذلك -.

قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨

[١٧] وهذا الجبار العنيد من شدة عطشه يحاول أن يبتلع هذا الماء الخبيث فلا يستطيع لحرارته وقذارته ومرارته، وإذا دخل شيء منه إلىٰ جوفه فإنه يقطع أمعاءه، وهو مع ذلك يعذب بأشد أنواع العذاب حتىٰ يشرف علىٰ الموت ويتمناه كلما اشتدَّ به العذاب، لكنه لا يموت فيستريح؛ بل ينتظره عذاب شديد مؤلم موجع، نسأل الله السلامة والعافية.

[١٨] ذكر جل وعلا أن جميع أعمال الكفار - حتىٰ أعمال الخير والمساعدات الإنسانية التي يقدمونها للمصابين بالزلازل والنكبات - حابطة لا ثواب عليها عند الله؛ فهي كالرماد الذي هبت عليه ريح عاصفة شديدة فبددته وبعثرته، علمًا أن أعمال الخير التي يقدمونها يأخذون جزاءها في الدنيا؛ فتعطىٰ لهم الجوائز وتنصب لهم التماثيل، أما في الآخرة فتكون هباءً منثورًا، فلا ينتفعون منها ثوابًا ولا تخفف عنهم عذابًا بسبب كفرهم وجحودهم لدين الله، واعلموا أن ذلك الحبوط لأعمالهم وعدم الانتفاع بشيء منها هو الضلال البعيد عن الطريق المستقيم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾

[١٩] ثم يقول المولىٰ عز وجل: ألم تعلم أيها المخاطب أن الله وحده هو الذي أوجد السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما علىٰ هذا الوجه البديع؟! وقد خلقهما بقدرته واستحقاقه لعمل ما يشاء، وللدلالة علىٰ وحدانيته وقدرته وحده دون من سواه، وهو سبحانه إن أراد أن يذهبكم ويفنيكم ويأتِ بخلق جديد يوحدونه ولا يشركون به شيئًا؛ فهو قادر علىٰ ذلك.

[٢٠] واعلموا أن ذلك الذي ذكرناه من قدرتنا علىٰ خلق السماوات والأرض وقدرتنا علىٰ إفنائكم والإتيان بخلق جديد؛ غير ممتنع عليه، وغير صعب؛ بل سهل يسير؛ لأنه سبحانه لو أراد شيئًا قال له: (كن) فيكون.

[٢١] يعرض جل وعلا مشهدًا رهيبًا من مشاهد يوم القيامة، ألا وهو الحشر، فحين يُنفَخ في الصور يخرج جميع الناس من قبورهم سراعًا فيقفون جميعًا في صعيد واحد علىٰ أرض المحشر، كلهم ينتظر الفصل والقضاء، وكلهم يبحث عن الخلاص والنجاء، فيقول الأتباع لرؤسائهم في الضلال في الدنيا: نحن سمعنا كلامكم وسِرْنا خلفكم، فأوردتمونا المهالك؛ فهل أنتم دافعون اليوم عنا من عذاب الله ولو شيئًا يسيرًا؟! فيجيبونهم: لو كنا مهتدين للطريق المستقيم لأرشدناكم إليه، ولكنا ضللنا فأضللناكم معنا، ونحن الآن مستوون معكم في الجزع والصبر علىٰ هذا العذاب، فإنه ليس لنا مهرب ولا نجاة مما نحن فيه من العذاب الشديد؛ فالله هداهم الهداية العامة، قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[البلد:١٠]، أي: طريق الخير وطريق الشر، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[الإنسان:٣]، وعلىٰ هذا فيكون قصده: لو وُفِّقْنَا للهدىٰ لهديناكم.

[٢٢] ذكر جل وعلا خطبة الشيطان في أتباعه في وسط النار، بعد أن فرغ الله من حساب الخلق، وصار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، قال أستاذنا محمد الأمين الشنقيطي: (ينصب له -أي: الشيطان- كرسي من النار في النار، وحوله الضلال الذين اتبعوه في الدنيا؛ فيخطب بهم)، قائلًا لهم: يا أتباعي: إن الله وعدكم في الدنيا وعدًا صادقًا من أنه سوف يبعثكم ويحاسبكم علىٰ أعمالكم؛ فمن عمل خيرًا فقد فاز ونجا، ومن عمل شرًّا فقد خاب وخسر، أما أنا فقد وعدتكم وعدًا كاذبًا وباطلًا بأنه لا بعث ولا حساب، وزينت لكم الشهوات والشبهات؛ فصدقتموني واتبعتموني، واليوم كما ترون فقد تم وعد الله الصادق، أما أنا فقد أخلفتكم وعدي الكاذب، وما كان لي عليكم من قوة أجبركم بها حتىٰ تتبعوني، ولا كان معي حجة أو برهان ولا دليل واضح علىٰ دعوتي الباطلة، ولكن دعوتكم إلىٰ الكفر والضلال والظلم والمعاصي بأنواعها فاتبعتموني تلبية لرغباتكم وشهواتكم؛ فلا تلوموني ولكن لوموا أنفسكم؛ فاليوم كما تشاهدون أمامكم لا يمكن أن أغيثكم من عذاب الله ولا أنتم تستطيعون أن تغيثوني، إني تبرأت من اتخاذكم إياي شريكًا مع الله في عبادته في الدنيا، فانظروا كيف تبرأ من أتباعه وأخبرهم أنه ما كان له قدرة ولا سلطان علىٰ إضلالهم، وأنهم إنما استجابوا لرغباتهم وشهواتهم بتأشيرة منه، واعلموا أيها الناس أن الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بصرف عباداتهم لغير الله، لهم عذا ب مؤلم موجع شديد في نار جهنم والعياذ بالله.

[٢٣] ذكر جل وعلا عاقبة الموحدين الصادقين الذين آمنوا بالله وصدَّقوا رسوله، وعملوا الأعمال الصالحة؛ فأخبر أنهم يدخلون الجنان ذات الأشجار الخضراء الكثيفة، تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، وهم في هذه الجنة خالدون ماكثون لا يفنون أبدًا، بإذن ربهم وحوله وقوته وتوفيقه، وبقاؤهم في الجنة بإبقاء الله لهم، وفرق بين الباقي بإبقاء الله له وبين الباقي ببقاء ذاته كصفاته فهي لا علاقة لها بالمشيئة، أي: لا تدخل تحت المشيئة كسائر الخلوقات الباقية بإبقائه سبحانه وتعالىٰ لها، ولهم في هذه الجنة التحية الخالدة، فيحيي بعضهم بعضًا، وتحييهم الملائكة أيضًا بالسلام والكلام الطيب، نسأل الله الكريم من فضله.

[٢٤] ضرب الله مثلًا بالكلمة الطيبة والشجرة الطيبة، وبيّن أن الكلمة الطيبة وهي: شهادة أن لا إله إلا الله، كالشجرة الطيبة النافعة وهي: النخلة، فإن الشجرة الطيبة أصلها راسخ في باطن الأرض مما زادها قوة وثباتًا، وأعلاها ممتد في السماء علوًّا وارتفاعًا، مما زاد في جمالها ورونقها، وهكذا كلمة التوحيد ثابتة في قلوب المؤمنين، لا تتزعزع ولا تؤثر فيها الشبهات أو الشهوات.

تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

[٢٥] وهذه الشجرة الطيبة وهي النخلة تعطي ثمارها كل وقت بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يعتبرون ويتعظون.

[٢٦] ثم ضرب الله مثلًا بين الكلمة القبيحة والشجرة القبيحة، وبيّن أن الكلمة القبيحة وهي: كلمة الكفر، كالشجرة القبيحة وهي: الحنظلة، فطعمها مرٌّ ولا ثبات لها، وتذروها الرياح؛ لأن عروقها وجذورها منتشرة علىٰ سطح الأرض وهكذا الكافر لا مبدأ له ولا خير فيه، ولا يصعد له عمل صالح، ولا يتقبل الله منه شيئًا.

[٢٧] يخبر جل وعلا أنه يثبت عباده المؤمنين في جميع حالاتهم، وتقلبات أمورهم، فيثبتهم الله علىٰ الإيمان، ويوفقهم في الدنيا للقول الحق، وهو: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والعمل بمقتضاها؛ فيقيهم الشبهات والشهوات، ويثبتهم الله بهذه الشهادة أيضًا في آخر حياتهم عند خروجهم من الدنيا، فيكون آخر كلامهم من الدنيا: لا إله إلا الله، ويثبتهم الله أيضًا في قبورهم عندما يأتي منكر ونكير، ثم يثبتهم الله بها في الآخرة، فتكون لهم النجاة والسعادة الأبدية، أما الظالمون فإن الله يبقيهم علىٰ ضلالهم وغوايتهم فلا يسلكون طريق الصواب، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم كانوا يظلمون، ويفعل الله ما يشاء؛ فهو سبحانه لا يُسأل عما يفعل، يهدي من يشاء برحمته وفضله، ويضل من يشاء بحكمته وعدله من استمر علىٰ الكفر.

[٢٨] يخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ عن كفار مكة فيقول له: ألم تعلم يانبي الله أن قومك اختاروا الكفر بدلًا عن الإيمان به، وشكره علىٰ نعمه التي أنعم بها عليهم؛ حيث أسكنهم البلد الأمين، وجلب لهم الأرزاق من كل قُطر، وبعث فيهم أفضل رسله وهو النبي محمد ﷺ الذي يعترفون بفضله وأمانته وصدقه؛ وكانوا سببًا في إدخال أتباعهم دار الهلاك والخسران؛ حين قادوهم إلىٰ بدر فقتلوا هناك شرّ قتلة.

[٢٩] ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ أن هؤلاء الذين كفروا بالله، وبدلوا نعمة الله عليهم، سوف يكون مصيرهم إلىٰ جهنم يدخلونها يقاسون حرَّها وسعيرها ويذوقون عذابها، وبئس القرار قرارهم فيها.

[٣٠] يخبر جل وعلا عن عمل السادة والسدنة وأصحاب الطرق الضالة الذي صدوا عن سبيل الله بأنهم جعلوا لله شركاء في الربوبية والألوهية فضلوا وأضلوا أتباعهم، فقل لهم يامحمد: استمتعوا في حياتكم الدنيا القصيرة الفانية، فإن مصيركم إلىٰ النار تعذبون فيها إن لم تؤمنوا بالله.

[٣١] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يحث عباده المؤمنين علىٰ إقامة الصلاة وأعمال الطاعة والإنفاق في سبيل الله سرًّا وعلانية من قبل أن يأتي الأجل فيفاجؤون بيوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا يستطيع أحد أن يفدي نفسه ولا ينفعه أخلَّاؤه، وإنما ينفعه في ذلك اليوم العمل الصالح الذي قدمه في حياته الدنيا.

[٣٢] يعدد جل وعلا بعضًا من نعمه التي أنعمها علىٰ عباده، فمن ذلك: أنه سبحانه هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما لعباده، وأنه سبحانه هو الذي أنزل المطر من السماء؛ فأصاب الأرض القاحلة فأخرج الله به زروعًا وثمارًا كثيرة مختلفة رزقًا يعيش عليه الناس والحيوانات، وذلّل سبحانه وسهّل لكم الصناعات والسفن والمراكب وأجراها لكم في البحر تستفيدون منها في تنقلاتكم وتجاراتكم، وهو سبحانه الذي سهل لكم جريان الأنهار بهذه الكيفية حتىٰ تستفيدوا منها في شربكم وسقْي زروعكم وثماركم.

[٣٣] وهو سبحانه الذي ذلَّل لكم الشمس والقمر ويسَّر لكم الانتفاع بجريانهما الذي لا يفتران عنه، وبضوئهما الذي لكم فيه منافع عظيمة، وهو سبحانه الذي سخَّر لكم الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتسعوا فيه لتدبير شؤون معاشكم.



وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٖ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٖ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

[٣٤] وهو سبحانه الذي وهبكم وأعطاكم جميع ما طلبتموه وزيادة، واعلموا أنكم لو ذهبتم لعدِّ نعم الله عليكم وإحصائها ما استطعتم لذلك سبيلًا؛ فضلًا عن أن تؤدوا شكرها، فإن طبيعة الإنسان أنه متجاوز للحدِّ، كثير الظلم لنفسه ولغيره، وأنه كفَّار لنعم الله عليه، فلا يؤدي شكرها وقد لا يعترف بها للمُنعم سبحانه وتعالىٰ فنسأل الله أن يعيننا علىٰ شكر نعمه.

[٣٥] واذكر يانبي الله يوم أن دعا إبراهيم عليه السلام ربه فقال: يارب إني أسألك أن تجعل هذا البلد -وهو مكة- آمنًا مستقرًا مطمئنًا يأمن كل من كان فيه ومن دخله، وكان ذلك بعد أن أسكن ابنه إسماعيل وزوجه هاجر في وادي مكة، ثم طلب من ربه أن يعصمه وأبناءه من عبادة الأصنام، وجميع ما يعبد من دون الله.

وقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾، قيل: أراد أبناءه الموجودين من صلبه، وقيل: بل أراد جميع ما تناسل من ذريته، وقوله: ﴿ٱلْبَلَدَ﴾، عُرِّفَ بالألف واللام لأنها بعد أن خرج ماء زمزم تجمعت فيها قبائل من جرهم فأصبحت مدينة بخلاف ما ذكره في سورة البقرة؛ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦].

[٣٦] ثم قال إبراهيم: يارب؛ إن هذه الأصنام التي تُعبد من دونك كانت سببًا مباشرًا في ضلال كثير من الناس وبعدهم عن طريق التوحيد، فمن تبعني يارب في التوحيد والإيمان فهذا مني وأنا منه، أما من عصاني فيما دون الشرك فإنك كثير المغفرة والرحمة فتجاوز عنه واغفر له، ومن عصاني في التوحيد؛ فاللهم برحمتك ومغفرتك دلّه علىٰ الإيمان والتوحيد.

[٣٧-٣٨] يخبر الله جل وعلا عن توكل إبراهيم عليه السلام ودعائه وتضرعه إذْ ناجىٰ ربه قائلًا: يارب إنك تعلم أني أسكنت بعض ذريتي -هاجر وإسماعيل وبنيه- وأنزلتهم في أرض جرداء، لا زرع فيها ولا ماء، وذلك بجوار بيتك المحرم الكعبة، فاللهم إني أسألك أن تجعلهم من مقيمي الصلاة المداومين عليها، اللهم واجعل قلوب الناس تمتلئ بحبهم وتميل إليهم، اللهم وأسبغ عليهم نعمك، وارزقهم من طيِّب الثمرات وأنواعها؛ لعلهم يشكرون لك هذه النعم والعطايا. اللهم ربنا إنك تعلم سرنا وجهرنا، وتعلم ما أخفينا وما أعلنَّا، لا يخفىٰ عليك سبحانك شيء في الأرض ولا في السماء.

[٣٩] ثم أثنىٰ إبراهيم علىٰ ربه قائلًا: الحمد لله الذي أعطاني علىٰ كبر سني وشيخوختي ابنين بارين هما إسماعيل وإسحاق، بعد أن كنت آيس من الولد، إن ربي سبحانه سمع دعائي وأجاب طلبي.

قيل: رزقه الله إسماعيل وعمره تسعة وتسعون سنة، ورزقه إسحاق وعمره مائة واثني عشرة سنة.

[٤٠] ثم طلب إبراهيم عليه السلام من ربه الإعانة علىٰ مداومة أداء الصلاة علىٰ أتم وجه بإخلاص وخشوع وخضوع، وأن يجعلَ من ذريته من يحافظ عليها في أوقاتها، ثم قال: وأسألك يا رب أن تستجيب دعائي وتحقق لي مطلبي.

[٤١] ثم دعا ربه قائلًا: اللهم يا رب أسألك أن تغفر لي ولوالدي -وذلك قبل أن يأمره الله بالبراءة من الشرك والمشركين مهما كانت قرابتهم-، وأن تغفر للمؤمنين الذين صدقوا ما جاءت به الرسل فآمنوا وعملوا الصالحات، اللهم اغفر لنا جميعًا يوم الجزاء والحساب، يومَ الدين.

[٤٢] يسلي جل وعلا نبيه ﷺ والمؤمنين المضطهدين في مكة، فقال: ولا تحسبن يامحمد أن الله غافل عمّا يعمل هؤلاء الظالمون من تكذيبك وتكذيب الأنبياء قبلك، وإيذاء المؤمنين، إنما يؤخرهم ليوم القيامة ذلك اليوم الذي تشخص فيه الأبصار من شدّة الأهوال وكثرتها.

والمقصود: أن لا يظن أحد أن إمهال المسيئين أو المشركين عن غفلة أو نسيان، وإنما ليزدادوا إثمًا؛ فيأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أو يؤخر عقوبتهم لليوم الذي تذهل فيه كل والدة عمّا ولدت، وتضع كل ذات حمل حملها من فظاعته وشدته.

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

[٤٣] وهؤلاء الظالمون يخرجون يوم القيامة من قبورهم مسرعين لإجابة الداعي في ذلة وانكسار؛ رافعين رؤوسهم، وأبصارهم شاخصة، وأفئدتهم خالية فارغة لا عقل ولا شيء فيها من الفزع وشدّة هول الموقف.

[٤٤] وأنذر يانبيَّ الله الناس الذين أرسلت إليهم عذاب يوم القيامة، قبل أن يقول الذين ظلموا أنفسهم بالكفر: ياربنا أعطنا فرصة إلىٰ وقت قريب لنتوب، ونؤمن بك ونصدق رسلك، ونصحح أعمالنا، فيقال لهم توبيخًا: أعطيتكم فلم تستجيبوا؛ بل أقسمتم ما لكم من انتقال عمّا كنتم عليه في حياتكم الدنيا.

وهذا فيه تعزية للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، وتحذير وزجر للمجرمين.

[٤٥] يهدد سبحانه الظالمين فيقول لهم: وسكنتم أيها الظالمون في منازل الكافرين قبلكم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والجحود كقوم هود وصالح، وقد رأيتم ما حل بهم من الهلاك والعذاب والدمار، وضربنا لكم الأمثال الواضحة البينة ومع ذلك لم تعتبروا ولم تتعظوا.

[٤٦] ذكر جل وعلا بغي الكفار وتآمرهم علىٰ قتل الرسول ﷺ؛ حيث دبروا له جميع أنواع الكيد من قتل وحبس وإخراج، ولكن الله كان لهم بالمرصاد، فأبطل كيدهم وأحبط مكرهم، ولو كان مكرهم عظيمًا شديدًا لا تتحمله الجبال؛ لأنه لم يتجاوز مكر أمثالهم ممن دمرناهم من الأمم السابقة؛ بل عاد كيدهم علىٰ أنفسهم.

[٤٧] وعد جل وعلا رسله بالنصر والتمكين، فقال: لا تحسبن يانبي الله أن الله يخلف رسله ما وعدهم به من نصرتهم في الحياة الدنيا، وإهلاك أعدائهم المكذبين الظالمين، واعلم أن الله عزيز لا يمتنع عليه شيء، ينتقم من أعدائه أشد الانتقام.

[٤٨] واعلموا أن هذا الانتقام للظالمين يكون يوم القيامة، يوم أن تسوىٰ الأرض، ويتغير شكلها، فلا يكون فيها ارتفاع ولا انخفاض؛ حتىٰ تصير كأنها قاعٌ صفصفٌ، لا ترىٰ فيها عوجًا ولا أمتًا، وتُخرِج أثقالها؛ وأيضًا تخرج الخلائق من قبورها؛ ويظهر معهم ما كانوا يكتمون من أعمالهم.

والمقصود: أنها تُعد إعدادًا صالحًا للبقاء السرمدي بعد البعث، ثم بين سبحانه أن الخلائق يبرزون للقاء الله الواحد القهار، المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله. وقد قيل في قوله (يوم تبدل)، أي: تغير ذاتها، وقيل: ينقصها ويعيد شكلها.

[٤٩-٥٠] وترىٰ يانبي الله وتبصر الذين أجرموا في حق الله جل وعلا بالشرك في ذلك الموقف الرهيب، وقد جُمع بعضهم إلىٰ بعض، وجُمعت أيديهم وأرجلهم إلىٰ أعناقهم ورُبِطت بالسلاسل، وهم في غاية الذلِّ والهوان. وأن ثيابهم – وهم في هذه الحالة – من قطران سريع الاشتعال، شديد الحرارة، مُنتِن الريح، وتغطي وجوههم نار جهنم فتغشاها وتصلاها فتحرقها، نسأل الله السلامة والعافية.

[٥١] واعلموا أن هذا الجزاء من الله لأعدائه المجرمين بما كسبوا من الذنوب والمعاصي والآثام في الدنيا، لأن الله جل وعلا يجازي كل نفس بما عملت في دنياها، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ، وهو سبحانه يحاسب الجميع في وقت سريع فلا يشغله حساب عن حساب ولا أمر عن أمر.

[٥٢] ذكر جل وعلا أن هذا القرآن أنزله علىٰ نبيه ﷺ لإبلاغ الناس وإعلامهم وإنذارهم؛ وليعلموا علم اليقين أن الله هو الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو؛ فيعبدوه وحده لا شريك له، وفيه لأصحاب العقول السليمة والفطر القويمة ما يتعظون به ويعتبرون.



سُورَةُ الحِجْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

سورة الحجر

سورة الحِجْرِ مكيّة وآياتها تسع وتسعون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

ثم أخبر جل وعلا أن هذا القرآن العظيم كتاب شامل كامل يحتوي علىٰ آيات واضحة بَيِّنَةِ المعاني، ومُظهِرٌ في تفاصيله جميع الأحكام التي يحتاجها البشر، وهو كتاب فرَّق الله به بين الحق والباطل.

[٢] ثم أخبر جل شأنه أن جميع الكفار سوف يتمنون يوم القيامة لو كانوا مسلمين من شدة ما يرون من أهوالها.

قال بعض المفسرين: إن الكفار وهم في النار إذا رأوا الذين معهم من أصحاب المعاصي قد تطهروا من ذنوبهم ثم خرجوا من النار قال لهم الذين كفروا: ليتنا كنّا مسلمين، والآية تحتمل الجميع.

[٣] ثم أمر عز وجل نبيه ﷺ أن يترك هؤلاء الكفار يتمتعون بهذه الحياة الفانية؛ فيأكلون ويشربون ويلعبون ويلهون، ويلههم الأمل؛ فسوف يعلمون يوم القيامة حقيقة أمرهم وما هم عليه من الباطل، وأنَّ باطلهم هو الذي ألهاهم عن الآخرة والاستعداد لها، وفي هذا تهديد ووعيد شديد لهم.

[٤] واعلم يانبي الله أن الله جل في علاه ما أهلك قرية من القرىٰ الكافرة المستحقة للهلاك؛ إلا لمَّا حان أجلهم، وجاء وقتهم المحدد لهم في اللوح المحفوظ.

[٥] ثم أخبر سبحانه أنه ما كان لأمة من الأمم ولا لقرية من القرىٰ أن تسبق أجلها الذي حدده الله لها، أو تتأخر عنه، ولو لساعة.

[٦] ثم أخبر جل وعلا أن الكفار المكذبين للنبي ﷺ يقولون علىٰ وجه الاستهزاء والسخرية: ياأيها الذي أنزل عليه القرآن كما تزعم: إنك لفاقد لعقلك، ومصاب بالجنون، ولا تدري ما تقول.

[٧] ثم قال هؤلاء الكفار: فإن كنت صادقًا فَأْتِنَا بالملائكة حتىٰ تشهد لك، وتصدقك فيما تقول.

[٨] فرد المولىٰ عز وجل علىٰ هؤلاء المعاندين، بأن الملائكة لا ينزلون بالاقتراحات ولا بالأمنيات؛ إنهم لا ينزلون إلا لإحقاق الحق وإبطال الباطل بأمر ربهم، ثم بين سبحانه أنه لو نزَّل عليهم الملائكة -كما طلبوا- ثم لم يؤمنوا لعجل لهم بالعقوبة ولمَا أمهلهم كالأمم السابقة؛ حيث طلبوا المعجزات ثم لم يؤمنوا فحلّت بهم العقوبة.

[٩] ثم ذكر سبحانه وتعالىٰ فضله علىٰ أمة محمد ﷺ؛ بحيث نزَّل عليهم الذكر وهو القرآن العظيم، وتعهد بحفظه من التغيير والتبديل والزيادة والنقصان، وهذا الحفظ خاصّ بالقرآن، أما الكتب السماوية الأخرىٰ فقد وُكِّلَ حفظها لِمَن آمن بها من الأمم السابقة، كما قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ** ﴾[المائدة:٤٤]، أي: بما طُلِبَ منهم حفظه؛ فعبثوا به وبدّلوا وزادوا ونقصوا حسب رغباتهم وأهوائهم.

[١٠] ثم سلىٰ جل وعلا نبيه ﷺ فأخبره أنه أرسل كثيرًا من قبله من الرسل إلىٰ أقوامهم وجماعاتهم وفرقهم، يدعونهم إلىٰ التوحيد.

[١١] وأخبره سبحانه أن هؤلاء الأقوام ما جاءهم من رسول يدعوهم إلىٰ التوحيد إلا كذَّبوه واستهزأوا به، وهذا هو دأب جميع الأقوام مع رسلهم.

[١٢] ثم بين جل في علاه أنه كما سلك كتب الرسل السابقين في قلوب أولئك المستهزئين حتىٰ فهموه ثم كفروا؛ فسوف يسلك سبحانه هذا القرآن في قلوب هؤلاء المجرمين من قومك يانبي الله؛ فيفهمونه ويدركون معانيه، ومع ذلك يصرون علىٰ كفرهم وعنادهم وجحودهم.

[١٣] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن هؤلاء المجرمين لن يؤمنوا بهذا القرآن ولن يصدقوا بهذا النبي حتىٰ يأتيهم العذاب، وقد مضت سنّة الله وعادته بإهلاك الظالمين المعاندين؛ فإذا استمر قومك يانبي الله علىٰ التكذيب والعناد فسوف يصيبهم ما أصاب المكذبين من الأمم السابقة.

[١٤] ثم أخبر جل وعلا أن كفار مكة وصلوا مرحلة بعيدة من التكذيب والاستهزاء والعناد؛ بحيث إنهم لو فُتح لهم باب إلىٰ السماء وصعدوا بأنفسهم، ورأوا بأعينهم آيات الله الدالة علىٰ وحدانيته؛ لكذّبوا وأصروا علىٰ الكفر والعناد.

[١٥] بل أخبر سبحانه أنهم سيقولون: إنَّ علىٰ أعيننا غطاء وغشاوة، ولم نتحقق مما نراه بسبب سحر محمد إيانًا.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾

[١٦] يخبر جل وعلا أنه جعل في السماء بروجًا، وهذه البروج هي: منازل القمر والشمس التي تحدد فصول السنة صيفًا وشتاءً، وهي: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وجعل في هذه السماء نجومًا وهي علامات يُهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، ويعرف الناس بها عدد السنين والحساب، وبين جل شأنه أنه زين هذه السماء بهذه النجوم وجعلها جميلة في عين الناظر لها.

[١٧] ثم أخبر سبحانه أنه حفظ هذه السماء ومنعها من كل شيطان ملعون مرجوم مطرود من رحمة الله.

[١٨] ثم أخبر سبحانه أن تلك الشياطين التي تحاول الاستماع للوحي فهذه يدركها شهاب سريع واضح مضيء فيحرقها غالبًا.

[١٩] ثم أخبر جل وعلا أنه فرش الأرض ومهدها وبسطها ووسعها، ووضع فيها جبالًا عظيمة كبيرة تثبّتها وترسّيها لئلا تضطرب وتتحرك، وأخرج من هذه الأرض الزروع والأشجار التي منها طعام الناس والحيوان، وكل ذلك بقدْر معلوم، وكمية محسوبة.

[٢٠] ثم أخبر سبحانه أنه يسّر للناس المعيشة علىٰ هذه الأرض، وسهل لهم أنواع المكاسب والمأكولات والمشروبات، كما يسّر لهم من ينتفعون بخدمتهم، ولم يجعل رزق ذلك عليهم؛ بل تكفل سبحانه برزقهم وتولي أمرهم.

[٢١] واعلموا أيها الناس أنه ما من شيء من الأرزاق والمنافع والأسباب والحاجات إلا خزائنها بيد الله وحده، وخزائن الرحمن ملأىٰ لا تغيضها ولا تُنقِصها النفقة، يعطي من يشاء بلطفه ورحمته، ويمنع من يشاء بعدله وحكمته، وما ينزّل سبحانه شيئًا من ذلك إلا بقدر معلوم محدد، لا زيادة فيه ولا نقص.

[٢٢] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل الرياح لتلقح السحاب والأشجار؛ فهي تحمل اللقاح من الذكر للأنثىٰ فينزل المطر بإذن الله؛ فيشرب منه الناس والأنعام، وتحيا به الأرض فتخرج الثمار والزروع والأشجار، واعلموا أنكم لستم بقادرين علىٰ تخزين هذا الماء، وإنما الله هو الذي يخزنه ويحفظه لكم رحمة بكم.

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: هذه أطول كلمة في القرآن.

[٢٣] ثم أخبر جل في علاه أنه هو الذي يحيي ويوجد الخلق من العدم، وأنه هو الذي يفنيهم ويميتهم بعد الحياة، وأنه هو الذي يرث الأرض ومن عليها بعد فناء الخلق أجمعين.

[٢٤] ثم أخبر جل شأنه أنه هو وحده الذي يعلم أحوال خلقه أجمعين من تقدم منهم ومن تأخر، ومن مضىٰ ومن سيأتي إلىٰ يوم القيامة. قال الحسن: المستقدمين في الطاعات والمستأخرين فيها.

[٢٥] ثم أخبر جل وعلا أن مرجع هؤلاء جميعًا إلىٰ الله يجمعهم جميعًا في صعيد واحد يوم القيامة؛ ليحاسبهم علىٰ أعمالهم، وإنه سبحانه حكيم يضع الأمور في مواضعها، عليم لا يخفىٰ عليه شيء من أمور الخلق، وذلك هو المقصود من الحشر.

[٢٦] ثم أخبر جل شأنه أنه خلق أبانا آدم من طين يابس قد تخمّر فأصبح له صوت كصوت الفخار إذا نُقر عليه، ولون هذا الطين أسود قد تغيّر لونه وريحه من طول مكثه.

[٢٧] وأخبر سبحانه أنه خلق أبا الجن، وهو إبليس – قبل خلق آدم –، وبين أنه خلقه من لهب نار صافية شديدة الحرارة، وسُمِّي: جانًّا؛ لأنه لا يُرىٰ في الدنيا علىٰ صورته التي خلقه الله عليها.

[٢٨] واذكر يانبي الله يوم أن قال ربك للملائكة: إني خالق بقدرتي إنسانًا من طين يابس، وهذا الطين مكث الماء فوقه زمانًا حتىٰ تغير شكله وريحه.

[٢٩] ثم قال جل وعلا للملائكة: فإذا اكتمل خلق هذا الإنسان وهو آدم عليه السلام ونفخت فيه من روحي، فيجب عليكم أن تخرُّوا له ساجدين.

[٣٠] ثم أخبر سبحانه أن جميع الملائكة سجدوا امتثالًا لأمر الله لهم، وتكريمًا لآدم، وهذا السجود سجود احترام وتكريم وليس سجود عبادة؛ لأن سجود العبادة لا يصلح إلا لله وحده.

[٣١] وبين سبحانه أن إبليس رفض أن يسجد استكبارًا وحسدًا لآدم. وَأَمْرُ الله للملائكة وإبليس بالسجود كان في وقت واحد، كما قال تعالىٰ لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢]؛ فامتثلت الملائكة الأمر، أما إبليس فأخذته العزة بالإثم، ورأىٰ أن آدم أقل شأنًا منه، وغرته نفسه ونسي تقديس الآمر جل وعلا ووجوب طاعته.

قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨ ۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٥١

[٣٢] ثم قال الله جل في علاه: لماذا لم تسجد ياإبليس مع الملائكة؟

[٣٣] فقال إبليس تعظيمًا لنفسه وحسدًا لآدم: أنا أعلىٰ من أن أسجد لبشر خُلِقَ من طين يابس أسود نتن.

[٣٤] فقال الله آمرًا إبليس: اخرج من الجنَّة فإنك مطرود من رحمتي.

[٣٥] واعلم ياإبليس أن عليك اللعنة والطرد والإبعاد إلىٰ يوم الحساب والجزاء، وهكذا باء بخزي الدنيا وعذاب الآخرة، والطرد من الجنة، ولعنة الله وسخطه.

[٣٦] ثم طلب إبليس من الله البقاء إلىٰ يوم البعث، فقال: يارب أجلني إلىٰ اليوم الذي يبعث فيه آدم وذريته، وهو اليوم الذي يبعث فيه الناس للحساب والجزاء، يريد بذلك أن لا يموت.

[٣٧] فأجاب جل وعلا طلبه وقال له: فإنك من المؤجلين.

[٣٨] ولكن أخبر سبحانه أنه لم يؤجل إبليس إلىٰ يوم البعث، وإنما أرجأه إلىٰ يوم الوقت المعلوم، وهو يوم القيامة الذي يموت فيه جميع الخلق إنسهم وجنهم وكل ما علىٰ الأرض، وذلك لحكم قدرها الله، منها: أن يميز الله عباده فيظهر الخبيث والطيب؛ ولذلك بعث الله رسله ليقتدي بهم السعداء، وأما الأشقياء فيتبعون الأبالسة.

[٣٩] ثم احتج إبليس بقضاء الله وقدره الكوني علىٰ غوايته، وأخذ العهد علىٰ نفسه أن يزين لهم الذنوب والمعاصي في الدنيا بأن يحسِّن لهم القبيح، ويحبب الشهوات إلىٰ نفوسهم حتىٰ يتبعوها. والباء في قوله: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾، إما أن تكون باء القسم فهو يحتج علىٰ الله ويريد الانتقام من آدم وبنيه، أو تكون باء السببية، وفي كلا الأمرين نصَّب نفسه وكرَّس حياته المديدة لإغواء البشر.

[٤٠] ثم أدرك الخبيث أنه لا يمكن له إغواء عباد الله الربانين الموحدين الذين حفظهم الله بحفظه؛ فاستثنىٰ من الإغواء عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا أعمالهم لله وحده.

[٤١] ثم قال جل وعلا: اعلم ياإبليس أن طريق الهداية والإيمان الموصل إلىٰ جنتي مرجعه إليَّ، ويوم القيامة سوف أجازي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٤٢] واعلم ياإبليس أيضًا أن عبادي الصالحين المخلصين ليس لك عليهم ولاية ولا سبيل، أما مَن غلبت عليه نفسه واتبع الهوىٰ والشيطان والضلال فهو خارج من رحمة الله وعصمته.

[٤٣] ثم توعد جل وعلا إبليس ومن تبعه وأطاعه أن مصيرهم سيكون نار جهنم الحارقة، الشديدة الحرارة.

[٤٤] وبين سبحانه أن جهنم لها سبعة أبواب، كل باب أسفل من الآخر، ولكل باب مجموعة من أتباع إبليس تدخله، مقسوم ومحدد لهم بحسب أعمالهم ودركاتهم.

[٤٥] ثم أخبر جل وعلا عن حال عباده المتقين الموحدين الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وناره وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ أنهم في جنات وبساتين خضراء يانعة تجري من تحتهم الأنهار والعيون في مناظر بديعة جميلة.

[٤٦] ثم بين سبحانه أنه يقال لهم حال دخولهم: ادخلوا هذه الجنات وأنتم سالمون من كل كدر ومنغِّص كالموت والمرض والفقر، وآمنين من كل عذاب وخوف.

[٤٧] وبين سبحانه أنه أخرج من قلوب عباده المتقين كل حقد أو عداوة؛ فَصَفَتْ قلوب بعضهم علىٰ بعض، فليس بينهم عداوة ولا بغضاء ولا شحناء، فصاروا إخوة يزور بعضهم بعضًا، ويتسامرون وهم جلوس علىٰ مجالس رفيعة متقابلين ينظر بعضهم إلىٰ بعض للمحادثة والمؤانسة.

[٤٨] ثم بين سبحانه أنه لا يصيبهم في الجنة تعب ولا إعياء ولا هَمٌّ ولا حَزَن؛ فهم في نعيم أبدي تامٍّ، خالدين فيها خلودًا أبديًّا لا يخرجون منها.

[٤٩] أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يخبر الناس خبرًا يقينيًّا لا شكَّ فيه؛ أنه سبحانه كثير المغفرة لِمَن وحَّد وتاب، وكثير الرحمة لمن رجع وأناب.

[٥٠] وأمره سبحانه أن يخبرهم أن عذابه لمن أشرك به وعصاه عذابٌ شديدٌ موجعٌ، لا يتحمله أحد، فليحذر المؤمن وليخاف علىٰ نفسه، وليَعِشْ بين الخوف والرجاء والعمل الصالح حتىٰ ينجو.

[٥١] ثم أمره سبحانه وتعالىٰ أن يخبر قومه عن قصة ضيوف إبراهيم عليه السلام، وهم ملائكة أتوه علىٰ صورة بشر.

إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢ قَالُواْ
لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن
مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ
فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ
رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ
٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ
إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ
يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ
بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ
وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ
دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ
يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠

[٥٢] فلمّا دخل الضيوف علىٰ إبراهيم قالوا له: سلامًا، فرد عليهم السلام، ثم قدم لهم طعام الضيافة ولمَّا رآهم لا يأكلون منها قال لهم: إنا منكم فزعون خائفون.

[٥٣] فقال الضيوف لإبراهيم: لا تخف ولا تفزع، ثم طمنوه وبشروه بغلام كثير العلم.

[٥٤] فقال لهم متعجبًا: أتبشروني بالولد وقد كبر سني؟! فكيف يكون هذا مع عدم توفر أسبابه؟!

[٥٥] فأجابوه: لقد بشّرناك ببشرىٰ حق وحقيقة، فلا تيئس ولا تستبعد حصول ذلك الخير لك من الله فقدرته لا تحد.

[٥٦] فأجابهم قائلًا: إنه لا ييأس من رحمة الله وفضله وإحسانه إلا من ضل طريق الصواب، وغفل عن رحمة الله الكريم التواب.

[٥٧] ولمَّا اطمأن إبراهيم عليه السلام إلىٰ أضيافه وهدأ خوفه سألهم عن مهمتهم الكبرىٰ التي أتوا لأجلها؛ لأن البشارة وإن كانت مهمة إلا أنها من الممكن أن تأتي برؤية منامية كما في قصة إسماعيل.

[٥٨] فقالوا له: إن الله أرسلنا إلىٰ إهلاك قوم لوط المشركين الضالين، الذين يفعلون فاحشة اللواط الشنيعة.

[٥٩] ثم استثنوا لوطًا عليه السلام وأهله المؤمنين به من هذا الإهلاك؛ وقالوا: إنا سوف ننجيهم أجمعين.

[٦٠] ثم قال الملائكة: أما زوجته لوط المنافقة فقد أمرنا الله بإهلاكها، وسوف يصيبها ما يصيب هؤلاء الهالكين.

[٦١] ثم أخبر سبحانه أن الملائكة انتقلوا من عند إبراهيم وذهبوا إلىٰ لوط عليهما السلام.

[٦٢] ثم بين جل شأنه أن الملائكة لمَّا جاءوا إلىٰ لوط عليه السلام قال لهم: إنكم قوم غرباء؛ لم أعرفكم، فما تريدون؟ وكان عليه السلام يتحدث معهم بأسلوب يوحي أنه متضايق لأنه خاف علىٰ هؤلاء الأضياف حسان الوجوه من قومه الضالين أصحاب هذه الفاحشة المنكرة، وقد صرح القرآن بهذا الضيق، في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾[هود:٧٧].

[٦٣] فقال الملائكة للوط عليه السلام: إننا يالوط رسل من عند الله، وقد جئنا قومك بالعذاب الذي كانوا يشكّون فيه ويكذّبونه.

[٦٤] ثم قالوا له أيضًا: كما أننا أتيناك من عند الله بالحق الذي لا هزل فيه، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به.

[٦٥] ثم قال الملائكة للوط: فإذا أظلم الليل يالوط فاخرج بأهلك ومن معك من المؤمنين، واجعلهم أمامك، وكن خلفهم لئلا يتخلف أو يتلكأ منهم أحد فيصيبه العذاب، فإذا خرجتم فلا يلتفت منكم أحد لكي لا يصيبه الرعب من رؤية هول ما يحل بهم، وسيروا مسرعين إلىٰ حيث أمركم الله.

[٦٦] ثم أخبرت الملائكة لوطًا عليه السلام خبرًا جازمًا أن العذاب سيُصبِّح قومه مُسْتأصِلًا إياهم.

[٦٧] ولمّا علم أهل المدينة التي يسكنها لوط عليه السلام بمقدم ضيوفه؛ جاؤوا مسرعين مستبشرين فرحين، طامعين في فعل الفاحشة بأضيافه.

[٦٨] فقال لهم لوط عليه السلام مدافعًا ومنافحًا عن أضيافه: ياقوم إن هؤلاء ضيوفي، فلا تؤذوني فيهم، ولا تذلوني بفعل المنكر معهم.

[٦٩] ثم قال لهم لوط عليه السلام: وإذا لم يكن عندكم شهامة ونخوة ومعرفة لحق الضيف، فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، بأن تكفوا عن إرادتكم هذا المنكر، ولا تجعلوني ممن لحقهم الخزي والعار بسبب عدم حفظي لأضيافي.

[٧٠] فأجابوه قائلين: ألم يسبق أن أنذرناك ونهيناك يالوط عن استضافة أحد من العالمين؟!



قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ
يَعۡمَهُونَ ٧٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا
سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨
فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ
٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ
ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤
وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٦ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي
وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا
مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ وَقُلۡ
إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠

[٧١] ثم قال لهم لوط: هؤلاء بناتي -وقيل: نساء قومي- فتزوجوهن بالحلال، ولا ترتكبوا الحرام، إن أردتم قضاء وطركم.

[٧٢] ثم أقسم جل وعلا بحياة محمد ﷺ فقال: اقسم لك يانبي الله أن قوم لوط في سكرة الشهوة والضلال، وأنهم في حيرة وضلال وتردد. قال ابن عباس: «ما خلق الله تعالىٰ نفسًا أكرم علىٰ الله من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره»، وربما كان قصده من البشر، ولست أدري ما الذي اعتمد عليه في كلامه؛ لأن الله أقسم بنفسه وأقسم بمخلوقاته، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ [التين:١]، وقال: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس:١]، وغيرها من الآيات، وله الحق سبحانه أن يقسم بما شاء.

[٧٣] ثم أخبر سبحانه أنه حلّت بقوم لوط صيحة عالية مهلكة وقت شروق الشمس.

[٧٤] ثم أخبر أن الملائكة قلبت عليهم مدينتهم ظهرًا علىٰ بطن، وأمطرت الملائكة - بأمر الله - عليهم حجارة من طين متحجر عليها سمة العذاب تتبع من فرَّ منهم فتهلكه. وقيل: مكتوب علىٰ كل حجر اسم من ستهلكه.

[٧٥] واعلموا أيها الناس أن فيما مرَّ من قصة قوم لوط وعنادهم وتكذيبهم وارتكابهم أشنع السيئات، ثم في إهلاكهم وأخذهم بالعذاب لآيات وعلامات واضحات يعتبر بها كل متأمل ومتفكر وصاحب فراسة.

[٧٦] واعلموا أيضًا أن قرىٰ قوم لوط ومساكنهم التي أهلكهم الله فيها لعلىٰ طريق قائم يراها السالكون الذين يمرون بها.

[٧٧] ثم عاد سبحانه وأخبر أن في هذه القصة لآيات وعلامات واضحات للمؤمنين المصدقين الموحدين يعتبرون بها.

[٧٨] ثم ذكر جل وعلا أصحاب الأيكة الذين أرسل إليهم شعيبًا عليه السلام كما أرسله إلىٰ قومه أصحاب مدين، وأغدق عليهم أنواع النعم، ومع ذلك لم يؤمنوا؛ حيث أخبر سبحانه أنهم كانوا ظالمين؛ فكانوا يطففون المكيال والميزان، ويظلمون الناس فلا يعطونهم حقوقهم.

[٧٩] ثم أخبر سبحانه أنه انتقم منهم فأهلكهم بالصيحة، وأخبر أن مساكنهم ومساكن قوم لوط الدالة علىٰ قصصهم مع أنبيائهم لباقية علىٰ طريق قائم واضح يسلكه المسافرون من الجزيرة والشام.

[٨٠] ثم أخبر سبحانه عن أصحاب الحِجْر وهم ثمود قوم صالح عليه السلام، فأخبر الله عنهم أنهم كذّبوا المرسلين، ومن كذّب برسول واحد فقد كذّب بجميع المرسلين.

[٨١] وأخبر سبحانه أنه أعطاهم الآيات والمعجزات الدالة علىٰ صحة ما جاءهم به صالح من التوحيد وترك الشرك، ومن جملة ذلك: الناقة؛ فأعرضوا عنها وتجبروا وتكبروا عليها، وعقروا الناقة، ولم يوحدوا، واستمروا علىٰ شركهم.

[٨٢] وأعطاهم سبحانه قدرة عجيبة علىٰ نحت الجبال، واتخاذ مساكنَ فيها، يكونون فيها آمنين شتاءً من البرد، وصيفًا من الحر، ويكونون فيها مطمئنين، وقيل: إنهم كانوا ينحتون في الجبال قبورهم ويتخذون من سهل الأرض قصورًا لسكناهم.

[٨٣] ثم بين سبحانه أنه لمّا لم يؤمنوا أهلكهم بالصيحة مبكرين، فسقطوا صرعىٰ في ديارهم جاثمين.

[٨٤] وبين سبحانه أنه لم ينفعهم ولم يغن عنهم ما كانوا يكسبون من نحت الجبال بيوتًا، ولا اتخاذ القصور الفخمة، ولا غير ذلك.

[٨٥] ثم أخبر جل وعلا أن خلق السماوات والأرض لم يكن عبثًا، وأنه ما خلقهما إلا بالحق، وهو كونهما تدلان علىٰ وحدانيته وقدرته، واستحقاقه صرف العبادة له وحده دون ما سواه، وإن الساعة التي يحاسب الناس فيها علىٰ أعمالهم؛ لآتية حقًّا ويقينًا، فاصفح يانبي الله صفحًا جميلًا لا أذيَّة فيه، واعف عنهم عفوًا كريمًا.

[٨٦] واعلم يانبي الله أن ربك هو الخلاق الذي خلق كل شيء، وأنه العليم بكل شيء.

[٨٧] ثم أخبر سبحانه أنه أعطىٰ نبيه ﷺ السبع المثاني، وأعطاه هذا القرآن العظيم، وهذا امتنان وتفضل منه جل وعلا علىٰ نبيه صلوات الله وسلامه عليه. والسبع المثاني فيها قولان: **أحدهما**: وهو قول كثير من العلماء والمفسرين أنها سورة الفاتحة. **والثاني**: أنها السور السبع الطوال التي في أول القرآن.

[٨٨] ثم وجَّه جل وعلا رسوله ﷺ وعباده المؤمنين أن لا ينظروا ولا يعجبوا بشهوات الدنيا وأصناف النعم التي متع الله بها المشركين، وأن لا يحزنوا علىٰ كفرهم وجحودهم، ثم أمرهم سبحانه أن يتواضعوا لعباد الله المؤمنين الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله الأمين ﷺ.

[٨٩] وقل يانبي الله لقومك: إني أنذرتكم عذاب الله، وقد بينت لكم حقيقة التوحيد بيانًا واضحًا لا لبس فيه ولا خفاء.

[٩٠] وقل لهم: لا تكونوا كاليهود والنصارىٰ الذين قسّموا كتابهم، وتحزبوا فرقًا، وأخذ كل فريقٍ من الدين ما يناسب هواه وتعصب لذلك.

[٩١] واحذروا يامن فعلتم فعل اليهود والنصارىٰ وفرقتم القرآن وجعلتموه أقسامًا وأجزاءً؛ حيث إن منكم من قال: إنه سحر، ومنكم من قال: إنه كهانة؛ فسوف يحل بكم سخط الله وعقابه كما حل بمن قبلكم من اليهود والنصارىٰ الذين قسموا كتابهم علىٰ حسب أهوائهم ورغباتهم، وأنهم كانوا يؤمنون ببعض ولا يؤمنون ببعض.

[٩٢] ثم أقسم جل وعلا لنبيه ﷺ أنه لن يترك هؤلاء المشركين والمكذّبين والمستهزئين؛ بل ليسألنهم جميعًا يوم الجزاء والحساب.

[٩٣] ثم بين سبحانه أنه سيسألهم عن كل ما فعلوا من تكذيب وإعراض واستهزاء وأذية. [٩٤] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يجهر بما أمر به من الدعوة إلىٰ التوحيد، وترك الشرك والتنديد، وأن يظهر دينه، ولا يبالي بالمشركين. [٩٥] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أنه قد كفاه وحفظه من هؤلاء المستهزئين ومن استهزائهم.

[٩٦] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المستهزئين هم الذين يشركون مع الله آلهة أخرىٰ، وبين أنهم سوف يعلمون عاقبة استهزائهم وإشراكهم، وذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم. وهذا عام في كل من استهزأ برسول الله ﷺ، أو بما أنزل عليه؛ سواء في حياته أو بعد مماته ﷺ.

[٩٧] ثم يسلّي جل وعلا رسولَه ﷺ ويصبِّره علىٰ احتمال الأذىٰ من المشركين، وأنه سبحانه يعلم بأن صدره يضيق وينقبض حزنًا من أقوالهم واستهزائهم، ورميه بالكذب والسحر والجنون، ويضيق صدره من مبالغتهم في كفرهم وعنادهم وتكذيبهم القرآن.

[٩٨] ثم ختم سبحانه السورة بإرشاد نبيه ﷺ إذا فزع وضاق صدره من أفعال وتصرفات قومه أن يسبح بحمد ربه شاكرًا له ومثنيًا عليه؛ فإن التسبيح ينجي من الهم والغم والخوف والحزن، ثم أمره بكثرة الصلاة فإن ذلك يكفيه ما أهمه.

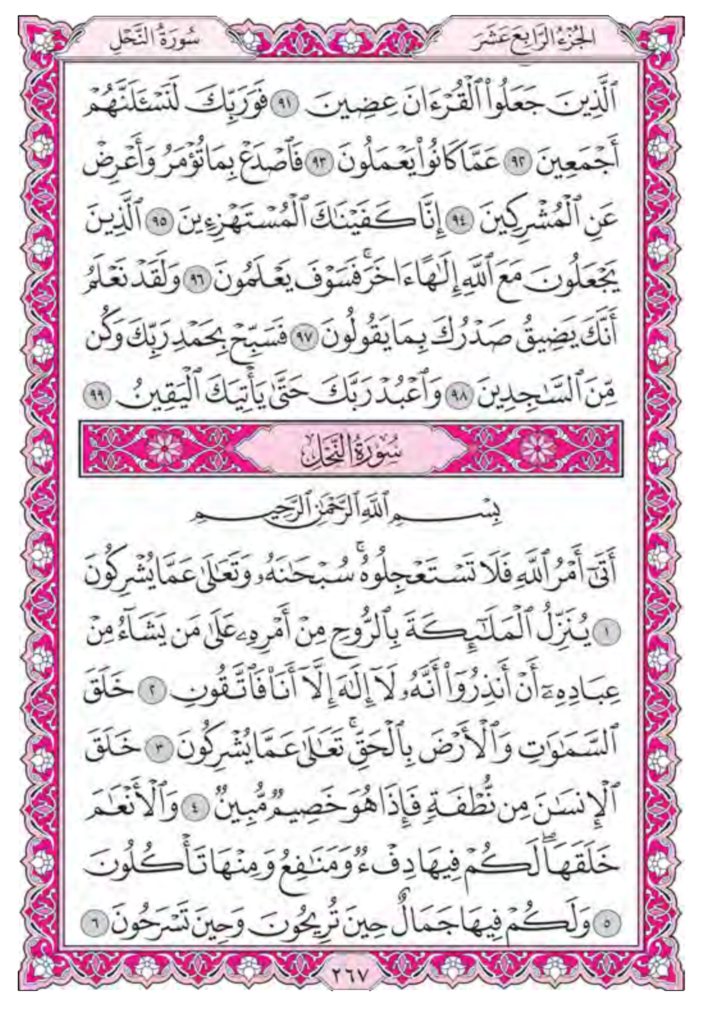
[٩٩] ثم أمره أن يستمر في عبادة ربه، وأن يستكثر مما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأنواع العبادات والقربات؛ حتىٰ يحين أجله، ويأتيه الموت.

سورة النّحل

سورة النحل مكيّة وآياتها ثمان وعشرون ومائة آية، وهذه السورة سماها شيخ الإسلام ابن تيمية: سورة تعداد نِعَم الله.

[١] بدأت السورة ببيان أن يوم القيامة آتٍ لا محالة في الوقت المحدد الذي يعلمه هو، فلا تستعجلوه أيها المشركون، وفي ذلك تسلية للمؤمنين بالنصر والثواب، وإهانة الكافرين بالخسران والعقاب، ثم نزه سبحانه وتعالىٰ نفسه عن إشراك المشركين. وقد عبر بالفعل الماضي فقال: ﴿أَتَىٰٓ﴾ تأكيدًا لإتيانه في المستقبل القريب، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ﴾ بهذه الصفة إجابة للكفار من قريش الذين استعجلوا العذاب، وقالوا للرسول ﷺ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ [ص:١٦]، وقال تعالىٰ عنهم: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[العنكبوت:٥٤].

[٢] ثم أخبر جل وعلا أنه ينزِّل الوحي علىٰ من يختار ويصطفي


الجزء الرابع عشر — سورة الحجر

ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩

سُورَةُ النَّحۡلِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦

٢٦٧

من عباده عن طريق جبريل عليه السلام، ثم بين سبحانه أن القضية الأساسية التي بُعث من أجلها هؤلاء الرسل: هي قضية الأمر بالتوحيد، والنهي والنذارة عن الشرك؛ فعلىٰ جميع الخلق أن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية؛ بتوحيده وفعل أوامره، وترك الشرك واجتناب المعاصي.

[٣] ثم أخبر سبحانه أنه خلق الأجرام السماوية والأرضية بالحق الذي اقتضته حكمته، وللدلالة علىٰ قدرته وعظمته؛ ولأن مصالح عباده اقتضت ذلك، فتنزّه سبحانه وتعاظم بذاته وصفاته عن العبث.

[٤] ثم ذكر جل وعلا أنه خلق الإنسان من نطفة، ثم بعد تدرجه في مراحل النمو أصبح خصيمًا مبينًا، ومناضلًا مجادلًا، يدلي بالحجج، وهذا إثبات لعظمته وقدرته وحكمته، فسبحان من أحسن كل شيء خلقه.

[٥] ثم بين جل شأنه أن هذه الأنعام التي تحت أيديكم من إبل وبقر وغنم، خلقها الله لكم، ويسّر لكم عن طريقها منافع كثيرة، ومن ذلك: أنكم تتخذون من أصوافها وأوبارها ملابسَ تستدفئون بها في البرد الشديد، وتصنعون منها الأثاث والمساكن، وتنتفعون بركوبها واستخدامها في الحرث، وتنتفعون أيضًا بنتاجها مما تلد، ومما يخرج منها من اللّبن ومشتقاته، وتأكلون من لحمها الطيب.

[٦] ثم بين سبحانه أن لكم في هذه الأنعام جمالًا وزينة تسرّ الناظرين في ركوبها حين تسريحها إلىٰ مراعيها صباحًا، وحين ردِّها إلىٰ منازلها مساء.

وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤

[٧] ثم أخبر سبحانه أن من جملة منافعها: أنها تحملكم وتحمل ما ثَقُل من متاعكم وبضائعكم إلىٰ البلاد البعيدة، ولولا تسخير الله لها لمَا بلغْتم تلْكُم البلاد إلا بتعب شديد، ومشقة بالغة، ولكن الله ذللها وسخرها لكم لأنه رؤوف بعباده رحيم بهم.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق لكم الخيل والبغال والحمير لتنتفعوا بها؛ فتركبوها أحيانًا، وتتخذوها للزينة أحيانًا أخرىٰ، ثم بين سبحانه أنه يخلق غير ذلك مما يركبه الإنسان وينتفع بجماله في البر والبحر والجو مما لا تعلمونه الآن، ومن ذلك وسائل المواصلات الحديثة، ومما يستحدث من الصناعات في المستقبل.

[٩] واعلموا أيها الناس أن علىٰ الله وحده توضيح طريق النجاة والاستقامة، التي من سلكها أوصلته إلىٰ سعادة الدارين، وأن هناك طرقًا لا توصل إلىٰ الهداية، وهي كل طريق يخالف ما جاء به ﷺ، وقد أرسل الله الرسل من أجل ذلك، ووضح كل رسول لأمته هذه الطرق، ثم أخبر جل وعلا أنه قادر علىٰ أن يهدي الناس جميعًا ويجعلهم علىٰ قلب رجل واحد، لكن لحكمته البالغة والتي خلق من أجلها الجنة والنار جعل كل شخص عاقلًا مختارًا، إما أن يختار سبيل الصلاح والاستقامة، وإما أن يختار سبيل الغواية والضلال، قال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد:١٠]، أي: وضحنا له طريق الهدىٰ وطريق الضلال.

[١٠] ثم أسهب جل وعلا في ذكر نعمه علىٰ عبادة فذكر نعمة إنزال الماء من السماء، وأنه جعل هذا الماء مباركًا طهورًا تشربون منه، وأنه أنبت بهذا الماء الشجر الذي ترعون فيه أنعامكم، وتقوتون به أنفسكم.

[١١] ثم بين سبحانه أنه أنبت بهذا الماء الثمار المختلفة، والزيتون والنخيل والأعناب، وكل أنواع الثمار والفواكه، ثم حث جل شأنه علىٰ التفكر في عظمته وقدرته علىٰ إحياء الأرض الميتة وإحياء الأموات يوم القيامة.

[١٢] ثم أخبر جل في علاه أنه سخر لكم الليل لمنامكم وراحتكم، والنهار لمعاشكم، وجعلهما يتكرران بانتظام وذلك دليل علىٰ عظمة الله وقدرته وحكمته، وأنه سخر لكم الشمس ضياء والقمر نورًا، ومن خلالهما تستطيعون معرفة عدد السنين والحساب، وجعل النجوم في السماء مسخرات لكم لمعرفة الأوقات والاهتداء بها في الظلمات، ومعرفة وقت نضوج الثمار والزروع، وكل ذلك مسخر بأمر الله وحده، واعلموا أن في خلق هذه الكواكب والأجرام لدليل واضح وبرهان ساطع لقوم يعقلون حجج الله وبراهينه الدالة علىٰ عظمته وحكمته.

[١٣] ثم بين سبحانه أنه سخر الأرض وما عليها باختلاف ألوانها وأشكالها لمنفعة البشر، واعلموا أن في ما ذكره الله من هذه النعم لعبرة وموعظة لقوم يذكرون نعم الله فيشكرونه ويؤدون حقها.

[١٤] ثم أخبر جل وعلا أنه سخر لكم البحر لتأكلوا مما تصطادون من سمكه لحمًا طريًّا، والجمهور علىٰ أن كل ما احتواه البحر أو ما رماه علىٰ الشواطئ حلال، وقال آخرون: إن سرطان البحر والتمساح والضفدع حرام، ثم مكنكم سبحانه أن تستخرجوا من هذا البحر الحلي التي تستخدم في الزينة، ثم أخبر أنه جعل السفن والقوارب تسير فيه ذهابًا وإيابًا لقضاء مصالحكم من تجارة وصيد وغير ذلك، وكل هذه الأنعام سخرها لكم لتكثروا من شكره سبحانه علىٰ هذه النعم.

وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ
﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ
غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم
مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم
بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ
مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

[١٥] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل في الأرض جبالًا ثابتة لكي تقر وتثبت ولا تضطرب، وأنه جعل فيها أنهارًا عذبة لتشربوا من مائها، وتسقوا منها مزارعكم، وأنه جعل فيها طرقًا لتكون معالم للناس يهتدون بها في الوصول إلىٰ أماكنهم.

[١٦] ومن نعمة الله علىٰ عباده أنه جعل في الأرض علامات يهتدون بها أثناء سيرهم في النهار، وكذلك جعل لهم هذه النجوم التي في السماء ليستدلوا بها أثناء سيرهم في الليل.

[١٧] ثم قال سبحانه: هل من خلق هذه المخلوقات التي ذكرنا لكم بعضها، وأتقن خلقها، كمن لا يستطيع عمل شيء مثلها، أفلا تتذكرون عظمة الله في خلقه فتعبدونه حق عبادته.

[١٨] وبعد أن عدد جل وعلا بعض نعمه علىٰ عباده وما فيها من الفوائد؛ أخبر أنه لا يمكن لأحد من تعدادها وحصرها مهما حاول واجتهد في ذلك، وصدق الله العظيم فمن الذي يستطيع حصرها وضبطها غيره سبحانه، إن الله لغفور لعباده التائبين، رحيم بهم؛ حيث لا يؤاخذهم إذا شكروا نعمه.

[١٩] واعلموا أن الله جل وعلا وحده هو الذي يعلم ما تسرّون وتخفون وتكتمون، ويعلم ما تُعلنون وتُظهِرون.

[٢٠] واعلموا أن هذه الآلهة الباطلة التي يعبدها المشركون من دون الله لا تخلق شيئًا علىٰ الإطلاق؛ بل هم مخلوقون؛ فكيف مَنْ كانت هذه حاله أن يُتخذ آلهة من دون الله؟!

[٢١] ثم بين سبحانه أن هذه الآلهة أموات لا حياة فيها ولا روح، وأنها لا تسمع ولا تعقل عن موعد يوم القيامة والبعث والنشور شيئًا.

[٢٢] واعلموا أن إلهكم الحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الله جل في علاه، وهو واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحدًا، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، واعلموا أن الذين لا يستسلمون لله، ولا يصدقون باليوم الآخر، قلوبهم تُنكِر هذا التوحيد الحق، وهم مستكبرون معاندون.

[٢٣] واعلموا أن الله حقًّا يعلم ما يخفيه هؤلاء المشركون وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم القبيحة، وسوف يجازيهم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، واعلموا أن الله لا يحب المتكبرين علىٰ طاعته وعبادته. وقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: حقًّا، وهي تحمل معنىٰ القسم.

[٢٤] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنه كلما سأل أحد من زوار الكعبة من الكفار عن النبي ﷺ وما أنزل عليه، قالوا: أنزل أباطيل وأحاديث الأمم السالفة، وليست إنزالًا من الله، وهذا يعني: أن من الكفار من نصبوا أنفسهم لمعاندة دعوة الرسول ﷺ، وتحذير غيرهم من سماعه.

[٢٥] ثم أخبر سبحانه أن عاقبة هؤلاء المشركين الذين نصبوا أنفسهم لمعاندة دعوة الرسول ﷺ أنهم يحملون آثامهم الخاصّة، وآثام الذين يقلدونهم كاملة يوم القيامة، ويحملون أيضًا من آثام الذين كذبوا عليهم ليبعدوهم عن الإسلام من دون أن ينقص من آثامهم شيئًا، ألا قبحًا لهم وما يحملون من الذنوب والمعاصي يوم القيامة.

[٢٦] واعلموا أن من سبقكم من المشركين في الأمم السابقة كادوا لرسلهم المكايد؛ فأحبط الله كيدهم، وكانت عاقبتهم أن الله سلط عليهم العذاب من كل الجهات؛ فزلزل بنيانهم من أساسه فسقط عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، وفي هذا تحذير لهم؛ فكما أن العذاب لحقهم بسبب كفرهم وجحودهم؛ فسوف يدرككم العذاب أيضًا إذا لم تؤمنوا بالله ورسوله، وهذه سنة الله في خلقه لا تتغير ولا تتبدل.

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

[٢٧] ثم أخبر سبحانه أنه سوف يذل ويهين ويفضح هؤلاء المشركين ثم يُدخلهم النار، ويقول لهم علىٰ وجه التوبيخ والتقريع والتبكيت: أين مَنْ كنتم تتخذونهم شركاء تعبدونهم من دوني، وتعادون الأنبياء والمؤمنين من أجلهم؟! أين هم الآن ليدفعوا عنكم ما أنتم فيه!! فيجيب العلماء الربانيون: إن الخزي اليوم والذل والعار واقع علىٰ الكافرين الجاحدين الذين لم يؤمنوا بالله ولم يوحدوه.

[٢٨] ثم أخبر جل وعلا أن الملائكة تتوفَّىٰ هؤلاء الكافرين وتقبض أرواحهم وهم علىٰ حال ظلمهم لأنفسهم بشركهم وعنادهم، فحينها يستسلمون وينكرون شركهم بالله، ويدَّعون أنهم ما كانوا يعملون المعاصي والسيئات، فيأتيهم الجواب: (بلىٰ) كنتم تعملون أعظم السوء، وهو الشرك وتقيمون عليه، وإن الله مطلع عليكم في جميع أحوالكم، ويعلم ما أنتم عليه، وهذا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا.

[٢٩] ثم يقال لهؤلاء المشركين: ادخلوا النار من أبوابها وعليكم الذل والصغار، لا تخرجون منها أبدًا، فبئست النهاية نهايتكم، وبئس المقر مقركم، وبئست عاقبة الذين تكبروا علىٰ التوحيد والإيمان.

[٣٠] ثم قيل لأهل الإيمان والتقوىٰ: ماذا أنزل ربكم علىٰ محمد ﷺ؟ قالوا: أنزل الله عليه الرحمة والنور والبركة والهداية للناس، ثم جازىٰ سبحانه هؤلاء المؤمنين أهل التقوىٰ علىٰ إحسانهم في حياتهم الدنيا الجزاء الحسن الكريم، ثم وعدهم جل وعلا أن لهم في الدار الآخرة من الجزاء ما هو خير لهم مما أعطاهم في حياتهم الدنيا وهو دخولهم الجنة، ولنعم دار المتقين دار الآخرة دار أهل الإيمان والصلاح والتقوىٰ.

[٣١] ثم بين سبحانه ما لهؤلاء المتقين في الدار الآخرة؛ حيث أخبر أن لهم جنات دائمة يقيمون فيها، ولا يخرجون منها أبدًا، تجري من تحت بساتينها وأشجارها وقصورها الأنهار، ولهم فيها كل ما تتمناه أنفسهم من أنواع الملذات، وبمثل هذا الجزاء الحسن يجزي سبحانه عباده المتقين الذين امتثلوا ما أمر الله به، واجتنبوا ما نهىٰ عنه.

[٣٢] ثم أخبر جل في علاه عن حال هؤلاء المتّقين عندما تتوفاهم الملائكة: أنهم طيبون، مطيَّبون، طاهرون من دنس الشرك، مطهَّرون من النقائص، فتحييهم الملائكة وتسلم عليهم، فيحصل لهم الأمان، وتحصل لهم البشرىٰ، ثم تقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة التي أعدها الله لكم جزاءً بما كنتم تعملون من التوحيد والإيمان والأعمال الصالحة.

[٣٣] ثم قال سبحانه: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلَّا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم؟، أم ينتظرون أن يحلَّ عليهم أمر الله بعذاب يستأصلهم فيهلكهم؟، كما فُعِلَ بالذين من قبلهم الذين كذّبوا ولم يؤمنوا فعمَّهم الله بعقابه، وما ظلمهم الله شيئًا، ولكن هم الذين طغوا وتجاوزوا حدودهم فأَهلكوا أنفسهم.

[٣٤] ثم بين سبحانه أنه بسبب إعراضهم عن التوحيد، وإصرارهم علىٰ الشرك والضلال، أصابتهم العقوبة، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا ينكرونه ويستهزؤون به من كل جانب عند تخويف الرسل إياهم.

....

....

....

....

[٣٥] ثم أخبر جل وعلا أن مشركي مكة وغيرهم قالوا: لو أراد الله أن نعبده وحده ما عبدنا أحدًا غيره، لا نحن ولا آباؤنا مِن قبلنا، ولا حَرَّمنا شيئًا لم يحرمه الله، وهذه مقولة العصاة والكفار والمشركون من زمن النبوة إلىٰ يومنا هذا، وقصدهم بها: ما دام أن الله قادرٌ علىٰ أن يحول بينهم وبين الشرك والمعاصي ثم لم يفعل فإنه إذًا راض بفعلهم وموافق عليه؛ وحينئذٍ لن يعاقبهم عليه، وهذا احتجاج باطل، وكذب علىٰ الله، ومع قدرته سبحانه علىٰ منعهم فقد جعلهم مختارين ولم يجبرهم، فاختاروا الضلال علىٰ الحق بطوعهم، وبمثل هذا الاحتجاج الباطل من قومك يانبي الله احتج الكفار السابقون، فإن الله أمرهم ونهاهم ولكنهم اختاروا الضلال علىٰ الهدىٰ، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ وأتباعه، ثم ختم سبحانه الآية ببيان أن الرسل الكرام ليس عليهم إلا التبليغ الواضح البيِّن لأحكام الله.

[٣٦] ثم بين سبحانه أنه أقام الحجّة علىٰ عباده بأن أرسل في كل أمة رسولًا منهم يدعوهم إلىٰ توحيد الله وعبادته، وينهاهم عن الشرك، ويأمرهم بالكفر بالطاغوت - وهو كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود أو متبوع أو مطاع -، ثم يخبر الله عن حال الناس مع رسلهم، وأنهم انقسموا إلىٰ فريقين: فريق آمن ووحّد واتبع فنال هداية الله، والسعادة في الدارين، وفريق كذَّب وعاند وكفر، فاستحق الضلالة، والشقاوة في الدارين، ثم أمر سبحانه الناس أن يمشوا في الأرض لأخذ العظة والعبرة، ويتأملوا بقلوبهم، وينظروا كيف كانت نهاية ومصير من كذّب وعاند واستكبر، وكيف كان إهلاك الله له.

[٣٧] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ومهما تبذل يارسول الله من جهود لهداية هؤلاء المشركين المصرين علىٰ الكفر والجحود فلن ينفعهم حرصك، لأن حكمة الله اقتضت أن لا يهدي من يختار الضلالة بطوعة وإرادته؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[الصف:٥]، وإضلال الله لهم إضلال جزائيٌ وليس ابتدائيًّا، وهو مبني علي ضلالهم الاختياري، واعلم أن هؤلاء الذين اختاروا الضلال علىٰ الهدىٰ ليس لهم أحد ينصرهم ويقيهم من عذاب الله.

[٣٨] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين ومنكري البعث بذلوا جهدهم في الحلف أيمانًا مغلظة مؤكَّدة أن الله لا يبعث من يموت، ولا يعيده مرة أخرىٰ بعد أن بَلِيَت عظامه وصارت رميمًا، فأجابهم الله تعالىٰ بقوله: (بلىٰ)، أي: ستُبعَثون وتُنشَرون، وهذا وعد حقٌّ من الله لا خُلْف فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنَّ ذلك علىٰ الله يسير، فينكرون ذلك بسبب اتباعهم الهوىٰ والشيطان.

[٣٩] ثم أخبر سبحانه أنه سوف يبعثهم جميعًا يوم القيامة ليبين لهم حقيقة ما اختلفوا فيه، وليبين لهم حقيقة البعث الذي أنكروه وحلفوا علىٰ إنكاره، وحينها سيعلم الذين كفروا وجحدوا وحلفوا؛ أنهم كانوا كاذبين.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢

[٤٠] ثم بين جل وعلا أنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه علىٰ كل شيء قدير، وإذا أراد سبحانه شيئًا قال له: (كن)؛ فيكون مباشرة.

[٤١] واعلموا أن الذين تركوا أهلهم وديارهم وأوطانهم في سبيل تحقيق رضا الله، وابتغاء ما عنده، وهاجروا إلىٰ الله نصرةً لدينه من بعد ما عذّبوا وأهينوا وامتُحنوا من أجل دينهم؛ فهؤلاء وعدهم الله أن يسكنهم في دار الهجرة دارًا حسنة، وأن يرزقهم الله رزقًا واسعًا، وأن يُحْيِيِهِمْ حياة طيبة وهم أعزاء شرفاء، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فقد وعدهم الله أجرًا أكبر، وحظًّا أوفر، فلو علم المتخلفون عن الهجرة بما أعد الله للمهاجرين في سبيله علم اليقين؛ لَمَا تخلف ولا تباطأ أحد عن هذه الهجرة.

[٤٢] ثم ذكر جل وعلا صفتين عظيمتين جليلتين من صفات أوليائه المهاجرين، وهما: الصبر والتوكل، فهاتان الصفتان بهما ملاك الأمور، ولا غنىٰ عنهما للمهاجر وغيره، فالصبر علىٰ أوامر الله ونواهيه وأقداره المؤلمة، والصبر علىٰ مشاق الهجرة، والتوكل والاعتماد علىٰ الله وتفويض الأمر إليه وتقديم محابِّه ورضاه علىٰ محابِّ النفوس ورضاها.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

[٤٣] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أنه ما أرسل من قبله إلَّا رجالًا من البشر لا من الملائكة، وأنه أوحىٰ إليهم وأنزل عليهم الشرائع والأحكام ليدعو الناس إلىٰ عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، ثم وجَّه الله خطابًا لمشركي مكة - الذين زعموا أن الله أجلُّ مِنْ أنْ يُرسل رسولًا مِنَ البشر -، بأن يسألوا مؤمني أهل الكتاب إن كانوا لا يعلمون؛ ليخبروهم بحقيقة الأنبياء وأنهم بشر.

[٤٤] ثم بين سبحانه أنه أرسل هؤلاء الرسل بالآيات البينات الواضحات، وبالزبر، أي: الكتب المجموع بها الأحكام، ليدعوا الناس إلىٰ عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وبين أنه أنزل علىٰ نبيه محمد ﷺ هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الذكر علىٰ الإطلاق؛ ليبين للناس ويوضح لهم ما جاء فيه من العقائد والأحكام والشرائع؛ لعلهم يتدبرون آياته ويعقلونها ويتفكرون فيها فينتفعون بها.

[٤٥] ثم قال جل في علاه: هل أمن الذين مكروا المكر السيِّيء بكفرهم وعنادهم وصدِّهم عن سبيل الله أن يخسف الله بهم الأرض من تحتهم فيتجلجلون فيها؟ أم أمنوا أن يعمهم الله بعذاب يستأصلهم من حيث لم يحتسبوا، ومن حيث لا يحسون ولا يتوقعون؟!.

[٤٦] وقال جل في علاه: أم أمنوا أن يأخذهم الله وهم في غفلة أو في تقلب وشغل أو سفر وغير ذلك؟! فليعلموا أنهم ليسوا بسابقين الله ولا فائتينه، ولا ممتنعين عن عذابه بإرادتهم ولا بقوتهم مهما عظمت.

[٤٧] وقال جل في علاه: أم أمنوا أن يأخذهم الله بالعذاب وهم متخوفون منه ومتوقعون لحصوله، فإن ذلك لا يمنعهم أيضًا من نزول العذاب بهم؟! ولكنَّ الله جل وعلا رؤوف بعباده رحيم بهم، لا يعاجلهم بالعقوبة والعذاب؛ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك علىٰ ظهرها من دابة؛ بل يمهلهم جل وعلا علَّهم أن يتوبوا ويرجعوا إليه؛ فإذا عاقبهم سبحانه بسبب عنادهم وإصرارهم علىٰ الكفر والضلال فإن أخذه شديد أليم.

[٤٨] ثم قال سبحانه: أَوَلَمْ ينظر هؤلاء الكفار نظر تأمل وتفكّر في هذه المخلوقات التي خلقها الله -من جبال وشجر ودواب وغير ذلك-، وخلق لها ظلًا يتنقل يمينًا وشمالًا في الصباح والمساء، والأشجار والظلال في هذه الحالات تسجد لله وتسبحه، وهي ذليلة خاضعة خاشعة لعظمته جل وعلا، أليس في هذا دليل علىٰ وحدانية الله وعظمته!! وأنه المستحق للعبادة دون ما سواه!!

[٤٩] ثم أخبر جل وعلا أن له وحده يسجد ويخضع ويذل كل ما في السماوات والأرض من مخلوقات، ومنهم الملائكة الكرام، فإنهم يسجدون لله ويسبحونه ولا يستكبرون عن عبادته.

[٥٠] وهؤلاء الملائكة الذين يسجدون لله ولا يستكبرون من صفاتهم: أنهم يخافون من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الأوصاف، وأنهم لا يعصون لله أمرًا؛ بل يفعلون وينفِّذون جميع ما يؤمرون به، وكذلك جميع المخلوقات ينفِّذون جميع ما يؤمرون به إمّا كرهًا أو طوعًا؛ ما عدا الإنس والجن؛ فمؤمنهم يسجد لله طوعًا، وكافرهم يمتنع من السجود.

[٥١] ثم أمر جل وعلا عباده بتوحيده، ونهاهم عن الشرك به؛ فقال سبحانه: لا تعبدوا أيها الناس إلهين اثنين، لأن المستحق للعبادة إنما هو إله واحد؛ فيجب أن تعبدوا هذا الإله وحده دون ما سواه، ثم أمر سبحانه عباده أن يخافوه وحده خوف العبادة؛ بأن يمتثلوا أمره فيعبدونه ويرهبونه وحده ولا يشركون به شيئًا.

[٥٢] واعلموا أن الله وحده هو الذي يملك كل ما في السماوات والأرض، وهذا أمر ثابت لا يتغير ولا يتبدل، وأن له وحده العبادة والطاعة والدين الخالص في جميع الأوقات والأحوال، فهل يليق بكم بعد ذلك أن تعبدوا وتخافوا وتخشوا أحدًا غير الله؟!.

[٥٣] يخبر جل وعلا أن جميع النعم التي يتنعم بها الناس من الصحة والمال والأولاد وغيرها هي منه وحده؛ فإذا نزل ببعضهم الشر والبلاء رفعوا أصواتهم بالدعاء والتضرع إلىٰ الله لينجيهم ويكشف ما بهم من الضر.

[٥٤] فإذا كشف الله ضرهم ونجاهم فإن جماعة منهم يعودون إلىٰ الشرك والذنوب والمعاصي، وينسون مسبب الأسباب الذي كانوا يضجون إليه بالدعاء، وينسبون النجاة للطبيب، أو قائد المركبة، ونحو ذلك.

[٥٥] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين نجاهم مما كانوا فيه من الضر ثم عادوا إلىٰ الشرك والمعاصي؛ أنهم جحدوا نعم الله عليهم، فتوعدهم علىٰ جحودهم فقال سبحانه: فتمتعوا أيها المجرمون بشرككم فسوف تعلمون عاقبة أمركم، النار وبئس المصير.

[٥٦] ثم أخبر جل شأنه أن هؤلاء المشركين يجعلون لأصنامهم – التي لا تعلم شيئًا ولا تنفع ولا تضر – نصيبًا من أموالهم وأنعامهم، التي رزقهم الله إياها، ويتقربون إليهم بذلك!، وهذا من أكبر الجهل وأعظم الشرك؛ لذا أقسم الله جل وعلا أنهم سيسألون عن هذا الافتراء وسيحاسبون عليه.

[٥٧] ثم بين سبحانه أن من تمادي هؤلاء المشركين في طغيانهم وعنادهم واتخاذهم آيات الله هزوا؛ أنهم كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله؛ تنزه الله وتعالىٰ عن قول الظالمين علوًّا كبيرًا، والأعجب من ذلك أنهم يجعلون لأنفسهم الذكور؛ لأنهم كانوا يحبونهم ويفضلونهم علىٰ البنات تفضيلًا شديدًا.

[٥٨] وأخبر سبحانه أيضًا: أنه إذا بشر أحدهم أن زوجته ولدت له أنثىٰ؛ فإنه يغتم بذلك أشدّ الغم، ويظهر أثر ذلك الغم علىٰ وجهه بالسواد، ثم هو يكتم ذلك ويُخفي حزنه حتىٰ لا يفتضح عند قومه.

[٥٩] ثم أخبر سبحانه أنه يتواریٰ ويتخفىٰ عنهم مترددًا فيما يفعله مع هذه الأنثىٰ، هل يبقيها عنده فيتحمل بسبب ذلك الذل والهوان والعار؟! أم يتخلص منها بدفنها حيَّة في التراب؟! ثم شنَّع الله علىٰ هؤلاء المشركين حكمهم وافتراءهم بأن جعلوا لله البنات سبحانه وتعالىٰ، وجعلوا لأنفسهم ما يحبّون.

[٦٠] ثم أخبر جل في علاه أن الذين لا يؤمنون ولا يصدّقون بالبعث والجزاء والحساب فيقعون في الشرك والظلم ينطبق عليه المثل السييء والعيب التام؛ أما الله جل شأنه فله كل صفات الكمال والعظمة والجلال؛ فلا يليق أن يكون له إلا المثل الأعلىٰ، وهو سبحانه العزيز الذي قهر كل شيء، والحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، سبحانه وتعالىٰ عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

[٦١] واعلموا أيها الناس لو أن الله سبحانه وتعالىٰ يؤاخذ الظالمين بما يفعلون من الظلم والشرك والمعاصي، ويعاجلهم بالعقوبة؛ لما ترك علىٰ الأرض منهم من أحد يدب عليها لكثرة ذنوبهم، ولكن يمهلهم سبحانه فضلًا وكرمًا منه حتىٰ تنتهي أعمارهم المقدرة سلفًا، أو لعل العاصي يتوب ويندم، ولعل الكافر يهتدي إلىٰ الحق ويُسلم، وهذا من لطف الله بعباده المؤمنين والكفار والعصاة، فإذا حان وقت إهلاكهم فإنهم سوف يفارقون الدنيا بدون أي تأخير أو تقديم.

[٦٢] ثم بين سبحانه أن من إجرام هؤلاء المشركين، وشدّة كفرهم وعنادهم أنهم يصفون الله بأوصاف قبيحة لا يرتضونها لأنفسهم،

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

فينسبون له البنات، ثم يتبجحون قائلين بألسنتهم: أنَّ لهم في الآخرة الجنة وأنهم مكرَّمون، فيجيبهم جل وعلا: حقًّا –لا محالة– إنَّ لكم في الآخرة عذاب النار، وأنكم فيها خالدون متروكون، ومنها لا تخرجون.

[٦٣] ثم يسلِّي جلَّ وعلا رسوله ﷺ، فيقول له: قسمًا بالله يانبي الله لقد أرسلنا رسلًا من قبلك إلىٰ أقوامهم فجاؤوهم بالآيات البينات الواضحات التي تدل علىٰ وحدانية الله، فما تبعوا رسلهم؛ بل كذّبوهم، واتّبعوا تزيين الشيطان لهم أعمالهم من الكفر والتكذيب، وبذلك صار الشيطان وليًّا لهم، يتبعونه ويطيعونه، فلهم اليوم بسبب كفرهم وتوليهم الشيطان عذاب أليم موجع لا يطاق.

[٦٤] ثم بين سبحانه أنه ما أنزل هذا القرآن علىٰ نبيه ﷺ إلَّا ليوضح للنَّاس الحقائق ويبين لهم حقيقة ما يختلفون فيه من التوحيد والشرك، والهداية والضلال، وليعلموا أن هذا القرآن هو طريق الهداية القويم، من أَخَذَ به نَجَا، وأنه رحمة ونجاة للمؤمنين الذين آمنوا وصدقوا به.

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

[٦٥] يخبر سبحانه وتعالىٰ أنه وحده هو الذي تفضل علىٰ عباده بأن أنزل المطر من السماء فأحيا به الأرض بعد موتها؛ فاخضرت بعد قحطها، واهتزت، وأنبتت من كل زوج بهيج، وقد جعل الله في ذلك آية وعلامة واضحة علىٰ وحدانيته سبحانه، وعلىٰ إحيائه للموتىٰ، وعلىٰ البعث والنشور، واعلموا أن هذه الآيات يستفيد وينتفع بها من يستمع إليها استماع تدبر وإقبال، لا استماع تكبر وإدبار.

[٦٦] ثم أخبر جل في علاه أنه جعل للناس في الإبل والبقر والغنم آية وعظةً؛ حيث أخرج سبحانه من أحشاء هذه الأنعام لبنًا خالصًا صافيًا ناصعًا غير مشوبٍ بكدر؛ تستسيغه نفوسهم؛ فيشربونه ويتلذَّذون به، ويتغذون عليه.

[٦٧] ثم أخبر سبحانه أن مما أنعم به عليكم أيها الناس: أن جعل لكم منافع في ثمرات النخيل والأعناب، فتأكلون منها تمرًا وزبيبًا ودبسًا، وتجعلون من عصيرها نبيذًا وشرابًا مسكرًا، وذلك قبل تحريم الخمر؛ حيث حرِّمت الخمر تدريجيًّا، وهذه أول آيات التحريم؛ حيث قال بعد قوله: ﴿سَكَرًا﴾، قال: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾، يعني: أن السُّكر ليس رزقًا حسنًا، واعلموا أن في تسخير ذلك لكم لآية واضحة علىٰ وحدانية الله واستحقاقه العبادة دون ما سواه، وإنما ينتفع بهذه الآيات من أعمل عقله في تدبّر البراهين والدلائل التي تدل علىٰ وحدانيته.

[٦٨] ومن نعمه جل وعلا علىٰ عباده أنه ألهم النحل وعلمه أن يبني له بيوتًا يسكن فيها، وتكون هذه البيوت في الجبال والأشجار والعروش التي تبنىٰ من الأشجار الملتفة فتجعل علىٰ شكل سقف يجلس الناس تحته.

[٦٩] ثم ألهم سبحانه هذا النحل أن يأكل من كل الثمرات والزهور في كل الأراضي والمراعي، وألهمه سبحانه وسهّل له أن يسلك طرقًا للبحث عن هذه الثمرات، وأن يرجع إلىٰ مسكنه دون أن يخطئ أو يضل، ثم بعد ذلك يُخرج هذا النحلُ شرابًا من العسل صافيًا، وبألوان مختلفة بحسب المراعي والأزهار، وفي هذا العسل اللذيذ شفاء من الأمراض والأدواء، وفي هذا أعظم الأدلة علىٰ وحدانية الله وحكمته وجميل لطفه بعباده، ولكن لا يتفطن لذلك ولا ينتبه لهذه الآيات والدلائل إلَّا أصحاب العقول الراجحة الذين يتفكرون ويتأملون فيعتبرون ثم يؤمنون ويوحدون الله ويشكرونه.

[٧٠] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه هو الذي أحياكم وأوجدكم من العدم، وهو وحده الذي يتوفاكم ويقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم، ثم أخبر سبحانه أن من الناس من يبقيه الله ويطيل في عمره فيصل للهرم وأسوأ مراحل العمر؛ فيذهب عقله ويصاب بالخرف، ويصير كالطفل الذي لا يعرف شيئًا بعدما طاف في هذه الحياة وجال فيها، واعلموا أن الله عليم بكل شيء، قدير علىٰ كل شيء، لا يخفىٰ عليه شيء، ولا يعجزه شيء سبحانه وتعالىٰ.

[٧١] واعلموا أن الله جل في علاه هو خالق الناس ورازقهم، وقد فضّل بعض الناس علىٰ بعض في الرزق، فوسع علىٰ بعضهم، وقَدَرَ علىٰ آخرين، أغنىٰ البعض، وأفقر آخرين، فمنهم الغني الذي له ثروات كثيرة، ومنهم الفقير، ومنهم المملوك الذي لا يملك أمر معيشته؛ فهؤلاء الأغنياء ما كانوا ليُعطوا الفقراء نصف أموالهم أو ما زاد عن حاجتهم لهم ليصيروا به أغنياء مثلهم، ويشاركوهم في التمتع بالسيادة والرزق الواسع؛ فكيف لا يرضون هذا لأنفسهم، ويقبلون أن يجعلوا لله شركاء من خلقه؟!! إن هذا لَمِنْ أبطل الباطل وأعظم الجحود لنعم الله جل وعلا والكفر بها.

[٧٢] واعلموا أيضًا أن الله وحده هو الذي امتن علىٰ عباده وأنعم عليهم بنعمة الزواج؛ هذه النعمة التي تَسْكن النفس بها، ثم تتولد منها نعمة أخرىٰ، وهي نعمة الولد والذرية، وأخبر أنه وحده هو الذي تكفّل برزق الجميع؛ فأخرج لعباده من الرزق ما تطيب به نفوسهم، أَبعد هذا كلّه يؤمن المشركون بالباطل الذي هو الشرك ويصدّقون به؟!، ويكفرون ويجحدون توحيدَ الله وألوهيتَه الذي هو الحق، ويكفرون بنعمه؟! إن هذا لَمِنْ أعظم الظلم، وأفجر الفجور.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

[٧٣] يخبر جل وعلا عن قبيح فعل المشركين، وأنهم يتوجهون بالعبادة لهذه الآلهة المزعومة التي لا تضر ولا تنفع، ولا تملك من الأمر شيئًا؛ فهم لا يستطيعون إنزال المطر والرزق من السماء، ولا يستطيعون إنبات النبات من الأرض، فكيف يعبدونهم من دون الله؟!

[٧٤] ثم نهاهم جل وعلا عن تشبيهه وتمثيله وتسويته بغيره سبحانه وتعالىٰ فلله المثل الأعلىٰ، وفي ذلك نهيٌ لهم عن اتخاذهم أربابًا من دون الله، إن الله يعلم حقيقة كل شيء وأنه لا إله إلا هو، وأنتم أيها المشركون تظلمون أنفسكم فتقولون علىٰ الله ما لا تعلمون مما لا يليق به سبحانه وتعالىٰ.

[٧٥] وبعد أن نهىٰ جل وعلا المشركين عن ضرب الأمثال المتضمنة للشرك؛ ضرب سبحانه وتعالىٰ مثلًا بيَّن فيه فساد عقيدة هؤلاء المشركين وفساد تسويتهم الخالق بالمخلوق، فضرب الله المثل برجلين: أحدهما عبد مملوك لا يملك من أمره شيئًا، والآخر: رجل حرٌّ غني له مال، وهو محسن يُحب الإنفاق فيعطي من ماله ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، فهل يستوي الرجلان؟! الجواب: لا يستويان؛ إذًا كيف تُسوون أنتم أيها المشركون بين الخالق والمخلوق؟!، وكيف تُسوون بين الرب الرازق والعبد الذي لا يملك لنفسه شيئًا؟! فالحمد لله وحده الخالق الرازق المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

[٧٦] ثم ضرب الله مثلًا ثانيًا بين فيه قبح الشرك وبطلانه؛ فضرب سبحانه مثلًا برجلين: أحدهما أبكم لا يسمع ولا يتكلم؛ فلا يَفهَم ولا يُفهِم، فهو عالة وعبء ثقيل علىٰ من يقيم عنده ويتولىٰ شؤونه، إذا كلّفه بأمر لا ينجزه؛ بل لا يجلب له الضرر – لعجزه عن التصرف –، ورجل آخر سويُّ الخِلقة، سليم الحواس والأعضاء فهو يقول الحق والعدل ويأمر به، وهو علىٰ طريق واضح بين مستقيم لا اعوجاج فيه، فهل يستوي الرجلان؟! الجواب: قطعًا لا يستويان، فكذلك التوحيد والشرك لا يستويان، والخالق والمخلوق لا يستويان؛ فالتوحيد ينجي صاحبه ويكسبه رضوان الله والجنة، أما الشرك فيحبط عمل صاحبه ويدخله النار.

[٧٧] ثم بين سبحانه أنه اختص وحده – دون غيره – بعلم غيب السماوات والأرض، ومن ذلك: العلم بوقت قيام الساعة، فقال سبحانه: وما أمر إتيانها إلا كلمح البصر في سرعته؛ بل أقرب وأسرع من ذلك؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ لا يعجزه شيء، وهو علىٰ كل شيء قدير.

[٧٨] ثم ذكر جل في علاه نعمًا كثيرة علىٰ عباده، ومن هذه النعم: أنه أخرجهم من بطون أمهاتهم إلىٰ هذه الحياة لا يدركون شيئًا مما حولهم، وأنعم عليهم سبحانه بالوسائل التي يتمكنون بها من إدراك مصالح دنياهم وأخراهم، ومن ذلك: السمع الذي يسمعون به، والبصر الذي بواسطته يبصرون الأشياء، والقلوب التي عن طريقها يعقلون ويفهمون؛ وطلب منهم جل شأنه شكر هذه النعم حقَّ الشكر، ويكون ذلك بإفراده عز وجل بالعبادة، وعمل الطاعات التي أمر بها الله.

[٧٩] ثم حض جل وعلا عباده علىٰ التفكر في بعض مظاهر قدرته؛ فقال سبحانه: أَلَمْ ينظر هؤلاء المشركون إلىٰ هذا الطير الذي يطير ويسبح في الهواء بين السماء والأرض! يقبض جناحه ويبسطه، تُرىٰ: مَن الذي علمه هذا الطيران؟! وأمدَّه بالأسباب التي يستطيع بها الطيران، وما الذي يمنعه من السقوط؟! إنَّ في هذه المخلوقات الطائرة وطريقة طيرانها لآيات وعلامات بينات واضحات علىٰ قدرة الخالق جل وعلا المستحق للعبادة دون ما سواه، وما ينتفع بهذه الآيات إلَّا العاقلون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ
ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ
وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ
٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ
ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ
عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ
ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ
شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ
٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ
يُنظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ
رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ
فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى
ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٨٧

[٨٠] ثم أخبر سبحانه أنه وحده يَسَّرَ لكم أيها الناس نعمًا عظيمة رأفة بكم ورحمة لكم، ومن ذلك: أنه جعل لكم بيوتًا ومنازل تستقرون وترتاحون فيها، وذلَّلَ لكم الأنعام وجعل لكم من جلودها وأوبارها وأشعارها ما تسكنون فيه وتتقون به البرد والحر، مما يخف حمله ويسهل نصبه حين النزول، ويخف وزنه ويسهل حمله وقت الرحيل والسفر، وجعل لكم من أصواف الغنم وأوبار الإبل، وشعر الماعز أثاثًا من الفُرش والألبسة والأغطية والزينة تتمتعون به إلىٰ أجل معلوم في هذه الحياة الدنيا.

[٨١] ثم أخبر سبحانه أنه وحده أنعم عليكم أيها الناس بأن جعل لكم منافع في مخلوقاته، ومن ذلك أنه يَسَّر لكم أشياء تستظلون بها من حر الشمس، ويسّر لكم أن تتخذوا من الجبال مغارات وكهوفًا تستكنون وتستترون فيها مما يضركم ويؤذيكم من برد ومطر وريح وغيره، وجعل لكم ألبسة وثيابًا تقيكم وتحفظكم من البرد وقسوته ومن الحر وشدته، وجعل لكم أيضًا ألبسة وأغطية ودروعًا تقيكم وتحفظكم من الأذىٰ وضربات السلاح حال حروبكم، وهكذا أنعم الله عليكم نعمًا عظيمة لا تعدُّ ولا تُحصىٰ، وأتمها عليكم، وكمَّلها لكم؛ لعلكم تستسلمون لله بالتوحيد، وتنقادون له بالطاعة، وتتبرؤون من الشرك وأهله.

[٨٢] ثم قال المولىٰ جل في علاه لنبيه ﷺ: فإن تولوا يارسول الله عن الإيمان وأعرضوا عن التوحيد بعدما أبلغتهم وذكرتهم وعدَّدت عليهم هذه النعم؛ فلا تحزن عليهم ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فما عليك إلّا البلاغ البين الواضح وحسابهم علىٰ الله رب العالمين.

[٨٣] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المشركين لا يجهلون هذه النعم؛ بل يعرفونها جيِّدا، ولكنهم ينكرونها بأفعالهم الباطلة فلا يؤدون شكرها، ولا يعترفون بها للمُنعِم جل وعلا؛ بل ينكرونها ويجحدونها ظلمًا وعلوًّا وعنادًا، وأكثرهم جاحدون معتدون ظالمون آثمون.

[٨٤] واذكروا أيها الناس يوم يبعث الله جل في علاه الأمم للجزاء والحساب يوم القيامة، وكل أمة سوف يشهد عليها رسولها ونبيها هل صدّقوا وآمنوا أم جحدوا وكفروا؟!، وفي ذلك اليوم لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار عن كفرهم، ولا يطلب منهم توبة أو عمل صالح، فقد فات الأوان وفات وقت العمل، وعندها لا ينفع الندم ولات حين مندم.

[٨٥] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الظالمين الذين تجاوزوا حدودهم إذا شاهدوا وعاينوا العذابَ يوم القيامة؛ فإنهم يُبَادَرُون بالعذاب الشديد، ولا يُمهَلون، ولا يعطون فرصة أخرىٰ.

[٨٦] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين إذا أبصروا وعاينوا من عبدوهم من دون الله، صاحوا قائلين: يارب هؤلاء الذين كنّا ندعوهم من دونك ونشركهم معك في العبادة، فتنطق حينها الآلهة الباطلة قائلة: إنكم لكاذبون في اتخاذكم إيّانا شركاء لله، وإنكم لكاذبون في ادعائكم أن لله شركاء.

[٨٧] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين استسلموا وخضعوا وذلّوا لحكم الله، وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من افتراء الكذب علىٰ الله بأن له شركاء، وغاب عنهم افتراؤهم بأن هذه الآلهة المزعومة ستشفع لهم أو ستدفع عنهم شيئًا من العذاب.

[٨٨] يخبر سبحانه أن الذين جحدوا التوحيد، ولم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ، ثم لم يكتفوا بذلك؛ بل صدّوا غيرهم عن التوحيد - ترغيبًا أو ترهيبًا -؛ هؤلاء لهم عذاب مضاعف، فلهم عذاب لضلالهم، وعذابٌ لإضلال وإفساد غيرهم.

[٨٩] ثم أخبر جل وعلا أنه في يوم البعث والجزاء سوف يبعث من كل أمة رسولَها الذي أُرسل إليها؛ ليشهد لِمَنْ آمن ووحّد، ويشهد علىٰ من جحد وكذّب، ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أنه جاء به شهيدًا علىٰ أمته، وأنه أنزل عليه هذا القرآن فيه تبيان وتفصيل لكل شيء، من أصول الدين وفروعه، وجميع ما يحتاجه الناس في شؤون دنياهم وأخراهم، وأنه نجاة وهداية لمن آمن به، ورحمة لمن اتّبعه وعمل بما فيه، وبشرىٰ لمن صدقه بالنجاة في الدارين.

[٩٠] ثم أمر جل وعلا عباده بالعدل والإنصاف في حقّه وذلك بتوحيده وعدم الإشراك به، وفي حق عباده بإعطاء كل ذي حق حقّه، وعدم بخس الناس وظلمهم، كما أمر بالإحسان في حقّه بأداء عبادته وطاعته علىٰ الوجه المطلوب، والإحسان إلىٰ الخلق في الأقوال والأفعال، كما أمر بصلة القرابة وبرِّهم والإحسان إليهم، ونهىٰ سبحانه عن كل قبيح وكل عمل أو قول شنيع، كما نهىٰ عن الظلم والتعدي علىٰ الناس، واعلموا أن هذه الأوامر والنواهي تذكير وموعظة لكم أيها الناس لكي تتذكروها فتعملوا بها.

[٩١] أمر جل وعلا عباده بالوفاء بكل عهد التزموا به بينهم وبين الله، أو بينهم وبين الناس في ما لا يتعارض مع كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، كما أمر عباده أن لا يتراجعوا في الأيمان بعد تثبيتها وتغليظها، وجعلوا الله شاهدًا وضامنًا عليها، واعلموا أن الله عليم بما تفعلون من الوفاء بالعهود أو نقضها، وسوف يجازيكم عليها بما تستحقون يوم القيامة.

[٩٢] وبعد أن أمر جل وعلا المسلمين بالوفاء بالعهود؛ نهاهم عن نقضها بعد توكيدها، ولا يكون حالهم كحال تلك المرأة التي أحسنت غزلها وأجادت صنعه ثم عادت فنقضته ونثرته فتاتًا، ولا تجعلوا أيمانكم التي أقسمتم بها عند العهود خيانة وخديعة تخدعون بها من عاهدكم من أجل أن هناك جماعة أكثر مالًا ومنفعة من الذين عاهدتموهم، واعلموا أن الله يختبركم بما أمركم ونهاكم من هذه العهود ونقضها؛ ليتبين المطيع منكم والعاصي، وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون في الدنيا من الإيمان بالله ونبوة محمد ﷺ، وسوف يجازي كلًّا بما حصل منه من أمانة وخيانة.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

[٩٣] ثم بين سبحانه أن قدرته فوق كل قدرة، ومن ذلك: أنه لو شاء لجعل الناس كلهم موحدين مستقيمين علىٰ التوحيد، ولجعلهم كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، لكن لحكمة بالغة بسببها أوجد الجنة والنار جعل الإنس والجن مختارين؛ فمن اختار الضلال وأصر عليه ثبته علىٰ اختياره، ومن رغب الهداية والصلاح وأصر عليها ثبته علىٰ اختياره، ويوم القيامة سوف يسألكم الله أيها الناس عما كنتم تعملون في الدنيا ليحاسبكم ثم يجازيكم بحسب أعمالكم.

وقوله: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، تجلو المعنىٰ وتوضحه، بأن كلا سوف يُسأل ويجازىٰ علىٰ عمله، فلو كان مجبورًا لما سُئل ولما عوقب أو أثيب.

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

[٩٤] نهىٰ جل وعلا عباده المؤمنين أن يتخذوا الأيمان والحلف بالله ستارًا للخديعة من أجل الوصول إلىٰ حظوظ النفس، فإن من جعل العهود والمواثيق والأيمان تابعةً لهواه، فيوفي بها إذا أراد، وينقضها إذا أراد؛ فهذا بمثابة من زلَّت قدمه بعد أن كانت راسخة؛ فيقع في الهاوية بنفسه، ويوقع غيره معه بأن يكون له قدوة سيئة في نقض العهود والأيمان؛ فيتحمل وزره أيضًا، وسوف تذوقوا أيها الناس العذاب في الدنيا من المصائب والخوف والجوع وغير ذلك، بسبب إعراضكم عن أوامر الله ونواهيه، وبعد ذلك لكم يوم القيامة عذاب عظيم لا يمكن أن يتصور أحد شدته. والأيمان المذكورة في هذه الآية قيل: إنها أيمان البيعة، أي: الذين بايعوا رسول الله ﷺ فَنَقْضُهُم العهد خطأ كبير ربما كان فيه هلاك صاحبه. والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

[٩٥] ثم حذر سبحانه الناس أن يشتروا بنقضهم عهوده ومواثيقه ثمنًا قليلًا حقيرًا من متاع الدنيا الزائل الذي سيفنىٰ ويذهب؛ بل اصبروا وأوفوا بعهد الله وميثاقه، فما أعد الله لكم من الجزاء في الآخرة خير لكم وأبقىٰ وأدوم من حطام الدنيا إن كنتم تعلمون وتُميِّزون بين الثمن الزائل والأجر الدائم.

[٩٦] واعلموا أيها الناس أن متاع الدنيا وحطامها - مهما كثُر - فإنه إلىٰ زوال، وأن ما عند الله فإنه لا يَفنىٰ ولا يزول؛ فقدموا ما يبقىٰ علىٰ ما يزول، فإنه من آثر الباقي علىٰ الفاني، وصبر علىٰ ذلك، وقدَّم محابَّ الله علىٰ محابِّ نفسه؛ فإن الله سيجازيه بأحسن ممّا عمل؛ فيضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، والله يجزي الصابرين أجرهم بغير حساب.

[٩٧] واعلموا أيها الناس أن من عمل عملًا صالحًا قد توفرت فيه شروط قبول العمل؛ بأن كان خالصًا لوجه الله، وموافقًا لهدي النبي ﷺ؛ سواءً كان العامل ذكرًا أو أنثىٰ، فليُحيينَّه الله في الدنيا حياة طيبة مليئة بالاطمئنان والاستقرار وعدم القلق، حتىٰ ولو كانت موارد الرزق كفافًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الحياة الطيبة هي: الرضىٰ والقناعة، ثم يوم القيامة سوف نجازيهم الجزاء الأكبر لعملهم الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[الزمر:٧٤].

[٩٨] ثم وجه جل وعلا نبيه ﷺ إذا أراد أن يقرأ القرآن أن يلتجئ إلىٰ الله ويستعيذ به من شرّ الشيطان المطرود من رحمة الله، قائلًا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ليسلم من وسوسته وإشغاله.

[٩٩] ثم أخبر سبحانه أن من رحمته بعباده المؤمنين أن الشيطان الرجيم ليس له تسلّط علىٰ الذين آمنوا وصدّقوا، وتوكلوا علىٰ الله واعتمدوا عليه، وفوَّضوا أمرهم إليه؛ حيث يطردون وسوسته وشكوكه بالتعوذ بالله.

[١٠٠] واعلموا أن الشيطان الرجيم لا يتسلط إلا علىٰ الذين لم يؤمنوا بالله ولم يصدّقوا رسوله ﷺ، الذين يجعلونه وليًّا لهم بطاعتهم إياه في الشرك والمعاصي؛ فهؤلاء يتسلّط عليهم الشيطان ويوسوس لهم، ويتلبس بهم، ثم يقودهم إلىٰ جهنم وبئس المصير.

[١٠١] ثم أخبر جل شأنه أنه إذا نسخ بحكمته حكمًا في آية بأن بدل آية بآية أخرىٰ؛ سَارَعَ المكذِّبون الجاهلون من كفار قريش بقولهم: يامحمد ما أنت إلا رجل يفتري الكذب، ويقول الشيء ثم يغيره، فبيَّن سبحانه أن أكثر هؤلاء الكفار جهَّال، لا يعرفون حِكَم الله في النسخ، ولا في غيره.

[١٠٢] وقل لهم يانبي الله: إن الله جل في علاه هو الذي أنزل القرآن عن طريق جبريل عليه السلام، وقد زكاه الله من العيوب، أنزله سبحانه بالحق والعدل والصدق في الأخبار والأحكام، وفي نزول القرآن مفرَّقًا علىٰ عباده المؤمنين وتوارده حسْب الوقائع والأحداث تثبيتٌ لهم علىٰ التوحيد والإيمان، واعلموا أن في هذا القرآن هداية للذين استسّلموا لله وصدّقوا رسوله ﷺ من الضلال والحيرة في الدنيا، وبشرىٰ لهم بالفلاح في الدنيا، والفوز في الآخرة.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾

[١٠٣] يخبر جل وعلا أن المشركين افتروا فرية عجيبة علىٰ النبي ﷺ؛ حيث زعموا أن هناك رجلًا من البشر يُعَلِّمُهُ القرآن ويلقنُه إياه، فردَّ الله فريتهم هذه ودحضها، إذْ أن هذا الرجل الذي يدَّعون أنه يعلّمه القرآن ليس بعربي؛ بل أعجمي، فكيف يستقيم ذلك، والقرآن الذي يتلوه محمد ﷺ قرآن عربي مبين واضح جليٌّ معجز في غاية الفصاحة والبيان!!

[١٠٤] واعلموا أيها المؤمنون أن الكفار الذين لا يصدّقون بوجود الله ولا باليوم الآخر ولا بالقرآن فإن الله لا يرشدهم إلىٰ الهداية وطريق الحق في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم موجع؛ جزاء إصرارهم علىٰ الكفر والجحود.

وهذا من عدل الله سبحانه؛ فإنهم إذا رفضوا الهدىٰ وكابروا وعاندوا فلا يستحقون التوفيق والهدىٰ، وإنما يوفق للهدىٰ من الْتمسه وبحث عنه، قال تعالىٰ في الذين اختاروا الهدىٰ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى** ﴾[محمد:١٧].

[١٠٥] ثم بين جل وعلا أن اختلاق الكذب لا يصدر عن الرسول ﷺ وعن المؤمنين، وإنما يصدر عن الكفار والمنافقين الذين يتهمون الوحي بالكذب ولا يصدّقون بآيات الله الكونية والقرآنية، وأصرّوا علىٰ الضلال وزاغوا؛ فأزاغ الله قلوبهم، وأولئك هم الكاذبون فيما قالوا في حق الرسول ﷺ وحق القرآن.

[١٠٦] يخبر جل وعلا عن شناعة الذين تلفظوا بالكفر بعد أن أسلموا كعبدالله بن خطل وطعمه بن أبيرق، وغيرهم ممن ارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه ثم ماتوا ولم يتوبوا؛ ثم استثنىٰ سبحانه الذين أُكرهوا علىٰ قول كلمة الكفر إذا كانت قلوبهم مطمئنة بالإيمان كعمار بن ياسر وأصحابه، وهذه من خصائص أمة محمد ﷺ، ومن الآصار التي رفعها الله عنها، أما من شرح بالكفر صدرًا فاختاره وآثره علىٰ الإيمان؛ فعليه غضب الله وسخطه ولعنته في الدنيا، وله يوم القيامة عذاب عظيم.

[١٠٧] ثم أخبر سبحانه أنه هذا العذاب الأليم وهذا الغضب الذي سوف يتجرعه أولئك الكفار الذين ارتدوا عن دين الله؛ بسبب أنهم آثروا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، وركنوا إليها، ورفضوا الاستقامة ورحمة الله، واعلموا أن الله لا يهدي القوم الجاحدين، ولا يوفقهم للخير والصواب؛ بسبب اختيارهم الكفر وإصرارهم عليه، ولا شك أن عدم هدايتهم جزاء ولا ليس ابتداءً.

[١٠٨] ثم أخبر جل شأنه أن أولئك الكفار الذين أحبوا الكفر وآثروه علىٰ الإيمان قد ختم الله علىٰ قلوبهم بالكفر فلا يصل إليها نور الإسلام، وختم علىٰ أسماعهم فلا يسمعون داعي الله إلىٰ الحق، وختم علىٰ أبصارهم فلا يرون الحجج والبراهين الدالة علىٰ ألوهية الله، وأولئك هم الساهون عن وعد الله ووعيده.

وهذا الطَبْعُ هو طبع جزائي لإصرارهم علىٰ الكفر بعد البلاغ، وليس طبعًا ابتدائيًّا؛ لأنهم كسائر البشر مولودون علىٰ الفطرة.

[١٠٩] ثم بين سبحانه – أن أولئك الكفار الذين آثروا الكفر علىٰ الإيمان – أنهم حقًّا هم المغبونون الخاسرون الهالكون؛ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم، فقد فاتتهم الجنة ونعيمها، وليس لهم في الآخرة إلا النار، فبئست النهاية، وبئس المصير.

[١١٠] وبعد أن أخبر جل وعلا عن مصير أولئك الكفار الذين آثروا الكفر علىٰ الإيمان؛ أخبر سبحانه عن الثلة المؤمنة التي هاجرت في سبيل الله، فقال جل شأنه: اعلم يانبي الله أن ربك للذين هاجروا في سبيله، وتخلوا عن ديارهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، من بعد ما عُذِّبوا لترك دينهم، فلم يتركوه ولم يتنازلوا عنه؛ بل جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم لإعلاء كلمة الله في الأرض، وصبروا علىٰ مشاق هذه العبادة العظيمة؛ فهؤلاء يبشرهم الله بالمغفرة لهم، فهو واسع الرحمة بهم، وسيجازيهم الجزاء العظيم يوم القيامة.

۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

[١١١] واذكر يانبي الله يوم أن تأتي كل نفس يوم القيامة تخاصم عن نفسها طلبًا للنجاة، ودعاء الأنبياء يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم، ويومها تُطلب الشفاعة من الأنبياء، فيكون ردّهم: نفسي نفسي، فكيف بمن دونهم، وفي ذلك اليوم توفى كل نفس ما عملت من خير أو شرّ، وهم لا يظلمون، فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

[١١٢] وهذا مثل ضربه الله في بلدة كانت في أمن وأمان واطمئنان وأرزاق متوفرة، يأتيها رزقها هنيئًا سهلاً من كل جهة، فجحد أهلها هذه النعم، وذلك بعدم شكر المنعم وناصبوا الدعوة وصاحبها العداء؛ فأذاقهم الله أنواع البلاء والشقاء والخوف والجوع حتىٰ أكلوا أوراق الشجر والجيف، بسبب كفرهم وجحودهم لآيات الله.
هذه القرية قيل: هي مكة ضربها الله مثلًا ليتعظ بها الناس استجابة لدعاء الرسول ﷺ عليهم؛ حيث قال: «**اللهم اشدد وطأتك علىٰ مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»[١]، وقال ابن عباس رضي الله عنه: (هذا المثل كان لأهل مكة؛ فإنهم كانوا أهل حرم آمن، يأتيهم الرزق من كل مكان).
وقيل: إنها إيلةٌ من مدن فلسطين كفروا نعمة الله فجعلها الله مثلًا لأهل مكة، وهو مثل لكل أهل بلد بطروا نعمة ربهم الذي أغدق عليهم النعم التي تتوارد عليهم من البر والبحر.

[١١٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إليهم رسولًا منهم يعرفون صدقه وأمانته ولا ينكرونه؛ فأمرهم بالإيمان بالله وحده، وتَرْكِ عبادة ما سواه، فما كان منهم إلا أنهم كذّبوه، ولم يؤمنوا بما جاءهم به؛ بل عادوه وحاربوه، فأنزل الله بهم عذابه من الخوف بعد الأمن، والجوع بعد الرغد، وما ظلمهم الله شيئًا، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ببقائهم علىٰ الشرك، وتكذيب رسولهم، وتركهم التوحيد.

[١١٤] واحذروا أيها الناس أن تسيروا علىٰ شاكلة تلك القرية التي كفرت بأنعم الله فأذاق الله أهلها أنواع الشقاء والبلاء، وحرموا تلك النعم التي أنعم الله بها عليهم، أما إذا امتثلتم ما أمركم الله به من الطاعات، واجتنبتم ما نهاكم عنه من الذنوب والمعاصي؛ فعندئذٍ كلوا وتمتعوا بما أنعم الله به عليكم من الرزق الحلال الطيب من حيوانات وحبوب وثمار وترك الخبائث كالدم والميتة، ثم توجهوا لله بشكره علىٰ هذه النعم، وذلك بأن تعترفوا بها بقلوبكم، وتثنوا بها علىٰ من أنعم بها عليكم بشكره، ولا تصرفوها فيما لا يرضي الله إن كنتم مخلصين حقًّا في عبادته.

[١١٥] واعلموا أن الله حرَّم عليكم أكل الميتة – عدا الجراد والسمك –، وحرَّم عليكم الدم المسفوح، وحرَّم عليكم أكل لحم الخنزير وشحمه وجميع أجزائه، وحرَّم عليكم أكل ما ذُبح لغير الله، ولكن من ألجأته الضرورة إلىٰ أكل شيء من هذه المحرمات كأن يخاف الهلاك إن لم يأكل منها؛ فقد أباح الله لهذا المضطر الأكل منها بقدر ما يبقيه علىٰ الحياة، وبشرط ألا يكون في ذلك معتديًا علىٰ أحد، وألا يتجاوز حد الضرورة، وهذا من رحمة الله تعالىٰ بعباده، ثم بين سبحانه أنه كثير المغفرة والتجاوز عن عباده، وكثير الرحمة والرأفة بهم.

[١١٦] واحذروا أيها الكفار أن تقولوا الكذب والافتراء بألسنتكم، فتحلّوا وتحرّموا من تلقاء أنفسكم، وحسْب أهوائكم، ثم تنسبون ذلك إلىٰ الله؛ فإنّ هذا من افتراء الكذب عليه سبحانه وتعالىٰ، واعلموا أن الذين يفترون علىٰ الله الكذب وينسبون إليه أقوالًا مختلقة من قبل أنفسهم لا يفلحون في الدنيا والآخرة.

[١١٧] ثم بين جل شأنه أن هؤلاء الكفار إن تمتعوا في الدنيا فمتاعهم قليل زائف لا يدوم، ثم يكون مصيرهم ومأواهم النار خالدين فيها، ولهم فيها أشدَّ العذاب.

[١١٨] ثم أخبر سبحانه أنه حرَّم علىٰ اليهود أكثر مما حرّم علىٰ أمة محمد ﷺ، وقد أخبر سبحانه نبيه ﷺ من قبل أنه حرَّم عليهم كل ذي ظفر، وشحوم البقر والغنم، إلا ما حملت ظهورها أو أمعاؤها أو ما اختلط بعظم، وذلك بسبب طغيانهم ومجاوزتهم الحد، فكان تحريم ذلك عقوبة لهم، وبين سبحانه أنه ما ظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٦)، ومسلم (٦٧٥).

[١١٩] واعلم يانبي الله أن ربك للذين فعلوا الذنوب والمعاصي جهلًا منهم لعاقبتها، ثم عادوا إلىٰ الله تائبين نادمين مما اقترفوه من الآثام، وأصلحوا نفوسهم وأعمالهم بأنواع الخير والطاعات؛ فإن ربك كثير المغفرة والرحمة لهم. ولا شك أن من عمل المعصية سفهًا فهو جاهل؛ ولو كان عنده علم كثير، قال ابن عباس: كل من عصىٰ الله فهو جاهل، وقال مجاهد: كل من عصىٰ الله خطأ أو عمدًا فهو جاهل حتىٰ ينزع عن الذنب، وقال الدكتور سلمان العودة: إن شهوة المعصية تغطي علىٰ العقل فيكون بذلك جاهلًا ويتصرف تصرف الجاهلين. وقد أعجبني كلامه هذا، فهو تحليل وجيه وهو أوجه من كون الإيمان يُرفع ثم يعود إذا تاب.

[١٢٠] يخبر جل وعلا أن إبراهيم كان إمامًا يُقتدىٰ به في كل خير وصلاح، وكان مطيعًا قائمًا بأمر الله، مائلًا عن كل الصوارف عن طاعة ربه والإخلاص له، ولم يكن من الذين أشركوا مع الله غيره.

[١٢١] وكان عليه السلام معترفًا بنعم الله عليه، وقد اختاره الله واصطفاه للنبوة والرسالة، وأرشده إلىٰ الطريق المستقيم وهو الإسلام.

[١٢٢] وفضله سبحانه في الدنيا بخصال حسنة؛ فجعله قدوة، وخلّد ذكره في العالمين، ورزقه رزقًا واسعًا، ووهب له ذرية صالحة، ثم هو يوم القيامة من المقربين أصحاب المنازل العالية والدرجات الرفيعة.

[١٢٣] ثم أخبر سبحانه أنه أوحىٰ إلىٰ نبيه ﷺ أن يسير علىٰ نهج إبراهيم ويتبع ملته في التوحيد والدعوة إليه، والتحذير من الشرك؛ فإن إبراهيم الخليل كان أبعد ما يكون عن الشرك بالله.

[١٢٤] واعلموا أن الله جعل تعظيم يوم السبت وتحريم العمل فيه ومن ذلك صيد الأسماك أمرًا خاصًّا باليهود الذين اختلفوا فيه علىٰ نبيهم موسىٰ؛ وليس لشريعة إبراهيم أو محمد ﷺ شأن في ذلك، ثم احتالوا وجعلوا في الشواطئ والبحر أماكن إذا دخلتها الأسماك يوم السبت لا تخرج منها؛ فإذا جاء يوم الأحد استخرجوها؛ فكانت عقوبة مخالفتهم أن مسخهم الله قردة وخنازير، واعلم يا نبي الله أن ربك سوف يحكم بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه.

[١٢٥] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ وأتباعه بالدعوة بالرفق واللين، والمجادلة بالتي هي أحسن، وهو أمر لكل الدعاة في كل زمان ومكان، وذلك بأن ينصحوا للناس بأحسن الطرق وألطفها، لأنه ليس علىٰ الرسول إلا البلاغ والتوجيه، أما هداية الناس فعلىٰ الله وحده، فهو أعلم بمن حاد من خلقه عن الطريق المستقيم، وأعلم بمن سلكه، وسوف يجازي كلًا بما فعل.

[١٢٦] ثم ذكر جل وعلا الأخذ بالثأر، وأنه لا تصح الزيادة والانتقام بأكثر من المِثْلِ؛ فمن أراد القصاص ممن اعتدىٰ عليه فلا

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

يجوز له أن يزيد عمّا فُعِل به، ثم بين سبحانه أن من صبر فهو خير له في الدنيا بالنصر وفي الآخرة بالأجر العظيم.

قال القرطبي: جمهور المفسرين أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه لمّا قُتل يوم أحد ومُثِّل به؛ فغضب ﷺ وحزن حزنًا شديدًا، وتوعد المشركين بأن يعمل بهم إن أظفره الله عليهم أضعاف ما عملوا بعمِّه؛ لكن الله أمره بالعدل والإنصاف، وأن لا يعتدي في القصاص.

[١٢٧] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ بالصبر علىٰ مشاق الدعوة إلىٰ التوحيد، والتحذير من الشرك؛ فإنه سيلقىٰ في سبيل ذلك صنوفًا من الأذىٰ، واعلم يانبي الله أنّ هذا الصبر مستمدٌّ من الله، فهو الذي يثبتك ويؤيدك وينصرك، ولا تحزن علىٰ المشركين إذْ لم يستجيبوا لك، ولم يؤمنوا بك، ولا يضيق صدرك لمكرهم، ولا تحزن لكيدهم، ولا تجد في نفسك حرجًا.

[١٢٨] ثم ختم جل وعلا السورة بهذه الآية، وبيّن فيها أنه مع الذين اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأنه مع المحسنين في عباداتهم ومعاملاتهم وفي أداء فرائضه وحقوقه، كما أمر بها سبحانه في كتابه وبينها ﷺ في سنته.

والمقصود: هو المعية الخاصّة، والتي تعني الّلطف بهم ورعايتهم ومضاعفة أجورهم وتوفيقهم؛ لأن معيته سبحانه العامة حاصلة لجميع خلقه.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ الَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى
الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ
هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾
وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي الْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا
بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ
الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ
عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا
﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا
جَآءَ وَعْدُ الْأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

سورة الإسراء

سورة الإسراء مكيّة وآياتها إحدىٰ عشرة ومائة آية.

[١] بدأت السورة بتمجيد الله نفسه وتقديسها وتنزيهها؛ فهو أهل للثناء والمجد، ومن ذلك أنه شرَّف نبيه ﷺ برفعه إلىٰ العالم العلوي بروحه وجسده يقظة لا منامًا، وأكرمه بمواقف في الإسراء؛ مع أن مدة الإسراء كانت جزءًا من الليل، ثم أخبر سبحانه أنه أسرىٰ بعبده، وهذا إعلام بشرف العبودية لله، وتأكيد بأن الإسراء كان بالجسد والروح معًا، لأن العبد اسم للروح والجسد.

ثم إن الله جل وعلا أسرىٰ به ليلًا مع أن السري لا يكون إلا ليلًا ولكن لتأكيد السري، ونصب ﴿لَيْلًا﴾ وجعلها ظرفًا لتقليل مدة السري، وأنه جزء من الليل، وبين أن الإسراء بدأ من المسجد الحرام؛ حيث كان ﷺ في بيت أم هانئ عندما أسري به وهو في طرف من المسجد الحرام.

وأخبر سبحانه أن الجهة التي أسري إليها هي المسجد الأقصىٰ، وهو بيت المقدس الموجود في بلاد الشام في فلسطين، وسمي بالأقصىٰ لأن الرحلة إليه عندهم تستغرق قريبًا من الشهر؛ ولأنه لا مسجد بعده في علمهم.

وأخبر سبحانه أنه بارك في المسجد الأقصىٰ والبلاد التي حوله؛ فجعل أرض الشام كلها مباركة خِصْبة الأرض جيدة الثمار كثيرة الفواكه، وزاد بركاتها أنَّ جُلَّ أنبياء بني إسرائيل كانوا فيها، وعمت رحمته الجزيرة فبارك في الكعبة بمكة ومسجدها وحرمها.

وختم الآية مبينًا سبحانه أنه السميع لجميع الأصوات والأقوال، البصير بجمع الأعمال والأحوال، لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

[٢] ثم أخبر سبحانه أنه أرسل موسىٰ بالتوراة التي جعل فيها الهدىٰ والنور لحياة بني إسرائيل وآخرتهم، وعهد إليهم فيها أن لا يعتمدوا ويتوكلوا إلّا عليه سبحانه.

[٣] واعلموا يا بني إسرائيل أنكم من ذرية أبي البشر الثاني نوح عليه السلام الذين آمنوا به فأنجاهم الله معه في السفينة، واعلموا أن نوحًا كان عبدًا كثير الشكر لله، فكونوا يا بني إسرائيل من الشاكرين لنعم الله اقتداءً بنوح أو إبراهيم عليهما السلام.

[٤] ثم أخبر سبحانه بني إسرائيل في التوراة خبرًا مؤكدًا بما سيكون منهم؛ حيث أخبر أنه لا بد أن يقع منهم إفساد في أرض الشام الأرض المقدسة مرتين، بارتكاب المعاصي وسفك الدماء والجور والظلم والاستكبار والبغي والعدوان، وليس هذا تكليفًا لهم، ولكنه إعلام لهم أنهم بطوعهم واختيارهم سيفعلون ذلك إفسادًا بعد إفسادٍ؛ وخروجًا علىٰ تعاليم التوراة؛ فالله علم بما كان وما يكون وليس شيء خارج عن إرادته الكونية والشرعية.

[٥] ثم قال سبحانه: فإذا وقع منكم يا بني إسرائيل الإفساد الأول سلطنا عليكم عبادًا لنا ذوي قوة وشجاعة وبطش في الحرب؛ فينتصرون عليكم، ويطوفون في دياركم قتلًا ونهبًا لأموالكم وسبيًا لأولادكم، وهذا وعد من الله لابد من وقوعه بسبب بغيكم وإفسادكم وظلمكم. وقوله سبحانه: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾: هذه ليست إضافة تكريم؛ لأنهم كفار والكفار لا كرامة لهم، وإنما تفسيرها: أنهم عباد لله كسائر المخلوقات، أي: مملوكين لله كسائر مخلوقاته.

[٦] وبعد أن تاب بنو إسرائيل ورجعوا إلىٰ ربهم وأحسنوا أعمالهم واتبعوا رسلهم، أعاد الله لهم الغلبة والظهور علىٰ أعدائهم وأجلوهم من ديارهم، وكثَّر سبحانه أموالهم وأولادهم وقواهم وجعلهم أكثر عددًا من عدوهم، وتكونت لهم دولة سادت العالم علىٰ عهد داود وسليمان عليهما السلام.

[٧] واعلموا يا بني إسرائيل أن من يفعل الأعمال الصالحة فإن ثوابها ونفعها عائد له، وكذلك من يعمل الأعمال السيئة فإن ضررها عائد عليه؛ فإذا جاء موعد إفسادكم الثاني سلط الله عليكم أعداءكم وأعطاهم القوة ليتغلبوا عليكم حتىٰ تظهر آثار الذلة والهوان علىٰ وجوهكم من شدة ما تلقون من الإيذاء والقتل، ثم يدخلون المسجد الأقصىٰ فيعمرونه بالصلاة كما دخلوه أول مرة، ويدمرون ما أعليتم من مبانٍ شاهقة ومصانع وحصون وقلاع تدميرًا كاملًا.

يقول بعض المفسرين ومنهم الشعراوي: سيكون ذلك علىٰ يد المسلمين، كما قال تعالىٰ في آخر السورة: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اسْكُنُواْ الْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْأٓخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء:١٠٤]، أي: يتجمعون في فلسطين من كل دولة كما هو الحاصل الآن.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

[٨] عسىٰ ربكم يا بني إسرائيل أن يعفو عنكم متىٰ تبتم وأخلصتم في أعمالكم وأقوالكم، أما إذا رجعتم إلىٰ الإفساد والظلم والمعاصي فإننا سوف نعود إلىٰ عقابكم بالقتل والتعذيب والإذلال وخراب الديار، واعلموا أن الله جل وعلا جعل جهنم للكافرين الجاحدين آياته سجنًا وفراشًا حاويًا لهم لا يستطيعون الهروب منه.

[٩] يخبر جل وعلا أن هذا القرآن الذي نُزِّل علىٰ محمد ﷺ يرشد الناس إلىٰ أقوم الطرق والسبل الموصلة إلىٰ رضوانه، وهي ملة الإسلام؛ لاشتمالها علىٰ الإيمان وتوحيد الله، مضافًا إليه ما يوضحه وهو السنة النبوية، وهذا عام لكل البشر، أما بشارته لمن التزموا تعاليمه، وعملوا الأعمال الصالحة التي أمرهم الله بها؛ وانتهوا عما نهاهم الله عنه، فهي أنه أعد لهم ثوابًا كبيرًا عنده.

[١٠] وأخبر سبحانه أن الذين لم يصدقوا باليوم الآخر وما فيه من الجزاء والحساب؛ فإنه أعد لهم في نار جهنم عذابًا موجعًا شديدًا جزاء تكذيبهم.

[١١] يخبر جل وعلا أن الإنسان في بعض الأحيان عند الغضب والضجر يدعو علىٰ ولده أو نفسه بالشر، كما يدعو بالخير، ولو أنه سبحانه استجاب دعاءه لهلك وخسر خسرانًا كبيرًا، وكان الإنسان متسرعًا بالدعاء بالشر علىٰ نفسه أو غيره وخاصة الدعاء علىٰ الأولاد فخطرها عظيم ونتائجها وخيمة.

[١٢] يبين جل وعلا أن خلق الليل والنهار آيتان من آياته التي تدل علىٰ عظمته وقدرته، ومن حكمته أنه جعل الليل مظلمًا لسكون الناس وراحتهم، وجعل النهار مضيئًا ليسعىٰ الناس في مكاسبهم ومعايشهم، ولإنضاج الثمار ونحو ذلك، وليستدلوا من تعاقبها علىٰ معرفة السنين والحساب والأيام والشهور، ومعرفة ما يتعلق بالأوقات المحددة للديون والمواثيق وأوقات العبادات ونحو ذلك، وقد وضّح جلَّ وعلا كل شيء وفصّله تفصيلًا شافيًا كافيًا جليًّا لا خفاء فيه.

[١٣] يخبر جل وعلا أن من كمال عدله أنه يجازي كل إنسان علىٰ أعماله التي عملها في حياته الدنيا من خير أو شر، ولا يحاسب أحد بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله، أي: أن كل إنسان ملزم بأعماله التي عملها، وقد جعل الله عن يمين كل إنسان وشماله ملكين يكتبان عمله الحسن والسيئ، ثم إذا توفي طُمرت معه في القبر عند عنقه.

[١٤] ثم إذا خرج ذلك الإنسان للحساب أخرج الله معه هذه الصحف التي سجلت فيها أعماله وجُعلت أمامه مفتوحة، ثم يُؤمر أن يقرأ بنفسه ما فيها من أعمال الخير والشرّ؛ فيقرأ حتىٰ لو كان أميًّا؛ فإن الله يجعل له القدرة علىٰ ذلك؛ ليرىٰ ما عمل بنفسه، وهذا من أعظم العدل أن يقال للإنسان: حاسب نفسك بنفسك، كفىٰ بنفسك اليوم حسيبًا عليك.

[١٥] يخبر جل وعلا أن من اهتدىٰ إلىٰ الطريق المستقيم وعمل بما أمره الله ورسوله، فإن ثمرة ذلك راجع إليه وحده، وأن من ضل عن الطريق المستقيم واتبع هوىٰ نفسه، فإن عقاب ذلك راجع عليه وحده، واعلموا أن من عدل الله ورحمته بعباده أن كل نفس لا تحمل إلا وزرها، ولا يُسأل أحد إلا عمَّا ارتكب هو من الذنوب والمعاصي، ومن عدله أنه لا يعذب أحدًا من خلقه إلا إذا بلغته الرسالة، وأقيمت عليه الحجة فامتنع ورفض الحق.

[١٦] يخبر جل وعلا أنه إذا أراد أن يهلك قرية بسبب ذنوب أهلها وظلمهم؛ فإنه يأمر سادتها وأهلها بالتكاليف الشرعية؛ فإذا عصوه وخالفوا أمره واتبعوا أهواءهم، حق عليهم العذاب الذي لا مرد له؛ فكانت النتيجة أن الله دمرهم وأبادهم وأهلكهم جميعًا.

ومعلوم كيف يكون فعل المترفين في استباحة المحرمات وإعطاء أنفسهم كل ما تهواها.

[١٧] واعلم يانبي الله أننا أهلكنا كثيرًا من الأمم التي جاءت بعد زمن نوح عليه السلام كقوم عاد وثمود وغيرهم؛ بسبب رفضهم الهدىٰ والنور الذي جاء به أنبياؤهم، وكفىٰ بربك إحاطة واطلاعًا أنه عالم بكل أعمال عباده لا يخفىٰ عليه شيء مما عملوا؛ لأنه جل في علاه يعلم السر وأخفىٰ.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾

[١٨] يخبر جل وعلا أن من فضَّل الدنيا علىٰ الآخرة وجعل عمله فيها استثمارًا واستمتاعًا ومقدمًا علىٰ عمل الآخرة؛ يسَّر الله له ذلك، وأعطاه ما يريده وعلق ذلك بإرادته سبحانه إذ لا شيء يخرج عنها، ثم يجعل له سبحانه في الآخرة جهنم يدخلها ويذوق حرَّها ولهيبها، مطرودًا ومبعدًا من رحمة الله.

[١٩] ثم أخبر أن من فضَّل الآخرة علىٰ الدنيا وعمل لها الأعمال الصالحة التي توصله إلىٰ رضوان الله، وهو مؤمن بالله ومصدق برسله، ومؤمن بثواب الله العظيم، فأولئك كان عملهم للآخرة عملًا مقبولًا وسعيهم سعيًا مشكورًا، يجزون عليه بما يستحقون من الثواب الجزيل عند رب العالمين.

[٢٠] ومن حكمته جل وعلا أن أولئك الفريقين الذَيْن عمل أحدهما للدنيا والثاني عمل للآخرة سوف يرزقهم ربهم علىٰ حد سواء؛ فإنه سبحانه يرزق المؤمنين والكافرين في الدنيا، أما في الآخرة فكلٌ يأخذ جزاءه بحسب عمله؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. واعلم يانبي الله أن عطاء ربك لم يكن ممنوعًا من أحد مؤمنًا كان أو كافرًا؛ لأنه خلق الجميع وتكفل بأرزاقهم، ثم في الآخرة يستحق كل فريق نتيجة عمله.

[٢١] انظر يانبي الله كيف فضل جل وعلا بعض الناس علىٰ بعض في الدنيا، في الرزق والعمل، فهذا غني وهذا فقير، وهذا قوي وهذا ضعيف ونحو ذلك، أما في الآخرة فإن الناس يتفاوتون أكبر من تفاوتهم في الدنيا، ويتفاضلون تفاضلًا أكبر؛ فالمؤمنون جعلهم الله في الجنة درجات، يتفاضلون فيها بحسب أعمالهم، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والكفار جعلهم الله في النار دركات، يتفاوتون فيها بحسب شقاوتهم وظلمهم وكفرهم.

[٢٢] يحذر جل وعلا عباده أن يجعل أحدهم مع الله شريكًا له في عبادته، فيكون مذمومًا من الله ومن أوليائه المؤمنين، ويكون مخذولًا فلا يجد من يعينه أو ينصره في الآخرة، وهذا من أعظم الذل والخسران.

[٢٣] بعد أن حرّم الله علىٰ عباده الشرك أمرهم بأن يفردوه وحده بالعبادة، ثم أوصىٰ الأبناء ببر الوالدين والإحسان إليهما، وإذا بلغ أحد الوالدين أو كلاهما سن الشيخوخة فيجب علىٰ الابن خدمتهما، ولا يؤذيهما بأقل وأدنىٰ أذية، ولو بكلمة أف، ولا يجرح مشاعرهما إذا طلبا شيئًا ليس عند ابنهما، وعليه أن يقول لهما قولًا لطيفًا، وأن يعدهما خيرًا بأن يشعرهما أنه سوف يحضر طلباتهما إذا تيسر.

قال الشيخ الشعراوي: يربط الله غالبًا بر الوالدين بعبادته؛ لأن الوالدين السبب الثاني لوجود الإنسان، والله هو السبب الأول؛ فمن لم يُقدِّر السبب الثاني جدير بأن لا يُقدِّر السبب الأول، وقد صدق رحمه الله.

[٢٤] وعليك أيها الإنسان أن تتواضع لوالديك وتلطف بهما، ولا ترفض لهما طلبًا في المعروف، وأن تدعو لهما بالرحمة والمغفرة أحياءً وأمواتًا؛ جزاء ما بذلا من جهد في رعايتك والعناية بك يوم أن كنت ضعيفًا محتاجًا لرعايتهما وحنانهما.

[٢٥] واعلموا أيها الناس أن الله يعلم بما تنطوي عليه نفوسكم وضمائركم من خير أو شر؛ سواءً كنتم تضمرون البر بآبائكم، أم كنتم تخفون الإساءة إليهما، ومع ذلك فإن كان مقصدكم في برهما هو مرضاة الله وما يقربكم منه، فإنه سبحانه كان للتائبين من تفريطهم في حق والديهم أو في حق غيرهم غفورًا، وأنه يعفو عمّا يصدر منكم مما هو من مقتضىٰ الطبائع البشرية.

[٢٦] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يؤدي حقوق القرابة كالبر والصلة والإحسان، وأن يعطيهم شفقة وإحسانًا وتكرمًا، ويدخل في أمره كل أمته، وهذا في الصدقة العامة، أما الزكاة فهي حق واجب عليه وعلىٰ كل من تجب عليه الزكاة من أمته، أما بالنسبة للوالدين فإذا كانا فقراء فيجب أن ينفق عليهما ولا يجوز اعطاؤهما من الزكاة، ثم أمره أن يعطي المسكين العاجز عن الكسب ما يحتاج إليه من المال والغذاء والكلمة الطيبة، ويعطي ابن السبيل الذي انقطعت به الطريق ما يبلغه طريقه إذا احتاج إلىٰ ذلك، ثم ذكر قاعدة اقتصادية ما التزم بها شخص فشكىٰ الفقر أبدًا، وهي: نهيه عن التبذير، وهو إنفاق المال علىٰ وجه الإسراف والتبذير في غير طاعة الله وفي غير فائدة، وعلىٰ العبد أن يلزم الوسط والعدل في الإنفاق وغيره.

[٢٧] ثم بين سبحانه أن المبذرين إخوان للشياطين؛ لأنهم بتبذيرهم يشبهون الشيطان في صفاته القبيحة؛ لأن الشيطان كثير الكفران والجحود لنعم الله.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

[٢٨] ثم بين جل وعلا ما يجب علىٰ الرسول ﷺ فعله في حال عدم قدرته علىٰ مساعدة ذوي القربىٰ والمسكين وابن السبيل الذين أُمره الله بمساعدتهم؛ لأن طلبهم غير متوفر، أو كان هناك مبررٌ لحجبه عنهم، فقل لهم قولًا لطيفًا لا يُشعرهم ببخلٍ منك أو عدم اهتمام، وأشعرهم أنك سوف تحضر لهم طلبهم إذا تيسر ذلك.

[٢٩] ثم أمر سبحانه بأن لا يكن الإنسان بخيلًا ممسكًا للمال، ويمتنع عن الإنفاق في سبيل الخير؛ كمن يده مشدودة إلىٰ عنقه لا يستطيع أن ينفق، ولا يسرف في الإنفاق والبذل والعطاء ويتوسع في ذلك، فإنك بالبخل تكون مذمومًا ويلومك الله والناس، وبالإسراف سوف تفتقر ثم تتحسر وتندم علىٰ إسراف المال وإضاعته.

[٣٠] واعلموا أيها الناس أن الله يوسع رزقه لمن يشاء من عباده، ويمسكه ويضيقه ويقدره علىٰ من يشاء من خلقه، وأنه يعطي كل إنسان ما يتحمل وفْقَ علمه وحكمته، إنه جل وعلا لطيف بعباده، وخبير ببواطنهم وبظواهرهم وطبائعهم، وإنه عليم بأحوالهم، لا يخفىٰ عليه شيء منها.

[٣١] يحذر جل وعلا عباده من أن يقتلوا أولادهم بعد ولادتهم خشية العار أو الفقر، ثم بين سبحانه أنه تكفل برزق الجميع الآباء والأبناء، ثم بين أن قتلهم لأبنائهم خطأ كبير وإثم عظيم وجريمة منكرة، تؤدي إلىٰ الشقاء والخسران في الدنيا والآخرة.

[٣٢] ثم نهىٰ جل وعلا عباده عن الاقتراب من الزنا، أي: البعد عن المقدمات التي تفضي إلىٰ الوقوع في هذه الفاحشة الكبيرة والعظيمة، كالخلوة بالنساء والاختلاط بهن والنظر إليهن ونحو ذلك، ثم بين سبحانه أن الزنا فاحشة؛ وأن طريقه طريقٌ سيِّء يؤدي إلىٰ غضب الله، وإلىٰ إشاعة الفساد والأمراض الخبيثة في الأفراد والمجتمعات، كما أنه يؤدي إلىٰ اختلاط الأنساب.

[٣٣] ثم نهىٰ جل وعلا عن قتل النفس المعصومة إلا إذا ارتكبت ما يوجب قتلها، ولا شك أن قتل النفس المعصومة من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله، واعلموا أن من قتل مظلومًا فإن أولياءه حجتهم بالغة وهم مؤيدون من الله، ولهم أن يثأروا للمقتول، إما بالقصاص أو الدية أو العفو، ولا يصح للولي أن يتجاوز الحد الشرعي في القصاص، بأن يقتل بالواحد اثنين، أو أن يُمثِّل بالقاتل ونحو ذلك، ثم اعلموا أن الله معين لولي المقتول علىٰ القاتل حتىٰ يتمكن من إقامة الحد عليه، أو أخذ الدية منه.

[٣٤] يأمر جل وعلا عباده بعدم الاقتراب من مال اليتيم، والنهي عن المقاربة تحذير بليغ فما بالك بالمباشرة، ثم بين سبحانه أنه لا مانع من التجارة في ماله بأحسن الطرق التي لا تعرضه للأخطار، وأنه لا مانع من الإنفاق عليه بغير إسراف، ويستمر ذلك حتىٰ بلوغه وظهور علامات العقل والرشد عليه، وعندها يجب علىٰ الولي أن يسلمه ماله كاملًا ويشهد علىٰ ذلك شهودًا، ثم أمر الله بالوفاء بالعهود، وهذا يشمل الوفاء بالعهود التي بين العبد وبين الله، والوفاء بالعهود التي بين العبد وبين الناس، واعلموا أنكم مسئولون أمام الله عن الوفاء بالعهود؛ فمن أوفىٰ بالعهد نال الأجر والثواب العظيم، ومن لم يوفِ نال الإثم العظيم.

[٣٥] ثم أمر جل وعلا عباده بإتمام الكيل عند البيع والشراء، وأن يزنوا بالميزان السوي دون زيادة أو نقصان، وبيَّن أن إيفاء الكيل والوزن فيه خير لكم من البركة والنماء، وهو الأفضل والأحسن عند عامة الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة.

[٣٦] يحذر جل وعلا عبادة من تتبع ما ليس لهم به علم ولا يعنيهم، بل يجب التأكد والتثبت؛ وأن الإنسان مسؤول عمّا يقترفه بجوارحه، فإن استعمل جوارحه في الخير نال الأجر والثواب، وإن استعملها في الشر نال العقاب والعذاب.

[٣٧] ثم حذر جل علا عباده من أن يمشي أحدهم مشية المتكبر المختال، وفي هذا تهكم وسخرية بالمبطرين المتكبرين علىٰ الناس، واعلم أيها الإنسان أنك لن تبلغك نفسك وقدرتك بأن تخرق الأرض، ولن تبلغ الجبال في الطول والعلو مهما تكبرت وتعاليت.

[٣٨] واعلموا أيها الناس أن كل ما تقدم من أوامر ونواهٍ يكره الله سيِّئها ويأباها ويبغضها، كما أنه مكروه ومبغض عند الناس، أما الأوامر والأفعال الحسنة كالوفاء بالعهد وغيره فإن الله يحبها ويرضاها لعباده، كما أن الناس يحبونها ويحمدونها.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾

[٣٩] واعلم يانبي الله أن التكاليف السابقة من الحِكَم والهُدىٰ هي مما أوحاه الله إليك فاحذر من الوقوع فيها، ولا شك أنه ﷺ معصوم من ذلك ولكن المقصود هو تحذير أمته منها، فيا أيها الإنسان احذر أشد الحذر أن تجعل مع الله شريكًا له في العبادة، فإن فعلت فسيكون مصيرك أن تلقىٰ في نار جهنم ثم تلومك نفسك ويلومك الناس، وتكون مطرودًا مبعدًا من رحمه الله؛ لأن الشرك محبط للأعمال.

[٤٠] ثم خاطب جل شأنه المشركين فقال: هل خصَّكم أيها المشركون الله بالصفوة من الذرية؟ فجعل لكم الأولاد الذكور، وجعل لنفسه بناتًا وهم الملائكة؟ يعني: فضلكم علىٰ نفسه؛ إنكم لتقولون علىٰ الله قولًا قبيحًا وشنيعًا لا يليق به سبحانه وتعالىٰ.

ومقصود المولىٰ جل وعلا: انتقادهم وإشعارهم أنهم ما قدسوا الله ولا قدروه حق قدره؛ فهو سبحانه الغني عن الولد وعن البنت؛ فالكل عبيده.

[٤١] يخبر جل علا أنه نوَّع في هذا القرآن فاشتمل علىٰ آيات الأحكام والأمثال والمواعظ والقصص والأخبار والوعد والوعيد؛ وكرر المواعظ ليتعظ الناس ويتدبروا معانيه ويكون حجة عليهم، ولكن مع ذلك ازداد الظالمون بعدًا ونفورًا وهروبًا عن الهدىٰ والخير والحق.

[٤٢] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: لو كان مع الله آلهة أخرىٰ غيره كما تزعمون؛ لاتخذت هذه الآلهة طريقًا إلىٰ محاربة الله والاستيلاء علىٰ بعض ملكه.

[٤٣] ولكنه جل في علاه واحد أحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وتنزّه جل شأنه وتقدّس عمّا يقول ويزعم هؤلاء المشركون الضالون، وعلا جل في علاه علىٰ خلقه علوًّا عظيمًا يليق بجلاله وعظمته.

[٤٤] يخبر جل وعلا أن السماوات والأرض وما فيها من المخلوقات؛ يسبح الله وينزهه ويقدسه ويثني عليه ويحمده ويمجده، ولكنكم أيها الناس لا تفقهون تسبيحهم بسبب اختلافكم في التكوين الخَلْقِي وفي اللغات، واعلموا أن الله سبحانه حليم بعباده لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، وأنه كثير المغفرة يغفر ذنوب وزلات من عاد إليه وأناب، واستغفر ربه وتاب.

[٤٥] يخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ بأنه إذا قرأ القرآن علىٰ الكفار الذين لم يؤمنوا باليوم الآخر، وحاربوا الدعوة؛ فإن الله جعل بينه وبينهم غطاءً ساترًا يستر عقولهم عن فهم القرآن، وذلك عقابًا لهم علىٰ كفرهم وجحودهم وإنكارهم لدين الله. ولْيُعلم أن هذا الحجاب والغطاء أو الختم في هذه الآية وما ورد مثله في كتاب الله لم يكن ابتداءً منه جل وعلا، وإنما حصل ذلك جزاءً لهم لمحاربة الدعوة وصدّ غيرهم عن الهدىٰ ونفورهم عنه، ولم يكن هذا الحجاب خاصًّا بكفار مكة الذين تنزلت فيهم، ولكنه عام لكل من سلك مسلكهم وحارب الإسلام والدعاة في كل زمان ومكان.

ومعلوم أنه لا يهتدي للحق إلا من رغب فيه والْتمسه وتشوق إليه، أما من إذا عُرض عليه نفر وهرب فهذا هو المستحق للعقوبة والطبع والختم علىٰ قلبه.

[٤٦] وجعلنا علىٰ قلوب هؤلاء الكفار أغطية وأغشية لا يفهمون معها القرآن، وجعلنا في آذانهم صممًا لكي لا يسمعوه؛ كل ذلك عقوبة لهم علىٰ كفرهم وجحودهم وإنكارهم لدين الله ومحاربتهم للدين والدعوة، واعلم يارسول الله بأنك إذا ذكرت ربك في القرآن وحده غير مقرون به آلهتهم، ودعوت قومك لتوحيد الله وإفراده بالعبودية، ونهيتهم عن الشرك به، ولّوا علىٰ أدبارهم نفورًا من قولك، وكرهًا لما جئت به، وعنادًا واستكبارًا.

[٤٧] واعلم يا نبي الله أننا نعلم مقاصد المشركين السيئة؛ حيث يستمعون إليك وهدفهم التقاط شيء يأخذونه للطعن فيك وفي القرآن، ونعلم بما يتناجون به بينهم؛ حيث يقولون لبعضهم البعض: إنكم تتبعون رجلًا أصابه السحر فتغير عقله بسببه.

[٤٨] تفكر وتأمل يانبي الله كيف بلغ الجحود والضلال بهؤلاء المشركين؛ حيث إنهم وصفوك بأشنع الأوصاف، فقالوا: إنك ساحر وشاعر ومجنون وغير ذلك، فاعلم أنهم بهذه الأوصاف لك قد ضلوا عن الحق ضلالًا بعيدًا، ولهذا فإنهم لا يهتدون إلىٰ طريق الحق والصواب والهدىٰ؛ بل إنهم بهذا حرموا أنفسهم الهدىٰ.

[٤٩] يخبر جل وعلا عن قول المشركين المنكرين للبعث الذين يقولون استنكارًا وتكذيبًا: فإذا بَلِيَتْ يامحمد أجسامنا وتحلّلت إلىٰ تراب ورفات، أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا؟ فتعود لنا الحياة مرة أخرىٰ.

۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

٢٨٧

[٥٠] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل إعلامهم بعظمة قدرة الله: اعلموا أيها المشركون لو تحجرت أجسامكم أو تحولت إلىٰ حديد لكان الله قادرًا علىٰ إعادتها وإحيائها كما كان قادرًا علىٰ إحيائها وإماتتها.

[٥١] وقل لهم يا نبي الله أيضًا: وكذلك لو تخيلتم أن تكونوا خلقًا آخر أعظم من الحجارة والحديد؛ فاعلموا أن الله قادر علىٰ إعادته وبعثه من جديد، وعند سماعهم هذه الإجابة سيقولون لك: فمن يردنا إلىٰ الحياة بعد الموت؟، فقل لهم: الذي خلقكم وأنشأكم أول مرة من العدم، عندها سوف يحركون رؤوسهم استهزاءً وتعجبًا، ويقولون مستبعدين وقوعه: متىٰ يكون هذا البعث؟ فقل لهم: احذروا فإنه آتيكم قريبًا.

[٥٢] واذكروا أيها المنكرون للبعث يوم أن يناديكم ربكم للبعث والنشور فتلبون نداءه بسرعة حامدين الله ومنقادين إليه، ولهول الموقف في ذلك اليوم يوم القيامة؛ فإنكم تظنون عند بعثكم أنكم ما أقمتم في الدنيا إلا زمنا قليلًا.

[٥٣] يأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يرشد المؤمنين أن يستعملوا في مناقشاتهم ومحادثاتهم لعموم الناس الألفاظ الحسنة والطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك فإن الشيطان سوف يلقي بنهم العداوة والفساد والبغضاء والخصام، لأن الشيطان عدو للإنسان عداوة ظاهرة.

[٥٤] واعلموا أيها الناس أن ربكم أعلم بكم من أنفسكم، إن يشأ يرحمكم بفضله فيوفقكم للإيمان والطاعة، أو إن يشأ يعذبكم بعدله فيميتكم علىٰ ضلالكم وكفركم، واعلم يارسول الله بأننا ما أرسلناك عليهم رقيبًا؛ وليس لك الحق في أن تلزمهم بالإيمان والإسلام؛ بل أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، ومبلغًا ما أرسلت به، وفي هذا بيان لوظيفة الرسول ﷺ.

[٥٥] واعلم يانبي الله أن ربك أعلم بأحوال من في السماوات والأرض، وفضل سبحانه بعض النبيين علىٰ بعض، فاتخذ إبراهيم خليلًا، وكلم موسىٰ تكليمًا، وأعطىٰ سليمان مُلكًا عظيمًا، وأعطىٰ محمدًا ﷺ فضائل كثيرة، منها: رفعه إلىٰ السماوات العلىٰ وتكليمه في فرض الصلوات، وغفران الذنوب ما تقدم منها وما تأخر، وأعطىٰ داود الزبور، وهي التي تسمىٰ مزامير داود.

[٥٦] وقل يانبي الله للمشركين أن يطلبوا من هذه الآلهة التي عبدوها من دون الله أن تلبي طلباتهم، فإنها لا تستطيع أن تدفع عنهم ضرًّا، ولا تجلب لهم خيرًا، ولا تقدر علىٰ تحويل الضر عنهم إلىٰ غيرهم، فإن القادر علىٰ ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر.

[٥٧] واعلموا أيها المشركون أن معبوداتكم التي زعمتم من دون الله؛ سواء كانوا من الأنبياء مثل عيسىٰ عليه السلام أو من الصالحين والأولياء، فإنهم يتنافسون في التقرب إلىٰ الله بما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة، وفوق ذلك يسألون رحمه الله ويخافون عذابه، لأن عذاب الله عظيم تخافه وتحذره الملائكة والمرسلون وجميع العباد؛ فالجميع يرهبه ويسأل الله السلامة والعافية منه.

[٥٨] يخبر جل وعلا أن كل قرية كافرة ظالمة مكذبة للرسل سوف تدمر وتهلك قبل يوم القيامة، أو يصيب أهلها عذاب شديد، واعلموا أن هذا التدمير أو العذاب قد قضاه الله ولابد من وقوعه؛ لأنه مسجل في اللوح المحفوظ.

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ
وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا
ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ
فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى
كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ
مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ
فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى
ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

[٥٩] ثم أخبر جل وعلا أن الذي كان سببا في عدم إنزال المعجزات التي سألها المشركون هو تكذيب من سبقهم من الأمم، فقد سألوها ثم كذبوا بها فاستحقوا العذاب واستؤصلوا وأهلكوا، ومن هؤلاء قوم صالح فقد أرسلنا إليهم الناقة فكفروا بها فأهلكناهم، ونحن نعلم أنهم ما طلبوا الآيات ليؤمنوا بها ولكن تعجيزًا وسخرية، فلو حققنا لك طلبهم ثم لم يؤمنوا فحينئذ يستحقون القضاء عليهم، واعلم يا نبي الله أن الله أرسل الرسل مؤيدين بالمعجزات لحث العباد لعلهم يعتبرون ويتذكرون.

[٦٠] واذكر يانبي الله يوم أن أوحىٰ الله إليك بأن جميع أمور الناس بيده وتحت تصرفه بما فيهم أهل مكة وسوف يظهرك الله عليهم، وما جعلنا ما رأيته وأبصرته بعينك ليلة الإسراء والمعراج حين أسري بجسدك إلا ابتلاءً وفتنة للناس؛ حيث زلزلت الإيمان في قلوب المؤمنين فارتد بعضهم وأما الكفار فزادتهم ضلالًا إلىٰ ضلالهم، وكذلك ما جعلنا شجرة الزقوم الملعونة التي تخرج في أصل الحميم، والتي جاء ذكرها في القرآن وسخر منها أبو جهل وغيره؛ إلا ابتلاءً وفتنة للناس، ونخوف هؤلاء المشركين بهذه الآيات وبأنواع العذاب، علَّهم يؤمنون ويهتدون، ولكنهم يزدادون تماديًا وطغيانًا وضلالًا وكفرًا.

[٦١] واذكر يا رسول الله يوم أن أمرنا الملائكة بالسجود لآدم إكرامًا وتعظيمًا له، فامتثلوا أمر الله تعالىٰ وسجدوا إلا إبليس فلم يسجد تكبراً وعنادًا، وقال مستكبرًا: إن حجته أنه أفضل من آدم؛ لأن آدم خُلق من طين وهو خُلق من نار. وقد سبق التعليق علىٰ هذه الآية في سورة البقرة وقلنا: إن إبليس لم يكن من الملائكة، وأن الله أمره بالسجود بأمر خاص به، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢].

[٦٢] قال إبليس رادًّا علىٰ الله بكل جرأة: أرأيت هذا المخلوق الضعيف الذي فضلته عليَّ الذي هو آدم؟ لئن أبقيتني يارب حيًّا إلىٰ يوم القيامة لأغوينَّ ذريته وأقودها إلىٰ الذنوب والمعاصي والشهوات؛ إلا البعض القليل ممن اصطفيت من عبادك فإني لا أستطيع أن أغويهم؛ لقوة إيمانهم وشدة إخلاصهم.

وقد طلب إبليس البقاء إلىٰ يوم القيامة، فأجاب الله طلبه لكن إلىٰ اليوم الموعود، وهو طلوع الشمس من مغربها.

[٦٣] ولحكمة الله العظيمة التي خلق الله من أجلها الجنة والنار، رد جل وعلا علىٰ إبليس مهددًا له ولأتباعه: اذهب مطرودًا ملعونًا، فقد أخرناك إلىٰ يوم انتهاء الدنيا فافعل ما تريد؛ فإن النار ستكون جزاءً مكمَّلًا متمَّمًا لا نقص فيه لك ومن تبعك منهم في العصيان.

[٦٤] ثم إن الله جل وعلا للحكمة الآنفة الذكر قال لإبليس: اذهب وافعل ما شئت معهم من الاستفزاز والاستخفاف وادعهم إلىٰ المعاصي، وسلط عليهم من استطعت من جنودك من الإنس والجن، وشجعهم علىٰ جمع المال من الطرق المحرمة كالربا والسرقة والغش والرشوة، وحثهم علىٰ تربية أولادهم علىٰ الفساد بأن تيسر لهم الوقوع في الزنا الذي يترتب عليه ضياع الأنساب، وسهل لهم تسمية أولادهم بأسماء يبغضها الله كأن يسموا عبداللات وعبدالعزىٰ ونحو ذلك، وزين لهم كل أنواع الباطل والفجور والفساد، كالقتل بغير حق ووأد البنات وغير ذلك، وعد أتباعك بما شئت من الوعود الكاذبة الخادعة الباطلة كأن تقنعهم بأنه لا يوجد جنة أو نار وأنه لا حياة آخرة، وأنه لا حساب ولا عذاب بعد الموت، وفي هذه الآية تحذير من الله لعباده بأن لا يتبعوا الشيطان وأن لا يغتروا بحيله وخدعه.

[٦٥] ولكن اعلم يا إبليس بأن مكايدك ووساوسك وحيلك لن تنطلي علىٰ عباد الله المؤمنين المخلصين المتوكلين علىٰ الله؛ الذين أطاعوا الله فاتبعوا أوامره واجتنبوا نواهيه، وكفىٰ بربك يانبي الله حافظًا ومؤيدًا ونصيرًا لعباده المؤمنين من كيد الشيطان ووساوسه وغروره.

[٦٦] واعلموا أيها الناس أن ربكم هو الذي يسوق السفن التي تركبونها في البحر بقدرته وعلمه، لتطلبوا رزق الله؛ حيث تحملكم وتحمل بضائعكم؛ سواء للتجارة أو غيرها، إنه جل وعلا كان رحيمًا لطيفًا خبيرًا بمصالح عباده.

[٦٧] يخبر جل وعلا أن الناس إذا أصابتهم شدة وَهُمْ في البحر بأن ارتفعت الأمواج وخافوا من الغرق والهلاك لجأوا إلىٰ الله الإله الحق، وصرفوا النظر عن الآلهة المزعومة، فلمّا نجّاهم ووصلوا إلىٰ البر سالمين آمنين رجعوا إلىٰ الضلال ونسبوا النجاة إلىٰ براعة ربان السفينة، وعادوا إلىٰ عبادة غير الله؛ سواء كان صنمًا أو ملكًا أو بشرًا، وأعرضوا عن الإيمان والإخلاص لله الذي نجَّاهم، وكان الإنسان كثير الكفران والجحود لنعم الله تعالىٰ.

[٦٨] ثم بين جل وعلا أن الذي نجّاهم في البحر قادر أن يخسف بهم الأرض، والخسف هو انهيار الأرض بما عليها من سكان، فهل أمنوا القادر علىٰ إهلاكهم في البر كما كان قادرًا علىٰ ذلك في البحر؟، أم أمنوا أن يرسل عليهم ريحًا شديدةً تحمل الحصباء والحجارة والتراب فتهلكهم؟، ثم لا يجدوا نصيرًا يلتجئون إليه فينصرهم ويحميهم من عقاب الله.

[٦٩] ثم قال سبحانه: أم أمنتم أيها الناس أن يعيدكم الله في البحر مرة ثانية بأن يهيئ الأسباب لعودتكم إلىٰ ركوبه؟، ثم يرسل عليكم ريحًا شديدة مهلكة تحطم سفنكم وتكسِّر كل ما أتت عليه فتغرقكم بسبب كفركم وضلالكم وعنادكم، ثم لا تجدون من يطالب بحقكم ولا يأخذ بثأركم، فإن الله لم يظلمكم؛ بل أنتم الذين ظلمتم أنفسكم.

[٧٠] يخبر جل وعلا أنه كرم بني آدم، فخلق أباهم آدم بيده، وسخر لهم جميع ما في السماوات والأرض، وخلقهم في أحسن تقويم، وميزهم بالعقل عن باقي المخلوقات، واستخلفهم في الأرض ابتلاءً لينفذوا تعاليمه وليعمروها، وجعل منهم رسله وأنبياءه وأولياءه، ثم بين سبحانه بأنه سخر لهم المركوبات التي تحملهم في البر والبحر، وأنه رزقهم من أنواع الطيبات من المطاعم المشارب التي يستلذون بها، وأنه فضلهم علىٰ كثير من الخلوقات التي لا يحصيها إلا الله عز وجل بأمور كثيرة، وصدق الله: ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ** ﴾[النحل:١٨].

[٧١] واذكر يانبي الله يوم القيامة حين يدعو الله عز وجل كل أمة بكتابهم الذي جاء لهم به رسولهم، ثم تعرض أعمالهم علىٰ كتابهم المنزل علىٰ رسولهم، فأهل القرآن تعرض أعمالهم علىٰ القرآن، وهكذا أهل التوراة والإنجيل وغيرهم، فمن كانت أعماله موافقة لكتابهم المنزل عليهم فإنه يعطىٰ كتابه بيمينه الذي يفرح به ويقرأه ببهجة وسرور؛ لفوزه ونجاته وسعادته، وسوف يرىٰ بعد قراءته لكتابه أن حسناته كاملة لم ينقص منها شيءٌ حتىٰ لو كانت مقدار السلك الموجود في شق النواة.

[٧٢] يخبر جل وعلا أن من كان في هذه الدنيا الفانية أعمىٰ البصيرة عن الحجة والبرهان؛ فهو في الآخرة أشد عمًىٰ عن طريق الحق، وأضل طريقًا عن الهداية والرشاد؛ عقابًا له علىٰ عمىٰ بصيرته في الدنيا.

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾ ۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾ يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾

[٧٣] يخبر جل وعلا عن الكافرين أنهم قاربوا أن يخدعوا النبي ﷺ ويصرفوه عن ذم آلهتهم، وعن القرآن الذي أوحاه الله إليه؛ فطلبوا منه لكي يدخلوا في دينه أن يتمسح بآلهتهم ولا يذمها، وأن يكون القول والاعتبار لهم، فاعلم يانبي الله لو أنك حققت مطالبهم التي عرضوها عليك لأسلموا وأحبوك وصاروا أصدقاء لك، ولكن الله عصمك وحفظك من كيدهم.

[٧٤] واعلم يا نبي الله لولا أن الله عصمك من موافقتهم؛ لقاربت أن تميل إليهم ميلًا قليلًا بسبب كثرة خداعهم وحيلهم، ووعدهم لك أن يدخلوا في دينك، وحرصك علىٰ هدايتهم.

[٧٥] ثم اعلم يانبي الله لو أنك ملت إلىٰ هؤلاء المشركين ميلًا قليلًا لعذبناك في الدنيا وفي الآخرة عذابًا مضاعفًا؛ لكمال معرفتك بالحق المنزل عليك، وكمال نعمة الله عليك، ثم لن تجد أحدًا يحميك ويدفع عنك العذاب، وحاشاه ﷺ من ذلك كله.

وحيث إنه ﷺ معصوم فالوعيد والتهديد لأتباعه من الدعاة والعلماء الذين هم معرضون للإغراءات من الأعداء.

وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

[٧٦] ثم أخبر جل وعلا أن الكفار قاربوا علىٰ إخراجك يانبي الله من بلدك مكة، وذلك بكثرة إيذائك، وأخبر أنه إذا تم ما أرادوا فإنهم لن يمكثوا بعد إخراجك إلا زمنًا قليلًا، ثم تحلُّ بهم العقوبة العاجلة كما حلَّت بغيرهم من الأمم السابقة، وقد تحقق ما قال الله فأخرجوه ﷺ من مكة، وصدق وعده فبعد سنتين تقريبًا قُتل الطغاة الذين اضطروه للخروج؛ حيث قتلوا وأُلقوا في قليب بدر.

[٧٧] واعلم يانبي الله أن سنة الله في من أُرسل قبلك من الرسل، هي نصر الرسل وإهلاك أقوامهم الذين أخرجوهم من بلادهم عقابًا لهم، وإنك لن تجد لسنة الله تغييرًا أو تبديلًا.

[٧٨] أمر جل وعلا نبيه ﷺ بإقامة الصلوات المكتوبات والمداومة عليها وهي: صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وأمره بإقامة صلاة الفجر وأن يطيل القراءة فيها؛ لأن صلاة الفجر تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار. وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذه الآية أوجبت الصلاة وذكرت أوقاتها الخمسة؛ مع العلم أنها فرضت في السماء حينما عُرج بالنبي ﷺ.

[٧٩] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقوم من نومه ويقرأ القرآن في صلاة الليل، وفي هذا حثٌّ علىٰ التهجد، أي: الصلاة آخر الليل وقت تجلي الله لعباده لطلب رحمته ومغفرته، والتهجد يبدأ من بعد صلاة العشاء إلىٰ قبل صلاة الفجر، ثم أخبر سبحانه أنه سوف يبعث نبيه محمدًا ﷺ شافعًا للناس يوم القيامة؛ فيشفع للعامة من أهل المحشر، وفي هذا ردٌّ علىٰ المعتزلة الذين قالوا: لا شفاعة كليًّا.

[٨٠] وقل يانبي الله داعيًا ربك ومتضرعًا إليه: يارب اجعل كل مداخلي ومخارجي وجميع تحركاتي في طاعتك ورضاك، واجعل لي حجة ظاهرة بينة تنصرني بها علىٰ من خالفني، وتكون قوة تعينني بها علىٰ إقامة دينك وشرعك.

وقد أُمر ﷺ بهذا القول حين أُذن له بالهجرة فخرج من مكة مخلصًا لله لنصرة دينه ودخل المدينة كذلك وقد أيده الله بنصره وبالأنصار.

[٨١] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين الضالين: لقد جاء الإسلام الذي بعثني به الله، ووعدني بظهوره وانتشاره، وزال الشرك واندحر واضمحل، واعلموا أن الباطل لا بقاء له ولا ثبات علىٰ الدوام.

[٨٢] واعلم يارسول الله أننا ننزل عليك من آيات القرآن ما هو شفاء لمَا في الصدور من أمراض الشَّك والشبهات والأوهام، وما هو شفاء للأبدان من الأسقام والآلام برقيتها بآيات القرآن، وكما أنه شفاء للأمراض فهو أيضًا سبب لفوز المؤمنين برحمة الله لمَا فيه من زيادة الإيمان والحكمة والفقه في دين الله، ثم أخبر جل وعلا أن هذا القرآن لا يزيد الكفار عند سماعه إلا كفرًا وضلالًا وبعدًا بسبب كفرهم وجحودهم وعدم الإيمان به.

[٨٣] يخبر وجل وعلا أنه إذا أنعم علىٰ الإنسان بالصحة والعافية والمال وغير ذلك؛ أعرض وتولىٰ عن عبادة ربه وطاعته وشكره، أما إذا أصابه فقر أو مرض أو شدة تجده ييأس ويقنط من رحمة الله تعالىٰ ولطفه ومعونته، وهذا ينطبق علىٰ الكفار غالبًا، أما المؤمنون فأكثرهم يعترف بفضل الله، ويلتجئ إلىٰ الله في السراء والضراء.

[٨٤] وقل يا رسول الله لعامة الناس: كل فرد منكم يعمل بالطريقة التي تناسبه والتي تعوَّد العمل عليها في الهداية والضلالة، فإن الله يعلم من هو أهدىٰ طريقًا إلىٰ الحق، ويعلم من يشكر ومن يعرض عن الشكر، ويجازي سبحانه كلًّا بعمله؛ فمن أحسن فله الحسنىٰ، ومن أساء فسيعاقب بقدر إساءته.

[٨٥] ويسألك يا نبي الله اليهود والمشركون عن حقيقة الروح، فقل لهم: اعلموا أن هذه الروح لا يعلم حقيقتها وذاتها إلا الله وحده، وأنها مما استأثر الله بعلمه، واعلموا أنكم ما أوتيتم من العلم إلا شيئًا قليلًا، فإن أسرار الله وعلومه جمة وكثيرة ولم يُطْلِعْ عباده منها إلا علىٰ النزر اليسير، والروح هي التي بها تُحرك الكتلة البدنية المكونة من لحم وعظم في حياة الإنسان؛ وكل ما عرف عنها: أنها إذا سرت في جسد الجنين فإنه يحيا ويُعَدُّ إنسانًا، وإذا خرجت منه فإنه يموت.

[٨٦] واعلم يانبي الله أن الله قادر – إذا شاء – علىٰ محو القرآن الذي أوحاه إليك من قلبك، ومحوه من الصحف التي كتب فيها، وقدرته جل وعلا لا يعجزها شيء، ثم لا تجد من يمنعه سبحانه من فعل ذلك، ولا تجد من يتكفل لك بإعادته إلا هو جل في علاه إن شاء ذلك.

إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل
لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ
لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾
وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ
ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ
لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ
وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ
كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ
قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ
وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ
سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ
أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا
رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ
لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٩٦﴾

[٨٧] واعلم يا نبي الله لو شاء الله أن يمحو القرآن من صدرك لمحاه، ولكن رحمة بك أبقاه عز وجل في صدرك، إن فضل الله كان عليك عظيمًا، فقد أنزل عليك القرآن العظيم، وأعطاك المقام المحمود يوم القيامة، وجعلك سيد ولد آدم وغيرها من الفضائل.

[٨٨] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين: لو اجتمعت الإنس والجن واتفقوا علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن في إعجازه وبلاغته فإنهم لا يستطيعون ذلك، ولو تعاونوا وكان بعضهم لبعض نصيرًا؛ فكلام الخالق جل في علاه لا أحد يستطيع أن يحاكيه في إعجازه وبلاغته.

[٨٩] ثم أخبر جل وعلا أنه بين ونوع للناس في هذا القرآن من كل معنىٰ بديع ليعتبروا ويتعظوا به؛ ولكن أكثر الناس امتنعوا عن الاستجابة لهديه سبحانه وتعالىٰ، وجحدوا آياته وإرشاداته وأنكروها.

[٩٠] ويستمر المشركون في الاستهزاء بالرسول ﷺ وتعجيزه، ومن ذلك أنهم قالوا: يامحمد لن نصدِّقك ولن نتبع ما جئت به حتىٰ تُخرج لنا من أرض مكة عينًا نشرب منها لا ينقطع ماؤها أبدًا.

[٩١] ومن ذلك أيضًا أنهم قالوا: أو تكون لك حديقة فيها أنواع النخيل والأشجار والثمار وتجعل الأنهار تجري في وسطها بغزارة وكثرة.

[٩٢] وقالوا أيضًا: أو تُسقط السماء علينا قطعًا كما زعمت، أو تأتي لنا بالله وبالملائكة جميعًا فنراهم أمامنا بأم أعيننا؛ فيشهدون بصدق ما جئت به.

[٩٣] واستمروا في تعجيزه ﷺ فقالوا: أو يكون لك بيتٌ مبنيٌ من الذهب، أو تصعد إلىٰ السماء بسلم، ولن نُصدّقك في صعودك حتىٰ ترجع لنا ومعك كتاب من عند الله مكتوب فيه أنك رسول الله حقًّا، وأن الله يأمرنا فيه أن نصدّقك ونتّبعك، وبعد هذه المطالب التعجيزية أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار متعجبًا: سبحان ربي!! هل أنا إلّا عبد من عباد الله؛ وأن مهمتي هي إبلاغ ما أرسلت به؟ فكيف أقدر علىٰ الإتيان بمثل هذه المعجزات التي لا يقدر عليها إلّا الله وحده!.

[٩٤] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الكفار ما منعهم من الإيمان بالله ورسوله ﷺ وطاعتهما حين جاءتهم رسلهم بالحق الواضح البيِّن؛ إلا إنكارهم أن يكون الرسول بشرًا، واعتقدوا أن الله لا يبعث إليهم إلا ملكًا من الملائكة لكي تبلغهم رسالة ربهم.

[٩٥] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين الجاهلين: لو كان سكان الأرض ملائكة يمشون علىٰ أقدامهم ومستقرين فيها؛ لأنزل الله عليكم من السماء رسولًا ملكًا من جنسكم، وحيث إن أهل الأرض بشر فكان الواجب أن يبعث فيكم رسولًا من جنسكم حتىٰ تتمكنوا من مخاطبته وتفهموا كلامه.

وهذا يعني أن الرسول إذا كان من جنس آخر فإنه لن يكون قدوة أو أسوة.

[٩٦] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين الجاهلين: إني أشهد الله أنني بلغتكم رسالة ربي، وكفىٰ به شهيدًا بيني وبينكم يوم القيامة، فهو سبحانه يعلم أني قد بلغتكم الرسالة، ونصحت لكم، إنه جل وعلا خبير بأحوال عباده، وبصير بأعمالهم، لا يخفىٰ عليه شيء في السماء ولا في الأرض، وسيجازيهم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا
وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾
قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ
إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ
هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ
يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

[٩٧] يخبر جل وعلا أن الهداية بيده لا يملكها أحد سواه؛ فمن اختار الهدىٰ زاده الله هدىً، ومن اختار الضلال من بعد ما تبين له الهدىٰ فإن الله يضله، أي: يبقيه علىٰ ضلاله ثم لا يجد له وليًّا ولا نصيرًا ينصره من دون الله، قال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾[الأعراف:١٨٦]، أي: أن من يُصرّ علىٰ الكفر وقد دُعي إلىٰ الهدىٰ فإن الله يطبع علىٰ قلبه ويضله إضلالًا جزائيًّا وليس ابتدائيًّا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[يونس:٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]. واعلموا أن هؤلاء المكذّبين الضالين من الكفار سوف يبعثهم الله يوم القيامة، ويحشرهم علىٰ وجوههم، وهم لا يرون ولا يتكلمون ولا يسمعون، ثم تكون جهنم مقرهم ودار خلودهم، كلما خمدت نارها وتهيأت للانطفاء؛ زادهم الله نارًا تلتهب عليهم.

[٩٨] واعلموا أن هذا العذاب الشديد الذي سنعاقب به هؤلاء المشركين هو بسبب كفرهم بالله وجحودهم لآياته وتكذيبهم لرسله الذين دعوهم إلىٰ عبادته، وإنكارهم للبعث؛ حيث كانوا يقولون استنكارًا وسخرية: أإذا صرنا عظامًا بالية، وصارت أجسادنا مفتتة كالتراب؛ فهل بعد ذلك نعود للحياة ونبعث خلقًا جديدًا.

[٩٩] هل غفل هؤلاء المشركون فلم يبصروا أن الله الذي خلق هذه السماوات والأرض وما فيهن من عجائب خلقه؛ قادر علىٰ بعثهم وإعادة خلقهم وأمثالهم من جديد؟، وقد حدد جل وعلا موعدًا لموتهم وبعثهم وعذابهم لا شك في وقوعه، ومع كل هذه البراهين والدلائل ووضوح الحق إلا أنهم أصروا علىٰ الكفر والجحود لدين الله وآياته.

[١٠٠] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل التقريع والتبكيت: لو كنتم تملكون خزائن الأرزاق لأمسكتم شحًّا وبخلًا مخافة أن تنفد فيصيبكم الفقر بعد ذلك، لأن من طبع الإنسان البخل علىٰ النفس وعلىٰ الغير إلا من رحم الله.

[١٠١] واعلم يانبي الله أن الله آتىٰ موسىٰ عليه السلام تسع آيات بينات وهي: العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وهن أكبر وأعظم مما طلب كفار مكة فلم يؤمن بها فرعون وقومه؛ واسأل المؤمنين من بني إسرائيل كعبدالله بن سلام عن ذلك، فستجد الجواب في قول فرعون لموسىٰ: إني لأظنك ياموسىٰ مسحورًا، قد اختلط عقلك واختل بسبب السحر، فصرت تتصرف وتدعي دعاوىٰ عجيبة وغريبة. وهذا شأن الطغاة في كل زمان ومكان، عند ما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم، ويكشف عن ضلالهم وكذبهم، فإنهم يرمون أهله -زورًا وبهتانًا- بكل نقيصة؛ كالسحر والجنون والجهل والغباء ونحو ذلك.

[١٠٢] فأجاب موسىٰ عليه السلام: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هذه الآيات إلا ربُّ السماوات والأرض، وقد جعلها علامات واضحات علىٰ أني رسول من رب العالمين، وعلىٰ تفرده جل وعلا وحده بالعبادة، ثم قال له: وإني لأظنك يا فرعون هالكًا وضائعًا ومغلوبًا وملعونًا.

وقد قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

[١٠٣] وبعد أن هدد موسىٰ فرعون ووبخه أراد فرعون أن يزعج موسىٰ ويهجم عليه ومن معه من بني إسرائيل؛ فتبعهم بعد أن خرجوا من أرض مصر؛ فكانت النتيجة أن أهلك الله فرعون وجنوده جميعًا بأن أغرقهم في البحر عقابًا لهم علىٰ كفرهم وظلمهم وبغيهم.

[١٠٤] ثم قال جل وعلا لبني إسرائيل بعد هلاك فرعون وجنوده: اسكنوا الأرض شرقها وغربها، وليكن منكم في كل دولة مجموعة، فإذا جاء يوم الكرة الآخرة، أي: الإفساد الثاني في الموعد المحدد جئنا بكم وجمعناكم من كل مكان ومن كل دولة، وجعلنا تجمعكم في أرض فلسطين ليتحقق ما ذكر في أول هذه السورة عند إفسادكم الأول، وهو قوله تعالىٰ: ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾، وعلىٰ هذا فالذي يدمر هو العمائر والمباني الشاهقة أما المسجد الأقصىٰ فاليهود لم يعمرونه.

وقد مال المفسر الشعراوي إلىٰ هذا القول.

أما القول الثاني في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، أي: إذا جاء يوم القيامة جاء بكم سبحانه وتعالىٰ جميعًا إلىٰ موقف الحساب ثم يحكم بينكم بحكمه العادل.

[١٠٥] واعلم يانبي الله أن هذا القرآن الذي بين يديك أنزله الله بالحق، أي: أن كل أخباره صدق وأحكامه عدل، ونزل مشتملًا علىٰ كل ما هو حق، ولم يقع فيه تبديل أو تغيير، ثم اعلم أيها الرسول أن الله ما أرسلك إلا مبشرًا من أطاع الله بالثواب، ومنذرًا من عصاه وكفر به بالعقاب.

[١٠٦] واعلم يانبي الله أيضًا أن هذا القرآن الذي بين يديك أنزله الله مفصلًا فيه الأوامر والنواهي، وفارقًا بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال، لكي تقرأه علىٰ الناس في تؤدة وتمهل لتستوعب معانيه، وأنزله الله عليك شيئًا فشيئًا علىٰ حسب الوقائع والأحوال وما تقتضيه الظروف والحكم.

[١٠٧] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: سواء آمنتم بهذا القرآن أم لم تؤمنوا به؛ فإن نفع ذلك وضرره راجع عليكم، وإن العلماء الذين أوتوا علم الكتب المنزلة علىٰ الرسل قبل القرآن كعبد الله بن سلام، وعرفوا حقيقة الوحي إذا قرئ عليهم القرآن خشعوا وسجدوا لله علىٰ الأرض؛ لأنهم علموا أنه من عند الله.

[١٠٨] ثم قال سبحانه: وهؤلاء الذين أوتوا علم الكتب السابقة إذا سمعوا القرآن قالوا: ننزه ربنا ونبرئه مما وصفه به الجاهلون، وإن وعد الله بنصر المؤمنين في الدنيا، والبعث بعد الموت ومحاسبة الناس علىٰ أعمالهم واقع لا محالة.

[١٠٩] ثم كرر جل وعلا مدحه لهؤلاء فقال: ويقعون علىٰ وجوههم ساجدين لله باكين من تأثرهم بالقرآن، ويزيدهم سماع القرآن ومواعظه خشوعًا وخضوعًا لعظمة الله وقدرته.

[١١٠] وقل يانبي الله للمشركين الذين أنكروا عليك الدعاء بقولك: ياالله يارحمن، قل لهم: ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فبأي واحد منهما دعوتم فإنكم تدعون ربًّا واحدًا، لأنهما اسمان لمسمىٰ واحد وهو الله، ولأن أسماء الله جامعة لكل المحاسن، ولا تجهر يامحمد بالقراءة في صلاتك فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن، ولا تُسِرَّ بها فلا يسمعك من يكون خلفك من أصحابك، وكن وسطًا بين الجهر والمخافتة.

[١١١] ختم جل وعلا السورة بأمر النبي ﷺ أن يقول: الحمد لله الذي له الكمال والثناء، والذي تنزّه عن الولد، ولم يكن له شريك يشاركه في الملك، ولم يتولَّ أحدًا من خلقه ليعاونه ويدفع عنه ضرًّا أو يجلب له نفعًا؛ فإنه الغني الحميد الذي لا يحتاج إلىٰ أحد من خلقه، وهم الفقراء المحتاجون إليه، وقد أنعم علينا بأن جعلنا نعبد ربًّا واحدًا؛ فله الحمد أولًا وآخرًا، وعظِّم يا نبي الله ربك تعظيمًا تامًّا بالثناء عليه وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له. وهذه الآية تسمىٰ آية العز.

سورة الكهف

سورة الكهف مكيّة وآياتها عشر ومائة آية، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضلها، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**»[1]،

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الكَهْفِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق** »، وفي رواية: «**أضاء له من النور ما بين الجمعتين**»[2].

[١] بدأت السورة بالحمد والثناء والشكر لله الذي خصَّ برسالته عبده ونبيه محمدًا ﷺ الذي استوفىٰ مقام العبودية، وتفضل بأن أنزل عليه هذا الكتاب العظيم وهو القرآن، الذي ليس به ميل وانحراف عن الحق والعدل والصدق؛ بل جعله مستقيمًا في ألفاظه ومعانيه لا اعوجاج في شيء مما احتواه، وهو مهيمن علىٰ الكتب السماوية وحاوٍ لجميع ما فيها من المحاسن.

[٢] يخبر جل وعلا أنه جعل هذا القرآن مستقيمًا لا تعارض ولا اختلاف فيه أبدًا؛ بل هو محكم الآيات، وحاوٍ لمصالح الدنيا والآخرة، وأنه كتاب مستقيم معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط، وقد أنزله الله لينذر العباد من عذابه الشديد يوم القيامة، ويبشر من آمن به وبرسله وكتبه ويعملون الأعمال الصالحة أن لهم أجرًا عظيمًا وثوابًا جزيلًا في جنات النعيم.

[٣] ثم بين سبحانه أن هذا الأجر العظيم والثواب الجزيل وهو الجنة، خالدين فيه أبد الآبدين، لا يزول عنهم ولا ينقضي أبدًا.

[٤] ثم أخبر جل وعلا أنه ينذر بهذا القرآن: اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارىٰ الذين قالوا: عيسىٰ ابن الله، وبعض مشركي العرب: الذين قالوا: الملائكة بنات الله.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٩).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٢٠)، والحاكم في المستدرك (٣٣٩٢)، وصححه الحاكم، والألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٠).

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

[٥] ثم أخبر سبحانه أن أصحاب هذه المقولة الكفرية الشنيعة ليس لهم ولا لآبائهم الذين قلدوهم علم ولا يقين ولا دليل فيما قالوا؛ ثم ذمهم سبحانه ذمًّا شديدًا فقال: لقد عظُمَت وقبُحَت هذه الكلمة التي تجرؤوا علىٰ التفوه بها، وإن زعمهم هذا ضلال وكذب صريح.

[٦] بعد أن ذكر جل وعلا احتواء هذا الكتاب علىٰ البشارة للمؤمنين والنذارة للعصاة المجرمين، وما يستحقه كلٌّ منهما في الآخرة، قال لنبيه المتفاني في إبلاغ الدعوة المتألم الحزين علىٰ نفور المعاندين الكفرة: فلعلك يا نبي الله مهلك نفسك غمًّا وأسفًا وحزنًا علىٰ عدم إيمان المعرضين عن القرآن وعدم استجابتهم للذِّكر والهدىٰ، المحاربين للدعوة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨].

وهذه شهادة من الله أن نبيه ﷺ بذل كل جهده في تبليغ رسالة ربه، كما أن الله سبحانه يطلب منه الرفق بنفسه.

[٧] يخبر جل وعلا أن كل ما جُعل علىٰ الأرض من زينة ومغريات ونعم وأمتعة إنما جعله ابتلاءً واختبارًا؛ ليختار عباده الصالحون الحسن فيعملوه، وينساق المجرمون حسب شهواتهم وما تزين لهم أنفسهم ويزين لهم الشيطان، وبهذا يَبِينُ الخبيث من الطيب، ثم إن مصير ذلك كله للزوال: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٣٥]، ثم يجزي سبحانه كلًا بما يستحق إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. ومن هذه الآية يتبين أن العبرة بحسن العمل لا بكثرته.

[٨] ثم أخبر سبحانه أنه بأمر منه سوف يجعل ما علىٰ الأرض من أموال وزروع عند انتهاء الدنيا خرابًا وترابًا لا نبات فيه ولا زينة.

[٩] بدأ جل وعلا بذكر قصة أصحاب الكهف الذين سُمِّيت السورة باسمهم، وهم شباب صالحون هربوا بإيمانهم خوفًا من أن يُفتنوا في دينهم، والخطاب في هذه الآية موجَّه للنبي ﷺ، والمقصود به أمته، والمعنىٰ: لا تظن يا نبي الله أن قصة أصحاب الكهف واللوح الذي كتبت فيه أسماء الفتية وبقاءهم أحياء هذا الزمن الطويل من الأمور المستغربة والعجيبة علىٰ قدرة الله، الفعّال لما يشاء جل في علاه؛ فهي عجب بالنسبة لأنها خارقة لما عُرف من حياة البشر، ولا حدود لقدرة الله، والذين سألوا عن أصحاب الكهف هم كفار مكة بطلب من يهود المدينة.

والكهف هو غار في جبل بعيد عن طريق الناس، هداهم الله إليه للاختفاء به، لتكون قصتهم عبرة للمعتبرين.

وقد جاء في تفسير (الرقيم) أقوال عدة أقربها ما ذكرنا: أنه لوح كان معهم مرقومة فيه أسماؤهم، أي: مكتوبة فيه أسماؤهم.

[١٠] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الفتية وهم أصحاب الكهف لمَّا دخلوا إلىٰ الكهف قالوا: ياربنا أعطنا من عندك رحمة تثبتنا بها علىٰ الإيمان، وتحفظنا من المجرمين ومن الشرور، ووفقنا ياربنا لطريق الخير والاستقامة؛ فاستجاب لهم جل وعلا وأخفاهم عن الظَّلمة وأَراَحَهم بهذه الرقدة من الهم وخوف المطاردة.

[١١] ثم أخبر جل وعلا أنه غطَّىٰ طبلة أذن كل واحد من هؤلاء الفتية لئلا يسمعون أي صوت؛ لأن النوم المعتاد يُسمع صاحبة الأصوات العالية فيستيقظ، أما هؤلاء فرحمهم الله فضرب علىٰ آذانهم، أي: جعلهم لا يسمعوا الأصوات مهما كان عالية؛ لذا بقوا هذه السنين الطويلة وهم رقود.

[١٢] ثم أخبر سبحانه أنه أيقظ هؤلاء الفتية من نومهم لِيُظهِرَ ويبيِّن للعالَمين أي الفريقين المختلفين أعرف بمدة لبثهم في الكهف.

[١٣] واعلم يانبي الله أن الله يقص عليك خبر هؤلاء الفتية بالصدق الذي لا كذب فيه، بأنهم فتيةٌ، أي: شباب صغار السن، قليل عددهم، آمنوا وصدّقوا بالله وبتوحيده، فزادهم الله هدىٰ وصلاحًا ويسَّر لهم العلم النافع والعمل الصالح.

[١٤] ثم بين جل شأنه أنه ثبتهم وقوىٰ عزائمهم لما قاموا للصدع بالحق والتوحيد قائلين للملك دقياس الذي ألزم قومه بعبادة الطواغيت: اعلم أيها الملك أن ربنا الذي نعبده ولا نشرك به شيئًا هو رب السماوات والأرض الذي خلق الخلق وأمرهم بتوحيده، فله الخلق والأمر، ونحن لن نعبد غيره ولن نشرك به شيئًا، فإنا إن فعلنا غير ذلك فقد ملنا ميلًا عظيمًا عن الحق، وقلنا قولًا باطلًا في غاية البطلان والبهتان والضلال.

[١٥] ثم قالوا لبعضهم البعض: إن هؤلاء قومنا الذين عبدوا غير الله وأشركوا به، هل عندهم دليل بيّن واضح يؤيد زعمهم؟ وعليهم أن يعلموا أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن يختلق علىٰ الله الأكاذيب بأن يشرك به ما ليس له به علم، وبأن يدعو غيره معه.

[١٦] ثم قال الفتية بعضهم لبعض: بما أنكم فارقتم قومكم في عبادتهم الأصنام، وخالفتموهم في دينهم؛ فابتعدوا عنهم فرارًا بدينكم، واذهبوا إلىٰ الكهف واجعلوه مقرًّا لكم تعبدون الله فيه، عسىٰ الله أن يهيئ لكم مخرجًا ويجعل لكم فرجًا، وييسر لكم ما يصلح شأنكم من طعام وشراب وأمن وأمان.

[١٧] ومن رحمة الله بأصحاب الكهف أن جعل الشمس تمر عن كهفهم صباحًا يمينًا ومساءً شمالًا ولا تقتحمه؛ إذ لو غشيتهم لتعفنت أجسامهم، وهم في مكان واسع من الغار فلا يتأذون من حرارة الشمس، ولا ينقطع عنهم الهواء والنسيم، واعلموا أن ما فعلناه وسخَّرناه لأصحاب الكهف إنما هو دليل علىٰ قدرة الله ورحمته وهدايته، فإن من يهديه الله فهو المهتدي؛ لأنه لا سبيل إلىٰ نيل الهداية إلا من الله، وأن من يُضله الله لن تجد من يتولىٰ أمره، ولا من يدبر شؤونه، ولا من يرشده إلىٰ الخير والفلاح؛ لأن الله حَكَمَ عليه بالضلال ولا رادَّ لحكمه جل وعلا.

[١٨] يخبر جل وعلا أن من ينظر إلىٰ أصحاب الكهف يظن أنهم أيقاظ، وهم في حقيقة الأمر نيام، ثم إن من رحمة الله بهم أن جعل أعينهم مغمضة وجعلهم يقلبون من جنب إلىٰ جنب ما بين وقت وآخر لئلا تأكل الأرض أجسامهم، وَتَقَلُّبَهُمْ إما بأيدي ملائكة مكلفين بذلك، أو بأمر من الله غير ذلك. قال أبو هريرة رضي الله عنه: (تقليبتان في السنة)، وقال ابن عباس رضي الله عنه: (قلبة واحدة في يوم عاشوراء).

والمعروف في المستشفيات أن الذين لا يستطيعوا أن يُقَلِّبُوا أنفسهم يجب أن يُقَلَّبُوا في الأسبوع مرة أو أكثر؛ لأن الجنب الملاصق للأرض أو للسرير إذا استمر التهب فاحمر ثم ينسلخ، أي: يذوب، وكلمة ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾ تعني: التتابع؛ لذلك فالأحرىٰ أن التقليب ليس مرة أو مرتين في السنة؛ بل هو أكثر من ذلك، ثم إن هؤلاء الفتية كان معهم كلب مصاحب لهم، وقد أصابه ما أصابهم من النوم الطويل، وكان قد مدَّ ذراعيه خارج الغار لحراسته؛ فإذا أبصر أحد من الناس هؤلاء الفتية ونظر إليهم ولَّىٰ هاربًا مما يصيبه من الرعب والخوف، وهذا من حماية الله وحفظه لهم.

[١٩] ثم أخبر جل شأنه أنه كما حفظ أهل الكهف كل هذه المدة الطويلة فإنه سبحانه أيقظهم من نومهم وهم علىٰ هيأتهم دون أن يظهر عليهم أي تغيير، ولما استيقظوا تساءلوا عن زمن نومهم فقال بعضهم: لبثنا يومًا أو بعض يوم، وقال بعضهم: فوضوا الأمر لله فهو أعلم بالمدة التي بقيناها، ثم أرسلوا أحدهم وأعطوه بعض الدراهم المضروبة من الفضة ليأتي لهم بطعام من البلد التي هي أقرب بلد لغارهم، وطلبوا منه أن يتخير لهم الطعام الطيب الجيد الذي يسد جوعهم، وأمروه بالتخفي والتحرز أثناء الشراء حتىٰ لا يعرفه أحد من الناس لئلا يُكشف أمرهم.

وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦ ۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧ وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠

والمتتبع لقصة أصحاب الكهف يرىٰ رحمة الله جل وعلا بهم كبيرة وكثيرة؛ حيث إنه حماهم بالرعب من أن يُكتشفوا، وحماهم من الأرض أن تأكل أجسامهم، وحماهم من أن تَتَعفَّن؛ إذ جعل الشمس تزاور عنهم في المساء وفي الصباح، وحماهم من الروائح الكريهة؛ إذ جعل الهواء والنسيم يدخل الغار ويخرج، وأبقىٰ أجسامهم كما هي من غير تغذية، ثم أكرمهم بأن جعلهم آية علىٰ قدرته، وعبرة للمعتبرين، واستجاب لطلبهم ودعائهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾، ثم انتصر رسوخ الإيمان في صدورهم.

وقوله: ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ قال بعض المفسرين: إن اللام هي نهاية النصف الأول من القرآن، والياء هي بداية النصف الثاني، وهذا بناء علىٰ عدد حروف القرآن. والله أعلم.

[٢٠] وأخبروا صاحبهم الذي أرسلوه ليشتري لهم الطعام بأن يكون علىٰ حذر، فإن الكفرة إذا أمسكوا بنا فسوف يقتلوننا وحينئذ سنكون شهداء، أو يلزموننا بالكفر وحينئذ لن نفوز بالجنة التي كانت مرادًا ومطلبًا لنا فنخسر الخسارة العظمىٰ، وهكذا إذا رسخ الإيمان في القلوب فإنه يصنع الأبطال.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ
رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ
أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً
ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ
إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا
﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا
﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

[٢١] ثم إن الله أذن بانكشاف أمرهم والعثور عليهم؛ حيث كشفهم البائع من خلال النقود القديمة التي جاء بها المشتري، وهذا من حكمة الله حتىٰ يتيقن المنكرون للبعث من قومهم بأنّ الله قادر أن يبعث النّاس بعد موتهم، وأن وعده حق بأن الساعة قائمة ولا شكّ في ذلك، وبعد أن ظهر أمرهم أماتهم الله، ثم اختلفوا في قضية دفنهم أين يدفنونهم؟؛ فقال بعضهم: ابنوا علىٰ باب الكهف جدارًا فالله أعلم بأمرهم، ولكن تغلب القائلون: بأن يُبنىٰ عليهم مسجدًا.

وقد نهىٰ النبي ﷺ عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، وقد لعن من فعل ذلك؛ بل نهىٰ ﷺ عن البناء علىٰ القبور مطلقًا، ونهىٰ عن تجصيصها، والكتابة عليها، لأن ذلك من الغلو الذي قد يؤدي إلىٰ عبادة من فيها.

[٢٢] وبعد أن مرت عدة أعوام تنازع أهل الكتاب في عددهم، فقال اليهود: ثلاثة رابعهم كلبهم، وقالت النصارىٰ: خمسة سادسهم كلبهم، وقال آخرون: سبعة ثامنهم كلبهم، فقل لهم يانبي الله: إن الله هو الذي يعلم عددهم، وما يعلم عددهم إلّا قليل من الناس من أهل العلم، قال ابن عباس رضي الله عنه: «أنا من القليل الذين قال الله عنهم: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، هم سبعه ثامنهم كلبهم»، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن لا يجادل أهل الكتاب في عددهم إلا جدالًا ظاهرًا يسيرًا لا عمق فيه، وأن لا يسألهم عن أصحاب الكهف وعن عددهم؛ فإنهم يجهلون ذلك ولا علم عندهم بهم.

[٢٣] ولما سألت قريش النبي ﷺ عن أهل الكهف وعن الروح وعن الذي قال: أنىٰ يحيي الله هذه القرية، وهذا السؤال أحضره اليهود لقريش لإعجازه ﷺ، فقال لهم: سأخبركم بالجواب ولم يقل: إن شاء الله؛ فأنقطع الوحي عن النبي ﷺ فترة، ثم أتاه الجواب والعتاب، فقال الله له: ولا تقل يا نبي لشيء تريد فعله في المستقبل: إني سأفعله غدًا جازمًا بذلك.

[٢٤] ثم أرشده عز وجل إلىٰ الطريقة الصحيحة فيما إذا عزم علىٰ شيء يريد فعله في المستقبل بأن يرد ذلك إلىٰ مشيئة الله تعالىٰ فيقول: إن شاء الله، ثم أمره سبحانه وتعالىٰ أن يذكر الله إنْ نسي أو سها عن قول: إن شاء الله؛ فإنّ ذكر الله يذكّر العبد، ويوقظه من الغفلة، وبعد ذلك أمره جل وعلا أن يقول: عسىٰ ربي أن يدلّني ويبصّرني بأقرب الطرق الموصلة إليه، الدالة عليه.

[٢٥] يخبر جل وعلا أن أصحاب الكهف مكثوا في نومهم: ثلاث مائة سنة، وهذا بالحساب الشمسي، وهي بالحساب القمري ثلاثمائة وتسعًا، أي: مكثوا ثلاثمائة وتسع سنين قمرية.

[٢٦] وقل يانبي الله: إن الله جل في علاه يعلم علىٰ وجه اليقين عدد ما لبث أهل الكهف فيه، وكيف لبثوا فيه، وهو سبحانه له علم ما غاب عن النّاس في السماوات والأرض، وله الكمال في البصر والسمع والإحاطة بكل شيء، وهو الذي بقدرته أبقاهم هذه السنين من غير أن تتغير أجسامهم وملابسهم، ثم أخبر سبحانه أنه ليس لأهل السماوات والأرض من دون الله من ناصر، ولا يشاركه أحد في ملكه ولا في خلقه وأمره سبحانه جل في علاه.

[٢٧] واتل يا نبي الله ما أوحاه الله لك من القرآن لفهمه وامتثال أوامره، وهذا دليل علىٰ أن التلاوة نفسها عبادة وقربة إلىٰ الله تعالىٰ، واعلم أنه محفوظ عن التغيير أو التبديل أو الزيادة أو النقصان، وهذا لا يعني أنه لا يمكن للمضللين أن يفتروا أو يزيدوا وينقصوا؛ ولكن معناه: أنه محفوظ في الصدور وفي مصاحف كثيرة في كل بلدان العالم الإسلامي؛ فلو زاد أو نقص فيه أحد فإنه يُكتشف أمره ثم يُحرق كل جهده، ومهما بالغت وبذلت كل الجهد فلن تجد من دون الله ملتحدًا، أي: لن تجد من تلجأ إليه في أمورك كلها غير الله.

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

[٢٨] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ بالصبر علىٰ أصحابه من فقراء المؤمنين الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، ويدعونه ويتقربون إليه بكلِّ أنواع الطاعات صباحًا ومساءً، يبتغون بذلك وجه الله والدار الآخرة ونعيمها، ثم أمره أن لا يصرف نظره عن هؤلاء المؤمنين الصادقين إلىٰ غيرهم من أهل الكفر والأعداء الذين كان يبالغ في دعوتهم طمعًا في إسلامهم، كما أمره أن لا يطيع أولئك الغافلين عن ذكر الله وطاعته، لأن حياتهم كلها ضياع في ضياع. والخطاب في هذه الآية موجه للنبي ﷺ، ولكن المقصود به كل من يدعو إلىٰ الهدىٰ من الدعاة من أمته، وفي هذه الآية الحث علىٰ مصاحبة الصالحين ومشاركتهم في العبادة من قيام وصيام وتلاوة؛ فإن الصاحب ساحب؛ كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

فَـلا تَصحَبْ أَخـا الجَهلِ ... وَإِيـــــاكَ وَإِيــــــاهُ

فَكَـم مِـن جاهِـلٍ أَردىٰ ... حَـلـيـمًـا حِـيـنَ آخــاهُ

يُـقـاسُ الـمَـرءُ بِـالـمَـرءِ ... إذا مـا الـمَـرءُ مـاشـاهُ

وقوله: **(أردىٰ حليمًا)**، أي: أهلكه معه.

[٢٩] وقل لهم يانبي الله: قد جئتكم بالحق الواضح البين من ربكم الذي لا لبس فيه ولا خفاء، وبينتُ لكم سبيل الخير ورغبتكم فيه، وبينت لكم سبيل الشر وحذّرتكم منه، ولم يبق لكم إلّا سلوك أحد الطريقين، الهدىٰ أو الضلال، وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لمن اختار الكفر علىٰ الإيمان، ثم أخبرهم يانبي الله أنّا هيئنا للظالمين الذين تجاوزا حدّهم، وآثروا الكفر علىٰ الإيمان؛ نارًا شديدة يُحيط بها سور عظيم لا يستطيعون الخلاص منها، وإن اشتد عليهم العطش فاستغاثوا طالبين الماء ليرتووا؛ فإنّا سنأتيهم بماء مغلي شديد الحرارة يشوي وجوههم إذا اقترب منها، فيُسقون هذا الماء الذي يُقطع أمعاءهم، فبئس ذلك الشراب الذي يظنون فيه تخفيفًا للعذاب فإذا به يزيدهم عذابًا إلىٰ عذابهم، وساءت النار وساء حال أهلها.

[٣٠] يخبر جل وعلا أنه الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله ﷺ وعملوا الأعمال الصالحة لهم أجر عظيم من ربهم، وإنه سبحانه لا يضيع هذه الأعمال التي عملوها وكسبوها في حياتهم الدنيا. ومن تتبع آيات القرآن الكريم يجد أن الله جل في علاه دائمًا يُتبع ذكر الإيمان بالعمل، وهذا فيه رد وذم للذين لا يعملون ويفرطون في الفروض وغيرها، ويقولون: **(ربك رب قلوب)**، يعني: إنه إنما يحاسب علىٰ العقيدة فقط، وكثير ممن استولت عليهم الشهوات يقولون هذا، ولا شكّ أن ما وقر في القلب إذا لم يصدّقه العمل فإنّه حينئذ لا يكون صدقًا ولا ينفع صاحبه.

[٣١] ثم أخبر سبحانه أن أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح لهم جنات كثيرة الأشجار يقيمون فيها إقامة دائمة لا يتحولون عنها، من حُسن هذه الجنات وبهائها أنها تجري من تحتها الأنهار وتنساب من تحت المنازل والأشجار والغرف، وأهلها يُزَيَّنون فيها بلبس أساور الذهب، ويلبسون أيضًا ثيابًا خضراء جميلة نسجت من رقيق الحرير وغليظه، وهم فيها متكؤون علىٰ سرر مزينة بستائر جميلة، نِعم الثواب ما هم فيه من النعيم الدائم الذي لا ينقطع، وحسُنت هذه الجنة مرتفقًا يرتفقون فيها ويتمتعون بحليّها وثيابها وطعامها وشرابها وحورها، ورضوان الله فيها نسأل الله الكريم من فضله.

[٣٢] واضرب لهم يانبي الله هذا المثل، وهو لرجلين أحدهما: منافق جاحد لنعمة الله، والآخر مؤمن، فأما المنافق فكان له حديقتان عظيمتان من أعناب محفوفة بالنخل في شكل بديع يسرّ الناظرين، ومع ذلك بَيْنَ تلك الأشجار زروع كثيرة، وخيرات وفيرة.

[٣٣] وأخبر سبحانه أن هاتين الحديقتين أثمرتا ثمرها ضعْفين، وآتت أكلها مرتين، ولم تنقصا من ذلك أدنىٰ شيء، ومع ذلك كان بيْن تلك الحديقتين نهر جارٍ يسقيهما بيسر واستمرار دون انقطاع.

[٣٤] وكان لصاحب الحديقتين ثمر كثير وخير وفير، فقال مزهوًّا لصاحبه المؤمن: أنا خير وأفضل منك لأني أكثر منك مالًا وأعز أنصارًا، فعندي من العبيد والخدم والأقارب ما ليس عندك.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ
خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ
بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾
لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ
جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ
مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ
عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ
مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ
فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ
عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ
فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾

[٣٥] ثم أخبر سبحانه أن هذا الظالم لنفسه دخل حديقته متكبرًا متجاوزًا كل حدوده، وقال لصاحبه المؤمن بزهوٍّ واطمئنان إلىٰ الدنيا: ما أظن ياصاحبي أن تفنىٰ هذه الحديقة الغنَّاء أبدًا.

[٣٦] ثم قال متماديًا في عتوّه وإنكاره للبعث: ولا أعتقد أن القيامة ستقوم، ولئن افترضنا قيام القيامة، ورجعت إلىٰ ربي، فإنّه مما لا شكّ فيه أن ربي سيعطيني خيرًا من هاتين الحديقتين، وذلك لكرامتي وعلوّ منزلتي عنده.

[٣٧] فقال له صاحبه المؤمن واعظًا ومذكرًا: أكفرت بالله الذي جعل أصْل خلقتك من تراب، ثم من منيّ، ثم صيرك الله إنسانًا معتدل الخلقة؟ واتهمه بالكفر لأن صاحب الجنتين قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ﴾، ولهذا قال أهل العلم: الشك في الله أو في قدرته كفر.

[٣٨] ثم قال صاحبه المؤمن مقرًّا ومعترفًا بألوهية الله وربوبيته: وأما أنَا فأقر بربوبية الله جل في علاه؛ فهو الذي رباني وربّىٰ جميع العالمين بنعمه، فهو معبودي لا أشرك به شيئًا، ولا ربّ غيره، ولا معبود سواه.

[٣٩] ثم قال له صاحبه المؤمن ناصحًا له: هلّا إذْ دخلت حديقتَك فأعجبتك قلتَ: ما شاء الله لا قوة إلا بالله! فتُرجع الفضل لله، بدلًا من أن تعيرني بقلة المال والولد.

[٤٠] ثم قال صاحبه داعيًا عليه بسبب كفره وجحوده: فعسىٰ ربي أن يرزقني بخير من حديقتك، ويدمّر حديقتك بسبب كفرك وتكبرك وعنادك؛ بأن يبعث عليها من السماء ما يبيدها ويمحقُها، فتُصبح حديقتك أرضًا ملساء لا زرع فيها، ولا تنبت فيها شجرة.

[٤١] واستمر في دعائه عليه فقال أيضًا: وأسأل الله أن تجف أنهار حديقتك، ويغور ماؤها في الأرض فلا تستطيع إخراجه لسقيا الحديقة، ولا تستطيع أن تنتفع به.

[٤٢] وحصل ما قاله المؤمن، فأرسل الله علىٰ حديقته عذابًا أبادها وأهلك ثمرها، فصار الكافر يقلب كفّيه حسرة وندامة علىٰ ما أنفق فيها من نفقات دنيوية من جهد ومال ونحوه، والحديقة خاوية ساقطة علىٰ دعائمها في منظر يُصيب صاحبه بكامل الحسرة والندم، فقال حينها - وقد فات وقت الندم -: ياليتني لم أُشرك بربي أحدًا.

[٤٣] وحين هلكت حديقته ما كان له من أنصار ولا أعوان يمنعون عنه عذاب الله، ولم ينفعه افتخاره بكثرة المال والولد، ولا كان يستطيع حين نزول العذاب أن ينتصر لنفسه، ولا أن تنفعه قوته.

[٤٤] وفي ذلك المقام وحين الشدائد تكون القوة والملك والسلطان والنصرة لله جل جلاله، هو سبحانه خير من يثيب علىٰ التوحيد والعمل الصالح، وهو سبحانه خير من يجزي المحسن بحسن العاقبة، وأقدر علىٰ إنزال الضرر بالعصاة.

[٤٥] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يبين لقومه أن هذه الحياة الدنيا تشبه في زهرتها وبهجتها، ثم سرعة ذبولها وزوالها الأرض الطيبة إذا نزل عليها الغيث فأنبتت وأزهرت وصار يُعجب الناظرين إليه، ثم بعد زمن يسير يذبل وييبس ويتحول إلىٰ غثاء تنثره الرياح في كل اتجاه، وهكذا الإنسان يبدأ شابًّا نشيطًا يافعًا يقارع أقرانه ويتفوق عليهم وربما استكبر وتجبر وما هي إلّا أيام يسيرة؛ فإذا به يصاب بمرض أو تلف مال أو كبر سن فيذهب الشباب والسرور والغرور، ثم تأتيه المنية فلا يكون معه في قبره إلّا صالح عمله أو سيئة، عندها يبدأ الندم ولات حين مندم، واعلموا أن الله علىٰ كل شيء قدير، له القدرة العظيمة المطلقة التي لا تدركها أي قدرة.

[٤٦] واعلموا أن الأموال والأولاد جعلها جل وعلا من زينة الحياة الدنيا الفانية، ولكن سرعان ما تزول هذه الأموال ويموت الأولاد؛ بل إن كل ما يفتخرون به يزول، ولا يبقىٰ مع الإنسان إلّا أعمال الخير والبر والذكر وجميع العبادات، وهي أفضل أجرًا وثوابًا عند الله من المال والبنين؛ لأن هذه الأعمال هي التي تبقىٰ معه ولا تفارقه حتىٰ تُدخِلَه الجنة، ومن أعمال البر الذرية الصالحة التي هي من كسب المؤمن؛ فإنها قد ترفع المؤمن إلىٰ درجة أعلىٰ مما يستحقه من سائر عمله.

[٤٧] وذكرهم يانبي الله يوم نزيل الجبال عن أماكنها فتكون كالعهن المنفوش ثم تضمحلُّ وتتلاشىٰ فتكون هباء منثورًا، وحينها ترىٰ الأرض ظاهرة لا شيء عليها يسترها مما كان عليها من المخلوقات، وحينها يجمع الله الأولين والآخرين للعرض والحساب والجزاء فلا يُترك أحد إلا حُشِر إلىٰ هناك.

[٤٨] ووقفوا يوم العرض والجزاء صفوفًا لا يخفىٰ منهم أحد، أذلاء خاضعين، ثم قيل لهم: لقد جئتم ووقفتم للعرض والجزاء كما خُلِقتم أول مرة حفاة عراة غرلًا لا مال معكم ولا ولد ينفعكم، ثم خُوطب من يُنكر البعث فقيل لهم تقريعًا وتوبيخًا: إنكم زعمتم أن لن تُبعَثوا، وها أنتم قد رأيتموه وعاينتموه.

[٤٩] وحينها تحضر كتب الأعمال التي كتبتها الملائكة وأحصتها علىٰ كل واحد؛ فمن الناس من يأخذ كتابه باليمين، ومنهم من يأخذه بالشمال، ويومها: ترىٰ المجرمين العصاة خائفين وجلين يدعون علىٰ أنفسهم بالويل والثبور، فيقولون في حسرة وندامة: يالهلاكنا ما لهذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وسجلها علينا، ووجدوا فيه كل ما عملوا حاضرًا أمامهم لا يستطيعون إنكاره، ولا يظلم ربك أحدًا فيعاقبه بغير ذنب اقترفه، ولا خطيئة اكتسبها؛ بل يُجازىٰ كل امرئ بما قدمت يداه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

[٥٠] واذكر لهم يا نبي الله حين أمرنا الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تحيةٍ وإكرام وتعظيمٍ لا سجود عبادة، فسجدوا إلا إبليس الذي كان من الجن فرفض وأبىٰ واستكبر وعاند وخرج عن طاعة ربه، وتبينت عداوته لله ولأبيكم ولكم، فكيف تجعلونه وذريته من الشياطين أعوانًا لكم فتطيعونهم وتستبدلونهم بطاعة الرحمن؟! فقبحًا لكم أيها الظالمون الذين تجاوزتم حدود الله، واستبدلتم طاعة الله بطاعة الشيطان.

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

[٥١] ثم قال جل وعلا: ما أشهدت هؤلاء الشياطين خلق السماوات والأرض ولا أشركتهم ولا شاورتهم في ذلك، ولا استعنت بهم علىٰ خلقهما، فكيف تجعلونهم شركاء تطيعونهم وتوالونهم، وما ينبغي ولا يليق بالله أن يتخذهم أعوانًا أو أن يجعل لهم قسطًا من التدبير، فهم الملعونون المطرودون من رحمة الله.

[٥٢] وذكرهم يانبي الله يوم يقول الله جل وعلا لهؤلاء المشركين موبخًا لهم: نادوا هؤلاء الشركاء الذين زعمتم أنهم شركاء لي في عبادتي؛ ليشفعوا لكم أو ينصروكم ويغيثوكم من العذاب؛ فيقوم المشركون بندائهم ولكن لا يستجيبون لهم، ثم بين سبحانه أنه جعل بين المشركين وشركائهم فضاءً بعيدًا.

[٥٣] ثم قال سبحانه: لقد عاين المشركون نار جهنم، وأيقنوا أنهم داخلون فيها ومخالطون لهبها، ولم يجدوا حينها مكانًا ينصرفون إليه، أو يلتجؤون ويحتمون به، فلم يستطيعوا عنها فرارًا، نسأل الله السلامة والعافية.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ
الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا
إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ
لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ
مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا
أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا
لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ
مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا
لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ
أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ
بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

[٥٤] يقول المولىٰ عز وجل: ولقد بيّنا ووضحنا في هذا القرآن للنّاس من كل طريق موصل للعلم والسعادة والخير في الدارين، وكان الإنسان أكثر المخلوقات مجادلة ومنازعة.

[٥٥] ثم قال سبحانه: وما منع الكفار أن يؤمنوا بالله وبالرسالة، وأن يستغفروا ربهم من الذنوب والمعاصي؛ إلّا الإصرار علىٰ اتباع ما كان عليه آباؤهم وأسلافهم والعناد والعداء لأي شيء جديد، مع أن الرسول الصادق الناصح الأمين أتاهم بالهدىٰ من عند الله وهو القرآن العظيم، ولكن منعهم التكبر والغرور من اتباعه، وتحديهم أن تأتيهم سنّة الله وعادته في الأمم الضالة السابقة وهي الاستئصال، أو أن يأتيهم عذاب الآخرة وهو أشد وأنكىٰ، أو الانتصار عليهم كما وقع في غزوة بدر.

[٥٦] وضّح جل وعلا مهمة الرسل وهي البشارة للمحسنين والنذارة للعصاة الكافرين، ثم أضاف جل وعلا أن الكفار مولعون بالباطل لذلك جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولم يقفوا عند هذا؛ بل اتخذوا آيات الله هزوا فجعلوا يتندرون ويسخرون بالآيات القرآنية.

[٥٧] يخبر جل وعلا أنه لا أحد أظلم ممن ذُكِّر ووُعظ بآيات الله ثم صدّ عنها وعن الإيمان بالله؛ بل سخر بها وبالمؤمنين؛ ونسي ما قدمت يداه من الشرك والأفعال القبيحة ولم يرجع أو يتوب عنها؛ لذلك كانت العقوبة هي حرمانه من الانتفاع بالنور والهدىٰ، والطمس علىٰ قلبه بغطاء، وكذلك الطمس علىٰ أذنيه، ومهما دعوتهم إلىٰ الإيمان فلن يهتدوا إليه أبدًا؛ بل يستمروا علىٰ ما اختاروه لأنفسهم وهو الضلال السرمدي حتىٰ يموتوا ثم إلىٰ النار يؤولون، والعياذ بالله من سوء الختام الذي اختاروه لأنفسهم.

[٥٨] ثم بين سبحانه أنه كثير المغفرة لعباده، واسع الرحمة بهم، فرحمته وسعت كل شيء، ومن ذلك أنه لم يعاجل هؤلاء المعرضين بالعقوبة؛ بل أجّلهم وأخّرهم ليومهم المعلوم، وأجلهم المحتوم.

[٥٩] ثم أخبر سبحانه أن تلك القرىٰ من قوم هود وقوم صالح وقوم لوط وأمثالهم أهلكهم بظلمهم لأنفسهم بالكفر والعناد، وجعل سبحانه لهلاك كل أمة وقتا محددًا وميعادًا معينًا، لا يتقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.

[٦٠] بدأ المولىٰ عز وجل بقصة موسىٰ كليم الرحمن وأحد أولي العزم من الرسل، مع الرجل الصالح الخضر عليه السلام، فقال جل وعلا لنبيه ﷺ: واذكر يانبي الله يوم أن قال موسىٰ لفتاه يوشع: لا أزال أسير حتىٰ أصل ملتقىٰ البحرين بحثًا عن الرجل الصالح وهو الخضر عليه السلام، وملتقىٰ البحرين قيل: إنه التقاء البحر الأبيض المتوسط بالمحيط عند طنجة، وقيل: إنه ملتقىٰ خليج السويس بخليج العقبة، ثم قال: وسوف أواصل السير بحثًا عنه ولو أدىٰ ذلك إلىٰ أن أمضي حقبًا، أي: أسير زمنًا طويلًا. والحقبة: قيل: عشر سنوات، وقيل: خمسة وعشرين سنة، وقيل: أكثر.

[٦١] فلما وصل موسىٰ وفتاه إلىٰ المجمع المذكور استراحا فترة من الزمن عند صخرة كانت علىٰ الشاطئ، وكان معهما حوت مملح معد للأكل في مكتل، ثم علىٰ مرأىٰ من الفتىٰ أعاد الله الحياة للحوت، فقفز من المكتل إلىٰ الساحل، ثم دخل البحر، واتخذ له طريقًا مفتوحًا فارغًا من الماء، أي: جعل فيه ثقبًا يشبه السرداب.

[٦٢] وبعد أن سارا مواصلين بحثهما عن الرجل الصالح الخضر قال موسىٰ لمرافقه: آتنا غداءنا: أي: آتنا بالحوت لكي نتغدىٰ عليه لقد لقينا في سفرنا هذا معاناة وتعبًا شديدًا. وطعام الغداء هو الذي يكون في أول النهار.

[٦٣] فقال مرافق موسىٰ: أَتَذْكُرُ حين أوينا إلىٰ تلك الصخرة التي استرحنا عندها التي كانت عند مجمع البحرين؛ فإني نسيت أن أذكر لك ما حدث للحوت، ثم قال معتذرًا: وما أنساني أن أذكر ذلك إلا الشيطان؛ حيث اشغلني بوساوسه أن أذكر لك أمره وخبره العجيب؛ حيث إن الحوت عادت له الحياة وقفز من المكتل وذهب من الساحل إلىٰ البحر وسار في البحر حتىٰ شق له فيه طريقًا.

قال الشيخ الناصري: وهكذا قد ينسىٰ الإنسان أوضح الواضحات وهي أمام عينيه.

[٦٤] فقال موسىٰ: وهذا الذي كنّا نريد وهو عين ما نطلب؛ حيث أعلم الله موسىٰ أو ألهمه أنه متىٰ فقد الحوت فذلك علامة علىٰ مكان التقائه بالعبد الصالح الخضر؛ فلذلك رجع موسىٰ ومرافقه يقصان آثار أقدامهما إلىٰ المكان الذي نسيا فيه الحوت، حتىٰ وصلا إلىٰ الصخرة.

[٦٥] فلما وصلا إلىٰ الصخرة وجدا عندها العبد الصالح الخضر عليه وعلىٰ موسىٰ السلام الذي كانا يبحثان عنه، وقد أخبر سبحانه أنه أعطىٰ هذا العبد الصالح رحمه خاصة من عنده، وهذه الرحمة قيل: هي النبوة، وأيضًا علمه شيئًا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

[٦٦] وبعد أن تعارفا عَرَضَ موسىٰ علىٰ الخضر مطلوبه؛ فقال له موسىٰ: هل تأذن لي أن أصاحبك لأتعلم منك العلم الذي علمك الله؛ لعلِّي أسترشد وأنتفع به، قال أهل العلم: وهذا دليل علىٰ استحسان أن يأخذ الفاضل مما عند المفضول من الفوائد العلمية التي لم تكن عنده.

[٦٧] وبعد أن عرف الخضر موسىٰ وعرف أنه رسول الله لبني إسرائيل فقال: ياموسىٰ إنك لن تستطيع مرافقتي ولن تصبر علىٰ صحبتي؛ لأن علمك الشرعي لا يجعلك تستطيع الصبر علىٰ ما ستراه من أفعالي.

[٦٨] ثم قال الخضر معتذرًا عن موسىٰ: وكيف تصبر علىٰ ما لم تحط به خبرًا مما يخالف الأحكام الشرعية التي لديك؛ حيث إن ظاهرها منكر وباطنها غير ذلك، وعلمك الشرعي لا يجعلك تصبر علىٰ ما ستراه من أفعالي.

[٦٩] فأصر موسىٰ علىٰ طلب العلم وقال للخضر: ستجدني إن شاء الله صابرًا منفذًا تعليماتك، ولن أعصيك فيما تأمرني به.

[٧٠] فقال الخضر لموسىٰ: إن أردت اتباعي فلا تسألني عن شيء مما تراه مخالفًا حتىٰ أوضح لك ذلك ومبرراته.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾

[٧١] وبعد أن قبل موسىٰ بمطلب الخضر انطلقا يمشيان علىٰ الساحل فمرت سفينة فسمح أصحابها بإركابهم بدون أجرة تفضلًا وكرمًا من أصحاب السفينة، قيل: لأنهما عرفاه وقالوا عنه: الرجل المبارك، ولما قربت السفينة من المدينة قام الخضر وأحدث في جانب السفينة خرقًا بعيدًا عن الماء ولكنه شوه منظر السفينة؛ فهال موسىٰ هذا الأمر وخاف أن يتسبب هذا الخرق في غرق السفينة بسبب دخول الماء عليها، وقال منكرًا هذا الفعل: قوم حملونا كرمًا منهم بلا مقابل، ومع ذلك تقوم بهذا الفعل؛ لتكون سببًا في غرق أهلها، لقد جئت منكرًا كبيرًا وأمرًا عظيمًا.

[٧٢] قال له الخضر منكرًا عليه: ألم أقل لك: إنك لن تستطيع أن تصبر علىٰ صحبتي؟! وكانت الأولىٰ من موسىٰ نسيانًا.

[٧٣] فقال له موسىٰ: لا تشق علي في صحبتك فما كان هذا مني إلا نسيانًا لشرطك، فلا تكلفني المشقة وعاملني باليُسر واللّين لا بالعسر والشدة.

[٧٤] فنزل موسىٰ والخضر من السفينة وانطلقا يمشيان فلقيا غلامًا صغيرًا يلعب مع الصبيان؛ فأمسك الخضر برأسه فاقتلعه وقتله، فاشتدَّ غضب موسىٰ عليه السلام حين رأىٰ ذلك، وقال منكرًا عليه: كيف تقتل هذه النفس البريئة الطاهرة التي لم تبلغ الحلم؟ بغير ذنب اقترفته ولا سوء عملته؟!! لقد ارتكبت أمرًا منكرًا في غاية النكارة.

۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

[٧٥] فقال له الخضر منكرًا عليه ومعاتبًا إيّاه: ألم أقل لك: إنك لن تستطيع أن تصبر علىٰ صحبتي؟! وزاد في قوله كلمة: ﴿لَّكَ﴾ لشدة إقناع موسىٰ بأنه لا يستطيع الصبر.

[٧٦] فقال له موسىٰ عليه السلام متأسفًا معتذرًا: إن بدر مني سؤال لك مرة أخرىٰ بعد هذه المرة، فسيكون ذلك نهاية مصاحبتي لك، فلقد أعذرت؛ حيث خالفتُ شرطك ثلاثًا.

[٧٧] ثم انطلق موسىٰ والخضر عليهما السلام يمشيان حتىٰ دخلا قرية من القرىٰ فطلبا من أهلها أن يطعماهم علىٰ سبيل الضيافة؛ فأبىٰ أهل القرية ذلك ورفضوا إطعامهم، فوجدا جدارًا مائلًا يوشك أن يسقط؛ فعدَّله الخضر وأقامه وأصلحه، فقال له موسىٰ: هلَّا طلبت لإصلاحك الجدار أجرة نصرفها في تحصيل طعامنا؛ حيث إن أهل هذه القرية رفضوا ضيافتنا!

[٧٨] فقال له الخضر حينها: ياموسىٰ هذا أوان فراقك إياي، فإنك قد شرطت ذلك علىٰ نفسك، فلم يبق الآن موضع للعذر، ولا مجال للصحبة، وسأبدأ الآن بإخبارك بما أنكرته عليَّ من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار.

[٧٩] ثم قال الخضر لموسىٰ: أما السفينة التي خرقتُها فكانت لأناس مساكين يعملون عليها في البحر ويتكسَّبون من ورائها رزقهم، وسبب خرقي لها: أن أمامهم ملك ظالم إذا مرّت عليه سفينة صالحة فإنه يأخذها لنفسه ظلمًا وغصبًا، وإذا كانت معيبة فإنه يتركها، فأردت أن أعيبها بذلك الخرق لتَسْلَم لأصحابها.

[٨٠] ثم قال الخضر أيضًا: وأما الغلام الذي قتلتُه فقد كان له أبوان مؤمنان، ولم يكن هو صالح، ولو استمر علىٰ قيد الحياة لأثّر عليهما غلبةُ حبِّه مما يحملهما علىٰ الكفر أو الطغيان؛ لأجل محبتهما إياه، أو لشدّة حاجتهما إلىٰ رعايته لهما.

[٨١] ثم قال الخضر أيضًا: فأردنا أن يُخلف الله عليهما ويرزقهما ولدًا صالحًا خيرًا من هذا الولد؛ يكون ديِّنا وخيِّرًا وصالحًا، ورحمة لوالديه.

[٨٢] ثم قال الخضر: وأما الجدار المائل الذي أصلحناه فقد كان لغلامين يتيمين من أهل ذلك البلد، وكان تحت هذا الجدار كنز عظيم لهما، ولو سقط الجدار لبان الكنز، وربما أخذه غيرهما فلم ينتفعا به، وكان لهما والدان صالحان، فأراد الله جل وعلا أن يكبر هذان الغلامان ويشتد عودهما ثم يستخرجا كنزهما، رحمة من ربك بهما، وكرامة لوالدهما الصالح، وما فعلت جميع ما سبق عن اجتهادي ورأيي ومن تلقاء نفسي؛ بل كان ذلك بأمر ربي وتعليمه، واعلم أن ذلك المذكور هو تفسير ما ضاق صبرك عنه، ولم تستطع السكوت عليه، وبادرت في السؤال والإنكار عليّ.

قال العلماء: أصح الأقوال في الخضر أنه وليّ أطلعه الله علىٰ بعض العلوم الغيبية التي لا يعلمها إلا الله؛ مع أن قوله لموسىٰ: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾، يؤيد القائلين بأنه نبي.

وقال بعضهم: ومما يدل علىٰ أنه وليّ أن النبي تكون له أمة وجماعة، والخضر ليس له أمة معروفة أو جماعة معروفة، فهو سائح في الأرض؛ وسواء كان وليًّا أو نبيًّا فلا شك أن موسىٰ أفضل منه وأغزر علمًا من الخضر في ما يخص الرسالة، ومع ذلك لمّا علم موسىٰ أن عنده علمًا لا يعرفه ذهب إليه وتكبد في ذلك المشاق؛ لأن العلم من أنفس المطلوبات، وأنه تشد إليه الرحال، ويبذل فيه الغالي والنفيس.

[٨٣] ثم أخبر سبحانه أن المشركين سألوا النبي ﷺ عن قصة الملك الصالح (ذي القرنين)، فأمره أن يقول لهم: سوف أقرأ عليكم شيئًا من أحواله ما يكون فيه ذكرىٰ وموعظة وعبرة لكم.

وذو القرنين الأكبر اليوناني اسمه: «اسكندر بن فيلقوس»، قال مجاهد: (ملك الأرض كلها)، وقصده الأرض المعروفة آن ذاك، وقال ابن كثير: (إنه ما كان نبيًّا وكان مؤمنًا صالحًا، وهو غير ذي القرنين: اسكندر الرومي الذي كان متأخرًا عنه بقرون كثيرة، وكان كافرًا ظالمًا اجتاح الشام وأرض فارس، وقتل خلقًا كثيرًا.

أما ذو القرنين الأول وهو: (اسكندر بن فيلقوس) فقد استعمل الأسباب التي منحها الله له واتبعها بسبب منه، وهي العزيمة والهمة العالية التي أراد بها تطويع العباد لله.

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

[٨٤] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ فقال: لقد مكنا لذي القرنين من النفوذ في الأرض، وأعطيناه من كل شيء يحتاج إليه في فتح الأرض ونشر العدل والخير فيها.

[٨٥] ثم بين جل وعلا أن ذو القرنين أخذ بما هيأنا له من الأسباب بكل جدٍّ واجتهاد وعزيمة.

[٨٦] فلمّا وصل ذو القرنين مغرب الشمس، أي: مغربها عن الأرض المعروفة في ذلك الزمان؛ وجدها تغرب في عين حمئة، أي: حارّة ذات طين أسود، ووجد عندها أناسًا كافرين؛ فخيّره جل وعلا بن أمرين: إما أن تعذبهم بالقتل وغيره بسبب كفرهم إذا لم يؤمنوا بالله عز وجل ويقرّوا بالتوحيد، وإما أن تحسن إليهم بتعليمهم الهدىٰ وتبصّرهم بالرشاد بعد أن تتغلب عليهم؛ فكان أن أحْسن للصالحين وأثابهم وشجعهم، وأذل العصاة المجرمين وعاقبهم.

[٨٧] فأجابهم ذو القرنين بأن جعل الناس قسمين: قسم ظلم نفسه بالكفر والمعاصي، وقسم آمن بالله وعمل صالحًا، وأجاب عن القسم الأول فقال: أما من ظلم نفسه بالكفر والإصرار علىٰ الشرك فسوف نعذبه في هذه الحياة الدنيا بقتله إن أصر علىٰ الكفر، ثم يُرجَع إلىٰ ربه فيُعذبه عذابًا فظيعًا أليمًا.

[٨٨] ثم أجاب عن القسم الثاني فقال: وأما من آمن ووحَّد وصدَّق، وأتبع ذلك بالعمل الصالح؛ فهذا جزاؤه الجنة والحالة الحسنة عند الله سبحانه وتعالىٰ، ونحن سنحسن إليه، وسنقول له القول الحسن اللَّيِّن.

[٨٩] ثم عاد ذو القرنين راجعًا إلىٰ المشرق، متبعًا الأسباب التي أعطاه الله إيّاها.

[٩٠] ثم ذهب ذو القرنين إلىٰ مطلع الشمس، أي: الموضع الذي تطلع منه الشمس من جهة المشرق، ثم أوغل فيه حتىٰ وصل إلىٰ أناس ليس لهم ستر يحجب حرارة الشمس عنهم، ولا شجر يستظلون به؛ بسبب جهلهم وحياتهم البدائية، ومع ذلك فقد آمنوا به وبالإيمان الذي حمله لهم.

[٩١] ثم بين جل وعلا أن ما ذكره عن ذي القرنين فإنه مطلع عليه، وأنه سبحانه وتعالىٰ قد أحاط علمًا كاملًا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة حيثما توجه وسار.

[٩٢] ثم سار ذو القرنين مواصلًا طريقه بالأسباب التي يسّرناها له وعلمناه إياها.

[٩٣] ثم أخبر سبحانه أن ذو القرنين واصل سيره حتىٰ وصل بين السدين، وهما الجبلان الحاجزان لمَا وراءهما، وكانا معروفين في ذلك الزمان؛ فوجد من دون السدين أناسًا لا يعرفون كلام غيرهم بسبب عجمة ألسنتهم، ولكن الله أعطىٰ ذا القرنين القدرة علىٰ فهمهم ومحاورتهم.

[٩٤] ثم بين سبحانه أن هؤلاء القوم اشتكوا إلىٰ ذي القرنين؛ فقالوا: ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج –وهما أمتان عظيمتان من بني آدم من أولاد يافث بن نوح عليه السلام–؛ قوم شريرون وظالمون، وقد أفسدوا الحرث والنسل بالقتل وأخذ الأموال، فهل نجمع لك مالًا مقابل أن تجعل بيننا وبينهم حاجزًا قويًّا حتىٰ لا يتسربوا إلينا.

[٩٥] وكان ذو القرنين مع إيمانه وصلاحه حكيمًا؛ فقال لهم: ما أعطاني الله من القوة والمال والسلطان خير لي من المال، ولكن اعملوا معنا بقوة أيديكم، وسوف نقيم لكم ردمًا، وليس سدًّا؛ لأن السدّ يتحطم من الزلازل وعوامل التعرية، والردم يكون علىٰ شكل جبل يصل بين الجبلين لا يتأثر بالزلازل وعوامل التعرية، وهكذا يكون الإصلاح.

[٩٦] ثم طلب ذو القرنين منهم أن يعطوه قطع الحديد، كل قطعة كاللبنة المضروبة، وأخذ يصفّه ويرتفع بنائه؛ حتىٰ إذا ساوىٰ بين الجبلين، قال للعمال: انفخوا علىٰ هذه الزبر وأججوا نارها حتىٰ تشتد وتذيب النحاس؛ فلمّا ذاب النحاس قال: أعطوني أفرغ عليه هذا النحاس المذاب؛ فأفرغه عليه، فاشتد واستحكم استحكامًا عظيمًا، وصار جبلًا عظيمًا سد الفراغ الذي بين الجبلين.

[٩٧] ثم بين سبحانه أن هذا الردم لشدِّة إحكامه ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يرتقوا فوقه لارتفاعه الشديد وملاسته، وما استطاعوا أن يخرقوه أو يُحدثوا فيه ثقبًا، وذلك لإحكامه وقوته.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

[٩٨] ثم قال ذو القرنين: إن ما فعلته من بناء هذا السد ليكون حاجزًا ومانعًا من أذىٰ يأجوج ومأجوج هو رحمة من الله بالنّاس الذين طلبوا مني ذلك، وهذا لا شكّ من الخير ودفع الشر، ولكن كما أن لكل مخلوق نهاية فكذلك إذا جاء وعد الله وأَمْرُهُ بخروج يأجوج ومأجوج فإنه سوف يجعل هذا السد دكًّا مستويًا بالأرض، ولا شكّ أن وعد الله حقّ لا ريب فيه.

[٩٩] ثم أخبر جل وعلا أنه ترك يأجوج ومأجوج مختلطين يموج بعضهم في بعض فإذا نُفخ في الصور جُمعت الجن والإنس كلها جمْعا للحساب والجزاء.

[١٠٠] ثم أخبر سبحانه أنه يوف يعرض جهنم يومئذ -أي: يوم القيامة- للكافرين الجاحدين عرضًا حقيقيًّا لتكون مأواهم، وليذوقوا عذابها جزاء ما قدمت أيديهم.

[١٠١] ثم بين سبحانه السبب جعلهم يذوقوا هذا العذاب الأليم فأخبر أنهم غطوا بصائرهم فلم ينظروا لآيات الله الدالة علىٰ وحدانيته، ولم يُطيقوا استماعًا للحق ولدعوة التوحيد.

[١٠٢] ثم قال سبحانه: وهل يظن الذين جحدوا بآياتي أن يتخذوا بعض عباد الله أولياء لهم يعبدونهم من دون الله؟! فلْيعلموا أن ذلك لا يكون جائزًا أبدًا، ولْيعلموا أن الله أعد وهيأ جهنم للجاحدين المشركين ضيافة وقِرًىٰ لهم، فبئس ذلك النزل، وبئس من نزلوا فيه.

[١٠٣] وقل يا نبي الله منذرًا ومخوفًا الناس: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالًا يوم القيامة؟؛ فاعلموا أنهم هم الكفار الذين صادروا الدعوة وحاربوها، وهم كما ذكر الله عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]. وهكذا كل الضُّلال حتىٰ من الفرق الإسلامية. وهذا يُفسر قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٠٨]، أي: كل من اختار الهدىٰ فهو اختياره، ومن اختار الضلال فهو اختياره، وحببنا لكل منهم ما اختار.

[١٠٤] ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ أن الأخسرين أعمالًا هم الذين بطل وضاع واضمحلَّ كل ما عملوه، وهم يظنون أنهم محسنون في أعمالهم، وهم في الحقيقة مسيؤون معاقَبون؛ لأنهم جحدوا بآيات الله كما في الآية التالية، نسأل الله السلامة والعافية.

[١٠٥] ثم بين أيضًا أنهم أولئك الذين جحدوا بآيات ربهم الدالة علىٰ وحدانيته، فحبطت وبطلت بذلك أعمالهم، فلا نعبأ بهم يوم القيامة، ولا نقيم لهم قدرًا، فإن أحدهم لا يزن عند الله جناح بعوضة.

[١٠٦] واعلم أنما كان جزاء أولئك الذين حبطت أعمالهم هو نار جهنم خالدين فيها؛ بسبب كفرهم برسل الله وجحودهم بآيات الله الدالة علىٰ وحدانيته، وعدم الانتفاع بها؛ بل واتخاذها للسخرية والاستهزاء.

[١٠٧] يخبر جل وعلا أن الفئة الرابحة والناجحة هم الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسله، وأتبعوا الإيمان بالعمل الصالح الذي توفرت فيه شروط قبول العمل، وهي: الإخلاص والمتابعة، ومن كانت هذه صفاتهم فقد أعد الله لهم جنات الفردوس التي حوت جميع أنواع النعيم، وهي أعلىٰ منازل الجنة وأوسطها، وهي أفضلها منزلًا.

[١٠٨] ثم بين سبحانه أنهم خالدين في هذه الجنات خلودًا أبديًّا، ولحسن المقام والمكان لا يريدون تحولًا ولا خروجًا منها، وهذه المنزلة في الجنة حصلوا عليها بأسباب قيامهم بالواجبات والأعمال الصالحة واتباع ما جاءتهم به رسل الله.

[١٠٩] يخبر جل وعلا عن عظمته وأن حِكَمَه وكلامه باقٍ ببقائه السرمدي الذي لا نهاية له، وأمر نبيه ﷺ بأن يقول: لو جعل البحر مدادًا، أي: حبرًا، للأقلام التي يكتب الله بها كلامه لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله عز وجل، وحتىٰ لو جئنا بمثل البحر بحارًا أخرىٰ مددًا لهذه الأقلام؛ فإن كلام الله لا ينتهي أبدًا.

[١١٠] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ بأن يشرح للخلق مهمته وهي إثبات التوحيد ولوازمه وتبليغه، وإثبات أنه ﷺ بشر مثل سائر الرجال، وأنه لا يتميز إلا بإكرام الله له بالرسالة والخُلق الكريم الذي منحه الله، وأنه مكلف أن يخبر الخلق الثقلين الجن والإنس بأن إلهكم هو إله واحد لا شريك له؛ فمن رغب في النجاة والفوز برضا الله والجنة؛ فعليه أن يقوم بأمرين، هما: العمل الصالح الموافق لشرع الله، وأن لا يُشرك في العبادة مع الله أحدًا غيره.

سُورَةُ مَرۡيَمَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ
نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي
وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا
٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي
عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ
ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا
٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا
وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ
رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ
شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ
ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١

سورة مريم

سورة مريم عليها السلام مكيّة وآياتها ثمان وتسعون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. وقيل إن هذه الحروف: اسم ثانٍ للسورة.

[٢] يخبر جل وعلا أن هذا الذي سوف نقصُّه عليك يا نبي الله هو ذكر رحمة ربك التي أحاطت بعبده ورسوله زكريا عليه السلام؛ نقصُّه عليك كغيره من القصص التي نقصُّها للاعتبار والاتعاظ والتسلية.
وزكريا عليه السلام من ولد هارون أخي موسىٰ عليهما السلام، وكليهما من ذرية يعقوب حفيد إبراهيم عليهم وعلىٰ نبينا أفضل الصلاة والسلام.

[٣] ثم بين سبحانه أن زكريا عليه السلام لمَّا أحسَّ من نفسه الضعف وخشي الموت، توجه بقلبه إلىٰ دعاء ربه سرًّا تأدُّبًا مع الله جل في علاه، وأتمَّ إخلاصًا له، وقد شجعه علىٰ ذلك قول مريم عليها السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

[٤] فقال زكريا عليه السلام في دعائه: يارب إني كبرت سنّي، ورق عظمي وضعف، وشاب شعر رأسي بسبب الكِبَر، وأنا رهين فضلك وإحسانك فقد عودتني أن لا ترد لي طلبًا.

[٥] ثم بين زكريا عليه السلام سبب الطلب وعلته: أنه يريد أن يحفظ لأمته دينهم وثوابتهم، وخوفه علىٰ الملة أن يتولاها أحد من أقاربه وعصبته ممن لا يكون أهلًا لها؛ فلا يحسنوا خلافته في اتباعه، ويفسدون ويبدلون عليهم دينهم ومعتقدهم، ثم ذكر مبرر هذا الخوف أنه لن يولد له من صلبه ولد يخلفه؛ لأن امرأته لا تلد خلقة؛ فالعاقر من الرجال والنساء هو الذي لا ينجب ذرية، يعني: عنده مانع خِلْقِيٌّ، ولهذه الأسباب أتوجه إليك يارب أن ترزقني من فضلك الواسع ومن قدرتك التي لا تعوقها أسباب ولا موانع ولدًا من صلبي يخلفني في قومي، ويقيم الحق والعدل؛ فإنني أنا وامرأتي عجزنا عن الإنجاب.

[٦] ثم قال زكريا: واجعل هذا الولد يارب يرثني ويرث آل يعقوب بالنبوة والعمل الصالح، واجعله يارب مرضيًّا عندك وعند المؤمنين.
وقوله: ﴿رَبِّ﴾، فيه تلطف بالسؤال وإثبات الافتقار لله والرغبة إليه.

[٧] وبعد هذا النداء والإلحاح علىٰ الله بشَّر جل وعلا نبيه زكريا بإجابة دعوته، وأخبره أنه رزقه ولدًا سماه يحيىٰ، وأخبر أنه لم يسمَّ أحد بهذا الاسم من قبل، ولا شكّ أن هذه معجزة تمت من عند الله علىٰ زكريا وزوجه، قال تعالىٰ: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ ﴾ [آل عمران:٣٩].
والبشارة: هي إخبار الشخص بما يسرّه ويفرحه.

[٨] فلمّا أتت زكريا البشارة توجه إلىٰ ربه وذكر علىٰ سبيل التعجب المعوقات التي تعوق حصوله علىٰ الولد، فقال: يارب كيف يكون لي ولد وأنت تعلم أن امرأتي عجوز وعاقر لا تلد، وأنا شيخ كبير في أيامي الأخيرة.

[٩] فأجابه المَلَك الذي بلَّغه البشارة فقال له: نعم الأمر كما قلت يا زكريا مُتَعجَب منه، ولكن اعلم أن خَلْق يحيىٰ مع وجود هذه المعوقات سهل ويسير علىٰ ربك، والدليل علىٰ ذلك أنه خلقك وأوجدك من قبل ولم تكن شيئًا مذكورًا؛ فقدرة الله لا يعجزها شيء أبدًا.

[١٠] ثم طلب زكريا عليه السلام من ربه علامة تدل علىٰ بداية إجابة طلبه، فأوحىٰ الله إليه أن العلامة أنك لا تستطيع أن تكلم الناس ثلاثة أيام، أي: أنك سوف تُحبس عن الكلام وأنت صحيح معافىٰ، ثم رأىٰ الآية وشعر بها عليه السلام فعرف أن امرأته حامل، وطلبه العلم بالعلامة التي تدل علىٰ أن امرأته حامل ليبدأ عليه السلام بالصيام شكرًا لله.

[١١] ثم خرج عليه السلام علىٰ قومه من مكان عبادته، وهو علىٰ حاله التي لا يستطيع فيها الكلام؛ فأوحىٰ إليهم، أي: أشار إليهم أن يذكروا الله ويسبحوه ويصلوا له من الفجر إلىٰ الضحىٰ، ومن العصر إلىٰ المغرب.

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

[١٢] ولمّا وُلد يحيي واكتمل نموه واجتاز مرحلة الطفولة وأصبح يفهم التوراة وما يُوحىٰ إليه، ويستطيع إبلاغ الرسالة، أعطاه الله الحكم والنبوّة صبيًّا، وأمره أن يأخذ التوراة بقوة، أي: بهمة وعزيمة واجتهاد، وأن يكون خير خلف لخير سلف. وقد روي: أن الصبيان دعوه إلىٰ اللعب فقال لهم: «ما للعب خلقنا».

[١٣-١٤] ثم بين سبحانه أنه وهب عيسىٰ عليه السلام ورزقه رحمة ومحبة وحنانًا، وطهَّره من الذنوب والمعاصي، وأنه كان مطيعًا لربه يؤدي أوامره ويجتنب نواهيه. ثم بين سبحانه أنه كان بارًّا بوالديه، لطيفًا معهما، محسنًا إليهما، ولم يكن مستكبراً ولا ظالمًا ولا متجبراً ولا عاصيًا لربه سبحانه وتعالىٰ.

[١٥] ثم ختم سبحانه هذه الأوصاف الجميلة التي وصف الله بها يحيىٰ عليه السلام؛ حيث قال: فسلام وأمان من الله من كل ما يسوء يحيىٰ من شيطان أو شرٍّ أو عقاب حين ولادته، وحين موته، وفي قبره، وحين يبعثه الله يوم القيامة.

[١٦-١٧] ثم ذكر جل وعلا لنبيه محمد ﷺ قصة مريم عليها السلام؛ فقال سبحانه: واذكر يانبي الله لقومك قصّة مريم البتول أم عيسىٰ عليهما السلام؛ حيث اعتزلت قومها وتباعدت عنهم إلىٰ جهة الشرق. ثم جعلت بينها وبينهم حجابًا يسترها عنهم، وفي هذا المكان نزل عليها المَلَك وهو جبريل عليه السلام، وتمثل لها علىٰ صورة إنسان تام الخلق. قال الحسن رضي الله عنه: (موضعها الذي اعتزلت به هو مسجد صلاتها؛ لذلك اتخذ النصارىٰ قبلتهم جهة المشرق، كما اتخذ اليهود قبلتهم جهة المغرب؛ لأن الميقات الذي أُنزلت به الألواح علىٰ موسىٰ عليه السلام كان جهة المغرب، وهذا الكلام علىٰ القبلة ينطبق علىٰ المقيم في الشام، أما المقيم في الغرب فكلاهما شرق، أي: كلا القبلتين شرق).

[١٨-١٩-٢٠-٢١] فلمّا رأت مريم عليها السلام جبريل قالت له: إني ألتجئ وأعتصم بالرحمن منك أن تمسني بسوء إن كنت تخاف الله وتخشاه. فأجابها المَلَك مُطَمْئِنًا إيّاها قائلًا: إنما أنا رسول من الله أرسلني إليك لأهب لكِ غلامًا طاهرًا من الذنوب، وخاليًا من النقائص والعيوب. فأجابته متعجّبةً من وجود غلام من غير أب، فقالت: كيف يكون لي غلام، ولم أتزوج زواجًا شرعيًّا، ولم أَكُ ممن يعمل الفاحشة؟ فقال الملَك لمريم مُقِرًّا إيّاها علىٰ استغرابها من وجود ولد بغير الطريقة المعروفة: ولكن يامريم ربكِ جل وعلا قال: إن هذا الأمر سهل هيِّنٌ عليه، ثم بين سبحانه أنه خلق عيسىٰ بهذه الطريقة الخارقة للعادة -أي: من غير أب- ليكون آية وعلامة للنّاس يستدلون بها علىٰ قدرة الله، وليعلموا أن الأسباب لا تستقل بالتأثير بذاتها، وإنما تأثيرها يكون بتقدير الله، وأيضًا ليكون رحمة للنّاس إذا أطاعوه وآمنوا به، ثم بين سبحانه أن خَلْقَ عيسىٰ وإيجاده بهذه الطريقة قضاء سابقٌ مقدَّرٌ جفّ به القلم، فلا بد من نفوذه ووقوعه.

[٢٢-٢٣-٢٤-٢٥] ثم أخبر سبحانه أن جبريل نفخ في جيْب مريم فحملت بعيسىٰ كما أراد الله، ولما رأت الحمل اعتزلت به في مكان بعيد عن قومها خشية الفضيحة. ثم بين سبحانه أن مخاض الولادة وطلْق الحمل ألجأها إلىٰ ساق النخلة لتعتمد عليه وتتمسك به من آلام الولادة، ثم قالت وهي علىٰ هذه الحالة: ياليتني متُّ قبل هذا الذي حصل لي ولم أكن شيئًا مذكورًا. فناداها ابنها عيسىٰ أثناء المخاض والولادة؛ ليذهب عنها الحزن فقال لها: لا تحزني ياأماه قد جعل ربك تحتك سريًّا، قيل: إنه يتكلم عن نفسه، وقيل: إنه يتكلم عن الماء الجاري بجانبها. ثم قال لها: وأمسكي ياأماه بجذع النخلة وحرِّكيه يمينًا ويسارًا ليتساقط عليك رطبًا طريًّا لذيذًا نافعًا، والمقصود بذلك: هو العمل بالأسباب. **قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان:** أظهر القولين عندي أن الذي ناداها هو ابنها عيسىٰ، وتدل علىٰ ذلك قرينتان: **القرينة الأولىٰ:** أن الضمير يرجع إلىٰ أقرب مذكور إلّا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسىٰ لا جبريل؛ لأن الله قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾، يعني: عيسىٰ، ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾، أي: بعيسىٰ، ثم قال بعده: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾، فالذي يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسىٰ. **والقرينة الثانية:** أنها لمّا جاءت به قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا، أشارت إلىٰ عيسىٰ ليكلموه؛ كما قال تعالىٰ عنها: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، وإشارتها إليه ليكلموه قرينة علىٰ أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم علىٰ سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته. **وزيادة علىٰ ما قال شيخنا رحمه الله:** فإن جبريل أجلُّ وأعزُّ من أن يكون تحتها في مثل هذا الوضع.

[٢٦] ثم أوحىٰ الله لمريم علىٰ لسان ابنها عيسىٰ حيث قال: فكلي يامريم من هذا الرطب، واشربي من هذا الماء، وطيبي نفسًا بهذا المولود، فإذا رأيتِ أحدًا من البشر، واستغرب منك هذا الولد فقولي عن طريق الإشارة: إني أخذت علىٰ نفسي لله صومًا، أي: سكوتًا، فلنْ أكلم اليوم أحدًا من النّاس.

[٢٧] ثم جاءت مريم عليها السلام بولدها عيسىٰ وهي تحمله، فلمّا رآها قومها قالوا مباشرة: يامريم لقد جئت بأمر عظيم، كيف لك بهذا الابن بدون زواج شرعي؟

[٢٨] ثم أخذوا في توبيخها وتقريعها قائلين: ياأخت هارون العبد الصالح: ما كان أبوك رجلًا يأتي الفواحش، ولا كانت أمك كذلك! فكيف كنتِ علىٰ غير وصفهما، وجئتِ بما لم يأتيان به؟!!

[٢٩] فلم ترد مريم عليها السلام عليهم بالقول، وإنما أشارت إلىٰ عيسىٰ عليه السلام ليكلموه ويسألوه، فقالوا متعجبين ومنكرين عليها: كيف نكلم هذا الطفل الرضيع الذي لا يزال في المهد؟!!

[٣٠] وهنا حصلت المعجزة التي بهرتهم وأنطق الله عيسىٰ عليه السلام فكان أول ما نطق به أن اعترف بعبوديته لله – بخلاف ما افترت به النصارىٰ بزعمهم أنه إله أو ابن للإله – فقال: إني عبدٌ لله، أعطاني الله الإنجيل، وجعلني نبيًا من أنبيائه.

[٣١] ثم قال عيسىٰ: وجعلني مباركًا عظيم النفع، معلمًا للناس الخير والتوحيد أينما كنت في أي زمان ومكان، وأوصاني بالمحافظة علىٰ الصلاة التي هي من أعظم حقوق الله جل وعلا؛ لأنها اشتملت علىٰ توحيده بالعبادة، وأوصاني بالزكاة التي هي من أجلّ حقوق العباد، وأوصاني أن أحافظ علىٰ ذلك مدة دوام حياتي.

[٣٢] وقال أيضًا: وأوصاني ببر والدتي وأن أُحسن إليها غاية الإحسان، ولم يجعلني الله متكبرًا ولا متعاظمًا، ولا شقيًّا عاصيًا لأوامر ربي؛ بل مطيعًا لله، متواضعًا لعباد الله.

[٣٣] ثم قال: وقد منَّ الله عليَّ بأنْ سلَّمني الله، وأمنني يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي حيًّا يوم القيامة.

[٣٤] واعلم يانبي الله أن ذلك الموصوف بتلك الصفات هو عيسىٰ ابن مريم، وتلك حقيقة أمره من غير شكّ ولا مرية، بخلاف ما يقول فيه الممترون الشاكّون من المغضوب عليهم اليهود الذين اتهموا مريم عليها السلام بالفاحشة، ومن الضّالين النصارىٰ الذين قالوا: إنه ابن الله – تعالىٰ الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا –.

[٣٥] واعلموا أيها الناس أنه ما كان يصح ولا يستقيم ولا يليق بالله أن يتخذ ولدًا، تنزّه سبحانه وتعالىٰ وتقدّس عن هذا الولد وعن كل نقص وعيب، ثم بين سبحانه أنه إذا قضىٰ أمرًا من الأمور فإن ذلك لا يمتنع عليه ولا يصعب؛ بل إذا قال له: (كن) فإنه يكون مباشرة كما أراد.

فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

[٣٦] ثم قال لهم عيسىٰ عليه السلام: ياقوم إن الله ربي وربكم هو الذي خلقنا ورزقنا وهو الذي يحيينا ويميتنا، فأخلصوا له العبادة وحده دون من سواه، وهذا هو الطريق البين الواضح الموصل إلىٰ الله جل في علاه.

[٣٧] ثم أخبر جل وعلا أن الأحزاب وفِرَق الضلال اختلفت في شأن عيسىٰ عليه السلام؛ فمنهم من جفاه ولم يعترف برسالته ورماه وأمه بالنقائص والعيوب، وهم اليهود المغضوب عليهم، ومنهم من غلا فيه وأنزله فوق منزلته وهم النصارىٰ الضّالون الذين زعم بعضهم أنه إله، وزعم بعضهم أنه ابن الله، وزعم آخرون منهم أنه ثالث ثلاثة –تعالىٰ الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا–؛ ثم قال سبحانه مهددًا هؤلاء المجرمين: فويل للذين كفروا وجحدوا بآيات الله ورسله من مشهد يوم القيامة، ذلك المشهد العظيم.

[٣٨] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار سوف يكونون أقوىٰ وأشدَّ سمعًا وبصرًا يوم القيامة، يوم يأتون إليه سبحانه للجزاء والحساب!، ولكنْ الظالمون المجاوزون حدودهم في هذه الحياة الدنيا في ضلال بيّن واضح.

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾

[٣٩] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يخوِّف النّاس من يوم الحسرة حين يُقضىٰ الأمر ويُفرَغ من الحساب، ويصير أهل الجنة إلىٰ الجنة وأهل النار إلىٰ النار، فيندم الشقي حينها ندامة يتقطع منها قلبه، ولا تنفعه حينها الندامة، فأنذرهم بذلك يانبي الله، فإنهم اليوم في حياتهم الدنيا في غفلة عمّا ينتظرهم من كُرَب وأهوال، وهم لا يؤمنون ولا يصدّقون.

[٤٠] ثم بين جل وعلا بما يدل علىٰ شمول قدرته فأخبر أنه هو وحده الذي يرث الأرض ومن عليها، وأن مرجع جميع الخلائق إليه وحده، وأن حسابهم عليه وحده؛ فيجازيهم علىٰ أعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

[٤١] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ نبيه محمد ﷺ أن يذكر لقومه في هذا القرآن قصة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل الأواب الحليم الكريم عليه السلام، الذي بالغ في الحرص علىٰ دعوة أبيه وقومه؛ فنوَّع الأساليب وذكر المحاسن في الإيمان وعاقبته، والمساوئ في عبادة الأصنام أو الشمس والقمر؛ فقال تعالىٰ: وأخبر يانبي الله قومك أنَّ إبراهيم عليه السلام كان من أعظم الأنبياء الصادقين المخلصين في أقواله وأعماله، وقد اصطفاه الله بالنبوة والخِلَّةِ وجعله من أولي العزم من الرسل.

[٤٢] ثم اذكر يا نبي الله لقومك يوم أن قال إبراهيم لأبيه آزر: يا أبت لماذا تتوجه بالدعاء والتقرب بأنواع القربات إلىٰ هذه الأصنام الجامدة التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تدفع عنك شيئًا، ولا تضر ولا تنفع.

[٤٣] ثم قال إبراهيم لأبيه: يا أبت إن الله أكرمني بالعلم النافع والهدىٰ الذي لم يصلك ولم تعرفه؛ فاقبل مني واتبعني إلىٰ ما أدعوك إليه من التوحيد والمعتقد السليم، الذي يوصلك إلىٰ طريق السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة.

[٤٤] وقال إبراهيم لأبيه أيضًا: ويا أبتِ لا تعبد الشيطان بطاعته في اتخاذ هذه الأصنام آلهة من دون الله، ولا تتخذه وليًّا من دون الله، فإنه قد عصىٰ الله وفسق عن أمره، وخرج عن طاعته.

[٤٥] وقال إبراهيم أيضًا: ويا أبتِ إني أخاف عليك – إن بقيت علىٰ شركك وكفرك – أن يمسّك عذاب من الرحمن، فتكون للشيطان وليًّا وقرينًا في الدنيا والآخرة.

[٤٦] فقال له أبوه: أكاره أنت آلهتي يا إبراهيم ومعرض عنها؟! لئن لم تكف عن سبّ آلهتي ودعوتي لتركها، لأقتلنك رجمًا بالحجارة، فاذهب عني الآن فلا أريد رؤيتك، واتركني زمانًا طويلًا من الدهر.

[٤٧] فقال إبراهيم لأبيه: سلام عليك يا أبتِ، وتحية وداع ومتاركة لك، فلن ترَ مني ما تكره، وسأدعو الله لك بالمغفرة، إن الله كان بي لطيفًا رحيمًا رؤوفًا، لا يرد دعائي، ولا يخيب رجائي.

[٤٨] ثم قال إبراهيم عليه السلام: وسوف أهاجر بديني فأترككم وأفارقكم أنتم وأصنامكم التي تعبدونها من دون الله، وأدعو ربي موحدًا مخلصًا له ديني، عسىٰ الله أن يسعدني بإجابة دعائي، ولا يخيب فيه كبير رجائي.

[٤٩] فلمّا هاجر إبراهيم عليه السلام وترك قومه وما يعبدون من دون الله؛ وهب الله له الذرية الصالحة من زوجته سارة عليها السلام، فوهب الله له إسحاق، ثم وهب له من إسحاق يعقوب، وجعلهما ممن اصطفىٰ من الأنبياء.

[٥٠] ثم بين سبحانه أنه أعطاهم وأغدق عليهم من رحمته التي تشمل العلم النافع والعمل الصالح والذرية الطيبة، وجعل لهم ذكرًا حسنًا عاليًا، وثناء جميلًا ظاهرًا علىٰ ألسنة العباد.

ومن فضل الله علىٰ إبراهيم عليه السلام أنه استجاب لطلبه حينما قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الشعراء:٨٣ – ٨٥]؛ وأكرمه سبحانه بأن جعله أُمَّة وقدوة لمن بعده، وجعل الأنبياء الذين جاءوا بعده كلهم من ذريته ما عدا لوط عليه السلام، أما دعوته لأبيه: ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الشعراء:٨٦]؛ فلم تستجب له.

[٥١] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يذكر لقومه في هذا القرآن قصة موسىٰ عليه السلام، وأن يخبرهم بأن الله اختاره واصطفاه وأكرمه بأن جعله رسولًا نبيًّا من أولي العزم من الرسل.

وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

[٥٢] ثم أخبر جل وعلا أنه نادىٰ موسىٰ عليه السلام من ناحية جبل الطور بسيناء، وأنه قرّبه وناجاه، فسمع موسىٰ كلام الله جل في علاه.

[٥٣] ثم أخبر سبحانه أن من رحمته بنبيه موسىٰ عليه السلام أن وهب لأخيه هارون النبوة حسب طلبه لكي يساعده علىٰ أمره ويعينه علىٰ نشر دعوته.

[٥٤-٥٥] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يذكر لقومه في هذا القرآن قصة إسماعيل عليه السلام، وأن يخبرهم أنه كان صادقًا في وعده، فلم يخلف وعدًا قط، وبأن الله أكرمه بأن جعله رسولًا نبيًا. وأنه كان مقيمًا لأمر الله علىٰ أهله؛ فيأمرهم بأداء الصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، ويأمرهم بأداء الزكاة المتضمنة الإحسان إلىٰ العبيد، وكان عند ربه مرضيًّا، ممن ارتضىٰ الله لهم القرب والولاية.

[٥٦-٥٧] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يذكر لقومه في هذا القرآن قصة إدريس عليه السلام، وأن يخبرهم بأن الله جمع له بين الصديقية والاصطفاء للوحي والاختيار للرسالة. وأن الله رفع ذكره بين العالمين، وأنزله منزلة عالية.

[٥٨] واعلم يارسول الله أن هؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله لك: هم الذين اصطفاهم الله لتلك المنزلة العالية الرفيعة من بني آدم، ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، ومن ذرية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، وممن اخترنا وهدينا لمعرفة الطريق الموصلة إلينا، فهؤلاء إذا قُرِئت عليهم آيات الرحمن الدالة علىٰ وحدانيته وعظمته، والدالة علىٰ الإخبار باليوم الآخر وما فيه من وعد ووعيد؛ إذا قُرئت عليهم خضعوا وأذعنوا وخشعوا ثم خرُّوا سجَّدًا لله باكين من خشيته.

[٥٩] وبعد أن ذكر جل وعلا هذه السلسلة الذهبية من الأنبياء، ذكر أنه أتىٰ بعدهم أقوام بدّلوا وغيروا؛ فمنهم من ترك الصلاة بالكلية، ومنهم من ضيع بعض أوقاتها، ومنهم من ترك أركانها وواجباتها، وأيضًا اتّبعوا شهوات أنفسهم، فهؤلاء أخبر سبحانه أنهم سوف يلقون غيًّا، أي: عذابًا شديدًا مضاعفًا في جهنم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: الغي هو: وادٍ في جهنم. وهذه الآية دليل واضح وصريح علىٰ كفر تارك الصلاة، وكذلك مع قوله ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»[1]، والجمهور: علىٰ أن من جحد كونها فرضًا هو الذي يكفر فقط.

[٦٠-٦١-٦٢] ثم استثنىٰ جل وعلا من هؤلاء من تاب من الشرك والبدع والمعاصي وعاد إلىٰ ربه، وآمن بالله ورسوله ﷺ، وعمل الأعمال الصالحة المشروعة؛ فهؤلاء يقبل الله توبتهم، ويدخلهم الجنة، ولا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئًا. وهذه الجنات التي يدخلونها لهم فيها إقامة دائمة فلا يتحولون عنها، ولا يزولون، وقد وعدهم الله هذه الجنات بالغيب فآمنوا بذلك وصدّقوا، فكيف لو رأوها؟! لكانوا أشدّ لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ولذلك امتدح الله إيمانهم بالغيب، وليعلم الجميع أن وعد الله آت لا محالة، إن الله لا يخلف الميعاد. ثم بين سبحانه أن أهل الجنة لا يسمعون في الجنة كلامًا باطلًا ولا لغوًا لا فائدة فيه؛ بل لا يسمعون إلّا كل قول سالم من كل عيب، فيسمعون ذكر الله، والتحية وكلام السرور والفرح والحبور، ولهم رزقهم فيها من الطعام والشراب حسب ما يشتهون، صباحًا ومساء.

[٦٣] واعلموا أيها الناس أن تلك الجنة الموصوفة بتلك الصفات الحسنة الجميلة؛ هي التي أورثها الله لعباده المتقين الذين جعلوا بين الله وبين عذابه وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[٦٤] كان جبريل عليه السلام قد احتبس أيامًا عن النبي ﷺ لم ينزل عليه، بعد أن سأله المشركون عن أصحاب الكهف، وذي القرنين، والروح، فلما نزل جبريل عليه السلام قال له النبي ﷺ: «**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا**»[2]؛ فقال جبريل للنبي ﷺ: اعلم يانبي الله أن الملائكة لا تتنزل من السماء إلىٰ الأرض إلّا بأمر من الله لها، وأنه ليس لها من الأمر شيء؛ بل الأمر له سبحانه في جميع الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة؛ ثم قال له: واعلم يانبي الله أن الله ما كان نسيًّا ولا مهملًا لشيء من أعمالكم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٩٣٧)، والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٣١).

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ
هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ
أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ
وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ
لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ
هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِيهَا جِثِيّٗا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴿٧٣﴾
وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾
قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ
مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ
مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ
وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

[٦٥] واعلم يانبي الله أن ربك المالك لجميع السماوات والأرض وما بينهما لم يكن ناسيًا لشيء من أمور عباده، ولهذا عليك أن تعبد الله وتستمر في عبادته أنت ومن اتبعك من المؤمنين، وتصبر علىٰ مشاق الدعوة وما يأتيك من الأذىٰ من قومك بسببها، فإنه الإله الذي لا نظير ولا مثيل له في أسمائه وصفاته وأفعاله؟ كما قال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].
وهذه الآية تفيد أن إثبات صفات الكمال لله تأتي مفصلة، أما نفي صفات النقص فتأتي مجملة.

[٦٦-٦٧] ثم أخبر جل وعلا بمقولة ذلك الإنسان الكافر بالبعث بعد الموت الذي يقول: هل يعيدني الله حيًّا بعد الموت وبعد أن صرت رميمًا؟ إن هذا أمر مستحيل. فرد جل وعلا علىٰ مقالته الفاسدة قائلًا: ألا يذكر هذا الإنسان الكافر بالبعث أنا خلقناه من قبل، أي: من العدم، ولم يكن شيئًا مذكورًا؟ ثم ألا يعلم أن الذي قَدَرَ علىٰ خلقه أول مرة من العدم؛ فإنه قادر علىٰ إعادته وإحيائه بعد الموت؟.
وهذه الآية تُذكّر بموقف أُبي بن خلف الذي فرك عظمًا باليًا ثم نفخه ثم قال: أتزعم يامحمد أن ربك يحيي هذه، وأنني سأعود إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ بعد فنائي وتفرق أجزائي؟ فأجابه ﷺ بقوله: «**نعم، ويدخلك النار**»[1].

(١) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٢٤٩٨).

[٦٨-٦٩-٧٠] ثم أقسم سبحانه بذاته: أنه سيجمع هؤلاء المكذبين بالبعث مع شياطينهم الذين أغووهم فأطاعوهم، ثم يحضرهم حول جهنم جاثين علىٰ ركبهم من شدّة ما يرون من الشدائد والأهوال. ثم ليخرج سبحانه بالنزع من كل فرقة أشدّهم تمردًا علىٰ الإيمان والتوحيد، وأجرأهم علىٰ الشرك والتكذيب والتنديد، فنقدمه إلىٰ العذاب. ثم أخبر سبحانه أنه علىٰ علم تام بالذين هم أولىٰ بدخول النار وتذوق عذابها، ومقاساة حرها وسَمُومها.

[٧١] واعلموا أيها الناس أنه ما منكم من أحد إلّا سيرد جهنم، وذلك بالمرور عليها من علىٰ الصراط، وأن هذا الأمر قد كتبه الله وقضاه وقدّره أزلًا في اللوح المحفوظ - فاللهم سلّم سلّم -، ومن الحكمة في ذلك: أن يشاهد المؤمنون ما أعدَّ الله لأعدائه من العذاب، وأن هذه النار التي يمرون عليها لا تضر المؤمنين؛ لأنهم سوف يمرون عليها مر البرق كما أخبر بذلك النبي ﷺ، وكما أن الله جعل النار التي أوقدت لإبراهيم عليه السلام سلامًا عليه؛ فهو سبحانه قادر أن يجعل تلك النار التي يمر عليها المؤمنون يوم القيامة لا تضرهم.

[٧٢] ثم أخبر سبحانه أنه سوف ينجِّي من هذه النار أولئك الذين اتقوا؛ فآمنوا بالله وجعلوا بينهم وبين نار الله وقاية بتوحيده وفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأما الذين تجاوزوا حدّهم بالشرك والمعاصي؛ سوف يتركهم الله في نار جهنم جاثين علىٰ ركبهم من هول ما أحاط بهم من العذاب.

[٧٣] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أنه إذا قُرِئت علىٰ الكفار الآيات البينات الواضحات الدالات علىٰ وحدانية الله جل وعلا وَصِدْقِ رسوله ﷺ؛ قال الذين كفروا بالله وجحدوا رسوله ﷺ: أي الفريقين - نحن والمؤمنون - أفضل منزلًا في الدنيا وأكثر أموالًا وأولادًا، وأحسن نديًّا، أي: مجتمعًا!، وتلك حجة باطلة ودليلٌ فاسد؛ فالدنيا يعطيها الله لمن يأخذ بالأسباب مؤمنًا كان أو كافرًا.

[٧٤] ثم بين سبحانه أن دليل فساد حجتهم، وبطلان فريتهم؛ أنه أهلك قبلهم أممًا كثيرة كانوا أحسن منهم متاعًا، وأوفر منهم مالًا، وأحسن منهم منظرًا.

[٧٥] وقل يانبي الله لهؤلاء الكفار: اعلموا أن من كان في ضلاله وشركه وغيّه سائرًا، وعن الحق والتوحيد معرضًا؛ فإن الله يمهله ويمده في ضلاله ويزيده فيه حبًّا، وذلك استدراجًا له لاختياره الضلالة علىٰ الهدىٰ، حتىٰ إذا رأىٰ هؤلاء الضّالون حقيقة الأمر: إما العذاب في الدنيا بقتلٍ أو غيره، وإما الساعة باقتراب عذابهم في الآخرة؛ فسيعلمون حينها ويتيقنون أنهم هم شرّ مكانًا، وأنهم أضعف جندًا، وهذا العلم لا يفيدهم شيئًا.

[٧٦] ثم أخبر سبحانه أنه يزيد عباده الموحدين الذين اهتدوا؛ هداية علىٰ هدايتهم، فييسّر لهم العلم النافع والعمل الصالح، وأخبر أن الأعمال الصالحة الباقية التي يبقىٰ أثرها ويستمر أجرها وثوابها فهي أحسن مرجعًا وثوابًا عند الله.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

[٧٧-٧٨-٧٩-٨٠] يخاطب جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ ويقول له: هل رأيت يانبي الله هذا الكافر الذي كفر بما أُنزِل عليك من الآيات وأنكر الوحي، وهو العاص بن وائل عندما أنكر البعث وسخر به وبالذي طالبه بِدَيْنٍ له عليه استصغارًا واحتقارًا له، وهو خبّاب بن الأرت؛ حيث قال لخباب: لا أعطيك حقك حتىٰ تكفر بمحمد، فقال خباب: لا والله لا أكفر بمحمد حيًّا ولا ميتًا ولا حين نُبعث، فقال العاص: إذًا فانتظرني إلىٰ ذلك اليوم فإنه سيكون عندي مال وولد وسوف أعطيك حقك. فرد عز وجل عليه قائلًا: هل اطلع علىٰ الغيب فعرف أنه سيكون له يوم القيامة مال وولد؟ أم جاءه عهد ووعد من الله أنه سيكون له ذلك؟. كلا سنكتب ما يقوله من الكذب والافتراء علىٰ الله، وسوف نزيد له أنواع العقوبات كما ازداد من التكذيب والكفر والضلال. وسوف نميته فيُسلب المال والولد، ويأتينا يوم القيامة وحده منفردًا لا مال له ولا منعة ولا أنصار.

[٨١-٨٢] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المشركين اتخذوا من دون الله آلهة باطلة يزعمون أنها ستعزّهم وتنصرهم وتمنعهم من عذاب الله. وفي الحقيقة: ليس الأمر كذلك؛ بل في يوم القيامة ستكفر بهم هذه الآلهة وستجحدهم، وسيكونون أعداءً لهم يخاصمونهم ويوردونهم المهالك.

[٨٣-٨٤] ثم قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ألم تعلم يانبي الله أنا عاقبنا الكافرين عقوبة شديدة لهم - بسبب إعراضهم وإصرارهم علىٰ الكفر-؛ حيث سلَّطنا عليهم الشياطين، وقيضناها لهم تغويهم وتدفعهم إلىٰ فعل المعاصي دفعًا!! لأنهم رفضوا الإيمان وناصبوك العداء. فلذا لا تستعجل لهم العذاب، فإن لهم أيامًا معدودة، وساعة محدودة، لا يستقدمون عنها ولا يستأخرون.

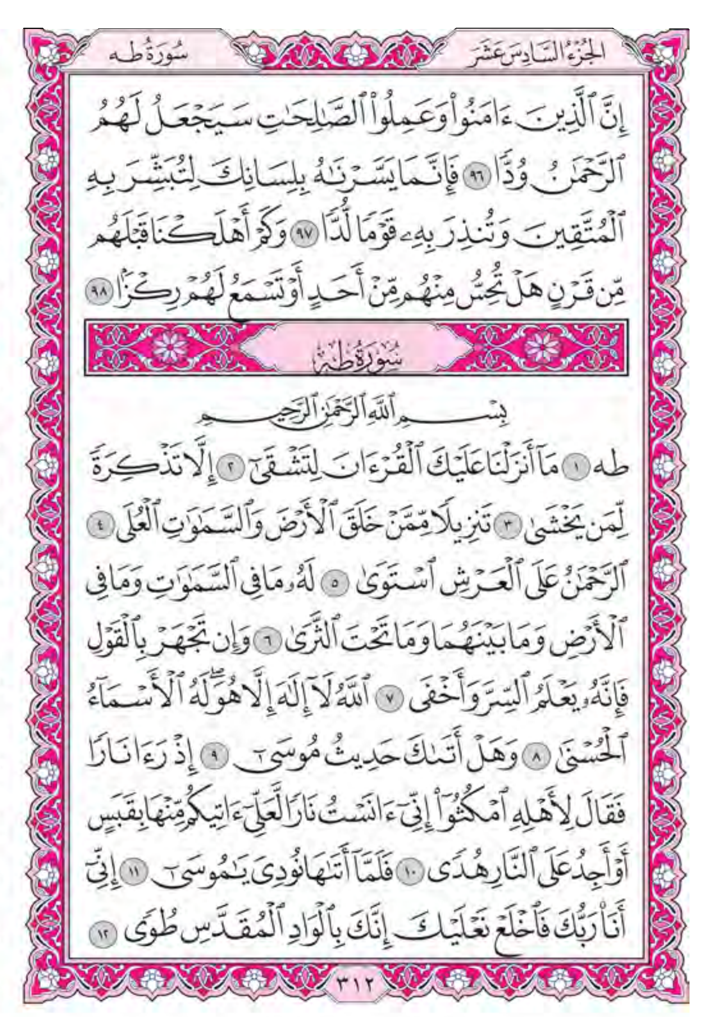
[٨٥-٨٦] واذكر يارسول الله للناس ذلك اليوم الذي يُجمع فيه المتقون الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ حيث يُجمعون إلىٰ جنة الرحمن وفودًا مبجَّلين معزَّزين مكرَّمين. أما أولئك الذين أجرموا في حق الله بالشرك والتنديد فسوف يساقون إلىٰ جهنّم سوقًا شديدًا وهم عطاش أذلاء صاغرون.

[٨٧] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يملكون الشفاعة، وليست لهم، إنما الشفاعة لمن وحَّد الله وآمن برسوله ﷺ؛ فأولئك هم أصحاب العهد الذين قاموا به وأدوه، فيكرمهم الله بالشفاعة، فيَشفعون، ويُشفَع لهم، نسأل الله الكريم من فضله أن يدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

[٨٨-٨٩-٩٠-٩١] ثم أخبر جل علا عن مقولة الكفار الذين يقولون: بأن الله اتخذ ولدًا؛ حيث قالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارىٰ: المسيح ابن الله، وقال بعض العرب: الملائكة بنات الله. فشنع الله قولهم وجرّمهم؛ حيث قال: لقد جئتم جُرمًا عظيمًا. ثم بين سبحانه أن هذه الفرية تكاد السماء تتشقق من فظاعتها، وتتصدّع الأرض وتسقط الجبال سقوطًا هائلًا من هول وعظم ما قالوا. لأن هؤلاء المجرمين ادعوا لله الولد؛ فتعالىٰ الله عمّا يقول المجرمون علوًّا كبيرًا.

[٩٢] ثم أخبر جل وعلا عن نفسه أنه لا ينبغي ولا يليق بعظمته وجلاله أن يتخذ ولدًا؛ لأنه الغني عن كل أحد، وأن كل من في السماوات والأرض بحاجة له سبحانه وتعالىٰ، ومعلوم أن الآباء يطلبون الأولاد ليحملوا اسماءهم ويساندوهم في ضعفهم وشيخوختهم، وينفذوا وصاياهم بعد موتهم، وهذه كلها منتفية بالنسبة لله عز وجل.

[٩٣-٩٤-٩٥] ثم بيّن جل وعلا أن كل من في السماوات والأرض آتيه يوم القيامة عبدًا ذليلًا خاضعًا له. وأنه سبحانه قد أحاط بكل المخلوقات، وعلم عددهم، فلا يخفىٰ عليه أحد منهم. ثم بين أن كل واحد من النّاس سوف يأتيه يوم القيامة وحده، وسيقف بين يديه وحده؛ لا ولد معه ولا مال ولا معين ولا نصير، ولا يكون مع الإنسان في ذلك الموقف إلّا عمله الذي يجازىٰ عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.



[٩٦] ثم ذكر جل وعلا نعمة من نعمه علىٰ عباده الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله ﷺ، وعملوا الأعمال الصالحة المشروعة، أنه سيجعل لهم محبّة ومودة في قلوب عباده.

[٩٧] ثم أضاف سبحانه نعمة كبرىٰ علىٰ نبيه محمد ﷺ، وهي أنه جعل هذا القرآن سهلًا يسيرًا عليه وعلىٰ أمته؛ حيث جعله بلسانه، أي: باللغة العربية؛ وهذا التيسير الذي جعله الله لهذا القرآن لكي تبشر به عباد الله الذين اتقوا ربهم بعمل الطاعات وترك المنهيات، وتخوِّف به الكفار المكذبين ذوي الخصومة الشديدة بالباطل، حتىٰ تقوم عليهم المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة.

[٩٨] ثم ختم جل وعلا السورة ببيان أنه أهلك أممًا كثيرة طغت وتجبرت وحاربت الدعوة قبل أمتك يانبي الله؛ فهل تشعر بأحد منهم أو تراه؟ أو تسمع له حتىٰ ولو صوتًا خفيفًا؟!.

سورة طه

سورة طه مكيّة وآياتها خمس وثلاثون ومائة آية.

[١] قوله: ﴿طه﴾، قيل: اسم للسورة، وقيل: هو أحد أسماء النبي ﷺ، ويؤيد قولهم إسناد الخطاب إليه؛ حيث قال في الآية التي بعدها: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾، فالكاف في قوله: ﴿عَلَيۡكَ﴾، للمخاطب به وهو: طه، والجمهور علىٰ خلاف هذا القول، ويرون أنها مثل الحروف المقطعة في أوائل السور.

[٢-٣-٤] أخبر جل وعلا في بداية هذه السورة نبيه ﷺ أنه ما أنزل عليه القرآن للإفراط في إرهاق نفسه وإتعابها، وإنما المطلوب منه ﷺ هو البلاغ والدعوة؛ وكذلك القصد في العبادة والتهجد. ثم بين سبحانه أنه أنزل هذا القرآن تذكرة وموعظة لمن يطلب رضا الله ويخشىٰ عقابه. وأخبر أيضًا أن هذا القرآن تنزيل من العلي العظيم الذي خلق الأرض والسماوات العلىٰ.

[٥] ثم أخبر جل وعلا عن عظمته وكبريائه بأنه ارتفع وعلا، واستوىٰ استواءً يليق بجلاله وعظمته من غير تكييف ولا تمثيل.

ومعظم الفرق الإسلامية تأوّل قوله: ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾، فتقول: (استولىٰ)؛ ما عدا أهل السنة والجماعة؛ فيقولون: ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾، أي: علا وارتفع واستوىٰ استواءً يليق بجلاله وعظمته، وهو استواء له كيفية ولكن لا نعرفها كما أننا لا نعرف كيفية ذاته سبحانه، وهذه الكيفية لم يُطلع الله عليها أحدًا من البشر، وقد روي عن أحمد ومالك أنهما قالا: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والبحث عنها بدعة). قلت هذا لأن هناك فرقًا من المسلمين يقولون: لا كيفية له، أي: أنهم يعبدون عدمًا. **ثم يقال للذين يقولون**: (استوىٰ)، أي: (استولىٰ): أليس الله كان مستوليًا علىٰ العرش وغيره قبل خلق السماوات والأرض لمّا كان عرشه علىٰ الماء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾[هود:٧]؟!.

[٦] ثم بين سبحانه أن هذا الرحمن وهو الله له ملك السماوات والأرض وملك ما بينهما، وما تحت الأرض والتراب.

[٧] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أنه سواء جهر بالكلام أو أخفاه؛ فإن الله يعلم ذلك، لأنه يعلم السر وهو الكلام الخفي الذي يُسِرُّ الرجل به لصاحبه، ويعلم ما هو أخفىٰ من السر، وهو ما يحدِّث الإنسان به نفسه، أو ما يخطر علىٰ باله.

[٨] واعلموا أيها الناس أن هذا الرب العظيم هو المعبود بحق، فلا معبود بحق إلّا هو، وأن له سبحانه الأسماء الحسَنَىَ التي تدلُّ علىٰ كمال الحمد والمدح له، وتدل علىٰ أكمل الصفات وأعظمها وأجَلِّها.

[٩-١٠-١١-١٢] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: هل أتاك يانبي الله خبر موسىٰ بن عمران الذي قدم من مدين إلىٰ مصر؛ حيث رأىٰ نارًا مشتعلة فقال لأهله: ابقوا في مكانكم لقد رأيت نارًا لعلي أحضر لكم منها شعلة تستدفئون بها؛ أو أجد عندها من يدلني علىٰ الطريق؛ لأنه اشتبه عليه طريق العودة لمصر، وهذه النار التي رآها موسىٰ هي في الحقيقة نورٌ خَلَقَهُ الله فظن أنه صادر من نار مشتعلة؛ فَذَهَبَ إليه ليجلب الدفء إلىٰ أهله؛ فجلب لهم ولقومه الدفء الأهم والأعظم وهو الإيمان والإسلام بعد أن شرّفه الله وأكرمه بكلامه واصطفائه. فلمّا وصل موسىٰ إلىٰ هذا النور ناداه الله. فقال له: ياموسىٰ إني أنا ربك أُكلِّمُك؛ فاخلع نعليك، وتهيأ لمناجاتي، واعلم أنك بوادٍ مُطَهَّر، وهو وادي طوىٰ – بأرض سيناء –.

وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾

[١٣-١٤] واعلم ياموسىٰ أنني اخترتك واصطفيتك من بين الناس للرسالة والنبوة؛ فاستمع لِمَا أوحيه إليك. إنني أنا الله لا معبود بحقٍّ إلّا أنا؛ فاعبدني وحدي؛ بأن تصرف لي جميع ما أحبه وأرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، اللازمة والمُتَعدِّية، ثم خصَّ الصلاة بالذكر مع دخولها تحت مسمىٰ العبادة، وذلك لفضلها وشرفها، فأقِم ياموسىٰ هذه الصلاة لأجل أن تذكرني فيها.

[١٥-١٦] ثم اعلم ياموسىٰ أن الساعة آتيةٌ واقعةٌ لا شكّ في ذلك، وقد أخفيت علمها عن الخلائق كلهم، وبالغتُ في إخفائها؛ والحكمة من قيامها: محاسبة ومجازاة كل نفس بما قدمت؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. فلا يُشغلنَّك ولا يلهينَّك عن الإيمان بها، والاستعداد والتزوّد لها مَنْ لا يصدِّق بها، ومن يُشكِّكُ فيها، ولا يُشغلنَّك عنها أيضًا من تنكّب عن الحق واتّبع هواه؛ فتشقىٰ بذلك، وتهلك في مهاوي الردىٰ.

[١٧-١٨] ثم سأل جل وعلا موسىٰ: ما هذه التي في يدك اليُمْنَىٰ؟! مع علمه سبحانه وإنما سأله عنها لتنبيهه؛ حيث إن المعجزة ستقع بها أولًا. فأجاب موسىٰ قائلًا: هي عصاي، أعتمد عليها في قيامي ومشيي، وأضرب بها أوراق الشجر لتأكل غنمي، ولي فيها مقاصد وحاجات أخرىٰ.

[١٩-٢٠-٢١] فقال جل وعلا: ألقِ هذه العصا ياموسىٰ. فاستجاب مباشرةً فألقاها؛ فإذا بها تتقلب بإذن الله إلىٰ حيَّةٍ عظيمة تمشي. فخاف منها فولَّىٰ هاربًا، فقال سبحانه وتعالىٰ مُطَمْئِنًا له: خذها ياموسىٰ ولا تخف فليس عليك منها بأس، ولن تضرّك، فإنك إذا مددت يدك لتأخذها سنعيدها لحالتها وصفتها الأولىٰ، أي: سنعيدها إلىٰ عصا كما كانت.

[٢٢-٢٣] ثم قال جل وعلا: واضمم ياموسىٰ يدك تحت عضد يدك الأخرىٰ بأن تجعلها تحت الإبط، ثم أخرجها فسوف تخرج بيضاء ساطعة مشرقة من غير عيب ولا برص، وهذه معجزة أخرىٰ تدل علىٰ صدق نبوتك ورسالتك. واعلم ياموسىٰ أننا أعطيناك هاتين المعجزتين العظيمتين لأجل أن نريك بعضًا من معجزاتنا الكبرىٰ الدالة علىٰ عظيم قدرتنا وصحة رسالتك فيطمئن قلبك، ولتكون حجة وبرهانًا لمن أرسلت إليهم.

[٢٤] وبعد أن أكرم الله موسىٰ وأعطاه البُرهانَيْنِ المُثْبِتَيْنِ لنبوته ورسالته المعجزة: العصا واليد؛ كلفه بالذهاب إلىٰ الطاغية فرعون، وأمره بأن يتلطف في دعوته لعله يتذكر عظمة الخالق فلا تأخذه العزة بالإثم فيسيء إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه:٤٢-٤٤]؛ فامتثل موسىٰ أمر ربه.

[٢٥-٢٦-٢٧-٢٨] ولمّا علم موسىٰ أنه سيقابل الطاغية فرعون الذي قتل المئات من بني إسرائيل، عرف أنه في أشد الحاجة إلىٰ مدد الله ورعايته وإعانته وتيسير أمْرِه؛ فلذلك طلب من ربه أن يشرح صدره، وأن ييسر أمره، وأن يفك العقدة التي في لسانه لكي يفقهوا كلامه. والعقدة التي في لسانه هي التي تسمىٰ اللثغة، وهي من آثار الجمرة التي أنقذته من فرعون لمّا كان طفلًا، والتي بقي لها أثر علىٰ لسانه، والدليل قول فرعون نفسه: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢].

[٢٩-٣٠-٣١-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥] ثم طلب موسىٰ عليه السلام تكليف أخيه هارون بالرسالة لمساعدته وتوضيح دعوته، فقال: واجعل لي يارب مُساعِدًا ومُعينًا لي في أموري. وهو أخي هارون. أتقوَّىٰ به، ويكون عوْنًا لي في دعوتي. واجعله يارب شريكًا لي في النبوة والرسالة. وذلك من أجل أن نتعاون علىٰ توحيدك وبِرِّكَ وتقواك وتنزيهك. ومن أجل أن نذكرك كثيرًا. إنك يارب كنتَ بنا بصيرًا، تعلم حالنا وضعفنا، ولا يخفىٰ عليك شيء من أمرنا، وأنت تعلم يارب أن هارون أخي أفصح مني لسانًا فيكون معينًا لي علىٰ إيضاح الرسالة؛ فاستجب يارب دعاءنا، وأعطنا يا إلهي سُؤْلَنا.

[٣٦] فقال جل وعلا: لقد أجبتك وأعطيتك ياموسىٰ كلَّ ما طلبته مني، وسألتني إياه.

[٣٧] ثم قال له: ولقد أنعمنا عليك ياموسىٰ قبل ذلك؛ بأنْ أنجيناك حين ولادتك من بطش فرعون وتجبره.

إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١

[٣٨-٣٩] ثم ذكَّر جل وعلا موسىٰ بنعمته عليه منذ الطفولة، حيث رتّب لأمه خطة نجا بها من ملاحقة فرعون وزبانيته. وبين سبحانه أنه ألهم أم موسىٰ أن ترضعه ثم تضعه في تابوت ثم تقوم بطرح التابوت في النيل، وبأمر الله وقدرته سوف يلقيه النيل علىٰ الساحل، فيراه جند فرعون فيأخذوه، ثم أخبر سبحانه أنه ألقىٰ علىٰ موسىٰ محبته ليحبه الناس، وأخبر أن تغذيته وتنشئته وتربيته بالحنان والشفقة تتم تحت رعاية الله وعنايته وعينه، والعين هنا معناها: الرعاية والعناية.

[٤٠] ثم بين سبحانه أن من رعايته لموسىٰ أنه جعل أخته تمشي وتتبع أخباره حتىٰ رأته في بيت فرعون، وعرفت أنه ممتنع عن الرضاعة، فقالت لهم: هل أدلكم علىٰ من يكفله ويرضعه لكم؟ فقالوا لها: نعم، فدلتهم علىٰ أمه، فعاد إلىٰ أمه التي فرحت بلقائه، واطمأنت علىٰ سلامته من الغرق والقتل، وذهب عنها الحزن الذي كان بسبب فراقه وَبُعْدِهُ عنها، وهذا تنفيذ لوعد الله؛ حيث قال لها لما أمرها بإلقائه في النيل: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ [القصص:٧]، ثم بين سبحانه أن من نعمته علىٰ موسىٰ أن نجَّاه من الغم والخوف الذي نزل به بسبب قتل الرجل القبطي الذي استنصر به فقتله عن طريق الخطأ، ثم أخبر سبحانه أنه اختبر موسىٰ بألوان وأنواع من الفتن والمحن؛ حيث خرج خائفًا إلىٰ أهل مدين، فمكث عندهم سنين يعمل كأجير عند ذلك الرجل الصالح، ثم جاء من مدين في الموعد الذي قدره الله لإرساله وحده لتكليمه؛ حيث كان موافقًا لقدر الله وإرادته.

[٤١] ثم قال تعالىٰ ممتنًا علىٰ موسىٰ: لقد اصطفيتك وأنعمتُ عليك وربَّيْتُك وهيَّئتك واخترتُك لنفسي لتحمل رسالتي. وقوله: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ﴾، اصطناع الخيل عند العرب هو تغذيتها وتدريبها علىٰ الكر والفر والاقتحام، وهو هنا بالنسبة لنبي الله موسىٰ إخراجه من بيوت الذل والعبودية؛ لأن بني إسرائيل كانوا خدمًا وعبيدًا عند فرعون وقومه، كما قال قوم فرعون لما جاءهم موسىٰ بالنبوة: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٧]، فنشأة موسىٰ في بيت عز وسيادة يؤهله لمجابهة فرعون وأشكاله؛ لذلك استطاع مجادلة فرعون حين امتن عليه، فقال: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]؛ فقال له موسىٰ: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٢٢]، أي: فما تكون هذه المنة مقابل تعبيدك لبني إسرائيل؛ بل هدده حينما قال موسىٰ لفرعون: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [القصص:٣٧]، وحينما قال فرعون لموسىٰ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ [الإسراء:١٠١]، أجابه موسىٰ: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ [الإسراء:١٠٢].

[٤٢-٤٣-٤٤-٤٥-٤٦] ثم أمر سبحانه موسىٰ أن يذهب هو وأخوه هارون بآيات الله الدالة علىٰ الوحدانية، وعلىٰ الحق وصدق رسالتهما، وأمرهما أن لا يفترا أو يضعفا عن ذكر الله. وأمرهما أن يذهبا دُعاةً إلىٰ فرعون؛ فإنه قد طغىٰ وتجاوز حدَّه وافترىٰ. وقال سبحانه لهما: فإذا أتيتماه فقولا له قولًا ليِّنًا سهْلًا مُؤَدَّبًا، لا غلظة فيه ولا فظاظة، لعله بسماع الحق باللين واليُسر يتذكَّر أصله فيرجع عن طغيانه، أو يخشىٰ عقاب الله فينزجر. فقال موسىٰ وهارون: إننا ياربنا نخشىٰ ألّا يستمع إلىٰ دعوتنا، وأن يبادرنا بالعقوبة والتنكيل؛ وأن يتمرَّد علىٰ الحق. فقال سبحانه مُطَمْئِنًا لهما: لا تخافا، إنني معكما، فأنتما في حفظي، وتحت رعايتي، وأنا أسمع وأرىٰ ما تقولان له، وما يردُّ عليكما.

[٤٧-٤٨] ثم قال جل وعلا لموسىٰ وهارون: اذهبا إلىٰ فرعون ولا تخافا منه، وقولا له : إنا رسولان إليك من ربك حتىٰ يعرف أن الأمر من الله، وأنهما فقط مبلِّغانِ رسالته، وأنهما لا يطلبان شيئًا لنفسيهما؛ ثم قولا له: أطلق سراح بني إسرائيل ولا تعذبهم أو تكلفهم من الأعمال ما لا يطيقون، وبيِّنا له أن معكما معجزة من الله تدل علىٰ صدق دعوتكما وتشهد أن الله أرسلكما إليه لدعوته وهدايته، وقولا له: اعلم يافرعون أن السلامة من عذاب الله في الدنيا والآخرة هي لمن اتبع هدىٰ الله، واعلم أنه قد جاءنا وحيٌ من الله أن العذاب والهلاك والخَسَارَ علىٰ من كذَّب بالله وجحد رسالته، وكذب رُسُلَه، وتوَلَّىٰ عن دينه وشرعه.

[٤٩-٥٠] ولمّا تمت المحاورة سأل فرعون موسىٰ وهارون معاندة وسخرية: من ربكما الذي أرسلكما؟ فقال له موسىٰ: يافرعون إن ربنا هو الله الذي أعطىٰ خلقه كل ما يحتاجون إليه في معاشهم، ثم هداهم إلىٰ طرق الانتفاع بما أعطاهم.

قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ۝٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ۝٦٤

[٥١] ثم سأل فرعون موسىٰ عن الأمم القديمة التي سبقت إلىٰ التكذيب والجحود ما شأنها؟ وغيرها من الأسئلة التي يقصد بها الإفحام والتعجيز.

[٥٢] فقال موسىٰ عليه السلام: اعلم يا فرعون أن عِلْمَ تلك الأمم وعَملُها قد أحصاه الله وكتبه في اللوح المحفوظ، وسيجازيهم سبحانه علىٰ أعمالهم، واعلم أن ربي لا يُخطِئ ولا ينسىٰ سبحانه جل في علاه؛ فهو منزه عن النقائص.

[٥٣] واعلم يا فرعون أن الله وحده هو الذي بسط الأرض ومهَّدها وهيأها لتسكنوا وتبنوا وتزرعوا فيها، وجعل لكم فيها طُرُقًا مُمَهَّدةً تسيرون عليها في انتقالكم من مكان لآخر بيسْرٍ وسهولة، وأنزل لكم المطر من السماء، فأنبت لكم به أصنافًا وأنواعًا مختلفة من النباتات.

[٥٤] ثم أمر سبحانه الناس أن يأكلوا من طيبات هذا الرزق، وأن يرعوا أنعامهم وبهائمهم، واعلموا أن ما ذُكر لكم من هذه النعم لآياتٍ واضحاتٍ بيناتٍ علىٰ وحدانية الله جل في علاه، واستحقاقه سبحانه العبادة وحده دون من سواه، وإنما ينتفع بهذه الآيات أصحاب العقول الراجحة والضمائر النيِّرة.

[٥٥] واعلموا أيها الناس أن الله خلقكم من هذه الأرض – وذلك بخلق: أبيكم آدم –، وأنه يعيدكم فيها حينما تُدفَنون فيها، ثم يخرجكم منها مرَّةً أخرىٰ للجزاء والحساب يوم البعث والنشور.

[٥٦] ثم واصل سبحانه الحديث عن قصة فرعون مع موسىٰ؛ فأخبر أن موسىٰ أرىٰ فرعون جميع الآيات الدالة علىٰ وحدانية الله، وعلىٰ صدق رسالته -كالآيات التسع وغيرها-، فكان أنْ كذَّب وجَحَدَ، وأبىٰ أن يستجيب لرسُل الله عنادًا واستكْبارًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل:١٤].

[٥٧-٥٨] فقال فرعون مهددًا ومتوعدًا موسىٰ: أجئتنا ياموسىٰ بهذا السحر لتخرجنا به من عقيدتنا وديارنا؟. فلنأتينك بسحر مثله؛ فعيِّن لنا موعدًا معلومًا بيننا وبينك نلتقي فيه، ولا يتخلف أحدنا عنه، وليكن لقاؤنا في مكان مستو معتدل يتوسط المدينة؛ حتىٰ يستطيع جميع سكانها الحضور إليه.

[٥٩] فَحَدَّدَ موسىٰ عليه السلام الموعد، وهو يوم الزينة، أي: في يوم عيدهم السنوي في أول النهار حين تشرق الشمس.

[٦٠] وبعد أن استمع فرعون إلىٰ الحق الذي جاء به موسىٰ، وحدد موعد ومكان المناظرة؛ كلف وزيره وشرطته ليجمعوا كبار سحرته الموجودين في مصر كلها، وأخبرهم بموعد اللقاء بينه وبين موسىٰ ليناظروا موسىٰ عليه السلام.

[٦١] ولما رأىٰ موسىٰ السحرة لم تغب عنه مهمته وهي الدعوة للهدىٰ، فقال مخاطبًا لهم: ويلكم لا تختلقوا علىٰ الله الكذب فيهلككم ويبيدكم بعذاب من عنده، واعلموا أيها السحرة أن كل من افترىٰ وقال علىٰ الله قولًا لا حقيقة له فإنه قد خاب وخسر خسرانًا كبيرًا.

[٦٢-٦٣] ولما سمع السحرة من موسىٰ هذه النصيحة تحادثوا بينهم سرًّا خوفًا، ثم استقر أمرهم علىٰ إتمام المناظرة. وقال بعضهم لبعض: اعلموا أن موسىٰ وهارون ساحران يريدان أن يغلباكم بسحرهما، ويخرجاكم من بلادكم، ويظهرا عليكم، ويذهبا بطريقة سحركم العظيمة التي بذلتم أوقاتكم حتىٰ تصلوا فيها إلىٰ ما وصلتم؛ فإنهما إن فعلا ذلك وتمَّ لهما مرادهما؛ سيكون لهما الشرف والسيادة والغَلَبَة، وسيتبعهما بنو إسرائيل.

[٦٤] ثم قالوا لبعضهم البعض أيضًا: فلأجل ذلك أجمعوا أمركم وعزمكم واتَّحِدوا، وكونوا علىٰ قلب رجل واحد، ثم ائتوا صفًّا واحدًا مُتراصًّا؛ فإن ذلك أهْيبُ لكم في قلوب الناس، ثم ألقوا سحركم وكيدكم دفعة واحدة يساعد بعضكم بعضًا؛ فتسلبوا قلوب الحاضرين، واعلموا أن الفلاح والفوز سيكون من نصيب من غلب وظفر.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ
أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا
تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا
كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا
قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ
لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ
أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا
عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا
فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

[٦٥-٦٦] ثم قال السحرة لموسىٰ بكبر وغطرسة الواثق من هزيمته لعدوِّه - يُخَيِّرونَه -: إما أن تبدأ فتُلقي عصاك، وإما أن نبدأ نحْن بالإلقاء. فأجابهم موسىٰ: بل ألقوا أنتم أوَّلًا، فاستجابوا، وألقوا حبالهم وعصيهم، وخُيِّل إلىٰ موسىٰ والمشاهدين من شدَّة سحرهم؛ أنها حياتٌ تتحرك وتضطرب.

[٦٧-٦٨-٦٩] فشعر موسىٰ بخوفٍ ورهبةٍ - علىٰ ما تقتضيه الطبيعة البشريَّة -. فثبَّته جلَّ وعلا وطمأنهُ قائلًا له: لا تخفْ، إنك ستعلو عليهم، وستغلِبُهم وتقهرهم. ثم أمره سبحانه أن يُلقيَ عصاه التي في يمينه لكي تأكل وتبتلع جميع ما صنعوه من الحبالِ والعِصِيّ؛ وأخبره أن الذي صنعوه وكادوه ومكروه إنما هو مكْرُ وخِدعةُ ساحرٍ؛ ومعلوم أن الساحر لا يفوز ولا يغلبُ ولا ينفعه سحره أينما كان، وحيثما حلّ، ولن تكون له العاقبة أبدًا.

وقد أنكر المعتزلة أن للسحر حقيقة، والجمهور علىٰ أنه نوعان: قسم تخييل، وقسم حقيقي يضر وربما أمات. وقال أهل العلم: إن الساحر إن تاب قبل أن يُقبض عليه متلبسًا تُقبل توبته، وأما إذا قُبض عليه متلبسًا فلا تُقبل توبته، ويُقتل حدًّا.

[٧٠] فلمّا التهمت عصىٰ موسىٰ وابتلعت ما ألقاه سحرة فرعون؛ علموا أن ما جاء به موسىٰ ليس بسحرٍ، إنما هو معجزة وآية من الله تدل علىٰ صدق رسالته ونبوّته، فخرّوا سجّدًا لله قائلين: آمنا وصدقنا بالله وحده لا شريك له -رب هارون وموسىٰ-، وقدموا ذكر هارون لأنه أكبر سنًّا من موسىٰ عليهما السلام.

[٧١] فقال لهم فرعون: آمنتم وصدقتم بموسىٰ مباشرةً دون إذنٍ مني؟! ثمَّ تمادىٰ في عناده وطغيانه فقال للسحرة: إن موسىٰ هو إمامكم وكبيركم الذي علّمكم السحر، وتواطأتم معه لتخرجونا من ديننا، ثم توعَّدهم قائلًا: لأعذبنكم عذابًا شديدًا ولأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف وذلك بقطع اليد اليمنىٰ والرجل اليسرىٰ والعكس، ولأصلبنكم بربطكم علىٰ أخشاب النخل، ولتعلمن أيُّنا أشدُّ عذابًا وأبقىٰ -يعني بزعمه: هو أم رب موسىٰ- تعالىٰ الله عمّا يقول علوًّا كبيرًا.

[٧٢] فردَّ السحرة علىٰ فرعون قائلين: لن نختارك يا فرعون علىٰ هذه الدلائل الواضحة التي رأيناها، ولن نختارك علىٰ الذي خلقنا وأوجدنا، وهدانا إليه بهذه المعجزة التي لا يمكن أن تكون إلّا من الله، والتي التهمت كل ما أحضرنا من السحر، فاعمل ما شئت بنا، فإنما سلطانك وقوتك في هذه الحياة الدنيا فقط، وما ستفعله من تعذيبنا سينتهي بانتهاء حياتنا في هذه الدنيا.

وهكذا أصبح السحرة من أفضل الشهداء بعد أن كانوا من ألد الأعداء، وهكذا تكون المناظرات أمام الجماهير كلٌّ يحاول أن يكون هو الغالب بصرف النظر عن المُحق؛ لكن بالنسبة لهؤلاء السحرة بُهتوا بمعجزة موسىٰ، وتأكدوا أنها ربانية، وأنه علىٰ حق؛ فلم يملكوا أنفسهم إلّا أن يسجدوا لله بفضل خبرتهم وعلمهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:٢٨]، ولم يخص علماء الدين، ولذا فقد أُسقط فرعون في يده؛ لأن السحرة الذين جمعهم لتكذيب موسىٰ سجدوا لله، وصاروا ضده؛ فتوعدهم بأشدّ العقوبات التي نهايتها موتهم صبراً، ولكن الإيمان إذا خامر القلوب تهون بسببه الشدائد مهما كانت.

[٧٣] ثم قال السحرة: واعلم يا فرعون أنا آمنا بربنا خالقنا ورازقنا ومدبرنا، وصدَّقنا برسوله ليغفر لنا ما مضىٰ من الكفر والتكذيب والعناد والمعاصي، وليغفر لنا ما أكرهتنا وأجبرْتَنا عليه من السحر لمعاندة الحق ومعارضته، والله خيرٌ لنا منك، وممَّا وعدتنا به من دنيا زائلة، وهو سبحانه أبقىٰ لنا يتولّىٰ أمْرَنا.

[٧٤-٧٥-٧٦] ثم أخبر جل وعلا أن من يأتيه يوم القيامة مُجرمًا -وأعظم الجرم: هو الكفر بالله، واتخاذ شريك معه-؛ فإن له عذابًا شديدًا في نار جهنم، لا يموت فيها فيستريح من عذابها، ولا يحيا حياةً يسعدُ بها. ثم أخبر أن من يأتيه يوم القيامة وقد آمن به ووحده، وصدّق برُسُلِه، وعمل الصالحات الواجبة والمستحبَّة؛ فأولئك قد أعدَّ الله لهم الدرجات العاليات، والمنازل الرفيعات في جناتٍ تجري الأنهار من تحت أشجارها وقصورها، ماكثين فيها أبدًا، وتلك الجنات جعلها الله جزاءً لمن زكّىٰ نفسه وطهَّرها من خبث الشرك والمعاصي.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾

[٧٧] ثم أوحىٰ جل وعلا لنبيه موسىٰ بالخروج من مصر بقومه ليلًا متجهًا بهم إلىٰ فلسطين عن طريق البحر الأحمر وسيناء، وأخبره أن فرعون وجنوده سوف يطاردونهم، وكان هذا بعد أن استفرغ موسىٰ جهده وعَرَضَ عليهم الآيات التسع، فقال له فرعون وأعوانه: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:١٣٢]، أي: بعد أن أنذر وأعذر خرج بهم ليلًا كما أمره الله، ثم أمره إذا وصل بني إسرائيل البحر الأحمر أن يضرب بعصاه البحر كي يتخذ لهم في البحر طريقًا يابسًا، وأوحىٰ إليه أن لا يخاف من فرعون وجنوده أن يدركوهم، ولا يخشىٰ هو وقومه من الغرق في البحر.

[٧٨] ولما علم فرعون بخروج موسىٰ ببني إسرائيل اشتد حَنَقُه فأرسل في قرىٰ مصر وأريافها من يحشر الجنود لملاحقته إلىٰ أن وصلوا ساحل البحر الأحمر، وهناك وقعت المعجزة الكبرىٰ وهي تجمد البحر حتىٰ أصبح يابسًا كسهل الأرض؛ بعد أن ضربه موسىٰ بعصاه، فعبره موسىٰ وقومه بسلام؛ ولكن أغرىٰ الحقد فرعون فأتبعه؛ فلمّا تكامل هو وجنوده فوق سطح البحر انطبق عليهم الماء فغرقوا وهلكوا جميعًا بأمر الله تعالىٰ.

[٧٩] ثم أخبر جل وعلا أن فرعون أضل قومه عن الحق بتزيين الكفر والتكذيب لهم، ولم يسلك بهم طريق الهداية التي توصلهم إلىٰ مرضاة الله وجناته. وقوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾، هي تكذيب لقول فرعون: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[غافر:٢٩].

[٨٠] ثم امتن جل وعلا علىٰ بني إسرائيل بأن أنجاهم من استعباد فرعون لهم، ومن قتل أبنائهم وتكليفهم بالأعمال الشاقة، ومن الغرق في البحر، وأنه واعد موسىٰ أن يأتي جانب الطور الأيمن لإنزال التوراة عليه، وأنه أنزل عليهم بفضله ورحمته المن الذي هو طعام يشبه العسل في طعمه، والسلوىٰ وهو طير يشبه السُّمَانَىٰ.

[٨١] ثم قال لهم جل وعلا مُمْتَنًّا عليهم: كلوا ما لذَّ لكم وطاب من هذه الأطعمة، واشكروا الله علىٰ ما أنعم عليكم به؛ بأن لا تتجاوزوا حدَّكم فتُسْرِفوا، ويبغي بعضكم علىٰ بعض، وتستعملوا هذه النعم فيما يغضب الله جل في علاه؛ فإنكم إن فعلتم ذلك؛ حلَّ عليكم غضب الله، ونزل بكم سَخَطُه، ومن حلَّ عليه غضب الله فقد خاب وهَلَكَ وتردَّىٰ، وخَسِرَ خُسْرانًا مبينًا.

[٨٢] ثم أخبر سبحانه أن باب التوبة مفتوحٌ لمن تاب، لا يُغلَق في وجه من أناب، وأخبر أنه كَثيرُ المغفرة لمن تاب من الكفر والشرك إلىٰ الإسلام والتوحيد، ومن البدعة إلىٰ السنة، ومن المعاصي إلىٰ الطاعة، وكثير المغفرة لمن آمن وصدَّق بالله، وعمل الصالحات، ثم استقام علىٰ أمر الله وسلك طريقه المستقيم، وثبت علىٰ دينه القويم.

[٨٣-٨٤] وبعد أن اختار موسىٰ سبعين رجلًا من قومه وذهب بهم لميقات ربه، استبطأ سيرهم فسار عليه السلام مسرعًا إلىٰ الميقات، فخاطبه جل وعلا فقال له: ما الذي جعلك تستعجل إلينا، وتترك قومك الذين خرجتَ بهم إلينا؟! فقال موسىٰ: يارب إنهم خلفي سوف يلحقون بي، ولكني أسرعت شوقًا إلىٰ لقائك وطمعًا في زيادة رضاك عني.

[٨٥] وبعد أن تمت المكالمة والمحاورة بين الله عز وجل وموسىٰ واستلامه الألواح أخبره جل وعلا بأن قومه قد ضلوا بعبادة العجل بعد فراقه لهم، والذي كان سببًا في إضلالهم هو السامري الذي صنع لهم العجل مما جمع منهم من حلي من ذهب ثم دعاهم إلىٰ عبادة العجل فأطاعوه.

[٨٦] فرجع موسىٰ وقد امتلأ غَيْظًا وحنقًا علىٰ قومه؛ لفعلتهم الشنيعة، فقال لهم علىٰ سبيل التوبيخ: ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا بأن ينزل عليكم كتابًا من عنده وهو التوراة؟! هل طالت عليكم المدّة فنسيتم؟! أم تجاوزتم أمر الله وتعدَّيْتم حدوده فأردتم بذلك أن يُنزل عليكم عذابَه ويحلَّ عليكم سخطُه! فأخلفتم ما تواعدنا عليه من توحيد الله وإفراده بالعبادة وحده دون من سواه!.

[٨٧] فقال بنو إسرائيل لنبيهم موسىٰ معتذرين له بأعذار واهية: ما أخلفنا موعدك بعبادة العجل بإرادتنا، ولكنا حملنا أثقالًا من حلي قوم فرعون الذي استعارته نساء بني إسرائيل من نساء الأقباط قبل خروجهم من مصر، فأمرنا السامري بأن نلقيها في حفرة فيها نار لصوغها وحفظها في قالب واحد، ثم ألقىٰ عليها السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل عليه السلام.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا
وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ
مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى
وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ
إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾
أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى
وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ
بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ
ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

[٨٨] فكانت النتيجة أن صنع لهم السامري من هذا الذهب عجلًا يدخله الهواء فيحدث له صوتًا كصوت البقر، ثم قال لبني إسرائيل: هذا إلهكم وإله موسىٰ الذي ذهب يبحث عنه حيث نسيه هنا.

[٨٩] ثم قال سبحانه وتعالىٰ عن هؤلاء الجهلة علىٰ سبيل التوبيخ: أفلا يرون أن هذا الذي يزعمون أنه إله: لا يكلمهم، ولا يرد عليهم إذا كلموه؟! ولا يملك لهم نفعًا ولا ضرًّا؟! فكيف يتخذونه إلهًا من دون الله يصرفون له العبادة؟!

[٩٠] ثم أخبر جل وعلا أن هارون حذَّرهم وأنذرهم في بداية منكَرِهم هذا، وأخبرهم أن هذا اختبارٌ وامتحانٌ من الله لهم، ليُعْلَم المؤمن من الكافر، وقال لهم: ياقوم إن ربكم وإلهكم ومعبودكم بحقٍّ هو الرحمن، فاتبعوني فيما آمركم به من التوحيد وإخلاص العبادة لله، وأطيعوا أمري في ذلك، فأنا لكم ناصحٌ أمين

[٩١] فأجابوه قائلين: لن نترك ياهارون عبادة هذا العجل حتىٰ يرجع إلينا موسىٰ.

[٩٢] ولما رجع موسىٰ ورأىٰ بني إسرائيل وهم عاكفون علىٰ عبادة العجل اشتد غضبه ورمىٰ الألواح التي كانت بيده علىٰ الارض، وأخذ برأس ولحية أخيه هارون يسحبه ويبكته، وقال له علىٰ سبيل التوبيخ والتهديد والعتاب: ياهرون ما الذي منعك أن تقاومهم حين رأيت ضلالهم وشركهم في عبادة العجل.

[٩٣] ثم قال له أيضًا: وما الذي منعك أن تتبع أمري ووصيتي؟!، هل عصيتَ أمري في استخلافي إياك عليهم؟!

[٩٤] فأجابه هارون مرقِّقًا له فقال: ياابن أمي لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي تعنيفًا ومعاقبةً لي، فإني خشيت إنْ أنا تركتهم ولحقتُ بك أن يتبعني بعضهم ويبقىٰ أكثرهم فأكون بذلك مفرِّطًا فيما أمرتني به من لزومي إياهم ورعايتهم، وخلافتي فيهم.

[٩٥] وبعد أن استغفر موسىٰ لنفسه وأخيه وهدأت نفسه، التفت لرأس البلاء، وهو السامري، فقال له: ما شأنك، وما أمرك ياسامري؟ وما الذي حملك علىٰ هذا الفعل الشنيع؟!.

[٩٦] فقال السامري: لقد علمت ما لم يعلمه غيري حيث رأيت الحصان الذي قاد بني إسرائيل حتىٰ خروج بني إسرائيل من البحر وغرق فرعون وجنوده، فأخذت حفنة من تراب أثر حافره ثم ألقيته علىٰ الحلي المذاب الذي صنعت منه العجل، فصار له كما ترىٰ صوت كصوت البقر، وهذا الذي حسنته لي نفسي.

[٩٧] فقال موسىٰ للسامري: اذهب فإن لك في حياتك أن تعيش منبوذًا، وكلما اقترب منك أحد قلت له: لا أمسُّ أحدًا ولا أحد يمسَّني، ثم اعلم ياسامري أن لك موعدًا يوم القيامة ستعاقب فيه عقابًا أليمًا شديدًا تستحقه بسبب ضلالك وإضلالك الناس، ثم أمر موسىٰ السامري وجميع الناس أن ينظروا كيف سنصنع بالإله المزعوم المصنوع من الذهب الذي أقمتم علىٰ عبادته، فقام موسىٰ بإحراقه وجعله كالتراب ثم نثره في البحر حتىٰ لا يبقىٰ منه عين ولا أثر.

[٩٨] واعلموا أيها الناس أنما إلهكم الحق هو الله، الذي لا معبود بحق إلّا هو، ولا خالق غيرَه ولا ربَّ سواه، وسع علمه كل شيء، فلا يعزب ولا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالىٰ.

[٩٩] وكما قصصنا عليك يانبي الله من أخبار الأمم السابقة نقص عليك قصة موسىٰ وهارون مع فرعون وقومه، وأنزلنا عليك هذا الكتاب الشريف الذي يحوي أخبار الأمم السابقة ويوضح الهدىٰ والاعتبار لِمَن يريد الخير والصلاح.

[١٠٠] واعلم أيها المعرض الجاحد أن من صد عن هذا القرآن العظيم الجامع لوجوه الخير والسعادة والنجاة ولم يؤمن به فإنه يحمل يوم القيامة إثمًا عظيمًا.

[١٠١] ثم اعلم أيضًا أن من أعرض عن كتاب الله سوف يمكث في العذاب في جنهم أبد الآبدين، بسبب تلك الأوزار، وبئس ذلك الحِملُ الذي تحمَّلوه. نسأل الله السلامة والعافية.

[١٠٢] ثم أخبر سبحانه أن ذلك اليوم هو يوم القيامة، الذي يُنفخُ فيه في الصور؛ فيخرج الناس إلىٰ أرض المحشر من القبور، وأن المجرمين يُحشرون زرق الألوان من الخوف وشدَّة الهول.

[١٠٣] وأخبر سبحانه أنهم يتناجوْن ويتهامسون فيما بينهم، فيقول بعضهم لبعضٍ – استقْصارًا لمدة الدنيا –: ما لبثتم في هذه الدنيا إلّا عشرة أيام فقط.

[١٠٤] واعلموا أن الله وحده هو الذي يعلم بما يتناجون به، وأنه سبحانه يسمع همسهم؛ حيث يقول أعدلهم رأيًا، وأكملهم وأقربهم إلىٰ التقدير: ما مكثتم في الدنيا ولا عمّرتم فيها إلّا يومًا واحدًا، وهذا استقصار لزمن الدنيا، وأنهم ينسون تلك الأعمار الطويلة التي عاشوها في حياتهم الدنيا، وهذا كله بسبب ما يرون في يوم القيامة، يوم البعث والنشور من الشدائد والأهوال، وأنواع الفزع والعذاب؛ فيندمون حينها أشدّ ما يكون الندم، ولات حين مندم.

[١٠٥ – ١٠٦ – ١٠٧] ثم أخبر جل في علاه أن الناس يسألون النبي ﷺ عن الجبال، فأمره أن يقول لهم: اعلموا أن هذه الجبال سوف ينسفها ربي ويقلعها عن أماكنها، ثم يجعلها هباءً منثورًا. وتصبح الأرض بعدها أرضًا ملساء، لا نبات فيها ولا بناء. فينظر إليها الناظر فلا يرىٰ فيها اعوجاجًا ولا ارتفاعًا ولا انخفاضًا.

[١٠٨] ثم أخبر أنهم في ذلك اليوم يتبعون الداعي الذي يدعو الخلائقَ لأرض المحشر؛ فيجيبونه منقادين متّبعين صوتَه لا يسع أحدهم أن يتأخر عن إجابة دعوته، ولا يسع أحدهم أن يتأخر عن تلبية النداء، وفي ذلك اليوم تسكن وتخفت وتذل وتخضع الأصوات للرحمن جل في علاه، فلا تسمع إلّا صوْتًا خفيًّا لا يكاد يظهر.

[١٠٩] وفي ذلك اليوم العظيم لا تنفع شفاعة أحدٍ لأحد، إلّا شفاعة من أذن له الرحمن، ورضي شفاعته، ورضي عن المشفوع له أيضًا، ولا يكون ذلك إلّا لأهل التوحيد، أهل: لا إله إلّا الله.

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

[١١٠] ثم أخبر جل في علاه أنه يعلم ما بين أيدي الناس في ذلك الموقف، وما سينتهي به كلّ واحد من أهل المحشر إما إلىٰ جنّة، وإما إلىٰ نار، ويعلمُ سبحانه ما خلّفه كل واحد منهم في الحياة الدنيا، وما قدَّمت يداه، فيُجازي كلًّا بعمله؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فإن علمه سبحانه أحاط بهم من كل وجه، والخلقُ لا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء سبحانه.

[١١١–١١٢] وفي ذلك اليوم العظيم تتجه الوجوه وتقصد وتخضع لمالكها الحي القيوم، وحينئذ يخيب من حمل شركًا وآثامًا. وأما من عمل الصالحات وهو مؤمن بالله فإنه في ذلك اليوم لا يخاف أن يُجحد ثوابه أو ينقص أجره.

[١١٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل هذا القرآن باللسان العربي ليفهموه، ويتعظوا بما ضرب فيه من الأمثال، وما بيَّن فيه من أنواع الوعيد؛ لعلهم يجعلون بينهم وبين عذاب الله وقايةً بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، ولعلهم يتذكرون ويتعظون.

فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

[١١٤] ثم أثنىٰ جل في علاه علىٰ ذاته الكريمة بما يستحق؛ فأخبر أنه تنزّه وتقدّس وارتفع عن أي نقصٍ وعيب بوجه من الوجوه، وأنه سبحانه هو الملك الذي قهر كلَّ مخلوقاته، وأنه هو الحق، له الأسماء الحسنىٰ والصفات العُلا، ثم أرشد جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يتعجل في تلاوة القرآن مع جبريل؛ وأن يستمع للتلاوة حتىٰ يفرغ جبريل من قراءته، وقد وعده سبحانه أن يجعل القرآن محفوظًا في صدره، وقد كان ﷺ من حرصه إذا تلىٰ جبريل القرآن سارع ﷺ بالتلاوة معه خشية أن ينساه، ثم أمره عز وجل أن يدعو ربه قائلًا: اللهم يارب إني أسألك الزيادة من العلم النافع.

[١١٥] ثم أخبر جل وعلا أنه وصَّا أبي البشرية آدم أن لا يأكل من شجرة معينة في الجنة، ولكنه نسي الوصية ونسي الوفاء بالعهد، وغلبه الطمع في الخلود والأقسام التي أدلىٰ بها له الخبيث إبليس، وأخبر سبحانه أن آدم لم يكن له عزيمة وصبر علىٰ امتثال الأمر، فلذلك خالف أمر الله وأكل من الشجرة.

[١١٦] وتذكر يانبي الله يوم أن أمرنا الملائكة أن تسجد لآدم عليه السلام سجود تحية وإجلال بعد أن أتممنا خلقه؛ فسجد جميع الملائكة إلّا إبليس أبىٰ واستكبر وعاند وكان من الكافرين الجاحدين.

[١١٧-١١٨-١١٩] ثم قال جل وعلا محذِّرًا آدم من وسوسة إبليس: اعلم يا آدم أن إبليس عدو لك ولزوجك، فاحذر من طاعته والاستجابة له؛ حتىٰ لا يكون سببًا في إخراجكما من الجنة ونعيمها، فتشقىٰ وتتعب وتنصب في الدنيا، وذلك ببذل أسباب طلب المعاش فيها. فأنت هنا في الجنة مكفيٌّ فيأتيك طعامك علىٰ الدوام فلا تجوع فيها أبدًا. وأنت فيها مكسيٌّ فلا تعرىٰ أبدًا، وتشرب فيها الماء العذْب، فلا يصيبك العطش، ولك فيها الظل الظليل فلا يؤذيك حر الشمس.

[١٢٠] ولكن إبليس وسوس لآدم وزين له الأكل من الشجرة التي نُهِي عنها، فقال له كاذبًا: يا آدم هل أدلك علىٰ شجرة إذا أكلت منها، فإنك تُخلَّد في الجنة فلا تموت أبدًا، ويكون لك مُلكٌ لا يزول أبدًا، وأقسم لهما أنه صادق فيما يقول.

[١٢١] ثم إن آدم وحواء أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها بعد تزيين الشيطان لهما؛ فكان نتيجة ذلك انكشاف عوراتهما التي كانت مستورة عن أعينهما؛ لأن هذه الشجرة التي أكلا منها كانت مثل أشجار الدنيا، أي: لها فضلات تخرج من القبل والدبر وهذه الفضلات لها رائحة كريهة؛ لذلك سميت سوأة، وقبل أن يأكلا من الشجرة لم تكن سوأة؛ لأن أشجار الجنة ليس لها فضلات البتة، ولما انكشفت عوراتهما قاما بقطع أشجار الجنة لتغطية وستر ما انكشف من عوراتهما، وكان ذلك بسبب مخالفة آدم لربه في اجتناب الأكل من الشجرة، ولذا ضلَّ آدم عن هدفه الذي كان يريده وهو الخلود في الجنة.

[١٢٢] ولكن الله لطيف عالم بالضعف البشري؛ فبعد عتابه وتذكيره بتحذيره من إبليس وعداوته، اجتباه وتاب عليه وهداه بعد أن اعترفا واعتذرا بقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

[١٢٣] ثم قال جل وعلا لآدم وحواء وإبليس: اهبطا جميعًا من الجنة إلىٰ الأرض، وسوف يكون بعضكم لبعض عدو، وهذا ينطبق عليهم وعلىٰ الأجيال المتلاحقة من ذريتهم، ثم كرمًا منه عز وجل ولطفًا بعباده وعد بأن يرسل الهداة من الرسل ومعهم الكتب التي فيها الهدىٰ والرشاد لهم، وأخبر سبحانه أن من اتبع الرسل وعمل بما اشتملت عليه الكتب فإنه لن يضل في الدنيا، ولن يشقىٰ بعقاب الله في الآخرة.

[١٢٤] ثم أخبر جل في علاه أن من أعرض عن كتابه والعمل بما فيه، وعن دينه، وعن توحيده، واتباع رسوله ﷺ؛ فإن له في الحياة الدنيا وفي قبره عيْشًا ضيِّقًا نكدًا، ثم يوم القيامة يُحشَر أعمىٰ البصر والبصيرة.

[١٢٥] فيقول هذا المُعرِض متضجّرًا متألِّمًا: رب لم حشرتني علىٰ هذه الحالة الشنيعة فاقدًا لبصري، وقد كنت مُبصِرًا في الدنيا.

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

[١٢٦] فأجاب جل وعلا هذا المعرض قائلًا: نعم قد كنتَ في الدنيا بصيرًا؛ ولكن كانت تأتيك آياتنا فتعرض وتتعامىٰ عنها ولا تلتفت إليها، فكذلك اليوم أحشرك أعمىٰ وتُترَك علىٰ هذه الحالة في العذاب والشقاء، مهملًا لا يأبه بك أحد، ولا يُهتَمُّ لأمرك، وهذا الجزاء لك من جنس ما عَمِلَتْ وَقَدَّمَتْ يداك.

[١٢٧] ثم أخبر سبحانه أنه بمثل هذا الجزاء والخزي نجزي من أسرف علىٰ نفسه في معصية الله، وجاوَزَ حدوده، ولم يصدِّق بالله وآياته الدالة علىٰ وحدانيته، فيكون له الضنك والغم والضيق في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشدّ وأكثر ألَمًا، لكونه لا ينقطع ولا ينتهي، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾: يعم كل المسرفين.

[١٢٨] ثم قال سبحانه علىٰ سبيل التوبيخ: أفلم يتبين لهؤلاء المكذبين المعرضين الذين لم يؤمنوا بآيات الله ما حلَّ ونزل من الهلاك بالأمم السابقة؟! وهم يرون آثارهم، ويمْشون في ديارهم التي عُذِّبوا وأُهلِكوا فيها؟! فما حلَّ الذي حلَّ بهم إلّا بسبب تكذيبهم رسلهم، وإعراضهم عن آيات ربهم، واعلموا أن في ذلك لآيات بيِّناتٍ واضحاتٍ لأصحاب العقول الراجحة والفطر السليمة.

[١٢٩] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنه لولا وعد سبق من ربك يانبي الله بإمهال هؤلاء المكذبين وتأخيرهم؛ لاستأصلهم العذاب كما استأصل من قبلَهم، ولكان العذاب لازمًا لهم، فإنهم مستحقون العذاب بتكذيبهم، ولكن الأجل المسمّىٰ الذي حدَّده الله، هو الذي أخَّر عنهم العذاب.

[١٣٠] ثم أرشد سبحانه نبيه ﷺ أن يصبر علىٰ إمهالهم علَّهم أن يتوبوا ويُؤْمِنوا، وأن يصبر علىٰ ما يقولون افتراءً عليه واتِّهامًا له أنه ساحر وكاذب وشاعر، ثم أمره أن يستعين في صبره بالصلاة والتسبيح بحمد ربه في هذه الأوقات الفاضلة، قبل طلوع الشمس فجْرًا، وقبل غروبها عصْرًا، ومن آناء الليل، أي: ساعات الليل عِشاءً، ومن أطراف النهار ظهْرًا ومغرِبًا، لعلَّه يرضىٰ بثواب هذه الأعمال، ويطمئنَّ قلبه، وتقرَّ عينُه.

[١٣١] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن لا ينظر علىٰ سبيل الإعجاب لأصناف النعيم الذي متع الله به هؤلاء الأغنياء وغيرهم من أهل الدنيا؛ فما هو إلا اختبار لهم في الحياة الدنيا، واعلم يانبي الله أن رزق الله لك في الدنيا بالتوحيد والإيمان، وفي الآخرة بالرضا والجنان، والنظر إلىٰ وجه الرحيم الرحمن المنَّان؛ خير مما فيه أهل الدنيا من متع زائلة، وأبقىٰ وأدوم لأنه لا ينقطع ولا يزول.

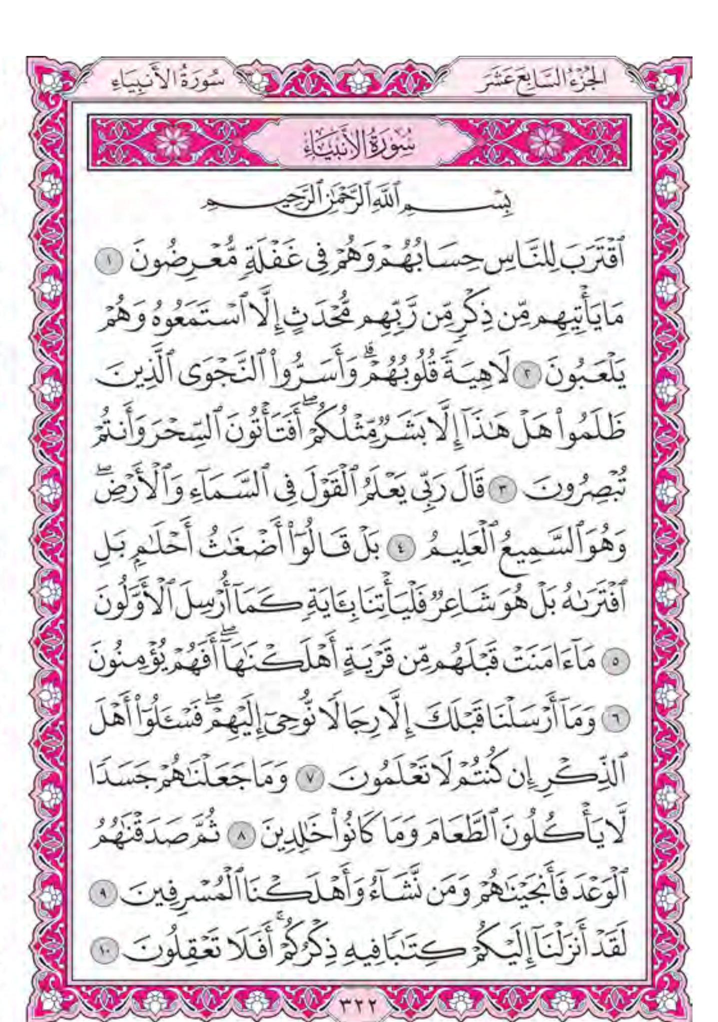
[١٣٢] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يحث أهله علىٰ الصلاة وأن يلزمهم بها، ويتابعهم في أدائها، وأن يصبر علىٰ أمرهم بها صبرًا جميلًا، وأن لا ينشغل عنها، واعلم يانبي الله أن الله لن يسألك مالًا، ولن يطلب منك أن ترزق نفسك وأهلك، فلا تجعل الرزق أكبر همك؛ فإن الله تكفَّل لك ولمن التزم بدعوتك بالرزق، واعلم أن العاقبة المحمودة الممدوحة في الدنيا والآخرة تكون للذي جعل بينه وبين عذاب الله وقاية فَفَعَلَ أوامره، واجتنب نواهيه.

[١٣٣] ثم أخبر جل وعلا أن قريشًا قالوا للنبي ﷺ: هلَّا تأتينا يامحمد بآية مما اقترحناه عليك تدل علىٰ صدقك، كتفجير الأنهار حول مكة، وكنزول الملائكة معك، أو تأتينا بآية تشبه الآيات التي جاء بها الأنبياء السابقون: كعصا موسىٰ وناقة صالح، فرد الله عليهم مبكتًا ولائمًا: ألم يعلم هؤلاء بأننا قدمنا لهم آية هي من أعظم الآيات، ومعجزة من أعظم المعجزات، وهو هذا القرآن العظيم المصدِّق لما جاء في الكتب السابقة من الحق؟.

[١٣٤] ثم بين سبحانه أنه لو أهلك قومه ﷺ قبل أن يبعثه إليهم، لقالوا محتجين: ربنا لو أرسلت إلينا رسولًا يبين لنا الإيمان والتوحيد؛ لصدقناه وآمنا به، واتبعنا آياتك التي يأتي بها هذا الرسول من قبل أن نُذَلَّ بهذه العقوبة، ونُخزىٰ هذا الخزي في نار جهنم، فها قد جاءكم رسولٌ من عندنا، فليس للناس علىٰ الله حجةٌ بعد الرسل.

[١٣٥] فقال بعض المشركين: سوف نتربص بمحمد حتىٰ يهلك ثم تذهب دعوته معه، فأمره جل وعلا أن يقول: كل منا متربص بالآخر حتىٰ يأتي الله بأمره، فانتظروا فستعلمون بعد زمن ليس بالبعيد من هم أصحاب الطريق المستقيم، ومن هم المهتدون للحق والمُجْتَنِبون للضلالة نحن أم أنتم؟

وهذه الآية تحمل تهديدًا للكفار وتبين أن عاقبتهم سيئة.



سورة الأنبياء

سورة الأنبياء مكيّة وآياتها اثنتا عشرة ومائة آية.

وسميت بسورة الأنبياء لأنه ورد فيها ذكر قصص عدد من الأنبياء، وبيّنت ما أنعم الله به عليهم غير النبوة: من إجابة الدعوة، وشفائهم، وإزالة ما بهم من ضر.

[١] يخبر جل وعلا باقتراب الزمن الذي سوف يُحَاسَبُ فيه الناس علىٰ ما قدموا من الأعمال، وهو يوم القيامة، ومعلوم أن كل ما هو آت فهو محقق الإتيان وإن تأخر لحكمة أرادها الله، ومع ذلك فإن الكفار يعيشون في لهو وغفلة وإعراض عن دين الله.

ولا شك أن المعرضين كثيرون في كل زمان، فمن الناس من يكون معرضًا عن الإيمان والإسلام كالكفار، ومنهم من يكون معرضًا عن الأعمال الصالحة والتوبة ومنغمسًا في ما يبعده عن الله تعالىٰ كالمسلمين أصحاب الذنوب والمعاصي الشهوات.

[٢] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار كلما نزَّل الله عليهم قرآنًا جديدًا يحثهم علىٰ ما ينفعهم؛ فإنهم يستمعون إليه وهم مستهزئون ساخرون لا يعتبرون ولا يتعظون.

[٣] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الكفار بعد أن يستمعوا إلىٰ القرآن تكون قلوبهم لاهية وغافلة عنه في أباطيل الدنيا وشهواتها، وإذا اختلوا واجتمعوا أسرَّ بعضهم إلىٰ بعض وقالوا: إن محمدًا بشر مثلهم، وإن ما جاء به من القرآن فهو سحر، فكيف تؤمنون به وتتبعونه، وأنتم ترون أنه بشر مثلكم؟

[٤] فأجابهم النبي ﷺ قائلًا: اعلموا أيها الكفار أن ربي يعلم القول - الخفيَّ والجليَّ - في أيِّ مكانٍ تكلَّم فيه صاحبه في السماء والأرض، واعلموا أن الله هو السميع الذي يسمع أقوالكم سرّها وجهرها، والعليم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض.

[٥] ولكن هؤلاء الكفار لم يكتفوا بما قالوه آنفًا عن النبي ﷺ من أنه بشر، وأن القرآن سحر؛ بل قالوا: إن هذا القرآن عبارة عن أخلاط وأباطيل لا حقيقة لها، وإن النبي ﷺ اختلقه من عند نفسه، وإن هذا النبي ﷺ ما هو إلا شاعر، وهذا القرآن الذي جاء به نوع من أنواع الشعر، ولا شك أن مثل هذا الكلام قيل لسائر الرسل من أممهم، وهذا شأن من استولىٰ عليه الهوىٰ واتبع الشيطان، ثم قالوا: وإذا كان هذا النبي ﷺ صادقًا في دعواه فليأتِنا بآية محسوسة كالتي جاء بها الأنبياء المرسلون من قبله، كناقة صالح، وآيات موسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام.

[٦] فأجاب جل وعلا علىٰ مقولتهم فقال: اعلموا أن جميع الذين طلبوا الآيات من الأقوام السابقة قبل كفار مكة ثم أتتهم لم يؤمنوا بها؛ ولذلك حق عليهم العذاب فاستؤصلوا، فهل أنتم بدعٌ منهم؟، أي: إذا آمنتم ياأهل مكة وتحققت لكم الآيات التي طلبتموها هل ستؤمنون؟ كلا إنكم لن تؤمنوا أبدًا.

والهمزة في قوله: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾، لاستبعاد الإيمان منهم أو استحالته إذا جاءتهم الآيات التي طلبوها.

[٧] واعلم يانبي الله ما كان هؤلاء الرسل الذين أرسلناهم لأقوامهم قبلك إلّا من البشر، لا من الملائكة ولا من غيرهم، فاسألوا أيها المشركون أهلَ الكتاب قبلكم من اليهود والنصارىٰ عن الرسل الذين جاؤوهم إن كنتم لا تعلمون حقيقة من أرسلنا إليهم.

[٨] واعلموا أيها الكفار أن هؤلاء الرسل ما كانوا إلّا بشرًا لهم أجسادٌ كأجسادكم، ويفتقرون للطعام والشراب مثلكم، ويموتون مثلكم، فهم ليسوا بمخلدين في هذه الدنيا.

[٩] ثم بين جل وعلا أنه صَدَقَ ما وعد به رسله وأتباعهم من جعل العاقبة لهم، فأولًا: أنجاهم وأتباعهم من العذاب الذي أنزله بأعدائهم، وثانيًا: أهلك المجرمين الذين تجاوزوا حدود الله وكفروا وظلموا وأعرضوا عن دين الله الحق.

[١٠] واعلموا أيها اناس أن الله أنزل إليكم قرآنًا عظيم الشأن، فيه ما تتذكرون وتتعظون به؛ لهدايتكم وإصلاحكم وإسعادكم، وفيه شرفكم وعزكم إن آمنتم بما فيه، واتبعتم أوامره، وانتهيتم عن نواهيه، وقد شرّفكم الله به حيث نزل بلغتكم، وأُمرتم بنشره وتبليغه، فهلَّا أعملتم عقولكم، وفكَّرتم فيما ينفعكم ويرفعكم فحرصتم عليه وآمنتم به، وفيما يضركم ويخزيكم فابتعدتم عنه؟!

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

[١١] يخبر جل علا بكثرة القرىٰ التي أهلكها بسبب ظلمها وإصرارها علىٰ الكفر والطغيان، وأخبر أنه أوجد بعد هذه الأمم التي أبيدت أمما أخرىٰ لم يكونوا مثلهم، وفي هذا تحذير لهذه الأمة من الظلم والطغيان فينالها ما نال الأمم السابقة.

[١٢] فلما أحس هؤلاء الظالمون بنزول العذاب وتيقنوا من وقوعه إذا بهم يخرجون مسرعين هاربين من قريتهم ظنًّا منهم أنهم سوف يفرون من عذاب الله.

[١٣] فناداهم منادٍ علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء: لا تهربوا وارجعوا إلىٰ مساكنكم والنعم التي أبطرتكم، لعل بعضكم يسأل بعضًا عن أسباب نكبتكم وهلاككم، وسبل الخلاص منها؟ ولكن هيهات.

[١٤] ولما رأىٰ المشركون العذاب وتيقنوا من وقوعه اعترفوا بجرمهم وقالوا: ياهلاكنا ويابؤسنا إنَّا كنَّا ظالمين لأنفسنا بسبب ما كنَّا فيه من الكفر والإعراض عن دين الله وتكذيب الرسل وما جاءوا به من الحق.

[١٥] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الظالمين استمروا في الدعاء علىٰ أنفسهم بالهلاك حتىٰ أهلكهم الله وجعلهم كالزرع المحصود الذي يكدس بعضه علىٰ بعض، وكالنار إذا اشتعلت صار لها لهب وسعار؛ فإذا أخمدت صارت رمادًا لا حياة فيهم، نعوذ بالله من سوء المنقلب. وفي هذا تحذير لهذه الأمة من تكذيب النبي ﷺ فيحل بهم ما حل بغيرهم من الأمم السابقة.

[١٦] ثم أخبر جل وعلا أنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما من عجائب مخلوقاته عبثًا وباطلًا؛ بل خلقهما للاعتبار والاتعاظ وإدراك قدرة الله وعظمته وأحقيته بالعبادة وحده.

[١٧] واعلموا أيها الناس لو أراد الله أن يتخذ ما يُتلهَّىٰ به -وهو منزه عن هذا- لاتخذه من عنده ومن جهته، لا من عندكم، إن كان يريد ذلك، ولكن الله ما كان ليفعل ذلك؛ لأنه لا يليق به وليس من مقامه اللهو والعبث، وهذا الافتراض تنزُّلٌ مع هذه العقول الصغيرة للإقناع.

[١٨] واعلموا أيها الناس أن الله خلق السماوات والأرض ليبين الحق الذي من أجله أرسل الرسل وأنزل الكتب، ولكي يزيل بالحجة الشبه الباطلة التي تمسك بها أهل الضلال، فيحطمها ويقضي عليها، واعلموا أيها المشركون أن لكم العذاب الشديد في الآخرة بسبب ظنونكم السيئة له بالعبث، أو وصفكم كلامه بالسحر والشعر، أو نسبة الولد والصاحبة له وما لا يليق به جل شأنه.

[١٩] واعلموا أيها الناس أن لله وحده ملك السماوات والأرض، وعنده سبحانه الملائكة الذين لا يتعاظمون ولا يأنفون عن عبادته والخضوع له، ولا يملُّون ولا يسأمون من هذه العبادة.

[٢٠] ثم بين سبحانه أنهم يستغرقون جميع أوقاتهم في تسبيح الله وتنزيهه وذِكْره ليلًا ونهارًا، فلا ينقطعون ولا يتوقفون عن ذلك في وقت من الأوقات.

[٢١] ثم أنكر سبحانه علىٰ هؤلاء المشركين اتخاذهم معبودات لهم - من دون الله - من الأرض!، وهذه الآلهة عاجزةٌ لا يستطيعون خلق أو بعث الموتىٰ وإحياءهم، فكيف يتخذونهم آلهة مع هذا العجز الظاهر؟!

[٢٢] فرد جل وعلا عليهم بدليل عقلي فقال: لو كان في هذه السماوات والأرض آلهة أخرىٰ غير الله سبحانه وتعالىٰ لفسدتا واختل نظامهما؛ لأن كل إله يريد أن تكون له الكلمة، ثم نزه سبحانه نفسه وبرأها عما وصفه به الجاهلون من أن يكون له شريك في ألوهيته جل شأنه وتقدس.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، أي: غير الله، ولا يجوز أن تكون بمعنىٰ الاستثناء، وبهذا يكون المعنىٰ: لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا.

[٢٣] ثم أخبر جل وعلا أنه لا يستطيع أحدٌ من خلقه أن يسأله عن أفعاله؛ لعظمته وقدرته، وسلطانه وجبروته، أما العباد فإنهم مسؤولون عن أفعالهم، وسوف يحاسبون عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٢٤] ثم ساق جل وعلا دليلًا آخر علىٰ وحدانيته فقال: وهؤلاء المشركون الذين اتخذوا آلهة يعبدونها من دون الله، يزعمون أنها تنفع وتضر؟؛ قل لهم يانبي الله: هاتوا حجتكم ودليلكم علىٰ دعواكم أنها آلهةٌ، وأنها تنفع وتضر، ثم قل لهم: هذا كتاب الله الذي أُنزِل عليَّ، وهذه كتب الأمم السابقة ليس فيها دليلٌ علىٰ دعواكم؛ بل كلُّها تأمر بتوحيد الله وعبادته وحده دون من سواه، واعلم يا نبي الله أن أكثر هؤلاء المشركون مقلِّدون متَّبعون لأسلافِهم في الجدال بغير علم، وفي الضلال، وعدم الوصول للحق؛ بسبب إعراضهم عنه.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجٗا سُبُلٗا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾

[٢٥] ثم بين سبحانه أن جميع الرسل الذين أرسلهم قبل النبي ﷺ أخبرهم عن طريق الوحي أنه لا معبود بحق إلّا الله، فأسلموا وأنيبوا لله ووحدوه.

[٢٦] ثم أخبر جل في علاه أن المشركين زعموا زعْمًا فاسدًا شنيعًا فقالوا: إن الله اتخذ ولدًا بأن جعل الملائكة من بناته، كما زعم اليهود في عزير، وزعم النصارىٰ في المسيح –تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا–، ثم نزه تعالىٰ نفسه بعد هذا القول الشنيع الذي قالوه، وأخبر سبحانه أن الملائكة خلقٌ من خلقِ الله.

[٢٧] ثم أخبر سبحانه أنه أكرم هؤلاء الملائكة وجعلهم مكرمين، واختصهم بفضائل ليست لغيرهم، ومن ذلك أنهم لا يقولون شيئًا حتىٰ يقوله الله، أو يأمرهم به، وهم ممتثلون أمر الله وطاعته ويعملون بها علىٰ الدوام، فلا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمَرُون.

[٢٨] وهؤلاء الملائكة يعلم جل في علاه جميع أحوالهم وأعمالهم السابقة واللاحقة، وبين سبحانه أن من صفاتهم: أنهم لا يشفعون لأحد من البشر إلا لمن ارتضىٰ عز وجل شفاعتهم له.

ومن صفاتهم: أنهم مع خوفهم من الله سبحانه فإنهم حذرون من مخالفة أوامر الله ونواهيه وعقابه.

[٢٩] ومع هذه الصفات الجليلة بين سبحانه لو فُرِض أن أحدًا منهم عصىٰ وخالف، وادَّعىٰ الألوهية من دون الله؛ فسيكون جزاؤه نار جهنم يدخلها ويصلاها؛ كما هو جزاء الظالمين المجاوزين حدودهم.

[٣٠] ثم أشار جل وعلا إلىٰ عظمته وقدرته الإلهية، فقال: أولم يعلم هؤلاء الكفار أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض وأبدع خلقهما؛ ومن ذلك أن السماوات والأرض كانتا قطعة واحدة ملتصقتين ففصل سبحانه بعضهما عن بعض، ثم جعل السماء سبعًا، وجعل الأرض سبعًا، ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ [فصلت:١٢]، و﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

ثم أمر سبحانه السماء بإنزال المطر، وأخبر أنه جعل من الماء كل شيء حي، وأنه كان سببًا في إحياء الأرض بإخراج النبات منها، ومع رؤية ومشاهدة الكفار لعجائب مخلوقات الله وعظيم قدرته فإنهم لم يؤمنوا بالله ولم يصدقوا رسله وما جاءوا به.

[٣١] ثم أخبر سبحانه أن من رحمة الله وحُسْن تدبيره: أنه جعل للأرض جبالًا تُثبِّتها كي لا تتحرك وتضطرب، وجعل فيها طرُقًا سهلة معبَّدةً لسلوكها والسيْر عليها، لعلَّكم أيها الناس تهتدون بتفكركم في هذه الآيات إلىٰ توحيد الله وإفراده بالعبادة.

[٣٢] ثم أخبر جل في علاه أنه جعل السماء سقفًا للأرض – بلا أعمدة ترىٰ –، وحفظها من السقوط، ومن الشياطين، وأخبر أن المشركين عن آيات السماء العظيمة – وما فيها من دلالة علىٰ وحدانية الله – لغافلون ساهون لاهون.

[٣٣] واعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، وجعل لكلِّ فلكٍ من هذه الأفلاك مسارًا خاصًّا يسير فيه بانتظام دقيق، لا يحيد عنه، ولا يتعدَّاه.

[٣٤] واعلم ياأيها النبي أن الله ما أعطىٰ لبشرٍ من قبلك البقاء الأبدي في الدنيا، والخلود فيها؛ فهل إذا متّ يظنّ هؤلاء المكذبون أنهم يخلدون في الدنيا بعدك؟!.

[٣٥] يخبر جل وعلا أن كل نفس مخلوقة في هذه الدنيا ستذوق الموت، وتشرب من كأسه – وإن طال بها الزمان –، واعلموا أن الله سوف يختبركم في حياتكم الدنيا بالخير والشر، والمرض والصحة، والفقر والغنىٰ، والذل والعز، والحياة والموت؛ لينظر أيكم أحسن عملًا، ثم ترجعون إليه سبحانه للجزاء والحساب.

[٣٦] ثم أخبر جل وعلا أن الكفار إذا شاهدوا النبي ﷺ أشاروا إليه بسخرية واستهزاءٍ وقالوا: أهذا الذي يسب آلهتكم؟!؛ وذلك أنه ﷺ مر علىٰ ملأ من قريش فيهم أبو جهل فأشار أبو جهل إلىٰ رسول الله ﷺ وقال وهو يضحك: أهذا نبي بني عبد مناف الذي يعيب أصنامكم؟! ومن العجب أنهم كذبوا بآيات الرحمن وجحدوا نعمه؛ فسبحان الله الذي جعلهم يعيبون الذي يسبُّ آلهتهم التي لا تنفع ولا تشفع، ثم هم يكفرون بالذي يرحم ويرزق وينفع ويكشف الضر، وهكذا انقلبت الموازين عندهم.

[٣٧] يخبر جل وعلا أن الإنسان طُبع علىٰ التعجّل في الأمور، ومبادرة الأشياء، واستعجالها، وقد استعجلت قريش نزول العذاب بها - استكبارًا وعتوًّا -، فقال الله لهم: اعلموا أيها الكفار أن عذاب الله سيأتيكم وسترونه بأعينكم، وستحلُّ بكم نقمته - في الأجل الذي حدده لكم، لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون-، فلا تستعجلون ذلك.

[٣٨-٣٩] ثم أخبر جل وعلا بما قاله المشركون المستعجلون للعذاب تكذيبًا واستهزاءً وسخرية: متىٰ يحصل ما وُعِدْنا به؟! إن كنتم صادقين في وعدكم. فرد جل وعلا عليهم قائلًا: لو يعلم هؤلاء الكفار علم اليقين حقيقة العذاب الذي وُعِدُوهُ، وأن فيه نارًا حاميةً تحيط بهم إحاطةً تامّةً فتحرق وجوههم وظهورهم؛ ولو علموا أنه ليس لهم نجاةٌ من تلك النار، ولا يستطيع أحدٌ إنقاذهم؛ لمَا استعجلوا العذاب، ولمَا طلبوه واستهانوا به.

كما أخبر جل وعلا عن مقولة النضر بن الحرث الذي قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال:٣٢]، فرد عليهم جل وعلا: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، ثم نقول: أيها المستعجلون بطلب العذاب من جهلكم وضلالكم لو أتىٰ ماذا يمكنكم فعله أو استدراكه؟ هل تستطيعون رده أو الهروب منه؟! وكان الأولىٰ بهؤلاء الكفار أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

[٤٠] ثم أخبر جل وعلا أن الساعة التي وعدوا بها سوف تأتيهم فجأة فتدهشهم ويقعون في حيرة، ويخافون منها خوفًا عظيمًا، ولا يستطيعون ردها أو التخلص منها، ولن يعطوا الفرصة لكي يتوبوا أو يعتذروا.

والساعة المذكورة في هذه الآية هي الساعة التي تطلع فيها الشمس من مغربها، أما قبل ذلك فساعة كل فرد هي ساعة احتضاره.

[٤١] يسلي جل وعلا نبيه ﷺ لطفًا به لمَّا سخروا واستهزأوا به، فقال له: واعلم يانبي الله أنه استهزئ برسل من قبلك فحل بهؤلاء المستهزئين العذاب الأليم الذي كانوا يستهزؤون ويسخرون به في الدنيا؛ فأنت لست بدعًا من الرسل فكلهم حصل لهم مثل ما قوبلتَ به من أمتك.

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

[٤٢] وقل يانبي الله لهؤلاء الكفار المعرضين: من الذي يحميكم ويحرسكم في ليلكم ونهاركم إذا أراد الرحمن إنزال العذاب بكم؟!؛ بل هؤلاء الكفار معرضون عن القرآن وآياته، ولذلك ضلّوا وأشركوا.

[٤٣] واسأل يارسول الله هؤلاء المشركين: هل لهم آلهة تمنع عنهم عذابنا؟؛ كلا فإنه ليس لهم آلهة تمنعهم من عذابنا؛ لأن هذه الآلهة لا تستطيع نصر نفسها فكيف تستطيع نصر من يعبدها؟ وهم مخذولون لأنهم ليس لهم من الله معين علىٰ أمورهم.

[٤٤] ولا تلتفت يارسول الله إلىٰ هؤلاء المشركين الذين زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع؛ فقد اغتروا هم وآباؤهم بسبب إمهالنا لهم لمَّا رأوا كثرة الأموال والبنين وطول الأعمار، فاستمروا علىٰ كفرهم وضلالهم، وظنوا أنهم لن يعذبوا، ألم ينظر هؤلاء الكفار لأرضهم كيف ننقصها من أطرافها بدخول الإسلام فيها فتنقص شيئًا فشيئًا حتىٰ تكون أرضًا إسلامية، ويكون جند الله هم الغالبون: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[الصافات:١٧٣]؟!، ويكون الكفار هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون.

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ
ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ
مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ
لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا
بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

[٤٥] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين المستعجلين للعذاب: اعلموا أن هذا العذاب الذي أخوفكم منه ليس مني، وإنما هو بوحي من الله وهو هذا القرآن، كما قال نوح لقومه لمّا استعجلوا العذاب: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[هود:٣٣]، ثم وبخ جل وعلا هؤلاء الكفار لعدم انتفاعهم بهذا القرآن؛ لأنهم لا يسمعونه سماع تدبر، ولا يلتفتون إلىٰ إنذاره ومواعظه.

[٤٦] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الكفار لو أصابهم نفحة، أي: جزءٌ قليل من العذاب فسيندمون علىٰ أفعالهم السيئة حين لا ينفع الندم، وينادون علىٰ أنفسهم بالويل والثبور والهلاك، واعترافهم بظلمهم لأنفسهم بما كانوا عليه من الشرك والكفر.

وهذا هو المعروف عن العصاة والمجرمين لا يستفيقون من ضلالهم إلّا إذا حلت بهم النكبات، نعوذ بالله من جهنم وأهوالها.

[٤٧] يخبر عز وجل بأنه يحضر الميزان العادل يوم القيامة لحساب الناس، ولن يُظْلَمَ أحدٌ من الناس في ذلك اليوم مؤمنهم وكافرهم، ولو كان عمل عملًا يسيرًا بقدر ذرة من خردل من خير أو شر؛ فسوف يأتي بها جل وعلا في صحيفة أعماله، وكفىٰ به سبحانه محصيًا أعمال العباد لا يخفىٰ عليه شيء منها في الأرض ولا في السماء.

قال الإمام الغزالي: الميزان حق، ووجهُهُ: أن الله تعالىٰ يحدث في صحائف الأعمال وزنًا بحسب درجاتها عند الله فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد.

[٤٨] ثم يخبر جل شأنه أنه أنعم علىٰ موسىٰ وهارون فآتاهما الفرقان، وهي: التوراة، وسميت بذلك لأنها تفرق بين الحق والباطل، وبين التوحيد والشرك، وجعل لهما نورًا يهتدي به المهتدون، وموعظةً يتذكر وينتفع بها المتقون، الذين يجعلون بينهم وبين عذاب الله وقايةً بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[٤٩] ثم أخبر سبحانه أن من صفات هؤلاء المتقين أنهم يخافون من عذاب الله في سرهم وعلنهم، وأنهم خائفون وجلون من يوم الحساب وما يقع فيه من حساب دقيق علىٰ أعمالهم.

[٥٠] واعلموا أيها الناس أن هذا القرآن الذي أنزله الله علىٰ نبيكم محمد ﷺ جعله ذكرًا وموعظةً لِمَن تذكّر به، واتبع أوامره، واجتنب نواهيه، وجعل فيه بركةً وخيرًا كثيرًا، ثمَّ وبَّخ سبحانه من أنكره وكذَّب به وأعرض عنه، فقال علىٰ سبيل التوبيخ: أفأنتم له منكرون؟!

[٥١] واعلموا أن الله جل وعلا أعطىٰ - بفضله وكرمه - إبراهيم الخليل عليه السلام الرشد اللائق به وبأمثاله من أولي العزم من الرسل من قبل إرسال موسىٰ وهارون عليهما السلام، وأخبر سبحانه أنه كان عالمًا بأن إبراهيم أهل لما أعطاه، وعالمًا بقدرته علىٰ تحمل الرسالة والمتاعب التي سوف يجتازها؛ لأن الله هو الذي منحه هذه القدرة.

[٥٢] وتذكروا يوم أن قال إبراهيم لأبيه وقومه - علىٰ سبيل الإنكار والاستغراب -: ما هذه التماثيل التي نحتُّموها بأيديكم ثم أقمتم علىٰ عبادتها؟!

[٥٣] فأجابوه قائلين - بلا حجة -: لقد وجدنا آباءنا قائمين علىٰ عبادتها ملازمين لها فتبعناهم وقلّدْناهم.

[٥٤] فقال لهم إبراهيم: لقد كنتم أنتم وآباؤكم الذين اتبعتموهم في عبادة هذه الأصنام في ضلالٍ بيِّنٍ واضح، وزيغ عن طريق الحق.

[٥٥] فقالوا له: أأنت جادٌّ فيما تقول، وقاصدٌ له؟ أم أنت مستهزئٌ في كلامك، فنحمله علىٰ محمل المزح واللعب؟

[٥٦] فأجابهم إبراهيم قائلًا: بل ربكم - المستحقُّ للعبادة وحده دون من سواه؛ لأنه هو الله الخالقُ المُبدِع للسماوات والأرضين، وأنا علىٰ ذلك من الشاهدين.

[٥٧] ثم قال إبراهيم: ووالله لأكسرنَّ لكم هذه الأصنام - التي عكفتم علىٰ عبادتها أنتم وآباؤكم -، وذلك بعد أن تتركوها وحدها، وتنصرفوا عنها، وهذه اليمين التي حلف بها قيل: إنه قالها سرًّا، وقيل: إن رجلًا منهم سمعه يذم الأصنام؛ فبلّغهم.

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

[٥٨] ثم أخبر سبحانه أن إبراهيم عليه السلام كسَّر هذه الأصنام، وجعلها قطعًا صغيرةً متناثرةً، وترك صنمهم الكبير فلَم يكسره؛ لكي يرجع المشركون إلىٰ هذا الصنم فيسألونه لِمَ فعلتَ بهم ذلك، وحين لا يجيبهم؛ سيتنبهون ويفطنون أن الأصنام لا تملك نفعًا ولا ضرًّا.

[٥٩] فلمّا رأوا ذلك قالوا: من فعل هذه الفعلة بآلهتنا، إنه لَمِنَ المتجاوزين للحدود.

[٦٠] فقال بعض من سمع إبراهيم وهو يحلف بأنه سيكيد أصنامهم: لقد سمعنا شابًّا يذكرهم، أي: يعيبهم ويتوعدهم بسوء اسمه إبراهيم. **قال الشيخ صالح بن حميد:** قال ابن عباس رضي الله عنه: (ما بعث الله نبيًّا إلّا شابًّا، ولا أوتي العلم عالم إلّا وهو شابٌّ، وتلا هذه الآية).

[٦١] قالوا: فأْتوا بإبراهيم أمام الملأ يُشاهدونه ويسمعون كلامه، ليشهدوا اعترافه بأنه صاحب تلك الفعلة.

[٦٢] فلما جاءوا بإبراهيم سألوه قائلين: هل أنت من قام بتكسير وتحطيم آلهتنا؟

[٦٣] فأجابهم إبراهيم عليه السلام أمام الملأ – قاصِدًا إلزامهم بالحجة –: بل الذي كسرها وحطمها هو كبيرهم هذا، فاذهبوا إليهم فاسألوهم، وانتظروا جوابهم إن كانوا ينطقون أو يتكلمون.

[٦٤] فدمغتهم الحجَّة، ورجعت إليهم عقولهم، واستيقظت منهم فِطَرُهم، واعترفوا بخطئهم، وقال بعضهم لبعض: إنكم أنتم الظالمون المتجاوزون لحدودكم بعبادتكم هذه الأصنام التي لا تنطق، وليس الظالم من كسرها وحطَّمها.

[٦٥] ثم ما لبِثوا أن انتكست عقولهم، ولعب الشيطان بأحلامهم وأخذتهم العزة بالإثم؛ فقالوا بعد مناقشة بعضهم بعضًا: لقد علمتَ يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تنطق ولا تتكلم فكيف تأمرنا أن نسألهم؟ فهل تستهزئ بنا؟!

[٦٦] فوبّخهم إبراهيم عليه السلام قائلًا: كيف تعبدون من دون الله من لا ينفع ولا يضرّ؟! كيف تعبدون من لا يستطيع دفع الضر عن نفسه، ولا يتكلم أو ينطق؟!!

[٦٧] ثم قال لهم عليه السلام: قُبْحًا لكم، ولآلهتكم التي تصرفون لها العبادة من دون الله، أفلا تحرّكون عقولكم فتُدرِكون فداحة ما أنتم عليه، وقُبحَ ما صرتم إليه؟!

[٦٨] فلمَّا أُفحِمُوا ولم تبقَ لهم حجَّةً لجأوا إلىٰ استخدام قوتهم وسلطانهم – كعادة أهل الباطل – فقالوا: اجمعوا له حطبًا وأوقدوا نارًا عظيمةً، واحرقوا إبراهيم فيها انتقامًا منهُ، وانتصارًا لآلهتكم التي كسّرها وأهانها!!

[٦٩] فنصر سبحانه إبراهيم بأنْ أبطل خاصية الإحراق التي في النار، وقال جل وعلا للنار آمرًا لها: كوني بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم، فكانت كما أمرها الله، فلَم يصبه منها أذىٰ، ولا أحسَّ فيها بمكروه.

[٧٠] ثم بين سبحانه أن قوم إبراهيم أرادوا به هلاكًا وشرًّا، فخيَّب الله سعْيهم، وأبطل كيدهم، وجعلهم مغلوبين، وجعل أمرهم في سفالٍ في الدنيا والآخرة.

[٧١] ونجّىٰ جل وعلا إبراهيم ولوطًا الذي آمن به واتَّبعه، وأخرجهما إلىٰ أرض الشام المباركة، الكثيرة الخيرات، التي بها أرض بيت المقدس الذي بارك الله حوله.

[٧٢] ولمّا هاجر إبراهيم عليه السلام واعتزل قومه؛ أنعم الله عليه بالذرية الصالحة؛ فوهبه أولًا إسماعيل ثم إسحاق، ثم زيادةً علىٰ ذلك وهب له يعقوب الذي هو من نسل إسحاق، وجعلهم الله كلهم صالحين عاملين بتوحيد الله وطاعته رسلًا وأنبياء.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

[٧٣] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل إبراهيم وإسحاق ويعقوب أئمةً في الهُدىٰ، يهدون الناس بدين الله، وجعلهم رؤساء يُقتَدىٰ بهم في فعل الخير والبرِّ، وأمرهم بفعل الخيرات، فيفعلونها ويأمرون الناس بها، وأمرهم بأداء حق الله، ومن أعظمه: أداء الصلاة، وأمرهم بأداء حق العباد، ومن ذلك: إيتاء الزكاة وإخراجها، ففعلوا ما أُمِروا به، وكانوا من المنقادين القائمين المداومين علىٰ العبادات القلبية والقولية والفعلية.

[٧٤] وأخبر سبحانه أنه أنعم علىٰ لوط فأعطاه النبوة والحكم بالحقِّ بين الناس، وأعطاه العلم الشرعي والفقه في الدين، ونجّاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث، إنهم كانوا قوم سوء؛ كذّبوا نبيَّ الله، وأصرُّوا علىٰ الفواحش، ففسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله؛ فأهلكهم ودمّرهم.

[٧٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أنعم أيضًا علىٰ لوطٍ بأن نجّاه مما حلَّ بقومه من الهلاك والدمار، ثم أدخله سبحانه في رحمته وأخبر أنه من عباد الله الصالحين المصلحين.

[٧٦] ثم أخبر جل شأنه عن نداء نوح عليه السلام يوم أن دعا ربه؛ فقال: إنّي مغلوبٌ فانتصر، وحين قال: رب لا تذر علىٰ الأرض من الكافرين ديارًا؛ فاستجبنا له، وأعطيناه سؤله، ونصرناه علىٰ من كذّبه، ونجّيناه من كربِ وغمِّ الطوفان والغرق، هو ومن كان معه من المؤمنين في الفلك المشحون.

[٧٧] ثم أخبر جل وعلا أنه نجّىٰ نوحًا من كيد قومه الذين كذبوا بآيات الله الدالة علىٰ قدرته وصدق نبيه؛ فلم يمسوه بسوء؛ حيث إنهم هددوه إن لم ينته عن دعوته لهم فقالوا له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦]؛ ثم ذم جل وعلا قوم نوح وذكر بأنهم كانوا قوم سوء وقبح، وأخبر بأنه أغرقهم بالطوفان كلهم أجمعين لإصرارهم علىٰ الكفر والعصيان، ولم ينج منهم أحد إلا الذين اتبعوا نوحًا وركبوا معه في السفينة.

[٧٨] ثم أخبر سبحانه بقصة داود وسليمان عليهما السلام حين حكما في قضية عرضت عليهما بين اثنين، وهي: أن غنم أحدهما اعتدت ليلًا علىٰ زرع الآخر، وانتشرت فيه وتفرقت؛ فأكلت الزرع وأفسدته وحطمته، فرفعا أمرهما إلىٰ نبي الله داود، ولما كان الزرع الذي أُفسد يساوي قيمته قيمة الأغنام حكم داود بالغنم لصاحب المزرعة، فلما خرجا من عنده لقيا سليمان فقصَّا عليه القصة والحكم، فقال سليمان لهما: هناك أمر أحكم وأرفق من هذا؛ فرجعا إلىٰ داود فقالا له كلام سليمان؛ فدعاه وقال له: ما هو الأرفق؟ فقال سليمان: تُعطىٰ الغنم لصاحب المزرعة سنة ينتفع بألبانها وما تلد وما ينزع منها من صوف، وتُعطىٰ المزرعة لصاحب الغنم يزرعها له حتىٰ تكون مثل ما كانت قبل أن تتلفها الأغنام، ثم يستلم صاحب المزرعة مزرعته، وصاحب الغنم غنمه، فقال داود: أصبت وأمر بتنفيذه، ثم أخبر جل وعلا أنه كان لحكمهما شاهدًا وحاضرًا.

[٧٩] ثم بين سبحانه أنه هو الذي فهَّم سليمان الحكم الأنسب للطرفين، وأنه أعطىٰ كلًّا من داود وسليمان الإصابة في القول والعمل والفقه في الدين، ثم أخبر جل وعلا أنه سخر الجبال والطير مع داود تسبح معه إذا سبح، وفعل الله ذلك مع داود تكريمًا له وتأييدًا لنبوته وملكه.

[٨٠] ثم أخبر جل وعلا أنه علَّم داود صناعة الدروع فيعملها بإتقان وإبداع؛ بحيث تقي المحارب من ضربات السيوف والرماح، فالواجب عليكم شكر هذه النعم التي سخرها الله علىٰ يد داود عليه السلام؟ ولا شك أن شكر النعم يكون بالثناء علىٰ الله وبالاعتراف بفضله، وباستعمالها في طاعته والتقرب إليه.

والسؤال في قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠]، يعني: الأمر، أي: يجب عليكم شكر هذه النعم.

[٨١] ثم أخبر سبحانه أنه سخر لسليمان الريح الشديدة الهبوب التي تحمله هو وجنوده وتسير به بأمره عليه السلام، وتقطع به المسافات الطويلة إلىٰ حيث يشاء وإلىٰ بيت المقدس في الشام التي بارك الله فيها بكل أنواع الخيرات، وكان سبحانه عليمًا بكل ما يجري في هذا الكون.

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

[٨٢] ثم أخبر سبحانه أنه سخر لسليمان الشياطين؛ فمنهم من يغوص في البحر فيستخرج له الجواهر النفيسة، ومنهم من يعمل في أعمال أخرىٰ كالصناعة والبناء وغير ذلك، وكانوا لا يستطيعون رفض ما يُطلب منهم، وكان سبحانه حافظًا لهؤلاء الشياطين فلا يخرجون عن طاعته، ولا يحصل منهم فساد فيما هم مأمورون بفعله.

[٨٣] ثم ذكر سبحانه قصة أيوب عليه السلام؛ حيث ابتلاه الله وامتحنه امتحانًا شديدًا، بمرضه وذهاب أهله وماله وولده، فالتجأ إلىٰ الله ودعاه وشكىٰ حاله إليه قائلًا: رب إني مسني الضر، ثم توسَّل إليه بصفة الرحمة، قائلًا: وأنت أرحم الراحمين.

[٨٤] فاستجاب الله دعاءه فشفاه وعافاه، وأذهب عنه ما أصابه من الضر، وردَّ عليه أهله وماله ومثلهم، وأعطاه جل وعلا ذلك لرحمته به، وليكون ذكرىٰ وعبرةً وقدوةً للعابدين فيصبرون كما صبر، ويتضرعون كما تضرَّع.

[٨٥] ثم ذكر سبحانه قصة كل من: إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام؛ فأخبر أنهم كانوا من الصابرين علىٰ ما أُمروا به، فاستحقوا الأجر العظيم، والثناء الجميل.

[٨٦] وبسبب صبرهم وصلاحهم؛ أخبر جل وعلا أنه أدخلهم في رحمته الخاصة بأوليائه، وأحاطهم بها؛ لأنهم من عباد الله الصالحين.

[٨٧] ثم ذكر سبحانه قصة صاحب الحوت، وهو يونس بن متَّىٰ عليه السلام؛ حينما أرسله الله إلىٰ قومه فدعاهم فلم يؤمنوا، فتركهم وخرج من عندهم وهو في غاية الغضب، واعتقد أن الله منزلٌ بهم العقوبة فخاف وهرب؛ حيث لم يأذن الله له بالخروج، فحلت به العقوبة؛ حيث ابتلاه الله بأن الْتقمهُ الحوت في البحر، فلما رأىٰ أنه صار في بطن الحوت أدرك أنه أخطأ وأنه استعجل، وأخذ ينادي ربه تائبًا ومنيبًا إليه، قائلًا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: أشهد يارب أنك لا إله إلا أنت، وأنه لا معبود بحق إلا أنت، فأنت وحدك المستحق للعبادة، وإني أنزهك تنزيهًا عظيمًا عما لا يليق بجلالك وعظمتك، وإني أعترف بأني كنت من الظالمين لنفسي حين فارقت قومي دون أن أستأذنك وأطلب منك ذلك، وإني أعترف بخطئي فتقبل يارب توبتي، واغسل حبتي، إنك أنت الغفور لعبادك الرحيم بهم.

قال الشيخ عبدالله البسام: إن (ظن) في قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، بمعني: أيقن، أي: أيقن وتأكد أننا لن نضُيِّق عليه، وأننا سوف ننجِّيه؛ لمكانته وعبادته وإخلاصه، فقوله: ﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، يعني: لن نُضيِّق عليه، وهي مثل: قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾[الطلاق:٧]، أي: ومن ضُيِّق عليه رزقه.

ولا يقال: إن (ظن) هنا بمعنىٰ: شك في قدرتنا؛ لأن الشكَّ في قدرة الله عز وجل كُفْرٌ، ويونس عليه السلام نبي يعرف الله ويعرف أنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وأيضًا فإن الأنبياء معصومون مما هو أقل من الشك من الذنوب. وكلامه حق جزاه الله خيرًا.

[٨٨] ثم أخبر جل في علاه أنه استجاب ليونس عليه السلام ونجّاه من الشدّة التي وقع فيها، وأخرجه من بطن الحوت، وكما نجا سبحانه يونس من بطن الحوت فإنه ينجِّي المؤمنين ويخلصهم مما قد يقع بهم من البلاء.

[٨٩] ثم ذكر جل وعلا قصة زكريا عليه السلام، حينما تضرع إلىٰ الله وناجاه لمّا كبُرت سنه، ورقَّ عظمه، قائلًا: ربِّ لا تتركني وحيدًا فريدًا لا عقب لي يرثني في نبوتي، ويقوم بأمر الدعوة من بعدي، ثم قال متوسِّلًا: وأنت يارب خير الوارثين، أي: خير الباقين.

[٩٠] فاستجاب الله دعاء نبيه زكريا وأعطاه من ألوان النعيم، ومن ذلك أن الله وهبه علىٰ الكبر ابنه يحيىٰ، وشفىٰ له زوجته بأن أزال عنها العقم، ثم أخبر سبحانه أن زكريا وزوجه كانوا يُبادرون لفعل كل خير يُرضيه سبحانه، وكانوا يَدْعُونَ الله راغبين في نعمه، خائفين من عذابه، وكانوا مخبتين متضرعين لله عز وجل دون تكبر أو تجبر.

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾

[٩١] ثم ذكر جل وعلا قصة البتول مريم ابنة عمران رضي الله عنها التي حفظت فرجها وصانته من الفاحشة، ثم أنعم الله عليها بأن أرسل جبريل وأمره أن ينفخ في جيب قميصها فوصلت النفخة إلىٰ رحمها فحملت بعيسىٰ الذي أصبح من أولي العزم من الرسل؛ فكانت مريم وابنها عيسىٰ دلالة واضحة علىٰ عظيم قدرة الله؛ وعبرة للناس إلىٰ قيام الساعة؛ حيث إن الله جعل مريم تحمل من غير زوج.

[٩٢] واعلموا أيها الناس أن هؤلاء الأنبياء الذين أوردنا ذكرهم وغيرهم ممن لم نذكرهم دينهم واحد، وهو دين الإسلام؛ فيجب عليكم أن تتبعوهم وتؤمنوا بما جاءوا به، واعلموا أن الله ربكم ورب الناس أجمعين فيجب عليكم أن تخلصوا العبادة له لتفوزوا برضاه وجنته، فقوله: ﴿أُمَّةً﴾ في هذه الآية يعني: الدين والملة.

[٩٣] ثم أخبر سبحانه أن أولئك الذين اختلفوا علىٰ أنبيائهم وتفرقوا وصاروا أحزابًا كل حزب بما لديهم فرحون؛ فكلهم راجعون إليه سبحانه وسيحاسبهم علىٰ أعمالهم.

[٩٤] ثم أخبر جل وعلا أن من عمل صالحًا وهو مؤمن به، مُتَّبِعٌ لرسوله ﷺ؛ فإن الله لا يجحد عمله ولا يُنْكِره؛ بل يضاعفه له سبحانه أضعافًا كثيرة، وسوف يجده مكتوبًا في صحيفته؛ تقرُّ به عينه يوم الجزاء والحساب.

[٩٥] ثم اعلموا أيها الناس أنه مُمْتَنِعٌ امتناعًا تامًّا رجوعُ قريةٍ – أُهلِكتْ بالعذاب – إلىٰ الدنيا مرَّةً أُخرَىٰ؛ حتىٰ تقوم الساعة، إلا قليلًا، كما قال تعالىٰ: ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ [القصص:٥٨]، والحرام المذكور في الآية هو أن من حكم الله عليهم بالهلاك فإنهم لا يرجعون عن الضلال فيطلبون التوبة لأنه حكم عليهم وانتهىٰ أمرهم بأن ثبتهم الله علىٰ ما اختاروا.

[٩٦] ثم أخبر سبحانه أن من علامات قيام الساعة فتح سد يأجوج ومأجوج، فإذا فُتح خرجوا منه مسرعين وانطلقوا من مرتفعات الأرض متجهين إلىٰ المحشر.

ويأجوج ومأجوج قبيلتان من البشر، قال بعض علمائنا: إنهم هم الصينيون، وقال آخرون: ما دام أن الله لم ينسبهم إلىٰ بلد معين فالسكوت عن مصدرهم أولىٰ؛ لأنهم ربما يكونون من المغول أو غيرهم، وخروجهم من علامات قرب قيام الساعة، وهو يتقارب مع نزول عيسىٰ عليه السلام.

[٩٧] ثم أخبر جل وعلا أنه إذا اقتربت الساعة، ودنا يوم القيامة؛ وبدأت الأهوال والقلاقل، مثل ظهور الدابة ويأجوج ومأجوج وعلامات الساعة الكبرىٰ؛ ترىٰ الذين كفروا شاخصةً أبصارُهم، مُفَتَّحَةً عيونُهم من شدّة ما يرون من الأهوال، ثم تراهم في حسرة وندم يدعون علىٰ أنفسهم بالويل والثبور، ويعترفون أنهم كانوا في غَفْلةٍ ولهوٍ، وأنهم جاوزوا حدَّهم وكانوا ظالمين، ولات حين مندم.

[٩٨] واعلموا أيها الكفار أنكم وما كنتم تعبدون من دون الله من الأصنام والأشجار والأحجار وغيرها سوف تكونون وقود جهنم وحطبها، وأنكم سوف تدخلونها جميعًا وتعذبون فيها.

لمّا قرأ النبي ﷺ هذه الآية علىٰ المشركين فرحوا؛ حيث علموا أن عيسىٰ وأمه مَعْبُودَانِ من تابعيهم، وعزيرًا معبود من اليهود، فقالوا: إن محمد يقول: إن كل المعبودين من غير الله في النار حتىٰ الأنبياء؛ ففرح الكفار المعاندون للدعوة، وأرادوا بذلك أن يرجع المؤمنون بالرسالة إلىٰ الكفر؛ فأنزل الله قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١–١٠٣].

[٩٩] ثم أخبر جل وعلا أن هذه المعبودات من دون الله لو كانت آلهةً حقًّا كما زعمتم؛ لم يدخلوا النار، ولم يقاسوا حرَّها، وبما أن ما زعمتموه باطل وافتراء؛ فأنتم ومعبوداتكم التي رَضِيَتْ بعبادتكم خالدون مخلَّدون في هذه النار أبد الآبدين.

[١٠٠] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المعذَّبين في النار المخلدين فيها لهم زفيرٌ يخرجونه من صدورهم – من شدَّة العذاب والهمِّ والغمّ –، وبين أنهم وهم في النار لا يسمع بعضهم صوت بعض من شدة الهول وفظاعة العذاب، نسأل الله السلامة والعافية.

[١٠١] ثم بين جل وعلا أن أولئك الذين سبقت لهم من الله سابقة سعادةٍ بأنهم من الناجين، فإنهم يُبعَدون عن جهنَّم، ولا يقتربون منها، ولا يسمعون ضجيج أهلها.

[١٠٢] وهؤلاء المؤمنون الذين دخلوا الجنة لا يسمعون صوت جهنم، ولا صوت ما يُلقىٰ فيها، وهم مشغولون عنها بما أنعم الله به عليهم في الجنة، فهم فيما تشتهيه أنفسهم - من المآكل والمشارب والمناكح والمناظر - خالدون ماكثون أبد الآبدين.

[١٠٣] ثم أخبر جل في علاه أن هؤلاء المؤمنين لا تُحزِنهم ولا تُخيفهم ولا تُروِّعهم أهوال يوم القيامة، وتستقبلهم الملائكة - بعد قيامهم من قبورهم - في ذلك اليوم الرهيب وهم مُطْمَئِنونَ قائلون لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون به في الدنيا، وتُبَشَّرون بما فيه.

[١٠٤] وفي هذا اليوم الذي تستقبل فيه الملائكة الصالحين من عباد الله؛ اقتضت حكمة الله أن تتغير معالم الكون، وأن عالم الآخرة كله يختلف عن عالم الدنيا؛ فالسماء تُطوىٰ كما تُطوىٰ الصحيفة علىٰ ما كتب فيها، ويُبعث فيه الخلق مرة أخرىٰ كما خلقهم الله أول مرة، دون أن يناله جل وعلا تعبٌ أو نَصَبٌ، وهذا وعد من الله عز وجل بأنه قادر علىٰ ما يشاء، وأن قدرته لا يعجزها شيء، وأنه سبحانه يفعل ما وعد به ويحققه؛ إنَّه لا يُخلف الميعاد.

[١٠٥] ولقد كتب جل وعلا وقدَّر في الكتب السماوية المنزلة بعدما كتب في اللوح المحفوظ؛ أن أرض الجنة يرثها يوم القيامة عباد الله الصالحون، الذين أطاعوا الله وعبدوه حق عبادته، واجتنبوا ما نهوا عنه. وقيل في معنىٰ هذه الآية: أن أرض الدنيا تنتقل بالفتوحات من أيدي الكفرة إلىٰ المسلمين.

[١٠٦] واعلموا أيها الناس أن في هذا القرآن بلاغًا، وموعظةً وذكرىٰ للقوم الذين يعبدون الله حق عبادته؛ فيعملون كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، اللازمة والمُتعدِّيَة، ويستمرّون علىٰ ذلك، ويقيمون عليه ويُلازِمونَه.

[١٠٧] واعلم يانبي الله أن الله جل في علاه ما أرسلك إلا رحمة لجمع الناس، وأنك تحمل للعالمين الهدىٰ والخير والنجاة؛ فمن آمن بك وصدقك كان من الناجين السعداء، ومن كفر بك وكذبك كان من الخائبين الخاسرين؛ فالحمد لله الذي أنعم علينا برحمته محمدٍ ﷺ، ونسأل الله أن نعيش ونموت علىٰ سنته.

[١٠٨] وقل يانبي الله للناس: إن الذي أوحاه الله إليَّ وبعثني به هو: أن الذي يستحق العبادة وحده دون من سواه؛ هو الله جل في علاه؛ فهل أنتم منقادون لأمره؟! خاضعون لشرعه؟ مُسْتَسْلِمونَ لحُكْمِه؟!

[١٠٩] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: فإن رفضوا الحق فقل لهم: لقد أعلمتكم بأوامر الله وبالعقوبة حتىٰ كنَّا وإياكم سواء في العلم بمراد الله، وهو توحيده وتنفيذ أوامره، ولا أدري بعد ذلك متىٰ يحل عذاب الله الذي وُعد به القوم الظالمون.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

سُورَةُ الحَجّ

[١١٠] واعلموا أيها الناس أن الله مُطَّلِعٌ عليكم، عالمٌ بما تجهرون به من الكلام من الطعن في الإيمان والتوحيد، وعالمٌ بما تُخفون في سرائركم وما تكنونه في نفوسكم، وسيجازيكم علىٰ أعمالكم.

[١١١] ثم أمر نبيه ﷺ أن يقول لقومه: ولستُ أدري، لعلَّ إمهالكم وتأخير العذاب عنكم - مع استحقاقكم له -، لعل ذلك يكون ابتلاءً لكم؛ لتزدادوا في طغيانكم لحين وقتِ هلاكِكُمْ؛ فيزداد بذلك عذابُكُم، أو لترجعوا إلىٰ الحق فَتَنْجُوَا من عذاب الله.

[١١٢] ثم ختم جل وعلا السورة بطلب النبي ﷺ بعد أن أدىٰ الأمانة ونصح الأمة؛ حيث تضرع لربه قائلًا: يارب افصل بيني وبين هؤلاء المكذبين بالحق، فاستجاب الله دعاء نبيه ﷺ، وحكم بينه وبينهم في الدنيا قبل الآخرة؛ فنصره في معركة بدر، ونسأل الله الواسع الرحمة أن يعيننا علىٰ إتمام النصر وإقامة الدولة الإسلامية، وإقامة شرع الله؛ ونستعين به سبحانه علىٰ تحمل سماع ما تصفونه أيها المشركون بألسنتكم من أنواع الشرك والتكذيب والزور والبهتان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

٣٣٢

سورة الحج

سورة الحج مدنيّة وآياتها ثمان وسبعون آية.

[١] بدأت السورة بنداء الله لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم أن يتقوا ربهم الذي أنشأهم ورباهم ورزقهم وحفظهم؛ والتقوىٰ هي إقامة وتنفيذ وتطبيق أوامر الله ونواهيه بإخلاص لله تعالىٰ ومتابعة لرسول الله ﷺ، ثم أمرهم سبحانه بالتقوىٰ تخويفًا وتحذيرًا لهم مما سوف يحدث في هذا الكون عند قيام الساعة من أهوال تذهل لها العقول، وتتصدع منها القلوب.

[٢] ثم بين سبحانه أنه في ذلك اليوم العظيم سوف ترون كيف أن الأم تنسىٰ ابنها الرضيع من شدة ما نزل بها من الكرب، وتُسقط الحامل حملها من الرعب، وترىٰ الناس مثل السكارىٰ، وفي الحقيقة ليسوا بسكارىٰ، ولا أحد يلتفت إلىٰ أمه أو أبيه أو أحبابه، كلٌّ هائم علىٰ وجهه، يقول: اللهم سلِّم سلِّم؛ وقد عمَّ الجميع هول ذلك اليوم، وطيَّر عقولهم، ورأوا في الأرض والكواكب والجبال أشياء تحدث لا تحتملها عقولهم، كل ذلك بسبب شدة هول العذاب هو الذي جعلهم علىٰ هذه الحال التي تشبه حال السكارىٰ في الذهول والاضطراب.

كما قال شوقي: في وصف أحداثٍ أقل بآلاف المرات من أهوال الساعة:

ومعـــذِرةُ اليَرَاعـــةِ والقـــوافي   جلالُ الرُّزءِ عن وصف يـدقُّ

[٣] ثم أخبر جل علا أن هناك طائفة من الناس ومنهم النضر بن الحارث يخاصم فيقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت، ويتكلم في صفات الله وذاته، ويشكك في قدرة الله بغير علم ولا برهان، ويَتَّبع في مخاصمته بالباطل كل شيطان متمرد علىٰ الحق.

[٤] ثم أخبر سبحانه أنه قد حكم وقضىٰ علىٰ كل من اتَّبع هذا الشيطان واتخذه وليًّا أنه يضله ويكون سببًا في دخوله جنهم وعذابه في نارها المستعرة.

[٥] ثم وجه جل في علاه النداء إلىٰ أهل مكة وغيرهم من المنكرين للبعث فقال تعالىٰ: ياأيها الناس إن كنتم في شك من أن الله قادر علىٰ إحياء الموتىٰ فانظروا في مبدأ خلقكم ونشأتكم الأولىٰ التي مر بها كل شخص قبل أن يكون إنسانًا متكامل البنية، واعلموا أنه سبحانه وتعالىٰ خلق أباكم آدم من تراب، ثم تناسلت ذريته من نطفة يقذفها الرجل في رحم المرأة فتتحول بقدرة الله إلىٰ علقة، وهي عبارة عن دم أحمر غليظ تتعلق بجدار الرحم، ثم إن هذه العلقة تتحول إلىٰ مضغة، وهي عبارة عن قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغ، وهذه المضغة إما أن تكون كاملة الخلق، وتستمر فيها الحياة حتىٰ تُصبح جنينًا كاملًا يخرج بأمر الله حيًّا، وإما أن تكون غير تامة الخلق، فلا تستمر فيها الحياة وتسقط بأمر الله ميتةً؛ لِيُثْبِتَ لكم جل في علاه عن طريق المشاهدة ما يدل علىٰ كمال قدرته سبحانه بأنه يُقِرُّ وَيُبْقِي في أرحام الأمهات ما يشاء إقراره إلىٰ الوقت المحدد لولادة الجنين، وما لم يشأ سبحانه إقراره فإنه يأمر الرحم بأن يلفظه ويسقطه، فإذا اكتملت حياة الجنين فإن الله يأمر بخروجه من رحم أمه طفلًا صغيرًا، ثم يكبر شيئًا فشيئًا، ويمر بمراحل الحياة حتىٰ يبلغ أشده، وهي مرحلة الشباب والقوة والفتوة واكتمال العقل.

ثم بين سبحانه بأن بعض الأطفال يقدِّر الله عليه فيموت قبل أن يكبر، وبعضهم يكبر ويستمر في الحياة حتىٰ يصل إلىٰ مرحلة الخرف وهي أضعف وأسوأ مراحل العمر؛ فيصير من بعد علمه ومعرفته وبلوغه الكمال في الرجولة وتدبير شؤونه؛ كأنه طفل في تفكيره وعلمه، ثم اعلموا أيها الناس أن من دلائل قدرة الله إحياء الأرض الميتة فيجعلها روضة خضراء بعد ما كانت يابسة يبابًا؛ حيث ينزل عليها الماء بقدرة الله سبحانه فتتحرك وتشرب الماء الذي يتسلل خلالها فيخرجُ النبات منها علىٰ شكل أصناف متنوعة تبهج وتسر كل من نظر إليها.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥

[٦] واعلموا أن ما تقدم ذكره من آيات تدل علىٰ قدره الله دليل واضح بيِّنٌ أن الله سبحانه وتعالىٰ هو الإله الحق الفعال لما يريد، الذي يجب اخلاص العبادة والطاعة له وحده، ودليل علىٰ أنه جل وعلا هو الذي يحيي ويميت، وأنه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٧] واعلموا أيها الناس أن يوم القيامة وما يشتمل عليه من حساب وثواب وعقاب سيأتي لا شك في ذلك؛ في الوقت المحدد الذي كتبه وقدره جل وعلا، واعلموا أيضًا أنه سبحانه سوف يبعث الموتىٰ من قبورهم ليحاسبهم علىٰ أعمالهم.

[٨] يخبر جل وعلا أن بعض الكفار يخاصم بالباطل في الله، وفي توحيده، وفي اختياره محمدًا ﷺ نبيًّا ورسولًا، وفي إنزاله القرآن عليه، وليس لديه برهان ولا سند ولا كتاب يستمد منه أقواله، والمقصود بهذه الآية هو أبو جهل والنضر بن الحارث وكل من جادل بالباطل مثلهم.

[٩] ثم بين سبحانه أن هذا المخاصم يلوي عنقه عند سماع الحق تكبرًا وإعراضًا عمَّا دعي إليه، ليصدَّ غيره عن الدخول في دين الله، باذلًا كل جهده لمحاربة الدعوة والطعن في الإسلام، ومن كان هذا حاله فسوف يلقىٰ في الدنيا خزيًا وهوانًا، وسيحرقه الله يوم القيامة في نار جهنم.

[١٠] وفي يوم القيامة تقول الملائكة لهذا المخاصم: اعلم أن هذا العذاب الذي تتجرعه، وهذا الإحراق بالنار الذي تذوقه بسبب إصرارك علىٰ الكفر والضلال؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحدًا من عباده فيعذبه من غير ذنب اكتسبه.

[١١] ثم بين سبحانه أن هناك فئة من الناس دخلوا الإسلام وهم في شك وتردد، ولم يرسخ الإيمان في قلوبهم؛ فهؤلاء علىٰ طرف من الدين ويربط إيمانه بالدنيا؛ فإن أصابهم خير ونعمة وبركة ورخاء اطمأنوا علىٰ ما هم عليه من ضعف في اليقين، وإن أصابهم فقر أو هلاك شيء من دوابهم ارتدوا عن دينهم وعادوا إلىٰ الكفر والمعاصي، قائلين: إن سبب ذلك هو الدين؛ ولأجل ذلك خسروا دنياهم وآخرتهم؛ لأنهم ضيعوا أسباب النجاة بحبوط أعمالهم، ولا شك أن هذا هو الخسران البيِّن الواضح.

قيل: إن هذه الآية نزلت في أعراب أتوا المدينة وكان قصدهم المغانم.

[١٢] ثم بين جل وعلا أن هذا الخاسر المرتدَّ يدعو ويعبد من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه -وهذه صفة كل من عُبِدَ من دون الله-، ذلك هو الضلال الطويل البعيد عن الحق كلَّ البُعْد.

[١٣] ثم بين جل شأنه أن هذا الخاسر الذي يعبد الآلهة من دون الله؛ ضررها عليه أقرب من نفعها؛ وذلك واضح بيِّنٌ؛ فهي تضره في دنياه في عقله وسلامته، ولا تستجيب له، وتضره في أخراه بأنْ تكون سببًا لوروده النار، وخلوده فيها، فبئست هذه الآلهة التي تولاها من دون الله، وبئس هذا الصاحب الذي يرديه في مهاوي الردىٰ.

[١٤] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه يُدخل الذين آمنوا به، واتبعوا رسوله، وصدَّقوا إيمانهم ودللوا عليه بالأعمال الصالحة؛ يُدخلهم جنات تجري الأنهارُ من تحت أشجارها وقصورها، في منظر يشرح الصدر، ويُبهج النفس، إنه سبحانه يفعل ما يريد، لا رادّ لقضائه، ولا مُعقِّبَ لحُكْمِه.

[١٥] يخبر سبحانه وتعالىٰ أن من كان يعتقد أن الله لن ينشر الإسلام علىٰ يد محمد ﷺ، وعلىٰ يد أنصاره في العالم، ويقهر أعداءه في الدنيا، ويتوهم أن الله لن يعلي درجة نبيه ﷺ في الآخرة، فعليه أن يمد بحبل إلىٰ السماء ثم يرتقي إليها ليمنع نصر الله لنبيه ﷺ، ثم ينظر هل ذهب كيده وغيظ قلبه.

وفي مد السبب إلىٰ السماء قولان: القول الأول: أن السماء هو كل ما غطىٰ الإنسان وارتفع فوق رأسه كسقف بيته، فعلىٰ من ظن أن الله لن ينصر نبيه ﷺ فعليه أن يمد حبلًا من سقف منزله ثم ليشنق نفسه، أي: يربط الحبل برقبته ويعلق نفسه حتىٰ يهلك، ثم لينظر هل ذهب غيظه أم لا؟!.

و**القول الثاني**: أنه كي يذهب غيظ نفسه فليمد حبلًا إلىٰ السماء التي يتنزل منها الوحي، ثم ليحول بين محمد ﷺ وما يوحىٰ إليه، أي: يقطع الوحي. وكلا القولين معناهما: أنه لا يملك أحد دفع النصرة عن محمد ﷺ ولو مات غيظًا. وفي هذه الآية بشارة للمؤمنين أن الله ناصرهم ومؤيدهم، وأن العاقبة والغلبة للمؤمنين بقيادة محمد ﷺ ولو كره الكافرون.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ
﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ
وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ
ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن
مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ
ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ
مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ
مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ
أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

[١٦] مدح جل وعلا القرآن وبيَّن أنه كما أقام الحجة من دلائل قدرته علىٰ الكافرين بالبعث فإنه أنزل هذا القرآن وفصّله ووضّحه وجعله آيات بيِّنات دالة علىٰ مصالح العباد في الدنيا والآخرة؛ ومع هذا فالهداية بيد الله؛ فمن أراد الخير والهدىٰ من المكلفين وعلم الله منه الصدق شرح صدره للإيمان، وهداه السبيل المستقيم، ومن أعرض واستعلىٰ وَلَّاه الله ما تولىٰ، وحينها فلو جاءته كل آية لم تنفعه؛ بل تكون حجة عليه.

[١٧] يخبر جل وعلا أن الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله ﷺ، واليهود أتباع موسىٰ عليه السلام، والصَّابئين الباقون علىٰ فطرتهم ولا ينتسبون إلىٰ ملة من الملل، والنصارىٰ أتباع عيسىٰ عليه السلام، والمجوس عَبَدَةُ النار، والذين أشركوا بالله فعبدوا معه غيره بأن صرفوا له أي نوع من أنواع العبادة التي لا يحق أن تُصرَف إلّا لله؛ هؤلاء جميعهم سيجمعهم الله يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين، ثم يفصل بينهم، فيُدخل أهل الحق من المؤمنين الموحدين الجنة، ويُدخل المشركين المكذّبين النار، إنه سبحانه علىٰ كل شيء شهيد، عالمٌ بكل شيء، لا تخفىٰ عليه خافية، وسيُجازي كل نفس بما كسبت.

[١٨] ثم قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ألم تعلم يانبي الله أن الله جلَّ في عُلاه يسجد له من في السماوات من الملائكة، ومن في الأرض من الجن والإنس المؤمنين، ويسجد له الشمس والقمر والنجوم والجبال والدواب، ويسجد له كثير من الناس من عباده المؤمنين، وهناك الكثير أيضًا من الناس ممن لا يسجد استكبارًا وكفرًا وتكذيبًا؛ فوجب وثبت عليهم العذاب الأليم، وحصلت لهم الإهانة الكاملة باستكبارهم عن السجود والخضوع لله!، ومن يُهِنِ الله من الناس ويُذِلُّه ويُحَقِّرُهُ فليس لأحد أن يرفع قدره أو يعلي ذكره، أو يمنع عنه عذاب الله، إن الله يفعل ما يشاء، فيرفع من شاء بفضله ورحمته، ويذل ويضع من يشاء بحكمته وعدله.

[١٩] ثم بين جل وعلا حال فريقين من الناس مختصمين مختلفين غير متفقين، فالفريق الأول: فريق الكفار الذين لم يؤمنوا بالله ولم يصدّقوا رُسُلَه، فهؤلاء جزاؤهم في الآخرة أن نار جهنم الشديدة الحرارة تحيطُ بهم من كل جانب كما يحيط الثوب بلابسه، ثم يؤتىٰ بالحميم وهو الماء المغليّ الحار جدًّا فيُصبُّ علىٰ رؤوسهم.

[٢٠] ثم بين سبحانه أن من شدة حرارة هذا الماء أن بطونهم تذوب من الداخل، وتميع جلودهم من الخارج.

[٢١] ثم بين سبحانه أن حول هؤلاء الكفار ملائكة غلاظٌ شدادٌ يزيدونهم عذابًا إلىٰ عذابهم، وذلك بضربهم علىٰ رؤوسهم بمطارق من حديد ضربًا شديدًا موجعًا.

[٢٢] ثم بين جل في علاه أن هؤلاء الكفار كلما أرادوا أن يخرجوا مما هم فيه من العذاب الشديد، والهم والغم، وحاولوا الهرب؛ قمعتهم الملائكة بهذه المطارق، فيرجعون وقد ازدادوا غمًّا إلىٰ غمِّهم، وهمًّا إلىٰ همِّهم، ثم يُقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: ذوقوا عذاب النار المحرق للقلوب، والأبدان، كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، نسأل الله السلامة والعافية.

[٢٣] ثم ذكر سبحانه الفريق الثاني: وهم الذين آمنوا بالله واتبعوا رسُلَه، وصدَّقوا ذلك بالأعمال الصالحة؛ فهؤلاء يُدخلهم الله جنات كثيرات الأشجار البديعة، تجري من تحتها ومن تحت قصورها أنهارٌ تبهج النفوس وتسرّ الناظرين، وأهل هذه الجنة -رجالًا ونساءً- يُزيَّنون فيها بلبس أساور من ذهب ولؤلؤ في أيديهم، وبلبس الحرير الفاخر، نسأل الله الكريم من واسع فضله.

وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾

[٢٤] ثم بين سبحانه أنه هدىٰ الذين آمنوا إلىٰ القول الطيب في الحياة الدنيا، وأعظمه: لا إله إلّا الله، وهداهم إلىٰ صراطه المستقيم المحمود الممدوح؛ فهداهم للإسلام، وهداهم إلىٰ دخول الجنة.

[٢٥] يخبر جل وعلا أن الذين كفروا بالله ورسوله ﷺ وجحدوا دينه، ومع كفرهم فإنهم يمنعون غيرهم من التوحيد والإيمان بالله، ويمنعون الناس عن المسجد الحرام، كما منعوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، في حين أن الله جعل المسجد الحرام للمؤمنين جميعًا؛ سواء المقيم فيه أو الطارئ عليه، واعلموا أيها الناس أن من يعتزم الميل عن الحق في الحرم ، ويهم فيه بمنكر عظيم عامدًا متعمدًا، فإن الله سوف يذيقه عذابًا أليمًا موجعًا..

[٢٦] واذكروا أيها الناس يوم أن بيَّن الله لإبراهيم مكان الكعبة المشرفة وهيأها له؛ ثم أمره ببنائها؛ فبناها وأسسها علىٰ القواعد التي غطتها الأتربة، وعلىٰ تقوىٰ الله وتوحيده، ثم أمره أن يطهر نفسه من التعلق بغير الله، وأن يخلص العبادة لله وحده، كما أمره أن يطهر بيت الله من الكفر والبدع والأوساخ والأصنام ليكون طاهرًا نظيفًا لمن أقام فيه ولمن قصدة للطواف به والصلاة والدعاء والذكر عنده. و(ال) في قوله: ﴿ٱلْبَيْتِ﴾، هي للتعريف، مما يدل علىٰ أن البيت كان قد بُني قبل إبراهيم، كما قال إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم:٣٧]، فإن إسكانه لهاجر وإسماعيل قبل أن يَكْبُرَ إسماعيل ويساعد أباه في بناء الكعبة.

لهذا كان قول القائلين: إن الكعبة مبنية قبل إبراهيم بأزمنة كثيرة، وأنها جرت عليها عوامل التعرية والسيول ولم يبق إلّا القواعد التي بنىٰ عليها إبراهيم الكعبة بمساعدة ابنه إسماعيل هو قول وجيه.

ومن العلماء الكبار القائلين: إن إبراهيم هو أول من بني الكعبة؛ الشيخ عبد الله البسام، وأستاذه الإمام الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمهما الله.

[٢٧] ثم أمر سبحانه إبراهيم عليه السلام أن يخبر الناس بوجوب الحج عليهم؛ فيأتون بعد النداء ماشين علىٰ أقدامهم وراكبين علىٰ كل ضامر من الإبل، ويأتون من كل مكان قريب وبعيد. وقوله: ﴿ضَامِرٍ﴾ هي الإبل الخفيفة اللحم من كثرة المشي والأعمال. ولما جاء الأمر لإبراهيم، قيل: إنه قال: يارب وماذا يبلغ صوتي؛ فأجابه الله قائلًا: عليك الأذان وعلينا البلاغ؛ فصعد الجبل ورفع صوته، فقال: (ياأيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا).

[٢٨] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الحجاج سوف يحضرون للحج والعمرة ولمنافع أخرىٰ تجارية وغيرها، أهمها وأكبرها ذكر الله، ومغفرة الذنوب، ثم أمرهم سبحانه أن يذكروا اسم الله عند ذبح القرابين التي تذبح لله من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم في أيام محددة، وأن يأكلوا منها ويطعموا الفقراء.

والأيام المعلومات هي الأيام العشر الأولىٰ من ذي الحجة، وهي أيام مباركة، فقد ذكر جماعة من أهل العلم رحمهم الله: أنها أفضل أيام السنة علىٰ الإطلاق، كما أن ليالي العشر الأواخر من رمضان أفضل ليالي السنة علىٰ الإطلاق.

ويأتي فضل وأهمية أيام العشر الأولىٰ من ذي الحجة لوجود أيام فيها لها ميزة وفضل خاص، وهي يوم عرفة ويوم النحر، كما أن فضل وأهمية ليالي العشر الأواخر من رمضان لوجود ليلة القدر فيها. أما الأيام المعدودات التي جاءت في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٠٣]، فهي: يوم عيد الأضحىٰ والثلاثة الأيام التي بعده والتي تسمىٰ أيام التشريق.

[٢٩] ثم بعد إكمالهم مناسك الحج عليهم أن يزيلوا عنهم ما لحق بهم من أوساخ في أبدانهم، وأن يوفوا بنذورهم التي أوجبوها علىٰ أنفسهم، ثم يطوفوا طواف الإفاضة بالبيت القديم وهو الكعبة.

[٣٠] واعلموا أيها الناس أن كل ما ذكرناه آنفًا من قضاء التفث والوفاء بالنذور والطواف بالبيت، هو بعض من الأحكام المتعلقة بالبيت وبالحج؛ فعليكم أن تعظموه؛ لأن من يعظم حرمات الله؛ فهو خير له عند الله في الدنيا والآخرة، وتعظيمه لها تعظيم لله تعالىٰ، وتعظيم حرمات الله يكون بإقامة الشعائر من ذكر الله وأداء المناسك علىٰ الوجه المشروع، ويكون باجتناب اللغو والآثام، واعلموا أن الله أحل لكم أكل الأنعام إلا ما جاء النص بتحريمه في القرآن فعليكم أن تبتعدوا عنه، وعليكم أن تبتعدوا عن عبادة الأوثان لأنها قذرة ، وابتعدوا أيضًا عن القول المائل عن الحق وعن الافتراء علىٰ الله جل في علاه.

حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

[٣١] ثم أمر جل وعلا عباده أن يكونوا مقبلين عليه وحده دون من سواه، ولا يشركوا معه أحدًا في عبادته، فإن مَثَل من يشرك بالله كمن خرَّ وسقط من ارتفاع عالٍ في السماء، فَتَلَقَّفَتْهُ وَتَخَطَّفَتْهُ الطيور الجوارح، فذهب كل طائر بعضوٍ منه فقطعوه إِرَبًا، أو أنه حين سقوطه دفعته الريح دفعًا شديدًا إلىٰ مكان بعيد أشد البعد.

[٣٢] ثم كرر جل وعلا وأخبر أن كل ما ذكرناه لكم من الأوامر والنواهي عليكم امتثاله واتباعه، وعليكم تعظيم شعائر الله من المناسك والحج والذبائح وغيرها، لأن تعظيمها دليل علىٰ تقوىٰ القلوب وخشيتها من الله، وأنها قلوب مؤمنة تقية مستقيمة علىٰ طاعة الله.

[٣٣] ثم بين سبحانه أنه لا بأس أن ينتفع الناس من الهدايا المسوقة من البُدْنِ ونحوها، وذلك بركوب ظهورها، والحمل عليها، وشرب ألبانها؛ إلىٰ وقتٍ مقدَّرٍ معلوم، وهو وصولها إلىٰ مكان ذبحها عند البيت العتيق، أي: منطقة الحرم كلها.

[٣٤] ذكر جل وعلا أنه شرع لكل أمة منسكًا، أي: متعبدًا يريقون فيه دماء الذبائح؛ ليذكروا اسم الله عند ذبحها تعظيمًا له سبحانه، ولإطعام الفقراء من هذه الذبائح التي يُتقرب بها لله، واعلموا أيها الناس أن إلهكم واحد وهو الله جل في علاه؛ فعليكم الانقياد والاستسلام له وحده، وبشر يانبي الله أولئك المتواضعين الخاشعين لربهم بالثواب والأجر العظيم.

[٣٥] بين جل وعلا صفات عباده المخبتين الخاضعين الخاشعين، فذكر أن من صفاتهم: أنهم إذا ذُكِر الله وجِلتْ قلوبهم، وارتجفت واضطربت خوْفًا وتعظيمًا، فامتثلوا أمْر الله، واجتنبوا نَهْيَه، ومن صفاتهم: أنهم إذا أصابتهم المصائب فإنهم لا يجزعون؛ بل يصبرون ويحتسبون ويسترجعون، ويرتقبون أجر الله، وينتظرون ما عنده من الثواب، ومن صفاتهم: أنهم يداومون علىٰ أداء الصلاة تامَّة كاملةً بأركانها وواجباتها ومستحبَّاتها، ومن صفاتهم: أنهم من أهل الإنفاق في سبيل الله.

[٣٦] واعلموا أن الإبل المُهْداة إلىٰ الحرم جعلها الله من شعائر هذا الدين، ومن مظاهر العِبَادة، لكم فيها خير كبير من الانتفاع والإطعام، وأجر عظيم، وثواب جزيل، فقولوا عند نحْرِها: بسم الله، وانحروها صوافَّ، أي: قائمات، بأن تقام علىٰ قوائمها الأربع، ثم تُعقل يدها اليسرىٰ ثم تُنحر، فإذا سقطت علىٰ الأرض بعد نحرها يتم سلخها؛ فحينها قد هُيأتْ للأكل منها، فكلوا منها يا أصحابها، وأطعموا منها الفقير القانع الذي لا يسأل الناس إلحافًا، وأطعموا الفقير الذي ألجأته الحاجة لأن يسأل ويطلب، كذلك سخرناها لكم، وسهّلنا لكم اقتيادها لمواضع نحْرِها، لعلكم تشكرون الله علىٰ هذه النعم التي أنعم بها عليكم.

[٣٧] واعلموا أيها المتقربون المُهْدون لهذه الذبائح أن الله لا يناله شيء من لحم ذبائحكم ولا من دمائها، فهو سبحانه الغنيُّ الحميد، وإنما الذي يصعد إليه: هو إخلاصكم وتقْواكم، وصلاح نياتِكم في هذه القربات، كذلك ذلّلها لكم، وذلل لكم نحرها؛ لتكبِّروا الله وتعظِّموه وتُجِلُّوه علىٰ هدايته إياكم للحق، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يبشر المحسنين بالفوز الدائم، والفلاح العظيم في الدنيا والآخرة.

[٣٨] ذكر جل وعلا أن من إكرامه لعباده المخلصين أنه يتولىٰ الدفاع عنهم وينصرهم ويدفع أذىٰ الحاقدين الذين يسوؤهم عز الإسلام وقيام دولة الحق، لأنه جل في علاه يحب المؤمنين ويبغض الكافرين الذين من صفاتهم السيئة الخيانة والإصرار علىٰ الكفر والجحود والضلال.

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

[٣٩] لما كان المسلمون أول أمرهم مستضعفين تحت هيمنة الكفار مُنِعُوا من القتال ومحاربة الكفار رحمة بهم؛ إذ لو استفزوا المشركين لقضوا عليهم، وكان ﷺ في مكة يُصَبِّر المؤمنين كلما اشتكوا وطلبوا منه الإذن بالدفاع عن أنفسهم، فيقول لهم: لم يؤذن لي فتحملوا واصبروا حتىٰ يأتي الله بأمره؛ فلما هاجر المسلمون وصار لهم دولة ومنعة وشوكة نزلت هذه الآية في الإذن لهم بالدفاع عن أنفسهم، وهي أول آية في الإذن بالقتال؛ وقد بين سبحانه أن الإذن لهم بالقتال والدفاع عن أنفسهم بسبب ما وقع عليهم من الظلم والعدوان، وبين جل شأنه أنه قادر علىٰ نصر عبادة المؤمنين الصادقين.

[٤٠] ثم بين سبحانه أنه أذن بالقتال لأولئك المظلومين الذين اضطرهم أعداؤهم للخروج من بلادهم ظلمًا وعدوانًا وبغير إثم اكتسبوه، فقط ذنبهم: أنهم أسلموا لله وقالوا: ربنا الله وحده لا نعبد ربًّا سواه، ثم بين جل وعلا لولا أنه أباح للمؤمنين القتال ودفع الظلم والجور والعدوان عن أنفسهم لعاث المشركون في الأرض الفساد، ولهدمت أماكن العبادة التي يُصلىٰ فيها ويذكر اسم الله فيها كثيرًا، ثم وعد جل وعلا أن من بذل ما في وسعه لنصرة دين الله وإعلاء كلمته فإن الله سوف ينصره ويثبته لأن الله قوي لا يغالب، وعزيز لا ينازعه منازع. قال أحد أصحاب رسول الله عن قريش:

زعمت سخينة أن سَتَغلب ربها ... وليُغْلَبن مُغَالب الغلّاب

وسخينة: هي لقب لقريش.

[٤١] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بغير حق؛ من صفاتهم: أنهم إذا مكن الله لهم في الأرض أنهم يشكرون الله علىٰ ما أنعم عليهم من التمكين والنصر؛ وذلك بإقامة الصلاة والمحافظة عليها في مواقيتها وأركانها وواجباتها، وإخراج زكاة أموالهم الواجبة عليهم وإعطائها لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم، وأمرهم الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر، واعلموا أيها الناس أن لله وحده عاقبة الأمور ومرجعها فيجازي كلًّا بما يستحقه، إن خيرًا فخير، وأن شرًّا فشر.

[٤٢] ثم يسلي جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: لا تحزن يانبي الله فلست وحدك الذي كذبك قومك وآذوك؛ بل جميع الأنبياء من قبلك كذبتهم أقوامهم؛ ومن هؤلاء قوم نوح وعاد وثمود فقد كذبتهم أقوامهم.

[٤٣] ثم ذكر سبحانه أيضًا قوم إبراهيم ولوط حيث كذبتهم أقوامهم.

[٤٤] وكذلك ذكر سبحانه أصحاب مدين وموسىٰ فقد كذبتهم أقوامهم؛ فكانت النتيجة أن الله لم يعاجلهم بالعقوبة؛ بل أمهلهم حتىٰ أقيمت عليهم الحجة ثم أخذ سبحانه كلًّا منهم بالعذاب؛ فانظروا كيف كانت عقوبة الله لهم، وكيف كان إنكار الله عليهم؛ حيث حولت حياتهم إلىٰ موت، وبيوتهم إلىٰ خراب ودمار، وغرورهم إلىٰ ذلة وخسران.

والمقصود: تذكير ووعظ مشركي قريش بأنهم إذا أصروا علىٰ الكفر والعناد فسوف تنزل بهم العقوبة التي نزلت بالأمم المكذبة من قبلهم.

[٤٥] ثم أخبر سبحانه أنه أهلك كثيرًا من أهل القرىٰ بالعذاب الشديد؛ بسبب ظلمهم وشركهم، ومجاوزتهم الحدَّ، فتلك بيوتهم مُهدَّمةٌ خاليةٌ من سكانها، ساقطةٌ عروشُها، وتلك آبارهم معطَّلةٌ لا يُستقىٰ منها، ولا يُنتفَع بها، وتلك قصورهم العالية المزخرفة المُحصَّنةُ، قد سكنها الخراب، وبقيت شاهدة علىٰ من عاش فيها، وقد صاروا عبرة للمعتبرين.

[٤٦] يحثُّ جل وعلا المكذبين بأن يسيروا في الأرض، وبأن يسافروا لينظروا ويتفكروا في أحوال الأمم السابقة؛ علَّ ذلك أن يورثهم قلوبًا سليمةً يعقلون بها، أو آذانًا صاغيةً يسمعون بها سماع استجابةٍ، فإن العمىٰ الحقيقي ليس عمىٰ البصر؛ بل عمىٰ البصائر التي في الصدور.

وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن
قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ
﴿٤٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ
إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي
ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ
مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ
فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ
تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

[٤٧] أخبر الله تعالىٰ في عدة مواضع من كتابه أن الأنبياء كانوا يحذِّرون أقوامهم المكذبين بهم من عذاب الله؛ فكانوا يردون عليهم مستعجلين إياهم العذاب فيقولون علىٰ سبيل التكذيب والتعجيز: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠]، فلأجل ذلك أخبرهم يا نبي الله أن الله لن يخلف ما وعدكم به من العذاب؛ بل سيأتيكم في وقته الذي حدده سبحانه.

وقد جاءهم بعض العذاب كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [النمل:٧٢]، كقَتْل زعمائهم في غزوة بدر وأسرهم وهزمهم، واعلموا أيها المكذبونَ أن يومًا من أيام الله كألف سنة مما تعدون من أيامكم في حياتكم الدنيا.

[٤٨] ثم أخبر سبحانه أن كثيرًا من القرىٰ التي ظلمت نفسها بشركها بالله وتركها توحيد الله واتباع رسوله لم يبادرها بالعذاب؛ بل أمهلها زمنًا طويلًا، فلمَّا تمادوا في غيِّهم أخذهم الله بالعذاب في الدنيا، ثم إلىٰ الله مرجعهم ومآلهم فيعذبهم في الآخرة عذابًا شديدًا.

[٤٩] وقل يا نبي الله: اعلموا أيها الناس إنما أنا نذير لكم واضح الإنذار والتخويف.

[٥٠] وقل لهم أيها النبي أيضًا: واعلموا إن الذين آمنوا بالله، واتَّبعوا رسوله ﷺ، وصدَّقوا ذلك بالأعمال الصّالحة؛ أولئك سيغفر الله لهم زللهم وتقصيرهم، وسيرزقهم رزقًا كريمًا فيدخلهم جنات النعيم خالدين فيها أبدًا.

[٥١] ثم قل لهم: إن الذين جدُّوا واجتهدوا في صدِّ الناس وصرفهم عن آيات القرآن، وآيات الله الدالة علىٰ وحدانيته، ثم هم مع ذلك يظنون أنهم سيُعجِزون اللهَ ويفوتونه؛ فأولئك أصحاب النار الملازمون لها، الخالدون فيها.

[٥٢] واعلم يانبي الله أن الله ما أرسل من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا قرأ وتلا كتاب الله لتذكير الناس ونصحهم وإرشادهم؛ ألقىٰ الشيطان الوساوس والشبهات التي تناقض قراءته؛ لتشكيك الناس في أنبيائهم وصدهم عن اتباع ما يقرأونه ويتلونه، لكن الله يبطل كيد الشيطان فيخزيه ويبطل وساوسه، ثم يثبِّت سبحان آياته الواضحات البينات ويحفظها، والله عليم لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، حكيم يضع الأمور في مواضعها جل في علاه.

وقد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية قصة الغرانيق، وقد أنكرها الشيخ المفسر محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسيره أضواء البيان، فقال عند تفسير هذه الآية: (اعلم: أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعًا، ودلالة القرآن علىٰ بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج، وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب).

كما أن العلامة الألباني رحمه الله أبطل هذه القصة وأنكر الحديث الوارد فيها، وله رحمه لله رسالة مطبوعة في تحقيق هذا الحديث اسمها: (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق)، وهي رسالة فريدة في موضوعها، وقد بين فيها بطلان هذه القصة وعدم ثبوتها.

[٥٣] ثم بين جل وعلا أن ما يُلقيه الشيطان من المكائد والشبهات جعله فتنة وابتلاءً لطائفتين من الناس، الأولىٰ: الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون، والثانية: غلاظ القلوب الذين لا تؤثر فيهم موعظة، ولا تنفعهم الذِّكرَىٰ، وإن الظالمين لأنفسهم بالشرك لفي عداوةٍ شديدةٍ ومحادَّةٍ لله ورسوله.

[٥٤] ثم قال سبحانه: وليعلم الذين رزقهم الله العلم، وأنار به بصائرهم، وزكَّىٰ به نفوسَهُم أن هذا القرآن هو الحق النازل من عند الله، بلا أدنىٰ شكٍّ أو شُبهةٍ، فيثبتوا علىٰ الإيمان به ويزدادوا يقينًا، فتسكن وتخضع وتنقاد وتخشع للقرآن قلوبهم؛ فيهديهم الله ويثبتهم علىٰ الإيمان والصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، والذي رضيه لعباده.

[٥٥] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أن الكفار المكذبون لا يزالون في شكٍّ وريبة وتردد بما جئتهَم به من القرآن حتَّىٰ تأتيهم الساعة فجأةً، أو يأتيهم عذاب يوم القيامة، وهم - ما زالوا - في شكّهم يعمهون، وفي غيِّهم سادرون.

ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ
مُّهِينٞ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ
أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ
وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ
مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي
ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ
بَصِيرٞ ٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ
مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢
أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ
مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤

[٥٦] يخبر جل وعلا أن الملك يوم القيامة لله وحده يقضي ويفصل بين الناس بقضائه العدل، وحكمه الفصل، فالذين آمنوا وصدّقوا بالله، واتّبعوا رسوله ﷺ، ودلّلوا علىٰ ذلك بأعمالهم الصالحة؛ أولئك في الجنات يتنعمون فيها بأنواع النعيم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

[٥٧] ثم بين سبحانه أن الذين كفروا وجحدوا وكذّبوا رُسُل الله وآياته الدالة علىٰ وحدانيته؛ فأولئك لهم عذابٌ يخزيهم ويُذلهم ويُهينهم.

[٥٨] وأخبر جل في علاه أن الذين هاجروا في سبيل الله فتركوا أهلهم وأموالهم وأوطانهم، ابتغاء مرضات الله، ونصرةً لدينه، فمن قُتل منهم شهيدًا، أو مات علىٰ فراشه، سوف يرزقهم الله رزقًا حسنًا تقرُّ به عيونهم، وتبتهج به نفوسهم، وإن الله لهو خير الرازقين، يرزق من يشاء بغير حساب.

[٥٩] ثم أخبر جل شأنه أنه سوف يُدخلهم يوم القيامة مُدخلًا يرضونه ويحبونه، وهو جنات النعيم؛ كما أنهم في الدنيا تركوا ما يحبُّون لإرضاء المولىٰ جل في علاه؛ فجازاهم الله وأدخلهم ما يحبون وبه يأنسون ويسعدون، وإن الله لعليم بكل شيء ظاهرًا وباطنًا، عليمٌ بنيات المهاجرين وأحوالهم، حليمٌ لا يُعاجل من عصاه بالعقوبة؛ بل يُمهله، ويتوب عليه إذا تاب.

[٦٠] واعلم يانبي الله أن ذلك الذي أخبرناك به من إدخال المهاجرين الجنة، فاعلم أيضًا أن من بُغِي عليه وظُلِمَ ثم انتصر لنفسه؛ فلا حرج عليه، فإن عاود الظالم وبَغىٰ عليه - بسبب انتصاره لنفسه -؛ فإن الله معه وناصره علىٰ من ظلمه، إن الله كثير العفو عن المذنبين، كثير الإمهال لهم، كثير المغفرة لِمَن تاب ورجع منهم سبحانه وتعالىٰ.

[٦١] واعلموا أن ذلك الذي سن هذه الأحكام العادلة من إدخال المهاجرين الجنة ونصرة المظلوم هو الله، وهو القادر علىٰ ما يشاء، ومن قدرته أنه يُدخِل الليل في النهار، ويُدخل النهار في الليل، بترتيب دقيقٍ مُحْكَمٍ لا يختلف ولا يضطرب، وبه تنتظم فصول السنة، وتصلح حياةُ العباد، واعلموا أن الله سميع لكل الأصوات في جميع الأوقات علىٰ تفنن الحاجات، بصير، يبصر دبيب النملة السوداء علىٰ الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، لا يغيب ولا يعزب عنه شيء جل في علاه.

[٦٢] واعلم أن ذلك الذي ذكرناه من إدخال المهاجرين الجنة، ونصرة المظلوم، وإدخال الليل في النهار والنهار في الليل؛ لتعلم أن الله هو الإله المعبود بحقٍّ - دون من سواه -، وأن الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله من الأصنام والجمادات باطلةٌ في ذاتها، وباطلةٌ غايةً ومقصدًا، وأن الله جل في علاه هو العليُّ ذاتًا، وقهرًا وقدرًا، الكبير ذو الكبرياء والعظمة والجلال.

[٦٣] ثم قال تعالىٰ لنبيه ﷺ ألم تشاهد يانبي الله ببصرك أن الله ينزّل المطر من السماء علىٰ الأرض اليابسة القاحلة، فتنبت العشب والزروع؛ فتصبح مخضَّرةً بهيجة المنظر، بديعة الجمال؟!، إن الله لطيفٌ مدركٌ لبواطن الأمور وخفاياها، كثير اللطف بعباده، خبيرٌ بهم، يُيَسِّرُ أمورهم، ويدبر لهم ما يصلحهم.

[٦٤] واعلموا أن لله ملك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، لا غنىٰ لأحدٍ عنه طرفة عين، ولا أقلَّ من ذلك، له الغنىٰ التامّ، فهو سبحانه مستغنٍ عن جميع المخلوقات، لا تنفعه طاعة الطائع، ولا تضرُّه معصية العاصي، وهو سبحانه المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته، وشرعه، وتوفيقه، له الحمد حتىٰ يرضىٰ، وله الحمد إذا رضي، وله الحمد بعد الرضا.



أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي
فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا
بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ
أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾
لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ
فِي ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ
ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ
عِلْمٌۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا
بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَۖ يَكَادُونَ
يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن
ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

[٦٥] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ: ألم تشاهد ببصرك يانبي الله أن الله ذلَّلَ لكم جميع ما في الأرض من طُرُقٍ وحيوانات وجمادات، وهيّأ ذلك لكم لتنتفعوا به غاية ما يكون الانتفاع، وذلّل لكم أيضًا السفن التي تجري في البحر بأمره وقدره ورحمته، وهيأها لكم لتنتقلوا عليها، وتحملوا عليها متاعكم من مكان إلىٰ آخر، وأن الله - بلطفه ورحمته - يمسك السماء ويمنعها من أن تقع علىٰ الأرض إلا بمشيئته وإرادته، واعلموا أن الله بتسخيره هذه الأمور؛ كثير الرأفة بالناس، كثير الرحمة بهم، والاحسان إليهم.

[٦٦] واعلموا أن الله سبحانه هو الذي أوجدكم من العدم، وهو وحده الذي يميتكم حين انقضاء أعماركم، ثم يوجدكم مرَّةً أخرىٰ للبعث والجزاء، إن الإنسان لكثير الكفر بنعم الله وآياته الدالة علىٰ وحدانيته، كثير الجَحْدِ لها.

[٦٧] يخبر جل وعلا أنه جعل لكل أمة شرعةً ومنهاجًا في العبادة قائمين عليه يتعبدون الله به، متفقين عليه، وهو توحيد الله وإفراده بالعبادة، وقد يختلفون في بعض الأمور الفرعية، ولهذا لا يُنازِعُ أحدٌ من الناس رسول الله ﷺ في شِرعته ومنهاجه الذي شرعه الله له؛ بل علىٰ الجميع الامتثال والطاعة، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يدعُ إلىٰ توحيد ربه والإيمان به بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم أثنىٰ جل شأنه علىٰ نبيه ﷺ فأخبر أنه علىٰ طريقٍ سويٍّ واضحٍ لا اعوجاج فيه.

[٦٨] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: وإن أصرّ يانبي الله الكفار علىٰ الجدال والمكابرة والمعاندة، فلا تُجاريهم، ولا تسترسل معهم؛ بل قل لهم قولًا مُجمَلًا مشتملًا علىٰ الوعيد: الله أعلم بكم وبما تعملون، وسيجازيكم علىٰ نياتكم وأعمالكم.

[٦٩] واعلموا أن الله وحده هو الذي سوف يفصل يوم القيامة بين فريق التوحيد والإيمان وفريق الكفر والطغيان، فيما كنتم تختلفون فيه من أمر الدين، وتجادلون فيه معاندين مكابرين، وحينها سيتبين لكم المحقُّ من المُبطِل.

[٧٠] ألم تعلم يانبي الله أن الله أحاط علمه بجميع ما في السماوات والأرض!، فلا يخفىٰ عليه من أمرهما شيء؛ بل إن الله أثبت ذلك في اللوح المحفوظ عنده، وهذا أمرٌ سهلٌ هيِّنٌ يسيرٌ علىٰ الله جل في علاه.

[٧١] يخبر سبحانه أن المشركين يعبدون آلهة من دون الله، وليس لهم دليل واضح - عقلي ولا نقليّ - علىٰ عبادتهم؛ بل عبدوا تلك الآلهة علىٰ ضلالٍ وجهل، وهم بذلك قد تجاوزوا حدَّهم، وظلموا أنفسهم بشركهم بربهم؛ فلهم عذاب شديد، لن ينجيهم منه أحد، ولن يدفعه أو يخففه عنهم أحد.

[٧٢] ثم أخبر جل في علاه أن هؤلاء المشركين إذا تُتلىٰ عليهم آيات القرآن تتغير وجوههم، ويظهر عليها الغضب والعبوس والاكفهرار، فيزداد غضبهم وحنقهم علىٰ أهل الإيمان الذين يتلون عليهم هذه الآيات؛ حتىٰ إنهم يكادون يفتكون بهم، فقل لهم يامحمد: ألا أخبركم بما هو شرٌّ لكم مما أنتم فيه من الغيظ والحنق: النار التي هيأها الله لكم لتكون مستقرًّا ومقامًا لكم، فبئست الحال التي أنتم عليها، وبئس المصير الذي ينتظركم.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

[٧٣] وهذا نداء من الله لجميع الناس، يقول فيه: ياأيها الناس لقد ضرب الله لكم مثلًا فاستمعوا له سماع تدبُّرٍ وتفكّر: اعلموا أن الذين يعبدهم الناس من دون الله لا يستطيعون - مجتَمِعِينَ - خلْق أحقر الحشرات، وهي الذبابة؛ بل إنْ سَلَبَتْ منهم هذه الحشرة شيئًا لا يستطيعون استرجاعه منها، وهذا غاية العجز والضعف، فالآلهة التي يعبدونها من دون الله ضعيفة، والذباب الذي لا يستطيعون خَلْقَه، ولا يستطيعون استنقاذ ما يسلبه منهم ضعيف، لقد ضعف الداعي والمدعو.

[٧٤] ثم أخبر جل شأنه أن هؤلاء المشركين الذين عبدوا هذه الأوثان من دون الله ما عظَّموا الله حق تعظيمه، ولا عرفوه حق معرفته، لمَّا سوَّوا بينه وبين هذه المخلوقات الضعيفة، فأشركوها معه في العبادة، واعلموا أن الله هو القوي الذي قهر كلّ شيء، ومَلَكَ كل شيء، وهو العزيز الذي لا يغلبه أحد، ولا يعجزه شيء جل في علاه.

[٧٥] واعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي يختار ويجتبي من الملائكة رسلًا، وكذلك من الناس، ثم أخبر سبحانه أنه سميع لأقوال عباده، بصير بكل شيء.

[٧٦] ثم أخبر سبحانه أن علمه قد أحاط بجميع الملائكة والرسل ماضيًا ومستقبلًا، أوَّلًا وآخرًا، ثم أخبر أن جميع أمور العباد ترجع إليه وحده، ومن ذلك: أن من استجاب للرسل الذين أرسلهم بالهدىٰ فسوف يثيبه، ومن كذَّبهم فسوف يعاقبه.

[٧٧] ثم ينادي جل وعلا عباده المؤمنين بأحب وصفٍ إليهم، وهو وصف الإيمان، ويأمرهم بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود لفضلهما، ويأمرهم بأن يعملوا كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة اللازمة والمتعدية، ثم خصَّ من ذلك: فعل الخيرات؛ فإنكم أيها المؤمنون إن فعلتم ذلك أفلحتم الفلاح العظيم، وفزْتم الفوز الكبير.

[٧٨] ثم ختم جل وعلا السورة بأمر عباده المؤمنين في استفراغ الجهد في حرب الأعداء بالمال والسلاح والنفس من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه في مشارق الأرض ومغاربها؛ فهو سبحانه الذي اختارهم للدفاع عن دينه، واعلموا أن من رحمة الله بكم أنه لم يجعل عليكم في الدين ما فيه مشقة أو ضيق؛ بل جعل هذا الدين مبنيًّا علىٰ اليسر والتخفيف، كما كان الأمر كذلك في ملة أبيكم إبراهيم.

وقد منَّ الله عليكم أن سماكم المسلمين في الكتب المنزلة السابقة وفي القرآن الذي بين أيديكم، وقد اختصكم الله بذلك ليكون الرسول محمد ﷺ الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين شهيدًا عليكم أنه بلغكم الرسالة وأدىٰ الأمانة، وتكونوا أنتم أيضًا شهداء علىٰ الأمم بأنَّ رسلهم قد بلغتهم رسالة ربهم كما أخبركم القرآن بذلك.

ولأجل ذلك يجب عليكم أن تشكروا هذه النعم وتحافظوا عليها بأداء الصلاة والمحافظة علىٰ أركانها وشروطها وأدائها في أوقاتها، كما عليكم أن تؤدوا زكاة أموالكم المفروضة عليكم، وعليكم أن تلجأوا إلىٰ الله وتتوكلوا عليه في سركم وعلنكم، لأنه هو الذي ينصركم ويتولىٰ شؤونكم؛ فنعم المولىٰ لمن تولاه ونعم النصير لمن نصره.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾

سورة المؤمنون

سورة المؤمنون مكيّة وآياتها ثماني عشرة ومائة آية.

[١] يخبر جل وعلا أنه قد فاز وحقق النجاح والسعادة ونال رضوان الله والجنة كل مؤمن اتصف بهذه الصفات التي سنأتي علىٰ ذكرها، وقد عرف العلماء الإيمان فقالوا: هو التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، ويجب أن تصدق الأفعال الإيمان؛ لأن الإيمان إذا لم تصدقه الأفعال يكون ادعاءً لا حجة تثبته ولا دليل يؤيده.

[٢] ثم ذكر سبحانه جملة من صفات وأعمال المفلحين الفائزين، وقد بدأها بأول صفة بعد الإيمان، وهي: أنهم الذين يخشعون في صلاتهم فلا ينشغلون أثناء أدائها بأي أمر من أمور الدنيا.

[٣] ثم ذكر سبحانه الصفة الثانية، وهي: أنهم الذين يعرضون عن اللغو وهو كل كلام أو فعل قبيح.

[٤] ثم ذكر سبحانه الصفة الثالثة، وهي: أنهم الذين يؤدون زكاة أموالهم المفروضة عليهم بطيب نفس لتطهير أنفسهم وأخلاقهم بأدائها.

[٥] ثم ذكر سبحانه الصفة الرابعة، وهي: أنهم الذين يحافظون علىٰ فروجهم من كل أنواع الفواحش، وعلىٰ رأسها فاحشة الزنا أو اللواط.

[٦] ثم استثنىٰ سبحانه الذين يستمتعون بزوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم من الإماء فإنه لا إثم عليهم؛ لأن الله أباح لهم ذلك.

[٧] ثم بين سبحانه أن من طلب الاستمتاع بغير الزوجة، أو الأمة؛ فقد تجاوز حدود الله، وعرَّض نفسه لعقابه وسخطه.

[٨] ثم ذكر سبحانه الصفة الرابعة، وهي: أنهم الذين يحافظون علىٰ الأمانات والعهود مع الله جل في علاه، ومع الناس؛ فلا يخونون ولا يغدرون.

[٩] ثم ذكر سبحانه الصفة الخامسة، وهي: أنهم الذين يحافظون علىٰ أداء الصلاة في أوقاتها المحددة، ويحافظون علىٰ أركانها وواجباتها، كما وردت عن النبي ﷺ، ولاحظ كيف بدأ سبحانه بأهم صفة من صفات المؤمنين وهي الخشوع في الصلاة، وختمها أيضًا بالمحافظة عليها؛ لبيان عظم الصلاة ومكانتها عند الله تعالىٰ.

[١٠] ولما ذكر جل وعلا هذه الصفات وهذه البراهين التي تدل علىٰ ثبات الإيمان، قال: إن أولئك المؤمنين المتصفين بهذه الصفات الجليلة أحق بوراثة الجنة.

[١١] ثم بين سبحانه أنهم أحق بوراثة أعلاها وهو الفردوس؛ فإذا دخلوا الجنة فإنهم سيخلدون فيها أبد الآبدين.

[١٢] ثم ذكر جل وعلا الأطوار التي تدرَّج بها خَلْقُ الإنسان؛ فبين سبحانه وتعالىٰ أنه بقدرته خلق الإنسان من طين مأخوذ من وجه الأرض، وهذه خاصّة بأبي البشر آدم عليه السلام.

[١٣] ثم ذكر مراحل خلق ذريته؛ فبين أنه خلقهم من نطفة، والنطفة هي جزء من مني الرجل الذي يخرج من صلبه أثناء الجماع ويستقر في رحم المرأة.

[١٤] ثم جعل سبحانه النطفة علقة، أي: قطعة دم تعلق بجدار الرحم من داخله، ثم جعل العلقة بعد أربعين يومًا مضغة، أي: قطعة لحم بقدر ما يمضغ بالفم، ثم حول سبحانه هذه المضغة من اللحم إلىٰ عظام، ثم كسا هذه العظام باللحم، ثم أنشأه بشرًا سويًّا وذلك بنفخ الروح فيه؛ فتبارك سبحانه وكثر خيره الذي أحسن كل شيء خلقه، وأحكم كل شيء صنعه.

[١٥] ثم ذكر جل وعلا أن هذا الإحياء يتبعه موت بعد انقضاء الأعمار.

[١٦] ثم بين سبحانه أن بعد الموت إحياء للحياة الآخرة السرمدية، فتبعثون من قبوركم وتعرضون للحساب، وبعده إما إلىٰ جنة أو إلىٰ نار، نسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا الجنة ويعيذنا من النار.

في هذه الآيات تذكير ببداية خلق الإنسان ونهايته؛ ليتعظ من يتعظ ويعتبر من يعتبر، وتقوم الحجة علىٰ الجميع، وهي دليل علىٰ قدرة الله العظيمة وعلىٰ وحدانيته جل وعلا.

[١٧] ذكر جل وعلا أنه خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض، وبين أنه مراقب للمخلوقات، وأنه عارف لكل ما يصدر منهم من تصرفات، وأنه جل في علاه لم يكن مهملًا أو ناسيًا لأيٍّ من مخلوقاته.

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾

[١٨] ذكر جل وعلا فضله علىٰ خلقه بإنزال الماء الذي لا تقوم الحياة إلّا به، وقد أنزله سبحانه بقدر حاجتهم، ثم بين أنه جعل الآبار والعيون والأنهار في الأرض مستقرًا لهذا الماء لينتفع الناس به، كما بين أنه قادر علىٰ رفع هذا الماء المستقر وعدم الانتفاع به، وهذا يعني أن الماء نعمة كبرىٰ تستحق شكر الله؛ فإنه بالشكر تدوم النعم.

[١٩] ثم أخبر جل في علاه أنه سقىٰ الأرض بهذا الماء فأحياها وأنشأ منها بساتين النخيل والأعناب التي تنتج أنواع الفواكه الكثيرة التي تستمتعون بالأكل منها في كل الأوقات.

[٢٠] ثم أخبر سبحانه أنه أنشأ بهذا الماء شجرة الزيتون المباركة، والتي هي من أكثر الأشجار فائدة بزيتها وطعامها وخشبها، وهذه الشجرة تخرج حول جبل الطور بسيناء، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسىٰ عليه السلام، ثم بين سبحانه أن هذه الشجرة يخرج من ثمرها زيت يدهن وينتفع به، ويستخدم في الأكل مع الخبز وغيره من أنواع الطعام.

[٢١] ثم ذكر جل وعلا الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، وطلب من عباده الاعتبار والاعتراف بفضل الله عليهم فيها؛ فهو الذي سخرها، وجعل فيهما الكثير من المنافع، ومن ذلك ما أودعه الله في بطونها من اللبن الذي يُنتفع به ويتلذّذ الناس بشربه، وغير ذلك من المنافع الكثيرة؛ كالانتفاع من أصوافها وجلودها والتلذذ بأكل لحومها غذاءً وغير ذلك.

[٢٢] ثم أخبر سبحانه أن بعض هذه الأنعام تحملكم وتحمل أمتعتكم وتتنقلون عليها من مكان إلىٰ آخر، ومن نعمه علىٰ عباده أيضًا أن سخر لهم هذه السفن التي تجري في البحر لتحملهم وتحمل أثقالهم ويتنقلون عليها من بلد إلىٰ بلد، وإلا فلا يمكن أن يصل البشر إلىٰ مصالحهم التجارية وغير التجارية إلّا عن طريق هذه الوسائل وغيرها من الوسائل الحديثة التي يسر الله صناعتها.

[٢٣] يخبر جل وعلا أنه أرسل نبيه نوحًا عليه السلام إلىٰ قومه لدعوتهم إلىٰ التوحيد، فقال لهم: ياقوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، واعلموا أنه ليس لكم إله حق سواه، فأخلصوا العبادة له ألا تخشون عقاب الله وعذابه. وقد بذل نوح عليه السلام جهده دهرًا طويلًا في دعوة قومه إلىٰ التوحيد ونبذ الأصنام التي صوروها بصور الصالحين؛ ثم أصبحوا يعبدونها.

[٢٤] ولكن أشراف وسادات قوم نوح كذبوا نوحًا، وأخذوا يحذرون الناس قائلين لأتباعهم اعلموا أن نوحًا مثلكم ومن جنسكم وليس فيه ميزة تميزه عنكم، ثم اتهموه أنه لا يريد من دعوته هذه إلا أن تكون له الرئاسة والفضل عليكم، ثم قالوا: ولو شاء الله أن يرسل إلينا رسولًا لعبادته وحده لأرسله من الملائكة، ولم نسمع بهذا الكلام الذي جاء به نوح في آبائنا وأجدادنا الأولين.

[٢٥] ثم أخبر سبحانه أن قومه اتهموه عليه السلام بأنه رجل أصابه مس من الجنون، فانتظِروا حتىٰ يشفىٰ ويفيق من هذا الجنون فيترك دعوته، أو انتظروا حتىٰ يأتي أجله ويموت وعندئذٍ تستريحون منه ومن دعوته.

[٢٦] فقال نوح عليه السلام مناجيًا ربه وطالبًا النصرة منه: يارب انصرني علىٰ قومي الكافرين، وأهلكهم، واخْزِهم؛ بسبب تكذيبهم لما جئتهم به وإنكار رسالتك وإصرارهم علىٰ الكفر والجحود والعناد والتكذيب.

[٢٧] فاستجاب الله دعاء نبيه نوح عليه السلام فأوحىٰ إليه أن يبدأ بصنع السفينة تحت رعايته وحفظه وبمساعدة وإرشاد الوحي؛ ثم أخبره فقال: فإذا جاء أمر الله بإهلاك قومك الظالمين بالغرق وبدأ الطوفان ورأيت الماء ينبع بقوة من التنور الذي يُخبز فيه كعلامة علىٰ مجيء العذاب؛ فَأَدْخِلْ في السفينة من كل نوع من الأحياء زوجين ذكرًا وأنثىٰ ليبقىٰ النسل وتستمر الحياة، وأدخل في السفينة أيضًا أهلك الذين آمنوا معك، أما من كفر كزوجتك وابنك فلا تدخلهم السفينة لأنهم ممن استحق عليهم العذاب بسبب كفرهم، ولا تسأل يانوح ربك الشفاعة في قومك الذين ظلموا أن يرفع أو يخفف عنهم العذاب فقد مضىٰ أمر الله بإغراقهم ولا مبدل لحكمه جل وعلا. وهذه الآية فيها إثبات صفة العين المبصرة لله بما يليق بجلاله؛ بلا تشبيه ولا تكييف.

فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾

[٢٨] ثم أرشد سبحانه وتعالىٰ نبيه نوحًا عليه السلام إذا ركب السفينة واستقر عليها هو ومن معه ممن أذن الله لهم بالركوب معه؛ أن يقول: الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين الجاحدين، الذين عبدوا غير الله، واستحبوا الكفر والضلال علىٰ الهدىٰ والرشاد.

[٢٩] وقل يانوح داعيًا ربك خاشعًا متضرعًا: اللهم يسّر لنا في هذا المركب منزلًا آمنًا ومباركًا، ونزولًا لا مشقة فيه، إنك سبحانك خير المنزلين.

[٣٠] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن في قصة نوح آياتٍ وعلامات وعبراً واضحاتٍ علىٰ وحدانية الله، وَصِدْقِ رسله، ومعيته للمؤمنين، ونكاله للكافرين، ثم أخبر عز وجل أن من سنته ابتلاء العباد واختبارهم بإرسال الرسل إليهم؛ ليعلم المؤمن الطائع من الكافر العاصي علم ظهور ولئلا يكون للناس علىٰ الله حجة.

[٣١] وبعد أن أهلك جل علا قوم نوح الذين كذبوا وعاندوا أنشأ بعدهم قومًا آخرين، وهم قوم عاد ونبيهم هو هود عليه السلام، كما ذكر تعالىٰ قول هود عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[الأعراف:٦٩].

[٣٢] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل فيهم رسولًا منهم، نشأ بينهم، ويعرفونه معرفةً تامّةً، فقال لهم: اعبدوا الله ووحده، ولا تشركوا به أحدًا، أفلا تجعلوا أيها الناس بينكم وبين عذاب الله وقايةً بتوحيده، واجتناب الشرك!

[٣٣] فقال الأشراف من قومه الذين جحدوا وكفروا بالله، وباليوم الآخر، وأطغاهم الترف والجاه؛ قالوا علىٰ سبيل التكذيب والمعاندة: اعلموا أن هذا ليس بنبي، فانظروا إليه يأكل مما تأكلون منه، ويشرب مما تشرون منه، فليس له مزيّة عليكم.

[٣٤] ثم قالوا لقومهم صادّين لهم عن الحق: لئن أطعتم بشرًا مثلكم فيما جاءكم به فسوف تخسرون وتندمون علىٰ ذلك.

[٣٥] ثم قالوا لهم: هل تطيعون وتتبعون من يزعم أنكم إذا متّم وصرتم عظامًا وترابًا؛ أنكم ستُخرجون بعد ذلك، وتدبُّ فيكم الحياة مرة أخرىٰ!!

[٣٦] وقالوا لهم أيضًا: اعلموا أيها القوم أن ما يعدكم به هذا الرجل من أنكم ستخرجون من قبوركم أحياءً فإنه بعيد جدًّا ومستحيل وقوعه. وقوله: ﴿هَيْهَاتَ﴾، اسم فعل ماضي بمعنىٰ: بعيدًا بعيدًا، أي: أن قوله هذا بعيد ومستحيل وقوعه.

[٣٧] ثم قالوا لقومهم منكرين للبعث: ما نرىٰ في حياتنا إلّا أناسًا يموتون، وأناسًا يعيشون ثم يموتون، وهكذا، وما نحن بمخرجين من قبورنا للحياة مرة أخرىٰ.

[٣٨] ثم قالوا لقومهم: واعلموا أن ما يزعمه هذا الرجل من أنه نبي فقد افترىٰ علىٰ الله كذبًا، وما نحن له بمصدقين فيما يقول من التوحيد، والبعث، والجزاء والحساب.

[٣٩] فقال نبيهم هود مناجيًا ربه وطالبًا النصرة منه: يارب انصرني علىٰ قومي الكافرين، وأهلكهم، واخْزِهم؛ بسبب تكذيبهم إيّاي، وإصرارهم علىٰ الكفر والعناد والتكذيب، وصدّهم الناس عن توحيدك والإيمان بك.

[٤٠] فأجاب الله دعوة نوح عليه السلام، وأخبره بأنهم عن قريب سيهلكون، ويندمون علىٰ تكذيبك، وعدم الإيمان بك.

[٤١] ثم وقع أمر الله، وجاءهم العذاب، فأرسل الله عليهم الصيحة والريح؛ فأَفْنَتْهُم عن بكرة أبيهم، وأبادتهم، فصاروا كغثاء السيل المُهْمَل الطافي علىٰ سطحه، فبُعْدًا وطرْدًا من رحمة الله، وهلاكًا مُحَقَّقًا لَهؤلاء الظالمين المشركين المجاوزين حدَّهم، ومن سلك سبيلهم واتَّبع طريقتهم في تكذيب الأنبياء، والصدّ عن دين الله.

[٤٢] وبعد أن أهلك جل علا هؤلاء المكذبين المعاندين أنشأ بعدهم أقوامًا آخرين.

مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا
تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ
وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا
وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ
﴿٤٨﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلۡنَا
ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ
﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا
تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ
فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم
بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ
﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾

[٤٣] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل لكل أمة من تلك الأمم وقتًا محدَّدًا، وأجلًا مسمًّىٰ، لا يتقدمون عليه، ولا يتأخرون عنه.

[٤٤] ثم أرسل جل وعلا رسله بعضهم يتلو بعضًا، يدعون أممهم وأقوامهم إلىٰ التوحيد، ونبذ الشرك، فما كان من تلك الأمم إلّا التتابع في التكذيب، فكان جزاؤهم أن أتْبع الله بعضهم بعضًا بالهلاك والدمار، وجعلهم عبرة للمعتبرين، وقصصًا يتعظ منها من جاء بعدهم، فبُعدًا وهلاكًا لقومٍ لم يصدِّقوا رُسُلهم، ولم يؤمنوا بما جاؤوا به من عند الله.

[٤٥-٤٦] ثم أخبر جل وعلا بأنه أرسل موسىٰ وهارون عليهما السلام بآياته البينات الواضحات الدالة علىٰ وحدانية الله تعالىٰ، والتي من قوتها تُثبت الحجة علىٰ المعاندين. وأخبر أنه أرسلها إلىٰ فرعون ورؤساء قومه؛ فاستكبروا عليهما، واستكبروا علىٰ التوحيد والآيات، إنهم كانوا قاهرين متطاولين علىٰ الناس بغْيًا وظُلْمًا.

[٤٧-٤٨] ثم قال فرعون وقومه علىٰ وجه الاستعلاء والبطر: كيف نؤمن لبشرين مثلنا – لا مزية لهما علينا –؛ بل قومهما – بنو إسرائيل – خاضعون مطيعون لنا، وتحت حُكْمنا وإِمْرَتِنَا. وهكذا فرعون وقومه كذبوا موسىٰ وهارون ولم يؤمنوا بما جاءا به من التوحيد والإيمان، فكانت عاقبتهم أن أهلكهم الله بالغرق.

[٤٩] وبعد أن أهلك الله فرعون وقومه الظالمين؛ أنزل الله التوراةَ علىٰ موسىٰ، هدايةً لِمَن اتبعه من بني إسرائيل، ففيها الهدىٰ والنور؛ لعلهم إذا أخذوا بما فيها يهتدون ويَرْشُدون.

[٥٠] ثم أخبر سبحانه أنه امتنَّ علىٰ عيسىٰ بن مريم وأمه عليهما السلام، وجعلهما آية وعلامة واضحة علىٰ وحدانيته، وقدرته في الخلق؛ حيث خلق عيسىٰ من غير أب، وتكلم في المهد، وغير ذلك، وجعل الله لهما مكانًا مرتفعًا يأويان إليه، ويستقران وقت الحمل والولادة فيه، وفيه ماء جارٍ عذب سائغ للشاربين.

[٥١] ختم جل وعلا الحديث عن الأنبياء الذين سبق ذكرهم؛ حيث أمر كل نبي عند إرساله بالأكل من الحلال والقيام بالأعمال الصالحة، ثم بين سبحانه لهم بأنه لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم فيجازيهم بما يستحقون. وفي هذه الآية دليل علىٰ أن الأكل الحلال يعين العبد علىٰ العمل الصالح، وأنه سبب لاستجابة الدعاء.

[٥٢] واعلموا أيها الناس أن دين الله وشرعته للرسل جميعًا واحد، وهي شريعة الإسلام، وهو توحيد الله بالعبادة، والإيمان: بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، أما في الفروع فلكل مجتمع تشريعاتٌ تناسبه، ثم قال جل في علاه: واعلموا أني ربكم فيجب عليكم امتثال ما آمركم به واجتناب ما أنهاكم عنه.

[٥٣] ثم أخبر جل وعلا عن الأتباع بأنهم تفرقوا في أمر دينهم فصاروا فرقًا وأحزابًا وشيعًا، كل فرقة فرحة ومعجبة بما آلت إليه؛ وترىٰ أن الحق معها وأنها هي الفرقة الناجية.

وفي هذه الآية دليل علىٰ التحذير من التحزب والتفرق في الدين.

[٥٤] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يترك هؤلاء المجرمين في ضلالتهم وجهلهم ولا يقلقه أمرهم ولا ينشغل بهم حتىٰ يأتي أمر الله للفصل فيما تقتضيه حكمته. وهذا تهديد ووعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة.

وقد نهىٰ ﷺ عن الحسرة علىٰ الكفار أو حتىٰ الدعاء عليهم، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر:٨]، وشبَّه تجادلهم وتناقضهم وجهلهم بالذين يخوضون في الماء؛ فالذي يخوض الماء فإن الماء يغطيه ولا يدري علىٰ ماذا تقع رجله، وهكذا الجاهل يغطيه جهله فلا يميز بن الحق والباطل.

[٥٥-٥٦] ثم أنكر جل وعلا عليهم حسبان النعم من الأموال والأولاد التي أنعم بها عليهم بأنها دلالة علىٰ أنه راض عنهم؛ بل ليعلموا أنه سبحانه عجل لهم هذه النعم استدراجًا واختبارًا لهم، ولكنهم لا يحسُّون بذلك.

[٥٧-٥٨-٥٩] يخبر جل وعلا أن المؤمنين الصادقين أصحاب القلوب الوجلة خائفون وحذرون من عقاب الله وعذابه. وأنهم بآيات الله التي تُتلىٰ عليهم مؤمنون بها وبما فيها من حجج وبراهين تدلُّ علىٰ وحدانيته؛ يوقنون ويصدّقون بها تصديقًا جازمًا. وأنهم يُخلِصون عبادتهم لله وحده، فلا يُشركون معه أحدًا في عبادته، لا ملكًا مُقرَّبًا ولا نبيًّا مرسَلًا.

وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

[٦٠] ثم بين سبحانه أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين أنهم يؤدون ما أُمروا به من عبادات، ويتقربون إلىٰ الله بما استطاعوا من قُربات، ومع ذلك قلوبهم مضطربة خائفة من رجوعهم إلىٰ الله ووقوفهم بين يديه للجزاء والحساب ألّا يُقبل منهم بسبب تقصيرهم.

[٦١] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين هذه صفاتهم السابقة: يتسابقون ويجتهدون ويتنافسون في عمل الخيرات، وما يقربهم إلىٰ الله، وهم قد بلغوا الذروة، ووصلوا الغاية، فأخبر الله عنهم أنهم سابقون فائزون.

[٦٢] وبعد أن ذكر جل وعلا صفات المؤمنين الصادقين أخبر بأنه لا يكلف نفسًا إلا بحسب طاقتها وقدرتها، ثم أخبر بأن لديه كتابًا أُحْصِيَتْ فيه أعمال وأقوال العباد صغيرها وكبيرها، وأن كل ما سُطِّر فيه حق وصدق، وأنه لن يظلم جل في علاه أحدًا من خلقه؛ وسيأخذ كل واحد ما يستحقه؛ بل إنه يعفو جل شأنه عن كثير من الهفوات والزلات.

[٦٣] يخبر سبحانه أن قلوب الكفار الغافلين عن آيات الله، وعن أعمال المؤمنين وتنافسهم في التقرب إلىٰ الله؛ في غفلة وبُعْدٍ، قد غشيت قلوبهم وغَطَّتْها ظلماتُ الشرك والجهل والغَيِّ؛ فاستحقوا بذلك غضب الله وعقابه، ولهم أعمالٌ أخرىٰ رديئةٌ غير هذه الأعمال لم يعملوها بعد، يُبقيهمُ الله ليعملوها؛ فتتم بذلك خيبتهم، ويحق عليهم عذاب الله وعقابه.

[٦٤] ثم بين جل وعلا حال الكفار عندما ينزل بهم العذاب، فقال سبحانه: حتىٰ إذا أخذ المترفين والمنعَّمين منهم بالعذاب الشديد؛ فإذا هم يصرخون ويُوَلْوِلُون مستغيثين من شدة ما أصابهم من ألم ووجع.

[٦٥] فيُقال لهم – إهانةً وتبْكيتًا –: لا تصرخوا مستغيثين اليوم، فهذا الصراخ لن ينفعكم، وليس لكم ناصرٌ ينصركم من دون الله، وليس لكم من يمنع عنكم عذاب الله وعقابه.

[٦٦] ثم ذكر جل وعلا هؤلاء الكفار أنه كانت تتلىٰ عليهم آيات القرآن وما فيها من حجج وبراهين علىٰ وحدانية الله، فكانوا يرجعون إلىٰ الوراء مستأخرين عن سماع آيات القرآن سماع تدبر واستجابة.

[٦٧] وبين سبحانه أنهم كانوا يستكبرون علىٰ الناس كونهم من أهل الحرم، وكانوا يذكرون ذلك بينهم في أسمارهم حين اجتماعهم، ويتحدّثون بالقول السيِّيء، ومن ذلك هذيانهم وطعنهم في القرآن.

[٦٨] ثم بكت جل وعلا أهل مكة ولامهم فقال لهم: لماذا لم تكلفوا أنفسكم قراءة هذا القرآن والتمعن فيه فتعرفوا صدقه؟، أم منعكم من الإيمان به أن رسولكم محمدًا ﷺ جاءكم بشيء لم يأت الرسل السابقون بمثله لآبائكم؟.

[٦٩] ثم قال سبحانه: أم منعكم من الإيمان به أن رسولكم غير معروف عندكم؟؛ بل إنكم تعرفون حسبه ونسبه وصدقه وأمانته واستقامته ولكنكم تنكرون وتجحدون.

[٧٠] ثم قال جل شأنه: أم أن سبب إصراركم علىٰ الكفر والعناد أيها الكفار هو اتهامكم للرسول بالجنون؟ بل إنه ﷺ جاءكم بالحق والصدق، وجاءكم بالقرآن والتوحيد والدين الحق، ولكن أكثر الناس يكرهون الحق لأنه يمنعهم من شهواتهم وأهوائهم.

[٧١] ثم قال جل وعلا مُبَكِّتًا ومسفهًا الكفرة المعاندين للدعوة: ولو أجاب الله هؤلاء الكفار وجعل شرعه يوافق أهواءهم وشهواتهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن؛ بل جاءهم سبحانه بهذا القرآن الذي فيه شرفهم وعزهم، ولكنهم أعرضوا عنه جهلًا وغباءً؛ بل غطرسة وكبرياءً، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾، أي: شرف وعز لكم وسوف تُسألون عن تبليغه والقيام به.

[٧٢] ثم سأل سبحانه نبيه ﷺ فقال له: هل سألتهم يانبي الله وطلبت منهم أجْرًا ومالًا مقابل دعوتك إياهم؟! فبخلوا ولم يستجيبوا لك لأجل ذلك؟! وحاشاك أن تفعل ذلك، فأنت تعلم أن عطاء ربك وثوابه خيرٌ لك في الدنيا والآخرة، والله خير الرازقين.

[٧٣] ثم أخبر سبحانه أن النبي ﷺ دعا هؤلاء الكفار إلىٰ طريقٍ سوِيٍّ واضح لا اعوجاج فيه، وهو توحيد الله جل في علاه، ولكن بسبب شقائهم وغبائهم تركوا الإسلام وتمسكوا بعبادة الأصنام.

[٧٤] ثم أخبر جل وعلا أن الذين لا يصدّقون بالآخرة وما فيها؛ قد ضلوا ضلالًا مبينًا، وانحرفوا ومالوا عن الطريق الحق الموصل إلىٰ الله.

[٧٥] ثم أخبر جل وعلا أنه لو رحم هؤلاء المشركين ورفع عنهم السوء الذي نزل بهم من القحط والفقر لتمادوا في كفرهم وضلالهم، وتجاوزوا في طغيانهم وتحيرهم وترددهم.

وكلامه جل وعلا هذا ينطبق علىٰ المكابرين المعاندين الكارهين للحق الذين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال:٣٢]، ومثل هؤلاء يتحسرون ويندمون حين لا ينفع الندم ولا تقبل التوبة.

[٧٦] وأخبر سبحانه أنه امتحن هؤلاء المشركين وأذاقهم بعض الشدَّة بأن جوعهم، وأصابهم بالقحط؛ ليرجعوا ويستسلموا ويخضعوا لله، ويؤمنوا به، ويصدّقوا رسوله ﷺ، فما نفع ذلك معهم، وما خضعوا ولا استكانوا ولا تضرَّعوا ولم يلجؤوا إلىٰ الله لرفع ما بهم.

[٧٧] فلمّا كانت هذه حالهم؛ فتحنا عليهم بابًا شديدًا من العذاب فلم يتحمّلوه ولم يطيقوه؛ بل أيِسوا من كلِّ خيرٍ ونجاةٍ، وتحيروا فلم يعرفوا ماذا يفعلون.

[٧٨] واعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي أنعم عليكم بأن خلق لكم السمع لتنتفعوا به، والبصر لتبصروا به، والأفئدة لتفقهوا وتُدرِكوا بها، أفلا تشكرونه علىٰ هذه النعم فتؤمنون به، وتتبعون رسوله؟!!

[٧٩] وأخبر سبحانه أنه هو الذي خلقكم، وبثَّكم ونَشَرَكُم في الأرض، ويسّر لكم المعيشة عليها، ثم إليه تُحشرون وتُجمَعُون بعد موتكم، فيُجازي كلًّا بعمله.

[٨٠] ثم أخبر جل شأنه أنه وحده الذي يتصرف في الإحياء والإماتة، وهو وحده سبحانه الذي يتحكم في تعاقب الليل والنهار، وتناوبهما، وفْقَ نظامٍ دقيقٍ يدل علىٰ وحدانيته وعظمته وقدرته، أفلا يكون هذا مدعاةً لكم للتفكر في وحدانيته وعظمته، وقدرته علىٰ إيجادكم وبعثكم مرة أخرىٰ بعد موتكم؟!

[٨١] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المشركين لم تنفعهم هذه الموعظة، ولم ينفعهم هذا التذكير؛ بل رددَ هؤلاء المكذبون بالبعث مقولة أسلافهم: أن هذه كوارث طبيعية.

[٨٢] ثم أخبر جل في علاه أن هؤلاء المكذبين بالبعث قالوا علىٰ سبيل الإنكار: أإذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا - لا روح فيها ولا حياة -: أإنا لمبعوثون ومُخْرَجُون وقائمون من قبورنا مرةً أُخرىٰ؟!

[٨٣] ثم قال هؤلاء المكذبون: لقد قيل لنا هذا الأمر من قبل، وقيل لآبائنا، فما رأيناه تحقق، وما هذا البعث إلّا من حكايات الأولين الباطلة التي ما تُحكىٰ إلّا للتسلية والتلهِّي.

۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٥ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٨٠ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٨١ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨٣ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ٨٩

[٨٤-٨٥] فقل لهم يانبي الله: لِمَن مُلْك هذه الأرض وما فيها من المخلوقات؟! من الذي خلقها، ودبّر أمورها؟! إن كنتم تعلمون؟! فلا بد أن يجيبوا أنها لله، فقل لهم حينها: أفلا يذكركم هذا بقدرته علىٰ بعثكم بعد موتكم فتؤمنون به، وتفردونه بالتوحيد والعبادة؟

[٨٦-٨٧] ثم قل لهم يانبي الله: من خالق ومالك السماوات السبع وما فيها من الكواكب والنجوم والقمر والملائكة؟ وقل لهم: من خالق ومالك العرش العظيم؟! فسيجيبون حتمًا: بأن الله رب ذلك كلّه، فقل لهم: أفلا تجعلون بينكم وبين الله عناية ووقاية بتوحيده والإيمان به، وترك الشرك به، وترك إنكار البعث وتكذيب الرسل!!

[٨٨-٨٩] وقل لهم يانبي الله: مَنْ الذي له مُلْك كل شيء؟! ومن الذي يغيث ويحمي، ويُنقِذ من يستغيث به - ولا يستطيع أحد أن يحمي من أراد الله إهلاكه -، مَنْ الذي له وحده كل ذلك؟ إن كنتم تعلمون؟! فسيجيبون مقرّين: كل ذلك لله وحده، فقل لهم حينها: فكيف ذهلت عقولكم، فتركتم الإيمان والهدىٰ، واتخذتم شركاء من دون الله فصرفتم لهم العبادة؟ ولم تصدّقوا ما أخبركم الله به من أمر البعث والنشور؟!! فصرتم كالمسحورين.

بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

[٩٠] يقول جل في علاه: بل جئنا هؤلاء المكذبين بالحق الذي لا مرية فيه ولا شكّ، فلم يتَّبِعوه، ولم يؤمنوا به؛ بل قابلوه بالكذب والإعراض.

[٩١] ينفي الله جل في علاه ما وصفه به المشركون زورًا وبهتانًا، فهو سبحانه لم يتخذ لنفسه ولدًا، ولم يكن معه إله آخر يشاركه في ألوهيته وربوبيته، ولو كان الأمر كما يزعم هؤلاء المُبطلون بوجود أكثر من إله؛ لحصل بينهم الخلاف والافتراق والاحتراب، ولانفرد كلُّ إله بما خلق وأنشأ، ولاستكبر بعضهم علىٰ بعض، ولغَلَبَ القويُّ الضعيفَ، فعجبًا من باطلهم، وتنزيهًا لله عمّا يصف هؤلاء المبطلون، وعن زعمهم وما يفترون.

[٩٢] والله وحده يعلم ما غاب علمه عن المخلوقات، ويعلم ما نشاهده ونراه، فتعالىٰ سبحانه وتقدس وارتفع عمّا يزعم هؤلاء المشركون.

[٩٣-٩٤] وقل يانبي الله: يارب إن أريتني ما وعدتهم به من الهلاك والعذاب؛ فلا تجعلني هالكًا معهم، واعصمني ونجني برحمتك من مآل ومصير هؤلاء الظالمين.

[٩٥] واعلم يانبي الله أنا قادرون علىٰ أن نريك ما وعدناهم به من العذاب والهلاك، وأن ذلك لا يعجزنا.

[٩٦] ادفع يانبي الله الإساءة بالإحسان، فهذا من مكارم الأخلاق، ونحن علىٰ علم تامٍّ بهم وبتكذيبهم، وبوصفهم إيّاك بما لا يليق، وعلىٰ علم بتكذيبهم وشركهم، ومرجعهم إلينا، وحسابهم علينا.

[٩٧-٩٨] وقل يارسول الله: يارب إني أحتمي وألتجئ وأستجير بك من وسوسة الشياطين، ومن همزهم ووسوستهم، وأحتمي وألتجئ وأستجير بك من حضورهم لأموري، وتلبيسهم عليَّ فيها، والدفع بالتي هي أحسن أمر عام يدخل في كل شيء إلا في ساحة الحرب.

[٩٩] يخبر جل وعلا عن حال الكفار أو العصاة المفرِّطين الظالمين: حتىٰ إذا حانت وفاة أحدهم وجاءه ملك الموت، وعاين شدّته؛ قال نادمًا: يارب أرجعني إلىٰ الدنيا، وأعطني فرصة أخرىٰ.

[١٠٠] ثم بين سبحانه أن طلب هذا الكافر الرجوع إلىٰ الدنيا لعله يعمل بالتوحيد ويقوم بالواجبات ويستدرك ما قصر في حياته؛ فهم يتمنون الرجعة للدنيا ليقوموا بالواجبات الشرعية، ثم قال جل في علاه ردًّا علىٰ هذا الطلب: كلا، فإن طلبكم أيها الكفار الرجوع إلىٰ الدنيا مرفوض، ولن نستجيب لكم، لأنه جاء بعد فوات الأوان، كما أنكم غير صادقين في قولكم هذا، لأنكم لو رجعتم إلىٰ الدنيا لعدتم إلىٰ ما نهيتم عنه من الشهوات والمعاصي، واعلموا أن أمامكم حاجزًا يحجز بينكم وبين الرجوع إلىٰ الدنيا، وهذا الحاجز سيبقىٰ مستمرًّا إلىٰ يوم البعث والنشور؛ فيجازىٰ كلٌّ بعمله؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وهذه الآية تفيد أن التوبة لا تُقبل أبدًا حال الغرغرة وحال قبض الروح؛ لأن وقتها انتهىٰ بانتهاء عمل الإنسان في الدنيا، وأن ساعة الاحتضار جعلت صحف أعماله تطوىٰ، ولم يمتثل أوامر الله ونواهيه وقت صحته.

[١٠١] واعلموا أيها الناس: حين يُنفَخ في الصور نفخة البعث؛ فحينها يذهل الناس، وينسون أنسابهم، فلا يفخر أحد علىٰ أحد، وكلُّ امرئ يكون منشغلًا بنفسه؛ فلا يسأل أحدٌ غيره عن شيء.

[١٠٢] ثم أخبر سبحانه أن من ثقلت كفّة حسناته في الميزان علىٰ كفّة سيئاته ورجحت بها؛ فأولئك هم الفائزون بالجنّة، المفلحون فلاحًا عظيمًا، لا خسارة بعده أبدًا.

[١٠٣] ثم أخبر عز وجل أن مَنْ ثقلت كفّة سيئاته في الميزان علىٰ كفة حسناته، فأولئك الذين ضيعوا أنفسهم، وخسروا خسارة عظيمةً لا خسارة بعدها، وإن كان من المشركين كان من أصحاب النار الماكثين فيها أبدًا.

[١٠٤] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن هذه النار التي سيدخلها المشركون سوف تحرق وجوههم فتغير ملامحها، وكذلك ستكون وجوههم عابسة، وشفاههم متقلصة من شدة ما هم فيه من العذاب.

[١٠٥] ثم يقال لهم علىٰ سبيل التقريع والتبكيت: ألم تكن آياتي الدالة علىٰ وحدانيتي تتلىٰ عليكم لتؤمنوا بها، وتستجيبوا لها، فكنتم تُعرضون عنها وتكذبون بها ظلمًا وعنادًا واستكبارًا؟!

[١٠٦] فيُجيبون بإقرارٍ وذلٍّ قائلين: غلبت علينا لذَّاتنا وشهواتنا، فضللنا الطريق، وضلَّتْ أعمالنا.

[١٠٧] ثم يقولون علىٰ سبيل طلب الخلاص والنجاة: ربنا أخرجنا من هذه النار وأعدنا إلىٰ الدنيا لنؤمن ونعمل الصالحات، فإن عدنا إلىٰ ما كنّا عليه من الشرك والضلال فإنا بذلك ظالمون مستحقون العذاب في النار.

[١٠٨] فقال الله لهم قولًا أصابهم بالهوان والذل والخسار واليأس؛ حيث قال لهم: اخسؤوا في هذه النار، وامكثوا فيها صاغرين أذلاء، ولا تكلموني، ولا تخاطبوني، وهذا أشدّ عليهم من عذاب النار ذاتها. نسأل الله السلامة والعافية.

[١٠٩] ثم بين سبحانه أن أحد أسباب دخول هؤلاء المجرمين النار، استهزاؤهم وسخريتهم بعباد الله المؤمنين؛ لأنهم آمنوا بالله واتبعوا رسوله ﷺ، وكانوا يدعون الله في تضرّع ومسكنة قائلين: ربنا آمنا بك وصدّقنا رسولك، فنتوسل إليك أن تغفر لنا ذنوبنا، وتستر لنا عيوبنا، وترحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء.

[١١٠] ثم بين جل شأنه أن هؤلاء المجرمين تمادوا في السخرية والاستهزاء بعباد الله المؤمنين ومن دعائهم حتىٰ كان هذا الاستهزاء والاحتقار هو شغلهم الشاغل، فنسوا بذلك ذكر الله والإيمان به وتوحيده؛ بل إنهم كانوا إذا رأوهم في بعض الأماكن والطرقات أو الأسواق أخذوا يتضاحكون ويتغامزون من عباداتهم أو أشكالهم، وقد بقي هؤلاء المجرمون علىٰ هذه الحال التي أوصلتهم إلىٰ النار.

[١١١] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الذين كنتم تستهزؤون بهم من عبادي المؤمنين، كانوا قد صبروا علىٰ استهزائكم وسخريتكم واحتقاركم، فجزيتهم بذلك: أن رضيت عليهم، وأدخلتهم جناتي، ففازوا بذلك فوزًا عظيمًا.

[١١٢] ثم سأل جل وعلا هؤلاء الكفار سؤال تبكيت وإهانة فقال لهم: كم كانت مدة إقامتكم في الدنيا؟، ولا شك أن الله يعلم كم هذه المدة، ولكن ليزيد في حسرتهم وتوبيخهم.

[١١٣] فقال هؤلاء المجرمون: لقد أقمنا ياربنا في الدنيا يومًا أو بعض يوم، فاسأل أهل المعرفة بالعد والحساب الذين يعدون الأيام والشهور، قالوا ذلك من شدة ما يرون من العذاب.

[١١٤] فرد جل وعلا عليهم قائلًا: اعلموا أيها الكفار أنكم ما أقمتم في الدنيا إلا مدة قليلة، لو أنكم كنتم تعلمون ذلك، فلو صبرتم فيها علىٰ الطاعات لكنتم من الفائزين بالجنات.

[١١٥] ثم قال سبحانه لهم: هل كنت تظنون أيها الكفار أن الله جل وعلا خلقكم مهملين، لا أمر ولا نهي ولا ثواب ولا عقاب؟،

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

سُورَةُ النُّورِ

وأنكم لن تُرجعوا إلىٰ الله يوم القيامة فيحاسبكم علىٰ أقوالكم أفعالكم؟.

[١١٦] ثم عظم جل في علاه نفسه ونزهها عن العبث وعن كل ما لا يليق بجلاله وكماله؛ فهو الملك المتصرف في شؤون خلقه، وهو الحق في صدقه ووعده ووعيده، لا إله ولا رب معبود بحق إلا هو، رب العرش الذي هو أعظم المخلوقات وهو سقف جميع المخلوقات، الكريم في منظره والجميل في شكله.

[١١٧] حذّر جل وعلا من الشرك وعظَّم جرم مرتكبه، وذكر حسابه العسير وعقابه الأليم لمن وقع فيه، وأخبر أن من يعبد مع الله إلهًا آخر فإنه لا حجة له ولا دليل علىٰ هذه العبادة، وليعلم أن من يفعل ذلك العمل الشنيع فسوف يلقىٰ ربه ويحاسبه حسابًا شديدًا؛ لأن عدالته سبحانه اقتضت أنه لا فلاح ولا نجاة للكافرين المجرمين لا في الدنيا ولا في الآخرة.

[١١٨] ثم ختم جل وعلا السورة آمرًا نبيه ﷺ بكثرة الاستغفار وطلب الرحمة، فقال له: قل يانبي الله: يارب تجاوز عن ذنوب المؤمنين من عبادك، وارحم عصاتهم؛ فأنت خير من يرحم وخير من يغفر، ومن رحمتك أنك تقبل توبة التائبين.

وفي هذا حث لجميع الناس بكثرة الاستغفار والتوبة وطلب الرحمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

سورة النّور

سورة النور مدنيّة وآياتها أربع وستّون آية. وهي سورة عظيمة لاشتمالها علىٰ جملة من الأحكام التي ربما تقع في أكثر الأزمان ويقال: إن عمر بن الخطاب كتب إلىٰ عامله وأهل الكوفة: أن علِّموا نساءكم سورة النور، والسورة تعني: الأمر الذي يحيط بالموضوع.

[١] يخبر جل وعلا أنه أنزل هذه السورة العظيمة علىٰ نبينا محمد ﷺ، وأنه فرضها وأوجب علىٰ العباد تنفيذ ما فيها من أحكام، وذلك دليل علىٰ أهمية هذه الأحكام، ثم أخبر أنه أوحىٰ فيها آيات واضحات الدلالة اشتملت علىٰ جميع مصالح العباد، لعلكم تتذكرون أيها المؤمنون هذه الآيات وتعملون بما فيها من أحكام ومواعظ.

والتنكير في قوله: ﴿سُورَةٌ﴾، دليل علىٰ فخامة هذه السورة وأهميتها.

[٢] بين سبحانه في هذه الآية أحكام جريمة الزنا الشنيعة والتي تستقبحها النفوس الكريمة؛ وبين أنَّ حد الزاني والزانية أنْ يجلد كل واحد منهما مائة جلدة، وأن لا تأخذكم فيهما رحمة في دين الله عند إقامة الحد عليهما، إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر إيمانًا حقيقيًّا، وليشهد إقامة الحد عليهما عدد من المؤمنين ليكون ذلك عبرة وعظة وزجرًا.

والعقوبة المذكورة هي علىٰ الزانية والزاني البكرين، أي: الغير متزوجين، وقد ثبت في السنة النبوية مع الجلد التغريب لمدة عام، أما الزانية والزاني المتزوجين فإن حدهما الرجم حتىٰ الموت، كما ثبت ذلك في السنة النبوية.

وقدم جل وعلا الزانية لأنها غالبًا هي المسبب لجريمة الزنا لما يظهر منها من إغراءات.

[٣] ثم بين جل وعلا أن الزاني هو الذي يستسيغ الزواج بالزانية أو المشركة التي لا تؤمن بحرمة الزنا، وأن الزانية كذلك تستسيغ الزواج بالزاني أو المشرك الذي لا يؤمن بحرمة الزنا، كما قال الشاعر:

والخارِبُ الرِّجسُ يُحِبُّ الخارِبا

ومعلوم أن النكاح في القرآن هو عقد الزواج وليس الجماع، ولذا لا يجوز عقد النكاح علىٰ الزانية حتىٰ تستبرئ بحيضة، ثم بين سبحانه أن هذا الفعل القبيح محرم علىٰ جميع المؤمنين والمؤمنات.

[٤-٥] واعلموا أيها الناس أن الذين يتهمون بالفاحشة امرأة أو رجلًا عفيفًا، ولم يأتوا بأربعة شهود عدول يشهدون بإثبات هذه التهمة؛ فعليكم أن تجلدوهم ثمانين جلدة عقابًا لهم، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا، ولا شك أن أولئك من الخارجين عن طاعة الله لقبح فعلهم. لكن من تاب توبة صادقة، وندم علىٰ فعله السيِّىء، ورجع عن اتهامه وعمل الأعمال الصالحة؛ فإن الله يغفر ذنبه ويرحمه ويقبل توبته. أما الشهادة فإنها تقبل عند الجمهور إذا تاب، أما أبو حنيفة فلا تقبل عنده الشهادة ولو تاب.

[٦-٧] ثم ذكر جل وعلا أن الذين يتهمون زوجاتهم بفاحشة الزنا ثم لم يكن معهم من يشهد بإثبات هذه التهمة إلا أنفسهم؛ فعلىٰ الواحد منهم أن يشهد أربع شهادات بالله العظيم أنه صادق في هذه التهمة. وعليه أن يزيد شهادة خامسة بأن يقول: لعنة الله عليَّ إن كنت من الكاذبين، أي: أنه يدعو علىٰ نفسه بالطرد والإبعاد من رحمة الله.

[٨-٩] وبهذه الشهادة يجب أن يقام علىٰ الزوجة عقوبة الزنا، ولها الحق أن تدفع عن نفسها هذه التهمة وهذه العقوبة إذا شهدت أربع شهادات بالله أنه كاذب في اتهامه لها بالزنا. ثم عليها أن تزيد شهادة خامسة فتقول: إن غضب الله علي إن كان زوجي من الصادقين في اتهامه لي، أي: أنها تدعو علىٰ نفسها بسخط الله عليها.

ولا شك أن الغضب أخف من اللعن.

والغالب أن المرأة بعد الملاعنة قل أن يرغب فيها أحد، لذلك لم يجمع الله لها بين العقوبتين، وهما: الطرد والإبعاد عن رحمة الله ونبذ المجتمع لها.

[١٠] ثم ختم جل وعلا هذه الآيات ببيان جانب من فضله علىٰ خلقه، فقال سبحانه: ولو لا فضله عليكم بهذا التشريع وهذه الأحكام للأزواج والزوجات لعاجل الكاذب من المتلاعنين بالعقوبة، ولكنه ستر علىٰ الزوجين رحمة وتفضلًا منه، وحضًّا لهما علىٰ التوبة والرجوع إليه، واعلموا أن الله كثير التوبة لعباده التائبين، وأنه حكيم في شرعه وتدبيره.

وفي هذا دليل أن ما جاء من الغضب واللعن في هذه الآيات أنه يزول بعد ترك الذنب والرجوع إلىٰ طلب رضوان الله بالأعمال الصالحة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

٣٥١

[١١] واعلموا أيها الناس أن أولئك الذين جاءوا بأشنع كذبة عرفها التاريخ – وهو اتهام أُمِّنَا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بفاحشة الزنا – هم جماعة ينسبون إليكم ظاهرًا، ولا تظنوا أن قولهم هذا شرٌّ لكم؛ بل هو خير لكم، ومن الخير العظيم في هذه الحادثة:

١ – أن الله شرَّع عقوبة رمي المؤمنات.

٢ – أنها كانت سببًا في فضح من كان يستر نفاقه.

٣– أن الله كرَّم أم المؤمنين عائشة ورفع قدرها وذكر براءتها في قرآن يتلىٰ إلىٰ يوم القيامة.

٤ – أثبتت هذه القصة أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب؛ حيث جلس شهرًا مهمومًا حتىٰ نزل الوحي من الله.

٥ – أن فيها تسلية للنبي ﷺ والصحابة عمَّا أصابهم من الهم والغم بسبب هذه الفرية العظيمة، ثم بين سبحانه أن كل فرد خاض في هذا الإفك وهذه الجريمة سوف ينال العقوبة التي يستحقها إلا الذين جلدوا الحد وتابوا، أما ذلك الذي اختلق هذه الفرية وهذه الكذبة وحمل كبرها وهو رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول فله عند الله عذاب عظيم في الآخرة، وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

[١٢] ثم قال سبحانه: هلَّا ظن المؤمنون والمؤمنات –الذين سمعوا هذا الخبر أو تناقلوه– بإخوانهم وأخواتهم خيرًا، فكما تظن بنفسك وأهلك أيها المؤمن الخير والصلاح والاستقامة؛ كان الواجب عليك أن تظن ذلك بأطهر البيوت وأزكاها وهو بيت المصطفىٰ ﷺ، وكان الواجب أيضًا فور سماعكم هذا الخبر الشنيع أن تقولوا: إن هذا كذب واضح وبين علىٰ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

[١٣] وقال جل شأنه: هلّا جاء هؤلاء القاذفون بأربعة شهداء عدولٍ مرضيين علىٰ ذلك؟! فإذ لم يجيئوا بهؤلاء الشهود؛ فأولئك في حكم الله هم الكاذبون، وحينئذ يقام عليهم حد القذف.

[١٤] ثم قال عز وجل: ولولا أن الله تفضل عليكم وشملكم بعفوه ورحمته في الدنيا، بأن فتح لكم باب التوبة، وفي الآخرة بمغفرة ذنوبكم وستر عيوبكم؛ لأصابكم بسبب ما خضتم فيه من شأن الإفك العذاب العظيم.

[١٥] وقال سبحانه: إذ يتلقف هذا الحديث بعضُكم من بعضٍ، وتتناقلونه من غير تحقُّقٍ ولا بيِّنة، وتتكلمون فيه بجهل عن حقيقته، وتظنون أن هذا شيء يسير هيِّنٌ لا يلحقكم به إثم، وهو في الحقيقة عند الله: أمرٌ عظيمٌ كبيرٌ؛ إذ فيه مسٌّ لعرض النبي ﷺ، ولعرض الصديق والصديقة رضي الله عنهما.

[١٦] وقال جل في علاه: كان الأليق بكم والأجدر بمقامكم أنكم إذا سمعتم مثل هذا القول أن تنكروه، وأن تقولوا: لا يحق لنا أن نتكلم بهذا الكذب والافتراء، سبحانك ياالله تنزيهًا لك، هذا القول كذب بشعٌ شنيع.

[١٧] وبعد أن وقعتم فيما وقعتم به من الإفك العظيم فإن الله سبحانه وتعالىٰ ينصحكم وينهاكم ويحذركم أن تعودوا لمثل هذا القول وهذا الاتهام أبدًا ما حييتم، فإياكم إياكم أن تقعوا فيه مرة أخرىٰ؛ إن كنتم مؤمنين إيمانًا صادقًا.

[١٨] ثم أخبر جل وعلا أنه يبين لكم الآيات التي فيها نجاتكم، والتي فيها الهدىٰ والنور، والوعظ والإرشاد، ويوضحها لكم، والله عليم بأفعالكم وامتثالكم، حكيم فيما يشرعه لكم، ويفرضه عليكم.

[١٩] واعلموا أيها الناس أن الذين يحبّون أن تنتشر وتشتهر الفاحشة من الزنا والقذف به، وغيره من الفواحش في المؤمنين، ويفرحون بذلك؛ لهم عذابٌ أليم موجعٌ في الدنيا: بإقامة الحدِّ عليهم، وبغيره من الابتلاءات، وفي الآخرة – إن لم يتوبوا –: بدخول النار، والله يعلم ما يُصلحكم ومجتمعاتِكم من الأحكام والشرائع، وأنتم لا تعلمون.

[٢٠] واعلموا أيضًا أنه لولا إحاطة فضل الله بكم، وأن رحمته شملتكم ووسعتكم لعاجلكم بالعقوبة علىٰ ما اقترفتموه، ولكنَّ الله من رأفته ورحمته بكم لم يعاجلكم العقوبة؛ بل أمهَلَكُم ووعظكم وعفا عنكم لمّا تبتم.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

[٢١] يحذِّر جل وعلا عباده المؤمنين، وينهاهم عن اتباع طُرُق الشيطان، والمشي خلف وساوسه وتزيينه، فإن من اتبع الشيطان وسلك سبيله؛ فسيأمره الشيطان بقبيح الأفعال والأقوال وشنيعها ومُنْكَرِها، ولولا أن فضل الله يشملكم، ورحمتُه تحيطُ بكم؛ ما تطهَّر أحد منكم من اتِّباع خطوات الشيطان، ومن دنس ذنوبه أبدًا، ولكنَّ الله يطهِّر من يشاء من عباده تفضلًا عليهم، ورحمةً بهم، والله سميعٌ لِمَن دعاه، وطلب منه أن يزكّيه، عليمٌ بنيات العباد وأفعالهم.

[٢٢] نهىٰ جل وعلا صاحب الفضل في الدين والسعة في المال أن يحلف بمنع فضله وإحسانه علىٰ أولي القربي والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ممن تصدر منهم إساءات نتيجة الجهل والتقليد؛ وأمرهم أن يتجاوزوا عن أخطائهم ويصفحوا عنهم ولا يعاقبوهم، وعليهم أن يواصلوا إحسانهم ومعروفهم لأنهم إنما يبذلون ذلك لوجه الله وطلب مرضاته وغفرانه؛ ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم ذنوبكم ومعاصيكم؛ فإنه سبحانه كثير المغفرة لمن تاب وأناب إليه من عباده، وواسع الرحمة بهم.

وهذه الآية نزلت في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، والأمر وإن كان خاصًّا به إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولذا فهي تعم كل صاحب فضل وإحسان بأن لا يقطع نفقته عن قريبه الذي أساء إليه ثم تاب وطلب منه العفو والمسامحة.

[٢٣] يخبر جل وعلا أن الذين يرمون المؤمنات العفيفات البعيدات عن الفجور، اللاتي لا يخطر ببالهن ذلك أصلًا؛ مطرودون ومُبْعَدون من رحمة الله، ولهم عذابٌ عظيمٌ في الدنيا بإقامة الحدِّ عليهم، وفي الآخرة - إن لم يتوبوا - بعذاب النار المؤلِم الموجِع.

[٢٤] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المطرودين والمبعدين من رحمة الله تشهد عليهم ألسنتهم يوم القيامة بما تكلمت به، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما عملوا في الدنيا؛ إذْ يُنطقها الله جل في علاه في ذلك اليوم العظيم.

[٢٥] ثم أخبر جل في علاه أن هؤلاء الذين يرمون المحصنات بفاحشة الزنا سوف يجازيهم يوم القيامة جزاءهم الحق الذي استحقوه - بما قدَّمت أيديهم -، ويعلمون حينها علم اليقين: أن الله هو الحقُّ المبين.

[٢٦] ثم يخبر جل وعلا أن الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، فكل خبيث وخبيثة متوافقان ومتشاكلان ويناسب بعضهما بعضًا، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، فكل طيب وطيِّبةٍ متوافقان ومتشاكلان، ويناسب بعضهما بعضًا، ثم بين سبحانه أن الطيبين والطيبات - وفي مقدمتهم وعلىٰ رأسهم رسول الله ﷺ، وعائشة رضي الله عنها - مُبَرَّؤون ومُنَزَّهون مما يرميهم به الخبيثون والخبيثات من الأقوال أو الأفعال، وأن لهم مغفرةً من الله، ومحوًا لذنوبهم، وسِتْرًا لعيوبهم، ولهم من الله رزق كريم في الجنة.

[٢٧] نهىٰ جل وعلا عباده المؤمنين عن اقتحام بيت غيرهم، وفرض الاستئذان والسلام لتحصل المؤانسة، فقال: ياأيها الذين آمنوا بالله وصدقوا الرسول ﷺ لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتىٰ تستأذنوا أهلها بالدخول فتقولوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أأدخل؟ واعلموا أن ذلك الاستئذان خير لكم، لعلكم تتذكرون هذا الإرشاد كي تعملوا به، وتكونوا دائمًا متذكرين له.

الجُزءُ الثَّامِنَ عَشَر — سُورَةُ النُّور

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

٣٥٣

[٢٨] ثم قال سبحانه وتعالىٰ: فإذا لم تجدوا من يأذن لكم فلا تدخلوها حتىٰ تجدوا من يملك الإذن لكم بدخولها، فإن استأذنتم فلم يُؤذَن لكم، أو قيل لكم: ارجِعوا، فعليكم أن ترجعوا مباشرة، ولا تغضبوا من ذلك، فإن امتثالكم للرجوع من غير سخطٍ أطهر وأنقىٰ لقلوبكم، والله بما تعملون عليم، لا يخفىٰ عليه شيء من نياتكم وضمائركم وأعمالكم.

[٢٩] ثم بين جل شأنه أن البيوت التي ليست مملوكةً لأحدٍ غيركم، أو البيوت المعدَّة لابن السبيل ولكم حاجةٌ في دخولها؛ فهذه ليس عليكم حرج وإثم أن تدخلوها من غير أن يُؤذَن لكم، والله يعلم ما تُظهِرون وما تُخفون من النيات والأقوال والأعمال.

[٣٠] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم عن النساء اللَّاتي لا تحل لهم، وأن يحفظوا فروجهم من فعل الفاحشة، وليعلموا أن غض البصر وحفظ الفرج أطهر لنفوسهم، واعلموا أن الله خبير بما تصنعون أيها الناس، لا يخفىٰ عليه شيء من تصرفاتكم.

[٣١] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يأمر المؤمنات بغض أبصارهن عمَّا لا يحل لهن من العورات؛ لأن النظرة سهم من سهام إبليس، وربما تكون عواقبها سيئة، ولأن الناس يكرهون أن يطَّلع الناس علىٰ عوراتهم وأن يتجسسوا عليهم، وعليهن أن يحفظن فروجهن من الفاحشة وكل ما حرم الله.

قال بعض العلماء: قدم الله غض البصر في هذه الآية والتي قبلها؛ لأن النظر بريد الزنا، وفي الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند والحاكم وابن حبان: «**اضمنوا لي ستًّا أضمن لكم الجنة: ذكر منها: غضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم**»[1].

ثم أمر سبحانه النساء أن لا يبدين زينتهن لأي أحد من الرجال، وعليهن أن يجتهدن في إخفائها، إلا الثياب التي لا يمكن التحرز منها واعتاد الناس علىٰ لبسها وإظهارها، وليس فيها ما يدعو إلىٰ الفتنة ونحوها، وعليهن أن يلقين بالأغطية علىٰ رؤوسهن مغطيات صدورهن ليكمل سترهن، ولا يُظْهِرْنَ الزينة الخفية إلا لأزواجهن؛ حيث يجوز للزوج رؤية جميع جسد زوجته.

وقد استثنىٰ جل وعلا بعض أصناف الرجال أن يروا بعض الزينة الخفية؛ كالوجه، والعنق، واليدين، والساعدين ونحو ذلك، وهؤلاء الأصناف هم: آباؤهن، وآباء أزواجهن، وأبناؤهن، وأبناء أزواجهن الذين من غيرهن، وإخوانهن، وبنو إخوانهن، وبنو أخواتهن.

وهؤلاء السبعة كلهم من المحارم، ويلحق بهم الأعمام والأخوال والمحارم من الرضاع، والأصول وإن علوا، والفروع وإن سفلوا.

ثم استثنىٰ جل وعلا أصنافًا أخرىٰ من الناس لهم أن يروا بعض الزينة الخفية، وهم: النساء المسلمات المختصات بهن، وما ملكت أيمانهن من الإماء لا من العبيد البالغين. وكذلك ممن استثنىٰ الله التابعون غير أولي الإربة من الرجال الذين لا غرض لهم ولا حاجة في النساء ولا تحدثهم أنفسهم بفاحشة كالبله والمجانين ونحوهم، وكذلك الأطفال الذين ليس لهم علم بأمور عورات النساء ولم يصلوا إلىٰ المرحلة التي يشتهون فيها النساء، ثم أمرهن جل وعلا أن لا يضربن بأرجلهن الأرض عند المشي لكي لا يعلم الأجانب من الرجال ما تخفيه المرأة من الزينة كالخلاخل ونحوها، بقصد النظر إليهن والميل نحوهن ومحادثتهن ونحو ذلك.

فهؤلاء اثنا عشر صنفًا من الناس ليس علىٰ المرأة حرج في أن تظهر بعض الزينة الخفية أمامهم، لانتفاء الفتنة التي من أجلها شرع الله الستر والغطاء.

ثم ختم جل وعلا الآية بأمر المؤمنين بطلب التوبة الصادقة النصوح؛ لأن الإنسان مهما حافظ علىٰ نفسه فإنه لا يسلم من الغفلات أو اللمحات، فعليكم أيها المؤمنون الرجوع إلىٰ الله ربكم، وطاعته فيما أمركم به من الطاعات، والابتعاد عمّا نهاكم عنه من الذنوب والمعاصي، لكي تفوزوا بخيري الدنيا والآخرة.

ومن أجل هذه التعليمات العظيمة قال القرطبي وغيره من علماء التفسير: إن هذه السورة حافلة بتعليم الآداب والعفاف والستر؛ فهي نهت عن الزنا، ثم نهت عن كل ما يفضي إليه، بأن وضعت في طريقه السدود والحواجز الوقائية؛ كتحريم الاختلاط والخلوة والنظر وحفظ الفروج وعدم التبرج، ثم حثت علىٰ كثرة التوبة مما يقع فيه الإنسان من خطأ وخلل ونحوه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٧٥٧)، وابن حبان (٢٧١)، والبيهقي في سننه الكبرىٰ (١٢٦٩١).

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

[٣٢] حث جل وعلا السادة وملاك الأرقاء والرجال القادرين علىٰ تزويج كل أيم بلغ رشده من أبنائهم وبناتهم، والصالحين من عبيدهم وجواريهم؛ لأن الزواج هو الطريق الوحيد المشروع لقضاء الشهوة، ثم طمأن الخائفين من الحاجة والفقر بأن الله سيغنيهم من فضله، فإنه سبحانه غني حميد، واسع الغنىٰ حميد الفعال، لا تنفد خزائنه ولا ينتهي ما عنده من خير، عليم بأحوال عباده لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٣٣] أما الذين لا مادة لهم وليس لهم من يسندهم ويساعدهم علىٰ الزواج فقد أمرهم جل وعلا بالاستعفاف، وأن ينتظروا الفرج والغنىٰ منه سبحانه، وأمر المُلَّاك إذا طلب منهم مواليهم أو إماؤهم المكاتبة لتحرير أنفسهم أن يتعاونوا معهم ويساعدوهم في ذلك إذا علموا فيهم صلاحًا وقدرة علىٰ التكسب، وعليهم أن يعطوهم شيئًا من المال أو أن يحطوا عنهم شيئًا مما كوتبوا فيه، ثم نهىٰ جل وعلا عن رذيلة وفاحشة كانت منتشرة في المجتمع الجاهلي لتطهيره منها، فأخبر أنه لا يجوز إكراه الجواري اللاتي يُرِدْنَ الطهر والعفاف علىٰ الزنا من أجل الحصول علىٰ المال، ومن يكرههن علىٰ الزنا فإن الله من بعد إكراههن غفور لهن ورحيم بهن، أما الذين أكرهوهن علىٰ الزنا فإنهم آثمون وسيجازيهم الله علىٰ فعلهم بما يستحقون من العقاب.

وقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ ...﴾، نزلت في رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول؛ حيث كان عنده فتيات إماء مملوكات له يكلفهن ويكرههن بجمع المال له من البغاء.

[٣٤] يقسم جل وعلا أنه أنزل للناس في هذا القرآن علىٰ وجه العموم، وفي هذه السورة علىٰ وجه الخصوص آيات بينات وموضحات لما يحتاجه البشر من الحدود والأحكام والآداب، وأنزل فيه أمثلة مما حل في الأمم من قبلهم لتكون عبرة وعظة لهم، وجعل سبحانه هذه الآيات موعظة للمتقين الذين يتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وخصص جل وعلا المتقين بالانتفاع، لأنهم هم الذين تهمهم السلامة من الآثام، ويطلبون رضا الله والفوز بالجنة.

[٣٥] يخبر جل وعلا أنه منور السماوات والأرض وهادي أهلها إلىٰ الإيمان والقرآن، مثل نوره الذي يهدي إليه كمشكاة، وهي فتحة في الحائط غير نافذه، وفي هذه الفتحة مصباح؛ وهذا المصباح في زجاجة، وهذه الزجاجة كأنها كوكب مضيء كالدرِّ من شدة صفائه وتوهجه، وهذا المصباح يستمد نوره من زيت شجرة الزيتون المباركة، وهذه الشجرة متوسطة في مكان من الأرض تسطع عليها الشمس عند شروقها وعند غروبها وما بين ذلك، يكاد زيتها من صفائه أن يضيء من نفسه دون أن تمسه النار، فصار نورًا علىٰ نور، نورًا من صفاء الزيت، ونورًا من إشعالها بالنار، ثم بين جل وعلا أنه يهدي لنوره العظيم من يشاء هدايته من عباده، بأن يوفقهم لفهم كتابه والاستنارة بنوره، هداية خاصة توصلهم إلىٰ النور العظيم الشأن الآتي من الله، ويضرب الله الأمثال للناس لكي يقرب لهم الأمور وييسرها لهم، ويعرفوا الحكمة من أمثاله، والله بكل شيء عليم لا يخفىٰ عليه شيء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، النور نوعان:

١- نور حسّي مخلوق، وهو نور صادر من الكواكب ونحوها، وهذا النور مستمد من الله؛ لأنه هو الذي ينوِّر الكون.

٢- ونور معنوي: وهو نور الإيمان بالله ونور شرعه وكتابه.

[٣٦] ثم بين جل وعلا أن النور المضيء الذي يهدي الله إليه من يشاء من عباده، هم أولئك الرجال الذين هداهم الله لنوره، والذين يتعبدونه سبحانه في تلك المساجد التي أمر ببنائها وتعظيم شأنها وقدرها، ويذكرون فيها اسمه بتلاوة كتابه، ويسبحون ويهللون فيها بكل أنواع الذكر، ويصلون فيها لله صباحًا ومساءً، ويرفع فيها صوت النداء للصلاة.

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾

[٣٧] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الذين يذكرون الله ويسبحونه في بيوت الله هم رجال من صفاتهم: أنهم لا تلهيهم، أي: لا تشغلهم التجارة ولا البيع عن ذكر الله وعن تسبيحه وتحميده وتهليله، ولا ينشغلون عن إقامة الصلاة في أوقاتها المحددة، ولا عن إيتاء الزكاة لمستحقيها، مهما كانت أهمية هذه الأنشطة ومهما كانت حاجتهم لها؛ فهم يتاجرون ولكن ذلك لا يمنعهم عن العبادة والذكر والتسبيح، ومع هذا كله فهم يخافون يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب من شدة فزعه وعظيم هوله، وتتقلب فيه الأبصار تنظر إلىٰ مصيرها المكتوب لها.

[٣٨] ثم أخبر جل وعلا أنه سيجزي المؤمنين الذين يذكرون الله كثيرًا ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وغيرها من العبادات أحسن الجزاء علىٰ أعمالهم الصالحة، ويزيدهم من فضله وإحسانه بمضاعفة أجورهم، والله يرزق من يشاء من عباده بغير حساب.

ولا شك أن هؤلاء هم الرجال بحق لأنهم غلّبوا طلب رضا الله علىٰ حظ أنفسهم فجمعوا بين الحسنيين؛ فاستحقوا فضل الله ورضوانه؛ والجزاء الكبير علىٰ أعمالهم.

[٣٩] والذين كفروا بالله، ولم يصدّقوا رسله، فإن أعمال الخير التي عملوها – من صلة رحم وسقاية حاجٍّ ونحوها –، وظنوا أنها ستنفعهم؛ محقها الله وأفناها وجعلها كمثل السرابٍ يظنه ويتوهمه العطشان شديد العطش إذا رآه من بعيد ماءً، فيحثُّ السير إليه، حتىٰ إذا اقترب منه وأبصره لم يجده شيئًا، فَتَكْبر حسرته، ويخيب أمله، فكذلك أعماله يظن أنها ستنفعه؛ فإذا جاء يوم القيامة لم يجدها إلّا هباءً منثورًا بسبب تركه للتوحيد، ثم وجد الله تعالىٰ – الذي لم يحسب له حسابًا – له بالمرصاد؛ يحاسبه ويجازيه علىٰ أعماله أتم الجزاء وأوفاه، والله سريع الحساب.

[٤٠] يخبر جل وعلا عن أعمال الكفار أنها مثل ظلمات في بحر عميق يعلوه موج، ومن فوق الموج موج آخر أشد منه، ومن فوق هذا الموج سحاب كثيف متراكم، وهذه كلها ظلمات شديدة بعضها فوق بعض؛ فإذا أراد أن يخرج يده فإنه لا يكاد أن يراها من شدة الظلمات، وهكذا الكفار تراكمت عليهم ظلمات الشرك والكفر والضلال والذنوب والمعاصي وفساد الأعمال؛ فلذلك بقوا في الظلمة متحيرين، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طريق الغي والضلال سائرين، وهذا كله لأن الله خذلهم بسبب عنادهم وإصراهم علىٰ الكفر والضلال فلم يعطهم الله من نوره، ولا شك أن من لم يجعل الله له نورًا من كتابه وسنة نبيه ﷺ يهتدي بها إلىٰ الصراط المستقيم، فما له من نور يهديه إلىٰ الحق والخير والعمل الصالح؛ فاللهم اجعل لنا نورًا يوصلنا إلىٰ رضوانك يارب العالمين.

[٤١] ثم قال سبحانه وتعالىٰ: ألم تعلم يانبي الله أن الله يسبح له جميع من في السماوات وجميع من في الأرض، وما بينهما؟؛ بل حتىٰ الجمادات تسبح له جل في علاه؟، والطير أيضًا تسبح له سبحانه حال كونها صافَّات أجنحتها في السماء؟ كلٌّ ألهمه سبحانه الصلاة والتسبيح حسب تكوينه، إما أن يكون ذلك بفطرته التي فُطر عليها، أو يكون بإلهام أو وحي منه جل وعلا، لا يخفىٰ عليه سبحانه شيء من ذلك، والله عليم بكل أفعال عباده وأقوالهم، مطَّلع علىٰ ما يفعله كل عابد ومسبح، وسيجازي كلًّا بما يستحقه من الثواب والعقاب.

[٤٢] ثم بين سبحانه أن له وحده لا لغيره مُلْك وتدبير السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وإليه سبحانه المآل والمرجع يوم القيامة.

[٤٣] ثم قال جل في علاه: ألم تنظر أيها الإنسان وترىٰ بعينيك أن الله جل وعلا يسوق السحاب ويدفعه إلىٰ حيث يشاء بقدرته، ثم يجمعه بعد تفرقه، ثم يجعله متراكمًا؛ ليؤلف كتلة السحاب الماطرة؛ فترىٰ كيف ينزل منها المطر؟ حسب حكمته التي اقتضتها مشيئته، وينزل من السحاب الذي يشبه الجبال في عظمته بَرَدًا، فيصيب به من يشاء من عباده، ويصرفه عمن يشاء بحسب حكمته وتقديره، يكاد ضوء ذلك البرق في السحاب من شدته وقوة لمعانه أن يذهب بأبصار الناظرين إليه.

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٥٣﴾

[٤٤] يخبر جل وعلا أن من دلائل قدرته العظيمة أنه يقلب الليل والنهار، فإذا جاء الليل ذهب النهار، وإذا جاء النهار ذهب الليل، وإذا نقص أحدهما زاد في الآخر، وهكذا، كل ذلك يتم بحساب دقيق بعلمه سبحانه وتعالىٰ، ثم أخبر سبحانه أن في ذلك عبرة يعتبر بها أولو الأبصار التي تبصر قدرة الله وتعتبر بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان:٦٢]، أي: أن من حكمة الله في خلق الليل والنهار هو الاعتبار والاتعاظ أن الله لم يخلقهما عبثًا، وكذلك شكر الله علىٰ هذه النعمة وغيرها من النعم التي لا تعد ولا تحصىٰ.

[٤٥] يخبر جل وعلا أنه خلق كل ما يدب علىٰ الأرض من ماء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]؛ ثم ذكر قدرته علىٰ تنويع الخلائق، فمن خلقه من يمشي علىٰ بطنه كالحيات ونحوها، ومنهم من يمشي علىٰ رجلين كالإنسان والطير، ومنهم من يمشي علىٰ أربع كالبهائم ونحوها، وهو سبحانه يخلق ما يشاء، إنه علىٰ كل شيء قدير، وقدرته جل وعلا لا حدود لها لا يعجزه شيء؛ فسبحانه الخلاق المبدع.

[٤٦] ثم أخبر سبحانه أنه أنزل في القرآن آيات بيناتٍ واضحات الدلالة علىٰ توحيده، وكل ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، والله يهدي ويوفق للحق والصواب والرشاد من يشاء برحمته وفضله مِمَّن أناب ورغب في الهداية إلىٰ الطريق الحق الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإيمان والتوحيد الذي يوصل صاحبه إلىٰ جنات النعيم.

[٤٧] ثم أخبر سبحانه أن المنافقين يقولون بألسنتهم فقط: لقد صدَّقنا بالله وبما جاء به الرسول ﷺ وأطعنا أمرهما، ثم تُعرض مجموعة كبيرة منهم بعد ذلك فلا تقبل حكم الرسول ﷺ، فاعلموا أيها الناس أن أولئك ليسوا بمؤمنين، لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وسبب نزول هذه الآية أن سيد المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول كان بينه وبين يهودي خلاف فدعاه اليهودي إلىٰ المحاكمة عند رسول الله ﷺ والمنافق طلب أن يحكم بينهما كعب بن الأشرف.

والآية عامة لأن لهما نظائر وأشباه؛ فهناك أناس ضعيفو الإيمان إذا صار أحدهم محقًّا وعلم أن الحق بجانبه طلب المحاكمة عند الرسول ﷺ، وإذا كان مبطلًا رغب في حكم غيره. والآية نصَّت علىٰ أن مثل هؤلاء ليسوا بالمؤمنين، كما نص علىٰ ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء:٦٥]، وفي زمننا هذا فإن البلاد التي فيها محاكم عُرفية ومحاكم شرعية، فإن المبطل يطلب التحاكم في المحاكم العرفية.

[٤٨-٤٩] ثم أخبر جل شأنه أنه إذا حصلت بين المنافقين وبين أحد خصومةٌ ثم طُلبوا إلىٰ حكم الله ورسوله ليفصل بينهم؛ إذا فريقٌ منهم يعرضون ويرفضون التحاكم لله ورسوله ﷺ، ويبتغون حكم الجاهلين. أما إذا كان الحق في صالحهم إذا تحاكموا إلىٰ الشرع؛ فإنهم يأتون طائعين منقادين مسرعين؛ لأنه يثبت الحق لصالحهم.

[٥٠] ثم سأل سبحانه عمَّن كانت هذه حالتهم، وتلك صفتهم: هل في قلوبهم مرض الكفر والنفاق؟!، أم شكُّوا في حكم النبي ﷺ وعدله؟! أم يخافون ويخشون أن يحكم الله ورسوله عليهم حكمًا ظالمًا؟!! فأجاب سبحانه بقوله: بل أولئك هم الظالمون المجاوزون حدَّهم.

[٥١] ثم يقول جل في علاه: إنما كان قول المؤمنين بالله حقًّا، والمنقادين لشريعته صدقًا: إذا دعوا إلىٰ الله ورسوله ليحكم بينهم، أن يقولوا مباشرةً: سمعًا وطاعةً، وحبًّا وكرامةً، ولا يخالف ذلك أهواءهم، ومن كانت هذه صفتهم؛ فأولئك هم المفلحون، الذين يفوزون بالمطلوب، وينجوْن من المكروه؛ سواء حكم لهم أو لغيرهم.

[٥٢] واعلموا أيها الناس أن من يطع الله ورسوله، أمْرًا ونهْيًا، وينْقَادَ لهما، ويخاف من الله سرًّا وعلنًا، ويترك ما نهىٰ الله عنه؛ فأولئك -وحدهم- هم الفائزون الآمنون من عذاب الله، المُنعَّمون برحمة الله في جنات النعيم.

[٥٣] ثم أخبر جل وعلا أن المنافقين أقسموا بالله الأيْمان المغلَّظة لئن أمرهم النبي ﷺ بالخروج للجهاد ليخْرُجنَّ معه، وليستجيبُنَّ له، فقل لهم يانبي الله: لا تقسموا بالله الأيْمان الكاذبة، فإنَّا قد عرفنا طاعتكم، وقد نبَّأنا الله من أخباركم، فإن كنتم حقًّا مؤمنين فأطيعوا الله وامتثلوا أوامره، واعلموا أن الله خبير بأعمالكم، مطَّلعٌ علىٰ سرائركم ونياتكم.

قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

[٥٤] وقل يانبي الله للناس: أطيعوا الله وأطيعوا رسوله ﷺ، وامتثلوا أمرهما، فإن توليتم وأعرضتم عن طاعة الرسول ﷺ فإنا لمْ نكلِّفْه إلّا الرسالة والبلاغ، وقد أدّاها وقام بحقِّها، وعليكم أنتم ما كُلفتموه من الانقياد والطاعة والامتثال، واعلموا أنكم إن أطعتم الرسول ﷺ وامتثلتم أمره؛ اهتديتم – لا محالة – إلىٰ الصراط المستقيم، واعلموا أنه ليس علىٰ الرسول إلّا البلاغ البيِّن الواضح، وقد فعل ﷺ.

[٥٥] ثم بشّر جل وعلا المؤمنين بالنصر والتمكين بشرط أن يؤمنوا بالله ويصدِّقوا الرسول ﷺ ويعملوا الصالحات؛ فمن اتصف بهذه الصفات فسوف تكون لهم العاقبة، بأن يورثهم أرض المشركين، ويجعلهم خلفاء فيها، كما ورثها الذين من قبلهم الذين آمنوا بالله ورسله، وأن يمكن لهم نشر دين الإسلام فيكون دينًا عزيزًا مكينًا ثابتًا في القلوب راسخًا في النفوس، وأن يبدل حالهم من الخوف إلىٰ الأمن والاطمئنان وراحة البال، كل هذا يتحقق إذا عبدوا الله وحده عبادة خالصة تامة، وأن لا يشركوا مع الله شيئًا، أما من كفر بعد الاستخلاف والأمن والتمكين، وجحد نعم الله عليه، واستعمل نعم الله في غير طاعته، فأولئك هم الكافرون الخارجون عن طاعة الله.

[٥٦] يأمر جل وعلا عبادة المؤمنين بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولا شك أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هما أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهما جامعان لحقه بالإخلاص له بأداء الصلاة بشروطها وأركانها وحضور القلب، وجامعان لحق عبيده بأداء الزكاة علىٰ عباده المستحقين لها، ثم أمرهم بطاعة الرسول ﷺ في سائر ما أمرهم به طاعة تامة رجاء أن يرحمهم الله.

[٥٧] ثم يسلي جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: لا تنزعج يانبي الله من تمتع الذين كفروا وتقلبهم في البلاد، ولا تظنن أنهم معجزون الله وناجون من عقابه إذا أراد أن يعذبهم، كلّا؛ بل الله قادر علىٰ إهلاكهم، وسوف يجعل مستقرهم النار يوم القيامة، ولبئس هذا المآل والمرجع.

[٥٨] يا أيها الذين أمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ عليكم أن تمنعوا عبيدكم وإماءكم والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم من الدخول عليكم من غير استئذان في هذه الأوقات الثلاث، التي هي مَظِنَّةُ خلع المرء لثيابه أو لبس ثياب غير ساترة، وهذه الأوقات هي: من قبل صلاة الفجر، لأنه وقت الخروج من ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة، وحين تضعون ثيابكم عند الظهيرة، لأنه وقت خلع الثياب للقيلولة، ومن بعد صلاة العشاء، لأنه وقت النوم.

وهذا الحكم خاص بمن ذكر في هذه الآية، أما البالغون من الرجال والنساء فاستئذانهم واجب في كل الأوقات، واعلموا أن هذه الأوقات الثلاث هي عورات لكم، وأما ما عداها من الأوقات فليس عليكم ولا عليهم حرج أن يدخلوا بدون استئذان، لحاجة دخولهم عليكم، ولأنهم يعيشون بينكم ويطوفون عليكم لخدمتكم، وبمثل هذا البيان لأحكام الاستئذان يبيِّن جل وعلا لكم الآيات والأحكام التي تكون سببًا في سعادتكم ونجاتكم، والله عليم بما يصلح عباده، حكيم في تدبيره أمورهم.

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا
اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ
اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ
ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ
لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا
عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ
أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم
مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن
تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا
عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

[٥٩] يوجه جل وعلا الآباء والمربين إلىٰ مسألة مهمة تخص الأطفال إذا كبروا وبلغوا سن الاحتلام فعليهم أن يستأذنوا عند الدخول عليكم في سائر الأوقات، كما يستأذن الكبار، كذلك يبين الله لكم آياته ويوضح لكم أحكامه، والله عليم بكل شيء، عليمٌ بما يُصلحكم، ويُصلح أحوالكم، حكيمٌ فيما يشرّعه لكم ويفرضه عليكم.

[٦٠] ثم ذكر جل وعلا مسألة أخرىٰ تتعلق بالقواعد من النساء وهن العجائز اللّاتي قعدن عن الولد أو الحيض؛ ولا يرغبن في الزواج لكبرهن، ولا رغبة للرجال فيهن؛ فقد خفف الله عنهن الحجاب؛ وأخبر أنه لا حرج عليهن أن ينزعن عنهن ثيابهن الظاهرة أمام الرجال والتي لا تفضي إلىٰ إظهار العورات أو كشف العورة التي أمر الله بسترها، ومع ذلك فقد حثّهن جل وعلا علىٰ الستر والاستعفاف فهو خير لهن وأطهر لقلوبهن من التبرج وإظهار الزينة، والله جل في علاه سميع لجميع أقوال عباده، عليم بأحوالهم ونياتهم وأعمالهم.

[٦١] بين جل وعلا في هذه الآية بعض الأحكام المهمة التي تهم الناس ويضطرون لها في حياتهم اليومية؛ فأخبر سبحانه بأنه ليس علىٰ أصحاب الأعذار كالأعمىٰ، ومن به عرج، أو المريض؛ إثم في ترك بعض الواجبات التي لا يقدرون علىٰ القيام بها، كالجهاد ونحوه.

ثم بين سبحانه أنه ليس عليكم إثم أيها المؤمنون أن تأكلوا أنتم ومن معكم من بيوتكم التي تملكونها، ولا شك أن أكل الشخص من بيته لا حرج فيه، ولكن ذكره جل وعلا ليبين أن الأكل من بيوت أقاربكم وأصدقائكم يعتبر مثل الأكل من بيوتكم.

ثم ذكر أنه لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت آبائكم، أو أمهاتكم، أو إخوانكم، أو أخواتكم، أو أعمامكم، أو عماتكم، أو أخوالكم، أو خالاتكم، أو من البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أصحابها، أو من بيوت أصدقائكم، ولا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين.

ولاحظ أنه لم يذكر في هذه الآية: (وبيوت أبنائكم)، قيل: لأنها داخلة تحت (بيوتكم)، كما جاء في الحديث: «**أنت ومَالُكَ لأبيك؛ إن أولادَكُم من أطْيَبِ كَسْبِكُم، فكُلُوا من كَسْبِ أوْلادِكُم**»[(١)].

ثم بين سبحانه إذا دخلتم بيوتًا مسكونة فسلِّموا علىٰ أهلها بتحية الإسلام المعروفة، بأن تقولوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإذا كانت هذه البيوت غير مسكونة فسلموا علىٰ أنفسكم بأن تقولوا: السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين، وهذه التحية شرعها الله، لأنها مباركة تُنَمِّي المودة والمحبة، كما أنها طيبة محبوبة للسامع، واعلموا أيها المؤمنون أنه بمثل هذا التبيين يبيِّن الله لكم آياته المحكمة وإرشاداته النافعة لتعقلوها وتعملوا بها.

---

(١) أحمد في المسند (٧٠٠١)، و أبو داود (٣٥٣٠).

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤

سُورَةُ الفُرۡقَانِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢

[٦٢] واعلموا أيها الناس أن المؤمنون الحقيقيين هم الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله ﷺ، وعملوا بشرعه، وإذا كانوا معك يانبي الله في أمرٍ يتطلب الاجتماع والحضور كالجهاد والمشورة ونحوها، لم ينصرفوا عنك ويتركوك إلّا بعد أن يستأذنوك في ذلك، وهؤلاء الذين يستأذنونك يانبي الله هم الذين يؤمنون بالله ورسوله حقًّا، فإذا استأذنوك لبعض أمورهم وحاجاتهم؛ فأْذَنْ لِمَن شئت منهم، وسلِ الله لهم غفران الذنوب وستر العيوب، إن الله كثير المغفرة لعبادهَ التائبين، رحيمٌ وسعتْ رحمته كل شيء.

[٦٣] نهىٰ جل وعلا عباده المؤمنين عند نداء الرسول ﷺ أن يقولوا له: يامحمد أو يامحمد بن عبدالله، كما ينادي بعضكم بعضًا، ولكن يجب عليكم أن تقولوا عند ندائه: يارسول الله أو يانبي الله، ثم أخبر سبحانه أنه عليم بالمنافقين الذين يخرجون من مجلس النبي ﷺ خفية بغير إذنه، يستتر بعضهم ببعض حتىٰ يخرجوا جميعًا، فليحذر الذين يخالفون أمر رسول الله ﷺ أن يصيبهم بلاء وكرب ويُقذف الشرك في قلوبهم، أو يصيبهم شر وعذاب أليم موجع في الآخرة.

[٦٤] واعلموا أيها الناس أن لله جميع ما في السماوات والأرض خلقًا وملكًا وعبادةً، قد أحاط سبحانه بجميع ما أنتم عليه، ويوم يرجع العباد إليه يوم القيامة فإنه يخبرهم بأعمالهم، ويجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب، والله بكل شيء عليم، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمال وأحوال عباده وغيرهم.

سورة الفرقان

سورة الفرقان مكيّة وآياتها سبع وسبعون آية.

[١] بدأ جل وعلا السورة بتقديس نفسه فقال سبحانه: تقدس وتعاظم وتكاثر خير الله جل وعلا فهو مصدر البركات ومن ذلك أنه نزَّل القرآن علىٰ عبده ورسوله محمد ﷺ، الذي فرق به بين الحق والباطل؛ فإن من أجلِّ وأعظم بركاته علىٰ عبده محمد ﷺ الذي كمَّل مراتب العبودية وأتمها؛ أنه أنزل عليه هذا الكتاب المهيمن علىٰ كل الكتب السماوية، وأنزله ليكون رسولًا للثقلين الإنس والجن، ومخوفًا لهم من عذاب الله المعد للكفار والعصاة والمجرمين، وجعله سبحانه خاتمًا للأنبياء والمرسلين.

[٢] ثم وصف جل في علاه ذاته بصفات جليلة توجب له العبادة والطاعة، فمن ذلك:

أن له ملك السماوات والأرض خاصَّة لا ينازعه فيها منازع وهو المهيمن عليهما.

ومن صفاته: أنه لم يتخذ ولدًا، فهو منزه سبحانه عن ذلك، وفي هذا رد علىٰ اليهود والنصارىٰ، ومعلوم أن الخلق من البشر يفرحون بالولد ليخلفهم في عقبهم وذرياتهم وأملاكهم وليكون امتدادًا لذكرهم، والله سبحانه وتعالىٰ حي لا يموت غني عن العالمين كامل الغنىٰ ودائمه.

ومن صفاته: أنه لم يكن له شريك يشاركه في ملكه؛ بل هو المالك وحده لكل ما في الوجود.

ومن صفاته: أنه هو الذي خلق كل شيء خلقًا متقنًا بديعًا، وأعطىٰ كل مخلوق مواهب تخصَّه وتحفظ بقاءه إلىٰ أن ينتهي أجله؛ فتبارك الله رب العالمين.

وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا
وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾
وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى
ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾
أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

[٣] يخبر جل وعلا بأن هؤلاء المشركين اتخذوا من دونه معبودات يعبدونها، وهذه المعبودات لا تقدر علىٰ خلق شيء؛ بل هي من مخلوقات الله، كما أنهم لا يقدرون علىٰ دفع الضر عن أنفسهم ولا جلب النفع لها، فكيف ينفعون أو يضرون غيرهم؟، وأيضًا هذه المعبودات لا تقدر علىٰ إماتة الأحياء أو إحياء الموتىٰ في الدنيا، ولا يقدرون علىٰ إخراج الناس من قبورهم وبعثهم يوم القيامة.

[٤] فضح جل وعلا افتراءات المشركين علىٰ النبي ﷺ، ومن ذلك قولهم: إنّ هذا القرآن كذب وبهتان اختلقه محمد وأعانه علىٰ جمعه أناس آخرون من اليهود وغيرهم، وقد ارتكبوا بقولهم هذا ظلمًا عظيمًا، وزورًا كبيرًا.

[٥] ثم قال هؤلاء الكفار معللين افتراءاتهم: اعلموا أنَّ هذا القرآن ما هو إلا مجموعة أكاذيب وخرافات كانت مسطرة في كتب الأولين، أمر محمد أن تُكتب له، وهذه الأساطير تملىٰ عليه صباحًا ومساءًا، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ**﴾[الأحقاف:١١].

[٦] وقل لهم مجيبًا يانبي الله: بل أنزله الله الذي يعلم حقيقة كل شيء، ولا يغيب عنه شيء – وإن دقَّ وخفي – في السماوات والأرض، إنه سبحانه كثير المغفرة لمن رجع وتاب، كثير الرحمة لمن استغفر وأناب.

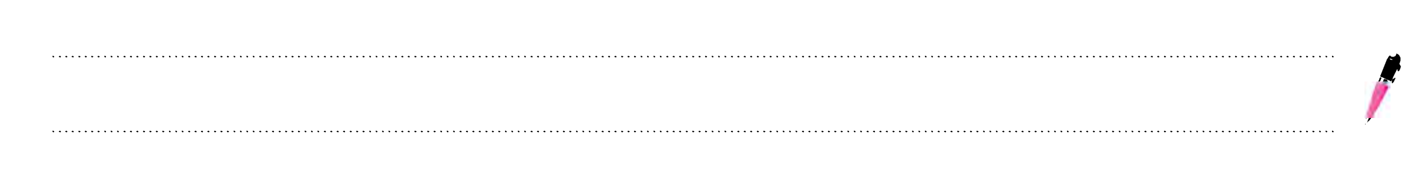
[٧] واستمر المشركون في الكيد للرسول ﷺ؛ ومن ذلك: أنهم عابوا عليه صلوات ربي وسلامه عليه أنه يأكل الطعام كما يأكل عامة الناس، وأنه يمشي في الأسواق طلبًا للرزق كما يفعلون، ويقولون: هلا أرسل الله معه ملكًا يشهد علىٰ صدقه ويساعده، وينذر كل من خالفه بسوء العاقبة.

[٨] ولم يقف المشركون عند هذا الحد بل استمروا في كيدهم وتعجيزهم، ومن ذلك أنهم قالوا علىٰ سبيل التهكم والسخرية: هلَّا هبط عليه من السماء كنز من المال، أو هلّا يكون له بستان مُميَّزٌ وحديقةٌ غنَّاء يأكل منها، ويستغني بذلك عن طلب الرزق، وقصدهم بذلك صرف العامة السذج من الناس من الاستماع للقرآن، أو الاستجابة لدعوته ﷺ، قالوا ذلك وأكثرهم يعلم أن جميع الرسل الذين قبله كانوا بشرًا، وأنه لا يصلح أن يكون الرسول المرسل للبشر إلّا من البشر؛ لأنه هو الذي يفهمونه، وهو الذي يصلح أن يكون أسوة للمهتدين، ثم قال هؤلاء المتجاوزون لحدودهم – ظلمًا وعدوانًا –: يامن صدقتم محمدًا، إنكم ما تتبعون إلّا رجلًا قد غَلَبَ السحرُ عليه، وغيَّبَ عقله.

[٩] ثم خاطب الله نبيَّه محمدًا ﷺ مُسلِّيًا له فقال: انظر يامحمد كيف ضربوا لك هذه الأمثال، وقالوا في حقك هذه الأقوال النادرة ليتوصلوا بذلك إلىٰ تكذيبك، وصدِّ الناس عن الإيمان بك، فكان هذا سببًا في ضلالهم، وبعدهم عن الحق والصواب، فلا يجدون طريقًا يرجعون منه إلىٰ الحق.

[١٠] ثم قال عز من قائل: تبارك الله الذي لا إله إلّا هو، وتعالىٰ وتقدَّس سبحانه فهو إن شاء جعل لك خيرًا مما قالوه واقترحوه، ولجعل لك حدائق عظيمةً تجري الأنهار من خلالها وتحت قصورها، ولجعل لك قصورًا عظيمةً مزخرفةً، ولكنه سبحانه وتعالىٰ ادَّخر لك هذا النعيم في الآخرة؛ فهو خيرٌ وأبقىٰ.

[١١] واعلم يا نبي الله أن المشركين ما كذبوك لأنك تأكل الطعام وتمشي بالأسواق، وإنما الذي جرأهم علىٰ هذا الكلام وهذه المواقف العدائية هو تكذيبهم بيوم القيامة والبعث والحساب، وأنهم لا يريدون أوامر وتعليمات عبادية، ولا يريدون أن ينقادوا إلّا إلىٰ رغباتهم وشهواتهم؛ ولهذا أعد الله لمن كذب بالساعة نارًا عظيمة شديدة الاشتعال تسعر بهم.



إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

[١٢] يخبر جل وعلا أن النار إذا رأت أهلَها من المشركين والظالمين والمكذّبين من قبل أن يصلوا إليها؛ فإنهم يسمعون صوت تغيظها عليهم، ويسمعون صوت غليانها، فتمتلئ نفوسهم كمدًا وحسرةً وخوفًا وذعرًا.

وهذه الآية تدل علىٰ أن الله أعطىٰ النار قدرة علىٰ معرفة المجرمين وعقابهم.

[١٣] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المجرمين يُلقىٰ بهم في نار جهنم الشديدة الحرِّ، في مكان ضيق، مقيَّدةٌ أيديهم إلىٰ أعناقهم بالسلاسل، وصدورهم ممتلئة حسرة وندامة، ثم بين سبحانه أنهم وهم في هذه الحال يدعون علىٰ أنفسهم بالويل والهلاك.

[١٤] فيقال لهم تبكيتًا وتحسيرًا: لا تدعوا اليوم علىٰ أنفسكم بالهلاك مرة واحدةً؛ بل ادعوا أدعيةً كثيرةً، فلن يفيدكم ذلك إلا همًّا وغمًّا وحسرة.

[١٥] وقل يانبي الله لهؤلاء المكذبين المعرضين: أهذا المصير الشنيع البشع خيرٌ أم مصير المتقين الذين جعل الله لهم جنات يدخلونها ويقيمون فيها إقامةً دائمةً لا تنقطع؟!

[١٦] ثم أخبر سبحانه أن لهؤلاء المتقين في تلك الجنات ما يطلبون وما يتمنون من أيِّ نعيم أرادوا، وهم ماكثون فيها لا يخرجون منها أبدًا، وقد كان دخولُهم ومكثهم في هذا النعيم وعْدًا وعده الله إياهم، ولا أحد أوفىٰ بعهده من الله! نسأل الله الكريم من فضله العظيم.

[١٧] ويوم القيامة يحشر الله المشركين ومعبوداتهم من دون الله من الأصنام وغيرها، فيقول الله جل في علاه مخاطِبًا المعبودين علىٰ وجه التقريع لعابديهم: أأنتم أمرتم هؤلاء أن يعبدوكم معي، ويتخذوكم شركاء من دوني؟ أم هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم؟!

[١٨] فيجيب المعبودون قائلين: سبحانك ربنا، فإنا نُنزِهُكَ عمّا يقول هؤلاء الضالّون، فلا يصحُّ لنا، ولا يليق بنا أن يكون لنا من دونك أولياء نتولّاهم وتصرف لهم العبادة؛ فكيف ندعو غيرنا لذلك؟! ولكنك ياربنا متَّعْت هؤلاء الضالين وآباءهم، وأسبغت عليهم النعم فغرقوا في لذّات الدنيا وشهواتها، وانشغلوا بها عن توحيدك وذكرك والإيمان بك؛ فصاروا بذلك من الهالكين الخاسرين.

[١٩] ثم يقول جلَّ في عُلاه لهؤلاء المشركين العابدين غير الله -بعد أن تبرأً من عبدوهم منهم-: هؤلاء الذين عبدتموهم، وزعمتم أنهم آلهة قد كذّبوكم فيما تقولون، فأنتم الآن قد حقَّ عليكم العذاب، فلا تستطيعون صرفه عنكم، ولا تستطيعون نصر أنفسكم، ولا يستطيع أحد أن ينصركم، ومن يظلم منكم بترك التوحيد؛ سيكون مصيره العذاب الكبير، ولن يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا.

[٢٠] يخاطب جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ مسليًّا له، ومُجيبًا إيّاه عن استهزاء المشركين به وبدعوته لأنه بشر، فيقول الله تعالىٰ: اعلم يانبي الله أنا ما أَرسلنا قبلك من المرسلين إلّا بشرًا يأكلون كما يأكل البشر، ويمشون في الأسواق، ولا يستغنون عن حاجاتهم البشرية، فلا يُحْزِنك تكذيب هؤلاء المشركين واستهزاؤهم، وقد جعلنا بعضكم لبعضٍ فتنةً وابتلاءً واختبارًا، فاختبرنا الرسل بأقوامهم، واختبرنا الأقوامَ برسلهم، واختبرنا الغني بالفقير، والفقير بالغني، وهكذا، لنرىٰ: هل تصبرون وتنقادون للحقِّ أم لا؟! وكان ربك يانبي الله بصيرًا بمن يصبر فيستحق الثواب وينجو، وبمن لا يصبر فيستحق العقاب فيهلك.

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

[٢١] أخبر سبحانه وتعالىٰ أن المكذبين بالبعث قالوا علىٰ سبيل الكبرياء والتعجيز: هلا أنزل الله علينا الملائكة فتخبرنا بصدقك يامحمد، أو هلا نرىٰ ربنا ليخبرنا أنك نبي ورسول، فرد سبحانه علىٰ قولهم فقال: لقد أعجب هؤلاء المكذبون بأنفسهم المغرورة، وتجاوزوا في طغيانهم وكفرهم كل الحدود.

[٢٢] وحيث إن هؤلاء المشركين طلبوا نزول الملائكة ورؤيتهم؛ فاستجاب سبحانه لطلبهم، وأخبر أن الملائكة ينزلون بالعذاب والعقاب للمستحقين، وأنهم سوف يرونهم عند موتهم وفي قبورهم ويوم القيامة علىٰ حال لا تبشرهم بخير؛ بل إن الملائكة سوف تخبرهم أنه لا نجاة ولا فلاح لهم أبدًا، وأن الجنة محرَّمةٌ عليهم أبد الدهر.

[٢٣] ثم أخبر سبحانه أنه عمد إلىٰ أعمال المشركين التي عملوها للفخر كالصلة والبر وإغاثة الملهوف، والتي ظنوا أنها تنفعهم، فنسفها، وجعلها لا وزْن لها كأن لم تكن؛ لأن هذه الأعمال لم يصاحبها إيمانٌ، ولا إخلاصٌ ولا متابعة.

[٢٤] ثم أخبر جل وعلا أن أهل الجنة يوم القيامة هم أفضل مستقرًّا من أهل النار، وذلك أن مأواهم ومستقرهم ومكان راحتهم واضطجاعهم: جنات النعيم.

[٢٥] ثم أخبر سبحانه عن شيء من أهوال يوم القيامة الذي تشيب فيه الولدان، وتضع كل ذات حمل حملها، وترىٰ الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ، من شدة ما يرون، ومن ذلك أن السماء تفتح فيخرج منها سحاب أبيض، ثم تنزل الملائكة فيحيطون بالخلائق، ثم يأتي جل في علاه للفصل بين العباد، إتيانًا يليق بجلاله وعظمته.

[٢٦] ثم أخبر سبحانه أن في ذلك اليوم العظيم يكون المُلْك الحق الثابت الذي لا يزول للرحمن وحده، لا يشاركه فيه أحد؛ ولذا كان يومًا صعبًا وشديدًا وقعه علىٰ الكافرين؛ بسبب ما يرون من العذاب الأليم والعقاب الشديد.

ودل قوله: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أن الله لطف بالمؤمنين برحمته فجعله يسيرًا عليهم بحيث لا يعانون شدّته وأهواله.

[٢٧] واذكروا أيها الناس حال هذا الكافر الظالم يوم القيامة، يوم يعض علىٰ يديه ندمًا وتحسرًا، قائلًا: ياليتني صاحبت رسول الله ﷺ، واتبعته، وسرتُ في الطريق الذي جاء به؛ لأفوز برضا الله وجنته.

[٢٨] ثم يتحسر نادمًا علىٰ أيامه التي أضاعها مع قرناء السوء يوم لا ينفع الندم، فيقول: ياهلاكي وياخسارتي ليتني لم اتخذ ذلك القرين السيِّئ صديقًا؛ لأن صداقته جرَّتني للفساد والإجرام والهلاك.

[٢٩] ثم يستمر في تحسره وندمه فيقول: لقد أضلني هذا الصديق عن القرآن والهدىٰ الذي جاء به النبي ﷺ، ثم أخبر سبحانه أن الشيطان كان دائمًا وأبدًا خذولًا للإنسان، صارفًا إياه عن الحق، ومحرضًا له علىٰ الباطل، ولهذا فالواجب علىٰ الإنسان الحذر منه بكل الوسائل بالاستعاذة منه، والمحافظة علىٰ الأذكار، والعبادات.

والحاصل: أن هذه الآيات الثلاث السابقة بينت مضار الصحبة السيئة، وكما يقال: الصاحب ساحب؛ وفي ذلك تحذير لكل عاقل حتىٰ لا يقع في فخ قرين السوء الذي قد يكون سببًا في دخول صاحبه النار.

[٣٠] ثم أخبر جل في علاه أن النبي ﷺ اشتكىٰ إلىٰ ربه انصراف قومه عن القرآن الكريم وامتثال أوامره، فقال: يارب إن قومي الذين أرسلتني إليهم تركوا هذا القرآن ولم يصدقوا به ورفضوا العمل به، وكان أبو جهل وأبو لهب يحذرون من يقدم إلىٰ مكة من الاستماع للقرآن، ويقولون: إن محمدًا صابئ، أي: خارج عن إجماعهم. فهذه الآية اشتملت علىٰ التحذير من هجر القرآن وعدم العمل به.

[٣١] ثم يسلي جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: وكما جعلنا مجرمي قومك يعادونك ويكذبونك، فكذلك جعلنا للأنبياء من قبلك عدوًّا من مجرمي أقوامهم؛ فلست وحدك الذي أوذي وَرُمِيَتْ دعوته بالأباطيل، لذا عليك أن تصبر كما صبروا، وكفىٰ بربك يانبي الله هاديًا ومرشدًا ومعينًا لك علىٰ أعدائك، وهذا من الابتلاء؛ فقلَّ أن تجد مصلحًا إلا وقد ابتلي بمن يحاربه، وما حدث لكثير من علمائنا ودعاتنا من الإيذاء والتعذيب والاتهامات الباطلة علىٰ مدىٰ التاريخ خير شاهد علىٰ ذلك.

[٣٢] ثم أخبر سبحانه أن الذين كفروا بالحق قالوا: هلَّا نَزَّلَ هذا القرآن عليك يامحمد جملة واحدة، وليس كما نراه منجَّمًا، فرد جل وعلا عليهم فقال: لقد أنزلنا عليك القرآن يانبي الله مفرقًا حسب الوقائع والمناسبات، لنقوي به قلبك، وتزداد به طمأنينة، وإيضاحًا لكل نازلة في وقت حدوثها، وأيضًا بينا لك هذا القرآن تبيينًا واضحًا بتدرج شيئًا فشيئًا وعلىٰ تؤدة ومهل.

[٣٣] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المشركين لا يأتونك بحجة أو شبهة يريدون تعجيزك وإحراجك إلا جئناك بالجواب الحق وبما هو أحسن تفسيرًا وبيانًا من شبهاتهم وأباطيلهم، فسر في طريقك وبلغ رسالتك ولا تلتفت إلىٰ مقترحاتهم وأباطيلهم.

[٣٤] واعلموا أن أولئك المشركين المكذّبين بالقرآن؛ يُحشرون يوم القيامة مسحوبين علىٰ وجوههم إلىٰ النار؛ تجرّهم الملائكة جرًّا وتسحبهم سحبًا، وأولئك الذين بهذه الحالة؛ شرٌّ منزلًا ومصيرًا، وأبعد عن طريق الحق والنجاة.

[٣٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل علىٰ موسىٰ عليه السلام التوراة فيها الهدىٰ والنور، وأرسل معه أخاه هارون معينًا وناصرًا له.

[٣٦] فقال لهما جل شأنه: اذهبا إلىٰ فرعون وملئه الذين كذّبوا بآياتنا الدالة علىٰ وحدانيتنا، فذهبا إليهم، فما كان من فرعون وقومه إلّا التكذيب والجحود والاستكبار؛ فأهلكناهم بالغرق إهلاكًا عظيمًا.

[٣٧] وأرسل جل وعلا نوحًا إلىٰ قومه فدعاهم للتوحيد ونبذ الشرك؛ فكذّبه قومه وجحدوا رُسُلَ الله، فكان عاقبتهم أن أغرقهم الله بالطوفان، وجعلهم عبرةً للمعتبرين، وجعلنا للظالمين الجاحدين عذابًا مؤلمًا شديدًا في الدنيا والآخرة.

[٣٨] وأهلك جل وعلا قوم هودٍ - وهُم عاد -، وقوم صالح - وهم ثمود -، وأصحاب الرسّ؛ لمّا كذّبوا الرسل، وأهلكنا أُممًا كثيرة من المكذبين، فكان الهلاك مصير كل من كذّب بالرسل، وفي هذا تنبيه وتحذير لأهل مكّة من التكذيب بمحمد ﷺ.

[٣٩] وجميع تلك الأمم السابقة أنذرناهم وأقمنا عليهم الحجج الواضحة، وبيّنا لهم الآيات والبراهين الدالة علىٰ الوحدانية، فلمّا جحدوا وكذّبوا كان مصيرهم الهلاك والدمار.

[٤٠] بعد أن ذكر جل وعلا الأمم التي كذبت الرسل من قوم نوح إلىٰ قوم لوط، ذكر قرية قوم لوط التي أمطرت مطر السوء، ثم وبخ الكفار الذين يمرون عليهم في رحلتهم للشام فلم يتعظوا ويعتبروا بما حل بهم من خراب ودمار، ثم ذكر علة كفرهم وعدم اعتبارهم بحوادث الأمم التي دمرت كعاد وثمود ومدين وغيرهم؛ بأنهم كانوا كافرين باليوم الآخر والحساب والبعث؛ لذلك تشبثوا بما هم عليه من كفر وفساد واتباع للهوىٰ والشيطان.

[٤١] وإذا رآك يانبي الله هؤلاء المكذّبون المعاندون - بدل أن

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣)

يُؤمنوا بك ويتبعوك - أخذوا في الاستهزاء والسخرية والاحتقار قائلين: هل هذا هو الذي بعثه الله رسولًا إلينا؟!! هذا لا يناسبنا، ولا يليق بنا.

[٤٢] ثم قالوا كذبًا وزورًا: لقد كاد هذا الرجل – أي: النبي ﷺ – أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا أن ثبتْنا وصبرنا وصمدْنا علىٰ ذلك، ثم بين سبحانه أن هؤلاء المعاندين سوف يعلمون حين يعاينون العذاب حقيقةً من أضلُّ سبيلًا؟ هم أم الرسول ﷺ.

[٤٣] ثم قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ: انظر يانبي الله نظر المتعجّب إلىٰ هذا الذي لا يهوىٰ شيئًا إلّا اتّبعه، فهو عابدٌ لهواه، أَمِثْلُ هذا تكون أنتَ حفيظًا عليه، وتهديه؟!! ما عليك يانبي الله إلّا البلاغ، أمّا حسابه فعلينا، ومرجعه إلينا.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

[٤٤] أتظن يانبي الله أن هؤلاء المعاندين يسمعون سماع فهم أو يتدبرون في آياتنا؟! لا تظن ذلك، فهؤلاء كالبهائم المسلوبة الفهم والعقل؛ بل هم أحطُّ وأشدُّ ضلالًا من هذه البهائم.

[٤٥] ألم تنظر يانبي الله إلىٰ صنع الله الذي أحسن كل شيء خلقه، ومن ذلك أنه بسط سبحانه الظِّلَّ وجعله واسعًا، من زوال الشمس إلىٰ خروجها في اليوم التالي، ولو شاء لجعله ثابتًا ومستقرًا لا تزيله الشمس، ثم جعل سبحانه الشمس علامة تدل عليه فلولا الشمس ما عرف الظل.

[٤٦] ثم بين جل وعلا أنه يُقَلِّصُ هذا الظل شيئًا فشيئًا، وهذا فيه مصالح ومنافع للناس كثيرة.

قال عالم الإعجاز الشيخ عبدالمجيد الزنداني: إن مد الظل يبدأ من زوال الشمس بعد الظهر إلىٰ طلوعها في اليوم التالي ويقبض بطلوع الشمس.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ جملة اعتراضية لإثبات قدرة الله تعالىٰ، وأنه قادر علىٰ كل شيء.

[٤٧] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه هو الذي تفضَّل عليكم فجعل الليل مظْلِمًا يغشىٰ الأشياء ويسترها، فتسكن فيه النفوس وتخلد إلىٰ الراحة والنوم، ومن رحمته سبحانه أن جعل النهار ينتشر فيه الناس، يعملون فيه، ويطلبون فيه أرزاقهم، ويحصِّلون فيه منافعهم.

[٤٨] واعلموا أيها الناس أيضًا أن الله جل في علاه هو الذي يُسَيِّرُ الرياح التي تحمل السحاب، فيستبشر الناس بذلك ويفرحون، وينتظرون نزول المطر المبارَك العذب الطاهر المطهِّر.

[٤٩] ثم بين سبحانه أنه يُحْيِي بهذا المطر مواتَ البلاد، فيخرج النبات في المكان الذي لا نبات فيه، وينتفع به الناس فيشربون منه، ويسقون منه بهائمهم.

[٥٠] ثم أخبر جل وعلا بأنه قسَّم نزول هذا المطر بين الناس، فأنزله علىٰ أرضٍ دون أخرىٰ؛ ليتذكروا ويرجعوا إلىٰ الله ويؤمنوا به، وينسبوا الفضل إليه، فما كان من أكثر الناس إلّا الإباء والاستكبار، وجحْد نعمة الله، وذلك لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

[٥١] ثم أخبر سبحانه أنه لو شاء لبعث في كل قرية رسولًا يدعوهم إلىٰ الله وينذرهم عذابه الأليم، ولكن لفضله عليك وعلىٰ عباده كلهم، ورحمته بك وبالناس والجن قاصيهم ودانيهم أبيضهم وأصفرهم وأسودهم؛ أرسلك سبحانه نبيًّا للبشر كلهم إنسهم وجنهم، وخاتمًا للأنبياء والرسل أجمعين.

[٥٢] ولهذا أمره سبحانه وتعالىٰ أن لا يطيع الكافرين والمثبطين فيما يريدونه من أمور باطلة مخالفة لما أرسل به ﷺ، وأمره أن يجاهدهم بهذا القرآن جهادًا عظيمًا، وذلك بقراءته وتوضيح آياته والعمل بما فيه، وفي الحديث الذي أخرجه ابن ماجة في سننه: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»[1].

[٥٣] واعلموا أن الله جل وعلا هو وحده الذي أجرىٰ البحار والأنهار وأرسلها، فأرسل النهر العذب الشديد العذوبة، وأرسل البحر المالح البالغ الملوحة، فإذا التقيا فإنهما لا يمتزجان ولا يختلط أحدهما بالآخر اختلاطًا يُذهب خاصيته، وذلك بحاجزٍ حصين جعله الله بينهما، ولا يمتزجان إلا إذا ابتعدا عن المصب.

[٥٤] واعلموا أيها الناس أن الله هو الذي خلق الإنسان من هذا المني الذي يقذفه الذكر في رحم الأنثىٰ؛ ثم أنشأ سبحانه منه الأسر والشعوب وجعلهم أنسابًا وأصهارًا، وهذا يدل علىٰ كمال قدرته جل في علاه بأن خلق من هذا الماء المهين هذا الإنسان وجعل منه هذه الشعوب والقبائل؛ فتبارك الله أحسن الخالقين المبدعين.

[٥٥] يخبر جل وعلا عن جهل هؤلاء المشركين الذين يتخذون في عبادتهم آلهةً من دون الله لا تنفعهم ولا تضرهم شيئًا، وكان الكافر الجاحد بربه معاونًا للشيطان مؤيِّدًا له، مبارزًا الله بالمعاصي.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٢٢٤٦، ١٢٥٥٥)، وأبوداود (٢٥٠٤)، والنسائي (٣٠٩٦).

[٥٦] واعلم يانبي الله بأننا لم نرسلك للناس إلّا لتبشر من آمن ووحّد وأطاع بالثواب والفوز في الدارين، وتُنذر وتُحذّر من جحد وعصىٰ بالعقاب في الدارين، فلا تذهب نفسك حسراتٍ علىٰ من عاند وكذّب.

[٥٧] يسلي جل وعلا نبيَّه محمدًا ﷺ فيخبره أن لا ينزعج ويحزن إذا لم يلق استجابة من قومه، وأمره سبحانه بأن يقول لقومه: اعلموا أنني لا أسألكم أجرة علىٰ تبليغي وإنذاري لكم، ولكن إن هداكم الله وتوسلتم إليه بالطاعات والأعمال الصالحة من نفقه أو غيرها فإن ثواب ذلك لكم، ولست أجبركم عليه، وهذا ما أريد وأتمنىٰ أن يتحقق.

[٥٨] واعتمد يانبي الله في أمورك كلّها علىٰ الله الحيِّ الذي له الحياة الكاملة المطلقة، الذي لا يموت، ونزِّههُ عن النقائص، ولا تحزن ولا تأسَ علىٰ ما يفتريه المُفْتَرون؛ فكفىٰ به سبحانه بذنوب عباده خبيرًا، لا يخفىٰ عليه شيء من أمرهم، وسيجازيهم ويحاسبهم عليها.

[٥٩] يخبر جل وعلا أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وخلق ما بينهما في ستة أيام، ثم استوىٰ سبحانه وارتفع علىٰ العرش؛ استواءً يليق بجلاله وعظمته؛ وهذا الاستواء معلوم أما كيفيته فهي مجهولة ولا نعرفها؛ كما أننا لا نعرف كيفية ذاته، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا، وهو جل في علاه الرحمن؛ فاسأله يانبي الله فإنه خبير بخلقه؛ فهو خالقهم، ولا يخفىٰ عليه سبحانه أحد ممن خلق.

[٦٠] وإذا قيل لهؤلاء الكافرين الجاحدين: اسجدوا للرحمن وحده وأخلصوا له العبادة، قالوا جحْدًا وكفْرًا: وما الرحمن؟! فيزعمون أنهم لا يعرفونه، ثم يقولون تماديًا وطغيانًا: أنسجد لمجرد أنك تأمرنا بالسجود، وزادهم ذلك الأمر بالسجود بُعْدًا ونفورًا عن الإيمان والتوحيد والعياذ بالله.

[٦١] تكاثر فضله جل وعلا وتعاظمت بركته سبحانه؛ الذي خلق في السماء هذه النجوم الكبيرة، وهذه الشمس العظيمة التي تضيء، وهذا القمر الذي ينير، وجعلها مسخَّرة للإنسان؛ فسبحان من لا يَقْدِرَ قَدْرَهُ إلّا هو.

[٦٢] ثم ذكر جل في علاه أنه هو الذي خلق الليل والنهار وجعلهما يتعاقبان بتكرار؛ لمن أراد أن يتعظ ويعتبر ويتذكر أنه سبحانه لم يخلقهما عبثًا، فمن حكمة خلقهما: معرفة أوقات العبادة من صلاة أو دعاء أو صوم أو حج ونحو ذلك.

ومن حكمة خلقهما: أن من فاته وقت بسبب نوم أو بأي سبب آخر استعاض عنه في وقت آخر، ومن حكمة خلقهما: شكر الله علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ، ومن أعظم هذه النعم خلق الليل والنهار علىٰ هذه الصفة الحكيمة التي تدل علىٰ عظيم قدرته عز وجل.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ٦٠ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧

[٦٣] ذكر جل وعلا أن من **صفات عباد الرحمن** الحميدة وعباداتهم المتنوعة: أنهم يمشون علىٰ الأرض بسكينة ووقار وتواضع، بعيدين عن الخيلاء والتكبر.

ومن صفاتهم: إذا خاطبهم السفهاء بجهالة أو سوء أدب فإنهم يردون عليهم بكلام طيب لا تعنيف فيه ولا استهزاء ولا سخرية، أي: أنهم يدرؤون بالحسنة السيئة.

[٦٤] **ومن صفات عباد الرحمن**: أنهم يقطعون جزءًا من ليلهم في صلاة التهجد ساجدين لله متذللين له، أو قائمين لله خاضعين له.

[٦٥] **ومن صفات عباد الرحمن**: أنهم يدعون ربهم - وجلين خائفين - قائلين: اللهم أبعِد عنّا عذاب جهنم؛ فإن عذابها لا يُطاق، فهو لازم ودائم.

[٦٦] ثم ذم جل وعلا جهنم فأخبر أنها بئست مستقرًا لمن استقر بها من العصاة الذين لم يحكم علهم بالخلود فيها، وبئست مقامًا لمن أقام بها من المكذبين للرسل الجاحدين لدين الله الذين سيخلدون فيها أبد الآبدين.

[٦٧] **ومن صفات عباد الرحمن**: أنهم إذا أنفقوا من أموالهم النفقات الواجبة والمستحبَّة لم يزيدوا حتىٰ يصلوا حدّ التبذير، ولم يُقصِّروا في النفقة حتىٰ البخل والشح والتقتير؛ بل كانوا ينفقون باعتدالٍ وتوسّط.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

سورة الشعراء

[٦٨] ومن صفات عباد الرحمن: أنهم ابتعدوا عن الشرك وعبادة غير الله، وابتعدوا عن قتل النفس التي حرَّم الله إلّا بالحقّ، وابتعدوا عن الزنا وعن ما حرَّم الله، واعلموا أن من تزين له نفسه ارتكاب شيء من ذلك فقد اكتسب الإثم، ووقع في الذنب العظيم.

[٦٩] ثم أخبر سبحانه أن من ارتكب هذه الذنوب والمعاصي كان ذلك سببًا في أن يُضاعِف الله عليه العقوبة في الآخرة، وسببًا لدخوله النار وخلوده فيها ذليلًا حقيرًا إذا مات علىٰ الشرك، أما من مات دون الشرك من أهل التوحيد فلا يخلَّد في النار.

[٧٠] أما من أحدث توبةً من هذه المعاصي بأن أقلع عنها، وندم عليها، وعزم علىٰ عدم العودة، وردَّ الحقوق إلىٰ أهلها، ورجع إلىٰ الله، فآمن به ووحده توحيد الطائعين، ثم عمل الأعمال الصالحة؛ فإن الله بكرمه ولطفه يغفر ذنبَه، ويستر عيبَه، ويقيل عثرتَه، ويقبل توبته، ثم يتكرّم عليه فيبدّل سيئاته التي عملها إلىٰ حسنات؛ فتبارك الله أكرم الأكرمين، واعلموا أن الله كثير المغفرة لِمَن استغفر وتاب، كثير الرحمة لمن رجع وأناب.

[٧١] واعلموا أيها الناس أن من تاب، ودلَّل علىٰ صدق توبته بالأعمال الصالحة؛ فإنه قد رجع إلىٰ ربه حقَّ الرجوع، وتلك صفات التوبة النصوح المقبولة.

[٧٢] ثم عاد وأخبر جل وعلا أن من صفات عباد الرحمن: أنهم لا يرتكبون شهادة الزور، ويبتعدون عن مجالس اللهو والفسق والغيبة والزور، والتي كثرت للأسف في هذا الزمان، والله المستعان، وأنهم إذا مروا بمجالس أهل الباطل التي يكثر فيها اللغو أعرضوا عنها تنزهًا وإكرامًا لأنفسهم وصونًا لكرامتهم.

[٧٣] ومن صفات عباد الرحمن: أنهم إذا ذُكِّروا بالقرآن، وخُوِّفوا بآيات الله؛ لم يُعرضوا عنها؛ بل أقبلوا منكبِّينَ عليها، منقادين مستسلمين لها.

[٧٤] ومن صفات عباد الرحمن أيضًا: أنهم يدعون الله قائلين: ربنا أعطنا وارزقنا من أزواجنا وذرياتنا ما تقرُّ به أعيننا، وتسكن إليه نفوسنا، واجعلنا ياربنا قدوةً صالحةً يُقْتدىٰ بها في الخير، فيكون لنا أجرنا، وأجر من اقتدىٰ بنا.

[٧٥] واعلموا أن أولئك الذين هذه هي صفاتهم من عباد الرحمن؛ سوف يجزيهم الله أحسن الجزاء، وذلك بأن يدخلهم أعلىٰ منازل الجنة وأفضلها، بسبب صبرهم ويقينهم بأن ما عند الله خيرٌ وأبقىٰ، ويُلقَّون في هذه الدرجة العالية السلام من الله جل في عُلاه، ويُلقَّون أيضًا السلام من الملائكة، ويسلم بعضهم علىٰ بعض، ويُسلمهم الله من كل ما يكدر خاطرهم، فيعيشون في نعيم تامّ، لا يكدر صَفْوَهُ شيء من المكدرات، ولا منغِّصٌ من المنغصات.

[٧٦] وهؤلاء الذين هذه صفاتهم من عباد الرحمن خالدون في هذا النعيم خلودًا أبديًّا لا يتحولون عنه ولا يزولون، وحسنت تلك الغرفة قرارًا وطابت منزلًا هنيئًا ونعيمًا مقيمًا لهم. نسأل الله الكريم من فضله.

[٧٧] وقل يانبي الله للناس جميعًا: إن الله لا يعبأ ولا يبالي بكم؛ لولا أنكم تعبدونه وتخلصون له العبادة، واعلموا يامن كذبتم بالآخرة وبالإيمان بالله وحده وبالتوحيد فسوف يكون جزاء تكذيبكم عذابًا دائمًا ملازمًا لكم لا يفارقكم أبدًا في الآخرة.

سورة الشّعراء

سورة الشعراء مكيّة وآياتها سبع وعشرون ومائتان آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] بدأت السورة بالإشارة إلىٰ أن آيات هذا الكتاب التي أنزلها الله علىٰ نبيه ﷺ في هذه السورة وغيرها هي آيات بينات واضحات، وضحت أحكام الله وشرائعه وأوامره ونواهيه، وأمور الدنيا والآخرة.

[٣] ثم سلىٰ سبحانه نبيه ﷺ فقال له: لعلك مُهْلِكٌ نفسك علىٰ هؤلاء الكفار لأنهم لم يؤمنوا بالله ولم يصدقوا رسالتك، فلا تحزن عليهم فقد أديت ما عليك من التبليغ.

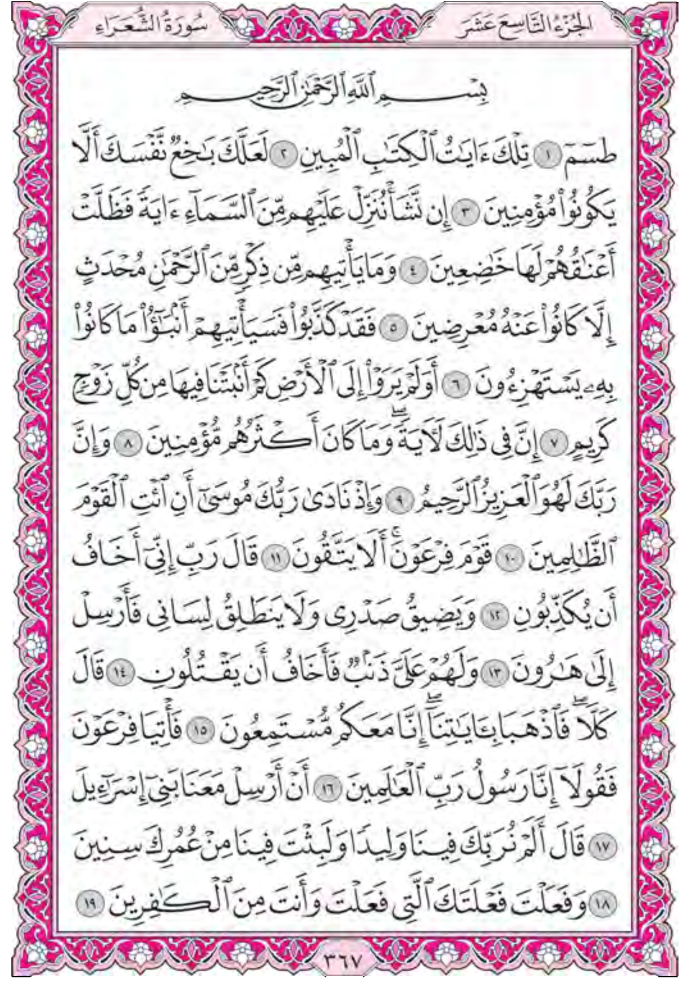
وقد كان ﷺ يتألم ويحزن بسبب إعراض قريش وكبريائهم من سماع الهدىٰ، وعدم رغبتهم في ترك ما توارثوه من عبادة الأصنام، فأمره الله أن يرفق بنفسه وأن لا يهلكها من أجلهم؛ فإن الهدىٰ هدىٰ الله؛ إن أطاعوا فذلك من صالحهم وسبيل لنجاتهم، وإن أصروا فهم الخاسرون، وقد وضح سبحانه ذلك له في قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

[٤] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ: أنه لو أراد الله قهرهم وإرغامهم علىٰ الإيمان لأنزل عليهم معجزة من السماء تجبرهم علىٰ ذلك، وتصير أعناقهم خاضعة ذليلة، ولفعل بهم مثل ما فعل ببني إسرائيل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ [الأعراف:١٧١]، ولكن حكمة الله اقتضت أن لا يدخل أحد في الإسلام إلّا طائعًا راغبًا مختارًا.

[٥-٦-٧] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الكفار ما يأتيهم شيء محدث من القرآن، أي: حديث النزول إلّا كذبوا واستهزأوا به وأعرضوا عنه، ولم يتأملوا ما فيه من المواعظ والعِبَر. ثم أخبر سبحانه زيادة علىٰ إعراضهم فإنهم كذبوا بالقرآن فسوف تأتيهم أخبار العذاب الذي سينالهم جزاء تكذيبهم واستهزائهم به. ثم نبه جل وعلا هؤلاء المستهزئين المكذبين بالبعث إلىٰ النظر في الأرض كيف أحياها الله بالمطر، وجعل فيها أصناف النباتات الحسنة البديعة المشتملة علىٰ الذكر والأنثىٰ.

[٨-٩] ثم ختم سبحانه هذه الآيات مبينًا أن ما خرج من الأرض من أنواع الثمار والنباتات المختلفة لعلامةً واضحةً علىٰ قدرة الله علىٰ البعث، وإحياء الموتىٰ وإعادتهم، ومع ذلك فإن أكثر المشركين المكذبين بالبعث ليسوا من المؤمنين المصدقين؛ لأنهم استحبوا الكفر علىٰ الإيمان؛ لأنه لا يكلفهم بشيء من العبادات، واعلم يانبي الله أن ربَّك هو العزيز القوي القادر علىٰ إهلاك المكذبين المعاندين للأنبياء والرسل، وهو سبحانه كثير الرحمة بعباده، ومن رحمته أنه ينجي النبي وأتباعه من المؤمنين، ومن رحمته أنه يُمهِلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة لعلهم يتوبون.

[١٠-١١] واذكر يانبي الله لقومك قصة موسىٰ مع فرعون وقومه المجرمين، إذ نادىٰ جل وعلا موسىٰ من جانب الطور الأيمن، وأمره أن يأت القوم الظالمين. قوم فرعون، وأن يقول لهم: ألا تخافون سخط الله وعقابه الأليم، بسبب ما أنتم فيه من الكفر والضلال المبين.



الجزء التاسع عشر — سورة الشعراء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩

٣٦٧

وموسىٰ يعرف جبروت فرعون وطغيانه؛ حيث عاش أول حياته في قصره.

[١٢-١٣] فقال موسىٰ عليه السلام: يارب إني أخشىٰ أن يكذبوني ولا يصدقوني فيما أدعوهم إليه. وأخاف أن يضيق صدري بسبب تكذيبهم إياي ويمتلئُ همًّا وغمًّا، وأخشىٰ أن ينعقد لساني فلا أستطيع أن أوصل الدعوة بطلاقة، فكلف أخي هارون ليكون نصيرًا ومُعينًا لي في هذا الأمر وفي هذه الدعوة لفصاحته، فاستجاب الله له.

[١٤] ثم قال موسىٰ: يارب إن لهم علي ذنبًا فأخاف أن يقتلوني. والذنب هو ما قام به موسىٰ عليه السلام من قتل القبطي المشاغب مع الإسرائيلي الذي استنجد به.

[١٥] فطمأنه سبحانه وتعالىٰ وقال له: كلا لن يقتلوك، فاذهب أنت وهارون بالمعجزات الدالة علىٰ صدقكما، واعلم بأني معكما بالعلم والنصرة والرؤية، ومستمع لِمَا يدور بينكم، وحافظ لكما من غدره.

[١٦-١٧] فأمر جل وعلا موسىٰ وهارون بالدخول علىٰ فرعون لدعوته للتوحيد، وأن يقولا له: لقد أرسلنا الله إليك لتؤمن به وتوحِّده، ولِتترك بني إسرائيل يؤمنوا بالله ويتبعونا، ويخرجوا معنا.

[١٨-١٩] فقال فرعون لموسىٰ عليه السلام: ألم نُنْعِمْ عليك بأن رعيْناك في صغرك فلم نقتلك؛ بل ربيناك في قَصْرِنا، ونشأت بيننا، وبقيت عندنا سنين من عمرك؟! ثم فعلت فعلتك الشنعاء بقتلك القبطيّ؟! وأنت من الجاحدين لِمَا قدمنا لك، وأنعمنا عليك فكفرت نعمتنا.

قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

[٢٠] فقال موسىٰ عليه السلام: فعلتُ ذلك عن جهل وعن غير عمد.

[٢١] ثم قال موسىٰ عليه السلام: ثم فررتُ منكم حينها وخرجتُ من بينكم خائفًا حين أردتم قتلي، فذهبتُ إلىٰ مدين، فمنَّ الله عليَّ فغفر لي، وأعطاني العلم النافع، واختارني رسولًا إليكم.

[٢٢] ثم قال موسىٰ عليه السلام: وتذكر يافرعون هذه المنة التي تمن بها علي والتي لا وجه لك فيها، وتنسىٰ أنك استعبدت بني إسرائيل.

[٢٣] فقال فرعون بعلوٍّ وعتوٍّ: وما رب العالمين الذي تدَّعي أنه أرسلك إلينا؟

[٢٤] فقال موسىٰ عليه السلام: هو خالق السماوات والأرض وما بينهما، ومدبِّر شؤونهما، فإن كنتم توقنون بذلك فآمنوا وصدِّقوا.

[٢٥] فقال فرعون في استخفافٍ لقومه: ألّا تسمعون ما يقول هذا الرجل من وجود ربٍّ غيري!!

[٢٦] فقال موسىٰ عليه السلام: الله ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين، فهو الذي خلقكم وخلق آباءكم وهو وحده المستحق للعبادة.

[٢٧] فقال فرعون مُغالطًا مُغتاظًا: إن هذا الذي يزعم أنه رسولٌ إليكم ليس بعاقلٍ؛ ما هو إلّا رجل مجنون.

[٢٨] فاستمرَّ موسىٰ عليه السلام في دعوته، وإقامة الأدلّة علىٰ بطلان دعوىٰ فرعون، فقال مخاطبًا الجميع: الله ربكم ورب المشرق والمغرب وما بينهما، فتفكروا إن كانت لكم عقولٌ تميزون بها الخالق من المخلوق، وتميزون بها الربَّ من المربوب.

[٢٩] فقال فرعون مهدِّدًا ومتوعِّدًا: لئن اتخذت لك إلهًا غيري وربًّا سوايَ لأسجننك ياموسىٰ مع المسجونين، ولأحبسنك مع المحبوسين.

[٣٠] فقال له موسىٰ عليه السلام: أرأيت إن جئتك بمعجزةٍ بينةٍ واضحةٍ تدلُّ علىٰ صدق رسالتي؟!

[٣١] فقال فرعون: فإن كنت من الصادقين في دعواك فأظهر لنا ذلك.

[٣٢] ثم إن موسىٰ عليه السلام ألقىٰ العصا التي كانت في يده، فإذا بها تنقلب إلىٰ ثعبان واضح ظاهرٍ جليٍّ.

[٣٣] ثم إنه وضع يده عليه السلام في جيبه ثم أخرجها فإذا بها تشعّ بياضًا، ولها نورٌ عظيم، تُبهرُ الناظرين.

[٣٤] فقال فرعون – مراوغًا وهاربًا من هذه الآية التي تدل علىٰ صدق موسىٰ في رسالته – قال لمن حوله من قومه: اعلموا ياقومي إنَّ موسىٰ لساحرٌ عليمٌ بالسحر، ماهرٌ به.

[٣٥] ثم قال فرعون أيضًا: وإنه يريد بسحره هذا أن يخرجكم من دياركم، أي: من عقائدكم، فماذا ترون أن نفعل به؟!.

[٣٦] فقال قوم فرعون: نرىٰ أن تؤخر أمر موسىٰ وهارون، وأن ترسل جندك في المملكة ليجمعوا لك جميع السحرة.

[٣٧] ثم قالوا: فإذا اجتمع السحرة فإنك تختار منهم كل ساحر برع في علم السحر وتفوق فيه.

[٣٨] ثم أخبر سبحانه أن السحرة جمعوا من أنحاء المملكة، وحُدِّدَ لهم اللقاء مع موسىٰ عليه السلام يوم الزينة وهو يوم عيدهم الذي يتفرغ الناس فيه من أعمالهم.

[٣٩] ثم إن فرعون وقومه حثوا الناس علىٰ المجيء، وحضور ذلك اليوم المشهود.

....

....

....

....

لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

[٤٠] وقيل للناس: احرصوا علىٰ الاحتشاد وحضور ذلك المشهد العظيم، لتشاهدوا غلبة السحرة لموسىٰ فتثبتوا علىٰ دينكم، ولم يقولوا: لعلنا نتبع الغالب مما يؤكد رفضهم للدعوة.

[٤١-٤٢] فلما وصل السحرة إلىٰ فرعون قالوا له: هل لنا من أجرٍ ورفعةٍ إن نحن غلبنا موسىٰ؟ فأجابهم فرعون قائلًا: نعم، لكم ذلك، وزيادة عليه: تكونون من المقربين عندي.

[٤٣-٤٤] ثم قال موسىٰ للسَّحَرَة في ثباتٍ ويقين: ألقوا ما تريدون إلقاءه، بعد أن وعظهم وخوفهم كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١]، فألقىٰ السحرة حبالهم وعصيهم فخُيِّل للحاضرين أنها حياتٌ تسعىٰ، وقالوا وهم يلقونها: بعزة فرعون نُقسِم إنا نحن الغالبون المنتصرون.

[٤٥-٤٦-٤٧-٤٨] فألقىٰ موسىٰ عصاه، فانقلبت حيَّةً عظيمةً حقيقيَّةً تبتلع ما ألقوه دجلًا وتزويرًا، وحينها اندهش السحرة وانبهروا بهذه الآيات العظيمة، وعلِموا أن موسىٰ رسولٌ من عند الله، فما كان منهم إلّا أن خرُّوا ساجدين لله رب العالمين، ثم قالوا: آمنا وصدّقنا بالله ربِّ العالمين، ربِّ موسىٰ وهارون.

[٤٩] فأُسقِط في يد فرعون، ولكنه عاند وكابر، وقال للسحرة: آمنتم وصدقتم برب موسىٰ وهارون، واتبعتم موسىٰ؟! من غير أن تستأذنوني لأسمح لكم بذلك، ثم قال مكابرًا ومعارضًا للحقيقة الناصعة: إن موسىٰ هو كبيركم الذي علمكم هذا السحر، ثم هددهم وتوعدهم قائلًا: سوف تعلمون ما ينتظركم من العقاب والعذاب، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، أي اليد اليمنىٰ مع الرجل اليسرىٰ أو العكس، ثم لأصلبنكم أجمعين علىٰ جذوع النخل.

[٥٠-٥١] فأجابوه في ثباتٍ بعد أن خالطت بشاشةُ الإيمان قلوبَهُم: لا نبالي ولا يهمنا ما تفعل بنا بعد أن أكرمنا ربنا بهذا الإيمان، فإن مرجعنا، ومنقَلَبَنا، ومصيرَنا إلىٰ الله، فيجازينا علىٰ أعمالنا وثباتنا، ونحن نطمع بهذا التوحيد والثبات، والمسارعة إلىٰ الإيمان؛ أن يغفر الله لنا ذنوبنا من الكفر والسحر وغير ذلك.

[٥٢-٥٣-٥٤-٥٥-٥٦] وأوحىٰ جل وعلا إلىٰ موسىٰ أن يخرج ببني إسرائيل من أول الليل، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونكم ليلحقوا بكم ويردوكم. فلما علم فرعون بخروج موسىٰ مع بني إسرائيل اشتد حنقه، وأرسل في قرىٰ مصر وأريافها من يحشر الجنود لملاحقته، وقال لهم مشجعًا علىٰ الإيقاع ببني إسرائيل: إنهم لمجموعة حقيرةٌ، قليلةٌ أعدادهم، ولكنهم ملأوا صدورنا غيظًا وحقدًا عليهم بسبب هروبهم منا، وتركهم ديننا، ولكنَّا يقظون لهم، مستعدّون للإمساك بهم وتأديبهم.

[٥٧-٥٨] فأخرج الله بقدرته فرعون وقومه من أرض مصر وبساتينها وجنانها وزروعها، ومائها العذب الرائق، وأخرجناهم من أموالهم وكنوزهم، ومنازلهم الحسان؛ ليلقوا مصيرهم الذي قدره وكتبه الله عليهم وهو الغرق، بسبب إصرارهم علىٰ الكفر والطغيان.

[٥٩] يخبر سبحانه أنه كما قضىٰ علىٰ فرعون وقومه بالغرق وأصبحت ديارهم خالية فقد مكّن لموسىٰ وبني إسرائيل أن يرثوا ديارهم لو أرادوا، لكنهم عادوا بعدها للأرض المقدسة فحصل التيه في صحراء سيناء قبل أن يصلوها. قال سيد قطب في ظلال القرآن: (ولا يُعرف أن بني إسرائيل عادوا إلىٰ مصر بعد خروجهم إلىٰ الأرض المقدسة وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه، لذلك يقول المفسرون: إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون ومَلَئِهِ؛ فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم). وفي تتبعي لقصتهم في القرآن وجدتهم ورثوا التِّيه واللجاج واللعن وتفريقهم في الأرض ومسخ بعضهم، ولم أجد لهم عزًّا ولا دولة إلّا في ملك داود وابنه سليمان عليهما السلام؛ فأما سليمان فقد اتهموه بالسحر لما سخَّر الله له الشياطين ومردة الجن، وأما داود فقد اتهموه بامرأة قائد جيشه كما ذكر ذلك المفسرون عند قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ...﴾[ص:٢٤]. وعلىٰ هذا يكون إرثهم هنا هو المذكور في قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[الأعراف:١٣٧]؛ حيث صار لا منازع لهم لو أرادوها أو غيرها بعد إغراق فرعون وجنوده وهم ينظرون.

[٦٠] ثم بين جل وعلا أن فرعون وجندَه لحقوا بموسىٰ ومن معه من بني إسرائيل عند ساحل البحر الأحمر وقت شروق الشمس.

فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

[٦١] فلمّا لحق فرعون وجنوده ببني إسرائيل وتقارب الفريقان، ورأىٰ كل واحدٍ منهما الآخر، قال بنو إسرائيل لموسىٰ عليه السلام: إن فرعون وجنوده اقترب وصولهم والبحر أمامنا ولا طاقة لنا بهم.

[٦٢] فبادرهم موسىٰ عليه السلام بثباتٍ ويقينٍ قائلًا: كلّا، لن يُدركونا ولن ينالوا منّا، وذلك أن الله جل في علاه معنا، وهو ناصرنا، وهادينا إلىٰ سبيل نجاتنا.

[٦٣] وجاء فرج الله حيث أوحىٰ جل وعلا إلىٰ موسىٰ عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه التي في يده، ففعل، فانفلق البحر اثني عشر طريقًا، وكان كل جزء فارق بين الطرق كالجبل العظيم.

[٦٤] ثم قرَّب سبحانه فرعون ومن معه من البحر وجعلهم يدخلونه بعد دخول موسىٰ وبني إسرائيل.

[٦٥] فمشىٰ موسىٰ وقومه إلىٰ أن وصلوا البرّ، ونجوا من فرعون وقومه، ونجوا من الغرق في البحر جميعًا، ولم يتخلف منهم أحد.

[٦٦] ثم إن فرعون وقومه دخلوا في البحر علىٰ الطريق الذي مشىٰ فيه موسىٰ وقومه؛ فأطبق الله عليهم البحر؛ فأغرقهم فهلكوا أجمعون.

[٦٧-٦٨] ثم ختم سبحانه هذه الآيات مبينًا أن إغراق فرعون وجنده لعلامةً واضحةً، ودليلًا قاطعًا علىٰ قدرة الله وعلىٰ صحة ما جاء به موسىٰ عليه السلام، وعلىٰ بطلان ما كان عليه فرعون وقومه، ومع ذلك فإن أكثر قوم فرعون ليسوا من المؤمنين المصدّقين. واعلم يانبي الله أن ربك لهو العزيز الغالب علىٰ أمره، فبعزَّته أهلك المكذبين المعاندين، وهو سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين؛ حيث نجاهم وحفظهم، ويسّر سبل الهداية لهم.

[٦٩-٧٠-٧١] واقصص يانبي الله علىٰ الكافرين من قومك خبر إبراهيم عليه السلام يوم أن قال لأبيه وقومه علىٰ سبيل الدعوة وإقامة الحجة عليهم: أي شيء تعبدون ياقومي؟ وهو عارف عليه السلام أن قومه في ضلال، وأنهم عبدة للأوثان والكواكب، ولكنه يريد أن يوضح لهم أنهم تائهون، وأنهم يعبدون أشياء لا تملك ضرًّا ولا نفعًا، وأن جهودهم ضائعة. فقالوا: نعبد أصنامًا مصنوعة من الحجارة وما أشبهها فنعكف علىٰ عبادتها والتقرب لها.

[٧٢-٧٣] فقال إبراهيم لقومه: هل تسمعكم هذه الأصنام إذا دعوتموها؟، وهل تنفعكم إذا طلبتم منها النفع؟، وهل تضركم أو تلحق بكم أذىً إذا أنتم تركتم عبادتها؟!

[٧٤] فقالوا لإبراهيم: لقد وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأصنام فقلدناهم، وفعلنا مثلهم، وهذا إقرار منهم أنها لا تسمع، ولا تضر ولا تنفع.

[٧٥-٧٦-٧٧] فلمّا تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ضالون عن الحق ذكر لهم براءته مما يعبدون هم وآباؤهم، فقال لهم علىٰ سبيل الإنكار: أرأيتم ياقوم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون من هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر؛ فإنها عدو لي لأنها معبودات باطلة، ولا أعبد إلا الله رب العالمين وحده لا شريك له.

[٧٨] ثم قال إبراهيم عليه السلام: إنني لا أعبد إلا الله رب العالمين الذي أوجدني من العدم، وهداني ويسّر لي طريق سعادتي في الدنيا والآخرة.

[٧٩] وقال عليه السلام أيضًا: وكذلك هو وحده الذي يرزقني بأنواع الطعام والشراب والغذاء.

[٨٠] وقال عليه السلام أيضًا: وكذلك هو وحده الذي يشفيني ويعافيني من الأمراض والأسقام إذا نزلت عليّ وأحاطت بي.

[٨١] وقال عليه السلام أيضًا: وكذلك هو سبحانه المتفرِّد بإماتتي عند انقضاء أجلي، وهو الذي يبعثني ويحييني مرَّةً أخرىٰ للجزاء والحساب.

[٨٢] وقال عليه السلام أيضًا: وكلي رجاءٌ وأملٌ أن يغفر الله لي خطيئتي يوم القيامة، وأن يعفو ويتجاوز عني.

[٨٣] ثم قال إبراهيم عليه السلام داعيًا ربه: يارب امنحني علمًا وفهمًا واسعًا، واجعل لي ذكرًا حسنًا يتداوله الناس من بعدي، وألحقني بعبادك الصالحين الذين رضيت عنهم ورضوا عنك، واجمع بيني وبينهم في جناتك جنات النعيم.

[٨٤-٨٥-٨٦] ثم دعا إبراهيم ربه قائلًا: واجعل لي يارب ذكْرًا حسنًا، وثناءً جميلًا يبقىٰ لي بعد موتي إلىٰ يوم القيامة، وقد أعطاه الله سُؤْلَه. ثم قال: واجعلني يارب من أهل الجنة الذين يرثون نعيمها، ثم قال: واغفر لأبي إنه كان من الضالين؛ فقد وعدته يارب بأن أستغفر له عندك، وكان ذلك حينما فارق إبراهيم أبيه فقال له: سأستغفر لك ربي، ولكن لما تبين له بأن أباه عدو لله وأنه مصر علىٰ الكفر تبرأ منه.

[٨٧-٨٨-٨٩] ثم قال إبراهيم داعيًا ربه أيضًا: ولا تفضحني يارب ولا تذلّني وتهني علىٰ رؤوس الأشهاد يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويقفون للجزاء والحساب، ذلك اليوم الذي لا ينفع العبدَ فيه مالٌ ولا بنون، لا ينفع فيه إلّا من جاء إلىٰ الله بقلبٍ سليم صحيح خالٍ من الشرك والشكّ والنفاق.

[٩٠] وفي يوم القيامة: تُقرَّب الجنة من عباد الله الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه

[٩١] وفي يوم القيامة أيضًا: فإن النار تبين وتوضح للكافرين الجاحدين أهل الغواية والضلال.

[٩٢-٩٣] ثم يقال للكفار توبيخًا وتقريعًا: أين تلك الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟!! هل ينفعونكم اليوم بدفع العذاب عنكم؟ وهل يستطيعون دفع العذاب عن أنفسهم؟!!

[٩٤-٩٥] ثم أخبر سبحانه أن جميع الكفار تتابع إسقاطهم واحدًا تلو الآخر علىٰ وجوههم في النار – التابعين والمتبوعين –، ومعهم جميع جنود وأعوان إبليس من الصَّادين عن سبيل الله، والداعين إلىٰ عبادة غير الله.

[٩٦-٩٧-٩٨-٩٩] فقال العابدون المشركون مخاصمين مَن عبدوهم وأشركوا بهم: تالله لقد كنّا في ضلال بيِّنٍ واضح لا خفاء فيه؛ لمّا سويناكم في العبادة بالله رب العالمين، وما أغوانا وأبعدنا عن طريق الحق إلىٰ طريق الضلال إلّا هؤلاء الأئمة المجرمون الذين صدونا عن سبيل الله وكانوا يدعوننا إلىٰ الضلال الذي أوجب لنا النار.

[١٠٠-١٠١] ثم قالوا: فما لنا حينئذٍ من شافعٍ يشفع لنا فينقذنا من عذاب الله، ولا من صديقٍ قريبٍ ينفعنا بصداقته.

[١٠٢] ثم قالوا: فياليتنا نعود إلىٰ الدنيا مرَّةً ثانيةً فنكون ممّن آمن وصدَّق؛ فنكون من الناجين من هذا العذاب.

[١٠٣] ثم ختم سبحانه هذه الآيات مبينًا أن في قصة إبراهيم مع قومه، وتساقط المشركين في جهنم، وخصومتهم فيها، وحرمانهم من الشفاعة؛ لعلامة واضحة علىٰ قدرة الله وعبرةً للمعتبرين، ومع ذلك فإن أكثر من تبلغه هذه الآيات من الكفرة ليسوا من المؤمنين بها ولا المصدقين لها.

وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

[١٠٤] واعلم يانبي الله أن ربك لهو العزيز الغالب علىٰ أمره، فبعزَّته أهلك المكذبين المعاندين، وهو سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين؛ حيث نجاهم وحفظهم، ويسّر سبل الهداية لهم.

[١٠٥] يخبر جل وعلا أن قوم نوح كذّبوا دعوةَ نبيِّهم؛ حيث دعاهم إلىٰ التوحيد والإيمان، فلم يصدّقوه ولم يؤمنوا به، واعتُبر تكذيبهم لنوح عليه السلام تكذيبًا لجميع الأنبياء والرسل، إذ دعوة الأنبياء واحدة، ودينهم واحد، فمن كذّب بأحدهم، فقد كذّب بهم جميعًا.

[١٠٦-١٠٧-١٠٨] ثم قال لهم نبيهم نوح عليه السلام: ألا تتقون الله وتخافون من عقابه بسبب شرككم وعبادتكم غيره معه؟! ثم قال لهم: لقد اختصَّكم الله بإرسالي إليكم، وأنا أمينٌ فيما أبلغكم عن ربي سبحانه وتعالىٰ، فلا أتقوّل، ولا أفتري من قِبَل نفسي. فاتقوا الله وآمنوا به، وأطيعون فيما أدعوكم إليه من التوحيد ونبذ الشرك.

[١٠٩] ثم قال نوح عليه السلام لقومه: اعلموا ياقوم أني لا أطلب منكم أجرًا مقابل دعوتي إياكم للتوحيد، وإنما أجري وثوابي علىٰ الله رب العالمين.

[١١٠] ثم أمرهم عليه السلام بأن يتقوا الله ويخافوا عقابه، وأن يطيعوه فيما يدعوهم إليه لكي ينجوا ويفلحوا.

[١١١] فأجابه قومه قائلين: أنؤمن بك ونصدقك ونتبعك، وقد اتبعك أراذل الناس وفقراؤهم؟!

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ
﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ
رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن
مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ
﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ
عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ
﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾

[١١٢] فقال لهم نوحٌ عليه السلام: إني كلِّفتُ بدعوة الناس إلىٰ التوحيد، ولم أُكلَّف بمعرفة أعمالهم وحرفهم وصنائعهم ونحو ذلك.

[١١٣] واعلموا أن حساب جميع الناس ومجازاتهم إنما هو علىٰ الله، ولو كنتم تشعرون بهذه الحقيقة لمّا قلتم ما قلتم.

[١١٤] ثم قال عليه السلام: واعلموا أني لست بطاردٍ أحدًا ممّن آمن بي وصدَّق برسالتي.

[١١٥] وقال عليه السلام أيضًا: وما أنا إلّا نذير أُبيِّن لكم، وأبلغكم عن الله، وأجتهد في ذلك، والأمر كله لله.

[١١٦] فقال له قومه متوعدين إيّاه: لئن لم تكفّ يانوح عمّا تدعو إليه لنقتلنّك رمْيًا بالحجارة.

[١١٧-١١٨] فرفع نوحٌ عليه السلام شكواه لله رب العالمين قائلًا: يارب إن قومي كذّبوني ولم يصدّقوني، ولم يؤمنوا بي، فاحكم بيني وبينهم حُكْمًا يهلك فيه الباغي والمُبطِل منّا، ونجِّني يارب مع من آمن بي وصدّقني.

[١١٩] فاستجاب الله دعاء نوح عليه السلام فنجّاه ومَن معه في السفينة التي صنعها بوحي من الله والتي امتلأت بالناس والدوابّ والأنعام.

[١٢٠] ثم أخبر سبحانه أنه أغرق الباقين من قوم نوحٍ ممّن كذَّبَ ولم يُؤمِن.

[١٢١] ثم ختم سبحانه هذه الآيات مبينًا أن في هذا النبأ، وفي ذلك الصراع بين التوحيد والشرك، ونجاة الموحدين، وهلاك الكافرين؛ لآية وعلامة واضحة تدلّ علىٰ صدق رُسُلِنا وصحة ما جاؤوا به، ومع ذلك فإن أكثر الناس لا يؤمنون بالله وشرعه، ولا يصدّقون رُسُله.

[١٢٢] واعلم يانبي الله أن ربك لهو العزيز الغالب علىٰ أمره، فبعزَّته أهلك المكذّبين المعاندين، وهو سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين؛ حيث نجاهم وحفظهم، ويسّر سبل الهداية لهم.

[١٢٣] يخبر جل وعلا بأن قوم عاد كذّبوا نبيِّهم هودًا؛ حيث دعاهم إلىٰ التوحيد والإيمان، فلم يصدّقوه ولم يؤمنوا به، واعتُبر تكذيبهم له عليه السلام تكذيبًا لجميع الأنبياء والرسل، إذ دعوة الأنبياء واحدة، ودينهم واحد، فمَن كذّب بأحدهم، فقد كذّب بهم جميعًا.

[١٢٤-١٢٥-١٢٦] فقال هودٌ عليه السلام لقومه: ألا تتقون الله وتخافون من عقابه بسبب شرككم وعبادتكم غيره معه؟! ثم قال لهم: لقد اختصَّكم الله بإرسالي إليكم، وأنا أمينٌ فيما أبلغكم عن ربي سبحانه وتعالىٰ، فلا أتقوَّل، ولا أفتري من قِبَل نفسي، فاتقوا الله وآمنوا به، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من التوحيد ونبذ الشرك.

[١٢٧] واعلموا ياقوم أني لا أطلب منكم أجرًا مقابل دعوتي إيّاكم للتوحيد، وإنما أجري وثوابي علىٰ الله رب العالمين.

[١٢٨-١٢٩-١٣٠] ثم قال هود مستنكرًا علىٰ قومه: أتنهمكون في الدنيا وتنشغلون بها ببنائكم في كلِّ مكان مرتفع من الأرض بناءً عاليًا تُباهون به، وتراقبون به المارَّة، وأيضًا تَبنونَ مساكن وقصورًا شاهقةً عظيمةً، ومزارع دائمة الماء والخضرة، وتجعلون لها بركًا ومجابي للمياه كأنكم ستُخلَّدون في هذه الدنيا، والحال أنه لا سبيل إلىٰ الخلود لأحد، وإذا سطوتُم علىٰ أحدٍ فإنكم عتاةٌ مجرمون؛ تسطون بعنفٍ وجبروتٍ وقسوة.

[١٣١-١٣٢-١٣٣-١٣٤] ثم قال لهم هود: فاتقوا الله وآمنوا به، وأطيعون فيما أدعوكم إليه من التوحيد ونبذ الشرك، وخافوا من الله وحده الذي أمدكم بهذه النعم التي تعلمونها ولا تجهلونها، ومن جملتها: هذه الأنعام من الإبل والبقر والغنم، وأيضًا: أعطاكم كثرة النسل، وأعطاكم البساتين المثمرة، وسخّر لكم ينابيع الماء.

[١٣٥-١٣٦] وقال هود: اعلموا ياقوم إني أخاف عليكم – إن لم تؤمنوا وتتوبوا – أن ينزل بكم عذابٌ عظيمٌ من الله فيهلككم؛ فأجابوه في عتوٍّ وطغيان: اعلم أن وعْظَك إيّانا، وعدم وعظك عندنا سواء؛ فلا تتعب نفسك فلَن نؤمن لك.

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

[١٣٧-١٣٨] ثم قال قوم عاد لنبيهم هود عليه السلام: واعلم ياهود أن ما نحن فيه من هذه الأحوال والنعم إلّا مثل أحوال من قبلنا، وهذه أحوال الدهر. ونحن لن يمسَّنا العذاب ولن نذوق العقاب كما تزعم وتدعي.

[١٣٩-١٤٠] وهكذا كذّبت عادٌ نبيها هودًا عليه السلام، ولم يؤمنوا بما جاء به، فأهلكهم الله بريح شديدة وصفها سبحانه في آية أخرىٰ أنها ريح صرصر عاتية. ثم بيّن سبحانه أن في هذا الخبر، وفي ذلك الصراع بين التوحيد والشرك، وهلاك الكافرين؛ لآية وعلامة واضحة تدلّ علىٰ صدق رُسُلِنا وصحة ما جاؤوا به، ومع ذلك فإن أكثر الناس لا يؤمنون بالله وشرعه، ولا يصدّقون رُسُله، واعلم يانبي الله أن ربك لهو العزيز الغالب علىٰ أمره، فبعزَّته أهلك المكذبين المعاندين، وهو سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين؛ حيث نجاهم وحفظهم، ويسّر سبل الهداية لهم.

[١٤١] يخبر جل وعلا أن ثمودَ كذّبوا دعوةَ نبيِّهم صالح؛ حيث دعاهم إلىٰ التوحيد والإيمان، فلم يصدّقوه ولم يؤمنوا به، واعتُبر تكذيبهم له عليه السلام تكذيبًا لجميع الأنبياء والرسل، إذ دعوة الأنبياء واحدة، ودينهم واحد، فمن كذّب بأحدهم، فقد كذّب بهم جميعًا.

[١٤٢-١٤٣-١٤٤-١٤٥] ثم قال لهم نبيهم وأخوهم في النسب صالحٌ عليه السلام: ألّا تتقون الله وتخافون من عقابه بسبب شرككم وعبادتكم غيره معه؟!. وقال لهم: لقد اختصَّكم الله بإرسالي إليكم، وأنا أمينٌ فيما أبلغكم عن ربي سبحانه وتعالىٰ؛ فلا أتقوَّل ولا أفتري من قِبل نفسي، فاتقوا الله وآمنوا به، وأطيعونِ فيما أدعوكم إليه من التوحيد ونبذ الشرك. واعلموا ياقوم أني لا أطلب منكم أجرًا مقابل دعوتي إيّاكم للتوحيد، وإنما أجري وثوابي علىٰ الله رب العالمين.

[١٤٦-١٤٧-١٤٨] ثم قال صالح مستنكرًا علىٰ قومه: أتظنون أن الله يترككم في هذا النعيم والخيرات آمنين مطمئنين، وفي هذه البساتين الخضراء، والحدائق الغنَّاء، والعيون الجارية، والزروع المثمرة، والنخيل الذي له ثمر كثيرٌ، بدون حساب أو سؤال عن شكرها وعن الإيمان به وتوحيده؟.

[١٤٩] ثم ذكرهم نبيهم صالح بنعمة أخرىٰ فقال لهم: وتنحتون مساكنكم في الجبال نحْتًا بحذقٍ وتفنن، ثم تتكبرون بذلك وتفتخرون بمهارتكم وقوتكم في بناء القصور ونحت الجبال.

[١٥٠-١٥١-١٥٢] وبعد هذا الاستنكار قال لهم صالح مخوفًا إيّاهم: فاتقوا الله وآمنوا به، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من التوحيد ونبذ الشرك، ولا تطيعوا أمر المشركين المتجاوزين حدودهم، فإن من دأبهم الإفساد في الأرض بالشرك والصدّ عن سبيل الله، وليس من شأنهم الإصلاح في الأرض بالتوحيد والإيمان بالله والرسل.

[١٥٣-١٥٤] فأجابه قومه قائلين: لقد ذهب عقلك ياصالح، فقد سُحرْتَ سحْرًا شديدًا غطّىٰ علىٰ عقلك فلم تعدْ تعي ما تقول، فما أنت إلّا بشرٌ مثلنا، فكيف تدَّعي أن الله فضّلك علينا بأن أرسلك إلينا؟!، وإن كنت كما تقول أنك رسولٌ من عند الله، فأْتِنا بعلامةٍ خارقةٍ لا يستطيعها البشر تدل علىٰ أنك رسول من عند رب العالمين.

[١٥٥-١٥٦] فقال لهم صالح: هذه ناقةٌ تخرج من الجبل جعلها الله لكم آيةً ومعجزةً لتؤمنوا وتصدّقوا، وهذه الناقة تشرب ماء البئر يومًا، وأنتم تسقون مزارعكم وأنفسكم وبهائمكم يومًا، وإياكم أن تمسوها بسوءٍ من ضربٍ أو عقرٍ ونحو ذلك، فإنكم إن فعلتم أخذكم الله بعذابِه الشديد، وحلَّ بكم عقابُه الأليم.

[١٥٧-١٥٨-١٥٩] ولكنهم استمرُّوا في تكذيبهم وطغيانهم، وعقروا الناقة، أي: قطعوا عصب الركبة من الرِّجْل لكي تبرك؛ ثم لمَّا تيقنوا أن العذاب نازلٌ بهم أصبحوا نادمين علىٰ فعلتهم، ولكن بعد أن فات الأوان؛ فأهلكهم الله بالصيحة التي دمرتهم جميعًا، ثم بين سبحانه أن في هذا الخبر؛ لآية وعلامة واضحة تدلّ علىٰ صدق رُسُلِنا وصحة ما جاؤوا به، ومع ذلك فإن أكثر الناس لا يؤمنون بالله وشرعه، ولا يصدّقون رُسُله. واعلم يانبي الله أن ربك لهو العزيز الغالب علىٰ أمره، فبعزَّته أهلك المكذبين المعاندين، وهو سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين؛ حيث نجاهم وحفظهم، ويسّر سبل الهداية لهم.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ
لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾

[١٦٠] يخبر جل وعلا أن قوم لوطٍ كذّبوا دعوةَ نبيِّهم لوطٍ عليه السلام؛ حيث دعاهم إلىٰ التوحيد والإيمان، فلم يصدّقوه ولم يؤمنوا به، واعتُبر تكذيبهم له عليه السلام تكذيبًا لجميع الأنبياء والرسل، إذ دعوة الأنبياء واحدة، ودينهم واحد، فمن كذّب بأحدهم، فقد كذّب بهم جميعًا.

[١٦١] قال لهم نبيهم وأخوهم في الوطنية لوطٌ: ألّا تتقون الله وتخافون من عقابه بسبب شرككم وعبادتكم غيره معه وارتكابكم للفاحشة.

[١٦٢-١٦٣] ثم قال لهم: لقد اختصَّكم الله بإرسالي إليكم، وأنا أمينٌ فيما أبلغكم عن ربي سبحانه وتعالىٰ، فلا أتقوَّل، ولا أفتري من قِبَل نفسي، فاتقوا الله وآمنوا به، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من التوحيد ونبذ الشرك، وترك فاحشة اللواط.

[١٦٤] واعلموا ياقوم أني لا أطلب منكم أجرًا مقابل دعوتي إيّاكم للتوحيد، وإنما أجري وثوابي علىٰ الله رب العالمين.

[١٦٥-١٦٦] ثم قال لوط منكِرًا علىٰ قومه مُسْتَقْبِحًا فعلهم: أتُخالفون فطرتكم التي فطركم الله عليها فتنكِحون الذكور من الناس؟!، وتتركون ما هيَّأه الله لكم لتستمتعوا به من أزواجكم من النساء؟! بل أنتم قومٌ معتدون، وللفطرة مخالِفون.

[١٦٧] فأجابوه في غيٍّ محذرين إيّاه قائلين: لئن لم تكفَّ عنا يالوط، وعن الإنكار علَيْنا؛ لنطردنَّك من بلادنا، ولننفينَّك عنها.

[١٦٨] فقال لهم لوط: إنّي لعملكم الذي تعملون لَمِن المبغضين الكارهين له أشدّ ما يكون من البغض والكراهية.

[١٦٩-١٧٠-١٧١-١٧٢-١٧٣] ثم توجّه لوطٌ إلىٰ ربه متضرّعًا داعيًا قائلًا: اللهم يارب نجّني وأهلي مما يعمل هؤلاء القوم، ونجني يارب ممّا يحل بهم من العقوبة والعذاب. فاستجاب الله له فنجّاه وجميع أهله من العذاب؛ إلّا امرأته فإنها كانت من الباقين في العذاب، وذلك لكُفرها وعنادها، ثم دمر الله جميع الباقين وأهلكهم واستأصلهم؛ بأن أمطر عليهم حجارةً من سجيل نزلت عليهم من السماء، فقبُحت حال أولئك المهلَكين الذين لم يستجيبوا لِمَن أنذرهم، ولم يستمعوا لِمَن حذَّرهم، وخالفوا الفطرة في عملهم.

[١٧٤] ثم ختم سبحانه هذه الآيات مبينًا أن في قصة لوط مع قومه لآية وعلامة واضحة تدلّ علىٰ صدق رُسُلِنا وصحة ما جاؤوا به، ومع ذلك فإن أكثر الناس لا يؤمنون بالله وشرعه، ولا يصدّقون رُسُله.

[١٧٥] واعلم يانبي الله أن ربك لهو العزيز الغالب علىٰ أمره، فبعزَّته أهلك المكذبين المعاندين، وهو سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين؛ حيث نجاهم وحفظهم، ويسّر سبل الهداية لهم.

[١٧٦] يخبر جل وعلا أن أصحاب الأيكة كذّبوا دعوةَ نبيِّهم شعيب عليه السلام؛ حيث دعاهم إلىٰ التوحيد والإيمان، فلم يصدّقوه ولم يؤمنوا به، واعتُبر تكذيبهم له عليه السلام تكذيبًا لجميع الأنبياء والرسل، إذ دعوة الأنبياء واحدة، ودينهم واحد، فمن كذّب بأحدهم، فقد كذب بهم جميعًا. والأيكة بلدة تقع بين الأردن وبين الحجر وهي ذات بساتين ملتفَّة الأشجار.

[١٧٧] فقال لهم نبيهم شعيبٌ عليه السلام: ألّا تتقون الله وتخافون من عقابه بسبب شرككم وعبادتكم غيره معه؟! ولاحظ أن الله سبحانه لم يقل: (إذ قال لهم أخوهم شعيب)، كما قال لمن قبله من الأنبياء؛ لأن شعيبًا لم يكن منهم؛ فهو من أهل مدين.

[١٧٨-١٧٩] ثم قال لهم: لقد اختصَّكم الله بإرسالي إليكم، وأنا أمينٌ فيما أبلغكم عن ربي سبحانه وتعالىٰ، فلا أتقوَّل ولا أفتري من قبل نفسي، فاتقوا الله وآمنوا به، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه من التوحيد ونبذ الشرك.

[١٨٠] ثم قال لهم: واعلموا أني لا أطلب منكم أجرًا مقابل دعوتي إياكم للتوحيد، وإنما أجري وثوابي علىٰ الله رب العالمين.

[١٨١-١٨٢-١٨٣] ثم بدأ شعيب يعظهم ويأمرهم بإتمام معاملاتهم علىٰ الوجه المرضيِّ، فقال لهم: ياقوم أتمُّوا الكيْل لِمَن يكتال منكم، ولا تكونوا ممّن يظلم الناس فيأخذ منهم أموالهم عن طريق بخس المكيال والميزان، وأعطوا الناس حقَّهم بالميزان العدل المستقيم الذي لا ميْل فيه ولا عبث، وياقوم لا تنتقصوا من حقوق الناس التي هي لهم بأي شكل من أشكال الانتقاص، ولا تسيروا بالفساد والإفساد في الأرض ببقائكم علىٰ الشرك وإقامتكم علىٰ الظلم ومداومتكم علىٰ المعاصي.

[١٨٤] ثم قال لهم شعيب: وخافوا ربكم الذي خلقكم، وخلق الخليقة والأمم من قبلكم، واخشوا عقابه؛ وذلك بأن تؤمنوا به وتوحدوه، وتتركوا التطفيف والغش في الميزان والكيل.

[١٨٥-١٨٦] فأجابوه قائلين: إنك ياشعيب ممّن سُحِرَ سِحْرًا شديدًا فغلب علىٰ عقله، فلم يعد يدرِ ما يقول. وما أنت ياشعيب إلّا واحد من البشر مثلنا؛ لا مزيّة ولا فضيلة لك علينا، وما نحسبك إلّا كاذبًا في زعمك أنك رسولٌ من عند الله.

[١٨٧] ثم قالوا له علىٰ وجه التعنّت والاستكبار: إن كنت صادقًا فيما تقول؛ فادعُ الله أن ينزل علينا من السماء قطَعًا من العذاب تستأصلنا وتهلكنا جميعًا.

[١٨٨] ولكن شعيبًا لم يستجب لاستفزازهم، فقال لهم: إن ربي بما تعملون خبير، فهو عالمٌ بشرككم وبأقوالكم وعنادكم، وسيجازيكم علىٰ ذلك، أما أنا فما عليَّ إلّا تبليغكم ونصحكم وإنذاركم.

[١٨٩] ولكنهم استمرُّوا علىٰ تكذيبه وجَحْد ما أُرسِلَ به إليهم؛ حتىٰ نزل بهم عذاب الله، فجاءت سحابةٌ فاستظلوا بها واجتمعوا تحتها، فأنزلت عليهم نارًا حاميةً فأحرقتهم، وعن بكرة أبيهم أهلكتهم، في يوم شديد الهول، عظيم الكرْب. نسأل الله السلامة والعافية.

[١٩٠] ثم ختم سبحانه هذه الآيات مبينًا أن في قصة شعيب مع أصحاب الأيكة لآية وعلامة واضحة تدلّ علىٰ صدق رُسُلِنا وصحة ما جاؤوا به، ومع ذلك فإن أكثر الناس لا يؤمنون بالله وشرعه، ولا يصدّقون رُسُله.

[١٩١] واعلم يانبي الله أن ربك لهو العزيز الغالب علىٰ أمره، فبعزَّته أهلك المكذبين المعاندين، وهو سبحانه الرحيم بعباده المؤمنين؛ حيث نجاهم وحفظهم، ويسّر سبل الهداية لهم.

[١٩٢-١٩٣-١٩٤] واعلم يانبي الله أيضا أن هذا القرآن الذي جاء بهذه الأخبار المفصلة عن الأمم السابقة هو مُنَزَّلٌ من عند الله خالق الخلق أجمعين، وقد نزل به جبريل عليه السلام كاملًا منجمًا علىٰ قلبك لتنذر به الثقلين الإنس والجن، وتبين لهم سوء العاقبة لمن أصر علىٰ الكفر والفسوق.

[١٩٥] ثم بين سبحانه أن هذا القرآن نزل بلغةٍ عربيةٍ واضحةٍ بينةٍ لا خفاء فيها.

[١٩٦] واعلموا أيها الناس أن الرسول ﷺ وهذا القرآن مذكورٌ ومُبَشَّرٌ به في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل.

[١٩٧] ثم قال سبحانه: أولم يكفِ المكذبين والمشركين من كفار قريش عِلْمُ علماء بني إسرائيل - ممّن آمن وصدّق بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام رضي الله عنه - دليلًا علىٰ صحة القرآن، وأنه حقٌّ، وأنه منزَّلٌ من عند الله؟!.

[١٩٨-١٩٩] واعلموا لو أنَّ الله جل في علاه نزّل هذا القرآن علىٰ بعض الأعاجم الذين لا يتكلمون العربية، فجاء لكفار قريش وقرأه عليهم قراءةً صحيحةً لمَا آمنوا به، ولمَا صدّقوه أيْضًا.

وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

[٢٠٠-٢٠١] وبسبب إصرار هؤلاء المجرمين علىٰ رد الحق بل ومحاربته فقد جعل سبحانه جحود القرآن في قلوبهم ثابتًا حتىٰ طبع الله عليها بسبب ظلمهم واستكبارهم. ثم بين سبحانه أنه لا سبيل لهم للإيمان بهذا القرآن حتىٰ يروا بأعينهم العذاب الشديد الذي أعده الله لهم، وحينئذٍ لا ينفع إيمانهم إذ أن وقته قد فات، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم كانوا يظلمون.

[٢٠٢-٢٠٣] وهذا العذاب الأليم سوف ينزل عليهم فجأة وهم لا يتوقعون إتيانه ولا يشعرون به، فيقولون حينها: هل نحن مُؤَخَّرون قليلًا لنؤمن ونصدّق، ونستدرك ما فاتنا، فيتمنون الإمهال، ولكن الوقت قد فات.

[٢٠٤] بل اغترَّ هؤلاء المشركون بإمهال الله لهم، وأنه لم يعاجلهم بالعقوبة؟ فطلبوا استعجال نزول العذاب بهم استهزاءً به وتكذيبًا له.

[٢٠٥-٢٠٦] ثم قال جل شأنه: أرأيت يانبي الله إن متّعنا هؤلاء المجرمين في الدنيا فأطلنا أعمارهم، ووسعنا أرزاقهم، وأمهلناهم، ثم نزل بهم ما كانوا يوعدون من العذاب، وحلّ بهم ما كانوا يستعجلون من العقاب؟! فهل نَفَعَهُمْ يا رسول الله إمهالنا لهم؟!. ولا شك أن تمتعهم بالإمهال ليس شيئًا بالنسبة للعذاب السرمدي في الآخرة.

مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

سُورَةُ النَّمۡلِ

[٢٠٧] واعلموا أن إمهال الله لهم سنين طويلة وتمتعهم بكل أنواع اللذات والشهوات لن يغني عنهم شيئًا إذا حلّ عذاب الله بهم؛ بل عند حلول العذاب سينسون ما كانوا فيه من المتاع والنعيم، وقد جاء عند مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا: «يُؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبَغُ في النار صبغةً ثم يُقال له: ياابن آدم: هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله، يارب». نسأل الله السلامة والعافية.

[٢٠٨] ثم أخبر جل في علاه أنه ما أهلك أمةً من الأمم، ولا أخذهم بعذابٍ إلّا بعد أن أنذرهم وبعث فيهم رسولًا يأمرهم بعبادة الله وحده، وتَرْكِ عبادة ما سواه.

[٢٠٩] واعلموا أن الله أرسل لهم الرسل إنذارًا وعِظَةً لهم وإقامةً للحجّة عليهم، وما كان الله ظالمًا لأمةٍ من الأمم في تعذيبه إيّاهم.

[٢١٠-٢١١-٢١٢] واعلموا أيها المشركون المعاندون أن الشياطين لم تتنزل بالقرآن علىٰ محمد ﷺ - كما تزعمون -، ولا ينبغي لهم ذلك؛ بل إنهم لا يستطيعون فعل هذا الأمر لأنهم معزولون عن استماع القرآن أثناء نزوله؛ لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا حارقة؛ حالت بينهم وبين استراق السمع.

[٢١٣] واحذر يانبي الله أنْ تدعُ أحدًا غير الله، فينزل بك من العذاب ما ينزل بهؤلاء المشركين، فالله جل في علاه لا يرضىٰ أن يُشرَك معه أحدٌ في عبادته، لا مَلَكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسَل، ولا شك أن النبي ﷺ معصوم من الشرك ومما هو أقل من ذلك، ولكن يخاطب بذلك ليبلغ أمته لأنه هو الأسوة لهم.

[٢١٤] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن ينذر عشيرته وأقرب الناس إليه، ويحذرهم من عذاب الله أن ينزل بهم كما نزل بالمجرمين من قبلهم، وليعلموا أن قرابتهم منه ﷺ لن تنجيهم من عذاب الله إذا أصروا علىٰ الشرك والكفر والضلال.

[٢١٥] ثم أمر جل في علاه نبيه ﷺ أن يكون لين الجانب متواضعًا لمن اتبعه من المؤمنين، وقد فعل صلوات ربي وسلامه عليه.

[٢١٦] ثم قال له سبحانه وتعالىٰ: فإن عصوك يا نبي الله وخالفو أمرك، ولم يطيعوك؛ فأعلِن براءتك من أعمالهم، ومن مخالفتهم وعصيانهم.

[٢١٧-٢١٨-٢١٩] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يجعل توكله علىٰ صاحب العزة والغلبة، الرحيم بعباده وأوليائه، الذي يراه سبحانه حين يقوم للصلاة والعبادة وحده في آخر الليل، ويرىٰ تقلبه مع المصلين وهو يصلي بهم.

[٢٢٠] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنه هو السميع لأصوات عباده علىٰ اختلافها وتنوعها، العليم بظواهر الأمور وبواطنها، لا تخفىٰ عليه جل في علاه خافية من أمرك.

[٢٢١-٢٢٢-٢٢٣] ثم طلب جل وعلا من نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين: هل أخبركم علىٰ من تتنزل الشياطين؟ إنها تتنزل علىٰ الأفاكين الكذابين، والمنجمين والعرافين، وهؤلاء الشياطين يسترقون السمع من الملأ الأعلىٰ فإذا سمعوا كلمة حقٍّ أضافوا إليها مائة كلمة باطلة؛ وألقوا بها إلىٰ هؤلاء المنجمين الكذابين، أما محمد ﷺ فإن الله أكرمه وجعله الصادق الأمين.

[٢٢٤] واعلموا أيها الناس أن أكثر الشعراء يقوم شعرهم علىٰ الباطل والكذب والزور، وأن أكثر من يتبعهم هم أهل الضلال والفساد من البشر.

[٢٢٥] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ: ألم تنظر يانبي الله أن هؤلاء الشعراء يخوضون في كل فن من فنون الكذب والفحش.

[٢٢٦] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الشعراء يقولون ما لا يفعلون؛ فيبالغون في مدح أهل الباطل وانتقاص أهل الحق؟.

[٢٢٧] ثم استثنىٰ جل وعلا الشعراء الذين آمنوا بالله وصدقوا الرسول ﷺ وعملوا الأعمال الصالحة، وأكثروا من ذكر الله تعالىٰ، ويقولون الحق ويدافعون عن الإسلام، وانتصروا من بعد ما ظُلموا من أعدائهم، ثم هدد سبحانه الظلمة والفساق من الشعراء وغيرهم الذين ظلموا غيرهم بهجائهم في شعرهم واتهامهم بتهم باطلة، وأخبر بأن منقلبهم سوف يكون سيئًا جزاءَهم وبيلًا.

سورة النّمل

سورة النمل مكيّة وآياتها ثلاث وتسعون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. ثم أشار سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن آيات هذا القرآن وهذ الكتاب العظيم التي أنزلها علىٰ نبيه ﷺ في هذه السورة وغيرها من السور هي آيات بينات واضحات، وضح الله فيها شئون عباده ومصالحهم في الدنيا، وأعمالهم التي يفوزون بسببها برضوان الله والجنة في الآخرة. [٢] ثم بين سبحانه أن هذه الآيات المقصود منها هو هداية الناس وإخراجهم من ظلمات الكفر إلىٰ نور الإيمان، وتبشير المؤمنين بعظيم الأجر والثواب الذي سيحصل عليه من عمل بهذه الآيات، كما أنها تزيدهم إيمانًا بنعم الله وفضله علىٰ عباده المتقين. [٣] ثم بين سبحانه أن من صفات هؤلاء المؤمنين: أنهم يقيمون الصلوات الخمس المفروضة عليهم كاملة بشروطها وأركانها وواجباتها في أوقاتها المحددة، ويؤدون الزكاة المفروضة لمستحقيها بإخلاص وطيب نفس، ويوقنون بالحياة الآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب، وجنة ونار.

[٤] واعلموا أن الذين لم يصدقوا بالدار الآخرة وكذبوا الرسل وأنكروا البعث، زين الله لهم أعمالهم القبيحة وحببها إليهم، كما قال ﷺ: «**حفت النار بالشهوات**»[1]؛ حيث استهوتهم الملذات وتزيينها لهم مع أنها تعتبر سيئات، ولكون الكفر لا يطالبهم بعبادات ولا ينهاهم عن محرمات، وأنه لا حساب ولا بعث؛ فتحرروا بذلك من تبعات الإيمان من استعداد للقيامة، ومن صلاة وصيام وأنواع العبادات، لذلك تجدهم يسرحون ويمرحون ويتخبطون ويترددون في هذه الدنيا عبيدًا لأهوائهم بلا ضابط ولا قيود. [٥] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالآخرة أعد الله لهم أشد أنواع العذاب، وهم في الآخرة أشد الناس خسارة، ولا شك أن تزيين أعمال الكفار لهم جزاءً وليس ابتداءً. [٦] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أن هذا القرآن الذي نزل عليه بواسطة جبريل عليه السلام، هو من عند الله الحكيم في خلقه، العليم الذي أحاط بكل شيء علمًا ؛ لا كما يزعم الكفار أن النبي ﷺ هو الذي يأتي به من نفسه أو أنه من أساطير الأولين التي زعموا أنها تملىٰ عليه. [٧] واذكر يانبي الله يوم أن قال موسىٰ لأهله: انتظروا هنا فإني رأيت نارًا سأذهب إليها لكي آتيكم منها بخبر يدلني علىٰ الطريق المؤدية إلىٰ مصر، أو آتيكم بقطعة من النار تستدفئون بها، والحقيقة أنها ليست نارًا، وإنما هي نور خلقه الله، ولكنَّ موسىٰ ظنه نارًا، ولذلك فإن الله خاطبه بحسب ظنه. فلمّا وصل إليها وجد الهدىٰ والدفء الحقيقي والاصطفاء الرباني.

[٨] ثم نادىٰ جل وعلا موسىٰ وأخبره أن هذا المكان الذي فيه هذا النور مكان مبارك مقدس؛ فبورك من في النور وهو موسىٰ، وبورك من حول النور وهم الملائكة الكرام؛ ثم نزه سبحانه نفسه عن النقص والعيوب، وأخبر أنه رب العالمين الذي علا فوق جميع مخلوقاته. [٩] ثم نادىٰ الله موسىٰ قائلًا: ياموسىٰ إني أنا الله الذي لا إله إلّا أنا، وأنا الإله الحق المستحق للعبودية وحدي دون من سواي، وأنا العزيز الغالب الذي قهر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾

جميع الكائنات، الحكيم في أمره وفعله، وخلقه وتدبيره. [١٠] ثم أمر سبحانه موسىٰ أن يلقي عصاه التي في يده، فاستجاب وألقاها، فانقلبت حيَّةً عظيمة، سريعة الحركة، فخاف منها موسىٰ خوفًا عظيمًا ولّىٰ بسببه هاربًا؛ فناداه سبحانه مطمئِنًا إيّاه، فقال له: ياموسىٰ لا تخف، إنه لا ينبغي لِمَن اصطفيتهم لرسالتي أن يخافوا غير الله. [١١] ثم استثنىٰ سبحانه فبين أن من تجاوز حده فوقع في الظلم ثم تاب إلىٰ الله من بعد ظلمه توبة نصوحًا، وبدّل سيئاته إلىٰ حسنات؛ فإن الله يقبل توبته، ويقيل عثرته؛ لأنه هو الغفور الذي يغفر الذنوب جميعًا، والرحيم الذي وسعت رحمته كلَّ شيء. [١٢] ثم أرىٰ جل وعلا موسىٰ معجِزةً ثانيةً تؤيده وتدل علىٰ أنه رسول من عند الله حقًّا، فقال له: أدخل ياموسىٰ يدك في فتحة قميصك الذي علىٰ صدرك، ثم أخرجها فستجدها بيضاء ناصعةً لا برص فيها ولا نقص؛ بل إنها ستُبهِر الناظرين، وتأخذ بقلوبهم، وذلك ضمن تسع آيات نعطيك إيَّاها، ونُؤيِّدك بها، لتدعو فرعون وقومه للإيمان بالله وحده لا شريك له، إن فرعون وقومه كانوا خارجين عن طاعة الله وتوحيده، مقيمين علىٰ الشرك به وتنديده. [١٣] ثم بين سبحانه أن موسىٰ امتثل أمر الله، وذهب يدعو فرعون وقومه، وعرض عليهم الآيات البينات المثبتة لصدقه وأنه رسول من عند الله، فما كان منهم إلّا أن جحدوا واستكبروا وطغوا وعاندوا، وعزَّ عليهم أن يتركوا كبرياءهم وهيمنتهم، وقالوا: ما هذا الذي جئتنا به ياموسىٰ إلّا سحرٌ بينٌ واضح ظاهرٌ لكل أحد، لا شبهة عندنا ولا شكَّ في ذلك!!

---

(١) اخرجه البخاري (٦٤٨٧)، ومسلم (٢٨٢٢)، واللفظ له.

وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ
وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ
ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾
وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ
أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ
مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

[١٤] وبعد أن جاء موسىٰ عليه السلام بالمعجزات الدالة علىٰ صدقه وصحة نبوته؛ عرضها علىٰ فرعون وقومه فكذبوا بها وقالوا هذا سحر مبين، مع تيقنهم وتأكدهم أنها من عند الله، ولكن كذبوا بها ظلمًا واستعلاءً وتكبراً علىٰ الحق، فانظر يانبي الله كيف كان مصير هؤلاء المجرمين المفسدين الذين كذبوا بالله وآياته ورسله، لقد كانت نهايتهم أن الله أغرقهم في البحر مع جنودهم وعدتهم وعتادهم الحربي.

[١٥] يخبر جل وعلا أنه منح نبيه داود وابنه سليمان عليهما السلام علمًا غزيرًا وَحِكْمَةً وَحُكْمًا، فعملا بهذا العلم وأثنيا علىٰ الله وشكراه علىٰ إكرامه وتفضيله لهما علىٰ عالمي زمانهم، وهذه الآية تدل علىٰ شرف العلم وارتفاع مكانة أهله.

[١٦] ثم أخبر جل وعلا أن سليمان ورث من والده داود النبوة والعلم والملك، وقال سليمان لقومه: - ممتثلًا أمر الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحىٰ:١١] -،: يأيها الناس لقد علمنا وفهمنا الله كلام الطير، وأعطانا سبحانه كل ما نحتاجه وننتفع به؛ فسبحان الوهاب الفعال لما يشاء، واعلموا أن كل ما جاءنا من الله لهو الفضل الواضح والاحسان الظاهر منه عز وجل.

[١٧] وَجُمِعَ لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، وكانوا علىٰ كثرتهم يقفون منتظمين لا يتجاوز أحدهم مكانه أو وظيفته المسئول عنها.

[١٨] ولما سار الجيش في قوة ونظام مرُّوا علىٰ وادٍ تعيش فيه النمل؛ فلما رأتهم نملة قالت علىٰ سبيل النصح والتحذير للنمل: يأيها النمل ادخلوا أماكنكم التي تسكنون فيها حتىٰ لا يهلكنكم سليمان وجنوده وهم لا يعلمون؛ فأراه جل وعلا وأرانا قدرته وحكمته في قوله تعالىٰ: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

[١٩] ثم بين سبحانه ما فعله سليمان بعد أن سمع ما قالته النملة بأن تبسم لقولها؛ وقال داعيًا ربه: يارب ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلىٰ والديَّ، ووفقني للعمل الصالح وتقبله مني، وأدخلني برحمتك وإحسانك في نعيم جنتك مع عبادك الصالحين الذين رضيت عنهم ورضوا عنك.

[٢٠] ولمّا تفقد سليمان عليه السلام أتباعه وجنوده قال: أين الهدهد فإني لا أراه بين الطيور؟، فهل كان من الغائبين؟

[٢١] ولما تأكد سليمان أن الهدهد كان غائبًا قال متوعِّدًا إياه: لأعذبنّه عذابًا شديدًا لغيابه - دون إذن مني -، أو لأذبحنَّه جزاءً له علىٰ ما فعل، وعبرةً لغيره، أو لابد أن يأتيني بسبب واضح وحجة قاطعةٍ علىٰ تغيبه وتخلفه.

[٢٢] فلم يتأخر الهدهد كثيرًا، ثم جاء إلىٰ سليمان عليه السلام فقال له مُبْدِيًا سبب تأخره وتغيبه: إنه قد حصل لي علمٌ مهم، لم تطلع أنت عليه - مع سعة علمك -، لقد جئتك يانبيَّ الله من عند قبيلة سبأ التي باليمن بخبر خطيرٍ يقينيٍّ لا شكَّ فيه.

وهذا درس في القيادة، فالَواجب علىٰ من يرأس الناس والجيوش أن لا يغيب عنه شأن من الأمور العامة، وأن تكون له بصيرة بمن هم تحت قيادته؛ لأنهم إذا أمنوا العتب أساؤوا الأدب، وإذا غابت الرقابة حصلت الاختراقات والاختلافات والاختلاسات، ولذلك فبسبب الحَزْمِ والمتابعة آمنت وأسلمت لسليمان اليمن كلها.

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾

[٢٣] ثم قال الهدهد لسليمان: يانبي الله إني وجدت امرأةً – قيل أنها بلقيس –، تملك قبيلة سبأ، وأوتيت من كل شيء مما يكون للملوك في ذلك الزمان من مظاهر القوة والحُكْم، ووجدتُ لها كُرسيًّا عظيمًا هائلًا تجلس عليه.

[٢٤] ثم قال الهدهد: ولقد وجدت يانبي الله هذه المرأة وقومها يُشركون بالله، فيعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله، وقد حسَّن لهم الشيطان شركَهم؛ فصدَّهم وأبعدهم عن طريق التوحيد والإيمان، فوقعوا في الضلالة والغواية.

[٢٥] ثم قال الهدهد: لقد حسَّن لهم الشيطان أعمالهم حتىٰ تركوا السجود لله وحده لا شريك له؛ الذي يُظهِر ما هو مخفيٌّ ومخبوءٌ في السماء والأرض كالمطر والزرع والنبات والدواب، والذي يعلم ما تخفون في صدوركم، وما تُعلنون.

[٢٦] ثم أخبر جل في علاه أنه لا معبود بحقٍّ سواه، وأنه ربُّ العرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات.

[٢٧] فقال سليمان عليه السلام للهدهد: سننظر ونتأمل في هذا الخبر الذي جئتنا به، هل أنت صادقٌ فنعفو عنك؟، أم أنت من الكاذبين الذين يُخبرون بخلاف الواقع؟.

[٢٨] ثم كتب سليمان عليه السلام كتابًا إلىٰ ملكة سبأ، ثم أمر الهدهد أن يحمله إليهم، ويلقيه عليهم، ثم يتنحَّىٰ جانبًا، ويستمع إليهم، وإلىٰ تعليقهم علىٰ هذا الكتاب.

[٢٩] ففعل الهدهد ما أُمِرَ به، فألقىٰ الكتاب، وأخذ يستمع، فأخذت الملكة الكتاب ثم جمعت أشراف قومها وقالت لهم: إنه قد جاءنا كتاب عظيم الشأن، جليل القدر.

[٣٠] ثم قالت هذه الملكة: وهذا الكتاب جاءني من مِلِكٍ عظيمٍ من ملوك الأرض، يقال له: سليمان، ومضمونه: بسم الله الرحمن الرحيم.

[٣١] ثم قال الملكة: وإن سليمان يقول في هذا الكتاب: لا تعلوا عليَّ ولا تكونوا خارجين عن ملكي، وأتوني مسلمين لله منقادين خاضعين لأمري.

[٣٢] ثم قالت الملكة لكبار رجال دولتها وأشرافهم: ياأيها القوم أشيروا عليَّ وأخبروني ماذا أفعل في هذا الأمر، فما كنتُ أنا مستبدّةً برأيي ولا باتّةً في الأمر حتىٰ آخذ رأيكم ومشورتكم.

[٣٣] فأجابوها قائلين: نحن أصحاب قوة وشدّة وبأس، ومعرفة بالحرب، فإذا تطلب الأمر ذلك؛ فنحن مستعدون، ولكن الأمر راجعٌ إليك، والتدبير والبتَّ فيه موكولٌ لك، فانظري ما فيه المصلحة، ونحن طائعون لأمرك، عاملون برأيك.

[٣٤] فقالت لهم: إن من عادة الملوك إذا اقتحموا قريةً ودخلوها بغير صلح؛ أنهم يعيثون فيها الفساد، بالقتل والنهب، والتخريب والسلب، وأنهم يصيِّروا حال سادتها الأعزاء إلىٰ مهانين أذلّاء، وهذه عادة الملوك لإحكام سيطرتهم علىٰ الناس، وإلقاء المهابة في قلوبهم.

[٣٥] ثم قالت الملكة لهم: أيها الملأ سأختبر هؤلاء القوم، وسُأرسل إليهم بهدية من نفائس الأموال، فأنظر هل يستمر علىٰ رأيه وقوله؟ أم سيقنع بالهدية، ويصرف النظر عنَّا، أو سيصر علىٰ أن نخضع لحكمه؟.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

[٣٦] فلمّا جاء السفيرُ حامل الهدية إلىٰ سليمان عليه السلام؛ تغيَّظ منه، ومن تصرُّفِ قومه، وقال له منكرًا عليه: أترضونني بمالٍ وتُغروني به؟!! فالذي أعطاني الله من الملك والنبوة والمال خيرٌ وأفضل مما أعطاكم، فمثل هذه الهدية لا أفرحُ بها؛ بل تفرحون بها أنتم ومن علىٰ شاكلتكم من أهل الدنيا.

[٣٧] ثم قال سليمان لهم: ارجعوا إلىٰ قومكم بهديتكم، وأخبروهم أنا سنأتيهم بجنودٍ وحشود لا طاقة لهم بمقابلتها، ولا بالوقوف أمامها، ولنخرجنّهم من أرضهم ومملكتهم أذلّةً صاغرين في غاية الذلّ والهوان.

[٣٨] ثم قال سليمان عليه السلام للملأ من حوله من الجن والإنس: من منكم يستطيع أن يأتيني بسرير هذه الملكة قبل أن تأتي هي وقومها إلينا مستسلمين طائعين؟!

[٣٩] فقال جنيٌّ نشيط جدًّا: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه، وأنا قوي أستطيع حمله، وأمينٌ آتيك به كما هو، لا أنقُص منه شيئًا.

[٤٠] ثم قال رجلٌ عنده علمٌ من الكتاب، وقيل: أنه يعرف اسم الله الأعظم، قال لسليمان عليه السلام: أنا آتيك بالعرش في لحظة واحدة، وهي مقدار فتح عينيك وإغماضها، فأذن له سليمان عليه السلام، فدعا الله جل في علاه باسمه الأعظم؛ فإذا بالعرش ماثلًا أمامه، فقال سليمان حينها: هذا من فضل ربي عليَّ ورحمته بي، وذلك ليختبرني أأشكر وأنسب الفضل لله وحده، أم أكفر بنعمة الله فأترك شكرها، ثم قال عليه السلام: ومَنْ شَكَرَ نِعَمَ الله عليه فإن نفع ذلك عائدٌ عليه، وأما من جحدها فإنه جل وعلا هو الغني عن خلقه، وهو سبحانه الكريم الذي يتكرم ويتفضل علىٰ عباده بنعمه.

[٤١] ثم قال سليمان عليه السلام لِمَن حوله: اصنعوا في عرشها بعض التغيير بزيادة فيه، ونقصان منه؛ لنختبر بذلك حصافتها وفطنتها، فننظر أتهتدي إلىٰ عرشها فتعرفْه أم تكون من الذين لا يهتدون؟.

[٤٢] فلما وصلت الملكة إلىٰ سليمان عليه السلام عرض عليها عرشها بعد أن أجرىٰ عليه بعض التغييرات، وقال لها: هل هذا العرش مثل عرشك؟ فقالت: إنه يشبهه ويقاربه، ولم تقل: نعم هو، ولم تقل: لا ليس هو، وإنما قالت: كأنه هو؛ فكان هذا أحسن وأفضل جواب منها؛ وكما قال ابن كثير: وهذا غاية في الذكاء والحزم، ثم قال سليمان: لقد أصابت هذه المرأة وعرفت الحق، ولكننا أوتينا العلم بالله وبقدرته من قبلها، وكنا متبعين لدين الإسلام منقادين لأمر الله جل وعلا.

[٤٣] ثم بين سبحانه الأسباب التي منعت هذه الملكة من الدخول في دين الإسلام، ومن عبادة الله وحده لا شريك له؛ أنها نشأت بين قوم يعبدون الشمس، فجحدوا نعم الله وعبدوا غيره، وأيضًا وجدت آباءها هكذا علىٰ الضلال فاتبعتهم وسارت مسارهم.

[٤٤] ثم قيل للملكة: ادخلي القصر، فلمّا رأت صحنه ظنت أنه ماء فكشفت عن ساقيها لتخوض فيه، فقال لها سليمان عليه السلام: إنه صرح مُمَلَّسٌ من زجاج صافٍ، يُرىٰ من تحته الماء يجري، كأنه ليس دونه شيء، فلمّا رأتْ ذلك اعترفت بعظمة الله وبنبوة سليمان عليه السلام ورسالته، فتابت من شركها، واعترفت ببطلان ما كانت عليه، ثم أذعنت وأسلمت لله رب العالمين.

قال الشيخ الشعراوي: أخذتها عزة الملك فقالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾، ولم تقل: أسلمت تبعًا لسليمان كشأن أتباع الأنبياء.

[٤٥] يخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قبيلة ثمود أخاهم في النسب صالحًا، فأمرهم أن يعبدوا الله وحده، ولا يدعوا معه إلهًا آخر، فانقسم الناس بعد دعوته إلىٰ فريقين متخاصمين: فريقٌ آمن بالله ووحده، وصدّق برسوله، وفريقٌ جحد بآيات الله وكذّب رسوله.

[٤٦] قال صالح عليه السلام للمكذبين الجاحدين: لم تؤثرون الكفر علىٰ الإيمان وتستعجلون عقوبة الله، وتقولوا: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]؟ وتؤخرون الإيمان بالله الذي هو سبب فلاحكم ونجاتكم، فهلا استغفرتم الله وآمنتم به واتبعتم ما أدعوكم إليه لعله جل وعلا أن يرحمكم ويعفو عنكم.

[٤٧] فأجابه قومه بكبرياء قائلين: لقد تشاءمنا بك ياصالح، وبمن اتبعك، فقد توالت علينا المصائب بسببك، فرد عليهم صالح عليه السلام فقال: ما أصابتكم المصائب إلّا بسبب شرككم وذنوبكم، واعلموا ياقوم أنكم تُختَبرون، وتُمتحَنون بالسراء والضراء، وبالخير وبالشرّ.

[٤٨] ثم أخبر سبحانه أنه كان في مدينة الحِجْر وهي مدينة صالح تسعةُ نفرٍ شأنهم ودأبهم الإفساد في الأرض والتخريب فيها، ولا يقصدون إلىٰ إصلاحها أبدًا.

[٤٩] ثم أخبر سبحانه إنَّ هؤلاء النفر التسعة تعاهدوا بينهم، وأقسم كل واحد منهم للآخر أن يأتوا إلىٰ صالح عليه السلام ليْلًا فيقتلونه ويقتلون أهله، ثم يقولون لأولياء دمه: والله ما شهدنا مقتلهم ولا حضرناه، وسوف يقسمون أنهم لصادقون في ذلك.

[٥٠] ثم إن هؤلاء النفر دبَّروا لقتل صالح عليه السلام بهذه الطريقة، وخطّطوا لذلك في خفية، ولكن الله جل في علاه دبَّر لصالحٍ وأتباعه وخطّط لهم ونجاهم، وأخذ سبحانه هؤلاء المجرمين بالعذاب بغتةً وهم لا يشعرون.

[٥١] فانظر يانبي الله إلىٰ عاقبة أمر هؤلاء المجرمين، ومصير تخطيطهم ومكرهم، هل حصل مقصودهم؟! وهل تمَّ مرادهم؟! إنهم عوقبوا بنقيض ما قصدوا، فدمّر الله هؤلاء التسعة، وقومهم الكفرة أجمعين.

[٥٢] وانظر يانبي الله إلىٰ مساكن هؤلاء الخاوية التي ليس فيها أحد منهم، فقد أُبيدوا جميعًا بسبب ظلمهم لأنفسهم بالشرك، وبسبب تكذيبهم لنبيهم، وجحدهم لآيات ربهم، واعلموا أن في هذه القصة لعلاماتٍ واضحاتٍ، وعبر بيناتٍ لقوم يعلمون الحقائق ويُبصرون ما حلّ بالمكذبين فيتعظونً ويعتبرون.

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾

[٥٣] وأنجىٰ جل وعلا الذين آمنوا به وبرُسُله من العذاب والهلاك، وكان من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم كانوا يجعلون بينهم وبين عذاب الله وقايةً بتوحيده، والإيمان به وفعل أوامره، وبترك الشرك وتجنبه، وترك ما نهاهم الله عنه.

[٥٤] واذكر يانبي الله لوطًا عليه السلام يوم أن قال لقومه علىٰ سبيل الزجر والتوبيخ: أتأتون هذه الجريمة القبيحة وأنتم تعلمون قبحها وقذارتها.

[٥٥] ثم قال منكرًا عليهم، مُسْتَقْبِحًا فعلهم: أتُخالفون فطرتكم التي فطركم الله عليها فتنكِحون الذكور من الناس؟!!، وتتركون ما هيَّأه الله لكم لتستمتعوا به من أزواجكم من النساء؟! بل أنتم قومٌ تجهلون بشاعة ما تقومون به، ولا تخافون مقدار العذاب الذي سيلحق بكم بسبب هذه الفعلة الشنيعة.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٞ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرَۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

[٥٦] فلم يكن لهم جوابٌ إلّا أن قال بعضهم لبعضٍ: أخرجوا لوطًا ومن آمن به من قريتكم، ثم قالوا مستهزئين: إنهم أناس يتنزهون عما نقوم به، ويستقذرونه، يعني: أنهم لم يعيبوا عليه إلا أنه طاهر ويطلب أن يتطهروا، وهكذا في كل زمان ومكان تكون الاستقامة والهداية والطهارة والصلاح عيوبًا عند الفساق.

[٥٧] فأنجينا لوطًا وأهله من العذاب الذي سيحلُّ بقومه وسينزل بهم، واستثنينا من النجاةِ امرأتَه، فقد كانت من الباقين في العذاب، ومن المُهلَكين.

[٥٨] فأنزل جل وعلا علىٰ قوم لوط عذابًا بأنْ أمطر عليهم حجارةً من سجِّيلٍ اخترقت رؤوسهم فأهلكتهم جميعًا، فبئس المطر مطرهم، وبئس العذاب عذابهم، فقد قامت عليهم الحجة، وجاءهم النذير فلم يؤمنوا؛ بل كذّبوا وعاندوا.

قال ابن عطية: إن هذه الآية أصل لمن جعل حد اللوطي الرجم، ومذهب مالك رجم الفاعل والمفعول به، ومذهب الشافعي أنه يعامل كالزاني؛ حيث إن الزاني البكر يجلد والثيب يرجم، ومذهب أبي حنيفة: أنه يعزر ولا حد عليه.

[٥٩] وقل يانبي الله: الحمد لله الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء؛ فهو صاحب النعم والمنن علىٰ عباده، وقل: سلام وتحية علىٰ عباد الله وأوليائه الذين اختارهم سبحانه لحمل رسالته وتبليغ دعوته، وسَلِموا من ارتكاب المنكرات والمعتقدات الفاسدة، ثم اسأل المشركين من قومك يانبي الله: هل الله جل في علاه الذي يملك النفع والضر خير، أم هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله التي لا تملك لكم ضرًّا ولا نفعًا.

وقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، قيل: إن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «**بل الله خير وأبقىٰ وأجل وأكرم**»[1].

[٦٠] واسألهم يانبي الله: مَن الذي خلق السماوات والأرض؟ ومَن الذي أنزل من السماء الماء الذي تنبت به الحدائق والبساتين ذات المناظر الجميلة؟ وأنتم تعلمون أن لا يمكن لأحد من البشر أن يُنبت هذه الأشجار، هل يوجد إلهٌ آخر مع الله فعل ذلك حتىٰ تعبدوه من دون الله، وتشركوه في العبادة؟؛ بل اعلم يانبي الله أن هؤلاء المشركين قوم يعدلون بالله غيرَه، ويسوون به من سواه بغير برهان.

[٦١] واسألهم يانبي الله: مَن الذي سوَّىٰ لكم الأرض وهيأها لكم لتستقروا عليها؟ ومَن الذي جعل في وسط الأرض أنهارًا ينتفع بها العباد؟ ومن الذي ثبَّت الأرض وأرساها بهذه الجبال لئلّا تتحرك وتضطرب؟ ومَن الذي جعل حاجزًا بين البحرين (العذب والفرات) فلا يختلطان ولا يمتزجان إذا التقيا؟!؛ بل يحتفظ كل واحد منهما بخواصّه؟! هل يوجد إلهٌ آخر مع الله فعل ذلك حتىٰ تعبدوه من دون الله، وتُشركوه في العبادة؛ بل اعلم يانبي الله أن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون توحيد ربهم، ولا ينزهونه عمّا لا يليق به جلَّ في عُلاه.

[٦٢] واسألهم يانبي الله: مَن الذي يجيب المضطر الذي أقلقته الكروب؟! ومَن الذي يُنقذ من احتار وضلَّ في الدروب؟! ومَن الذي يغيث من تعسَّر عليه المطلوب؟! إلّا الله وحده، سبحانه جل في علاه، علَّام الغيوب، ومَن الذي يكشف الضر - من مرض وفقرٍ - إذا نزل بالعبد؟! إلّا الله؟!! ومن الذي يجعلكم خلفاء في الأرض تخلفون من سبقكم، ويخلفكم من بعدكم؟! هل يوجد إلهٌ آخر مع الله فعل ذلك حتىٰ تعبدوه من دون الله، وتُشركوه في العبادة؟! إنكم قليلًا ما تتعظون فترجعون إلىٰ الحقّ.

[٦٣] واسألهم يانبي الله: مَن الذي يدلّكم ويرشدكم في ظلمات البر والبحر؟! ، ومَن الذي يرسل الرياح قبل المطر مبشراتٍ بقرب نزوله فيفرح بذلك العباد؟! هل يوجد إلهٌ آخر مع الله فعل ذلك حتىٰ تعبدوه من دون الله، وتُشركوه في العبادة؟! فتنزَّه الله وتقدَّس عن إشراك هؤلاء المشركين معه آلهة أخرىٰ؛ فهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٩١٥)، من حديث عليِّ بن الحسين مرسلًا.

أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

٣٨٣

[٦٤] واسألهم يانبي الله: مَن الذي يبدأ الخلق ويوجِده مِن العدم؟! ومَن الذي يُفنيه وينهيه من الوجود؟ ومَن الذي يعيد خلقَه مرَّةً أخرىٰ؟! ومَن الذي يرزقكم بإنزال المطر مِن السماء؟ وبإنبات الزرع من الأرض؟! هل يوجد إلهٌ آخر مع الله فعل ذلك حتىٰ تعبدوه من دون الله، وتُشركوه في العبادة؟! فإن ترددوا أو سكتوا فقل لهم يانبي الله: هاتوا أدلتكم وحججكم فيما تدّعون بأن مع الله آلهة أخرىٰ إن كنتم صادقين.

وهذه الاستفهامات التي تكررت في قوله: ﴿أَمَّنْ﴾، هي للتقرير، وإثبات ما يعتقده المؤمنون بالخالق، وتوبيخ للمشركين الضالين عن الهدىٰ.

[٦٥] ثم قل لهم يانبي الله: إنه لا أحد يعلم غيب السماوات والأرض إلّا الله وحده، فهو سبحانه الذي اختصَّ بذلك دون من سواه، وما يدري الناس ولا يعلمون متىٰ يُبعثون من قبورهم للجزاء والحساب.

[٦٦] يخبر جل علا أن الكفار تدارك وتتابع علمهم أنه ليس هناك آخرة ولا بعث بعد الموت؛ بل إنهم في شك وريبة من ذلك، وقد تكرر إنكارهم للبعث حتىٰ تقرر في نفوسهم أنه لا بعث، بل الأعظم من ذلك أنهم قد عميت قلوبهم عمَّا كان يقوله ﷺ عنها، وكذبوه وأنكروا وقوعها؛ بل إنهم قالوا عن الآخرة والبعث علىٰ سبيل الاستهزاء: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:٧].

[٦٧] وقال الذين جحدوا بآيات الله وكفروا بالبعث وباليوم الآخر: هل سنُبعَثُ نحن وآباؤنا من قبورنا مرَّةً أخرىٰ بعد أن نصير ترابًا ورمادًا؟!

[٦٨] ثم قالوا متمادين في تكذيبهم بالبعث: لقد وُعِدْنا هذا البعث نحن وآباؤنا من قبلنا، فلم يحصل شيء من ذلك، فما هذا البعث إلّا مِن قبل حكايات الأولين وقصصهم وخرافاتهم المسطَّرة في كتبهم التي يقطعون بها أوقاتهم ويتسلوْن بها في سمرهم.

[٦٩] فقل لهم يانبي الله: سيروا في الأرض وامشوا فيها، وانظروا بأعينكم إلىٰ آثار من قبلكم من المكذِّبين، وتفكروا واعتبروا وتدبروا كيف كانت نهاياتهم؟! فالله الذي أحياهم ثم أماتهم قادرٌ علىٰ إيجادهم مرةً أخرىٰ لو كنتم تعقلون.

[٧٠] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن لا يحزن علىٰ هؤلاء المكذّبين، ولا من ردودِهم عليك، ولا من مكرهم بك، وكيدهم لك، ولا يضيق صدرك بذلك.

[٧١] ويسأل هؤلاء المكذبون باستهزاء وعناد ويقولون: متىٰ يتحقق هذا الوعد بالعذاب الذي وعدتنا به؛ إن كنت صادقًا أنت وأتباعك فيما تَعِدُنا به؟!

[٧٢] فقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: لا تستعجلوا العذاب فعسىٰ أن يكون قد اقترب لكم بعض الذي تستعجلون من العذاب، قال المفسرون: الذي رَدِفَ لهم هو هزيمتهم وقتل زعمائهم في وقعة بدر.

[٧٣] واعلم يانبي الله أن ربك ذو فضْل علىٰ جميع الناس، فلا يُعاجل المكذِّب بالعقوبة علَّه يتوب ويهّتدي، ولكن أكثر الناس يشركون بالله، ولا يعترفون له بما أنعم به عليهم.

[٧٤] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أنه يعلم ما تُخفيه صدور هؤلاء المشركين وتنطوي عليه، ويعلم ما يُعلنون وما يجهرون به.

[٧٥] وأخبره سبحانه بأن ما من شيء يغيب ويخفىٰ عن المخلوقين في السماوات والأرض إلّا وهو مسطّرٌ في كتاب واضح بيّن؛ ألا وهو اللوح المحفوظ.

[٧٦] ثم ذكر جل وعلا أن من فضل الله وإحسانه علىٰ بني إسرائيل وعلىٰ الناس أجمعين أن أنزل هذا القرآن العظيم النفع الشريف الذكر، وأن فيه بيانًا لِمَا اختلف فيه بنو إسرائيل؛ مثل اختلافهم في المسيح وأمه عليهما السلام، واختلافهم في عزير، واختلافهم في البعث، وهل البعث للأرواح والأجسام، أم للأرواح فقط.

وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾

[٧٧] ذكر جل وعلا أن من صفات هذا القرآن أنه هُدىً ونورٌ ورحمةٌ للمؤمنين، فهم الذين يستضيئون بنوره ويهتدون به، والمؤمنون هم المصدّقون المهتدون؛ سواءً كانوا من المسلمين أو من اليهود أو غيرهم إذا آمنوا بك، وبما أرسلت به، وتركوا عبادة غير الله.

[٧٨] ثم أخبر سبحانه أنه سيقضي بين المختلفين، ويحكم بين المتنازعين بحُكْمه وقضائه العدل، وهو سبحانه العزيز الغالب الذي لا يُرَدُّ قضاؤه، العليمُ بجميع الأشياء علىٰ حقائقها.

[٧٩] ثم يواصل جل وعلا تسليته لنبيه محمدٍ ﷺ، ويذكِّره بمهمته، وأنها البلاغ والإرشاد، وأن عليه الاستعانة بالله، والاعتماد عليه سبحانه، لأنه علىٰ الحق الواضح البيِّن الذي لا شك فيه.

[٨٠] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن من هؤلاء الكفرة قوم كالموتىٰ الذين لا يحسون ولا يعقلون، وكالصم الذين لا يسمعون، لأنهم أعرضوا عن الحق إعراضًا تامًّا وأنكروا القول به والاستماع له.

[٨١] وأخبره أيضًا سبحانه أنه لا يقدر أن يهدي عن الضلالة من عمي قلبه عن الهدىٰ والرشاد، ولا يمكنه أن يُسمع آيات الله إلا لمن يرغب بالنجاة والسلامة من النار؛ وهم المستجيبون لما دعاهم إليه.

[٨٢] ذكر جل وعلا علامة من علامات الساعة الكبرىٰ وهي خروج الدابة؛ حيث أخبر سبحانه أن باب التوبة إذا أقفل، ثم طلعت الشمس من مغربها، ووجب العذاب علىٰ هؤلاء الكفار بسبب تماديهم في المعاصي والطغيان وإعراضهم عن شرع الله وحكمه؛ أخرج الله لهم من الأرض دابة تفضح الكفار وتخبر أن المنكرين للبعث كانوا لا يصدقون بالقرآن ولا بالرسول محمد ﷺ.

قال حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما: خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب آخر علامات الساعة، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «إن أول الآيات خروجًا: **طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة**»[1].

[٨٣] ثم ختم جل وعلا السورة بذكر بعض أهوال يوم الحشر والفزع والرعب الذي يكون فيه، والتغيير الذي يكون في الأرض، ومن ذلك: أنه سبحانه يجمع من كل أمة جماعة ممن كانوا يكذبون بآيات الله وأدلته الواضحة البينة، ثم يقفون بين يدي الله صاغرين منتظمين لا يتقدم منهم أحد علىٰ أحد، ثم يساقون إلىٰ مصيرهم الذي أراده الله لهم.

[٨٤] ثم بين سبحانه أنهم إذا حضروا في ذلك اليوم وجيء بهم للحساب؛ قال الله لهم: أجحدتم بآياتي ولم تؤمنوا بها؟! وبادرتم إلىٰ ردِّها والتكذيب قبل أن تتفكروا فيها وتتصوروها تصوُّرًا صحيحًا؟ فكان ذلك سبب هلاككم! أم ماذا كنتم تعملون، وبأي شيء كنتم منشغلين؟!.

[٨٥] ثم بين جل في علاه أن العذاب وجب وحق عليهم بسبب ظلمهم وشركهم وتجاوزهم لحدِّهم؛ وليس لديهم عذرٌ يعتذرون به، ولا حجّة يدفعون بها عن أنفسهم، فهم ساكتون واجمون.

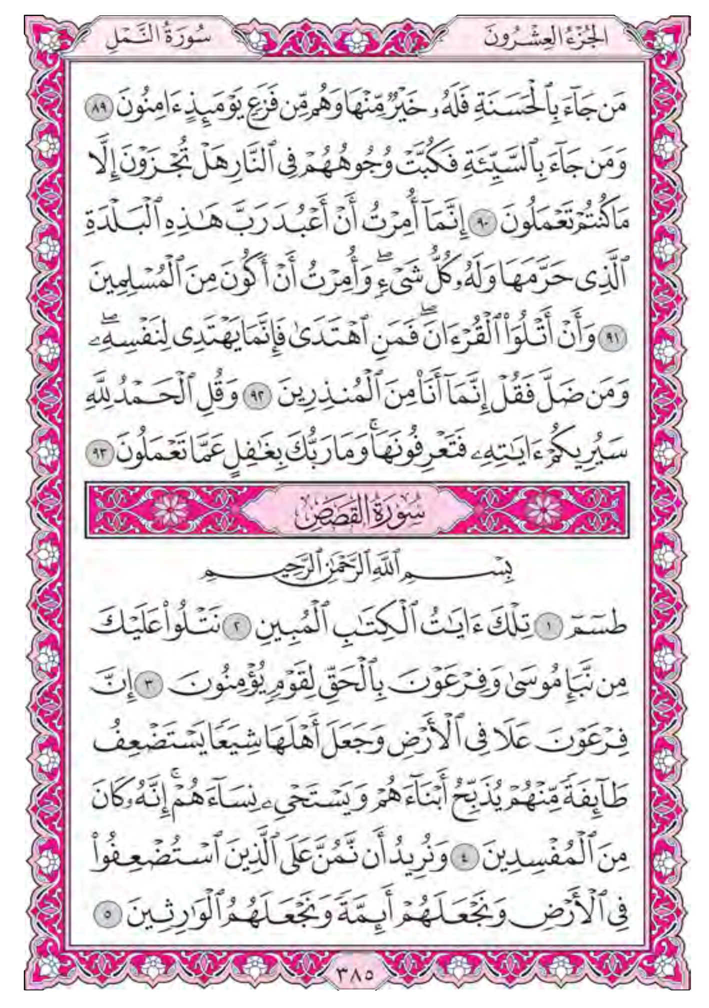
[٨٦] ألَمْ ينظر هؤلاء المكذّبون إلىٰ آيَتَيْ الليل والنهار؟ فيتعظون بها؟ ألَمْ يشاهدوا آية الليل وكيف جعله الله مظلمًا ساكنًا ليسكنوا فيه؟ ألَمْ يشاهدوا آية النهار، وكيف جعله الله مضيئًا ليبصروا فيه ما يسعون له من طلب معاشهم الذي ليس لهم منه بد؟! إن في هذه الآيات وتصريفها لعلاماتٍ واضحاتٍ بيناتٍ لمن له عقل فيهتدي إلىٰ الإيمان بالله وبوحدانيته، واستحقاقه العبادة وحده دون من سواه.

[٨٧] واذكر يانبي الله يوم ينفخ المَلَك في الصور، فيفزع ويخاف وينزعج كل من في السماوات والأرض، ويموجون ويضطربون ويصعقون، أي: يهلكون من هول تلك النفخة؛ إلّا من شاء الله من الخلائق ممَّن أمَّنهم الله من هذا الفزع؛ نسأل الله الكريم من فضله، وكلُّ الخلائق تأتي إلىٰ الله في ذلك اليوم في صَغَار وذلّة.

[٨٨] وتذكروا أيها الناس ذلك اليوم العصيب وهو يوم القيامة يوم ترون الجبال، تظنونها علىٰ حالتها في الدنيا من الثبات والاستقرار، وهي في حقيقتها تسير من خفتها؛ كسير السحاب سيرًا حثيثًا؛ حيث صارت كالعهن، أي: كالقطن المنفوش، وهذا كله من صُنْع الله الذي أحكم وأوثق كل شيء، إنه سبحانه خبيرٌ بما تفعلون، وسيجمعكم ذلك اليوم، ويجازيكم علىٰ أفعالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤١).



مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾

[٨٩] ذكر جل وعلا الفائزين يوم القيامة وبين أنهم هم الذين جاءوا بالتوحيد وآمنوا بالله وعبدوه وحده وعملوا الأعمال الصالحة، وهؤلاء يجازيهم الله بما هو خير لهم من هذه الأعمال، وهو جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، وأنهم يوم الفزع الأكبر آمنون مطمئنون.

[٩٠] ثم ذكر سبحانه الخاسرين وبين أنهم هم الذين جاءوا بالشرك والأعمال السيئة، وهؤلاء جزاؤهم أن يكبَّهم الله علىٰ وجوههم في النار يوم القيامة، ويقال لهم علىٰ سبيل الزجر: ما حل بكم من العذاب والنكال كان بسبب إشراككم بالله وإجرامكم وأعمالكم الفاسدة.

[٩١] وقل يانبي الله للناس: إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة، وهي مكة حرسها الله وحفظها، التي حرم الله علىٰ خلقه أن يسفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يظلموا فيها أحدًا، وهو سبحانه رب كل شيء ومليكه، وقل لهم أيضًا: وأُمرت أن أكون من المنقادين لأمره، المبادرين لطاعته.

[٩٢] وقل لهم أيضًا: وأمرت أن أتلو القرآن علىٰ الناس، فمن اهتدىٰ إلىٰ الحق الذي جئت به فإن نفع ذلك وجزاءه يعود إليه، ومن ضلَّ عن طريق الحق فقل له يانبي الله: إنما أنا نذير للمكذبين الضالين من عذاب الله وعقابه، وليس بيدي هدايتكم أو إكراهكم علىٰ الإيمان.

[٩٣] ثم ختم جل في علاه السورة بأمر نبيه محمدٍ ﷺ أن يقول: الحمد لله، أي: الثناء كله والفضل كله لله تعالىٰ وحده، وسوف يريكم سبحانه آياته الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته فتعرفون صدقها، وما ربك يانبي الله بغافل عما يعمله ويقوله الناس لك، فإنه لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم؛ فاستمر في دعوتك وبلغ ما أمرت به فإن العاقبة لك وللمؤمنين.

وكلمة: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾، أي: سوف يريكم، وهي تدل علىٰ أن آيات عظمة الله وقدرته وتفرده سوف يستمر ظهورها في كل الأزمنة المقبلة.

سورة القصص

سورة القصص مكيّة وآياتها ثمان وثمانون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] بدأت السورة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلىٰ فخامة آيات هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله علىٰ نبيه ﷺ، وإشارة إلىٰ أنها آيات بينات واضحات، وضحت أحكام الله وشرائعه وأوامره ونواهيه، وأمور الدنيا والآخرة.

[٣] ثم بين سبحانه أنه سوف يتلوا علىٰ نبيه ﷺ شيئًا من خبر موسىٰ وفرعون؛ وهذه التلاوة كلها حق وصدق لا لبس فيها ولا شكوك؛ وهي لقوم يصدقون بهذا القرآن ويعملون بما فيه من أحكام ومواعظ؛ لأنهم هم المنتفعون بما يُتلىٰ عليهم والمستزيدون به نورًا وصلاحًا واستفادة.

[٤] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن فرعون طغىٰ وتكبر في أرض مصر، وتجاوز كل الحدود في غروره وظلمه، وجعل أهلها طوائف متفرقة تابعة له، ثم اختص طائفة من هذه الطوائف وهم بنو إسرائيل بالإذلال والقهر والظلم؛ لأنهم كانوا وزراء وخدام للحكام الذين من قبله، ومن صور الإذلال التي قام بها أنه صار يذبِّح أطفالهم، ويستعبد رجالهم ونساءهم، ولهذا كان فرعون من المفسدين الذين عاثوا في أرض مصر فسادًا وظلمًا، حتىٰ وصل به الأمر أن رفع نفسه فوق البشر؛ وحيث إن كلمة الله هي العليا، وإن العز والسيادة إذا لم تكن في ظل الله وحسب تعليماته فإن مصيرها للزوال؛ فكانت نهاية فرعون إلىٰ الزوال بأن أغرقه الله في البحر هو وجنوده أجمعون.

[٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أهلك فرعون الطاغية الظالم ليتفضل سبحانه علىٰ الذين استضعفهم وأذلهم فرعون من بني إسرائيل؛ فيجعلهم قادة وملوكًا في الخير، ويجعلهم الوارثين للأرض بعد هلاك هذا الطاغية المجرم وقومه الظالمين. وهكذا تم ما أراد الله؛ فقد جعل الله فرعون نفسه وزوجه يتوليان رعاية موسىٰ وتغذيته إلىٰ أن بلغ رشده واستوىٰ وقتل القبطي، ثم هرب إلىٰ مدين خوفًا من المطالبة بدم القبطي؛ حيث التقىٰ بالرجل الصالح؛ الذي يقال: إن اسمه شعيب؛ فاتفق معه علىٰ عقد عمل والزواج من ابنته، ثم عاد إلىٰ مصر نبيًّا ورسولًا داعيًا فرعون للتوحيد، حتىٰ كانت النهاية المعروفة لفرعون.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

[٦] ثم أخبر جل وعلا أنه يريد أن يمكن لبني إسرائيل في الأرض – بعد استضعافهم فيها –، ويُرِيَ فرعون ووزيره هامان، وبقية جنودهما ما كانوا يحذرون ويخافون منه من زوال ملكهم علىٰ يد بني إسرائيل.

[٧] ثم أوحىٰ جل وعلا إلىٰ أم موسىٰ وحي إلهام أن ترضعه، فإذا خافت عليه من فرعون وجنده؛ فعليها أن تلقيه في نيل مصر بعد وضعه في صندوق خشبي، وأوحىٰ إليها أن لا تخاف عليه، ولا تحزن، فإنه في عناية الله وفي حفظه، وسيحفظه الله لها، وسيرده إليها، وسيجعله من المرسلين.

[٨] ففعلت أم موسىٰ ما أُمرت به، فوصل هذا الصندوق إلىٰ الشاطئ المقابل لقصر فرعون؛ فأخذه جنوده؛ ليسلموه لفرعون، ولم يعلموا أن أخْذَهم له سيكون حزنًا، وسببًا في هلاكهم، ثم بين سبحانه أن فرعون ووزيره هامان وجنودهما – جميعًا – كانوا خاطئين آثمين، مشتركين في الإثم والظلم والكفر.

قال المفسرون: اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾، هي لام العاقبة، وهم أخذوه لغير ذلك؛ كما قالت امرأة فرعون في الآية التالية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون قرة عين لهم،؛ فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوًّا وحزنًا.

[٩] ولمّا رأت امرأة فرعون هذا الطفل الموجود داخل الصندوق رقّت له، وأُلقي في قلبها حنانٌ عليه، فقالت لفرعون وجنوده: لا تقتلوا هذا الولد، وأبقوه لنا، ليكون قرّة عينٍ لنا، ويدخل علينا السرور بسببه، ويكون من خدَّامنا، أو نرقِّيه فنجعله من أولادنا، ثم بين سبحانه أن امرأة فرعون وجنوده قالوا ذلك وهم لا يشعرون ولا يعلمون أن هلاك الطاغية فرعون وجنده سيكون علىٰ يديه.

[١٠] ثم أخبر سبحانه أن أم موسىٰ اشتد قلقها علىٰ ابنها، وأصبح فؤادها خاليًا من كل شيء إلّا من التفكير في ابنها موسىٰ؛ حتىٰ أنها كادت – من لهفها عليه، وشوقها إليه – أن تُظهِرَ للناس حزنها لولا أن ثبتها الله وألهمها الصبر؛ لتكون من المؤمنين بوعد الله.

[١١] ثم قالت أم موسىٰ لأخته: اذهبي فقصِّي أثره، وابحثي عن حاله دون أن يشعر بك أحد؛ ففعلت، فرأته عن بُعْد مُسْتَرِقةً النظر إليه، وهم لا يشعرون بها، ولا يعرفون أنها أخته.

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أن موسىٰ امتنع عن الرضاعة من أي مرضعةٍ، وفي هذه الأثناء حضرت أخته ورأتهم وهم يعرضون علىٰ موسىٰ الرضاعة فيمتنع؛ فبدأوا بالبحث عن مرضعةٍ له، فانتهزت أخته الفرصة فقالت لهم: ألا أخبركم بأهل بيتٍ يتكفّلون به وبإرضاعه، وسيحرصون عليه وينصحون له ويحفظونه!!

[١٣] فما كان من فرعون وزوجته إلا أن استجابا لها؛ فدلتهم علىٰ بيت أم موسىٰ؛ فرجع موسىٰ إلىٰ أمه كما وعدها الله، كي تقرّ عينها به، وتحنو عليه وترضعه، وكي لا تحزن علىٰ فقده وبُعْدِه عنها، وكي تعلم أن وعد الله حق، لا مرية فيه ولا شكّ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بذلك؛ فكافأها الله برد ابنها إليها وزيادة علىٰ ذلك أن تأخذ أجرًا علىٰ إرضاعه.

[١٤] ولمّا شبَّ موسىٰ وبلغ أشدّه من القوة والعقل، واستوىٰ في خلقته؛ أعطاه الله الحكمة وهي النبوة، وكذلك أعطاه العلم، ثم بيَّن سبحانه أنه يجزي المحسنين من عباده أحسن الجزاء.

[١٥] ثم دخل موسىٰ المدينةَ في وقتٍ تقل فيه حركة التنقل، فوجد فيها رجلين يقتتلان ويتخاصمان ويتضاربان، أحدهما من بني إسرائيل من قوم موسىٰ، والآخر من قوم فرعون، فاستنجد الذي من بني إسرائيل بموسىٰ وطلب منه نصرته علىٰ الذي من قوم فرعون؛ فاستجاب له موسىٰ فضربه موسىٰ دافعًا إيّاه، فمات الرجل من هذه الدفعة، ولم يكن موسىٰ يَقْصِد قتْلَه، فندم علىٰ ذلك أشدَّ الندم، وقال: هذا من تزيين الشيطان ووسوسته وتهييجه، إن الشيطان عدوٌّ ظاهر العداوة لبني آدم، مضلٌّ عن الحق والرشاد، بيِّن العداوة ظاهر الإضلال.

[١٦] ثم التجأ موسىٰ عليه السلام إلىٰ ربه في الحال قائلًا: يارب إني ظلمتُ نفسي، وأخطأتُ بقتلي هذا الرجل الذي لم أرد قتله، فاغفر لي، فاستجاب الله له فغفر له، وعفا عنه، إن الله كثير المغفرة لِمَن طلب منه المغفرة، وهو سبحانه الرحيم بعباده الصادقين بالتوبة والإنابة إليه.

[١٧] ثم قال موسىٰ عليه السلام: ربّ كما أنعمتَ عليَّ بقوة الجسم، وقبلتَ توبتي، وغفرتَ ذنبي؛ فلن أكون معينًا لأحدٍ من المجرمين علىٰ إجرامه وإفساده، قال ذلك: إتمامًا لتوبته.

[١٨] وأصبح موسىٰ عليه السلام في المدينة خائفًا ممّا فعل، يترقب ما الذي سيحدث له، وبينما هو كذلك إذا بالذي طلب نجدته بالأمس ينادي عليه مستغيثًا به من ظلم رجل آخر من قوم فرعون، فلمّا اقترب منه قال له موبِّخًا إيّاه: إنَّك لظاهر الغواية، بيِّن الضلال كثير المشاكسة.

[١٩] فلمّا اقترب موسىٰ يريد نجدة الرجل الذي من قومه قال له الذي هو من قوم موسىٰ: أتريد أن تقتلني ياموسىٰ كما قتلت رجلًا بالأمس، قال ذلك ظنًا منه أن موسىٰ سوف يقتله لأنه قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ ثم قال له: وإنك ياموسىٰ تريد أن تكون جبَّارًا في الأرض، تفعل ما تشاء، وتقتل من تشاء، وما تريد ياموسىٰ أن تكون من المصلحين بين الناس؛ فشاع الخبر وعرف قاتلُ الذي من قوم فرعون، فتآمروا علىٰ قتل موسىٰ.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ
إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ
﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

[٢٠] وجاء رجل ناصحٌ مشفقٌ من أقصا المدينة يسعىٰ سعيًا شديدًا حتىٰ لحق بموسىٰ عليه السلام فقال له: إن أشراف القوم ورؤوسهم يتآمرون عليك لقتلك، ويتكلمون في شأنك، فاخرج من هذه المدينة، إني لك من الناصحين، وعليك من المشفقين.

[٢١] فامتثل موسىٰ عليه السلام نُصح الرجل، وخرج من المدينة خائفًا من أن يدركوه فيقتلوه، مترقِّبًا طلبهم إيّاه ولحوقهم به، فدعا الله جل في علاه، وهو في هذه الحالة قائلًا: رب نجّني وأنقذني من القوم الظالمين المتجاوزين حدودهم.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾

[٢٢] ولمّا توجه موسىٰ عليه السلام إلىٰ بلاد مدين - جنوبي فلسطين - قال داعيًا ربه: يارب اهدني إلىٰ أفضل الطرق إلىٰ مدين وأيسرها، فاستجاب الله دعاءه، فوصل إلىٰ مدين سالمًا.

[٢٣] ولمّا وصل موسىٰ عليه السلام إلىٰ ديار مدين وجد عند مائها جماعة كبيرة من الناس يسقون مواشيهم، ووجد خلفهم: امرأتين تذودان غنمهما وتحبسانها عن الناس، لضعف حالهما وعجزهما عن مزاحمة الرجال؛ فرقّ لحالهما. ثم سألهما: ما شأنكما؟! فقالتا: لا نرغب في مزاحمة الرجال، ولا نستطيع أن نسقي حتىٰ يسقي الناس ويخلو لنا المكان، وأبونا شيخٌ كبيرٌ لا قوّة له علىٰ السقي.

[٢٤] فسقىٰ موسىٰ عليه السلام لهما، ثم انصرف إلىٰ ظل شجرة يستظل بها، ثم قال داعيًا ومناجيًا ربَّه، وطالبًا منه الرزق: ربّ إني مفتقرٌ للخير الذي تنزله عليَّ أيًّا كان ذلك الخير وإني ألتمس الأجر والثواب منك.

[٢٥] فرجعت المرأتان إلىٰ أبيهما وقصَّتا عليه خبر الذي سقىٰ لهما، فأمر إحداهما أن تذهب وتدعوه إليه، فوصلت إليه، وقالت له في استحياء: إن أبي يدعوك ليكافئك علىٰ إحسانك لسقيك لنا، فلمّا حضر موسىٰ عند أبيهما؛ قصَّ عليه قصته، فقال له بعد أن انتهىٰ: لا تخف ياموسىٰ، وليطمئنَّ قلبك، فإن الله نجَّاك من القوم الظالمين المتجاوزين حدودهم، فإنهم ليس لهم سلطان علىٰ هذا البلد الذي وصلت إليه.

[٢٦] ثم قالت إحدىٰ المرأتين لأبيها: ياأبتِ استأجر موسىٰ لكي يرعىٰ ويسقي لنا غنمنا، فإنه نعم الأجير الذي يملك صفتي القوة والأمانة.

[٢٧] ثم قال صاحب مدين لموسىٰ عليه السلام: إني أريد أن أزوجك إحدىٰ هاتين البنتين، ويكون مهرها: أن تكون أجيرًا عندي، ترعىٰ ماشيتي ثمان سنين، وإن زدت المدة لعشر سنين فهذا إحسانٌ منك إليَّ، وما أريد أن أشق عليك فألزمك بالعشر سنين، ستجدني ياموسىٰ إن شاء الله من الصالحين الذين يوفون بعهدهم.

[٢٨] فأجابه موسىٰ عليه السلام قائلًا: لقد وافقت علىٰ هذا العقد الذي ذكرته، والتزمتُ به، فأي المدتين أتممت فقد وفَّيتُ بالعقد، والله علىٰ ما اتفقنا عليه من هذا العقد شهيد وحافظٌ ومطَّلعٌ علينا.

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

[٢٩] ولما أتم موسىٰ عليه السلام مدة عقد الخدمة وسار بزوجته متجهًا إلىٰ مصر رأىٰ نورًا صادرًا من جانب الطور، فظن أنه صادر من نار؛ فطلب من زوجه الانتظار لأنه رأىٰ نارًا فيريد أن يذهب إليها لعله أن يأتي منها بخبر يفيدهم في رحلتهم؛ فيوضح لهم الطريق إلىٰ مصر، أو يجلب لهم قطعة من النار يستدفئون بها؛ حيث كان الجو باردًا. وقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا﴾؛ يفيد أنه ضل الطريق، أو أنه كان شاكًّا في الطريق فأراد التأكد من الطريق الصحيح.

[٣٠] فلما أتىٰ موسىٰ عليه السلام النور الذي خلقه الله حصلت المفاجأة الكبرىٰ التي حصل بها الدفء والهدىٰ له ولأهله ولأمته؛ حيث ناداه الله من جانب الوادي الأيمن لموسىٰ في البقعة المباركة من جانب الشجرة، فقال له: ياموسىٰ تنبه أن الذي يخاطبك هو الله ربك، ورب الناس أجمعين.

[٣١] ثم طلب منه جل وعلا أن يُلقي عصاه ليجري له التجربة علىٰ المعجزة التي سوف يعرضها علىٰ فرعون وقومه وبني إسرائيل إثباتًا لنبوته وأنه رسول الله، فلما رأىٰ العصا تحولت إلىٰ حية تسعىٰ ورآها تضطرب كأنها جان ولَّىٰ هاربًا منها ولم يلتفت، فناداه ربه: وأمره أن يثبت ولا يخاف لأنه محفوظ من قِبَلِ الله، وأنه من الآمنين منها ومن غيرها.

[٣٢] ثم أمره جل وعلا أن يدخل يده في جيبه – أي: في فتحة قميصه من عند الصدر – فإنها ستخرج بيضاء ناصعة البياض من غير مرض كالبرص ونحوه، وإذا خفتَ ياموسىٰ فاضمم عضدك إلىٰ جنبك؛ يزول ما بك من خوف ورهبةٍ، وتسكن نفسك وتطمئنّ؛ حيث ترجع يدك كما كانت، فهاتان – أي: آية العصا، واليد البيضاء –: حجَّتان قاطعتان، ودليلان ظاهران، ومعجزتان خارقتان تدلّان علىٰ نبوتك ورسالتك، أعطيناكهما برهانين علىٰ صدقك في دعوتك فرعون وأشراف قومه للإيمان بالله، واتباع أمرك؛ لأنهم كانوا قوْمًا كافرين خارجين عن طاعة الله، والإيمان به.

[٣٣] فتحمل موسىٰ عليه السلام الرسالة، ثم عرض علىٰ الله مشكلته فقال: يارب إني كنتُ قد قتلت منهم نفسًا خطأً فأخاف إن ذهبتُ إليهم أن يقتصوا مني وأن يقتلوني.

[٣٤] ثم قال: ويارب هذا أخي هارون أفصح مني لسانًا، وأبينُ مني كلامًا، فأرسله معي معينًا لي يساعدني ويصدّقني، إني أخاف أن يكذّبوني.

[٣٥] فاستجاب جل وعلا لطلبه، وقال له: سنقويك ياموسىٰ أنت وأخاك الذي منحناه النبوة حسب طلبك، وسوف نجعل لكما عزة ومنعة، قال جعفر: هيبة في قلوب الأعداء، ومحبة في قلوب الأولياء؛ فلا يصلون إليكما بسجن أو بعذاب، وستكون لكم الغلبة والنصر بإذن الله؛ بسبب آياتنا وما دلت عليه من الحق، وفي هذا بشارة وتثبيت لهما.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

[٣٦] فلما أتىٰ موسىٰ ومعه أخوه هارون إلىٰ فرعون وملئه وعرض عليهم الرسالة، والآيتين العصا واليد اللتين تدلان علىٰ صدق موسىٰ؛ فغلبت عليهم الشقاوة والكبرياء؛ مع أنَّ فرعون وملأه عرفوا أنها حق في قرارة أنفسهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل:١٤]، وبعد أن رأوا هذه الآيات قالوا لموسىٰ علىٰ سبيل العناد: ما هذا الذي جئت به ياموسىٰ إلا سحر أفتريته كذبًا وباطلًا، ولم نسمع مثل دعواك الرسالة عن آبائنا الأولين.

[٣٧] ثم إن موسىٰ عليه السلام قال لفرعون: اعلم يافرعون أن ربي أعلم بمن جاء بالهدىٰ والحق، وأعلم بمن تكون له النهاية الحسنة والعاقبة المحمودة في الدار الدنيا والآخرة، وقد اقتضت سنة الله جل وعلا بأن الظالمين لن يفوزوا بمطلوبهم.

[٣٨] ثم إن فرعون أخذته العزة بالإثم، واستولت عليه الشقاوة، فقال مستخفًّا بقومه: ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله يستحق العبادة غيري؛ فاجعل لي ياوزيري هامان لبِنًا من فخّار، وابنِ لي بناءً عاليًا؛ لعلي أصل إلىٰ السماء فأنظرِ بعيني إلىٰ إله موسىٰ الذي يدعو الناس إلىٰ عبادته، وإني لمتأكد بأنّ موسىٰ من الكاذبين الذين يكذبون في أقوالهم.

[٣٩] فاستكبر فرعون هو وجنوده في أرض مصر بغير الحق، واعتقدوا أنهم بعد موتهم لن يبعثوا، وليس عليهم يوم القيامة حساب أو عقاب.

[٤٠] ثم أخبر جل وعلا أنه أخذ فرعون وجنوده بالعقاب الأليم؛ حيث ألقاهم جميعًا في البحر، ثم انطبق البحر عليه وعلىٰ قواته وجنوده وملئه فكانوا من المغرقين، فانظر يانبي الله نظر تدبر واعتبار كيف كانت نهاية هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بربهم، فالحمد الله الذي ينتقم من الطغاة في الدنيا، ويُعد لهم العذاب الأليم في الآخرة.

[٤١] وجعل جل وعلا فرعون وقومه من أئمة الخزي الذين يُدعون إلىٰ نار جهنم، ويوم القيامة لا يجدون من ينصرهم، ولا من ينجِّيهم من عذاب الله الشديد.

[٤٢] ثم أخبر جل وعلا أنه ألْحق فرعون وقومه في هذه الحياة الدنيا لعنةً تلازمهم، وذلّةً تلحق بهم، وأما يوم القيامة فهم من المبعدين من رحمة الله، ومن أشد الناس عذابًا.

[٤٣] ثم يخبر جل وعلا أنه أنزل التوراة علىٰ موسىٰ بعد إهلاك فرعون ومن معه، وإهلاك أمم قبله قد استعصت علىٰ رسل الله؛ مثل قوم نوح وهود وصالح، ثم بين سبحانه أن هذه التوراة التي أنزلها علىٰ موسىٰ عليه السلام فيها بصائر لبني إسرائيل تنير القلوب التي تطلب الحق وتتبعه، وفيها الهداية والنور لهم، ورحمة لمن عمل بها منهم، ولعلهم يتذكرون نعم الله عليهم فيكونون من الشاكرين.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

[٤٤] ثم يقول جل وعلا لنبيه محمدٍ ﷺ: وما كنت موجودًا عند جبل الطور في الجانب الغربي من موسىٰ، عندما كلم الله موسىٰ عليه السلام، وكلفه بالأوامر والنواهي، وما شهدت ذلك حتىٰ تقصه علىٰ قومك، ولكنه من علم الغيب الذي أخبرناك به.

[٤٥] واعلم يانبي الله أن الله أنشأ من بعد موسىٰ أممًا فطالت بهم الحياة وامتدت؛ فنسوا العهود واندرست الشرائع وانقطع الوحي؛ فجاء الله بك وجعلك رسولًا، وأوحىٰ إليك خبر موسىٰ وغيره، مع أنك لم تكن مقيمًا في أهل مدين تقرأ عليهم كتاب الله فتعرف قصتهم وتخبر بها، ولكنك رسول يوحىٰ إليك نبأ الرسل من قبلك ليثبت الله به فؤادك، وتكون شهادة علىٰ رسالتك، وعبرة للمعتبرين.

[٤٦] ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ أنه ما كان قريبًا من جبل الطور حين نادىٰ الله موسىٰ عليه السلام وكلّمه، وأنه ما شاهد بنفسه تفاصيل ما قصَّ الله عليه من قصته، ولكن الله أخبره بذلك وأعلمه به؛ وأرسله لقومه رحمةً منه سبحانه؛ لينذرهم ويذكرهم، فإنهم ما جاءهم من نذير من قبله، ولعلَّهم يتذكرون ويتعظون بإنذاره.

[٤٧] يقول جل وعلا عن مشركي العرب وقريش: لو حلَّت بهم مصيبة من العذاب عقوبة لهم بسبب ما اقترفوه من الشرك والكفر والعناد، فسوف يقولون: ياربنا هلَّا أرسلت إلينا رسولًا من قبل فنتبع آياتك الدالة علىٰ صدق رسولك ونكون من المؤمنين به وبما جاء به.

[٤٨] ولكن لما جاءهم الرسول ﷺ بالحق من عند الله جل وعلا افتعلوا التعجيز، وقالوا علىٰ سبيل التعنت: هلَّا أوتي محمد بمثل ما أوتي موسىٰ من معجزات حسِّية، وكتابٍ نزل عليه جملة واحدة! فقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: وهل آيات موسىٰ جعلتكم تؤمنون بموسىٰ أو جعلت فرعون وقومه يؤمنون به؟! ألم يكفروا بما أوتي به موسىٰ؟!

ثم قال المشركون: إن القرآن والتوراة التي جاء بهما محمد وموسىٰ سحران تعاونا علىٰ إضلالنا؛ ثم قالوا: فنحن بكل ما جاء به محمد وموسىٰ كافرون؛ فهم يحاجون نبي الله بشيء هم لا يؤمنون به، وهذا يثبت أنهم لا يريدون الحق.

[٤٩] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يطلب من قومه أن يأتوا بكتاب أهدىٰ وأفضل وأوضح من هذا القرآن العظيم وأفضل من التوراة، ووعدهم أن يؤمن به ويتبعه معهم، إن كانوا صادقين في زعمهم، ولكن هيهات.

والمقصود: إفحامهم وإقناعهم.

[٥٠] فإن لم يستجيبوا لطلبك يانبي الله بأن يأتوا بكتاب أهدىٰ وأفضل من القرآن؛ فاعلم يانبي الله أنهم إنما يتبعون أهواءهم، ولا أحد أشدُّ وأعظم ضلالًا ممّن يتبع هواه ويسير خلفه بغير هداية من الله، إن الله لا يُرشد ولا يهدي ولا يُوفِّق القوم الظالمين المجاوزين حدودَهم، المتبعين أهواءهم.

وهذه الآية تدل علىٰ أن من يتبع هواه لا يُذَمُّ إذا كان هواه لا يخالف هدي الله جل وعلا.

۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

[٥١] ثم أكد جل وعلا وأثبت أنه أنزل آيات هذا القرآن متتابعة بعضها يتبع بعضًا، وبين فيها ما جرىٰ علىٰ الأمم الماضية، ثم إن النبي ﷺ أوصله إلىٰ قومه وتلاه عليهم لعلهم يتذكرون فيتدبرونه ويعتبرون به.

[٥٢] ثم بين سبحانه أن الذين آتاهم الكتاب، أي: التوراة والإنجيل، وهم اليهود والنصارىٰ من قبل نزول القرآن علىٰ محمد ﷺ، ولم يبدلوا أو يحرفوا، وكانوا منصفين خائفين من مقت الله؛ فإنهم يؤمنون بهذا القرآن ويؤمنون بمحمد ﷺ حسب ما هو مذكور عندهم.

[٥٣] ثم أخبر جل وعلا أن هذا القرآن إذا تُلي علىٰ أولئك المنصفين الذين آتاهم الكتاب، أي: التوراة والإنجيل، وهم اليهود والنصارىٰ قالوا: صدقنا به، وعملنا بما فيه من الأوامر والنواهي، إنه الحق من عند ربنا، إنا كنّا قبل نزوله مستسلمين لله بالتوحيد منقادين له بالطاعة.

[٥٤] ثم بين سبحانه أن أولئك الذين آمنوا بالكتابين يُعْطَوْن أجرهم مرتين: أجْرًا علىٰ إيمانهم بالكتاب الذي أُنزل عليهم من قبْل، وأجرًا علىٰ إيمانهم بالقرآن، ثم اتباعهم لنبيهم الأول واتباعهم لمحمد ﷺ، وصبروا علىٰ اتباع الحق، وعلىٰ أداء الطاعات واجتناب المعاصي.

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعًا: ثلاثة لهم أجران، وذكر منهم: «**ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بمحمد** ﷺ»[١].

ثم ذكر جل وعلا صفات الأتقياء الصالحين من أهل الكتاب، ومن ذلك: أنهم يدفعون السيئة بالحسنة، فهم محسنون لكل أحدٍ علىٰ جميع الأحوال، وأنهم: ينفقون أموالهم في مرضاة الله جل في علاه، وابتغاء وجه ربهم الأعلىٰ.

[٥٥] ثم بين سبحانه أن من صفات هؤلاء الصالحين أنهم: إذا سمعوا من الجُهَّال شيئًا من اللغو والباطل، فإنهم يترفعون ويتنزهون عنه بأدب الإسلام والشرع، ولا يجاورونهم، ولا يَنْزلون لمرتبتهم السيئة؛ بل يعرضون عنهم قائلين: لنا أعمالنا سنُجازىٰ عليها، ولكم أعمالكم ستُجازون عليها، سلام عليكم، فلن نسبكم أو نحاربكم؛ بل سنتركهم لأننا لا نريد مصاحبة الجاهلين بالله وبدينه وشرعه.

[٥٦] واعلم يانبي الله أنك لا تستطيع أن تهدي للإيمان من تريد هدايته؛ لأن الهداية بيد الله تعالىٰ وحده؛ فهو الذي يهدي للإيمان من يشاء أن يهديه، وهو أعلم بالراغبين للهداية المستعدين لها؛ فلا تنزعج ولا تحزن لأن عمك أبا طالب وغيره لم يستجيبوا للإيمان.

[٥٧] وقال كفار قريش للنبي ﷺ: إنا نخشىٰ إنْ آمنا بك واتبعناك أن يتخطفنا العرب من بلادنا بالقتل والسلب، وبالأسر والنهب، أوَلَمْ ير هؤلاء المكذّبون أنَّا جعلناهم مُمَكَّنِين في بلدٍ آمنٍ لا يعتدي عليهم فيه أحد، وجعلنا في قلوب الناس مهابةً لهذا البلد الحرام؟!، ألَمْ يروا أن هذا البلد - دون غيره من البلاد - تُجلَبُ له أنواع الثمرات والأطعمة، والأرزاق من كل حدب وصوب؟! ولكن أكثرهم لا يعلمون عِظَم ما هم فيه من النِّعم.

[٥٨] ثم أخبر جل في علاه أن كثيرًا من القرىٰ عاشوا في رغدٍ من العيش ورفاهية، فألهاهم ذلك عن توحيد الله والإيمان به وبرسله؛ فكان جزاؤهم الهلاك والدمار، وبقيت مساكنهم التي عاشوا فيها شاهدةً عليهم، لمْ يسكنها أحد بعدهم إلّا القليل من الناس، وكان الله جل شأنه هو الوارث لهم ولمساكنهم، وسوف يحييهم ويجازيهم علىٰ أعمالهم.

[٥٩] ثم بين جل وعلا أن حكمته وعدالته اقتضت أن لا يهلك القرىٰ حتىٰ يبعث في القرية والمدينة الكبرىٰ التي إليها يرجعون وعليها يترددون رسولًا يتلو عليهم الآيات البينات، ويقيم عليهم الحجَّة، ويدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، ثم بين سبحانه أنه لم يهلك هذه القرىٰ إلّا في حال ظلم أهلها لأنفسهم بالشرك، وتجاوزهم لحدودهم بكفرهم بربهم، وتكذيبهم بأنبيائهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤).

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ
ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا
هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ
مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ
فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ
٦٤ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥
فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦ فَأَمَّا
مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ
٦٧ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ
ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٧٠

[٦٠] ثم بين سبحانه أن الناس ما أعطوا في هذه الحياة الدنيا من مُتع وملذّات؛ فإنما يتمتعون بها متاعًا قصيرًا زائلًا، ويتزينون بها زينةً لحظيَّةً ممزوجةً بالانقطاع والمنغِّصات؛ فلا تركنوا أيها الناس إليها، واعلموا أن ما عند الله من الثواب والنعيم هو خيرٌ وأفضل من نعيم الدنيا، وأبقىٰ وأدوم منه، أفلا تُعملون عقولكم فتفهمون هذه الحقيقة؟! فتُؤْثِرون الباقي علىٰ الفاني!

[٦١] هل يستوي عبدٌ مؤمنٌ وعدناه - وعدًا قاطعًا لا شكّ فيه ولا ارتياب - بدخول الجنة إنْ هو آمن واتَّقىٰ وعمل الصالحات، بعبدٍ أقام وداوم علىٰ متع الحياة الفانية وملذاتها، وانشغل بها عن الآخرة؟! ثم هو يوم القيامة من المحضرين للحساب والجزاء؟! الجواب: لا يستويان أبدًا.

[٦٢] ويوم ينادي جل جلاله من أشرك معه في العبادة غيره، قائلًا لهم: أين الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لي؟!!

[٦٣] فينطق رؤساء الضلال، وأئمة الغواية - الذين حقّ عليهم العذاب - قائلين: ربنا هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم ودعوناهم للغواية كما ضللنا نحن، فكلنا قد اشتركنا في الضلال، ونحن قد تبرأنا منهم ومن شركهم ومن أعمالهم، ما كانوا إيّانا يعبدون؛ بل كانوا يتبعون أهواءَهم، ويعبدون شياطينهم.

[٦٤] وقيل لهؤلاء المشركين تهكُّمًا وتقريعًا وتوبيخًا: ادعوا شركاءكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؛ لينصروكم وينقذوكم مما أنتم فيه، فنادوا عليهم، فلَمْ يستجيبوا لهم، ولم ينفعوهم، فعلموا حينها أنهم ليسوا علىٰ شيء، ثم عاينوا العذاب الذي سيحلّ بهم ويغشاهم، ولو أنهم كانوا يهتدون للإيمان والتوحيد لمَا حصل لهم ما حصل.

[٦٥] ويوم ينادي جل في علاه هؤلاء المشركين تقريعًا لهم: فيسألهم: بماذا أجبتم رُسُلي؟! هل اتبعتموهم وصدقتموهم؟ أم كفرتم بهم وكذبتموهم؟!

[٦٦] فثقلت عليهم الأجوبة، وغابت عنهم الحُجج، فلَمْ يستطيعوا جوابًا، ولم يسأل بعضهم بعضًا بماذا يجيبون، وبأي شيء يتكلمون.

[٦٧] فأما من تاب من المشركين وآمن بالله ووحده، وأفرده بالعبادة، وصدَّق إيمانه بالعمل الصالح؛ فأولئك من الفائزين.

[٦٨] واعلموا أن له جل في علاه مُطلق المشيئة، فيخلق ما يشاء، ويختار ويصطفي من يشاء، لم يكن لأحدٍ حقُّ المشاركة في الاختيار، تعالىٰ الله وتنزَّه وتقدَّس عن شرك المشركين وباطلهم.

[٦٩] يخبر جل وعلا أنه يعلم ما تخفي صدورهم وما يعلنون.

[٧٠] وأخبر سبحانه أيضًا أنه هو الله الذي لا معبود بحقٍّ إلا هو، له الحمد في الدنيا، وله الحمد في الآخرة، وله الحكم العدل، وإليه ترجعون؛ فيجازي كل نفس بما عملت، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ
٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ
يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ
فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ
وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ ٧٣ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٧٤ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا
هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم
مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٧٥ ۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ
فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ
بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ
وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ
وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧

[٧١] وقل يانبي الله للناس جميعًا: أرأيتم لو جعل الله عليكم الليل دائمًا مستمرًّا إلىٰ يوم القيامة؛ فهل هناك إلهٌ غير الله يستطيع أن يأتيكم بنهارٍ فيه ضياء تبصرون فيه، وتزاولون فيه أعمالكم؟! أفلا تسمعون مواعظ الله سماع تدبر وتفكر؟!

[٧٢] وقل لهم يانبي الله: أرأيتم لو جعل الله عليكم النهار دائمًا مستمرًّا إلىٰ يوم القيامة؛ هل هناك إلهٌ غير الله يستطيع أن يأتيكم بليلٍ تسكنون وتنامون وتستقرون وترتاحون فيه؟! أفلا تبصرون هذهً النعم والآيات ودلالتها علىٰ قدرة الله وحكمته وعلىٰ وحدانيته جل في علاه! وعلىٰ إكرامه لبني آدم وتحقيق مصالحهم.

[٧٣] ومن رحمة الله بكم أيها الناس، وتفضله عليكم أن جعل لكم الليل لتسكنوا وتستقروا فيه، ثم جعل النهار يعقبه لتنتشروا فيه، وتسعوا فيه لقضاء حوائجكم، وبهذا تستقيم حياتكم، وتنتظم أموركم؛ لعلكم تعرفون نعمة الله عليكم، فتؤدون شكرها بتوحيده، واتباع رُسُلِه.

[٧٤] ويوم ينادي جل جلاله من أشركوا معه في العبادة غيره، قائلًا لهم: أين الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لي؟!

[٧٥] وأحضرنا يوم القيامة من كلِّ أمّةٍ شهيدًا يشهد عليهم – وهو نبيهم – يشهد علىٰ ما كانوا عليه من الشرك والتكذيب –، ثم يقال لهذه الأمم المكذبة: هاتوا حجتكم، وبَيِّنوا دليلكم الذي دفعكم للإقامة علىٰ الشرك وتكذيب الرسل، فعلموا حينها بطلان شركهم وكفرهم، وتبيَّن لهم حينها أن الدين الحقَّ لله بتوحيده وإفراده في العبادة، وذهب عنهم ما كانوا يختلقونه من الكذب والافتراء علىٰ الله وتكذيب رُسُلِه.

[٧٦] وفي آخر هذه السورة جاءت قصة قارون، حيث أخبر جل وعلا أن قارون من قوم موسىٰ ولكنه بغىٰ عليهم وصار من أعوان فرعون، ثم أخبر سبحانه أنه أعطىٰ قارون أموالًا وكنوزًا عظيمة ومن عظمتها أنه يثقل علىٰ العدد الكثير من الرجال الأشداء حمل مفاتيحها، وقد نصحه جماعته بنو إسرائيل عن الفرح والإعجاب بنفسه وماله، لأن الله لا يحب الذين لا يشكرون نعم الله عليهم، المعجبين بقدرتهم، الفرحين بها، الذين ينسبون الفضل لغير الله؛ حيث ينسبون الفضل لذكائهم، ولخبرتهم ونحو ذلك.

[٧٧] ثم قال له جماعته علىٰ سبيل النصح والإرشاد: واطلب ياقارون فيما أعطاك الله من هذه الأموال العظيمة ثواب الله والأجر في الدار الآخرة، وذلك بالعمل فيها بما يرضي الله سبحانه وتعالىٰ في وجوه الخير، ولا تترك التنعم بما أعطاك الله من هذا المال في الدنيا بشرط أن يكون بالحلال وبدون إسراف، وعليك أن تحسن إلىٰ عباد الله بالصدقة والمعروف، كما أحسن الله إليك وأعطاك هذه الأموال الكثيرة، ولا تطلب البغي والظلم في الأرض بهذه الأموال؛ فإن الله لا يحب المفسدين.

ولكن قارون أصرَّ وعاند، وادعىٰ أنه حصل علىٰ هذا المال بذكائه وقدرته، واستمر علىٰ هذا العناد حتىٰ خسف الله به وبداره الأرض.

[٧٨] فردَّ عليهم قارون في صَلَفٍ وكبرياء، قائلًا: إنما أُعطيت هذا المال بحذق ومهارة مني، وعلىٰ علم عندي بوجوه المكاسب، ومعرفة في أنواع التجارات والأرباح، فقال سبحانه ردًّا علىٰ قارون وعلىٰ ادعاءاته: أولم تعلم ياقارون أنَّ الله أهلك مَن هو أشدُّ منك قوَّةً، وأكثر منك مالًا ممن سبقك مِن الأقوام الظالمين؟! ثم بين سبحانه أن هؤلاء المجرمين لا يُسألون عن ذنوبهم، أي: لا يُسألون سؤال استعلام، وإنما يُسألون سؤال تقريع وتوبيخ وإفضاح لهم، لأن الله جل في علاه يعلم بها، كما أنها مسجلة ومعروفة لهم وللملائكة؛ وسوف يُعذَّبون عليها مباشرةً عذابًا شديدًا.

[٧٩] ثم أخبر جل شأنه أن قارون خرج ذات يوم علىٰ قومه وهو في أبَّهته وفي أعلىٰ ما يكون من الزينة والتجمّل، فانبهر به قومه لمّا رأوه، حتىٰ قال الذين يريدون زينة الحياة الدنيا وزخرفها: ياليتنا أُعطينا مثل ما أُعطي قارون من الكنوز ومن متاع الدنيا وزينتها، إنه لذو نصيبٍ كبيرٍ، وحظٍّ عظيم من الدنيا.

[٨٠] ولكن الذين أغناهم الله بالعلم الشرعي - فعلموا حقيقة الدنيا وحقارتها - قالوا لهؤلاء المفتونين بزخرف الحياة الدنيا: ويحكم ياقوم إن آثرتم هذا الزائل الفاني علىٰ الدائم الباقي، فاعلموا أن ثواب الله لِمَن آمن به وعمل الصالحات في الدنيا والآخرة خيرٌ وأفضل ممّا تتمنونه، ولا يُعطىٰ هذا الفضل والاحتساب والعمل بالنصيحة إلّا الصابرون علىٰ طاعة الله، وعن معصيته، وعلىٰ أقداره.

[٨١] ولمّا كان قارون في أعلىٰ درجات زهوِّه بنفسه وعُجبِه وخيلائِه؛ خسف الله به وبداره الأرض وغيّبه فيها، فما حال بينه وبين ما حلَّ به جماعته ولا خدمه ولا حشمه، ولم تنفعه كنوزه وأمواله، وما كان ممتنعًا من نزول العذاب به وإهلاكه.

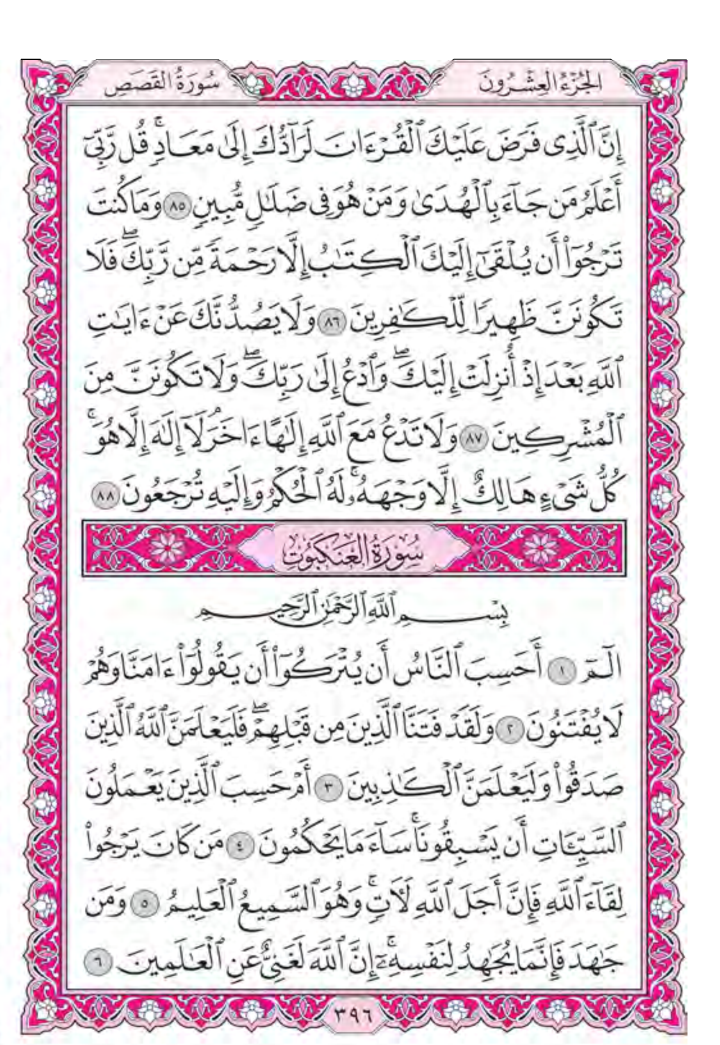
[٨٢] وأصبح الذين تمنوا أن لهم مثل ما لقارون من المال والأُبَّهةِ يتعجبون ويقولون: إن الله يوسِّع رزقه علىٰ من يشاء، ويضيِّقه علىٰ من يشاء، وله في ذلك الحِكَمُ العظيمة، ولولا لُطفُ الله بنا ومنَّتُه علينا لخسف بنا وأهلكنا مع قارون لإعجابنا به وتمنينا مثله، واعلموا إن الكافرين الجاحدين لا يُفلحون ولا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله: ﴿وَيۡكَأَنَّ﴾، كلمه تعجب واستغراب للمبالغة في التعجب.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾

[٨٣] واعلموا أيها الناس أن تلك الدار الآخرة وما فيها من نعيم الجنة سوف نجعلها ونخصُّ بها الذين لا يريدون علوًّا، ولا تكبُّرًا ولا تسلُّطًا ولا تعاليًا علىٰ المؤمنين، ولا يسعون في الأرض بالإفساد فيها بالشرك والمعاصي، والعاقبة المحمودة والفلاح والفوز في الدنيا والآخرة للذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً بالإيمان به، وفعل أوامره، وترك الشرك به، والبعد عن معاصيه.

[٨٤] ثم قال سبحانه: من عمل حسنةً واحدةً فإن الله يكافئه عليها، ويضاعفها له إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعافٍ كثيرةٍ فضْلًا منه وكرمًا جل في علاه، ومن عمل سيئةً بأن ارتكب ما نهىٰ الله عنه، فلا يجزىٰ إلّا بمثل هذه السيئة التي ارتكبها، ولا تضاعف عليه.



إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الْعَنكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

[٨٥] واعلم يانبي الله أن الذي أنزل عليك القرآن وفرض عليك تبليغه والتمسك به لمعيدك إلىٰ مكة، بعد أن تهاجر منها، فقل لهؤلاء المشركين: إن ربي وحده هو أعلم بالمهتدي، وبمن هو في ضلال واضح بيِّن، وسينال كل واحد منَّا ما يستحق إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

وقوله: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، فيها قولان: **الأول**: أي: لمعيدك إلىٰ مكة فاتحًا بعد أن أخرجك قومك منها. **والثاني**: أي: لمعيدك بعد البعث إلىٰ يوم القيامة، ومدخلك الجنة. وكلا القولين حق، فالأول تم، والثاني سيكون يوم القيامة.

[٨٦] وما كنتَ يانبي الله تتحرَّىٰ وتُؤَمِّلُ أن ينزل عليك هذا القرآن، لكن رحمة ربك أدركتك، وفضلُ الله عمَّك وأحاطك؛ فأنزل الله عليك هذا القرآن، فلا تكنْ عونًا للكافرين الجاحدين بحالٍ من الأحوال، وحاشاه صلوات ربي وسلامه عليه من ذلك.

[٨٧] ولا يصدّنّك الكفار يانبي الله عن آيات الله بعد أن أنزلها الله عليك فيُشغلوك عن تلاوتها، وإبلاغها، والعمل بها، وادعُ الناس إلىٰ التوحيد والإيمان، وترك الشرك والكفران، ولا تكونن من المشركين.

وهذه الآية أمر له ﷺ، وكذلك للعلماء والدعاة من بعده، لأن العبرة بعموم اللفظ.

[٨٨] وأخلص يانبي الله عبادتك لله بالتوحيد، فلا تدعُ مع الله إلهًا آخر؛ فإنه لا معبود بحقٍّ إلّا الله، وكل شيء هالك إلّا وجهه سبحانه جل شأنه، له سبحانه القضاء العادل النافذ في الدنيا والآخرة، وإليه مرجعُ الخلائق كلّها، فيُجازي كلًّا بعمله؛ إن خيْرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، نسأل الله الكريم من فضله، ونعوذ برضاه من سخطه.

وقوله: ﴿وَجْهَهُ﴾، فيها قولان: **القول الأول**: ذاته، أي: أن كل شيء يفنىٰ وتبقىٰ ذاتُه المقدسة، فأطلق الوجه وأراد به ذات الله جل وعلا، كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦ -٢٧]. **القول الثاني**: أن البقاء للأعمال الصالحة التي أريد بها وجه الله، واختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال: قال طائفة من السلف: كل عمل باطل إلا ما أريد به وجه الله.

سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكيّة وآياتها تسع وستّون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] يقول جل وعلا في بداية هذه السورة علىٰ سبيل الإنكار: هل يظن الناس بمجرد أنهم قالوا: آمنَّا بالله أن يتركوا بدون امتحان واختبار وابتلاء وتمحيص حتىٰ يُعلم الصادق في إيمانه من غيره؟.

[٣] ثم بين سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ أنه فتن المؤمنين السابقين أتباع الأنبياء واختبرهم، كأتباع نوح وهود وصالح وغيرهم عليهم السلام أجمعين، وكما أن الله سبحانه اختبر المؤمنين السابقين فسوف يختبر يانبي الله أتباعك المؤمنين، ليتبين الصادقون منهم ويجزيهم علىٰ أعمالهم الصالحة الأجر والثواب، وكذلك يتبين الكاذبون ويجزيهم علىٰ أعمالهم السيئة ويعاقبهم عليها.

وهذا يعني أنه لابد أن يُمحص الجميع ويمرُّون بابتلاءات واختبارات، وأن الحياة لا يتبين فيها المؤمن الصادق الخالي من أمراض الشهوة وأمراض الشبهة وضعف الإيمان والنفاق إلا إذا اجتاز الابتلاءات والمصائب بإخلاص وتجرد لربه. وهذه الآية نزلت في قوم مؤمنين في مكة قبل الهجرة تعرضوا لكثير من الأذىٰ وبعضهم فُتن في دينه، ولا شك أن المقصود بها كل المؤمنين إلىٰ قيام الساعة.

[٤] ثم قال سبحانه علىٰ سبيل الإنكار: هل يظن أهل الكفر والشرك وأصحاب المعاصي إمهالنا لهم، وتركهم غارقين في شهواتهم، فظنوا أنهم في معزل عنا وبعيدون عن رؤيتنا لهم ومتابعتهم، فبئس الظن الذي ظنوه وبنوا عليه حكمهم؛ فليعلموا أنه لا يفوتنا أحد منهم ولا من غيرهم.

[٥] واعلموا أيها الناس أن مَن كان مُحِبًّا لربه مشتاقًا للقائه؛ فليثبت علىٰ التوحيد ويواظب علىٰ العمل الصالح، فإن الأجل الذي حدَّده الله للبعث آتٍ لا محالة، والله هو السميع لأقوال عباده، العليم بنيَّات ومكنونات صدورهم.

[٦] ثم أخبر سبحانه أن من بذل وُسعَه وطاقته في إصلاح نفسه والانتصار عليها، وبذل وُسعَه وطاقته في جهاد الكفار وقتالهم، فإن نفع ذلك وثمرته يعود علىٰ نفسه، واعلموا أن الله غنيٌّ عن أعمال العالمين، لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي.

[٧] ثم وعد جل وعلا الذين منَّ عليهم ووفقهم للإيمان والعمل الصالح؛ أن يكفِّر عنهم ما وقعوا فيه من سيئات، وأن يجزيهم الجزاء الأوفىٰ علىٰ ما عملوا من التوحيد والطاعات، واجتناب الشرك والمحرمات.

[٨] ثم وصىٰ سبحانه الإنسان ببر والديه والإحسان إليهما في القول والعمل؛ فإن حاول الوالدان أو أحدهما جهدهم في أن يشرك ابنهما مع الله في عبادته أحدًا أو يعمل شيئًا فيه معصية لله؛ فلا يستجب لهما؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم أخبر سبحانه أن مصير العباد جميعهم إليه، وسوف يخبرهم بما كانوا يعملون في حياتهم الدنيا من خير أو شر، وسيحاسبهم عليه. وقد ذكرنا في ما مضىٰ أن الله وصىٰ الأبناء بآبائهم وأمهاتهم في القرآن في مواضع عدّة قريبًا من عشرة مواضع، ولم يوصِّ الآباء بأبنائهم إلّا بوصية الإرث في سورة النساء، وقلنا: إن السبب والله أعلم: هو أن قيام الآباء برعاية أبنائهم جبلة وخلقة وطبيعة طبعهم الله عليها؛ فهي ثابتة مستقرة في ذواتهم، أما الأبناء فقيامهم بواجبهم نحو برِّهم بوالديهم فهو تكلف وتكرم منهم، وكثير من الأبناء تشغلهم الحياة من أنشطة وكسب رزق وأشياء كثيرة فيقل اهتمامهم، أو تُنسيهم وتلهيهم فلا يراهم والدوهم إلا لمامًا أو مهاتفة، ولهذا كرر سبحانه وصية الأبناء بوالديهم مرارًا، ولأمر آخر مهم هو أن الوالدين هما سبب وجود الأبناء بعد اللهِ جلَّ وعلا، فإذا أهملوا وتناسوا حق هذا السبب فربما تناسوا حق الموجد الأول وهو الله جلَّ وعلا.

[٩] ثم أخبر سبحانه أن الذين منَّ عليهم ووفقهم للإيمان والعمل الصالح؛ أن يدخلهم الجنّة في جملة عباده الصالحين.

[١٠] ثم أخبر جل وعلا أن من الناس من يزعم أنه آمن بالله وصدَّق برسوله ﷺ؛ فإذا امتُحِن في ذلك وأوذي في سبيل الله؛ بالضرب أو الشتم أو الحبس أو التعيير ونحو ذلك؛ لم يصبر علىٰ ذلك، وجعل هذه الأذية مساوية لعذاب الله، فارتدَّ علىٰ عقبيه، فيطيع من آذاه كطاعته لله، أو يخاف منه كخوفه من الله، ولئن جاء للمؤمنين المستضعفين نصرٌ من الله وفتحٌ وغلبةٌ علىٰ الكافرين ليقولنَّ هذا الصنف من الناس لكم: إنّا مثلكم مؤمنون وكنّا قبل ذلك معكم بنصركم وتأييدكم!! فكذّبهم الله جل في علاه: أوليس الله بأعلم بما تكنه صدور جميع الناس؟!

[١١] ثم أخبر عز وجل أنه سوف يختبر المسلمين لِيُمَيِّزَ الذين آمنوا به وصدّقوا رسوله ﷺ، وصَدَقوا في ذلك، وَيُمَيِّزَ المنافقين الذين يُظهرون خلاف ما يُبطنون.

وقوله: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ﴾، الواو حرف عطف، واللام موطئة للقسم، و(يعلمن) فعل مضارع مبني علىٰ الفتح، والنون نون التوكيد، والمقصود: علم ظاهر أمرهم لأنه هو الذي يترتب عليه الجزاء، أما الباطن فالله عالم به سلفًا.

[١٢-١٣] ثم أخبر سبحانه أن الذين كفروا بالله وجحدوا رسله قالوا: لِمَن آمن بالله ووحَّده: تعالوا إلىٰ ديننا وطريقتنا، ونحن سنتحمّل عنكم جميع أوزاركم وذنوبكم، فكذَّبهم جل وعلا في

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾

دعواهم هذه، وأخبر أنهم لن يتحمَّلوا شيْئًا من آثامهم، وأخبر سبحانه أن الكفار كاذبون في قولهم هذا. ثم أكد سبحانه أن هؤلاء الكفار سوف يحملون ذنوبهم وذنوب كل من أضلوهم، من غير أن ينقص من ذنوب الضالين المقلدين شيء، وسوف يُسألون يوم القيامة عمَّا كانوا يختلقونه من الأكاذيب، وقد قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[النحل:٢٥].

[١٤] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل نوحًا عليه السلام إلىٰ قومه ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلىٰ الإيمان والتوحيد؛ فلم يستجيبوا لدعوته وأصروا علىٰ الشرك والكفر فأهلكهم الله بالطوفان لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان. قال بعض المفسرين: سمي نوحًا لكثرة نواحه، أي: بكائه من خشية الله، وقومه هم البشر الموجودون علىٰ الأرض آن ذاك، وهذا الزمن الطويل الذي مكثه نوح مع قومه يدعوهم فيه ليلًا ونهارًا وسرًّا وجهرًا، كما أخبر جل وعلا بذلك في سورة نوح؛ يحمل درسًا للدعاة ومحبي الخير لإخوانهم أن يتحملوا ما يلحقهم من أذىٰ وأن يصبروا؛ بل يصابروا حتىٰ يحقق الله علىٰ أيديهم الهدىٰ للمدعوين. والفرق بين السَّنة والعام: أن السنة عادة للحول المجدب، والعام للحول المخصب. وأما عمر نوح قبل النبوة وبعد غرق قومه لم يذكر فهو أطول الأنبياء عمرًا لذلك قيل: هو شيخ المرسلين.

فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ
١٥ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ
خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ
وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ وَإِن تُكَذِّبُواْ
فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ
ٱلۡمُبِينُ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ
مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن
وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٣

[١٥] يخبر جل وعلا أنه نجّىٰ نوحًا والذين آمنوا معه ممن ركبوا السفينة؛ من الغرق والهلاك، وجعل قصتهم آية وعبرةً للعالمين يعتبرون بها.

[١٦] واذكر يانبي الله يوم أن قال إبراهيم عليه السلام لقومه: اخلصوا العبادة لله وحده، واتقوه جل وعلا بفعل أوامره واجتناب معاصيه؛ واعلموا أن عبادة الله وتقواه خير لكم من كل متع الدنيا وزخرفها؛ إن كنتم تعلمون وتميزون بين الخير والشر. وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء الذين أتوا بعد وفاته، وهو الذي جادل النمرود الذي ادَّعىٰ الألوهية، وهو الذي حطم الأصنام وكسرها بيديه ثم حكموا عليه بالإحراق في النار وأضرموها ثم لهولها ولحرارتها لم يستطيعوا القرب منها فجعلوه في منجنيق ورموه في قلبها؛ ولكنه عليه السلام بفضل الله ورحمته خرج منها سالمًا لم يمس بسوء، فانبهر النمرود وقومه ومع ذلك لم يُسْلِمُوا، ثم تضايق والده من إلحاح إبراهيم عليه فقال: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم:٤٦]؛ فذهب هو وزوجته وابن أخيه لوط عليهما السلام من العراق إلىٰ الشام وفلسطين ثم إلىٰ مصر، وقصته كلها كفاح ومواقف جهادية سطرها القرآن، وكافأه الله في الدنيا بأن جعله أُمَّة وأسوة لمن يأتي بعده، وقد رفع الله ذكره وأجاب طلبه إلا في الغفران لأبيه، إذ قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء:٨٣-٨٩]، وها نحن من الآخرين الذين نشيد بمواقفه الجهادية ونصلي ونسلم عليه، ثم أَنْعَمَ الله عليه أن جعل الأنبياء من بعده من ذريته؛ لأنهم – أي: الأولاد – يخلفونهم خلافة صالحة فيدعون لهم ويذكرونهم دومًا بذكر مواقفهم المشرفة، وَجَعَلَهُ الله من الذين وصلوا إلىٰ كمال الصلاح، وَجَعَلَهُ وابنه إسماعيل يجددان الكعبة ويرفعانها حيث انطمست بسبب الرياح والأمطار ومرور الزمن فأرشده إلىٰ قواعدها.

[١٧] ثم أخبر سبحانه أن إبراهيم عليه السلام قال لقومه: إن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله أنتم الذين صنعتموها بأيديكم، فكيف تعبدونها؟! وأنتم تعلمون أن هذه الأصنام لا تستطيع رزقكم، ولا نفعكم أو ضركم، فلذلك عليكم أن تلتمسوا الرزق وتطلبوه من الله الرزَّاق الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وأيضًا عليكم أن تخلصوا له العبادة بالتوحيد، وأن تشكروه وحده وتثنوا عليه، فإنكم راجعون إليه يوم القيامة؛ فيجازيكم علىٰ أعمالكم ويحاسبكم عليها.

[١٨] وإن تكذّبوا ياأهل مكّة بآيات الله، وتجحدوا رسوله ﷺ؛ فقد سبقكم أقوامٌ إلىٰ ذلك بتكذيب رسلهم، فكان جزاؤهم الهلاك والخسران المبين، وليس علىٰ رسولنا سوىٰ أن يبلغكم البلاغ البين الواضح، فتقوم عليكم به الحجَّة.

[١٩] أولم يرَ هؤلاء المكذّبون بالبعث كيف أوجد الله الخلق من العدم، ثم يُفنيه، ثُم يعيده مرة أخرىٰ يوم القيامة للجزاء والحساب؟! إن ذلك البعث يسيرٌ سهلٌ علىٰ الله جل في علاه؛ لأنه سبحانه إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

[٢٠] وقل يانبي الله للمكذبين: سيروا وامشوا في الأرض بأبدانكم وتفكروا بقلوبكم وعقولكم، وانظروا كيف ابتدأ الله الخلق وأوجده من العدم؟! ثم إن الله يفنيهم، ثم يعيد إنشاءهم وإيجادهم مرّةً أخرىٰ؛ فالذي أنشأهم أول مرة لا يتعذر عليه إعادتهم مرّة أخرىٰ، فقدرته سبحانه لا يُعجزها شيء، وهو علىٰ كل شيء قدير.

[٢١] ثم أخبر جل وعلا أنه هو وحده سبحانه الذي يعذّب من يشاء من المشركين والعصاة بعدْله، ويرحم من يشاء من الموحدين والطائعين برحمته وفضله، وإليه جميعًا مرجعكم ومآلكم، فيجازيكم علىٰ أعمالكم ويحاسبكم عليها.

[٢٢] واعلموا – يامن كذّبتم بالبعث – أنكم لا تُعجزون الله ولا تفوتونه في الأرض ولا في السماء، وليس لكم أحدٌ يواليكم، وينصركم ويدفع عنكم عذاب الله وسخطه. وإنكارهم للبعث يدل علىٰ هروبهم من حساب الله وعذابه.

[٢٣] والذين كفروا بآيات الله الدالة علىٰ وحدانيته، وكذّبوا رُسُل الله؛ أولئك لم يبقَ لهم مطمعٌ ولا رجاءٌ في رحمة الله؛ لأنهم لم يعملوا بمقتضاها؛ بل عملوا بخلافها، وأقاموا علىٰ ذلك، فلهم في الآخرة عذابٌ مؤلِمٌ موجِع.

[٢٤] فما كان ردُّ قوم إبراهيم بعد أن دعاهم إلىٰ التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام إلّا أن قال بعضهم لبعض: اقتلوا إبراهيم أو حرِّقوه بالنار، وقرروا إحراقه وأضرموا النار وألقوه فيها، ولكن الله أنجاه من النار، إن في ذلك لآياتٍ بيناتٍ وعلاماتٍ واضحاتٍ علىٰ صحّة ما دعا قومه إليه، وهذه الآيات إنما ينتفع بها المؤمنون المصدّقون بالله ورُسُله.

[٢٥] وكان من جُملةِ ما وَعَظ إبراهيم به قومه أن قال لهم: إن هذه الأوثان التي تعبدونها في الدنيا تودونها ويود بعضكم بعضًا في الدنيا علىٰ الاجتماع حولها، ثم يوم القيامة سيكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضًا، وسيتبرأ العابد من المعبود، والمعبود من العابد، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ ﴾ [الزخرف:٦٧]، ثم يكون مكانكم ومستقركم نار جهنم تُعذّبون فيها، وليس لكم من ينصركم، ولا من يدفع عنكم.

[٢٦] يخبر جل وعلا أن لوطًا عليه السلام آمن بدعوةِ إبراهيم واتَّبعه، ثم قال إبراهيم: إني تاركٌ أرض قومي ومهاجر للدعوة إلىٰ الله وإلىٰ عبادة ربي وتوحيده، إن ربي هو العزيز الغالب الذي لا غالب له، وهو الحكيم الذي وضع كل شيء في موضعه سبحانه جلَّ في عُلاه.

[٢٧] وبعدما هاجر إبراهيم عليه السلام إلىٰ الشام أعطاه الله الذّرية الصالحة؛ فما من نبيٍّ أُرسل بعد ذلك إلّا كان من ذريته، فكان من ذريته: إسماعيل عليه السلام جدُّ نبي الرحمة محمد ﷺ خاتم النبيين، ومن ذريته أيضًا إسحاق، ويعقوب، ثم أخبر سبحانه أنه أعطىٰ إبراهيم أجره وثوابه في الدنيا بالذّرية الصالحة، والرفعة والذكر الحسن، وجعله في الآخرة مِن الصالحين لأعلىٰ المنازل وأسماها.

[٢٨] واذكر يانبي الله لقومك قصة لوطٍ عليه السلام مع قومه يوم أن قال لهم: إنكم لتفعلون فعلةً قبيحةً بشعةً لم يسبقكم أحدٌ من الناس إليها.

[٢٩] ثم بين سبحانه أنهم يأتون فاحشة عظيمة وهي أنهم يأتون الرجال في أدبارهم، ويقطعون طريق المسافر الذي يمرُّ بهم إما بفعل الفاحشة فيه، وإما بسلبه ونهبه، فانقطع سبيل المسافرين بسبب أفعالهم القبيحة، ويأتون في مجامعهم ونواديهم الأفعال المستنكرة والمستقبحة المخلة بالأدب كالضراط، ورمي المارَّة بالأقوال السيئة ونحو ذلك!!

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥ ۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠

وقد سألت والدي رحمه الله - وكان يدرس التفسير -: ما هو المنكر الذي كانوا يأتونه في ناديهم؟؛ فقال: كان بعضهم يُسمِعُ ضراطه للآخرين في مجالسهم العامة، وبعد أنه نصحهم لوط عليه السلام فما كان جوابهم إلا أن قالوا علىٰ سبيل الغطرسةِ والكِبر واللامبالاةِ: فأتنا يالوط بعذاب الله إن كنتَ صادقًا فيما تدعيهَ من النبوة، وقالوا في سورة الشعراء: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴾[الشعراء:١٦٧].

[٣٠] فما كان من لوطٍ عليه السلام إلا أن دعا ربَّه أن ينصره، ويُظهِرَهُ علىٰ هؤلاء القوم المفسدين في الأرض بالشرك، وبقبيح المعاصي، وشنيع المنكرات.

وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾

[٣١] ثم أخبر سبحانه أن الملائكة جاءت حاملةً البشرىٰ لإبراهيم عليه السلام بالذرية الصالحة؛ حيث بشروه بإسحاق ويعقوب، وقالوا له: إنا سنُهلك أهل قرية قوم لوط، لأن أهل هذه القرية تجاوزوا لحدودهم، وإنهم ظلموا أنفسَهم بالشرك، وقبيح المعاصي.

ولكن إبراهيم عليه السلام لكثرة الملائكة شعر أنهم مكلفون بأمر أكبر من هذه البشارة؛ فسألهم بعد هذه البشارة قائلًا لهم كما في سورة الذاريات: ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [الذاريات:٣١].

[٣٢] ولكن إبراهيم عليه السلام راجعهم فقال لهم: إن تلك القرية فيها نبي الله لوطٌ، فقالوا له: نحن أعلم بمن فيها فسوف ننجينه وأهله من العذاب والهلاك إلّا امرأته فإنها ممن يشملهم العذاب.

[٣٣] ثم إن الملائكة جاءت إلىٰ لوطٍ عليه السلام في صورة بشرٍ يستضيفون عنده؛ فحزن لذلك أشدَّ الحزن، وخاف عليهم من فجور قومه بهم، فأخبروه أنهم رُسُل الله وملائكته، وقالوا له: لا تخف علينا من قومك، ولا تحزن فإنا منجوك وأهلك من العذاب والهلاك الذي سيحلُّ بقومك إلّا امرأتك فإنها ممن يشملهم العذاب.

[٣٤] واعلم يالوط أنا مُنْزِلُون علىٰ أهل هذه القرية عذابًا من السماء – وهو رميهم بحجارة من سجيل – بسبب فِسْقهم وخروجهم عن توحيد الله وطاعته، ثم قلب الملائكة قريتهم عليهم.

[٣٥] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل من هذه القرية آثارًا بيّنة واضحةً تدلُّ علىٰ ما حلَّ بهم من الدمار والهلاك؛ لينتفع بذلك المنتفعون، ويتعظ بذلك أصحاب العقول الراجحة، والفِطَرِ السَّليمة.

[٣٦] ثم أخبر سبحانه أنه أرسل إلىٰ مدين أخاهم شعيبًا، فدعاهم إلىٰ الإيمان والتوحيد، وقال لهم: ياقوم وحدوا الله وأفردوه بالعبادة، ولا تُشركوا به شيئًا، وآمنوا باليوم الآخر، وخافوا من أهواله وشدائده، واطمعوا في ثواب الله وفضله، ولا تُفسدوا بأعمالكم في الأرض.

[٣٧] ولكن أهل مدين كذّبوا نبيهم، ولم يؤمنوا بما جاءهم به؛ فعمَّهم الله بالعذاب، فأخذتهم الزلزلة الشديدة، فصرعتهم، وأهلكتهم، فأصبحوا في دارهم جاثمين علىٰ ركبهم ميِّتين.

[٣٨] ثم أخبر جل في علاه أن عادًا وثمود كذّبوا أيضًا برسلهم، ولم يؤمنوا بما جاؤوهم به، فعمّهم الله بعذابِه، ونزل بهم عقابَه، وبقيت آثارهم ومساكنهم شاهدةً علىٰ ما حلَّ بهم من العذاب والنكال، وكان الشيطان قد حسَّن لهم أعمالهم التي يعملونها من الشرك وتكذيب الرسل، فصدهم بذلك عن الطريق المستقيم الواضح بعد أن تبين لهم وفهموه، ومع ذلك لم يهتدوا عنادًا وكبرياء، مع علمهم أن ما هم عليه باطل وضلال، وأن الحق ما جاء به شعيب عليه السلام.

[٣٩] وبعد أن ذكر جل وعلا إهلاك الأمم المتكبرة العاصية التي آذت رسلها كقوم لوط وهود وصالح، بيّن سبحانه أن قارون وفرعون وهامان أيضًا كذّبوا رسلهم فأهلكهم الله، مع أن موسىٰ عليه السلام جاءهم بالآيات البينات الدّالات علىٰ صدق ما يدعوهم إليه؛ فقابلوا ذلك بالاستكبار والغطرسة والبغي في الأرض؛ مع علمهم أن ما جاء به موسىٰ حق وصدق؛ ولذا أخبر سبحانه أنهم استحقوا العذاب والهلاك، وأنهم ما كانوا منه جل في علاه هاربين، ولا له معجزين.

[٤٠] ثم أخبر جل وعلا أن كلُّ أمة نالت نصيبَها من العذاب بما كسبت، وتنوعَّت نهاياتهم؛ فمنهم مَنْ أرسل الله عليهم ريحًا شديدةً فأهلكتهم كقوم عاد، ومنهم من أخذته الصيحة كقوم صالح، ومنهم من خسف الله به الأرض كقارون، ومنهم من أغرقه الله كقوم نوح، وكفرعون وجنوده، ثم بين سبحانه أنه لم يظلم هذه الأقوام بما فعل بهم من العذاب والهلاك؛ لأنه عذّبهم جل وعلا بسبب ما ظلموا به أنفسهم من ارتكاب الشرك والكفر والمعاصي، والإصرار علىٰ ذلك. وقد أخبر سبحانه أنه حرَّم الظلم علىٰ نفسه وجعله بين الناس محرَّما، فقال تعالىٰ في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا...**»[1]، ولا شك أن ذكر الله لهذه الأمم وما آلوا إليه من الكفر والاستكبار ومعاداة الهداة المرسلين هو تحذير وتنفير لمن حذا حذوهم، وإعلام لهم أن مآلهم سيكون مثلهم.

[٤١] واعلموا أيها الناس أن هؤلاء المشركين الذين اتخذوا الأصنام والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها، حالهم كحال العنكبوت التي صنعت لها بيتًا ولكنه بيت ضعيف مهلهل، لا يقيها من حر الصيف ولا برد الشتاء، وهكذا الأصنام لا تنفع من يدعوها؛ فإنها حجارة لا تنفع ولا تضر، ولن تكون سببًا في نجاة عابديها يوم القيامة، بل ستتبرأ منهم، وستكون سببًا في هلاكهم، وكذلك أولياؤهم من الصالحين يتبرؤون منهم، ثم بين سبحانه لو كان هؤلاء المشركون يعلمون حقيقة العلم أن عبادتهم لهذه الأصنام والأوثان لا تغني عنهم شيئًا، وأنها تشبه بيت العنكبوت في عدم الانتفاع ببيتها الواهي لما رضوا بعبادة غير الله، وتركوا عبادة الله الذي بيده كل شيء وإليه المصير، ولتبرأوا من تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولكن إصرارهم علىٰ الكفر والعناد أعمىٰ أبصارهم فاستمروا علىٰ كفرهم وضلالهم.

[٤٢] واعلموا أن الله جل في علاه له غيب السماوات والأرض، يعلم حال الآلهة التي يدعونها ويعبدونها من دون الله، وأنها لا تضر ولا تنفع، ويعلم حال المشركين العابدين لهذه الآلهة الباطلة، فهو سبحانه لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، وهو العزيز القهار الغالب الذي له القوة جميعًا، وهو الحكيم في ملكه وتدبيره، الذي يضع الأشياء في مواضعها.

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

[٤٣] يخبر جل وعلا أن هذه الأمثال التي يضربها للناس لينتفعوا بها ويتعلموا منها، وما يعقل هذه الأمثال ويفهم مرادها إلا أصحاب العقول النبيهة والفاهمة، وفي هذا ثناء علىٰ العلماء بأنهم هم الذين يستفيدون من الأمثال ويدركون ما تنطوي عليه.

[٤٤] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه تفرَّد بخلق السماوات والأرض بالعدل والقسط، وفي هذا دلالة وعلامةٌ واضحةٌ علىٰ حكمته وقدرته، وعلمه سبحانه، ولا يستفيد من مثل هذه الآيات إلا المؤمنون الذين يصدّقون بالله ورُسله.

[٤٥] أمر جل وعلا نبيه محمدٍ ﷺ أن يستمر في تلاوة ما أنزل عليه من هذا القرآن بتدبر واعتبار، وأن يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه، وأمره سبحانه أن يقيم الصلاة في وقتها بكامل أركانها وواجباتها بخشوع وخضوع؛ لأن المحافظة علىٰ الصلاة تنهي صاحبها عن الوقوع في الفساد بكل أنواعه، كما أمره جل شأنه أن يكثر من ذكر الله في الصلاة وفي جميع أحواله؛ فإن ذكر الله أكبر وأفضل وأعظم الأعمال، وَأَمْرُهُ سبحانه لنبيه ﷺ بهذه الأعمال ليبلغ أمته؛ لأن هذا مقتضىٰ رسالته ﷺ، واعلموا أيها الناس أن الله يعلم ما تصنعون من خير أو شر، وسيجازيكم سبحانه علىٰ أعمالكم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢

[٤٦] أمر جل وعلا المؤمنين أن يناقشوا اليهود والنصارىٰ بالأسلوب الحسن، والقول الجميل؛ بعيدًا عن الفحش في القول والسب أو الاستهزاء؛ إلا إذا تركوا الأدب وأساءوا وعاندوا وكابروا فقَابِلوهُم بنفس الأسلوب من الغلظة والشدة، وقولوا لهم: إننا آمنا بهذا القرآن الذي أنزل علينا، وآمنا أيضًا بالتوراة والإنجيل التي أنزلت عليكم، لأن إلهنا وإلهكم واحد لا شريك له، لا في ذاته، ولا في ألوهيته، ولا في ربوبيته، ولا في أسمائه وصفاته، ونحن جميعًا خاضعون مطيعون له وحده فيما أمرنا ونهانا، ممتثلون ما بلغت به رسله. وَأَمْرُهُ سبحانه وتعالىٰ المؤمنين بعدم مجادلة اليهود والنصارىٰ إلا بالتي هي أحسن يشمل أيضًا غيرهم من أصحاب الأديان والفرق والأهواء والملل والمذاهب والأفكار.

[٤٧] وكما أنزلنا الكتب علىٰ الرسل من قبلك يانبي الله نَنزِّل عليك هذا القرآن العظيم، فالراسخون في العلم من أهل الكتاب ممّن نزلت عليهم التوراة والإنجيل – كعبدالله بن سلام – يؤمنون بالقرآن، وأنه حقٌّ من عند الله، وأيْضًا من هؤلاء العرب من قريشٍ وغيرهم من يؤمن بالقرآن ويصدّق به، وما يجحد بآياتنا وينكرها إلّا القوم المعتدون، المجاوزون لحدودهم.

[٤٨] وليعلم هؤلاء المشركون أن ممّا يدلُّ علىٰ صحة هذا القرآن، وأنه منزَّلٌ من عند الله: أنك يانبي الله لم تكن تعرف القراءة والكتابة قبل نزول هذا القرآن، ولو كنت تعرفها لاتهمك المبطلون وَتَخَرَّص المتخرصون أنك تعلمته أو نقلته من الكتب السابقة.

[٤٩] ثم بين سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ أن هذا القرآن آيات بينات واضحاتٌ في صدور أهل العلم، وليس كما يزعم المبطلون أنه أساطير الأولين، ثم بين جل شأنه أنه ما يكذِّب بآيات الله، ويشكِّكُ فيها، ويجحدها إلّا القوم الظالمون المعتدون المتجاوزون لحدودهم في الكفر والطغيان.

[٥٠] وعندما بدأ المشركون في التعنّتِ باقتراح نزول آياتٍ بعينها، أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهم: إن أمر إنزال هذه الآيات لله، إن شاء أنزلها، وإن شاء منعها، وما أنا إلّا نذيرٌ لكم، أحذِّركم عاقبة ظلمكم وشرككم وتكذيبكم.

[٥١] وبعد أن قال هؤلاء المشركون المكذبون ما قالوا، أولمْ يكفِهِم أن يكون هذا القرآن – الذي يُتلىٰ عليهم – آيةً ومعجزةً لهم؟! واعلموا أيها الناس أن في إنزال هذا القرآن لرحمةً وموعظةً وذكرىٰ لقوم يؤمنون بالله، ويصدّقون رُسُلَه، وأنه أكبر معجزات النبي ﷺ.

[٥٢] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: إنه يكفيني أن يكون الله شاهدًا علىٰ ما وقع بيني وبينكم، فقد جئتكم بالحق من ربكم، وأبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ولكنكم كذّبتموني، وعاندتم، ولم تؤمنوا، والله الشاهد علىٰ ذلك، يعلم ما في السماوات والأرض، لا تخفىٰ عليه خافية، واعلموا ياقوم أن الذين اتبعوا الباطل وصدّقوه، وجحدوا بالحق، وكذّبوا بالله ورسله؛ هم الخاسرون خسارةً حقيقيةً، لا خسارة أعظم منها.

[٥٣] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أن قومه لم يكتفوا بتكذيبه، بل أضافوا إلىٰ ذلك أنهم طلبوا منه علىٰ سبيل التهكم والسخرية والتحدي أن يستعجل بنزول عذاب الله أن يقع عليهم، ثم بين سبحانه أنه لولا موعدٌ محدَّدٌ لنزوله – لم يَحِنْ بعد – لجاءهم العذاب حين طلبهم إيّاه، ولكن اعلموا أيها الكفار أن هذا العذاب سوف يأتيكم فجأةً، وأنتم لا تشعرون بمجيئه؛ فيدمركم، ويهلككم.

[٥٤] وكيف يستعجلونك يانبي الله بالعذاب وهو اقع بهم لا محالة، وأن العذاب سوف يحيط بهؤلاء الكافرين الجاحدين المكذّبين من كلِّ جانب، فلا يستطيعون هربًا، ولا يجدون لهم وليًّا ولا نصيرًا.

[٥٥] ثم بين سبحانه أن هذا العذاب سوف يحيط بالكفار يوم القيامة من كل جهةٍ فيغطيهم ويغمرهم، وتحتويهم النار من فوقهم ومن تحتهم، ثم يقول الله جلَّ في عُلاه: ذوقوا ما كنتم تعملون من الشرك والمعاصي، والتكذيب والاستهزاء، واستعجال العذاب.

[٥٦] ثم ينادي جل في علاه علىٰ عباده الذين آمنوا، ويأذن لهم ويأمرهم بالهجرة من أرض الشرك والظلم، ويخبرهم أن أرض الله واسعة، فيهاجروا فيها؛ ويخلصوا العبادة لله.

[٥٧] ثم يخبر سبحانه أن كل نفسٍ لا بد أن تذوق الموت، وترحل عن هذه الدنيا، ومرجع الجميع إلىٰ الله؛ ليجازي كلًّا بعمله.

[٥٨] ثم أخبر جل وعلا أن الذين آمنوا بالله، وصدّقوا رسوله ﷺ، واتبعوا أمره فهاجروا في سبيله؛ سوف ينزلهم الله في الجنة – دار النعيم المقيم – غرفًا عاليةً بديعة الجمال، تجري من تحتها الأنهار، وهم فيها خالدون ماكثون، لا يتحولون عنها ولا يزولون، فنِعْمَ ذلك الإنزال في تلك الغرف، ونعم حال أصحابها الذين حبسوا أنفسهم عن ملاذّ الدنيا وشهواتها ابتغاء ما عند الله.

[٥٩] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المؤمنين نالوا هذه الأجور العظيمة لأنهم صبروا علىٰ مشاق الهجرة والجهاد، وتمسكوا بدينهم، وتوكلوا علىٰ ربهم واعتمدوا عليه، وفوَّضوا أمرهم إليه.

[٦٠] واعلموا أيها الناس كم مِنْ دابّة ضعيفةٍ في الأرض، لا تستطيع حمل رزقها، ولا ادخاره؛ تكفَّل الله برزقها، وبإيصاله إليها؟! كما تكفَّل الله برزقكم، فلا يمنعنَّكم من الهجرة خوفكم من الفقر والفاقة، لأن الله قد تكفَّل برزقكم وبرزق سائر مخلوقاته، إن الله هو السميع لأقوالكم فلا يخفىٰ عليه شيء، العليم بكم وبنياتكم وأحوالكم، وما تُكِنُّه صدوركم.

الجُزْءُ الحَادِي وَالعِشْرُونَ | سُورَةُ العَنكَبُوتِ

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

٤٠٣

[٦١] ولئن سألتَ يانبي الله هؤلاء المشركين: من خلق السماوات والأرض؟! ومن الذي سخَّر الشمس والقمر، وأحكم سيرهما بهذه الكيفية؟! ليجيبونك بقولهم: الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، ما دام أنه هذا جوابهم فكيف يصرفون العبادة لغيره، وهو الخالق المدبر لهذا الكون؟!

[٦٢] واعلموا أن الله سبحانه وتعالىٰ هو الباسط القابض، يوسِّع الرزق لِمَن يشاء من عباده، ويضيِّقه علىٰ من يشاء، كلّ ذلك بحكمةٍ منه جل في علاه، وسواء ضيّق أو وسّع عليه فكلاهما ابتلاء واختبار، إن الله بكل شيء عليم.

[٦٣] ولئن سألتَهم يانبي الله مَنْ الذي أنزل المطر من السماء، فأحيا به الأرض بعد قحطها وجدبها؟! لأجابوك قائلين: الله هو الذي أنزل المطر، فقل حينها: الحمد لله علىٰ إقامة الحجَّة عليهم، واعلم أن أكثر هؤلاء الناس لا يُعْمِلُون عقولهم، فلو أعملوها لعملوا بما ينجيهم.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ
ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ
حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ ۚ
أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟
فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ
بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ
مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾
بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

[٦٤] واعلموا أيها الناس أن حقيقة هذه الحياة الدنيا ما هي إلّا لهوٌ ولعب، ينشغل بها كثيرٌ من الناس عن الدار الآخرة التي هي الحياة الحقيقية الكاملة الباقية التي لا تزول، ولو كان الناس يعلمون حقيقة ذلك لمَا آثروا الباقي علىٰ الفاني.

[٦٥] يخبر جل وعلا أن المشركين إذا ركبوا السفينة، وسارت بهم في البحر، وتلاطمت بهم الأمواج، وأوشكوا علىٰ الغرق، واشتدَّ بهم الكرب؛ دعوا الله ووحّدوه مخلصين له العبادة، وتركوا جميع ما يُعبد من دون الله من الآلهة الباطلة، فلمّا زالت عنهم الشدّة، وسلّمهم الله، ونجّاهم من الغرق، ورجعوا إلىٰ البر؛ إذا هم يشركون معه في العبادة الآلهة الباطلة التي لا تنفع ولا تضرّ، وينسبون نجاتهم من الغرق لمهارة ربان السفينة، ونجاتهم من الحوادث لمهارة قائد المركبة، ونجاتهم من المرض أو العملية الجراحية لخبرة الطبيب، ونحو ذلك، وينسون مسبب الأسباب، وهو الله جل في علاه.

[٦٦] فلما نجىٰ سبحانه هؤلاء المشركين من الغرق فإذا بهم يشركون بالله الآلهة والأنداد ليكون عاقبة إنقاذ الله لهم من الغرق هو الكفر به سبحانه وبما أنعم عليهم من الأموال والأولاد والصحة وغيرها، فليتمتعوا في هذه الحياة الدنيا الزائلة مُتَعًا محدودة؛ فسوف يعلمون عاقبة شركهم، وكفرهم يوم الحساب والجزاء، وفي هذا تهديد ووعيدٌ لهم.

[٦٧] ثم قال سبحانه وتعالىٰ: أولمْ ير هؤلاء المكذّبون أنَّا جعلناهم مُمكَّنِين آمنين في بلدٍ آمنٍ لا يعتدي عليهم فيه أحد – دون غيره من البلاد –، إذ القتل والسلب والنهب والحروب تتخطف الناس فيما حولهم من البلاد! أفبالباطل – وهو الشرك وما يكرهه الله ويأباه –، يؤمنون ويصدّقون، وبنعمة الله وتوحيده يجحدون ويكذِّبون؟!

[٦٨] واعلموا أيها الناس أنه لا أحد أشدّ ظلمًا، ولا أبشع طريقةً من الذي يفتري الكذب علىٰ الله بادّعاء شريكٍ له، أو كذَّب بالدين الحق لمّا جاءه علىٰ أيدي أنبياء الله ورسله، إن في النار لمسْكنًا ومستقرًّا للكافرين الجاحدين.

[٦٩] ختم جل وعلا السورة في الحثّ علىٰ الجهاد وبذل الوسع في إنهاك العدو، وَوَعَدَ سبحانه المجاهدين المخلصين أنه معهم، ومن يكن الله معه فلن يغلبه أحد، وأطلق الجهاد في هذه الآية ليشمل جهادَ كلٍّ من النفس والشيطان والقرناء والأعداء، والمعنىٰ: والذين جاهدوا النفس والشيطان والهوىٰ وأعداء الدين ابتغاء مرضاة الله فسوف يهديهم طريقه والسير إليه، ومجاهدة النفس تكون بمحاسبتها ومراقبتها، وحفظ الوقت وشغله فيما ينفع، ومجاهدة الشيطان تكون بالحذر منه، والتحصن منه بالأذكار الواردة، وكثرة الاستغفار، وعصيانه إذا وسوس، ومجاهدة الأعداء تكون بقتالهم بالنفس والمال، وتكون أيضًا بالحجة والبيان، والردِّ عليهم وتفنيد شبهاتهم، واعلموا أيها الناس أن الله مع المحسنين في أقوالهم وأفعالهم يحفظهم ويلهمهم سبل النجاة.

سورة الرّوم

سورة الروم مكيّة وآياتها ستّون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢-٣-٤-٥] يخبر جل وعلا أن فارس انتصرت علىٰ الرُّوم في أدنىٰ أرض الشام إلىٰ فارس، وسوف تعود الكَرَّة للروم وينتصرون علىٰ الفرسِ في بضع سنوات، لأن الأمر كله لله سبحانه قبل انتصار الفرس علىٰ الروم وبعد انتصار الروم علىٰ الفرس، وأن كل ذلك يتم تحت علم الله وتدبيره، ويوم أن ينتصر الروم علىٰ الفرس سيفرح المؤمنون من أصحاب محمد ﷺ بهذا النصر؛ لأن الله نصر أهل الكتاب أتباع موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام علىٰ المجوس عبدة النار، ونصر المسلمين علىٰ المشركين ببدر، والله ينصر من يشاء، ويهزم من يشاء من عباده، وهو العزيز الذي لا يغلبه غالب، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

وقد تحقق ذلك فانتصر الرومُ علىٰ الفرس بعد سبع سنين من هزيمتهم، وفرح المسلمون بذلك؛ لكون الروم أهل كتاب وإن حرَّفوه، وأنهم أقرب للمؤمنين من عبدة النار.

وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥

[٦] يخبر جل وعلا أن انتصار الروم علىٰ فارس وعْدٌ منه سبحانه، ولا شك أن وعده لا يمكن أن يتخلف أبدًا، ولا بد أن يتحقق، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون أن وعد الله حق وأنه لا يخلف الميعاد.

[٧] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا من صناعاتها وزخارفها الفانية، ولكنهم في غفلةٍ تامةٍ عن الدار الآخرة، وعن ما ينتظرهم فيها من الجزاء والحساب؛ وبعد الجزاء والحساب فإن النعيم المقيم سيكون للمؤمنين، والعقاب الشديد بالنار سيكون للمجرمين.

[٨] أولم يتفكر هؤلاء المعاندون الجاحدون في أنفسهم وفي خلق الله لهم، وإيجادهم من العدم؟! وأن الله جلَّ في علاه لم يخلق السماوات والأرض عبثًا؛ بل خلقهما بالحق والعدل والحكمة ليختبر الناس أيهم أحسن عملًا، وقد وقَّت الله للسماوات والأرض أجلًا وميعادًا، ثم تنقضي الدنيا وتزول وتجيء القيامة فتبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات، وإنَّ كثيرًا من الناس ينكرون لقاء الله، ويكذبون بالبعث!!

[٩] أولم يسرْ هؤلاء المكذبون بالبعث في الأرض فينظروا نظر تأمل واعتبارٍ إلىٰ مصير الأمم التي كانت قبلهم، حيث كانت تلك الأمم أشد منهم قوَّةً في الأبدان، وأكثر تقليبًا في الأرض للزراعة، وأكثر عمارةً، وأحكم بناءً منكم للقصور والدور، ثم جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، والمعجزات الواضحات الدالات علىٰ وحدانية الله وعظمته؛ فلم يؤمنوا بها، وكذّبوهم؛ فأهلكهم الله وعمَّهم بعذابه، فما نفعتهم قوتهم، ولا عمارتهم الأرض، وما كان الله ليظلمهم فيعذبهم بغير ذنب، ولكن أنفسهم كانوا يظلمون بالشرك، وبتكذيب الأنبياء والرسل.

[١٠] ثم كانت الحالة السيئة والمآل الشنيع، والمرجع المخزي عاقبةً لأهل السوء والكفر والتكذيب؛ ذلك بأنهم جحدوا آيات الله ولم يؤمنوا بها، ولم يتبعوا المرسلين، وبأنهم كانوا من الساخرين المستهزئين المستهترين بآيات الله.

[١١] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه هو وحده الذي يبدأ الخلق ويوجده من العدم، ثم يفنيه، ثم يعيده مرةً أخرىٰ للجزاء والحساب.

[١٢] واعلموا أيضًا يوم أن تقوم الساعة سوف يتورط المشركون المجرمون، وييأسون من كل خير ونجاة، والإبلاس: هو الانقطاع، أي: أنهم يسكتون حيث لا حجة لهم.

[١٣] واعلموا أيضًا أن المشركين المجرمين لم يكن لهم يوم القيامة شفعاء يشفعون لهم لينجوهم من العذاب؛ بل يومها يكفر التابع بالمتبوع، والمتبوع بالتابع، ويجحد كلٌّ منهما الآخر.

[١٤] واعلموا أيضًا أن الناس يوم تقوم الساعة سوف يفترقون إلىٰ فريقين (مؤمنين وكفَّار).

[١٥] ثم بين سبحانه أن الذين آمنوا بالله، وصدَّقوا رسله، وبرهنوا علىٰ إيمانهم بالعمل الصالح بجوارحهم، فهم في رياض الجنة الغنّاء في حبور، وسعادة، وسرور.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾

[١٦] وبين سبحانه أن الذين كفروا وجحدوا آيات الله وكذّبوا بها، وكذّبوا بلقاء الله واليوم الآخر، وأنكروا البعث؛ فأولئك في عذاب جهنم مقيمون إقامةً دائمة.

[١٧] وهذا إرشاد منه جل وعلا لعباده المؤمنين أن يسبحوه وينزِّهوه عن الشريك والصاحبة والولد، وأن يصفوه بصفات الكمال، وأن يحقِّقوا ذلك بجوارحهم كلها حين يأتي وقت المساء وحين يأتي وقت الصباح.

وحيث إن التسبيح هو التقديس والتنزيه، فالمطلوب من الإنسان تنزيه الله والإخلاص له وعبادته في كل الأوقات؛ لأن المرء إنما خلق لعبادة الله، وجميع أعماله الدنيوية والسعي في طلب الرزق كلها أسباب لاستمراره في العبادة ومعونة له علىٰ ذلك.

وقد قيل: إن هذه الآية مدنية ولذا حمل بعضهم التسبيح في الآية علىٰ الصلاة لاشتمالها علىٰ الحمد والتنزيه والذكر ومنه «سبحة الضحىٰ»، وقال القرطبي: إن قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ﴾[الصافات:١٤٣]، يعني: من المصلين.

[١٨] واعلموا أيها الناس أن له جل في علاه الحمد والثناء في جميع الأماكن، وفي كل الأوقات علىٰ الدوام، فله الحمد في السماوات والأرض، وله الحمد ليْلًا ونهارًا.

وهذه الآية والتي قبلها جامعة للصلوات الخمس بأوقاتها، يعني: أداء الصلاة في أوقاتها كما قال ابن عباس.

[١٩] وهذا إخبار منه جل في علاه أنه هو المتفرِّد بإخراج الحي من الميت كإخراج الإنسان من النطفة، والنبات من الأرض الميتة، وهو سبحانه المتفرد بإخراج الميت من الحي؛ كإخراج كالنطفة من الإنسان، والبيضة من الطير، وهو سبحانه الذي ينزل المطر من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها ويباسها، وبمثل هذا الإحياء أيها الناس تُبعثون من قبوركم للحساب والجزاء.

[٢٠] وأخبر جل وعلا أن من العلامات الدالة علىٰ وحدانيته، ووجوب توحيده وإفراد العبادة له وحده دون من سواه: أنه أوجدكم أيها الناس وجعل أصل خلقتكم التراب، ثم أنتم تكاثرون وتتناسلون وتنتشرون في الأرض.

[٢١] ومن العلامات الدالة علىٰ وحدانيته ورحمته بخلقه جل في علاه: أن خلق لكم من جنسكم أزواجًا من النساء، تسكنون إليها بالزواج، وتألفونها، وتميلون إليها، وجعل بينكم محبَّةً وشفقةً ورحمةً، إن في ذلك لآياتٍ بيناتٍ واضحاتٍ علىٰ وحدانية الله ورحمته بخلقه لقوم يُعملون عقولهم، ويتفكرون بها.

[٢٢] ومن العلاماتً الدالة علىٰ قدرته ووحدانيته سبحانه وتعالىٰ: إيجاد هذه السماوات السبع بما فيها؛ دون عَمَدٍ مرئية، وإيجاد هذه الأرضين، وأيضًا: اختلاف لغاتكم ولهجاتكم، واختلاف ألوانكم وتباينها، إن في كل ذلك لآياتٍ لأصحاب العقول والبصائر.

[٢٣] ومن العلامات الدالة علىٰ قدرته علىٰ البعث جل شأنه: أن الله هيأ لكم النوم في الليل، وأحيانًا في النهار كوقت القيلولة، ثم إذا خرج النهار تنتشرون في الأرض وتسعون فيها لطلب أرزاقكم ومعاشكم، إن في هذا النوم وذلك الانتشار لمثال حيّ علىٰ البعث والنشور، وإنما ينتفع بهذه الآيات من يستمعون إليها سماع تدبر وفهم وبحث عن الحقيقة.

[٢٤] ومن العلامات الدالة علىٰ قدرته وعظمته عز وجل: أن يريكم البرق فتخافون أن تصيبكم الصواعق الشديدة، وتطمعون في المطر أن ينزل عليكم فتنتفعون به، فبنزوله تحيا الأرض بعد جفافها وقحطها، وتنبت زرعها، إن في ذلك لآياتٍ وعلاماتٍ تدل علىٰ قدرة الله وعظمته؛ لقوم يعملون عقولهم، ويتفكرون في هذه الآيات.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

[٢٥] يخبر جل وعلا أن من آياته العظيمة: أن تثبت وتستقرّ السماوات والأرض علىٰ هذه الحالة التي أوجدها عليه ليستقيم بها الكون، وتصلح بها شؤون الخليقة، فالسماء لا تقع ولا تنطبق علىٰ الأرض، والأرض لا تتزلزل وتضطرب إلا بإذنه، كل ذلك بفضل الله ورحمته، ثم إذا دعاكم ليوم الجزاء والحساب إذا أنتم تخرجون مستجيبين مسرعين - لا يسعكم غير ذلك -.

[٢٦] واعلموا أيها الناس أن لله وحده كل من في السماوات والأرض من ملائكة وأنس وجن وغير ذلك من المخلوقات، خلقًا وملكًا وتصرفًا، وكل هؤلاء منقادون لعبادته وطاعته؛ سواء الطاعة القهرية أو الطاعة الإرادية؛ فالجميع خاضعون لما يريده من حياة وموت وبعث وصحة ومرض وغنىٰ وفقر وعز وذل، ويمتاز المؤمنون بالطاعة القلبية غير القهرية.

[٢٧] واعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي أوجد الخلق من العدم، ثم يفنيه، ثم يعيده حيًّا بعد الموت، وإعادة الخلق في البعث أهون وأسهل من ابتداء خلْقهم، فإذا كنتم تقرون بالخلق الأول فيلزمكم الإقرار بالبعث، فالقادر علىٰ ابتداء الخلق من العدم قادرٌ من باب أولىٰ علىٰ إعادته، ثم بين عز وجل أن له الأسماء الحسنىٰ، والصفات العليا، وهو العزيز الذي قهر وغلب كل شيء، الحكيم الذي له الحكمة الواسعة، والتدبير الحسَن تعالىٰ وتقدَّس، وهو الذي لا يعجزه شيء.

[٢٨] وضرب الله لكم أيها الناس مثلًا قريبًا منكم، وفي أنفسكم، وهذا المثل أنه ليس لكم من عبيدكم وخدمكم من يشارككم في التصرف في أموالكم، إذ لا تقبلون ذلك منهم أبدًا، ولا تقرونه، ولا تخافون منهم خوفكم من مشاركة الأحرار لكم في التصرف في أموالكم وإنفاقها، فكذلك الله جل في علاه لا يرضىٰ أن يُشرَك معه أحد في عبادته - لا ملكٌ مقرب، ولا نبي مرسَل -، وبمثل هذه الأمثال فإن الله جل في علاه يوضح الحقائق والمهمات بتنويع الأساليب وضرب الأمثال لقومٍ يُعمِلون عقولهم ويتأملون بها فيما يُقال لهم.

[٢٩] لكن الظالمون لأنفسهم المجاوزون حدودهم اتبعوا أهواءهم علىٰ جهل منهم، وتركوا العلم، واستمروا علىٰ ضلالهم وغوايتهم، ومن لم يقدِّر الله له الهداية، فلن يَقْدِرَ أحدٌ علىٰ هدايته - كائنًا من كان -، وما لهؤلاء الظالمين المتبعين أهواءهم من ناصرين ينصرونهم إذا حلّ بهم عقاب الله، ونزل بهم عذابُه.

[٣٠] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ ومن اتبعه بأن يُقبل علىٰ دين الإسلام وأن يستقيم عليه، وأن يحرص علىٰ عبادة الله وطاعته، وأن لا يلتفت إلىٰ غيره من الأديان والملل، والوجه هو الجارحة المعروفة التي تميز الإنسان عن الآخرين من بني جنسه، وهنا عبر به عن الذات كقوله: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٢]، وقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، واعلم يانبي الله أن دين الإسلام هو فطرة الله فاثبت عليه، وعليكم أيها الناس أن تلزموا هذا الدين وهذه الملة التي فطر الناس عليها؛ فإنه جل وعلا خلق الناس علىٰ التوحيد كما في الحديث الذي أخرجه مسلم عن عياض: «**وإني خلقت عبادي حنفاءَ كلَّهم فاجتالتهم الشياطين**»(١)، واعلموا أن هذا الدين هو الذي ارتضاه الله لكم فلا تبديل ولا تغيير لما فطركم عليه، وهذا الدين هو الطريق المستقيم الموصل إلىٰ رضا الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لأنهم اتبعوا الشيطان والأهواء الزائفه، والتقاليد الفاسدة، وتركوا توحيد الله بالعبادة والتي أمروا بها وأمرت بها يارسول الله.

[٣١-٣٢] وكونوا أيها الناس رجَّاعين إلىٰ الله، كثيري التوبة، واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقايةً بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وحافظوا علىٰ الصلاة في أوقاتها، وأدوها علىٰ أكمل وجهٍ وأتمِّ هيئة، واحذروا كل الحذر أن تكونوا من الذين يدعون مع الله إلهًا آخر. ولا تكونوا كأولئك الذين تفرقوا في الدين وهم اليهود والنصارىٰ، وقد تعددت آلهتهم الباطلة، فتعددت فرقهم وأحزابهم وطوائفهم، وكل فرقة تنتصر لما هي عليه وتتحزب له، وتحارب غيرها عليه، وكل فرقة فرحةٌ بما هي عليه، زاعمة لنفسها بالحق والصواب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

[٣٣] بين جل وعلا أن بعض الناس إذا أصابه شيء من الضرِّ من مرض أو قحط أو شدّة، وخافوا الهلاك؛ دعوا الله بإخلاص ويقين ووحدوه، وتضرعوا ورجعوا إليه، وتركوا الإشراك به، فإذا كشف الله عنهم الضرّ ونجَّاهُم ورحمهم من الضُّر الذي مسَّهم؛ إذا فريقٌ منهم يرجعون إلىٰ عبادة غير الله وينسبون الفضل في نجاتهم إلىٰ غير الله، فينسبون شفاءهم من الأمراض لمهارة الطبيب، ونجاتهم من البحر أو البر لمهارة قائد المركبة أو السفينة؛ بل إذا حدثت زلازل أو براكين يقولون: هذه كوارث وحوادث طبيعية، وهذا سونامي، وهذا كذا وهذا كذا، وينسون مسبب الأسباب، وأنها بسبب ذنوبهم.

[٣٤] ليكون عاقبة جحودهم ورجوعهم إلىٰ الشرك هو الكفر بما أعطيناهم من الرحمة والنجاة مما كانوا منه يخافون، فتمتّعوا أيها المشركون بما بقي لكم من آجالكم متعًا محدودةً زائلةً؛ فسوف تعلمون عاقبة شرككم وكفركم وجحودكم نعمة ربكم.

[٣٥] ثم يقول سبحانه: هل أنزل الله جل في علاه علىٰ هؤلاء المشركين حجةً ظاهرةً تحثهم علىٰ الثبات علىٰ شركهم؟!

الجواب: لم ينزل سبحانه علىٰ أنبيائه إلا التوحيد وعبادته وحده وترك عبادة ما سواه، وأمرهم أن يدعوا الناس إلىٰ هذا التوحيد وهذه العبادة.

[٣٦] وإذا أذقنا الناس رحمةً من صحة وغنىً ورخاءٍ؛ فرحوا بذلك فرح أشرٍ وبطر، وإذا أصابهم ما يسوؤهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم؛ إذا هم يائسون من رحمة الله، ومن زوال ما أصابهم من السوء.

[٣٧] ويقول سبحانه: أولم يعلم هؤلاء المشركون أن الله هو الذي يوسع الرزق علىٰ من يشاء امتحانًا واختبارًا، ويضيِّق الرزق علىٰ من يشاء أيضًا امتحانًا واختبارًا؟! واعلموا أيها الناس أن في ذلك التدبير من الله وتقسيم الرزق لآياتٍ للمؤمنين تدل علىٰ رحمة الله وحكمته.

[٣٨] يأمر جل وعلا الإنسان أن يعطي قريبه حقه من نفقة، وصدقة، وهدية، وصلةٍ، وبرّ، وكذلك يعطي المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة حقه من الصدقة، وكذلك يعطي ابن السبيل وهو الغريب المسافر الذي انقطعت به السبل حقه من الصدقة، ثم بين سبحانه أن هذا الإعطاء وهذه الصدقات خيرٌ كثيرٌ وأجر كبيرٌ للذين يريدون بأعمالهم وجه الله والدار الآخرة، وأولئك هم الفائزون فوزًا عظيمًا.

[٣٩] واعلموا أن ما أعطيتم من أموالكم الزائدة قروضًا للناس ليردوها لكم أكثر مما أخذوها منكم، فيزداد مالُكم ويزيد عند الناس؛ فهذا المال لا يزيد أجره عند الله، ولا يبارك الله فيه؛ بل يمحقه الله ويُذهب بركته، أما ما أعطيتم من زكاة وصدقةٍ تريدون بها وجه الله، فأصحاب هذه الخصلة الحميدة هم الذين يتقبل الله منهم ويضاعف لهم الأجر والثواب.

[٤٠] واعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي خلقكم وأوجدكم من العدم، وهو وحده الذي تكفل برزقكم، وهو وحده الذي يميتكم عند انتهاء آجالكم، وهو وحده الذي يبعثكم للجزاء والحساب مرةً أخرىٰ، هل من شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله من يستطيع فعل شيء من ذلك؟! فسبحان الله وتعالىٰ وتقدَّس وتنزَّه عن شرك هؤلاء المشركين.

[٤١] واعلموا أيها الناس أن انتشار الفساد من فسوق وجدب ونزع للبركة ونقص في النسل والحيوانات وأوبئة وفتن وحروب وغير ذلك؛ كله بسبب ما اقترفتم من الذنوب والمعاصي، وترك أوامر الله ونواهيه؛ ليكون ذلك عقوبة لكم علىٰ أعمالكم السيئة، ثم ذكر سبحانه الحكمة من ذلك وهي لطفه جل وعلا بعباده ورحمته بهم كي يتوبوا إلىٰ الله ويستغفروه، ويخلصوا له العبادة، وتكون معاملاتهم طبقًا للشريعة.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن
قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن
كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم
مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم
بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ
فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ
﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

[٤٢] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين المكذِّبين: سيروا في الأرض بأبدانكم وقلوبكم سير نظرٍ وتأمّل، وتفكروا في نهاية وهلاك من قبلكم من الأمم الذين كذّبوا رسلهم، فقد كان معظمهم من المشركين.

[٤٣] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقبل بوجهه هو ومن معه لإقامة دين الإسلام القيم المستقيم من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يستطيع أحدٌ ردَّه أو تأجيله، وفي ذلك اليوم يتفرق الناس إلىٰ فريقين: فريقٍ في الجنة وفريقٍ في السعير، وقد بادر ﷺ في ذلك بجدٍّ واجتهاد فبلغ ونصح وجاهد في الله حق جهاده.

[٤٤] يخبر جل وعلا أن من كفر وجحد آيات ربه، فعليه أن يتحمل عاقبة ذلك، وهو الخلود في نار جهنم أبدًا، أما الذين وحَّدوا والله وآمنوا به، واتبعوا رسله؛ فأولئك يكسبون السعادة والفوز برضا الله والنعيم المقيم.

[٤٥] ليوفي جل وعلا الذين وحدوه وآمنوا به واتبعوا رسله من واسع فضله، ويغمرهم بكرمه وإحسانه، والله جل في علاه لا يحبّ الكافرين؛ بل يمقتهم ويبغضهم.

[٤٦] يخبر جل في علاه أن من آياته الدالة علىٰ رحمته وقدرته، وإحيائه الموتىٰ وبعثهم: أنه سبحانه يرسل الرياح الملقحة قبل نزول المطر، فإذا رآها الناس استبشروا وفرحوا بها، وانتظروا نزول المطر، ثم يُنزل الله المطرَ فتصيبُ الناسَ رحمةُ الله؛ ومن آياته الدالة علىٰ رحمته: جريان السفن في البحر بأمر الله وإذنه، فيبتغي الناس من رزق الله وفضله بالعمل في التجارات وغيرها، لعلَّهم يشكرون الله علىٰ هذه النعم فيوحدونه في العبادة ويطيعونه ولا يشركوا به غيره.

[٤٧] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أنه بعث قبل النبي محمد ﷺ رسلًا إلىٰ أقوامهم يأمرونهم بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وقد جاؤوهم بالآيات الواضحات التي تدل علىٰ أنهم رسلٌ من عند الله؛ فما كان من أكثرهم إلّا أن كذّبوهم، ولم يؤمنوا بهم، فكان أنِ انتقم الله من الذين أجرموا فأهلكهم بالعذاب، ثم أخبر سبحانه أنه نجىٰ الرسل وأتباعهم الذين آمنوا بالله وقاموا بما كُلِّفوا به.

[٤٨] واعلموا أن الله وحده هو الذي يرسل الرياح فتحمل السحاب وتمده وتوسعه في فضاء السماء علىٰ الهيئة التي أراد الله جل في علاه، ثم يجعل الله ذلك السحاب الواسع سحابًا كثيفًا ثخينًا بعضه فوق بعض، فترىٰ بعد ذلك المطر يخرج من خلاله؛ فإذا نزل المطر علىٰ من شاء الله أن ينزل عليهم من العباد؛ إذا هم فرحون يُبشِّر بعضهم بعضًا؛ لأن هذا المطر فيه حياتهم وحياة دوابهم وزروعهم، ولا يستغنون عنه، خاصَّة أصحابَ القرىٰ والمدن البعيدة عن الأنهار.

[٤٩] وبعد أن بين سبحانه وتعالىٰ حالهم بعد نزول المطر من الفرح والاستبشار، بين حالهم قبل نزوله بأنهم كانوا في غاية من الحيرة واليأس والاكتئاب والقنوط من رحمة الله.

[٥٠] ثم لفت سبحانه وتعالىٰ أنظار الناس إلىٰ الآثار المترتبة علىٰ رحمته بإنزال المطر، كيف أنه جل في علاه أحيا هذه الأرض بعد موتها وقحطها وجدبها، حيث أنزل عليها المطر فاهتزَّت وربت وأنبتت من كل زوج كريم، واعلموا أيها الناس أن الذي أحيا هذه الأرض بعد موتها - كما أراكم - قادرٌ علىٰ إحيائكم بعد موتكم، وبعثكم ليوم الجزاء والحساب، والله علىٰ كل شيء قدير.

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

٤١٠

[٥١] وبعد أن بين جل في علاه أحوال الناس عند رؤية الرياح التي تثير السحب المحملة بالأمطار، وأنهم يفرحون ويستبشرون، بين حالهم عند رؤية الرياح المحملة بالرمال والأتربة التي تفسد زروعهم وتتلفها، فإنهم يبادرون إلىٰ الكفر وجحود نعم الله عليهم، ويقولون: هذه كوارث وحوادث طبيعية، وهذا سونامي، وينسون مسبب الأسباب، وغفلوا عن أن تكون عقوبة لهم بسبب ذنوبهم، وما قالوا هذه المقولة إلا بسبب قسوة قلوب كثير منهم، وَبُعْدِهِمْ عن الله وعن شرعه.

[٥٢] واعلم يانبي الله أنك لا تُسمع الموتىٰ إذا دعوتهم، لأن هؤلاء المشركين كالموتىٰ، - فلا تحزن عليهم -، واعلم أيضًا أنك لا تُسمع الصمَّ إذا كلمتهم، فكيف بالصم لو ولَّوْا مدبرين، لأن هؤلاء المشركين كالصم الذين لا يسمعون.

[٥٣] ثم وجه جل وعلا الخطاب للنبي ﷺ تسلية له، فقال له: واعلم يانبي الله أنك لا تقدر علىٰ هداية وإرشاد العمي عن ضلالتهم؛ لأنهم لا يقبلون الإبصار للحق، بسبب انطماس بصائرهم، وهذا القرآن الذي أنزلناه عليك لا تستطيع أن تُسمِعَه سماع انتفاع وهدايةٍ إلّا لمن آمن وصدق بآيات الله، لأنهم مسلمون منقادون لأمر الله.

[٥٤] ثم ضرب جل وعلا مثلًا بمراحل خلق الإنسان، كعلامة ودلالة تدل علىٰ عظيم قدرته سبحانه وتعالىٰ؛ فبين عز وجل أنه بدأ خلق الإنسان من نطفة مهينة، ثم يخرج من رحم أمه ضعيفًا، وتستمر هذه المرحلة طيلة فترة الطفولة والصغر، ثم يصير بعد ذلك شابًّا قويًّا يعمل فيها ويكد للإنفاق علىٰ نفسه ومن يعول، ثم يصير شيخًا كبيرًا ويبدأ بالضعف حتىٰ يصل إلىٰ أرذل العمر، ويصير حاله كحال الطفل الصغير في كثير من تصرفاته، ثم بين سبحانه أنه يخلق ما يشاء من الضعف والقوة، وأن كل ذلك بعلم الله وقدرته وتدبيره.

[٥٥] ويوم أن تقوم القيامة سوف يفاجأ المشركون بسرعة مجيئها، فيُقسمون أنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعةٍ، وقصدهم الاعتذار لعل العذر ينفعهم، وقد كذبوا في ذلك، لأنهم ما زالوا علىٰ غَيِّهِمْ وكذبهم وافترائهم كما كانوا في الدنيا.

[٥٦] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن الذين منَّ الله عليهم بالعلم والإيمان بالله قالوا لهؤلاء الأفَّاكين: لقد مكثتم في حياتكم الدنيا وفي قبوركم مدَّةً كافيةً قدَّرها الله في اللوح المحفوظ إلىٰ يوم البعث، وهو زمن كافٍ لمعرفة الله والهدىٰ لو أردتم، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧]، ثم قال سبحانه: فهذا هو يوم البعث الذي تشاهدونه الآن بأم أعينكم أيها المكذبون، ولكنكم كنتم لا تصدقون أن البعث حق؛ بل كنتم تكذّبون به.

[٥٧] واعلموا أيها المشركون أنه في يوم القيامة لا تنفع الذين ظلموا - أنفسهم بالشرك، وتجاوزا حدَّهم بالجحود والتكذيب -؛ لا تنفعهم الأعذار، ولا تقبل منهم التوبة، ولا يُطلب منهم العُتبىٰ والرجوع إلىٰ الله، فقد فات الأوان.

[٥٨] ولقد بين جل وعلا للناس في هذا القرآن مِن كل مثل من أجل إقامة الحجة عليهم وإثبات وحدانية الله جل وعلا، ثم بين تعنت الكفار وتجبرهم وأنهم مهما آتيتهم يانبي الله من آية أو معجزة تدل علىٰ صدقك فإنهم يرمونك أنت وأتباعك بالبطلان، أي: أنكم متبعون للباطل، كما قال قوم فرعون: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢].

[٥٩] ثم بين سبحانه أنه بمثل هذا الطبع يطبع الله ويختم علىٰ قلوب هؤلاء الجهلة المكذّبين المعاندين فلا يدخلها خيرٌ، ولا ينفذ إليها هدًىٰ، وهذا الطبع والختم جزاءً علىٰ إصرارهم علىٰ الكفر وليس طبعًا ابتدائيًّا؛ فالله جل في علاه لا يظلم أحدًا أبدًا، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

[٦٠] فاصبر يانبي الله في دعوتك علىٰ ما تسمعه من تكذيب، وعلىٰ ما يصيبك من الأذىٰ، واعلم أن وعد الله بالنصر والتمكين والظهور والغلبة حقٌّ لا شكَّ فيه، ولا يستفزنّك الذين لا يوقنون بالله ولا يصدّقون أنبياء الله ولا يؤمنون به ولا باليوم الآخر.

سورة لقمان

سورة لقمان مكيّة وآياتها أربع وثلاثون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] بدأت السورة بالإشارة إلىٰ أن هذه الآيات المنزلة علىٰ النبي ﷺ هي آيات القرآن المحكم الذي لا يعتريه بطلان ولا فساد، وهو محفوظ من التغيير والتبديل، وهو الهادي إلىٰ سواء السبيل، والموصل إلىٰ رضوان الله والجنة.

[٣] ثم بين سبحانه أن هذه الآيات التي أنزلناها علىٰ نبينا محمد ﷺ هي آيات هدىٰ ورحمة للذين أحسنوا القول والعمل؛ والمحسن هو العامل للحسنات، القائم بعبادة الله ونشر الخير، وهو الذي يعبد الله مخلصًا علىٰ علم ويقين وصلاح.

[٤] وأولئك المحسنون هم الذين يؤدون الصلاة كاملةً تامةً في أوقاتها بأركانها وشروطها وواجباتها ومستحباتها، ويخرجون زكاة أموالهم كما أُمروا طيبةً بها نفوسهم، ومن صفاتهم أنهم يؤمنون ويصدقون بالبعث تصديقًا جازمًا يدفعهم لعمل الصالحات، والاستعداد ليوم كثير الكربات. ولا شك أن هذه الثلاث هي أهم أركان الإسلام للمؤمن.

[٥] واعلموا أن أولئك الذين اتصفوا بهذه الصفات الكريمة السابقة علىٰ هداية عظيمة من ربهم، وأولئك هم الفائزون في الدنيا والآخرة بالدرجات العلا.

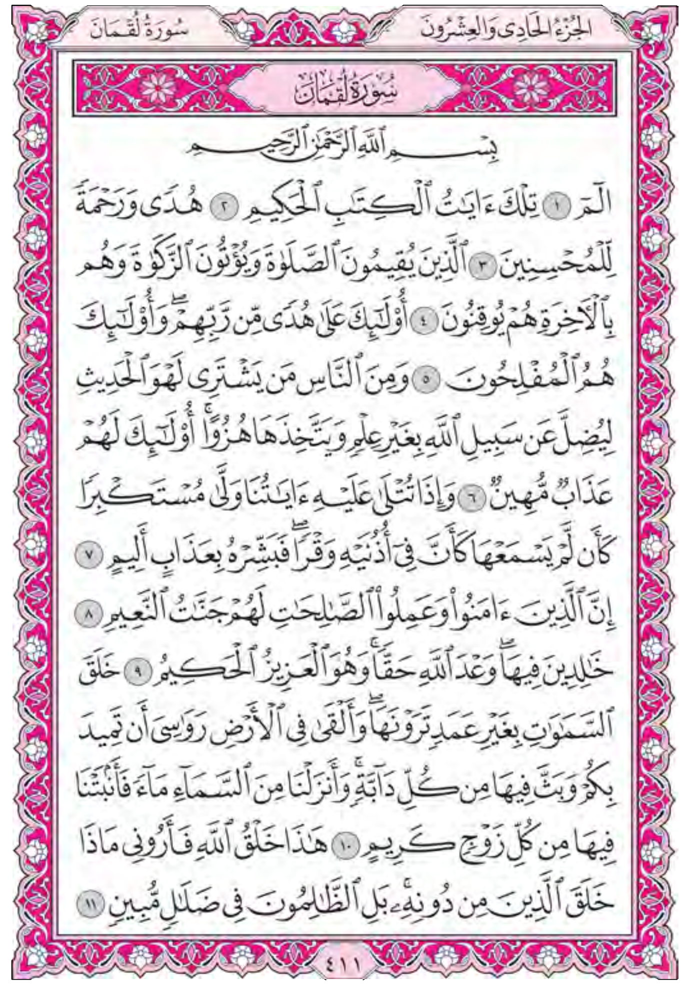
[٦] يخبر جل وعلا بأن من الناس من يشتري لهو الحديث ليصرف الناس عن دين الله وعن صراطه المستقيم، ويتخذ آيات الله سخرية واستهزاءً، فاعلموا أن أولئك لهم عذاب يذلهم ويخزيهم يوم القيامة.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لهو الحديث: هو والله الغناء، قالها ثلاثًا، أي: المعازف والمغنيات، وشراؤه، أي: استحبابه.

ولكن الآية أشمل من ذلك، فيكون المعنىٰ: ومن الناس من يختار كل كلام محرم وكل لغو وفسوق؛ ليضل الناس عن الهداية وعن سبيل الله.

[٧] وهذا الصنف من الناس إذا قُرِئت عليه آياتُ الله ليؤمن بها، وينقاد إليها، إذا به يعرض عنها مبالغًا في التكبر، كأنه لم يُقرأ عليه شيء، وكأنه لم يسمعها، وكأن في أذنيه صممًا لا يسمع لأصواتٍ، فهذا الصنف بشِّره يانبيي الله بعذابٍ أليمٍ موجع جزاء استهزائه وإعراضه.

[٨-٩] وهذه بشرىٰ لأهل الخير الذين آمنوا بالله ووحدوه، وصدّقوا رسوله ﷺ وآمنوا به، ثم عملوا الأعمال الصالحة، بأن الله أعدَّ وهيَّأ لهم جنات ينعمون فيها فلا ييأسون أبدا، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، وأنهم ماكثون في هذه الجنات، قائمون فيها إقامةً دائمةً لا انقطاع فيها، هذا وعد



الله حقًّا لا شكَّ ولا ريب فيه، والله هو العزيز الغالب الذي يفعل ما يشاء، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، وهو سبحانه يحكم ما يريد.

[١٠] واعلموا أن الله وحده هو الذي خلق هذه السماوات الضخمة ورفعها من غير عمد مرئية تستند عليه كما تشاهدونها، وألقىٰ في الأرض جبالًا ثابتة لكي لا تضطرب بكم، ونشر في الأرض مختلف أنواع الدواب التي فيها منفعتكم ومصلحتكم، وأنزل من السحاب مطرًا، فأنبت به من الأرض من كل صنف بهيج جميل المنظر كثير المنافع، فقدرته جل وعلا أمرها عظيم لا تحدها حدود، فهو قادر علىٰ خلق الكائنات العظيمة بعمد وبغير عمد، ترىٰ أو لا ترىٰ؛ فهو علىٰ كل شيء قدير.

[١١] واعلموا أيها المشركون أن كل ما تشاهدونه من المخلوقات هو خلق الله، فإذا علمتم ذلك فأرونا ماذا خلقت آلهتكم التي تعبدونها من دون الله؟ وفي هذا تعجيز للمشركين، وإعلام لهم بأن الصناعات التي صنعوها من مراكب وغيرها إنما صُنعت بعلمه ومعونته، واعلموا أن الظالمين المتجاوزين لحدود الله في ضلال بين واضح.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

[١٢] ولقد من جل وعلا علىٰ عبده لقمان وأعطاه الحكمة - وهي العلم النافع والعمل الصالح -، ثم أمره أن يشكره علىٰ هذه النعمة العظيمة ليبارك له فيها، ويزيده منها، ومن يشكر فإن نفع هذا الشكر عائدٌ عليه، ومن يجحد ويكفر فلا يضرّ إلّا نفسه، والله جل في علاه غني عن العالمين وعن شكرهم، وهو سبحانه حميدٌ في ما يقدره ويقضيه، حميدٌ في جميل صنعه جل في علاه.

والجمهور علىٰ أن لقمان ليس نبيًّا، وإنما كان حكيمًا وطبيبًا، وحكىٰ الله عنه كلامًا حكيمًا ونصائح غير ما ذكر في هذه السورة؛ فالله منحه الحكمة والذكر الحسن، ووصاياه لابنه نفيسة ما تَمَثَّلَ بها إنسان وعمل بها إلّا فاز ونجح في الدنيا والآخرة.

[١٣] واذكر يانبي الله يوم أن قال لقمان لابنه واعظًا إيّاه بالأمر والنهي: يابني أخلص العبادة لله بالتوحيد، ولا تُشرك به أحدًا في عبادته، واعلم أن الشرك أعظم الظلم علىٰ الإطلاق، فالظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فعبادة غير الله، أو إشراك أحد معه في العبادة: وضع للعبادة في غير موضعها، وهذا من أظلم الظلم، وأعظم الفساد.

[١٤] يخبر سبحانه أنه أوجب علىٰ الإنسان، وأوصاه وصيّة عظيمةً ببرٍّ والديه والإحسان إليهما، ثم بين سبب ذلك أن أمه حملته في بطنها وأنها تزداد بهذا الحمل مشقة وضعفًا علىٰ ضعف كلما كبر في رحمها، ثم بين سبحانه أن فطامه عن الرضاعة يكون في عامين، ثم أمر سبحانه هذا الإنسان أن يشكر الله بالقيام بعبوديته وأداء حقوقه كما أمرك، واشكر لوالديك ببرهما والإحسان إليهما بجميع وجوه الإحسان، واعلم أن إلىٰ الله المرجع والمصير، وستُسأل عن هذه الوصية، هل أديتها؟! أم أضعتها وفرطت فيها؟!

[١٥] واعلم أيها الإنسان أنه إن اجتهد والداك في دعوتك إلىٰ الشرك بالله؛ فلا تطعهما في ذلك، ولا تتبعهما، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولكن لا تعقّهما وتسيء إليهما؛ بل صاحبهما بالبر بهما والإحسان إليهما، واصنع المعروف لهما، واتبع سبيل من رجع إلىٰ الله بالتوبة والإخلاص، والزم طريقهم، إلىٰ الله مرجعكم جميعًا فيخبركم بأعمالكم، ويجازيكم عليها.

[١٦] ثم قال لقمان لابنه: يابني: إن يكن من أعمالك وزن حبة من خردل متناهية الصغر، فتكون في وسط صخرةٍ، أو في أي مكان في السماوات والأرض، فإنها لا تغيب عن الله؛ بل يأتي الله بها، ويحاسبك عليها، إن الله لطيفٌ بعباده، خبيرٌ بأعمالهم.

[١٧] ثم قال لقمان لابنه: يابني: أدِّ الصلاة في وقتها، وتَمِّم أركانها وشروطها وواجباتها وسننها، وأْمر بالمعروف، وانهَ عن المنكر، واعلم أنه سيصيبك بسبب ذلك الأذىٰ الكثير، فاصبر علىٰ ما يصيبك في سبيل ذلك، واعلم أن هذه الطاعات المذكورة من الأمور التي يُعزم عليها، ويهتم بها، ولا ينالها إلّا أولو العزم، وأصحاب الهمم العالية.

[١٨] ثم قال لقمان لابنه: يابني: لا تعرض بوجهك، ولا تُمِلْهُ وتعبس به تكبُّرًا علىٰ الناس، ولا تمش مشية المتفاخر المتباهي المعجب بنفسه، واعلم أن الله لا يحبُّ كل من يختال في نفسه ويتعاظم ويتكبر علىٰ خلق الله، ولا يحب الله كل فخور علىٰ الناس بقوله أو شرفه أو قوته.

[١٩] ثم قال لقمان لابنه: يابني: إذا مشيت فتواضع لله في مشيتك، وامشِ بوقارٍ وسكينةٍ، وإذا تكلَّمت فاخفض من صوتك، ولا ترفعه أبدًا مع الله ومع الناس، فإنَّ رفع الصوت أمر قبيح، واعلم أن أقبح الأصوات وأفظعها وأبشعها لصوت الحمير، وفي هذا تنفيرٌ من رفع الأصوات لغير حاجة.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

[٢٠] يمتن جل وعلا علىٰ عباده أن أسبغ عليهم نعمه؛ فأخبر أنه سخر لمنفعتهم ومصلحتهم ما في السماوات من شمس وقمر وسحاب وغير ذلك، وسخر لهم ما في الأرض من دواب وزروع وثمار، وأخبر أنه عمهم بكل أنواع النعم الظاهرة علىٰ الأبدان والجوارح، والباطنة في العقول والقلوب، ومع هذا التكريم وهذا التفضيل فإن بعض الناس لا يشكر هذه النعم؛ بل يخاصم في توحيد الله وفي إخلاص العبادة له وحده، بغير حجة ولا هدًىٰ، ولا كتاب منير ينير عقله وقلبه.

وهذا هو شأن الإنسان، فإنه: ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف:٥٤].

[٢١] وإذا قيل لهؤلاء المشركين: اتبعوا ما أنزل الله علىٰ رسوله ﷺ من الهدىٰ والبينات، أجابوا قائلين: ما نتبع إلّا ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والأوثان، بل يتبع هؤلاء الجهال آباءَهم ويسيرون خلفهم حتىٰ لو كان الشيطان قد أضلهم من قبل، ودعاهم إلىٰ عذاب السعير فاتبعوه!!

[٢٢-٢٣] واعلموا أن من يستسلم لله بالتوحيد، وينقاد له بالطاعة مخلصًا له الدين، وهو محسنٌ في ذلك بأن يعبد الله كما يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه؛ فقد اعتصم بالعهد الأوثق وتمسك بحبل النجاة والسلامة والفوز العظيم، وإلىٰ الله رجوع الأمور ومنتهاها ومصيرها. أما من كفر بالله وجحد آياته وكذّب رُسُلَه؛ فلا تحزن عليه، ولا تأس عليه، فقد أديت ما عليك من النذارة والبلاغ، وإلينا مرجع من كفر وكذَّب، فنخبرهم بقبيح ما فعلوا، ونحاسبهم ونجازيهم علىٰ ما قدمت أيديهم، والله جل في علاه عليمٌ بكل شيء، يعلمُ ما في الضمائر، ويعلم ما تخفيه الصدور.

[٢٤] ثم أخبر سبحانه أنه سوف يمهل هؤلاء المشركين ويمتعهم في الدنيا متعًا قليلةً زائلةً ليزداد إثمهم، ثم يُلْجِئهم إلىٰ عذاب ثقيل شديد لا يحتملونه.

[٢٥] ولئن سألتَ يانبي الله هؤلاء المشركين: من خلق السماوات والأرض ؟!! ليُجيبونك بقولهم: الله، هو الذي خلق السماوات والأرض، فقل: الحمد لله علىٰ إقراركم بذلك واعترافكم، فعليكم أن تجزموا أن المتفرد بخلق السماوات والأرض هو الذي يستحقّ أن يُفرد بالعبادة وحده دون من سواه، ولكن أكثرهم لا يعلمون ولا ينظرون ولا يتدبرون.

[٢٦] واعلموا أن لله وحده ما في السماوات والأرض خلْقًا وملكًا وتدبيرًا، إن الله هو الغني عن ما سواه، الحميد الذي له الحمد كله والثناء كله.

[٢٧] واعلموا أيها الناس لو أن جميع الأشجار التي في الأرض صُيِّرتْ أقلامًا يكتب بها، وجميع البحار صيرت مدادًا ومن ورائها سبعة أبحر لكتابة كلمات الله، لنفدت الأقلام والبحار، ولم تنفد كلمات الله جلَّ في عُلاه، إن الله هو العزيز الغالب الذي لا يعجزه شيء، الحكيم في تدبير خلقه.

يستفاد من هذه الآية أن اتصافه جل وعلا بالكلام كذاته لا نهاية ولا حدود للإحاطة بها.

[٢٨] ثم ذكر جل وعلا كمال عظمته وقدرته، وأنه لا يعجزه شيء، فإذا أراد شيئًا فإنما يقول له (كن) فيكون بقدرته سبحانه وتعالىٰ، وبين أن الخلائق كلها من قبل آدم إلىٰ قيام الساعة لا تحتاج منه إلىٰ جهد وعناء لبعثها وحشرها؛ فهي كخلق نفس واحدة، إن الله سميع لأقوالكم، بصير بأحوالكم لا يخفىٰ عليه شيء منها، وسيحاسب الجميع يوم القيامة كلًّا بحسب عمله.

....

....

....

....

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ
بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ
مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ
ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ
كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ
فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ
﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ
عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ
وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ
وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾

سورة السجدة

[٢٩] يخبر جل وعلا أنه يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، وأنه ذلَّل الشمس والقمر يجريان بتدبير ونظام إلىٰ أجل محدَّدٍ ووقت معلوم، ثم بين سبحانه أنه خبيرٌ مطلعٌ علىٰ جميعٍ أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

[٣٠] ثم بين جل في علاه أن ذلك الخلق والتدبير، وتلك الصفات العظيمة تدل علىٰ أن الله هو الإله المعبود بحق – دون من سواه –، وأن جميع ما يُعبد من دون الله هو الباطل، وأن الله جل في علاه هو العليُّ بذاته وقهره وقدره، وأنه سبحانه هو الكبير الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته.

[٣١] ثم يخبر جل وعلا أن السفن تجري في البحر بنعمة الله وفضله ورحمته، فتحملكم وتحمل بضائعكم في أسفاركم في البحر لطلب الرزق، لتشاهدوا بأنفسكم آيات الله فتنتفعوا وتعتبروا بها، إن في ذلك لعلاماتٍ تدل علىٰ قدرة الله وحلمه ورحمته، وإنما ينتفع بهذه الآيات كلُّ عبدٍ كثير الصبر علىٰ طاعة الله، وعن معصيته، وعلىٰ أقداره المؤلمة، كثير الشكر لله علىٰ نعمه وآلائه الدينية والدنيوية.

[٣٢] ثم ذكر جل وعلا حال المشركين إذا ركبوا السفن في البحر، ثم اشتدت بهم الريح، وارتفع الموج كالجبال، ولعب بالسفن، واشرفوا علىٰ الغرق؛ دعوا الله تعالىٰ بإخلاص الدين له، ولكن بعد أن أجاب الله دعاءهم ونجاهم وسلمهم من الهلاك فمنهم مقتصد، أي: جحد دين الله وعاد للكفر، كما قال مجاهد، ثم بين سبحانه أنه ما يجحد بآيات الله ويكفر بها إلا كل ختار، أي: كل غدار كما قال ابن كثير، وكل جحود لنعم الله عليه، فلا يشكرها؛ بل يتناساها ولا يذكرها.

[٣٣] يأيها الناس خافوا من الله واحذروا عقابه، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وخافوا من يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه الولد أباه، ولا ينفع الأب ابنه، ودعاء الرسل يومئذٍ: اللهم سلِّم سلِّم، واعلموا أن وعْد الله حقٌّ وَصِدْقٌ لا ريب ولا شكَّ فيه، ويوم القيامة آتٍ لا محالة، فلا تخدعنّكم الحياة الدنيا بزينتها وزخرفها فتُنسيكم الاستعداد للدار الآخرة، ولا يخدعنكم بِحِلْم الله عليكم الغرور الذي هو الشيطان.

[٣٤] ثم ختم جل وعلا هذه السورة بذكر الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا هو والتي اختص بها وحده؛ فذكر جل في علاه أنه اختصّ بعلم وقت قيام الساعة، واختص سبحانه بوقت إنزال المطر، واختصَّ سبحانه بعلم ما في الأرحام من الذكور والإناث والصلاح والفساد، ثم بين سبحانه أنه ما تدري أي نفس ماذا ستكسب غدًا في دينها ودنياها، ولا يعرف أحد من الناس المكان الذي سيموت فيه، فقد اختص الله جل في علاه بعلم هذه الأشياء كلها، ثم بين جل شأنه أنه هو العليم الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، الخبير الذي لا يخفىٰ عليه شيء.

سورة السَّجدة

سورة السجدة مكيّة وآياتها ثلاثون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] يخبر جل وعلا أن هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ لا شك ولا ريب أنه تنزيل من عند الله رب الخلائق أجمعين، وليس كما يقول المشركون بأنه سحر أو كهانة أو أساطير الأولين.

[٣] أيقول المشركون: إنك يانبي الله افتريت هذا القرآن من عند نفسك؟، لقد كذبوا؛ بل هو الحق الثابت المنزل عليك من ربك؛ لتنذر به أمتك الأمية التي لم يأتهم نذير من قبلك لعلهم يهتدون إلىٰ الحق وإلىٰ التوحيد وإخلاص العبادة لله.

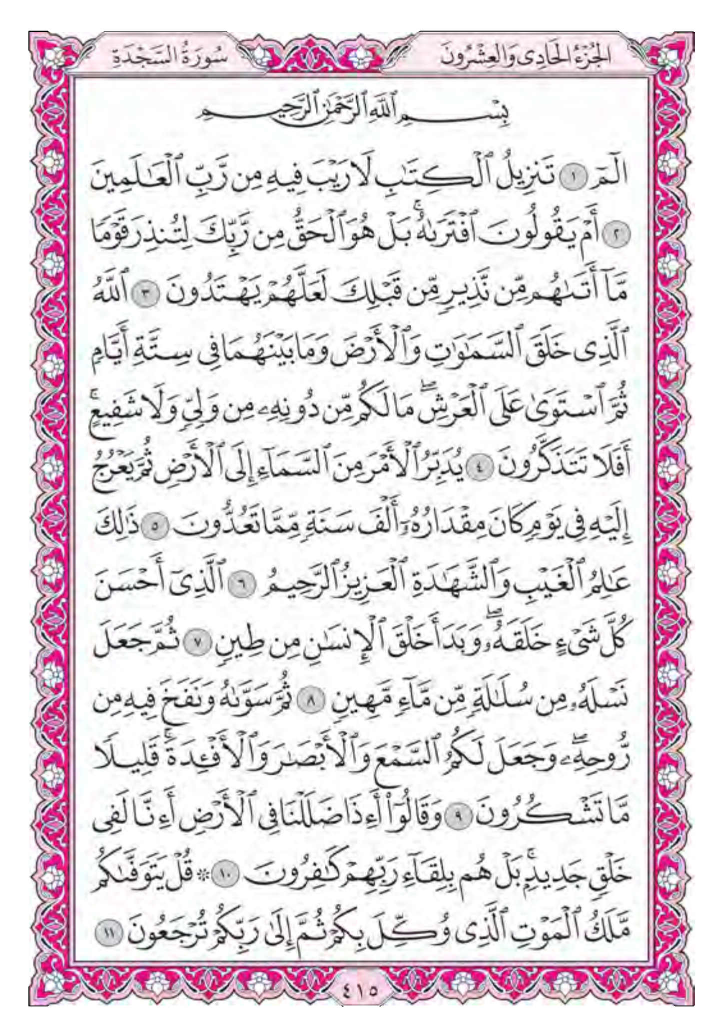
[٤] يخبر جل وعلا بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وخلق ما بينهما من رياح وغيرها في ستة أيام، وهو قادر علىٰ خلقها في لحظة وذلك لحكم يعلمها سبحانه، ومن ذلك تعليم عبادة التؤدة والترتيب، ثم استوىٰ، أي: علا وارتفع سبحانه علىٰ العرش، استواءً يليق بجلاله؛ من غير تشبيه ولا تعطيل، واعلموا أيها الناس أنكم إذا خالفتم أوامر الله ونواهيه فإنه ليس لكم من دونه من ولي يتولىٰ أموركم، ولا شفيع يشفع لكم عنده لتنجوا من عذابه، أفلا تتعظون وتعتبرون فيحملكم ذلك علىٰ توحيد الله واخلاص العبادة له وحده؟.

[٥] ومن صفاته جل وعلا أنه يدبر أمر المخلوقات من السماء إلىٰ الأرض ويحكمها إلىٰ أن تقوم الساعة، ثم تصعد الملائكة المدبرة إليه سبحانه في يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا المعروفة التي يعدها الناس.

قال أستاذنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب تفسير أضواء البيان أثناء تدريسه لنا في كلية الشريعة مادة التفسير: الأيام الستة هذه اليوم الواحد منها مقداره في سيره وعروجه ألف سنة من حسابنا المعتاد، وأن يوم الألف سنة المذكور في قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيهن السماوات والأرض. وأما يوم الخمسين ألف سنة المذكور في قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]؛ فهو يوم القيامة وذلك بالنسبة للكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦]، وذكر قولًا آخر أن كل الأيام تنطبق علىٰ يوم القيامة بالنسبة لتعدد مواقفه وبالنسبة للكافرين كما قال: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٩ - ١٠].

[٦] واعلموا أيها الناس أن الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة، واستوىٰ علىٰ العرش، وتفرد بتدبير أمور الكون، هو الله سبحانه العالم بكل ما يغيب عن الأبصار، وما تشاهده من أعمال عباده، العزيز الغالب الذي قهر كل شيء وغَلَبَه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

[٧-٨-٩] ثم أخبر جل وعلا أنه أتقن خلق كل شيء من مخلوقاته، وأخبر أنه بدأ خلق الإنسان - وهو أبونا آدم - من طين. ثم جعل



الجُزْءُ الحَادِي وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ السَّجْدَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١

٤١٥

تناسل ذرية آدم عن طريق ذلك الماء الضعيف المستقذر. ثم أتم سبحانه خلقه وأبدعه في أحسن صورة، ثم نفخ فيه من روحه، ثم امتن الله عليكم أيها الناس فجعل لكم نعمة السمع والأبصار لتميزوا بين الأصوات وتعرفوا الأشخاص والألوان، ونعمة العقل لتميزوا بين الخير والشر، ومع كل هذه النعم فإن قليلًا من الناس من يشكر الله علىٰ نعمه.

[١٠] وقال المشركون علىٰ سبيل الإنكار ليوم القيامة: أإذا تحللت أجسامنا وصارت ترابًا واختلطت بالأرض؛ فهل سنبعث خلقًا جديدًا، قالوا ذلك جحودًا وكفرًا لأنهم أصلًا منكرون للبعث؛ فلهذا هم كافرون بلقاء الله يوم القيامة.

[١١] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: سوف يتولىٰ ملك الموت قبض أرواحكم؛ حيث إن الله كلفه بهذه المهمة، ثم تبعثون يوم القيامة للحساب فيجازيكم علىٰ جميع أعمالكم بما تستحقونه من خير أو شر.

قال شيخنا محمد الأمين الشنقيطي: إن إسناد التوفي إلىٰ ملك الموت في هذه الآية؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وإسناده للملائكة في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [محمد:٢٧]؛ لأن لملك الموت أعوانًا يعملون بأمره، وإسناده إلىٰ الله في قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢]؛ لأن كل شيء كائنًا ما كان لا يكون إلا بقضاء الله وقدره وأمره.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

[١٢] ولو ترىٰ يانبي الله حال المجرمين المكذبين بالبعث يوم القيامة حين العرض علىٰ الله، وهم في غاية الذل والهوان، قد غشيتهم الحسرة والندامة، فَحَنَوْا رؤوسهم في ذل وخزيٍ قائلين: ربنا لقد أبصرنا الحقيقة بأعيننا وسمعنا بآذاننا ما كنا ننكره ونجحده، فردّنا يارب إلىٰ دار الدنيا نعمل عملًا صالحًا، إنا موقنون مصدقون بالبعث والجزاء تصديقًا جازمًا لا شك فيه.

[١٣] يخبر جل وعلا أنه لو شاء لوفق كل نفس وأرشدها للإيمان؛ فهو قادر سبحانه أن يوفق الناس جميعًا للهدىٰ، ويجعلهم كالملائكة، ولكن اقتضت حكمة الله أن يجعل الناس مختارين، ثم يملأ جهنم ممن يختار الكفر والذنوب والمعاصي، ويملأ الجنة ممن يتبع الرسل ويختار الهدىٰ.

[١٤] ويقال لهؤلاء المجرمين يوم القيامة عند دخولهم النار: فذوقوا أيها المجرمون عذاب النار؛ بسبب بعدكم وإعراضكم عن الهدىٰ والإيمان بالآخرة وما فيها من الحساب، ولقد تركناكم اليوم في العذاب بسبب إصراركم علىٰ الكفر والجحود والضلال، فذوقوا عذاب الخلد بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الكفر والمعاصي.

وقوله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾، أي: تركناكم في النار تركًا كالنسيان لكم، وكلمة (نسيناكم) أتت مقابلة لنسيانهم، والله جل وعلا تنزه عن أن تغيب عنه غائبة؛ فهو منزه عن كل نقص.

[١٥] يخبر جل وعلا أن الذين يومنون بآيات الله إيمانًا حقيقيًّا ويصدقون بها تصديقًا جازمًا؛ أولئك الذين إذا ذكروا بآيات ربهم أنصتوا وخشعوا لها، واتعظوا بها، وخروا ساجدين لله خاضعين له، وبدأوا يسبحون الله ويحمدونه وينزهونه عما لا يليق بجلاله وعظمته، وهؤلاء المؤمنون لا يستكبرون عن الانقياد والخضوع والسجود لله جل في علاه.

[١٦] وهؤلاء المؤمنون ترتفع جنوبهم وتتباعد عن الفُرُش المعدَّة للنوم والراحة والدعة في أكثر ساعات الليل، لانشغالهم عنها بصلاة التهجد، ومناجاة الله رب العالمين، فهم يدعون الله جامعين بين صفتي الخوف والرجاء، فيدعون الله وهم خائفون من عذابه، ومن ردِّ أعمالهم وعدم قبولها، راجين ثواب الله، طامعين في إدراك رضاه ودخول جنته، ومما رزقهم الله ينفقون فيخرجون زكاة أموالهم، ويتصدقون زيادة عليها.

[١٧] ثم أخبر جل في علاه أنه لا أحد يعلم ماذا أعدَّ الله لهؤلاء المؤمنين من الأجر العظيم، والنعيم المقيم، جزاءً لهم علىٰ أعمالهم الصالحة في الدنيا، وقد جاء في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر**»[(١)]، اللهم اجعلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

[١٨] ثم أخبر جل وعلا عن عدله وكرمه أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمنًا بالله مصدِّقًا برسوله ﷺ، عاملًا الصالحات، بمن خرج عن طاعة الله، وكذّب برسوله ﷺ، وبالبعث، وباليوم الآخر وما فيه من الحساب؟! هل يستوي هذا بهذا؟! الجواب: قطعًا لا يستوون.

[١٩] ثم بين سبحانه أن الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله ﷺ، وعملوا الصالحات، فأولئك لهم جنات يأوون إليها وينزلون فيها، قد أعدَّها الله وهيَّأها لهم جزاءً لهم علىٰ ما عملوا من الصالحات، وما قدموا -طلبًا لرضا ربهم- من القُرُبَات.

[٢٠] وبين سبحانه أن الذين خرجوا عن طاعة الله، وتمردوا علىٰ أوامره وتكبروا عليها، فمقرهم ومحلّ إقامتهم نار جهنم، كلما حاولوا الخروج منها ردَّتهم ملائكة العذاب إليها، وقيل لهم تبكيتًا وتوبيخًا وتقريعًا: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

[٢١] يخبر جل وعلا أن هؤلاء الفاسقين الخارجين عن طاعة الله سوف يذيقهم الله من عذاب الدنيا ويبتليهم بالمصائب والمحن قبل عذاب الآخرة؛ لعلهم يرجعون عن الكفر إلىٰ الإيمان، وعن الفسق والتمرد إلىٰ الطاعة والإذعان.

[٢٢] واعلموا أيها الناس أنه لا أحد أشد وأعظم جرمًا وظلمًا ممن وُعظ ونصح بآيات الله فصم أذنيه ثم أعرض عنها جحودًا وكفرًا، لأن آيات الله كلها آيات حكمة وإرشاد، وفيها سعادة الدارين الدنيا والآخرة، وأن الله سينتقم من أهل الإجرام والجحود لآياته جل وعلا.

[٢٣] ثم يخبر جل وعلا أنه آتىٰ موسىٰ عليه السلام التوراةَ من قبلك، فنزول القرآن عليك ليس بدعًا من الأمر، فلا تكن في شكٍّ من لقائك بموسىٰ في ليلة الإسراء والمعراج، ولقد جعلنا هذه التوراة هدًىٰ لبني إسرائيل تهديهم إلىٰ الطريق المستقيم، وإلىٰ الدين القويم.

[٢٤] يخبر جل وعلا بما منَّ به علىٰ بني إسرائيل بأنه جعل منهم أئمةً ودعاةً وعلماءَ يهدون غيرهم إلىٰ الحق، ويدعونهم إلىٰ التوحيد والإيمان، وقد نال هؤلاء هذه المرتبة العليا بصبرهم علىٰ التعلم والتعليم، والدعوة، وتحمل الأذىٰ فيها، وكانوا بآيات الله مصدقين بها تصديقًا جازمًا علىٰ علمٍ تام بها، فدفعهم ذلك إلىٰ العمل بها والدعوة إليها، وبالصبر واليقين والعمل تُنال الإمامة في الدين.

[٢٥] ثم اعلم يانبي الله أن ربك يفصل بين المؤمنين والكفار، وبين الرسل وأتباعهم، والمشركين وأوليائهم يوم القيامة بالعدل فيما اختلفوا فيه، وتنازعوا عليه.

[٢٦] أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول ﷺ المعاندين له كم أهلكنا من قبلهم من الأمم المكذّبةِ لرسلها؟! وهم يشاهدون مساكنهم ويمشون فيها! إن في ذلك لآياتٍ بيِّناتٍ، أفلا يسمع هؤلاء هذه المواعظ فتحرك قلوبهم فيؤمنوا ويصدقوا؟!

[٢٧] أفلا يبصر هؤلاء المكذبون المعاندون أن الله ينزل ماء الأمطار إلىٰ الأرض اليابسة التي لا نبات فيها، فيخرج بهذا الماء زرعًا يستفيدون به وتستقيم به حياتهم، فتأكل من هذا الزرع أنعامهم، ويأكلون هم منه أيضًا، أفلا يبصرون هذه النعم فيهتدون بذلك إلىٰ الصراط المستقيم، وتوحيد رب العالمين!

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ
لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ
أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ
هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا
لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ
٢٥ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ
يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ
٢٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ
بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ
٢٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٨
قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ
يُنظَرُونَ ٢٩ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠

سُورَةُ الأَحزَاب

[٢٨] عندما قال المسلمون للكفار: اعلموا أن لنا يومًا سيقضي الله فيه بيننا وبينكم، فقال الكفار استهزاءً وسخرية: متىٰ هذا اليوم إن كنتم صادقين في دعواكم؟.

[٢٩] فأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: اعلموا أن يوم القضاء والحساب بيننا وبينكم قريب، ولن ينفعكم إيمانكم ولا اعتذاركم في ذلك اليوم، ولن يُؤخِّرَ جل وعلا عذابكم؛ بل سيحل بكم العذاب سريعًا.

[٣٠] ثم ختم جل وعلا هذه السورة بأمر نبيه ﷺ أن يعرض عن هؤلاء الكفار، ولا يبالي بتكذيبهم، وأن ينتظر حتىٰ يأتي نصر الله، فإن هؤلاء الكفار أيضًا ينتظرون ما سيحل بك وما سيئول إليه أمرك، ولكن ستكون العاقبة لك؛ لأن العاقبة للمتقين.



سورة الأحزاب

سورة الأحزاب مدنيّة وآياتها ثلاث وسبعون آية.

[١] بدأت السورة بنداء الحبيب المصطفىٰ ﷺ بالكنية تكريمًا وتشريفًا له ﷺ، وأمره بتقوىٰ الله التي هي وصية الله للأولين والآخرين، وأن يراقبه جل وعلا في السر والعلن، وأن يستمر علىٰ ذلك، وأن يأمر المؤمنين ويحثهم علىٰ تقوىٰ الله والوفاء بالعهود، ثم أمره أن لا يطيع الكافرين المجرمين ولا المنافقين فيما يطلبون منه من عدم ذكر آلهتهم وأصنامهم بسوء، ثم بين سبحانه أنه عالم بأسرار عباده، حكيم في تدبير شؤونهم.

والله سبحانه وتعالىٰ طلب من النبي ﷺ التقوىٰ وعدم طاعة المنافقين والكفار ليشرع هذا لأمته، أما هو ﷺ فإنه معصوم مما هو أقل من ذلك.

[٢] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يستمسك بما أوحاه الله إليه من القرآن والسنة، وأخبر سبحانه أنه لا تخفىٰ عليه خافية، وسيجازيكم سبحانه يوم القيامة بما تستحقون من الثواب أو العقاب، والأمر له ﷺ، ولكن المقصود أن يبلغ أمته.

[٣] وأمر جل وعلا نبيه ﷺ أيضًا أن يعتمد علىٰ الله، وأن يفوض أمره إليه، ويطلب حاجته منه، وأن يستعين به في إقامة الدين الذي أُمر به، وكفىٰ بالله وكيلًا يحفظه ويعينه وييسر أمره، وقد امتثل ﷺ ما أمر به.

[٤] ثم أخبر جل وعلا أنه لم يجعل لأحد من البشر من قلبين في صدره؛ سواء كان رسولًا، أو إنسانًا لبيبًا أريبًا، وأخبر أنه لم يجعل الزوجة كالأم بالتحريم بأن يقول لها: أنت عليَّ كظهر أمي، فإن زوجتك قد أحلها الله لك، وأما أمك التي ولدتك فقد حرمها الله عليك، وأخبر أنه لم يجعل الأولاد الذين تتبنونهم أولادًا لكم، لأنهم ليسوا من أصلابكم، ولا يمكن أن يكون للولد أبوان اثنان إنما هو أب واحد، وادِّعاؤكم أنهم أبناء لكم هو مجرد كلام بالفم لا حقيقة له، وكان الظهار والتبني من العادات المعمول بها في الجاهلية فجاء الإسلام وأبطلهما في هذه الآية، وحذر المؤمنين منهما، ثم بين سبحانه أن من يُشبِّه زوجته بأمه بالتحريم، ويدعي ابن غيره ابنًا له؛ فإنه يفتري علىٰ الله الكذب، والله يبين الحق ويرشد إلىٰ قول الصدق وإلىٰ الطريق المستقيم.

وقد كان قول الرجل لزوجته: (أنت علي كظهر أمي) يعتبر طلاقًا في الجاهلية، أي: أنت محرمة علي كأمي.

[٥] ثم أمر جل وعلا أن تردوا نسب الأولاد الذين تتبنونهم إلىٰ آبائهم الحقيقيين؛ فذلك أعدل وأهدىٰ وأقوم؛ فإن لم تعرفوا لهم آباءً؛ فإنهم إخوانكم في الإسلام، ومواليكم، وليس عليكم إثم ولا ذنبٌ فيما حصل منكم من خطأٍ لم تتعمدوه، ولكن يقع عليكم الإثم بتعمّدكم الكلام بما لا يجوز، وبما نُهيتُم عنه، وكان الله كثير المغفرة لعباده، كثير الرحمة بهم.

[٦] ثم أخبر جل وعلا أن النبي ﷺ أحقُّ بمن اتبعه من المؤمنين من أنفسهم في أمور الدين والدنيا، فهو ﷺ لم يترك خيرًا إلا دل الأمة عليه، ولا شرًّا إلا حذَّرها منه، وأخبر أن أزواجه رضي الله عنهن أمهاتٌ للمؤمنين؛ فلا يحللن لأحدٍ بعده، وأخبر أن الأقارب بالنسب بعضهم أولىٰ ببعض في المواريث من أولئك الذين يرثون بالإيمان والهجرة، وذلك ثابت في كتاب الله؛ فقد كان ذلك في أول الإسلام ظرفًا طارئًا للضرورة ثم نُسخ التوارث بسبب الإيمان والهجرة في هذه الآية، واستثنىٰ الله الوصيّة للفقراء المهاجرين من غير الأرحام؛ فلا بأس بها بشروطها، وهذه الأحكام المتعلقة بالمواريث سطرها الله وكتبها من قبل في اللوح المحفوظ، ثم بينها في القرآن الكريم، ولابد من إنفاذها.

[٧] ثم أخبر جل وعلا أنه أخذ علىٰ الأنبياء العهد والميثاق المؤكَّد علىٰ توحيد الله وإفراده بالعبادة، والنهي عن الإشراك به، ودعوة الناس إلىٰ ذلك، وإبلاغهم البلاغ التام، والجهاد في سبيل ذلك، ثم أكد سبحانه أنه أخذ هذا العهد من النبي ﷺ ومن نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ بن مريم عليهم السلام أجمعين؛ وهؤلاء الخمسة المذكورون هم أولو العزم من الرسل؛ فذكر سبحانه النبيين كلهم ثم نص عليهم للتأكيد.

[٨] وقد أخذ جل وعلا العهد والميثاق علىٰ الرسل وسيسألهم يوم القيامة عن تبليغهم وأدائهم الرسالة وكل ما طلب منهم، وسيسألهم عمَّا أجابتهم به أممهم، وبرحمته بعباده المؤمنين أخبر سبحانه أنه هيأ للكافرين المكذبين بالرسل عذابًا أليمًا شديدًا في جهم، أما المؤمنون فربما رحمهم فغفر لهم، وربما طهرهم ثم أدخلهم الجنة برحمته. قال القرطبي: إذا كان الرسل سيسألون فكيف حال سائر الخلق؟!؛ فنسأل الله أن يشملنا برحمته، وأن لا يكلنا إلىٰ أعمالنا.

[٩] ينادي جل وعلا عبادَه المؤمنين بأحب وصف وُصفوا به، وهو وصف الإيمان، ينادي عليهم ويذكرهم بنعمته ورحمته ونصره، فيقول لهم: اذكروا نعمة الله عليكم يوم تحزبت عليكم الأحزاب، وتجمعت عليكم القبائل يومَ الخندق، فرددناهم صاغرين، وأرسلنا عليهم ريحًا شديدةً اقتلعت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأرسلنا ملائكة من السماء - لم تشاهدوها بأعينكم - فثبتتكم وأيدتكم، وكان الله بما تعملون بصيرًا، لا يخفىٰ عليه شيء من نياتكم وأقوالكم وأعمالكم.

وهذا كان في غزوة الأحزاب؛ حيث جمعت قريش وحشدت قبائل كثيرة من قريش وغطفان وغيرهم؛ بل اتفقت معهم ومع جميع الأحزاب الذين وافقوا علىٰ الهجوم علىٰ المسلمين والقضاء عليهم، ولن تجد وصفًا أبلغ ولا أوفىٰ من وصف الله لهم في هذه الآية.

[١٠] واذكروا حين جاءكم الأعداء من أعلىٰ الوادي من جهة المشرق، ومن أسفل الوادي من جهة المغرب، وأعانهم في ذلك يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ؛ فطوقوا المدينة من كل الجوانب، ومن شدة الموقف والفزع والرعب ترىٰ العيون شاخصة، والقلوب كأنها خرجت من أماكنها ووصلت الحناجر، وكاد المسلمون أن يظنوا بالله الظنون السيئة بأن الله لن ينصر أولياءه، ولن ينصر دينه ويعلي كلمته، ولكن الله سلم وردهم بغيظهم خائبين؛ فالله جل في علاه لا غالب له.

[١١] وفي ذلك الموقف العصيب، وهذا الامتحان الرهيب؛ ابتلىٰ الله المؤمنين ابتلاءً شديدًا، واختبر إيمانهم وَمَحَّصَهُم، ومن شدة الابتلاء والامتحان كأن الأرض تضطرب من تحتهم، وفي هذه الأحداث ظهر المؤمن الصادق من المنافق الفاجر.

الجزء الحادي والعشرون — سورة الأحزاب

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

٤١٩

[١٢] واذكر يانبي الله حين قال المنافقون والذين في قلوبهم شك: ما وعدنا الله ورسوله إلا وعدًا باطلًا لا حقيقة له، ولا ينطبق علىٰ ما نحن فيه من الشدة والرعب. فأظهر الله في هذه الأحداث نفاق بعض المنافقين الذين كانوا مجهولين، وأظهر ضعف إيمان بعض المؤمنين الذين كانوا يعبدون الله علىٰ حرف.

[١٣] واذكر يانبي الله أيضًا حين نادت طائفة من المنافقين أهل المدينة فقالت: ياأهل المدينة لا معنىٰ لإقامتكم ووجودكم هنا؛ فإن المعركة خاسرة؛ فارجعوا إلىٰ منازلكم فإنها معرضة للخطر، ثم تأتي جماعة أخرىٰ من المنافقين وتستأذن النبي ﷺ بحجة أن بيوتهم مكشوفة ويسهل اقتحامها، وهؤلاء كشف الله كذبهم، وبين أن بيوتهم محصنة، ولكنهم يريدون الفرار من المعركة خوفًا علىٰ أنفسهم من الموت.

[١٤-١٥] ولو دخل المشركون المدينة واقتحموها ثم سألوا المنافقين الشركَ بالله، والكفرَ بنبيه محمدٍ ﷺ؛ لأجابوا إلىٰ ذلك مبادرين. مع العلم أنهم قد عاهدوا اللهَ من قبلُ أنهم لا يفرون من المعركة، ولا يتخلفون عن الجهاد والقتال، وقد وبَّخهم الله وذكرهم بالعهد الذي عاهدوا عليه الله من قبل، واللهُ سائلُهم عن هذا العهد ومُحَاسِبُهُم عليه.

قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

[١٦] وقل يانبي الله لهؤلاء المنافقين: اعلموا أن فراركم من المعركة لن يدفع عنكم الموت أو القتل، ولن يؤخر آجالكم، وإن فررتم فلن تتمتعوا في هذه الدنيا إلا بقدر أعماركم المقدرة لكم، وهي المدة التي بين الأجل الاخترامي والطبيعي.

[١٧] وقل يانبي الله لهؤلاء المنافقين: من ذا الذي يمنعكم ويحميكم من الله إن أراد بكم شرًّا أو أراد بكم خيرًا؟! فالله سبحانه هو المعطي وهو المانع، ثم بين سبحانه أن هؤلاء المنافقين لن يجدوا لهم وليًّا يتولاهم، ويدفع عنهم، ولا نصيرًا ينصرهم من عذاب الله.

[١٨] يخبر جل وعلا بأنه لا يخفىٰ عليه حال أولئك المنافقين المثبطين عن الجهاد والقتال في سبيل الله؛ فيقعدون عن الجهاد، ويثبِّطون غيرهم قائلين لهم: تعالوا وارجعوا إلينا، وهؤلاء المثبطون لا يشهدون القتال والجهاد إلا قليلًا رياءً وسمعةً، أو خوف الفضيحة أو طلبًا للغنيمة.

[١٩] ومن صفات هؤلاء المنافقين القاعدين المثبطين: أنهم بخلاء عليكم أيها المؤمنون، يبخلون عليكم بأموالهم، وقلوبهم ليست معكم؛ فإذا جاء وقت القتال؛ خافوا وجبنوا، وانخلعت قلوبهم من الرعب، وأخذوا ينظرون إليك يمينًا وشمالًا، تدور أعينهم كالذي جاءه الموت، فإذا ذهب الخوف وحضروا تقسيم الغنائم واطمأنوا خاطبوكم وتكلموا معكم بغلظة شديدة، وآذَوْكم بألسنتهم السليطة، وألفاظهم القبيحة، وهم بخلاء علىٰ مشاريع الخير، والنفقة في سبيل الله، فاعلموا أن أولئك القوم لم يؤمنوا في الحقيقة، لذلك أحبط الله أعمالهم، وأبطل جهادهم، وكان ذلك علىٰ الله سهْلًا يسيرًا.

[٢٠] وهؤلاء المنافقون – لخوفهم وهلعهم – يحسبون أن الأحزاب لم يذهبوا عن المدينة ولم ينهزموا بعْد، وإن يأتِ الأحزاب مرَّةً أخرىٰ لحصار المدينة؛ ودَّ هؤلاء المنافقون أنهم لم يكونوا في المدينة؛ بل ودوا لو كانوا بين الأعراب في البادية يسألون عن أخباركم من بعيد، ولو كان هؤلاء المنافقون بينكم وقت المعركة ما قاتلوا إلا قتالًا قليلا؛ لجبنهم وخوفهم وضعف يقينهم.

[٢١] لقد كان لكم أيها المؤمنون في أقوال وأفعال وأحوال رسول الله ﷺ قدوة حسنة تتأسون بها، حيث بذل نفسه لنصرة دين الله؛ فالزموا سنته، واثبتوا علىٰ مبدئه ﷺ في الشدائد، واصبروا كما صبر عليه الصلاة والسلام في دعوته وجهاده وكل أحواله، واعلموا أن هذه القدوة يسلكها ويتأسىٰ بها الذين يرجون ثواب الله ورحمته في الآخرة، والذين يكثرون من ذكر الله في السراء والضراء.

[٢٢] وعندما رأىٰ المؤمنون الأحزاب الذين قدموا المدينة، قالوا بإيمان وإخلاص: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وذلك في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]، وقد ظهر صدق ذلك الوعد، وبدت بوادره، وما زادهم ذلك الأمر إلا إيمانًا علىٰ إيمانهم، وتسليمًا لأمر ربهم. وفي هذا ثناء من الله تعالىٰ لأولئك المؤمنين الذين ثبتوا في غزوة الأحزاب.

....

....

....

....

....

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

[٢٣] ثم أثنىٰ جل وعلا علىٰ المؤمنين الصادقين المخلصين فقال: من المؤمنين رجال صادقون أوفياء بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله ﷺ؛ فمن هؤلاء الصادقين رجال استشهدوا في سبيل الله، ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله تعالىٰ ويلتمسها في مظانها، ولم يبدلوا عهدهم الذي عاهدوا الله عليه، كما فعل المنافقون الذين غيروا وبدلوا.

[٢٤] واعلموا أن ما وقع لكم في غزوة الأحزاب ليجزي الله ويكافئ الصادقين في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم بسبب صدقهم، ويعذِّب الله المنافقين إن شاء بسبب نكوصهم ونكث عهودهم واستمرارهم علىٰ النفاق، وإن شاء تاب عليهم وعفا عنهم بسبب توبتهم وإقلاعهم عن النفاق، وكان الله كثير المغفرة للمسرفين علىٰ أنفسهم بالذنوب إن تابوا، كثير الرحمة بعباده فيوفقهم للتوبة ويقبلها منهم.

[٢٥] ثم بين جل وعلا المصير السيئ الذي انتهت إليه أحزاب الكفر؛ حيث ردهم الله خائبين خاسرين مغتاظين، لم ينالوا خيرًا؛ بل نالوا خذلانًا وإرهاقًا، وكفىٰ الله المؤمنين القتال بما أيدهم به من الأسباب، كالبرد الشديد، والريح التي قلعت خيامهم ونثرت أمتعتهم، وكان الله قويًّا في ملكه، عزيزًا في انتقامه.

[٢٦] وبعد رجوع الرسول ﷺ إلىٰ المدينة منتصرًا من معركة الأحزاب جاء جبريل عليه السلام إلىٰ الرسول ﷺ يأمره بأن يذهب إلىٰ بني قريظة ليقاتلهم، حيث إنهم تمالؤوا مع المشركين، ونقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ؛ فحاصر ﷺ حصونهم وقلاعهم التي ظنوا أنها حافظه لهم، وألقىٰ جل وعلا في قلوبهم الرعب والفزع والخوف الشديد، حتىٰ نزلوا من الحصون والقلاع مستسلمين، وحكم فيهم حليفهم سعد بن معاذ رضي الله عنه بأن يقتل رجالهم، وتسترق نساؤهم وأطفالهم، وتغنم أموالهم، فكان حكمه موافقًا لحكم الله تعالىٰ من فوق سبع سماوات.

[٢٧] وبعد أن انتهىٰ ﷺ من يهود بني قريظة ونفذ حكم الله فيهم، أكرم جل وعلا الرسول ﷺ وأصحابه الكرام بأن ورَّثهم بساتين وحدائق بني قريظة، كما ورَّثهم أيضًا أرضًا لم يستطيعوا وطأها من قبلُ لعزّتها ومنعتها، وهي أرض خيبر، كما ذكر ذلك بعض المفسرين وبعضهم قال غير ذلك، وكما أورثكم جل وعلا ديار بين قريظة فإنه قادر علىٰ أن يورثكم غيرها من بلاد الكفر.

[٢٨] وقل يانبي الله لأزواجك اللاتي طَلَبْنَ منك التوسعة عليهنَّ في النفقة والزينة والرقيق والخدم بعد أن رأين الغنائم وما أفاء الله علىٰ رسوله ﷺ والمؤمنين من الخيرات، قل لهنَّ: إن كُنْتنَّ تُرِدْنَ سعة الحياة الدنيا ولا تَسْتَطِعْنَ الصبر علىٰ المعيشة معي؛ فتعالينَ أُعطيكنَّ ما تُرِدْنَ من الزِّينة والمتعة، ثم أطلقكن من دون ضرر أو إيذاء.

[٢٩] ثم قل لهن: وإن كُنْتِنَّ تُرِدْنَ رضىٰ الله وطاعة نبيه ﷺ، وما أعد سبحانه لكنَّ في الدار الآخرة من النعيم المقيم؛ فأطعنَ الله ورسوله، واصبرْنَ علىٰ شظف الحياة؛ فإنه جل في علاه أعد للمحسنات منكنَّ ثوابًا عظيمًا لا يعلم مقداره إلا هو سبحانه.

وقد اخْتَرْنَ رضي الله عنهنَّ الله ورسوله، وما أعدَّ الله لهن في الدار الآخرة؛ علىٰ الزِّينة ومباهج الحياة الدنيا.

[٣٠] ينادي جل وعلا نساء النبي ﷺ علىٰ سبيل الوعظ والإرشاد والتأديب، بعد أن اخترن الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة، فقال سبحانه: يانساء النبي من يأتِ منكن بخصلة قبيحة، ومعصيةٍ ظاهرةٍ يُضاعَف لها العذاب مرتين، وكان ذلك علىٰ الله أمرًا سهلًا يسيرًا. وهذا تحذير لجميع نساء المؤمنين.



۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

[٣١] ثم يخبر سبحانه أن من تُخْلِصُ العمل منكن لله ورسوله وتلتزم بذلك، وتعمل الأعمال الصالحة؛ فإن الله يضاعف لها أجرها مرَّتين، وهيَّأ لها رزقًا كريمًا في جنَّات النَّعيم.

[٣٢] ينادي جل وعلا نساء النبي ﷺ ويخبرهن بأنهن لسن في الفضل والمنزلة كغيرهن من النساء، وأنهن في مقام القدوة والتربية لجميع النساء، وهذه المنزلة العظيمة باقية لهن إن عملن بطاعة الله وابتعدن عن معاصيه، ثم حثهن جل وعلا علىٰ التعفف وعدم اللين في القول مع الأجانب حتىٰ لا يطمع فيهن من في قلبه مرض الشهوة الحرام، وأمرهن أن يقُلن قولًا حسنًا محمودًا بعيدًا عن الريبة، وهذا الأدب واجب علىٰ كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر.

[٣٣] ثم أوصاهن جل وعلا فقال: والزمن بيوتكن واسكنَّ فيها واقررن فيها، ولا تخرجن إلا لحاجة وضرورة، ولا تكثرن الخروج من بيوتكن متجملاتٍ متزيناتٍ كما كان يفعل أهل الجاهلية الأولىٰ قبل الإسلام، وأقمن الصلاة وحافظن علىٰ أدائها بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، وأدِّين الزكاة التي فرضها الله عليكن، وداومنَ علىٰ طاعة الله ورسوله في امتثال الأوامر واجتناب النواهي، إنما يريد الله بأمركم بهذه الأوامر، ونهيكم عن هذه النواهي؛ ليبعد عنكم الأذىٰ والخبث والدنس ياآل بيت النبي ﷺ، ويريد الله أن يطهركم تطهيرًا كاملًا تامًّا، حتىٰ تكونن طاهرات متطهرات، وقدوة لنساء المؤمنين.

[٣٤] ثم واصل جل وعلا وعظه ونصحه لنساء النبي ﷺ فقال: واذكرن علىٰ الدوام ما يُتلىٰ ويُقرأ عليكنَّ من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهَّرة، وداومن علىٰ العمل بما فيهنَّ، إن الله كان لطيفًا بكم ياأهل البيت، خبيرًا بما يصلح أحوالكم الدينية والدنيوية؛ لأن مداومة ذكر الله وتلاوة كتابه تقطع الوساوس.

[٣٥] واعلموا أيها الناس أن المستسلمين والمستسلمات لأوامر الله والمنقادين لذلك، والمؤمنين والمؤمنات بالله واليوم الآخر والأمور الغيبية، والمطيعين والمطيعات لله ورسوله، وأقاموا علىٰ ذلك، والصادقين والصادقات في نياتهم وأقوالهم وأفعالهم، والصابرين والصابرات علىٰ الطاعات وعن المعاصي، وعلىٰ الأقدار، والمصائب والشدائد، والمتواضعين الخائفين من الله والمتواضعات الخائفات، والمتصدقين والمتصدقات مما رزقهم الله من الأموال في الفرض والنفل، والصائمين والصائمات في الفرض والنفل، والحافظين فروجهم والحافظات عمَّا حرَّم الله، والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات؛ أولئك وعدهم الله بمغفرة ذنوبهم، ومحو سيئاتهم، ووعدهم بأنه سيؤتيهم ويعطيهم أجرًا عظيمًا بدخولهم جنات النعيم، نسأل الله الكريم من فضله.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ
لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا
مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ
أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ
مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ
مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ
أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا
﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى
ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن
رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ
لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

٤٢٣

[٣٦] يخبر جل علا أنه لا يحل ولا ينبغي ولا يليق بمسلم أسلم أمره لله بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة؛ إذا أمر الله ورسوله ﷺ أمرًا أن يكون له رأيٌ مخالفٌ، أو أن يترك لنفسه الخيار بين الفعل والترك، إذ صفة المؤمن: الانقياد التام، والتسليم الكامل، ومن يخالف الله ورسوله ﷺ في أمر من الأمور فقد ضلَّ ضلالًا بينًا واضحًا، وبَعُدَ عن طريق الحق والصواب.

[٣٧] واذكر يانبي الله يوم أن قلت للذي أنعم الله عليه بالإيمان، وأنعمت أنت عليه بالعتق، وهو زيد بن حارثة رضي الله عنه؛ حيث كان رقيقًا فأعتقه ﷺ ثم تبناه قبل النهي عن التبني؛ حيث قلت له: أَبْقِ زوجك زينب بنت جحش ولا تطلقها، واتق الله يازيد، واصبر علىٰ ما بدر منها في حقك، تقول له ذلك وأنت تُخفي في نفسك ما أوحاه الله إليك من طلاق زيد لزوجه وزواجك منها، واعلم أن الله سيظهر ما أخفيت، ونحن نعلم أنك فعلت ذلك صيانة لعرضك من ألسنة السفهاء من المنافقين أن يقولوا: تزوج محمد مطلقة متبناه، مع أن الله أحق بالخشية من كل من سواه، وهذه جبلة بشرية فأي شخص لا يحب اللمز والغمز والقيل والقال؛ فلما قضىٰ زيد منها حاجته وطلقها، وانقضت عدتها، جعلناها زوجة لك يامحمد؛ لكي لا يكون علىٰ المؤمنين ضيق أو مشقة أو إثم في الزواج من زوجات أدعيائهم الذين كانوا يتبنونهم بعد طلاقهن إذا قضوا منهن حاجتهم، وانقضت عدتهن، وتكون أنت قدوة لهم في إبطال هذه العادة، وكان ما يريده الله جل في علاه حاصلًا لا محالة ولا رادَّ لحكمه. ولا شك أن من أجلِّ أهداف قصة زيد بن حارثة وزوجه زينب هو إبطال التبني الذي كان شائعًا في الجاهلية.

[٣٨] يخبر جل وعلا بأنه ليس علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم من إثم ولا ذنب ولا حرج فيما أحل الله له من الزوجات، فقد أباح الله ذلك للأنبياء من قبله، وكان أمر الله نافذًا وواقعًا.

[٣٩] واعلم يانبي الله بأن هؤلاء الأنبياء الذين أخبرتك عنهم هم الذين يؤدون رسالات الله، ويصدعون بما أمرهم الله به، ويبلغون دين الله، ويخافون الله وحده لا شريك له، لا يخافون من أحدٍ سواه، فلا يلتفتون إلىٰ أذىٰ الناس ولا سخريتهم ولا تهديدهم، وكفىٰ بالله حسيبًا يجمع الأولين والآخرين، ويحاسبهم علىٰ أعمالهم ويجازيهم عليها.

[٤٠] واعلموا أيها الناس أن محمدًا صلىٰ الله عليه وآله وسلم لم يكن أبًا لأحد من رجال المسلمين، لا زيد بن حارثة ولا غيره، ولكنه رسول الله، وخاتم النبيين، فلا نبي بعده، وكان الله بكل شيء عليمًا، فلا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

[٤١] يأمر جل وعلا عباده الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ أن يكثروا من ذكره جل في علاه ليلًا ونهارًا، سرًّا وعلنًا.

[٤٢] وأمرهم سبحانه أن يكثروا من تسبيحه وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وأن يداوموا علىٰ ذلك أول النهار وآخره.

[٤٣] ثم أخبر جل شأنه أنه هو الذي يرحمكم أيها الناس ويثني عليكم، ويسخر ملائكته للدعاء والاستغفار لكم؛ لكي يخرجكم سبحانه بفضله ومنته من ظلمات الجهل والضلال إلىٰ نور الإسلام، ثم بين سبحانه أنه كان بالمؤمنين رحيمًا في الدنيا والآخرة، ومن رحمته أنه لا يعذبهم ما داموا مطيعين مخلصين له وحده.

تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا
إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ
وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ
مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ
فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ
إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ
يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ
وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ
مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا
خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا
عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا
يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾

[٤٤] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن تحية هؤلاء المؤمنين عند دخولهم الجنة: السلام، فيحيِّيهم جل في علاه بالسلام، وتسلم عليهم الملائكة، فَيَسْلَمُونَ من كل آفة وكدر، وهيأ الله لهم نعيمًا مقيمًا في دار السلام، في جنات النعيم نسأل الله الكريم من فضله.

[٤٥] ذكر جل وعلا فضله علىٰ رسوله محمد ﷺ وعلىٰ المؤمنين فقال: ياأيها النبي إنا أرسلناك إلىٰ الناس شاهدًا علىٰ أمتك يوم القيامة أنك بلغتهم الرسالة، وشاهدًا علىٰ الأمم السابقة أن رسلهم بلغوهم الرسالة، ومبشرًا المؤمنين المهتدين بالجنة ورضوان الله، ومنذرًا الكفرة والمكذبين والعصاة بسوء العاقبة؛ بسبب إعراضهم وجحودهم.

[٤٦] ثم بين سبحانه أن من مهمات الرسول ﷺ التي أرسل من أجلها أن الله أرسله داعيًا إلىٰ توحيد الله وطاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهذه الدعوة بأمر الله وتيسيره، وأن الله جعله سراجًا منيرًا وليس ذلك بطبعه أو بقدرته وتدبيره، وإنما بالحق والنور الذي جاءهم به ﷺ، لإخراجهم من ظلمات الجهل والضلال إلىٰ نور الإيمان، فكما يستضاء بالسراج في ظلمات الليل الحالكة فإنه يستضاء برسالته والنور الذي جاء به.

[٤٧] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يبشر عبادَ الله المؤمنين الذين آمنوا به، واتبعوه؛ أن لهم من الله فضلًا كبيرًا، وهو رضا الله عنهم، ودخولهم جنات النعيم.

[٤٨] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن لا يوافق الكافرين والمنافقين علىٰ ما يقترحونه عليه في شأن تبليغ رسالته، وأمره أن يترك أذاهم وأن يصبر عليه، أي: لا يجاريهم في سفههم، وأمره أن يتوكل علىٰ الله، وأن يعتمد عليه، وأن يستعين به في أداء ما كُلِّف به، وكفىٰ بالله وكيلًا تعتمد عليه في أمورك فييسرها لك، ويعينك عليها. وهذه الآية فيها توجيه للرسول ﷺ بالثبات والدوام علىٰ الحق، ولا شك أنه ﷺ معصوم من ضد ذلك، ولكن المقصود هو: التشريع لأمته، وبالأخص العلماء والدعاة.

[٤٩] ياأيها الذين آمنوا بالله وصدَّقوا الرسول ﷺ وعملوا بشرعه، إذا عقدتم علىٰ النساء عقد الزواج، ثم طلقتموهن قبل الدخول والخلوة بهن فليس لكم عليهن من عدة توجبونها عليهن؛ ولذا فمن حقهن أن يتزوجن بغيركم، ولكن عليكم أن تعطوهن من أموالكم متعة يتمتعن بها جبرًا لخواطرهن، وتخفيفًا لشدة وقع الطلاق عليهن، ثم خلُّوا سبيلهن بالطريقة الحسنىٰ التي لا ضرر ولا ظلم فيها. وهذه الآية تدل علىٰ أهمية العدة للمرأة المطلقة التي عليها عدة؛ صيانة لحق الزوج؛ إذ ربما يتبين أنها حامل، أو ربما يراجعها الزوج إذا كانت له رجعة، والعدة: هي المدة من الزمن التي يحرم علىٰ المرأة الزواج بها حتىٰ تنتهي المدة؛ سواءً كانت ثلاثة أشهر، أو الولادة بالنسبة للحامل، أو أربعة أشهر وعشرًا بالنسبة للمتوفىٰ عنها زوجها.

[٥٠] ياأيها النبي إنا قد أبحنا لك أنواعًا من النساء توسعة لك وتيسيرًا عليك لتتفرغ لتبليغ الدعوة، وليكنَّ مرشدات ومعلمات لسائر نساء المؤمنين، فمن ذلك: أبحنا لك الزوجات اللاتي في عصمتك وهن اللاتي تزوجت بهن وأعطيتهن مهورهن، وأبحنا لك ملك اليمين من الإماء مما ردَّه الله عليك وصيَّره إليك من الكفار بالغنيمة، وأبحنا لك الزواج من بنات عمك، وبنات عماتك، وبنات خالك، وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك، وأبحنا لك الزواج من المرأة المؤمنة التي وهبت نفسها لك إن أردت ذلك، وهذا النكاح بالهبةِ خاصٌّ بك دون المؤمنين، فلا يحل لهم هذا النوع من النكاح، قد علِمنا ما فرضنا علىٰ المسلمين في أزواجهم من أحكام، وما يحل لهم من الزوجات وملك اليمين بشروطٍ معلومةٍ، وما يحرم عليهم، وقد أبحنا وجوزنا لك يانبي الله ما لم نجوِّزْ لغيرك وبيَّنا لك ذلك لئلا يضيق صدرك في نكاح من نكحت من هذه الأصناف، ولكيلا تكون في ضيقٍ ومشقة، ولئلا يكون للزوجات اعتراض ويرضين بقضاء الله وقدره، وكان الله ولم يزل جل في علاه متَّصفًا بكثرة المغفرة وكثرة الرحمة بعباده المؤمنين.

تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

[٥١] لقد وسعنا عليك يارسول الله فأبحنا لك أن تؤخر من تشاء من زوجاتك ونسائك فلا تبيت عندها، وتأوي وتضم من تشاء منهن وتبيت عندها، فقد وسَّعنا عليك في القَسْم بين الزوجات، فلم نجعله واجبًا عليك، وإنما هذا تبرع منك، وذلك التخيير في القَسْم إذا علمت أزواجك أنه من عند الله؛ فإنه يكون أدعىٰ أن يرضين بذلك، ولا يحزنّ بإيثارك بعضهن علىٰ بعض؛ بل يرضين بذلك وتطمئن به نفوسهن، والله يعلم ما يعرض لقلوبكم، وما يختلج في صدوركم، وكان الله عليمًا بما تكنّه القلوب، حليمًا لا يعاجل عباده بالعقوبة، ويقبل توبة من تاب إلىٰ الله ورجع إليه.

ومع هذا فقد كان ﷺ يعدل بين زوجاته في المبيت، ويقول: «**اللهم هذا قَسْمي فيما أملكُ فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»[1]، يقصد: ميل القلب.

[٥٢] ويحل لك يانبي الله أن تبقي علىٰ النساء اللاتي معك، ولا يحل لك أن تطلق إحداهن لتتزوج غيرها بدلًا منها، ولو أعجبك حُسْن غيرهنّ، إلا أن السراري - ملك اليمين - حلالٌ لك، وكان الله علىٰ كل شيء رقيبًا وحفيظًا، لا يخفىٰ عليه شيء من أمور عباده.

وهذه الآية نزلت إكرامًا لنساء النبي ﷺ لأنهن اخترن جميعًا الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة؛ فأكرمهن الله بأن حرَّم علىٰ النبي ﷺ أن يتزوج بغيرهن، أو أن يطلق إحداهن فيتزوج بدلًا منها بأخرىٰ.

[٥٣] ياأيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله واتبعوه، التزموا الأدب مع رسول الله ﷺ في دخولكم بيتَه، فلا تدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا بعد أن يُؤذَن لكم، فإن أُذن لكم للدخول من أجل أن تأكلوا في بيت رسول الله ﷺ فادخلوا، غير منتظرين نضوج الطعام وإدراكه، ولكن إذا دُعيتم فادخلوا، فإذا قُدِّم لكم الطعام وأكلتم فبادروا بالخروج، ولا تطيلوا الجلوس بعد الطعام لتتسامروا وتستأنسوا بحديث بعضكم لبعض؛ لأن ذلكم الفعل يؤذي النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، فيستحي منكم ومن أن يأمركم بالخروج من البيت، والله جل في علاه لا يستحي من بيان الحق، ولا من أن يأمركم بما فيه الخير لكم، والرفق بنبيكم ﷺ، وإذا سألتم أيها المؤمنون زوجات النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم متاعًا من الماعون وغيره، فليكن السؤال من وراء ستار بينكم وبينهن، فذلك أطهر لقلوب الجميع من الريبة، وأقطع للشر والشك، ولا ينبغي لكم معشر المؤمنين أن تؤذوا رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم بأي نوع من أنواع الأذىٰ، ولا يحل لكم أن تتزوجوا زوجاته بعدَ وفاته أبدًا، إن ذلكم الإيذاء، أو نكاح زوجاته من بعده؛ كان عند الله ذنبًا عظيمًا، وإثمًا كبيرًا.

[٥٤] يحذر جل وعلا عباده أنه مطلع علىٰ كل حال من أحوالهم، فقال: إن تُظهروا أيها الناس شيئًا، أو تُخفوه وتستروه من النيات والأقوال والأعمال؛ فإن الله كان بكل شيء عليمًا، لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، فاتقوه جل وعلا وخافوه في سركم وعلنكم.

وهذه الآية نزلت فيمن أضمر أن يتزوج بعض نساء النبي بعد موته ﷺ، فبين جل وعلا بأنه مطلع علىٰ ما تخفيه قلوبهم فليحذروا من ذلك.

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والدارمي (٢٢٥٣).

لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ
أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾
إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابٗا
مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ
مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنٗا وَإِثْمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا
يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ
لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ
أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي
ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلٗا ﴿٦٢﴾

[٥٥] يخبر جل وعلا أنه لا إثم علىٰ أمهات المؤمنين زوجات النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم أن لا يحتجبن من آبائهنَّ، وأبنائهن، وإخوانهن، وأبناء إخوانهن، وأبناء أخواتهنَّ، وعموم النساء، ومماليكهن من إماءٍ وعبيد، ثم أمرهن بتقوىٰ الله في جميع الأحوال، إن الله كان علىٰ كل شيء شهيدًا، يشاهد جميع نياتكم وأقوالكم وأعمالكم، لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك.

[٥٦] أكرم جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ وأخبر بمنزلته عنده، وأنه يثني عليه سبحانه ويمدحه في الملأ الأعلىٰ، وأن الملائكة يثنون عليه ويدعون له ﷺ، ثم أمر المؤمنين الذين صدَقوا الله ورسوله ﷺ وعملوا بشرعه بالصلاة والتسليم عليه، وبهذا يجتمع له ﷺ الثناء والدعاء من أهل السماء وأهل الأرض.

وصفة الصلاة علىٰ النبي ﷺ ثبتت في السنة علىٰ أنواع، منها: (اللهم صلِّ علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، كما صليت علىٰ آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك علىٰ محمد وعلىٰ آل محمد، كما باركت علىٰ آل إبراهيم، إنك حميد مجيد).

[٥٧] يخبر جل وعلا أن الذين يُؤذون الله ورسوله ﷺ بأي نوع من أنواع الأذىٰ؛ بالقول، أو الفعل، أو الصد، أو السب والتنقص؛ أولئك أبعدهم الله وطردهم من رحمته، وهيَّأ لهم عذابًا مهينًا ينتظرهم في الآخرة.

[٥٨] ثم أخبر جل وعلا أن الذين يُؤذون المؤمنين والمؤمنات بأي نوع من أنواع الأذىٰ - بغير حقٍّ، وبغير جريرة اكتسبوها -؛ فقد حملوا علىٰ ظهورهم بهتانًا وآثامًا وأوزارًا بينةً ظاهرةً، سوف يلقون الله بها؛ فيجازيهم عليها، ويقتصُّ لمن أوذي بغير حق.

[٥٩] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يفرض الحجاب علىٰ زوجاته وبناته ونساء المؤمنين، فقال له: ياأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين: يُرخين أرديتهن وألحفتهنَّ ويغطين بها رؤوسهنَّ ووجوههن وصدورهن، فتلك التغطية أقرب أن يميزهن من يراهن عن الإماء، وأظهر في معرفة أنهن من الحرائر، فلا يتعرَّض لهن من كان في قلبه مرض، ولا يؤذيهن أحدٌ من أصحاب الريَب، وكان الله غفورًا كثير المغفرة لمن استغفر وتاب، رحيمًا كثير الرحمة لمن رجع وأناب.

[٦٠] ثم حذر جل وعلا المنافقين ومرضىٰ الشهوات من التعرض للمؤمنات، فقال: لئن لم ينتهِ ويتوقف المنافقون والذين في قلوبهم مرض الشهوة والشك، والذين يخوفون المؤمنين ويبثون فيهم الإشاعات لتهوينهم وتضعيفهم؛ لئن لم ينتهِ هؤلاء عمَّا هم فيه؛ لنسلطنك عليهم، ولنأمرنك بعقوبتهم وقتالهم، ولن يصمدوا أمامك في المدينة أو يستمروا وقتًا طويلًا.

[٦١] واعلموا أيها الناس أن هؤلاء المنافقين مطرودون من رحمة الله وحفظه، مهانون أذلّاء أينما ذهبوا، وحيثُما حلُّوا، فهم في أي مكانٍ وُجدوا فيه لا يحصل لهم أمن ولا استقرار؛ بل يتخطفهم الناس أسرًا وقتلًا، وذلك لغضب الله ورسوله ﷺ عليهم، وللعن الله إياهم وطردهم من رحمته.

[٦٢] ثم بين سبحانه أن هذه هي سنته وطريقته في كل من نافق فأظهر الإسلام وأبطن الكفر، ووالىٰ أعداء الله وأحب ظهورهم - أنه يكون غير آمنٍ، ومُعَرَّضًا دائمًا للقتل والأسر -، وسنة الله في هؤلاء المنافقين لا تتغير ولا تتبدل، نسأل الله السلامة والعافية.

الجُزْءُ الثَّانِي وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ الأَحْزَابِ

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

٤٢٧

[٦٣] يخبر جل وعلا أن اليهود وأشباههم في الكفر والنفاق يسألون النبي ﷺ علىٰ سبيل الاستبعاد والتكذيب والاستهزاء عن وقت القيامة، فقل لهم يانبي الله: إن علمها عند الله وحده، وأنه هو الذي يجليها لوقتها، وما يدريك أيها السائل للرسول ﷺ لعل وقتها قد اقترب.

[٦٤-٦٥-٦٦] وأخبر جل وعلا أنه طرد الكافرين المكذبين المعاندين، وأبعدهم من رحمته، ودخول جنته، وهيَّأ لهم - بسبب كفرهم وعنادهم - نارًا تستعر وتتوقد فيهم. وهذه النار يدخلونها ويمكثون فيها أبد الآبدين، لا يتحولون عنها ولا يزولون، وهم فيها لا يجدون من يتولىٰ أمرهم، ويدافع عنهم، ولا يجدون فيها من ينصرهم، وينجيهم منها. وهؤلاء تتقلب وجوههم في النار من جهة إلىٰ جهة فتُشوىٰ من لفح النار لها، ويقولون وهم علىٰ هذه الحال، وقد تملكهم الندم - ولن ينفعهم -: ياليتنا أطعنا الله فوحدناه وآمنا به، وأطعنا الرسول ﷺ فصدقناه واتبعناه.

[٦٧] ثم قالوا - وهم في هذه الحال علىٰ سبيل الاعتذار والندم، ومحاولة النجاة، ولن ينفعهم ذلك -: ياربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا، ومشينا خلفهم وقلدناهم، فضلوا بنا عن طريق الحق والتوحيد، وعن طريق الهدىٰ والإيمان، وسلكوا بنا سبيل الشرك والغواية والضلال.

[٦٨] ولما علم هؤلاء الكفار أنه لا نجاةَ لهم قالوا: ربنا ضاعِف لهؤلاء الذين أضلونا العذابَ مرتين، وشدد عليهم فيه، والعنهم لعنًا كبيرًا عظيم القدر، لأنهم سبب ما نحن فيه.

[٦٩] يحذِّر جل وعلا الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ وعملوا بشرعه؛ أن يؤذوا نبيهم محمدًا ﷺ بقول أو فعل؛ كما آذىٰ اليهود نبيهم موسىٰ عليه السلام؛ حيث آذوه بشتىٰ أنواع الأذىٰ، ومن ذلك أنهم قالوا: إنه آدر، أي: عنده ورم في الخصية، وقيل: عيب في جلده، كبرص ونحوه، وهذا ما يجعله يتشدد في التستر عند الاغتسال لئلا يرىٰ أحد ذلك العيب، فبرأه الله من كل ما نسبوه إليه من سوء، وكانت تبرئته أنه اغتسل في النهر فلما خرج ليلبس ثيابه رأوه فإذا هو سليم مما ظنوا، ثم أخبر سبحانه أن موسىٰ عليه السلام كان عظيم القدر والجاه عند الله تعالىٰ.

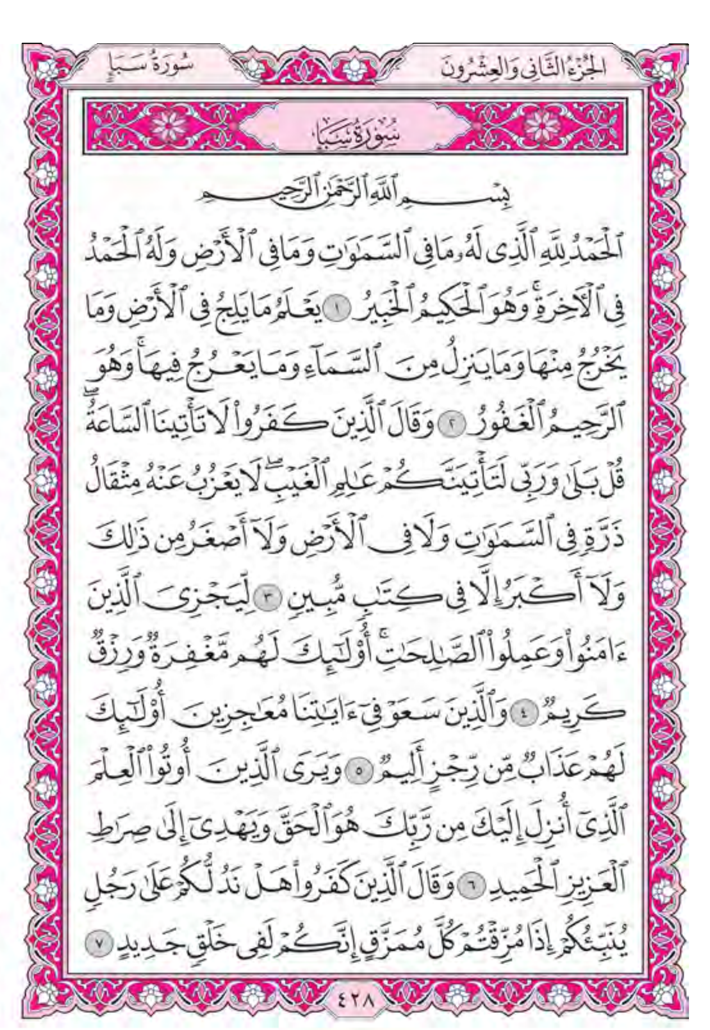
[٧٠] يأيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقايةً بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقولوا قوْلًا صوابًا وحقًّا وعدلًا في كل أموركم ومعاملاتكم.

[٧١] ثم بين سبحانه أنكم إذا اتقيتم الله أيها الناس، وقلتم القول السديد؛ كان ذلك سببًا في أن يُصلح الله لكم أعمالكم، بأن يرزقكم الإخلاص والمتابعة فيها؛ فيقبلها منكم، ويغفر لكم ما وقع منكم من الذنوب والمعاصي، فيسترها عليكم، ويمحوها لكم، ومن يطع الله ورسوله ﷺ فيفعل ما أُمر به، ويجتنب ما نُهيَ عنه فقد فاز فوزًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، نسأل الله الكريم من فضله العظيم.

[٧٢] يعظم جل وعلا شأن الأمانة التي هي حرية الاختيار بين امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وبين أن يكون مؤمنًا أو كافرًا، ثم يكون الثواب والعقاب بحسب اختياره؛ ولعظم هذه الأمانة فإنه جل في علاه عرضها علىٰ مخلوقاته العظيمة؛ السماوات والأرض والجبال؛ عرض تخيير لا إلزام؛ فرفضن أن يتحملن هذه الأمانة، ورغبن أن يكن مسيَّرات لا مخيرات؛ لخوفهن أن لا يقمن بأدائها كما أمر الله تعالىٰ؛ فأما هذا الإنسان الضعيف فقد تحملها؛ لأنه ظلوم لنفسه، جاهل بتبعية اختياره وعواقبه.

[٧٣] ثم ختم جل وعلا السورة ببيان أنه حمَّل الإنسان هذه الأمانة لكي يعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات؛ لأنهم خانوا هذه الأمانة ولم يعملوا بها كما أمر الله تعالىٰ، ويتوب سبحانه علىٰ المؤمنين والمؤمنات الذين حفظوا هذه الأمانة كما أراد الله، فأدوا الواجبات وابتعدوا عن المنهيات، وكان سبحانه كثير المغفرة للتائبين من عباده، رحيمًا بهم.





سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

٤٢٨

سورة سبأ

وهي مكية وآياتها أربع وخمسون آية.

[١] بدأ جل وعلا السورة بتمجيد نفسه، وأن له الحمد والشكر التَّامين، والحمد هو الثناء علىٰ المحمود بجميل صفاته علىٰ وجه التعظيم؛ وصفاته جل في علاه دائرة بين الفضل الذي يحمد ويشكر عليه، والعدل الذي يعترف بحكمته فيه ويحمد عليه، وَحَمَدَ نفسه هنا علىٰ أنه مالك الكائنات في السماوات والأرض يتصرف فيهما كيف يشاء، وأل التعريف في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، تعني: استغراق المحامد كلها، وكما اختُصَّ سبحانه بالحمد في الدنيا فله الحمد الخالص في الآخرة، وهو الحكيم في تصريف أمور العباد؛ حيث رتب أمور الدنيا والآخرة حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وهو الخبير ببواطن الأمور وظواهرها.

[٢] ثم أخبر جل شأنه أنه يعلم كل ما يدخل في باطن الأرض من قطرات المطر والكنوز والأموات والدواب، ويعلم ما يخرج منها من النبات والثروات والمياه، ويعلم ما ينزل من السماء من الأمطار والملائكة والكتب والأقدار والأرزاق، ويعلم ما يصعد إليها من الملائكة وأفعال الخلق والأرواح، وهو مع هذه القدرة وهذه العظمة وهذا الجلال؛ فإنه وحده الرحيم بعباده المؤمنين، ومن رحمته أنه لا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، وأنه الغفور لذنوب عباده القابل لتوبة التائبين العائدين إليه.

وهذه الآية الوحيدة في القرآن التي قُدمت فيها الرحمة علىٰ المغفرة؛ فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾، وعلل ذلك الدكتور فاضل السامرائي فقال: السر أنه لم يذكر قبلها (عباد) فهو جل وعلا يقدم المغفرة عادة ليستبشر العباد المذكورون.

[٣] وبعد أن بين جل وعلا عظمته وقدرته في خلقه أخبر أن الكفار المنكرين للبعث الذين تكرر إنكارهم في القرآن كثيرًا، قالوا: لا تأتينا القيامة، فأمر جل شأنه نبيه ﷺ – وهو الصادق المصدوق الذي لم يجربوا عليه كذبًا – أن يقسم لهم بربه أن يوم القيامة سوف يأتيهم لا محالة، ولكن لا يعلم وقت مجيئه إلا الله عالم الغيب الذي لا يغيب عن علمه مثقال الذَّرَّةِ في السماوات والأرض؛ بل لا يغيب عنه ما كان أصغر من الذَّرَّةِ أو أكبر منها، وكل ذلك واضح بين مسطر في اللوح المحفوظ. والذّرَّةُ هي: الهباءة أو النملة الصغيرة.

[٤] واعلموا أيها الكفار أن الساعة آتية لا محالة؛ ليثيب جل وعلا الذين آمنوا به بقلوبهم، وصدَّقوا رسوله ﷺ، واتبعوا ذلك بعمل الصالحات، أولئك سيغفر الله لهم ذنوبهم، وسيكفر عنهم سيئاتهم، وسيرزقهم ويهبهم رزقًا كريمًا، وهو النعيم المقيم في جنات النعيم.

[٥] أما المعاندون الذين بذلوا جهدهم في إطفاء نور الله، وصد الناس عن سبيل الله، ظانِّين بذلك أنهم يعجزون الله ويعجزون رسله؛ فأولئك لهم أسوأ العذاب وأقذره يوم القيامة.

[٦] يخبر جل وعلا أن أهل الإيمان – الذين أعطاهم الله العلم النافع – يرون أن الذي أنزله الله إليك من القرآن هو الحقّ الذي لا مرية ولا شكَّ فيه، وأنه يهدي ويدل إلىٰ صراط الله المستقيم الذي هو التوحيد والإسلام.

[٧] كرر جل وعلا في هذه الآية إنكار الكفار للبعث وبكَّتهم علىٰ عدم إعمال عقولهم لينجوا من عذابه؛ فأخبر سبحانه عما قالوه؛ حيث قالوا علىٰ سبيل السخرية والتهكم: هل ندلكم علىٰ رجل – يقصدون محمدًا ﷺ – يخبركم أنكم إذا متم وتمزقت أجسادكم وصرتم رفاتًا أنكم ستحيون وتبعثون من قبوركم مرة أخرىٰ؟ وهذا دليل علىٰ شدّة إنكارهم للبعث واستبعادهم له.

[٨] ثم تساءل هؤلاء الكفار استهزاءً وسخرية فقالوا: هل اختلق هذا الرجل - يقصدون محمدًا ﷺ - علىٰ الله الكذب بزعمه أن الناس ستُبعث بعد موتها يوم القيامة؟ أم أنَّ به مسًّا من الجنون؟ فرد جل وعلا عليهم: ليس الأمر كما يزعم هؤلاء الكفار؛ بل إن المكذبين بالبعث في الشقاء العظيم، وفي الغواية الكبيرة، وفي الزيغ الذي لا نهاية له في الدنيا والآخرة.

[٩] ثم وَبَّخَ جل وعلا هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة قائلًا لهم: أفلم يشاهدوا عظيم قدرة الله فيما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض مما يبهر العقول؟، ثم هددهم سبحانه مبينًا لهم أن كل ما في الكون ملكه وتحت تصرفه؛ فإن يشأ يخسف بهم الأرض فيغوصون فيها، أو إن يشأ يسقط عليهم من السماء قطعًا من النار فتحرقهم، كما فعل بمن قبلهم ممن استحقوا العذاب، إن في هذه القدرة العظيمة لله لآية لكل عبد معتبر ومتأمل لما سلف.

[١٠] يخبر جل وعلا أنه فضَّل كل نبي وأعطاه المعجزات التي تناسب قومه، ومن هؤلاء داود عليه السلام؛ فأخبر سبحانه أنه أعطىٰ داود النبوة والكتاب وهو الزبور والملك، وأمر الجبال والطير أن تسبح بتسبيحه، وسخر له الحديد بأن ألَانَهُ وجعله كالعجين، حتىٰ يتمكن من أن يشكله كيف يشاء من غير أن يدخله في نار أو أن يطرقه بمطرقة.

[١١] ثم بين سبحانه أنه أَلَانَ له الحديد لينسج منه الدروع الطويلة الواسعة التي يُسْتَتَرُ بها في الحروب، وعلَّمه كيف يحكم نسج هذه الدروع ويجعلها حلقات متداخلة متناسبة؛ فلا تكون صغيرةً ضعيفةً لا تقوىٰ علىٰ الدفاع، ولا كبيرة ضخمةً فتُثْقل كاهل لابِسِها، ثم أمر سبحانه وتعالىٰ آل داود بعمل الطاعات، واجتناب المعاصي، فإن الله بما تعملون بصير، لا يخفىٰ علي شيء من أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أنه كما امتن علىٰ داود عليه السلام ببعض المعجزات؛ فكذلك امتن علىٰ ابنه سليمان عليه السلام - الذي خلفه في الملك والنبوة - ببعض المعجزات؛ فسخَّر له الريح تحمله وتحمل جيشه، وتسير به من أول النهار إلىٰ منتصفه مسافة مسيرة شهر بمسير الدواب المعتاد، وأيضًا تسير به من منتصف النهار إلىٰ آخره مسافة مسيرة شهر بمسير الدواب المعتاد، فمسيرة شهرين تقطع في يوم واحد، وأذاب له النحاس حتىٰ صار كأنه عين ماء تجري؛ فكما ألان الحديد لأبيه داود عليه السلام، أذاب له النحاس، وسخر له الجن والشياطين يعملون بين يديه ما يشاء بإذن الله، ثم أخبر سبحانه أن من يَزِغْ من هؤلاء الجن عن أمر الله الذي أمروا وكلفوا به وهو طاعة سليمان عليه السلام فسوف يذوق من عذاب النار المستعرة التي خلقها الله لكل من يبتعد عن أَمْرِ الله الذي بلغتهم به أنبياؤهم عليهم السلام.

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

[١٣] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الجن كانوا يعملون له ما يشاء وما يريد من مبانٍ محكَمةٍ فخمةٍ للتعبد فيها، ويعملون له ما يريد من صور الحيوانات والجمادات من النحاس والزجاج والرخام وغيرها، ويعملون له أواني عظيمة ضخمة كأحواض الإبل؛ يجتمع عليها العدد الكبير من الأَكَلَة، ويعملون له ما يريد من القدور الكبيرة الراسية التي لا تزول عن أماكنها لكبرها وعظمتها، ثم قال جل في علاه لآل داود: اعملوا ياآل داود بطاعة الله شكرًا له علىٰ نعمه بأن أعطاكم ومكنَّكم، فإن القليل من عباد الله من يُكثِرُ شكر الله علىٰ نعمه وآلائه.

[١٤] فلما انقضىٰ أجل سليمان، وحكم جل وعلا عليه بالموت؛ فمات واقفًا يصلي متكئًا علىٰ عصًا غليظة، واستمر زمنًا واقفًا، ولم تستدل الجن علىٰ موته إلا عن طريق دابة الأرض، وهي النمل الأبيض التي نخرت عصاه الغليظة فسقط علىٰ الأرض، فلما سقط عليه السلام حينها علمت الجنُّ بموته، وتبين للناس أن الجن لا يعلمون الغيب - كما زعموا -؛ إذْ لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان عليه السلام، وَلَمَا أقاموا مدَّةً طويلةً في الخدمة والعمل الشاق الذي سخرهم فيه سليمان عليه السلام.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

[١٥] ثم بين سبحانه أنه جعل لقوم سبأ الذين يسكنون مأرب في اليمن علامةً علىٰ قدرته وعظيم فضله وإنعامه؛ حيث جعلهم الله في رغد من العيش؛ فجعل لهم جنَّتين عظيمتين عن يمين وشمال الوادي الذي يجري فيها الماء الصادر من سد مأرب العظيم الذي بنوه لينتفعوا من مياه الأمطار، وهاتان الجنتان تمتدان إلىٰ مسافات طويلة، وفيهما من جميع أنواع الثمار والخيرات، وقيل لهم علىٰ لسان نبيهم: كلوا من ثمار هاتين الجنتين، وأدوا شكر الله، فقد رزقكم الله ببلدٍ طيبٍ كثير الأشجار، طيب الثمار، وتكفل لكم بمغفرة ذنوبكم إن استغفرتم وتبتم.

قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: لم يُكَلَّفُوا إلا بالاعتراف أن الرزق من الله، وأن يشكروه علىٰ ذلك.

وسبأ قبيلة عربية يمنية يقال: إنهم أولاد سبأ بن يشجب، كانوا علىٰ شاطئ نهر مأرب التي كانت بلقيس ملكة فيه.

[١٦] ثم بين سبحانه أنهم أعرضوا عن الإيمان وأعرضوا عن الشكر، وكفروا بنعم الله؛ فأرسل الله عليهم سيْلًا جارفًا، فدمَّر سدَّهم، ودخل الماءُ بساتينَهُمْ فأغرقها وخرَّب الزروع، وأهلك البهائم والناس الذين لم يستطيعوا الفرار، وأعطاهم جل وعلا بدل جنتيهم جنتينِ فيهما ثَمَرٌ مرٌّ كريه الطعم، وفيهما شجر الأثل، وشيء قليلٌ من شجر النبق.

[١٧] وهذا التبديل الذي أصاب أهل سبأ والدمار الذي لحق بهم كان بسبب كفرهم وجحودهم، وعدم شكرهم، وهل يعاقب جل وعلا بهذا العقاب إلا من جحد وكفر بآياته؟!

[١٨] ثم بين سبحانه أنه جعل بين أهل سبأ، وبين القرىٰ التي بارك الله فيها، وهي أرض الشام: قرًىٰ متواصلةً مرتفعةً، ويسر لهم السير فيها في أسفارهم، فكانت المسافات بين تلك القرىٰ قريبة، فلا يكاد يرتحل المسافر منهم من قرية إلا ويدخل التي تليها، وسير سبحانه لهم السير في أسفارهم ليلًا ونهارًا، آمنين علىٰ أنفسهم وتجاراتهم وأموالهم، لا يخافون عدوًّا، ولا جوعًا، ولا عطَشًا.

[١٩] لكن هؤلاء القوم كفروا بهذه النعمة أيْضًا، وقالوا في بلاهةٍ وبجاحة وحُمْقٍ: ربنا اجعل بيننا وبين مقاصدنا في أسفارنا مسافاتٍ متباعدة نذوق فيها العناء والتعب!! فتجاوزوا بذلك حدودهم، وعرَّضوا أنفسهم لزوال النعم وحلول النقم، ونزل بهم أمرُ الله، وسلبهم الله النعم التي كفروا بها، وجعلهم الله عبرةً للمعتبرين علىٰ مر الأزمان، وفرقهم الله في البلاد كلَّ تفريقٍ، واعلموا أيها الناس أن فيما حدث لقوم سبأ لآية وعلامة وعبرة ينتفعُ بها كلُّ صبَّار كثير الصبر علىٰ الطاعات وعن المعاصي، وعلىٰ الأقدار، وكلُّ شكورٍ كثير الشكر لنعم الله.

[٢٠] ثم أخبر سبحانه أن ظن إبليس بالناس قد تحقق؛ حيث ظنَّ أن الناس سيطيعونه ويتبعونه فيما يزينه لهم ويأمرهم به من الضلال؛ حيث قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢]، فكان الأمر كما ظنَّ؛ فصدَّق إبليس ظنَّه فاتبعوه في ما أمرهم به من الشرك والضلال؛ إلا فريقًا وطائفةً من المؤمنين لم يستجيبوا له ولم يتبعوه، وهم عباد الله الموحدون المخلصون الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

[٢١] واعلموا أيها الناس أنه ما كان لإبليس علىٰ الناس من تسلطٍ وقهرٍ فيما يدعوهم إليه؛ وإنما منه مجرد الوسوسة والتزيين، ليُمتَحن الناس، وليتميز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق والكافر، وليظهر من يؤمن بالآخرة وبالبعث إيمانًا جازمًا، ويتبين من هو في شك وريْبٍ من ذلك، واعلم يانبي الله أن ربك علىٰ كل شيء حفيظ؛ فيحفَظ للناس أعمالهم، ويحفظ لهم مجازاتهم عليها.

[٢٢] يأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين: ادعوا الذين زعمتم أنهم شركاء لله، فانظروا هل يجيبونكم؟!، وهل يملكون لكم وزن ذرَّةٍ من جلب نفع أو دفع ضرّ؟!، والحق: أنه ليس لتلك الآلهة المزعومة شيء من ذلك، وليس لهم في السماوات والأرض من شركة، ولو بنسبة ضئيلة، وليعلم الجميع أنه ليس لله جل في علاه من هذه الآلهة المزعومة ولا من غيرها من معاونٍ له، أو مساعدٍ يعاونه أو يساعده في الملك والتدبير؛ فهو سبحانه المدبر لكل شيء.

وهذه الآية كما قال بعض العلماء: اجتثت جذور الشرك.

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾

[٢٣] بين جل وعلا أن الشفاعة لا تنفع عنده إلا لمن أذن له بالشفاعة، والشفاعة هي طلب العفو أو الفضل من شخص لآخر، ومن عظمته جل في علاه أنه إذا تكلم سبحانه بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه أُرعدوا من الهيبة والخوف، حتىٰ يلحقهم مثل الغشي، فإذا زال الفزع عن قلوبهم سأل بعضهم بعضًا: ماذا قال ربكم في أمر الشفاعة؟ قالت الملائكة: قال: الحق، أي: أن الله أذن بالشفاعة للمؤمنين، وأما الكفار والمشركون والمنافقون فلم يأذن لهم سبحانه بالشفاعة، واعلموا بأنه جل في علاه العليُّ بذاته وقهره وعلوِّ قدْره، الكبير في ذاته وصفاته.

[٢٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: من الذي يُنَزِّلُ لكم الرزق من السماء، ويخرجه لكم من الأرض؟! ثم أجبهم بالإجابة التي لا تُنكرها قلوبهم وصدورهم: إن الرازق هو الله، واعلموا ياقوم أن أحدنا علىٰ هدًىٰ متمكِّن منه، والآخر منغمس في الضلال البين الواضح، فهل الذي يصرف العبادة للخالق الرازق علىٰ الحق؟!، أم الذي يصرفها لغيره؟!

[٢٥] ثم قل لهم يانبي الله: كلٌّ منَّا له عملٌ سيُسأل عنه: فأنتم لا تسألون عن أعمالنا ولا عن ذنوبنا وجرائمنا - إن وقع منَّا ذلك -، ونحنُ أيضًا لا نُسأل عن أعمالكم، ولا نُؤَاخَذُ بها، وإنما يعاقب كل إنسان بما ارتكب من الأخطاء.

[٢٦] ثم قل لهم يانبي الله أيضًا: إن الله سيجمع بيننا يوم القيامة، وسيقضي بيننا قضاءً عادلًا، وسيتبين حينها الصادق الذي علىٰ الحق، من الكاذب الضال، وهو سبحانه الفتاح الذي يحكم ويقضي بالحق، وهو العليم بتفاصيل ودقائق الأمور، فلا تخفىٰ عليه خافية، ولا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات، ولا في الأرض.

[٢٧] ثم قل لهم يانبي الله: أروني هؤلاء الذين ألحقتموهم بالله وجعلتموهم شركاء له تصرفون لهم أنواع العبادة، لأنظر بأي وصف استحقت العبادة؟ كلَّا أيها المشركون، فإن الله جل في علاه لا شريك له، ولا معبود بحق إلا هو، وهو سبحانه العزيز القوي الغالب الذي قهر كل شيء، وهو سبحانه الحكيم في تدبير خلقه وشؤون عباده.

[٢٨] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل محمدًا ﷺ لجميع الناس لكي يبشرهم بالتوحيد وثواب الله عليه، وينذرهم ويحذرهم من الشرك وعقاب الله عليه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون العلم الصحيح أن الله أرسله ﷺ رسولًا للثقلين.

[٢٩] ثم أخبر سبحانه عن مقولة هؤلاء المشركين المكذبين بالبعث الذين يقولون سخرية واستهزاءً: متىٰ يتحقق ما وعدنا به محمد ﷺ وأصحابه من البعث والنشور، إن كانوا صادقين في وعودهم؟!

[٣٠] ثم أمر جل في علاه نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أيها المشركون أن الله قد حدَّد لكم يومًا يتحقق فيه هذا الوعد، وضرب لكم أجلًا سترون فيه ما وعدكم به، وهذا الموعد لا يتقدّم ساعة بسبب استعجالكم له، وإذا جاءكم ووقع بكم ورأيتموه؛ وأيقنتم بوقوعه؛ فإنه لا يتأخر ساعة واحدة لتتوبوا وترجعوا، وحينئذٍ يكون قد انتهىٰ وقد العمل، وطويت الصحف، فلا تقبل من أحد توبة.

[٣١] ثم أخبر جل شأنه بما يقول الذين كفروا وجحدوا بآيات ربهم وكتبه؛ حيث يقولون في عنادٍ واستكبار: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب السابقة من التوراة والإنجيل والزبور؛ وهؤلاء الجاحدون الذين قالوا هذا الكلام لو تراهم يانبي الله يوم القيامة وقد تملكتهم الحسرة والندامة، وهم موقوفون أمام الله للجزاء والحساب؛ لرأيت أمرًا عظيمًا، ولرأيتهم يتلاومون ويتراجعون، فيقول المستضعفون - وهم الأتباع - للمستكبرين - وهم القادة -: أنتم السبب فيما نحن فيه من العذاب والشقاء، فلولا أنكم كنتم تصدوننا وتحجزوننا وتمنعوننا عن الإيمان بالله واتباع الرسول ﷺ؛ لكنَّا من المؤمنين المصدِّقين الناجين.

ولا شك أنهم غير صادقين في قولهم؛ ودليل ذلك أن الله فضحهم لما حزن الرسول عليهم لعدم استجابتهم؛ فقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

[٣٢] فيجيب القادة المتبوعون أولئك الأتباع قائلين لهم: هل نحن منعناكم بالقوة والقهر عن الإيمان بالله واتباع رسوله ﷺ بعد إذْ جاءكم؟!، لقد كفرتم من ذات أنفسكم؛ بل إننا أشرنا عليكم بما نحن عليه ولم نجبركم، ولكنكم أصررتم علىٰ الكفر والفساد، كما قال الشيطان لأتباعه: ﴿**وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**﴾[إبراهيم:٢٢].

[٣٣] فرد المستضعفون من الأتباع قائلين: بل كنتم تخدعوننا، وتمكرون بنا ليلًا ونهارًا، وتزينون لنا الكفر، وتأمروننا أن نشرك بالله ونكذب برسوله ﷺ، ونجعل لله أمثالًا ونظراء نصرف لهم العبادة من دون الله؛ فلما عرف كل فريق منهم أن هذه المراجعة لن تغني عنهم شيئًا من عذاب الله؛ أسرَّ كل فريق منهما الندامة الشديدة، والحسرة العظيمة في نفسه لمَّا رأوا ما ينتظرهم من العذاب والنكال، ومن ذلك: أنهم يُغلُّون بأغلال من حديدٍ تُطَوَّقُ بها أعناقهم، ثم أخبر جل شأنه فقال: هل يُجزىٰ هؤلاء المشركون ويعذبون إلا بسبب شركهم، وصدهم عن سبيل الله، واتباعهم دعاة الطغيان وأئمة الضلال؟!

[٣٤] يسلي جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: وما أرسلنا في قرية من رسول يأمرهم بالتوحيد، ويحذرهم وينذرهم وينهاهم عن الشرك؛ إلا قال أصحاب الغنىٰ والترف من أهل هذه القرية: إنا بما أُرسلتم به مكذبون جاحدون.

[٣٥] ثم قال كفار ومشركو مكة المترفون من أصحاب الجاه والمال، للفقراء من المؤمنين المستضعفين، قالوا معتزين بقوتهم: نحن أكثر منكم مالًا وأولادًا، فلن نُعَذَّبَ في الآخرة إن كان هناك آخرة، وهذا تكذيب منهم للبعث والجزاء. وقد حكىٰ جل وعلا عنهم مثل هذا في سورة المؤمنون؛ حيث قال: ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ**﴾ [المؤمنون:٥٥ - ٥٦].

[٣٦] وهنا يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الناس المعاندين المغترين: اعلموا أيها الكفار أن الله ربي جل شأنه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده مؤمنهم وكافرهم، ويُضَيِّقُ علىٰ من يشاء من المؤمنين والكافرين؛ امتحانًا لهم ليعلم الشاكر عندما يرزقهم، ويعلم الصابر المحتسب عندما يضيق عليهم، كل ذلك يتم حسب مشيئته المبنية علىٰ الحِكَم البالغة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن عطاء المال والعز والجاه إما أن يكون استدراجًا أو يكون ابتلاء؛ لأنهم لا يعلمون مراد الله وأسراره في خلقه.

[٣٧] واعلموا أيها الناس أن أموالكم وأولادكم ليست هي التي ترفع درجاتكم وتقربكم عند الله عز وجل، ولكن الذي ينجيكم ويقربكم منه سبحانه هو الإيمان بالله والتصديق برسوله ﷺ، وما تقدمونه من العمل الصالح، وهؤلاء الذين آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة سيضاعف الله ثواب أعمالهم كما أخبر بأن الحسنة بعشر أمثالها، وهم في أعالي منازل الجنة وقصورها آمنون مطمئنون قد نجوا من العذاب، ومن كل ما يكدر صفو حياتهم.

[٣٨] وأما أولئك الفجار الذين يسعون في إبطال آيات الله القرآنية، ويصدون الناس عن سبيله؛ ظانِّين أنهم يُعْجِزُوَن الله بمكرهم وخبثهم؛ فاعلم أن الزبانية سوف تحضرهم يوم القيامة وتدخلهم في جهنم فلا يخرجون منها أبدًا.

[٣٩] وقل يانبي الله لهؤلاء المغترين بأموالهم وأولادهم: إن ربي جل في علاه يوسِّع الرِّزق علىٰ مَن يشاء من عباده، ويضيِّقه علىٰ من يشاء؛ ابتلاءً وحكمة، ثم حث جل وعلا أصحاب السعة علىٰ الإنفاق في وجوه الخير، وأخبر أنه يعوض المحسنين في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالثواب، كما قال ﷺ: «**ما نَقَصَت صدقةٌ من مالٍ**»(١)، وهو سبحانه خير الرازقين وخير المعطين.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

[٤٠] واذكر يانبي الله يوم يجمع جل وعلا الكفار جميعًا، ويحشر المعبودين من دونه من الملائكة، ثم يقول للملائكة علىٰ سبيل التوبيخ والتقريع للمشركين الذين عبدوهم: أهؤلاء الذين كانوا يعبدونكم من دوني؟!!

[٤١] فتبرأ الملائكة من هؤلاء المشركين، وتُنزِّه الله جل في علاه قائلةً: سبحانك ربنا، نُنزِّهك ونقدسك عن الشريك والمثيل، فأنت ياربنا وليُّنا، نوحدك ونعبدك، ولا نشرك بك شيئًا، وهؤلاء المشركون ليسوا لنا بأولياء؛ بل إنهم كانوا يعبدون الشياطين، ويطيعونهم في اتخاذ الشركاء والأنداد، وأكثرهم مصدقون للجنّ منقادون لهم.

[٤٢] ثم يخبر جل وعلا أنه في يوم القيامة لا يملك أحدٌ لأحدٍ نفعًا من شفاعة ونجاة، ولا ضرًّا من عذاب وهلاك، ونقول للذين ظلموا وأشركوا: ذوقوا عذاب النار التي كنتم تكذبون وتستهزؤون به في الدنيا، ولدخولها تستعجلون.

[٤٣] ثم يخبر سبحانه وتعالىٰ أن هؤلاء الكفار إذا تتلىٰ عليهم آيات القرآن الواضحات المبينات للحق، قالوا علىٰ سبيل الإنكار والاستهزاء: اعلموا أن هذا الذي يدَّعي أنه رسول ما هو إلا رجل مثلكم يريد أن يمنعكم عمَّا كان يعبد آباؤكم وأجدادكم من الأوثان والأصنام، ثم قالوا عن القرآن: وما هذا القرآن الذي يتلوه علينا إلا كذب ومختلق، جاء به من عند نفسه، وليس من عند الله، ثم قال هؤلاء الكفار عن كل ما جاء به الرسول ﷺ: وما هذا الذي جئتنا به يامحمد إلا سحر واضح.

[٤٤] وما أنزلنا علىٰ قومك يامحمد كتابًا قبل القرآن، يكون عمدةً لهم في تكذيبك، ولا أرسلنا إليهم قبلك من نذير أو رسولٍ يتبعون أقواله في رد ما جئتهم به، فمن أين عرفوا أن هذا القرآن سحر مبين؟ فما هو إلا محض الجهل والبغي والتكذيب.

كما قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾[الروم:٣٥]. وقال ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾[الزخرف:٢١].

[٤٥] واعلم يانبي الله بأن الأقوام السابقين الذين جاءوا قبل قومك؛ كذبوا رسلهم، ولم يؤمنوا بما جاءوا به، ولم يبلغ قومك من كفار مكة عُشْرَ ما أعطينا تلك الأمم من القوة والمال وطول العمر؛ فلما كذبوا رسلي، ولم يؤمنوا بهم؛ أهلكناهم ودمرناهم، فانظر يانبي الله كيف كان إهلاك الله وتدميره لهم! ألم يكن تدميرًا هائلًا وفظيعًا؟!

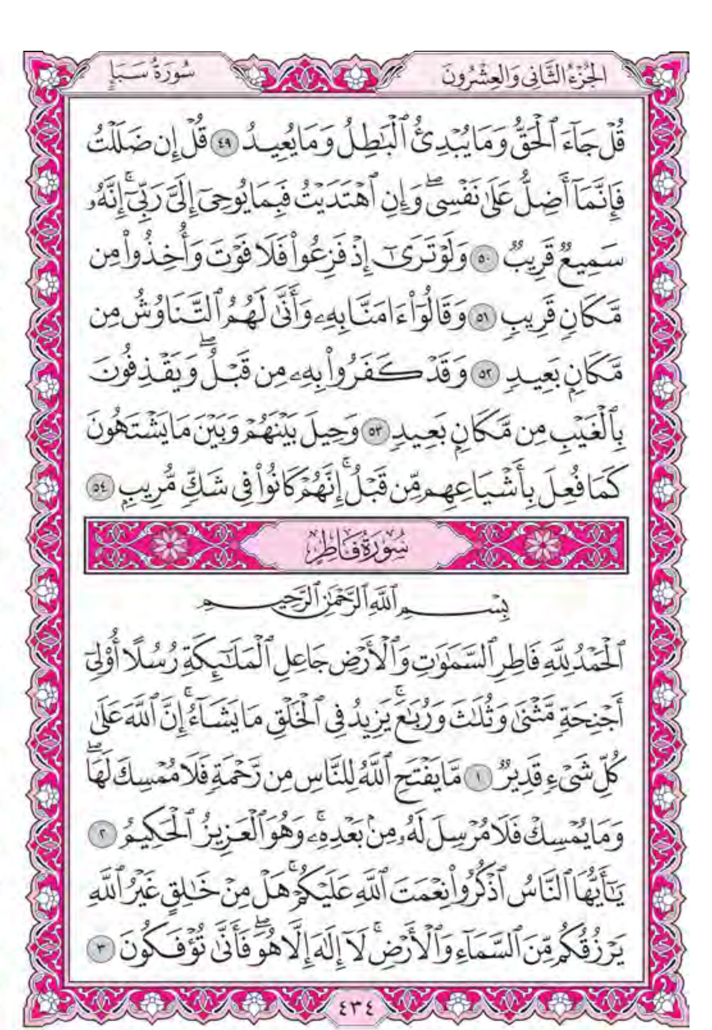
[٤٦] وقل يانبي الله لهؤلاء المكذبين المعاندين من قومك: إنما أنصحكم وأوصيكم بكلمة واحدة؛ بأن تتحروا الحق من أجل الله، ويتناقش كل اثنين مع بعضهم البعض، أو يتناقش كل واحد مع نفسه بتجرد؛ بعيدًا عن العصبية وعن الجماهيرية والغوغائية؛ لتتفكروا فيما يدعو إليه صاحب هذه الرسالة – وهو محمد ﷺ،

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾

وفيما نسب إليه –؛ الذي تعرفون نسبه وصدقه وأمانته، وكنتم تسمونه الصادق الأمين؛ هل به جنون، أو جربتم عليه كذبًا، أو شعوذة؟، وسوف تصلون إذا تجردتم عن الأغراض الشخصية، وقصدتم الوصول إلىٰ الحقيقة؛ بأنه رسول من الله، وليس به شيء من الجنون؛ بل سترون أنه أصدق الناس، وأرجحهم عقلًا، وأنقاهم قلبًا، وأنه مرسل لكم ليحذِّركم ويخوِّفكم من عذاب يوم القيامة الشديد؛ الذي سيحل بكل من كفر وجحد بآيات الله ولم يؤمن بها، وهذا العذاب الذي يحذركم منه يوشك أن يقع عليكم.

[٤٧] وقل لهم يانبي الله: إني ما أسألكم ولا أطلب منكم مالًا علىٰ تبليغ الرسالة وعلىٰ اتباعكم الحق، وإن كان ثمةَ أجرًا ومقابلًا علىٰ اتباعكم الحق؛ فهو لكم، وإنما أجري وثوابي فهو علىٰ الله، والله جل في علاه شهيدٌ مطَّلعٌ عليَّ وعلىٰ أعمالي، لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، ومطلعٌ عليكم وعلىٰ أعمالكم، وسيجازي كلًّا بما عمل.

[٤٨] وقل لهم يانبي الله: إن الله يقذف بالحق والتوحيد علىٰ الباطل والشرك بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة؛ فيدمغ الشركَ ويفضحه ويهلكه، والله جلَّ في علاه علَّام الغيوب، يعلم ما غاب عن أبصار الناس وإدراكهم، لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.


الجزء الثاني والعشرون — سورة سبإ

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾

٤٣٤

[٤٩] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: لقد جاء الإسلام والتوحيد والنور، وذهب الباطل والشرك والظلام، ولم يبق من الباطل شيء، ولم يعدْ له إقبال ولا إدبار.

[٥٠] وقل لهم يانبي الله: إن ضللتُ وابتعدتُّ عن طريق الحق والصواب؛ فإثم ذلك عائدٌ عليَّ – وحاشاه من ذلك صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وإن اهتديتُ فليس ذلك بحولي وقوتي، وإنما بفضل ما يوحَىٰ إليَّ من ربي من الحكمة والموعظة والبيان بالقرآن، إن ربي سميعٌ لجميع الأصوات، قريبٌ من عباده، مجيبٌ لمن دعاه وآمن به.

[٥١] ولو ترىٰ يانبي الله حال الكفار حين يخرجون من قبورهم فزعين، ثم يرون العذاب؛ لرأيت أمرًا عظيمًا، حيث اعتراهم الفزع والهلع مما يرون، وليس لهم مهرب ولا نجاة من عذاب الله، وقد أُخذوا إلىٰ مصيرهم ونهايتهم وهي النار والعياذ بالله.

[٥٢] وعندما رأىٰ المشركون العذاب قالوا علىٰ سبيل الندم: آمنا بالله، وصدقنا رسوله ﷺ، ولكن أنَّىٰ لهم تناول الإيمان في الآخرة؟! فمحلُّ الإيمان والتصديق هو الدنيا، لا حينَ معاينة العذاب؛ فندموا حين لا ينفع الندم ولا تنفع التوبة.

[٥٣] وهؤلاء الكفار الذين أعلنوا ندمهم وقالوا: إنهم آمنوا بالله وصدقوا الرسول ﷺ؛ فقد كذَّبوا بالإيمان وجحدوا آيات الله ورسله وهم في الدنيا، فكيف لهم الإيمان والتصديق في هذا اليوم؟، في حين أنهم كانوا يرمون محمدًا ﷺ بالظن الكاذب بسبب جهلهم وعنادهم؛ حيث كانوا يقولون: بأنه ساحر، وشاعر، وبه جنون، وأنه ليس هناك شيء اسمه بعث، أو جنة أو نار، يقولون ذلك من دون مستند ولا حجة، فإيمانهم اليوم لا فائدة منه؛ فهم مثل الذي يطلب شيئًا بعيدًا جدًّا عنه ولا يراه!.

[٥٤] وهؤلاء الكفار الذين أرادوا الإيمان بالله وتصديق رسوله ﷺ يوم القيامة؛ قد حُجِزَ وَفُصِلَ بينهم وبين ما يتمنون من قبول توبتهم، أو العفو عنهم ورجوعهم إلىٰ الدنيا ليؤمنوا، كما فُعِلَ بأمثالهم من الأمم السابقة الكافرة، لأنهم كانوا مثلهم في الدنيا في شك وريب من هذا الدين.

سورة فاطر

سورة فاطر مكيّة وآياتها خمس وأربعون آية.

[١] ابتدأت السورة بالثناء علىٰ الله الذي له الحمد كله، وهو جل وعلا حمد ذاته تعليمًا لعباده أنه هو المستحق للمحامد كلها، فالحمد المطلق والثناء التام لله خالق السماوات والأرض ومبدعهما علىٰ غير مثال سابق، وجاعل الملائكة رسلًا يرسلهم إلىٰ أنبيائه وإلىٰ من يشاء من عباده، وخالقهم علىٰ صفات مختلفة عجيبة؛ فمنهم من خلقه بجناح واحد، ومنهم من خلقه بجناحين، ومنهم من خلقه بثلاثة أجنحة، ومنهم من خلقه بأربعة أجنحة، يزيد جل وعلا في خلقه ما يشاء، إنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٢] واعلموا أن ما يمنحه جل وعلا لعباده من نعمه التي لا تعد ولا تحصىٰ؛ لا يقدر أحد علىٰ إمساكها ومنعها، وكذلك ما يمنعه ويحبسه سبحانه عن عباده من النعم لا يستطيع أحد جلبها وإرسالها لهم، وهو جل في علاه العزيز الذي لا يغلبه غالب، الحكيم الذي يضع الأمور في مكانها بحسب الحكمة والمصلحة التي يراها سبحانه.

[٣] يا أيها الناس تذكروا نعم الله العظيمة عليكم، بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، واستديموا علىٰ ذكرها وحفظها بالشكر والثناء والطاعة، وأداء ما عليها من الحقوق كالزكاة وغير ذلك، واعلموا أنه لا خالق غير الله تعالىٰ يرزقكم من السماء بالمطر وغيره، ومن الأرض بالزروع والثمار وغيرها، فلا إله مستحق للعبادة والطاعة إلا الله جل في علاه؛ لأنه هو الخالق لكل شيء، وما دام الأمر كذلك فكيف تصرفون العبادة لغيره وتشركون به سبحانه؟!.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ
اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ
الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا
إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ
يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ
﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ
وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

[٤] يقول جل وعلا مسلِّيًا نبيه محمدًا ﷺ: وإن كذبك المشركون من قومك يانبي الله فيما دعوتهم إليه من الحق والنور المبين؛ فلا تحزن لتكذيبهم، واصبر حتىٰ يأتي نصر الله، واقتدِ بإخوانك الأنبياء من قبلك الذين كذَّبتهم أقوامهم فصبروا حتىٰ أتاهم نصر الله، واعلم أن جميع الخلق مرجعهم إلىٰ الله وحده، وسيجازي سبحانه كلًّا بما يستحق.

[٥] يا أيها الناس اعلموا أن وعد الله بالبعث والجزاء حق ثابت؛ فلا تخدعنَّكم الحياة الدنيا بما فيها من المتع والللذائذ العاجلة فتصرفكم الشهوات عن العبادة التي خلقتم لها وكلفتم بها، ولا يخدعنكم أيها الناس عن طاعة الله وعبادته الغرور، أي: الشيطان، فيصرفكم عن طاعته، وعن كل ما هو خير وبر لكم.

[٦] واعلموا أن الشيطان لكم عدوٌّ حقيقي، بالغ العداوة ظاهرها، فكونوا علىٰ حذرٍ دائم منه، ولتكن عداوتكم له علىٰ بالكم، واعصوه، ولا تطيعوا أمره، واعلموا أن غايته ومقصوده من إغوائكم أن تكونوا معه من أصحاب النار المستعرة الموقَدة.

[٧] واعلموا أيها الناس أن الذين كفروا بالله وكذبوا رسله؛ أعدَّ الله لهم عذابًا شديدًا في الآخرة، وأمَّا الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله ﷺ، وعملوا الأعمال الصالحة؛ فأولئك سيغفر الله لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، ولهم من الله أجرٌ كبير، وهو الخلود في جنات النعيم.

[٨] يخبر جل وعلا بالفرق الكبير بين أهل الإيمان والطاعة، وأهل الكفر والمعاصي؛ فقال سبحانه: أفمن زيِّن الشيطان له عمله السيِّئ فرآه حسنًا، أيستوي بمن يرىٰ الحق حقًّا والباطل باطلًا؟!، فلا شك أنهما لا يستويان، والله سبحانه يضل من يشاء بعدله وحكمته، ممَّن يصر علىٰ الكفر والضلال، ويهدي ويوفق من يشاء بفضله ورحمته، ممَّن اختار الهدىٰ، فإذا كان الأمر كذلك يانبي الله فامض في دعوتك وتبليغ رسالة ربك، ولا تقتل نفسك همًّا وغمًّا وحسرةً علىٰ من آثر الضلال علىٰ الهدىٰ، والشركَ علىٰ التوحيد، واعلموا أن الله عليمٌ بما يصنع هؤلاء الجاهلون، لا يخفىٰ عليه سبحانه من أمرهم شيء، وسيجازيهم علىٰ أعمالهم.

[٩] واعلموا أيها الناس بأن الله وحده هو الذي يرسل الرياح ويُجريها، فتحرِّك السحاب وتجمع بعضه إلىٰ بعض، فيُسيِّره الله إلىٰ بلدٍ ميت لا نبات فيه ولا زرع، فيأمر الله المطر أن ينزل عل ذلك البلد؛ فيحيا بالمطر، فتنبت الأرض وتخضرّ بعد يُبسها وقحطها، كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم، ويبعثهم للجزاء والحساب؛ كما أحيا هذه الأرض بعد موتها.

[١٠] يخبر جل وعلا أن من كان يريد العزة في الدارين فعليه بطاعة الله والاعتماد عليه وحده، فإن العزة لله جميعًا، فمن اعتز بالله أعزه الله، ومن اعتز بمخلوق أذله الله وأخزاه، ثم بين سبحانه أن كل كلام طيب من ذكر ودعاءٍ وتلاوة قرآن ونحو ذلك يرفع إليه، فيقبله ويجازي أصحابه عليه جزاء حسنًا، وأن كل عمل صالح يرفعه الله إليه ويقبله منهم ويكافئهم عليه، وقد قيل إن الكلم الطيب المذكور في هذه الآية هو: الشهادتان، يرفعهما العمل الصالح ويصدقهما، يعني: أن الشهادتين لا تكفيان بدون عمل صالح إذا كان ممكنًا، وقيل: إن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة؛ فإذا لم يكن له عمل صالح لم يرفع له قول إلىٰ الله تعالىٰ، ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الذين يمكرون السيئات من المشركين والمنافقين ومن علىٰ شاكلتهم؛ لهم عذاب شديد من الله، وإن مكرهم الذي مكروه سوف يكون مصيره إلىٰ الفساد والخسران.

[١١] واعلموا أيها الناس أن الله جل وعلا هو الذي ابتدأ خلق أبيكم آدم عليه السلام من تراب، ثم جعل ذريته يتناسلون من ماء مهين، وهو الماء الذي ينزل من ذكر الرجل ويصب في رحم الأنثىٰ بعد الجماع، ثم خلق سبحانه من هذا الماء الناس جميعًا رجالًا ونساءً، واعلموا أن كل أنثىٰ لا تحمل ولا تضع حملها إلا بإذن الله وحده، وما يطول عُمر أحدٍ من الخلق فيصبح هرمًا، ولا يُنقص من عُمره فيموت وهو صغير أو شاب إلا وهو مسجَّل في اللوح المحفوظ، لا يُزاد فيما كتب الله ولا يُنقص، واعلموا أن خلقكم وعلم أحوالكم وكتابتها كل ذلك سهل يسير عليه جل في علاه.

والعمر المذكور في هذه الآية يشمل: الأجل الطبيعي، والأجل الاخترامي الذي يحصل بسبب الأوبئة والحروب، أو الذي يزاد بسبب البر وصلة الرحم، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سره أن يُبسَط له في رزقه، ويُنسأَ له في أثَره؛ فليصل رحمه**»[1]، وكلا الأجلين مسجل في اللوح المحفوظ.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٩٣).

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

[١٢] يخبر جل وعلا أن ماء النهر وماء البحر لا يستويان؛ فماء النهر عذب مستساغ لذيذ شديد الحلاوة، وأما ماء البحر فماء مالح شديد الملوحة لا يستسيغ أحد شربه، ومع ذلك فأنتم تستخرجون من كل منهما سمكًا طريًّا شَهِيَّ الطعم، وتستخرجون منهما زينة تنتفعون بها وتلبسها نساؤكم مثل اللؤلؤ والمرجان وغيرها، وترون بأعينكم السفن وهي تشق الماء وتسير فيه بسرعة من مكان إلىٰ مكان؛ حيث سخرها سبحانه لمنفعتكم ولتطلبوا أرزاقكم، ولعلكم تشكرونه جل في علاه علىٰ هذه النعم التي أنعم بها عليكم.

وأطلق سبحانه علىٰ النهر هنا بحرًا تغليبًا، كما يقال للشمس والقمر: القمران. وقالوا: من رحمة الله وحكمته أنه جعل البحر مالحًا؛ لأنه لو كان عذبًا لَآسَنَ وأَنْتَنَ، وجعل النهر عذبًا؛ لأن الماء جارٍ ومتجدد فيه. هكذا اقتضت حكمة الله التي أراد منها مصالح البشر.

ويستفاد من هذه الآية: كما أن ماء البحر وماء النهر لا يستويان؛ فكذلك المؤمن والكافر والبر والفاجر لا يستويان.

[١٣] ثم أخبر جل وعلا أن من مظاهر فضله علىٰ عباده أنه خلق الليل والنهار بنظام بديع؛ وأنه يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، وأنه جعلهما متعاقبين، ومن مظاهر فضله: أنه ذلل الشمس والقمر فجعل كلًّا منهما يسير وفق نظام دقيق ليقضي العباد مصالحهم، ويستمر ذلك السير إلىٰ الأجل والوقت الذي حدده الله، واعلموا أن الذي فعل هذا هو الله ربكم العظيم الذي له الملك والسلطان، وأما أولئك الذين تعبدونهم من دون الله فما يملكون من قطمير، وهو الغطاء الرقيق الذي يغطي نواه التمر، ولا يستفاد منه، أي: أن عبادتهم لا تفيدهم شيئًا؛ بل تضرهم.

[١٤] واعلموا أيها الناس أن هذه الآلهة المزعومة التي تدعونها من دون الله لن تسمعكم، ولو سمعتكم – علىٰ سبيل الفرض –؛ فلن تستجيب لكم، ولن تُعطيكم سؤْلَكم بأن تنجيكم من عذاب الله؛ بل إنها يوم القيامة تتبرأ منكم ومن شرككم، واعلموا أنه لن يخبركم أحدٌ أصدقَ ولا أعلَمَ من الله الخبير الذي لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

[١٥] واعلموا أيها الناس أنكم أنتم المحتاجون إلىٰ الله في كل شئون حياتكم الدنيوية والأخروية، والله وحده هو الغني عن جميع مخلوقاته، المحمود علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ في جميع الأوقات والأحوال؛ فله جل في علاه الحمد والشكر علىٰ كل حال.

[١٦] واعلموا أيها الناس لو أراد الله أن يذهبكم ويخلفكم بآخرين يعبدونه لا يشركون به شيئًا؛ لفعل.

[١٧] ثم بين سبحانه أن عملية تغيير الخلق ليس بممتنع عنه سبحانه؛ بل ذلك سهل يسير عليه؛ فهو علىٰ كل شيء قدير. وهذا دليل ومظهر من مظاهر غناه جل وعلا عن الناس.

[١٨] ثم أخبر جل وعلا أن كل نفس تتحمل نتائج أعمالها وحدها، وأنها لا تحملُ إثم وخطايا نفسٍ أخرىٰ، وإن تسأل نفسٌ محملةٌ بالذنوب من يحمل عنها شيئًا من الآثام والخطايا لم تجد من يستجيب لها، ولو كانت قريبة في النسب من النفس المثقلة بالذنوب، واعلم يانبي الله أن وعظك وإنذارك إنما ينفع أولئك الذين يخافون الله ويخشونه في السر والعلانية، والذين يقيمون الصلاة ويحافظون عليها في أوقاتها بأركانها وواجباتها وسننها، ولم تُشغلهم الدنيا عن إقامتها، ومن تطهَّر لله بالتوحيد وترك الذنوب والمعاصي؛ فإن نفع ذلك عائدٌ عليه، وثواب ذلك صائرٌ إليه، وإلىٰ الله وحده مرجع جميع الناس ومآلهم، فيجازي كل نفس بما كسبت، ويحاسبها علىٰ ما قدَّمت.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

[١٩] ثم ساق جل وعلا بعض الأمثلة لبيان الفرق الكبير بين المؤمن والكافر؛ فقال سبحانه: واعلموا أيها الناس أنه لا يستوي الأعمىٰ الذي لا يرىٰ الأشياء، مع البصير الذي يراها، فكذلك لا يستوىٰ المؤمن والكافر.

[٢٠] وكذلك أخبر سبحانه أنه لا يمكن المساواة بين الظلمات والنور، وهكذا لا يمكن المساواة بين الإيمان والكفر.

[٢١] وكذلك أخبر سبحانه أنه لا يستوي المكان الظليل البارد الذي لا أذىٰ فيه بالمكان الشديد الحرارة المؤذي، وهكذا لا يستوىٰ أصحاب الجنة وأصحاب النار.

[٢٢] وكما أنه لا مساواة بين هذه الأشياء التي ذكرها جل في علاه؛ فإنه لا مساواة بين الأحياء وهم المؤمنون والأموات وهم الكفار - أموات القلوب -، ثم بين سبحانه أنه قادر أن يُسمع سماعَ قبولٍ واستجابةٍ من يشاء من عباده، ويشرح صدره لذلك، أما أنت يانبي الله فإنك لا تستطيع أن تُسمع من مات قلبه سماع فهم واستجابة الذي هو أشبه بالميت في قبره.

[٢٣] ثم قال عز وجل لنبيه ﷺ: وما أنت يانبي الله إلا نذير، تنذر الناس وتبلغهم دين الله، ولم نكلفك هدايتهم؛ فإن ذلك بيد الله وحده جل في علاه.

[٢٤] وقال سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ أيضًا: إن الله بعثك يانبي الله بالتوحيد والدين الحق، تبشر من آمن بالله واتبعك، وتحذر وتنذر من كفر بالله وكذّبك، وما من أمة من الأمم السابقة إلا أرسل الله فيها نذيرًا يأمرهم بعبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه.

[٢٥] ثم يسلي جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ فيقول له: وإن يكذبك هؤلاء المشركون يانبي الله فقد كذب الذين من قبلهم أنبياءهم ورسلَهم، بعد أن جاءوهم بالآيات الواضحات، والدلالات الظاهرات علىٰ صحة ما جاؤوا به، فبعد أن جاءتهم رسلهم بالكتب المنزلة من عند الله جل في علاه كذبوهم.

[٢٦] يخبر جل وعلا أنه أهلك الذين كذبوا رسلهم بما جاؤوهم به، فانظر يانبي الله كيف كانت عقوبة الله لهم؟!، وكيف كان تدمير الله إيّاهم؟! لقد كانت عقوبةً عظيمةً استأصلتهم عن آخرهم.

[٢٧] ثم يخبر جل وعلا عن كمال قدرته، فيقول سبحانه: لقد علمت أيها الإنسان أن الله أنزل من السماء ماء فسقىٰ به أشجارًا؛ فأخرج من تلك الأشجار ثمرات مختلفًا ألوانها، مع أنها في روضة واحدة وتسقىٰ بماء واحد، وجعل سبحانه الجبال أوتادًا للأرض، وجعلها ذات ألوان مختلفة؛ وجعل فيها معادن مختلفة مما يدل علىٰ عظيم قدرة الله سبحانه وتعالىٰ وبديع صنعه؛ فسبحان من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، الخلاق المبدع الذي أحسن كل شيء خلقه، وهذه الآية والتي بعدها تدل علىٰ قدرة الله عز وجل في خلق المتضادات المتنوعات من شيء واحد.

[٢٨] ثم بين جل وعلا أن اختلاف الألوان ليس مقصورًا علىٰ الثمار والجبال، بل أيضًا موجود في البشر، فهو سبحانه خلق آدم عليه السلام وزوجه حواء، ثم خلق منهما ومن ذريتهما الأحمر والأبيض والأصفر والأسود، وخلق الدواب والأنعام وجعلها أصنافًا وأنواعًا مختلفة في ألوانها، ومع ذلك ترىٰ أكثر الناس سادرين غافلين عما خلقوا له، وإنما يخشىٰ اللهَ منهم العلماءُ الذين عرفوا أنهم لم يخلقوا سدىٰ، وأنهم مسئولون عن تصرفاتهم، وليس المقصود علماء الشريعة فقط؛ بل كل العلماء المعتبرين والمفكرين من علماء الكون والطب وغير ذلك الذين لهم معرفة وعلم، واعلموا أن الله عزيز قوي لا يعجزه شيء، غفور لمن تاب من عباده.

[٢٩] ثم مدح جل وعلا أهل القرآن والصلاة والصدقة فقال: إن الذين يقرؤون القرآن، ويعملون بما فيه، ويمتثلون أمره، ويجتنبون نهيَه، وصدقوا إيمانهم بأن أقاموا الصلاة وداوموا عليها بأركانها وواجباتها ومستحباتها، وتصدقوا من أموالهم التي أعطاهم الله إياها في السر وفي العلن؛ فمن كانت هذه صفاتهم؛ فأولئك يرجون وينتظرون تجارةً رابحةً لا خسارة فيها ولا هلاك.

[٣٠] وهؤلاء فعلوا ما فعلوا من هذه الأعمال ليوفيهم اللهُ الكريمُ أجورَ أعمالهم كاملةً موفورةً غير منقوصة؛ بل يزيدهم الله في الثواب زيادة عن أجورهم، تكرما من وتفضّلًا، إنه سبحانه كثير المغفرة لمن استغفر وتاب، وهو سبحانه شَكُورٌ لطاعة عباده مع غناه عنها سبحانه وتعالىٰ.

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

[٣١] يخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن هذا القرآن الذي أنزله الله إليك هو الحقُّ الذي لا شك في أنه من عند الله، وهو مصدّقٌ وموافقٌ لما تقدمه من الكتب السابقة المنزلة من عند الله، ثم بين سبحانه أنه بعباده لخبيرٌ، وأنه بصيرٌ بهم وبنياتهم وأقوالهم وأعمالهم، وسيجازيهم علىٰ جميع أعمالهم.

[٣٢] ثم أخبر جل في علاه أن هذا القرآن الذي أنزله علىٰ نبيه محمد ﷺ ميراثًا منه ﷺ لأمته التي اصطفاها من بين سائر الأمم، ثم بين سبحانه أن تمسك الناس بهذا القرآن علىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: الظالم لنفسه: وهو المقتصر علىٰ القيام ببعض التكاليف، وقد خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، وزادت سيئاته علىٰ حسناته.

والثاني: المقتصد: وهو الذي يعمل بالكتاب والسنة، ولا يسلم من الأخطاء، وقد تساوت حسناته مع سيئاته.

والثالث: السابق بالخيرات: وهو المتقدم علىٰ غيره، المحرز للفضل، المُطَبِّقُ للتعاليم الربانية، وقد زادت حسناته علىٰ سيئاته.

واعلموا أيها الناس أن ذلك الإعطاء للقرآن واصطفاء هذه الأمة علىٰ سائر الأمم هو الفضل الكبير.

وبدأ سبحانه في هذه الآية بالظالم لنفسه قالوا: لكثرة الجهال والفساق.

قال جعفر الصادق: (بدأ بالظالم إخبارًا أنه لا يتقرب إليه إلا بكرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفاء)[1]. وقال أبو الليث: (بدأ بالظالم لكي لا يعجب السابق بنفسه، ولكي لا ييأس الظالم من رحمة الله)[2]. وليس المقصود بالظالم هنا: المشرك؛ لأن المشرك ظلمه عظيم مخرج من الملة، أما هذا فأمره إلىٰ الله، إن شاء غفر له، وإن شاء طهره بالنار ثم أخرجه إلىٰ الجنة.

[٣٣] ثم أخبر جل وعلا أن أصحاب هذه الأقسام: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات؛ لهم جنات إقامة دائمةٍ يُدخلهم الله فيها، لا يخرجون منها أبدًا، يلبسون فيها الحلي والأساور علىٰ أيديهم من الذهب واللؤلؤ، ويلبسون علىٰ أجسادهم الحرير من سندس وإستبرق أخضر، كل ذلك بفضل الله ورحمته، وربما كان دخول العصاة للجنة بعد التطهير؛ إن لم يكن قد شملهم الله برحمته عند الحساب.

[٣٤] ثم يقول هؤلاء الفائزون بعد دخولهم الجنات: الحمد لله الذي أذهب عنا كل ما يحزننا من أمور الدنيا والآخرة، إن ربنا بفضله وكرمه لواسع المغفرة؛ حيث غفر لنا زلاتنا، وقبل منا حسناتنا وضاعفها لنا.

[٣٥] ويقولون أيضًا: والحمد لله الذي أنزلنا دار الجنة من فضله وكرمه لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ولا فتور.

والفرق بين النصب واللغوب، أن النصب: هو المشقة والكلفة، أما اللغوب: فهو الفتور فقط.

[٣٦] وأما أولئك الذين كفروا، فقد أعدَّ الله لهم نار جهنم، يعذبون فيها عذابًا شديدًا لا ينتهي، وهم في هذا العذاب، لا يقضي الله عليهم بالموت، فيستريحوا من العذاب، ولا يخفف الله عنهم شدة عذاب وحر جهنم، وهذا الجزاء جعله الله جزاءً لكل مبالغٍ في الكفر، مكذب بالله ورسله.

[٣٧] وهؤلاء الكفار وهم في النار يصرخون صراخًا شديدًا، ويستغيثون ويصيحون قائلين: ربنا أخرجنا من النار، وأرجعنا للدنيا؛ نؤمن بك ونوحدك، ونعمل الأعمال الصالحة، فيجيبهم الله جل في علاه موبّخًا ومبكتًا إياهم: أولم نعمركم في الحياة الدنيا عمْرًا يستطيع من أراد التذكر أن يعمل، وأنْ يستزيد من الصالحات؟! وقد جاءتكم رسلنا ينذرونكم ويحذرونكم هذا المصير؛ فكذبتموهم ولم تطيعوهم؟! فامكثوا في نار جهنم تقاسون حرَّها، وتذوقون عذابها، واعلموا أنه ليس للظالمين المتجاوزين حدودهم بالشرك والتكذيب من نصيرٍ ينصرهم، ويدفع عنهم ما هم فيه.

[٣٨] ثم يخبر جل وعلا أنه عالمٌ بكل أمرٍ خفيٍّ في السماوات والأرض، وأنه سبحانه عليمٌ بما في صدور العباد ونياتهم.

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٦/ ٢٢٤)، وابن عادل في تفسير الألباب (١٦/ ١٣٩).

(٢) ذكره الشنقيطي في العذب النمير (٢/ ٣٧) ولم ينسبه.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

[٣٩] واعلموا أيها الناس أن الله هو الذي جعلكم مستخلفين تخلفون من سبقكم من الأمم، أي: يخلف بعضكم بعضًا لعبادة الله، وعمارة الأرض، واستخراج معادنها وثمارها؛ لتشكروه جل وعلا علىٰ نعمه، وتعملوا فيها بطاعته؛ فمن جحد وكفر بالله وكفر بنعمه فإن وبال كفره سوف يرجع عليه، ولا يضر الله شيئًا، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا بغضًا وغضبًا شديدًا، ولا يزيدهم إصراهم علىٰ كفرهم إلا ضلالًا وهلاكًا في الدنيا والآخرة.

[٤٠] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: أخبروني عن هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله، وأروني أي شيء خلقوه في الأرض وأوجدوه من العدم؟! أم أن هذه الآلهة المزعومة قد شاركت في خلق السماوات؟! أم أعطينا هؤلاء المشركين كتابًا فيه ما يوافق أهواءهم، ويدعم شركهم، فهم يقرؤون منه ويحتجون بما فيه؟! بل ما يعد الكافرون بعضهم بعضًا إلا غرورًا وخداعًا.

[٤١] يخبر جل وعلا أن من مظاهر قدرته وحكمته أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا عن مكانهما، ولئن زالتا – علىٰ سبيل الفرض – فلن يستطيع أحد كائنًا من كان أن يمسكهما غيره جل في علاه، إنه سبحانه كان حليمًا بعباده، غفورًا لمن تاب وأناب ورجع إليه.

[٤٢] وأقسم كفار قريش بأيمان مغلظة قائلين: لئن جاءنا رسول من عند الله يبين لنا الإيمان بالله، ويدعونا إلىٰ التوحيد، ويخوفنا من عقاب الله وغضبه علىٰ الكافرين؛ لنكونن أكثر هداية واتباعًا للحق من اليهود والنصارىٰ وغيرهم، فلما جاءهم محمد ﷺ وهو أفضل الرسل رفضوه وكذبوه ولم يؤمنوا به؛ بل ازدادوا بُعْدًا ونفورًا عن الحق.

[٤٣] ثم بين جل وعلا أن إقسامهم لم يكن لقَصْد حسن، وإنما كان استكبارًا علىٰ الخلق، ومن أجل المكر السيِّئ والخداع والباطل؛ فعليهم أن يعلموا أن المكر السيِّئ لا يحيق إلا بأهله الماكرين، فهل ينتظر المستكبرون الماكرون إلا العذاب الذي نزل بأمثالهم الذين سبقوهم؟، ولن تجد لسنة الله وطريقته في خلقه تبديلًا ولا تحويلًا عما سارت عليه.

[٤٤] ثم بين جل وعلا ما يدل علىٰ أن سنته لا تتغير لا تتبدل ولا تتحول، فقال: أولم يسِرْ قومك يامحمد في الأرض بعقولهم وأبدانهم، وينظروا ويتفكروا في حال الأمم السابقة وما حلَّ بهم؟ وكيف كانت نهايتهم لما كذبوا الرسل؟!، وقد كانوا أشد من أهل مكة قوةً، وأموالًا وأولادًا، وكانوا أقدر منهم علىٰ إعمار الأرض؟!، وما كان ليسبق الله أو يفوته شيء من الأشياء في السماوات ولا في الأرض، إنه سبحانه كان عليمًا بالعباد وأحوالهم، ونياتهم، وأقوالهم، وأعمالهم، وهو سبحانه قديرٌ علىٰ إهلاك من كفر به وجحد رسله، وهو سبحانه علىٰ كل شيء قدير.



وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

سُورَةُ يسٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

[٤٥] ثم ختم جل وعلا السورة ببيان أن رحمته ولطفه بعبادة اقتضت عدم استئصالهم؛ فأخبر سبحانه أنه لو عاقب الناس بما اقترفوا من الذنوب والمعاصي ما ترك علىٰ ظهر الأرض من دابة تدب عليها، ولكن يمهلهم ويؤخر عقابهم إلىٰ وقت معلوم عنده لحكم عظيمة؛ فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرًا؛ فيعفو عمن يستحق العفو، ويعاقب من يستحق العقوبة.

سورة يس

سورة يس مكيّة وآياتها ثلاث وثمانون آية. وقد نُقِلَ عن الغزالي أنه قال: سُمِّيت (يس): بقلب القرآن؛ لأن صحة الإيمان تكون بالاعتراف بالحشر والنشر، وهذا مثبت في هذه السورة بأكمل وجه؛ فقد جمعت هذه السورة الوحدانية والرسالة والحشر.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. قال بعض المفسرين: ﴿يسٓ﴾ اسم للسورة، وقال ابن عباس: إن معناها ياإنسان ببعض اللهجات العربية، وقال ابن الحنفية: هو اسم لمحمد ﷺ بدليل قوله بعدها: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. [٢-٣-٤] بدأت السورة بإقسام الله بهذا القرآن العظيم المحكم بما فيه من التوجيهات والتشريعات والآداب الحميدة. وبحق هذا القرآن فإنك يانبي الله من عباد الله المرسلين. وإنك من الثابتين علىٰ طريق واضح قويم، وهو الإسلام، وهذه شهادة من الله أن محمدًا ﷺ علىٰ شِرْعة قيِّمة. [٥-٦] وهذا القرآن يانبي الله تنزيل من الله العزيز الذي لا يغالبه أحد، الرحيم بعباده التائبين؛ لكي تحذر قومك من قريش خصوصًا والعرب عمومًا الذين لم يسبق لهم ولا لآبائهم أن جاءهم نذير من الله يحذرهم من سوء عاقبة الشرك بالله، ولذا فهم في غفلة بسبب انقطاع الرسل عنهم. [٧] ثم بين سبحانه أن العذاب وجب علىٰ أكثر هؤلاء المشركين من قومه ﷺ، بعد إصراهم علىٰ الكفر والشرك بالله، فهم لا يؤمنون بما جاء به من الآيات الواضحات التي تدل علىٰ صدق رسالته ونبوته. وهذا القول الذي حق عليهم ليس ابتداءً، وإنما كان جزاء علىٰ إصرارهم علىٰ الكفر وتعذيب المؤمنين.

[٨] ثم وصف جل وعلا حال هؤلاء الكفار الذين أصرُّوا علىٰ كفرهم، فأخبر أن حالهم كحال من شدت أيديهم بسلاسل عظيمة وربطت تحت أعناقهم؛ فاضطروا إلىٰ رفع رؤوسهم إلىٰ السماء؛ فهم مغلولون عن كل خير؛ فلا يبصرون الحق ولا يهتدون إليه. وهذا الوصف يكون معنويًّا في الدنيا حقيقيًّا في الآخرة، وربما يكون حقيقيًّا في الدارين.

[٩] ثم أضاف جل وعلا صورة أخرىٰ؛ فأخبر أن حال هؤلاء الكفار كحال من جُعل من أمامهم سدٌّ ومن ورائهم سدٌّ؛ فهم بمنزلة من سُدَّ طريقه من بين يديه ومن خلفه، فأعمىٰ سبحانه أبصارهم بسبب كفرهم واستكبارهم؛ فهم لا يبصرون رشدًا ولا يهتدون طريقًا، وليس ذلك ابتداءً، وإنما كان لإصرارهم علىٰ الكفر ومحاربة المؤمنين. وهذه الآية والتي قبلها وآية في سورة الإسراء رقم (٤٥)، تسمىٰ آيات الإخفاء، بمعنىٰ: أن الخائف من عدوٍّ إذا قرأها راجيًا من الله أن يُخْفيه عن العدو؛ فإن العدو يمر من عنده ولا يبصره، وحكىٰ الشيخ صالح بن حميد وهو يفسر في الحرم سورة الإسراء: أن أحد العلماء لما سقطت الأندلس هرب فلحقه فارس فلما قرب منه قرأ العالم آية الإسراء فمر الفارس من جنبه وقال أين اختفىٰ، هذا جني، وحكىٰ لي الدكتور شير صاحب مستشفىٰ أم القرىٰ: لما استولىٰ جهيمان علىٰ الحرم وجعل علىٰ الأبواب حرَّاسًا من عنده، قال الدكتور: كانت أمي في الحرم؛ فكنت أحضر لها وجبات الأكل، وكنت إذا قربت من الباب قرأت الآية التي في سورة يس فلا يراني الحارس، ومعلوم أن هذه الكرامة لا تحصل إلا للمؤمن المضطر.

[١٠] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الكفار يستوي عندهم تحذير النبي ﷺ وعدم تحذيره لهم، فهم لن يصدقوا بما جاء به أبدًا.

[١١] وبين سبحانه أن تحذيره ﷺ إنما ينفع أولئك الذين آمنوا بالقرآن، واتبعوا ما فيه من الأحكام والإرشادات، وخافوا الله بالغيب؛ فهؤلاء بشِّرهم يانبي الله بمغفرة عظيمة لذنوبهم، وثواب كريم في الآخرة علىٰ أعمالهم الصالحة، وأعظم ثواب يحصلون عليه هو دخول الجنة. [١٢] يعظم جل وعلا نفسه بضمير الجمع بقوله: ﴿إِنَّا﴾، وقوله: ﴿نَحْنُ﴾، للتأكيد أنه هو وحده القادر علىٰ إحياء الموتىٰ يوم القيامة، وإحصاء أعمالهم وآثارهم الصالحة والسيئة؛ ولا يستطيع ذلك إلا هو جل في علاه؛ ثم بين سبحانه أن كل شيء أحصاه ووثقه في كتاب موضح فيه الصغير والكبير من العمل، وهذا الكتاب هو صحائف كل شخص، وكل ذلك في اللوح المحفوظ.

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾

[١٣] أمر سبحانه نبيه محمدًا ﷺ أن يضرب لهؤلاء المشركين المكذبين من قومه مثلًا يعتبرون به، وهو قصة أصحاب القرية التي جاءها المرسلون الذين أرسلهم عيسىٰ عليه السلام لدعوة أهل هذه القرية إلىٰ التوحيد والإيمان، ويحذرهم من الشرك والكفران. وهذه القرية علىٰ المشهور من أقوال أهل العلم هي إنطاكية.

[١٤] ثم بين جل وعلا أنه أمر عيسىٰ عليه السلام أن يرسل إلىٰ أهل هذه القرية رسولين؛ لدعوتهم إلىٰ الإيمان والتوحيد، ولكنهم كذبوا الرسل وازدادوا ضلالًا وجحودًا؛ فعزز عيسىٰ الرسولين برسول ثالث، فقال الرسل الثلاثة لقومهم: ياقوم إنا أرسلنا إليكم ولم نرسل لأحد غيركم؛ فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة الأوثان.

[١٥] فقال أهل القرية للمرسلين علىٰ سبيل الاستنكار: ما أنتم إلا أناس مثلنا، وليس لكم علينا فضل؛ فنحن وأنتم سواء في البشرية، وما أنزل الرحمن شيئًا من الوحي، فأنتم تكذبون علينا وتفترون علىٰ الله عز وجل.

[١٦] فأجابتهم الرسل قائلين: إن الله ربنا هو الذي أرسلنا إليكم، وهو يعلم أنَّا مرسلون إليكم، ولو كنّا مفترين عليه سبحانه لبادرنا بالعقوبة.

[١٧] ثم قال هؤلاء المرسلون: واعلموا أن الله لم يكلفنا بهدايتكم، وإنما كلفنا بإبلاغكم البلاغ الواضح البين.

[١٨] فازداد أصحاب القرية غيًّا إلىٰ غيهم وضلالًا إلىٰ ضلالهم وهددوا الرسل الثلاثة، وقالوا لهم: لقد حصل لنا بقدومكم الشر، ونزلت علينا الآفات بسببكم؛ فإن لم تنتهوا عما تدعونا إليه؛ لنقتلنكم رميًا بالحجارة، ولنعذِّبنكم عذابًا أليمًا موجعًا.

[١٩] فقالت لهم رسلهم: إنما حصل لكم شؤمكم بسبب كفركم وتكذيبكم، أتسخرون منا وتهددونا بالقتل بسبب أنا ذكرناكم وأنذرناكم؟! إنكم لقومٌ معانِدون مجاوزون للحد في الكفر والتكذيب.

[٢٠] ولما انتشر خبر تهديد أهل القرية للرسل فإذا برجل يأتي من مكان بعيد عن القرية يسرع المشي، فقال علىٰ سبيل النصح والتوجيه لأهل القرية: ياقوم اتبعوا هؤلاء المرسلين الذين أرسلهم الله لدعوتكم وإنقاذكم من النار.

[٢١] وقال لهم هذا الناصح أيضًا: ويا قوم اتبعوا هؤلاء الذين لا يطلبون منكم أموالًا علىٰ إبلاغ الرسالة، واعلموا أنهم مهتدون فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له.

[٢٢] ثم قال لهم أيضًا: وأي سبب يمنعني من عبادة ربي الذي خلقني؟ وفي كلامه تذكير لهم معناه: وأنتم كذلك ما الذي يمنعكم من عبادة ربكم الذي خلقكم، وإليه ترجعون فيجازيكم ويحاسبكم علىٰ أعمالكم!!

[٢٣] ثم قال أيضًا: وهل أترك عبادة الله الذي خلقني، وأعبد من دونه آلهةً أخرىٰ لا تضر ولا تنفع؟! وإن أرادني الرحمن بضرٍّ فإن هذه الآلهة المزعومة لا تدفع عني شيئًا من هذا الضر، ولا تنفعني بوجه من وجوه المنافع، ولا ينقذوني من عذاب الله إن أنا أشركتُ به ودعوتهم من دون الله.

[٢٤] ثم قال أيضًا: ولو أني فعلت ذلك فإني إذًا لفي غوايةٍ وبعدٍ عن الحق، وفي ضلالٍ بينٍ واضح.

[٢٥] ثم قال أيضًا: واعلموا ياقوم أنني آمنت بربكم فاستمعوا إلىٰ قولي وأطيعوني فيما دعوتكم إليه من الإيمان. فلما أعلن إيمانه تجمعوا عليه وضربوه ورفسوه بأقدامهم حتىٰ هلك وقتل.

[٢٦] فلما قتل وفارق الحياه جازاه الله إكرامًا له علىٰ إيمانه بأن أدخله الجنة؛ فلما رأىٰ الجنة وما فيها من النعيم المقيم قال: ياليت قومي يعلمون.

[٢٧] ثم قال رحمه الله: ياليتهم يعلمون أن الله غفر لي ذنوبي ورحمني بتوحيده والإيمان به، وتصديق رُسُلِه، ثم جعلني من المكرَمين عنده، وياليتهم يعلمون بحالي، وبما أنا فيه من النعيم المقيم؛ فيؤمنون كإيماني وينجَوْن كنجاتي.

قال ابن عباس: (نصح قومه حيًّا وميتًا).

۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾

[٢٨] ثم أخبر جل وعلا أنه انتقم من قوم هذا الرجل الصالح بعد أن قتلوه، لأنهم كذبوا الرسل وقتلوا وليًّا من أوليائه الصالحين، وتحقيرًا لهم أخبر سبحانه أنه لم يحتج لإهلاكهم أن ينزل عليهم ملائكةً تهلكهم، فهم أقلُّ من ذلك، وما كان جل في علاه منزلاً للملائكة؛ إذْ لا حاجة تدعو لذلك.

[٢٩] ثم بين سبحانه أنه عاقب هؤلاء المجرمين بصيْحةٍ واحدةٍ؛ فإذا هم هلكىٰ وصرعىٰ لا صوت لهم ولا حراك؛ فحلت بهم العقوبة في الدنيا بالاستئصال، وفي الآخرة بالعذاب في النار.

[٣٠] وبعد أن بين جل في علاه نهاية هؤلاء المجرمين المؤلمة قال سبحانه علىٰ سبيل الاتعاظ والاعتبار بهؤلاء الهالكين: ياحسرة وياندامة تغمر المكذبين الجاحدين وتغشاهم في الدنيا عندما يحل بهم العقاب، ويوم القيامة عندما يرون العذاب ويعاينوه بأم أعينهم، وسبب ذلك أنهم كانوا يستهزؤون ويسخرون بكل رسول يأتيهم يرغبهم بطاعة الله ويحذرهم عقابه.

[٣١] ثم بكَّتهم جل وعلا وأنَّبهم، فقال: ألم يعتبر ويتعظ هؤلاء الكفار بأننا أهلكنا كثيرًا من الأمم السابقة التي عصت الرسل، وأصرت علىٰ الكفر؛ فحل بها عذاب الله وانتقامه، وقد علموا أن هؤلاء الذين أهلكهم الله لا يمكن لهم الرجوع إلىٰ الدنيا ليخبروهم بما حل بهم من عذاب ودمار؛ فقد قضت حكمة الله أنهم إليها لا يرجعون.

[٣٢] واعلموا أن جميع منْ أهلكنا من هذه الأمم، ومن غيرهم؛ لمجموعون وموقوفون بين يدي الله يوم القيامة للجزاء والحساب.

[٣٣] ومن العلامات الواضحة لهؤلاء المكذبين التي تدل علىٰ قدرتنا علىٰ إحياء الموتىٰ؛ هذه الأرض الميتة التي إذا أنزلنا عليها الماء فإنها تحيا به وتخرج زرعها، وتخرج حبًّا يأكل منه الناس؛ فالذي أحيا هذه الأرض بعد موتها قادرٌ علىٰ أن يبعثكم بعد موتكم.

[٣٤] ثم جعل سبحانه في تلك الأرض بعد نزول المطر عليها: جنات كثيرة من النخيل وأشجار العنب، وفجر فيها عيون الماء التي يُنتفع بها في الشرب والسقي.

[٣٥] ثم بين جل شأنه أنه خلق هذه الجنات من النخيل والأعناب وعيون الماء ليأكل الناس من ثمارها التي لم تخلقها أيديهم؛ بل خلقها الله سبحانه وتعالىٰ، وما دام الأمر كذلك فالواجب عليهم شكر هذه النعم العظيمة والآلاء الجسيمة.

[٣٦] ثم أثنىٰ جل وعلا علىٰ ذاته بما هو أهل له؛ فتنزه وتقدس سبحانه الذي خلق المخلوقات كلها، وخلق من كل شيء نوعين متناسبين يكمل أحدهما الآخر؛ فخلق من كل ما تنبت الأرض من الأشجار والنباتات صنفين يلقح بعضهم بعضًا، وخلق من البشر زوجين الذكر والأنثىٰ، وخلق سبحانه أصنافًا وأزواجًا كثيرة لا يعلمها الناس ولم يطلعوا عليها.

[٣٧] ثم بين جل وعلا آيةً وعلامة أخرىٰ للناس تدل علىٰ وحدانية الله وقدرته علىٰ البعث: ألا وهي هذا الليل الذي يفصل منه النهار المضيء وينزعه منه؛ فإذا الظلام قد عمَّ الكون وغطَّاه؛ فسبحان الله الذي خلق الأزواج كلها مما نعلم ومما لا نعلم.

[٣٨] ومن الآيات أيضًا: هذه الشمس التي تجري وفق نظام محكَم، ومَسَارٍ محَدَّد لا تتعداه ولا تتجاوزه؛ واعلموا أن ذلكً تقدير العزيز الغالب الذي قهر كل شيء، العليم بما يصلح شؤون عباده وأحوالهم حتىٰ مستقر الشمس النهائي يوم القيامة.

[٣٩] ومن الآيات أيضًا: هذا القمر الذي جعل الله له منازل متعددة؛ فينزل كل ليلة في منزلة لا يتعداها ولا يتجاوزها، فيبدأُ هلالًا ثم يكبر فيصير بدرًا، ثم يرجع مرةً أخرىٰ هلالًا دقيقًا نحيفًا، يشبه الغصن الذي هو ساق طلع النخلة إذا يبس.

[٤٠] ثم بين سبحانه حال الشمس والقمر في الكون فقال: لا يصح للشمس أن تلحق بالقمر، ولا يصحُّ للَّيل أن يسبق النهار، فكل دائم سائر في مجراه ومساره الذي يجري ويسير فيه وفْق نظام دقيق رسمه لها، وكلٌّ من الشمس والقمر والليل والنهار في فَلَكٍ يجْرون ويترددون؛ فسبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض العلي العظيم.

[٤١] ومن العلامات الدالة علىٰ وحدانية الله وقدرته ورحمته بعباده: أنَّ الله جل في علاه نجَّىٰ ذرية آدم من الغرق وحملهم في سفينة نوح المملوءة بالأزواج من البشر ومن الحيوانات.

[٤٢] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق لمن بعدهم من ذرية آدم مثل هذه السفينة يركبونها في البحار، وخلق لهم علىٰ الأرض الإبل والخيل والحمر والناقلات كالسيارات والطائرات وغيرها التي يركبونها وتوصلهم إلىٰ مرادهم.

[٤٣] ولو أراد جل وعلا أن يغرق من في هذه السفن؛ لأغرقهم ولن يجدوا أحدًا يستصرخونه أو يستغيثون به لينقذهم من الغرق.

[٤٤] ثم بين سبحانه أنهم لن يجدوا من ينقذهم سوىٰ رحمة الله ولطفه بهم وبحالهم، فليتمتعوا في حياتهم إلىٰ أن تنتهي آجالهم فلعلهم يؤمنون ويوحدون، ويستدركون ما فرطوا فيه.

[٤٥] وإذا قيل لهؤلاء المشركين: احذروا من عقوبات الدنيا، ومن أهوال الآخرة وعرصات القيامة؛ لعلكم ترحمون، فتنجون من هذه الأهوال؛ أعرضوا عن ذلك ولم يستجيبوا.

[٤٦] وما تأتي هؤلاء المشركين من آية من آيات الله تدل علىٰ وحدانيته، وتأمرهم باتباع رسوله ﷺ؛ إلا كانوا عنها معرضين، ولها مكذبين، وبها يستهزؤون.

[٤٧] وإذا قال أحد من المؤمنين لهؤلاء المشركين: أنفقوا علىٰ الفقراء والمحتاجين شيئًا مما أعطاكم الله من الخير والنعيم، قالوا سخرية واستهزاءً بالمؤمنين: أنطعم من لو شاء الله أطعمه؟! إن أنتم أيها المؤمنون إلا في ضلال مبين في أمركم وطلبكم منا الإنفاق علىٰ هؤلاء المحتاجين.

[٤٨] ويواصل هؤلاء الكافرون التهكم والاستهزاء بالدعاة فيقولون علىٰ سبيل التكذيب والاستنكار: متىٰ تقوم الساعة إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به؟!.

[٤٩] فأخبر جل وعلا أن الأمر سهل ويسير؛ فما هي إلا صيحة واحدة تأخذهم فجأة وهم يختصمون في أمور حياتهم. وهذه هي النفخة الأولىٰ والتي تسمىٰ نفخة الفزع والموت.

[٥٠] وبسبب هذه الصيحة التي جاءتهم فجأة فإنهم لا يستطيعون حينها أن يوصوا بشيء، ولا أن يتداركوا شيئًا، ولا يستطيعون الرجوع إلىٰ أهاليهم وأولادهم إذ الكل قد مات.

[٥١] فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور فإذا بالناس يخرجون من قبورهم سراعًا للوقوف بين يدي ربهم ليقضي فيهم بقضائه العادل.

وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾

[٥٢] وحينها يقول المكذبون بالبعث: ياحسرتنا، وياهلاكنا، من ذا الذي أخرجنا من قبورنا، وبعثنا؟! فيقال لهم: هذا هو البعث الذي وعدكم الله به، وكنتم تستهزؤون به وتستعجلونه، وهذا هو البعث الذي أخبركم عنه رسلنا الصادقون الذين كنتم لهم تكذبون.

[٥٣] ثم بين سبحانه أن بعثكم إخراجكم أيها الناس من قبوركم كان بصيحة ونفخة واحدة من إسرافيل؛ فإذا الجميع قائم ماثلٌ بين يدي الله جل في علاه للجزاء والحساب، وفي هذا دليل علىٰ سرعة حضورهم للحساب والجزاء دون أن يتخلف منهم أحد.

[٥٤] وفي هذا اليوم العظيم – يوم القيامة – يوم الجزاء والحساب لا تُظلَم نفسٌ شيئًا ولو كان صغيرًا، فلا ينقص من حسنات أحد ظلمًا، ولا يزاد في سيئات أحد ظلمًا، ولا يجازىٰ أحدٌ إلا بما عمل في الدنيا، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

[٥٥] يخبر جل وعلا أن أهل الجنة يوم القيامة مشغولون بنعيم الجنة، ملتذون به، يتمتعون بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

[٥٦] ثم أخبر سبحانه أن أهل الجنة ومن اتبعهم من أزواجهم في ظلال الجنة، يتنعمون معهم ويؤانسونهم، وهم متكؤون اتكاءً لكمال الراحة واللذة والطمأنينة.

[٥٧] ولهم في الجنة فاكهةٌ كثيرةٌ طيبةٌ لذيذةٌ، لا تنقطع عنهم أبدًا، ولا يُمنَعون من أكلها، ولهم في الجنة أيضًا كلّ ما يطلبونه ويتمنونه.

[٥٨] ثم ينعم جل وعلا علىٰ أهل الجنة بنعمة من أعظم ما يكون من نعيم أهل الجنة، وهي: النظر إلىٰ وجه الله الكريم، ثم إلقاء السلام عليهم من الله جل في علاه فيسلِّم الله عليهم، فيَسْلَمون من جميع الوجوه، ويتنعمون برضا الرب الرحيم عليهم.

[٥٩] أما المكذبون المجرمون فجزاؤهم يوم القيامة أن يقال لهم: تميزوا بأنفسكم وابتعدوا عن المؤمنين، ثم تدفعهم الملائكة إلىٰ النار.

[٦٠] ثم ذكَّر جل وعلا عباده بالوعد الذي أخذه عليهم فقال لهم - توبيخًا وتبكيتًا -: ألم آمركم وأوصيكم - يا بني آدم - ألا تعبدوا الشيطان، وألا تطيعوه، لأنه لكم عدو ظاهر العداوة، لا تخفىٰ ولا تنطلي عداوته علىٰ أحد.

[٦١] ثم قال سبحانه: ألم آمركم يا بني آدم بإفرادي بالعبودية؟ وأخبركم أن توحيدي واتباع رسلي هو الصراط الحق المستقيم الذي يوصل لرضاي، وإلىٰ جنة رب العالمين؟!.

[٦٢] ثم قال جل في علاه: ولكنكم أيها الكفرة لم تطيعوا أمري، ولم تعملوا بتحذيري إياكم من الشيطان، ولم تتخذوه عدوًّا لكم، فكان أنْ أضل كثيرًا منكم عن صراط الله المستقيم، ألم تكن لكم يامن كفرتم بآيات الله عقولٌ تعرفون بها عداوة الشيطان لكم فتهديكم لمخالفته، واتباع أمر الله ورُسُلِه؟!!.

[٦٣-٦٤] وبعد هذا التوبيخ يقال لهؤلاء المكذبين: فهذه نار جهنم التي كنتم توعدون بها إن كذبتم رسلي، واتبعتم شياطينكم وأهواءكم. ادخلوها اليوم وقاسوا حرَّها وعذابها، جزاءً لكم علىٰ كفركم وجحودكم وتكذيبكم أنبياء الله ورسله.

[٦٥] ثم أخبر جل وعلا بما يحصل للمشركين يوم القيامة حيث يغلق أفواههم ويسكتها فلا يستطيعون الكلام بها، وذلك حين ينكرون ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ثم يجعل أيديهم وأرجلهم تنطق بالكلام فتشهد عليهم، وتتكلم بما كانوا يعملون.

[٦٦] ولو شاء جل وعلا لطمس علىٰ أعين هؤلاء الكفار المكذبين فيعميها؛ فإذا أرادوا أن يبادروا طريقهم إلىٰ الصراط ليجتازوه إلىٰ الجنة لم يهتدوا إليه، لأنهم لا يبصرون الطريق فقد عميت أبصارهم؟!

[٦٧] ولو شاء جل وعلا لمسخ حركة هؤلاء المجرمين المكذبين وأوقفها؛ فلا يستطيعون التحرّك إلىٰ الأمام، ولا الرجوع إلىٰ الخلف، ولن تحصل النجاة لهم، وإنما يُكردسون في نار جهنم. نسأل الله السلامة والعافية.

[٦٨] ثم ذكَّر جل وعلا أن من سنته في الخلق أن من يُعمَّر من بني آدم يرجع - في حال كبر سنه وهرمه - إلىٰ حال الضعف الذي بدأ منه، فتضعف قوته، ويضعف جسده، ويضعف عقله، فيامن رفضتم الهدىٰ أليست لكم عقولٌ تتفكرون بها في هذه الحالة؟! أليست لكم عقولٌ تدركون بها أن من خَلَقَ الإنسان وفعل به هذا قادرٌ علىٰ بعثه بعد موته؟!!

[٦٩] ثم نفىٰ جل وعلا عن المصطفىٰ ﷺ أن يكون شاعرًا، ولم يمكنه سبحانه من تعلم الشعر؛ بل أخبر أنه لا ينبغي له أن يكون شاعرًا، وأنه ﷺ بُعث ليحمل النور والهدىٰ الإلهي لهذه الأمة؛ فلا ينبغي أن يهذي بالشعر الذي يقوله أصحاب الأخيلة الشيطانية، الذين يقولون ما لا يفعلون، وفي كل وادٍ يهيمون، كما قال الله ذلك عنهم في سورة الشعراء، ثم بين سبحانه أن هذا القرآن الذي أنزله الله علىٰ نبيه ﷺ ما هو إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب، وهو قرآن واضح بين الدلالة علىٰ المقاصد.

[٧٠] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه أنزل هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ؛ ليُنذر ويُذكِّر به من كان حيَّ القلب والفهم، أما من كان مصرًّا علىٰ الكفر والضلال، واستمر علىٰ شركه وتكذيبه لرسل الله، فقد حق عليه عذاب الله وسخطه بعد أن قامت عليهم الحجة.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

[٧١] يأمر جل وعلا العباد بالنظر إلىٰ ما سخر لهم من هذه الأنعام المتنوعة فقال: ألا ترون أن من مظاهر قدرة الله العظيمة أنه خلق هذه الأنعام مما عمل الله جل في علاه لأجلكم، ثم إن الله ملكها لكم تتصرفون فيها كيفما تشاءون.

[٧٢] ثم سخر جل وعلا هذه الأنعام لكم فجعل منها ما تركبون عليه في أسفاركم، وتحملون عليها أثقالكم، ومنها ما تستخدمونه في الحرث، ومنها ما جعله للأكل.

[٧٣] وكذلك جعل سبحانه لكم في هذه الأنعام منافع أخرىٰ تنتفعون بها، كالانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا، ومن جلودها قِرَبًا ومفارش ولباسًا، وتشربون من ألبانها، وتصنعون من هذه الألبان الأجبان وغير ذلك، وبعد هذا التذكير والنظر أليس من حق المنعم أن يُشكر علىٰ هذه النعم التي أنعم بها عليهم؟.

[٧٤] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين اتخذوا آلهةً من دونه يعبدونها ويتقربون إليها، رجاء نصرها وشفاعتها لهم، وهذا في غاية البطلان والضلال والغواية.

[٧٥] ثم بين جل في علاه أن تلك الآلهة المزعومة لا تستطيع نصر نفسها فكيف تستطيع نصرهم؛ بل جعل الكفار من أنفسهم جنودًا محضَرون لهذه الأصنام يدافعون عنها، وينصرونها؟!!

[٧٦] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن لا يحزن لقول هؤلاء المشركين وافترائهم عليه، فإن الله علىٰ علمٍ تام بما يُخفون من أقوالهم، وما يُعلنون منها ويُظهِرون، وسوف يجازيهم سبحانه ويحاسبهم عليها.

[٧٧] يرد جل وعلا علىٰ مقولة أحد صناديد قريش المنكرين للبعث؛ فقال سبحانه: أولم ينظر هذا المنكر للبعث أنَّا ابتدأنا خلقه من أضعف الأشياء، من نطفة من ماء مَهين؟!!، فلما كبر واستوىٰ وصار رجلًا بدأ بالخصام والجدال؟!! وإنكار البعث!!

[٧٨] ثم إن هذا الإنسان المنكر للبعث المجادل بالباطل ضرب لله مثلًا لا ينبغي ضربه؛ حيث أنكر قدرة الله جل في علاه علىٰ إحياء الموتىٰ؛ حيث قال: هل يستطيع ربك يامحمد إعادة هذه العظام البالية المتفتتة إلىٰ الحياة مرة ثانية؟ ونسي هذا الجاهل أصل خلقته؛ وأن الله خلقه من نطفة من ماء مهين حقير.

[٧٩] وقل يانبي الله لهذا المنكر للبعث: يحييها ويعيد خلقها اللهُ الذي ابتدأ خلقها أول مرة، فالذي أوجدها من العدم قادر علىٰ إعادتها مرة ثانية، وهو سبحانه بكل مخلوقٍ عليمٌ علمًا تامًّا؛ لأنه سبحانه هو الذي خلقه، وأوجده من العدَم.

[٨٠] ومما يدل علىٰ وحدانية الله، وقدرته علىٰ البعث، وأنه سبحانه لا يستحيل عليه شيء: هذا الشجر الأخضر الرطب، يخرج الله لكم منه نارًا، توقدونها وتُشعِلون منها، وتنتفعون بها، فكما أخرج سبحانه النارَ المحرقة من هذه الشجرة؛ فإنه يخرجكم أحياء من قبوركم، ويعيدكم مرَّةً أخرىٰ.

[٨١] ثم يوبخ جل وعلا هؤلاء الكفار فيقول: أوليس الذي ابتدأ خلق السماوات والأرض وما فيهن وما بينهما قادرٌ علىٰ أن يخلق مثلهم؟!! بلىٰ هو قادرٌ علىٰ ذلك سبحانه وتعالىٰ، فهو الخلَّاق لما يشاء، العليم بمخلوقاته.

[٨٢] ثم أخبر جل شأنه أنه إذا أراد شيئًا فإنه يأمره بقوله (كُنْ) فيكون مباشرةً من غير مانع ولا توقُّفٍ، وفي هذا دليل علىٰ عظيم قدرته سبحانه، وأنها لا حدود لها.

[٨٣] ثم نزه جل في علاه نفسه وقدسها، فتنزيهًا وتقديسًا له سبحانه الذي مَلَكَ كلَّ شيءٍ، وقهر كل شيء، وإليه مرجع جميع الناس فيحاسبهم علىٰ أعمالهم ويجازيهم عليها.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾

سورة الصافات

سورة الصافات مكيّة وآياتها ثنتان وثمانون ومائة آية.

[١-٢-٣-٤] أقسم جل وعلا في بداية هذه السورة ببعض الملائكة فقال: أُقْسِمُ بالملائكة التي تَصُفُّ في عبادتها وطاعتها عند ربها في صفوف منتظمة كصفوف المصلين. وَأُقْسِمُ بالملائكة التي تزجر السحاب لكي ينزل الغيث حيث يؤمر. وَأُقْسِمُ بالملائكة التي تسبح وتتلوا آيات الله دومًا ولا تفتر. أن ربكم أيها الناس إله واحد لا شريك له، فأخلصوا له العبادة واتركوا هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دونه. والله سبحانه له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم بأحد غير الله، لأن الحلف بغير الله شرك، وهو من الشرك الأصغر الذي لا يخرج من الملة، ولكن الحالف علىٰ خطر عظيم.

[٥] واعلموا أيها الناس أن هذا الإله هو خالق هذه السماوات والأرض، وخالق ما بينهما، وخالق مشارق الشمس ومغاربها؛ فهو مالك الجميع وسيده، وجمع سبحانه المشارق لأن الشمس تشرق وتغرب في كل يوم في مكان غير مكان الأمس، يعني: أن الشمس لها كل يوم مشرق ومغرب.

[٦-٧] ثم أخبر جل وعلا أنه زين السماء الدنيا التي هي أقرب السماوات للأرض بهذه النجوم التي جعلها تضيء وتتلألأ في الليل، لكي تهتدون بها في سيركم من مكان إلىٰ مكان، ثم أخبر سبحانه أنه حفظ هذه السماء من كل شيطان متمرد بعيد عن طاعة الله ورحمته، ولهذا فإن هذه النجوم تنطلق منها النيازك والشهب التي يُرمىٰ بها مسترق الوحي.

[٨-٩] وهذه الشياطين التي تحاول استراق السمع في السماء، فإنهم يُرمَوْن ويُقْذَفون بالشهب الحارقة من كل جانب من جوانب السماء. ثم بين سبحانه أن هذه الشياطين تُقْذَفُ بهذه الشهب لتدحرهم وتهزمهم وتحرقهم، ولهم في الآخرة عذابٌ دائمٌ موجعٌ ينتظرهم.

[١٠] أما الشياطين التي تتمكن من خطف خبر من كلام الملائكة فإنه يتبعها شهاب ثاقب مهلك، وربما ألقىٰ الجني الخبر الذي أختطفه علىٰ جني آخر قبل أن يهلكه الشهاب، ثم يصل الخبر إلىٰ الكهنة الذين يزيدون عليه ما يشاءون حسب حدسهم. وهذا الشهاب هو شعلة من نار تنفصل من النجم لملاحقة مردة الجن الذين تمردوا علىٰ طاعة الله وأصبحوا يتعاونون مع الكهان والسحرة.

[١١] وإذا كان يانبي الله كل شيء يشهد بوحدانية الله وقدرته؛ فاسأل هؤلاء المنكرين للبعث: هل أجسامهم أشد وأقوىٰ من هذه المخلوقات التي خلقها الله؟ ثم أَخْبِرْهُم أن الله خلق أباهم آدم من طين لزج يلتصق بعضه ببعض، وهذا دليل علىٰ قدرته وعلىٰ ضعفهم، فلماذا يستنكرون إعادة خلقهم؟.

[١٢-١٣-١٤-١٥-١٦-١٧] بل عجبتَ يانبي الله من تكذيب قومك بالبعث، فأعجب من ذلك أنهم يسخرون ويستهزؤون بك وبما تخبرهم به من البعث والنشور، وإذا ذكَّرتهم ووعظْتَهم فإنهم لا تنفع فيهم الذكرىٰ، ولا هم يتعظون، وإذا شاهدوا آيةً ومعجزةً تدل علىٰ صدقك؛ أخذوا يسخرون ويستهزؤون. ثم قالوا في معاندةٍ ومكابرة للحق: ما هذا الذي جئتَ به يامحمد إلا سحرٌ بيِّنٌ ظاهر، ثم يقولون مكذبين مستبعدين للبعث والنشور: أئذا متنا وتحللت أجسادنا وصرنا عظامًا باليةً أإنا لمبعوثون مرةً أخرىٰ؟!، وأيْضًا سيُبعَث آباؤنا الذين ماتوا من قبلنا؟!

[١٨-١٩] فقل لهم يانبي الله: نعم ستبعثون بعد موتكم مرة أخرىٰ وأنتم أذلاء صاغرون، واعلموا أن هذا البعث الذي تستبعدونه لا يحتاج من الله جل وعلا إلا نفخة واحدة فإذا أنتم قائمون تنظرون لما حولكم في ذهول وانبهار.

[٢٠-٢١] وحينئذ يحصل لهؤلاء المنكرين الويل والثبور ويقولون: ياهلاكنا، إن هذا هو يوم البعث والنشور حقيقةً!!، فيقال لهم: هذا يوم الفصل الذي يفصل الله تعالىٰ فيه بين عباده، هذا يوم البعث الذي كنتم به تكذبون، وإياه تنكرون.

[٢٢-٢٣] ثم يأمر جل وعلا الملائكة أن يجمعوا الذين كفروا مع أشباههم وأشكالهم ونظرائهم؛ فعابد الوثن مع عابد الوثن، والسارق مع السارق، والزاني مع الزاني، واليهودي الذي يزعم أن عزيرًا ابن الله مع اليهودي، والنصراني الذي يزعم أن عيسىٰ ابن الله مع النصراني، وهكذا، ويجمعوا معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، ثم يأمر الملائكة بأن يعرفوهم ويلزموهم بطريق جنهم التي سوف يساقون إليها بشدة وعنف.

[٢٤] ثم يأمر جل وعلا الملائكة بأن يوقفوا هؤلاء الكفار قبل أن يُدخلوهم النار، لأنهم سوف يسألون سؤال تبكيتٍ وتقريعٍ وإهانة عما كانوا يفترون في الدنيا.

مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾

[٢٥-٢٦] ثم يقال لهؤلاء الكفار علىٰ سبيل التوبيخ: لماذا لا ينصر بعضكم بعضًا؟ كما كنتم في الدنيا تتناصرون، بل إنكم أيها المجرمون اليوم أذلاء خاضعون عاجزون عن نصرة أنفسكم، وإنكم منقادون لأمر الله لا تحيدون عنه أبدًا.

[٢٧-٢٨] ثم أقبل هؤلاء الكفرة والمنافقون والعصاة علىٰ بعضهم البعض يتلاومون ويتخاصمون، ويعاتب كل منهم الآخر؛ فيقول الأتباع للمتبوعين معاتبين لهم: إنكم كنتم تأتوننا من الجهة التي نأمنكم فيها وتوهموننا وتقنعوننا أن الحق معكم، وكنتم تنفروننا عن الدين وتزينون لنا الضلال فصدقناكم.

[٢٩-٣٠] فيرد المتبوعون علىٰ الأتباع قائلين لهم: ليس الأمر كما تزعمون؛ بل أنتم الذين كنتم تكرهون الإيمان وتحبون الكفر والعصيان. ولم يكن لنا عليكم من حجة أو قوة فنأمركم بالكفر والضلال، بل كنتم قومًا فيكم فجور وطغيان وبعد كبير عن الإيمان والحق.

[٣١-٣٢] ثم يقول الأتباع والمتبوعون: لقد حق علينا جميعًا عذاب الله وسخطه، وإنا وإياكم لذائقون هذا العذاب. نعم نحن أغويناكم وأضللناكم عن طريق الحق والرشاد؛ لأننا كنا قبلكم قد غوينا وضللنا الطريق المستقيم.

[٣٣-٣٤-٣٥-٣٦] وبعد هذا الجدال والخصام يخبر جل علا أن الأتباع والمتبوعين يوم القيامة في عذاب جهنم مشتركون، وهذا هو جزاء المجرمين المجاوزين حدودَهم. ثم يخبر جل في علاه أن من جرائم هؤلاء المعذَّبين: أنهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحقٍّ إلا الله؛ كانوا يستكبرون عليها، وعلىٰ من جاء بها. ثم يقولون في كبرياء: أنترك آلهتنا التي نعبدها لأجل زعم رجل شاعرٍ مجنونٍ لا يدري ما يقول؟!! يقصدون بذلك رسولنا ﷺ.

[٣٧-٣٨-٣٩] لكن اعلموا أيها الكافرون أن نبينا ﷺ قد جاء بالحقّ، وصدَّق جميع المرسلين، وكانت دعوة الجميع إلىٰ: لا إله إلا الله. ثم اعلموا أنكم -أيها المكذبون المستهزؤون- لذائقوا العذاب الأليم الموجع، وذلك بسبب ما كنتم تعملون من الكفر والتكذيب والاستهزاء والافتراء والظلم والمعاصي.

[٤٠-٤١-٤٢-٤٣] أما عباد الله المخلصون المكرمون الذين أخلصوا دينهم لله، فإنهم لا يذوقون هذا العذاب الأليم، بل لهم رزقٌ عظيمٌ معلومٌ غير منقطع، ولهم فواكه طيبةٌ الطعم والشكل؛ تتفكَّه بها نفوسهم، ويكونون في جنات النعيم ينعّمون وهم في غاية الإكرام والتعظيم والإجلال والوقار.

[٤٤-٤٥-٤٦-٤٧-٤٨-٤٩] ومن كرامة الله لهم في جنات النعيم: أنهم يكونون علىٰ مجالس مرتفعة مزينة بكل ما هو فاخر، متقابلين فيما بينهم ينظر بعضهم إلىٰ بعض، ويأنس بعضهم ببعض.

ومن كرامتهم: أنهم يُطاف عليهم بكأس من نهر الخمر الجاري في الجنة الذي لا ينقطع ولا ينفد، وهي غير خمر الدنيا، بيضاء اللون، يتلذذ بها شاربها أيّما لذَّة، وليس فيها من الآفات مثل ما هو موجودٌ في خمر الدنيا، فخمر الجنة لا تُذهبُ العقلَ ولا تضره، ولا صُداع فيها ولا كدر. وعندهم من النعيم أيضًا: نساءٌ جميلاتٌ حِسانٌ، من صفاتهنَّ: أنهن قاصرات الطرف علىٰ أزواجهن لا ينظرن لغير أزواجهنَّ، وأعينهن واسعاتٌ جميلاتٌ، من جمالهنَّ وصيانتهن كأنهن ناصعات في البياض ناعمات الملمس لم ينالهن غبارٌ ولا أذىٰ.

[٥٠] ثم أخبر جل وعلا عن حديث أهل الجنة حيث يقبل بعضهم علىٰ بعضٍ يتحدثون ويتسامرون، ويتذكرون أحداث الدنيا، ونعمة الله عليهم في إنجائهم من النار ودخولهم الجنة.

[٥١] وفي أثناء حديث أهل الجنة بعضهم لبعض واستمتاعهم بالشراب والنعيم الذي لم تر عين في الدنيا مثله، قال أحد المنعمين لمن معه: اسمعوا يا إخواني لقد كان لي صاحب في الدنيا ملازم لي ويجلس معي دائمًا.

يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

[٥٢-٥٣] ثم قال هذا المنعم: وقد كان هذا الصاحب يقول علىٰ سبيل السخرية والإنكار: هل تصدق بما يقوله الرسول ﷺ وأصحابه من الرسل والأنبياء، من أننا إذا متنا وتمزقت أجسادنا وصارت ترابًا وعظامًا فإن الله سوف يبعثنا ويعيد خلقنا، ثم يحاسبنا علىٰ أعمالنا ويجازينا عليها، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر؟ وقصده من هذا الكلام إنكار البعث.

[٥٤-٥٥-٥٦-٥٧] وفي أثناء حديثهم طلب من أصحابه الذين معه في الجنة أن ينظروا معه إلىٰ مصير صاحبه حيث رآه في وسط النار، ثم لامه وبكته علىٰ ظنه السيِّئ بالله، وقال له: لقد كدت أن تهلكني، ولولا أن منَّ الله عليَّ بنعمته وفضله، وثبتني علىٰ الحق، فلم أنخدع بالباطل الذي كنت تدعوني إليه؛ لكنت اليوم من الذين نالهم العذاب، وكنت معك في هذا المصير المؤلم الذي نالك بسبب كفرك وإنكارك.

[٥٨-٥٩] ثم يقول هذا المؤمن مبتهجًا بنعمة الله عليه وعلىٰ أهل الجنة، وساخرًا من صاحبه الكافر الذي يعذب في النار: هل نحنُ حقًّا مخلدون في هذا النعيم؟!، وأنه لن يدركنا الموت بعد موتتنا الأولىٰ في الدنيا؟! وأنه لن يمسنا العذاب بعد ذلك؟! فالحمد لله رب العالمين علىٰ هذا النعيم المقيم.

[٦٠-٦١] ثم يقول فرحًا مسرورًا: اعلموا أن ما نحن فيه من النعيم المقيم لهو الفوز الحقيقي والظفر العظيم. ولمثل هذا المصير وهذا الفوز فليعمل العاملون وليجتهد المجتهدون في الدنيا.

[٦٢-٦٣] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يسأل هؤلاء الكافرين: هل هذا النعيم الذي يتنعم به أهل الجنة خير، أم شجرة الزقوم الخبيثة الملعونة التي هي طعام أهل النار؟! ثم بين جل في علاه بأن هذه الشجرة جعلها محنة وابتلاء وعذابًا لهؤلاء الكفار الظالمين؛ لأنهم أنكروا قدرة الله أن يُخرج في وسط النار شجرة؛ فسبحان من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٦٤-٦٥-٦٦-٦٧] ثم أخبر جل وعلا أن هذه الشجرة تنبت في وسط النار، وأن ثمرها في غاية القبح حتىٰ لكأنه رؤوس الشياطين، ثم أخبر جل في علاه تهكمًا بأهل النار أن طعامهم سيكون من هذه الشجرة التي من شدة الجوع يضطرون للأكل منها حتىٰ تمتلىء بطونهم، ثم بعد ذلك يشربون في إثرها ماءً حارًّا وخليطًا قبيحًا.

[٦٨] ثم أخبر جل وعلا أن مصير هؤلاء الكفار ومقرهم الدائم هو الجحيم التي يعادون إليه بعد أن يملؤوا بطونهم من هذه الشجرة ويشربوا من هذا الحميم.

[٦٩-٧٠] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الكفار لم يكن ضلالهم في وقت الدعوة، وإنما كان آباؤهم ضالين فهم علىٰ آثارهم مسرعون في التقليد والمتابعة، والتصميم علىٰ ما كانوا عليه من الكفر والضلال، ومحاربة الدعاة لتوحيد الله.

[٧١] ثم ذكر جل وعلا أن قومك يانبي الله لم يكونوا بدعًا من الناس فقد ضل قبلهم أكثر الأمم السابقة التي أرسل سبحانه إليهم من يدعوهم إلىٰ الإيمان والتوحيد.

[٧٢-٧٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل في تلك الأمم السابقة منذِرين يُنذرونهم ويحذرونهم من الشرك والغي والضلال، فلم يستجيبوا لهم، ولم يرفعوا بهم رأسًا، فتأمل يانبي الله كيف كان مصير وعاقبة هؤلاء الذين أنذرتهم الرسل، فلم يستجيبوا!

[٧٤] ثم استثنىٰ جل وعلا من العذاب والدمار عباد الله المخلصين الذين وفقهم الله للعمل الصالح وأخلصوا لله؛ فنجوا من الإهلاك والنار. وفي هذه الآيات والأحداث وتفاصيلها تسلية للرسول ﷺ.

[٧٥-٧٦] يخبر جل وعلا عن أول الرسل وهو نوح عليه السلام أنه دعا الله أن يدمر قومه الكافرين وأن لا يبقي منهم أحدًا؛ لأنه دعاهم زمنًا طويلًا فلم يستجب منهم إلا القليل؛ فأجاب الله دعاءه، ونجَّاه وأهله ومن آمن معه من الغرق بالطوفان العظيم الذي عم الكائنات الحية في وقته، وكان دعاؤه عليهم بعد أن قال الله له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦].

[٧٧] ثم أخبر سبحانه أنه جعل ذرية نوح هم الباقين؛ لأن الهلاك عم سكان الأرض ما عدا نوحًا وذريته، وأما من ركب معه من المؤمنين، قيل: إنهم ماتوا جميعًا ولم يخلفوا ذرية. [٧٨] ثم أخبر جل وعلا أنه أبقىٰ لنوح ذكرًا وثناءً حسنًا فيمن جاء بعده من الأمم. [٧٩] ثم قال سبحانه: فسلام وثناءٌ علىٰ نوح في الأولين والآخرين. [٨٠] ثم أخبر سبحانه أنه بمثل رفعةِ وجزاء نوح نجزي كل من أحسن في إيمانه وتقواه، وفي هذا بشارة للمؤمنين.

[٨١] ثم أخبر سبحانه أن نوحًا من عباد الله المؤمنين إيمانًا كاملًا تامًّا.

[٨٢] ثم أخبر جل وعلا أنه أغرق المكذبين المستهزئين من قوم نوح؛ حيث أغرقهم وأهلكهم بالطوفان، فلم يُبقِ منهم أحدًا. [٨٣] ثم ذكر جل وعلا أن ممن سار سيرة نوح وسلك مسلكه في الاستقامة والدعوة هو إبراهيم؛ لأنه سار علىٰ ملته ونهجه وطريقته في النبوة، وأيضًا فإن إبراهيم جاهد قومه ولاقىٰ من صنوف العذاب والأذىٰ الذي لاقاه نوح فصبر كما صبر نوح. [٨٤] واذكر يانبي الله حين جاء إبراهيم ربه بقلب سليم خالٍ من كل شرك وشك، محذرًا قومه مما هم فيه من الشرك والضلال. [٨٥] واذكر يوم أن قال لأبيه وقومه متعجِّبًا مُنكِرًا عليهم: ما هذا الذي تعبدونه من دون الله، وتصرفون له العبادة؟! [٨٦] ولما رأىٰ إبراهيم تعلق قومه بالكواكب والأصنام قال مستنكرًا عليهم: أتلجؤون لهذه الآلهة فتعبدونها من دون الله، وترجون منها الخير والشفاعة، وتتركون عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، المستحق للعبادة وحده لا شريك له. [٨٧] ثم قال لهم مستنكرًا ومحذرًا من سوء العاقبة إذا استمروا علىٰ هذا الكفر والضلال: فما ظنكم بالله رب العالمين أن يفعل بكم إذا صرفتم العبادة لغيره؟ لا شك أنه سيحاسبكم حسابًا عسيرًا، ويعذبكم عذابًا أليمًا. [٨٨] ثم إن إبراهيم نظر في النجوم نظرة موهمًا إياهم أن لها تأثيرًا كما هو اعتقادهم، وكان حينها يتفكر كيف يعتذر عن الخروج معهم إلىٰ عيدهم؛ حيث دعوه للخروج معهم، وذلك ليخلو بالأصنام ويحطمها. [٨٩] ثم التفت إليهم وقال لهم: إني مريض ولا أستطيع أن أصحبكم، وهذا من باب التعريض وليس من باب الكذب. [٩٠] ثم بين سبحانه أنهم تركوه لوحده وخرجوا إلىٰ عيدهم. [٩١] ثم إن إبراهيم أخذ الفأس وذهب مسرعًا إلىٰ أصنامهم وآلهتهم وأخذ يقول لها: ألا تأكلين أيتها الأصنام من هذا الطعام.

[٩٢] ثم قال لها: لماذا لا تنطقون وتجيبون علىٰ سؤالي؟، وهو يعلم أنها جمادات لا تجيب، لكنه قال ذلك سخرية بفعل قومه.

[٩٣] ثم أقبل علىٰ آلهتهم وأخذ يحطمها بيده، ولم يُبْقِ إلا أكبرهم؛ ليثبت لقومه أنها لا تدافع عن أنفسها فضلًا عن غيرها، وأنهم أخطأوا في عبادتها، وأنها لو كانت آلهة لما رضي كبيرهم أن يزاحمه في العبادة أحد ولحطَّمها. [٩٤] ولما رجع قوم إبراهيم من رحلتهم ووجدوا أصنامهم قد تَكَسَّرَتْ؛ هالهم ما رأوا؛ وأقبلوا يسأل بعضهم بعضًا: من حطم آلهتنا؟، فقال أحدهم إنه سمع إبراهيم يهدد بكيدها، فذهبوا إلىٰ إبراهيم مسرعين غاضبين، وقالوا: ويحك كيف فعلت هذا بآلهتنا؟، فقال لهم بتهكم واستنكار: لقد غضب كبيرهم فحطمها، فاسألوهم إن كانوا ينطقون. [٩٥] ثم قال لهم: هل تعبدون أصنامًا تصنعونها

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

بأيديكم وتنحتونها من الحجارة؟. [٩٦] ثم قال لهم: وتتركون عبادة الله الذي خلقكم وخلق أعمالكم؟! [٩٧] فلما حجَّهم إبراهيم وغلبهم؛ قال بعضهم لبعض: ابنوا له بنيانًا عاليًا مرتفعًا، وأوقدوا فيه نارًا عظيمةً واطرحوا إبراهيم فيها. [٩٨] وأرادوا بهذا الفعل إيقاع الشرِّ والهلاك به؛ فردَّ الله كيدهم في نحورهم، ونجاه من النار، وجعل أمر قومه في الأذلين. [٩٩] وبعد أن نجىٰ الله إبراهيم من كيد الأعداء، فإذا بأبيه يهدده بالرجم بالحجارة إذا لم ينته عن هذا المسلك، عندها قال إبراهيم: إني مهاجر من بلد قومي إلىٰ حيث يأمرني ربي لإقامة شعائر ديني بكل حرية، وسوف يهديني ربي إلىٰ ما فيه صلاح ديني ودنياي، فكان أن هداه الله إلىٰ بلاد الشام، تلك الأرض المباركة.

[١٠٠] وحيث إن إبراهيم كان وحيدًا وليس عنده من يؤنسه من الأولاد؛ دعا الله أن يرزقه ولدًا صالحًا يستعين به علىٰ نشر دين الله.

[١٠١] فاستجاب الله له ورزقه ولدًا متصفًا بالحلم ومكارم الأخلاق، حيث رزقه بإسماعيل عليه وعلىٰ أبيه السلام. [١٠٢] وعندما شب إسماعيل وصار عونًا لأبيه، قال له أبوه: يابني لقد رأيت في المنام أني أذبحك فما رأيك؟ ومعلوم أن رؤيا الأنبياء حق، وكان إسماعيل عالمًا بشدة حب أبيه له، ولكن أمر الله لابد أن يتم؛ فقال إسماعيل: ياأبت افعل ما أمرك الله به ولا تتردد، وستجدني إن شاء الله صابرًا محتسبًا. قال ابن القيم: ولا شك أن الله عز وجل لم يرد قتل إسماعيل، وإنما أراد أن يذبح التعلق بغيره؛ حيث إن إبراهيم رُزِقَ بإسماعيل علىٰ كبر فتعلق به، أي: استولىٰ علىٰ مشاعره، وهذا ينافي الخلة التي منحها الله لإبراهيم.

فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾

[١٠٣] فلما أسلم إبراهيم وإسماعيل أمرهما إلىٰ الله، واستسلما لما أمرهما به، وألقىٰ إبراهيمُ عليه السلام إسماعيلَ علىٰ جبينه ليُضجعه ويذبحه، وهوىٰ بالسكين فوجدها لا تذبح، فأدركته رحمة الله بأن فداه بذبح عظيم من الغنم.

[١٠٤-١٠٥] ثم إن الله عز وجل نادىٰ إبراهيم عليه السلام. وقال له: لقد صدَّقت الرؤيا ياإبراهيم، وبادرتَ إلىٰ فعل ما أُمرتَ به مع شدته، فقد فرَّجنا عنك ولطفنا بك، وكذلك نجزي كل من أحسن وبادر إلىٰ ما أمرناه به، ولو وجد في ذلك مشقَّةً وصعوبة.

[١٠٦] ثم وصف سبحانه الأمر بذبح إبراهيم لابنه أنه من الامتحان العظيم، والذي لا يحتمله إلا أصحاب العزائم العالية، وقد نجح عليه السلام في الامتحان، ولهذا استحق الكرامة العظمىٰ والخلة، وجعل الأنبياء بعده من ذريته وأحفاده. [١٠٧] ومن مظاهر فضل الله علىٰ هذين النبيين أنه امتن عليهما بأن فدىٰ إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم من الغنم، ذُبِحَ بَدَلًا عنه.

[١٠٨-١٠٩] ثم أخبر جل وعلا أنه أبقىٰ لإبراهيم ذكرًا وثناءً حسنًا فيمن جاء بعده من الأمم. فسلام وثناءٌ علىٰ إبراهيم في الأولين والآخرين.

[١١٠] ثم أخبر سبحانه أنه بمثل رفعةِ وجزاء إبراهيم نجزي كل من أحسن في إيمانه وتقواه، وفي هذا بشارة للمؤمنين.

[١١١] وأخبر سبحانه أن إبراهيمَ من عباد الله المؤمنين إيمانًا كاملًا تامًّا.

[١١٢] ثم إن الله جل وعلا أتم نعمته علىٰ إبراهيم فبشره بمولود آخر وهو إسحاق عليه السلام، وجعله نبيًّا من الصالحين، وبارك سبحانه عليهما وعلىٰ الصالح من ذريتهما.

[١١٣] ثم أخبر سبحانه أن من ذرية إبراهيم وإسحاق من هو محسن لنفسه بالطاعة والإيمان، ومن هو ظالم لها بالكفر والعصيان.

وقد استدل الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله وأكثر المفسرين بذكر إسحاق بعد قصة الذبيح أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، أما قوله ﷺ: «**أنا ابن الذبيحين**»؛ فهو حديث ضعيف[(١)]، واسحاق هو والد يعقوب عليه السلام الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل.

[١١٤] يخبر جل وعلا أنه امتن علىٰ موسىٰ وهارون أن أنعم عليهما بنعم عظيمة، ومن أعظم هذه النعم نعمة النبوة والرسالة. والمنان اسم من أسماء الله، والمَنُّ صفة، تعني: أنه الذي يعطي ابتداءً من غير سؤال، وهي بالنسبة لله صفة مدح يحمد ويشكر عليها

[١١٥] ومن النعم التي امتن الله بها علىٰ موسىٰ وهارون أنه خلصهما وقومهما من الغرق، ومن استعباد فرعون لهم، ومن قتل أطفالهم الذكور، واستحياء البنات لخدمة الأقباط والفراعنة.

[١١٦] ومن مظاهر منة الله علىٰ موسىٰ وهارون نصر الله لهما ولمن آمن بهما، وكانوا بسبب هذا النصر هم الغالبين لأعدائهم.

[١١٧] ثم أخبر جل وعلا أن من مظاهر نعمته علىٰ موسىٰ وهارون أن أنزل عليهما الكتاب البين الواضح.

[١١٨] وهداهما إلىٰ دين الإسلام الدين الحق الذي ابتعث الله به أنبياءه.

[١١٩] ثم أخبر جل وعلا أنه أبقىٰ لموسىٰ وهارون ذكرًا وثناءً حسنًا فيمن جاء بعدهما من الأمم.

[١٢٠] ثم قال سبحانه: فسلام وثناءٌ عليهما في الأولين والآخرين.

[١٢١] ثم بين سبحانه أنه بمثل رفعةِ وجزاء موسىٰ وهارون نجزي كل من أحسن في إيمانه وتقواه، وفي هذا بشارة للمؤمنين.

[١٢٢] ثم بين سبحانه أن موسىٰ وهارون عليهما السلام من عباد الله المؤمنين إيمانًا كاملًا تامًّا.

[١٢٣] ثم أخبر جل وعلا أن عبده إلياس من الذين أكرمهم بالرسالة.

[١٢٤] ثم بين سبحانه أن إلياس قال لقومه: ألا تخافون الله وتتقونه، ولا تشركوا معه أحدًا غيره. وإلياس بن ياسين من أحفاد هارون أخي موسىٰ عليهما السلام، وقد أرسله الله إلىٰ أهل بعلبك، وهي بلدة مشهورة في الشام بهذا الاسم حتىٰ الآن.

[١٢٥] ثم قال إلياس لقومه مبكِّتًا لهم: كيف تعبدون هذا الصنم الذي لا يضر ولا ينفع وتتركون عبادة الله أحسن الخالقين.

[١٢٦] ثم بين لهم أن الله هو ربكم الذي خلقكم وخلق آباءكم السابقين.

---

(١) قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٦٧٧): لا أصل له.

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

[١٢٧-١٢٨] واستمر إلياس في دعوة قومه إلىٰ عبادة الله وحده ولكنهم كذبوه؛ فكانت النتيجة أن استحقوا العذاب فنزلت بهم العقوبة في الدنيا، وسيجمعهم الله يوم القيامة فيحاسبهم ثم تكون نهايتهم نار جهنم خالدين فيها وبئس المصير. ثم استثنىٰ جل في علاه عباد الله المخلصين الذين سمعوا النصيحة وأسلموا مع إلياس، وأخلصوا دينهم لله وحده؛ فهؤلاء ناجون من الإحضار للعذاب والنار.

[١٢٩-١٣٠-١٣١-١٣٢] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل لإلياس ذِكْرًا حسنًا فيمن جاء بعده من الأمم. فسلام وثناءٌ علىٰ إلياس في الأولين والآخرين، وبمثل رفعةِ وجزاء إلياس نجزي كل من أحسن في إيمانه وتقواه، وفي هذا بشارة للمؤمنين، ثم أخبر سبحانه أن إلياسَ من عبادنا المؤمنين إيمانًا كاملًا تامًّا.

[١٣٣] ثم أخبر جل وعلا أنه اصطفىٰ لوطًا وجعله من عباده المرسلين. ولوط هو ابن أخي إبراهيم (هارون)، وقد نصح قومه وطلب منهم الكف عن الجرائم التي لم يرتكبها أحد قبلهم، ولم يستجيبوا؛ ولم يكتفوا بعصيانه؛ بل هددوه بالإبعاد؛ فنزلت بهم العقوبة وخسف ببلادهم وهي معروفة علىٰ الطريق الذي يمر عليها المسافرون قديمًا في بلاد الشام.

[١٣٤-١٣٥-١٣٦] واذكر يانبي الله يوم أن نجّىٰ الله لوطًا عليه السلام وأهله أجمعين من العذاب، إلا امرأته العجوز فقد هلكت مع الذين هلكوا، بسبب كفرها وجحودها، ثم أهلك الله بالعقوبة والعذاب الباقينَ من قومه.

[١٣٧-١٣٨] ثم نبه جل شأنه أهل مكة وغيرهم أنهم يمرون في أسفارهم علىٰ منازل قوم لوط صباحًا ومساءً، ويرون كيف أن الله قلبها وجعل عاليها سافلها، وأمطروا بالحجارة التي كانت عذابًا لهم، أفلا تعتبرون أيها الناس بأحوال هذه الأمم، وما حل بهم من دمار وعذاب؛ فتخافون أن يحل بكم ما حل بهم.

[١٣٩-١٤٠-١٤١-١٤٢] ثم أخبر جل وعلا أنه اصطفىٰ يونس وجعله من عباده المرسلين، وهو يونس بن متّىٰ الذي أرسله الله إلىٰ أهل نينوىٰ، وهي قرية علىٰ شاطئ دجلة في أرض الموصل شمال العراق، وقد دعا قومه للإيمان فكذبوه وآذوه؛ فلما يئس من إيمانهم وأيقن أن العذاب حالٌّ بهم تركهم وهرب ولم ينتظر الأمر من الله؛ فلما وصل إلىٰ البحر وجد سفينة مشحونة بالركاب والدواب فأركبوه معه، ثم اضطرتهم الأمواج إلىٰ تخفيف حمل السفينة؛ فعملوا قرعة فوقعت عليه فرموه في البحر؛ فابتلعه الحوت بسرعة عقوبة منه سبحانه علىٰ فعله هذا لأنه ترك قومه وذهب بدون إذن من الله.

[١٤٣-١٤٤-١٤٥-١٤٦-١٤٧-١٤٨] ثم أخبر جل وعلا أن يونس كان من المداومين علىٰ العبادة والعمل الصالح قبل أن يلتهمه الحوت، وكان أيضًا مداومًا علىٰ التسبيح بعد أن التقمه؛ ولولا أعماله الصالحة هذه لمكث في بطنه إلىٰ يوم القيامة. والتسبيح الذي كان مداومًا عليه وهو في بطن الحوت هو قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء:٨٧]. وبفضل الله ثم بفضل أعماله الصالحة استجاب الله دعاءه وأمر الحوت بقذفه علىٰ الساحل وهو في حالة مرض شديد بسبب ما لحقه من تعب وأذىٰ وهو في بطن الحوت، وحماية له من الشمس أنبت الله شجرة القرع التي أظلته فصارت كأنها كالعريش فوق رأسه. وبعد أن استعاد يونس صحته أعاد الله إرساله إلىٰ قومه الذين زاد عددهم علىٰ مائة ألف فوجدهم نادمين تائبين؛ فصدقوا به جميعًا وعملوا بما جاء به، ولأجل ذلك متعهم الله في حياتهم الدنيا بأنواع النعم، واستمر في قيادتهم وإرشادهم حتىٰ انتهت آجالهم.

[١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٣] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يسأل هؤلاء الكفار سؤال توبيخ وتأنيب: بأي حق وبأي وجه جعلوا لله البنات وجعلوا لأنفسهم البنين؟!، وسبب هذا السؤال: أنهم قالوا زورًا وبهتانًا: إن الملائكة بنات الله، ثم أمر نبيه ﷺ أن يسألهم: هل كانوا حاضرين حين خلق الله الملائكة؟ ثم بين سبحانه أن من كذب وافتراء هؤلاء المشركين زعمهم أن لله ولدًا، فليعلموا أنهم كاذبون مفترون في زعمهم هذا. ثم أمر نبيه ﷺ مقرعًا إياهم: هل اختار الله البنات علىٰ البنين الذكور؟!! ومن أين علمتم ذلك أيها المشركون؟!.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

سُورَةُ صٓ

[١٥٤-١٥٥-١٥٦-١٥٧] ثم قل لهم يانبي الله: ما الذي جعلكم تحكمون هذا الحكم الجائر؟! أفلا تعقلون وتُميِّزون ما تنطقون به؟! أم لكم حجةٌ قويَّةٌ ظاهرةٌ علىٰ قولكم وافترائكم؟! فإن كنتم صادقين فيما تقولون، ولكم بذلك حجةٌ؛ فأتوا بالكتاب الذي يثبت هذا القول.

[١٥٨-١٥٩] ثم أضاف المشركون جريمة وافتراء آخر علىٰ الله؛ حيث جعلوا بين الجِنَّةِ وبين الله نسبًا، وقد علمت الجِنَّةُ أنهم سيحضرون هم والمشركون للجزاء، وسيقفون بين يدي الله للعرض والحساب. فتعالىٰ الله جل في عُلاه، وتنزَّه وتقدَّسَ عما يصفه به المشركون من أن الملائكة بنات الله.

قال مجاهد: الجن فرع من فروع الملائكة فيحضرون الملائكة ليكذبوهم يوم الحساب.

[١٦٠] ثم استثنىٰ جل وعلا عباد الله المخلَصين المؤمنين لأنهم لا يصفون الله جل في علاه إلا بما يليق بجلاله وعظمته، فيسمونه بما سمىٰ به نفسه، ويصفونه بما وصف به نفسه في كتابه، أو علىٰ لسان رسوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل.

[١٦١-١٦٢-١٦٣] واعلموا أيها المشركون أنكم أنتم والذين تعبدونهم من دون الله من سائر الآلهة الباطلة لا تقدرون أن تفتنوا أحدًا عن دينه، أو توقعوه في الشرك والضلال، إلا من قدَّرنا عليه أن يصْلىٰ الجحيم، ويدخل النار، وهم الذين أصروا علىٰ الكفر والضلال بعد تبليغ الرسل لهم.

[١٦٤-١٦٥-١٦٦] ثم اعترفت الملائكة بطاعتهم الكاملة لله، فقالت: ما منَّا أحدٌ من الملائكة إلا له مقامٌ معلومٌ في عبادة الله وتنفيذ أوامره، وإنَّا جميعًا صافُّون في طاعة الله وعبادته، وإنا جميعًا مسبحون لله، منزهونه عمَّا لا يليق به جل في علاه.

[١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠] ثم أخبر جل وعلا عن مشركي العرب أنهم كانوا يقولون: لو جاءنا مثل ما جاء الأولين من الرسل والكتب لكنَّا من عباد الله الموحدين إياه، والمخلصين له في العبادة. فلما جاءهم ما تمنوا كفروا به وكذبوه، وجحدوه، فسوف يعلمون عاقبةَ ذلك ومغبّته.

[١٧١-١٧٢-١٧٣] ثم يسلي جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ فيقول: ولقد سبقت كلمتنا - التي لا تتبدل ولا تتخلف - لعبادنا المرسلين، ولأتباعهم، أن النصر والغلبة والفلاح من نصيبهم، وأن جندنا الذين يجاهدون في سبيل الله امتثالًا لأمر الله؛ هم الغالبون الفائزون فوزًا عظيمًا علىٰ كل حال، فإما الفوز بالنصر والتمكين، وإما الفوز بالشهادة التي يقابلون بها ربَّ العالمين.

[١٧٤-١٧٥] ثم يأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يعرض عن هؤلاء المكذبين المعاندين مدَّةً محدَّدةً معلومةً، وأن ينظرهُم فسوف يُبصرون ويروْن ما يحلُّ بهم من العذاب والهلاك.

[١٧٦-١٧٧] ثم يسأل جل وعلا سؤال توبيخ وتأنيب: أفبعذابنا يستعجل هؤلاء المكذبون المعاندون؟! فإنه إذا نزل بفنائهم وحلَّ بهم؛ فبئس الصباح صباحهم؛ لأنهم كانوا يقولون: يامحمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به.

[١٧٨-١٧٩] ثم كرر جل وعلا الآيتين بمثل الآيتين (١٧٤-١٧٥) آمرًا نبيه محمدًا ﷺ أن يعرض عن هؤلاء المكذبين المعاندين مدَّةً محدَّدةً معلومةً، وأن ينظرهُم فسوف يُبصرون ويروْن ما يحلُّ بهم من العذاب والهلاك، وكان هذا قبل الإذن بالقتال.

[١٨٠-١٨١-١٨٢] وبعد أن ذكر جل وعلا جملة من افتراءات الكفار والمشركين؛ ختم جل في علاه السورة بتنزيه نفسه عمَّا يقوله هؤلاء المفترون عليه؛ فتنزه وتقدس ربك يانبي الله عمَّا يصفه به هؤلاء الجاهلون، وتحية وأمانًا من الله علىٰ عباده المرسلين، والثناء الكامل لله رب العالمين، فهو سبحانه المستحق لذلك وحده لا شريك له.

سورة ص

سورة ص مكية وآياتها ثمان وثمانون آية.

[١-٢] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. ثم أقسم جل وعلا بهذا القرآن العظيم المشتمل علىٰ مصالح العباد في الدنيا والآخرة، وعلىٰ تذكيرهم بما هم عنه غافلون، وتذكيرهم بقصص الأنبياء والأمم الماضية التي تكبرت وكفرت بدين الله، ثم أخبر سبحانه بأن الذين كفروا في تكبر واستعلاء ومشاقة ومعاداة للرسل ولما أَتَوْا به.

[٣] ثم ذكر جل وعلا أنه أهلك كثيرًا من الأمم السابقة التي أنزل بها الدمار والهلاك؛ فلما رأوا العذاب نادوا بالتوبة بعد أن فات وقتها، وبحثوا عن مَخْرَج أو مغيث فلم يجدوا من يغيثهم أو يخلصهم، والمراد تحذير كفارِ مكة من أن يكون مصيرهم كهؤلاء الذين وُصفت حالتهم.

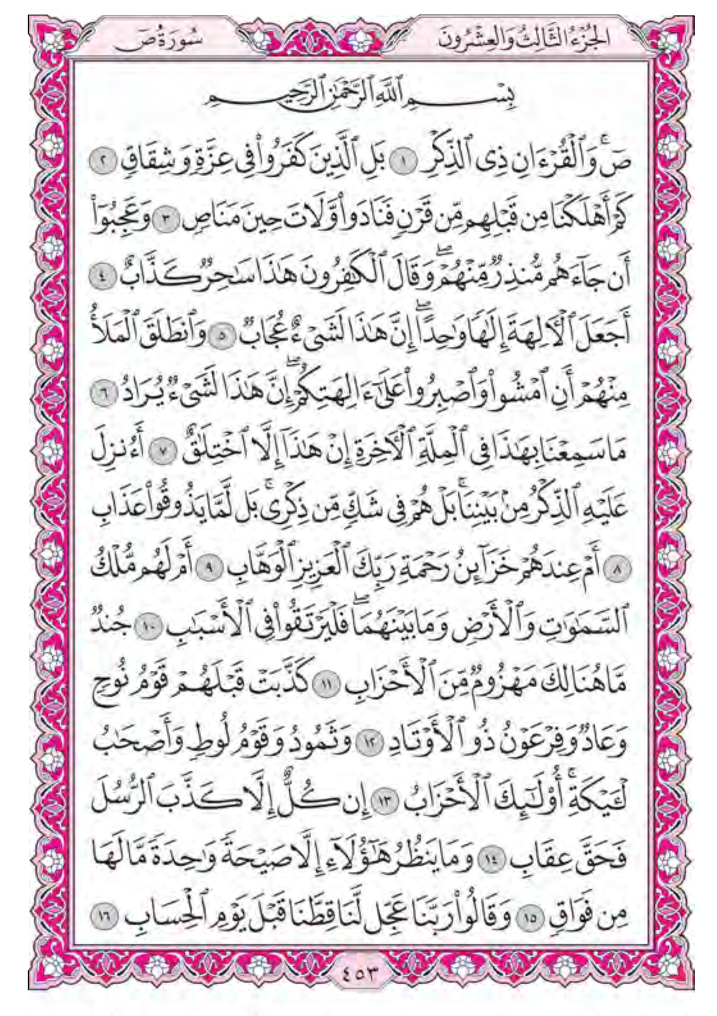
[٤-٥] يخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين تعجبوا من بعث الله إليهم بشرًا منهم يدعونهم إلىٰ التوحيد ويخوفونهم عذاب الله، ثم قالوا: إنه ليس رسولًا؛ بل هو كاذب فيما يزعمه عن الله، وإنه ساحر من السحرة؛ لأنه يأتي بأمور خارقة لا يقبلها عقل. والأعجب من ذلك أنه جعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ ولا شك أن هذا الذي جاء به لشيء يدعو للتعجب والاستغراب.

[٦-٧] وانطلق أشراف قريشٍ ومن لهم كلمة مسموعة في قومهم قائلين لهم، ومحرضين إياهم علىٰ الثبات علىٰ الشرك: اصبروا علىٰ عبادة آلهتكم - وإن تعدَّدت -، فإن هذه الدعوةَ التي قام بها محمد ﷺ مقصودةٌ، ومُرادُه من ذلك: أن يقودكم ويسوسكم، ويكون له الأمر عليكم. ثم قالوا لهم: يا قومنا لم نسمعْ بمثل هذه الدعوة في الملة النصرانية التي هي آخر الملل، ولا سمعنا آباءنا ولا آباءهم يقولون بها، لقد جاء محمد بأمر افتراه واخترعه من عند نفسه.

[٨] ثم يسأل هؤلاء المشركون: هل اختُصَّ محمدٌ - من بيننا - لوحده بنزول الذكر والقرآن والدين عليه؟ ثم بين سبحانه أن الكفار يكذبون النبي ﷺ ويفترون عليه بدون علم ولا بينة، وإنما تجرؤوا علىٰ ذلك لأنهم اغتروا بإمهالهم، ولم يذوقوا العذاب، ولم يحل بهم الهلاك، وسيعلمون حين يعذَّبون أن ما جاءهم به هو الحق، ولن ينفعهم العلم بذلك حين ينزل بهم العذاب.

[٩-١٠] ثم رد سبحانه منكرًا عليهم فقال: أم أن هؤلاء المشركين يملكون خزائن فضل الله، العزيز الذي لا يستطيع أحد أن يمنعه أن ينزل هذا القرآن علىٰ محمد ﷺ، الوهاب الذي لا منازع له؟. أم أنهم يملكون السماوات والأرض وما بينهما فيعطون منها كيفما شاءوا؟ فإذا كان لهم قدرة فليأخذوا بالأسباب التي توصلهم إلىٰ السماء، ثم ليغيروا الأحكام والتصرفات التي لا تروق لهم، وهيهات؛ فلا منازع له ولا راد لقضائه جل في علاه.

[١١] ثم يبشر جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: فلا تحزَن يانبي الله لعناد هؤلاء المشركين وشقاقهم، فإنهم مهزومون كما هُزمت من قبلهم الأحزاب التي تحزبت علىٰ رسلها وكذبتها.


الجُزْءُ الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ صٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

٤٥٣

[١٢-١٣] ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ تسلية له أن كثيرًا من الأقوام قبل قومك كذبوا رسلهم؛ فقد كذبت قبلهم قوم نوح، وعاد قوم هود، وفرعون صاحب الجنود الهائلة والقوة العظيمة. وكذلك ممن كذبوا رسلهم: ثمود قوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب الذي أرسله الله إلىٰ مدين، وأرسله إلىٰ أصحاب الأيكة ذات الأشجار والبساتين الكثيفة الملتفَّة، فهذه بعض الأحزاب التي تحزبت وتجمعت واتفقت علىٰ الكفر بربها، وتكذيب رسلها.

[١٤] ثم أخبر سبحانه أن كلَّ هؤلاء كذبوا الرسل، وجحدوهم، ولم يؤمنوا بما جاؤوهم به من التوحيد والإيمان، فحقَّ عليهم عذاب الله، ونزل بهم عقابه وسخطه.

[١٥] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين ما ينتظرون من نزول العذاب الذي سيحل بهم إلا نفخةً واحدةً ليس لها تكرار، قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾: أي: ما لها من رجوع، وقال بعض المفسرين: إن هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة، وهي المدة ما بين الحلبتين لأنها تجيء في موعدها المحدد.

[١٦] ثم قال هؤلاء المشركون: ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به محمد ﷺ، ولا تؤخره إلىٰ يوم القيامة. قال بعض المفسرين: قالوا هذا علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء والاستبعاد. والقطّ: هو النصيب، وأصله الصك أو الرقعة التي يكتبها الوالي؛ فهم يستعجلون نصيبهم من العذاب يريدونه في الدنيا.

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

[١٧] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ مؤنسًا ومسليًا: واصبر يانبي الله علىٰ ما يقول هؤلاء المشركون مما تكره، فسوف يرون ما يسوؤهم، واذكر قصة عبدنا داود صاحب القوة في تنفيذ أوامر الله؛ لقد كان كثير الرجوع إلىٰ ما يرضي الله.

وأمره جل في علاه لنبيه ﷺ بالصبر ليتقوىٰ علىٰ ما يلاقي من تعنت قومه وأذيتهم.

[١٨] ثم أخبر جل وعلا أنه سخر لداود الجبال يرددن معه التسبيح والتنزيه لله إذا سبح الله صباحًا ومساءً.

[١٩] وأخبر سبحانه أنه سخر له أيضًا الطير تردد التسبيح معه، واعلموا أن كلًّا من الجبال والطير رجَّاعٌ لله سبحانه وتعالىٰ، قال مجاهد: كان داود يسمع تسبيح الجبال والطير.

[٢٠] وأخبر سبحانه أنه قوَّىٰ ملك داود وثبته، وأعطاه النبوة والحكم والفصل بين الناس في النزاعات والخصومات.

[٢١-٢٢] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: وهل جاءك يانبي الله خبر المتخاصمين اللذيْنِ لم يدخلا علىٰ نبي الله داود عليه السلام؛ بل طلعا علىٰ سور منزله ودخلا عليه في محل عبادته بلا استئذان؛ فخاف منهما وفزع لذلك، فطمأناه قائلين: لا تخف ولا تفزع، فما نحن إلا خصميْن ظلم أحدنا الآخر، فاحكم وافصل بيننا بالعدل، ولا تظلم بأن تميل مع أحدنا دون الآخر، ودلّنا علىٰ الحق وأرشدنا إليه، واحملنا عليه.

[٢٣] فقال أحدهما: إن هذا أخي عنده تسع وتسعون نعجة، وأنا ما عندي إلا نعجة واحدة، فطلب مني أن يأخذها، وتكون له ويُدخلها في نعاجه لتكمل المئة، وغلبني في الحجة والكلام والجدال.

[٢٤] فقال داود عليه السلام مباشرةً – وقيل: إنه لم يسمع من الآخر -: لقد ظلمك وتجاوز حدَّه في طلبه أن تضم نعجتك إلىٰ نعاجه، وإن كثيرًا من الشركاء والقرناء ليعتدي بعضهم علىٰ بعض، ويتجاوز بعضهم في حق بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فهؤلاء يمنعهم إيمانهم وعملهم الصالح من الظلم والتعدي والبغي، وهذا الصنف من المؤمنين قليلٌ جدًّا، ولما حكم داود بينهما أيقن أنَّ الله اختبره وامتحنه في هذه القضية، وأنه لم يوفق في الحكم؛ حيث لم يسمع كلام وحجة صاحب النعاج الكثيرة؛ ولهذا طلب من الله المغفرة لما صدر منه، ثم خرَّ ساجدًا لله، ورجع إلىٰ ربه ومولاه بالتوبة النصوح وبالعبادة معترفًا أنه تسرع، ولذا لم يكمل التحقيق في القضية.

[٢٥] ثم أخبر جل وعلا أنه غفر لداود عليه السلام، وَقَبِلَ توبته وإنابته، وأخبر أن له منزلةً عاليةً، ومرجعًا حسنًا، ودرجات عاليات في جنات النعيم.

والنعجة المذكورة في هذه الآية هي الشاة المعروفة، وليست المرأة كما قال القرطبي في تفسيره.

وداود عليه السلام أخذته العاطفة والرحمة والشفقة بصاحب النعجة فاستعجل الحكم وحكم قبل أن يستمع لكلام خصمه فعاتبه ربه، فلما أدرك أنه أخطأ استغفر ربه وخر ساجدًا له، فعفا الله عنه.

أما حكاية زوجة أوريا التي قيل: إن داود رآها تغتسل فأعجبته، فهي من افتراءات اليهود، ومعلوم أنَّ جرأة اليهود علىٰ أنبيائهم كبيرة وكثيرة؛ فقد قتلوا زكريا ويحيىٰ، وقالوا: إن سليمان سخر الجن بالسحر، وقالوا: إن موسىٰ عليه السلام آدر، وقالوا لقريش: إن دينكم أحسن من دين محمد ﷺ، والقصة التي افتروها علىٰ داود لا تصدر عن أحد من الصالحين؛ فضلًا عن الأنبياء المعصومين من الكبائر، وهذه ليست من اللَّمَم.

والحق أن تسور الخصمين علىٰ داود في محرابه من أجل عرض قضيتهم عليه، وهي مسألة النعاج التي حصلت بينهم، والنعاج: هي أنثىٰ الشياه، أي: الغَنَم، والمأخذ عليه أنه حكم فقال: لقد ظلمك قبل أن يستوضح من الخصم الآخر.

[٢٦] ثم أخبر سبحانه أنه جعل نبيه داود خليفة في الأرض، وأمره أن يحكم بين الناس بالحق والعدل، وأن يحذر من اتباع هواه بأن يميل مع أحدٍ في القضاء؛ فيكون ذلك سببًا في ضلاله وإخراجه عن الصراط المستقيم؛ فإن الذين يضلون عن سبيل الله باتباع أهوائهم، وترْك أحكام الله، – من القُضاة وغيرهم – هؤلاء لهم عذابٌ شديدٌ مؤلمٌ موجعٌ بسبب اتباع أهوائهم، وبسبب غفلتهم عن الآخرة، ونسيانهم العرْض علىٰ الله والوقوف بين يديه.

[٢٧] يخبر جل وعلا أنه ما خلق هذه السماء وهذه الأرض وما بينهما عبثًا ولعبًا من غير مصلحة وحكمة مقصودة، فهذا ظن لا يليق بالله، وهو ظن الذين كفروا بالله ورسله، فويلٌ لهم من نار جهنم.

[٢٨] ثم يخبر جل وعلا أن من حكمته عدم المساواة بين أهل التقوىٰ وأهل الفجور، فيقول سبحانه: وهل نساوي بين الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله وعملوا الأعمال الصالحة، بالمفسدين في الأرض بالشرك والظلم والبغي؟ وهل نساوي بين من آمن بالله وخافه، وجعل بينه وبين عذابه وقاية بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه، بمن هو فاجرٌ خارجٌ عن طاعة ربه؟!! فهذا غير لائق بحكمته وعزته؛ فتقدس وتنزه سبحانه عن ذلك.

[٢٩] ثم بين سبحانه أن هذا القرآن الذي أنزله علىٰ نبيه ﷺ هو كتابٌ مبارك فيه خير كثير وعلمٌ غزير، وهدىً وشفاءٌ ونور، والحكمة من إنزاله: أن يتدبر الناس آياته، ويتفكروا في معانيها، ويعملوا بها؛ فتحصل لهم هداية العقول والقلوب، وليتذكر ويتعظ بآياته أصحاب العقول الراجحة، والفهوم المستقيمة.

[٣٠] يخبر جل وعلا أنه أكرم نبيه داود عليه السلام فوهبه النبي الصالح سليمان؛ فكان نعم العبد دينًا وخلقًا وعبادة ورجوعًا إلىٰ الله بالتوبة والإنابة، وأكرمه الله بعد أبيه بالرسالة والملك؛ فكان رسولًا وملكًا، وأُعطي مُلكًا لم يعط أحد مثله.

[٣١-٣٢-٣٣] واذكر يارسول الله حين عُرضت علىٰ سليمان الخيول الأصيلة السريعة من بعد زوال الشمس واستمر العرض حتىٰ غيابها؛ ففاتته صلاة العصر؛ فأدرك أنه أخطأ فندم، وقال: إنني آثرت حب العزة والفخر عن ذكر ربي حتىٰ غابت الشمس، ثم أمر باسترداد الخيول التي أعجبته وقام بقطع سيقانها ورؤوسها بالسيف تقربًا إلىٰ الله بها وبدمائها؛ لعل ذلك يكون تكفيرًا لخطئه؛ فقبلها الله منه. قال بعض المفسرين والشيخ عبدالعزيز المسند في إذاعة القرآن، وعالم الإعجاز القرآني الدكتور زغلول النجار، وآخرون في تفسير هذه الآية: إن سليمان لما رد الخيول مسح أعناقها بيده إما تكريمًا أو إعجابًا بها، وقصدهم إكرام نبي الله من أن ينتقم من بهيمة فيذبحها حنقًا وغيظًا، وغاب عنهم أنه إنما قدمها قربانًا إلىٰ الله لعله يعفو عن إضاعة صلاة العصر، ولعله يرضىٰ عنه، وقد تم ما أراد؛ فأكرمه الله بالنبوة والملك الفريد الذي اختص به، ثم إن نص الآية: ﴿مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾، فهل سيقانها وأضلاعها تمسح؟ فالقائلون – وهم الجمهور – أن قَطْعَ رؤوسها وأقدامها بالسيف أجدر وهو الحق.

[٣٤-٣٥] ثم أخبر جل وعلا أنه امتحن سليمان واختبره يوم أن قال: لأطوفن الليلة علىٰ تسعين امرأة، تأتي كل واحدة بفارس يقاتل في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة، ولدت نصف إنسان. فأناب سليمان عليه السلام، ورجع إلىٰ الله وتاب إليه؛ فتاب الله عليه، ثم دعا عليه السلام ربَّه قائلًا: ربِّ اغفر لي ما كان مني من خطأ وتقصير، وأعطني مُلْكًا خاصًّا بي لا يكون لأحد بعدي مثله، إنك يارب عظيمُ المواهب والعطايا؛ فسخر الله له الجن والريح.

وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾

[٣٦-٣٧-٣٨] فاستجاب جل وعلا لسليمان دعاءه؛ وسخر له الريح وذللها بأنْ جعلها منقادةً له، فكانت ريحًا لينةً تجري حيث يأمرها وحيث يريد، وذلل له شياطين الجن يستخدمهم فيما يريد من أعمالٍ كالبناء والغوص في البحار ونحو ذلك، ومجموعةٌ أخرىٰ ممن تمرَّد وخرج عن طاعته من مردة الشياطين مقرنين ومصفودين في الأغلال.

[٣٩-٤٠] ثم قال جل وعلا لسليمان: هذا عطاؤنا إياك، وتفضلنا عليك، وإكرامنا لك، فأعط من تشاء، وامنع من تشاء، فلن نحاسبك علىٰ ذلك؛ لمعرفتنا بكمال عدلك وتقواك وفضلك. ثم أخبر سبحانه بأن لسليمان في الآخرة لمنزلةً عاليةً رفيعةً، وأنه من المقربين عند الله جل في علاه.

[٤١] واذكر يانبي الله بأحسن الذكر نبينا أيوب عليه السلام لما دعا ربه والتجأ إليه، وطرح همه عليه، واشتكىٰ إليه أن الشيطان أصابه بألم شديد، فأصبح في مشقة وتعب وعذاب، وَنَسَبَ عليه السلام الضر الذي أصابه إلىٰ الشيطان مع أنه من الله لأنه السبب في الذنب وهو الذي جعله يُعْجَبُ بكثرة ماله، وقيل: لأن محتاجًا استغاثه فلم يغثه.

[٤٢] ثم أمر جل وعلا نبيه أيوب أن يضرب الأرض برجله فسينبع منها ماءٌ عذبٌ يشرب منه ثم يغتسل منه، وسيذهب عنه الأذىٰ والضر.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

[٤٣] ثم إن الله جل وعلا كشف ما بأيوب من ضرٍّ، وأرجع له أهله، وزادهم فكانوا مثلي ما كانوا من قبل؛ رحمةً منه سبحانه بأيوب، وعظةً وعبرةً لأصحاب العقول الراجحة والفِطَر السليمة.

[٤٤] ثم أمر جل وعلا نبيه أيوب أن يأخذ حزمة من شماريخ النخل ويضرب بها زوجته إبرارًا بيمينه؛ وسبب حنث أيوب في يمينه أن زوجته كانت تتردد علىٰ زوجها يوميًّا للعناية به، فأخطأت ذات يوم فغضب عليها، فأقسم أن يضربها مئة سوط؛ فبرحمة من الله خفف العقوبة بأن يأخذ عذق نخلة يابسًا قد نزع تمره، وفيه أكثر من مائة شمراخ؛ فيضربها به مرة واحدة، ثم أخبره سبحانه أن هذا العمل لا يجعله يحنث في يمينه؛ فرحمها الله ورحمه بهذه الفتوىٰ. ثم أخبر سبحانه أن أيوب كان صابرًا علىٰ البلاء، فنِعم العبد هو، إنه رجَّاع إلىٰ طاعة الله

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية في التخفيف علىٰ الضعيف والكبير الذي يرتكب جرمًا يستوجب الجلد إذا كان الجلد يمرضه أو يهلكه.

[٤٥-٤٦] واذكر يانبي الله بأحسن الذكر عبادنا الذين أخلصوا لله العبادة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أصحاب القوَّة في العبادة والطاعة، وأصحاب البصيرة في دين الله.

ثم أخبر سبحانه أنه خصهم بخصلة امتازوا بها عن غيرهم، وهي تذكر الدار الآخرة علىٰ الدوام، والعمل والاستعداد لها. وإنهم عند الله سبحانه لمن المختَارين من صفوة البشر، وهم من الأخيار الصالحين.

[٤٨] واذكر يانبي الله بأحسن الذكر أيضًا عبادنا إسماعيل واليسع وذا الكفل، فكل هؤلاء الأنبياء ممن اختارهم الله واصطفاهم، واختار لهم أكمل الصفات والأحوال.

[٤٩-٥٠-٥١-٥٢-٥٣-٥٤] ثم بين سبحانه أن هذا الذي قصه علىٰ نبيه ﷺ ذكر حسنٌ وثناءٌ جميلٌ لهؤلاء الأنبياء، وبين جل في علاه أن الله وعد المتقين من عباده الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ وعْدًا كريمًا أن مرجعهم ومثواهم في غاية الحُسْنِ، وهو الخلود في جنات النعيم، تلك الجنات: تُفتَح لهم أبوابها إكرامًا لهم، فيدخلونها، ويجلسون متكئين فيها علىٰ الأرائك المزينات، ويطلبون – وهم علىٰ هذه الحالة – أنواع الفواكه والشراب الكثيرة التي يشتهونها. وعندهم في الجنة الحور العين اللاتي يقصرن أطرافهن علىٰ أزواجهنّ، وهنَّ في سنٍّ واحدة، وهو أعدل سنِّ الشباب وأحسنه وألذّه. ثم يقال لأهل الجنة: هذا النعيم الذي وعدكم الله أن تلقوه يوم الحساب والجزاء، وأيضًا هذا النعيم الذي رزقكم به دائمٌ مستمرٌّ، لا ينقطع ولا يفنىٰ نسأل الله الكريم من فضله.

[٥٥-٥٦-٥٧-٥٨] واعلموا أن هذا النعيم الذي وصفناه لكم جزاء للمتقين، أما الطاغون المتجاوزون حدَّهم في الشرك والعناد وتكذيب الرُّسُل؛ فإن مصيرهم ومرجعهم لأسوأ مرجعٍ وأقْبَحُه، وهو نار جهنم يدخلونها ويعذبون فيها عذابًا يحيط بهم من كل جانب، فبئس ما مهَّدوا لأنفسهم، وبئس فِرَاشُ النار الذي أُعِدَّ لهم مسكنًا ومستقرًّا. وهذا المرجع والمصير المخزي ليذوقُه ويقاسيه أهل النار، مع ماءٍ مغليٍّ شديد الحرارة فإذا شربوه يكاد أن يقطع أمعاءهم، ويشربون معه ما سال من جلود ولحوم وفروج أهل النار من عصارة وصديد وقيْح. ولهم عذابٌ آخر من نوعه، فهم في النار يُقاسون أصناف الخزيِ، وألوان العذاب.

[٥٩-٦٠-٦١] ثم يُقال لقادة الكفر والضلال وهم يُعذّبون في النار: هذا فريقٌ من الكفار يقتحم النار ويدخلها معكم، فيقول القادة: لا مرحبًا بهم، ولا سعة عليهم، ولا راحة لهم، فهم داخلون للنار، مقاسون حرها وإحراقها ولهيبها. فيقول الأتباع للسادة المتبوعين: بل أنتم لا مرحبًا بكم، ولا تحيَّة لكم، ولا سعة لكم؛ فأنتم السبب في دخولنا النار بما كنتم تزينونه لنا من الشرك والكفر والضلال، فبئس مرجعنا ومستقرنا الذي صرنا إليه بسبب طاعتنا إياكم. ثم يدعون عليهم – بعد أن انقطعت بينهم كل مودة وموالاة – قائلين: ربنا هؤلاء كانوا السبب فيما نحن فيه، فضاعف لهم العذاب.

وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾

[٦٢] ثم قال الطغاة في جهنم: ما لنا لا نرىٰ بأعيننا – في النار – رجالًا كنا نعدهم ونحسبهم في الدنيا من الأشرار؟ ويعنون بذلك فقراء المسلمين وضعافهم.

[٦٣] وقال هؤلاء الطغاة أيضًا: هل أولئك الذين كنا نسخر منهم في الدنيا كانوا هم علىٰ الحق؟ أم أنهم دخلوا النار، ولكن زاغت أبصارنا عنهم فلم نرهم.!

[٦٤] واعلموا أيها الناس أن ذلك التخاصم والتبادل والتجادل بين أهل النار حقٌّ لا شك فيه، وصدقٌ لا مرية فيه.

[٦٥] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: ما أنا إلا نذيرٌ لكم، أحذّركم الشركَ، وأُنذركم عواقبه، واعلموا أنه ما من إله يُعبد بحقٍّ إلا الله الواحد الأحد، القهار الذي قهر وغلب كل شيء.

[٦٦] ثم بين سبحانه أن هذا الواحد القهار هو خالق ومالك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، ومدبرهما بجميع أنواع التدبير، العزيز الغالب الغفَّار، كثير المغفرة لمن تاب إلىٰ الله ورجع إليه.

[٦٧] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين مخوفًا ومحذرًا: اعلموا أيها الكفار إن ما جئتكم به من القرآن والتوحيد والبعث والنشور؛ هو خبرٌ عظيمٌ، وشأنٌ خطيرٌ، يجب أن تنتبهوا له، ولا تغفلوا عنه.

[٦٨] ثم قال ﷺ لهؤلاء المشركين: ولكني أراكم ياقومي معرضين عن هذا القرءان، غير مبالين به!!

[٦٩] وقال لهم ﷺ أيضًا: ويا قوم لم يكن لي أن أعلم – قبل الوحي – بما يدور في الملأ الأعلىٰ في خلق آدم، الذي سيأتي ذكره في الآيات التالية.

[٧٠] واعلموا ياقومي: إن هذا الوحي ينزل علي لأني رسول من عند رب العلمين، وأن وظيفتي أن أنذركم بما يكلفني به ربي من الآيات والذكر الحكيم.

[٧١] واذكر يانبي الله يوم أن قال الله للملائكة: إني خالقٌ بشرًا مادته من طين.

[٧٢] ثم قال سبحانه: فإذا أتممت خلقه ونفخت فيه من روحي؛ فاسجدوا له طاعة لأمري، وإكرامًا له.

[٧٣] ثم بين سبحانه أن الملائكة امتثلوا أمْرَ الله، وسجدوا جميعًا لآدم.

[٧٤] ثم استثنىٰ سبحانه فقال: أما إبليس فقد أبىٰ السجود، واستكبر علىٰ أمر الله، وكان من الكافرين الجاحدين الخارجين عن طاعة الله.

[٧٥] فقال جل وعلا لإبليس موبِّخًا إياه: ما الذي منعك ياإبليس من امتثال أمري للسجود لآدم الذي خلقته بيديَّ تكريمًا له ولذريته؟! هل استكبرت عن السجود الآن؟ أم كنت من العالين؟!! وقد استدل العلماء بهذه الآية علىٰ أن لله يدين تَلِيقَانِ بجلاله من غير تشبيه أو تمثيل، وأن هذا تكريم لآدم وذريته؛ لأن بقية الخلق خُلقوا بكلمة (كن).

[٧٦] فأجاب إبليس اللعين قائلًا: كيف أسجد له وأنا أفضل منه؟! فأنت خلقتني من نار، وخلقته من طين، وعنصر النار أفضل وأحسن من عنصر الطين!

[٧٧] فقال له الله جل في علاه: اخرج أيها اللعين من المحل الكريم، فإنك مُبعَدٌ مدحور.

[٧٨] ثم قال له سبحانه: وسوف أُحل عليك طردي وإبعادي من رحمتي دائمًا أبدًا.

[٧٩] فقال إبليس اللعين: رب فأمهلني، ولا تقضي عليَّ، وأخِّر أَجَلِي إلىٰ يوم يُبعث بنو آدم، وذلك ليتمكن اللعين من غواية من يستطيع غوايته، فلا يدخل النار لوحده.

[٨٠-٨١] فقال له جلَّ في علاه: إنك يا إبليس من المُمْهَلين المُبقىٰ علىٰ حياتهم إلىٰ يوم الوقت المعلوم، إلىٰ حين النفخة الأولىٰ التي يموت بها الثقلان.

[٨٢] فقال إبليس اللعين مقسمًا بعزَّة الله: لأغوينَ يارب بني آدم ولأضلنهم أجمعين.

[٨٣] ثم استثنىٰ اللعين فقال: إلا من أخلصتهم لعبادتك، وأكرمتهم بطاعتك؛ فهؤلاء لا سبيل لي عليهم، ولا طاقة لي بهم.


الجزء الثالث والعشرون — سورة الزمر

قال فالحق والحق أقول ﴿٨٤﴾ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴿٨٥﴾ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴿٨٦﴾ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴿٨٧﴾ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴿٨٨﴾

سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿١﴾ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ﴿٢﴾ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴿٣﴾ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴿٤﴾ خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴿٥﴾

٤٥٨

[٨٤-٨٥] فقال جل وعلا: الحقُّ وصفي، والحق قولي، فإني أقول الحق الذي لا شك فيه: لأملأنَّ جهنَّم منك ياإبليس، وممن تبعك من بني آدم ومشىٰ خلفك، وسار علىٰ طريقتك في الغواية والضلال.

[٨٦] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: لا أطلب منكم أجرًا علىٰ ما أمرني به ربي أن أبلغه لكم، ولست ممن يحتال علىٰ الناس فأدَّعي ما ليس لي؛ بل إني رسول الله أتبع ما يوحىٰ إليَّ.

[٨٧-٨٨] واعلموا أن هذا القرآن الكريم والوحي ما هو إلا موعظةٌ وتذكيرٌ للعالمين من الجن والإنس، فبه يتّعظون، وبه يهتدون. وسوف تعرفون وتعلمون صدق هذا القرآن، وما أخبر به من وعد ووعيد حين يقع بكم العذاب، وتنقطع بكم الأسباب. وهذه الآية من آيات الإعجاز؛ فقد تبين في كل عصر شيء مما احتواه هذا القرآن من أعمال الغيب.

سورة الزمر

سورة الزمر مكيّة وآياتها خمس وسبعون آية.

[١] يخبر جل وعلا أن هذا القرآن العظيم إنما هو تنزيل من الله لا من غيره كما يقول المشركون، وقد أنزله سبحانه علىٰ نبيه محمدٍ ﷺ؛ فاعملوا بما تضمنه من أحكام وأوامر، وهو سبحانه الغالب علىٰ كل شيء، الحكيم في جميع تصرفاته وأفعاله.

[٢] ثم بين سبحانه أن هذا القرآن الذي أنزله علىٰ نبيه ﷺ كله حق ونور وهدىٰ للعالمين، وهو شامل لتوحيد الله والإيمان برسله وأمور المعاد وأعمال الدنيا من عبادة الله وإعمار الأرض وغير ذلك، ثم أمر جل في علاه نبيه ﷺ أن يخلص العبادة لله وحده، وأن يخلص التجاءَه لله، والأمر له ﷺ ليلزم أتباعه به.

[٣] واعلموا أيها الناس أن لله وحده الدين الخالص من شوائب الشرك والرياء، وأن أولئك المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء، كانوا يقولون: ما نعبد تلك الآلهة إلا لتشفع لنا عند الله، وتقربنا عنده منزلة؛ فهؤلاء لا شك أنهم في ضلال وكفر مبين؛ وسوف يفصل سبحانه بين المؤمنين والمشركين يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر التوحيد والشرك؛ فيجازي كلًّا بما يستحق؛ فهو جل في علاه ليس بينه وبين أحد من خلقة وسائط فالخلق خلقه، وكلهم عبيده، والجميع محتاج إلىٰ رحمته، وإنه سبحانه لا يوفق طريق الهدىٰ والاستقامة لكل مفتر علىٰ الله مصر علىٰ العناد والكفر؛ لأنه اختار الضلال وأصر عليه، أما الراغب في الخير الملتمس للرشاد فهو الجدير بالمعونة والهداية.

[٤] ثم يخبر جل وعلا علىٰ سبيل الفرض والتقدير لو أراد سبحانه أن يتخذ ولدًا لاختار من خلقه ما يريد، ولكن تنزه وتقدس جل في علاه عن أن يكون له ولد؛ فهو سبحانه الواحد الأحد، الفرد الصمد، في ذاته وصفاته، القهار الذي قهر خلقه بقدرته.

قال ابن كثير رحمه الله: ثم بين تعالىٰ أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارىٰ في العزير، وعيسىٰ، فقال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أي: لكان الأمر علىٰ خلاف ما يزعمون.

ومعلوم أن الولد يُطلَبُ لِيخْلف أباه ويساعده في أموره وشيخوخته، والله جل وعلا لا يتصف بشيء من صفات الضعف، ثم إن ما سوىٰ الله مخلوق، والمخلوق لا يكون ولدًا للخالق؛ فتنزه سبحانه عن النقص والحاجة؛ فهو الغني الحميد الذي لا يحتاج إلىٰ شيء، والخلق كلهم محتاجون إليه.

[٥] واعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما بالحق، أي: الصواب الذي اقتضته حكمته وقدرته لمصالح عباده الذين اختاروا وحملوا الأمانه؛ فتنزه سبحانه عن أن يخلق شيئًا عبثًا أو باطلًا، وبين سبحانه أنه خلق الليل والنهار، وجعل كلًّا منهما يغطي علىٰ الآخر؛ فالليل يغطي نور النهار حتىٰ يذهب بضوئه، والنهار يغشىٰ الليل ويلتف عليه حتىٰ يذهب بظلمته، وهكذا، ثم بين سبحانه أنه ذلل الشمس والقمر بانتظام لمنافع العباد، وكلٌّ من الشمس والقمر يجري في مداره إلىٰ حين قيام الساعة، واعلموا أن الخالق لهذه المخلوقات هو الغالب علىٰ كل ما سواه، الكثير المغفرة لذنوب عباده التائبين.

خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾

٤٥٩

[٦] يخبر جل وعلا أنه خلق الناس جميعًا من نفس أبيهم آدم، ثم إنه خلق زوجه حواء من نفس التربة التي خلق منها آدم، وهذا علىٰ قول، والقول الأرجح: أنه خلق حواء من ضلع آدم، كما جاء في الحديث، وخلق لكم سبحانه من الأنعام ثمانية أنواع ذكرٍ وأنثىٰ من الإبل والبقر والضأن والمعز ليتم بهما التناسل وبقاء النوع، وإنه جل في علاه يخلقكم في بطون أمهاتكم طورًا بعد طور في ظلمات البطن، والرحم، والمَشِيمَة، واعلموا أن الذي خلق هذه الأشياء هو الله ربكم الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، الذي لا معبود بحق إلا هو، فكيف تعدلون عن عبادته إلىٰ عبادة غيره مِن خلقه؟

[٧] ثم قال سبحانه: اعلموا أيها الناس أنكم إن تكفروا بربكم فإنه جل وعلا غنيٌّ عنكم وعن غيركم، وليس بحاجة إليكم، ولا لعبادتكم، ولا يضره كفركم وعصيانكم، ومع غنائه وعزته فهو سبحانه لا يرضىٰ لعباده الكفر؛ بل ينهاهم عنه، لعلمه أنه سيورثهم الشقاوة السرمدية في النار، وإنما يرضىٰ لهم شكر نعمه عليهم، واعلموا أنه لا تحمل نفس يوم القيامة إثم نفس أخرىٰ، وأن مصيركم يوم القيامة إلىٰ ربكم فيخبركم بما عملتم في الدنيا ويجازيكم عليه، وهو سبحانه عليم بما تخفيه نفوسكم من أسرار.

[٨] ثم يخبر جل في علاه عن كرمه بعبده وقلة شكر عبده له، وأنه حين يصيبه مكروه يدعو ربه مستغيثًا به أن ينجيه؛ فإذا نُجِّي من الضر الذي أصابه، نسي الله مسبب الأسباب الذي كشف ما به من ضر؛ ونسب النجاة إلىٰ الطبيب الحاذق، وقائد المركبة الماهر؛ وعاد لمثل ما كان عليه من الكفر والضلال وعبادة الأوثان؛ فقل يانبي الله لمثل هؤلاء متوعِّدًا إياهم: تمتَّع بكفرك تمتُّعًا قليلًا، أي: في زمنٍ قليل، وهو مدّة بقائك في الدنيا، فإنك من أصحاب النار المخلَّدين فيها، الذين لا يخرجون منها أبدًا.

[٩] ثم نفىٰ جل وعلا المساواة بين المشرك والمؤمن، فقال: هل يستوي الكافر المتمتع في هذه الحياة الدنيا، مع المؤمن القائم علىٰ أمر الله الممتثل له أمرًا ونهيًا؟! والقائم لله في جوف الليل راكعًا وساجدًا يتعبد لربه وهو خائفٌ وجِلٌ منَ عذاب الله، راجٍ رحمة الله ومغفرته وجنته؟! قطعًا لا يستويان، ثم نفىٰ سبحانه أيضًا المساواة بين العالم والجاهل، فقال: هل يستوي الذين يعلمون دين الله، ويعلمون توحيده وشرعه، مع الذين لا يعلمون شيئًا عن ذلك؟! ثم ختم الآية فقال: إنما يتذكر ويتعظ بهذه النصائح والتوجيهات أصحاب العقول الراجحة، والفطر السليمة.

[١٠] يأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لعباد الله المؤمنين: اتقوا ربكم بفعل الطاعات واجتناب المنهيات، وأخبرهم أن الذين امتثلوا أوامر الله واجتنبوا ما يكره: لهم في الدنيا الاطمئنان والرضي والرزق، ولهم في الآخرة جنة عرضها السماوات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾[النحل:٩٧]، ثم لما كان بعض المؤمنين المضطهدين في بعض البلاد لا تحصل لهم الحياة الطيبة أمرهم أن يهاجروا في أرض الله الواسعة؛ ليحصلوا علىٰ الاطمئنان والراحة وعلىٰ عبادة الله من غير مضايقة، وكان صناديد مكة يقولون للنبي ﷺ: (خسرت يامحمد إذ هجرت دين جدك عبدالمطلب وأعمامك وقومك)، فكان الجواب: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[الزمر:١٥]، ثم بين سبحانه أن الذين صبروا علىٰ مفارقة أوطانهم وتحملوا الشدائد والمصاب في سبيل إعلاء كلمة الله؛ سوف يعطيهم الله أجرًا عظيمًا في الآخرة بغير عدّ ولا مقدار، وهذا تعظيم لجزاء الصابرين وثوابهم.

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾

[١١] وقل يانبي الله لقومك: إن الله أمرني أنْ أعبده وحده لا شريك له، وأن أخلص له العبادة والدين.

[١٢] وقل لهم يانبي الله: وقد أمرني ربي أن أكون أول المسلمين الذين استسلموا لله بالتوحيد وانقادوا له بالطاعة ظاهرًا وباطنًا.

[١٣] وقل لهم يانبي الله: إني أخاف من الله إن عصيته فيما أمرني به من الإخلاص والإسلام، أن يعذبني يوم القيامة عذابًا عظيمًا.

[١٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: واعلموا أيها المشركون أني أخص عبادتي لله وحده لا شريك.

[١٥] ثم قل لهم يانبي الله تهديدًا وإنذارًا: أما أنتم أيها الكفار فاعبدوا ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام، فإن ذلك لا ينفعكم ولا يضر الله شيئًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠]؛ فإن العاقبة للمتقين، ثم قل لهم: إن الخاسرين حقًا هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا إن ذلك هو الخسران البين الواضح الذي لا خسران فوقه.

[١٦] ثم بين سبحانه أنواع العذاب الذي يعذب به هؤلاء الخاسرين المشركين ومن ذلك: أن تُظِلَّهُم من فوقهم طبقات من النار تشبه قطع السحاب العظيمة، ومن تحتهم أيضًا كذلك، وهكذا يخوِّف الله عباده بهذا العذاب الشديد؛ ليتقوه ويحذروه، ويوحدوا الله، ثم يأمر جل وعلا عباده أن يتقوه وذلك بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[١٧] ثم إن الله جل وعلا بعد ذكر الخاسرين أثنىٰ ومدح الذين اجتنبوا طاعة الشيطان وعبادة غير الله؛ فأعرضوا عن ما يتعلق به المشركون من الأوثان والأصنام وعبادة الملائكة، وما يتعلق به اليهود من عبادة عزير، وما يتعلق به النصارىٰ القائلين بالتثليث، وما تتعلق به الطوائف الأخرىٰ كالثنوية وعبدة الكواكب، ثم تابوا إلىٰ الله واستقاموا علىٰ عبادته مخلصين له الدين؛ لهم السعادة العظيمة الدائمة في حياتهم الدنيا، ولهم في الآخرة جزاءٌ عظيمٌ، ورضوان من الله عليهم، ونعيمٌ دائمٌ في الجنة، ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يبشر عباد الله الذين هذه مناقبهم وهذه صفاتهم.

[١٨] ثم بين سبحانه أن هذا التبشير يكون لأولئك الذين يستمعون لكلام الله فيتبعون أحسنه، ولا شك أن كلام الله كله أحسن الحديث، والمقصود في هذه الآية: هو أحسن ما يفهم منه؛ لأن القرآن حمال أوجه؛ كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأولئك الذين يتبعون أحسن ما يفهم من كلام الله هم الذين هداهم الله إلىٰ أحسن الأخلاق والأعمال، وأولئك هم أصحاب العقول التي سلمت من الشكوك وشهوات النفس الكثيرة والمغريات.

[١٩] ثم أخبر جل في علاه أن أولئك الذين وجبت عليهم كلمة العذاب بسبب كفرهم وضلالهم وعنادهم، هل تستطيع يانبي الله إنقاذهم وإخراجهم مما هم فيه من الأعمال والاعتقاد الذي يستحقون بسببه النار؟!

[٢٠] ثم أخبر سبحانه أن أولئك المؤمنين الذين جعلوا بينهم وبين عقاب الله وقايةً بتوحيده وفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لهم في الجنة منازل عالية مزخرفة بعضها فوق بعض، مبنية بالذهب والفضة محصنة البناء، تتدفق من تحتها الأنهار، وتجري في منظر بديع، وشكلٍ جميل، وهذا وعْدٌ من الله جل في علاه وعَدَ به عباده المتقِّين، واللهُ لا يخلف الميعاد.

[٢١] ألم تعلم يانبي الله أن الله أنزل من السماء هذا المطر فأجراه وأدخله وأودعه ينابيع في الأرض، ثم يستخرج هذا الماء ويستخدم في سقي الزروع، فتنبتُ به النباتات المختلفة الألوان، وتخضر به الأرض وتزهو، ثم يهيج ذلك الزرع عند استكماله؛ فيجفُّ وتذهب نضارته، فيصير أصفر اللون، ثم يتفتت ويتكسَّر، إن في ذلك لموعظةً بليغةً، وتذكرةً لأصحاب العقول الراجحة والفطر السليمة، فيتذكرون بها لُطفَ الله، وكمال قدرته، ويتذكرون أيضًا أن الحياة متاع زائل، وأنها تشبه ذلك النبات الذي يخضر ويزهو ويهيج ثم يتفتت إذا يبس ثم تذروه الرياح.

[٢٢] ثم نفىٰ جل وعلا المساواة بين المؤمن والكافر وبين المهتدي والضال، فقال: هل يستوي من شرح الله صدره ووسَّعَه وفسَّحَهُ للهداية وقبول الإسلام، والعمل بأوامر الله، فهو بذلك علىٰ بصيرةٍ وهدىً من الله!!، هل يستوي هذا بمن ضل عن الهدىٰ وكان صدره ضيقًا بأحكام الإسلام يتيه في ظلمات الضلالة، وأوحال الغواية؟! فهلاكٌ وخسارة مُحَقَّقة لكل من قسا قلبُه وغلُظ وجفا عن قبول ذكر الله والقرآن، فمن كانت هذه حاله فهو في ضلالٍ بيِّنٍ واضح.

[٢٣] ثم بين سبحانه أنه هو الذي أنزل أحسن الحديث، وهو القرآن الكريم، أنزله الله يشبه بعضه بعضًا في الترتيب والسبك والحُسْن، ويُثَنِّي فيه الله القصص والأحكام والمواعظ، فيؤثِّر في قلوب المهتدين، فتقشعرُّ وتنقبض منه جلود الذين يخافون الله، والدار الآخرة، لما فيه من الترهيب والتخويف، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إليه عند ذكر الترغيب والرجاء، ذلك القرآن، والتأثير الحاصل به لهؤلاء المهتدين هدايةٌ من الله لعباده، يهدي به الله من يشاء من عباده رحمةً وفضلًا، ومن يضلله سبحانه عن الإيمان بهذا القرآن ممن أصر علىٰ الكفر وحارب الدعوة والقائمين بها فما له من هاد يهديه ويوفقه إلىٰ طريق الحق والاستقامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، لا شك أن إضلال الله للعبد إضلال جزائي وليس إضلالًا ابتدائيًّا، وذلك بسبب إصراره علىٰ الكفر مع وضوح الهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:٥].

[٢٤] ثم نفىٰ جل وعلا المساواة بين الذين يخشون ربهم، وبين غيرهم ممن قست قلوبهم عن الحق، فقال: هل يستوي من كان مصيره يوم القيامة إلىٰ النار التي يتقيها ويحاول درأها عن نفسه بوجهه، بمن يأتىٰ يوم القيامة آمنًا مطمئنًا بعيدًا عن النار وسعيرها؟! لا يستويان أبدًا، ثم قيل للظالمين المجاوزين حدودهم بالشرك والمعاصي: ذوقوا عذاب النار جزاء ما كنتم تعملون.

[٢٥] ثم أخبر جل وعلا أن الأشرار الفجار من الأمم السابقة كذبت رسلها كما كذبك قومك يانبي الله؛ فجاءهم عذاب الله من حيث لا يتوقعون ولا يتصورون.

[٢٦] ثم أخبر سبحانه أنه أذاقهم بذلك العذابِ: الخزي والفضيحة والذلَّ في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر وأشد وأبقىٰ من عذاب الدنيا، لو كانوا يعلمون لما عملوا ما يوصلهم إليه من الكفر والتكذيب والضلال.

[٢٧] ثم أخبر سبحانه أنه بين ووضح للناس – ومنهم: مشركو العرب – في هذا القرآن من كل مثل يحتاجون إليه في أمر دينهم، فبين لهم أمثال الأمم السابقة، وأمثال أهل الخير والشر، وأمثال التوحيد والشرك؛ وبين لهم هذه الأمثال لعلهم يتعظون فيعتبرون فيؤمنون ويوحدون.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

[٢٨] ثم أخبر سبحانه أن هذا القرآن أنزله بلسانٍ عربيٍّ واضح الألفاظ والمعاني، لا نقص فيه، ولا لبس، ولا خلل، ولا تضادَّ فيه؛ لعلهم يتقون الله؛ فيوحدونه، ويؤمنون برسوله ﷺ.

[٢٩] ثم ضرب جل وعلا مثلًا للعبد المشرك وللعبد المؤمن، فقال سبحانه: ضرب الله مثلًا عبْدًا مملوكًا لمجموعة من الشركاء متشاكسين ومختلفين ومتنازعين فيما بينهم، فيطلب أحدهم طلبًا ويطلب الآخر عكسه، فلا يدري العبد من يرضي من أسياده، وعبدًا آخر لسيِّدٍ واحدٍ لا شركة فيه مع أحد، فسهلٌ علىٰ هذا العبد معرفة مقصود سيده، وتلبية ما يريده منه، فالأول مثل المشرك، والثاني مثل الموحد، فهل يستويان مثلًا؟! قطعًا لا يستويان أبدًا، فكذلك الموحد والمشرك لا يستويان أبدًا، والحمد لله علىٰ ظهور الحق وجلائه، وبيان الباطل وخذلانه، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون هذه الحقيقة البيِّنة لفساد عقولهم ولاستحواذ الشيطان عليهم.

[٣٠] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أنه ميت ومفارقٌ لهذه الحياة الدنيا، وكذلك هؤلاء المشركون ميتون أيضًا.

[٣١] وأخبر سبحانه أن المؤمنين والكافرين سيقفون جميعًا عند ربهم يوم القيامة، يوم الجزاء والحساب، يختصمون ويتنازعون، فيفصل سبحانه بينهم جميعًا، ويقضي بينهم بحكمه العادل.

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ
إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي
جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾
لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾
لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ
عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ
أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ
ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ
قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ
اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

[٣٢] واعلموا أيها الناس أنه لا أحد أشدُّ ظلمًا ممن افترىٰ علىٰ الله الكذب، بأن ادعىٰ له شريكًا يُعبَد معه، أو ادعىٰ النبوة، أو قال علىٰ الله بغير علم، ولا أحد أشدُّ ظلمًا أيْضًا ممن كذَّب وكفر بالقرآن الذي جاءه علىٰ لسان محمد ﷺ، أليست نار جهنّم مأوًىٰ ومرجعًا ومسكنًا لمن كفر بالله، وكذَّب وجحد بآياته ورسوله ﷺ؟!

[٣٣] ثم بين جل وعلا حسن عاقبة أهلِ الصدق والإيمان، فقال: والذي جاء بالقول الصدق وقول الحقِّ، ومن صدقه وآمن به؛ أولئك الذين وصلوا مرتبة التقوىٰ؛ بأنْ جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية بتوحيده، وفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

[٣٤] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المتقين جزاؤهم عند ربهم: أنَّ لهم الجنة يطلبون فيها ما يشاؤون ويتمنون – مما لا أذن سمعت ولا عين رأت، ولا خطر علىٰ قلب بشر –، ذلك الجزاء: جزاء الذين أحسنوا في النيات والأقوال والأعمال، وعبدوا الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإن الله يراهم.

وأول من تنطبق عليه هذه الصفات النبي ﷺ والصديق، ثم من سار علىٰ هديهما، وسلك مسلكهما في الاستقامة والدعوة.

[٣٥] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المتقين أعطاهم جل وعلا ما أعطاهم من فضله ورحمته ليكفِّرَ عنهم الأعمال السيئة من الذنوب والمعاصي والسيئات، ويغفرها لهم، ويسترها عليهم، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون من التوحيد، والطاعات والقربات، والباقيات الصالحات.

[٣٦] ثم أخبر جل وعلا بعصمته لنبيه محمد ﷺ، فقال: أليس الله بمتكفِّلٍ بحفظ عبده محمد وكفايته من أي أذىٰ يصيبه؟!! ويخوفونكَ يانبي الله بالذين يعبدونهم من دون الله من الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع، واعلموا أن من اختار الكفر وأصر عليه يضلله الله عن طريق الإيمان والتوحيد، فلا يقدر أحدٌ علىٰ هدايته أبدًا.

وهذا الإضلال إضلالٌ جزائيٌّ؛ لأنهم ولدوا علىٰ الفطرة كسائر البشر؛ فالذين اهتدوا زادهم الله هدىٰ، والذين أصروا علىٰ الكفر والضلال ثبتهم الله علىٰ ما اختاروا.

[٣٧] وأخبر سبحانه أن من يوفقه الله ويرشده للهداية، فلن يستطيع أحدٌ إغواءه وإضلاله، ثم يسأل سبحانه سؤال تقرير: أليس لله العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء؟! أليس الله بقادرٍ علىٰ أن ينتقم ممن كفر به وكذب رُسُلَه وحارب وعادىٰ أولياءه؟! بلىٰ، فالله علىٰ كل شيء قدير.

[٣٨] ولئن سألتَ يانبي الله هؤلاء المشركين: من الذي خلق السماوات والأرض وأوجدهما من العدم، وخلق ما بينهما وما فيهما، ليُجيبونك: الله وحده هو الذي خلق السماوات والأرض، فقل لهم حينها: أخبروني: لو أراد الله أن يلحق بي أي ضرر من الأضرار، فهل يستطيع هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله أن يزيلوا هذا الضرر بالكلية أو يخففوه؟!!، وأخبروني ياقوم: لو أراد الله أن يوصل إلي منفعةً في ديني ودنياي، فهل يستطيع هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله منع هذا الخير من الوصول إليَّ؟!! فسيقولون: لا تستطيع آلهتنا رفع الضر، ولا منع الرحمة، فقل لهم حينها: حسبي الله يكفيني في جميع أموري، فهو الذي يجلب لي النفع، ويدفع عني الضر، وهو سبحانه كافيني وحده، وهو الذي يعتمد ويتوكل عليه المؤمنون.

[٣٩] وقل يانبي الله لقومك المكذبين المعاندين المصرين علىٰ الكفر: ابقوا علىٰ حالتكم التي أنتم عليها من الشرك والعناد، وعبادة من لا يضر ولا ينفع؛ فإني عاملٌ ومقيمٌ علىٰ حالتي التي أنا عليها من توحيد الله وإفراده بالعبادة، فسوف تعلمون لمن تكون العاقبة الطيبة والجزاء الحسن.

[٤٠] وقل لهم يانبي الله: وسوف تعلمون ياقوم من منا يأتيه عذابُ الله يخزيه ويفضحه ويُذلّه في الدنيا، ويحلُّ عليه في الآخرة، وينزلُ به عذابٌ شديدٌ دائمٌ مستمرٌّ لا ينقطع أبدًا.

إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

[٤١] يخبر سبحانه أنه أنزل علىٰ نبيه ﷺ هذا القرآن شاملًا لكل الحقوق ومصالح الناس؛ وأن كل ما فيه حق وصواب، فمن اهتدىٰ به وعمل بما فيه، فإن نفع ذلك عائد لنفسه، ومَن عصىٰ وضلَّ فإنما ضرر ذلك يعود علىٰ نفسه، ولن يضرَّ الله شيئًا، وما أنت يانبي الله عليهم بوكيل تحفظ أعمالهم، وتحاسبهم عليها، وإنما أنت يانبي الله عليك البلاغ؛ فالله هو الذي له الحق، وهو الفعال لما يريد.

[٤٢] ومما يدل علىٰ كمال قدرة الله جل وعلا أنه هو وحده الذي يقبض الأرواح حين يتم أجلها، وهذه هي الموتة الكبرىٰ، ويمسك التي لم تمت في منامها، وهذه هي الموتة الصغرىٰ؛ فيمسك سبحانه التي قضىٰ عليها الموت فلا يردها إلىٰ الجسد، أما الأخرىٰ التي لم يتم أجلها فيردها في جسدها حتىٰ تستكمل الزمن المقدر لحياتها في الدنيا، واعلموا أن فيما ذكره جل في علاه من قدرته علىٰ توفي الأنفس وإمساكها وإرسالها؛ دلائل واضحة علىٰ قدرته لمن تفكر وتدبر.

وقد تقدم الجمع بين هذه الآية والآيات التي فيها أن ملك الموت يتوفاها، والآيات التي ذكر فيها أن ملائكة الموت هم الذين يتوفونهم.

وقلنا: إن الله هو الآمر لملك الموت، وأن ملك الموت له ملائكة مكلفون بالتعاون معه لهذا الغرض، ولما كان سبحانه هو الآمر صار هو الذي يتوفىٰ الأنفس في حقيقة الأمر؛ لأن الملائكة ينفذون أمر الله سبحانه.

[٤٣] أنكر جل وعلا علىٰ هؤلاء المشركين الذين اتخذوا هذه الآلهة شفعاء من دون الله؛ فقل لهم يانبي الله: أتتخذون هذه الآلهة شفعاء كما تزعمون، حتىٰ لو كانت هذه الآلهة لا تملك لكم نفعًا ولا ضرًّا، ولا تعقل من عبادتكم لها شيئًا؟

[٤٤] ولما ذكر سبحانه وتعالىٰ أن شفعاءهم لا يملكون شيئًا ولا يعقلون أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين: اعلموا أن لله الشفاعة جميعًا، وأن له ملك السماوات والأرض، فالأمر كله له وحده، ولا أحد يملك الشفاعة عنده إلا بإذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له، ثم إليه جل في علاه ترجعون يوم القيامة فيحاسبكم علىٰ أعمالكم ويجازيكم عليها.

[٤٥] واعلم يانبي الله بأنك إذا ذكرت الله وحده انقبضت ونفرت قلوب هؤلاء المشركين، وإذا ذكرت آلهتهم التي يعبدونها من دون الله إذا هم يستبشرون فرحًا وابتهاجًا بذلك.

[٤٦] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يدعوه ويلتجيء إليه قائلًا: اللهم يارب ياخالق السماوات والأرض وموجدهما من العدم علىٰ غير مثالٍ سابق، أنت سبحانك تعلم ما غاب عن المخلوقات، وما تشاهده المخلوقات في السماوات والأرض، فلا يغيب عنك شيء، ولو كان مثقال حبة من خردل، وأنت سبحانك تحكم وتفصل بين عبادك - يوم العرض عليك، والوقوف بين يديك - فيما كانوا فيه يختلفون من أمر التوحيد والشرك، ومن أمور الدين من العقائد والعبادات؛ فتجازي المحسنَ وتعاقب المسيء.

[٤٧] ومن شدة ما يرىٰ هؤلاء المشركون من العذاب الرهيب الذي أعد لهم بسبب كفرهم وظلمهم وتجاوزهم حدود الله فإنهم يتمنون لو أن لهم مُلْكَ ما في الأرض جميعًا من الأموال والنفائس، وانضم إليها مثلُها، ثم دفعوا كل ذلك ليفدوا أنفسهم من عذاب الله يوم القيامة؛ ما قبله الله منهم، ولا أغنىٰ عنهم من عذاب الله من شيء، ثم ظهر لهم - في ذلك الحين - ما لم يكونوا يظنون ويتوقعون من عقوبات الله وسخطه، وشدة عقابه، نسأل الله السلامة والعافية.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾

[٤٨] وفي هذا اليوم العظيم يوم القيامة ظهرت لهؤلاء المشركين مساوئ أعمالهم من الشرك والظلم والمعاصي، ثم أحاط بهم وطوَّقهم العذاب الذي كانوا منه يسخرون، وإياه يستعجلون.

[٤٩] ثم يخبر جل وعلا عن حال هؤلاء المشركين الذين إذا أصاب أحدهم ابتلاءٌ من فقر أو مرض أو اضطرار؛ فإنه يدعو الله مخلصًا له الدين، غيرَ مشرك به، فإذا أنعم الله عليه ودفع عنه ما نزل به من الضر؛ فإنه ينسب الفضل لنفسه، وأن دفع الضر الذي نزل به بسبب ما عنده من العلم، وأن ما جاءه من النفع والخير بسبب ذكائه وتصرفه وأنه مستحق لذلك، قال الله: بل هي فتنة، أي: اختبار وابتلاء وامتحان؛ لينظر من يشكر ممن يكفر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك امتحانٌ من الله، واختبارٌ لهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، جاءت علىٰ لسان قارون في سورة القصص، الآية: ٧٨، وهي قول كثير من أهل الثراء في كل زمان ومكان، ألا تسمع أحدهم يقول: لقد أوتيته بذكائي، أو بمعرفتي بطرق التجارة، أو بخبرتي، ونحو ذلك؟!، ونسي المسكين أن خبرته ومعرفته هي منحة من الله، ونسي أن الله قادر أن يسلبه جميع مَالِهِ في لحظات، يمسي ثريًّا ويصبح فقيرًا لا مال عنده، بعملية يسيرة في أسهم ونحو ذلك؛ فيخسر جميع ماله.

[٥٠] واعلم يانبي الله أن أناسًا من قبل قومك أنعم الله عليهم امتحانًا لهم، فأنكروا نعمة الله، وقالوا: إنهم أوتوا ما أوتوا علىٰ علم عندهم بوجوه المكاسب، فما نفعتهم هذه الكلمة، ولم تنفعهم مكاسبهم الدنيوية؛ فحلَّ بهم عذاب الله، ونزل بهم سخطه؛ بسبب غرورهم وما كسبوا من الأعمال والأموال.

[٥١] ثم اعلم يانبي الله بأن الذين ظلموا وتجاوزوا حدودهم من أمتك ليسوا بأفضل ممن سبقهم، فسوف يصيبهم سيئات ما كسبوا من الأعمال، وما هم بفائتين علىٰ الله، ولا غالبين له، فالله علىٰ كل شيء قدير.

[٥٢] ثم سأل جل وعلا هؤلاء المعاندين سؤال توبيخ، فقال: أَوَلَمْ يعلم يانبي الله هؤلاء أن بَسْطَ الرزق وقدْرِه لا علاقة له بصلاح الإنسان من طلاحه؟! فهو ابتلاء واختبار لكم من الموسَّع والمضيَّق عليهم، أن الله يوسع رزقه علىٰ من يشاء من عباده، ويضيِّقه علىٰ من يشاء من عباده؛ كلُّ ذلك لحكمة بالغة، واعلموا أن بسط الرزق وتقتيره لعبرة وحجة لقوم يؤمنون بحكمة الله البالغة، وبرحمته الواسعة.

[٥٣] وقل يانبي الله لعباد الله المؤمنين الذين اتبعوا أهواءهم، وأفرطوا في الجناية علىٰ أنفسهم بكثرة الذنوب والمعاصي، واستكثروا منها، قل لهم: لا تيأسوا من مغفرة الله لذنوبكم، واعلموا أن الله يغفر جميع الذنوب - كبيرها وصغيرها - مهما عظُمَتْ، فإن الله كثيرُ المغفرة لعباده المستغفرين التائبين، كثير الرحمة لعباده التائبين.

قال بعض العلماء: هذه أرجىٰ آية في القرآن.

[٥٤] وقل لهم يانبي الله أيضًا: ارجعوا إلىٰ ربكم وأقبِلوا عليه بقلوبكم وجوارحكم وأعمالكم، واستسلموا لله بالتوحيد، وانقادوا له بالطاعة؛ من قبل أن ينزل بكم عذاب الله، فلا تستطيعون دفعَه، ولا تُنصَرون في الدنيا ولا في الآخرة.

[٥٥] وقل لهم يانبي الله أيضًا: بادروا إلىٰ اتِّباع ما في القرآن، وامتثلوا ما فيه من الأوامر والنواهي، قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به، وقوله: ﴿أَحْسَنَ﴾، أي: ما يفهم منه.

[٥٦] ثم قل لهم يانبي الله: ياقوم اعملوا بما أمرتكم به، وبادروا إلىٰ ذلك، قبل أن تقول نفسٌ: ياحسرتي وندامتي علىٰ ما قصَّرتُ في حقِّ الله، والإيمان به وطاعته؛ وإنني كنت من المستهزئين الذين يسخرون بدين الله وعباده المؤمنين، حين لا ينفع الندم.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

[٥٧] أو تقول هذه النفس بقصد التأسف والتندم: ياليت أن الله هداني فأكون ممن يَتَّقُونَهُ فأنجو من العقاب والخزي والعذاب.

[٥٨] أو تقول هذه النفس يوم القيامة حين تعاينُ العذاب: أتمنىٰ أن يكون لي رجعةٌ إلىٰ الدنيا؛ فأعمل الصالحات، وأكون من المحسنين في اعتقاداتهم وأقوالهم وأعمالهم.

[٥٩] فيأتي الرد من الله جل وعلا إبطالًا لأمانيهم الكاذبة: ليس الأمر كما تقولون وتتمنَّون؛ فقد جاءتكم آياتنا الدالة علىٰ الحق والوحدانية؛ فجحدتموها، واستكبرتم عن اتِّباعها والإيمان بها، وكنتم من الكافرين بالله ورسله.

[٦٠] ثم يخبر جل وعلا أن يوم القيامة سترون الذين كذبوا علىٰ الله بنسبة الولد والصاحبة والشريك إليه؛ قد علاهم الخزي والعار، وترىٰ وجوههم مسودَّة لما أحاط بهم من الغم والعذاب والنكال، ثم يسأل جل في علاه سؤال تقرير: أليس في نار جهنم مأوىً ومسكنًا ومقامًا للمتكبرين عن طاعة الله والانقياد لأوامره؟!

[٦١] وبعد أن بين جل وعلا حال الكفار يوم القيامة، بين حال المؤمنين الذين انقادوا لأمر الله وأطاعوه، وجعلوا بينهم وبين عذابه وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ وأخبر سبحانه بأنه نجاهم بسبب فوزهم برضا الله ورحمته؛ فلا يمسهم عذابٌ يسوؤهم، ولا يعتريهم حزنٌ علىٰ ما فاتهم من الدنيا، ولا يخافون عذاب الآخرة، فهم في أمان تام، نسأل الله الكريم من فضله.

[٦٢] يخبر جل وعلا أنه وحده هو الذي خلق كلَّ شيء، وأوجده من العدم، وهو سبحانه وحده أحاط علمًا بجميع الأشياء، وهو القائم بحفظها وتدبيرها، والتصرف فيها سبحانه وتعالىٰ.

[٦٣] ثم أخبر جل وعلا أنه وحده الذي يملك مفاتيح السماوات والأرض من الرزق والرحمة والبركة، وغيرها، وله سبحانه تدبير أمور السماوات والأرض والتصرّف فيهما - لا يشاركه أحد في ذلك سبحانه وتعالىٰ -، والذين جحدوا آيات الله فلم يؤمنوا بها؛ أولئك هم الخاسرون الخسارة الحقيقية، فيخسرون دنياهم وآخرتهم.

[٦٤] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لمشركي قومه علىٰ سبيل التوبيخ والتأنيب: أفغير الله تأمروني أن أعبد أيها الجاهلون بالله وآياته؟ بعد أن شاهدتم الآيات التي تدل علىٰ وحدانية الله، وأن العبادة يجب أن تكون له وحده، وشاهدتم أيضًا الآيات التي تدل علىٰ صدق الرسالة.

وذلك أن كفار مكة لما رأوا أن النبي ﷺ صار له أتباع، وصعب عليهم أن يتخلىٰ بعضهم عن بعض، قالوا له ﷺ: لا تسب آلهتنا واعترف بها، ونحن نعترف بآلهتك فأنزل جل وعلا هذه الآية.

[٦٥] ثم ذكَّر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ وأمته أنه قد أوحي إليك يانبي الله وأوحي إلىٰ الرسل الذين من قبلك: لئن أشركت مع الله أحدًا غيره، ليبطلن عملك، ولتكونن من الخاسرين فتخسر دينك وآخرتك، وفي هذا بيان أن الشرك مخرج من الملة ومحبط للعمل وموجب للخسران.

وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾؛ علىٰ سبيل الفرض؛ لأنه ﷺ معصوم مما هو أقل من ذلك.

والمقصود هو التشريع لأمته، وتحذيرهم من الشرك.

[٦٦] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ بأن لا يطيع هؤلاء المشركين فيما طلبوا منه من عبادة غير الله مع الله، وأمره بأن يخلص العبادة لله وحده لا شريك له، وأن يكون من الشاكرين الحامدين المُثْنِينَ علىٰ الله بنعمه.

[٦٧] واعلموا أن هؤلاء المشركين ما عظَّموا ربَّهم حقَّ تعظيمه، ولا أعطوه قدرَه المستحق إياه، وذلك باتخاذهم شركاء معه يصرفون لهم أنواعًا من العبادات، وهؤلاء الشركاء لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ومن عظمته وقدرته جل في علاه: أن الأرض في قبضته يوم القيامة، وأن السماوات - علىٰ سعتها وعظمتها - مطوياتٌ بيمينه، فتنزَّه الله وتعاظم وتعالىٰ وتقدَّس عن شرك هؤلاء المشركين، وعمَّا يصفونه به.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤

[٦٨] ثم يخبر جل وعلا عن بعض أهوال يوم القيامة، فيقول: ونُفخ في القرنِ من قبل إسرافيل عليه السلام، النفخة الأولىٰ - وهي نفخة الصعق -؛ فيموت من الفزع ومن شدة صوته من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ألَّا يموت، ثم نفخ فيه النفخة الأُخرىٰ - وهي نفخة البعث -؛ فإذا الناس قد قاموا من قبورهم، وبُعثوا بعد موتهم، ينظرون ماذا سيُفعَل بهم.

[٦٩] ثم يخبر سبحانه أن الأرض تضيء في ذلك اليوم - يوم القيامة - بنور ربها حين يتجلَّىٰ سبحانه للفصل والقضاء بين الناس، ونُشرت الكتب والدواوين التي فيها أعمال الناس، وجيء بالنبيين ليُسألوا عن تبليغ رسالات ربهم، وجيء بالشهداء من الملائكة والأعضاء والأرض، وبالشهداء من أمة محمد صلىٰ الله عليه وآله وسلم ليشهدوا أن رسل الله بلغوا رسالات الله للأمم من قبلهم، وحَكَمَ الله تعالىٰ بين عباده بالعدل التام والقسط، وهُم لا يُظلمون ولا ينقَصون من أجورهم شيئًا، ولا يُزاد في عقابهم شيئًا.

[٧٠] وفي ذلك اليوم - يوم القيامة - تجزىٰ كل نفس بما كانت تعمل من الخير والشر، والله جل في علاه أعلم بما كان يفعلُ الناس في الدنيا من الطاعات والمعاصي، فيجازيهم عليها، ومع علمه جل وعلا بما فعلوا في الدنيا فإنه يحضر سبحانه الشهداء المذكورين في الآية السابقة لتثبت العدالة وتقوم الحجة.

[٧١] ثم يخبر جل وعلا بأن الذين جحدوا آيات الله وكذَّبوا رسُلَه يساقون يوم القيامة إلىٰ نار جهنَّمَ سوْقًا عنيفًا، فيُضْرَبون ويُهَانُون، وهم جماعاتٌ جماعات؛ حتىٰ إذا جيء بهم إلىٰ جهنم فتحت لهم أبوابها لتستقبلهم بحرِّها ولهيبها وسعيرها فتبهتهم، ثم يقول لهم خزنة النار - لتبكيتهم وتوبيخهم وزيادة العذاب عليهم -: ألم يأتكم رسلٌ من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم يتْلون عليكم آيات ربكم الدالة علىٰ وحدانيته! وكانوا يحذرونكم عذاب الآخرة ويخوفونكم هذا اليوم؟!، فيقولون مقرِّين بذنوبهم: بلىٰ، ولكن وجبتْ كلمة العذاب علىٰ الكافرين الجاحدين.

[٧٢] فعند ذلك يقال لهؤلاء الكفار: ادخلوا أبواب جهنَّم ماكثين فيها أبدًا، لا تتحولون عنها ولا تزولون، فبئس هذا المقر والمسكن والمأوىٰ لمن تكبَّر عن الإيمان بالله والانقياد والاستسلام له، نسأل الله السلامة والعافية.

[٧٣] ثم يخبر جل وعلا بأن الذين اتقوا ربهم بتوحيده والإيمان به، وفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ يساقون يوم القيامة إلىٰ الجنة جماعاتٍ جماعاتٍ مستبشرين مكرَّمِينَ فرحين، حتىٰ إذا وصلوا إليها فُتحت لهم أبواب الجنة قبل مجيئهم؛ حيث إن نبينا محمدًا ﷺ سبقهم بافتتاحها؛ لأنه أول من يفتح أبواب الجنة؛ كما في الحديث[1]، ثم يقول لهم خزنتها تهنئةً لهم، وترحيبًا بهم: سلامةً لكم من كل آفةٍ وتنغيص، طبتم ياأهل الجنة بتوحيد الله وطاعته، وطاب ممشاكم وسعيكم، فادخلوا جنة ربكم التي أعدها وهيَّأها لكم خالدين ماكثين فيها أبدًا، لا تتحولون عنها ولا تزولون.

[٧٤] وعند ذلك يقول أصحاب الجنة - لما دخلوها، وتم نعيمهم، وكمل سرورهم -: الحمد لله الذي صدقنا وعده الذي وعدنا إياه علىٰ لسان رُسُله، وأورثنا أرض الجنة ننزل منها حيث نشاء، وننعَم فيها بما نشاء، فنعم الوعد ما وعدنا ربنا، ونعمت الجنة أجرًا للعاملين، نسأل الله الكريم من فضله.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧).

[٧٥] وبعد أن ذكر جل وعلا جملة من أهوال يوم القيامة قال: وترىٰ يانبي الله يوم القيامة الملائكة محيطين بعرش الرحمن من كل جهة، يمجدون ربهم وينزهونه عن كل ما لا يليق به، وقضىٰ سبحانه بين الخلائق بالحق والعدل، فأدخل أهل الإيمان الجنة، وأدخل أهل الكفر النار، وقيل: الحمد لله رب العالمين علىٰ ما قضىٰ جل في علاه. ولم يذكر القائل؛ لأن الجميع قال ذلك؛ فالحمد لله رب العالمين أولًا وآخرًا. وقد استدل العلماء بهذه الآية علىٰ جواز الصلاة حول الكعبة من جميع جوانبها، تشبيهًا بالملائكة المحيطين بالعرش من جل جوانبه؛ حيث كان المسلمون يصلون في الحرم المكي صفًّا واحدًا وإمامهم بين المقام والركن الذي فيه الحجر الأسود، فكلهم خلف إمامهم لا يصلون الفريضة في الكعبة من الجهات الثانية، وكانوا قليلين؛ فلما كثر المسلمون وكان أميرهم خالد القسري أمرهم أن يتحلقوا حول الكعبة من كل جهاتها.

سورة غافر

سورة غافر مكيّة وآياتها خمس وثمانون آية. ولها اسم آخر هو: سورة المؤمن.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] يخبر جل وعلا أن هذا القرآن منزل من الله تعالىٰ وحده، لا كما يقول ويروج الكفار: أن محمدًا اختلقه من نفسه أو من غيره، واعلموا أنه جل في علاه الغالب الذي لا يعجزه شيء، والعليم بأحوال خلقه وبافتراءاتهم، لا يخفىٰ عليه شيء منها.

[٣] ثم وصف جل وعلا نفسه ببعض الصفات فقال: إنه غافر الذنب وقابل توبة العصاة المذنبين من المؤمنين؛ بل إنه يفرح بذلك، كما جاء في الحديث[1]، شديد العقاب للعصاة والمستهزئين الساخرين بالله وبرسوله وبكتابه العزيز وبعباد الله المسلمين ، ولم يتوبوا وماتوا علىٰ ذلك، ذو الطول والإحسان والإنعام لعباده الصالحين فضلًا وتكرمًا، وهو جل في علاه المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، وإليه وحده الرجوع يوم الحساب؛ فيجازي كلًّا بما يستحق. وقدم سبحانه قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، لأن رحمته سبقت غضبه، ولأنه ربما يغفر من غير توبة، وفي هذا رد علىٰ المعتزلة الذين يقولون: صاحب الكبيرة يخلد في النار.

[٤] واعلموا أيها الناس أنه ما يخاصم في آيات القرآن الدالة علىٰ وحدانيته جل في علاه إلا الجاحدون لهذه الآيات، وإذا كان ذلك كذلك فلا يغرنك يانبي الله تقلب هؤلاء في البلاد وجمعهم للأموال الطائلة عن طريق التجارات والمكاسب ونعيم الدنيا وزهرتها. ولا شك أن الذين يجادلون في آيات الله لإحقاق الحق وإثبات ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ؛ فهذه مجادلة محمودة، أما الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، والتشكيك فيما يعتقده المؤمنون مما ثبت في الكتاب والسنة؛ فهي مجادلة منكرة، وهي من فعل الكفار، وهي المقصودة في هذه الآية، وهذه الآية

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ غَافِر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾

تنطبق علىٰ كل من يجادل بالباطل فقط.

[٥] واعلم يانبي الله أن قومك ليسوا بأول من كذب رُسُل الله، فقد كذبت أقوامٌ من قبلهم رسلَهم، فكذَّب قومُ نوحٍ نبيَّهُم، وكذا الأقوام من بعده الذين تحزَّبوا وتجمَّعوا علىٰ رُسُلهم كعادٍ وثمود، وقد همَّتْ كلُّ أمة من الأمم أن يقتلوا رسولهم، وقد كانوا يجادلون ويخاصمون بالشرك والباطل ليُزيلوا به الحق، ويُبطِلوا به الإيمان؛ فأخذهم الله وأهلكهم، فانظر كيف كان أخذه إياهم وعقابه لهم؟ لقد كان أشدَّ العذاب وأفظعه، وفي هذا تحذيرٌ لكفار قريش، وتخويفٌ لهم.

[٦] وكما وجبت كلمة العذاب علىٰ الذين كفروا وجحدوا من الأمم السابقة؛ فكذلك وجبت كلمة العذاب علىٰ الذين كفروا بك وكذبوك يانبي الله، وتلك الكلمة: أنهم أصحاب النار، أي: سكانها المقيمون فيها أبد الآبدين.

[٧] ثم أخبر جل وعلا أن الذين يحملون عرش الرحمن ومن حولهم من الملائكة المقربين؛ مقيمون علىٰ تسبيح الله وتقديسه وتنزيهه عمَّا لا يليق به جل في علاه، ومقيمون علىٰ الإيمان بالله حقًّا وصدقًا، ويطلبون من الله الذي وسعت رحمته وعلمه كل شيء أن يغفر لعباده المؤمنين التائبين، وهؤلاء الملائكة يدعون للمؤمنين فيقولون: ياربنا لقد وسعت رحمتك وعلمك كل شيء فاغفر لعبادك المؤمنين، الذين استمسكوا بدينك الحق، وتابوا عن الزلات والهفوات، ونجِّهم من عذاب جهنم الأليم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، عن أنس، ومسلم (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

[٨-٩] ويستمر دعاء الملائكة المقربين لعباد الله المؤمنين قائلين: اللهم ربنا وأدخل المؤمنين جنات عدن التي وعدتهم إياها، وأدخل معهم من صلح من آباءهم وأزواجهم وذرياتهم وأصحابهم ورفقائهم؛ ليكمل بذلك نعيمهم ويتم سرورهم، إنك ياربنا أنت العزيز الغالب القاهر الذي لا يعجزه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها. ويدعون أيضًا قائلين: واصرف عنهم ياربَّنا الأعمال السيئة، وعاقبتها السيئة، فإن من تصرف عنه السيئات في الدنيا، وتغفرها له إن اقترفها يوم القيامة فقد فاز برحمتك، وأدخلته جنتك، وذلك هو الفوز العظيم الحقيقي الذي لا فوز أعظم منه، نسأل الله الكريم من فضله.

[١٠] ثم ذكر جل وعلا أن الكفار في جهنم يلومون أنفسهم ويمقتونها أشد المقت ويتحسرون علىٰ إضاعة الفرصة التي مُنحوها في الدنيا، وفي هذه الأثناء يناديهم خزنة النار قائلين لهم: اعلموا أن غضب الله عليكم بسبب إصراركم علىٰ الكفر أشد وأعظم من غضبكم علىٰ أنفسكم؛ لأنكم كنتم تُدعون في الدنيا إلىٰ الإيمان فأعرضتم وأصررتم علىٰ الكفر والضلال حتىٰ أدرككم الموت؛ فاليوم تجزون بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا عذاب الهون.

[١١] ثم بعد أن يروا العذاب الأليم ويذوقوه يقولون: ياربنا لقد أمتنا مرتين، يوم أن لم نكن شيئًا مذكورًا، ويوم أن انقضىٰ أجلنا في الحياة الدنيا، وأحييتنا مرتين، يوم أن ولدنا، ويوم أن بعثنا من قبورنا، واليوم بعد أن رأينا ما رأينا من العذاب فقد أخذنا الدرس وعرفنا خطأنا؛ فهل لنا من طريق نخرج به من النار لنصحح مسارنا ونؤمن بك، ولكن هيهات أن ينفعهم هذا الاعتراف وهذا الندم.

[١٢] واعلموا أيها الكفار أنه لا أمل لكم في الخروج من النار، وأن هذا العذاب الذي أصابكم كان بسبب أنكم كنتم إذا دُعيتم لإخلاص العبادة لله وحده، وترك عبادة ما سواه؛ رفضتم وكفرتُم، وأن من كان يُشرك مع الله غيره بصرف العبادة عن الله تؤمنون به وتصدِّقونه؛ فالحكم لله العلي الذي له علو الذَّات والقدر والقهر، الكبير الذي له الكبرياء والعظمة والمجد.

[١٣] واعلموا أيها الناس أن الله هو الذي يريكم هذه الآيات العظيمة الواضحة التي تدل علىٰ كمال إبداعه وقدرته ووحدانيته، ومن هذه الآيات العظيمة إنزال المطر من السماء الذي هو سبب في إخراج الأرزاق التي في الأرض؛ حيث ينبت الزرع ويدر الضرع وينتج الثمار المتنوعة، وما يتعظ ويستفيد بهذه الآيات إلا من يرجع عن التشبث بما عليه الآباء والأسلاف ويؤوب عن التعلق بالأضرحة والأصنام.

[١٤] وبعد أن رأيتم أيها المؤمنون الآيات الدالة علىٰ وحدانيته، ورأيتم هذا المطر الذي أنزله الله لكم من السماء وفيه رزقكم؛ فعليكم أن تخلصوا العبادة والدعاء لله وحده لا شريك له، ولو أغاظ ذلك أعداء الله من المشركين والفساق؛ فلا تلتفتوا إليهم وامضوا في طريق الحق والدعوة إلىٰ الله.

[١٥] واعلموا أيها الناس أن الله هو وحده صاحب الرفعة والمقام العالي، وصاحب العرش العظيم، وأنه وحده الذي ينزِّلُ الوحي علىٰ رسله الذين اختارهم واصطفاهم، لينذروا الناس ويحذروهم من سوء العذاب يوم القيامة، الذي يلتقي فيه الأولون والآخرون في ساحة المحشر فيقضي جل في علاه بينهم بقضائه العادل.

وسمي الوحي روحًا لأن الأوامر والنواهي تنفذ في روح المؤمن المخلص فتحييه الحياة الطيبة الكريمة في الدنيا والآخرة، ولأنه يحيي المؤمن وينقذه من الكفر كما يحيي الجسم بالروح.

[١٦] وفي ذلك اليوم يكون الناس ظاهرين علىٰ الأرض لا يسترهم شيء، ولا يخفىٰ علىٰ الله شيء من أحوالهم، ثم ينادي جل في علاه: لمن السلطان اليوم؟! فلا تنطق الخلائق ولا تتكلَّم، فيجيب المَلِكُ نفسه قائلًا: لله الواحد المتفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، القهَّار الذي قهر جميع المخلوقات وأخضعها وأذلَّها.

الجُزءُ الرَّابِعُ وَالعِشرُونَ — سُورَةُ غَافِر

ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾

٤٦٩

[١٧] وفي ذلك اليوم تثاب كل نفس بما كسبت في الدنيا من خير أو شر، ولن يُظلم أحد في هذا اليوم؛ لا بنقصٍ من ثوابه، ولا بزيادة في عقابه، ولإحاطته سبحانه بكل شيء علمًا سوف يكون حسابه لعباده سريعًا؛ لأنه لا يحتاج جل في علاه إلىٰ تفكير أو تذكر.

[١٨] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يذكِّر الناس ويحذِّرهم من أهوال يوم القيامة الذي اقترب مجيئه، ذلك اليوم العظيم الذي تكون فيه قلوبهم من شدة الخوف والهلع من عقاب الله قد ارتفعت حتىٰ تكاد أن تسد مجرىٰ الهواء في الحناجر، وهم في هذه الحال ساكتون لا يستطيعون كلامًا، واعلموا أيها الناس أنه ليس للظالمين في ذلك اليوم من صاحب ينفعهم، أو شفيع يشفع لهم.

[١٩] ثم يخبر جل وعلا أنه يعلم ما تختلسه العيون من نظرات، كمن ينظر إلىٰ المحرم مسارقة؛ بحيث يحاول أن لا يراه أحد، ويعلم سبحانه ما يخفيه الإنسان في نفسه من خير أو شر، كما أنه جل في علاه يعلم خائنة السمع، وسيجازي سبحانه كلًّا بما يستحق؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشر.

[٢٠] واعلموا أيها الناس أن الله يقضي ويحكم بين عباده بالعدل التام، والقسط العظيم - لكمال قدرته وعلمه وعدله -، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر، أما من عُبدوا من دون الله فلا يستطيعون أن يقضوا بشيء لعجزهم وانعدام قدرتهم، ثم بين سبحانه أن الله هو السميع لجميع الأصوات والأقوال، وهو سبحانه البصير بأعمال عباده وأحوالهم.

[٢١] ثم حث جل وعلا الكفار علىٰ الاعتبار بالسير في الأرض فينظروا ويتفكروا كيف كانت خاتمة الأمم السابقة؟ وقد كانت قريش تسير إلىٰ بلاد الشام فيمرون بديار قوم صالح الذين نحتوا من الجبال بيوتًا وقبورًا، ويمرون أيضًا علىٰ المؤتفكة، ويمرون إذا ذهبوا لليمن بالأحقاف قوم هود؛ فلو أشغلوا عقولهم لما عادوا الرسالة وصاحبها؛ فهذه البلاد التي دمرت كانت أكثر حضارة وعمرانًا من قريش وأكبر قوة منهم، ومع ذلك فإن الله أخذهم بسبب ذنوبهم واستمرارهم في الكفر والجحود لآيات الله، ولم يكن لهم من دون الله من يدفع عنهم العذاب الذي كتبه الله عليهم.

[٢٢] ثم ذكر جل وعلا سبب هذا الدمار والهلاك الذي أصاب تلك الأقوام؛ فأخبر بأنهم كذَّبوا رسلهم وجحدوهم، ولم يصدقوهم فيما جاؤوهم به من الآيات البينات الواضحات الدالَّات علىٰ وحدانية الله، وصدْق ما أُرسِلوا به؛ فأخذهم الله وأهلكهم بعقوبته وعذابه، وإنه سبحانه قويٌّ لا يُعْجزه شيء، شديد العقاب لمن كفر به وعصىٰ أمره.

[٢٣] يسلِّي جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ في تكذيب قومه له؛ فأخبر بأنه أرسل موسىٰ عليه السلام بالآيات والحجج والبراهين الواضحة البينة الدالة علىٰ وحدانية الله.

[٢٤] ثم بين سبحانه أنه أرسله إلىٰ فرعون وهو ملك مصر، وهامان وهو وزير فرعون، وقارون وهو صاحب الأموال والكنوز، وهؤلاء هم الذين كانت بيدهم السيادة والرئاسة، وسائر سكان مصر تابعون لهم، وكما يقال: الناس علىٰ دين ملوكهم، ثم إن هؤلاء كذبوا موسىٰ وأنكروا رسالته، وقالوا: إن موسىٰ ساحر كذاب.

وفي هذا تبشير للنبي ﷺ بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة؛ فكما أن الله نصر موسىٰ علىٰ عدوِّه؛ فسوف ينصر الله نبيه محمدًا ﷺ علىٰ أعدائه.

والآيات التي أُرسل بها موسىٰ هي الآيات التسع الموضحة في سورة الأعراف.

وجاء ذكر قارون مع هؤلاء مع أنه من بني إسرائيل وأنه ابن عم موسىٰ علىٰ الصحيح؛ لأنه يملك القوة الاقتصادية في البلاد، ولأنه مناصر لفرعون وهامان، وهما أهم أسباب ثرائه.

[٢٥] فلما وصل موسىٰ عليه السلام إلىٰ فرعون وهامان وقارون، وواجههم بالحق الذي جاء به من عند الله وهو هذه المعجزات الظاهرة الواضحة؛ أنكروها وكذبوها، ولم يكتفوا بذلك؛ بل أمروا بقتل المواليد الذكور وترْك الإناث لخدمة الأقباط، ولما يريده فرعون وجنوده بهن، وما عَمَلُ فرعون وتدبيره إلا في ذهاب وهلاك وخسار.

وهكذا يقال لكل كافر ومجرم: لا تغتر بكيدك ومكرك وعدوانك فإن مصيره إلىٰ الضلال والضياع والبطلان.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

[٢٦] ولما رأىٰ فرعون أن بعض بني إسرائيل آمنوا بموسىٰ ازداد غيظًا وحنقًا عليه؛ فقال لأشراف قومه قولته الخبيثة: دعوني أقتل موسىٰ، وليدع ربه الذي يدَّعيه ليخلصه مني، وفي هذا تمويه علىٰ قومه، يعني: كأن قومه هم الذين كانوا يمنعونه من قتل موسىٰ، ثم علل قتله لموسىٰ بقوله: إنني حريص علىٰ مصالحكم وما أنتم عليه، فأخاف أن يفسد عليكم دينكم، أو أن ينشر الفتن والقلاقل في أرض مصر، وادعىٰ أنه هو وقومه هم الذين علىٰ الحق، قال ذلك تحذيرًا لقومه وخبثًا؛ مع أنه يعلم أن موسىٰ علىٰ حق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[النمل:١٤]، وشعر أن موسىٰ محروس محفوظ من الله، وإلا فهل فرعون يستأذن أحدًا؛ وهو الجبار الذي يبطش في مملكته بمن شاء وقت ما شاء بغير استئذان من الله.

[٢٧] ولما علم موسىٰ بتهديد فرعون بقتله، لم يزعجه ذلك؛ لأنه مُدْرِكٌ أنه ملتجيء إلىٰ ركن مكين وهو الله جل في علاه؛ حيث قال له سبحانه هو وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه:٤٦]، ولهذا قال موسىٰ لفرعون وقومه: اعلموا ياقوم أني استجرت وتحصنت بربي وربكم من كل مستكبر عن توحيد الله وطاعته، ومن كل كافر لا يؤمن بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب.

[٢٨] ثم إن رجلًا من أشراف قوم فرعون كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ولكنه كان يخفي إيمانه، فلما سمع قول فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ...﴾، فزع وخاف أن تحل النقمة وينزل العذاب من الله، وكان من أسرة الفراعنه، قال الحسن: (هو ابن عم فرعون)، فقال منكرًا علىٰ قومه: كيف يحل لكم أن تقتلوا رجلًا يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالمعجزات الواضحات الدلالة الشاهدة علىٰ صدقة، وأنه من عند الله؛ فإن كان كاذبًا فيما يقول فإن وبال كذبه يعود عليه، وإن كان صادقًا وقد أثبت ما يقوله بالأدلة الواضحة؛ فحينئذ ستحل بكم العقوبة من الله التي لا قبل لكم بها إن قتلتموه، واعلموا أن الله لا يهدي للحق من كان متجاوزًا لحدود الله، ومن كان كذابًا في إخباره عن الله تعالىٰ.

[٢٩] واستمر هذا الرجل المؤمن في نصح قومه موضحًا لهم الحقيقة فقال: ياقوم إن الملك والسيطرة لكم اليوم في أرض مصر، فإذا أردتم أن يستمر عزكم وملككم فعليكم التعقل والنظر في ما يخلصكم وينجيكم، أما إذا استمررتم علىٰ الكفر والضلال والمعاندة فمن ينصرنا من عذاب الله وعقابه إن حل بنا؟.

ولكن فرعون لما سمع النصيحة خاف أن يؤثر علىٰ أتباعه؛ فأتاهم من باب أنه يودهم ويسعىٰ لصالحهم، وأنه لا يشير عليهم إلا بما يراه صوابًا وخيرًا لهم، وهو قتل موسىٰ والتخلص منه، وأنه لا يهديهم إلا إلىٰ طريق الحق والصواب؛ فقال تعالىٰ ردًّا عليه: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾[طه:٧٩].

[٣٠-٣١] واستمر ذلك المؤمن الناصح لفرعون وقومه فقال: ياقوم إني أخاف عليكم – إن قتلتم موسىٰ، ولم تؤمنوا به – أن يحل بكم ما حلَّ بالأحزاب الذين تحزبوا علىٰ أنبيائهم ولم يؤمنوا بهم، مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، والذين من بعدهم في الكفر والتكذيب، فقد أهلكهم الله بسبب ذلك، وما الله يريد ظُلْمًا لعباده؛ فيعذبهم بغير ذنب اكتسبوه، أو جُرْم عملوه.

[٣٢-٣٣] وقال أيضًا: وياقوم إنيَ أخاف عليكم من عذاب يوم القيامة؛ فإن من هوْل ذلك اليوم أن يكثر نداء الناس بعضهم لبعض، واستغاثة بعضهم ببعض، وفي ذلك اليوم تولُّون مدبرين قد ذُهب بكم إلىٰ النار، ليس لكم أحدٌ يمنعكم أو ينجيكم من عذاب الله وعقابه، ومن يضلله الله بسبب عناده وإصراره علىٰ الكفر فلا يستطيع أحدٌ هدايته.

[٣٤] واستمر ذلك الرجل المؤمن في نصحه فقال: ولقد أرسل الله لكم يوسف عليه السلام قبل أن يأتيكم موسىٰ، فأمركم بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وجاءكم بالبراهين الدالة علىٰ وحدانية الله جلَّ في عُلاه فأقمتم علىٰ الشك والتردد وعدم الانقياد والاستسلام في حياته، فلما مات ازداد شككم، وشرككم، وقلتم متخرِّصين متقوِّلين علىٰ الله بلا علم: لن يبعث الله من بعده رسولًا، وبمثل هذا الإضلال أضلكم الله، وثبتكم علىٰ الكفر الذي أصررتم علىٰ البقاء عليه؛ بسبب إسرافكم في الكذب، وتجاوزكم للحق، وشكِّكُم وارتيابكم في وحدانية الله ووعْده ووعيده، وهذا الإضلال جزائيٌّ وليس ابتدائيًّا.

[٣٥] ثم بين جل وعلا وصف المسرفين الكذابين، فقال: الذين يجادلون ويُخاصمون في آيات الله الدالة علىٰ وحدانيته، وصِدْق رُسُلِه ليبطلوها بغير دليلٍ ولا حجَّة أو برهان؛ فإن ذلك الفعل كبُر وعظُمَ عند الله مقته ومقت صاحبه والغضب الشديد عليه وعلىٰ صاحبه، وكذلك كبُر عند الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، وكما طبع الله وختم علىٰ قلوب فرعون وقومه بسبب تكذيبهم وإصرارهم علىٰ الكفر؛ فإنه سبحانه يطبع ويختم علىٰ قلب كل متكبِّرٍ علىٰ الحقِّ وعلىٰ الإيمان والتوحيد، جبَّارٍ بكثرة ظلمه وعدوانه.

[٣٦] ولكن فرعون استمر في عناده وتكبره وكفره، فطلب من وزيره هامان أن يبني له برجًا عاليًا يصعد عليه لكي يصل إلىٰ أبواب السماوات.

[٣٧] ثم بين فرعون أنه يريد أن يبلغ أبواب السماوات لكي ينظر إلىٰ إله موسىٰ الذي يدعىٰ أنه هناك، ثم استمر فرعون في إنكاره فقال بخبث ومكر: وإني متأكد أن موسىٰ يكذب عليكم، وسأثبت لكم كذبه، وهكذا زُيِّنَ لفرعون سوء عمله فرآه حسنًا بسبب فجوره وطغيانه، وصُدَّ عن سبيل الهدىٰ والرشاد؛ لأنه استحب العمىٰ والضلال علىٰ الهدىٰ والحق، وما احتيال فرعون وتدبيره لإيهام الناس أنه محق وأن موسىٰ مبطل إلا في خسار وبوار وهلاك.

[٣٨] ثم استمر مؤمن آل فرعون في نصحه لقومه فقال: ياقوم اتبعوني لنسلك معًا طريق الصلاح والنجاة.

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

[٣٩] وقال لهم أيضًا ناصحًا: وياقوم: إن هذه الحياة الدنيا ليست بباقية، إنها حياةٌ زائلةٌ متاعها قليل، سرعان ما ينفد ويزول، وإن الدار الآخرة هي دار القرار، والخلود، والاستمرار.

[٤٠] ثم قال له أيضًا: واعلموا ياقوم أن من عمل سيئة من شرك أو فسق أو معصية فلا يُجازىٰ إلا بمثلها، ومن عمل الصالحات من التوحيد والإيمان والطاعة والانقياد وعمل الصالحات، من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان - ذَكَرًا كان أو أنثىٰ -، وهو مؤمنٌ بالله، مُتَّبعٌ لرسوله ﷺ؛ فأولئك يُدخلهم الله جنات النعيم، يعطون فيها أجرهم ونعيمهم ورزقهم وافرًا، بلا عدٍّ ولا حدًّ.

۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ
﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ
عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا
تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ
وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ
﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ
إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ
وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ
عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ
فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ
بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ
ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

[٤١-٤٢] ثم استنكر مؤمن آل فرعون موقف قومه منه؛ حيث كانوا يلومونه علىٰ الإيمان ويدعونه إلىٰ الضلال، فقال: وياقوم ما لي أدعوكم إلىٰ الإيمان الذي فيه نجاتكم وفوزكم؛ وتدعونني إلىٰ الكفر والشرك الذي يوصل إلىٰ النار. فواعجبًا لكم تدعونني لأكفر بالله وأجحدَ بآياته، وأُشرك معه في العبادة من لي علم محقق بعدم صحة إشراكه، ولا باستحقاقه العبادة من دون الله، وأنا أدعوكم للإيمان بالله العزيز الغالب الذي له القوة كلُّها، الغفَّار كثير المغفرة لعباده المستغفرين.

[٤٣] ولكن اعلموا حقًّا ويقينًا ياقوم أن الذي تدعونني إلىٰ عبادته والإشراك به من الأصنام والأوثان وغيرها؛ لا يستحق العبادة من دون الله، ولا يستجيب لمن دعاه في الدنيا ولا في الآخرة، واعلموا ياقوم أنَّ رجوعنا ومصيرنا إلىٰ الله، وأن المسرفين علىٰ أنفسهم بالشرك، المستكْثرين من الذنوب والمعاصي هم أصحاب النار الذين يصيرون إليها ولا يفارقونها.

[٤٤-٤٥] ولما لم ينفع معهم نصحه ولم يستجيبوا له قال لهم: فستذكرون ياقوم دعوتي إياكم للتوحيد، ونصحي إياكم باتباع دعوة رسولكم، وسوف تندمون علىٰ إعراضكم واستكباركم، وأما أنا فأتوكل علىٰ الله وأسلم أمري إليه، وألتجيء وأعتصم به، إنه جل في علاه بصير بعباده يعلم جميع أحوالهم، وسيجازيهم علىٰ جميع أعمالهم.

[٤٥] ومن حَنَقِهم وحقدهم علىٰ هذا الرجل المؤمن قرر فرعون وقومه اغتياله؛ ثم إن موسىٰ بعد أن يئس من إسلام فرعون وقومه أمره الله بالخروج ببني إسرائيل متوجهًا إلىٰ الأرض المقدسة؛ فعز علىٰ فرعون أن يذهب موسىٰ بعبيدهم وخدمهم من بني إسرائيل؛ فاستنفر فرعون قومه وقواته وحشدهم وتبعهم؛ فنجَّىٰ الله مؤمن آل فرعون منهم، ووقاه من عقوبات مكر فرعون وآله، وحلت النكبة التي لم يحدث مثلها في التاريخ البشري بفرعون وقومه؛ حيث ابتلعهم البحر بحشودهم ودوابهم وأسلحتهم جميعًا.

وإكرامًا لهذا الرجل المؤمن فقد خلد القرآن له هذا الموقف المشرف؛ حتىٰ أنه ورد أن اسم السورة الثاني (سورة المؤمن) والمقصود بالمؤمن: هو مؤمن آل رعون.

[٤٦] ثم أخبر جل وعلا أن فرعون وآله يُعذَّبُون في قبورهم بسبب كفرهم وجحودهم؛ حيث تُعْرَضُ أرواحهم علىٰ النار صباحًا ومساءً وسيستمر هذا العذاب حتىٰ يوم القيامة، وفي ذلك اليوم يقال لملائكة العذاب: أدخلوا آل فرعون جهنم وعذبوهم بأشد أنواع العذاب، جزاء لما اقترفوه من السيئات. وهذه الآية أصل في إثبات عذاب القبر، مع حديث سؤال الملكين في القبر[1].

[٤٧] واذكر يامحمد يوم أن يتخاصم أهل النار ويعاتب بعضهم بعضًا؛ فيقول الضعفاء وهم التابعون الإمعات المقلدون للعصاة والمستكبرين من رؤسائهم الذين كانوا سببًا في إضلالهم: إنا كنا لكم تبعًا، أي: تابعين لكم ومنقادين لهواكم ومسخرين لخدمتكم؛ فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار، فتتحملون شيئًا من العذاب الذي كتبه الله علينا؟

[٤٨] فرد الرؤساء المستكبرون قائلين: إنا نحن وأنتم جميعًا في جهنم، وهذا حكم الله ولا رادَّ لحكمه سبحانه، فلا يمكن أن نتحمل عنكم شيئًا من العذاب، والله جل في علاه قسم العذاب بين العباد؛ فأخذ كل واحد منا ما يستحقه، لا زيادة ولا نقصان.

[٤٩] ثم ذهب أهل النار الذين يعذبون فيها إلىٰ خزنة جهنم طالبين منهم أن يشفعوا لهم عند ربهم فقط ليخفف عنهم يومًا من عذاب جهنم، لكي يتنعموا فيه بالراحة.

---

(١) يشير إلى حديث البراء الطويل الذي رواه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد في المسند (١٨٥٣٤).

[٥٠] ثم يرد خزنة جهنم على أهل النار على سبيل التوبيخ والتأنيب: أَوَلَمْ تأتكم رسلكم بالدعوة والحجج والبراهين الواضحة البينة؟ قالوا: بلى لقد أتتنا، فرد عليهم الخزنة قائلين لهم: إذًا فادعوا أنتم بأنفسكم، ولكن اعلموا بأن دعاء الكافرين في ضلال وضياع، لأنه لا يستجاب لهم، وأن قضاء الله نافذ ولا راد لقضائه.

[٥١] ثم أخبر جل وعلا أنه سوف ينصر رسله وأتباعهم من الذين آمنوا بالله في الحياة الدنيا على أعدائهم بالحجة والبرهان والغلبة والتمكين في الحياة الدنيا، وينصرهم في الآخرة يوم يقوم الأشهاد وهم الملائكة، يشهدون للرسل بالبلاغ، والأنبياء يشهدون على أممهم.

[٥٢] وفي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين المجاوزين حدودَهم معذرتهم وأسفهم حين يعتذرون، وجزاؤهم ذلك اليوم: الإبعاد والطرد من رحمة الله ومن جنته، ولهم الدار السيئة التي تسوء نازليها.

[٥٣] ثم ذكر جل وعلا مثالًا من نصره لرسله ولعباده المؤمنين، فأخبر بأنه أعطى موسى النبوة والتوراة ليدعو الناس ويهديهم إلى صراط الله المستقيم، وأنه أبقى التوراة بعد موسى عليه السلام في بني إسرائيل - هدايةً لهم - يتوارثونها إلى ما شاء الله. [٥٤] ثم بين سبحانه أن هذه التوراة مشتملةٌ على الهداية والعلم، وعلى التذكير بالله والدار الآخرة، وينتفع بها أصحاب العقول السليمة، والفطر القويمة.

[٥٥] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يصبر على أذى قومه كما صبر أولو العزم من الرسل، واعلم يانبي الله علم اليقين أن وعد الله لك بإعلاء كلمتك؛ وعدٌ حقٌّ، وداوم على طلب المغفرة من الله، وعلى تنزيه الله وتقديسه في كل وقت وحين؛ لا سيما آخر النهار وأوله.

[٥٦] واعلموا أيها الناس أن الذين يخاصمون ويجادلون في آيات الله الدالة على وحدانيته لأجل إبطالها بغير دليل ولا حجة عندهم، هؤلاء ليس في صدورهم إلا التكبر على اتباع الحق، واحتقارٌ لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه - من إخماد الحق وإعلاء الباطل - بحاصل لهم؛ بل إن الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الباطل المدحوض.

ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يعتصم بالله، فإنه سبحانه هو

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ
قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ٥٠
إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ
وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٥٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٥٣ هُدٗى
وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٤ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ
وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ
مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ
خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧
وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨

السميع لأقوال عباده، البصير بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، وسيجازون عليها بما يستحقونه.

[٥٧] ثم بين جل وعلا صغر حجم الناس مقابل حجم المخلوقات الأخرى، فقال: لخلق السماوات والأرض - بعظمهما وسعتهما -، وما فيهنَّ وما بينهما؛ وابتداؤهما من غير مثال سابق؛ أكبر وأعظم من خلق الناس، وبعثهم مرةً أخرى، فكيف ينكر المشركون البعث وإحياء الموتى؟ ولكن أكثر الناس لا يعلمون عظيم قدرة الله، ولا يعتبرون فيتعظون.

[٥٨] ثم قال جل وعلا: وكما أنه لا يستوي الأعمى الذي لا يُبصر بالبصير الذي يرى الأشياء، فكذلك لا يستوي المؤمن الذي آمن بالله وصدَّق برسوله ﷺ، وعمل الصالحات، بالكافر الجاحد الذي يعمل السيئات، ولكن قليلًا ما تتذكرون أيها الناس فتتعظون.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٦٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥ ۞قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦

[٥٩] يخبر جل وعلا أن الساعة آتية لا شك ولا ريب في إتيانها، وكل الكتب السماوية أثبتت ذلك، والساعة: هي اللحظة التي يموت فيها جميع الخلائق عندما تطلع الشمس من مغربها، أما يوم القيامة فهو اليوم الذي يقوم الناس فيه من قبورهم، ويسمىٰ يوم البعث، ثم بين سبحانه أن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك ولا يصدقونه، لذلك لا يعملون للنجاة في ذلك اليوم.

[٦٠] ومن لطفه جل وعلا بعباده المؤمنين أن أمرهم بدعائه وحده لا شريك، من غير وسطاء ولا شفعاء، كما قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، ثم وعد جل في علاه من أفرده بالدعاء أن يستجيب له، أما أولئك الذين استكبروا عن عبادته، وعن الالتجاء إليه، ودعائه، وإفراده بالألوهية؛ فوعد سبحانه أن يدخلهم جهنم صاغرين حقيرين ذليلين.

[٦١] ثم ذكَّر جل وعلا أنه هو وحده الذي جعل لأجلكم أيها الناس الليل مظلمًا لتسكنوا فيه وتنقطعوا عن العمل فتستريحوا، وجعل لكم النهار مضيئًا منيرًا بالشمس لتقوموا فيه من فُرُشِكُم، وتسعوا في طلب معاشكم، إن الله لذو فضل عظيم علىٰ الناس، فنعمه علىٰ العباد لا تُعَدُّ ولا تُحْصَىٰ، ولكن أكثر الناس بجهلهم لا يشكرون النعم؛ بل هم عنها غافلون.

[٦٢] واعلموا أيها الناس أن ذلكم الذي فعل ما فعل لأجلكم؛ هو الله الذي أوجد كل موجود من العدم، لا إله إلا هو، ولا معبود بحق إلا هو، فكيف تنقلبون عن عبادته وتنصرفون عن توحيده فتُشركون معه غيره في العبادة؟!

[٦٣] وكما أنكم أيها الكافرون انصرفتم عن عبادة الله إلىٰ عبادة غيره مع وضوح الأدلة والبراهين، فكذلك نصرف عن التوحيد والإيمان كل من جحد آيات الله، وتحدَّىٰ وكذَّب رسله، وذلك جزاءٌ وليس ابتداءً.

[٦٤] ثم ذكَّر جل وعلا عباده أنه هو وحده الذي جعل لأجلكم الأرض ساكنةً لتستقروا عليها، وتستقر عليها مبانيكم، وهو الذي جعل لأجلكم السماء سقفًا قائمًا دائمًا للأرض التي أنتم فيها، محكمةً لا تسقط عليكم، وهو سبحانه الذي خلقكم في أحسن هيئة، وأكمل صورة، وهو سبحانه الذي رزقكم من طيبات كل شيء من المأكل والمشرب، والمنكح، والملبس، والمنظر، وغيره، واعلموا أن ذلكم الموصوف بهذه الصفات، ودبر لكم هذه الأمور، وأنعم عليكم بهذه النعم هو ربكم الذي لا رب لكم سواه، ولا معبود بحق إلا هو، فتكاثر خيرُهُ وبركتُه، وتعاظم إحسانُه، الذي ربىٰ جميع العالَمين بنعمه.

[٦٥] وهو سبحانه الحي الذي له الحياة الكاملة التامَّة، لا يفنىٰ، ولا يموت، والجن والإنس يموتون، لا معبود بحقٍّ إلا هو، فأخلصوا له العبادة، وادعوه وحده – دون من سواه –، واعلموا أنه له وحده سبحانه المحامد والمدائح والثناء، وهو سبحانه الذي بفضله ربَّىٰ جميع العالَمين بِنِعَمِه.

[٦٦] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين من قومه: إني نُهيت أن أعبد الذين تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام وغيرها، وقد جاءني علىٰ ذلك الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة، وأمرت أن أستسلم بالتوحيد وأنقاد بالطاعة لله رب العالمين.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

[٦٧] ثم ذكَّر جل وعلا عباده أنه هو وحده الذي أوجدهم من العدم، وابتدأ خلق أبيهم آدم من تراب، ثم خلقهم من نطفةٍ – وهي المني –، ثم من علقةٍ – وهي قطعة الدم الغليظة الحمراء –، ثم تستمرون في بقية الأطوار حتىٰ يخرجكم الله أطفالًا من بطون أمهاتكم، ثم يكبر هذا الطفل وينمو، ثم تكبروا وتشتدوا ويكتمل بناء أبدانكم وعقولكم، ثم تكبروا حتىٰ تصيروا شيوخًا، ومنكم من يموت قبل بلوغ الأشدّ، ولتبلغوا أيها الناس بهذه الأطوار والمراحل أجلًا مسمّىٰ تنتهي عنده أعماركم، ولعلكم تُعملون عقولكم في آيات الله وحججه عليكم، فتعقلون توحيد ربّكم، وتُخلصون له العبادة دون من سواه.

[٦٨] ثم ذكَّر جل وعلا عباده أنه هو وحده الذي يحيي ويميت، فإذا شاء وأراد أيَّ أمْرٍ فإنما يقول له: كُنْ؛ فيكون ذلك الأمر مباشرةً بلا توقُّفٍ، ولا تمنّع.

[٦٩] ثم سأل جل وعلا نبيه ﷺ سؤال تعجب من حال هؤلاء المشركين، فقال: ألم ترَ وتتعجَّب يانبيَّ الله من هؤلاء المشركين الذين يخاصمون في آيات الله الواضحة الدلالة والظاهرة الحجَّة؟!! كيف يعدلون عنها إلىٰ غيرها، وكيف ينصرفون عنها مع وضوحها.

[٧٠] ثم بين جل وعلا عاقبة أولئك الذين جحدوا كتابَ الله فلم يُؤمنوا به، وجحدوا رُسُلَ الله فلم يصدقوهم بما جاؤوهم به من عند الله، ولم يتبعوهم؛ فأخبر بأنهم سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم وجحدهم، ووبال كفرهم.

[٧١-٧٢] ثم بين جل وعلا هذا الوعيد، وما أعده لهم من العذاب، وأخبر بأنهم حين يدخلون جهنم سوف تُجعَلُ الأغلال في أعناقهم فلا يستطيعون الحركة معها، ويُربَطون بالسلاسل مع شياطينهم، ثم يُسحَبون ويجرجَرون في الماء الحار الذي اشتد غليانه، ثم يلقوْن في نار جهنم ويوقد عليهم اللهب العظيم حتىٰ يصيروا هم من وقود النار، نسأل الله السلامة والعافية.

[٧٣-٧٤] ثم يُقال لهم – وهم في هذه الحالة توبيخًا وتقريعًا –: أين الآلهة الباطلة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟! فيجيبون في ذلٍّ وندامة: غابوا عنَّا ولم ينفعونا، ثم يُقرُّون ببطلان شركهم وأن عبادتهم إياهم كانت باطلةً لا تساوي شيئًا، وبمثل ذلك الضلال يضلُّ الله الكافرين الجاحدين؛ حيث عبدوا أهواءهم، وعبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم إلىٰ نار جهنم والعياذ بالله.

[٧٥] ثم يقال لهم أيضًا: إن سبب العذاب الذي أنتم فيه: ما كنتم تظهرونه من الفرح بما أنتم عليه من الباطل، وبما كنتم تبطرون وتأشرون وتتكبرون، وتبغون علىٰ عباد الله.

[٧٦] ثم يأمر جل وعلا هؤلاء المشركين بدخول جهنم من أبوابها السبعة ماكثين فيها أبد الآبدين، لا يخرجون منها أبدًا، فبئس مسكنُ ومقرُّ المتكبرين علىٰ طاعة الله واتباع أوامره، وتصديق رُسُله.

[٧٧] فاصبر يانبي الله علىٰ تكذيب هؤلاء المشركين من قومك لك، واصبر علىٰ جدالهم، وامض في دعوتك وجهادك، واعلم أن وعد الله بتعذيبهم ونصرك لا شك ولا ريب فيه؛ وسواء أريناك بعض هذا العذاب الذي وعدناهم في الدنيا لتقرَّ به عينك فيها ونعمت، أو نتوفينك قبل ذلك، فاعلم أن مرجعهم إلينا يوم القيامة، وسوف نجازيهم بما يستحقون من العقاب.

وفي هذا توجيه للدعاة بالصبر علىٰ ما يلاقونه في دعوتهم من الأذىٰ والمشقة، وعدم انتظار نتائج دعوتهم؛ فالواجب عليهم أن ينشروا دين الله في كل مكان، ويتركوا الأمر لله فهو الذي يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله؛ لأن إضلالهم كان جزاءً علىٰ ضلالهم باختيارهم، ثم يجازي سبحانه يوم القيامة عباده علىٰ أفعالهم.


....
....
....

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

[٧٨] ثم ذكَّر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ تسليةً له، فقال: ولقد أرسلنا من قبلك يانبي الله رسلًا كثيرين إلىٰ أقوامهم يدعونهم، فهم يصبرون عل أذاهم، وهؤلاء الرسل منهم من قصصنا عليك شيئًا من دعوتهم وما لاقوه من أقوامهم من الأذىٰ، ومنهم من لم نقصصه عليك، وفي هذا شحن لطاقة التحمل عنده ﷺ، ثم أخبر جل في علاه بأنه لا يمكن لرسول أن يأتي بمعجزة إلا بإذن الله تعالىٰ، لأن المعجزات عطايا ومنح من الله، وكل معجزة لها مناسبتها بحسب ما تقتضيه حالة المرسل إليهم، فإذا جاء الوقت المحدد للقضاء بين العباد فسوف يقضي سبحانه بين الرسل ومكذبيهم بالعدل، أما أهل الباطل الذين أصروا علىٰ كفرهم وعبدوا غيره جل في علاه، وماتوا علىٰ ذلك فسوف يخسرون، أي: يخسرون رحمة الله وعفوه ورضاه وجنته.

[٧٩] ثم بين جل وعلا شيئًا من فضله علىٰ عباده، فأخبر أنه هو الذي خلق بقدرته هذه الأنعام من أجلكم أيها الناس لتنتفعوا بها في الركوب والأكل وغيرها من المنافع الكثيرة.

[٨٠] ثم بين سبحانه أن من هذه المنافع أنها تحمل أمتعتكم وتنقلكم من بلد إلىٰ بلد؛ في الوقت الذي لم تكونوا تبلغوا هذا البلد إلا بشق الأنفس لو لم تكن هذه الأنعام موجودة، وذلك قبل وجود وسائل النقل الحديثة، ومن فضله عليكم أيضًا أنكم تُحملون علىٰ الرواحل البرية التي تنقلكم لمسافات طويلة؛ وتُحملون علىٰ هذه السفن التي تجري في البحر فتنتقل بكم من بلد إلىٰ آخر، ثم ألهمكم الله وقدركم أيها الناس علىٰ صنع هذه الوسائل الحديثة من السيارات والطائرات وغيرها التي فيها راحتكم وسرعة التنقل بكم.

[٨١] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه يريكم بعض آياته الدالَّة علىٰ وحدانيته، فأيَّ آيةٍ من تلك الآيات تنكرونها ولا تعترفون بها؟ وهذا سؤال تقريري، أي: لا أحد ينكر ذلك.

[٨٢] ثم حثّ جل وعلا هؤلاء المكذبين بالاعتبار بالماضين من الأمم السابقة التي أُبيدت وأُهلكت بسبب كفرهم وضلالهم وعصيانهم أنبياءهم، فقال، أفلم يسيروا في الأرض ويتفكروا في مصارع الأمم المكذبة من قبلهم كيف كانت عاقبتهم؟ علمًا بأن تلك الأمم كانت أكثر منهم عددًا، وأشد قوة في أبدانهم، وأكثر آثارًا في العمران والحضارة والغنىٰ، ومع ذلك عندما حل بهم عذاب الله لم تغن عنهم أموالهم أو قوتهم أو عددهم شيئًا؛ بل إنه جل في علاه أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

[٨٣] ثم أخبر جل وعلا أن هذه الأمم المكذبة لما جاءتهم رسلهم بالدلائل والبراهين الواضحة فرحوا واغتروا بما وصلوا إليه من رقي في العلم فرح أشر وبطر، وظنوا أن ما عندهم أحسن مما جاءت به الرسل، ولذلك حل بهم العذاب جزاء استهزائهم برسلهم.

[٨٤] ثم بين جل وعلا حالهم عندما حلت بهم العقوبة وأُخذوا بذنوبهم؛ حيث خضعوا واستسلموا، وقالوا: لقد آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مغرورين في الدنيا من عبادة الأصنام والأوثان، ولكن هيهات فقد فات وقتها لأن الآخرة هي دار الجزاء.

[٨٥] ثم بين جل وعلا أن إيمان هؤلاء المكذبين لم ينفعهم؛ لأنه جاء في غير وقته؛ حيث آمنوا حين رأوا العذاب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨]، ثم بين جل في علاه أن هذه سنته وشريعته في الأمم كلها، بأن الإيمان عند حلول العذاب لا ينفع ولا قيمة له، وسوف يخسر الكفار والمشركون عند نزول العذاب بهم كل شيء؛ فلا تنفعهم أموالهم، ولا أولادهم، ولا قوتهم، ولا آلهتم التي كانوا يصرفون العبادة لها.



....

....

....

سورة فصّلت

سورة فصّلت مكيّة وآياتها أربع وخمسون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] يخبر جل وعلا أن هذا القرآن تنزيل من الرحمن الرحيم، نزل به جبريل علىٰ النبي ﷺ رحمة للعالمين، وليس كما يزعم الجاحدون أنه أساطير الأولين. ونسبة التنزيل إلىٰ الرحمة إشعار للعباد أن المقصود هو صلاحهم وفلاحهم وأنه رحمة للعالمين.

[٣] ثم بين سبحانه أن هذا القرآن جمع علوم الأولين والآخرين، وقد بَيَّنَتْ وَوَضَّحَتْ آياته الحلال والحرام والقصص والتوحيد، فليس علىٰ الأرض كتاب اجتمعت فيه علوم مختلفة نافعة للبشر مثل القرآن، وهذا القرآن نزل بأفصح اللغات وأكملها، ووجود بعض الكلمات التي قيل: إنها أعجمية؛ فإنما هي مما توافقت عليه اللغات، وقد أثبت علم الاجتماع ذلك، وقد نزل هذا القرآن علىٰ قوم يعلمون اللسان العربي فلا يلتبس عليهم منه شيء.

[٤] وبين جل وعلا أن هذا القرآن يتصف بصفتين:

الأولىٰ: أنه يبشر المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ، ويفرحهم بأن لهم الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

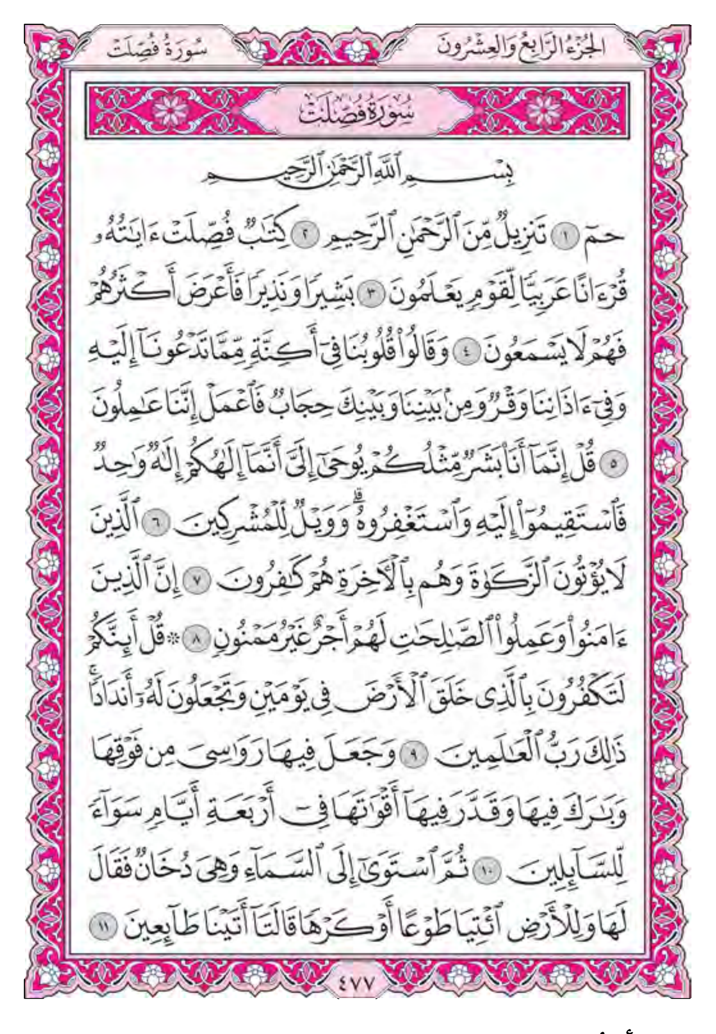
والثانية: أنه ينذر العصاة والكفار بما ينتظرهم من عذاب الله وعقابه، ولكن أكثر الناس أعرض عن تدبر آيات هذا القرآن، وإذا سمعوه فإنهم لا يسمعونه سماع قبول وإجابة، وإنما يسمعونه بقلوب قاسية، وعقول خالية من إدراك معانيه.

[٥] ثم إن هؤلاء الكافرين بادروا النبي ﷺ وقالوا له تيئيسًا له من إيمانهم: اعلم يامحمد أن قلوبنا قد كستها أغطية فلا يصل إليها شيء مما تدعونا إليه، وفي آذاننا صمم فلا نسمع ما تدعونا إليه من الخير والهدىٰ، وإن من بيننا وبينك حاجز غليظ يحجبنا عن إجابة دعوتك؛ وما دام الأمر كذلك فاعمل أنت ما شئت كما يملي عليك دينك، ونحن أيضًا سوف نعمل ما شئنا كما تملي علينا عاداتنا.

[٦] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: إنما أنا بشر معكم ومنكم، وأعلم أنكم فقط معاندون للخير والصلاح رافضون للهدىٰ والرشاد، والفرق بيني وبينكم أن الله جل في علاه اختصني بوحيه ورسالته، وأمرني أن أخبركم بأن إلهكم وخالقكم الذي يستحق العبادة هو إله واحد لا شريك له، فاستقيموا علىٰ دينه واسلكوا الطريق الموصل إليه، واطلبوا مغفرته فإنه غفور رحيم، واعلموا بأن الويل والعذاب لمن أشرك به فإن الشرك محبط للعمل، وصاحبه مخلد في النار.

[٧] ثم بين جل وعلا أن الويل والعذاب للمشركين الذين كفروا بالله وعبدوا غيره ولم يأتوا بالتوحيد والإيمان الذي طُلب منهم، وهم الذين كفروا باليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب. يقول جمهور المفسرين: إن المقصود بالزكاة في هذه الآية هو: التوحيد؛ لأنهم غير مطالبين بالزكاة حتىٰ يؤمنوا.

[٨] أما أولئك الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسوله ﷺ، وعملوا الأعمال الصالحة من التوحيد وامتثال الأوامر واجتناب النواهي؛


الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

٤٧٧

فلهم أجرٌ عظيم غير منقطع، ولا نافد، ولا منتهٍ.

[٩] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل التوبيخ والإنكار: عجبًا لكم أيها الكفار، أإنكم لتكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين اثنين، ثم تجعلون لمن خلق ذلك كله نظراء وشركاء تعبدونهم معه وتسمونهم آلهة؟ فاعلموا أن ذلك الموصوف بهذه القدرة العظيمة هو الله رب العالمين الخالق لجميع المخلوقات.

[١٠] ثم إنه جل وعلا دحا الأرض وكورها وجعل فيها جبالًا ثابتة ومرتفعة، كي تثبتها وتمنعها من الزوال والزلزلة، ثم إنه جل في علاه بارك في هذه الأرض، وجعلها كثيرة الخير بما فيها من المنافع التي لا تُحْصَىٰ، وقدَّر فيها أرزاق العباد ومنافعهم؛ وجعل سبحانه كلّ ذلك في تمام أربعة أيام، وهي سواء لمن يسأل عن ذلك، فإنها لا زيادة فيها ولا نُقصَان. وهذه الأيام المذكورة في الآيتين السابقتين ليست من أيامنا؛ بل هما من أيام الله التي قال عنها سبحانه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]؛ لأن الشمس والقمر التي تحدد أيامنا لم تخلقا إلا بعد ذلك حيث جعلهما الله زينة في السماء وتنطلق منهما رجوم الشياطين، مع أنه قادر أن يخلقها بلحظة بكلمة (كن).

[١١] ثم أخبر جل وعلا أنه قصد إلىٰ خلق السماء التي كانت قبل ذلك علىٰ هيئة دخان، ثم قال للسماء وللأرض: استجيبا لأمري طائعتين أو مكرهتين، فقالتا: استجبنا مُذْعِنتين خاضِعَتَيْن مُطيعتَيْن لك يارب، ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ
وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً
فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ
﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ
عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ
لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى
ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ
﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ
إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ
سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

[١٢] وبعد أن قصد جل وعلا إلىٰ السماء أخبر أنه جعلها سبع سماوات وأنه فرغ من خلقها وتسويتها علىٰ أبدع صورة في يومين اثنين، ثم أوحىٰ في كل سماء ما أراده وما أمر به فيها، ثم إنه سبحانه زيَّن السماء الدنيا بالنجوم المضيئة، وجعل الشهب التي تنطلق من هذه النجوم حرسًا لها من الشياطين الذين يسترقون السمع، وهذا النظام البديع الذي خلقه الله في السماوات والأرض هو تقدير وترتيب العزيز الغالب لكل شيء، العليم بما يُصْلِحَ الكون والخلق، وما يحقق الاستخلاف والثواب والعقاب.

ويؤخذ من هذه الآية والتي قبلها رقم ١٠ أن خلق الأرض استغرق أربعة أيام، وخلق السماوات استغرق يومين، فيكون مجموع خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

[١٣] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: لقد أقمت لكم الأدلة علىٰ وحدانية الله، وعلىٰ صدق رسالتي؛ فإن أعرضوا ورفضوا الاعتراف بعظمة الله وقدرته وحكمته وتوحيده؛ فقل لهم علىٰ سبيل التحذير: لقد أنذرتكم عذابًا يستأصلكم كما استأصل عادًا وثمود عندما كفروا بربهم وعصوا رسله.

[١٤] ثم أخبر جل وعلا أنه حين جاءتهم – أي: عاد ثمود – رسل الله – هود، وصالح – يأمرونهم بعبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، أجابوهم بالتكذيب والمعاندة، وقالوا: لو أراد الله دعْوَتَنا لِمَا تقولون لأنزل إلينا ملائكة، فأنتم بشرٌ مثلنا، ونحن بما تدعوننا إليه كافرون جاحدون.

[١٥] ثم أخبر جل وعلا أن عادًا قوم هود – إضافةً إلىٰ كفرهم وتكذيبهم لرسولهم – استكبروا واستعلوا علىٰ كل قوة بغير وجه حقٍّ، وقد أعجبتهم قوتهم، فاغتروا قائلين: من أشد منا قوة؟! فإنه لا يقدر أحد علىٰ إصابتنا بسوء أو أذىٰ، أولم يروا أن الله الذي خلقهم وأوجدهم من العدم هو أشدّ منهم قوَّة؟!! وكانوا بآيات الله الدالة علىٰ وحدانيته يجحدون ويكذِّبون.

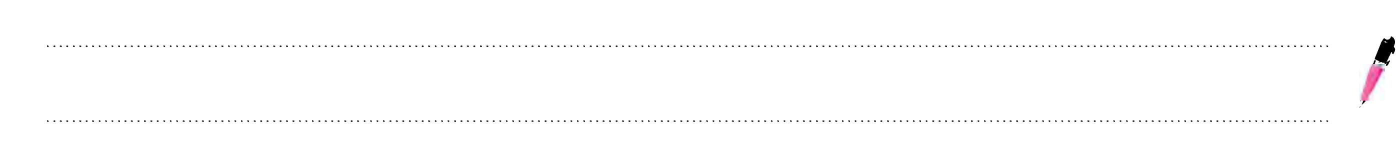
[١٦] فلأجل ذلك عاقبهم جل وعلا وأهلكهم بأنْ أرسل عليهم ريحًا شديدة البرودة وشديدة الصوت، استمرَّت عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام، فكانت أيامهم تلك أيامًا مشؤومات عليهم؛ ليذيقهم سبحانه عذاب الذل والخزي والهوان في الحياة الدنيا بسبب استكبارهم، وإن عذابهم في الآخرة أشد، وأنكىٰ، وأبقىٰ، وأخزىٰ، ولا يستطيعون – بقوَّتهم – أن يمنعوا عن أنفسهم العذاب، ولا يستطيع أحدٌ منعه عنهم.

[١٧] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل لقوم ثمود نبيهم صالحًا عليه السلام لهدايتهم؛ فقام صالح عليه السلام بما أوجب الله عليه وبين لقومه الحق، ودلَّهم علىٰ الهدىٰ والإيمان، وأحضر لهم الناقة التي طلبوها، ولكنهم اختاروا الكفر والضلال علىٰ الإيمان؛ فأهلكهم الله بصاعقة العذاب المهين؛ بسبب كفرهم وجحودهم، وتكذيبهم رسل الله.

[١٨] ثم أخبر جل وعلا أنه نجَّىٰ الذين أمنوا بالله واتبعوا نبيهم صالحًا عليه السلام، وكانوا يتقون عذاب الله بتوحيده، والإيمان برُسُله وبما جاؤوا به.

[١٩] واذكروا أيها الناس يوم أن يُحْشَرَ أعداء الله جميعًا إلىٰ النار بعد أن حوسبوا علىٰ أعمالهم السيئة، ثم يحبسون في هذا اليوم حتىٰ يُجمع أولهم بآخرهم، ثم يساقون بعنف إلىٰ النار.

[٢٠] ثم بين سبحانه أحوالهم عندما يعرضون علىٰ النار؛ فيخبر جل في علاه أنهم إذا وردوا علىٰ النار وأرادوا أن يُنكروا ما عملوه من الكفر والضلال والمعاصي، شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون في الدنيا من الكبائر والصغائر؛ فإن الله جل شأنه يُنطقها كما الذي أنطق كل شيء، ويدل هذا علىٰ عظيم قدرته سبحانه وتعالىٰ.



الجزء الرابع والعشرون — سورة فصلت

وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

٤٧٩

[٢١] ولمَّا شهدت هذه الأعضاء علىٰ هؤلاء المشركين بما كانوا يفعلون، أغاظهم ذلك لأنها فضحتهم وأظهرت ما كانوا يكتمون؛ فأخذوا يعاتبون أعضاءهم، ويقولون لجلودهم: لِمَ شهدتم علينا بما كنا نعمل في الدنيا؟، فقالت الجلود لأصحابها: أنطقنا الله الذي بقدرته أنطق كل شيء، وهو سبحانه خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، وإلىٰ الله وحده مصيركم أيها الناس؛ فيجازيكم علىٰ أعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ووجهوا العتاب لجلودهم فقط لأنها محل الإحساس.

[٢٢] ثم قال جل وعلا لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل اللوم والتبكيت: وما كنتم أيها الكافرون تستخفون عندما ترتكبون الذنوب والمعاصي خوفًا من أن يشهد عليكم سمعكم أو أبصاركم أو جلودكم، ولكنكم ظننتم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تخفون من أعمالكم التي تعصون الله بها.

[٢٣] ثم بين سبحانه وتعالىٰ سوء عاقبة ظنهم السيِّئ بربهم بأن أرداهم وأدخلهم النار، فأصبحوا من الخاسرين الذين خسروا كل شيء، أي: أنهم ما كانوا يخافون أن تفضحهم أعضاؤهم؛ بل كان ظنهم أسوأ من ذلك؛ حيث كانوا يظنون أن الله لا يعرف شيئًا من أعمالهم السيئة.

[٢٤] ثم إنكم أيها الكفار في جميع الأحوال ماكثون في النار؛ سواء صبرتم علىٰ عذابها واستسلمتم لذلك، أو لم تصبروا؛ فهي مسكنكم ومستقركم، ولو اعتذرتم وطلبتم الرجوع إلىٰ الدنيا لكي تؤمنوا بالله وتتبعوا الرسول ﷺ؛ حتىٰ تفوزوا برضا الله ودخول الجنة؛ فلن تُجابوا إلىٰ ذلك.

[٢٥] ثم أخبر جل وعلا أنه هيأ لهؤلاء الظالمين المجاوزين حدودَهُم قرناءَ وأصحابَ من شياطين الإنس ضالين مثلهم فزيَّنوا وحسَّنوا لهم أمور الشرك والكفر والمعاصي، وإنكار البعث والجزاء؛ فوجب وحق عليهم العذاب، واستحقُّوه، في جُملَة أمَم كافرةٍ قد مضت من قبلهم – من الجن والإنس –، إنهم كانوا بذلك من الخاسرين لأنفسهم ولأهليهم الخسران البين الواضح يوم القيامة.

[٢٦] ولم تَقِفْ معاداةِ الكفار للرسول ﷺ والوحي عند عدم الإيمان، وإنما أوغلوا في الفسوق والكفر، وأخذوا ينفرون الناس والذين يريدون أن يدخلوا في الدين؛ فيقولون للجهال والعامة: لا تسمعوا لهذا القرآن الذي يقرأه عليكم محمد، ولا تطيعوه؛ بل عند سماعكم وهو يقرأ ارفعوا أصواتكم وشَوِّشوا عليه بالصفير واللغو، وهو: الكلام الذي لا مفهوم منه، لعلكم تغلبونه؛ فيترك القراءة، وننتصر عليه.

[٢٧] ثم هدد جل وعلا هؤلاء الكافرين الذين قالوا هذا الكلام فقال: فلنذيقنَّ الذين كفروا وجحدوا دين الله، وكذبوا الرسل، وصدُّوا غيرهم عن القرآن بمثل هذا القول؛ عذابًا شديدًا في نار جهنم، ولنُنَكِّلَنَّ بهم نكالًا عظيمًا، وهذا وعيد لهم ولغيرهم ممن حارب الله ورسوله ﷺ والمؤمنين في زمانهم وفي الأجيال اللاحقة.

[٢٨] واعلموا أيها الناس أن ذلك الجزاء والعذاب الشديد هو جزاء أعداء الله وأعداء أنبيائه وأوليائه، قد أعدَّ الله لهم نار جهنم يدخلونها ويقاسون حرَّها وعذابها، وهم مقيمون ماكثون فيها، لا يخرجون منها أبدًا، ذلك بأنهم كانوا بآياتنا الدالة علىٰ الوحدانية يجحدون ويكذِّبون.

[٢٩] ثم إن أولئك الكفار من الأتباع الإمَّعات يقولون – وهم في النار –: ربنا أرنا الصنفيْن اللذين قادانا إلىٰ الضلال والعذاب من الجن والإنس؛ لنضعهما تحت أقدامنا في النار، ليكونا من الأذلين المهانين.


....
....
....

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ
ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ
فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ
قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ
ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ
بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ
وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ
فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ
ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ
وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ
إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾

[٣٠] ثم أخبر جل وعلا المؤمنين وطمأنهم أن الذين قالوا بصدق وإخلاص: ربنا الله وحده لا شريك له، ثم استقاموا علىٰ شريعته؛ تتنزل عليهم الملائكة عند الموت ونزع الروح، وتقول لهم: لا تخافوا أيها المؤمنون الصادقون، ولا تحزنوا علىٰ ما تركتموه وراءكم من متاع الدنيا، ثم تبشرهم برضوان الله ورحمته، ودخول جنته التي كانوا يوعدون بها في الدنيا، والتي هي مستقرهم الأخير، وما فيها من النعيم المقيم.

[٣١] ثم تخبرهم الملائكة وتقول لهم: نحن أنصاركم وأعوانكم؛ ففي الدنيا كنا نحثكم علىٰ الخير ونحذركم من الشر، وندعو لكم، ونثبتكم عند الشدائد والمصائب، ونحن - أيضًا - في الآخرة أنصاركم وأعوانكم، فنثبتكم عند خروج الروح، وعند البعث، وعلىٰ الصراط، وفي الجنة نهنِّئكم، ونسلِّم عليكم، ولكم في هذه الجنة من النعيم المقيم ما تشتهيه أنفسكم من صنوف اللذات والنعم، ولكم فيها ما تطلبون، وما تتمنون.

[٣٢] ثم بينت لهم الملائكة الكرام أن كل ما أعده الله لكم وهيأه في هذه الجنة هو نزل وضيافةٌ من ربٍّ غفور، كثير المغفرة لمن استغفر وتاب، رحيم، كثير الرحمة لمن رجع وأناب.

[٣٣] ثم اعلموا أيضًا أنه لا أحد أحسن كلامًا وطريقةً وحالًا ممن: دعا إلىٰ توحيد الله وإفراده بالعبادة، وعَمِل الأعمال الصالحة بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وقال: إنني من المسلمين المستسلمين لله بالتوحيد، المنقادين له بالطَّاعة.

[٣٤] ثم بين جل وعلا أنه لا تستوي الحسنة التي يحبها الله ويرضاها من الأقوال والأعمال والنيات، بالسيئة التي يكرهها الله ويأباها، وعليك أن تدفعَ الخصلة السيئة وما يصيبك من الأذىٰ بالخصلة الحسنة، كالعفو عمن ظلمك، والإحسان لمن أساء إليك، فإنك إذا فعلتَ ذلك، كسبْتَ قلب عدوّك، فأصبح كالصديق المقرَّب منك.

[٣٥] ثم أخبر جل وعلا أن هذه الخصلة - وهي دفع السيئة بالحسنة – لا يُعْطاها إلا من جمَّله الله بخلق الصبر الجميل علىٰ كظْم الغيظ، واحتمال المكروه من الناس - ابتغاء ثواب الله والدار الآخرة -، وما يُعْطىٰ هذه الخصلة إلا صاحب حظٍّ عظيمٍ في الثواب والأجر في الدنيا والآخرة.

[٣٦] ثم أرشد جل وعلا عباده المؤمنين إلىٰ ما يبعدهم عن الشيطان ووساوسه، فقال: وإذا أحسست في أيِّ وقتٍ من الأوقات بشيء من وساوس الشيطان وتزيينه الشر لك، كدفع السيئة بالسيئة؛ فالتجيء إلىٰ الله، ولُذْ به واعتصم به، واسأله أن يعيذك ويحميك من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع لجميع أقوالك ومناجاتك ودعائك، العليم بما يحتاج إليه العبد من الحماية والعصمة.

[٣٧] ثم أخبر جل وعلا أن من آياته الدالة علىٰ وحدانيته وكمال قدرته: وجود الليل والنهار، والشمس والقمر، وتعاقبهم؛ فيحصل بذلك لكم المنافع العظيمة، وتستقيم حياتكم، ثم أمر عبادة أن لا يسجدوا للشمس ولا للقمر؛ لأنهما مخلوقان مُدَبَّران من جملة المخلوقات؛ بل اسجدوا لله الذي خلقهنَّ إن كنتم إياه تعبدون، وتُخلِصون له العبادة، وخص سبحانه الشمس والقمر بالذكر لأن هناك من البشر من يعبدهما.

[٣٨] فإن استكبر يانبي الله هؤلاء المشركون عن توحيد الله وإفراده بالعبادة - بأن أشركوا معه غيره -؛ فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن توحيد الله وإفراده بالعبادة، وهم قائمون علىٰ تنزيهه وتقديسه علىٰ الدوام ليلًا ونهارًا، لا يفترون عن ذلك، ولا يملُّون. وهذه الآية تفيد أن الله جل في علاه ليس بحاجة إلىٰ عبادة أحد من البشر، وإنما هو سبحانه مستغنٍ عن الخلق أجمعين، ولكنه لا يرضىٰ أن يعبد غيره، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [الزمر:٧].

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

[٣٩] ثم أخبر جل وعلا أن من آيات الله الدالة علىٰ إثبات البعث وكمال قدرته: أنك ترىٰ الأرض جرداء لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها ماء المطر؛ تحرَّكتْ بالنبات وظهر النبات فيها، إن الذي أحيا هذه الأرض الميتة فأنبتت هذا النبات واخضرَّتْ، لمُحْيي الموتىٰ من قبورهم، للبعث والنشور، إنه علىٰ فعل كلِّ شيء أراده لقدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالىٰ.

[٤٠] ثم أخبر جل وعلا أن الذين يميلون في آيات الله عن الصواب بتحريفها، أو بإنكارها، أو تكذيبها؛ لا يخْفَوْن عليه سبحانه، ولا يستطيعون أن يستتروا منه، ثم بين جل في علاه الفرق الكبير بين الكافر والمؤمن، فقال: أفمن يُلحِد في آيات الله ويحرفها فيُلقىٰ في نار جهنم خيرٌ، أمَّن آمن بآيات الله وصدقها فيأتي يوم القيامة آمِنًا من العذاب؟، فاعملوا ما شئتم أيها الملحِدون – وهذا تهديد شديد لهم علىٰ إلحادهم، وليس إذنًا لهم –، ولكن اعلموا أن الله بما تعملون بصير، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

[٤١] ثم أضاف جل وعلا تهديدًا آخر، فقال: إن الذين كذَّبوا وجحدوا القرآن لمَّا جاءهم علىٰ لسان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، سنجازيهم علىٰ ذلك يوم القيامة، واعلموا أيها الناس أن هذا القرآن كتابٌ عزيزٌ منيعٌ حفظه الله من كل تحريفٍ وتبديل.

[٤٢] ثم بين سبحانه أنه قد تكفَّل بحفظ هذا القرآن؛ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أي: لا يستطيع شيطانٌ من الإنس والجن أن يزيد فيه أو ينقص منه، وبين أن هذا القرآن الكريم تنزيلٌ من الله الحكيم الذي يضع الشيء في موضعه، الحميد علىٰ ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال سبحانه وتعالىٰ.

[٤٣] ثم قال جل وعلا تسلية لنبيه محمدٍ ﷺ: واعلم يانبي الله بأن ما يقال لك من هؤلاء المشركين بأنك ساحر أو شاعر أو كذاب أو مجنون؛ فقد قاله من قبلهم الأمم لرسلهم؛ فلست بدعًا من الرسل، وما دام الأمر كذلك فاصبر علىٰ ما ينالك من الأذىٰ، واعلم بأن ربك ذو مغفرة لعباده المؤمنين، وذو عقاب أليم لمن أصر علىٰ الكفر والتكذيب.

[٤٤] ثم رد جل وعلا علىٰ بعض الشبهات التي أثارها المشركون حول القرآن، فقال: ولو جعلنا هذا القرآن الذي أنزلناه عليك يانبي الله أعجميًا، لقال المشركون: هلَّا وُضِّحَتْ آياته بلسان عربي نفهمه، وهل يعقل أن يكون هذا القرآن أعجميًّا، ولسان الذي أنزل عليه عربي؟ فقل يانبي الله لهؤلاء الجاحدين: إن هذا القرآن هدًىٰ للمؤمنين، وشفاء للأمراض النفسية والعضوية، ولما يحوك في الصدور من الشكوك والأمراض، أما أولئك الذين لا يؤمنون بالقرآن ففي آذانهم صمم، وهو علىٰ قلوبهم عَمًىٰ، فلا يهتدون به أبدًا، وأولئك المشركون كمن يُنادي وهو في مكان بعيد لا يُسمع نداؤه، ولا يُفهم قوله. وهذه الآية من آيات الشفاء الستة التي ذكرت سابقًا، والتي يُسْتَشْفي بهن عن الأمراض النفسية والأمراض البدنية.

[٤٥] ثم أخبر جل وعلا مسليًا نبيه ﷺ ومهونًا عليه ما يجده من مخالفيه، فقال سبحانه: ولقد آتينا نبينا موسىٰ عليه السلام كتاب التوراة كما آتيناك يارسول الله القرآن فَاخْتُلِفَ في شأنها؛ فمنهم من آمن بها، ومنهم من صد عنها، ولولا كلمة سبقت من ربك في تأخير العذاب عن المكذبين من قومك إلىٰ الوقت المحدد له لفُصِل بينهم بإهلاك الكافرين في الحال، واعلم أن المشركين لفي شك وريبة من هذا القرآن جعلهم يعيشون في قلق واضطراب.

[٤٦] واعلموا أيها الناس أن من عمل الأعمال الصالحة، وأقام علىٰ ما يحبه الله ويرضاه؛ فإنما يقدِّم الخير والنفع لنفسه، ومن عمل الأعمال السيئة، وأقام علىٰ ما يكرهه الله ويأباه؛ فإنما يقدِّم الشر والعقاب لنفسه، وليس ربك يانبي الله بذي ظلْمٍ للعبيد، فلا يعذِّبُ أحدًا إلا بذنبه.



۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

[٤٧] ثم أخبر جل في علاه أنه إليه وحده مرجع علم الساعة؛ فهو سبحانه وحده الذي يعرف وقتها، وهو وحده الذي يعلم متىٰ تخرج الثمار من أغلفتها وأكمامها، وهو وحده الذي يعلم ما تحمل أي أنثىٰ من حمل، ولا تضع حملها إلا بعلم الله وإرادته، واذكر يانبي الله يوم أن ينادي جل وعلا المشركين يوم القيامة توبيخًا لهم وإظهارًا لكذبهم: أين شركائي الذين كنتم تشركونهم في عبادتي؟ فقالوا علىٰ سبيل التحسر والتذلل: لقد أخبرناك ياربنا الآن أنه ليس منا من أحد يشهد اليوم أن معك شريكًا؛ فقد انكشفت عنا الحجب، وعرفنا خطأنا.

[٤٨] ثم أخبر جل وعلا أنه غاب عن هؤلاء المشركين ما صرفوا فيه أعمارهم من عبادة غير الله، وحينها أيقنوا وعلموا ألا نجاة لهم، ولا مهرب من العذاب.

[٤٩] ثم ذكر جل وعلا شيئًا عن طبيعة الإنسان التي خلق عليها، وهي أنه يحب الخير ويلح في طلبه، أما إن أصابته مصيبة من فقر أو شدة فإنه يؤوس من رحمة الله، قنوط سيِّئ الظن.

[٥٠] ثم بين جل وعلا أن من الناس من إذا عافاه الله من مرض، أو أغناه بعد شدة؛ فإنه يقول: هذه منحة من الله لي، لأنني صبرت وعانيت فأنا استحقُّها، وغاب عنه أن الحياة كلها ابتلاءات، وأن الغنىٰ والصحة كلها اختبار للإنسان، هل يشكر علىٰ السراء؟ ويصبر ويحتسب عند الشدائد؟ ثم يقول شاكًّا في يوم القيامة: وما أعتقد أن الساعة آتية، ومعلوم أن الشك والظن في يوم القيامة كفر، ثم يقول: وعلىٰ فرض إتيان الساعة، وأني سأرجع إلىٰ ربي؛ فإن لي عنده ما هو أحسن وأفضل مما أنا فيه من نعيم الدنيا وهي الجنة، ثم أقسم جل في علاه فقال: فَلَنُخْبِرَنَّ الذين كفروا يوم القيامة بما عملوا من سيئات، وأقسم أنه سوف يذيقهم العذاب الغليظ المؤلم.

وقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يؤكد أن الشك في يوم القيامة كفر.

[٥١] ثم ذكر جل وعلا نوعًا آخر من طغيان الكافر وجحوده، فقال: وإذا أنعمنا علىٰ الإنسان بصحة أو رزق أو غيرهما أعرض عن شكر الله وترفَّع عن الانقياد إلىٰ الحق، أما إذا أصابه سوء فإنه يدعو ربه بإلحاح ويتضرع إليه بشدة، بأن يكشف الله ما به من ضر، وهكذا يلتجئ إلىٰ الله في الشدة، وينسىٰ حق الله عليه في الرخاء، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾[يونس:١٢].

[٥٢] وقل يانبي الله لهؤلاء المكذبين بالقرآن: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله حقًّا، ثم أنتم كذبتم به، ولم تقبلوه، ولم تعملوا بما فيه؛ فمن يكون حينها أضلّ وأشقىٰ منكم؟!

[٥٣] وختم جل وعلا السورة بأن وعد المتشككين أنه سيريهم بعض عجائب قدرته من المعجزات والاكتشافات في السماوات من كواكب وشموس، وفي الأرض من أشجار وبحار وجبال، وما يتجدد من اكتشافات ومراكب وغيرها؛ مما يكون سببًا في ظهور الإسلام وانتشاره علىٰ سائر الأديان، وكذلك سيريهم سبحانه عجائب قدرته في الأنفس مما أودع الله فيها من حواس وقوىٰ وعقل وروح وغير ذلك؛ سيريهم سبحانه ذلك حتىٰ يتبين لهم من تلك الآيات أن القرآن وما حواه من أخبار أنه حق، وأنه من الله الحق، ثم وبخ سبحانه هؤلاء المكذبين فقال: ألا يكفي هؤلاء المكذبين الجاحدين برهانًا علىٰ أن القرآن حق، وأن مَن جاء به صادق، شهادة الله تعالىٰ؟ وكفىٰ به سبحانه شهيدًا علىٰ أفعال عباده وأقوالهم.

[٥٤] ثم بين جل وعلا حقيقة هؤلاء الكافرين، فقال: اعلموا أيها الناس أن هؤلاء الكافرين في شك وريب عظيم من البعث بعد الموت، وأن الله جل في علاه بكل شيء محيط علمًا وقدرة وعزة إحاطة تامَّة، لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، و سيجازي سبحانه كلًّا بعمله.

سُورَةُ الشُّورَىٰ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ
ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ
وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي
ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ
مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ
﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن
يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ
ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ
إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

سورة الشورى

سورة الشورىٰ مكيّة وآياتها ثلاث وخمسون آية.

[١-٢] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٣] يخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ وأمته أنه كما أوحىٰ إليه هذا القرآن العظيم الذي اشتمل علىٰ التوحيد وجميع أركان العبادة التي خلق الخلق من أجلها؛ فكذلك هو الذي بفضله وإحسانه حمَّل الرسل السابقين لأممهم مثل هذا النور والهدىٰ الذي تحمله هذه السورة وهذا القرآن؛ فكرمه سبحانه شامل وإحسانه عام، فلست يانبي الله بدعًا من الرسل السابقين، واعلم أن الذي أنزل عليك هذا القرآن والذي أنزل الكتب السابقة علىٰ الأنبياء من قبلك؛ هو الله العزيز الذي لا يغلبه غالب، الحكيم في كل أقواله وأفعاله.

[٤] ثم أخبر جل وعلا بأن جميع المخلوقات والعلوية والسفلية خلقه وملكه، وأنه جل شأنه عليٌّ بذاته وصفاته وأفعاله، وأنه العظيم الذي له العظمة والكبرياء؛ فليس كذاته ذات وليس كصفاته صفات، وأكثر الفرق لا تثبت علو الذات، وتقول: علو القدر والمكانة.

[٥] ثم أخبر جل وعلا أن من عظمته وإجلاله وكثرة الملائكة ما بين ساجد وقائم تكاد كل سماء تتفطر علىٰ التي تحتها كما في الحديث الذي رواه أحمد: «**أطَّت السماء وحق لها أن تئط...**»[(١)]؛ فهي تكاد من كثرة ما عليها تتشقق علىٰ التي تحتها، ومن عظمته أن الملائكة يقدسونه وينزهونه عما لا يليق به، وأنهم يستغفرون لمن في الأرض جميعًا مؤمنهم وكافرهم وفاسقهم طمعًا في إيمان كافرهم وتوبة فاسقهم، واعلموا أن الله هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده، فلولا مغفرته ورحمته لعاجل الخلق بالعقوبة التي تستأصلهم.

[٦] واعلم يانبي الله أن الذين اتخذوا من دون الله آلهة أخرىٰ من الأصنام وغيرها ويصرفون لها العبادة؛ فإن اللهَ يحفظُ أعمالهم ويحصيها ليجازيهم عليها، وما أنت بموكَّل ولا بمكلَّفٍ بإلزامهم بالهدىٰ والصلاح؛ فأنت ليس عليك إلاَّ البلاغ والتبيين لأمور الدين.

[٧] ثم اعلم يانبي الله أنه كما أوحينا إلىٰ الأنبياء من قبلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا بلسان فصيح وهو لسان قومك؛ لتنذر أهل مكة ومن حولها من القرىٰ وسائر الناس، وتخوفهم عما سيجري يوم القيامة لكي يستعدوا له بالعمل الصالح، ويوم القيامة الذي هو يوم الحشر واقع لا ريب فيه؛ حيث تجتمع فيه الخلائق للحساب، ثم ينقسمون بعد الحساب إلىٰ فريقين، فريق في الجنة، وهم الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وفريق في السعير، وهم الذين كفروا بالله وكذبوا المرسلين؛ ثم يذهب كل فريق إما إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار.

[٨] وبعد أن بيَّن جل وعلا أن الناس سوف ينقسمون يوم القيامة إلىٰ فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير؛ بيَّن سبحانه بأنه لو شاء لجعلهم جميعًا علىٰ الهداية والتقوىٰ كالملائكة، ولكن اقتضت حكمته جل في علاه بأن جعلهم مختارين؛ ليتميز المهتدي من الضال؛ فمن اختار الهدىٰ دخل في رحمة الله ونجىٰ مع الناجين، ومن اتبع الهوىٰ والشيطان فهم الضالون الظالمون أنفسهم بالشرك والمعاصي، وهؤلاء ما لهم من ولي يتولىٰ أمورهم يوم القيامة، ولا نصير ينصرهم من عقاب الله تعالىٰ.

[٩] ثم أنكر جل وعلا علىٰ المشركين اتخاذهم أولياء يعبدونهم من دون الله، يرجون نفعهم ويخافون ضرهم، وقد غلطوا في ذلك أقبح الغلط وأشنعه؛ فليعلموا بأن الله هو الولي الحق الذي يملك الضر والنفع، وهو المتفرّد بالإحياء والإماتة، وهو سبحانه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[١٠] ثم بيَّن جل وعلا للمؤمنين عند اختلافهم في شيء من أمور دينهم فعليهم الرجوع إلىٰ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ واعلموا أن ذلكم الله ربي وربكم عليه وحده توكلت في جميع أموري، وإليه أرجع في جميع شؤون حياتي.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وأحمد في المسند (٢١٥١٦).

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾

[١١] يخبر جل وعلا أنه خالق السماوات والأرض ومبدعهما من العدم، وأنه جعل لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، وخلق لكم من الأنعام أصنافًا من الذكور والإناث، وهو سبحانه الذي يبثّكم وينشركم ويكثّركم، ليس كمثله شيء من الأشياء، فلا يماثله ولا يشابهه شيء، وهو السميع لجميع الأصوات والحركات، البصير بأعمال العباد وأحوالهم.

وقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ وغيرها من الآيات دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات، فَنَصِفُ الله جل وعلا بما وصف به نفسه في كتابه، وعلىٰ لسان رسوله ﷺ من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أنه وحده الذي في يده وتحت تصرفه مفاتيح أرزاق العباد من المطر والنبات وغير ذلك، وأنه وحده من يوسع الرزق لمن يشاء من خلقه اختبارًا هل يشكر أم يكفر؟، ويضيقه علىٰ من يشاء ابتلاءً هل يصبر أم يتسخط علىٰ أقدار الله؟ كل ذلك بحسب ما تقتضيه حكمته جل في علاه، إنه سبحانه بكل شيء عليم، لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

[١٣] ثم ذكر جل وعلا أكبر نعمة أنعم بها علىٰ عباده أن شرع لهم أفضل الأديان وبيَّنه ووضَّحه وهو دين الإسلام، الذي أوحاه الله إلىٰ عبده ورسوله محمد ﷺ، ووصىٰ به نوحًا وإبراهيم وعيسىٰ وموسىٰ عليهم السلام، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل؛ حيث وصاهم أن يقيموا الدين بالتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، وأن لا يختلفوا في هذا الدين كما اختلف اليهود والنصارىٰ؛ فضلوا وزاغوا، فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب، ولقد شق وعظم علىٰ المشركين ما تدعونهم إليه من التوحيد، وترك الشرك والمعاصي، واعلموا أن الله يختار لرسالته من يشاء من عباده، وأنه يوفق للعمل إليه من يرجع إلىٰ طاعته ويقبل علىٰ عبادته.

[١٤] ثم ذكر جل وعلا أن اليهود والنصارىٰ تفرقوا شيعًا وأحزابًا بعد أن جاءهم العلم وفهموه، وقامت عليهم الحُجَّة؛ ولكنهم تفرقوا حسب الأهواء والرغبات، وما حملهم علىٰ هذا التفرق والاختلاف إلا البغي والعناد والحسد، ولولا كلمة سبقت من ربك يانبي الله بتأخير العذاب عنهم إلىٰ أجل حدده جل وعلا عنده؛ لَقُضِيَ بينهم بتعجيل العذاب الذي يستأصلهم بسبب هذا الاختلاف، وإن الذين أورثوا التوراة والإنجيل من بعد هؤلاء المختلفين في الحق لفي شك من هذا القرآن ومن الدين والإيمان، وهذا الشك أوقعهم في الريبة والاختلاف المذموم.

[١٥] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يدعو لهذا الدين الذي أوحاه إليه ووصَّىٰ به أولي العزم من الرسل من قبله، وأن يستقيم ويثبت عليه كما أمره جل في علاه، ولا شك أنه ﷺ متفانٍ في الدعوة ومخلص فيها، ثم أمره أن لا يتبع أهواء هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وفي هذا تحذير للأمة من اتباع الأهواء والرغبات الشخصية، وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: لقد صدَّقت بجميع الكتب التي أنزلها الله علىٰ الأنبياء من قبلي، وأمرتُ أن أعدل بينكم في الحكم، واعلموا أن الله هو خالقنا وخالقكم، وأنَّ لنا ثواب أعمالنا الصالحة، وعليكم جزاء أعمالكم، فلا نُسأل عن أعمالكم، ولا تُسألون عن أعمالنا، لا خصومة ولا جدال بيننا وبينكم يوم القيامة فقد ظهر الحق وزهق الباطل، إن الله يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، وإليه سبحانه وحده المرجع والمآب؛ فيجازي كلًّا بما يستحق، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وحينئذٍ سيعلم الكفار أي منقلب ينقلبون.

[١٦] يخبر جل وعلا أن اليهود والنصارىٰ الذين يخاصمون ويناقشون في دين الله بالباطل ليدحضوا به الحق ويصدون الناس عن الإيمان، من بعد ما استجاب الناس لهذا الدين؛ مع أن الحق انتشر وآمن به خلق كثير؛ فإن حجتهم ومجادلتهم باطلة لا قيمة لها عند من عرفوا الحق وعند ربهم؛ حيث جادلوا وقالوا: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم؛ فهؤلاء عليهم غضب من الله في الدنيا، وعذاب أليم شديد يوم القيامة.

[١٧] ثم أخبر جل وعلا أنه هو الذي أنزل القرآن العظيم علىٰ نبيه محمد ﷺ بالحق، ولا شك أنه كله حق وصدق ويقين، وأنزل معه الميزان لإقامة الحق والعدل بين الناس في الأرض، ثم قال جل شأنه مخوفًا المستعجلين لقيام الساعة والمنكرين لها: وما يدريك - يامن تستعجل قيام الساعة - لعل موعدها قريب؟، وفي ذلك تنبيه للعاقل أن يستعد لها.

[١٨] وهذه الساعة يستعجل بها الذين يجحدونها ولا يصدقون بقيامها، أما الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ فمُشفِقون وَجِلون خائفون من قيامها؛ لعلمهم ما فيها من الأهوال والشدائد، ولعلمهم اليقينيّ أنها آتية لا ريب ولا شكَّ فيها، ثم أخبر بأن أولئك الذين يخاصمون ويجادلون في قيام الساعة مخاصمة شكٍّ وريبة؛ لفي ضلال بيِّن بعيد عن الحق والصواب.

[١٩] ثم بين جل وعلا أنه كثير اللطْفِ بعباده، بالغ الرأفة والرحمة بهم، يرزق ويوسع علىٰ من يشاء بحسب اقتضاء حكمته ولطفه، وهو سبحانه القويّ القادر علىٰ فعل كل شيء، العزيز الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٢٠] واعلموا أيها الناس أن من كان يريد بعمله أجر الآخرة وثوابها، فَأَخْلَصَ لله في عمله؛ فهذا يعطيه الله ثواب عمله مضاعفًا الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعافٍ كثيرة، أما من كان يريد بعمله الدنيا وزينتها، فيعطيه نصيبَه الذي قُسِمَ له منها، وليس له في الآخرة أجرٌ ولا حظٌّ، ولا نصيب.

وقد قُيد هذا الإطلاق في قوله تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨].

[٢١] ثم يسأل جل وعلا سؤال تقريع وتهديد: هل لهؤلاء المشركين من قريش وغيرهم شركاء يعبدونهم من دون الله؛ فيشرعون ويخترعون لهم دينًا من عند أنفسهم -لم يشرعْهُ الله-، فيبيحون لهم الشرك، ويحرمون عليهم الحلال، ويحلون لهم الحرام؟!! ولولا الأجل المسمىٰ والموعد المحدد الذي

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

ضربه الله لإهلاكهم؛ لعجَّل الله بالقضاء والفصل بين الرسل وأتباعهم من المؤمنين فنجَّاهم، وبين المشركين ومن يعبدونهم من دون الله فأهلكهم وأبادهم، واعلموا أن الظالمين المجاوزين حدودَهم بالشرك والمعاصي لهم عذابٌ أليمٌ موجعٌ في جهنم.

[٢٢] وفي ذلك اليوم العظيم ترىٰ الظالمين أنفسهم بالشرك والمعاصي وجلين مما عملوا من السيئات والقبائح، خائفين من عاقبة ما كسبت أيديهم، وجزاء ما عملوا واقعٌ بهم، نازلٌ عليهم لا محالة، أما الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ، وعملوا الأعمال الصالحة من الواجبات والمستحبَّات، وامتثلوا الأوامر واجتنبوا النواهي؛ فأولئك في بساتين الجنات الخضراء، وحدائقها الغناء، لهم ما يتمنون وما يطلبون، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، لهم كلّ ذلك عند ربهم الرحمن الرحيم، الذي يرضىٰ عنهم ولا يسخط عليهم أبدًا، ذلك هو الفضل الكبير الذي تفضل الله تعالىٰ به عليهم.

ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

[٢٣] واعلموا أن ذلك الفضل الكبير والنعيم المقيم بُشْرىٰ عظيمة يبشر الله بها عباده الذين آمنوا به، وصدقوا رسوله ﷺ واتبعوه، وعملوا الأعمال الصالحة التي يحبها الله ويرضاها، ثم أمر سبحانه نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين: لا أطلب منكم أجْرًا مقابل دعوتي إياكم للتوحيد والإيمان؛ إلا أن تحفظوا حق القرابة التي بيني وبينكم وحق القرابة التي بينكم أنتم، وأن لا تؤذوني، وأن تمنعوا أذىٰ الناس عني، ثم أخبر سبحانه أن من يكتسب حسنةً يضاعف له أجرها عشر أضعاف إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعافٍ كثيرة، وإن الله كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، شكور لعباده -مع غناه عنهم جل في علاه-، يكافؤهم علىٰ طاعاتهم ويحسن إليهم.

[٢٤] ثم بين سبحانه أن من مزاعم هؤلاء المشركين أنهم يقولون: إن محمدًا افترىٰ علىٰ الله كذبًا؛ فادعىٰ أنه رسول من عند الله، وأنه جاء بهذا القرآن الذي اختلقه من قبل نفسه؟؛ فأجاب جل في علاه علىٰ افترائهم هذا فقال: اعلم يانبي الله لو حدثتك نفسك أن تفتري علىٰ الله كذبًا لطبع الله علىٰ قلبك فلم تقدر علىٰ ذلك؛ لأن افتراء الكذب علىٰ الله لا يكون إلا ممن طبع الله علىٰ قلبه، ولكنك يانبي الله معصوم من الكذب والافتراء، واعلم أن الله يذهب الباطل ويمحوه، ويثبت الحق، أي: الدين، و يوضحه بكلماته المنزلة منه، التي لا تتبدل ولا تتغير، وبوعده الصادق الذي لا يختلف، إنه سبحانه مطلع علىٰ ما تخفيه صدور العباد من الأسرار والنوايا، لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسيجازي كلًّا بما يستحق.

[٢٥] يخبر جل وعلا أنه بفضله وكرمه ورحمته وشفقته: هو وحده الذي يقبل التوبة النصوح الصادقة الصادرة من عباده المؤمنين بعد وقوعهم في الذنوب والخطايا، وهو سبحانه الذي يعفو عن السيئات ولا يؤاخذ بها من تاب منها، ويمحو أثرها من العيوب، وهو سبحانه الذي يعلم ما تفعلون في السر والعلن من الصالحات والمعاصي، وسيجازيكم علىٰ أعمالكم.

[٢٦] ثم أخبر جل وعلا أن الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الصالحات يستجيبون لما يدعوهم الله إليه من الهدىٰ والخير؛ فيمتثلون أمْر الله، فيشكر الله لهم ذلك، ويتقبل منهم، ويزيدهم من فضله، فيقوِّيهم علىٰ فعل الطاعات ويضاعف لهم ثوابها، أما الذين كفروا بالله وجحدوا آياته، وكذَّبوا رُسُلَه؛ ولم يستجيبوا لأمر الله؛ فأولئك لهم عذابٌ شديدٌ مؤلمٌ موجِع.

[٢٧] واعلموا لو أن الله جل وعلا وسَّع الزرق علىٰ جميع عباده؛ لبغَوْا في الأرض وتكبروا، ولغفلوا عن طاعة الله وامتثال أوامره، ولأقبلوا علىٰ شهواتهم وملذَّاتهم، ولكنه سبحانه ينزل عليهم الرزق بقدر ما يشاء بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمتُه، إنه بعباده خبيرٌ بأحوالهم، بصيرٌ بما يُصلِحهم، ويَصْلُحُ لهم.

[٢٨] ثم أخبر جل وعلا أنه هو وحده الذي ينزل المطر الغزير الذي يغيث به البلاد والعباد، من بعدما أيسوا من نزوله، فتنتشر الرحمة، وتعمّ الأرزاق والخيرات والبركات، فيعرف العباد عظم رحمة الله ولطفه بهم بعدما كادوا أن يهلكوا، والله سبحانه هو الوليُّ الذي تولىٰ تدبير شؤون عباده، ويحسن إليهم ويتفضَّل عليهم، وهو الحميد المستحقُّ للحمْدِ علىٰ ما له من الكمال.

[٢٩] ومن آيات الله الدالة علىٰ وحدانيته وكمال قدرته علىٰ البعث والنشور: خلق هذه السماوات والأرض، وإيجادهما من العدم علىٰ غير مثال سابق، وهو سبحانه الذي نشر وفرَّق في السماوات والأرض كل هذه الدواب؛ فالذي خلق وأوجد كل هذه المخلوقات من العدم؛ قادرٌ علىٰ جمْعها وإعادتها بعد موتها مرة أخرىٰ.

[٣٠] واعلموا أيها الناس أن ما أصابكم وحلَّ بكم من بعض المصائب والبلايا؛ فبسبب ما قدَّمته أيديكم من الذنوب والخطايا، والله يعفو عن كثير من ذنوبكم فلا يؤاخذكم بها.

[٣١] ثم حذر جل وعلا الناس من عقابه، فقال: وما أنتم معجزين قدرة الله عليكم، ولا فائتين عليه هربًا في الأرض، وليس لكم أيها الناس مع عجزكم من وليٍّ يتولَّاكم، ولا ناصرٍ ينصركم، ويدفع عنكم ما يضركم، ففروا إلىٰ الله.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

[٣٢] يخبر سبحانه وتعالىٰ أن من آياته الدالة علىٰ وحدانيته وكمال قدرته ورحمته وعنايته بعباده: هذه السفن العظيمة التي تجري في البحر، -وكأنها من عظمتها وضخامتها: الجبال العظيمة-.

[٣٣] ثم بين سبحانه أنه لو شاء لأسكن هذه الريح التي هي سبب مباشرٌ لجريان تلك السفن؛ فتتوقف بذلك السفن في البحار، وتظلُّ حركتها راكدة ساكنة، وكذلك مشيئته سبحانه قادرة علىٰ إيقاف هذه السفن وغيرها كالطائرات والسيارات التي تسير بالمحركات، فلا شيء يعجزه سبحانه أن يبطل محركاتها، واعلموا أن في هذه المظاهر من خلق السفن وسيرها في البحار، وتحريك الرياح وسكونها؛ لعبر وعظات لكل صبَّارٍ كثير الصبر علىٰ الطاعات، وكثير الصبر عن المعاصي، وكثير الصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة، شكور كثير الشكر علىٰ نعم الله وآلائه.

[٣٤] ولو شاء جل وعلا لأغرق هذه السفن وأهلك أهلها بما كسبوا من الذنوب واقترفوا من الآثام، ولكن الله يعفو عن كثير من ذنوب أهلها، ويسترها عليهم وينجيهم من الغرق؛ لأن الحساب في الآخرة؛ لأنها دار الحق.

[٣٥] ثـم أخبر جـل وعلا أن الذيـن يخاصمـون في آيات الله ويمترون فيهـا بالباطل لتكذيبهـا وردِّها أنهم ليـس لهم منقذٌ يُنقذهم مـن عـذاب الله إذا نزل بهـم، وحلَّ بدارهـم، وليس لهـم فرارٌ ولا مهـرب من هـذا العذاب.

[٣٦] ثـم حقر جـل وعلا في متـاع الدنيا وزينتهـا، فقال: وما أُعطيتم من شـيءٍ من شـهوات الدنيا وملذاتها من غنىٰ وسعة وملك وصحـة وعافية؛ فاعلمـوا أن ذلك متـاعٌ قليلٌ ينقضي ويذهـب وينقطع ويـزول، واعلمـوا أن ما عنـد الله من ثواب الآخـرة خير من لـذات الدنيـا الفانيـة؛ لأنه دائـمٌ لا ينقطع، وهو مُعَـدٌّ ومُهَيَّأٌ للذيـن آمنوا بالله وصدقوا رسـله، واعتمدوا بقلوبهم علـىٰ الله في جلـب المنافع ودفع المضـار، مع ثقتهم الكاملة بالله جـل في علاه.

[٣٧] ثم ذكر جل وعلا صفات المؤمنين الذين علىٰ ربهم يتوكلون، فقال: والذين يجتنبون كبائر ما نهىٰ الله عنه وما فحش وقبح من أنواع الذنوب والمعاصي، ومن صفاتهم: أنهم إذا ما غضبوا علىٰ من أساء إليهم فإنهم يكتمون غيظهم ويحلمون عليه.

[٣٨] ومن صفات هؤلاء المؤمنين: أنهم استجابوا لربهم حين دعاهم إلىٰ توحيده وطاعته، وأقاموا الصلاة المفروضة بمواقيتها وشروطها وأنهم يتفاهمون في أمورهم العامة ويناقشونها فحصًا وتمحيصًا حتىٰ يصلوا إلىٰ الأمر الذي يحقق مصالح دينهم ودنياهم، ومن صفاتهم: أنهم يتصدقون في سبيل الله بفضول أموالهم وبزكاتها علىٰ المحتاجين والفقراء.

[٣٩] ومن صفات هؤلاء المؤمنين: أنهم ينتقمون ممن بغىٰ عليهم ظلمًا وعدوانًا؛ لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فلا ينبغي التذلل للطغاة والكفار والظلمة؛ فالانتصار عند البغي واجب، وأما العجز والذلة والمهانة فليست من صفات المؤمنين.

[٤٠] ثم بين جل وعلا أن جزاء سيئة حصلت لك ووقعت عليك من غيرك؛ أن يكون ردُّها بمثلها - دون زيادة أو نقص -، وهذا هو العدل، فمن عفا وصفح عمَّن ظلمه وسامحه؛ فهذا فضلٌ منه وجزاؤه وثوابه عند الله عظيم، والله جل في علاه لا يحب الذين يتجاوزون حدودهم فيبغون علىٰ غيرهم ويظلمونهم، ويعتدون عليهم.

[٤١] ثم أخبر جل وعلا أن من انتصر ممن ظلمه فلا أحد يلومه؛ فيجوز له القصاص دون زيادة؛ لأنه استعمل حقه المشروع.

[٤٢] ثم بين سبحانه أن اللوم والمؤاخذة والعقوبة الشرعية تتوجه علىٰ الذين يبالغون في الثأر لأنفسهم، وكذلك علىٰ الذين يعتدون علىٰ الناس في أعراضهم أو أبدانهم أو أموالهم، ويتجبَّرون في الأرض بالإفساد والإجرام فيها؛ فأولئك لهم عذاب أليم موجع في الدنيا والآخرة.

[٤٣] واعلموا أن من صبر علىٰ ما أصابه من الأذىٰ، واحتسب الأجر عند الله تعالىٰ، وعفا عمن ظلمه، وسامح من اعتدىٰ عليه؛ فهذا ما يحثُّ عليه جل في علاه، وهذا الفعل لا يستطيعه ولا يصبر عليه إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة.

[٤٤] يخبر جل وعلا أن من يضلله الله عن طريق الحق والهدىٰ والنور بسبب كفره وعناده ومحاربته للإسلام فَيُطْبَعُ علىٰ قلبه فليس له من ولي يتولىٰ أمره فيما بعد، ولا ناصر ينصره، وستبصر يانبي الله هؤلاء الكفار يوم القيامة عندما يشاهدون العذاب بأنهم سيندمون أشدَّ الندم وأعظَمَهُ، ويقولون: هل لنا من طريقِ رجْعَةٍ إلىٰ الدنيا لنصحح أخطاءنا؟! فهيهات هيهات.

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

[٤٥] وسوف تبصر يانبي الله هؤلاء المشركين يوم القيامة وهم يعرضون علىٰ النار، خاشعين خائفين متواضعين أذلاء حقيرين، يسارقون النظر إلىٰ نار جهنم من عين ضعيفة قد ملأها الرعب والخوف والقلق، وفي هذه الأثناء يقول الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الصالحات علي سبيل التحدث بنعمة الله: إن الخاسرين الخسارة الحقيقية الكاملة هم أولئك الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي؛ حيث خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا إن الظالمين في عذاب دائم مستمر، لا ينقطع ولا يزول.

[٤٦] وهؤلاء المشركون المُعَذَّبون لم يكن لهم يوم القيامة من معاونين ولا مناصرين يدفعون عنهم عذاب الله، أو يخرجونهم من النار، ومن يضلل الله من الناس -بسبب كفره وعناده وظلمه وفسقه-؛ فلا طريق لهدايته ورَشَادِه.

ومعلوم أن إضلال الله له ليس ابتدائيًّا وإنما جزائيٌّ.

[٤٧] وبعد أن ذكر جل وعلا يوم القيامة، وما فيه من الأهوال والأمور العظام؛ حذر سبحانه عباده منه، وأمر بالاستعداد له، فقال جل شأنه: استجيبوا أيها الناس لربكم بالإيمان به وطاعته، واستعجلوا بهذه الاستجابة من قبل أن يأتي عليكم يوم شديد عصيب، لا يمكن لأحد أن يرده، وهو يوم القيامة، الذي حدد جل في علاه له أجلًا ثابتًا لا يتخلف عنه أبدًا؛ فهذا اليومُ عِلْمُه وعِلْمُ وقته اختص الله به، وفي ذلك اليوم ليس لكم ملجأ تلتجؤون إليه من عذاب الله، ولن تجدوا من ينكر ما ينزل بكم من العذاب فيساعدكم.

[٤٨] فإن أعرض هؤلاء المشركون يانبي الله عمَّا جئتهم به من التوحيد والإيمان؛ فاعلم أن الله لم يرسلك عليهم حفيظًا رقيبًا تحفظ أعمالهم حتىٰ تحاسبهم عليها، فإنه جل وعلا ما أمرك ولا كلَّفك إلا بالبلاغ المبين فقط، واعلموا أن الله سبحانه إذا أنعم علىٰ الإنسان نعمة من صحة بدن، وسعة رزق، وكثرة مالٍ وولد؛ فإنه يفرح بذلك فرحًا شديدًا، وإذا أصابه مرضٌ أو فقرٌ أو مصيبةٌ بسبب ما كسب من الذنوب، وارتكب من الخطايا والعيوب؛ فإنه يكون عظيم الكفر والجحود لنعم الله، سريع التسخط والتأفف، ولا شك أن سلب النعم أو منحها هو ابتلاء من الله؛ لِيُعْلَمَ الشاكر المعترف بفضل الله، من المتذمر الساخط علىٰ أقدار الله.

[٤٩] يخبر جل وعلا أن له وحده ملك السماوات والأرض وما فيهما، وأنه جل شأنه يخلق من الخلق ما يشاء، لا منازع له في ذلك؛ فهو الفعَّال لما يريد ومن ذلك أنه يرزق بعض الناس إناثًا فقط، ويرزق بعضهم ذكورًا فقط.

[٥٠] وأخبر سبحانه أنه يرزق بعض الناس ذكورًا وإناثًا، ويجعل من يشاء من الناس عقيمًا لا يولد له، كل ذلك هبة ومنحة من الله؛ حتىٰ العقم هبة ومنحة منه سبحانه، وأيضًا بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته جل في علاه، إنه سبحانه عليم بأحوال عباده، وما يصلح لهم، قدير علىٰ خلق ما يشاء، لا مكره له ولا معقب لحكمه.

[٥١] ذكر جل وعلا أنواع الوحي علىٰ الرسل؛ فبين سبحانه أنه لا ينبغي لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا عن طريق وحي يوحيه إليه في المنام أو الإلهام، أو يكلمه من وراء حجاب، كما كلم سبحانه موسىٰ عليه السلام، أو يرسل إليه ملكًا كما كان جبريل عليه السلام ينزل علىٰ بعض الرسل فيوحي إليه بإذن الله ما أمره به ربه، واعلموا أن الله سبحانه عليٌّ بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وأنه متعالٍ عن صفات النقص والعيب، وأنه حكيم في تدبير شؤون خلقه، وفي كل أقواله وأفعاله.

وفي هذه الآية إثبات صفة الكلام لله تعالىٰ كما يليق بجلاله وعظمته.

كما يُستدل بهذه الآية أن رؤية الله جل وعلا ممكنة لكن البشر لا يستطيعون رؤيته في الدنيا؛ لأن أجسامهم غير مهيأة لمثل هذه الرؤية، وفي الآخرة يخلق الله البشر خلقًا آخر فيكون لهم القدرة علىٰ رؤيته جل في علاه، ورؤيته هي أكبر نعمة في الجنة، والمعتزلة ينكرون رؤية الله في الدنيا والآخرة.

[٥٢] ثم ختم جل وعلا السورة ممتنًا علىٰ نبيه ﷺ وعلىٰ المؤمنين أنه كما أوحىٰ إلىٰ الأنبياء من قبله، فكذلك أوحىٰ إليه هذا القرآن العظيم، الذي تحيا به القلوب، كما يحيا الجسد بالروح، وما كنت يانبي الله قبل الوحي تعرف ما هو القرآن؟ ولا تعرف ما هو الإيمان؟، ولا تعرف ما هي الشرائع، ولكنه جل في علاه جعل هذا القرآن نورًا وضياءً يهدي به من يشاء من عباده، وإنك يانبي الله لترشد بإذن الله وأمره الناس إلىٰ الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام.

[٥٣] ثم بين سبحانه أن هذا الطريق هو طريق الله الذي له جميع ما في السماوات وما الأرض، لا شريك له في ذلك، وهو وحده الذي ترجع إليه جميع أمور العباد يوم القيامة؛ فيقضي بينهم بالحق والعدل؛ فالحمد لله الذي جعل المرجع والمآب إليه؛ فإنه نعم المولىٰ ونعم النصير.

سورة الزخرف

سورة الزخرف مكية وآياتها تسع وثمانون آية.

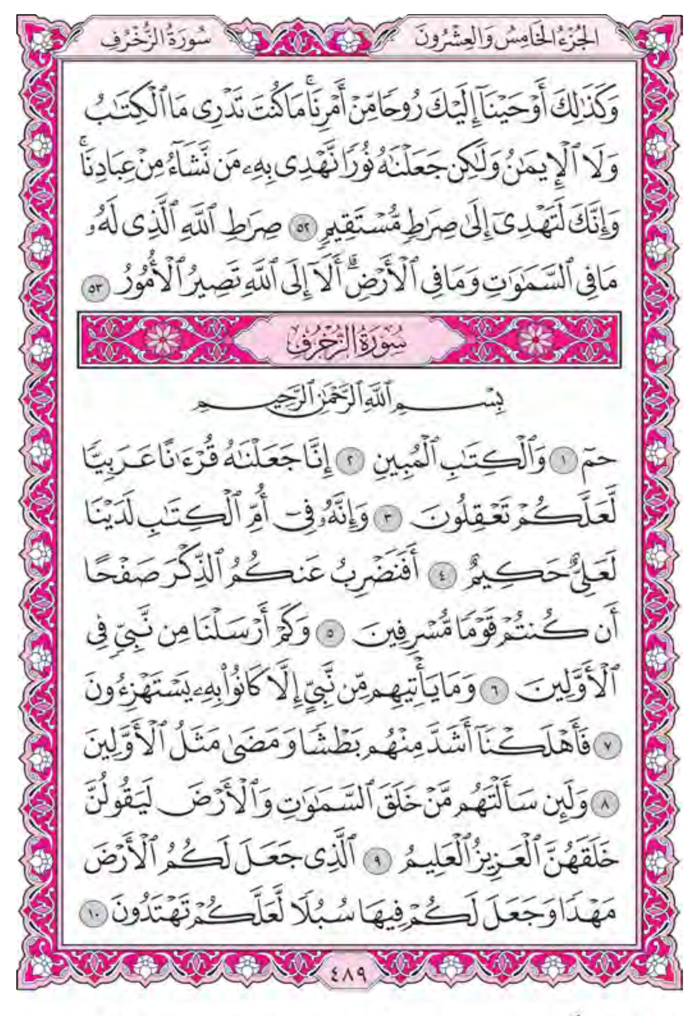
[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] بدأ جل وعلا هذه السورة بالإقسام بهذا الكتاب وهو القرآن الواضح البين؛ لشرفه وعظمته، ولما احتواه من علوم الأولين والآخرين، ومن أوامر ونواهٍ، ومن أمور الدنيا والآخرة، وما فيه من الهدىٰ والنور.

[٣] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل هذا القرآن بلغة قريش العربية الفصيحة؛ بحيث لا يخفىٰ علىٰ من رغب في الهدىٰ والصلاح والنجاة، كما أنه جعله جل في علاه كذلك لكي تفهموه وتعقلوا معانيه، وتهتدوا إلىٰ ما فيه من الأحكام السامية والآداب العالية. وهذه الآية هي جواب للقسم في الآية الأولىٰ كما قال صاحب الكشاف.

[٤] ثم أخبر جل وعلا أن هذا القرآن محفوظ عنده في اللوح المحفوظ كسائر الكتب المنزلة علىٰ الرسل، وأنه ذو مكانة عظيمة وشريفة عنده جل في علاه، وأنه يحمل حكمًا بالغة لا يتطرق إليها تبديل أو تغيير.

[٥] ثم إن الله جل وعلا قال لهؤلاء العصاة المعاندين من الكفرة، علىٰ سبيل التأنيب واللوم: أنعرض عنكم أيها المشركون ونترك إنزال القرآن إليكم فلا نذكركم ونحذركم به؛ لأنكم منهمكون في الضلال غارقون في الفساد مصرون علىٰ التمسك بما كان عليه آباؤكم؟ فلن يحصل هذا؛ بل سنستمر في إنزال هذا القرآن علىٰ نبينا محمد ﷺ، ونقيم الحجة عليكم، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر.



وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سورة الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

[٦] ثم ذكَّر جل وعلا هؤلاء المشركين بما حصل للأمم التي أرسل إليها الرسل، وذلك تسلية لنبيه ﷺ، فقال جل في علاه: ولقد أرسلنا يانبي الله كثيرًا من الأنبياء في الأمم التي مضت قبل قومك.

[٧] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين ما يأتيهم من نبي يأمرهم بتوحيد الله وعبادته إلا استهزؤوا به، وسخروا منه، كاستهزاء قومك بك يانبي الله، فكانت نتيجة فعلهم أن أهلك الله من هم أشد وأكثر قوة من قومك، بسبب كفرهم وطغيانهم، ومضت أخبارهم وصارت مثلًا يُروىٰ؛ وهاأنتم تمرون بآثارهم وتعرفون أخبارهم؛ فاحذروا أن يكون مصيركم مثل مصيرهم.

[٩] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ولئن سألت يانبي الله هؤلاء المشركين المكذبين المستهزئين: من الذي خلق السماوات والأرض وأوجدهما من العدم؟! فسوف يقرُّون قائلين: لقد خلقهن الله العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم الذي أحاط علمه بكلّ شيء.

[١٠] وأضاف سبحانه أنه هو الذي ذلَّل لعباده الأرض ومهَّدها وفرَشها وبسطَها، وجعل لهم فيها طُرُقًا يسلكونها إلىٰ حيث يقصدون، لعلهم يهتدون بسلوكها في سيرهم وأسفارهم إلىٰ مقاصدهم وغاياتهم، ولعلهم أيضًا يهتدون إلىٰ مبدع هذا الكون فيؤمنون به ويشكرونه.

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

[١١] وأخبر سبحانه أنه هو الذي نزَّل من السماء ماءًا بقدر الحاجة والمصلحة، فلم يجعله طوفانًا يغرقهم ولا شحيحًا لا يكفي حاجتهم، وهذا الماء أحيا به سبحانه بلدة كانت قاحلة يابسة، ليس فيها زرع ولا نبات، واعلموا أنه كما أخرج سبحانه هذا النبات وهذه الأشجار من هذه الأرض القاحلة اليابسة؛ فإنه هو الذي يخرج الموتىٰ من قبورهم يوم القيامة.

[١٢] وأخبر سبحانه أنه هو الذي خلق الأصناف كلها وأوجدها من العدم، وسهل لكم ركوب السفن البحرية، وذلل لكم ركوب أنواع من البهائم كالخيل والبغال والحمير والجمال.

[١٣] ثم بين سبحانه أنه خلق هذه السفن وهذه الأنعام لتستقرُّوا علىٰ ظهورها؛ ويدخل في ذلك المركوبات الحديثة من سيارات وطائرات وغيرها، ثم تتذكروا نعمة ربكم في تسخيرها لكم، وتقولوا عند ركوبكم: سبحان الذي سخر لنا هذا الذي نركبه وذلَّله لنا، ولولا تسخيره لنا لما كنا مطيقين لذلك ولا قادرين عليه، ولا ضابطين له.

[١٤] وتقولوا عند ركوبكم أيضًا: وإنا إلىٰ ربنا لراجعون وصائرون إليه.

[١٥] ثم أخبر جل وعلا عن تناقض هؤلاء المشركين الذين إذا سُئِلوا: من خلق هذا الكون؟ فيقولون: خلقه الله، ومع ذلك فإنهم يعتقدون أن الملائكة بنات الله، فكيف تكون الملائكة بناته وهم من جملة خلقه جل في علاه؟ تعالىٰ الله عما يقول هؤلاء المجرمون علوًّا كبيرًا، وهذا القول الصادر من هذا الإنسان الكافر؛ لأنه شديد الكفر والجحود لنعم الله التي أنعم بها عليه، وهذا يتضح من خلال أقواله وأفعاله.

[١٦] ثم قال جل وعلا توبيخًا لهؤلاء المشركين: أتزعمون أيها المشركون أن الله اتخذ لنفسه مما يخلق بنات، وأنه خصَّكم بالبنين؟، ألا تخجلون من هذا القول الشنيع؟ هل يُعقل أن يتخذ الله أولاده من البنات اللائي تحتقرونهن وهن أقل منزلة ودرجة من البنين، ويترك لكم البنين الذين تحبونهم؟.

وهذه الآية نزلت ردًّا علىٰ جماعة من خزاعة حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله.

[١٧] ثم وجه سبحانه لهم توبيخًا آخر فأخبر أن هؤلاء المشركين إذا بُشِّر أحدهم بالأُنثىٰ – التي ينسبها لله – تعالىٰ الله عن ذلك وتقدَّس –؛ فإنه يسودّ وجهُهُ من شدة الكراهة والبغض والحزن بسبب كونها أنثىٰ، ويظل شديد الحزن ممتلئًا غيْظًا وحنقًا، ومع ذلك تنسبون لله البنات، فتبًّا لكم أيها الجاهلون بعظمة الله وعزته وغناه عن الولد؛ سواء ذكرًا أو أنثىٰ.

[١٨] وهذا توبيخ آخر يوجهه سبحانه لهؤلاء المجرمين، فيقول جل في علاه: أتنسبون لله البنات التي تنشأ في الزينة، ولا تستطيع إظهار حجتها إذا خوصمت بسبب ضعفها؟!!

[١٩] وهؤلاء المشركون الذين تجرأوا وقالوا: بأن الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا!! هل حضروا وقت خلقِهم؟! كلَّا، إنهم لم يكونوا حاضرين، ولذلك سيكتُب الله قولَهم وشهادتهم، ويسألهم عنها يوم القيامة، ويعاقبهم علىٰ هذا الافتراء الشنيع.

[٢٠] وقال هؤلاء المشركون من أهل مكة علىٰ سبيل الاحتجاج بالأعذار الباطلة: لو شاء الرحمن لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، قالوا ذلك من غير علم أو برهان، وإنما قالوه تخرصًا وكذبًا.

وقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾، كلمة حق أرادوا بها باطلًا، فكونه سبحانه لم يمنعنا عن عبادتهم وهو قادر علىٰ منعنا دليل علىٰ أننا علىٰ حق، ورتبوا علىٰ ذلك أن الله راضٍ عن فعلهم، وتناسوا أنَّ منعهم يتنافىٰ مع كونهم مختارين، وهذا هو الباطل، ومعلوم أن الله جعلهم مختارين غير مجبورين؛ فاختاروا الكفر والشرك والضلال علىٰ الهدىٰ؛ فلو منعهم جل في علاه لما كانوا مختارين مكلفين، وقد كذب الله ظنهم هذا في آيات أخرىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[الزمر:٧].

[٢١] ثم سأل جل وعلا علىٰ سبيل الاستنكار: هل أنزلنا علىٰ هؤلاء المشركين كتابًا – قبل القرآن – يخبرهم بصحة أقوالهم وأفعالهم؟! ويأمرهم بالشرك؟!! فهم متمسِّكون بهذا الكتاب يأخذون بما فيه، ويحتجون به؟!

[٢٢] فأجاب سبحانه علىٰ مقولتهم بأن الجواب: لا؛ وإنما احتجّ هؤلاء المشركون بحجّةٍ واهيةٍ باطلة، وهي قولهم: إنا وجدنا آباءنا علىٰ ملةٍ ودين، وإنا علىٰ طريقتهم وملّتهم ماشون سائرون.

وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾

[٢٣] ثم يسلي جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ فيقول له: وما أرسلنا من قبلك في أمة من الأمم من نبي ولا رسول ينذرهم عن الشرك، ويأمرهم بالتوحيد إلا قال أشرافُ وَمُنَعَّمُوا أهل هذه الأمم: إنا وجدنا آباءنا علىٰ ملَّة ودين، وإنا علىٰ خطاهم سائرون، نقتدي بهم، ونمشي خلفهم.

[٢٤] ثم يقول لهم هذا الرسول المرسل إليهم: ما رأيكم لو أني جئتكم بخير مما وجدتم عليه آباءكم؟! أفبعد ذلك تتبعون آباءكم ولا تتبعوني؟! فما كان جوابهم لرسلهم إلا أن قالوا: إنا بما أرسلتم به -من التوحيد والبعث والنشور- كافرون جاحدون غير مصدقين.

[٢٥] فما كان منه جل وعلا إلا أن انتقم من هؤلاء المجرمين لما كذبوا الحق واتبعوا أهواءهم؛ فأهلكهم ودمرهم، فانظر يانبي الله كيف كان عاقبة المكذبين لأنبياء الله ورُسُله، وكيف كان مصيرهم! فليحذر قومك من تكذيبك فيصيبهم مثل ما أصاب الأمم من قبلهم.

[٢٦] واذكر يانبي الله يوم أن قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه الذين كانـوا يعبدون مـا يعبده قومـك: إنني براء ممـا تعبدون من دون الله.

[٢٧] ثم استثنىٰ عليه السلام فقال: إلا الذي خلقني وأوجدني من العدم؛ فإنه سيهديني ويوفقني لطريق التوحيد والحقّ والصواب، ولما يصلح ديني ودنياي، وسبب استثنائه لله من بين المعبودات؛ لأنهم كانوا يعبدون الله مع أصنامهم.

[٢٨] ثم إن الله جل وعلا بفضله وكرمه جعل كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) باقية في عقب إبراهيم وفي ذريته، والبراءة من الشرك خصلةً حميدةً باقيةً في ذريته من بعده؛ لعله يرجع إليها من يُشرك من ذريته بدعوة من يوحد منهم.

[٢٩] ثم أخبر جل وعلا أنه متع هؤلاء المشركين وآباءهم بالحياة وإبقائهم فيها، ولم يعاجلهم بالعقوبة والهلاك؛ فاغترُّوا بالمُهلة وأكبوا علىٰ الشهوات، حتىٰ جاءهم القرآن الكريم، وجاءهم محمد ﷺ يبين لهم التوحيد، ويحذرهم من الشرك.

[٣٠] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المشركين لما جاءهم الحق – الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه علىٰ لسان محمد ﷺ – بهذا القرآن العظيم، كفروا به وجحدوه وقالوا: ما هذا إلا سحرٌ جاءنا به محمد ليسحرنا به، وإنا بما جاءنا به كافرون جاحدون.

[٣١] ثم بين جل في علاه أن هؤلاء المشركين لما بهرهم هذا القرآن وعرفوا أنه من عند الله كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، قالوا علىٰ سبيل العناد والحسد: إنْ كان هذا القرآن مِن عند الله حقًّا، فهلا نُزِّل علىٰ رجل عظيم في ماله وسلطانه، من إحدىٰ هاتين القريتين مكة أو الطائف، قال قتادة وغيره: الرجلان هما الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود من الطائف.

[٣٢] ثم إنه جل وعلا ردًّا علىٰ اقتراحهم هذا، قال: أهم يقسمون النبوَّة بآرائهم وأمزجتهم حيث شاؤوا؟! أما علموا بأننا نحن الذين قسمنا بينهم معيشتهم في الدنيا؟؛ ونحن الذين رفعنا بعضهم فوق بعض درجات في الدنيا؟، فهذا غني وهذا فقير، وهذا قوي وهذا ضعيف، وقد فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضًا في حوائجهم ومصالحهم؛ فرضوا بذلك ولم يعترضوا؛ فلماذا لا يرضون باختيارنا لمحمد ﷺ؟، واعلم يانبي الله أن رحمة ربك بإدخالهم الجنة لو آمنوا واتقوا خير مما يجمعون من حطام الدنيا الفاني.

[٣٣] ثم أخبر جل وعلا أنه لولا خشية أن يفتتن الناس، ويصيروا أمة واحدة في الكفر؛ لخصصنا هذه الدنيا بالنعم والمغريات للكفار؛ وجعلنا لهم القصور العالية وجعلنا سقفها وسلالمها ومصاعدها التي يصعدون ويرتقون عليها من فضة.

ولكن لحكمته ورحمته بعباده المؤمنين الذين ربما تستهويهم المتع والشهوات، كما قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ...﴾ [آل عمران:١٤]، ؛ أن قسم الأرزاق حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية؛ فلو أُعطيت كل نفس ما اشتهت لاستمرأ الخلق ذلك، وأنساهم ذكر الله وعبادته التي خلقوا لها؛ وحينئذ يكون الناس كلهم أمة واحدة في الكفر.

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن
كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا
فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ
بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ
إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا
نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى
وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ
إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ
أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

[٣٤-٣٥] وأيضًا لجعل جل وعلا لبيوتهم أبوابًا من فضة، ولجعل لهم أيضًا سررًا من فضة يتكؤون عليها. وَلَزَخْرَفَ لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وليس كلّ ذلك إلا من متاع الحياة الدنيا الفانية الزائلة التي يشوبها الكدر والتنغيص، والتي لا تتجاوز الإقامة فيها إلا أيامًا معدودة ليس لها قيمة بالنسبة لنعيم الآخرة والسرمدي، أما الآخرة ونعيمها المقيم فقد أعده الله وهيأه لعباده المتقين إياه بتوحيده، وفعل ما يحبه الله ويرضاه، والبعد عما يكرهه الله ويأباه.

[٣٦] ثم بين جل وعلا أن من يُعْرِضُ عن ذكر الرحمن وهو القرآن الكريم، الذي أنزله سبحانه رحمة للعالمين، وَيُعْرِضُ كذلك عن جميع ما يذكر به جل وعلا، ويفضل الاستمتاع بزهرة الحياة الدنيا ويصرف وقته كله في ذلك، نسلط عليه شيطانًا ليغويه، جزاء له علىٰ إعراضه عن ذكر الله، ونجعل هذا الشيطان ملازمًا ومصاحبًا له، يمنعه من فعل الخيرات، ويحثه علىٰ فعل الذنوب والمنكرات.

[٣٧] ثم بين جل وعلا أن وظيفة هؤلاء الشياطين أنهم يصدون الفاسقين المعرضين عن ذكر الله، ويحجبونهم عن الصراط المستقيم، والدين القويم، ويزينون لهم باطلهم وضلالهم وغيهم حتىٰ يظنوا أنهم مهتدون، وللحق مصيبون.

[٣٨] ثم بين جل وعلا أن هذا المعرض عن ذكر الرحمن إذا ما جاء يوم القيامة ومعه قرينه الشيطان للحساب والجزاء، يتولاه الندم والحسرة فيقول لقرينه: وددت أن بيني وبينك بعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس القرين أنت، لقد أغويتني وأبعدتني عن ذكر ربي.

[٣٩] واعلموا أيها المعرضون عن ذكر الله أنه لن ينفعكم اليوم ندمكم أو تمنيكم، بعد أن تبين لكم أنكم كنتم ظالمين لأنفسكم بالشرك والمعاصي؛ فإنكم اليوم أنتم وقرناؤكم مشتركون في العذاب، كما كنتم في الدنيا مشتركون في الكفر والضلال، ولن يفيدكم اشتراككم في الضلال إلا خسارًا وبعدًا عن رحمة الله.

[٤٠] ولما كان ﷺ حريصًا علىٰ هداية قومه، وكان يحزنه صدودهم عن الهدىٰ والحق، قال جل وعلا مسليًا له: هل تستطيع يانبي الله أن تسمع من أصمَّه الله عن سماع الحق؟، أو تهدي من كان أعمىٰ القلب والبصيرة؟، أو تهدي من كان في ضلال بيِّن واضح عن الحق؟ فاعلم أنك لن تستطيع هداية من كان هذا شأنهم، وما دام أن الأمر كذلك فسر في طريق الدعوة التي أمرك الله بها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، واعلم أن الله طبع علىٰ قلوبهم بسبب إصرارهم علىٰ الكفر ومحاربة رسل الله؛ فإثباتهم علىٰ كفرهم جزاءً وليس ابتداءً.

[٤١-٤٢] ثم بين جل وعلا لنبيه ﷺ أنه إذا توفاه قبل أن يرىٰ انتقام الله من هؤلاء المشركين؛ فسوف ينتقم الله منهم ويعاقبهم إذا أراد بحسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته. أو يريه جل في علاه العذاب الذي وعدهم قبل موته، وهو قادر سبحانه علىٰ هذا وعلىٰ هذا، ولا يستطيعون أن يفوتوه أو يهربوا منه.

[٤٣] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يستمسك بالذي أمره به في هذا القرآن الذي أوحاه إليه؛ ثم أخبره بأنه علىٰ صراط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا اضطراب، وهو دين الإسلام. ولا شك أنه ﷺ استمسك بما أمره الله به، وبذل كل جهده في إبلاغ الرسالة، ولكن المقصود: أنه يؤمر ليبلغ أمته والدعاة والعلماء أن يستمسكوا بهذا الذكر، وهذا الدين العظيم.

[٤٤] واعلم يانبي الله أن هذا القرآن شرف وعزة لك ولأمتك؛ حيث نزل بلغتهم، وكُلفوا باتباعه، والاستمساك بتعاليمه، وإبلاغه للعالم كله، وسوف يُسألون يوم القيامة إذا لم يتبعوه، ولم يستمسكوا بتعاليمه، ولم يبلغوه لغيرهم.

[٤٥] واسأل يانبي الله من أرسلنا قبلك من رسلنا: هل أذن الله بعبادة غيره والإشراك به في ملة من الملل، أو دين من الأديان، أو شريعة من الشرائع؟!، وفي هذا تنبيه لقريش علىٰ خطئهم الفاحش، وشركهم القبيح من إصرارهم علىٰ عبادة غير الله، ودلَّ هذا علىٰ أنه ليس للمشركين حجة نافعة صحيحة في شركهم وعبادتهم غير الله، لا من عقل صحيح، ولا نقل عن الرسل.

[٤٦] يخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أنه أرسل كليمه موسىٰ عليه السلام إلىٰ الطاغية فرعون وقومه المجرمين، بالآيات التسع الدالة علىٰ صحة نبوته وما يدعو إليه، فقال موسىٰ ناصحًا ومرشدًا لهم: إني رسول رب العالمين.

[٤٧] ثم بين سبحانه حين جاء موسىٰ عليه السلام إلىٰ فرعون وقومه بهذه الآيات والحجج والبراهين الواضحة قابلوه بالضحك والسخرية، وما زادت هذه الآيات هؤلاء المشركين إلا كفرًا وعنادًا واستكبارًا.

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

[٤٨] يخبر جل وعلا أنه عرض علىٰ فرعون وقومه الآيات والمعجزات، وأن كل آية أو معجزة تعرض تكون أكبر وأعظم من التي سبقتها، وأنه أخذهم بألوان من العذاب كالجراد والقمل والضفادع والدم؛ كل ذلك لعلهم يرجعون عن شركهم وكفرهم إلىٰ توحيد الله واتباع رسُله.

[٤٩] ثم أخبر جل وعلا أن فرعون وقومه قالوا لموسىٰ إما تهكُّمًا واستهزاءً وإما توقيرًا واحترامًا؛ لأنهم كانوا يسمون العالم ساحرًا: ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما وعدتنا به من كشف العذاب عنَّا لو أنَّا آمنَّا بك واتبعناك، فلو كُشف عنا العذاب فسنهتدي لدعوتك، ونؤمن بك وبما جئتنا به.

[٥٠] فدعىٰ موسىٰ عليه السلام ربه بكشف العذاب عنهم، ولكن الله جل وعلا أخبر أنه لما كشف العذاب وأزاله عنهم؛ إذا هم ينكثون عهدهم، ويستمرون علىٰ كفرهم وتكذيبهم.

[٥١] ثم ذكر جل وعلا جانبًا من تكبر فرعون وغطرسته وتجبره، واستخفافه بعقول قومه، فقال: ياقوم أليس لي ملك مصر لوحدي؟! لا ينازعني فيه أحد؟!، وهذه الأنهار الجارية من النيل تجري من تحت قصري وبساتيني؟! أفلا تنظرون إلىٰ ذلك الملك العظيم فتستدلون به علىٰ عظمتي؟!

[٥٢] ثم قال لقومه: هل أنا أفضل أم هذا الذي هو ضعيفٌ حقيرٌ ليس له من الملك شيء؟!، ولا يحسن الكلام، ولا يستطيع أن يفصح وأن يُبيِّنَ عما في نفسه؟! يقصد بهذه الإساءة كليم الرحمن موسىٰ عليه السلام.

[٥٣] وقال لقومه أيضًا: هلَّا لو كان صادقًا فيما يدعي أن يُحَلَّىٰ بأسورة من ذهب تدل علىٰ عزه وغناه؟! أو أن تجيء معه ملائكةٌ تصفُّ بجانبه تصدقه فيما يدَّعي من النبوة والرسالة؟!

[٥٤] وبهذا الأسلوب الذي لا حجة فيه ولا برهان، استخفَّ فرعون عقول قومه؛ فأطاعوه وصدَّقوه، خفَّةً منهم ورعونة، إنهم كانوا قومًا فاسقين، أي: خارجين عن طاعة الله.

[٥٥] وبسبب طغيان فرعون وقومه وعنادهم، وإصرارهم علىٰ الكفر والضلال، وتكذيب موسىٰ عليه السلام؛ غضب الله عليهم غضبًا شديدًا، وكانت نتيجة هذا الغضب انتقام الله منهم بالإغراق بماء البحر.

[٥٦] ثم بين سبحانه أنه جعلهم قدوةً لمن عمل بعملهم -من الكفر والتكذيب وطاعة أكابر المجرمين- في استحقاق العذاب، وجعلهم أيضًا عظةً وعبرةً للمعتبرين.

[٥٧] يخبر جل وعلا عن محاجة عبدالله بن الزِّبَعْرَىٰ للنبي ﷺ بعبادة النصارىٰ لعيسىٰ ابن مريم عندما نزل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]؛ ففرح عبدالله بن الزِّبَعْرَىٰ بذلك، وكان ذلك قبل إسلامه، فقال للنبي ﷺ: أخاصَّة هذه الآية يا محمد لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم، فقال النبي ﷺ: «**هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم**»[1]، فقال: خَصَمْتُك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسىٰ ابنَ مريم نبيٌّ، وقد عبدته النصارىٰ؟؛ فإن كان عيسىٰ في النّار فقد رَضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه؛ فلما سمع مشركو مكة هذه المحاجَّة فإذا أصواتهم وصياحهم ترتفع فرحًا ظنًّا بجهلهم أن ابن الزِّبَعْرَىٰ انتصر علىٰ النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١]، أي: إن كل من رضي أن يعبد من دون الله؛ فسوف يلقىٰ في النار لأن الراضي كالفاعل، ولا شك أن عيسىٰ عليه السلام لم يكن راضيًا بذلك، وكذلك عزير والأولياء الذين يطاف علىٰ قبورهم وتذبح لهم الذبائح، كل هؤلاء وغيرهم لم يكونوا راضين بما يقوم به أتباعهم من أفعال شركية.

[٥٨] ثم قال مشركو قريش: هل آلهتنا التي نعبدها خير وأفضل أم المسيح ابن مريم؟ فإذا كان من عُبد من دون الله سيدخل النار فنحن نرضىٰ أن تكون آلهتنا مع عيسىٰ، - وهذا جهلٌ عظيمٌ منهم، ومخاصمةٌ بالباطل، وما قال المشركون هذا القول إرادةً للحق، إنما قالوه لإرادة المخاصمة والمجادلة بالباطل، وهم قوم شديدو الخصومة، كثيرو اللدد، عظيمو الجدل بالباطل ليدحضوا به الحق.

[٥٩] واعلموا أن عيسىٰ ابن مريم عليه السلام ما هو إلا عبدٌ من عبادنا، أنعمنا عليه وفضلناه بالنبوة والحكمة والعلم والعمل، وجعلناه مثالًا لبني إسرائيل يعرفون به قدرة الله جل في علاه علىٰ إيجاده من غير أب.

[٦٠] ثم بين جل وعلا وأكد علىٰ كمال قدرته، بأنه لو شاء لأهلك بني آدم جميعًا وجعل بدلًا منهم ملائكة في الأرض يعمرونها ويخلفونهم فيها.

---

(١) قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٥٤): غريب. وقال الطيبي في فتوح الغيب (١٤/ ١٦٢): ليس يثبت.

وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ
مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ
٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ
٦٤ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ
مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ
بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ
عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ
تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ
وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣

[٦١] واعلموا أيها الناس أن نزول عيسىٰ عليه السلام من علامات الساعة الكبرىٰ؛ فلا تشكوا في قيامها، ولا تكذبوا بذلك، وقل لهم يانبي الله: اتبعوني فيما آمركم به من التوحيد، واجتناب الشرك، فأنا أدعوكم إلىٰ طريق مستقيم موصِل إلىٰ الحق.

[٦٢] واحذروا أن يصدنكم الشيطان ويمنعنكم عن اتباع الحق بهذه الوساوس التي يلقيها في صدوركم، فإن الشيطان لكم عدوٌّ بين العداوة.

[٦٣] ولما بُعث عيسىٰ عليه السلام إلىٰ بني إسرائيل قال لهم: إني قد جئتكم بالدلائل الواضحات علىٰ وحدانية الله، وجئتكم بالنبوة والعلم، لأبين لكم صواب ما تختلفون فيه، فاتقوا الله بتوحيده وامتثال أمره، واجتناب نهيه، وصدقوني فيما أخبركم به، وأطيعوني فيما آمركم به.

[٦٤] واعلموا أن الله هو ربي وربكم فوَحِّدوه، وأخلصوا له العبادة، فهذا هو الصراط المستقيم، والدين الحقّ القويم.

[٦٥] ثم أخبر جل وعلا أن النصارىٰ اختلفوا في أمر عيسىٰ عليه السلام، وصاروا فرقًا وأحزابًا؛ فمنهم من زعم أنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة – تعالىٰ الله عما يقول الكافرون الظالمون علوًّا كبيرًا –؛ فويلٌ وهلاكٌ وعذابٌ ينتظر الذين ظلموا وتجاوزوا حدودهم في وصف عيسىٰ عليه السلام بغير ما وصفه الله.

[٦٦] فهل ينتظر هؤلاء المكذِّبون المفترون المختلفون في أمر عيسىٰ عليه السلام إلا الساعة أن تقوم عليهم، وتأتيهم فجأةً؟ وهم لا يتوقعون مجيئها، وغير مستعدين لها؟!

[٦٧] ثم بين جل وعلا أن الأصحاب والأصدقاء والأحِبَّاء حين تأتيهم الساعة يعادي بعضهم بعضًا، وتنقلب محبتهم عداوة؛ إلا المتقين الذين تآخوا وتحابُّوا في الدنيا علىٰ توحيد الله وطاعته، والعمل في رضاه نسأل الله الكريم من فضله.

[٦٨] ثم ينادي جل وعلا هؤلاء المؤمنين المتحابين في الله، ويقول لهم: ياعبادِ لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه اليوم من أمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضىٰ.

[٦٩] ثم بين جل وعلا بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لأنهم آمنوا بالله واتبعوا رُسُلَه، وصدقوا ما جاؤوهم به، وعملوا الصالحات، واستسلموا لله بالتوحيد وانقادوا له بالطاعة.

[٧٠] ثم يأمر جل وعلا بإدخال هؤلاء المؤمنين الجنة دار النعيم المقيم، وإدخال كل من كان علىٰ مثل ما كانوا عليه؛ فيُنَعَّمون ويُكرمون في جنات النعيم.

[٧١] ثم ذكر جل وعلا بعض نعيم أهل الجنة وكرامتهم، فقال: إن أهل الجنة يُطاف عليهم بالطعام في آنيةٍ من ذهب، وبالشراب في أكْوابٍ من ذهب، ولهم في الجنة ما تشتهيه وتتمناه أنفسهم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، وأنتم – ياأهل الجنة – خالدون ماكثون فيها أبدًا لا تخرجون منها.

[٧٢] واعلموا أيها المؤمنون أن دخولكم هذه الجنة كان بسبب أعمالكم الصالحة المقبولة، فجعلها جل في علاه من فضله ورحمته جزاء لكم.

والباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ باء السبب، وليست باء العوض.

[٧٣] ثم اعلموا أيها المؤمنون أن لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشهية الشيء الكثير، تتخيرون وتأكلون منها ما تشاؤون، نسأل الله الكريم من فضله.

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

[٧٤-٧٥-٧٦] ثم أخبر جل وعلا أن المجرمين الذين اقترفوا الشرك والكفر بالله ورسله في عذاب جهنم ماكثون، لا يتحولون عنه ولا يزولون. ولا يُخَفَّفُ عنهم العذاب، وهم فيه آيسون من كل خير ونجاة. ثم بين سبحانه بأنه لم يظلمهم بإدخالهم النار، ومُكْثهم في العذاب، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، وتكذيب الأنبياء والرسل.

[٧٧] وهؤلاء المجرمون بعد أن أدخلهم الله النار ينادون مالكًا وهو خازن جهنم، فيقولون: يامالك ليمتنا ربك أحب إلينا من هذا العذاب الأليم؛ فيجيبهم مالك: إنكم ماكثون فيها أبد الآبدين، لا خروج لكم منها، ولا يقضىٰ عليكم فتستريحوا من عذابها.

[٧٨] ثم يقول لهم مالك مؤنبًا لهم: لقد جاءكم الله بالدين الحق، وأرسل إليكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب، ولكن أكثركم للحق كارهون، وعنه معرضون.

[٧٩] أخبر جل وعلا أن المشركين يظنون أنهم أحكموا ودبَّروا وكادوا للنبي ﷺ كيْدًا شديدًا لتكذيبه وللصدِّ عن دينه؟! لقد خاب ظنهم ، لأن مكره جل في علاه أعظم من مكرهم، وأنه سبحانه محكم أمرًا ومدبر تدبيرًا يعلو تدبيرهم، وأنه سوف يهلكهم بالعذاب والنكال.

[٨٠] ثم قال جل وعلا علىٰ سبيل التوبيخ: هل يظن هؤلاء الجهلة أنا لا نسمع ما يسرون ويتناجون به بينهم؟! بلىٰ نسمع ذلك، ونعلم به، وملائكتنا الحفظة يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول أو فعل.

[٨١] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل الفرض: إن ثبت أنَّ للرحمن ولدًا كما تزعمون وتفترون؛ فأنا أول العابدين له؛ تقدّس وتنزّه سبحانه عما يقول هؤلاء المجرمون الضالون.

[٨٢] ثم نفىٰ ﷺ الولد عن الله تنزيهًا وتقديسًا له، فهو رب السماوات والأرض وما فيهن وما بينهما، رب العرش العظيم، وهو المتعالي عن كل ما وصفه به هؤلاء الظالمون الفاسقون من صفات لا تليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فهو الغني عن الولد وغيره.

[٨٣] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يترك هؤلاء المفترين علىٰ الله أن يستمروا في أباطيلهم ولهوهم، حتىٰ يلاقوا يومهم الذي هو يوم القيامة الذي سنحاسبهم فيه علىٰ أعمالهم، ثم نعاقبهم بالعقوبة التي يستحقونها، بعد أن أقام عليهم الحجة.

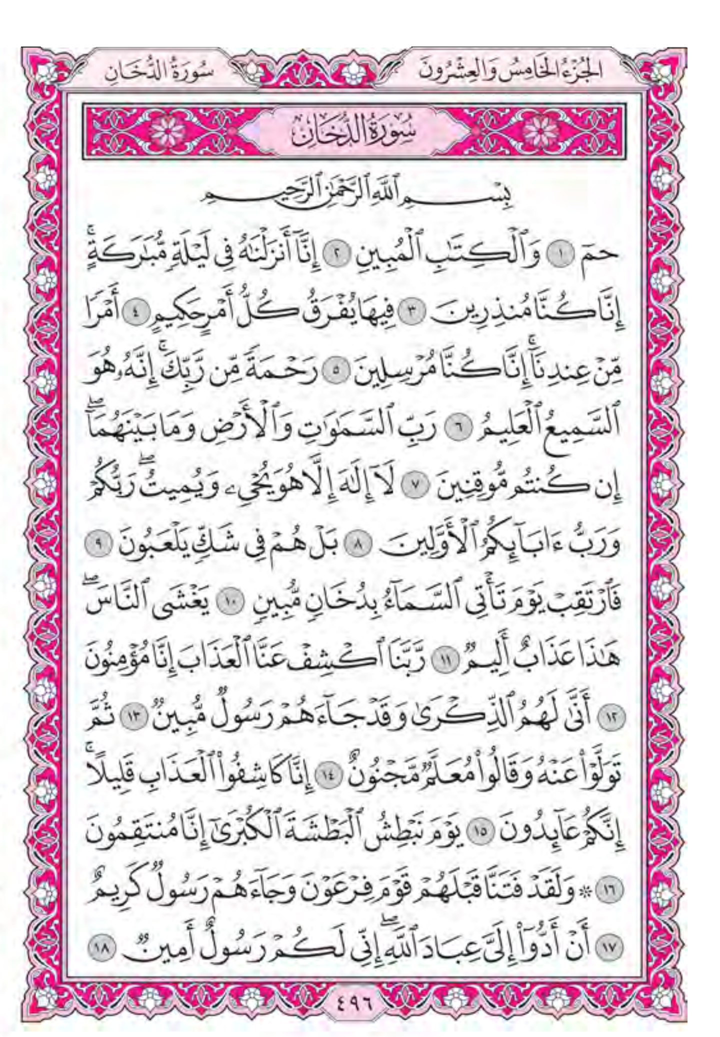
[٨٤] ثم أخبر جل وعلا بأنه إله جميع الكائنات السفلية والعلوية، وأنه المعبود بحق في السماء، والمعبود بحق في الأرض، وهو الحكيم في جميع أقواله وأفعاله، العليم بكل شؤون خلقه، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٨٥] وهذا الإله المعبود بحق في السماء وفي الأرض لقد تعاظم وتكاثر خيره، وهو الواحد الأحد الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وهو سبحانه المتفرد بعلم الوقت الذي تقوم فيه الساعة، وإليه أيها الناس ترجعون من بعد مماتكم؛ فيجازي كلًّا بما يستحق.

[٨٦] ثم بين جل وعلا أن الذين يُعبَدون من دون الله لا يملكون الشفاعة لأحد؛ بل لا يشفعُ أحدٌ لأحدٍ إلا بإذن الله، ولا بد أن يكون الشافع والمشفوع له من أهل كلمة الحق والإخلاص، كلمة: لا إله إلا الله، وهم علىٰ علمٍ وبصيرةٍ بما شهدوا به.

[٨٧] واعلم يانبي الله: لو سألت هؤلاء المشركين من قومك من الذي خلقهم؟ لأجابوا مقرين ومعترفين بأنه: الله جل في علاه، فما دام أنكم تقرون بذلك وتعترفون به، فكيف تصرفون العبادة إلىٰ غيره سبحانه وتعالىٰ؟

[٨٨-٨٩] ثم قال النبي ﷺ شاكيًا لربه: يارب إن هؤلاء القوم لا يؤمنون بك، ولا يوحدونك، ولا يخلصون لك العبادة، ولا يصدقوني، ولا يتبعوني فيما أُرسِلتُ به إليهم. فأمره جل وعلا أن يصفح عنهم، وأن يعرض عما يلحقه منهم من أذىٰ، وهذا يسمىٰ: صَفْحُ مُتَارَكَةٍ، أي: أعرض عنهم واتركهم، ثم هدد جل في علاه هؤلاء الكافرين المعاندين؛ فأخبر بأنهم سوف يعلمون ما يلقونه من البلاء والنكال بسبب كفرهم وعنادهم. والصفح في هذه الآية لا يعني التوقف عن الدعوة؛ بل يستمر في دعوته مع الإعراض عن أذاهم.



سورة الدخان

سورة الدخان مكيّة وآياتها تسع وخمسون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] بدأ جل وعلا هذه السورة بالإقسام بهذا الكتاب وهو القرآن الواضح البين؛ لشرفه وعظمته ولما احتواه من علوم الأولين والآخرين وعلوم الآخرة، ومن أوامر ونواهٍ، وما فيه من الهدىٰ والنور.

[٣] وجاء جواب القسم مبينًا أنه أنزله في ليلة كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر التي تتنزل فيها البركات والرحمات، ثم بين سبحانه أنه أنزل هذا القرآن ليحذر الناس من الشرك والمعاصي، ويبين لهم سبل السلام. [٤] وبين سبحانه أنه وضح وفصل في هذه الليلة كل أحداث السنة حتىٰ العام القادم من خير وشر، وحياة وموت، وفقر وغني، وبسط وقبض. [٥] ثم بين سبحانه أن هذا الأمر الحكيم أمر من عنده وحده جل في علاه، أي: أن جميع ما يقدره الله تعالىٰ وما يوجبه فبأمره وإذنه وعلمه، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرسل الرسل.

[٦] وأخبر سبحانه أنه أرسل الرسل جميعًا رحمة منه بالمرسل إليهم، وأنه جل وعلا السميع لجميع الأصوات، العليم بجميع أمور خلقه الظاهرة والباطنة.

[٧] ثم أخبر سبحانه أنه خالقُ ومدبرُ السماوات السبع، والأرضين السبع، وما فيهن، وما بينهما، والمتصرف في كل ذلك؛ فإن كنتم عالمين أيها الناس بذلك علمًا يفيد اليقين؛ فآمنوا بآيات الله ورسله، وأخلصوا له سبحانه العبادة وحده دون من سواه.

[٨] ثم بين سبحانه أن الإيمان به وإخلاص العبادة له وحده لأنه لا معبود بحقٍّ إلا هو، وهو وحده المتفرد بالإحياء والإماتة، وهو الذي رباكم وربَّىٰ الأولين والآخرين بنعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصَىٰ.

[٩] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المشركين ليسوا موقنين بالبعث، ويتندرون في أمره وفي التوحيد، ويذكرونهما علىٰ سبيل الهزء واللعب، وليس علىٰ سبيل الجد والإذعان.

[١٠] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ تسلية له أن يصبر وينتظر حتىٰ تأتي السماء بدخان مبين واضح. [١١] ثم بين سبحانه أن هذا الدخان يُغطي الناس ويعمّهم ويحيط بهم، ثم يقال لهم: هذا عذاب أليم موجع. [١٢] ومن شدة هذا العذاب فإن الكفار وأهل الذنوب والمعاصي يقولون متوسلين: ربنا اكشف عنا هذا العذاب، فإن كُشف عنّا فإنا مؤمنون مصدقون بما جاء به محمد ﷺ. وقد قيل: إن هذا الدخان من أشراط الساعة، وإنه سيأتي ويمكث أربعين يومًا، وقيل: إنه حدث وانتهىٰ، وذلك أن رسول الله ﷺ دعا علىٰ قريش لما ضايقوه وتآمروا علىٰ قتله؛ فقال: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسنيِّ يوسف**»[1]؛ فأصيبوا بالقحط والجوع حتىٰ صار الواحد من شدة الجوع يرىٰ كأن بينه وبين السماء دخان؛ فأرسلوا إليه ﷺ يسألونه وينشدونه بالرحم والقرابة أن يسأل الله أن يكشف ما بهم ويغيثهم؛ ففعل ﷺ؛ فأغيثوا وتحسنت أحوالهم.

[١٣] ثم يقال لهؤلاء الكفار: كيف يتذكرون ويتعظون وقد جاءهم رسولٌ صادقٌ يبين لهم ما يحتاجون إليه من أمور دينهم.

[١٤] ثم بين سبحانه أنهم تولوا وأعرضوا عن هذا الرسول، وكذبوه، ولم يصدقوه، وقالوا عنه: إنَّ هناك بشرًا يعلمه القرآن، وقالوا: إنه مجنون يختلط عليه الأمر.

[١٥] ثم أخبر جل وعلا أنه برحمته وفضله سوف يغيث هؤلاء المشركين ويرفع عنهم العذاب والشدة، ومع ذلك سوف ترون كيف أنهم سيعودون إلىٰ ما كانوا فيه من الكفر والضلال والتكذيب.

[١٦] وتذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ يوم أن يأخذ الله جميع الكفار ويعذبهم العذاب الأكبر يوم القيامة، وهو اليوم الذي ينتقم الله فيه من جميع الكفار والعصاة والمجرمين؛ حيث ينتقم منهم انتقامًا يذلهم ويخزيهم. ويوم البطشة الكبرىٰ: قيل المراد به: يوم القيامة، وقيل: هو يوم بدر يوم عادوا إلىٰ تكذيب الرسول ﷺ ومحاربته.

[١٧] واعلم يا نبي الله أن الله امتحن واختبر قوم فرعون قبل قومك، وجاءهم موسىٰ عليه السلام رسولٌ كريمٌ من عند الله رب العالمين، يأمرهم بعبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه.

[١٨] ثم أخبر سبحانه أن موسىٰ طلب من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل إلىٰ الشام؛ ليتخلصوا من هذا العذاب وهذا الهوان، ويعيشوا أحرارًا يعبدون الله وحده لا شريك له، ثم بين لهم أنه يجب عليهم أن يستجيبوا لدعوته وطاعة أمره؛ لأنه مرسل إليهم من الله رب العالمين، وأنه أمين علىٰ ما أرسله الله به.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥).

وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ
بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾
فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ
تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ
كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا
بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ
نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾
إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ
بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَـٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ
﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

[١٩] ثم قال موسىٰ لفرعون وقومه: واحذروا أن تتجبروا أو تتكبروا علىٰ أمر الله، فإني أتيتكم من عنده بحجة ظاهرة بينة.

[٢٠] ثم قال موسىٰ لفرعون: إني عُذتُ بالله واحتميتُ به والتجأت إليه واعتصمتُ به أن تقتلوني رجْمًا بالحجارة.

[٢١] وقال عليه السلام أيضًا: وإن لم تؤمنوا بي، وتصدقوني وتتبعوني؛ فاتركوني ولا تؤذونني.

[٢٢] ثم إن موسىٰ عليه السلام دعا ربَّه، وشكا إليه قومه قائلًا: إن هؤلاء يارب قوم مجرمون مجاوزون لحدودهم، قد أجرموا في حقك بالشرك والتكذيب لرسولك.

[٢٣-٢٤] فلما لم يجيبوه، أمره جل وعلا أن يجمع بني إسرائيل الذين صدقوه وينطلق بهم في الظلام، وأخبره بأن فرعون وجنوده سوف يتبعونكم. ثم أمره جل في علاه إذا وصل البحر الأحمر هو ومن معه من بني إسرائيل أن يضربه بعصاه لكي يصير جامدًا كسطح الأرض؛ ثم يسير فيه هو ومن معه، ثم أمره إذا تجاوزوا البحر أن يتركه علىٰ حاله ولا يضربه بعصاه مرة أخرىٰ لكي يسير فيه فرعون وجنده؛ فإذا توسطوا البحر أغرقهم الله وأهلكهم فيه.

[٢٥-٢٦-٢٧] ثم بين جل وعلا سوء عاقبة فرعون وقومه؛ فأخبر أنهم بعد مهلكهم وإغراق الله لهم تركوا كثيرًا من البساتين والجنات الناضرة، وعيون الماء الجارية، والزروع الكثيرة المتنوعة، والمنازل الجميلة، والحياة التي كانوا فيها مترفين منعمين.

[٢٨] ثم أخبر جل في علاه أن هذه النعم أورثها لقوم آخرين، وهم بنو إسرائيل الذين ما استطاعوا الذهاب مع موسىٰ، أما موسىٰ عليه السلام ومن معه ممن ذهبوا إلىٰ فلسطين فلم يرجعوا إلىٰ مصر للاستمتاع بهذه النعم.

[٢٩] ثم أخبر جل وعلا أن أهل السماوات وأهل الأرض لم يحزنوا علىٰ هلاك فرعون وقومه، وبين أنه لم يؤخر عقوبتهم؛ بل عجل سبحانه لهم العقوبة بإهلاكهم بالغرق. رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «إن المؤمن إذا مات بكىٰ عليه مصلاه من الأرض، ومصعدُ عمله من السماء»، ثم تلا هذه الآية.

[٣٠-٣١] ثم امتن جل وعلا علىٰ بني إسرائيل بأنْ نجاهم وخلصهم من العذاب المهين الذي كانوا يتلقونه من فرعون وقومه، والمتمثل في تذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم، وتسخيرهم خدمًا وعبيدًا، ثم بين سبحانه حال فرعون أنه كان مستكبرًا في الأرض بغير الحق، وأنه من الذين أسرفوا وتجاوزوا حدود الله بالشرك والإسراف في القتل والبغي في الأرض.

[٣٢-٣٣] ثم بين جل وعلا جانبًا آخر من إكرامه لبني إسرائيل، فأخبر أنه اختارهم علىٰ عالمي زمانهم، وهكذا كل نبي أتباعه مختارون علىٰ عالمي زمانهم. وأخبر بأنه أعطاهم من الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة ما فيه اختبارٌ ظاهر، وامتحان واضحٌ لهم للنظر كيف يعملون.

[٣٤-٣٥] ثم عاد الحديث علىٰ كفار مكة فأخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن قومه المشركين يقولون مستبعدين للبعث والنشور: ما هي إلا موتتنا الأولىٰ؛ فهي الموتة الأولىٰ والأخيرة، وما نحن بمبعوثين بعدها للحساب والثواب والعقاب.

[٣٦] ثم إن هؤلاء المشركين يجادلون بالباطل ومن ذلك أنهم يقولون للنبي ﷺ ومن معه: فما دام الأمر كذلك بأن هناك بعثًا ونشورًا فأرجعوا لنا آباءنا الذين ماتوا إن كنتم صادقين فيما تقولون، فأتاهم الرد الحاسم من الله جل في علاه في قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾، أي: أن لهم ميقات يوم وهو يوم الفصل الذي سيحاسبون فيه وعندها يعرفون الحقيقة.

[٣٧] واعلم يا نبي الله أن هؤلاء الكفار من قومك ليسوا خيرًا وأفضل من قوم تبَّع الذين كانوا أشدَّ منهم قوةً وأكثر مالًا، ولا من الذين قبلهم ممن أهلكنا كقوم عاد وثمود الذين كذبوا أنبياءهم ورسلهم؛ فقد أهلكنا ودمرنا جميع هؤلاء المجرمين المشركين، فهؤلاء ليسوا بأفضل ولا أقوىٰ منهم حتىٰ نستثنيهم من الهلاك والعذاب.

[٣٨-٣٩] ثم أخبر جل وعلا عن كمال قدرته وتمام حكمته؛ فبين أنه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما عبثًا أو لهوًا؛ بل خلقهما بالحق الذي اقتضته الحكمة الإلهية، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك؛ فلهذا لم يتفكروا في الحكمة من خلقهما.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

[٤٠] ثم رد جل وعلا علىٰ أولئك الذين ينكرون البعث والنشور؛ فبين سبحانه أن يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه، فقال: اعلموا أيها الناس أن يوم الفصل والقضاء بين الخلق ومحاسبتهم علىٰ أعمالهم؛ والتمييز بين المحسن والمسيء؛ لهو ميقات للفصل والحكم بين الناس أجمعين.

[٤١] وفي ذلك اليوم بين سبحانه أنه لا ينفعُ أحدٌ أحدًا، ولا هم يُمنَعون من عذاب الله.

[٤٢] ثم استثنىٰ جل وعلا أولئك الذين منَّ الله عليهم وأدخلهم في رحمته؛ فإنهم سوف ينجيهم الله وينصرهم، إن الله هو العزيز الغالب المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

[٤٣-٤٤] ثم ذكر جل وعلا طعام الكفار في جهنم، ومن ذلك هذه الشجرة الملعونة في القرآن التي تنبت في أصل الجحيم؛ والتي سماها سبحانه شجرة الزقوم؛ حيث جعلها طعامًا لكل كافر كثير الذنوب، ومعها الضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾[الغاشية:٧]، وأعظم هذه الذنوب الشرك بالله.

[٤٥-٤٦] ثم بين سبحانه أن هذه الشجرة تنزل في بطون الكفار كما ينزل النحاس الحار المذاب؛ فتغلي في بطونهم كغلي الماء الشديد الحرارة.

[٤٧] ثم يقال لخزنة النار من الملائكة الغلاظ الشداد: خذوا هذا الأثيم وجروه وعالجوه، واقذفوه في وسط جهنم.

[٤٨] ويقال لخزنة النار أيضًا: صبوا فوق رأس هذا الأثيم من هذا الماء المغلي شديد الحرارة.

[٤٩] ثم يقال لهذا الكافر عند دخوله النار: تَذَوَّق هذا العذاب الشديد؛ فإنك أنت العزيز في قومك الكريم عليهم؛ حيث إنه كان يقول عن نفسه في الدنيا: (إنني أنا العزيز الكريم)؛ فلذلك يقال له يوم القيامة هذا الكلام تهكمًا واستهزاءً وسخريةً به.

[٥٠] واعلموا أيها الكفار المجرمون أنَّ هذا العذاب الذي أنتم فيه، والذي تقاسون شدته وألَمَه؛ هو الذي كنتم تشكُّون فيه في الدنيا، وتستعجلون وقوعه وتستهزؤون به.

[٥١] ثم ذكر سبحانه نعيم أهل التقوىٰ والسعادة الذي حصلوا عليه بفضل الله ورضاه أولًا، ثم بسبب أعمالهم الصالحة؛ فذكر أنهم في مجلسٍ آمن لا يلحقهم فيه خوف.

[٥٢] وذكر سبحانه أنهم في جنات كثيرة الأشجار جميلة المنظر، وكثيرة عيون الماء الجارية.

[٥٣] ومن النعيم الذي يحصل عليه أهل الجنة أنهم يلبسون في الجنة ما رقَّ من الديباج، وما غلظ من الاستبرق، متقابلين في مجالسهم ينظر بعضهم إلىٰ بعض، بكامل المحبة والسرور، والفرح والأُنس والحبور.

[٥٤] وإضافةً إلىٰ ما سبق من الكرامة والنعيم؛ فإنه جل في علاه يزوجهم بالحسان من الحور العين، وهن نساء جميلات من أعظم ما يكون الجمال، مع نسائهم في الدنيا التي خلقهن الله خلقًا جديدًا وجعلهن أحسن من الحور العين.

[٥٥] وذكر سبحانه أنَّ من نعيم أهل الجنة أنهم يطلبون من جميع ما يشتهون من الفواكه والثمار، آمنين من انقطاعها، لا يخشون منها ضررًا ولا فسادًا.

[٥٦] ومن النعيم أيضًا أنهم لا يذوقون في الجنة الموت؛ فإنهم قد ذاقوا الموتة الأولىٰ في الحياة الدنيا، فلا يتنغص عيشهم بخوف الموت وانقطاع ما هم فيه من النعيم، ونجَّاهم سبحانه من عذاب جهنم الأليم.

[٥٧] واعلموا أن كل ذلك الإكرام والنعيم لأهل الجنة فضلٌ من ربك وإحسانٌ وكرمٌ منه لعباده المتقين، كما أن النجاة من النار، ودخول الجنة، ونيل رضوان الله؛ هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه، نسأل الله الكريم من فضله.

[٥٨] ثم ختم جل وعلا السورة بذكر فضله وإحسانه علىٰ نبيه ﷺ وعلىٰ العرب بأنه أنزل هذا القرآن ميسرًا سهل الأسلوب بأفصح اللهجات العربية؛ لعلهم يتذكرون فضل الله فيشكرونه، ويعتبرون بما جاء فيه من العبر والعظات.

[٥٩] فإن لم يتذكروا ويتعظوا فانتظر يانبي الله ما وعدك ربك من الخير والنصر والظفر، وانتظر هلاكهم إن استمروا علىٰ الكفر والتكذيب؛ فإنهم أيضًا مرتقِبون ومنتظِرون ما يحل بك من الموت والظهور عليك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

سورة الجاثية

سورة الجاثية مكية وآياتها سبع وثلاثون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] بدأ جل وعلا هذه السورة بالإخبار أن هذا القرآن العظيم منزل من عند الله، وأنه حامل بين طياته الهدىٰ والنوراً وأنه من الله العزيز الذي لا يغلبه غالب، الحكيم في خلقه وقدرته وتدبيره.

[٣] ثم بين جل وعلا أن في خلق السماوات والأرض وخلق ما فيهما من آثار دالة علىٰ قدرة الله؛ لأدلة وبراهين ساطعة وواضحة للمؤمنين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون ويستدلون بالمخلوقات علىٰ عظمة الخالق وحكمته.

[٤] وبين جل وعلا أن خَلْقَكم أيها الناس من نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم التدرج في مراحل أعماركم وتشكيل أجسامكم واختلاف ألسنتكم وألوانكم، وكذلك فيما يبث في الأرض من الدواب التي لا تحصىٰ ولا تعد؛ حيث جعل في كل أرض ما يناسبها من الدواب والنبات والثمار، كل هذا الصنع البديع شواهد علىٰ عظمه الله المبدع وقدرته وحكمته؛ وأدلة ساطعة وبراهين واضحة لقوم يوقنون بالله وشرعه.

[٥] ثم بين جل وعلا أن في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما علىٰ مرّ الدهور بمجيء الليل وذهاب النهار والعكس، وما أنزل الله لكم من السماء من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، أي: خلوِّها من النبات؛ فأنبتت زرعها، وأخرجت خيرها، وفي تصريف الرياح من جميع الجهات لصالحكم ولخدمتكم؛ فاعلموا أن في كل ما سبق من النعم لآيات واضحات الدلالة علىٰ وحدانية الله وكمال قدرته، وإنما ينتفع بهذه الآيات الذين يُعمِلون عقولهم ويتفكرون فيها.

[٦] واعلم يانبي الله أن تلك الآيات المذكورة هي حجج الله الدالة علىٰ وحدانيته وكمال قدرته؛ وإن الله يخبرك بها بالحق؛ فبأي حديث بعد حديث الله، وبعد آياته يؤمن هؤلاء ويصدقون؟!!

[٧] ثم توعد جل وعلا بالعذاب الأليم يوم القيامة كل أفاك أثيم، أي: كل إنسان كثير الكذب كثير الذنوب المعاصي، ويدخل في هؤلاء كل الزنادقة والدهريين والكفرة والملحدين.

[٨] ثم بين سبحانه أن من صفات هذا الأفاك الأثيم أنه يسمع كتاب الله وهو القرءان الكريم يقرأ عليه صباحًا ومساءً، ثم يصر علىٰ الكفر والضلال والاستكبار، وكأنه لم يسمع ما يتلىٰ عليه من الآيات؛ فهذا وأمثاله بشره يانبي الله بعذاب أليم موجع في نار جهنم يوم القيامة.

[٩] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الكفار إذا بلغهم ووصل إليهم شيء من آيات القرآن؛ فإنهم يسخرون ويستهزؤون بها، فأولئك لهم في الآخرة عذاب أليم يهينُهُم ويذلهم ويفضحهم.

[١٠] وبعد أن ذكر جل وعلا سخريتهم واستهزاءهم بآيات الله؛ ذكر أن مصيرهم جهنم وأنها تنتظرهم، ولن يدفع عنهم عذاب الله اختراعاتهم واكتشافاتهم وما اكتسبوا في الدنيا من المال والولد، ولن تنفعهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ.

[١١] ثم ذكر جل وعلا أن هذا القرآن الذي أنزلناه عليك يانبي الله هدىٰ ونور لمن وفقه الله، أما أولئك الذين جحدوا ما في هذا القرآن من الآيات والبراهين الدالة علىٰ صحته وصدق من جاء به؛ فلهم أشد أنواع العذاب المؤلم الموجع.

[١٢] يخبر جل وعلا بفضله علىٰ عباده وإحسانه إليهم، وذلك بتسخير البحر لهم لتسير فيه المراكب والسفن بأمره وقدرته سبحانه؛ لتنقلكم من مكان إلىٰ مكان لم تصلوا إليه إلا بشق الأنفس، ولتبتغوا من فضله بأنواع التجارات والمكاسب، وتستخرجون منه الحلي والطعام كاللؤلؤ والأسماك وغير ذلك، ولعلكم بعد ذلك تشكرون الله علىٰ هذه النعم العظيمة.

[١٣] ثم أخبر جل وعلا أنه سخر لكم أيها الناس جميع ما خلق في السماوات من الكواكب والأنوار والأضواء والأمطار، وجميع ما خلق في الأرض من الدواب والشجر والسفن والمعادن وغير ذلك، وبين أن جميع هذه النعم منه وحده، تفضل بها عليكم؛ لكي تعبدوه وحده لا شريك له، واعلموا أن فيما سخره سبحانه لكم لعلامات ودلالات لقوم يتفكرون في آيات الله وحججه وبراهينه فيعتبرون بها.

قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحْمَةٞ لِّقَوْمٖ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

[١٤] وقل يانبي الله للذين آمنوا بالله واليوم الآخر واتبعوك: أن يصبروا علىٰ أذية المشركين الذين لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه، فإن الله سبحانه وتعالىٰ سيجازي كل قوم بما كسبوا، وبما عملت أيديهم. قال ابن عباس رضي الله عنه في رواية عطاء: يريد بقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاصَّة، وأراد بالذين: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: عبدالله بن أبيٍّ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

[١٥] واعلموا أيها الناس أن من عمل الأعمال الصالحة وداوم علىٰ ما يحبه الله ويرضاه فإنما يقدم الخير والسعادة لنفسه، ومن عمل الأعمال السيئة، وأقام علىٰ ما يكرهه الله ويأباه؛ فإنما يجني علىٰ نفسه ويقدم لها الشقاء والعذاب، ثم إلىٰ ربكم ترجعون؛ فيجازي كلًّا بما عمل وبما قدَّم.

[١٦] أخبر جل وعلا أنه أعطىٰ بني إسرائيل التوراة والإنجيل ليكونا هداية ونورًا لهم، وأعطاهم الفهم والفقه للأحكام ليحكموا بين الناس بالعدل، وأعطاهم النبوة فجعل أكثر الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام فيهم، ورزقهم جل في علاه من أنواع المطاعم والمشارب الطيبة، وفضلهم علىٰ عالمي زمانهم، وهكذا فإن أتباع كل نبي مفضلون علىٰ عالمي زمانهم.

[١٧] ثم بين جل وعلا نعمة أخرىٰ أنعم بها علىٰ بني إسرائيل وهي أنه أعطاهم دلالات تبين لهم الحق من الباطل، وتوضح لهم الحلال والحرام، فما وقع الاختلاف فيما بينهم إلا بعدما بلغهم العلم ووصل إليهم واضحًا جليًّا، وكان الحاملُ لهم علىٰ هذا الاختلاف هو: بغي بعضهم علىٰ بعض، وظلم بعضهم لبعض، واعلم يانبي الله بأن ربك يقضي بينهم بالعدل، ويفصل بينهم بالحق يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، وفيما بغىٰ بعضهم علىٰ بعض فيه.

[١٨] ثم أخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أنه شرَّع له شريعة كاملة، وجعله علىٰ منهاج واضح في أمر الدين، وأمره بأن يمتثلها وأن يعمل بأحكامها، وأن لا يتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالله، ولا يعلمون توحيد الله وشرائعه لعباده.

[١٩] واعلم يانبي الله أنك إذا اتبعتَ هؤلاء الضالين فإنهم لن ينفعوك عند الله، ولن يجلبوا لك نفعًا، ولن يدفعوا عنك ضرًّا، وإن الظالمين المُجَاوِزينَ حدودهم ينصر بعضهم بعضًا في الدنيا، واللهُ ناصرُ المؤمنين الذين جعلوا بينهم وبين عذابه وقايةً بتوحيده، وفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[٢٠] ثم اعلم يانبي الله أن هذا القرآن نور وضياء وأدلة ساطعة وبراهين قاطعة؛ وقد أنزلناه لتبصير الناس في جميع أمورهم، وهدايتهم إلىٰ الهدىٰ ودين الحق، ورحمة واسعة لمن آمن وأيقن به.

[٢١] ثم سأل جل وعلا علىٰ سبيل الإنكار: هل ظنَّ الذين اكتسبوا السيئات من الكفر والمعاصي أن نجعلهم في مرتبة ودرجة واحدة مع الذين آمنوا بالله، واتبعوا أمره، وأقاموا علىٰ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال؟!! هل ظنوا أن نساوي بينهم في الدنيا والآخرة؟! كلا!! لا يستوون أبدًا، ساء ما ظنوا وما حسبوا، وساء حكمهم الذي حكموا به؛ فإن الله جل في علاه حكم عدل.

[٢٢] ثم أكد جل وعلا عدم المساواة بين الفريقين فأخبر بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وأوجدهما من العدم؛ بالحق والحكمة؛ ليختبر الناس بتوحيده وإخلاص العبادة له، وليجزي الله كل نفس ما كسبت من خير أو شر، ولن يُظلموا شيئًا من أعمالهم، وإن كان مثقال حبة من خردل.

الجُزْءُ الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ — سُورَةُ الجَاثِيَةِ

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ
وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ
إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾
وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا
قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

٥٠١

[٢٣] وانظر يانبي الله وتأمل: هل رأيت ذلك الشقي الذي اتخذ هواه إلهًا له؛ فلا يهوىٰ شيئًا إلا فَعَله، وقد أضلَّه الله بعد معرفته وبلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه، أي: أنه كان ضالًّا متبعًا لهواه مع علمه بالحق والهدىٰ، ولكنه أصر علىٰ الكفر والضلال؛ فطبع الله علىٰ سمعه وقلبه، فلا يسمع مواعظ الله، ولا يعقل شيئًا فيه هدايته ورشده، وجعل علىٰ بصره غطاء فلا يبصر به حجج الله؟ فمن يوفق هذا الشقي للحق بعد أن أضله الله؟ أفلا تتذكرون وتتعظون أنَّ مَن فَعَل الله به ذلك فلن يهتدي أبدًا؟ وإضلال الله له جزاءً له علىٰ جحوده وإصراره علىٰ الكفر والشرك وليس ابتداءً.

[٢٤] وقال هؤلاء المشركون الدهريون منكرو البعث علىٰ سبيل الجهل والعناد وجحود الحق: ليس هناك حياة إلا الحياة التي نحيا فيها، نموت نحن الآباء ويحيا الأبناء، وما يهلكنا إلا مرور الأيام والليالي والسنون، وهذا الذي يقوله هؤلاء المشركون عن البعث ليس عن علم؛ بل هو عن تخرص وتوهم وتخيل، وأيضًا يقولون ذلك تهربًا من المسئولية؛ لأن الإيمان بالآخرة يتطلب العمل لها.

[٢٥] وهؤلاء المشركون المعاندون إذا تُقرأ عليهم آيات القرآن الواضحة في الأمر بالتوحيد، والدلالة علىٰ البعث والنشور، لم يكن لهم من حجَّةٍ إلا أن يقولوا: أَحْيوا لنا آباءنا إن كنتم صادقين في قولكم إن هناك بعثًا بعد الموت.

[٢٦] وقل يانبي الله ردًّا علىٰ هؤلاء المشركين المكذبين بالبعث: اعلموا بأن الله هو الذي يحييكم في الحياة الدنيا ما شاء لكم تَحْيَوا، ثم يميتكم فيها عند انقضاء آجالكم، ثم يجمعكم ويعيدكم يوم القيامة للحياة مرة أخرىٰ للجزاء والحساب، وهذا اليوم الذي هو يوم القيامة سوف يأتي لا شك في ذلك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ذلك.

[٢٧] واعلموا أيها الناس أن لله وحده ملك السماوات والأرض فهو الذي خلقهما وأبدعهما علىٰ غير مثال سابق، ويوم تجيء الساعة التي يبعث فيها الموتىٰ من قبورهم ويحاسبون؛ تكون الخسارة علىٰ الكافرين الجاحدين الذين اختلقوا الأباطيل وصدقوها وآثروا الكفر علىٰ الإيمان.

[٢٨] وفي يوم القيامة سوف ترىٰ يانبي الله أصحاب كل ملة ودين جاثمين علىٰ ركبهم من هول ذلك اليوم، قال الحسن: (باركين علىٰ الركب) ، كل أمة تدعىٰ إلىٰ صحيفة أعمالها، ثم يقال لهم: اليوم سوف تجزون علىٰ أعمالكم في الدنيا بما تستحقون، لا ظلم اليوم.

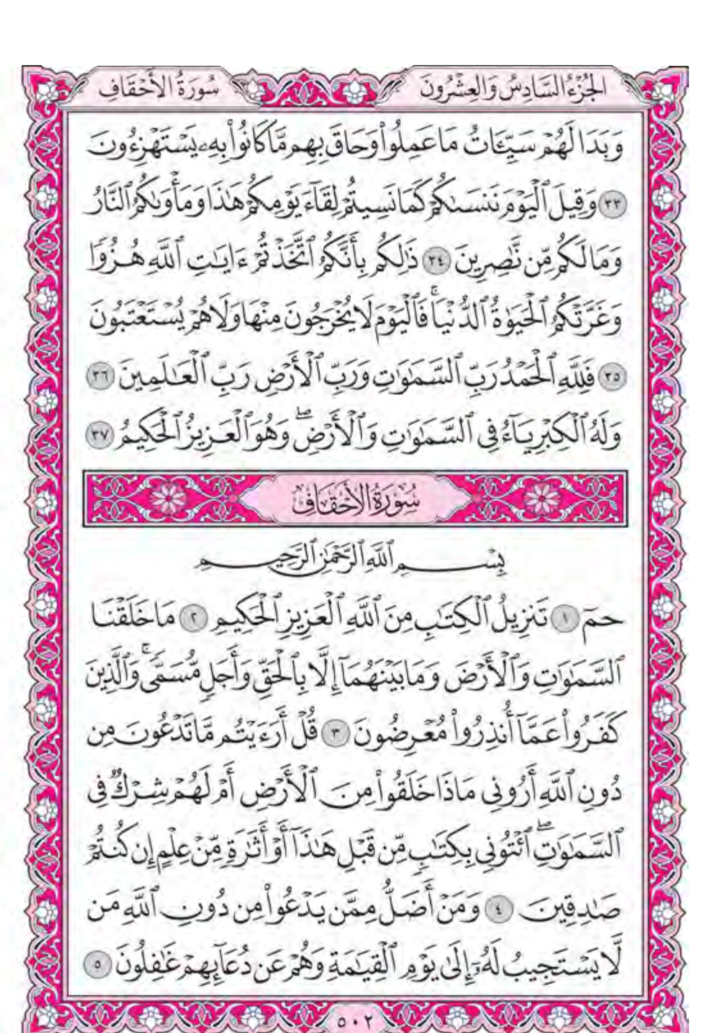
[٢٩] ثم يقال لهؤلاء المشركين: هذا كتاب أعمالكم الذي كتبته عليكم الملائكة بين أيديكم، ينطق عليكم بالحق، فإن الله جل في علاه كان يأمر الحفظة أن تكتب جميع أعمالكم الصالحة والطالحة، وربما يكون تسجيل الأعمال بالصوت والصورة؛ فالله علىٰ كل شيء قدير.

[٣٠] ثم فصل جل وعلا فأخبر أن الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ في الدنيا، وامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، فإن الله يدخلهم في جنته ورضوانه، ولا شك أن هذا الثواب الجزيل هو الفوز المبين الذي لا فوز بعده.

[٣١] وأما الذين جحدوا آيات الله وكذَّبوا رسله، فإن الله يبكتهم ويؤنبهم علىٰ استكبارهم واتباع شهواتهم ويقال لهم: أفلم تكن آيات الله تتلىٰ عليكم فاستكبرتم عن الاستماع إليها والإيمان بها، وكنتم قومًا مشركين تفعلون المعاصي ولا تؤمنون بثواب ولا عقاب؟

[٣٢] وإذا قيل لهؤلاء المكذبين بالبعث: إن وعد الله بالبعث والنشور حقٌّ، والساعة آتية لا شك في ذلك، قلتم منكرين لذلك: أيّ شيء هي الساعة؟ ما نظن قيامها إلا توهمًا، وما نحن بمُتيَقِّنين من ذلك.


....
....
....



[٣٣] ثم بين جل وعلا ما ترتب علىٰ أقوال هؤلاء المشركين الباطلة؛ حيث ظهر لهم ما عملوا من الشرك والتكذيب بالبعث والنشور، ونزل بهم العذاب الذين كانوا يستهزؤون به ويستعجلون مجيئه.

[٣٤] وفي يوم القيامة يقال لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل التأنيب والزجر: اليوم نهملكم ونترككم في جهنم للعذاب، كما تركتم الإيمان بالله في الدنيا والعمل لهذا اليوم، وكنتم تصرون علىٰ الكفر والشرك والعناد؛ فمسكنكم الذي تأوون إليه هو نار جهنم، وليس لكم في هذا اليوم من ناصر ينصركم ليخفف عنكم عذاب الله.

وعبر بالنسيان مشاكلة لفعلهم؛ وإلا فالله لا تغيب عنه غائبة، ولا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والنسيان ممتنع بالنسبة لله: هو هنا الترك الدائم للكفار في العذاب.

[٣٥] ثم بين جل وعلا الأسباب التي أدت بهؤلاء المشركين إلىٰ هذا المصير السيِّئ؛ فأخبر أن ذلكم العذاب والنكال الذي أصابهم، وخلودهم في النار؛ بسبب أنهم اتخذوا القرآن للاستهزاء والسخرية، وخدعتْهُم زينة الحياة الدنيا وزخرفها الزائل؛ فاليوم لا يُخرجون من النار أبدًا، ولا يقبل منهم معذرة أو توبة.

[٣٦] ثم ختم جل وعلا السورة مخبراً أن له وحده الحمد والعظمة والثناء الكامل علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ، وله الحمد علىٰ ربوبيته؛ فهو رب السماوات ورب الأرض وخالقهما ومدبرهما، ورب الخلائق أجمعين؛ حيث خلقهم ورباهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة الباطنة.

[٣٧] وأخبر سبحانه أن له وحده الكبرياء والعظمة والسلطان والجلال في السماوات والأرض، وهو العزيز الذي لا يغالب، والحكيم في أقوله وأفعاله، فله الحمد المطلق.

سورة الأحقاف

سورة الأحقاف مكيّة وآياتها خمس وثلاثون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] بدأ جل وعلا السورة بالإخبار أن هذا القرآن العظيم الحامل للهدىٰ والنور، والجامع لكل ما هو حسن وصدق؛ منزل من عند الله العزيز الذي لا يغالبه أحد، القاهر لجميع خلقه، الحكيم في تصريفه لشؤونهم.

[٣] واعلموا أيها الناس أن الله جل وعلا ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق الذي اقتضته قدرته وإرادته، والأجل الذي حدده وهو يوم القيامة، يوم تبدل الأرض والسماوات، ولكن الذين جحدوا آيات الله معرضون عن مواعظ القرآن وتوجيهاته، ولا يتفكرون في الآخرة ولا فيما خلقوا من أجله وهو عبادة الله وحده.

[٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل التوبيخ والتأنيب: أرأيتم هذه الآلهة وهذه الأصنام والأوثان وغيرها من المخلوقات التي تعبدونها من دون الله، أروني هل خلقوا شيئًا من المخلوقات؟، أم أن لهم شراكة مع الله في خلق السماوات؟ فإذا لم يخلقوا شيئًا، ولم يكن لهم شراكة في شيء، إذًا كيف تعبدون من دون الله ما لا يضر ولا ينفع؟ أليس هذا هو الضلال والفساد المبين؟، ثم هاتوا أيها المشركون كتابًا من عند الله نزل قبل هذا القرآن، أو بقيَّة من علم تؤيد عملكم وتدل علىٰ صحة ما أنتم عليه من الشرك والضلال، إن كنتم صادقين فيما تزعمون.

[٥] واعلموا أيها الناس أنه لا يوجد أحد أشد ضلالًا وجهلًا من هؤلاء المشركين الذين يعبدون من دون الله هذه الأصنام وهذه الأوثان التي لا تجيب لهم دعاءً، ولا تسمع لهم كلامًا، ولا تعقل لهم نداءً، ولو جلس يخاطبها إلىٰ يوم القيامة، لأن هذه الأصنام والأوثان غافلة عن عبادة من يعبدها؛ بل لا تدرك شيئًا، ولا تحس بمن حولها.

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

[٦] ثم بين جل وعلا ما يحدث بين العابدين والمعبودين يوم القيامة؛ فأخبر بأن الناس إذا حشروا يوم القيامة للحساب؛ كانت الأولياء والأصنام والأوثان أعداءً لعابديها؛ حيث يتبرؤون ممن عبدوهم، وحينها يلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض.

[٧] ثم أخبر جل وعلا عن مشركي قريش أنهم إذا تتلىٰ عليهم آيات القرآن الواضحة الدلالة علىٰ وحدانية الله وكمال قدرته؛ قالوا: هذا سحْرٌ ظاهرٌ بيِّن.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أن من أقوال هؤلاء المشركين أنهم يقولون: أن محمدًا اخترع وألَّفَ واختلق هذا القرآن من عند نفسه، فقل لهم يانبي الله: إن اختلقته من قبل نفسي فالله قادرٌ علىٰ أن يعذبني، وحينها لا تملكون أن تدفعوا عني شيئًا من العذاب، واعلموا أن الله تعالىٰ عالمٌ بما تخوضون فيه من التكذيب والمخاصمة بالباطل، وكفىٰ بالله شهيدًا عليَّ وعليكم، وحَكَمًا بيني وبينكم، وهو الغفور لمن تاب من الشرك وآمن برسالتي وصدق بالقرآن، الرحيم بعباده المؤمنين.

[٩] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين: ما أنا بأول رسولٍ يُبعَث في قومه، فقد بعث الله قبلي كثيرًا من الرسل لأقوامهم، وأنزل عليهم الكتب، فَلِمَ تستغربون دعوتي وتستنكرون رسالتي؟! وما أنا إلا بشرٌ مثلكم، لا أعلم الغيب، ولا أعلم ما يكون في المستقبل، ولا أدري ماذا سيُفعل بي ولا بكم، ما إنا إلا رسولٌ من عند الله أتبع ما يوحيه الله إليَّ، ولا آتي بشيء من عندي، وليس عليَّ حسابكم، فما عليَّ إلا البلاغ والنذارة.

[١٠] ومرة أخرىٰ يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين: أخبروني لو كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به، ثم شهد بعض علماء بني إسرائيل كعبدالله بن سلام أنه حق، وأنه يحمل من التوحيد والتحذير كما في الكتب التي أنزلت علىٰ موسىٰ وغيره من الأنبياء، ثم إنه بعد القناعة آمن بهذا القرآن وعمل بما جاء فيه، أما أنتم فجحدتم ذلك استكبارًا وعلوًّا، أليس هذا من أعظم الظلم وأشد الكفر؟ واعلموا أن الله لا يوفِّق القوم الذين ظلموا أنفسهم بالاستكبار عن الحق بعد معرفته.

[١١] وقال الجاحدون لنبوة محمد ﷺ من رؤساء قريش: لو كان الإيمان بهذا القرآن وهذا الدين خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء، قالوا ذلك استكبارًا بأنهم هم العظماء الأغنياء، وأما أصحاب محمد ﷺ فهم الضعفاء الفقراء؛ وحيث إنهم لم يهتدوا بالقرآن استكبارًا، ولم ينتفعوا بما فيه من الحق؛ ذمُّوه وطعنوا فيه، وقالوا: إن هذا القرآن كذب، وما هو إلا أساطير الأولين.

[١٢] يخبر جل وعلا أنه قبل نزول هذا القرآن، أنزل التوراة علىٰ موسىٰ عليه السلام فيها الهدىٰ والنور؛ يقتدي بها بنو إسرائيل، ثم جاء هذا القرآن مصدِّقًا للتوراة ولما قبله من الكتب المنزلة من عند الله، وموافقًا لها؛ وأنزله بلسان عربي، لينذر به النبيُّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم الذينَ ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، ويبشر به المحسنين عبادةَ ربهم، والمحسنين إلىٰ عباد الله بالفوز والنجاة والفلاح في الدارين، نسأل الله الكريم من فضله العظيم.

[١٣] واعلموا أيها الناس أن الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا علىٰ دينه وشرعه، أي: أنهم جمعوا بين التوحيد الخالص والأعمال الصالحة واستمروا عليها؛ فهؤلاء لا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله، ولا هم يحزنون علىٰ ما خلَّفوا وراءهم بعد مماتهم من حظوظ الدنيا.

وهذا فيه ثناء علىٰ المؤمنين المخلصين الذين نبذوا الكفر والتعلق بما عليه الأسلاف الضالون.

[١٤] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الذين آمنوا بالله ثم استقاموا علىٰ دينه وشرعه هم أصحاب الجنة ماكثين فيها أبد الآبدين؛ برحمة الله تعالىٰ لهم، وبما قدَّموا من أعمال صالحة في الدنيا.

وقد قارن الشيخ محمد خير حجازي – مدرس التفسير بالحرم المكي – بين هذه الآية وبين قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[فصلت:٣٠]، أي: أن الملائكة تبشرهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقال: إن آية الأحقاف أبلغ في البشارة من آية فصلت؛ لأن الله جل وعلا هو الذي بشر في آية الأحقاف، أما في آية فصلت فالملائكة هي التي بشرت.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ
عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ
إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ
عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ
ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ
لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن
قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ
مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ
فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ
﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ
ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

[١٥] يأمر جل وعلا الإنسان بالإحسان إلىٰ والديه وأن يقدم إليهما كل ما يؤدِّي إلىٰ برهما وإكرامهما، فقد حملته أمه وعانت في حمله وفي ولادته، وكانت مدة حمله وفطامه ثلاثين شهرًا؛ وفي ذكر هذه المشاق دليل علىٰ أن حق الأم أعظم من حق الأب، فإذا بلغ هذا الإنسان تمام اكتمال قوته وعقله وبلغ أربعين سنة قال: ربِّ ألهمني وأعني أن أشكر نعمتك التي أنعمتها علي وعلىٰ والديَّ، ووفقني للعمل الصالح الذي ترضاه، وأصلح لي في ذريتي؛ فإني تبت إليك توبة صادقة نصوحًا، وإني من المستسلمين لك والممتثلين لأمرك ونهيك.

وقد ذكرنا في آية سابقة شبيهة بهذه الآية أن الله كرر وصيته للأبناء بآبائهم في عشر مواضع تقريبًا، ولم يوصِ الآباء بأبنائهم إلا في تقسيم التركة في سورة النساء، وعلل ذلك أستاذنا في التفسير الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان فقال: لأن بر الأبناء بآبائهم تكلف وتطوع وليس مثل رعاية وعناية الآباء بأبنائهم الذي هو جبلة وطبيعة طبعوا عليها، ثم أضاف الشيخ: أن الآباء هم السبب في وجود الأبناء، وأن الله جلَّ في علاه هو مسببُ الأسباب، وهو الخالق سبحانه وتعالىٰ، وأن من ضيع وأهمل حق السبب جدير بأن يضيع ويهمل حق المسبب وهو الله تعالىٰ.

وقال: قوله: (كَرْهًا) بفتح الكاف كما في قراءة نافع وابن كثير، تعني: التعب والمعاناة والألم الذي تعانيه الأم، ولا تعني: أنه كرُه، أي: بغض، بخلاف قوله: (كُرْهًا)، بضم الكاف كما في قراءة عاصم وحمزة والكسائي، التي تعني: الأذىٰ والبغض الذي يمرُّ بها، وانظر قول الأب في آخر الآية: ﴿**وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾؛ فالوالد حريص علىٰ صلاح أولاده من قبل وجودهم؛ فهو الذي اختار لهم الأم، وهو الذي اهتم وبذل جهده وتفكيره بتنشئتهم تنشئة صالحة، وهذا يعني أنه لا يمكن برّه ومكافأته إلا لمن وفقه الله وأصلحه من ذريته.

[١٦] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الأبناء البررة الذين ذُكرت أوصافهم نتقبل منهم أحسنَ طاعاتهم وأعمالهم الصالحة، ونمحو ونتجاوز عن سيئاتهم، فلا نؤاخذهم بها، ولا نعاقبهم عليها، وهم في عداد أهل الجنة الفائزين، وهذا وعْدٌ صادقٌ من الله، كانوا يوعدون به في الدنيا، فاليوم يوَفّون ما وعدوا به، ومن أصدق من الله حديثًا.

[١٧] أما ذلك الابن العاق الفاجر الذي قال لوالديه – بعد أن دعواه إلىٰ توحيد الله والإيمان باليوم الآخر -: أفٍّ لكما، أي: تضجُّرًا منكما أتعدانني أن أُخرَجَ من قبري؟! وقد سبقت القرون الكثيرة من قبلي فماتوا ولم يُبعَث منهم أحد؛ فيستغيث الوالدان بالله لهداية هذا الابن، ويقولان له: ويحك، آمن أيها الولد بالبعث والنشور، فإن وعد الله بالبعث والنشور حقٌّ وصدقٌ، فيجيبهما قائلًا: ما هذا الكلام الذي تقولانه إلا من تخاريف الأولين، وأباطيلهم التي سطروها في كتبهم.

[١٨] ثم بين جل وعلا أن أولئك المعاندين المكذبين بالبعث وجَبَ عليهم العذاب، في عداد أمم مضت من قبلهم من الجن والإنس ساروا علىٰ طريقهم، واقتفوا أثرهم، إنهم كانوا – بشركهم وتكذيبهم – خاسرين لأنفسهم أعظم الخسارة.

[١٩] ثم بين جل وعلا أن لكل فريق من الفريقين – المؤمنين والكفار – منازل ومراتب عند الله يوم القيامة، حسْب عمل كلٍّ منهما، فللمؤمنين درجات النعيم، وللكافرين دركات الجحيم، وليوفيهم الله جزاء أعمالهم، وهم لا يُظلَمون بنقص حسنة، ولا بزيادة سيئة.

[٢٠] واذكروا أيها الناس يوم أن يُعرض الذين كفروا علىٰ نار جهنم ليدخلوها، يقال لهم – توبيخًا وتبكيتًا وتقريعًا -: أذهبتم طيِّباتكم باشتغالكم بملذاتكم في الحياة الدنيا الزائلة، واغتررتُم بلذَّاتها، ورضيتم بشهواتها، وقد جاء يوم الحساب الذي كنتم تكذبون به وتجحدونه؛ فاليوم تُجزَوْنَ عذابَ الذلِّ والخزي والعار والفضيحة؛ بسبب استكباركم علىٰ توحيد ربكم وطاعته، وبتجبّركم وطغيانكم في الأرض بغير الحق، وبِفِسْقكم وخروجكم عن طاعة ربكم.

۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾

[٢١] واذكر يانبي الله لقومك صبر ومعاناة نبي الله هودٍ عليه السلام الذي هو أخو عاد في النسب لا في الدين؛ لعلهم يعتبرون ويتعظون؛ حيث أنذر قومه أن تحل بهم عقوبة الله وهم في منازلهم الكائنة في الأحقاف بسبب شركهم وكفرهم وعنادهم، ثم أمره أن يخبر قومه أن جميع الأنبياء الذين جاءوا قبل هود وبعده قد أنذروا أقوامهم أن لا يشركوا مع الله شيئًا في عبادتهم له؛ وإني أحذركم كما حذروا أقوامهم أن لا تقعوا في الشرك؛ لأني أخاف عليكم عذابًا عظيمًا يوم القيامة.

والأحقاف تقع في الربع الخالي من جزيرة العرب بين نجران والبلاد العربية التي علىٰ ساحل البحر؛ اليمن وعمان والإمارات العربية، والأحقاف عبارة عن رمال يجعل الله الرياح تَجْمَعُهَا متعرجة كالجبال، وقوم هود هم الذين قال الله عنهم: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾[الفجر:٨]، أي: أنها أمه ذات حضارة فريدة بلغت مكانة لم يبلغ مثلها أحد من الأمم الماضية، ثم اغترُّوا بما هم عليه من العلو والرقي حتىٰ قالوا ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[فصلت:١٥].

[٢٢] فأجابه قومه قائلين: هل جئت إلينا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟! فأْتِنا بما تعدنا من العذاب العظيم إن كنت من الصادقين فيما تعدنا وتهددنا به.

[٢٣] فقال لهم هودٌ عليه السلام: إن العلمَ بوقت مجيء العذاب عندَ الله لا عندي، أَمَّا أنا فعليَّ إبلاغكم ما أُرسلتُ به إليكم من دعوتكم إلىٰ التوحيد، ونهيِكُم عن الشرك والتنديد، ولكني أراكم - بتكذيبكم وباستعجالكم العذاب - قومًا تجهلون ما ينفعكم في الدنيا والآخرة.

[٢٤] ثم أخبر جل وعلا بالنهاية التي كان عليها قوم هود بعد أن استعجلوا العذاب؛ حيث إن الله أرسل لهم سحابة سوداء فلما رأوها قالوا: هذا عارض يحمل لنا المطر النافع وهو متوجه إلىٰ أوديتنا؛ فقال لهم هود: هذا ليس مطرًا أو غيثًا كما ظننتم؛ بل هو العذاب الذي استعجلتموه، وهو عبارة عن ريح فيها عذاب مؤلم موجع.

[٢٥] ثم بين سبحانه أن هذه الريح تدمر كل شيء أتت عليه قابل للدمار بأمر الله، وكانت النتيجة أن استمرت الريح عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، وأصبحوا بعد ذلك لا يرىٰ إلا مساكنهم التي كانوا يسكنون بها، وهكذا تم استئصالهم؛ بل انطمست واندفنت في التراب حضارتهم وآثارهم، واعلموا أيها الناس أن مثل هذا العذاب هو جزاء المجرمين بسبب إجرامهم وطغيانهم ولعذاب الآخرة أشد لو كانوا يعلمون.

[٢٦] يخبر جل وعلا عن الحضارة التي وصلت إليها عاد وهو ينطبق علىٰ الحضارة التي وصل إليها الغرب وأمريكا الآن، ثم أخبر سبحانه أنه جعل لهم سمعًا يسمعون به، وأبصارًا يبصرون بها، وأفئدة يعقلون بها، أي: جعل عندهم القدرة الكاملة علىٰ الفهم والهدىٰ، ولكنهم غرتهم قوتهم وحضارتهم فلم يشغلوا عقولهم ليتوصلوا بهذه الآيات العظيمة التي وهبها الله لهم إلىٰ توحيد الله ومعرفة مراده من خلقه، ثم بين جل في علاه أن ما أصابهم من دمار كان بسبب جحودهم لآيات الله القرآنية والكونية، ولهذا نزل بهم عذاب الله الذي كانوا يستهزؤون به ويستعجلونه.

[٢٧] ثم خاطب جل وعلا أهل مكة مخوفًا لهم، فقال: ولقد أهلكنا ما حول دياركم من القرىٰ كعاد وثمود غيرهم، لما كذبوا رسلَهم، ولقد نوَّعْنا لهم الآيات الواضحات الدالات علىٰ وحدانية الله وكمال قدرته؛ لعلهم يرجعون عن كفرهم إلىٰ الإيمان بالله وتوحيده.

[٢٨] فلما جاءهم العذاب وحلَّ بهم الهلاك، هل نفعتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ويتقربون إليها؟! ؛ بل الحقيقة أنها غابت عنهم ولم تُجِبْهم أو تدفع عنهم، وكان سبب ضياعهم وهلاكهم إفكهم وافتراؤهم واتخاذهم هذه الآلهة - التي لا تضر ولا تنفع - أربابًا من دون الله، فهذه نهاية كذبهم وافترائهم، وعبادتهم غير الله.



وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَٰقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْـِۧيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

[٢٩] واذكر يانبي الله يوم أن بعثنا إليك طائفة من الجن يستمعون القرآن، عندما كنت تصلي وأنت عائدٌ من الطائف إلىٰ مكة، فلما حضروا وأنت واقف تصلي وتقرأ القرآن قال بعضهم لبعض: أنصتوا لكي نفهم هذا الحديث العجيب وهو القرآن، فلما فرغت من صلاتك، وقد أثر فيهم ما سمعوا من القرآن انصرفوا إلىٰ جماعاتهم منذرين ومحذرين لهم من عقاب الله إن لم يؤمنوا به. وهذه الآية تدل علىٰ أن النبي ﷺ رسول إلىٰ الإنس والجن، وأن الجن مثل الإنس لهم ثوابٌ وعقابٌ وتكليفٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾[الأنعام:١٣٢].

[٣٠] وهؤلاء الجن الذين سمعوا القرآن من النبي ﷺ؛ أسلموا وآمنوا وصدقوا به، ثم ذهبوا إلىٰ قومهم يدعونهم إلىٰ الإسلام وإلىٰ الإيمان، وقالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسىٰ، وهذا الكتاب مصدق لما قبله من الكتب التي أنزلها الله علىٰ رسله، ثم إن هذا الكتاب يهدي إلىٰ الدين الحق وإلىٰ الصراط المستقيم.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، قال عطاء: كانوا يهودًا، أي: أن هؤلاء النفر من الجن كانوا من اليهود، ولذلك لم يذكروا عيسىٰ عليه السلام؛ مع أنه هو الذي كان قبل الرسول ﷺ؛ لأن موسىٰ عليه السلام أرسل إلىٰ اليهود، لذلك فإنهم لا يعترفون بعيسىٰ عليه السلام كسائر اليهود.

[٣١] ثم استمروا في دعوة قومهم إلىٰ التوحيد قائلين: يا قومنا استجيبوا لرسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وصدقوا بما جاءكم به؛ فإن ذلك سببٌ لمغفرة ذنوبكم، ونجاتكم من العذاب الأليم الموجع.

[٣٢] واعلموا ياقومنا أن من لم يُجب رسول الله ﷺ، ولم يؤمن ويصدق بما جاء به؛ فإنه ليس له قدرةٌ علىٰ الهرب من الله، ولن يفوت الله أو يسبقه، وليس له من دون الله أنصار وأعوان يمنعون عنه عذاب الله وعقابه، ومن لا يجب داعي الله فهو في ضلالٍ بين واضح، وغوايةٍ ظاهرة.

[٣٣] ثم لام جل وعلا الكفار علىٰ إنكارهم للبعث؛ فقال: ألم يعلم هؤلاء الكفار أن الله الذي أنشأ السماوات والأرض علىٰ غير مثال سابق، ولم يعجز أو يتعب بخلقهن، ألم يعلموا أن الله قادر علىٰ إحياء الموتىٰ الذين خلقهم أوَّلًا؟ فكان الجواب من الله جل في علاه: بلىٰ، إنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٣٤] ثم كرر جل وعلا تذكير الناس بأحوال الكفار يوم القيامة؛ فقال: ويوم يُعرض الذين كفروا علىٰ نار جهنم ليدخلوها، يقال لهم - توبيخًا وتبكيتًا وتقريعًا -: أليس هذا العذاب بحقّ؟! فيجيبون معترفين بذنوبهم قائلين: بلىٰ وربنا إنه الحق، فيقال لهم: ذوقوا العذاب بسبب كفركم وجحودكم في الدنيا.

[٣٥] ثم ختم جل وعلا السورة بحث نبيه ﷺ علىٰ الصبر علىٰ ما يصيبه من أذىٰ أو سخرية من المعاندين الظالمين؛ حيث أمره أن يصبر كما صبر أولو العزم والثبات من الرسل وهم: نوح والخليل إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلىٰ الله عليهم جميعًا، وقد جمعهم أحد طلبة العلم في البيت التالي:

أولو العزم نوح والخليل ابن آزر ... وموسىٰ وعيسىٰ والحبيب محمد

ثم أمره سبحانه أن لا يستعجل العذاب لقومه لأنه آتيهم لا شك ولا ريب في ذلك، وعندما يرون هذا العذاب ويحل بهم عذاب جهنم في الآخرة فكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار من شدة ما يلقون من العذاب، واعلموا أن هذا القرآن الذي أنذركم به محمد ﷺ بلاغ كافٍ في وعظكم وإنذاركم، ثم ذكر سبحانه أن الهلاك والبوار والخسران علىٰ الخارجين عن طاعة الله وأمره.

....

....

....

سورة محمد

سورة محمد مدنيّة وآياتها ثمان وثلاثون آية، ولها اسم ثاني هو: سورة القتال أو الجهاد.

[١] بدأت السورة ببيان سوء عاقبة الكافرين، وحسن عاقبة المؤمنين؛ فأخبر سبحانه أن الذين رفضوا الدخول في الإسلام، وصدوا الناس عن دين الله، وهم كفار قريش ومن نحىٰ نحوهم؛ أحبط الله أعمالهم التي كانوا يفتخرون بها كإكرام الضيف وصلة الأرحام؛ ومع أنها أعمال حسنة إلا أنها مع كفرهم صارت أعمالًا حابطة ضائعة.

[٢] ثم أخبر سبحانه أن الذين صدَّقوا بالله، وعملوا الأعمال الصالحة، وشهدوا أن ما جاء به محمد ﷺ حق؛ فمن كانت هذه حالهم فقد كفَّر الله عنهم سيئاتهم التي عملوها، وأصلح حالهم؛ حيث أرشدهم إلىٰ أعمال الخير وصفّىٰ نياتهم ومقاصدهم.

[٣] ثم بين جل وعلا أن ذلك الضلال كان بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل الذي سوله لهم الشيطان فأشركوا بالله، وعملوا بمعاصيه، وأما هداية المؤمنين وتكفير سيئاتهم فكانت بسبب أنهم اتبعوا الحق من ربهم فآمنوا به ووحدوه، واتبعوا رسوله ﷺ، وعملوا الأعمال الصالحة التي يحبها الله ويرضاها، وبمثل هذا التبيين لحال المؤمنين والكافرين يُبيِّنُ الله للناس أمثالهم وأحوالهم بالخسران والنجاح؛ ليعتبروا ويسلكوا سبيل النجاح، ويبتعدوا عن طريق الضلال والخسران.

[٤] ثم أمر جل وعلا المؤمنين عند لقاء الكفار في ساحات المعركة أن يدعوهم إلىٰ الإسلام؛ فإن أبو إلا القتال فعليكم أن تضربوا أعناقهم، وأن تستمروا في ذلك حتىٰ إذا أهلكتموهم قتلًا فقيدوا وثاق الأسرىٰ منهم، وبعد ذلك ينظر في الأصلح إما الاسترقاق أو القتل أو الفدية، والنظر في هذا يكون لولي الأمر، وعليكم أن تستمروا في ذلك حتىٰ تنتهي الحرب، واعلموا أن ما تقدم ذكره من أحكام هو الحق الذي أمركم الله به، ولو يشاء الله لقضىٰ علىٰ الكفار من غير أن يطلب من المسلمين القتال والجهاد، ولكن أراد الله أن يعاقبهم بأيديكم فلذلك شرع لكم الجهاد، وليختبركم بهم وينصر بكم دينه وشرعه، ثم أخبر سبحانه بأن الذين قتلوا في سبيل الله لن يحبط الله ثواب أعمالهم.

[٥-٦] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الشهداء -بسبب طاعتهم- سيهديهم إلىٰ مرضاته وسلوك الطريق الموصلة إلىٰ الجنة، وسيُصلح الله لهم أحوالهم الدينية والدنيوية، وسيصلح لهم قلوبهم ونياتهم، ثم في الآخرة يدخلهم جنات النعيم التي لطالما اشتاقوا إليها، وقد عرفها الله لهم فوصفها لهم، فاشتاقوا إليها، وسارعوا العمل للفوز بها بالأعمال الموصلة إليها، ومن ذلك الجهاد في سبيل الله، وقد عرفهم الله أيضًا منازلهم في الجنة، فإذا دخلوها ذهبوا إلىٰ منازلهم مباشرة.

[٧] ثـم وعـد جل وعـلا عبـاده المؤمنيـن الذين صدقـوا الله ورسـوله ﷺ وعملوا بشـرعه إذا استبسـلوا وبذلوا الجهد ضد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾

خصمهـم في نصـرة ديـن الله؛ فإنـه سـبحانه سـوف ينصرهم ويؤيدهـم بغوث منـه، ويثبت أقدامهـم؛ لأن النصـر يكون مع الثبـات والصبر.

[٨] أما الذين كفروا بالله ورسوله ﷺ فهلاكًا وضعفًا وخسرانًا لهم، وأبطل الله ثواب أعمالهم.

[٩] ثم بين سـبحانه أن ذلك العقاب الواقع عليهم بسـبب أنهم كرهوا ما أنزل الله علـىٰ نبيه ﷺ من القرآن العظيـم، وأبغضوه؛ فأحبـط الله أعمالهـم وأبطلهـا؛ فلا ينتفعـون بهـا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية علىٰ أن من كره شيئًا مما أنزله الله فقد كفر.

[١٠] ثم وبخ جل وعلا كفار مكة، فقال: أفلم يسيروا في الأرض فينظروا بعين الاعتبـار إلىٰ مصائر ونهايات الأقـوام التي كذبت رسـلها من قبلهم؛ كعاد، وثمود وقوم لوط؟! فإن الله قد دمرهم وأهلكهم وقضىٰ عليهم بسـبب شـركهم، وتكذيبهم لأنبيائهم، وليعلـم هـؤلاء المعانـدون أن هـذه نهايـة كل من كفـر بالله، وكذَّب أنبياءَه.

[١١] واعلموا أيها الناس أن ذلك الذي حصل من نجاة المؤمنين وتكريمهم، وعذاب الكافرين وقهرهم؛ بسبب أن الله مولىٰ المؤمنين وناصرهم، وأن الكافرين بالله الجاحدين بآياته، ليس لهم من ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله وسخطه.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ١٦ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩

[١٢] ثم ذكر جل وعلا لطفه ورحمته بالمؤمنين؛ وبغضه للكافرين، فأخبر بأنه سوف يدخل الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ وعملوا الأعمال الصالحة جنات تجري من تحت اشجارها وقصورها الأنهار إكرامًا لهم، وأما الذين كفروا فإنهم يتمتعون في الدنيا أيامًا معدودات، ويأكلون ويرتعون بالملذات كما تأكل الأنعام، ونهاية المطاف أن ثوابهم وبقاءهم السرمدي هو نار جنهم التي ستكون مسكنًا لهم.

[١٣] ثم يسلي جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يحزن عمَّا أصابه من أذىٰ قومه له ومن إخراجه من بلده مكة التي يحبها وولد فيها وعاش فيها ثلاثة وخمسين عامًا؛ حيث أخبره أن كثيرًا من القرىٰ كانت أشد قوة ومنعة من قريتك التي أخرجتك ومع ذلك أهلكناها بسبب كفر أهلها وعنادهم، ولم يجدوا لهم ناصرًا أو معينًا ينصرهم أو يبعد العذاب عنهم.

[١٤] ثم ذكر جل وعلا أنه لا مقارنه ولا مساواة بين من يسير في عمله وحياته علىٰ هدىٰ وبرهان من الله وبصيرة من أمره، وبين من حسَّن له الشيطان سوء عمله الباطل واتبع هواه فَضَلَّ وَأَضَلَّ غيره، لا شك أنهما لا يستويان أبدًا.

[١٥] واعلموا أن صفة الجنة التي وعدها الله للمتقين: فيها أنهار من ماء طيب لا يتغير من طول المكث، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر في غاية اللذة لمن يشربها، وأنهار من عسل قد صُفِّي من كل الشوائب، وفيها أيضًا من جميع الثمرات من مختلف الفواكه وغيرها، وأعظم من ذلك رضوان الله عليهم ومغفرة ذنوبهم وتجاوزه عنها؛ بل وإبدالها بحسنات كرمًا منه سبحانه وإحسانًا، فهل يكون أهل الجنة مثل أهل النار الماكثين فيها لا يخرجون منها أبدًا، ويسقون من ماء يكون في أشد درجات الحرارة فيقطع أمعاءهم؟ ثم يعاد إصلاحها ليستمر عقابهم.

[١٦] واعلم يانبي الله أن من هؤلاء المنافقين من يستمع إليك بأذنه دون أن يعي قلبه من كلامك شيئًا، حتىٰ إذا خرجوا من مجلسك قالوا لأهل العلم الذين حضروا مجلسك علىٰ سبيل السخرية والتهكم: ماذا كان يقول محمد قبل قليل؟ فاعلم أن أولئك هم المنافقون الذين ختم الله علىٰ قلوبهم؛ فلا تفقه الحق ولا تهتدي إليه، واتبعوا أهواءهم في الكفر والضلال.

[١٧] ثم بين جل في علاه أن المؤمنين الذين اهتدوا لاتباع الحق واستجابوا له فقد زادهم الله نورًا وبصيرة، ووفقهم للتقوىٰ ويسرها لهم.

[١٨] ثم قال جل وعلا لهؤلاء المنافقين علىٰ سبيل التوبيخ: هل تنتظرون الساعة أن تقوم عليكم فجأةً، وأنتم لا تشعرون بها؟! فقد جاءتكم علاماتها الدالة علىٰ قربها - ومع ذلك لم تنتفعوا، ولم تؤمنوا -، فمن أين لكم التذكّر الذي ينفعكم إذا جاءتكم الساعة؟! ومعلومٌ أنه عند قيام الساعة لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا، ولا تُقبل من أحد توبةٌ أبدًا.

[١٩] فإذا تبين لك يانبي الله ما أخبرناك به عن حال السعداء وحال الأشقياء؛ فاعلم أنه لا معبود بحق إلا الله، واطلب من ربك المغفرة لذنبك، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات؛ لأن ذلك من حق المسلم علىٰ المسلم، واعلموا أن الله جل في علاه يعلم كل تصرفاتكم التي تقع منكم ليلًا أو نهارًا.

وقوله: ﴿ فَٱعۡلَمۡ ﴾، لا شك أن الرسول ﷺ يعلم ذلك، ولكن المقصود هو أن يبلغ أمته.

وهذه الآية فيها حث وإلزام للمسلمين بتعلم ما لا يتم إسلام المؤمن إلا بتعلمه والقيام به من الأعمال الصالحة والواجبات كالزكاة والصيام والحج والصلاة وغير ذلك، وقد ذكر شيخ الحديث البخاري رحمه الله هذه الآية في صحيحه، فقال: باب: العلم قبل القول والعمل، ثم ذكر نص الآية: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾

[٢٠-٢١] ذكر جل وعلا أن المؤمنين الذين آمنوا بالله وصدَّقوا رسوله ﷺ يتمنون أن يؤمروا بقتال الأعداء، ولذا تجدهم يقولون: هلا نُزِّلت يارسول الله سورة جديدة من القرآن تأمرنا بجهاد الكفار، أما المنافقون فلهم موقف آخر لن تجد مثل وصف الله له في هذه الآية؛ فإنهم إذا أُنزلت سورة فيها ذكر الجهاد رأيت الذين في قلوبهم شك في دين الله ونفاق ينظرون إليك أيها النبي نَظَرَ ذلك الذي شَخَصَ بَصَرُهُ عند الموت لفزعهم الشديد، وخوفهم من القتال، وكان الأولىٰ والأليق بهم أن يطيعوك، وأن يجيبوك بجوابٍ حسن، فإذا جدَّ الجدّ، وحضر القتال، فلو صدقوا الله في جهادهم وقتالهم الكفار؛ لكان خيرًا لهم في دنياهم وأُخْراهم.

[٢٢] ثم وجه جل وعلا الخطاب للكفار علىٰ سبيل الزجر لهم، فقال: هل عسيتم إن أعرضتم عن أمر الله، وتركتموه ولم تقوموا به؛ أن تعيثوا في الأرض الفساد، بالشرك، والظلم، وسفك الدماء، وتقطيع الأرحام.

[٢٣] ثم بين سبحانه أن أولئك الذين يفسدون في الأرض ويقطعون الأرحام قد أبعدهم الله، وطردهم من رحمته؛ فعاقبهم بأن جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم، ولا يبصرون الخير والمعروف.

[٢٤] ثم أمر جل وعلا بتدبر القرآن وتفهمه، ونهىٰ عن الإعراض عنه، فقال: هلَّا يتدبر هؤلاء آيات القرآن، ويُعملون عقولهم وأفكارهم فيها؟! فيتعظون بالمواعظ، وينزجرون بالزواجر!! ويعرفون الحق من الباطل؟! بل هؤلاء علىٰ قلوبهم أقفال فهم لا يفهمون ولا يعقلون.

[٢٥] واعلموا أن الذين ارتدوا علىٰ أدبارهم ورجعوا كفَّارًا بعد إسلامهم – من بعد ما تبين لهم الدين الحق –؛ أولئك حسَّن وزيَّن لهم الشيطان ردَّتهم وانتكاستهم، ومدَّ لهم في آمالهم ووعدهم بطول العمر، وهؤلاء الذين ارتدوا لن يضروا الله شيئًا وسيحبط سبحانه أعمالهم.

[٢٦] ثم بين جل وعلا سبب ردتهم أنهم قالوا للذين كرهوا القرآن والإسلام – من المشركين أو اليهود –: سنطيعكم ونتعاون معكم في عداوة الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ومخالفة ما جاء به، والله جل في علاه مطَّلعٌ عليهم، ويعلم سرَّهم ونجواهم، ويعلم ما تآمروا به سرًّا مع أعدائه؛ فلذلك فضحهم، وبيَّن أمرهم لعباده المؤمنين لئلَّا يغترُّوا بهم.

[٢٧] ثم أخبر جل وعلا عن حالة هؤلاء الكفار الشنيعة حين تتوفاهم الملائكة عند انتهاء آجالهم، وهم يضربون وجوههم وأدبارهم بمقامع من حديد؟!!

[٢٨] ثم بين سبحانه أن ذلك العذاب الذي أصابهم، والنكال الذي حلَّ بهم؛ بسبب أنهم اتبعوا وعملوا ما يكرهه الله ويأباه من الأقوال والأعمال، وتركوا وكرهوا ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال – ومنها الجهاد في سبيله، ومقاتلة أعدائه –؛ فأحبط الله أعمالهم، وأبطل ثوابها.

[٢٩] ثـم هدد جـل وعلا هؤلاء المنافقين بكشـف أسـتارهم وفضح أسـرارهم، فقال: هل يظن هؤلاء الذين في قلوبهم عداوة وحقد للإسـلام والمسـلمين أن لن يبرز الله ما في قلوبهم ويطلع الرسول ﷺ والمسلمين عليه.

وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

[٣٠] بين جل وعلا بعض مظاهر قدرته فقال: ولو نشاء يانبي الله لأريناك أشخاصهم، وعرَّفناكهم بأعيانهم، ولتعرفنهم بعلامتهم الخاصة التي يتميزون بها وتظهر في وجوههم، ولتعرفنهم في مقاصد كلامهم وفلتات ألسنتهم، وما يفهم من فحوىٰ كلامهم، والله يعلم أعمالكم لا يخفىٰ عليه شيء منها، وسيجازيكم ويحاسبكم عليها.

[٣١] ثم بين جل وعلا سنة من سننه في خلقه، فقال، ولنختبرنَّكم أيها المؤمنون بالقتال والجهاد لأعداء الله حتىٰ نبين لكم المجاهدين الصادقين الصابرين منكم، وغير الصادقين والصابرين، ونظهر أخباركم لكي يظهر الصادق منكم من الكاذب.

[٣٢] واعلموا أن هؤلاء الذين جحدوا دين الله وصدوا الناس عن الإيمان به، وعادوا الرسول ﷺ من بعد ما تبين لهم الحق، وثبت لهم أن الرسول ﷺ صادق؛ هؤلاء لن يضروا الله شيئًا بسبب كفرهم وضلالهم، وسوف يبطل سبحانه أعمالهم التي عملوها في الدنيا، كإطعام الطعام وصلة الأرحام؛ لأن الله لا يقبل عملًا من نفس كافرة.

[٣٣] ياأيها الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وصدَّقوا رسوله ﷺ، داوموا علىٰ طاعة الله ورسوله ﷺ في فعل الأوامر، واجتناب النواهي، ولا تُفسِدوا أعمالكم، وتُذهِبوا أجرها بالرياء والشرك والمعاصي.

[٣٤] واعلموا أن الذين كفروا بالله وجحدوا آياته وكذبوا رسوله ﷺ، وصدُّوا غيرهم عن الإيمان بالله وتوحيده؛ ثم لم يتوبوا من ذلك، ولم يسلموا، وماتوا وهم كفار؛ فأولئك لن يغفر الله لهم ذنوبهم، وقد حرَّم الله عليهم الجنة، ومأواهم النار خالدين فيها أبدًا.

[٣٥] وإذا كان الله جل وعلا لن يغفر للكافرين فلا تضعفوا أيها المؤمنون عن قتالهم، ولا تخافوا وتجبنوا، ولا تدعوهم للسلم والمصالحة – طلبًا للراحة والدَّعَة –، وأنتم الغالبون القاهرون العالون علىٰ أعدائكم، والله جل في علاه معكم ينصركم ويؤيدكم ويثبتكم، وسيجازيكم علىٰ جهادكم وصبركم، وصالح أعمالكم، ولن ينقصكم شيئًا من أجوركم.

[٣٦] واعلموا أنما حقيقة الحياة الدنيا: لعبٌ ولهوٌ وغرورٌ، لا ثبات لها ولا اعتداد بها، وإن تؤمنوا بالله ورسوله ﷺ وبما جاء به، وتجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بتوحيده وفعل ما يحبه الله ويرضاه، وترك ما يكرهه الله ويأباه؛ يُعْطِكُمُ الله أجركم وثوابكم في الآخرة، ولا يريد الله أن يكلّفكم ما يشق عليكم من أخذ جميع أموالكم أو معظمها أَخْذًا يضرُّ بكم، إنما يأمركم بإخراج القليل منها في الزكاة الواجبة عليكم – إذا بلغت أموالكم النِّصاب –.

[٣٧] ثم بين جل وعلا جانبًا من حكمته في تشريعاته؛ فأخبر بأنه لو طلب منكم إنفاق جميع أموالكم وألح عليكم في ذلك؛ فإنكم حينها سوف تبخلوا وتمتنعوا عن الاستجابة، وتظهر حينها الأضغان والأحقاد.

[٣٨] ثم ختم جل وعلا السورة بالحث علىٰ الإنفاق والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، فقال سبحانه: هاأنتم أيها المؤمنون تدعون إلىٰ النفقة في جهاد أعداء الله ونصرة دينه، فمنكم أيها الناس مَن يَبْخَلُ بالنفقة في سبيل الله، ومَن يَبْخَلْ فإنما يبخل عن نفسه؛ لأن ما تقدمه يكون رصيدًا لك في الآخرة، واعلموا أن الله تعالىٰ هو الغنيُّ عنكم وأنتم الفقراء إليه لحاجتكم إلىٰ عونه وتوفيقه، وإن تعرضوا عن الإيمان بالله وامتثال أمره؛ فإنه سوف يهلككم ويخلق بدلكم قومًا آخرين ثم لا يكونوا أمثالكم في الإعراض والبعد عن الخير؛ بل يطيعونه ويطيعون رسوله ﷺ، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم.

وكما بدأت السورة بالجهاد بالنفس والإثخان في الكفار حتىٰ تكون كلمة الله هي العليا، ويعم الإسلام البلاد؛ خُتِمت بالجهاد بالمال والبذل للمجاهدين ليتوفر العتاد والسلاح والأكل والشرب والمراكب؛ فالمال هو السند الثاني للمجاهدين بعد تأييد الله وتوفيقه.

....

....

سورة الفتح

سورة الفتح مدنيّة وآياتها تسع وعشرون آية.

هذه السورة تتحدث عن فتح أعظم من فتح بلد أو فتح عاصمة، وذلك أن رسول الله ﷺ وصحابته ذهبوا إلىٰ مكة لأخذ عمرة؛ فلما وصلوا الحديبية منعهم أهل مكة، ثم ذهب عثمان بن عفان بأمر من رسول الله ﷺ ليشرح لهم هدف رسول الله، وأنه لم يأت إلا لأخذ عمرة وسيعود؛ فتأخر عثمان عن العودة إلىٰ رسول الله ﷺ وشاع الخبر أنه قتل؛ فأحزن الخبر الجميع، ثم قرروا الهجوم فبايعوا الرسول ﷺ علىٰ القتال حتىٰ الموت.

ثم جاء عثمان ومعه وفد من قريش يطلبون من الرسول ﷺ أن يرجع، وبعد مفاوضات ومناقشات اتفقوا علىٰ الصلح علىٰ أن يعود الرسول ﷺ وأصحابه، ويأخذوا العمرة في السنة القادمة.

ولما عاد الرسول ﷺ نزلت هذه السورة؛ فقال المسلمون أي فتح هذا؟ فأخبرهم ﷺ أنه فتح حقيقي؛ لأن الله قال ذلك؛ فلما رجعوا إلىٰ المدينة انتشر الخبر فجاءت القبائل من كل أجزاء الجزيرة يعلنون إسلامهم؛ فعلم الصحابة أنه فتح كبير عظيم؛ لأن الذين دخلوا في الإسلام في ثلاث سنوات أكثر من الذين دخلوا الإسلام خلال السنوات التي قبل المعاهدة بثلاثة أضعاف بل أكثر؛ لأنه بعدها يسر الله فتح خيبر، ثم سائر مدن الجزيرة العربية بما في ذلك مكة والطائف.

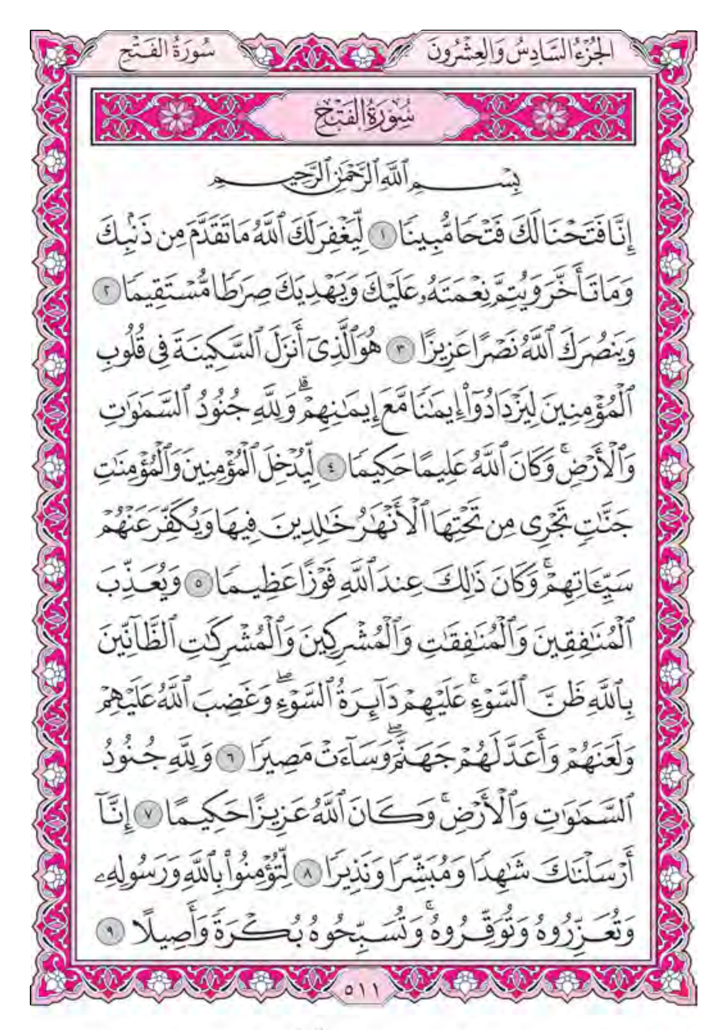
[١] بدأت السورة بتبشير النبي ﷺ أن الله جل وعلا فتح له فتحًا بينًا ظاهرًا فارقًا بين الحق والباطل، وهو الصلح الذي تم في الحديبية وما حصل بعده من دخول الناس في دين الله أفواجًا.

[٢] واعلم يانبي الله أن هذا الجهد والكفاح والصبر وما تحملته في هذا الفتح يسره الله لك؛ ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك بإظهار دينك، ويرشدك طريقًا مستقيمًا لا عوج فيه ولا انحراف.

[٣] وكذلك مقابل هذا الجهد وهذا الصبر يانبي الله لينصرك جل في علاه علىٰ أعدائك نصرًا قويًا تامًّا منيعًا لا يتبعه ذلٌّ، ولا يدفعه دافع.

[٤] واعلموا أن الله جلَّ وعلا بمنِّه وكرمِهِ هو الذي أنزل السكينة والطمأنينة والرضا علىٰ قلوب عباده المؤمنين لئلَّا تضطرب نفوسهم، وتنزعج من جراء الصلح، ليزيدهم الله بتلك السكينة والطمأنينة إيمانًا يُضاف إلىٰ إيمانهم السابق، ثم بين سبحانه أن له جنود السماوات والأرض، وكان الله عليمًا بخلقه، لا يخفىٰ عليه من أمورهم شيء، حكيمًا في تدبيره لأوليائه.

[٥] ثم بين جل وعلا أنه أنزل السكينة علىٰ قلوب المؤمنين وأنه جعل جنود السماوات والأرض تحت سيطرته وملكه؛ ليدخل سبحانه عباده المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري الأنهار من تحت أشجارها وقصورها، ماكثين فيها لا يخرجون منها ابدًا، ولا يتحولون ولا يزولون عنها، وليكفر عنهم سيئاتهم، ويمحو عنهم ذنوبهم وخطيئاتهم، وكان ذلك – أي: دخول الجنات، وتكفير السيئات – عند الله فوزًا عظيمًا.



سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ④ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ⑥ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ⑦ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ⑧ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑨

[٦] ثم بين سبحانه أنه سوف يُعذِّبُ المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات الذين أرادوا خذلان المؤمنين وهزيمَتَهُم، والذين ظنوا بالله ظن السوء أنه لا ينصر دينَه، ولا يُعْلي كلمته، وأنه يديلُ أهل الباطل علىٰ أهل الحق إدالةً دائمة، وقالوا: غر هؤلاء دينهم؛ فهؤلاء يرجعُ عليهم ظنهم؛ فينالهم الذل والهوان والخزي، وغضب الله عليهم، وطردهم وأبعدهم من رحمته، وهيَّأ لهم جهنم ليسكنوها ويقيموا فيها، وساءت لهم مسكنًا، وساءت إقامتهم فيها، وساءت لهم منزلًا يصيرون إليه.

[٧] واعلموا أن لله جنود السماوات والأرض، وما يعلم جنود ربك إلا هو؛ فينصر عباده المؤمنين بما شاء من جُندِه، وكان الله عزيزًا قويًّا غالبًا قاهرًا لكل شيء، حكيمًا في خلقه وتدبيره لأوليائه.

[٨] واعلم يانبي الله أن الله جل وعلا قد أرسلك شاهدًا علىٰ أمتك فتشهد بإيمان من آمن، وبكفر من عاند وكفر وحارب دعوتك، ومبشرًا للطائعين الصالحين بالجنة والثواب الكبير من الله لهم، ونذيرًا لأهل المعصية بالنار والعذاب الأليم.

[٩] وكما أرسلك الله يانبي الله شاهدًا علىٰ أمتك ومبشرًا ونذيرًا لهم؛ فكذلك أرسلك سبحانه لدعوة الناس إلىٰ التوحيد وتعليمهم أمور دينهم؛ ليؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، وينصروا دين الله، ويعظموا رسوله ﷺ ويجلوه ويقوموا بحقوقه؛ حيث اتصف بالكمال، وينزهوا الله عن الشريك وعن كل نقص أول النهار وآخره، ويستمروا في تسبيح الله وتنزيهه عما لا يليق بعظمته.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

[١٠] واعلم يانبي الله أن الذين يبايعونك علىٰ الموت في سبيل الله مقابل ثواب الله بالجنة المعدة للشهداء في سبيله؛ إنما يبايعون ويعاهدون الله طاعة له جل في علاه وامتثالًا لأمره، والمقصود بهذه البيعة هي بيعة الرضوان التي تمت في الحديبية تحت الشجرة، وسميت هذه المعاهدة مبايعة لأنها تمت بصفقة اليد، ثم بين سبحانه بأن من ينقض هذه البيعة بعد توثيقها فإنما عاقبة نقضه تعود عليه، أما من ثبت علىٰ الوفاء بما عاهد الله عليه وصبر عند لقاء العدو؛ فسوف يعطيه سبحانه من فضله أجرًا عظيمًا وهو جنة عرضها كعرض السماوات والأرض. وفي هذه الآية إثبات صفة اليد لله عز وجل بما يليق به سبحانه من غير تشبيه ولا تكييف.

[١١] يخبر جل وعلا نبيه ﷺ بما سوف يعتذر به الذين تخلفوا من الأعراب عن الخروج معك إلىٰ مكة من الأعذار الكاذبة؛ حيث إنهم سيقولون لك: لم نتخلف عنك باختيارنا إنما شغلتنا أموالنا وأهلونا؛ ثم طلبوا منه ﷺ أن يستغفر لهم الله علىٰ هذا الذنب، ثم بين سبحانه بأنهم يقولون ذلك تقية ونفاقًا، ولا حقيقة له في قلوبهم، فقل لهم يانبي الله: فمن يملك لكم من الله شيئًا إن أراد بكم شرًّا أو أراد بكم خيرًا؟، واعلموا أن الله عليم بسرائركم وضمائركم، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمال خلقه.

والأعراب هم سكان البادية الرُّحَّل الذين يتبعون أماكن العشب والمطر، أما العرب فهم سكان المدن المقيمون، وقد كان حول المدينة أعراب من غفار ومزينه وأسلم وآخرين، فلما خرج رسول الله ﷺ إلىٰ العمرة طلب من الناس الذهاب معه تخوفًا من قريش أن يحاربوه، وهؤلاء الأعراب ظنُّوا ظنًّا سيئًا بأن قريشًا سوف يقضون علىٰ محمد ﷺ وأصحابه، ولذلك تعذروا بهذه الأعذار الكاذبة التي فضحها الله تعالىٰ.

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أن الأمر ليس كما زعمتم وبينتم في اعتذاركم من انشغالكم بالأموال والأولاد أيها المنافقون، ولكن حقيقة الأمر: أنكم ظننتم ظنًّا سيئًا؛ حيث ظننتم أن العدوّ سوف يستأصل رسولَ الله ومن معه من المؤمنين، فلا يرجع إليكم منهم أحدٌ أبدًا، وحسَّن الشيطان ذلك الظن وزيَّنه في قلوبكم حتىٰ استحكم فيها، وكنتم قوْمًا هالكين فاسدين لا خير فيكم.

[١٣] واعلموا أيها الناس أن من لم يؤمن بالله واليوم والآخر، ويصدق رسولَه ﷺ فيما جاء به؛ فهو كافرٌ مستحقٌّ لعذاب الله في نار شديدة الاستعار واللهب.

[١٤] واعلموا أيضًا أن الله هو وحده المتفرِّد بملك السماوات والأرض، وما فيهن وما بينهما، يحكم فيهما بما يريد، فيغفر لمن وحَّده وآمن به – بكرمه وفضله –، ويعذِّب من كفر به وعصاه – بحكمته وعدْلِه –، وهو سبحانه كثير المغفرة لعباده المذنبين التائبين، كثير الرحمة بعباده المستغفرين المنيبين.

[١٥] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ بما سوف يقوله أولئك الذين تخلفوا من الأعراب عن الخروج معك؛ بعد أن خاب ظنهم فرجعتم سالمين من مكة؛ حيث إنهم سيقولون لك: إذا انطلقت يامحمد أنت وأصحابك إلىٰ غنائم خيبر التي وعدكم الله بها دعونا نذهب معكم لنشارككم في جمعها، وقصدهم بذلك أن يغيروا وعد الله لكم أن غنائم خيبر هي لمن شهد الحديبية؛ فقل لهم يانبي الله: لن تخرجوا معنا لأن الله جل في علاه أخبرنا بأن غنائم خيبر هي لمن شهد الحديبية، وهذا عقاب لكم علىٰ معصيتكم برفضكم الخروج معنا لمكة، وعلىٰ سوء ظنكم بنا، وعندئذٍ سوف يردون عليكم قائلين: إن الله لم يأمركم بمنعنا من الخروج معكم؛ بل أنتم الذين تمنعوننا حسدًا منكم أن نشارككم في هذه الغنائم، واعلم يانبي الله أن الأمر ليس كما زعموا؛ بل إنهم كانوا قومًا دأبهم الجهل والحمق، ولا يفقهون من أمور الدين إلا الشيء اليسير.

وما ذكر في هذه الآية لا ينطبق علىٰ جميع الأعراب؛ فقد استثنىٰ الله منهم خلقًا؛ فبعد أن قال تعالىٰ: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾[التوبة:٩٧]، قال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ... ﴾ الآية، [التوبة:٩٩]، فالله جل وعلا لا يظلم مثقال ذرة، ويكرم أهل الفضل، ويشيد بمواقفهم.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

[١٦] وقل يانبي الله للذين تخلفوا عن الجهاد والقتال من هؤلاء الأعراب: ستُدعوْن - فيما بعد - إلىٰ قتال قوم أصحاب قوة وشدة في الحرب، فتقاتلونهم، فإما أن يسلموا، وإما أن يغلبوا أو يؤسروا ويُبادوا، فإن تطيعوا وتجيبوا من دعاكم لهذا القتال يؤتكم الله أجرًا حسنًا في الدنيا بالمغنم وفي الآخرة بدخول الجنة والنعيم المقيم، وإن تُعرضوا وتتولوا كما توليتم من قبل في غزوة الحديبية؛ فسيعذبكم الله عذابًا أليمًا في الدنيا بالخزي والقتل والأسر، وفي الآخرة بعذاب النار، وبئس القرار.

[١٧] ثم ذكر جل وعلا أهل الأعذار، وبين أنه ليس عليهم إثم في التخلف عن الجهاد، وأما الإيمان والأعمال الصالحة التي يقدرون عليها فهم مثل غيرهم، وذكر سبحانه من أهل الأعذار: الأعمىٰ والأعرج والمريض، ثم بين سبحانه أن من يطع الله ورسوله ﷺ في امتثال أمرهما واجتناب نهيهما؛ فإنه يدخله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، وأما من يتولىٰ عن طاعة الله ورسوله ﷺ ويقع في الذنوب والمعاصي ومن ذلك التخلف عن الجهاد في سبيل الله، فإن الله سبحانه يعذبه عذابًا موجعًا ومؤلمًا لا يعلم قدره إلا الله عز وجل.

[١٨] يخبر جل وعلا أنه رضي عن المؤمنين حين بايعوا الرسول ﷺ علىٰ الجهاد والموت في سبيل الله وهم تحت الشجرة في الحديبية، وهذه البيعة سميت بيعة الرضوان؛ ثم بين جل في علاه سبب رضاه عنهم أنه علم ما في قلوبهم من الصدق والإيمان والإخلاص؛ فأنزل سبحانه الطمأنينة عليهم وثبت أقدامهم، وعوضهم فتحًا قريبًا وهو فتح خيبر الذي تم بعد صلح الحديبية؛ جزاءً لهم عمَّا فاتهم بصلح الحديبية.

[١٩] وأخبر سبحانه أنه رزقهم مغانم حصلوا عليها من أموال يهود خيبر، وكان جل في علاه عزيزًا في انتقامه، حكيمًا في تدبير أمور خلقه.

[٢٠] واعلموا أن الله جل وعلا وعدكم أيها المؤمنون مغانم كثيرة تأخذونها بالفتوحات الكثيرة التي تتم علىٰ أيديكم في مستقبل الأيام، ومن فضله عليكم أن عجَّل لكم غنائم خيبر بدون جهد ولا قتال، وذلك بإلقاء الرعب في قلوب اليهود؛ حيث فتحوا حصونهم واستسلموا، ومن فضله أنه كفَّ أيدي الناس عنكم فلم ينلكم سوء من حلفاء يهود خيبر الذين جاءوا لنصرتهم؛ حيث قذف الله الرعب والخوف في قلوبهم فرجعوا علىٰ أدبارهم خائبين، واعلموا أن ما فضل الله به عليكم من التعجيل وكف الأيدي ليكون ذلك علامة تستدلون بها علىٰ صدق نبيكم ﷺ، وأن الله حافظكم وناصركم ومرشدكم طريقًا واضحًا بينًا لا اعوجاج فيه.

[٢١] ثم بين جل وعلا أنه وعدكم غنائمَ أخرىٰ، ولكن لم تقدروا عليها في الحال، وهو فتح مكة؛ حيث فتحها الله لكم فيما بعد، ومن فضله سبحانه أنه حرسها لكم لحين أَخْذِكُمْ إياها، وكان الله علىٰ كل شيء قديرًا، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٢٢] واعلموا أيها المؤمنون أنه لو قاتلكم الذين كفروا من أهل مكة لانهزموا أمامكم، ولم يثبتوا في المعركة، ثم يولوكم ظهورهم، وحينها لا يجدون معينًا يعينهم علىٰ قتالكم، ولا ناصرًا ينصرهم عليكم، ويمنعهم منكم.

[٢٣] واعلموا أن هذه هي سنة الله التي مضت في الأمم السابقة أن الله ينصر عباده المؤمنين إذا التزموا ونفذوا أوامره، وأنه يخذل الكافرين، وهي سنة ثابتة باقيةٌ، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تغييرًا.

وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

[٢٤] واعلموا أن الله جل في علاه هو الذي منَّ عليكم بأنْ كفَّ أيدي مشركي مكة عنكم فلم يقاتلوكم، وكف أيديكم عنهم فلم تقاتلوهم، من بعد ما تمكنتم منهم، وقدرتم عليهم بلا عهد ولا عقد، وقد كانوا نحو ثمانين رجلًا مسلحين جاءوا من قبل التنعيم يريدون الهجوم علىٰ المسلمين، ثم بين سبحانه أنه بما تعملون أيها الناس بصيرٌ، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم.

[٢٥] ثم بين سبحانه أن كفار مكة هم الذين جحدوا وحدانية الله، وكذّبوا رسولَه ﷺ، وصدوكم عن العمرة، والطواف بالبيت الحرام، ومنعوكم من ذبح الهدي المحبوس معكم في محله، -وهو مكة-، فعلوا كلّ ذلك ظلمًا وعدوانًا، ولولا وجود المستضعفين من المؤمنين والمؤمنات بين أظهر المشركين -لم تميزوهم وتعرفوهم- فكنا نخشىٰ أن تطؤوهم بجيشكم فتقتلوهم؛ فيصيبكم بذلك إثم وغرامة وكفّارةٌ، وعيبٌ أيضًا من المشركين بقولهم عنكم: إنكم تقتلون أهل دينكم؛ لولا ذلك؛ لأذن الله لكم في قتال أهل مكة، وسلَّطكم عليهم، وأعانكم علىٰ التغلب عليهم، ولكن لم يأذن الله لكم في قتالهم رحمةً بالمؤمنين المستضعفين في مكة، وليُدخل الله في رحمته من يشاء من عباده بأن يمنَّ عليهم بالإيمان بعد الكفر، ولو تميَّز الذين آمنوا من الذين كفروا، وخرجوا من بين أظهرهم؛ لعذَّبنا الذين كفروا من أهل مكة عذابًا أليمًا موجعًا بأن نسلطكم عليهم، ونأذن لكم في قتالهم، ونعينكم علىٰ التغلب عليهم.

[٢٦] وتذكروا أيها الناس يوم أن جعل الذين كفروا في قلوبهم أنفة الجاهلية الباعثة علىٰ الكبر وعدم قبول الحق؛ فرفضوا أن يكتبوا في ورقة الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم، ورفضوا أن يقروا برسالة محمد ﷺ، وأنفوا من دخول المسلمين في نفس السنة التي جاؤوا فيها، فأنزل الله الطمأنينة والرضا في قلوب المؤمنين، فالتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله ووافقوا علىٰ الصلح، وألزمهم الله كلمة التقوىٰ، وهي (لا إله إلا الله) وحقوقها، فالتزموها، وقاموا بها، وكانوا أحقَّ بهذه الكلمة من غيرهم من المشركين والكفار، وكانوا هم مستأهلينها دون غيرهم، وكان الله بكل شيء عليمًا، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

[٢٧] يخبر جل وعلا أنه سيحقق لرسوله ﷺ الرؤيا التي رآها في منامه؛ حيث رأىٰ ﷺ في المنام وهو في المدينة أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك؛ فاستبشر الصحابة وتيقنوا أن الرؤيا سوف تتحقق هذا العام؛ فلما وقع ما وقع في الحديبية من الصلح والهدنة ورجعوا علىٰ أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء؛ فبين لهم ﷺ أنه لم يخبرهم أنها ستتحقق في هذا العام، وفي العام القادم تحققت الرؤيا ودخل الرسول ﷺ مكة معتمرًا، وقد أدىٰ هو وأصحابه العمرة في أمن وأمان بمشيئة الله وقدرته، وحلق بعضهم رأسه والبعض الآخر قصر، لا يخافون أهل الشرك وغيرهم، ثم بين سبحانه أنه علم أن في صرف الرسول ﷺ وأصحابه عن مكة وعدم دخولها ذلك العام فيه خير ومصلحة لهم، وأنهم لم يكونوا يعلمون ذلك، قال مجاهد: (إن الله استثنىٰ فيما يعلم لكي يُعَلِّمَ العباد أن يستثنوا بما لا يعلمون)، وفي ذلك العام الذي لم يدخلوا فيه مكة عوضهم جل في علاه فتحًا قريبًا وهو صلح الحديبية وفتح خيبر وأخذ ما فيها من الغنائم.

[٢٨] واعلموا أيها الناس أن الله جل وعلا هو الذي أرسل نبيه محمدًا ﷺ بالهدىٰ الذي هو العلم النافع الذي يهدي من الضلالة، ويعصم من الغواية، ودين الحق، وهو دين الإسلام؛ ليعليه الله ويرفعه علىٰ كلِّ الأديان، وكفىٰ بالله شهيدًا علىٰ صحة ما أرسله به، وعلىٰ ما وعد به المؤمنين من ظهور الإسلام وعلوه علىٰ الأديان كلها.

....

....

....

....

[٢٩] ثم ختم جل وعلا السورة بذكر رسول الله ﷺ وصحابته الكرام الذين اصطفاهم واختارهم لصحبة نبيه ﷺ، وبين أنهم غلاظٌ شدادٌ علىٰ الكفَّار يسعون غاية جهدهم في عداوتهم والبراءة منهم، وهُم رحماء بينهم متحابون متعاطفون كالجسد الواحد، تراهم مجتهدين في العبادة يكثرون الصلاة والركوع والسجود، يبتغون بعبادتهم فضل الله ورحمته ورضوانه، وقد أثَّرت العبادة في وجوههم؛ حيث ترىٰ علىٰ وجوههم البهاء والنور، واعلموا أن ذلك المذكور من وصْفِهم قد وُصِفُوا به في التوراة، وأمَّا وصْفُهُم في الإنجيل: كمثل زرعٍ أخرج فراخَه، فآزره بفروع منه صارت مثله فقوّاه في الاستواء وأعانه وشدّه، فاستغلظت تلك الفراخ حتىٰ استوت بعد أن كانت دقيقةً نحيفة، ثم استقام الزرع علىٰ أعواده واكتمل، فأصبح جميلَ المنظر يُعجِبُ الزراع، وهذا كحال الصحابة في تراحمهم وتوادهم واجتماعهم، ونصرة بعضهم بعضًا في إقامة دين الله والدعوة إليه -، لإغاظة الكفار بكثرتهم واجتماعهم، ثم أخبر سبحانه أنه وعد الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ بالمغفرة والأجر العظيم في جنات النعيم، والله لا يخلف الميعاد.

سورة الحجرات

سورة الحجرات مدنيّة وآياتها ثماني عشرة آية. والحجرات المقصود بها: غرف زوجات النبي ﷺ. وقد سميت بسورة الآداب.

[١] بدأت السورة بإرشاد المؤمنين إلىٰ التأدب في حضرة النبي ﷺ تعظيمًا لمقامه الشريف صلوات ربي وسلامه عليه؛ حيث بدأت بهذا النداء المحبب إلىٰ القلوب، ألا وهو الوصف بالإيمان، فقال جل في علاه: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تقضوا أمرًا دون أمر الله ورسوله ﷺ من أمور الدين فتبتدعوا في دين الله أمورًا لم يأذن بها الله، قال ابن عباس رضي الله عنه: (لا تقدموا أيَّ قول أو فعل علىٰ قول الله أو قول رسوله ﷺ وفعله)، فإذا ثبت النص وجب علىٰ المؤمنين أن لا يقدموا أيَّ رأي علىٰ رأيه ﷺ، ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بأن يخافوا الله في أقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم؛ لأنه سميع لأقوالهم، عليم بنياتهم وأفعالهم.

[٢] ثم وجه جل وعلا نداءً آخر إلىٰ المؤمنين، بيَّن فيه وجوب احترامهم وتعظيمهم للرسول ﷺ؛ حيث نهاهم سبحانه أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي وهم في مجلسه وبحضرته إذا كلَّم بعضهم بعضًا، ونهاهم أن يجهروا بمناداته كما يجهر بعضهم لبعض، وعليكم أن تميزوه في خطابه فتنادوه يا نبي الله يا رسول الله، ثم بين سبحانه بأن نهيه للمؤمنين عن رفع الصوت عنده ﷺ خشية أن تبطل أعمالكم وأنتم لا تشعرون ولا تُحِسُّون بذلك.

[٣] ثم امتدح جل وعلا الذين يخفضون أصواتهم في حضرة النبي ﷺ وعند مخاطبته، وأخبر سبحانه بأن أولئك الذين يخفضون أصواتهم عنده ﷺ هم الذين اختبر الله قلوبهم وأخلصها

مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

لتقواه وطاعته؛ ثم بين جل في علاه أن لهؤلاء الغاضين أصواتهم مغفرة لذنوبهم، وثوابًا كبيرًا من الله تعالىٰ، وهو دخول الجنة.

[٤] واعلم يا نبي الله أن الذين ينادونك من وراء غرف أزواجك بصوت مرتفع أكثرهم ليس لهم عقول تحملهم علىٰ التأدب معك؛ فلو كانوا يعقلون لما انحطوا إلىٰ هذه المرتبة من سوء الأدب ولانتظروا حتىٰ تخرج.

ذكر المفسرون: أن هاتين الآيتين (٢، ٤) نزلتا في وفد من تميم قدموا وافدين علىٰ النبي ﷺ وكان ﷺ قائلًا في بيته وحجرات نسائه، فلم ينتظروا حتىٰ يقوم ﷺ من قيلولته؛ بل رفعوا أصواتهم قائلين: يامحمد اخرج لنا نفاخرك، وقد أحضروا معهم خطيبًا وشاعرًا، والعجب أن الرسول ﷺ كان لطيفًا معهم، ثم إنه ﷺ كلف ثابت بن قيس ليفاخر خطيبهم، وكلف حسان بن ثابت ليفاخر شاعرهم؛ ليثبت لهم أن خطيبهم وشاعرهم ليسا بشيء بالنسبة لمن استقىٰ معلوماته من النبي ﷺ ومن نور الوحي، ولكي يعرف المسلمون أخلاق رسول الله ﷺ وتحمُّلِهِ للجهلة وعنفهم؛ فلما انتهوا قالوا: خطيب رسول الله ﷺ غلب خطيبنا، وشاعره غلب شاعرنا، والمقصود: هو النهي عن رفع الصوت، والنهي عن أن يقطع في أمر قبل أن ينظر فيه رسول الله ﷺ ويوافق عليه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

[٥] واعلم يانبي الله لو أن هؤلاء الذين رفعوا أصواتهم من وراء حجرات أزواجك؛ صبروا حتىٰ تخرج إليهم لكان خيرًا لهم عند الله، ومع ذلك فإن الله جل في علاه واسع المغفرة والرحمة، يغفر لعبادة المسيئين إذا تابوا وأنابوا ورجعوا إليه.

قيل: إن الذيْن رفعا أصواتهما وقالا لرسول الله ﷺ: اخرج إلينا نفاخرك، وقالا: نحن الذين مدحنا زين وذمنا شين، هما الأقرع بن حابس، والأحمق المطاع عيينة بن حصين الفزاري.

[٦] ثم حذر جل وعلا من الأخبار وإشاعتها بدون تثبت، فقال: ياأيها الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ إذا جاءكم أحد الفساق الذين لا يبالون بالكذب بخبر فتثبتوا مما تسمعون منه، وتحققوا من صحة ما يقول، وخاصة الأخبار الهامة، كيلا تصيبوا قومًا بأذىٰ وجناية فتندموا علىٰ ذلك أشد الندم.

فالمطلوب من المؤمن التحري والثبت حتىٰ ولو كان الذي جاء بالخبر ليس مشهورًا بالفسق، وقد قيل في سبب نزول هذه الآية: إن رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط لأخذ الزكاة من بني المصطلق فلما سمعوا به فرحوا وخرجوا لاستقباله، وظن أنهم خرجوا لقتله، فرجع إلىٰ الرسول ﷺ وقال: إنهم منعوا الزكاة وأرادوا قتلي؛ فغضب ﷺ، وأشار عليه بعض الصحابة بأن يغزوهم، ثم ما لبث بنو المصطلق بعد ذلك بفترة إلا أن أرسلوا الزكاة؛ فنزلت هذه الآية.

[٧] واعلموا أيها المؤمنون أن فيكم رسول الله ﷺ الذي أرسله جل وعلا لكي يهديكم إلىٰ الحق وإلىٰ الطريق القويم؛ فلو أطاعكم ﷺ في كثير من الإشاعات التي يسمعها منكم، لوقعتم في العنت والمشقة، ولكنَّ الله تفضَّل عليكم فحبَّبَ إليكم الإيمان، وحسَّنَه في قلوبكم، وكرَّه إليكم الكفر بالخروج عن دين الله، والفسوق بالخروج عن طاعة الله، والعصيانَ لله ورسوله ﷺ وأوامرهما، وأولئك المتصفون بهذه الصفات هم الراشدون السالكون لطريق الحقِّ المستقيمون عليه.

[٨] واعلموا أيها المؤمنون أن ذلك الخير الذي حببه الله لقلوبكم، ويسره لكم، وأعانكم عليه، والشر الذي صرفه عنكم، وكرهكم فيه؛ إنما هو محْض فضل من الله عليكم، وإحسان منه إليكم، لم تنالوه بحولكم ولا بقوتكم، والله عليمٌ بعباده، وبما يصلحهم، حكيمٌ في تدبير أمور خلقه.

[٩] يخبر جل وعلا أنه إذا حدث قتال بين طائفتين من المؤمنين؛ فالواجب علىٰ ولاة الأمر أن يتدخلوا بالسعي في الإصلاح بينهما، ودعوتهما إلىٰ الاحتكام إلىٰ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؛ فإن رفضت إحدىٰ الطائفتين الحكم وأصرت علىٰ البغي والاعتداء فعليكم أيها المؤمنون أن تقاتلوها حتىٰ ترجع إلىٰ حكم الله ورسوله ﷺ وتخضع له، فإن رجعت إلىٰ حكم الله ورسوله ﷺ فعليكم الإصلاح بينهما بالإنصاف، وعليكم أن تعدلوا في جميع أحكامكم بأن لا تتجاوزوا فيها حكم الله ورسوله ﷺ، واعلموا أن الله يحب العادلين الذين يعطون كل ذي حق حقه. وفي هذه الآية إثبات صفة المحبة لله كما يليق بجلاله سبحانه وتعالىٰ.

[١٠] واعلموا أيها الناس أن المؤمنين إخوةٌ في الدين، وهذه الأخوة توجب عليهم أن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه، ويكره لأخيه ما يكرهه لنفسه، فإن حصل بين اثنين من المؤمنين تنازعٌ وتخاصمٌ وتقاتلٌ؛ فأصلحوا بينهما، واجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقايةً بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ لعلكم تنالون رحمةَ الله ومغفرته ورضوانه.

[١١] يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﷺ وعملوا بشريعته اعلموا أن من حقوق المؤمنين بعضهم علىٰ بعض: أن لا يحتقر الرجل منكم غيره من الرجال، وأن لا تحتقر المرأة غيرها من النساء، وأن لا يعب بعضكم علىٰ بعض بأي وجه من وجوه العيب؛ سواء بحضرته أو غيبته، وأن لا يخاطب أحدكم أخاه بألفاظ يكرهها كالسخرية واللمز والتنابز، كأن يقول له يا أعرج أو يا أعور ونحو ذلك؛ فبئس التنابز بالألقاب بعد أن هداكم الله ودخلتم في الإسلام والإيمان، ومن لم يتب من هذه الرذائل وهذه الألفاظ المشينة فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب هذه المناهي التي أجمع العلماء علىٰ تحريمها.

[١٢] يأمر جل وعلا عباده المؤمنين الذين صدَّقوا الله ورسوله ﷺ وعملوا بشرعه أن يجتنبوا كثيرًا من الظن السيِّئ بالمؤمنين، ومن ذلك اتهام أهل الخير أن لهم أهدافًا سيئة؛ واعلموا أن الكثير من الظنون توقع في الإثم، وخذوا بظاهر الناس ولا تُفَتِّشوا عن عوراتهم وأسرارهم، وعليكم أن تبتعدوا عن الغيبة فإن الذي يغتاب أخاه المسلم كالذي يأكل لحمه وهو ميت، ولا شك أنكم تكرهون ذلك، وخافوا الله أيها المؤمنون فيما أمركم به ونهاكم عنه، إن الله تواب لعباده المؤمنين، رحيم بهم

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: إن بعض الظنون لا تُجتنب؛ بل تقيَّد مع القرائن للوصول إلىٰ الحق، وإن قرائن الحال تنزل منزلة المقال.

ومثَّل لذلك فقال: إذا قام بجنبك رجل ورأيت رائحة الدخان واضحة منه فإنك تظن ظنًّا قريبًا جدًّا من الحق أنه من المدخنين، كذلك لو صلىٰ بجنبك شخص يؤذيك منه رائحة الثوم، فإنه لا يخامرك شك أنه قد أكل أكلًا يحتويه ثوم، وكذلك لو شممت رائحةً من شاربٍ شَرِبَ شيئًا من المحرمات فإنك تظن ظنًّا قويًّا أنه قد شرب كذا وكذا، وهذا ليس من الإثم؛ لأن له ما يؤيده.

[١٣] اعلموا أيها الناس أنا خلقناكم من أب واحد وهو آدم، وأم واحده وهي حواء، فلا تفاضل بينكم في الأنساب أو الأشكال أو الأجسام، وجعلكم سبحانه شعوبًا وقبائل فيعرف بعضكم فضل بعض، ويعرف نسبه، لتتواصلوا فيما بينكم وتتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ، ويفهم من هذا أنه جل في علاه جعلكم شعوبًا وقبائل لتتعارفوا لا لتتعاركوا أو يتفاخر بعضكم علىٰ بعض، ثم بين سبحانه أن الأكرم والأشرف والأرفع منزلة عند الله هم أهل التقوىٰ وأهل المغفرة والتسامح، إن الله عليم بأحوالكم وعليم بالمتقين منكم، خبير بهم.

[١٤] ثم أخبر جل وعلا عن بعض الأعراب وهم البدو الذين دخلوا في الإسلام وقالوا: آمنا وامتنوا بذلك، فقل لهم يا نبيَّ الله: إنكم لم تؤمنوا الإيمان الكامل، ولكنكم دخلتم في الإسلام ولم يصل الإيمان إلىٰ قلوبكم؛ فلامهم سبحانه علىٰ امتنانهم لأن المنة للذي أنعم عليهم بالدخول في الإسلام، واعلموا أنكم إن تطيعوا الله ورسوله ﷺ فلن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئًا، إن الله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم.

[١٥] يخبر جل وعلا بصفات عباده المؤمنين حقًّا، فقال: إنما المؤمنون علىٰ الحقيقة هم الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسوله ﷺ، ولم يدخل قلوبهم ريبٌ، ولم يخالطها شكٌّ، ثم بعد ذلك جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وقدَّموها رخيصةً لله جلَّ في علاه؛

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

وأولئك هم الصادقون في إيمانهم الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الجليلة، نسأل الله الكريم من فضله أن يشملنا برحمته.

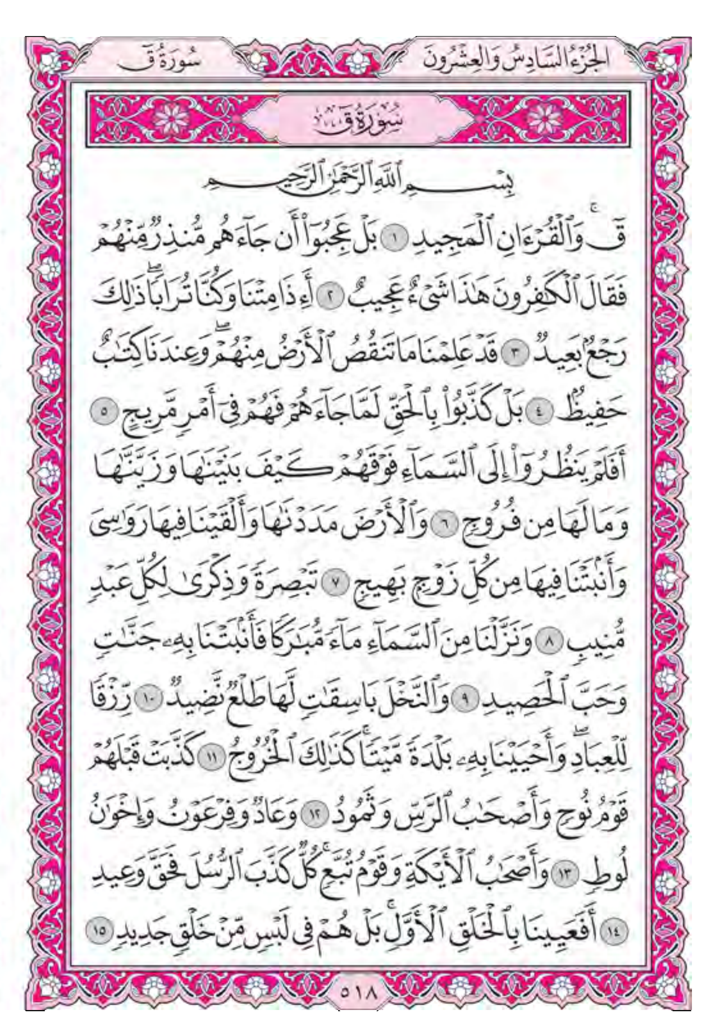
[١٦] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء الأعراب: هل تُخبرون الله بقولكم آمنَّا لتُعلِمُوهُ بذلك وتُشْعِروهُ به؟! والحال: أن الله يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم سركم وجهركم، ويعلم ما في ضمائركم، وأنه بكل شيء عليم، لا يخفىٰ ولا يغيب عليه شيء من نياتكم وأقوالكم وأعمالكم.

[١٧] واعلم يا نبي الله أن هؤلاء الأعراب يعتبرون إسلامَهُم مِنَّةً عليك لأنهم آمنوا دون قتال ولا جهادٍ، فقل لهم: لا تعدُّوا ذلك مِنَّةً عليَّ، ولا تعتبروه تفضُّلًا وتكرُّمًا منكم؛ بل حقيقة الأمر أن الله هو الذي تفضل عليكم، وأنعم عليكم أن يسَّركم للإسلام ووفقكم لقبوله، وشرح صدركم للدخول فيه، فإن كنتم صادقين في إسلامكم، فلله المنَّةُ عليكم.

[١٨] ثم ختم جل وعلا السورة مبينًا أنه لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأنه يعلم السر وأخفىٰ، وأنه بصير بأعمالكم وسيجازيكم عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

....

....



سُورَةُ قٓ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥

سورة ق

سورة ق مكيّة وآياتها خمس وأربعون آية، والمشهور أن المفصل يبتدئ بـ(ق) وينتهي بالناس، وهذه السورة شاملة؛ فقد اهتم بها رسول الله ﷺ وجعل يخطب بها في أيام الجمع[1] لاحتوائها علىٰ المقاصد الشرعية.

[١] ابتدأت السورة بحرف من الحروف المقطعة وهو الحرف: ﴿قٓ﴾، وسبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. ثم صار هذا الحرف اسمًا لهذه السورة العظيمة، ثم أقسم جل وعلا بالقرآن المجيد، أي: صاحب الشرف والرفعة والكرم، أنك يانبي الله مرسل من عندنا وصادق فيما تبلغه عن ربك من البعث والحساب والجزاء، وهذا هو جواب القسم.

[٢] ثم أخبر جل وعلا أن الكافرين المكذبين بالرسول ﷺ تعجبوا أن جاءهم منذر من البشر وهو محمد ﷺ، ينذرهم بالبعث، فكذبوا ذلك وأنكروه، وقالوا: إن هذا البعث الذي تحدثنا عنه يا محمد شيء عجيب وغريب ومستبعد.

[٣] ثم بين جل وعلا وجه تعجبهم حيث قالوا: أئذا متنا يا محمد واستحالت أجسادنا إلىٰ تراب هل سنحيا ونرجع كما كنا؟ فكان جوابهم: لا يمكن ذلك؛ بل قالوا: إن رجوعنا إلىٰ هذه الحياة الدنيا بعيد غاية البعد؛ واستحال حصوله؛ لأن العقل في رأيهم لا يصدقه.

[٤] فرد جل وعلا علىٰ هؤلاء الكفار بقوله: اعلموا أيها الكفار بأننا نعلم علمًا تامًّا ما تأكل الأرض من أجساد الناس الذين يموتون؛ فلا يضل عنَّا شيء من ذلك، وعندنا كتاب محفوظ فيه جميع أحوال العباد؛ لا يضيع من سماتهم وخصائصهم شيئًا؛ سواء قبل موتهم أو بعد موتهم، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ.

[٥] ثم بين جل وعلا ما هو أشنع وأقبح من تعجبهم وهو تكذيبهم بهذا القرآن حين جاءهم، وصاروا في أمر مختلط مضطرب في شأن القرآن والرسول ﷺ بسبب الاعتقادات التي توارثوها عن أسلافهم، ورسخت في أذهانهم، ووافقت أهواءهم؛ لأنها لا تطالبهم بتكاليف شرعية.

[٦] ثم شرع جل وعلا في بيان الأدلة علىٰ قدرته، فقال: ألم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث في هذه السماء التي فوقهم، ويتفكروا كيف بنيناها ورفعناها بدون عمد يرونها، ثم إننا زيناها بالنجوم والشموس، ولم نجعل فيها شقوقًا أو صدوعًا؟!.

[٧] وكذلك ألم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث في هذه الأرض التي بسطناها وألقينا فيه جبالًا ثوابت لها لئلا تميد وتضطرب، وجعلنا فيها الأنهار والبحار، وأنبتنا فيها صنوف النبات والأشجار التي تبهج الناظر إليها؟!.

[٨] ثم بين سبحانه أنه خلق كل هذا تذكرة وتبصرة لأولي الألباب، ولا شك أن القادر علىٰ خلق هذه الأشياء من العدم لا يعجزه البعث الذي استعظمه واستبعده المشركون.

[٩] واستمر جل وعلا في بيان الأدلة علىٰ قدرته فأخبر أنه نزَّل من السماء مطرًا كثير البركة والخير والمنافع، وأنبت سبحانه بهذا المطر بساتين كثيرة الأشجار، منها ما يُحصَد كالقمح والشعير والذرة وغيرها.

[١٠] وبين سبحانه أنه أنبت بهذا المطر أيضًا ما جعل خلقه طويلًا ممتدًا في السماء كأشجار النخيل المليئة بالثمار المنتظمة بعضها فوق بعض.

[١١] ثم بين جل وعلا أنه أنبت ما أنبت من هذه الثمار وهذه الأشجار لتكون رزقًا للناس يقتاتون منها، وهذا المطر الذي أنزله من السماء أحيا به بلدة كانت مجدبة فأخرجت ثمارها ونباتها، وكما أن الله أخرج هذه النباتات من هذه الأرض التي كانت ميتة، فكذلك قادر سبحانه علىٰ إخراج الموتىٰ من قبورهم للحساب والجزاء.

[١٢] واعلم يانبي الله أن هناك أقوامًا وأممًا كذبت قبل قومك الذين كذبوك، فكذب قوم نوح نبيَّهم، وكذب أصحاب الرس نبيهم، وكذبت ثمود نبيهم صالحًا.

[١٣] وكذلك كذب عادٌ نبيهم هودًا، وكذب فرعون وقومه موسىٰ، وكذب قوم لوط نبيهم.

[١٤] وأيضًا كذب أصحاب الأيكة نبيهم، وكذب قوم تُبَّع نبيَّهم، فكل هؤلاء الأقوام كذبت أنبياءها، ولم يؤمنوا بما جاؤوهم به من عند الله، فوجب عليهم عذاب الله، وحلَّ بهم عقابه، فليحذر قومك يا نبي الله من تكذيبك فيصيبهم ما أصاب الأمم السابقة قبلهم.

[١٥] ثم أعاد جل وعلا الحديث عن أمر البعث الذي أنكرته الأمم السابقة، فقال سبحانه: هل كنا عاجزين عند ابتداء خلق هؤلاء المشركين وإيجادهم من العدم؟ فإذا كان الخلق والإيجاد الأول لم يعجزنا؛ فهل الإعادة تكون أصعب وفوق قدرتنا؟؛ بل إن هؤلاء المشركين في حيرة وشك من قدرتنا علىٰ خلقهم مرة ثانية بعد موتهم وفنائهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٢).

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

[١٦] ومن الأدلة علىٰ قدرته جل وعلا أنه خلق الإنسان وأوجده من العدم، وأنه يعلم ما يدور في خاطره، وما يختلج في قلبه وضميره، والله أقرب إليه من حبل الوريد، وهو عرق الدم المتصل بالقلب، فلا يخفىٰ عليه شيء من أمره أبدًا.

[١٧] ثم أخبر جل وعلا أن هناك ملكين موكلين بكتابة جميع أعمال العبد، أحدهما عن يمينة متهيِّئ لكتابة الحسنات، والآخر عن يساره متهيِّئ لكتابة السيئات. والله سبحانه ليس بحاجة إلىٰ ملك يخبره بأعمال عبده، ولكن وكلهما الله به إلزامًا للحجة. [١٨] ثم بين سبحانه أن هذا الإنسان ما يتكلم بكلمة، ولا يلفظ من لفظٍ من خير أو شر إلا عنده ملك رقيبٌ حافظٌ حاضرٌ مستعد لكتابة ما يقول وما يلفظ.

[١٩] ولقد جاءتك أيها الإنسان غمرة الموت وشدته وكربته بالحق الذي لا مفر منه، وذلك الذي كنت تفرُّ وتهرب منه.

[٢٠] ثم أخبر جل وعلا أنه سينفخ في الصور نفخة البعث، وهو اليوم الذي توعَّد الله فيه الكافرين بالعذاب، ووعد المؤمنين فيه بالثواب.

[٢١] ثم جاءت كل نفس في ذلك اليوم معها سائق من الملائكة يسوقها للعرض علىٰ الله، وشهيدٌ يشهد عليها بأعمالها.

[٢٢] ثم يقال للكافر في ذلك اليوم: لقد كنتَ أيها العبدُ في غفلةٍ عن هذا المصير، فأزلنا عنك غفلتك وكشفنا عنك غطاءك الذي غطَّىٰ قلبك، فبصرك اليوم نافذٌ تُبصِر به ما كنت تنكره في الدنيا من البعث والجزاء والعذاب والنكال.

[٢٣] ثم يقول قرينه من الملائكة الموكَّل بكتابة أعماله: هذا الذي وكَّلتني به يارب من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله.

[٢٤] ثم يخاطب الله السائق والشهيد فيقول لهما: ألقيا في نار جهنم كل كفَّار كثير الكفر والجحود لتوحيد الله ولقائه، معاند كثير العناد.

[٢٥] ومن صفات هذا الكافر أنه: منَّاع للخير، فلا يبذله ولا يوصي ببذله، مريب شاكٌّ في وعد الله ووعيده. [٢٦] ومن صفات هذا الكافر أيضًا أنه أشرك في عبادة الله فعَبَدَ غيره معه، ثم يأمر سبحانه الملكان بأخذ هذا الكافر وإلقائه في نار جهنم ليذوق العذاب الشديد. [٢٧] ثم ذكر جل وعلا التلاوم بين الكافر وقرينه الشيطان؛ حيث قال قرينه الذي كان يزين له سوء عمله: يارب إنني ما أطغيته ولم أجبره علىٰ الكفر والعصيان، ولكن هو الذي كان في بُعْدٍ عن الهدىٰ وعن الحق؛ فلما دعوته وجدته مستعدًا للضلال، ولو كان طالبًا للهدىٰ وكان من عبادك الصالحين لما استجاب لي؛ فليس لدي قوة غير الوسوسة وتزيين الباطل. [٢٨] ثم قال جل وعلا: لا تتنازعوا لدي في هذا اليوم، فاليوم هو يوم الجزاء والحساب؛ ولا فائدة من التخاصم والتنازع، وقد سبق أن أنذرتكم وحذرتكم في الدنيا علىٰ ألسنة رسلي من سوء عاقبة من كفر بي وعصاني. [٢٩] ثم اعلموا أيها الكفار أنه لا يغيَّر القول لدي، ولست ظالمًا فأعذب أحدًا بغير جرم ارتكبه، فأنا حرمت الظلم علىٰ نفسي. [٣٠] واذكر يانبي الله يوم أن نقول لجهنم: هل امتلأت؟ فتقول: هل من زيادة يارب من الإنس والجن، وأجابت بذلك تأدبًا، وذلك أفضل من أن تقول: لا. وفي هذه الحال حيث يعلم الجبار أن جهنم لم تمتلئ فإنه يضع قدمه فينزوي بعضها إلىٰ بعض ثم تقول: قط قط، أي: كفىٰ كفىٰ أو حسبي حسبي، كما ورد ذلك في الحديث[1]. وأكثر الفرق وعلىٰ رأسهم المعتزلة والأشاعرة ينكرون أن له سبحانه قدمًا تليق به إلا أهل السنة والجماعة فإنهم يثبتون ذلك له جل في علاه.

[٣١] ثم أخبر جل وعلا أن الجنة سوف تقرب من المتقين الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فهي غير بعيدة منهم، يرونها، ويرون ما فيها.

[٣٢] ثم يقال لهم: أيها المتقون إن هذا النعيم الذي ترونه هو ما وعد الله به كل رجاع عن المعصية إلىٰ الطاعة، كثير التوبة، حافظ لحدود الله وشرائعه.

[٣٣] ثم يقال لهم أيضًا: واعلموا أن هذا النعيم لكل من خشي الرحمن في السر والعلن، وحال غيبته من الناس واختلائه بنفسه، واتجه إلىٰ ربه بقلب مخلص منيب، مستقيم علىٰ طاعته.

[٣٤] ثم يُقال لهم: ادخلوا الجنة بسلام، فتسلمون فيها من العذاب، ومن زوال النعم، ويسلم الله عليهم، وتسلم عليهم ملائكتُه، ذلك يوم الخلود، فيخلدون في الجنة ويمكثون فيها.

[٣٥] ثم بين سبحانه أن لهم في هذه الجنة كل ما يتمنون وجميع ما يطلبون ويشتهون، ولهم زيادة في النعيم، هي أعظم نعيم أهل الجنة علىٰ الإطلاق، وهو النظر إلىٰ وجه الله الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعم بقربه، والفرح بحلول رضوانه عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٤٨)، ومسلم (٢٨٤٨).

وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾

[٣٦] ثم يخبر جل وعلا أنه أهلك كثيرًا من الأمم السابقة قبل قريش وكانت أشدَّ منهم قوَّةً، وأعظمَ آثارًا في الأرض؛ حيث بنوا الحصون المنيعة، والمنازل الرفيعة، فلما جاءهم عذاب الله وحل بهم عقابه، فهل كان لهم مهربٌ أو مفرٌّ أو منقِذ؟!

[٣٧] واعلموا أيها الناس أن فيما حلَّ بالأمم السابقة من الهلاك والدمار؛ لذكرىٰ لمن كان له قلبٌ عظيمٌ حيٌّ، وعقلٌ راجح، وذكرىٰ نافعةٌ لمن استمع وأصغىٰ إلىٰ ما يُتْلىٰ عليه من الوحي، وهو حاضر الفهم، متيقظ القلب.

[٣٨] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق السماوات والأرض وما فيهن وما بينهما - وأوجدهما من العدم علىٰ غير مثالٍ سابق - في ستة أيام، من غير تعب ولا نصب ولا إعياء، - لا كما يقول اليهود ويفترون: إن الله استراح يوم السبت.

وهذه الأيام ليست كأيام الدنيا المعروفة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧].

[٣٩] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يصبر علىٰ ما يقول هؤلاء المشركون من الكذب والافتراء والتكذيب، وأن ينزِّهِ الله جلَّ في عُلاه عما لا يليق بجلاله، وأن يتقرب إليه سبحانه بالعبادات والطاعات قبل طلوع الشمس وهو وقت الفجر، وقبل الغروب وهو وقت العصر.

[٤٠] وكذلك أمره سبحانه أن يكثر من الصلاة في الليل، وأن يسبح الله ويذكره بعد الصلوات.

[٤١] واستمع يانبي الله يوم يُنفَخُ في الصور للبعث والنشور من مكانٍ قريب تسمعه جميع الخلائق.

[٤٢] ويوم يسمع الخلائق هذه النفخة فإنهم يعلمون أن يوم البعث والنشور حق لا مرية فيه، وأن ذلك اليوم هو يوم خروج الناس من قبورهم، واجتماعهم في صعيد واحد للجزاء والحساب.

[٤٣] ثم بين جل وعلا ما يدل علىٰ كمال قدرته فأخبر بأنه هو الذي يحيي الخلق ويميتهم في الدنيا حين انقضاء آجالهم، وأنه وحده إليه الرجوع للحساب والجزاء في الآخرة.

[٤٤] واذكروا أيها الناس يوم أن تتصدع الأرض فتخرج الموتىٰ من قبورها مسرعة إجابة إلىٰ الداعي، فاعلموا أن ذلك جمع هين علىٰ الله، لا عسر فيه ولا مشقة.

[٤٥] ثم قال جل وعلا لنبيه: نحن أعلم يارسول الله بما يقول هؤلاء الكفار من إنكار البعث والسخرية والاستهزاء بك وبرسالتك، ولكن اعلم أنك لست بمسلَّط عليهم فتقسرهم علىٰ الإيمان والهدىٰ وتسيرهم كما تريد، وإنما بعثت مبلغًا؛ وفي هذا ثناء علىٰ المصطفىٰ ﷺ، ثم أمره سبحانه أن يعظ بهذا القرآن من عنده رغبة في السلامة ومن يخشىٰ وعيد الله؛ لعله ينجو من النار التي هي بئس المصير، وفي هذا تسلية لنبيه ﷺ.

سورة الذاريات

سورة الذاريات مكيّة وآياتها ستّون آية.

[١] ابتدأ جل وعلا السورة بالقسم ببعض مخلوقاته، وله سبحانه الحق أن يقسم بما شاء، أما الإنسان فليس له أن يقسم إلا بالله جل في علاه، فأقسم بالرياح التي تذر الغبار والهباء والتراب في الفضاء.

[٢] وأقسم سبحانه بالسحب التي تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الأحمال.

[٣] وأقسم سبحانه بالسفن التي تحمل الأثقال، وتجري في البحر بكل يسر وسهولة.

[٤] وأقسم سبحانه بالملائكة التي تقسم الأمطار والأرزاق وشؤون البشر بأمر الله.

[٥] ثم جاء سبحانه بجواب القسم، فقال: إن ما توعدون أيها الناس من البعث والحساب علىٰ الأعمال ثم الجنة أو النار لكائن لا محالة.

[٦] ثم أكد سبحانه القسم بقوله: واعلموا أن الثواب والجزاء علىٰ الأعمال في الدنيا والآخرة واقع وقوعًا لا ريب فيه في الوقت الذي قدره الله.

الجزء السادس والعشرون — سورة الذاريات

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ﴿٨﴾ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسۡـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

٥٢١

[٧-٨-٩] ثم عاد جل وعلا وأقسم قسمًا آخر، فقال: وأُقْسِمُ بالسماء ذات الجمال والبهاء، والحسن والاستواء، التي جملها الله بالكواكب والشموس والمجرات والأبراج، إنكم أيها المشركون المكذبون لفي قول مختلف مضطرب في القرآن وفي محمد ﷺ؛ واعلموا أيها المشركون أن اختلافكم في القرآن لا يلتئم ولا يجتمع ولا يروج إلا علىٰ من هو ضالّ في نفسه، لأنه قول باطل، ثم بين سبحانه أن هذا القرآن يؤفك، أي: يصرف عن الإيمان به من كذب به، وكذب برسول الله ﷺ.

[١٠-١١] ثم لعن جل وعلا هؤلاء الكذابين المشككين في وعد الله ووعيده من أصحاب القول المختلف؛ الذين هم في غفلة وعمىً وجهالة عن أمور الآخرة، وغافلون لاهون عما ينتظرهم من عذاب الله.

[١٢-١٣-١٤] ثم أخبر جل وعلا عن هؤلاء الكذابين أنهم يسألون سؤال استبعاد وتكذيب فيقولون: متىٰ يجيء يوم الجزاء الذي تُحَدِّثُنا عنه يامحمد؟، فيجيب سبحانه عن نبيه ﷺ فيقول: إن يوم الجزاء يوم يدخلون جهنم ويحرقون ويعذبون فيها، ثم يقال لهؤلاء المكذبين: ذوقوا هذا العذاب الذي كنتم تستعجلون وقوعه استهزاء وسخرية وتظنون أنه غير كائن.

[١٥-١٦] لما ذكر جل وعلا حال أهل النار ذكر حال أهل الجنة؛ فأخبر أن الذين اتقوا الله كائنون في بساتين فيها عيون جارية لا يمكن وصفها وتخيلها. ثم بين سبحانه أنهم راضون بما أعطاهم ربهم من الكرامة والنعيم لأنهم كانوا في الدنيا قبل دخولهم الجنة محسنين في إيمانهم وطاعتهم لربهم، وكانوا مكثرين من الأعمال الصالحة والمستحبة.

[١٧-١٨-١٩] ثم بين جل وعلا مظاهر إحسانهم؛ فأخبر أنهم كانوا ينامون القليل من الليل للتهجد، وكانوا يكثرون من الذكر والدعاء والاستغفار في السحر، وبجانب قيامهم الليل واستغفارهم فإنهم كانوا يوجبون علىٰ أنفسهم نصيبًا معلومًا يخرجونه من أموالهم للمحتاجين الذين يسألون الناس، والذين لا يسألونهم حياءً، تقربًا إلىٰ الله عز وجل.

[٢٠-٢١-٢٢] واعلموا أيها الناس أن في الأرض علاماتٍ واضحات الدلالة علىٰ وحدانية الله وكمال قدرته، وهذه الآيات ينتفع بها أهل اليقين الذين لهم بصائر وإدراك ونظر في عظيم صنع الله. وأيضًا في إيجاد أنفسكم من العدم علىٰ غير مثال سابق، وما فيها من آيات الخلق والتركيب ما يدل علىٰ وحدانية الله وكمال قدرته، أفلا تبصرون ذلك فيقودكم لتوحيد الله والإيمان به؟! واعلموا أن في السماء أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد، وفي السماء أيضًا ما توعدون من الثواب والعقاب والجنة والنار؛ فإن جزاء الأعمال مكتوب في السماء والقضاء والقدر ينزل منها.

[٢٣] ثم ختم جل وعلا هذه الآيات بهذا القسم؛ فأخبر سبحانه أن ما أُخبر به في هذه الآيات، وأنَّ ما توعَدون به لحقٌّ وصدقٌ، فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه كما أنكم لا تشكُّون في قدرتكم علىٰ النطق بالكلام.

[٢٤-٢٥] هل أتاك يانبي الله خبر إبراهيم وأضيافه الملائكة الكرام؛ حيث أمرهم الله بزيارة إبراهيم وتبشره بالولد وهم ذاهبون في طريقهم إلىٰ قوم لوط؛ فلما وصلوا إليه سلموا عليه، فرد عليهم قائلًا: سلام عليكم أنتم قوم غرباء لا نعرفكم فمن أنتم؟ وهؤلاء الملائكة أرسلهم الله لتعذيب قوم لوط وقلب بلادهم عليهم.

[٢٦-٢٧-٢٨] ثم إن إبراهيم مضىٰ إلىٰ أهله في سرعة وخفية عن ضيفه، وقدم لضيوفه عجلًا سمينًا أنضجه لهم شيًّا. ثم قرب إليهم الطعام، وقال لهم: تفضلوا كلوا أيها الأضياف، لكنهم أعرضوا ولم يأكلوا، فتعجب من أمرهم وقال لهم: ألا تأكلون؟. وفي هذه اللحظة لما رأىٰ أنهم أعرضوا عن الأكل أحس إبراهيم في نفسه الخوف منهم، ظنًّا منه أن امتناعهم إنما كان لشرّ يريدونه، فقالوا له: لا تخف إنا رسل ربك؛ ثم بشروه أن زوجته سارة ستلد له غلامًا ذي علم كثير عندما يبلغ مبالغ الرجال وهو إسحاق.

[٢٩-٣٠] فلما سمعت سارة ما بشَّر به الملائكة دهشت، ثم أقبلت نحوهم وهي تصرخ وضربت بيديها علىٰ جبينها تعجبًا من قولهم، وقالت: كيف ألد وأنا عجوز عقيم؟. فقالت لها الملائكة: أخبرناك وقلنا لك كما قال ربك، والله علىٰ كلّ شيء قدير، وهو سبحانه الحكيم في تدبير وتصريف شؤون عباده، العليم بأحوالهم وما يُصلحهم.

۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾

[٣١] ولكن إبراهيم عليه السلام لكثرة الملائكة شعر أنهم مكلفون بأمر أكبر من هذه البشارة؛ فسألهم بعد هذه البشارة فقال لهم: ما خبركم أيها الملائكة، وما شأنكم، وفيمَ أُرسِلتُم؟. [٣٢] فقال الملائكة: لقد أرسلنا الله لقوم مجرمين مجاوزين لحدودهم – وهم قوم لوط –.

[٣٣-٣٤] ثم قالوا: وإن مهمتنا التي أرسلنا من أجلها أن نُهلكَهُم برجمهم بحجارة من طين متحجِّر، وهذه الحجارة معلَّمة بعلامات تعرف بها لكي نُهلك بها هؤلاء المسرفين علىٰ أنفسهم بالشرك المجاوزين حدودَهم بقبيح المعاصي والآثام. [٣٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أخرج منْ كان في قرىٰ قوم لوطٍ من أهل الإيمان والتوحيد قبل نزول العذاب علىٰ أهلها الفاسقين المجرمين. [٣٦] ثم بين سبحانه أنه لم يجد في تلك القرىٰ غير بيت واحد من المسلمين، وهو أهل بيت لوط عليه السلام، مما يدل علىٰ كثرة الفجار والفساق في هذه القرىٰ. قال سبحانه في هذه الآية: ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وقال في الآية السابقة: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، لأن بيت لوط لم يكن جميع من فيه من المؤمنين، فامرأته أسلمت ولكنها لمن تؤمن ولذا لم تخرج معهم؛ لأنها كانت منافقة وخائنة؛ حيث كانت علىٰ دين قومها، وخيانتها أنها كانت تخبر الفساق بضيوف زوجها.

[٣٧] وبعد أن أهلك جل وعلا قوم لوط أخبر أنه ترك في قريتهم علامةً واضحة بينة علىٰ هلاكهم؛ لتكون عبرة وعظة للذين يخافون العذاب الأليم الموجع في الآخرة، وفي هذا دليل علىٰ قدرة الله وانتقامه من الكفرة الجاحدين، الذين يفعلون الفواحش والمنكرات، ولم يؤمنوا بالله وآياته ورسله. [٣٨-٣٩-٤٠] واعلموا أيها الناس أن في قصة موسىٰ آيةً عظيمة للذين يخافون العذاب الأليم؛ حيث أرسله الله إلىٰ فرعون بالآيات والمعجزات الظاهرة البينة الدلالة علىٰ أنه رسول من عند رب العالمين. ولكن فرعون وقومه أعرضوا عن اتباع موسىٰ، وتكبَّر عليه وعلىٰ دعوته، وتقوَّىٰ بجماعته وجنده، وقال عن موسىٰ: إنه ساحرٌ أو مجنون –وذلك للمغالطة والإيهام– ؛ مع أنه يعلم أن موسىٰ صادق، قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]. وبسبب تكبر فرعون وكفره وجحوده وطغيانه أخذه جل وعلا وجنوده وطرحهم في البحر فأهلكهم بالغرق، وأهلك الله فرعون لأنه أتىٰ بذنوب يستحق اللوم عليها؛ ومن ذلك ادعاؤه الربوبية، وتكذيبه موسىٰ، وطغيانه في الأرض. [٤١-٤٢] واعلموا أيضًا أن في قصة عاد وإهلاكهم آيةٌ عظيمةٌ للذين يخافون العذاب الأليم؛ حيث كذبوا رسولهم هودًا فأرسل الله عليهم ريحًا شديدةً لا خير فيها ولا بركة، ومن شدتها أنها لا تمرّ علىٰ شيء إلا أهلكته ودمَّرته وأبادته وجعلته باليًا مُفتَّتًا. [٤٣-٤٤-٤٥] واعلموا أيضًا أن في قصة ثمود وإهلاكهم آيةً عظيمةً للذين يخافون العذاب الأليم؛ حيث كذبوا رسولهم – صالحًا –؛ فقال لهم: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، وتمتعوا بالدنيا الفانية إلىٰ حين وقت هلاككم. ولكنهم كذبوا رسلهم، واستكبروا علىٰ أمر ربهم؛ فأهلكهم الله بالصيحة العظيمة، وهم ينظرون إلىٰ عقوبتهم بأعينهم. وما قدروا علىٰ النهوض لما حلَّ بهم العذاب، وما استطاعوا الهرب والفرار والنجاة، وما كانوا منتصرين لأنفسهم، ولا ممتنعين من عذاب الله بغيرهم. [٤٦] ثم أخبر سبحانه أنه أهلك قوم نوح من قبل هذه الأقوام؛ حيث أهلكهم بالطوفان؛ لأنهم كذبوا برسولهم لما جاءهم؛ فكانوا قومًا خارجين عن طاعة الله وتوحيده، مكذبين لرسوله معاندين له. [٤٧-٤٨] يخبر جل وعلا أنه بنىٰ السماء وأتقنها بقوة وقدرةٍ، ووسعها توسيعًا كبيرًا، وهو قادر علىٰ توسعتها أكثر من ذلك. وأن الأرض بسطها ووطَّأها، وجعلها كالمهاد أي الفراش لينتفع بها الناس في سيرهم وسكناهم عليها، ثم أثنىٰ سبحانه علىٰ نفسه فقال: فنعم الماهدون نحن، وصدق جل في علاه؛ فهو الفعال لما يريد. [٤٩-٥٠-٥١] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق من كل شيء صنفين ونوعين مختلفين، وكل منهما زوج للآخر؛ فمثلًا خلق السعادة والشقاوة، والهدىٰ والضلال، والليل والنهار، والسماء والأرض، وهكذا، كل ذلك لعلَّكم تتذكرون قدرة الله وتستدلون بذلك علىٰ توحيد الله وصدق وعده ووعيده. وما دام الأمر كذلك ففرُّوا أيها الناس إلىٰ الله بتوحيده والإيمان به، وبالتوبة والرجوع إليه، إنه لكم نذيرٌ بيِّن النذارة من عذاب الله وعقوبته. ثم أكد جل وعلا هذا الإنذار فأمر عباده أن يُخلصوا العبادة له بالتوحيد، وألا يعبدوا معه إلهًا آخر، فإنه لكم نذيرٌ بيِّن النذارة من عذاب الله وعقوبته.

[٥٢-٥٣] يسلي جل وعلا نبيه ﷺ فيقول له: وكما كذبك قومك يانبي الله واتهموك بالسحر والجنون؛ فكذلك فعلت الأمم السابقة مع أنبيائهم. فهل ياترىٰ أوصىٰ الكفار السابقون الكفار اللاحقين أن يقولوا لكل رسول يأتيهم: أنت ساحر ومجنون؟! الحقيقة أنهم لم يتواصوا بذلك؛ ولكن حملهم علىٰ ذلك الكفر والطغيان والتكذيب وتجاوز الحد، وكرههم لتغيير ما هم عليه.

[٥٤-٥٥] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يعرض عن هؤلاء المكذبين المفترين، وأن لا يبالي بهم، لأنه أدّىٰ ما عليه؛ حيث بلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة ونصح الأمة، ولهذا فإنه لا يلحقه لوم من أحد. ثم أمره أن يعظ بهذا القرآن من آمن به واتبعه، فإن قلوبهم تلين لذلك، فبالتذكير والموعظة ينتفع أهل الإيمان، ومن يرد الله به خيرًا يهديه ويصلح قلبه ويرشده لاتباع هذا القرآن العظيم.

[٥٦] يخبر جل وعلا أنه ما خلق الثقلين الإنس والجن إلا ليأمرهم بعبادته وحده لا شريك له، ثم يجازيهم علىٰ أعمالهم؛ فمن عمل خيرًا فجزاؤه الجنة، ومن عمل شرًّا فإنه يعذب بالنار.

قال الشيخ العلامة الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان: التحقيق في معنىٰ هذه الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: إلا لآمرهم بعبادتي، وأختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم علىٰ أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. **وقال الشيخ البسام**: التحقيق في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: لأطلب منهم عبادتي، فأجازي المحسن، وأعاقب المسيء.

[٥٧-٥٨] ثم بين سبحانه أنه لا يريد من خلقه رزقًا، بل لم يطلب منهم أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم، ولا يريد منهم أن يطعموه سبحانه، لأنه هو الرزَّاق المتكفّل بأرزاق جميع المخلوقات، صاحب القوة المتين الذي له القوة والقدرة كلها، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٥٩] واعلموا أيها الناس أن للذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، وبتكذيب محمد ﷺ نصيبًا من العذاب مثل نصيب من سبقهم من الأمم الكافرة، فلا يتعجلوا نزول العذاب بهم، فإنه آتيهم لا شك ولا ريب في ذلك.

[٦٠] ثم أخبر جل وعلا في ختام السورة بالهلاك والشقاء الأبدي الذي ينتظر هؤلاء الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله ﷺ يوم القيامة؛ ذلك اليوم الذي وعدهم الله فيه بالعذاب والنكال والخزي والبوار.

سورة الطور

سورة الطور مكيّة وآياتها تسع وأربعون آية.

[١] أقسم جل وعلا بعدد من مخلوقاته فأقسم بالطور، وهو الجبل المبارك الذي تمت عنده مكالمة موسىٰ عليه السلام لربه.

[٢-٣] ثم أقسم سبحانه بالقرآن العظيم المكتوب علىٰ الجلد الرقيق، المبسوط، والظاهر لكل أحد ينظر إليه.

[٤] ثم أقسم سبحانه بالبيت المعمور الذي تعمره الملائكة بالطواف فيه.



[٥] ثم أقسم سبحانه بهذه السماء العالية المرتفعة.

[٦] ثم أقسم سبحانه بالبحر المشتعل نارًا يوم القيامة.

[٧-٨] ثم جاء جل وعلا بجواب القسم فأخبر سبحانه أن عذاب ربك يانبي الله حاصل لا محالة لمن يستحقه من الكافرين المكذبين بالرسل، لا يدفعه عنهم دافع، ولا يجدون عنه مهربًا.

[٩] واعلموا أيها الناس أن هذا العذاب واقع في ذلك اليوم الذي ترتجّ فيه السماء ويختل نظامها وتضطرب اضطرابًا شديدًا من هول ذلك اليوم.

[١٠] وفي ذلك اليوم أيضًا تزول الجبال عن أماكنها وتسير عن مواضعها كسير السحاب.

[١١-١٢] ثم أخبر سبحانه أن الهلاك والشقاء في ذلك اليوم علىٰ المكذبين بالحق؛ الذين عاشوا حياتهم في لهو ولعب بالباطل، لا يذكرون حسابًا، ولا يخافون عقابًا.

[١٣] ثم بين سبحانه أن المكذبين يُدفعون في ذلك اليوم إلىٰ النار دفعًا عنيفًا.

[١٤] ثم يقال لهؤلاء المكذبين علىٰ سبيل التوبيخ والإهانة: هذه هي النار التي كنتم تكذبون بها وتسخرون منها.

أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ
أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦
إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ
وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٖ ٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا
بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا
كَسَبَ رَهِينٞ ٢١ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢
يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ
غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ
بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ
٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا
مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ
رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ
ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١

[١٥] ثم يقال لهؤلاء الكفار علىٰ سبيل التوبيخ: هل هذه النار وهذا العذاب الذي تشاهدونه هو من قبيل السحر؟ كما كنتم تقولون في الدنيا لرسل الله ولكتبه: هذا سحر، أم أنكم عمي عن هذا كما كنتم عميًا عن الحق في الدنيا؟. فاعلموا أن هذا العذاب حقيقة وليس سحرًا.

[١٦] ثم يقال لهم: ادخلوا النار، وقاسوا حرَّها وشدتها، وصَبْرُكم عليها وعدمه سواء، ولا خلاص لكم من العذاب جزاء ما كنتم تعملون من الشرك والتكذيب والمعاصي.

[١٧-١٨] ولما وضح جل وعلا حال المجرمين ذكر حال المؤمنين المتقين الذين اتقوا ربهم في الدنيا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ حيث أخبر سبحانه أنه يجازيهم بجنات يتنعمون فيها. ثم أخبر سبحانه أنهم يتلذذون ويتفكهون بما أعطاهم الله عز وجل مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، فرحين مسرورين أن الله نجاهم من عذاب النار.

[١٩] ثم يقال لهؤلاء المتقين وهم في الجنة - علىٰ وجه التكريم -: كلوا واشربوا ما يطيب لكم، هنيئًا دون تنغيص ولا كدر؛ بسبب ما كنتم تعملونه من التوحيد والأعمال الصالحة.

[٢٠] ثم بين جل وعلا بعض ما يتنعمون به في الجنة؛ فأخبر أنهم متكؤون في جلوسهم مرتاحون علىٰ أرائك مزينة بأنواع الزينة، مصفوفٌ بعضها إلىٰ جنب بعض، وأخبر سبحانه أنه زوجهم بزوجاتٍ من الحور العين وهنَّ نساءٌ جمعن كل صفات الجمال والحُسْن الظاهرة والباطنة، أعدهن الله لعباده المؤمنين المنعَّمين في جنات النعيم؛ إضافة إلىٰ زوجاتهم في الدنيا اللواتي جعلهن الله أحسن من الحور العين.

[٢١] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المؤمنين الذين دخلوا الجنة، واتبعتهم ذريتهم بإيمان؛ فقد أنعم الله عليهم وأتمم نعيمهم بأن ألحق بهم محبيهم من ذريتهم المؤمنين إكرامًا للآباء، وإن لم يبلغوا مراتب آباءهم بأعمالهم، ثم بين سبحانه أنه ما أنقص الآباء من أجور أعمالهم شيئًا، وبين أن كل امرئ مرهون ومحبوس بعمله، يُجْزىٰ به.

[٢٢-٢٣] ثم بين جل وعلا جانبًا آخر من نعيم أهل الجنة؛ فأخبر أنه زودهم بما يشتهون من فاكهة لذيذةٍ، ولحم طيب، ومن كل ما اشتهته أنفسهم وطلبته. وأنهم يتعاطون فيما بينهم كؤوس الخمر، ويناول بعضهم بعضًا إيَّاها، فيزداد بذلك أنسهم ونعيمهم، غيرَ أن خمر الجنة ليست كخمر الدنيا، فهي لا تذهب العقل، ولا تغطيه؛ فلا يجري بينهم لغوٌ وكلامٌ باطلٌ كما يحصل لمن يشربون خمر الدنيا مع أنها يحصل بها نشوة ولذة.

[٢٤] ثم بين جل وعلا جانبًا آخر من نعيم أهل الجنة؛ فأخبر أنه يطوف عليهم شبابٌ فتيانٌ يخدمونهم، ويناولونهم الطعام والشراب، كأنهم من حسنهم وبهائهم لؤلؤٌ مصونٌ في أصدافه، لم تمسُّه الأيدي، ووجه الشبه هو صفاء البشرة والنعومة.

[٢٥-٢٦-٢٧-٢٨] وبعد وصف النعيم الذي هُيِّئَ لهم أخبر جل وعلا أنهم يسألون بعضهم البعض؛ فيقولون: إنا كنا في دار الدنيا بين أهلنا وجلين خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه؛ فتفضل الله علينا وأجارنا من عذاب سموم جهنم الحار الشديد الحرارة. ثم قالوا: إنا كنا من قبل نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، ونتضرع إليه أن ينجينا من عذاب النار وسمومها، إن ربنا هو البرُّ كثير الإحسان واللطف بنا، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء.

[٢٩] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يُذَكِّرَ قومه بهذا القرآن العظيم، وأن لا يكترث بما يقولون، فأنت بنعمة الله عليك بالنبوة ورجاحة العقل لست كاهنًا يخبر بالغيب، أو مجنونًا لا يعقل ما يقول، كما يزعمون؛ فعليك الاستمرار في دعوتك، واثبت علىٰ ما أنت عليه من التذكير والوعظ والإرشاد، ولا يثنيك كلامهم بأنك مجنون أو ساحر أو كذاب.

[٣٠] ثم أنكر جل وعلا علىٰ هؤلاء المشركين المعاندين ما يقولون في محمد ﷺ أنه شاعر، وأنهم ينتظرون أن تصيبه حوادث الدهر من الموت والفناء، وينتهي ما جاء به، وما يدعو إليه.

[٣١] فقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: انتظروا موتي وفنائي، وأنا أنتظر عاقبة أمري وأمركم، وستعلمون لمن تكون له العاقبة، وعلىٰ من يتنزل النصر، ومن الذي يصيبه العذاب.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

سورة النجم

[٣٢-٣٣-٣٤] ثم وبخ جل وعلا هؤلاء المشركين فقال: هل حقًّا أمرتهم عقولهم - التي زعموا سلامتها - بهذه الأكاذيب والافتراءات؟!؛ أم أنهم قومٌ طاغون مجاوزون لحدودهم في الكفر والتكذيب والافتراء؟!. أم أنهم يقولون: إن محمدًا اختلق هذا القرآن واخترعه من قبل نفسه؟! وسبب هذه الفرية: هو كفرهم وجحودهم، وعدم إيمانهم بالله وتعلقهم بما وجدوا عليه آباءهم. فإن كان هؤلاء المشركون صادقين في قولهم: إن محمدًا اختلق هذا القرآن من عند نفسه، فعليهم - وهم الفصحاء البلغاء - أن يأتوا بحديث مثله، وهذا تحدٍّ وتعجيزٌ لهم، وإظهار لبطلان افترائهم وكذبهم.

[٣٥] ثم انتقل سبحانه إلىٰ توبيخ آخر فقال: هل خرج هؤلاء لهذه الحياة بهذا الجمال وهذا التكامل فجأة من غير مبدع صورهم فأحسن صورهم، كما يقول الدهريون أو الطبيعيون؟، أم أنهم هم الذين خلقوا أنفسهم علىٰ هذا النمط الكامل الحسن؟.

[٣٦] ثم انتقل جل في علاه إلىٰ توبيخ آخر فقال: هل خلق هؤلاء السماوات والأرض؟ لأنه لا يمكن لعاقل أن يقول: هما من خلقي، ولكن حقيقة هؤلاء أنهم ليسوا علىٰ يقين بوجود ربهم.

[٣٧] ثم استمر جل وعلا في توبيخهم فقال: هل عند هؤلاء المشركين مفاتيح خزائن ربك من النبوة والرزق؛ فيعطون من شاؤوا ويمنعون من شاؤوا؟! أم هم المتسلطون علىٰ خلق الله وملكه بالقهر والغلبة؟

[٣٨] ثم وبخهم سبحانه فقال: أم لهم سلَّمٌ يرقِّيهم إلىٰ السماء فيسمعون كلام الملائكة ويطلعون به علىٰ الغيب؟! فليأتِ من استمع منهم إلىٰ شيء من ذلك بحجة واضحة بينةٍ تشهد له.

[٣٩] ثم وبخهم سبحانه فقال: أم لله البنات؟ كما يزعمون افتراءً وكذبًا، ولهم البنون؟ وهذا تسفيه منه سبحانه لأحلامهم، وتضليل لعقولهم، فوبخهم سبحانه لأنهم جعلوا القسم المحتقر لديهم لله.

[٤٠] ثم وبخهم سبحانه فقال: هل تسألهم يانبي الله أجرًا مقابل تبليغك إياهم رسالةَ ربك؟! فهم من التزام هذا الأجر مُثقلون مُجَهَدون مُتعَبون؟!

[٤١] وتوبيخ آخر حيث قال سبحانه: هل يدعي هؤلاء أنهم يعلمون الغيب، فهم يكتبون للناس ذلك ويخبرونهم به؟! وأنَّىٰ لهم ذلك؟!

[٤٢] واستمر جل في علاه في توبيخهم فقال: هل يريدون بتكذيبك والافتراء عليك يانبي الله أن يقدحوا فيك؛ ليُفسدوا دعوتك؟! فكيدهم ومكرهم راجع إليهم، وضرره عائد عليهم، وهم المغلوبون المهزومون.

[٤٣] ثم وبخهم سبحانه أيضًا فقال: هل لهم إله يستحق العبادة غير الله؟ فتنزه وتقدس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام.

[٤٤] ومن شدة فجور هؤلاء المشركين وطغيانهم أنهم: إذا رأوا قطعًا في السماء متجهة إلىٰ الأرض عذابًا لهم، يقولون: هذا سحاب متراكم بعضه فوق بعض، أي: أنهم مهما رأوا من الآيات الدالة علىٰ عظمة الله مثبتةً لوجوده يؤولونها لانغلاق عقولهم وعمىٰ بصائرهم.

[٤٥] ثم أمر جل وعلا رسوله ﷺ أن يترك هؤلاء المشركين ويدعهم وشأنهم، ولا يكترث بهم؛ حيث دعاهم فأصروا علىٰ الكفر، حتىٰ يأتي اليوم الذي فيه يهلكون، ثم يجازون فيه بسيئات أعمالهم وهو يوم القيامة، وهذا فيه تسليه له ﷺ، وليس فيه منعه من التذكير والدعوة، ولكن منعه من الحزن عليهم.

[٤٦-٤٧] وفي ذلك اليوم الذي فيه يصعقون لا ينفعهم كيدهم الذي كادوا به رسول الله ﷺ في الدنيا، ولن يجدوا ناصرًا ينصرهم من عذاب الله في الآخرة. ثم أخبر سبحانه بأن لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي عذابًا في الدنيا غير عذاب يوم القيامة، ولكن أكثرهم لا يعلمون ما أعده الله لهم في الدنيا والآخرة.

[٤٨-٤٩] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يصبر علىٰ أذىٰ هؤلاء المشركين ولا يبالي بهم، وأن يمضي لأمر الله ونهيه، وأن يبلغ ما أرسل به، فإنه بمرأىٰ منه سبحانه يراه ويرىٰ أعماله، ويحوطه ويحفظه، ثم أمره أن يستعين علىٰ الصبر بأن ينزه ربه عما لا يليق به، وذلك بأن يسبحه حين يقوم من منامه أو من مجلسه أو حين يقوم للصلاة، وأن يكثر تسبيحه والصلاة له في بعض الليل، وعند وإدبار النجوم من آخر الليل وقبل صلاة الفجر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾

٥٢٦

سورة النجم

سورة النجم مكية وآياتها ثنتان وستون آية.

[١-٢-٣-٤] بدأ جل وعلا السورة بالإقسام بنجوم السماء إذا هوت للغروب. ثم جاء جواب القسم مخبرًا أن صاحبكم ياأهلَ قريش وهو محمد ﷺ ما حاد عن الطريق المستقيم، ولا اعتقد باطلًا أبدًا. وإنه لا يتكلم عن هوىٰ نفسي ورأي شخصي فيما يبلغكم به من الرسالة. إنه لا يتكلم إلا بوحي يوحيه الله إليه. قال الشنقيطي صاحب أضواء البيان عندما كان يدرسنا التفسير في كلية الشريعة: (النجم الذي أقسم الله به هو الجملة النازلة من القرآن؛ لأن القرآن نزل منجمًا علىٰ النبي ﷺ)، وعلىٰ هذا فيكون المعنىٰ: أن الله أقسم بالجملة النازلة من القرآن الذي نزل بها الملك إلىٰ النبي ﷺ[1]. [٥-٦-٧-٨-٩] ثم أخبر جل وعلا أن الذي علم محمدًا ﷺ هذا القرآن هو جبريل الذي من صفاته أنه شديد القوة. وذو منظر حسن، والذي ظهر واستوىٰ للنبي ﷺ علىٰ صورته الحقيقة التي خلقه الله عليها. وهو في أفق السماء، وقد كان سادًّا للأفق من ضخامته، وكانت هذه هي الرؤية الأولىٰ. ثم إنه دنا من النبي ﷺ إلىٰ غار حراء. وزاد في قربه حتىٰ صار علىٰ مسافة قوسين أو أقرب من النبي ﷺ، ولكن بصورة بشرية؛ لأن الصورة التي سدت الأفق لا يتصور أن تدخل الغار، والملائكة لهم القدرة في التحول إلىٰ أشكال البشر كما فعل الملائكة الذين كلفوا بإهلاك قوم لوط لما زاروا نبي الله إبراهيم عليه السلام.

[١٠-١١-١٢] ثم إن جبريل بلغ النبي ﷺ ما كلفه الله به من القرآن والهدىٰ والنور، ولم يبين ما أوحىٰ به تعظيمًا له، لأن الإبهام يأتي مراداً به التفخيم والتعظيم. ولما رأىٰ النبي ﷺ جبريل علىٰ صورته الحقيقة وتيقن منه فقد صدَّقه قلبه؛ لأن ما رآه ﷺ بعينه فقد رآه بقلبه. ثم وجه سبحانه الخطاب للمشركين فقال علىٰ سبيل التوبيخ: أفتجادلونه وتخاصمونه فيما أراه الله بعينيه؟!. [١٣-١٤-١٥-١٦] ثم أخبر جل وعلا أن النبي ﷺ رأىٰ جبريل مرة ثانية علىٰ صورته الحقيقية عندما أسري به. أما بعد ذلك فكان يراه بصورة إنسان ليحصل الأُنس وتخف الهيبة والروعة. ثم بين سبحانه أنه رأىٰ جبريل عند سدرة المنتهىٰ، وهي شجرة عظيمة جدًّا فوق السماء السابعة. وعند تلك الشجرة: جنة المأوىٰ الجامعة لكل نعيم. ويغشىٰ هذه الشجرة العظيمة من أمر الله شيء عظيمٌ لا يعلم وصفه إلا الله عز وجلّ. [١٧-١٨] ثم بين جل وعلا ما كان عليه ﷺ من الثبات والأدب فأخبر أنه كرس النظر بحسب ما أمر به ولم يتعد المنظور، والمقصود: إثبات أنها رؤية بصريةٌ حقيقية. ثم بين سبحانه أن النبي ﷺ رأىٰ ليلة الإسراء من الآيات العظيمة التي تدل علىٰ قدرة الله وعظمته؛ حيث رأىٰ السماوات، وقابل الأنبياء، ورأىٰ الجنة والنار، واطلع علىٰ أشياء كثيرة من آيات الله العظمىٰ. [١٩-٢٠] ثم لام جل وعلا الكفار علىٰ عبادتهم لهذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، والتي جعلوها شركاء لله مع ما علموا من عظمته جل في علاه. واللات: مأخوذ من اسم (الله)، وكانت بالطائف، أما العزىٰ: فقال مجاهد: شجرة كانت بغطفان كانوا يعبدونها، ثم أرسل إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فاجتثها، أما مناة: فهو صنم لخزاعة كان يعبده أهل مكة. [٢١-٢٢] ثم وبخ جل وعلا هؤلاء المشركين الذين يؤثرون النوع المحبوب وهو الذكر من نصيبهم، ويجعلون له سبحانه النوع المذموم وهو بزعمهم الأنثىٰ، والبنات عندهم محتقرات. فاعلموا أيها المشركون أن هذه قسمة شاذَّة غريبة جائرة. [٢٣] ثم عاد جل وعلا إلىٰ بيان حقيقة هذه الأصنام المعبودة؛ فأخبر أنها ليس لها من أوصاف الكمال شيء، إنما هي أسماء سميتموها أيها المشركون آلهة أنتم وآباؤكم، وليس عندكم حجة أو برهان من الله تؤيدون به ما تقولون، بل إنكم ما تتبعون إلا الظن وما تهواه أنفسكم الضالة، مع أنه جاءكم من ينبهكم إلىٰ سوء رأيكم علىٰ لسان النبي ﷺ. [٢٤-٢٥] وهل يظن ذلك الإنسان الكافر أن يحصل علىٰ ما يتمناه ويريده؟! بمجرد التمني؟! ومن ذلك تمني المشركين أن تشفع لهم هذه الآلهة الباطلة. كلا إن هذا لن يكون لأن الأمر كله بيد الله وحده، فله سبحانه أمر الآخرة والأولىٰ، يهب منها ما يشاء لمن يشاء برحمته وفضله، ويمنع منها ما يشاء عمن يشاء بحكمته وعدله. [٢٦] ثم يخبر جل وعلا أن كثيرًا من الملائكة الذين يعبدون الله ليلًا ونهارًا؛ ومع علوِّ منزلتهم لا تنفع شفاعتهم شيئًا؛ إلا إذا رضي الله عن المشفوع له وأذن للشافع أن يشفع، فإذا كان هذا حال الملائكة عند الله، فما بالكم بأصنام أرضية ميتة لا روح ولا حياة فيها، فهي بعيدة كل البعد عن الشفاعة، وكذلك الأولياء، ومن هو أكبر منهم، وهذه الآية أثبتت الشفاعة بشرطيها.

(١) وانظر كلام الشنقيطي رحمه الله في تفسير أضواء البيان (٧/ ٤٦٣).

[٢٧-٢٨] ذكر جل وعلا أن الكافرين الذين لا يصدقون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثىٰ، فيقولون: الملائكة بنات اللّه. ويسمون كل واحد منهم ويصفونه بصفة الأنوثة. ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لا علم لهم بما يقولون؛ فهم لم يشهدوا خلق الملائكة، ولا جاءهم من الله حجة أو برهان، وما يزعمون ذلك إلا بناءً علىٰ ظنهم، والظنّ لا تقوم به حجَّةٌ، ولا يثبت به حقّ.

[٢٩-٣٠] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ بالإعراض عن هؤلاء المستكبرين عن الإيمان واتباع القرآن، وَلَمْ يُرِدْ مِنْ تَمَسُّكِهِ بما هو عليه من الاستكبار إلا لتحقيق شهواته ورغائبه في الحياة الدنيا. وهذا غاية أمرهِم، ومنتهىٰ أَمَلِهِم، واعلم يانبي الله أن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله واتبع هواه، وآثر دنياه علىٰ أُخْراه، وهو أعلم بمن اهتدىٰ إلىٰ سبيل الحق والرشاد.

[٣١] ثم بين جل وعلا ما يدل علىٰ شمول ملكه لكل شيء فقال: ولله سبحانه وتعالىٰ وحده ملك ما في السماوات وما في الأرض؛ ليجزي يوم القيامة الذين أساءوا في أعمالهم بما يستحقون من العذاب، ويجزي الذي أحسنوا بالجنة.

[٣٢] ثم بين جل وعلا أن من صفات هؤلاء الذين أحسنوا: أنهم يجتنبون ويبتعدون عن كبائر الذنوب والمعاصي، ويبتعدون عن الفواحش كالزنا وغيره، ثم استثنىٰ سبحانه الذين يقعون في شيء من اللمم وهي الذنوب الصغار التي لا يصر عليها صاحبها، أو التي يلمّ بها المرة بعد المرة، علىٰ وجه الندرة والقلّة، فهذه لا تخرج العبد من كونه من المحسنين، فمن فعلها مع الإتيان بالواجبات وترك الكبائر والفواحش المحرمات فإنها تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كلَّ شيء، وهو سبحانه أعلم بكم وبأحوالكم حين خلق أباكم آدم من تراب، وأعلم بكم وبحالكم وأنتم في بطون أمهاتكم لم تولدوا بعد، وإذا كان سبحانه بصيرًا بأحوالكم وأقوالكم وأفعالكم فلا تزكوا أنفسكم ولا تخبروا الناس بطهارتها وزكاتها علىٰ وجه التمدح، فإنه سبحانه أعلم بمن اتقىٰ عقابه فاجتنب معاصيه. وفي هذا تحذير من التفاخر بالأعمال والأحساب والأنساب.

[٣٣-٣٤] هل رأيت يانبي الله أعجب من ذلك الذي أعرض عن الإسلام وأعطىٰ صاحبه قليلًا من ماله، ثم توقف عن العطاء وقطع معروفه الذي كان يبذله للفقراء؟ فهو كالذي يمشي فقابلته كُدْيَةٌ، أي: صخرة فتوقف عن المشي. والمقصود به هو الوليد بن المغيرة؛ حيث فكر في الإسلام وأدرك أنه حق، ثم ثناه الكفرة لما قالوا له: أتترك ما كان عليه أسلافك العظام؟!.

[٣٥] ثم قال جل وعلا : وهل اطَّلع هذا الإنسان المُمْسِك عن الإنفاق علىٰ علم الغيب فعلم أن ما في يده سينفد من النفقة، وعَلِمَ أن غيره سيتحمل عنه العذاب؟

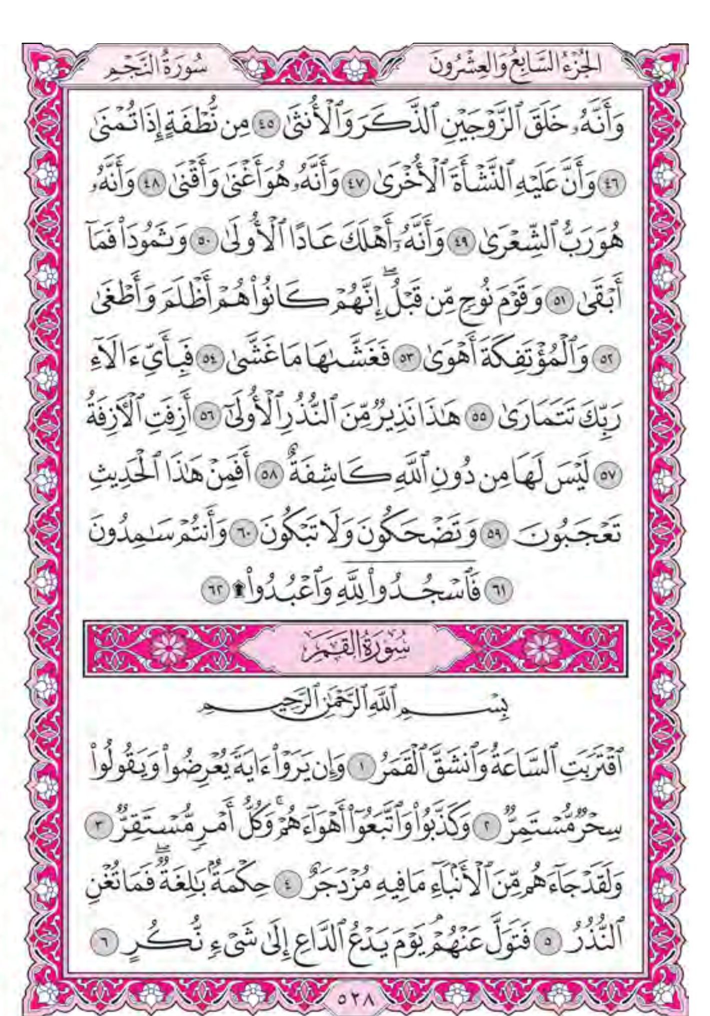
إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

[٣٦-٣٧] ثم قال سبحانه وتعالىٰ: ألم يُخبر هذا المدعي بما جاء في التوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ عليه السلام، أو بما جاء في صحف إبراهيم عليه السلام الذي وفَّىٰ ما أمره الله به وأتمه؟!!

[٣٨-٣٩] ثم بين جل وعلا أن مما تضمنته تلك الصحف: ألا تحمل نفسٌ ذنوب نفسٍ أُخرىٰ، وأن الإنسان ليس له إلا أجر سعيه وعمله؛ فأولاده والأعمال الصالحة كالوقف وغيره كل ذلك من سعيه.

[٤٠-٤١] ثم بين جل وعلا أن هذا الإنسان سوف يرىٰ ويبصر سعيه بنفسه يوم القيامة، ثم يحاسَب ويجازىٰ عليه أوفى الجزاء وأتمّه؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٤٢-٤٣-٤٤] ثم أخبر جل وعلا أن إليه وحده منتهىٰ الأمور يوم القيامة، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور. وأنه سبحانه يُضحك من يشاء ويُفرحه، ويُبكي من يشاء ويُحزِنُه، ويجعله قادرًا علىٰ ذلك؛ كل ذلك برحمته وفضله، وبحكمته وعدله. وأنه سبحانه هو وحده الذي يميت الأحياء في الدنيا، وهو وحده الذي يحيي الموتىٰ ويبعثهم من قبورهم يوم القيامة.


الجزء السابع والعشرون سورة النجم

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

سورة القمر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾

٥٢٨

[٤٥-٤٦-٤٧-٤٨-٤٩] ثم بين جل وعلا أنه هو الذي خلق الذكر والأنثىٰ وأوجدهما من العدم، وبين أنه خلق هذين الصنفين - من الإنسان والحيوان والجان - من نطفة المني التي تصبّ في الرحم وتتدفق فيه، وبين سبحانه أنه هو الذي يعيد خلق هذه الخلائق مرة أخرىٰ يوم البعث والنشور؛ ليجازي كلًّا بما يستحق. وبين سبحانه بأنه يغني من يشاء من عباده، ويفقر من يشاء منهم. وبيّن سبحانه بأنه هو ربُّ النجم المعروف بالشِّعْرَىٰ، وهو نجمٌ كان يُعبد في الجاهلية من دون الله.

[٥٠-٥١-٥٢-٤٣-٥٤-٥٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أهلك الأمم التي كذبت أنبياءها، فأهلك عادًا قوم هود، وأهلك ثمود قوم صالح، أهلكهم الله وأبادهم فلم يبقِ منهم أحدًا. وأهلك سبحانه قبل عاد وثمود قوم نوح؛ فأغرقهم بالطوفان، وقد كانوا أكثر مجاوزةً للحدّ من غيرهم، وأكثر إسرافًا في الشرك والتكذيب. وهكذا أهلك سبحانه المؤتفكة، وهي مدائن قوم لوط، فأمر الله جبريل فرفعها ثم نكسها وأهوىٰ بها إلىٰ الأرض، فجعل عاليها سافلها، ثم ألبسها الله من العذاب ما ألبسها من الحجارة التي وقعت عليهم، وعذبوا بألوان العذاب الأليم الذي لا يمكن وصفه، ولم ينج من هذه الأمم إلا رسلهم ومن آمن معهم. ثم ذكّر سبحانه الإنسان بنعمه التي أنعم بها عليه، وبين له أن نعم الله وآلاءَه عليه عظيمة وشاملة له ولغيره؛ فبأي شيء أيها الإنسان منها تشك وتنكر.

[٥٦-٥٧-٥٨] واعلم أيها الإنسان أن محمدًا ﷺ رسول أرسله الله كباقي الأنبياء الذين أرسلهم الله إلىٰ البشر، وأن مهمته ﷺ ورسالته مثل رسائلهم لهداية البشر. ثم أخبر جل وعلا أن الآزفة، أي: الساعة قد اقترب وقوعها، وأنه لا يدفعها من دون الله أحد، كما أنه لا يعلم بوقت وقوعها أحد من البشر.

[٥٩-٦٠-٦١-٦٢] ثم أنكر جل وعلا علىٰ المشركين تعجبهم من القرآن واستهزاءهم به وإعراضهم عنه، وأنهم يضحكون سخرية واستهزاءً به عند سماعه، وكان الواجب عليهم أن يبكوا من زواجره خوفًا من الوعيد الذي ينتظرهم. ثم بين سبحانه أنهم لعدم اكتراثهم بهذا القرآن فإنهم لاهون ساهون في أغانيهم ولهوهم. ثم أمر جل في علاه هؤلاء المشركين أن يتركوا ما هم عليه من كفر وضلال وأن يسجدوا لله إجلالًا له، ويعبدوه بإخلاص التوحيد له وإفراده بالعبادة.

سورة القمر

سورة القمر مكية وآياتها خمس وخمسون آية.

[١] يخبر جل وعلا أن الساعة التي هي جزء من أجزاء الزمن، وهي آخر ساعة من ساعات أيام الدنيا، وهي طلوع الشمس من مغربها قد اقتربت، وأخبر سبحانه أن القمر انشق نصفين معجزة للنبي ﷺ، وقد رأىٰ هذا الانشقاق كثير من الناس.

[٢-٣] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المشركين مهما رأوا من الأدلة أو المعجزات التي تدل علىٰ صدقك فإنهم سيعرضون ولن يؤمنوا بالله وبرسوله؛ بل سيقولون لك علىٰ سبيل التكذيب: إن هذا الذي أتيت به ما هو إلا سحر. ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الجاحدين كذبوا النبي ﷺ واتبعوا ما دعتهم إليه أهواؤهم من التكذيب، ثم بين سبحانه أن كل أمر لا بد له من نهاية، وهكذا أمر هؤلاء الكفار سينتهي إلىٰ الخسران، وأما أمر المؤمنين فسينتهي إلىٰ الفلاح ورضا الله عنهم.

[٤] واعلم يانبي الله أن كفار قريش قد جاءهم من أخبار الأمم السابقة، ومن المعجزات الظاهرة، والبراهين الواضحة؛ ما فيه زاجرٌ لهم يزجرهم عن طغيانهم، واستمرارهم علىٰ الكفر والشرك، ويكفي شاهدًا علىٰ ذلك ماحَلَّ بديارهم من دمار.

[٥] ثم بين جل وعلا أن هذا القرآن حكمةٌ بالغةٌ تامَّةٌ مِنَ الله عليهم، لتقوم الحجة علىٰ هؤلاء المعاندين، ولا يبقىٰ لهم عذرٌ، ولن تغني النذر ولن تفيد المعاندين شيئًا؛ لأن عنادهم يصرفهم عن قبول الحق.

[٦] وإذا كان الأمر كذلك فأعرض يانبي الله عنهم واتركهم؛ حيث إنك بلَّغْتَهم الرسالة وبينت لهم الحق فأصروا علىٰ الكفر، وهؤلاء الكفار سوف يأتيهم يومٌ عظيم الأهوال، يوم يُنفَخُ في الصور، فيُدعوْن للجزاء والحساب فيُبصرون أمرًا فظيعًا ينكرونه استعظامًا له لشدة الهول وفظاعته.

خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

[٧] بين سبحانه أن هؤلاء الكفار الذين يُدْعَوْنَ للجزاء والحساب سوف تكون أبصارهم كليلةً ذليلةً من الفزع والذل والهوان، يخرجون من قبورهم إلىٰ أرض المحشر مسرعين؛ كأنهم جرادٌ مبثوثٌ في الأرض متكاثرٌ جدًّا، لتفرقهم وانتشارهم، واختلاط بعضهم ببعض.

[٨] وبين سبحانه أنهم يخرجون مسرعين استجابة إلىٰ الداعي الذي دعاهم لأرض المحشر لا يخالفون ولا يتأخرون، وفي هذه الأثناء يقول الكافرون: هذا يوم صعب شديدٌ غير يسير.

[٩] ذكر جل وعلا أخبار الأمم المكذبة وما حل بهم من العذاب والنكال تسلية لرسوله ﷺ وتحذيرًا لكفار مكة، فقال سبحانه: لقد كذَّبت يانبي الله قبل قومك أقوام كثيرة، ومن هذه الأقوام قوم نوح عليه السلام؛ حيث كذبوا عبدنا نوحًا، وقالوا: إنه مجنون، وانتهروه مهددين له ومتوعدين بالإيذاء والتخويف إن لم ينته عن دعوته.

[١٠] ولما اشتد الإيذاء علىٰ نوح دعا ربَّه قائلًا: ربِّ إني ضعيفٌ عن مقاومة كيد هؤلاء الكفار المكذبين، فانصرني يارب عليهم وانتقم لي منهم.

قال ذلك عندما يئس من إيمانهم؛ حيث قال تعالىٰ له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[هود:٣٦].

[١١-١٢] فأخبر جل وعلا أنه استجاب لنوح، ففتح أبواب السماء، أي: السحاب، فصبت الماء صبًّا شديدًا، وفجر الأرض فكانت كلها ينابيع تُخْرِجُ ماءً كثيرًا غزيرًا، فالتقىٰ ماء السماء مع ماء الأرض علىٰ أمر قضاه الله وقدَّره، وهو هلاك هؤلاء الكافرين المعاندين.

[١٣-١٤] ثم بين جل وعلا أنه نجَّىٰ نوحًا والذين آمنوا معه بأنْ حملهم علىٰ سفينةٍ ذات خشبٍ عريضٍ مثبت بالمسامير، وهذه السفينة تجري برعايةِ وحفظِ الله، وأخبر سبحانه أنه أغرق الكافرين المكذبين جزاءً لهم علىٰ كفرهم وتكذيبهم.

[١٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أبقىٰ قصة نوح مع قومه عبرة ودليلًا لمن يأتي من بعدهم، فهل من متعظ ومعتبر؟

[١٦] ثم يوجه جلا وعلا قلوب السامعين إلىٰ ما يُلقىٰ إليهم قبل ذكره، فيسألهم: كيف رأيتَم عذابي ونذري لمن حلَّ بهم العذاب ونزل بهم؟ ألم يكن عذابًا أليمًا فظيعًا لا يحيط به الوصف؟.

[١٧] ثم بين جل وعلا أن من مظاهر فضله ورحمته أنه جعل القرآن سهلًا ميسرًا؛ حيث أنزله بأفصح لغة وأقوم لسان، فكان فصيحًا واضحًا بينًا، ولذا تجد أن من رغبوا في الإسلام من الأعاجم يفهمونه بكل يسر وسهولة؛ فهل من متعظ بمواعظه، معتبر بقصصه وزواجره؟.

[١٨] أخبر جل وعلا أن عادًا كذبت نبيها هودًا عليه السلام، ولم يؤمنوا به، ولم يتعظوا بإنذاره لهم، فهل علمتم ما حل بهم من العذاب والهلاك؟ إنه كان عذابًا أليمًا لا يحيط به الوصف.

[١٩] ثم بين سبحانه أنه أهلكهم بأن أرسل عليهم ريحًا باردةً شديدةً جدًّا، في يومٍ شديد العذاب والشقاء عليهم، دائم الشؤم والنحس.

[٢٠] وبين سبحانه أن هذه الريح تنزع الناس من شدتها وتقتلعهم فترفعهم ثم تدكّهم علىٰ أعناقهم فيهلكوا، فأصبحت جثثهم بعد الهلاك كأنها جذوع نخْلٍ أصابتها الريح الشديدة فاقتلعتها.

[٢١-٢٢] سبق تفسيرهما في الآيتين: ١٦، ١٧ من هذه السورة.

[٢٣] ثم أخبر جل وعلا أن ثمودًا كذبت نبيها صالحًا عليه السلام، ولم يؤمنوا به، ولم يتعظوا بنذارته لهم.

[٢٤] ثم أخبر سبحانه أن ثمودًا قالوا معاندين: كيف نتبع بشرًا مثلنا – ليس بمَلَكٍ –؛ بل هو من جنسِنا، وهو واحدٌ ونحن جماعة كبيرة؟! لو فعلنا ذلك؛ لكنا في جنون وبعدٍ عن الصواب.

[٢٥-٢٦] ثم قال قوم صالح: هل اخْتُصَّ هذا الرجل من بيننا فأُنزل عليه الوحي دوننا؟!! إنه لكذَّابٌ كثير الكذب شديدُه. فسيعلمون غدًا – قبحهم الله – حين ينزل عليهم العذاب من الكذاب شديد الكذب المتكبر.

[٢٧] ثم أخبر جل وعلا أنه سيلبي طلبهم وهو إخراج الناقة لهم من الصخرة، وسيجعل ذلك امتحانًا واختبارًا لهم، ثم أمره سبحانه بأن يصبر علىٰ دعوته إياهم، وأذاهم له، وأن يرتقب وينتظر هل يؤمنون أو يكفرون، ثم ينظر ما يحلّ بهم.

وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ﴿٤٤﴾ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾

[٢٨-٢٩] ثم قال جل وعلا لنبيه صالح علىٰ سبيل الإرشاد والتعليم: أخبر ياصالح قومك أن الماء مقسومٌ بينهم وبين الناقة، لهم يوم، ولها يوم. ولكن قوم صالح لم يناسبهم الأمر فلذا نادوا صاحبهم وهو أشقىٰ القوم، وحضُّوه علىٰ عقر الناقة، فتناول سيفًا فعقرها، غير مكترث بما سيترتب علىٰ هذا الأمر العظيم.

[٣٠] سبق تفسيرها في الآية ١٦ من هذه السورة.

[٣١] ثم أخبر سبحانه أن هذا العذاب الذي نزل بهم أنه أرسل عليهم صيحةً واحدةً، فأُهلكوا، وأُبيدوا، وصاروا كالحطب الذي يجمعه صاحب الماشية في الشتاء ليكون حظيرة تحيط بماشيته ليحفظها.

[٣٢] سبق تفسيرها في الآية ١٧ من هذه السورة.

[٣٣] ثم استأنف جل وعلا فأخبر أن قوم لوط ساروا علىٰ سنن المكذبين لرسلهم من الأقوام الماضية؛ فكذبوا نبيهم لوطًا عليه السلام، ولم يؤمنوا به، ولم يتعظوا بنذارته لهم.

[٣٤-٣٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل عليهم ريحًا شديدةً ترميهم بالحصباء والحجارة الصغيرة فهلكوا؛ إلا آل لوطٍ، أي: لوط وبناته، فأولئك نجَّاهم الله بخروجهم من تلك القرية آخر الليل قبل نزول العذاب الذي حلَّ بهم صباحًا. وأخبر سبحانه أنه نجَّىٰ آل لوط ومن آمن معه إنعامًا وإكرامًا لهم، وبمثل هذا ينجي الله كل من شكر نعم الله عليه، وأتىٰ بالتوحيد والإيمان والطاعة.

[٣٦] ثم أخبر جل وعلا أن لوطًا أنذر قومَه، وخوفهم عذاب الله الشديد، وعقابه الأليم، فلم يستجيبوا له، وشكُّوا في الإنذار ولم يصدقوه.

[٣٧] ثم بين سبحانه جرمهم القبيح الذي استحقوا به العذاب، وهو فعل فاحشة اللواط، والذي بسببه نزلت الملائكة لتعذيبهم؛ حيث جاؤوا مسرعين إلىٰ لوطٍ يراودونه علىٰ أضيافه ليفعلوا بهم الفاحشة كما هي عادتهم القبيحة، فطمس الله أعينهم ومسحها، فلم يبصروا شيئًا، ثم قيل لهم: ذوقوا عذابي الذي امتريتم فيه ولم تصدقوه، ولم تعملوا بنذارة نبيكم لوط عليه السلام.

[٣٨] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المجرمين من قوم لوط نزل بهم العذاب وقت الصبح، واستمر حتىٰ استأصلهم عن بكرة أبيهم؛ حيث أهلكهم الله بالحجارة التي أرسلت عليهم، واقتلعت الملائكة قراهم ورفعتها إلىٰ السماء ثم قلَّبتها، وجعلت عاليها سافلها.

[٣٩-٤٠] سبق تفسيرهما في الآيتين: ١٦، ١٧ من هذه السورة.

[٤١-٤٢] يخبر جل وعلا أن آلَ فرعون توالت عليهم الإنذارات، وجاءتهم الآية تلو الآية، ولكنهم كذبوا بجميع الآيات؛ ولهذا أهلكهم الله بالغرق، وأخذهم أخذ عزيز قوي غالب لا يعجزه شيء.

[٤٣] ثم خوف جل وعلا كفار مكة فقال سبحانه: هل أنتم أيها المكذبون المعاندون الذين كذبتم رسول الله وهو محمد ﷺ؛ خير وأكثر حصانة ومنعة ممن سبقكم؟، بالطبع الجواب: لا، فأنتم لستم بأكثر منهم قوة، ولا أوفر عددًا، أم أن لكم في الكتب المقدسة المنزلة من الله ما يثبت أنكم برآء، وأنكم غير مؤاخذين بكفركم.

[٤٤-٤٥] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الكفار بسبب غرورهم يقولون: نحن جميعنا يد واحدة وسوف ننتصر علىٰ من عادانا. فرد الله عليهم قولهم وأخبر أن جمع مشركي مكة سيهزمون ويولون الأدبار أمام المؤمنين، وهذا ما حدث في وقعة بدر، فتم بحمد الله نصر الإسلام؛ وهزم الجمع وولوا الدبر، وقتل عتاتهم كأبي جهل وأمثاله وأسر سبعون منهم، وهكذا الكفر والغرور يهلك أصحابه.

[٤٦] ثم هدد جل وعلا هؤلاء الكفار وأخبر أن ما نزل بهم من عذاب في الدنيا إنما هو مقدمة لما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة، وهو بلا شك عذاب أعظم وأفظع وأشد مرارة مما حدث لهم يوم بدر؛ فهو جزاء سرمدي في النار والعياذ بالله.

[٤٧-٤٨] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المجرمين المجاوزين حدودهم بالشرك والمعاصي؛ في ضلال وغواية، وتيهٍ وحيرة في الحياة الدنيا، وفي الآخرة في نار السعير التي تشتعل في أجسامهم، وتحرق قلوبهم. وأنهم سيساقون علىٰ وجوههم إلىٰ جهنم سوقًا، ويقال لهم إيلامًا وتعنيفًا: ذوقوا حر النار وآلامها جزاءً وفاقًا لتكذيبكم رسل الله في كل ما جاءوا به.

[٤٩] ثم بين سبحانه أن كل ما يوجد في هذه الحياة فهو مقدرٌ ومكتوب في اللوح المحفوظ من الأزل، وأنه سبحانه أعطىٰ كل مخلوق قدرة علىٰ المهمة التي خلق لها.

[٥٠] ثم أخبر جل وعلا بعظيم قدرته فقال: وما شأننا في الخلق والإيجاد إلا أن نقول للشيء: (كن) فيكون، فيأتي كلمح البصر. [٥١] واعلموا يامعشر قريش بأننا أهلكنا أشباهكم من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية، واستأصلنا شأفتهم بحسب سنتنا في أمثالهم، بشتىٰ العقوبات، ومختلف الوسائل؛ أفما كان لكم في ذلك مزدجر تعتبرون به؟. [٥٢-٥٣] ثم بين جل وعلا أن كل أعمال هؤلاء الكفار محصاة عليهم؛ فجميع ما فعلته الأمم من خير أو شر مكتوب ومحفوظ، وسيحاسبون علىٰ النقير والقطمير. ثم بين سبحانه أن كل شيء من أعمال الخلق، أقوالهم وأفعالهم وما هو كائن، مسطور في اللوح المحفوظ صغيره وكبيره، وجليله وحقيره. [٥٤-٥٥] ختم جل وعلا السورة بذكر إكرامه وإحسانه للمتقين الذين يخافون الله، وأخبر بأنهم سيدخلون يوم القيامة الجنة ويتمتعون فيها ببساتين عظيمة، وأنهار واسعة. وأنهم في مجلس كريم، لا لغو فيه ولا تأثيم، مقربون عند ملك عظيم، قادر علىٰ كل شيء. ولا شك أن النعيم علىٰ قدر المنعم، ونحن في حياتنا نقول: الهدايا علىٰ قدر مهديها. فنسأل الله أن يمن علينا برحمته في هذه الليلة المباركة من العشر الأواخر في رمضان من عام ١٤٣٤هـ.

سورة الرحمن

سورة الرحمن مدنية وآياتها ثمان وسبعون آية.

[١] افْتُتِحَتْ هذه السورة بهذا الاسم الجليل (الرحمن)، وهو الله جل في علاه، صاحب الرحمة الكاملة في الدنيا والآخرة. [٢] ثم عدد سبحانه نعمه علىٰ عباده، وبدأ بأعظمها وهو القرآن؛ فذكر أنه علم نبيه ﷺ تلاوة آياته؛ حيث إن جبريل قام بتعليم الرسول ﷺ القرآن بأمر من الله، والرسول ﷺ علمه أمته. [٣] ثم ذكر سبحانه أنه خلق الإنسان، أي: أوجده وكونه علىٰ الصورة التي أراد الخالق المبدع. [٤] ثم ذكر سبحانه أنه علم الإنسان البيان الذي يتم به التفاهم بين الخلق في جميع أمورهم. وتقديم القرآن علىٰ خلق الإنسان فيه دلالة علىٰ أن الله أوجد له منهجه قبل خلقه، وأنه نعمة عظمىٰ من الله تستحق الشكر والامتثال.

[٥] ثم امتن جل وعلا علىٰ عباده بنعمة أخرىٰ وهي أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما يجريان بحساب متقن لا يختلف ولا يضطرب، ولا يتعديان ما رسم لهما، ومن فوائد خلقهما أنهما يدلان علىٰ الشهور والسنين والفصول ومواقيت الغرس والزرع وجني الثمار، ومواقيت العبادات.

[٦] ومن نعمه سبحانه علىٰ عباده هذه النجوم التي خلقها في السماء؛ فهي زينة للسماء ورجومٌ للشياطين، ويُهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، ومن نعمه هذه الأشجار التي تنبت في الأرض، والتي كلها تنقاد لله وتنفذ ما كلفت به بدقة، وهي كالمخلوقات تسجد لله سجودًا حقيقيًّا لا يعلمه إلا الله مثل تسبيح الكائنات، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الحج:١٨].

[٧-٨-٩] ونعمة أخرىٰ امتن بها جل وعلا علىٰ عباده وهي أنه خلق هذه السماء ورفعها بدون أعمدة مرئية فجعلها سقفًا للأرض

وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

سُورَةُ الرَّحْمَٰن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

والفضاء الذي بينهما، ثم أخبر سبحانه بأنه شرع العدل وأمر به في كل الأمور؛ لكي لا يتجاوز أحد حدوده فيظلم ويجور، وأمرهم أن يقيموا الوزن بالعدل، وأن لا ينقصوا الميزان إذا وزنوا للناس.

[١٠-١١-١٢] ونعمة أخرىٰ امتن بها جل وعلا علىٰ عباده وهي أنه خلق هذه الأرض وبسطها وهيأ فيها مقومات العيش، وقدر فيها أرزاقها. وخلق فيها أنواع الفواكه التي تتلذذون بأكلها، ومنها فاكهة النخل ذات الأغلفة التي تغطي الثمرة حتىٰ إذا نمت انشق الغلاف لتتهيأ للنمو ثم للنضح، قال ابن كثير: أفرد النخل بالذكر لشرفه ونفعه رطبًا ويابسًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾[ق:١٠-١١]. ثم بين سبحانه أنه خلق فيها أنواع الحبوب المغطاة بالقشور قوتًا لكم ولأنعامكم، وخلق فيها أنواع النباتات التي تتميز برائحتها الزكية. [١٣] ثم خاطب جل وعلا الجن والإنس علىٰ سبيل التقرير وكرر ذلك للتأكيد فقال سبحانه: فبأي نعم ربكم أيها الجن والإنس تكذبان؟!، أي: أنها نعم لا يكذَّب بها. [١٤-١٥] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق آدم عليه السلام أبا البشر من طين يابس يُسمَع له صلصلة تشبه صوت الفخار، وهو الخزف الذي طبخ علىٰ النار، وأخبر أنه خلق إبليس، - وهو أبو الجن - من لهب النار الصافي. [١٦] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة. [١٧] ثم أخبر جل وعلا أن الذي أبدع كل هذه النعم هو ربُّ وخالق مشرقي الشمس وَمغْرِبَيْهما شتاءً وصيفًا. [١٨] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٢٤﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ
رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾
يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ
أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ
إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا
شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ
﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن
ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾
يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾

[١٩] ثم امتن جل وعلا بنعمه علىٰ عباده في البحر؛ حيث أرسل وأجرىٰ البحرين - العذب والمالح - يلتقيان ويجريان جنبًا إلىٰ جنب ولا يمتزجان.

[٢٠] ثم بين سبحانه أنه جعل بين البحرين حاجزًا يجعلهما لا يختلطان اختلاطًا يذهب أحدهما فيه بخصائص الآخر.

[٢١] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٢٢] ثم أخبر جل وعلا أنه أنعم علىٰ عباده باستخراج اللؤلؤ والمرجان من هذه البحار، واللؤلؤ: هو الدر الذي يخرج من الصدف، والمرجان: هو شجر أحمر يصنع منه الخرز المعروف.

[٢٣] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٢٤] ثم بين جل وعلا أنه وحده الذي سخر لكم السفن التي تجري في البحر وتشقه بإذن الله، وهي تشبه الجبال في عظمتها وارتفاعها، فتنتفعون بها في أسفاركم وتجاراتكم وغيرها.

[٢٥] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٢٦-٢٧] ثم أخبر جل وعلا أن كل من علىٰ الأرض من المخلوقات الحية يفنىٰ ويبيد وينتهي، ولا يبقىٰ إلا الله الواحد الأحد صاحب الجلال والعظمة والكبرياء والمجد، وصاحب الإكرام، واسع الجود، كثير الفضل والعطاء؛ سبحانه جل في علاه.

[٢٨] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٢٩] ثم أخبر جل وعلا أن كل من في السماوات والأرض مفتقر إليه سبحانه؛ وأن جميع الخلائق محتاجة إليه؛ فيسألونه حاجاتهم؛ فأهل السماء يسألونه المغفرة، وأهل الأرض يسألونه المغفرة والرزق، ثم بين سبحانه أنه في كل ساعة وكل لحظة في شأن من شؤون السائلين من خلقه؛ فيغني ويفقر، ويعز ويذل، ويغفر ذنبًا، ويفرِّج كربًا، ويحيي ويميت.

[٣٠] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٣١] ثم بين جل وعلا أنه سينظر في أمور الخلائق يوم القيامة، ويجازيهم علىٰ أعمالهم التي عملوها في دار الدنيا بعد إمهال طويل.

[٣٢] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٣٣] ثم يقول جل وعلا علىٰ سبيل التعجيز والتحدي: يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض وأطرافهما هربًا من عقاب الله؛ فافعلوا ذلك، ولكن اعلموا أنكم لن تقدروا علىٰ ذلك إلا بقوة ظاهرة قاهرة غالبة، ولا قوة لكم ولا سلطان، فأنىٰ تستطيعون ذلك؟! وقوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾: قيل: بسلطان من الله، وقال الضحاك: إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا.

[٣٤] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٣٥-٣٦] ثم أخبر جل وعلا أنهم إذا حاولوا الهروب فإنه سوف يُرسَلُ عليهم لهبٌ صاف من النار - لا دخان فيه -، ونحاسٌ مُذابٌ يصبُّ علىٰ رؤوسهم، فلا ينصر بعضهم بعضًا، ولا يمنع بعضهم بعضًا من عذاب الله. ثم خاطب جل وعلا الجن والإنس علىٰ سبيل التقرير وكرر ذلك للتأكيد فقال سبحانه: فبأي نعم ربكم أيها الجن والإنس تكذبان؟!، أي: أنها نعم لا يكذب بها. وهذه في ظاهر الأمر ليس نعمة، لكن إخباره بها في الدنيا يكون نعمة لإعطاء العباد فرصة للتوبة والعمل الصالح.

[٣٧] وفي هذا اليوم يوم الانقلاب الكوني تتصدع السماوات فتنزل الملائكة فتحيط بالخلائق من كل جانب، وتكون السماء مثل الورد الأحمر من حرارة النار، وذلك من شدة هول ذلك اليوم العظيم، ثم يعيد سبحانه تكوينهم علىٰ النحو الذي يصلح للبقاء السرمدي.

[٣٨] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٣٩] ثم بين سبحانه أنه في ذلك اليوم الرهيب لا يَسأل أحد من المذنبين من الإنس والجن عن ذنبه؛ لأنهم يُعرفون بسيماهم، ولأن كل شيء مثبت في صحف أعمالهم.

[٤٠] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٤١] ثم ذكر جل وعلا أن المجرمين المجاوزين حدودَهم بالشرك والمعاصي يوم القيامة يعرفون بعلاماتهم؛ كاسوداد الوجوه، وزرقة العيون؛ ثم تأخذهم ملائكة العذاب أخذةً بشعةً؛ بحيث يُجمع بين مقدمة رأس أحدهم وقدمه، ثم يُرمىٰ به في النار، عياذًا بالله من ذلك.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ
﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾
فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

[٤٢] ثم خاطب جل وعلا الجن والإنس علىٰ سبيل التقرير وكرر ذلك للتأكيد فقال سبحانه: فبأي نعم ربكم أيها الجن والإنس تكذبان؟!، أي: أنها نعم لا يكذب بها. وكما قلت سابقًا فإن ما ذكر في الآية السابقة أيضًا ليس نعمة، وإنما أخبر بها في الدنيا ليعمل الإنسان علىٰ الخلاص منها فيكون نعمة.

[٤٣-٤٤-٤٥] ثم يقال لهؤلاء المجرمين علي سبيل التوبيخ: هذه نار جهنم التي كنتم بها تكذبون. فهاأنتم الآن تشاهدونها بأم أعينكم وتسعون مترددين بينها وبين الماء الشديد الحرارة والغليان، فتُحرَقون بالنار، وتشربون من هذا الماء. ثم خاطب جل وعلا الجن والإنس علىٰ سبيل التقرير وكرر ذلك للتأكيد فقال سبحانه: فبأي نعم ربكم أيها الجن والإنس تكذبان؟!، أي: أنها نعم لا يكذب بها. وهذه كما قلت: ليست نعمة، وإنما هي جزاء، ولكن ذكرها في الدنيا يكون نعمة لتنبيه العباد للتوبة والعمل الصالح.

[٤٦] ثم ذكر جل وعلا نعمه الأخروية علىٰ عباده المؤمنين؛ فأخبر أن من يخاف ربه، ويخاف ذلك الموقف الذي سيحاسب الله فيه عباده؛ فإن له جنتين.

[٤٧] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٤٨] ثم وصف جل وعلا هاتين الجنتين فأخبر أنهما ذواتا أنواعٍ وألوان من الأشجار والثمار، وذواتا أغصان ناعمةٍ نضرةٍ فيها ثمارٌ يانعةٌ لذيذة.

[٤٩] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٥٠] وفي كل واحدة من هاتين الجنتين عين تجري بالماء الزلال، تسرحان وتسقيان تلك الأشجار والأغصان.

[٥١] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٥٢] وفي هاتين الجنتين من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان، كل صنفٍ مميزٍ عن الآخر بلذته ولونه.

[٥٣] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٥٤] ومن نعمه جل وعلا علىٰ أهل الجنة أنهم يجلسون مرتاحين مستقرين كأحسن ما يكون الجلوس، متكئين علىٰ فرشٍ فاخرة، بطائنها التي تلي الأرض من ديباجٍ غليظ، فكيف بما يلي بشرتهم؟!! فبالتأكيد أنه من ديباج ناعم، وكذلك ثمر الجنة الناضج قريبٌ منهم، يتناولونه متىٰ شاؤوا وكيف شاؤوا.

[٥٥] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٥٦] ثم ذكر جل وعلا أن في هاتين الجنتين وعلىٰ هذه الفرش نساء غضيضات الطرف عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئًا فيها أحسن منهم، وهن أبكار لم يجامعهن أحد قبلهم، لا من الجن ولا من الإنس. ذكر في هذه الآية الطمث: وهو دم يخرج إذا افتضت البكارة، يقال: طمث الرجل امرأته، إذا أزال بكارتها، وأصل الطمث: الجماع المؤدي إلىٰ خروج دم الفتاة البكر عند أول جماع لها بعد زواجها، ثم أطلق علىٰ كل جماع، وإن لم يكن معه دم، ويطلق أيضًا علىٰ الدم الخارج من قبل المرأة في فترة الحيض والنفاس.

[٥٧] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٥٨] ثم وصف جل وعلا هؤلاء النساء بأنهن يشبهن الياقوت والمرجان في صفاء بشرتهن، ونعومة ملمسهن، وحمرة خدودهن.

[٥٩] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٦٠] ثم ختم جل وعلا هذه النعم، فبين أنه ليس جزاءُ من أحسن العمل بتوحيده وإخلاص العبادة له، إلا الإحسان في المثوبة، بدخول الجنة والخلود في النعيم المقيم.

[٦١] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٦٢] ثم أخبر جل وعلا أن مِنْ دُونِ تلك الجنتين في الفضيلة والقدر جنتين أخريين لمن خاف ربه وكان عمله أقل من أصحاب الجنتين السابقتين، أي: أنه سبحانه ينزل عباده الصالحين منازلهم حسب التسلسل المقبول عنده جل في علاه؛ وذلك بحسب إيمانهم وأعمالهم.

[٦٣] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٦٤] ثم وصف جل وعلا هاتين الجنتين بأنهما تنبتان النبات والرياحين الخضراء التي تضرب إلىٰ السواد من شدة خضرتها، ويخيل للناظر لهما من بعيد أنهما قد اسودَّتا.

[٦٥] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٦٦] وفي هاتين الجنتين عينان فوَّارتان بالماء العذب الزلال دائمًا أبدًا، لا تنقطعان، ولا تغوران.

[٦٧] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٦٨] وفي هاتين الجنتين من جميع أصناف الفواكه؛ لا سيما النخل والرمان، وخُصَّتَا بالذكر لحسنهما، وكثرة نفعهما.

[٦٩] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.



[٧٠] ثم أخبر جل وعلا أن في هذه الجنات: زوجاتٌ خيِّراتُ الأخلاق حسنات الوجوه.

[٧١] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٧٢] ثم بين جل وعلا أن تلك الزوجات الجميلات من الحور العين محبوساتٌ في الخيام؛ فلسن بطوَّافات في الطرقات، بل يُقصرن علىٰ أزواجهن. والحوراء: من غلب بياض عينيها سوادهما.

[٧٣] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٧٤] وهؤلاء الزوجات من الحور العين أبكارٌ، لم يجامعهن أحد قبلهم، لا من الجن ولا من الإنس، ويستحسن هنا أن نذكر أن زوجاتهم في الدنيا يكون خلقهن وجمالهن أحسن من الحور العين.

[٧٥] سبق تفسيرها في الآية ١٣ من هذه السورة.

[٧٦] ثم بين جل وعلا أن أصحاب هذه الجنات متكؤون علىٰ وسائد وبُسُطٍ خُضر، وفُرُشٍ منسوجةٍ نسجًا حسنًا فاخرًا.

[٧٧] سبق تفسيرها في الآيةِ ١٣ من هذه السورة.

[٧٨] ثم ختم جل وعلا السورة مبينًا أنه تكاثرت بركة اسمه سبحانه وكثر خيره، وتقدس وتنزه عن أن يظلم أحدًا؛ فهو أهل الكرم؛ حيث أنزل عباده الصالحين منازلهم التي هم أهل لها بسبب أعمالهم المقبولة؛ نسأل الله أن يشملنا برحمته، وأن نفوز برضاه.

سورة الواقعة

سورة الواقعة مكية وآياتها ست وستون آية.

[١] بدأت هذه السورة بالإخبار عن الواقعة وهي يوم القيامة الذي لابد من وقوعه، عندما ينفخ في الصور لقيام الساعة.

[٢] واعلموا أيها الناس إذا قامت القيامة وتحقق وقوعها، لم يكن هناك من يكذب بمجيئها؛ وحينئذ سوف يخسر المبطلون النافون للبعث لأنهم يرونها عيانًا بيانًا أمامهم. والواقعة اسم من أسماء يوم القيامة، مثل: الآزفة والصاخة.

[٣] ثم بين جل وعلا أن من أهوال يوم القيامة أنها تخفض أقوامًا وترفع آخرين، وقدم الخفض لتهويل الأمر وهو أن يوم القيامة هوله صعب علىٰ الكلمات والألفاظ.

[٤] ثم ذكر سبحانه أن الأرض تتزلزل وتضطرب اضطرابًا شديدًا.

[٥] ثم ذكر جل شأنه أن الجبال تتفتت تفتيتًا دقيقًا.

[٦] وبين جل في علاه أن من شدة تفتيتها تصير كالهباء المنثور المتطاير في الهواء.

[٧] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن الناس ينقسمون إلىٰ ثلاثة أصناف، فاثنان من الأصناف الثلاثة في الجنة والثالث في النار. والراجح أن المقصود بالخطاب هما الثقلانِ من الإنس والجن من الأولين والآخرين وليس فقط للذين نزلت عليهم الآية.

[٨] ثم بين سبحانه أول هذه الأقسام، وهم أصحاب الميمنة الذين يستلمون صحائفهم باليمين، ثم يسار بهم إلىٰ اليمين للجنة؛ فما أعظم شأنهم، وما أفخم أحوالهم!!

[٩] وأما القسم الثاني فهم أصحاب المشأمة، أي: أصحاب الشمال الذين يستلمون صحائفهم بالشمال، ثم يسار بهم إلىٰ الشمال للنار والعياذ بالله؛ فما أحقر شأنهم، وما أسوا عاقبتهم!

[١٠-١١-١٢] وأما القسم الثالث فهم القسم الأعلىٰ، الذين سبقوا في الدنيا إلىٰ الكمالات الإيمانية، من الإخلاص والجهاد وأعمال البر المتنوعة والأعمال الصالحات؛ فالسابقون في الدنيا إلىٰ الخيرات هم السابقون في الآخرة إلىٰ رضوان الله، وهم المقربون إلىٰ الثواب والجزاء الأعظم عند الله في الدرجات العليا في جنة عدن. وربما يكون هذا التقسيم للإنس والجن منذ عصر آدم إلىٰ قيام الساعة.

[١٣-١٤] ثم بين جل وعلا أن هذا الصنف المختار من المؤمنين كثير منهم من المتقدمين من أمة محمد وغيرها، وقليل منهم من الآخرين، وهذا يدل علىٰ فضل سلفنا الصالح من أصحاب محمد ﷺ ومن التابعين؛ فهم المقربون إلىٰ ثواب الله وعظيم كرامته.

[١٥-١٦] ثم بين جل وعلا ما أعده للسابقين بالخيرات؛ فأخبر أنهم في تلك الجنات علىٰ سرر منسوجة من خيوط الذهب، مزخرفة بالدر والياقوت والزبرجد، متكئين عليها يقابل بعضهم بعضًا.

[١٧-١٨-١٩] وهؤلاء السابقون بالخيرات يدور عليهم لخدمتهم ولدانٌ في غاية الحسن، لا يهرمون ولا يتغيرون، معهم أكواب وأباريق، وكأسٌ من خمر لذيذة خارجة من عين لا تنضب، لا آفة فيها، ولا أذية، فلا يحصل لهم صداعٌ ولا تذهب عقولهم من شربها.

[٢٠-٢١] ولهم في الجنة ما يتخيرون وما يشتهون من الفواكه اللذيذة، ولهم من لحم الطير ما يشتهون من أصنافها وأجناسها.

[٢٢-٢٣] ولهم في الجنة أيضًا حورٌ عينٌ، وهنَّ النساء الجميلات ذوات العيون الواسعة الجميلة، المصونات العفيفات حتىٰ كأنَّهنَّ اللؤلؤ المصون الذي لم يُمسّ، بالإضافة إلىٰ نسائهم في الدنيا اللواتي جعلهن الله أجمل من الحور العين.

[٢٤] ثم بين جل وعلا أن هذه النعم كانت جزاءً لهم بما كانوا يعملون في الدنيا بما أُمروا به من التوحيد وكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال.

[٢٥-٢٦] ومما أنعم الله عليهم أنهم لا يسمعون في الجنة ما فحش من القول أو جلب الإثم، وما لا فائدة منه، فلا يسمعون إلا الكلام الطيب، ومنه: سلام بعضهم علىٰ بعض، وتحية بعضهم بعضًا.

[٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣١-٣٢-٣٣-٣٤] ولما فرغ جل وعلا من ذكر أحوال السابقين ذكر أحوال نعيم أصحاب اليمين، وما هم صائرون إليه من النعيم؛ فأخبر أن أصحاب اليمين ما أعظم شأنهم وما أرفع منزلتهم؛ فهم مستقرون في جنات مليئة بشجر السدر الذي خلا منه الشوك، والموز المتراكب بعضه علىٰ بعض، وظل ممتد دائم لا يزول، وماءٍ عذب زلال منصبٍّ يجري ويتدفق من عيون الجنة وأنهارها، وفاكهةٍ لذيذةٍ كثيرة موجودةٍ علىٰ الدوام، لا تنقطع في وقتٍ من الأوقات، بل إنها تقترب ممن أراد قطعها، وأهل الجنة مع كل هذا يجلسون علىٰ أسرَّةٍ عاليةٍ مرتفعة.

[٣٥-٣٦-٣٧-٣٨] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق نساء أهل الجنة من الحور العين خلقًا جديدًا، وأنه يعيدُ خلق نسائهم في الدنيا خلقًا جديدًا، ويجعلهن أجمل من الحور العين، ولا يفنيهنَّ الموت، ثم جعلهن أبكارًا - لم تفتضّ بكارتهنّ بعد -، متحببات إلىٰ أزواجهن متساويات في السنّ، وجعلهن لأزواجهن من أصحاب اليمين من أهل الجنة الذين آمنوا بالله، وعملوا الصالحات في الدنيا.

[٣٩-٤٠] ثم بين جل وعلا أن هذا الصنف المختار من أصحاب اليمين كثير منهم من المتقدمين من الأمم السابقة، وكثير منهم من أمة محمد ﷺ.

[٤١-٤٢-٤٣-٤٤] ثم شرع جل وعلا في بيان أصحاب الشمال،

يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ٤٥ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ٤٦ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ٤٨ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠

وهم الكفار والمشركون والملحدون والمنافقون نفاقًا اعتقاديًّا، وغيرهم من ملل الكفر، فما حال هؤلاء القوم وما جزاؤهم؟ إنهم في حرّ ينفذ في مسامِّ الجسد، وشرابهم من ماء حار شديد الغليان، ويظلهم دخان شديد السواد، وهذا الدخان ليس ببارد، ولا حسن المنظر.

[٤٥-٤٦-٤٧-٤٨] ثم ذكر جل وعلا أعمال الكفار التي استحقوا بها هذا العذاب، فأخبر أنهم كانوا في الحياة الدنيا مُتَنَعِّمين، لا هَمَّ لهم إلا السعي وراء شهواتهم، وكانوا يصرون علىٰ الجرم الكبير الذي هو الشرك، وكانوا ينكرون البعث، ويقولون - علىٰ وجه الاستبعاد والتكذيب -: أإذا متنا وصرنا ترابًا وعظامًا باليةً أإنا لمبعوثون مرة أخرىٰ؟! وسيُبعث آباؤنا الذين ماتوا قبلنا؟!

[٤٩-٥٠] ثم أمر جل وعلا رسوله ﷺ أن يجيبهم ويقول لهم: إن الأولين من الأمم السابقة، والآخرين من الأمم اللاحقة؛ سوف يجمعهم الله في صعيد واحد، وفي يوم مؤقت محدد لا يعلم وقت مجيئه إلا هو وحده سبحانه، وهو يوم القيامة.

ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾

[٥١-٥٢-٥٣-٥٤-٥٥-٥٦] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: إنكم أيها الضالون عن طريق التوحيد والهداية والجاحدون ليوم البعث، لآكلون من شجر الزقوم وهي شجرة ملعونة، كريهة المنظر والطعم، وسوف تأكلون منها حتىٰ تمتليء بطونكم. ثم تشربون عليها ماءً حارًّا يغلي بسبب العطش الشديد، ولكنه شرب لا يشفي الغليل، ومن ثم تشربون ولا ترتوون؛ فكأنكم الإبل التي أصيبت بداء الهيام فلا يروي لها الماء غليلًا. ثم اعلموا أن هذا الطعام وهذا الشراب هو ضيافتكم التي أعدت وجهزت لكم يوم القيامة.

[٥٧] واعلموا أيها الناس أن الله جل وعلا هو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئًا، فلماذا لا تصدقون بالبعث؟ وهل الذي أوجدكم علىٰ غير مثال سابق يعجز عن إعادتكم؟!.

[٥٨-٥٩] ثم ذكر جل وعلا أربعة أدلة تثبت صحة البعث وإمكانية وقوعه؛ حيث قال سبحانه في الدليل الأول: أخبروني أيها المشركون عن هذا المني الذي تقذفونه في أرحام نسائكم هل أنتم خلقتموه وخلقتم ما به من الحيوانات المنوية ورتبتم عددها وما تحمل من صفات في كون المخلوق منها أنثىٰ أو ذكر؟! أم أن الله هو الذي خلق ذلك وقدره سبحانه؟

[٦٠-٦١] ثم اعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذي قدر لموتكم أجالًا مختلفة حسب ما اقتضته مشيئته سبحانه، وأنه جل في علاه ليس بعاجز عن أن يهلككم ويوجد خلقًا آخر شبيهًا لكم، وليس بعاجز أن يغير خلقكم يوم القيامة وينشئكم خلقًا يحمل ما لا تعلمونه من الصفات والأحوال التي تتناسب مع حياتكم الأبدية الجديدة؛ فأهل الجنة لهم صفاتهم وأحوالهم التي تناسبهم، وأهل النار لهم صفاتهم وأحوالهم التي تناسبهم.

[٦٢] ثم لامهم جل وعلا علىٰ عدم إعمال عقولهم؛ ولفت أنظارهم إلىٰ ما يعلمونه من حالهم؛ حيث قال لهم: إنكم أيها المشركون تعلمون علم اليقين أن ابتداء خلقكم كان من نطفة ثم علقة ثم مضغة، فهلا أدركتم أن إعادة خلقكم أسهل من خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئًا؛ مع أنه لا شيء صعب عليه سبحانه.

[٦٣-٦٤-٦٥-٦٦-٦٧] وهذا هو الدليل الثاني علىٰ صحة البعث؛ حيث قال سبحانه: وأخبروني عن هذا البذر الذي تلقونه في أرضكم؛ هل أنتم الذين تخرجونه نباتًا من الأرض وتُنمُّونه؟! أم نحن الذين ننبته؟ لو نشاء لجعلنا الزرع المحروث وما فيه من الثمار فتاتًا متحطمًا متكسِّرًا لا نفع فيه ولا فائدة، فصرتم تتعجبون طويلًا مما حلّ بزرعكم وبما حصل له، وتقولون متعجبين: إنا لخاسرون خسارة عظيمة؛ حيث ذهب مالنا بلا عوض؛ بل لقد حُرمنا رزقنا بهلاك زرعنا.

[٦٨-٦٩-٧٠] وهذا هو الدليل الثالث علىٰ صحة البعث؛ حيث قال سبحانه: وأخبروني عن هذا الماء العذب الزلال الذي تشربونه، هل أنتم من أنزله من السحاب؟ أم نحن من أنزله لكم، ويسر لكم شربه والانتفاع به! لو نشاء لجعلنا ذلك الماء مالحًا فاسدًا لا تستسيغون شربه؛ فهلّا تشكرون الله الذي أنعم عليكم بهذه النعم؛ فتوحدونه وتطيعون رسوله ﷺ؟!

[٧١-٧٢-٧٣] وهذا هو الدليل الرابع علىٰ صحة البعث؛ حيث قال سبحانه: وأخبروني عن هذه النار التي توقدونها. هل أنتم الذين خلقتم شجرها أم نحن الخالقون. واعلموا أننا خلقنا هذه النار ليذكركم حَرُّها نارَ جهنم، وتكون موعظة وعبرة للمعتبرين، وليستمتع بها العباد في إصلاح أطعمتهم وأدواتهم، ومنفعة للمسافرين في قضاء حوائجهم المختلفة.

[٧٤] وما دام الأمر كذلك فقدِّسْ يانبي الله ربك ونزِّهه عمَّا لا يليق به، فهو العظيم الذي منح النعم ليستمتع وينتفع بها التقي والفاجر.

[٧٥] ثم أقسم جل وعلا بمساقط النجوم في مغاربها في السماء.

[٧٦] ثم أخبر سبحانه أن هذا القسم عظيم القدر، ولكنكم لا تعلمون قيمته ومنزلته.

قال علماء الإعجاز: هذه النجوم التي أقسم الله بها كانت في الأجواء العليا فوق المجرات، وأنها احترقت أو تفتتت، ولكن مواقعها لازالت عظيمة مهولة، والله أعلم.

[٧٧-٧٨-٧٩-٨٠-] ثم ذكر جل وعلا المقسم عليه وهو هذا القرآن الكريم؛ فقال: اعلموا أيها الناس أن هذا القرآن كريم لاشتماله علىٰ مصالح العباد في الدنيا والآخرة. وإنه مصون مستور عن أعين الخلق في كتاب عند الله، هذا الكتاب قيل: إنه اللوح المحفوظ، وقيل: هو المصحف الذي بأيدينا. وهذا القرآن لا يمسه إلا الملائكة الكرام المطهرون، وهذا هو الراجح في هذه الآية، وأيضًا لا يَمَسُّه إلا المتطهرون من الشرك والجنابة والحدث. ثم أخبر سبحانه أنه منزَّلٌ من عند الله رب العالمين.

[٨١-٨٢] وهذا القرآن الذي هذا شأنه وقدره؛ هل يستحق منكم أيها المشركون أن تكذبوا به وتعرضوا عنه ولا تصدقوه. ثم تجعلون شكر النعم التي تفضل الله بها عليكم أنكم تكذبون به سبحانه؛ فتنسبون نزول الأمطار للأنواء، وتنسبون النجاة من المهالك في البحار وغيرها إلىٰ مهارة القائد ونحو ذلك؛ فتكذبون بكون ذلك كله من عند الله.

[٨٣-٨٤-٨٥] ثم بين جل وعلا عجزهم فقال لهم: هل تستطيعون أيها المشركون إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور عنده وتنظرون إليه؛ أن تمسكوا روحه في جسده وتمنعوا خروجها؟ واعلموا أن الله سبحانه بعلمه وقدرته وملائكته الذين يقبضون أرواحهم أقرب إليه منكم، ولكن لا ترون ذلك.

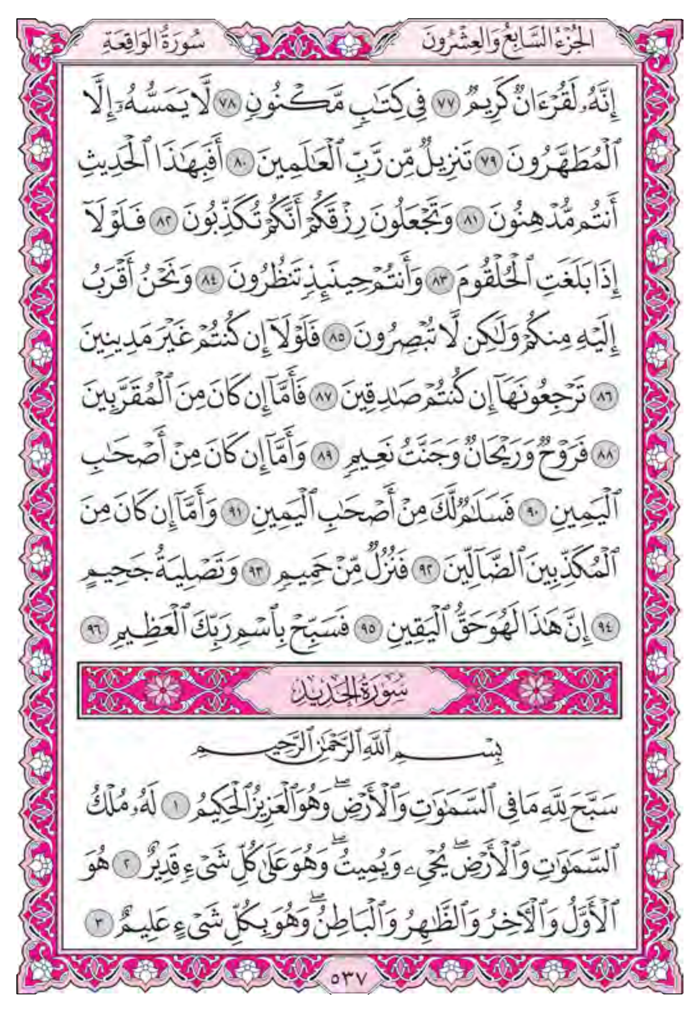
[٨٦-٨٧] وإذا كنتم أيها المشركون غير مؤمنين أن هناك بعثًا وحسابًا يوم القيامة؛ فهل تستطيعون أن تُرجِعُوا هذه النفس التي بلغت الحلقوم إلىٰ البدن الذي نزعت منه إن كنتم صادقين بأنه لا بعث ولا حساب ولا عقاب.

[٨٨-٨٩] ثم ذكر جل وعلا حال المحتضرين في الدنيا وقسمهم إلىٰ ثلاثة أقسام، فالقسم الأول: إن كان هذا الميت من المحسنين السابقين بالدرجات العلا، فله عند ربه استراحة وسرور وبهجة ورزق حسن وجنة واسعة يتنعم فيها.

[٩٠-٩١] والقسم الثاني: وإن كان هذا الميت من أصحاب اليمين - وهم أقل رتبةً من المقربين -؛ فتبشره الملائكة وتقول له: سلامٌ حاصلٌ لك من إخوانك أصحاب اليمين، ويسلم من كل آفة وشدة وبلية.

[٩٢-٩٣-٩٤] والقسم الثالث: وإن كان هذا الميت من المكذبين بالله ورُسُله الجاحدين بالبعث واليوم الآخر الضالين عن التوحيد والطاعة؛ فضيافته التي أعدت له في النار: ماءٌ حارٌّ مغليٌّ تناهىٰ في الحرارة، يشربه بعد أكله من الزقوم، ويُجعَلُ في نار جهنم يصلاها ويذوقها ويقاسي حرَّها وعذابها؛ نسأل الله السلامة والعافية.

[٩٥] واعلم يانبي الله أن هذا الذي قصصناه عليك هو حق اليقين الذي لا شك فيه؛ لتظاهر الأدلة القاطعة عليه، كأنه مشاهد رأي العين. وللحق مراتب ثلاث، هذه أقواها، والمرتبتان الأخريان



إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦

سُورَةُ الحَدِيدِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣

٥٣٧

ذكرتا في سورة التكاثر، علم اليقين وعين اليقين.

[٩٦] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ في ختام هذه السورة أن يقدس ربه وينزهه عن كل ما لا يليق.

سورة الحديد

سورة الحديد مدنية وآياتها تسع وعشرون آية.

[١] افتتح جل وعلا السورة مخبراً أن كل من في السماوات والأرض قدسه ومجده ونزهه، وهو المستحق للتنزيه والتقديس قولًا واعتقادًا وعملًا، ثم أخبر أنه العزيز الذي لا ينازعه أحد في سلطانه، الحكيم في ترتيب أمور عباده.

[٢] ثم أخبر جل وعلا أنه وحده له ملك السماوات والأرض وما فيهما؛ فهو المالك المتصرف في خلقه، يحيي ما يشاء من الخلق، ويميت ما يشاء من الخلق، وهو علىٰ كل شيء قدير؛ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٣] ثم أخبر جل وعلا أن ملكه دائم باق؛ وأخبر أنه الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، وهو بكل شيء عليم، لا يفوته شيء، ولا يخفىٰ عليه شيء.

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

[٤] يخبر جل وعلا أنه وحده الذي خلق السماوات والأرض بقدرته وحكمته في ستة أيام، قيل: إنها من أيام الدنيا، وقيل: بل هي من الأيام التي قال الله عنها: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، وربما كان هذا هو الأقرب للصواب.

ثم أخبر سبحانه أنه علا وارتفع علىٰ العرش؛ واستوىٰ استواءً يليق بجلاله وعظمته، لا نعرف كيفيته، وهذا هو قول أهل السنة والجماعة، أما غيرهم فيؤولون ويقولون: (استوىٰ) بمعنىٰ: استولىٰ. ويقال لهؤلاء: أليس الله كان قبل ذلك مستولٍ علىٰ كل شيء بما في ذلك العرش، ثم أخبر سبحانه أنه يعلم بواطن الأمور وظواهرها؛ فيعلم ما يدخل في الأرض من حيوان ومطر ومعادن وغير ذلك، وما يخرج منها من نبات وزرع وثمار، وما ينزل من السماء من مطر وغيره، وما يعرج فيها من كل شيء ومن الملائكة والأعمال، ثم أخبر سبحانه أنه مع عباده بعلمه في الأرض والجو والبحر، وفي كل مكان، وهناك معيتان: معية خاصة بالمؤمنين، وهي معية الحفظ والرعاية، ومعية عامة بالبشر وغيرهم وهي معية الرؤية والاطلاع والمتابعة وحفظ الأعمال وتسجيلها، واعلموا أن الله بما تعملون بصير، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم وأقوالكم.

[٥] ثم أخبر جل وعلا أن له وحده ملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما أراد، وكيف شاء من أوامره القدرية والشرعية الجارية علىٰ الحكمة الربانية، وإلىٰ الله مرجع ومصير كل الأمور.

[٦] ثم بين جل وعلا أنه يجعل ظلام الليل يتسلل إلىٰ النهار شيئًا فشيئًا حتىٰ يغشاه الظلام فيصير ليلًا بهيمًا، ثم يعود النهار ثانية فيتسلل شيئًا فشيئًا حتىٰ يعم نور الشمس الكون المقابل للشمس، ثم بين سبحانه أنه عليم بمكنونات الصدور وأسرارها وخواطرها.

[٧] يحث جل وعلا عباده علىٰ الإيمان والإنفاق في سبيله، فأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، وأن ينفقوا من أموالهم التي جعلهم مستخلفين فيها؛ وفي هذا دليل علىٰ أن المالك الحق هو الله، ولذا يجب علىٰ المستخلف أن يحسن التصرف في نعم الله التي استخلفه عليها، وأن يبذل أمواله علىٰ النحو الذي يريد المستخلف، ثم أثنىٰ سبحانه ومدح الممتثلين، فأخبر أن الذين آمنوا من الناس وأنفقوا مالهم في سبيل الله لهم ثواب عظيم، لا يعلم قدره إلا الله.

[٨] ثم قال جل وعلا لهؤلاء المشركين توبيخًا لهم: وأيُّ عذر لكم أيها المشركون علىٰ ترك الإيمان بالله ورسوله ﷺ؟ لا سيما والرسول ﷺ بين أظهركم، وقد بين لكم من آيات القرآن ما فيه بلاغ وحجة لتؤمنوا به جل في علاه، وقد أخذ سبحانه عليكم العهود والمواثيق علىٰ هذا الإيمان، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وحصل ما يقتضي أن تؤمنوا لسبب من الأسباب، وعلىٰ رأس هذه الأسباب وجود الرسول ﷺ بينكم يدعوكم إلىٰ هذا الإيمان، ويقنعكم بوجوب الاعتصام به.

[٩] ثم بين سبحانه أن من نعمه علىٰ عباده أنه نزل علىٰ عبده محمد ﷺ آيات واضحات ليخرجكم من ظلمات الكفر والجهل إلىٰ نور الإيمان والعلم، وأنه سبحانه كثير الرحمة والرأفة بعباده المؤمنين؛ حيث أنزل عليكم أفضل كتبه وأرسل لكم أفضل رسله.

[١٠] ثم قال جل وعلا لأولئك الممسكين المانعين للنفقة في سبيل الله: فما لكم أيها الناس لا تنفقون مما رزقكم الله، وأنتم تعلمون أن أموالكم صائرة إليه إن لم تنفقوها في حياتكم في سبيل الله؛ لأنه له سبحانه ميراث السماوات والأرض، يرث كلَّ ما فيهما، واعلموا أنه لا يستوي من آمن وهاجر وأنفق ماله وقاتل في سبيل الله قبل فتح مكة؛ فأولئك أعظم منزلة عند الله وأرفع درجة من الذين أنفقوا أموالهم في سبيله وقاتلوا بعد فتح مكة، وقد وعد الله كلا الفريقين الجنة، والله بما تعملون خبير، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم، وسيجازيكم عليها، بأن لكل شخص ما يستحق.

[١١] ثم حث جل وعلا علىٰ الإنفاق في سبيله؛ فبين أن من ينفق في سبيل الله يرجو ثوابه كمن يُقرض لله، وأن من يفعل ذلك محتسبًا الأجر والثواب عند الله فإن الله يضاعف له أجره أضعافًا كثيرة، وله فوق ذلك جزاء كريم من الله وهو دخول الجنة.

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

[١٢] يذكر جل وعلا مشهدًا مما يكون يوم الحشر يوم أن ترىٰ حال المؤمنين المتقين يوم القيامة وهم يعبرون الصراط؛ حيث يتقدمهم نورهم فيكون أمامهم وعن يمينهم، ثم تستقبلهم الملائكة وتقول لهم: بشراكم اليوم تدخلون جنات واسعة تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، لا تخرجون منها أبدًا، ذلك الجزاء الذي لا يقدَّر قدره هو الفوز العظيم لكم في الآخرة.

[١٣] واذكر أيها الإنسان يوم أن يقول المنافقون والمنافقات الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر؛ يقولون للمؤمنين وهم علىٰ الصراط علىٰ سبيل التذلل والتحسر: تريثوا في سيركم حتىٰ نلحق بكم فنستضيء من نوركم، فتقول لهم الملائكة سخرية منهم: ارجعوا إلىٰ الدنيا واعملوا الصالحات لتحصلوا علىٰ مثل هذا النور، ولكن هيهات هيهات، وفي هذه الحال يُفْصَلُ بين المؤمنين والمنافقين بسور له باب، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، أي: فيه الجنة، وظاهرة الذي يلي المنافقين فيه العذاب، أي: فيه جهنم التي يعذبون فيها.

[١٤] ثم ينادي المنافقون علىٰ المؤمنين، ويقولون لهم تضرعًا ورحمة: يامعشر المؤمنين ألم نكن معكم في الإسلام، ونعمل ما تعملون من صلاةٍ وصيام ونفقةٍ وجهادٍ وغيرها؟! فيقول لهم المؤمنون: بلىٰ كنتم معنا في ذلك في الظاهر، ولكنكم فتنتم أنفسكم بالنفاق وإبطان الكفر، وتربصتم بالنبي ﷺ ومن معه من المؤمنين الموت والهزيمةَ والاضمحلال، وشككتم في أمر الدين، وغرَّتكم الأماني الكاذبة، والأطماع الزائفة، وأقمتم علىٰ ذلك حتىٰ انتهت آجالكم، وجاءكم الموت، وخدعكم الشيطان فزين لكم إبطان الكفر؛ فاطمأننتم إليه وأطعتموه.

[١٥] واعلموا أيها المنافقون في هذا اليوم الرهيب لا يُقبل منكم أن تفدوا أنفسكم من العذاب – ولو دفعتم مثل ما في الأرض ذهبًا ومثله معه –؛ فلن ينفعكم ولن يقبل منكم، ولا من الذين كفروا بالله ظاهرًا وباطنًا، واعلموا أن منزلكم الذي تأوون إليه هو النار، فهي أولىٰ بكم لخبث نفوسكم، وبئس المصير الذي صرتم إليه، وقدمتم عليه.

[١٦] ثم خاطب جل وعلا عباده المؤمنين حاضًّا لهم علىٰ المداومة علىٰ الطاعة، فقال: ألم يحن الوقت للذين آمنوا بالله وصدقوا الرسول ﷺ واتبعوا هديه أن تلين قلوبهم عند ذكر الله وسماع آياته، ولا يكونوا كاليهود والنصارىٰ الذين لما طال عليهم الزمان بدلوا كلام الله فقست قلوبهم؛ فكثير من هؤلاء خارجون عن طاعة الله، ولكن استثنىٰ سبحانه منهم نخبة كانوا صالحين حفظًا لأهل كرامته.

[١٧] واعلموا أيها الناس أن الله جل وعلا يحيي الأرض القاحلةَ الجدباءَ الميتةَ بإنزال المطر عليها؛ فتنبت وتخضرّ وتزهو، كذلك سبحانه قادرٌ علىٰ بعث الأجسام بعد موتها وإحيائها مرَّةً أخرىٰ، وقد وضح سبحانه للناس الحجج والبراهين الدالة علىٰ كمال قدرته ووحدانيته لكي يعقلوا ويتدبروا ما أنزل الله في القرآن.

[١٨] ثم أعاد جل وعلا الثناء علىٰ المنفقين في سبيل الله، ووعد بمضاعفة أجورهم، وجعل ثقتهم في ثواب الله كأنه إقراض، فقال: واعلموا أيها الناس بأن المتصدقين والمتصدقات بأموالهم، الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله ابتغاء وجهه تعالىٰ؛ يضاعف لهم ثواب إنفاقهم، ولهم فوق ذلك ثواب جزيل حسن وهو الجنة.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ
عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾
سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ
ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ
مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن
قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا
تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

[١٩] واعلموا أيها الناس أن الذين آمنوا بالله وأقروا بوحدانيته، وصدقوا رسله أولئك هم في منزلة الصديقين عند الله؛ لقوة إيمانهم وثقتهم بالله، واعلموا أن الذين استشهدوا في المعارك في سبيل الله؛ لهم أجرٌ عظيمٌ عند الله، ونورٌ يُكرمهم الله به، أما الذين كفروا بالله وكذبوا بآياته وحججه فأولئك أصحاب الجحيم، يعذبون فيها، لا أجر لهم ولا نور.

[٢٠] واعلموا أيها الناس أنما الحياة الدنيا التي تعيشون فيها، لعب ولهو كلعب الصبيان ولهوهم، وزينة تتزينون بها في ملابسكم ومساكنكم، وتفاخر بينكم بمتاعها كتفاخر الأقران، وتباه بكثرة الأموال والأولاد كتكاثر الدُّهقان[1]، فلا تستحق كل هذا الحماس وهذا الوقت في طلبها، وهذه الدنيا مثلها كمثل مطر أعجب الزُّرَّاع نباته، لكن عمره قصير، أسابيع ثم يهيج فتراه مصفرًا بعد خضرته، ثم يكون فُتاتًا يابسًا تذروه الرياح، ثم بين سبحانه أن من أقبل علىٰ الدنيا ولم يجعلها زادًا للآخرة فإن له في الآخرة عذابًا شديدًا، وأما من استفاد منها في طلب رضي الله وجعلها سُلَّمًا للآخرة فإن له مغفرة لذنوبه ورضوانًا من الله، ثم اعلموا أن الحياة الدنيا لمن عمل لها ناسيًا آخرته ما هي إلا متاع الغرور، تتمتعون بها قليلًا ثم إلىٰ ربكم ترجعون.

[٢١] ثم حث جل وعلا عباده علىٰ نيل مرضاة الله؛ فأمرهم أن يسارعوا في عمل الخيرات والأعمال الصالحات التي تكون سببًا في مغفرة الله لهم، وسببًا في إدخالهم جنة عرضها كعرض السماء والأرض، وهذه الجنة هيأها سبحانه للذين آمنوا به وصدقوا رسله، واعلموا أن ذلك الفضل يؤتيه الله من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم علىٰ عباده المؤمنين.

[٢٢] ثم بين جل وعلا أن ما يصاب به العباد من المصائب في الأرض من جدب أو زلزلة أو كوارث ونحو ذلك، وما يصابون به في أنفسهم من مرض أو موت وغير ذلك؛ قد سبق بذلك قضاؤه وقدره، وثبت في اللوح المحفوظ من قبل أن يخلق الخليقة، واعلموا أن إثبات هذه المصائب في اللوح المحفوظ علىٰ كثرتها غير عسير عليه جل في علاه.

[٢٣] ثم بين جل وعلا أنه فعل ذلك لكي لا تحزنوا علىٰ ما فاتكم من الدنيا، ولا تفرحوا بما أعطاكم الله من الدنيا فرح أشرٍ وبطرٍ؛ فإن ذلك زائلٌ عن قريب، والله لا يحب كل متكبِّرٍ بما أُعطي من الدنيا، فخورٍ علىٰ الناس بما في يديه.

[٢٤] ثم بين جل وعلا أوصاف هؤلاء المختالين الفخورين؛ فأخبر أنهم يبخلون بما آتاهم الله من المال ولا ينفقونه في سبيل الله؛ بل وأقبح من ذلك أنهم يأمرون الناس بالبخل، ثم أخبر سبحانه بأن من يعرض عن الإنفاق في سبيل الله فإن الله هو الغني عنه وعن نفقته، الحميد الذي له كل وصف حسن وفعل جميل.

(١) الدهقان: التاجر صاحب المال والعقار.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

[٢٥] أخبر جل وعلا أنه أرسل رسله بالمعجزات البينة، وأنزل معهم الشرائع والأحكام الظاهرة، لإفهام البشر بما يصلحهم وينجيهم من النار، وأوجد الميزان ليتبعوا ما أمروا به من العدل، ثم أخبر سبحانه بأنه خلق الحديد وجعل فيه قوة شديدة؛ حيث تصنع منه السيوف والرماح وما أشبه ذلك لردع العدو، كما أن فيه منافع كثيرة للناس فيصنع منه السكين والفأس والقدوم والقدور ونحو ذلك، وليعلم الله من الذي سيتبع الحق منهم فينصر دينه وينصر رسله، ويستعمل نعمه فيما خلقت له، واعلموا أن الله جل في علاه قوي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، عزيز لا يغالب.

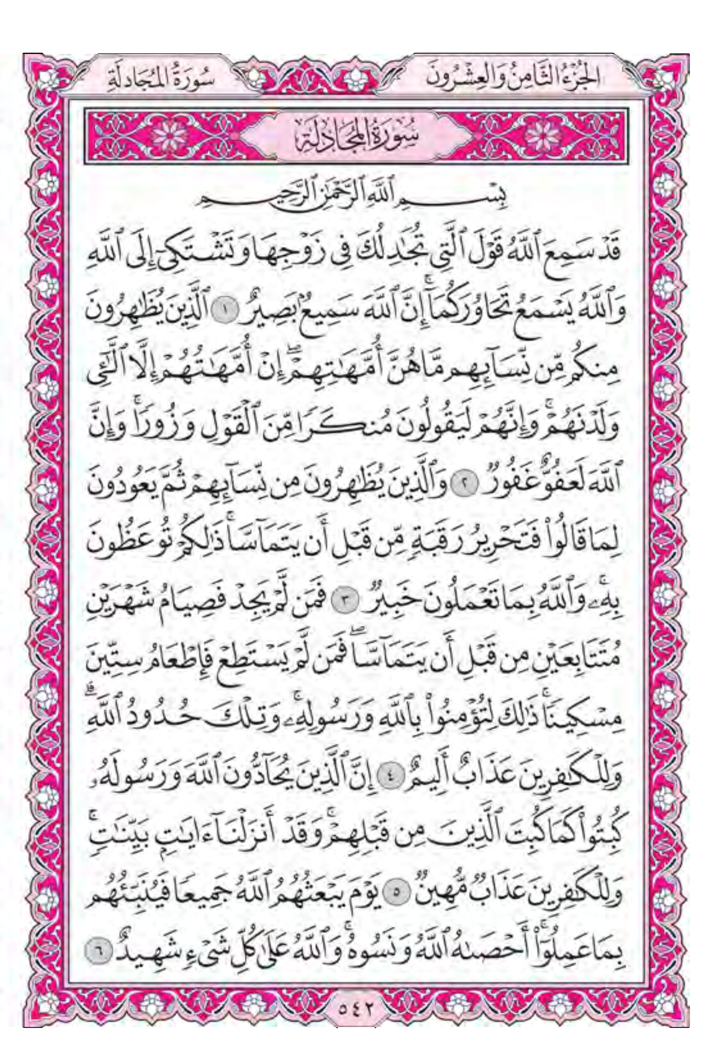
وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾، أي: وأوجدنا الحديد، وعبر عنه بالإنزال لأن كل التعاليم والأوامر تنزل منه جل وعلا.

[٢٦] ثم ذكر جل وعلا بما أنعم به علىٰ أنبيائه من النعم الجسام، فأخبر أنه أرسل نوحًا وإبراهيم عليهما السلام إلىٰ قومهما لهدايتهم وإرشادهم، وأنه لم يرسل بعدهما رسلًا بشرائع إلا من ذريتهما تشريفًا وتكريمًا لهما، ثم بين سبحانه بأن من ذريتهما أناسًا مهتدين إلىٰ الحق، وكثير منهم خارجون عن طاعة الله وعن الطريق المستقيم.

[٢٧] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل بعد نوح وإبراهيم الرسل متلاحقين رسولًا بعد رسول حتىٰ انتهت الرسالة في بني إسرائيل إلىٰ عيسىٰ ابن مريم، وهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه، وأعطاه سبحانه الإنجيل ليتحاكم الناس إليه، وأنه جعل في قلوب أتباعه الحواريين الشفقة واللين، فكانوا متوادِّين متراحمين فيما بينهم، ولكن بعض هؤلاء الحواريين ابتدعوا للناس وغلوا في الدين، واخترعوا أمورًا لم يطلبها الله منهم قصدوا بها طاعة الله، وإنما طلب منهم سبحانه القيام بالأعمال الصالحة التي توصل إلىٰ رضوانه، ولم يطلب منهم الانقطاع للعبادة والرهبنة، ولكن بمرور الأيام لم يحافظوا علىٰ ما تقتضيه هذه الرهبانية من الزهد والتقىٰ والعفاف حق المحافظة؛ بل بدلوا وحرفوا حتىٰ صارت طقوسًا وبدعًا ما أنزل الله بها من سلطان، وغيروا دين عيسىٰ عليه السلام، ثم أخبر سبحانه أنه أعطىٰ الذين آمنوا من الحواريين أجرهم وثوابهم، وأن كثيرًا منهم كانوا خارجين عن طاعة الله بالتكذيب بما جاءهم به رسولهم.

[٢٨] وهذا نداء من الله جل وعلا لعباده الذين آمنوا بالله حق الإيمان؛ حيث أمرهم سبحانه بأن يمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه، وأن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ؛ فإن فعلتم ذلك فإنه سبحانه يعطكم ضعفين من رحمته وفضله؛ لإيمانكم برسوله محمد ﷺ وبمن قبله من الرسل، ويجعل لكم نورًا تهتدون به يوم القيامة، ويغفر لكم ذنوبكم، والله واسع المغفرة والرحمة لعباده المتقين التائبين.

[٢٩] ختم جل وعلا السورة ببيان أن أمر النبوة ليس حسب أهواء الناس، فقال سبحانه: اعلموا يامن آمنتم بمحمد ﷺ وبمن قبله من الرسل أننا أعطيناكم هذا الأجر وهذا الثواب المضاعف ليعلم أهل الكتاب الذين يريدون أن يحتكروا فضل الله وأن لا تخرج الرسالة عنهم؛ فلم يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ بأنهم لا يقدرون عل شيء من فضل الله يكسبونه لأنفسهم أو يمنحونه لغيرهم، وأن الفضل بيد الله وحده يؤتيه من يشاء من عباده، فهو صاحب الفضل العظيم علىٰ خلقه؛ فله الحمد في الأولىٰ والآخرة.


الجزء الثامن والعشرون — سورة المجادلة

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴿١﴾ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور ﴿٢﴾ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ﴿٣﴾ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴿٤﴾ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين ﴿٥﴾ يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴿٦﴾

٥٤٢

سورة المجادلة

سورة المجادلة مدنيّة وآياتها ثنتان وعشرون آية.

[١] بدأت السورة بإخبار النبي ﷺ أن الله جل وعلا قد سمع قول هذه المرأة التي تناقشه في شأن زوجها، وتتضرع إلىٰ الله، وتذكر ما حل بها من مكروه ومصيبة، وهذه المرأة هي خولة بنت ثعلبة جاءت إلىٰ النبي ﷺ تراجعه وتقول له: إن زوجها أوس بن الصامت الأنصاري ظاهر منها، وذكرت للنبي أن زوجها استمتع بها وأنجبت منه أولادًا فلما كبر سنها ظاهر منها، واعلم يانبي الله أن الله سبحانه يسمع ما تتراجعان به، أي: يسمع ما تقول هي، وما تقول أنت جوابًا لها؛ إن الله سميع لجميع الأصوات، بصير بكل شيء، ولهذا سمع سبحانه المحاورة وأنزل حكم الظهار.

والظهار: هو أن يقول الزوج لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي أو أختي، أي: يحرمها علىٰ نفسه، وكان هذا معمولًا به في الجاهلية؛ فيعلقها كيف شاء إلىٰ ما يشاء، وقد جاء الإسلام بتحريم ذلك. ولهذا من فعل ذلك يُعطىٰ مهلة أربعة أشهر، فإن عاد لرشده وكَفَّر وجامعها بقيت في ذمته، أما إن مضت الأربعة أشهر ولم يُكَفِّر أو يجامع فيحكم القاضي بطلاقها.

[٢] ثم ذم جل وعلا الظهار، وأخبر أن أولئك الذين يظاهرون من نسائهم فيقول أحدهم لامرأته: أنت علي كظهر أمي أو أختي، مخطئون فيما قالوا، فليست زوجاتهم بأمهاتهم، وإنما أمهاتهم هن اللائي ولدنهم، ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المظاهرون ليقولون قولًا كاذبًا فظيعًا؛ لأنهم شبهوا الزوجات بالأمهات، ومعروف أن العلاقة مع الأم تختلف اختلافًا كليًّا بالعلاقة مع الزوجة، وإن الله جل في علاه كثير العفو والمغفرة لمن تاب وأناب مما وقع فيه من المخالفات.

[٣] واعلموا أيها المؤمنون أن الذي يقع منه الظهار، ثم يرجع عما قال نادمًا، ويريد أن يجامع امرأته، فعليه الكفَّارةُ أولًا، وهي: عتق رقبة مؤمنة من قبل أن يمس امرأته بالجماع، وهذا الحكم تؤمرون به علىٰ سبيل الوجوب، والله بما تعملون خبيرٌ، فلا يخفىٰ عليه شيء من نياتكم وأعمالكم، وسيجازيكم عليها. فمن لم يجد رقبةً يعتقها، أو لم يجد ثمنها؛ فكفارته: صيام شهرين متتابعين من قبل أن يمس زوجته بجماع.

[٤] ثم أخبر سبحانه أن من لم يستطع صيام الشهرين، ولم يقدر علىٰ ذلك لعذرٍ شرعي، فكفارة ظهاره: إطعام ستين مسكينًا من قوت بلده طعامًا يُشبعهم، وذلك قبل أن يمس زوجته بجماع، واعلموا أن ذلك الحكم الذي ألزمكم الله به لتؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، وتطيعوا أمره، وتجتنبوا نهيه، واعلموا أيضًا أن تلك الأحكام المذكورة حدود الله لا يحل لأحدٍ أن يتعدّاها، وللكافرين بالله ورسوله ﷺ، عذابٌ أليمٌ موجع.

[٥] واعلموا أيها الناس أن الذين يبغضون الله ورسوله ﷺ ويخالفون أمرهما، سيلحقهم الخزي والذل كما لحق بالأمم التي كفرت وعاندت رسلها من قبلهم، وقد أنزلنا عليكم آيات واضحات الدلالة والحجة، وللكافرين الذين كفروا بالله ورسله وجحدوا تلك الآيات عذاب مذل أليم جزاءَ كبريائهم وكفرهم. وهكذا من عاند أولياء الله وعاداهم فهو كمن شاق الله ورسوله ﷺ؛ فإن الله يصرعه ويخزيه ويكسره؛ لأنه إنما عاداهم لحمل رسالة ربهم.

[٦] ثم بين سبحانه أن لهؤلاء المعاندين يومًا سوف يحييهم الله فيه جميعًا ويبعثهم من قبورهم، ثم يخبرهم بما كسبت أيديهم، وليعلموا أن الله حفظ ذلك في صحائف أعمالهم، بينما هم نسوا تلك الجرائم لاعتقادهم أنه ليس هناك حساب ولا جزاء، وهو سبحانه مطلع وناظر لا يغيب عنه شيء، ولا تخفىٰ عليه خافية.

وقد كتب الملائكة ذلك في صحائف أعمالهم، قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٨].

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

٥٤٣

[٧] ألم تعلم ياعبد الله أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، وهذا تأكيد منه سبحانه بإحاطة علمه بكل شيء؛ ثم أخبر سبحانه أنه ما يتناجىٰ ثلاثة إلا وهو معهم، ويعلم ما يقولون وما يدبرون، ولا خمسة إلا وهو سادسهم، يعلم ما به يتناجون، ولا نجوىٰ أقل من هذه الأعداد ولا أكثر منها إلا وهو عليم بها في أي مكان كانوا؛ فمهما تستروا وتخافتوا فإنهم تحت رؤيته وسمعه، ثم يخبرهم يوم القيامة بما عملوا من خير أو شر؛ توبيخًا لهم وتبكيتًا، أو تكريمًا إن كانت المناجاة في خير، وأنه لا مفر منه إلا إليه، ثم يجازيهم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، إنه سبحانه بكل شيء عليم، لا يخفىٰ عليه شيء كائنًا ما كان.

[٨] يخبر جل وعلا عن المنافقين واليهود الذين كانوا يتناجون إذا رأوا المؤمنين، فنهاهم الله عن النجوىٰ لما فيها من إيهام المشاهد أن فيها تخطيطًا لارتكاب إثم أو سوء ، ثم رجعوا إلىٰ ما نهوا عنه، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بما هو إثم في نفسه، وتعدّ علىٰ المؤمنين، وتواص بمخالفة الرسول ﷺ، ثم بين سبحانه أن هؤلاء المنافقين إذا جاؤوا إلىٰ النبي ﷺ حيَّوْهُ بتحية لم يُحَيِّهِ الله بها؛ وهي قولهم: السَّام عليك، أي: الموت لك، يريدون ظاهرًا السلام وباطنًا الموت، ويحدّثون أنفسهم أنهم يخافون أن يعذبهم الله بقولهم لأنه يعلم ما أسروا، فردّ الله عليهم: إنه يكفيكم عذابًا أن ستدخلوا نار جهنم وَتُصْلَوْا بحرِّها؛ فبئست جهنم مرجعًا ومستقرًا لكم.

[٩] ثم أرشد جل وعلا المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لا يتناجوا بما فيه إثم وعدوان ومعصية لرسول الله ﷺ، كما يفعل اليهود والمنافقون، بل عليكم أن تتناجوا بما فيه خير وطاعة وإحسان، واتقوا الله فيما تأتون وما تذرون، فإليه تحشرون فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم، ثم يجازيكم عليها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[١٠] واعلموا أيها المؤمنون أنما التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول يكون بتغرير الشيطان وتزيينه وتسويله؛ لأجل أن يوقع الحزن في قلوب الذين آمنوا، وهذا التناجي لن يضر المؤمنين شيئًا؛ لأن الله تعالىٰ وعدهم الكفاية، والنصر علىٰ الأعداء، وعلىٰ الله فليعتمد المؤمنون، وليثقوا بوعده، وليفوضوا أمرهم إليه.

[١١] يامن آمنتم بالله ورسوله ﷺ إذا قيل لكم: توسعوا في مجالسكم فأوسعوا يوسع الله عليكم في الدنيا والآخرة، وإذا قيل لكم أيضًا: انهضوا وقوموا من مجلسكم لسبب من الأسباب؛ فعليكم أن تبادروا بفعل الأمر، وتستجيبوا لتحقيق المصلحة العامة؛ واعلموا أن الله يرفع الذين آمنوا به ووحدوه، وصدقوا رسوله ﷺ واتبعوه، درجات عاليات، ويزيد الله رفعةً في الدرجات من جمع العلم مع الإيمان، فيرفعهم الله درجات عاليات في الدنيا والآخرة، والله خبير بجميع أعمالكم، لا يخفىٰ عليه منها شيء، وسيحاسبكم بها، ويجازيكم عليها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٢) ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٣) ۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٥) ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ (١٦) لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (١٧) يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ (١٨) ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (١٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ (٢١)

[١٢] يأمر جل علا الصحابة الكرام إذا أرادوا أن يكلموا الرسول ﷺ في أمر من أمورهم سرًّا فعليهم أن يقدموا قبل ذلك صدقة يتصدقوا بها علىٰ الفقراء والمساكين، فإن ذلك خير لهم لما فيه من طاعة لله، ومن تزكية للنفوس وتطهيرها، فإن لم تجدوا الصدقة وعجزتم عن ذلك فإن الله رخص لكم في المناجاة بدون أن تقدموا صدقة، فإنه سبحانه غفور لعبادة التائبين، رحيم بهم.

وقد شرعت الصدقة هنا بعد أن أكثر الصحابة الأسئلة في أمور لم تقع فَقُرِّرَتِ الصدقة لكي تكون الأسئلة عما يجب علىٰ المؤمن.

[١٣] هل خفتم أيها الصحابة الكرام العيلة والفقر إذا قدمتم بين يدي نجواكم صدقة؛ فحيث لم تفعلوا ما أمركم الله به، وتاب عليكم؛ حيث رخص لكم في المناجاة من غير تقديم صدقة؛ فتداركوا ذلك بالمحافظة علىٰ إقامة الصلاة وإعطاء زكاة أموالكم، وطاعة الله ورسوله ﷺ، والله فيما تؤمرون به وتنهون عنه لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، وسوف يجازيكم عليه.

[١٤] ألم تر يانبي الله إلىٰ هؤلاء المنافقين الذين يتولون الكافرين من اليهود والنصارىٰ وغيرهم ممن غضب الله عليهم بسبب كفرهم ومعاصيهم، فاعلم أن هؤلاء المنافقين ليسوا من المسلمين ولا من اليهود، ويحلفون بالله كاذبين أنهم مسلمون، وأنك رسول الله.

[١٥] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن جزاء هؤلاء الفجرة الكذبة عذابٌ في نهاية الشدة والألم، وهو الدرك الأسفل في جهنم، إنهم ساء ما كانوا يعملون؛ حيث عملوا بما يسخط الله ويوجب عليهم العقوبة واللعنة.

[١٦] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المنافقين اتخذوا أيمانهم وكثرة حلفهم ترسًا ووقايةً يتوقَوْنَ ويحتمون بها من تكذيبهم، فصدوا أنفسهم وغيرهم عن الإيمان بالله واتباع رسوله ﷺ، وصدوا عن سبيل الله وجهاد الكفار واليهود بتثبيطهم وتخذيلهم، فأولئك لهم عذابٌ يذلهم ويهينهم، ويفضحهم ويخزيهم.

[١٧] بين جل وعلا أن أموال وأولاد المنافقين التي يفتخرون بها لن تغني عنهم من عذاب الله شيئًا؛ بل إن أولئك المنافقين هم أهل النار؛ وإنهم خالدون فيها أبد الآبدين.

[١٨] واذكر يانبي الله يوم يبعث الله هؤلاء المنافقين جميعًا من قبورهم يوم القيامة للجزاء والحساب؛ فيحلفون له كما يحلفون لكم في الدنيا، بأنهم كانوا مؤمنين، معتقدين أن هذه الأيمان التي كانوا يتسترون بها في الدنيا سوف تنفعهم كما نفعتهم في الدنيا، حيث كفت أيدي المؤمنين عنهم، وهذا من شدة شقاوتهم ومزيد الطبع علىٰ قلوبهم، ونسوا أن يوم القيامة تنكشف الحقائق وتفتضح الأمور والعياذ بالله من الخزي والعار؛ بل إن حلفهم سوف يزيدهم مقتًا؛ حيث يريهم الله أعمالهم السيئة المستنسخة أمام أعينهم، ثم بين سبحانه بأن هؤلاء المنافقين قد بلغوا حدًّا في الكذب لم يبلغنه أحد غيرهم.

[١٩] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المنافقين تملكهم الشيطان، وغلب عليهم، وأحاط بهم؛ فأنساهم ذكر الله وتوحيده والعمل بطاعته واجتناب نواهيه، فاعلم أن أولئك المنافقين جُند الشيطان وجماعته، ألا إنهم هم الخاسرون المغبونون في الدنيا والآخرة.

[٢٠] واعلموا أن الذين يخالفون أوامر الله ونواهيه، ويمتنعون عن أداء ما فرضه الله عليهم من الفرائض؛ فأولئك هم المحادون لله ولرسوله ﷺ؛ وهؤلاء من جملة الأذلين الأرذلين اصحاب البوار والهلاك من الأولين والآخرين.

[٢١] ثم أخبر جل وعلا أنه قضىٰ وقدَّر في سابق علمه أن يغلب هو ورسله وأتباعهم بالحجة والبرهان، وبالسيف والسنان، إن الله قوي قادرٌ علىٰ كل شيء، عزيزٌ غالبٌ لا يعجزه شيء سبحانه وتعالىٰ.

....

....

....

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الحَشْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾

[٢٢] ثم أثنىٰ جل وعلا علىٰ عبادة المؤمنين الصادقين بالبراءة من المنافقين والمشركين؛ فقال: اعلم يانبي الله أنه لا يمكن أن تجد قومًا يؤمنون بالله ورسوله ﷺ حقًّا ويعملون بشرعه؛ يوالون ويحبون المشركين المعادين لله ورسوله ﷺ ويخالفون أمر الله، ولو كان هؤلاء المعادون هم من الأقارب؛ كالآباء الذين يجب طاعتهم، أو الأبناء الذين هم فلذات الأكباد، أو الإخوان المناصرون لهم، أو العشيرة التي يُعتمد عليها بعد الإخوان؛ فأولئك الذين لا يوالون أعداء الله هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان، وقواهم بنصره وتأييده، ومن فضل الله عليهم أنه يدخلهم في الآخرة بساتين فسيحة، تجري من تحت قصورها الأنهار، ماكثين فيها أبد الآبدين، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، فاعلم بأن أولئك الذين لا يوالون أعداء الله هم أنصار الله وجنده الذين يمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أولياءه، وهم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة.

سورة الحشر

سورة الحشر مدنية وآياتها أربع وعشرون آية. وسميت بسورة (الحشر) لأن بني النضير عاهدوا الرسول ﷺ عندما قدم المدينة أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، ولما طلب منهم الرسول ﷺ دفع دية القتيلين حسب المعاهدة تآمروا علىٰ إلقاء حجر عليه لقتله ﷺ؛ فأعلمه الله بمكرهم؛ ثم أَمرَ ﷺ بحصارهم حتىٰ نزلوا علىٰ حكمه ﷺ فأجلاهم.

[١] افتتحت هذه السورة بالثناء علىٰ الله وبتنزيهه عن كل ما لا يليق بذاته وجلاله؛ فأخبر سبحانه بأن جميع من في السماوات والأرض ينزه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته؛ وأنه العزيز الذي قهر كل شيء وغلبه، صاحب الحكمة البالغة، وهاتان الصفتان من مبررات التسبيح له جل وعلا.

وتسبيح المخلوقات يكون بلسان الحال ولسان المقال، وجمهور المحققين علىٰ هذا؛ وليس بمستغرب أن ينطق الحجر فقد قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم والترمذي: «**إني أعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ**»[1]، وقد قال تبارك وتعالىٰ: ﴿**وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾[الإسراء:٤٤].

[٢] يخبر جل وعلا أنه هو الذي أخرج الذين كفروا وهم يهود بني النضير من بيوتهم التي كانوا يسكنون بها حول المدينة، وكان هذا أول إخراج لهم من جزيرة العرب؛ حيث أخرجوا إلىٰ بلاد الشام، ولم يتوقع المسلمون أن بني النضير يمكن إخراجهم من ديارهم بهذه السهولة؛ لأن حصونهم منيعة، وأنهم أهل عدد وعدة، حتىٰ هم ظنوا أن حصونهم مانعتهم من بأس الله، ولكن قوة الله وقدرته لا يمنعها مانع ولا يقف أمامها شيء؛ فلذلك جاءهم بأس الله وقدرته من حيث لم يخطر لهم ببال، وبثّ في قلوبهم الهلع والخوف حين جاء رسول الله ﷺ وأصحابه إليهم، فلم يستطيعوا إلىٰ المقاومة سبيلًا، ولما أيقنوا بالجلاء جعلوا يخربون ما استطاعوا من بيوتهم من الداخل، والمسلمون يخربونها من الخارج؛ حسدًا وحقدًا، فاتعظوا ياأهل البصائر والعقول بما جرىٰ لهم، واعلموا أن الغدر والخيانة مضرته علىٰ مرتكبه.

وبهذه الخاتمة للآية بقوله: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟﴾، وبما شاكلها استدل الفقهاء بحجية القياس.

[٣] ثم أخبر جل وعلا أنه لولا هذا الجلاء الذي أصابهم وقدره عليهم؛ لنالهم عذاب الله في الدنيا بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة، ولهم في الآخرة عذاب أليم مهين ليس أكبر منه عذاب، ولا يعلم قدره إلا الله جل في علاه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

[٤] ثم بين جل وعلا أن ذلك الذي أصابهم من المحاصرة والجلاء، وما ينتظرهم في الآخرة من عذاب النار؛ بسبب شدة عداواتهم لله ورسوله ﷺ، ونقضهم للعهود والمواثيق، ومن يعادي الله ويحارب رسوله ﷺ؛ فإن الله شديد العقاب.

[٥] ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وأرادوا بذلك العيب علىٰ الإسلام ليغيظوا رسول الله ﷺ؛ أخبر جل وعلا أن كل ما جرىٰ من المؤمنين من قطع النخيل، وإحراق بعض الأشجار المثمرة؛ فإنما كان بأمر الله وإرادته؛ حيث سلط سبحانه المسلمين علىٰ قطع نخلهم وتحريقه؛ لإغاظة بني النضير، وليكون ذلك نكالًا وإذلالًا وخزيًا للخائنين للعهد.

[٦] واعلموا أيها المؤمنون أن ما جاءكم من أموال يهود بني النضير؛ فقد يسر الله لكم الحصول عليها بدون جهد ومشقة ولا ركوب خيل ولا إبل، وإنما هو بتسليط الله رسوله ﷺ عليهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب - وهو من جند الله - فهُزِموا به، والله يسلط رسله علىٰ من يشاء، والله علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٧] واعلموا أيها المؤمنون أن هذه الأموال التي جاءت رسول الله ﷺ من أهل القرىٰ؛ من غير ركوب خيل ولا إبل ولا مشقة؛ فإنها لا تقسم تقسيم الغنائم؛ بل هي لله ولرسوله ﷺ تصرف في وجوه البر والخير؛ ولذوي قرابة رسول الله ﷺ، ولليتامىٰ الفقراء، وللمساكين ذوي الحاجة والبؤس، ولابن السبيل الذي انقطع عنه ماله، وقد فعلنا ذلك لئلا يكون المال متداولًا بين الأغنياء ينتفعون به وحدهم، ويحرم منه الفقراء مع شدة حاجتهم للمال، ثم بين سبحانه أن ما جاء به الرسول ﷺ يتعين علىٰ العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، واتقوا الله أيها الناس بفعل أوامره واجتناب نواهيه، إن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ونهيه.

والحاصل أن التعليل في عدم قسمة المال بين جميع المحاربين أمران: أولًا: أنه فيء حصل بغير حرب، والثاني: حتىٰ لا يكون المال متداولًا بين الأغنياء الذين ليسوا في حاجة إليه.

[٨] ثم أمر جل وعلا أن يُعطىٰ من المال الذي أفاء الله به علىٰ رسوله ﷺ أيضًا الفقراء المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة إلىٰ الخروج من ديارهم ولم يسمح لهم بأخذ شيء من أموالهم معهم، ثم زكّاهم جل في علاه فذكر أنهم فعلوا ذلك ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، وابتغاء مرضاة الله، ونصرةً لرسوله ﷺ، ثم بين سبحانه أنهم صادقون في إيمانهم؛ لأنهم صَدَّقَتْ أعمالُ جوارحهم أقوالَ ألسنتهم.

[٩] ثم ذكر جل وعلا الأنصار ومدحهم وزكّاهم، وذكر أنهم هم الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين، وآمنوا قبل هجرة المهاجرين إليهم، وقد كانوا يحبون إخوانهم المهاجرين، وينصرونهم، ويؤوونهم، ويقاسمونهم أموالهم، ولا يجدون في صدورهم حسدًا أو غيظًا أو حرجًا مما أُعطي إخوانهم المهاجرون مما فضلهم الله وخصهم به؛ بل كانوا يقدمون إخوانهم المهاجرين علىٰ أنفسهم في كل شيء من متاع الدنيا ومحابِّ النفوس - حتىٰ لو كانوا في حاجةٍ وفقر -، ومن رزقه الله الإيثار، وعافاه من بخل نفسه وحِرْصِهَا؛ كانَ من المفلحين الفائزين فوزًا عظيمًا.

وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا
ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ
ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ
لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا
وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ
﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ
وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمۡ
أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ
لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ
أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا
وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا
كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾

[١٠] ثم ذكر جل وعلا الذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار – وهم الذين أسلموا بعد فتح مكة والتابعون لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين –، يدعون الله قائلين: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل يارب في قلوبنا غلًّا ولا حسدًا ولا عداوةً ولا بغضاء للذين آمنوا، ربنا إنك ذو رأفةٍ بعبادك، ورحمةٍ بهم، فاستجب لنا.

[١١] ثم ذكر جل وعلا قصة عبدالله بن أُبَيٍّ وأتباعِه من المنافقين الذين كان بينهم وبين اليهود مودة وحِلْف، فقال سبحانه: ألا تعجب يانبي الله من شأن هؤلاء المنافقين الذين أظهروا خلاف ما أضمروا؟ يقولون ليهود بني قريظة والنضير الذين كفروا برسالة محمد ﷺ: لئن أُخرجتم من المدينة لنخرجن معكم منها، ولا نطيع في عدم نصرتكم أحدًا يريد أن يخوفنا أو يخذلنا عن نصرتكم، وإن قاتلوكم لنعيننَّكم عليهم، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما قالوا وفيما ادعوا.

[١٢] ثم إن الله جل وعلا كذَّبهم، وأخبر أن اليهود لو أُخرجوا فلن يخرجوا معهم، وقد كان كذلك؛ فلم يخرج المنافقون مع من أُخرج من يهود بني النضير، ولو قوتل اليهود، فلن يصدق المنافقون في وعدهم إياهم بالوقوف معهم، وقد كان كذلك، فلم يقفوا مع بني قريظة لما قوتلوا فيما بعد، وعلىٰ فرض أنهم نصروهم ووقفوا في القتال معهم؛ فلن يثبتوا، وسَيُوَلُّون الأدبار منهزمين هاربين.

[١٣] واعلموا يامعاشر المسلمين أنكم أشد خوفًا وخشية في صدور هؤلاء المنافقين واليهود من الله الذي خلقهم وأوجدهم، وخوفهم من رسول الله وأصحابه أشد من خوفهم من الله؛ لأنهم قوم لا يفقهون قدر عظمته جل في علاه.

[١٤] ثم ذكر جل وعلا صفة من صفات اليهود والمنافقين وهي صفة الجبن؛ فأخبر سبحانه بأنهم لا يواجهون المسلمين وهم مجتمعون في مكان واحد، إلا إذا كانوا في قرىٰ محصنة بالأسوار والخنادق، أو من خلف الحيطان التي يستترون بها لجبنهم ورهبتهم، وبين سبحانه وتعالىٰ أن من أسباب هذا الجبن والخوف أن بعضهم عدوّ لبعض؛ ولذلك يحسبهم الناظر إليهم أنهم مجتمعون ومتفقون، ولكن في الحقيقة قلوبهم متفرقة، وذلك الاختلاف والتشتت بسب أنهم قوم لا يعقلون شيئًا مما فيه صلاحهم، فإن تشتيت القلوب يوهن قواهم، ولو عقلوا لعرفوا الحق واتبعوه.

[١٥] واعلم يانبي الله أن مثل هؤلاء اليهود من بني النضير فيما حل بهم من عقوبة الله؛ كمثل الذين من قبلهم من كفار قريش فيما وقع لهم يوم بدر من الهزيمة، وكمثل يهود بني قينقاع الذين أخرجوا من المدينة بسبب غدرهم؛ حيث أخرجوا من المدينة قبل بني النضير بزمن قليل، فكل هؤلاء ذاقوا سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ في الدنيا، ولهم مع ذلك عذاب أليم في الآخرة.

[١٦] ثم اعلم يانبي الله أيضًا أن هؤلاء المنافقين الذين زينوا الشر والفساد ليهود بني النضير ووعدوهم بأن ينصروهم؛ ثم تبرأوا منهم؛ كمثل الشيطان الذي أغرىٰ كفار مكة وغيرهم بالكفر فلما رأىٰ العذاب تبرأ منهم وتخلىٰ عنهم، وقال لهم: إني أخاف عذاب الله وانتقامه إن قاتلت معكم.

فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

[١٧] ثم أخبر جل وعلا أن جزاء وعاقبة المنافقين واليهود كعاقبة الشيطان ومن تبعه علىٰ الكفر؛ أنهما جميعًا في نار جهنم يعذبان فيها، ماكثين فيها أبدًا، لا يخرجون منها، وذلك جزاء ومصير الظالمين المجاوزين حدودهم بالشرك والمعاصي.

[١٨] ثم حث جل وعلا المؤمنين علىٰ التقوىٰ والنظر في العواقب وما يقدمون من أعمال، فقال: ياأيها الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ وعملوا بشرعه، اتقوا عقاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ولينظر كل واحد أي شيء قدم من الأعمال ليوم القيامة، ثم أمر سبحانه المؤمنين بالتقوىٰ مرة ثانية، وكرر سبحانه التقوىٰ لأهميتها، واعلموا أن الله جل في علاه خبير بما تعملون لا تخفىٰ عليه خافية في السماء والأرض، وسوف يجازيكم بأعمالكم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

[١٩] واحذروا أيها المؤمنون أن تكونوا مثل اليهود والمنافقين ممن تركوا أمر الله وطاعته ونسوا حقوقه؛ فأنساهم الله حقوق أنفسهم؛ ليكون الجزاء من جنس العمل، واعلموا أن أولئك الذين تركوا أمر الله هم الخارجون عن طاعته وشريعته.

[٢٠] ثم أخبر جل وعلا أنه لا يستوي أصحاب النار وهم الفسقة الذين نسوا الله، وأصحاب الجنة الذين اتقوا الله فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، فاعلموا أن أصحاب الجنة هم الفائزون الظافرون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه.

[٢١] ثم ذكر جل وعلا أن هذا القرآن العظيم الحاوي للقوارع والنواهي لو أنزله علىٰ جبل؛ لتفتت وتصدع من خشية الله تعالىٰ، واعلموا أيها الناس أن هذه الأمثال نضربها لكم لعلكم تتعظون فتحصلون علىٰ رضا الله والنجاة من النار. وهذا إعلام بعظمة القرآن وقوة تأثيره وتأنيبه للعصاة الكفرة وغيرهم ممن أصم أذنه عن القرآن.

[٢٢] ثم ختم جل وعلا السورة بعدد من أسماء الله الحسنىٰ التي هو أهل لها وأهل للمغفرة، فأخبر سبحانه بأنه هو الله الذي تألهه القلوب، وهو الذي لا معبود بحق غيره، لا إله إلا هو ولا رب سواه، عالم السر والعلن، يعلم ما غاب عن العباد مما لم يبصروه، وما شاهدوه وعلموه، ذو الرحمة الواسعة العامة التي وسعت كل شيء ووصلت إلىٰ كل حي، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما. يرجح كثير من العلماء بأن (الله) هو الاسم الأعظم، وقد ذكر في القرآن (٢٦٠٢ مرة)، وكلها تعود إليه جل في علاه.

[٢٣] ثم أكد جل وعلا مرة أخرىٰ أنه هو الله الذي لا معبود بحق غيره، لا إله إلا هو ولا رب سواه، وذلك اعتناءً واهتمامًا بأمر التوحيد، ثم أخبر سبحانه بأنه الملك الذي لا يزول ملكه، المتصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه، المالك لهم فهم تحت ملكه وقهره وإرادته، القدوس الطاهر من كل عيب والمنزه عن كل نقص، السلام الذي سلم من كل عيب وآفة ونقص، المؤمن الذي وهب لعباده نعمة الأمن والأمان والاطمئنان، المصدق لرسله بإظهار المعجزات، المهيمن الذي هيمن بعظمته وجلاله علىٰ جميع خلقه بما فيهم الملوك والزعماء والرؤساء، العزيز الذي لا يغلب ولا يناله ذل، الجبار الذي يذل له من دونه سائر الخلق، المتكبر الذي له الكبرياء والعظمة، فتنزه سبحانه وتقدس في جلاله وعظمته عما يقوله ويفعله المشركون.

[٢٤] ثم أخبر جل وعلا أنه هو الإله الخالق لجميع الأشياء، البارئ المنشئ لها بطريق الاختراع، الموجد لها من العدم، المصور لمخلوقاته وفق ما يريد، له الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا، ينزهه تعالىٰ عن صفات العجز والنقص جميع ما في الكون بلسان الحال أو المقال، لأنه هو العزيز الذي لا يغالبه مغالب، الحكيم في كل الأمور التي يقضي بها. وقد جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والدارمي والترمذي وحسنه البيهقي في شعب الإيمان: «**من قال حين يصبح عشر مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وكّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتىٰ يمسي، وإن مات ذلك اليوم مات شهيدًا، ومن قالها حين يمسي كذلك**»[1]. تمت سورة الحشر فجر يوم العيد من رمضان عام ١٤٣٤هـ؛ فالحمد لله علىٰ الإعانة، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٠٣٠٦)، والترمذي (٢٩٢٢)، والدارمي (٣٤٦٨) وقال الترمذي: غريب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾

سورة الممتحنة

سورة الممتحنة مدنيّة وآياتها ثلاث عشرة آية.

[١] افتتحت هذه السورة بنداء المؤمنين أن لا يتخذوا أعداء الله وأعداء المؤمنين أولياء وأصدقاء، وأن لا يُظهروا لهم المودة والمحبة، ولا يثقوا بهم فيبلغوهم أخبار الرسول ﷺ وأخبار المؤمنين التي لا ينبغي لأعدائهم أن يطلعوا عليها؛ كما فعل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه عندما أرسل كتابًا لقريش يخبرهم بما يريد أن يفعله الرسول ﷺ من حربهم، وسبب ذلك أن هؤلاء المشركين جحدوا الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وأنهم سبب إخراج الرسول ﷺ والمسلمين من مكة بسبب إيمانهم وإخلاصهم العبادة لله وحده، فإن كنتم أيها المؤمنون خرجتم من مكة هجرة وجهادًا في سبيل الله وطلبًا لمرضاته؛ فكيف تفضون إليهم بالمودة والمحبة سرًّا، وهو سبحانه أعلم منهم ومنكم بما أخفيتم في قلوبكم من الخير والشر، ولذلك أُخبر الرسول ﷺ بما فعل حاطب، وأمره أن يلحق بالمرأة التي نقلت الكتاب في مكان يقال له روضة خاخ، واعلموا أن من يفعل ذلك منكم فقد أخطأ طريق الحق والصواب، وضل سواء السبيل.

وهذه الآية صريحة في عدم الثقة في الأعداء مهما كانت القرابة أو أي سبب آخر.

وسبب نزولها: أن حاطب بن أبي بلتعة العبسي كتب كتابًا لقريش يقول فيه: إن محمدًا ﷺ جاء إليكم بجيش كالليل، أي: أنه عمل عملًا يسمىٰ في الوقت الحاضر الخيانة العظمىٰ للأمة، وكان جرمه يستحق عليه القتل عقوبة، ولكن الرسول ﷺ حفظ له مواقفه القديمة في البيعة تحت الشجرة، وفي حربه مع المسلمين في غزوة بدر؛ لاسيما وقد أقسم أمامه أنه لا زال مسلمًا، وأن قصده أن يجعل له يدًا عند قريش حتىٰ لا ينكلوا بأسرته في مكة، ولعظم جريمته قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للرسول ﷺ: دعني أضرب عنقه[1]، ولكن الرسول منع عمر وذكر لعمر المبرر لعدم قتله.

واستنتج بعض المفسرين من هذه القضية أن فضح الخائنين ومرتكبي الكبائر العظمىٰ لا يعد نميمة؛ بل إنه واجب.

[٢] واعلموا أيها المؤمنون أنه لو تمكن منكم هؤلاء الأعداء الذين تسرون إليهم بالمودة والمحبة؛ فسوف تظهر عداوتهم وبغضهم لكم؛ ولن يقف الأمر علىٰ ذلك؛ بل سوف يمدون أيديهم بقتلكم وسبيكم وتشريدكم، وتسليط ألسنتهم بما يؤذيكم من السب والشتم، وبعد هذا كله فإنهم يتمنون لو تكونون كفارًا مثلهم؛ لتكونوا علىٰ مثل الذي هم عليه.

[٣] ثم اعلموا أيها المؤمنون أنه لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم يوم القيامة، فإنه جل في علاه في هذا اليوم يفصل بين أهل الإيمان وأهل الكفر، والله سبحانه بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفىٰ عليه شيء منها كما لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٤] واعلموا أيها المؤمنون أنه يجب أن تكون لكم في أبيكم إبراهيم الخليل أحسن أسوة هو ومن معه من المؤمنين؛ حيث إنهم قالوا لقومهم الذين كانوا يعبدون الأصنام: إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله، ولقد كفرنا بكم وبهذه الآلهة التي تبعدونها، وقد بدت بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا ما دمتم علىٰ كفركم وجحودكم، حتىٰ تؤمنوا بالله وحده لا شريك له، ولكن ليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في حالة واحدة حينما قال لأبيه آزر المشرك: لأستغفرن لك ربي؛ حيث وعد أباه بالاستغفار له أملًا في هدايته، ثم بين له سبحانه أنه لا يستحق الاستغفار له لأنه من أهل النار، واستغفار إبراهيم لأبيه كان قبل أن يتبين لإبراهيم أن أباه عدو لله؛ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، ثم أمر سبحانه عباده أن يقولوا في دعائهم كما قال إبراهيم ومن معه: ياربنا عليك وحدك فوضنا أمورنا، وإليك وحدك رجعنا وتبنا، وإليك وحدك مرجعنا ومصيرنا. وقولوا في دعائكم أيضًا: ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا بأن يظهروا علينا فيُعذبونا ويفتنونا عن ديننا، فيظنوا أنهم علىٰ الحق، واغفر لنا يارب ذنوبنا وسيئاتنا وتقصيرنا في عبادتك، ربنا إنك أنت العزيز الغالب الذي قهر كل شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها.

والمقصود من هذه الآية: هو النهي الشديد عن مولاة الكفار والمشركين وغيرهم من أعداء الملة، أو محبتهم، كما أنها أثنت علىٰ الخليل ومن معه من المؤمنين؛ لأنه تبرأ من قومة المشركين بما فيهم أبوه.

---

(١) انظر قصة حاطب عند البخاري (٣٠٨١، ٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤).

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم
مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن
دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ
فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا
تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم
مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا
ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ
شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ
أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

[٦] ثم كرر جل وعلا الحث علىٰ الاقتداء بإبراهيم ومن فعل فعله، فقال سبحانه: لقد كان لكم في إبراهيم والذين آمنوا معه أسوةٌ وقدوة حسنة في بغض المشركين والبراءة منهم ومن معبوداتهم؛ فاقتدوا بهم، وهذا الاقتداء يسهل علىٰ من كان طمعه وهدفه رضا الله، والفوز في اليوم الآخر، ومن يُعرِضْ عن طاعة الله والتأسِّي برُسُلِه؛ فإن الله هو الغني عن جميع خلقه، وهو الذي له الغنىٰ التام المطلق من جميع الوجوه، الحميد في ذاته وأسمائه، وصفاته، وأفعاله سبحانه وتعالىٰ.

[٧] وبعد أن حذر جل وعلا عبادة المؤمنين من الثقة بالمشركين وموالاتهم ومحبتهم، قال سبحانه: عسىٰ الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم من أقاربكم مودة ومحبة إذا اهتدوا ودخلوا في الإسلام، فتزول علة الحذر، وحينئذ لهم ما للمسلمين، ثم أخبر سبحانه بأنه قادر علىٰ أن يغير ما في النفوس ويحول القلوب فتنشرح للإسلام، والله غفور لعبادة المؤمنين، رحيم بهم.

[٨] ثم استثنىٰ جل وعلا المسالمين منهم الذين لم يؤذوا المؤمنين من قرابتهم، ولم يقاتلوهم، أو من الذين يتعاملون معهم بصدق، ولا يجاهرون بالعداء للمسلمين؛ فأخبر سبحانه أنه لا ينهاكم أيها المؤمنون عن الذين لم يقاتلوكم من الكفار بسبب دينكم، ولم يخرجوكم من بلادكم؛ فهؤلاء لا بأس بالعدل معهم والإحسان إليهم وبِرِّهِم وصلتهم بسبب القرابة؛ فإنه جل في علاه يحب الذين يعدلون في أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم. وإنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم وعادوكم لأجل دينكم، وأخرجوكم وعاونوا علىٰ إخراجكم من دياركم لأجل دينكم؛ فهؤلاء ينهاكم الله نهْيًا شديدًا أكيدًا عن مودتهم ونصرتهم بالقول أو الفعل، ومن يتولاهم بالنصرة والمحبة والتأييد؛ فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بمجاوزتهم حدود الله.

[١٠] ياأيها الذين آمنوا بالله ورسوله إذا جاءكم النساء المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام فعليكم أن تمتحنوهن لتعرفوا صدق إيمانهن، ومعلوم أنه لا يعلم حقيقة إيمان الإنسان إلا الله جل في علاه؛ فإن غلب علىٰ ظنكم أنهن مؤمنات فلا تردوهن إلىٰ الكفار، ثم بيّن سبحانه العلة في النهي عن إرجاعهن؛ فأخبر أنه لا يحل تزويج المؤمنات للكفار، ولا يحل للكفار أن يتزوجوا المؤمنات، وعليكم أن تعطوا أزواج اللاتي أسلمن ما أنفقوا عليهن من المهور، ثم أخبر سبحانه أنه لا حرج ولا إثم عليكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات إذا دفعتم لهن مهورهن، ثم أمر سبحانه عباده أن لا يتمسكوا بعقود زوجاتهم الكافرات؛ فليس بينكم وبينهن عصمة ولا علاقة، ثم طلب سبحانه منهم أن يسألوا الكفار مهور نسائهم اللاحقات بهم إذا ارتددن ولحقن بهم، وليسألكم الكفار مهور نسائكم المهاجرات إليكم، والمراد أن عليكم أن تؤدوا لهم ذلك، واعلموا أيها الناس أن هذه الأحكام هي حكم الله يحكم به بينكم فاتبعوه ولا تخالفوه، وهو سبحانه عليم بمصالح العباد، حكيم في تشريعه لهم، يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة.

[١١] ثم بين سبحانه إذا ذهب بعض نسائكم أيها المؤمنون إلىٰ الكفار مرتدات وطالبتم بالمهور فلم يعطوكم ثم غزوتم وغنمتم فأعطوا من الغنيمة قبل قسمتها الذي ذهبت زوجته إلىٰ دار الكفر ولم يحصل علىٰ تعويض فأعطوه مثل ما أنفق، وخافوا الله الذي أنتم به مؤمنون، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

[١٢] يأيها النبي إذا جاءك النساء المؤمنات يعاهدنك علىٰ: ألا يشركن بالله شيئًا، ولا يرتكبن جريمة السرقة، ولا جريمة الزنىٰ التي هي من أسوأ الفواحش، ولا يقتلن أولادهن كما كان يفعله أهل الجاهلية؛ خوف العار أو خشية الفقر، ولا يلحقن بأزواجهن ولداً ليس منهم، ولا يخالفنك في معروف أمرتهن به، فعلىٰ هذه الشروط بايعهن يانبي الله، واطلب من الله المغفرة لهن؛ فهو سبحانه غفور لذنوب عباده التائبين، كثير الرحمة بهم.

[١٣] ثم ختم جل وعلا السورة بنهي عباده المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ؛ عن موالاة اليهود والنصارىٰ وسائر الكفار الذين غضب الله عليهم فاستحقوا الطرد من رحمته؛ بسبب كفرهم وضلالهم؛ فحذر سبحانه من موالاتهم؛ سواء كانوا أصدقاء أو أخلاء، وهؤلاء الفجار قد يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور من عودة أمواتهم إلىٰ الحياة مرة ثانية بعد أن يموتوا.

سورة الصف

سورة الصف مدنية وآياتها أربع عشرة آية.

[١] يخبر جل وعلا أن جميع من في السماوات والأرض ينزه الله ويقدسه عما لا يليق به سبحانه من صفات النقص والعيب، ثم أخبر أنه العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم في كل ما يصدر منه.

وفي هذه الآية إرشاد لمشروعية التسبيح في كل وقت.

[٢-٣] يعاتب جل وعلا عبادة المؤمنين علىٰ عدم موافقة العمل للقول، فقال سبحانه: يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ لِمَ تقولون من الخير ما لا تفعلونه؟ فقد عظم هذا الفعل جرمًا عند الله أن تقولوا ثم لا تفعلون، لأن الوفاء بالوعد دليل علىٰ الصدق وكريم الشيم، وجميل الخصال. روي في حديث أخرجه أحمد والترمذي عن عبدالله بن سلام: أن رجالًا من الصحابة قالوا: لو نعلم العمل الأفضل الذي هو أحب الأعمال عند الله لعلمناه، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:١-٢]، قال عبدالله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ[(١)].

وهذا الحديث ذكره ابن كثير في تفسيره، ثم قال: إن القول الذي لا يصدقه العمل يسبب الذم والمقت، والمقت: هو أشد الكره والبغض.

[٤] ثم بين جل وعلا أن من محاب الله الجهاد في سبيله؛ فهو سبحانه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم في وقوفهم يشبهون الجدار الذي لا فجوات فيه، أي: متراصين متلاصقين

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ۝١٣

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥

٥٥١

ليس بينهم فجوات. وقد كانت حروب الأعراب قبل ذلك مطاردة كل يجري يلاحق عدوه، أي: متفرقين.

[٥] واذكر يانبي الله لقومك قصة عبده وكليمه (موسىٰ بن عمران) حين قال لقومه بني إسرائيل: ياقوم لم تؤذونني وتخالفون أمري فتتركون القتال وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من رسالة ربيٰ؟ حيث رفضوا القتال مع موسىٰ وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢]، ولكن لما مالوا عن الحق بعد أن علموه غاية العلم وآثروا الباطل علىٰ الحق عاقبهم الله فصرف قلوبهم عن الهدىٰ نقمة منه تعالىٰ عليهم، والله سبحانه لا يهدي كل من خرج عن طاعته وهديه.

والهدف من ذكر قصة موسىٰ هو تسلية رسول الله ﷺ وإخباره أن الأنبياء يتلقون مصاعب ومخالفات من قومهم، مع أنهم يعلمون أنهم رسل الله، وينفذون تعاليمه وتعليم من كانوا قبلهم من الأنبياء والمصلحين، وحثُّه علىٰ الصبر والاحتساب.

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٠٩)، والدارمي (٢٤٣٥)، وقال الشيخ الألباني في التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان: حسن صحيح.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

[٦] واذكر يانبي الله أيضًا لقومك حين قال عيسىٰ ابن مريم لقومه: يابني إسرائيل إني مرسل إليكم من الله، وإني مصدق بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعًا من تقدم منهم ومن تأخر، وذكر تصديقه للتوراة ليعلموا أنه مؤمن برسالة موسىٰ لعلهم يهتدون، ثم قال لهم: وإني جئت لأبشركم ببعثة رسول سوف يأتي بعدي يسمىٰ (أحمد)، وهو محمد ﷺ، ولما جاءهم محمد ﷺ المبشّر به بالأدلة الواضحة البينة، كذبوه وأعرضوا عنه وعما جاء به، وقالوا: إن ما جئت به ما هو إلا أباطيل، وسحر واضح لا شك فيه.

[٧] ثم بين جل وعلا أنه ليس هناك أشد ظلمًا من ذلك الإنسان الذي يختلق علىٰ الله الكذب، وذلك بنسبة الشريك والولد إليه، وَوَصْفِ آياته بالسحر، في حين أن الله يدعوه للإسلام، ثم بين سبحانه أنه لا يمكن أن يرشد أو يوفق القوم الظالمين؛ لإصرارهم علىٰ الكفر والشرك، وَلِحَسَدِهم بأن الله بعث نبيًّا ليس من بني يعقوب عليه السلام.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود والكفار يريدون أن يطفئوا دين الله وشرعه المنير بطعنهم وافترائهم؛ فهؤلاء مثلهم كمثل من ينفخ في الشمس بفيه ليطفئ نورها، ويحجب ضياءها، وأنىٰ له ذلك؟ فليعلم هؤلاء المشركون بأن الله متم نوره ولو كره الجاحدون المكذبون، ولا راد لحكمه وقضائه جل في علاه.

[٩] ثم أخبر جل وعلا أنه بقدرته وحكمته بعث رسوله محمدًا ﷺ بالقرآن الواضح البين، والملة الحقة، وهي ملة الإسلام؛ ليعليه علىٰ جميع الأديان؛ فيجعله دينًا شائعًا وغالبًا ومنتصرًا علىٰ كل الأديان، ولو كره المشركون الذين أشركوا مع الله غيره، وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

[١٠] ثم دل جل وعلا عباده المؤمنين علىٰ سبيل التجارة الرابحة في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه: هل أرشدكم أيها المؤمنون علىٰ تجارة عظيمة الربح، ثمرتها النجاة من عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

[١١] ثم بين سبحانه أن هذه التجارة هي أن تؤمنوا بالله ورسوله إيمانًا صادقًا، لا يشوبه شك ولا نفاق، وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس، لإعلاء كلمة الله؛ واعلموا أن هذا الإيمان وهذا الجهاد خير لكم من كل شيء في الدنيا؛ فخير من النفس والمال والولد؛ إن كنتم تعلمون ما ينفعكم وما يضركم.

فجعل سبحانه الإيمان والجهاد هما التجارة الرابحة، تشبيهًا في الاستثمار علىٰ معنىٰ المبادلة والمعاوضة، طلبًا لنيل الفضل والزيادة في الثواب والرفعة عند الله؛ لأن التجارة معاوضة بالمال لطلب الربح.

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أن من يفعل ذلك منكم أيها المؤمنون، أي: يؤمن بالله ويجاهد في سبيله؛ فإن الله سوف يغفر له جميع ذنوبه فيسترها عليه ويمحوها عنه فضلًا منه ورحمه، ويدخله جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ويعطيكم قصورًا مشتملة علىٰ كل ما هو طيب ونافع، وهذه القصور توجد في جنات عالية دائمة لا تنقطع، واعلموا أن ذلك الذي منحناه لكم من مغفرة الذنوب والخلود في الجنة هو الفوز العظيم الذي لا فوز مثله.

[١٣] ثم بين جل وعلا إضافة علىٰ ما تقدم من النعم؛ أن الله منحكم نعمة أخرىٰ تحبونها وتتطلعون إليها، وهي نصر من الله سوف يأتيكم، وفتح عاجل يتم علىٰ أيديكم، وبشر يانبي الله المؤمنين بهذا النصر وهذا الفتح في الدنيا، ثم الجنة في الآخرة، حتىٰ يزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وتزداد قلوبهم انشراحًا وسرورًا. ولا شك أن فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجًا يدخل في هذا النصر وهذا الفتح القريب.

[١٤] حض جل وعلا عباده المؤمنين علىٰ نصرة دينه، فقال: يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ، كونوا أنصار الله، بإعلاء كلمته، كما قال عيسىٰ ابن مريم للحواريين: من ينصرني ويعينني لتبليغ دعوة الله؟ فقال الحواريون: نحن ننصرك، فلما بلّغ عيسىٰ رسالة ربه، اهتدت طائفة من بنىٰ إسرائيل، وضلت طائفة أخرىٰ، فقوىٰ سبحانه ونصر الذين آمنوا علىٰ عدوهم، وهم الطائفة الكافرة، وبهذا صار المؤمنون غالبين قاهرين لإعدائهم بفضل الله أولًا ثم بهذا النصر الذي وفقهم إليه.

سورة الجمعة

سورة الجمعة مدنيّة وآياتها إحدىٰ عشرة آية.

[١] افتتحت هذه السورة بالثناء علىٰ الله وتنزيهه عن صفات النقص والعيب: فأخبر سبحانه أن جميع من في السماوات والأرض ينزه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، وأنه المالك لكل شيء المتصرف في الأشياء بقدرته وحكمته، المنزه عن كل عيب ونقص، العزيز الذي كل شيء تحت تصرفه وقهره، الحكيم في جميع ما يصدر منه.

[٢] ثم أخبر جل وعلا أنه هو الذي أرسل رسوله ﷺ إلىٰ الأمة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب وهم العرب، وهذا الرسول ﷺ اختاره الله منهم ومن أشرفهم، وهو لا يعرف القراءة والكتابة مثلهم، وقد أرسله سبحانه ليتلو عليهم آيات القرآن ويوضح لهم الأدلة والبراهين مع كونه أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وأيضًا يطهرهم من دنس الكفر والذنوب، ويعلمهم القرآن والسنة النبوية المطهرة، لأنهم كانوا قبل بعثته فيهم ومجيئه إليهم في ضلال واضح من الشر والكفر والتصرفات السيئة، مثل: وأد البنات، وإغارة بعضهم علىٰ بعض، والسلب والنهب، وهذا لا يعني أنه لم يكن فيهم موحد؛ بل كان فيهم موحدون مثل: ورقة بن نوفل وغيره، لكن لما كانوا قله صار الضلال عامًّا.

[٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل هذا الرسول ﷺ أيضًا في أقوام آخرين لم يأتوا بعد، من الأميين العرب ومن غيرهم من العجم؛ فهؤلاء سيتبعونهم علىٰ الهدىٰ وتعمهم التزكية، وقيل: لما يلحقوا بهم في الفضل؛ لأن الصحابة أفضل ممن جاء بعدهم، والله تعالىٰ وحده هو العزيز الذي بعظمته وقدرته مكَّن هذا الأمي محمدًا ﷺ من إخراج هذه الأمة - بل الأمم - من ظلمات الجهل والضلال إلىٰ نور الإسلام، وهو صاحب الحكمة البالغة التي بها اصطفاه من سائر البشر.

[٤] واعلموا أيها الناس أن إرسال خاتم الرسل محمد ﷺ إلىٰ الناس جميعًا فضل وكرم من الله لهم، وشرَّف الله به العرب؛ حيث نزل القرآن بلغتهم، ولا شك أن هذا الإرسال فضل من الله يعطيه سبحانه لمن يشاء من خلقه، والله ذو الفضل الواسع الذي لا يساويه ولا يدانيه فضل.

[٥] ولما ترك اليهود العمل بالتوراة، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ، ضرب الله لهم مثلاً بأنهم كلفوا بالعمل بالتوراة وبما تضمنته من صفة الرسول ﷺ وطلب الإيمان به ومناصرته، ثم لم يمتثلوا بما احتوته؛ فهؤلاء مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل الكتب النافعة الضخمة، ولا يناله منها إلا التعب والعناء، فما أقبح هؤلاء مثلًا؛ لتكذيبهم بآيات الله التي جاءت علىٰ لسان رسوله ﷺ، والله لا يوفق ولا يرشد القوم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والكفر وتكذيبهم للأنبياء. ويستفاد من هذه الآية أنه ينبغي لمن قرأ القرآن أن يعمل بما تضمنه لئلا يشمله هذا الوصف السَّيِّئ.

[٦] وقل يانبي الله لهؤلاء اليهود: إن كنتم تزعمون أنكم أولياء



سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴿١﴾ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم ءاياته ويزكيهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلل مبين ﴿٢﴾ وءاخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴿٣﴾ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿٤﴾ مثل الذين حملوا التورية ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بـايـت الله والله لا يهدي القوم الظلمين ﴿٥﴾ قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صدقين ﴿٦﴾ ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظلمين ﴿٧﴾ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملقيكم ثم تردون إلى علم الغيب والشهدة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴿٨﴾

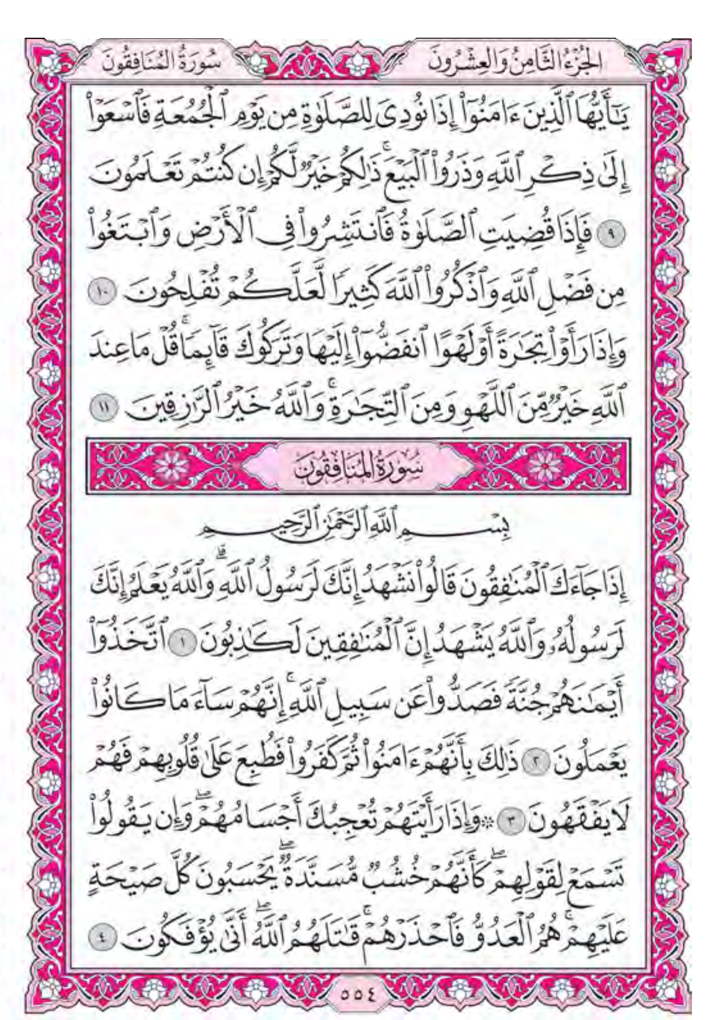
الله وأحباؤه من دون الناس فادعوا علىٰ أنفسكم بالهلاك واللعنة إن كنتم صادقين في زعمكم. وقد نهىٰ النبي ﷺ عن تمني الموت إلا عند التحدي والمباهلة؛ سواء كانت المباهلة بين طرفين كالتي حصلت بين رسول الله ﷺ وبين وفد نصارىٰ نجران، وهي المذكورة في آية (٦١) من سورة آل عمران، أو كانت المباهلة مطلوبة من طرف واحد كالتي طلبت من اليهود في هذه الآية، وكالتي في الآية (٩٤) من سورة البقرة؛ حيث طلب منهم الدعوة علىٰ أنفسهم باللعنة والهلاك إن كانوا كاذبين، فلم يفعلوا لأنهم موقنون أنهم كاذبون. وفي مسند أحمد عن ابن عباس: «ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار»[(١)].

[٧] ثم أخبر سبحانه أن اليهود لن يتمنوا الموت أبدًا؛ لأنهم عارفون أنهم كاذبون في زعمهم، وَلِمَا يعلمون من سوء أفعالهم وقبيح أعمالهم التي قدموها، والله عليم بالظالمين أمثال هؤلاء اليهود، وسيجزيهم بظلمهم عذاب الجحيم. يقول الشيخ السعدي في تفسيره: هذه مباهلة من طرف واحد وهم اليهود.

[٨] وقل يانبي الله لهؤلاء اليهود: إن الموت الذي رفضتم أن تتمنوه فإنه واقع بكم لا محالة، ثم ترجعون بعد مماتكم إلىٰ عالم غيب السماوات والأرض فيخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا، ثم يجازيكم علىٰ كل أعمالكم بما تستحقون.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٢٥). والبزار في مسنده (٤٨١٤).



يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿٩﴾ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴿١٠﴾ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴿١١﴾

سورة المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴿١﴾ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿٢﴾ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴿٣﴾ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿٤﴾

[٩] حث جل وعلا عباده المؤمنين علىٰ إجابة النداء للصلاة يوم الجمعة، فقال سبحانه: ياأيها الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ إذا أذن المؤذن بين يدي الإمام وهو علىٰ المنبر في يوم الجمعة للصلاة فامضوا إلىٰ ذكر الله الذي هو الصلاة والخطبة، واتركوا المعاملة بالبيع والشراء، واعلموا أن ذلك الذي أمركم الله به خير لكم من التشاغل بالبيع والشراء وابتغاء النفع الدنيوي إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم.

ويوم الجمعة سمي بذلك لاجتماع المسلمين والصلاة فيه وسماع الخطبة، وقد كان يسمىٰ قبل ذلك بيوم العروبة.

[١٠] فإذا فرغتم من أداء الصلاة أيها المؤمنون؛ فانتشروا في الأرض لطلب المكاسب والتجارات، واطلبوا الرزق من الله جل في علاه بالسعي والعمل، واذكروا الله ذكْرًا كثيرًا في جميع أحوالكم – ولا تلهكم تجارتكم عن ذكر الله –، فمن أكثر من ذكر الله كان من المفلحين، الفائزين فوزًا عظيمًا.

[١١] ثم عاتب جل وعلا عباده المؤمنين الذين إذا رأوا تجارة قادمة، أو سمعوا أصواتًا مصاحبة للعير التجارية تعلن عن تجارتهم أنهم أحضروها للبيع؛ خرجوا من المسجد، وتركوك يانبي الله قائمًا، وذلك أن الصحابة رضي الله عنهم سمعوا تجارة قادمة وظنوا أنه بانتهاء الصلاة يصح لهم الانتشار لابتغاء الرزق؛ فذهبوا إلىٰ العير التجارية القادمة، وكان الرسول ﷺ يخطب؛ حيث إن الخطبة في ذلك الوقت كانت بعد الصلاة، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء: اعلموا أن ما عند الله من ثواب الآخرة خير من اللهو والتجارة التي خرجتم إليها، ثم اعلموا أن الله خير الرازقين؛ لأنه مقسم الأرزاق.

سورة المنافقون

سورة المنافقون مدنيّة وآياتها إحدىٰ عشرة آية.

[١] عندما كان المنافقون يأتون إلىٰ رسول الله ﷺ في مجلسه كانوا يقولون علىٰ سبيل الكذب والمخادعة: نشهد يامحمد أنك رسول من عند الله حقًّا، والله جل في علاه يعلم أنك لرسوله؛ فلست بحاجة إلىٰ شهادتهم، ثم كذبهم الله في قولهم: ﴿نَشْهَدُ﴾؛ فقال: والله يشهد إنكم أيها المنافقون لكاذبون؛ لأنه يعلم أنهم في ضمائرهم مكذبون، وأنهم لا يعتقدون ذلك.

والنفاق نوعان: اعتقادي وعملي، والمقصود بهذه السورة الأول وهو إظهار الإسلام واعتقاد الكفر.

[٢] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المنافقين جعلوا أيمانهم الكاذبة التي حلفوا بها وقاية وسترًا لهم لئلا يساء بهم الظن فيلاحقون ويعذبون، ثم إنهم من خلال هذه الأيمان الكاذبة ستروا كفرهم، ومنعوا من يأنسون إليهم ويجالسونهم من الدخول في الإسلام، ومنعوا من أراد الإنفاق في سبيل الله وذلك بالتشكيك في رسالة النبي ﷺ، ثم اعلم أن هؤلاء المنافقين أسوأ كفرًا وضلالًا من الكفار الصرحاء، ولذلك كان عذابهم في الآخرة أنهم في الدرك الأسفل من النار.

[٣] ثم بين جل وعلا أن ذلك الذي أخبر به سبحانه من كذبهم وخداعهم وصدهم الناس عن سبيل الله؛ سببه أنهم نطقوا بالشهادة ظاهرًا ثم كفروا بقلوبهم، فختم سبحانه علىٰ قلوبهم؛ حيث صارت لا يدخلها الإيمان جزاء نفاقهم ومعاداتهم الكامنة في نفوسهم والظاهرة علىٰ تصرفاتهم، ثم أكد سبحانه بأنهم قوم لا يعرفون الخير والإيمان.

[٤] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ فقال له: وإذا رأيت يانبي الله هؤلاء المنافقين أعجبتك هيئاتهم ومناظرهم وأجسامهم، وإن تكلموا تسمع لكلامهم؛ لفصاحتهم وحلاوة منطقهم، وفي الحقيقة إنها أجسام خاوية من العلم والخشية من الله؛ كأنها خشب مستندة إلىٰ جدار لا تشفع ولا تنفع كما يقال، ثم ألا ترىٰ أنهم كلما سمعوا صوتًا مرتفعًا أو جلبة في معسكر ونحوه ظنوا أنها موجهة إليهم بسبب جبنهم وذلهم، واعلم يانبي الله أن هؤلاء المنافقين هم الأعداء الحقيقيون لك وللمؤمنين؛ فاحذرهم وحذر المؤمنين منهم، لعنهم الله وأخزاهم؛ بسبب مسالكهم وأفعالهم القبيحة، والعجب كيف يرون الحق واضحًا أمامهم ثم يصرفون عنه إلىٰ الضلال والنفاق؟.

[٥] وإذا قيل لهؤلاء المنافقين: هلموا إلىٰ رسوله ﷺ ليستغفر لكم، ويسأل الله أن يصلح قلوبكم ويطهرها؛ فما كان من هؤلاء المنافقين إلا أن أشاحوا برؤوسهم شمالًا ويمينًا استهزاءً وسخرية؛ بل تراهم يانبي الله يعرضون عن الناصح لهم بكبرياء وغرور.

[٦] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المنافقين يتساوىٰ عندهم استغفارك لهم، وعدم الاستغفار لهم، وحتىٰ لو جاؤوك لتستغفر لهم فإنه جل في علاه لن يغفر لهم؛ لأنهم أصروا علىٰ الزيغ والضلال فطبع الله علىٰ قلوبهم فهم لا يؤمنون، واعلموا أن الله لا يوفق ولا يرشد القوم الجاحدين به وبآياته، الخارجين عن طاعته. وفي هذا إخبار من الله لنبيه ﷺ بعدم صلاحهم وهدايتهم.

[٧] ثم ذكر جل وعلا عداوتهم الظاهرة وشيئًا من فجورهم المستور، وذلك قبل غزوة تبوك؛ فأخبر سبحانه بأن هؤلاء المنافقين يقولون للأنصار: لا تنفقوا علىٰ أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين حتىٰ تصيبهم مجاعة فيتركوا نبيهم ﷺ، يقولون ذلك ظنًّا منهم بأن عدم الإنفاق علىٰ هؤلاء المؤمنين الذين هاجروا لله ولنصرة رسوله ﷺ فتركوا أوطانهم وأموالهم سوف يجعلهم يتفرقون فيتركون رسول الله ﷺ. وتكذيبًا لهم عقَّب جل في علاه علىٰ ظنهم السيِّئ فأخبر بأن لله خزائن السماوات والأرض، أي: إن الرزق أيها المنافقون بيده سبحانه وحده لا بأيديكم، ولكنكم قوم تجهلون بأن ما عند الله هو الرزق الأكمل والأعظم.

[٨] ومن أقوال هؤلاء المنافقين القبيحة قول رئيسهم عبدالله بن أبيٍّ: لئن عدنا من هذه الغزوة - وهي غزوة بني المصطلق - إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ويعني بالأعز نفسه ومن معه، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه، هكذا سولت له نفسه؛ حيث زعم أنه عزيز، أي: ممتنع غالب، وأوغل في الفسق والفجور، فقال: ما نحن ومحمد وأصحابه إلا كما قيل: سَمِّن كلبك يأكلك، أما والله لأن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فكان الجواب الرباني: اعلموا أيها المنافقون أن العزة والغلبة لله وحده ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، ولكنكم لا تعلمون أن العزة والغلبة لأوليائه بسبب جهلكم وعنادكم.

[٩] ثم نهىٰ جل وعلا المؤمنين أن تصيبهم صفة من صفات المنافقين وهي أنهم لا يذكرون الله إلا قليلًا، فقال سبحانه: ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله ﷺ وعملوا بشرعه لا يشغلكم تدبير أموالكم، والعناية بشؤون أولادكم، عن القيام بحقوق ربكم، وأداء فرائضه التي طلبها منكم، واعلموا أن من انشغل بأمور الدنيا عن الدين فأولئك هم الأشقياء الذين بلغوا أقصىٰ درجات الخسران بسبب غفلتهم وبعدهم عن دين ربهم، وإيثارهم الفاني علىٰ الباقي.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١

سُورَةُ التَّغَابُنِ

[١٠] ثم حث جل وعلا المؤمنون علىٰ الإنفاق في سبيل الله، فقال: وأنفقوا أيها المؤمنين بالله ورسوله ﷺ بعضًا مما منحكم الله من الأموال، شكرًا علىٰ نعمه عليكم؛ من قبل أن يحل بكم الموت وتشاهدوا علاماته؛ فيقول عند نزول الموت به: يارب هلَّا أمهلتني وأخرت موتي فأتصدق بمالي، وأصبح تقيًّا صالحًا.

ويستفاد من الآية أن الصدقة من أسباب الصلاح وصدق الإيمان، كما أن المقصود بالإنفاق في الآية هو الإنفاق في الخير علىٰ عمومه؛ فيدخل فيه الإنفاق علىٰ الفقراء والمساكين وبناء المساجد وتجهيز المجاهدين في سبيل الله ودعم المشاريع الخيرية بأنواعها.

[١١] ثم بين جل وعلا لذلك الذي يريد أن يؤخر الله له في الأجل لكي يتصدق فقال: اعلموا يقينًا أن الله جل في علاه لن يؤخر نفسًا إذا جاء وقت موتها وانقضىٰ عمرها، ثم أخبر سبحانه بأنه مطلع علىٰ جميع أعمال عباده الظاهرة والباطنة، وأنه سوف يجازيهم عليها الجزاءَ الأوفى. وفي هذه الآية الحث علىٰ الاستعداد قبل حلول الأجل، وعلىٰ الإنسان أن يهيئ الزاد ليوم المعاد.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۖ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾

سورة التغابن

سورة التغابن مدنية وآياتها ثماني عشرة آية.

[١] يخبر جل وعلا أن جميع ما احتوته السماوات والأرض من ساكن أو متحرك ينزهه سبحانه تنزيهًا مستمرًّا عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، ثم بين سبحانه أن له التصرف الكامل في كل شيء؛ فلا يخرج مخلوق عن ملكه، وله الثناء والمجد والشكر كله في الأولىٰ والأخرىٰ، ثم بين سبحانه أنه قادر علىٰ كل شيء؛ فهو قادر علىٰ الإيجاد والإعدام والإسقام والشفاء، لا يعجزه سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٢] ثم بين جل وعلا أنه هو الذي أوجدكم ومنحكم القدرة علىٰ العمل، وجعل لكم القدرة علىٰ الاختيار؛ فمنكم من اختار الكفر، ولم يشكر نعمة الله عليه، ورفض الطاعة والعبادة، ومنكم من اختار الإيمان؛ فشكر نعمة الله عليه، وعمل بأوامره ونواهيه، وله سبحانه الفضل؛ حيث مكنكم من الاختيارين؛ وكل نفس تختار ما تهوىٰ، ثم بين سبحانه أنه مطلع علىٰ جميع أعمالكم مؤمنكم وكافركم، وأنه سوف يحفظ لكلٍّ حقه، وسيجازي كلًّا بعمله.

[٣] ثم بين جل وعلا أنه خلق السماوات والأرض بحكمته البالغة المتضمنة لمصالح سكانهما الدنيوية والأخروية وللدلالة علىٰ قدرته، ثم أكد مرة أخرىٰ أنه هو الذي خلقكم في أحسن صورة فأحسن خلقكم وصوركم، ثم أخبر أن مرجعكم إليه وحده ليجازيكم علىٰ أعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٤] ثم أخبر جل وعلا أنه يعلم كل ما في السماوات والأرض لا يخفىٰ عليه شيء في كونه، وأخبر أنه يعلم النوايا والخواطر، وكل ما تخفونه، وأنه سبحانه عليم بما تكنه الضمائر وما تخفيه النفوس من الأسرار والخفايا.

[٥] ثم وبخ جل وعلا هؤلاء المشركين فقال لهم: ألم يبلغكم أيها المشركون خبر الذين كفروا بالله ورسله من الأمم السابقة، التي أصرت علىٰ الكفر والعناد كيف حل بهم سوء عاقبة كفرهم وسوء أفعالهم في الدنيا، ولهم في الآخرة ما ينتظرهم من العذاب الشديد المؤلم حقًّا.

[٦] ثم بين جل وعلا سبب هذا التعذيب والدمار الذي حل بهم؛ فأخبر أنهم كانت تأتيهم رسل الله بالآيات الواضحات الدلالة، والمعجزات المقنعات، ولكنهم استكبروا وقالوا علىٰ سبيل الإنكار: هل يعقل أن يكون الذي يهدينا إلىٰ الحق بشر مثلنا؟!، أي: استعظموا أن يكون الرسول بشرًا، وهذا من تلبيس إبليس عليهم، وإلا فلو كان غير بشر فكيف سيكون أسوة وقدوة؟ وكيف يفهمهم ويفهمونه؟ فكفروا برسولهم وأعرضوا عن الحق اعراضًا كاملًا ولم يقبلوه أبدًا، فاستغنىٰ الله عنهم وعن طاعتهم، ثم بين سبحانه أنه غني عن الخلق أجمعين، وأنه حميد في أقواله وأفعاله وصفاته.

[٧] يخبر جل وعلا عن عناد كفار قريش الذين ادعوا أنهم لن يُبْعَثُوا بعد موتهم؛ فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أيها الناس أن البعث واقع لا محالة، وأقسم بربي لَتُخْرَجُنَّ من قبوركم أحياء، ثم لَتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم التي عملتموها في حياتكم الدنيا، وسوف تجزون عليها، واعلموا أن بعثكم من قبوركم أحياء سهل ويسير علىٰ الله تحقيقه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢].

[٨] وإذا عرفتم أيها المشركون هذه الحجج والبراهين، وتذكرتم ما حل بمن سبقكم من الكفار من العقاب؛ فصدقوا بالله ورسوله ﷺ، وآمنوا بهذا القرآن الذي أنزله الله علىٰ نبيه محمد ﷺ، وجعله نورًا تخرجون به من ظلمات الكفر والضلال إلىٰ نور الإسلام والإيمان، واعلموا أن الله لا يخفىٰ عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم، وسوف يجازيكم عليها.

[٩] وتذكروا أيها الناس يوم أن يجمع الله الأولين والآخرين للحساب والجزاء في صعيد واحد؛ فاعلموا أن ذلك هو يوم التغابن الذي يظهر فيه غبن العصاة وخسارتهم بسبب تركهم الإيمان؛ فمن جاء في ذلك اليوم مصدقًا بالله ورسوله ﷺ وكتابه، وعمل الأعمال الصالحة؛ فإن الله عز وجل يكفر عنه سيئاته التي اقترفها في الدنيا، ويدخله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين فيها خلودًا أبديًّا، لا يخرجون منها أبدًا، وذلك هو الفوز الذي لا يعدله فوز أبدًا.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾

سُورَةُ الطَّلَاقِ

[١٠] أما أولئك الذين جحدوا وحدانية الله وقدرته، وكذبوا بالحجج والبراهين المنزلة علىٰ نبيه محمد ﷺ؛ فأولئك مآلهم جهنم، ماكثين فيها أبدًا، وبئست النار مرجعًا ومستقرًا لهم؛ لأنها جمعت كل سوء وشدة، وشقاء وعذاب.

[١١] واعلموا أن جميع ما أصاب العباد من المصائب في الأبدان والأولاد والأموال والكوارث والزلازل وكل الحوادث التي تحصل في الكون هي بإذن الله وعلمه وإرادته الكونية؛ فمن يؤمن بالله ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما قدره الله عليه يُهَدِّئُ قلبه، أي: يسكن قلبه فيصبر ويرضىٰ بقضاء الله، ثم بين سبحانه أنه بكل شيء عليم، أي: أنه عالم بالمؤمن والعاصي، والساخط والمطمئن، وعالم بالمصيبة التي حصلت، وهل هي بسبب الذنوب التي ارتكبت أو بأمر آخر؟. وهنا يثبت الله الذين آمنوا ويوطن أفئدتهم لقضاء الله وقدره فيقولون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة:١٥٦]، ويقولون: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، أما غير المؤمن فيتضجر ويبكي أو يصرخ، وربما لطم نفسه ومزق ثيابه.

[١٢] ثم حث جل وعلا عباده علىٰ امتثال أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ، وذلك بطاعته سبحانه فيما شرع، وطاعة رسوله ﷺ فيما بلَّغ، فإن أعرضتم عن إجابة الرسول ﷺ فيما دعاكم إليه من الإيمان والأعمال الصالحة؛ فليس عليه ضرر؛ لأنه ليس علىٰ الرسول إلا تبليغ الرسالة، وقد بلغ ﷺ الرسالة، وأدىٰ الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهادة.

[١٣] واعلموا أن الله جل وعلا لا معبود بحق سواه، فهو وحده المستحق للعبادة، وعليكم أن تفوضوا أموركم أيها المؤمنون إليه وتعتمدوا عليه وحده.

[١٤] وهذا نداء من الله جل وعلا لعباده المؤمنين يخبرهم أن من أزواجهم وأولادهم من هو عدو لهم يشغلونهم عن طاعة الله وعن كثير من أمور الخير، فاحذروا أن تطيعوهم وتستجيبوا لهم، وإن تعفوا عن ذنوبهم التي ارتكبوها، ولا تعاقبوهم عليها، وتستروها عليهم، فهو خير لكم، فإن فعلتم ذلك فاعلموا أن الله واسع المغفرة والرحمة لعباده الرحماء.

[١٥] واعلموا أيها المؤمنون أن أموالكم وأولادكم ابتلاء واختبار؛ فربما يوقعونكم في الإثم من حيث لا تحتسبون، كما جاء في الحديث: «**إن الولد مبخلة مجبنة**»[١]، مبخلة، أي: يجعله يبخل بالصدقة وغيرها خوفًا أن يجوع ولده، ومجبنة، أي: يجعل الإنسان يجبن عن الجهاد خوفًا علىٰ ولده، والله عنده ثواب عظيم لمن قدم طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ علىٰ طاعة غيره؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله.

[١٦] يأمر جل وعلا عباده المؤمنين بتقواه، وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه بحسب الطاقة والجهد، ثم أمرهم بالسمع والطاعة لله ولرسوله في جميع أمورهم، وأمرهم بالإنفاق من مال الله الذي أعطاهم النفقات الشرعية الواجبة والمستحبَّة؛ فإن الإنفاق في سبيل الله خير لكم في الدنيا والآخرة، واعلموا أن من وقاه الله شح نفسه وعافاه من البخل والحرص الشديد علىٰ المال؛ فأولئك هم المفلحون الفائزون فوزًا عظيمًا.

[١٧] ثم حث جل وعلا عباده علىٰ النفقة فأخبر أن من وقاه الله شح نفسه هو الذي ينفق أمواله في سبيل الله بإخلاص وطيب نفس، ومن يفعل ذلك فإنه يستحق الثواب المضاعف، ومغفرة الذنوب، والله سبحانه شكور للمحسنين من عباده، حليم لا يعاجل المقصرين بالعقوبة؛ بل يمهلهم فربما يحسنون فيدخلهم في رحمته.

[١٨] ثم ختم جل وعلا السورة بالإخبار أنه سبحانه هو الذي يعلم ما غاب عن العباد، وما يشاهدونه، وهو العزيز الغالب، الذي قهر كل شيء، الحكيم في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء في مواضعها سبحانه وتعالىٰ، جلَّ في عُلاه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٥٦٢)، و ابن ماجه (٣٦٦٦)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥

سورة الطّلاق

سورة الطلاق مدنيّة وآياتها اثنتا عشرة آية، ولها اسم ثاني سورة النساء الصغرىٰ.

[١] يخاطب جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ تشريفًا له ولكي يشرع لأمته، فيقول له: إذا عزمت يانبي الله أنت أو أي أحد من أمتك علىٰ طلاق إحدىٰ نسائه فطلقوهن مستقبلات لعدتهن، بشرط أن يكون الطلاق في طهر لم تجامعها فيه، أو في حمل ظاهر لا شك فيه، وعليكم أن تحفظوا اليوم الذي وقع فيه الطلاق لتعرفوا نهاية العدة، وهي ثلاثة قروء، أي: الطهر الثالث غير الطُهر الذي وقع فيه الطلاق بالنسبة للمرأة التي تحيض، وخافوا الله ربكم بفعل أوامره واجتناب نواهيه، واعلموا أنه لا يجوز لكم إخراج المطلقة من مسكنها الذي تسكن فيه؛ لأنها مازالت في حكم الزوجة ما دام أن العدة لم تنته؛ ، كما لا يجوز للمطلقة أن تخرج من مسكنها الذي عاشت فيه معكم قبل الطلاق؛ إلا إذا قارفت المطلقة عملًا قبيحًا كالزنا كما عند الجمهور، أما أبو حنيفة فيرىٰ أن سلاطة اللسان فاحشة، واعلموا أن ما سبق ذكره هي أحكام الله شرعها لكم فلا يحل لكم أن تتجاوزوها، فإن من يتجاوزها فقد أورد نفسه موارد الهلاك وأوقعها في مواقع الضرر، وعليك أيها المطلق أن تمتثل إلىٰ ما أمرناك به من أحكام، وأن تسعىٰ في المصالحة بينك وبين زوجتك؛ فإنك لا تدري لعل الله أن يحدث بعد ذلك الطلاق أمرًا لا تتوقعه فتراجعها؛ فإنه سبحانه مقلب القلوب فربما ينقلب البغض حبًّا فتتم المراجعة. والطلاق هو فك الارتباط وحل عقدة النكاح، ولا شك أنه أبغض الحلال عند الله.

[٢] ثم أمر جل وعلا الأزواج – عندما تقترب عدة المطلقة علىٰ الانتهاء – أن يمسكوا أزواجهن بمعروف وهو المتعارف عليه، أو يفارقوهن بمعروف، وكما أمر سبحانه بتوثيق عقد النكاح بشاهدين؛ فكذلك يجب توثيق الرجعة أو الطلاق بشاهدين عدلين منكم، وعليكم أيها الشهود أن تؤدوا الشهادة خالصة لله عندما تطلب منكم، واعلموا أن ذلكم الذي أمركم الله به يتعظ ويعمل به من كان يصدق بالله ورسوله ﷺ ويؤمن باليوم الآخر، ثم ذكر سبحانه كرمَهُ وَإحسانه بالمتقين فبين أن من يخاف الله فيعمل بأوامره ويجتنب نواهيه فإنه يجعل له سبحانه مخرجًا من كل ضيق.

[٣] وبين سبحانه كذلك أن من يخافه فإنه يفتح له باب رزق لم يخطر بباله، وبين سبحانه أن من يعتمد عليه فهو كافيه من كل ما أهمه، واعلموا أن الله بالغ أمره لا يعجزه شيء؛ قد جعل لكل شيء وقتًا مقدرًا؛ فهو الذي حدد العدة للمطلقة، والمتوفىٰ عنها زوجها، والتي لا تحيض، وكذلك جعل للشدة قدرًا وللرخاء قدرًا.

[٤] ثم بين جل وعلا عِدَّةُ النساء المطلقات اللاتي انقطع عنهن دم الحيض؛ لكبر سنهن، وهي ما تسمىٰ بالمرأة الآيس، فإذا شككتم فلم تدروا قدر عدتهن؛ فاعلموا أن عدتهن ثلاثة أشهر، وكذلك النساء اللاتي لم يحضن؛ لصغر سنهن أو لسبب آخر؛ فعدتهن ثلاثة أشهر، أما النساء الحوامل فتنتهي عدتهن بوضع حَمْلهن؛ سواء كنَّ مطلقات أو متوفىٰ عنهن، واعلموا أن من يخف الله فينفذ أحكامه؛ ييسر له أموره ويسهلها له في الدنيا والآخرة.

[٥] واعلموا أن ذلك الحكم الذي بينه الله لكم في أمر الطلاق والعدة أنزله إليكم لتمتثلوه وتأتمروا به وتعملوا بمقتضاه، ومن يجعل بينه وبين عذاب الله وقايةً بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ يكفر عنه سيئاته، ويغفر له ذنوبه، ويستر له عيوبه، ويعطهِ أجرًا عظيمًا، وهو أن يدخله جنات النعيم.

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

٥٥٩

[٦] ثم حث جل وعلا الأزواج بالعناية بالمرأة المطلقة؛ فأمرهم أن يُسكنوا النساء المطلقات أثناء عدتهن في بيوتهم التي كن فيها؛ بحسب الوسع والطاقة، وعليكم أيها الأزواج أن لا تضيقوا عليهن في السكنىٰ والنفقة، حتىٰ تضطروهن إلىٰ الخروج والتنازل عن حقوقهن، وإن كانت المطلقات طلاقًا بائنًا من الحوامل فعلىٰ الأزواج أن ينفقوا عليهن النفقة المناسبة حتىٰ يضعن حملهن، فإن أرضعن لكم أولادهن منكم فعليكم أن توفُّوا لهن أجورهن، وتشاوروا بينكم أيها الأزواج بما هو معروف غير منكر، فإن رفضت الأم أن ترضع ولدها إلا بأجرة أكثر مما هو معروف فعليكم أيها الأزواج أن تبحثوا عن مرضعة أخرىٰ ترضع ولدكم، وكذلك لو امتنعت عن إرضاعه سواء بأجرة أو بدون أجرة فابحثوا عن غيرها لترضع ولدكم.

[٧] ثم أمر جل وعلا الأزواج الموسرين أن يزيدوا في النفقة علىٰ زوجاتهم المطلقات وعلىٰ أولاده منهن ولا يبخلوا، أما من ضيق عليه رزقه فكان فقيرًا فعليه أن ينفق مما أعطاه الله، فإن الله لا يكلف أحدًا إلا بقدر طاقته واستطاعته، فلا يكلف الفقير أن يعطي كما يعطي الغني، واعلموا أن الله سوف يجعل بعد الشدة رخاءً، وبعد الضيق سعة.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أن كثيرًا من القرىٰ طغت ولم تمتثل أوامر الله ورسله؛ فشدد سبحانه علىٰ أهلها في الحساب بسبب ما عملوا، وعذَّب أهلها عذابًا عظيمًا منكرًا في الدنيا.

[٩] وبسبب طغيان أهل هذه القرىٰ وكفرها وعنادها تجرعوا جزاء ما عملوا، وآل أمرهم إلىٰ خسارة الدنيا والآخرة.

[١٠] ثم أخبر جل وعلا أنه أعد لهذه القرىٰ الخاسرة عذابًا شديدًا في الآخرة، وهو الخلود في نار جهنم، ثم أَمَرَ سبحانه أُولي العقول الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا بشرعه أن يخافوا الله ويحذروه، فقد أرسل الله إليكم من يذكركم وينبهكم.

[١١] ثم بين جل وعلا أن هذا الذكر هو الرسول ﷺ الذي يقرأ عليكم آيات الله التي توضح لكم الحق من الباطل؛ ولكي يُخرج الذين صدَّقوا الله ورسوله ﷺ وعملوا الأعمال الصالحة من ظلمات الكفر إلىٰ نور الإيمان، واعلموا أن من يصدِّق الله ورسوله ﷺ ويعمل الأعمال الصالحة فإن الله سوف يدخله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبد الآبدين، لا يخرجون منها أبدًا، ثم بين سبحانه بأنه قد وسع للمؤمن الصالح رزقه في الجنة.

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أنه هو وحده الذي خلق السماوات السبع، وأنه خلق مثلهن في العدد من الأرضين، وأخبر بأنه يُنَزِّلَ الأمر بين السماوات والأرضين، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلىٰ رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق؛ فينزل المطر، ويولج الليل بالنهار، ويولج النهار بالليل، وغير ذلك؛ لتعلموا أن من قدر علىٰ خلق ذلك فإنه قادر علىٰ كل شيء، ولتعلموا أن الله محيط بكل شيء من خلقه، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

سورة التحريم

سورة التحريم مدنيّة وآياتها اثنتا عشرة آية، ولها اسم آخر هو سورة النبي.

[١] افتتحت هذه السورة بعتاب النبي ﷺ عتابًا لطيفًا؛ حين حرَّم علىٰ نفسه شرب العسل مراعاة لخاطر زوجتيه عائشة وحفصة في قصة معروفة، وقيل: إنه ﷺ حرَّم علىٰ نفسه مارية القبطية لإرضاء زوجتيه عائشة وحفصة؛ فقال سبحانه: ياأيها النبي لم تمتنع من شرب العسل، الذي أحله الله لك، تلتمس بذلك رضا أزواجك؟ فإنه لا ينبغي لك تحريم ما أحل الله، واعلم أن الله واسع المغفرة، عظيم الرحمة؛ فقد غفر لنبيه ﷺ ورحم الأمة حيث أنزل كفارة اليمين فصارت عامة لجميع الأيمان، ويستفاد من هذه الآية هو منع تحريم ما أحل الله، وقد قال بعض العلماء: يمين تحريم ما أحل الله لا تنعقد، وقال آخرون: تعتبر يمينًا فإن رغب التحلل منها كفَّر.

[٢] واعلموا أيها المؤمنون أن الله قد شرع لكم ما تتحللون به من أيمانكم وذلك بالكفارة، وهي: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، والله متولي أموركم بنصركم علىٰ أعدائكم، وهو العليم بما فيه استقامة أموركم، الحكيم في تدبير شؤون حياتكم.

[٣] وتذكروا حين أسرَّ النبي ﷺ إلىٰ حفصة بِسِرٍّ، وطلب منها أن لا تخبر به أحدًا، ولكنها لم تحفظ السر، فأخبرت به عائشة، فجاءه ﷺ الخبر من السماء أنها أفشت سره، فعاتب ﷺ حفصة وأخبرها ببعض ما أخبرت به وسكت عن بعض تكرمًا وحياءً منه ﷺ، وبعد أن أخبرها ﷺ بخطئها وعاتبها قالت: من أخبرك بذلك، فقال لها: أخبرني الله العليم بسرائر العباد، الخبير الذي لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٤] ثم وجه جل وعلا الخطاب لعائشة وحفصة، فأمرهما أن يتوبا إلىٰ الله من ذنبهما، ويقلعا عن مخالفة أمر رسول الله ﷺ؛ حيث مالت قلوبهما وانحرفت عما يجب عليهما من كتمان سر رسول الله ﷺ، ومن الحرص علىٰ راحته وعدم إيذائه، أما إذا تعاضدا وتعاونا بما يسوؤه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره؛ فإن الله تعالىٰ هو وليه وناصره، هو وجبريل والمؤمنون الصالحون، والملائكة بعد هؤلاء كلهم مظاهرون له ومعينون. والمعنىٰ: أن من يحاول إغضاب النبي ﷺ أو يؤذيه فإنه ليس من صالح المؤمنين.

[٥] ثم وجه جل وعلا الخطاب إلىٰ زوجات النبي ﷺ، بعد ما حصل منهن من إفشاء سره وإيذائه، فأخبرهن سبحانه أنه لو طلقكن رسول الله ﷺ فإنه سوف يبدله ازواجًا خيرًا منكنّ إسلامًا وإيمانًا، ومواظبة علىٰ العبادة، وإقلاعًا عن الذنوب، وخضوعًا لأوامر الرسول ﷺ، وهؤلاء الأزواج بعضهنّ ثيبات وبعضهنّ أبكارٌ.

وقد جاء في نزول هذه الآية أن زوجات النبي ﷺ لما شاهدن الفتوحات والغنائم ورأين زوجات الصحابة والأنصار توسعن في النفقة والملبس نتيجة لما يحصل عليه أزواجهن من الغنائم والفيء، وكان ﷺ يوزع علىٰ المحاربين والفقراء، ويكتفي هو بالكفاف، أي: لم يتوسع، فطلبن منه أن يمدهن وأن يوسع عليهن؛ فخيرهن ﷺ بالبقاء معه علىٰ ما كان أو الطلاق.

[٦] ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله ﷺ وعملوا بشرعه؛ اتخذوا وقاية لأنفسكم وأهليكم من غضب الله وسخطه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، واعلموا أن نتيجة العصيان وعدم تنفيذ أوامر الله هو دخولكم نارًا عظيمة، وهذه النار حطبها الذي تسعر به هو الناس والحجارة، كما أن علىٰ هذه النار ملائكة أقوياء غلاظ القلوب مكلفون بتعذيب أهل النار، وهؤلاء الملائكة لا يعصون أمر الله بحال من الأحوال؛ بل ينفذون أوامر الله بدون إمهال ولا تأخير.

[٧] وفي هذا اليوم العسير وهو يوم القيامة يقال للكفار عند إدخالهم النار: ياأيها الذين جحدوا دين الله وكذبوا رسله وأعرضوا عن آياته؛ لا تعتذروا اليوم فقد فات الأوان، وذهب وقت العمل، فلا يجدي رجاء ولا اعتذار، لأنكم إنما تثابون اليوم وتعطون جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا.

سُورَةُ التَّحۡرِيمِ — الجُزۡءُ الثَّامِنُ وَالعِشۡرُونَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

٥٦١

[٨] ثم ندب جل وعلا عباده المؤمنين إلىٰ المبادرة بالتوبة النصوح فقال سبحانه: يامعشر من صدق الله ورسوله ﷺ وعمل بشرعه توبوا إلىٰ الله من ذنوبكم توبة صادقة خالصة، وذلك بالندم علىٰ الذنب، والإقلاع عنه، والعزم علىٰ عدم العودة، فإذا فعلتم ذلك كان حقًّا علىٰ الله أن يمحوا سيئات أعمالكم التي سلفت منكم، ويدخلكم بساتين تجريٰ من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، يوم لا يخزيٰ الله النبي ومن آمن معه، فيرفع سبحانه في ذلك اليوم من شأنهم ويعلي من قدرهم، لأن الخزي والسوء في ذلك اليوم يكون علىٰ الكافرين ومن علىٰ شاكلتهم، ثم بين سبحانه بأن هؤلاء المؤمنين وهم علىٰ الصراط يسير نورهم أمامهم وعلىٰ أيمانهم، ويقولون: ياربنا أَدِمْ علينا نورنا حتَّىٰ نصل إلىٰ دار السلام، وامحُ عنا ما اقترفنا من الذنوب والمعاصي، إنك علىٰ كل شيء قدير.

[٩] يأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ بقتال الكفار الذين يقفون في سبيل الدعوة بالسيف، وأن يجاهد المنافقين الذين أبطنوا الكفر بالحجة والوعظ البليغ، وعليك أن تكون شديدًا علىٰ الكفار والمنافقين، ولا تعاملهم بالرأفة واللين؛ لأنهم هكذا يعاملون المؤمنين، وكما يقال في الأمثال: (لا يفل الحديد إلا الحديد)؛ واعلم أن مصير هؤلاء الكفار والمنافقين إلىٰ جهنم؛ فهي مسكنهم الدائم، وقَبُحَ ذلك المرجع الذي يرجعون إليه.

[١٠] ثم ضرب جل وعلا مثلين: المثل الأول: يبين حال الكفار الذين لم ينتفعوا بعظات الأنبياء والمرسلين، وعدم استفادتهم بقرابة المؤمنين، فهذه زوجة نبي الله نوح، وزوجة نبي الله لوط، كانتا في عصمة نبيين كريمين ولم ينتفعا بهديهما؛ فوقعت منهما الخيانة لهما بما كانتا عليه من الكفر وعدم الإيمان، وليست خيانة عرض؛ لأن فرش الأنبياء طهرها الله من الفساد، ثم بين سبحانه بأن كونهما زوجتين لهذين النبيين لم يدفع ذلك عنهما شيئًا من عذاب الله، ويوم القيامة يقال لهما: ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين.

وبهذا يُعلم أن الهداية بيد الله، كما قال تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ لمَّا حزن علىٰ عدم إسلام عمه أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص:٥٦].

[١١] وأما المثل الثاني: فكان للذين آمنوا بالله وبرسله، حيث بين سبحانه أن صلتهم بالكافرين لا تضرّهم ولا تؤثر فيهم ما داموا مستقيمين علىٰ الحق؛ فهذه زوجة فرعون آسية بنت مزاحم تلك المرأة الصالحة كانت تحت أعدىٰ أعداء الله في الدنيا، وقد طلبت النجاة من زوجها فرعون ومن عمله، وقالت في دعائها: رب اجعلني قريبةً من رحمتك، وابن لي بيتًا في أعلىٰ الجنة، وخلِّصني من أعمال فرعون الخبيثة، وأنقذني من قومه الظالمين.

[١٢] وهذه مريم ابنة عمران تلك المرأة الصالحة التقية النقية، أثنىٰ عليها جل وعلا أنها حفظت فرجها عن فاحشة الزنىٰ؛ فجاء جبريل فنفخ في جيب دِرْعِها[1] فوصلت النفخة إلىٰ المكان الذي يتكون فيه الجنين بإذن الله؛ فحملت بعيسىٰ عليه السلام؛ فهو كلمة الله التي هي كن، أي: أنه خلق بالأمر الذي هو (كن) كما قال تعالىٰ ردًّا علىٰ الغالين فيه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ [آل عمران:٥٩]، ثم أثنىٰ عليها أنها صدقت بكلمات ربها، وعملت بشرائعه التي شرعها لعباده، وكتبه المنزلة علىٰ رسله، ثم أثنىٰ عليها سبحانه أنها كانت من المحافظين علىٰ طاعة الله وعبادته.

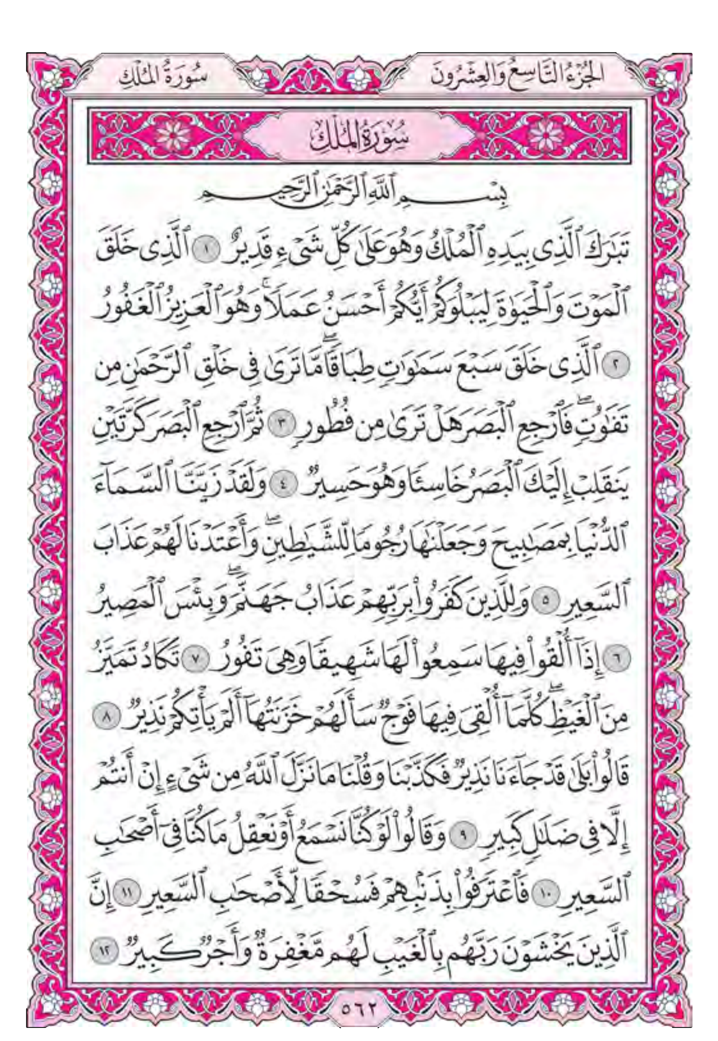
---

(١) درع المرأة: قميصها الذي تلبسه في البيت.

....

....

....



سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢

سورة الملك

سورة الملك مكيّة وآياتها ثلاثون آية. أخرج أحمد وأهل السنن: أن هذه السورة تشفع لصاحبها الذي يتلوها[1].

[١] بدأت السورة بتمجيد الله تعالىٰ نفسه، والإخبار أن الذي بيده وقدرته ملك السماوات والأرض وما احتوتاه في الدنيا والآخرة؛ تكاثر خيره وإحسانه وحاز نهاية التعظيم، وهو سبحانه بيده أمر الخلائق وتحت تصرفه؛ يفعل فيها ما يشاء بحسب ما تقتضيه حكمته؛ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. [٢] ثم ذكر جل وعلا أن من مظاهر قدرته أنه خلق الموت الذي هو مفارقة الروح للجسد، وخلق الحياة التي هي اقتحام الروح للبدن من الثقلين وغيرهم، واعلموا أن الله خلق الموت والحياة ليختبركم أيكم أحسن عملًا وليجازيكم بما تستحقونه من الثواب، وأحسن العمل هو ما كان خالصًا لوجه الله، وصوابًا مطابقًا لتعاليم الله ورسوله ﷺ، أي: أخلصه وأصوبه، ولم يقل: أكثر عملًا؛ لأن العبرة أن يكون خالصًا لوجه الله حسب المنهج الذي جاء به رسل الله، وهو العزيز الذي لا يغلبه شيء، الغفور للمقصرين إذا تابوا وأصلحوا، وذكر المغفرة بعد العزة لأن العزة تعني: القدرة والانتقام؛ والغفور تعني: غفران ذنوب من تاب وعمل صالحًا. [٣] ثم ذكر جل وعلا مظهرًا آخر من مظاهر قدرته، فذكر أنه خلق سبع سماوات فأبدعها وجعلها طباقًا بعضها فوق بعض؛ والناظر إليها لن يجد فيها اختلافًا أو اضطرابًا أو تشققات، ثم أمر سبحانه الناظر أن يكرر النظر في السماء للبحث والتأكد، فلن يجد فيها شقوقًا أو تصدعات أو اختلافًا. [٤] ثم أمر سبحانه الناظر أن لا يَكْتَفِ بإعادة النظر؛ بل أمره أن يعيد النظر مرة بعد مرة لعله يلتمس خللًا، ولكن سوف يعود له البصر بعد البحث متعبًا كالًّا خائبًا؛ لأنه لم يجد أي اضطراب أو خلل. [٥] يخبر جل وعلا أنه زين السماء الدنيا التي نراها بأعيننا بالنجوم والمجرات والشموس، وأخرج عز وجل بقدرته من هذه النجوم شهبًا تنطلق منها لتحرق الشياطين التي تحاول أن تسترق السمع، وهذه إحدىٰ فوائد خلق النجوم في السماء الدنيا، والفائدة الثانية: أنها زينة وجمال للسماء، والفائدة الثالثة: أنها تهدي السائرين؛ سواء كانوا في البر والبحر، وهذه الفوائد الثلاث مذكورة في القرآن، وربما أن لها فوائد أخرىٰ، مثل: إضاءة الشموس وإنضاجها للثمار وغير ذلك. ثم ذكر جل في علاه أنه أعد لهؤلاء الشياطين ومن تبعهم من الكافرين في الآخرة عذاب النار التي سوف يقاسون من شدَّة حرِّها. [٦] ثم أخبر جل وعلا أنه أعدَّ للذين كفروا به، وجحدوا رُسُلَه: عذاب جهنَّم، وبئس المصير مصيرهم، وبئست النار مسكنهم ومأواهم. [٧] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكافرين إذا أُلقي في هذه النار – علىٰ وجه الإهانة والذلِّ –؛ سمعوا لها صوتًا عاليًا فظيعًا مرعبًا، وهي تغلي بهم كما يغلي القدر بالطعام علىٰ النار. [٨] ثم بين سبحانه أن جهنم تكاد تتقطع وينفصل بعضها عن بعض من شدة حنقها وغيظها علىٰ من يُلقىٰ فيها من الكفار، وفي هذا دليل علىٰ أن النار لها إدراك، ثم أخبر سبحانه أنه كلما أُلقي فيها جماعةٌ من الجن أو الإنس سألهم خزنة جهنم: ألم يأتكم في الدنيا رسولٌ من عند الله ينذركم النار ويحذركم عذابها؟!. [٩] فيقول أهل النار جوابًا علىٰ سؤال خزنة جهنم: بلىٰ، قد جاءنا نذير، فما كان منَّا إلا أنْ كذبناه ولم نصدقه، وقلنا له: ما نزَّل الله عليك أيها الرسول شيئًا من الوحي، وما أنتم إلا في ذهابٍ عن الحق، وبعدٍ عن الصواب. [١٠] ثم أخذ أهل النار يبكِّتون أنفسهم ويلومونها ويقولون: لو كنَّا في الدنيا نسمع سماع من يريد الحق ويريد الاستجابة، أو كنَّا نعي ونفكر فيما دعينا إليه من الهداية والإرشاد، ما كنَّا من جملة أهل هذه النار المستعرة. [١١] ثم بين سبحانه أن هذا كان اعترافًا منهم بهذا الذنب العظيم الذي ارتكبوه، وهو شركهم وكفرهم بالله، وتكذيبهم لأنبيائه، ولهذا فبُعْدًا بُعْدًا، وطردًا طردًا لكم من رحمة الله ياأصحاب السعير. [١٢] ثم ذكر جل وعلا إكرامه وثوابه للصالحين المؤمنين بالغيب أصحاب الخشية؛ الذين يخافون ربهم خوفًا يجعلهم يؤدون الواجبات ويتركون المنكرات، هؤلاء لهم من ربهم مغفرة عظيمة وأجر بالغ في الكبر.

---

(١) اخرجه أحمد في المسند (٧٩٧٥)، و أبو داود (١٤٠٠)، والترمذي (٢٨٩١)، وابن ماجه (٣٧٨٦).

وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

[١٣] واعلموا أيها الكفار أن إسراركم أو جهركم بالإساءة لمحمد ﷺ فإنه جل وعلا سامع له؛ بل إنه يعلم ما يجول في صدوركم من قبل أن تنطقوا به؛ قال ابن عباس رضي الله عنه: (نزلت في بعض المشركين الذين يقولون لبعضهم: أسروا حديثكم لكي لا يسمع رب محمد فيخبره).

[١٤] ثم أخبر جل وعلا أنه أعلم بشأن خلقه، وأعلم بما يضمره كل واحد في قلبه، فهو سبحانه اللطيف الخبير الذي لطف علمه وخبره حتىٰ أدرك السرائر والضمائر، فلا تخفىٰ عليه خافية، وهو سبحانه يعلم السر وأخفىٰ.

[١٥] ثم ذكر جل وعلا إحسانه وفضله علىٰ خلقه؛ فقال: هو الذي جعل لكم الأرض سهلة ممهدة متسعة الأرجاء حتىٰ تستقروا عليها، وتستطيعوا التنقل فيها كيف شئتم، وتستطيعوا زراعتها لأقواتكم، فامشوا في أطرافها وجوانبها، وكلوا من رزق الله الذي يخرج لكم منها، ثم اعلموا أن إليه وحده مرجعكم وبعثكم من قبوركم للحساب والجزاء.

[١٦-١٧] ثم هدد جل وعلا الكفار فقال: هل أمنتم أيها الكفار غضب الله العظيم الجليل الذي في السماء أن يخسف بكم الأرض فتضطرب وترتج بقدرته وسلطانه حتىٰ تهلككم؟ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم ريحًا شديدة محملة بالحصىٰ والحجارة فتهلككم وتقضي عليكم؟ كما أهلكت قوم لوط وعاد وأصحاب الفيل من قبلكم، وحينئذٍ سترون بأعينكم العذاب الذي أنذركم الله به.

[١٨] ولقد كذب الذين كانوا قبل كفار مكة من الأمم السابقة التي عوقبت بالصاعقة وبالخسف وبالغرق وغير ذلك، ألم تروا كيف كان إنكار الله لهم بأن استأصلهم ودمرهم تدميرًا كاملًا بسبب تكذيبهم بآيات الله؟.

[١٩] أولم ينظر هؤلاء الكافرون إلىٰ أسراب الطيور التي تطير في عنان السماء تبسط وتقبض أجنحتها في الهواء؟، ما يحفظها من الوقوع إلا الرحمن الذي وسعت رحمته وقدرته كل شيء، ألا يستحق الذي منحها هذه القدرة الإكبار والإجلال والإيمان؟ إنه سبحانه مطلع علىٰ كل أحوال خلقه، ومدبر لشئونهم علىٰ أحسن الوجوه وأحكمها.

[٢٠] بل أخبروني أيها الكافرون هل لديكم جنود وقوىٰ تنصركم من غضب الرحمن، أو تستطيعون بها دفع العذاب عنكم إن أراد الله بكم سوءًا؟، فما الكافرون إلا في خداع وضلال عظيم وجهل تام.

[٢١] بل أخبروني أيها الكافرون من هذا الذي يزعم أنه يستطيع أن يمدكم بالرزق إذا أراد الله أن يحبسه عنكم؟ لقد تمادىٰ الكافرون في الجدال بالباطل، وفي الاستكبار والطغيان، والابتعاد عن الهداية، ولم يعتبروا بما حصل للأمم من قبلهم ولم يتفكروا في نجاتهم لأنهم غارقون في الجهل والكبرياء.

[٢٢] ثم ضرب جل في علاه مثلًا لأهل الإيمان وأهل الكفر، وأهل الحق وأهل الباطل، فقال سبحانه: أفمن يمشي منكسًا علىٰ وجهه غارقًا في ظلمات الجهل والغرور، أحسن وأفضل ممن يسير مستنيرًا بالوحي علىٰ صراط الله المستقيم الواضح الذي لا اعوجاج فيه؟!، قال قتادة: الكافر أكبَّ علىٰ المعاصي في الدنيا فحشرة الله علىٰ وجهه في الآخرة في النار، والمؤمن استقام علىٰ أمر الله في الدنيا فَحُشِرَ علىٰ قدميه إلىٰ الجنة.

[٢٣-٢٤] قل يانبي الله لهؤلاء المشركين: اعلموا أن الله هو الذي أوجدكم من العدم، وجعلكم مكتملي البنية والمدارك، وجعل لكم السمع لتسمعوا به، والأبصار لتبصروا بها، والقلوب لتعقلوا بها، ولكنكم قليلًا ما تشكرون الله الذي أنعم عليكم بهذه النعم. ثم قل يانبي الله لهؤلاء المشركين أيضًا: إن الله هو الذي خلقكم وبثَّكم ونشركم في الأرض، وهو الذي يعيدكم إليه مرَّةً أخرىٰ يوم البعث والنشور؛ ليحاسبكم علىٰ أعمالكم ويجازيكم عليها.

[٢٥-٢٦] ثم أخبر سبحانه أن الكافرين يقولون استهزاءً واستبعادًا: متىٰ سيتحقق هذا الوعد بالحشر؟ أخبرونا بموعده إن كنتم صادقين فيما تقولون، فقل لهم يارسول الله: إن العلم بوقت قيام الساعة قد اختص الله به وحده، وليس مما كلفت ببيانه، إنما مهمتي هي النذارة والتخويف وإيضاح ما ينتظركم من عذاب الله إن بقيتم علىٰ كفركم.


الجزء التاسع والعشرون — سورة الملك

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

سورة القلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

٥٦٤

[٢٧] فلما رأىٰ الكفار الوعد الذي سألوا عنه وهو عذاب الله قريبًا منهم؛ ظهرت الذلة والكآبة علىٰ وجوههم، ثم قيل لهم علىٰ وجه التوبيخ والتأنيب: هذا هو الوعد الذي كنتم تنكرونه وتستبعدونه، وكنتم تتعجلون وقوعه في الدنيا علىٰ وجه العناد والاستكبار والتحدي، بل وتستهزؤون بمن يحذركم منه. [٢٨] قل يانبي الله لهؤلاء الكفار: أخبروني إذا أماتني الله ومن معي من المؤمنين، أو رحمنا بفضله وإحسانه فأخّر آجالنا ورزقنا النصر عليكم وصرف عنّا عذابه؛ فمن الذي يستطيع أن يحميكم ويمنعكم من عذاب الله الأليم الموجع إذا أراد أن ينزله بكم؟. [٢٩] وقل يانبي الله لهؤلاء الجاحدين: لقد صدّقنا بالرحمن الذي دعوتكم لعبادته لتسلموا من عقابه، وعملنا بشرعه، وأطعناه، وعليه وحده اعتمدنا وفوضنا جميع أمورنا؛ فإن لم تستجيبوا وتؤمنوا به فستعلمون عاجلًا أو آجلًا إذا نزل عذاب الله من الذي كان علىٰ الحق وعلىٰ الطريق المستقيم؛ نحن أم أنتم؟ وهذا تهديد ووعيد لكل من كفر وأشرك بالله. [٣٠] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: ما رأيكم إن يبست آباركم وأنهاركم وليس في قعر الأرض أي شربة ماء؛ فمن غير الله يأتيكم بماء جار علىٰ وجه الأرض ليسقيكم فيدر به الضرع ويسقي به الزرع، وخصَّ الماء لأنه لا حياة بدونه، وهنا يقول المؤمنون: إنما يأتي به الله إن شاء.

سورة القلم

سورة القلم مكيّة وآياتها ثنتان وخمسون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. ثم أقسم جل وعلا بالقلم الذي سميت به هذه السورة، والقلم اسم جنس يعم جميع الأقلام التي تُسطَّر بها الكتب، وله جل وعلا أن يقسم بما شاء من خلقة، أما البشر فيحرم عليهم القسم بغير الله إذ لا شيء أعظم منه جل وعلا، وهذا القسم فيه تشريف وتعظيم وتكريم للقلم. [٢] ثم جاء جواب القسم بقوله سبحانه: ما أنت يانبي الله بسبب فضل الله ونعمته عليك بحمل الرسالة والنور بضعيف العقل، ولا سفيه الرأي. [٣] وإن لك لأجرًا عظيمًا ودرجة عالية عند الله ليس فيه لأحد منة عليك، وذلك بسبب ما تلاقيه من شدائد في تبليغ الرسالة والدعوة. [٤] ثم بين سبحانه أن نبيه ﷺ علىٰ خلق عظيم، وهذه شهادة وتزكية من الله له ﷺ، وقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ فقالت: «**كان خلقه القرآن**»(١). [٥-٦] ثم بشر سبحانه نبيه ﷺ أنه عما قريب سوف يرىٰ هو ويرىٰ مشركو مكة بأبصارهم أيكم الذي أصيب بالخبال؟ قال مقاتل: هذا وعد ووعيد بعذابهم في بدر. [٧] ثم بين سبحانه أنه هو وحده أعلم بمن سلك طريق الضلال والغواية المؤدي إلىٰ سخط الله، وهو أيضًا أعلم بمن سلك طريق الهداية وطريق الفائزين.

[٨] ولا تطع يانبي الله هؤلاء الكافرين المكذبين بآيات الله ورسله، واثبت علىٰ ما أنت عليه من الحق الواضح البين، ومع أنه ﷺ معصوم من الاستجابة لطلبهم إلا أن الله قال له ذلك تعليمًا للأمة والدعاة منهم. [٩] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكافرين يودون لو تلين لهم فلا تذكر أنهم علىٰ باطل، وحينئذ سوف لا يناصبونك العداء ولا يكيلون لك الاتهامات بالجنون وغيره. **قال الشيخ الجزائري**: **الادهان هو**: أن تتنازل عن شيء من أمور دينك لأجل دنياك، وهو خلاف المداراة: وهي أن تتنازل عن شيء من أمور دنياك لأجل دينك، **وقال الدكتور وليد الفريان**: **المداهنة**: هي السكوت علىٰ المنكر مع القدرة علىٰ تغييره؛ استجلابًا لمودة المأمور أو لأمور أخرىٰ. [١٠] ثم ذكر جل وعلا صفات هذا المفاوض للرسول ﷺ ونهاه أن يتصف بمثلها فقال سبحانه: لا تطع يانبي الله من كان من صفاته أنه كثير الحلف كذاب حقير. [١١] ومن صفاته أنه مغتاب للناس، يمشي بينهم بالنميمة. [١٢] ومن صفاته أنه بخيل **بالنفقة**، متجاوز حده في الاعتداء علىٰ الناس. [١٣] ومن صفاته أنه كثير الآثام، شديد في كفره، فاحش لئيم، وبعد كل هذه الصفات الذميمة ففي نَسَبِهِ ريبة، يعني تجمعت فيه كل صفات المكر والسوء. [١٤] ثم بين سبحانه أنه لأجل أن كان ذا مالٍ وثراء وبنين حمله الشعور بالغنىٰ علىٰ التكذيب بآيات الله. [١٥] ثم بين سبحانه أنه إذا قُرِئَتْ علىٰ هذا المفاوض آيات القرآن؛ يقول: ما هذه إلا قصص وحكايات وخرافات الأقوام السابقين. [١٦] ثم أخبر سبحانه أنه مع كل هذه الصفات الشنيعة سوف يجعل لهذا الكافر علامةً علىٰ أنفه يعيَّرُ بها طيلة حياته، وقد تم ذلك في بدر.

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

[١٧] ثم أخبر جل وعلا أنه اختبر أهل مكة بالجوع والقحط بسبب كفرهم بنعم الله وتكذيبهم بمحمد ﷺ، كما اختبر سبحانه من قبل أصحاب الحديقة الذين تواطأوا علىٰ حرمان الفقراء؛ وذلك حين حلفوا أن يقطفوا ثمار حديقتهم في الصباح الباكر قبل أن يأتيهم الفقراء والمساكين ليعطيهم مالك الحديقة ما اعتادوا أن يأخذوه كل عام. [١٨] وقد بين سبحانه أنهم لم يستثنوا في قولهم فيقولوا: إن شاء الله.

وقصة أصحاب الجنة: أن أباهم كان رجلًا صالحًا، وكانت عنده حديقة؛ فكان إذا أثمرت يقسم الثمرة إلىٰ ثلاثة أقسام: قسم له ولأسرته، وقسم لاحتياجات المزرعة، وقسم للفقراء والمساكين، فلما مات قال أبناؤه: لا نعطي الفقراء؛ فعاقبهم الله علىٰ سوء نيتهم وفعلهم. [١٩] ثم بين سبحانه أنه أنزل علىٰ حديقتهم نارًا أحرقتها وأبادتها ليلًا، وهم نائمون.

[٢٠] فأصبحت سوداء كالليل الأسود المظلم شديد السواد. [٢١-٢٢] ولما طلع الصبح نادىٰ بعضهم بعضًا قائلين: هيَّا اخرجوا مبكِّرين إلىٰ حديقتكم لأخذ ثمرتها قبل مجيء الفقراء والمساكين إن كنتم حريصين.

[٢٣-٢٤] فانطلقوا قاصدين حديقتهم، وهم يتهامسون بصوت منخفض لئلا يشعر بهم أحد، ويقولون: لا يدخل هذا البستان اليوم عليكم أحد من المساكين أو الفقراء.

[٢٥] ثم أخبر سبحانه أنهم بكروا صباحًا علىٰ قصدهم السيِّئ جازمين بقدرتهم علىٰ تنفيذ ما عزموا عليه.

[٢٦] فلما وصلوا إلىٰ حديقتهم ورأوها قد احترقت أنكروها، وقالوا: لقد ضللنا الطريق، وهذه ليست حديقتنا.

[٢٧] ثم لما تأملوا علموا أنها حديقتهم، وأن الله عاقبهم؛ فقالوا: إنها حديقتنا، ولكنَّا قد حُرمناها، وحُرمنا ثمرها؛ بسبب عزمنا علىٰ منع المساكين من خيرها. [٢٨] فقال أعقلهم: ألم أقل لكم: اتقوا الله ولا تحرموا الفقراء نصيبهم ونزهوا الله عما لا يليق به. [٢٩] وحينئذ قالوا: تنزيهًا وتقديسًا لربنا وخالقنا، إنا كنا مجاوزين لحدنا، ولكن بعد أن فات الأوان. [٣٠] ثم أقبل بعضهم يلوم بعضًا تحسُّرًا وندامةً علىٰ ما فعلوه.

[٣١] ثم قالوا: ياويلنا وياهلاكنا، إنا كنا متجاوزين حدودَ الله بعزمنا حرمان المساكين من حقهم. [٣٢] فندموا وتابوا ورجوا الله أن يغفر لهم فقالوا: عسىٰ ربنا أن يعطينا خيرًا من هذه الحديقة، إنا إلىٰ ربنا راجعون وطالبون منه الخير والعفو والعافية.

[٣٣] ثم أخبر جل وعلا أنه بمثل هذا العذاب الدنيوي الذي أنزله علىٰ أصحاب الحديقة يعذب كل من خالف أمر الله وعصاه، ولم يؤدِّ حقَّ الله فيما أعطاه الله، ولعذاب الآخرة أكبر وأشد من عذاب الدنيا، ولكنهم لا يعلمون.

[٣٤] واعلموا أن الله أعدَّ للمتقين الذين يجعلون بينه وبين عذابه وقاية بتوحيده وفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ جنات النعيم، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

[٣٥-٣٦] ثم قال جل وعلا علىٰ سبيل الاستنكار: أفنجعل المسلمين الصادقين كالكافرين المشركين؟ ما لكم كيف تحكمون أيها المشركون هذا الحكم الأعوج الجائر؟ وذلك أن مشركي مكة قالوا: إن كان هناك آخرة وبعث فلن يكون محمد وأتباعه أحسن منا حالًا، وعلىٰ أسوأ الأحوال فسوف نتساوىٰ معهم، هكذا غرهم الغرور وسولت لهم أنفسهم.

[٣٧] ثم وبخهم جل وعلا علىٰ كذبهم وافترائهم، فقال سبحانه: هل لكم أيها المجرمون كتابٌ أُنزل عليكم قرأتموه ووجدتم فيه أن المسلم كالمشرك المجرم؟!

[٣٨] وهل وجدتم في ذلك الكتاب أن لكم ما تختارونه وتريدونه؟!

[٣٩] أم أخذتم علينا عهودًا ومواثيق وأيمانًا - لا نخرج منها إلىٰ يوم القيامة - فيها أن لكم ما تختارون وما تشتهون؟!!

[٤٠] فسل يانبي الله هؤلاء المشركين: من الذي تكفل والتزم لهم بهذا الحكم وَضَمِنَهُ لهم يوم القيامة؟.

[٤١] أم أن آلهتهم تكفل لهم ما يقولون: إن المسلمين كالمجرمين يوم القيامة؟ فليأتوا بهؤلاء الشركاء إن كانوا صادقين في زعمهم ودعواهم.

[٤٢] وأخبر يانبي الله هؤلاء المشركين عن مجيء الله يوم القيامة للفصل بين عباده ومجازاتهم علىٰ أعمالهم؛ وأنه سبحانه يكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ثم يُدعىٰ الخلق للسجود له فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله طوعًا واختيارًا في الدنيا، أما الكفار والمنافقون فإنهم يحاولون السجود فلا يستطيعون، لأن ظهورهم تكون يابسة لامتناعهم عن السجود لله في الدنيا، يقول ﷺ: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقىٰ كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقًا واحدًا»[(١)].

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٩).

خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ الحَاقَّةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾

[٤٣] ثم أخبر جل وعلا عن هؤلاء المشركين بأن أبصارهم يوم القيامة تكون خاشعة لا تطرف من شدة الخوف والهول، تغشاهم ذلة ومهانةٌ، وقد كانوا يدعَوْن إلىٰ السجود في الدنيا وهم سالمون معافون؛ فكانوا يتكبرون ويستهزؤون؛ فعوقبوا بعدم قدرتهم علىٰ السجود في الآخرة.

[٤٤-٤٥] ثم طلب جل وعلا من نبيه محمد ﷺ أن يترك هؤلاء المكذبين ولا ينشغل بهم ولا يحزن عليهم، وأخبره سبحانه أنه سيتولىٰ مجازاتهم بما يستحقون بعد أن أمدهم سبحانه بالأموال والأولاد استدراجًا لهم في الدنيا من حيث لا يعلمون أن هذا الاستدراج سبب لإهلاكهم. ثم أخبره أنه سوف يمهلهم حتىٰ يزدادوا إثمًا وطغيانًا، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ثم بين سبحانه أن هذا الإمهال شكل من أشكال كيده القوي الشديد، وفرصة لمن تاب وندم.

[٤٦-٤٧] أم تسأل يانبي الله هؤلاء المشركين أجرًا دنيويًّا علىٰ دعوتك لهم فيثقلهم ذلك؟ ولهذا السبب أعرضوا عن دعوتك خوفًا من أن يتكلفوا ما لا يطيقون. أم أنهم عندهم علم الغيب فهم مطلعون عليه وينقلون عنه بأنهم لن يعذبوا علىٰ كفرهم وشركهم؟.

[٤٨-٤٩-٥٠] فاصبر يانبي الله علىٰ أذىٰ هؤلاء المشركين واستمر في دعوتك، ولا تكن كصاحب الحوت وهو يونس عليه السلام الذي ضجر من قومه بعد أن بذل جهده في دعوتهم، فلما ظن - بسبب إصرارِهم علىٰ الكفر ويأسِه من إيمانهم - أن العقوبة ستقع بهم؛ انطلق إلىٰ البحر ليركب حتىٰ يسلم من مشاهدة النكبة إذا حلت بقومه، ولم ينتظر الإذن من الله، ولهذا عاقبه الله بأن التقمه الحوت، ثم استغاث بالله وهو مغموم مكروب، فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]. ولولا أن الله تدارك عبده يونس بأن رحمه وقبل توبته لطرح من بطن الحوت في الأرض الفضاء الخالية الواسعة وهو ملام علىٰ ما حصل منه، ولكن الله برحمته أمر الحوت بإلقائه وهذا غير مذموم وأنبت عليه شجرة من يقطين تظله، ثم اصطفاه لرسالته وجعله من الصالحين، وأعاده إلىٰ قومه فوجدهم نادمين علىٰ ما فعلوه معه، ثم استجابوا وأسلموا فسلموا.

[٥١-٥٢] واعلم يانبي الله أن هؤلاء المشركين عند سماعهم للقرآن كادوا أن يصيبوك بالعين حسدًا وحنقًا من عند أنفسهم، ولكن الله حماك منهم، ويقولون: إن هذا الرسول لمجنون، أي لا عقل له. وما علموا أنهم هم الضالون وأن القرآن موعظة وتذكير لجميع الناس إنسهم وجنهم.

سورة الحاقة

سورة الحاقة مكيّة وآياتها ثنتان وخمسون آية.

[١-٢-٣] الحاقة اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لأن مجيئها ثابت حقًّا، وكرر الحاقة لهول الموقف وشدته وفظاعته. ثم وجه سبحانه الخطاب لنبيه ﷺ، فقال: وما أدراك يانبي الله بأهوال يوم القيامة الذي مهما تخيله متخيل فهو فوق ما يتخيل.

[٤] ثم بين جل وعلا أحوال بعض الأمم التي كذبت بيوم القيامة، وبيَّن ما ترتب علىٰ تكذيبهم من عذاب وانتقام، فأخبر سبحانه بأن ثمود وهم قوم صالح، وعادًا وهم قوم هود؛ كذبوا بالقارعة التي هي يوم القيامة، وسميت بالقارعة لأنها تقرع القلوب.

[٥] ثم أخبر جل علا أن ثمود أهلكوا بالطاغية وهو صوت هائل طاغ. وكانت منازل ثمود شمال الجزيرة العربية، وتسمىٰ الحجر، ولازالت آثارهم وكتاباتهم بالجبال التي نحتوها وجعلوها قبورًا لموتاهم.

[٦-٧-٨] ثم أخبر جل وعلا أن عادًا أُهلكوا بريح قوية عاصفة شديدة البرودة. وهذه الريح سلطها عليهم سبحانه سبع ليال وثمانية أيام متتابعة؛ فأهلكتهم حتىٰ إنك لترىٰ القوم موتىٰ كأنهم أصول نخل منزوعة بجذورها من باطن الأرض، فهل ترون أحدًا بقي منهم بعد العذاب؟.

وكانت منازل عاد بالربع الخالي بين نجران والبحر العربي، وهم الذين بلغوا من القوة ما جعلهم يصابون بالغرور مثل أمريكا الآن، فأهلكهم الله بهذا الهواء الذي يحمل الأكسجين الذي تحيا به الأبدان: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١].

[٩-١٠] ثم ذكر سبحانه أن ممن عُوقِبَ الطاغية فرعون؛ حيث جاء هو ومن قبله من الأقوام، وقوم لوط؛ جاءوا بالأفعال الخاطئة من الكفر والشرك والفواحش المنكرة. وأفرد سبحانه فرعون بالذكر لغروره واستكباره واستعباده لبني إسرائيل. ثم بين سبحانه أن جميع هؤلاء المجرمين عصوا رسل الله التي أرسلت إليهم فأخذهم الله أخذة عالية شديدة؛ ففرعون أغرقه الله وجنوده في البحر، وقوم لوط أرسل الله عليهم حاصبًا، ثم اقتلع قراهم ثم جعل عاليها سافلها نظرًا لفعلهم الشنيع.

[١١-١٢] واذكروا أيها الناس ما جرىٰ لقوم نوح عليه السلام عندما أصروا علىٰ الكفر والطغيان، كيف أن الله أغرقهم بالطوفان، وأنجىٰ سبحانه الذين آمنوا مع نوح حيث حملهم في السفينة التي صنعها نوح بوحي من الله. ثم بين سبحانه أنه جعل هذه النعمة التي أنعم بها علىٰ المؤمنين عبرة وعظة تحفظها الأجيال من بعدهم ليعتبروا.

[١٣-١٤-١٥-١٦-١٧-١٨] واعلموا أيها الناس إذا نفخ الملك في البوق النفخة الثانية. ورفعت الأرض والجبال فحطمتا ودكتا دكة واحدة. فحينئذ تقع الواقعة وهي يوم القيامة. وتتصدع السماء حتىٰ تصير ضعيفة مسترخية لا تماسك فيها ولا صلابة، أي: أن النفخة الثانية هي إيذان بالتغيير الكوني، والبدء بالتشكيل الكوني الجديد الذي يتناسب مع ما يريده الله صالحًا للحياة السرمدية التي تبدأ بهذه النفخة. ثم بين سبحانه أن الملائكة في ذلك اليوم علىٰ جوانب السماء وأطرافها لتنفيذ أوامر الله، ويحمل عرش ربك فوق الكل يوم القيامة ثمانية من الملائكة العظام. ثم بين جل في علاه أن الناس في ذلك اليوم سوف يُعرضون علىٰ الله للحساب والجزاء، لا يخفىٰ عليه شيء منهم ولا من أسرارهم.

قال الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله في قوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾: يكون هذا يوم القيامة، والمشهور أنه في الدنيا يحمله أربعة أملاك. وقال الدكتور الكبيسي: إن العرش معنوي، وهو خلاف قول أهل السنة والجماعة؛ بل هو خلاف قول الأنبياء والقرآن، وقد شطح هداه الله في بعض الصفات وبعض مسائل العقيدة ومنها العلو.

[١٩-٢٠-٢١-٢٢-٢٣-٢٤] ثم أخبر جل وعلا أن من أوتي كتابه بيمينه فإنه يقول علىٰ سبيل الفرح والسرور: انظروا كتابي، والله إني ظننت، أي: أيقنتُ في الدنيا أني محاسبٌ وموقوفٌ بين يدي الله، ثم بين سبحانه أنه في عيشة مرضية جامعةٍ لكل الملاذّ، وفي جنة عالية مرتفعة المنازل والقصور، وثمار أشجارها اليانعة قريبة المتناول، سهلة القطف والأخذ. ثم يقال لهم - علىٰ وجه التكريم -: كلوا واشربوا ياأهل الجنة ما لذّ وطاب من طعام الجنة وشرابها هنيئًا؛ بسبب ما قدمتم من التوحيد والأعمال الصالحة في الأيام الماضية في الحياة الدنيا.

وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥

[٢٥-٢٦-٢٧-٢٨-٢٩] ثم أخبر جل وعلا أن من أوتي كتابه بشماله إذا رأىٰ قبائح أعماله فإنه يقول: ياليتني لم أعط كتابي؛ لأن هذا دليل علىٰ أني مستحق للعذاب والنار. ويقول: ياليتني لم أعرف شيئًا من حسابي، ولم أدر ما جزائي، وياليت الموتة التي متها في الدنيا كانت هي الموتة النهائية ولم أبعث بعدها، ثم يقول متحسرًا: ماذا استفدت من مالي الذي جمعته في الدنيا؟ إنه لن يفديني، ولن يدفع عني شيئًا من عذاب الله، لقد أُسقِطَ في يدي، وذهبت حجتّي، ولن ينفعني اليوم جنودٌ ولا مُلكٌ، ولا منصبٌ، ولا جاه.

[٣٠-٣١-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥] ثم يقال لخزنة جهنم الغلاظ الشداد: خذوا هذا الكافر المجرم واجمعوا بين يديه وعنقه في الأغلال، ثم ألقوه في نار جهنم ليصْلىٰ حرها، ويقاسي عذابها، ثم في سلسلةٍ طولها سبعون ذراعًا من سلاسل النار الشديدة الحرارة فاسلكوه فيها، قال سفيان: إنها تدخل في دبره وتخرج من فمه. نسأل الله السلامة والعافية. وموجب هذا العذاب أنه: كان في الدنيا لا يعبد الله وحده مخلصًا له الدين؛ بل كان يشرك مع الله آلهة أخرىٰ، ولم تكن في قلبه رحمةٌ للفقراء والمحتاجين؛ فلم يكن يطعمهم من ماله، ولم يكن يحث غيره علىٰ إطعامهم. فليس له اليوم قريبٌ ينصره ويساعده، ولا من يدافع عنه.

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ المَعَارِجِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾

[٣٦-٣٧] ثم بين جل وعلا أنه ليس لهذا الكافر يوم القيامة طعامٌ يأكله في النار إلا ما يسيل من صديد أهل النار وقيحهم، وورد في آيات أخرىٰ أن طعامهم الضريع وشجرة الزقوم، ولا يأكل هذا الطعام إلا الفاسقون المخطؤون الضالون عن الصراط المستقيم، السالكون سبيل الجحيم. نسأل الله السلامة والعافية.

[٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٢-٤٣] ثم أقسم جل وعلا بكل شيء يبصره الخلق؛ كالسماء والأرض وغيرهما، وما لا يبصرونه؛ كالملائكة والجن وغيرهما؛ أن هذا القرآن الذي بين أيديكم هو كلام الله، يتلوه عليكم رسول عظيم الشرف والفضل، وهو محمد ﷺ، تلقاه من رسول كريم وهو جبريل عليه السلام. واعلموا أنه ليس بقول شاعر كما تزعمون ، وليس بسجع كسجع الكهان كما يقول بعضكم، وإنما هو كلام رب العالمين أنزله علىٰ رسوله الأمين محمد ﷺ، ولكنكم لا تؤمنون به، ولا تتعظون وتعتبرون بآياته والمتعظ منكم قليل.

[٤٤-٤٥-٤٦-٤٧-٤٨] واعلموا أيها المشركون لو أن محمدًا ﷺ افترىٰ علىٰ الله بعض الأقاويل - وحاشاه عن ذلك -. لانتقم منه سبحانه شر انتقام. وأخذه الله بشدة وقوة. ثم لقطع منه نياط قلبه وأنهىٰ حياته. ثم لا يستطيع أحد منكم أن يحجز عنه عقاب الله، أو يدافع عنه أو يحميه. ثم أخبر سبحانه أن هذا القرآن نور وهدىٰ وتذكير للمتقين الذين يمتثلون أوامر الله ويجتنبون نواهيه.

[٤٩-٥٠-٥١] ثم أخبر جل وعلا أنه يعلم أن من الناس من يكذب بهذا القرآن مع وضوح آياته، ثم أخبر سبحانه بأن هذا القران الذي كذب به الكفار سوف يكون حسرة وندامة عليهم. وأخبر أيضًا بأنه حق ثابت لكونه صادر من الله الذي هو الحق ولا يصدر منه إلا الحق.

[٥٢] ثم ختم جل وعلا السورة بأمر نبيه محمدٍ ﷺ أن يسبح الله وينزهه عما لا يليق بجلاله، وأن يقدسه بذكر أوصاف الجلال والجمال والكمال، ولا شك أن كل من اتبع النبي ﷺ فهو مأمور بما أمر به.

سورة المعارج

سورة المعارج مكيّة وآياتها أربع وأربعون آية.

[١-٢-٣] أخبر جل وعلا أن أحد المشركين - الذين ينكرون البعث والحساب - دعا علىٰ نفسه وعلىٰ قومه أن ينزل بهم العذاب الذي توعد الله به الكافرين الذين أصروا علىٰ كفرهم وجحودهم، قال ابن عباس: السائل هو النضر بن الحارث، فأخبر سبحانه ردًّا علىٰ هذا المجرم بأن هذا العذاب واقع علىٰ الكافرين لا شك ولا ريب في ذلك؛ سواء طلب ذلك أم لم يطلب، وهذا العذاب ليس له مانع يمنعه من الله ذي العلو والجلال والعظمة.

وقد وقع علىٰ الكافرين بعض العذاب في الدنيا كإهلاك صناديد قريش في معركة بدر، ولكن العذاب الكامل يكون يوم القيامة بدخولهم النار.

[٤] ثم أخبر جل وعلا أن الملائكة ومعهم جبريل عليه السلام يصعدون بين السماء والأرض يوم القيامة في وقت طوله خمسين ألف سنة مما نعد في الدنيا.

[٥] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يصبر علىٰ دعوته قومه للتوحيد، وأن يصبر علىٰ ما يصيبه منهم من أذىٰ وسخرية وتكذيب صبراً جميلًا لا جزع فيه ولا شكوىٰ لغير الله.

[٦-٧] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء المشركين بسبب إنكارهم للبعث والحساب يستبعدون وقوع العذاب ونزوله بهم، ويرون أن ذلك أمر بعيد صعب التحقق، ولكن الله يراه قريبًا واقعًا بهم لا محالة.

[٨-٩-١٠] ثم وصف جل وعلا يوم القيامة فأخبر أن السماء تكون غير متماسكة مثل الرصاص المذاب، وقيل: كالزيت المغلي، وتكون الجبال هشة كالصوف المنفوش إذا طيرته الريح، وفي ذلك اليوم لا يسأل قريب قريبه ولا صديق صديقه عن شأنه وحاله؛ فالكل مشغول بنفسه من شدة هول الموقف.

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا
ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ
جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ
عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ
رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ
﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾
فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ
عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم
مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾

[١١-١٢-١٣-١٤] ثم أخبر جل وعلا أن من أهوال يوم القيامة أن الكل ينظر بعضهم لبعض؛ فلا يسأله ولا يكلمه لانشغال كل واحد بنفسه، وفي هذه اللحظات العصيبة يتمنىٰ المجرم المكذب بالله وآياته ورسله لو يستطيع أن يفدي نفسه من عذاب الله بأعز الناس إليه، كأولاده، وزوجته، وأخيه، وعشيرته التي ينتمي إليها؛ بل بكل من في الأرض؛ ثم ينجو من عذاب الله، ولكن هيهات هيهات، هذا هو وقت الجزاء. ولم يُذكر في هذه الآيات الوالدان؛ لأن ذلك مما يزيد من غضب الله؛ حيث وصىٰ جل وعلا بالوالدين إحسانًا.

[١٥] كلا أيها الكافر فليس الأمر كما تتمنىٰ، وإنما هي جهنم التي سيكون مصيرك إليها؛ بسبب كفرك وجحودك، ولظىٰ: اسمٌ من أسماء النار.

[١٦] ثم بين سبحانه أن هذه النار من شدة حرِّها تنزع الشوىٰ، والشوىٰ: جمع شواة، وهي جلدة الرأس كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وخصَّت جلدة الراس بالذِّكر لأنها أشد الجسم حساسيةً وتأثيرًا بالنار.

[١٧-١٨] وبين سبحانه أن هذه النار تدعو إليها من أدبر في الدنيا وأعرض عن التوحيد واتباع الرسول ﷺ. وكذلك تدعو من اشتغل بجمع المال وكنزه، ولم ينفق منه في سبيل الله.

[١٩-٢٠-٢١] ثم ذكر جل وعلا أن من طبع الإنسان كثرة الهلع والضجر. فإذا مسه الشر من الأمراض أو الفقر أو المصائب ونحو ذلك؛ صار كثير الضجر والشكوىٰ، ولا يرضىٰ بما قضىٰ الله وقدر. وإذا مسه الخير من الغنىٰ والسعة ونحو ذلك، صار شديد البخل والإمساك؛ فلا ينفق مما أعطاه الله، ولا يعترف لله بالفضل بل يقول: إنما اكتسبته بجهدي وعلمي بطرق التجارة.

[٢٢-٢٣] وقد استثنىٰ جل وعلا من الصفات السابقة الشنيعة أهل الصلاح والإيمان فقال سبحانه: إلا المصلين، فإنهم ليسوا من أهل الجزع والهلع والمنع. ثم بين سبحانه صفة هؤلاء المصلين أنهم: مقيمون للصلاة مواظبون علىٰ أدائها في أوقاتها، دون أن يشغلهم عنها شاغل.

[٢٤-٢٥] ومن صفاتهم: أنهم جعلوا في أموالهم نصيبًا معينًا فرضه الله عليهم وهو الزكاة المفروضة. وهذا النصيب يصرف للفقير الذي يستحق المعونة، والمحروم الذين لا يسأل، ولكن تظهر عليه علامات الحاجة.

[٢٦-٢٧-٢٨] ومن صفاتهم: أنهم يصدّقون بيوم البعث والحساب؛ فعملوا لذلك. ومن صفاتهم: أنهم من عذاب ربهم خائفون وجلون. لأنهم يعلمون أن عذاب الله يجب أن يحذر ويُخَاف منه، ولا ينبغي أن يأمنه أحد.

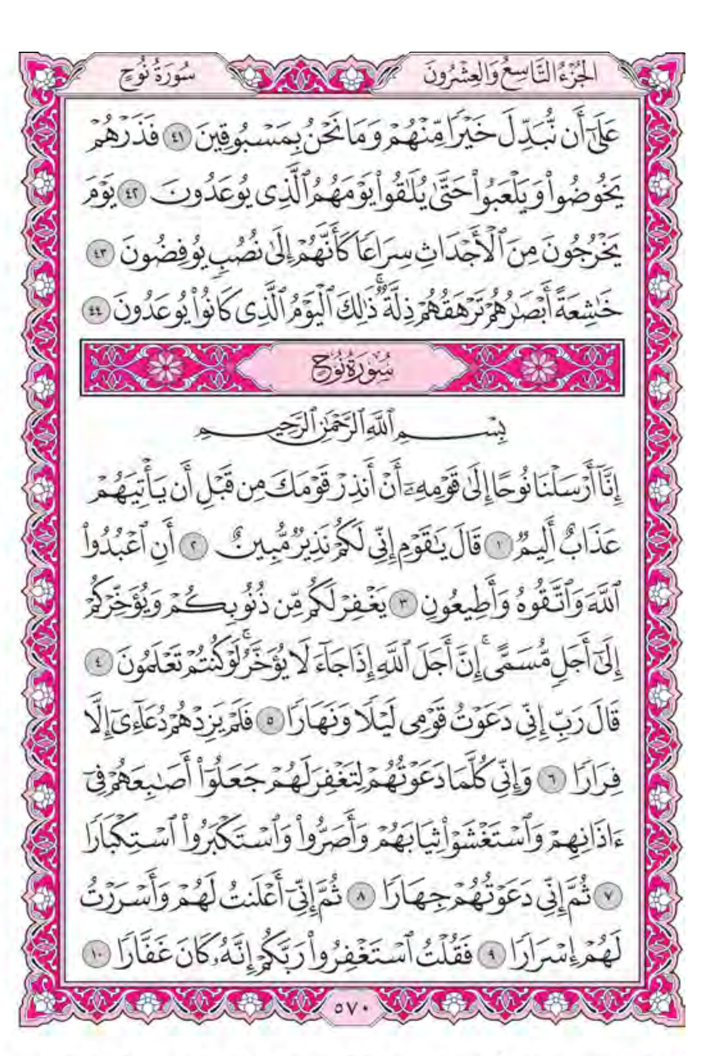
[٢٩-٣٠-٣١] ومن صفاتهم: أنهم يصونون فروجهم ويحفظونها عن كل ما حرَّم الله. إلا علىٰ أزواجهم وما أحل الله لهم من الإماء والجواري، فإنهم غير مؤاخذين. أما من ابتغىٰ لقضاء شهوته ووطره في غير ما استثنىٰ الله من الزوجات وملك اليمين؛ فأولئك هم المعتدون المجاوزون حدودهم.

[٣٢-٣٣-٣٤] ومن صفاتهم: أنهم يحفظون ويصونون أماناتهم ويوفون بها، سواء كانت تلك الأمانات من التكاليف الشرعية، أو من حقوق العباد المرعية. ومن صفاتهم: أنهم يقومون بأداء الشهادة كما ينبغي، فلا يكتمونها، ولا يزيدون فيها ولا ينقصون منها. ومن صفاتهم: أنهم يحافظون علىٰ صلواتهم المفروضة ويداومون عليها علىٰ أكمل وجهٍ، وأتمِّ صفة.

[٣٥] ثم أخبر جل وعلا أن المتصفين بتلك الصفات الحميدة في جنان وبساتين عظيمة، يكرَّمون فيها بكل أنواع التكريم من الحفاوة والتعظيم.

[٣٦-٣٧-٣٨-٣٩] ثم أنكر جل وعلا علىٰ الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، لأنهم يشاهدونه، ويشاهدون المعجزات التي أيده الله بها وأهمها القرآن الكريم، ومع ذلك لم يؤمنوا به؛ فقال سبحانه لنبيه ﷺ: فأي دافع دفع هؤلاء الكفرة المجرمين إلىٰ أن يسيروا مسرعين نحوك يانبي الله. ويجلسون عن يمينك وشمالك علىٰ شكل جماعات متفرقة. هل يطمعون أن يدخلهم الله جنات النعيم؟ وهم لم يؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، وقد كانوا بسبب غرورهم يظنون أن آلهتهم وأصنامهم سوف تدخلهم الجنة، إن كانت هناك جنة. كلا ليس الأمر كما يطمعون، فإنهم لن يدخلوها أبدًا ما لم يؤمنوا، ثم إنهم يعلمون أن الله خلقهم كغيرهم من ماء مهين، ولكنهم لم يؤمنوا، فكيف لهم أن يطمعوا في دخول الجنة؟

[٤٠] ثم أقسم جل وعلا برب المشارق والمغارب وهو الله جل في علاه بأنه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. وجمع سبحانه المشارق لأن الشمس كل يوم تشرق من مطلع غير الذي قبله، وكذلك المغارب.


الجُزۡءُ التَّاسِعُ وَالعِشۡرُونَ — سُورَةُ نُوحٍ

عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ
يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ
يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾
خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

سُورَةُ نُوحٍ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ
عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ
إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا
فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ
ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا
﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ
لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾

٥٧٠

[٤١] ومن ذلك أنه جل وعلا قادر علىٰ إهلاك هؤلاء الكفار، واستبدالهم بخلق آخر أطوع منهم وأفضل، ولن يعجزه ذلك جل في علاه، بل لا يستطيع أن يمنعه سبحانه أحد، ولكن مشيئته اقتضت تأخير عقوبتهم إلىٰ يوم القيامة.

[٤٢-٤٣-٤٤] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يترك هؤلاء الكفار يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم؛ حتىٰ يلاقوا يوم القيامة الذي كانوا يوعدون فيه بالعذاب، وهو اليوم الذي يخرجون فيه من قبورهم مسرعين إلىٰ مشهد القيامة والحساب؛ كأنهم في سباق أيهم يصل إلىٰ النصب المركوز في نهاية السباق أولًا، كما كانوا في الدنيا يتسابقون إلىٰ الإلهة التي وضعوها للعبادة من دون الله، وفي حال خروجهم من قبورهم وسيرهم مسرعين تكون أبصارهم منكسرة نحو الأرض، تغشاهم رهبة وذلة وحقارة شديدة، ثم بين سبحانه أن ذلك اليوم وما فيه من أهوال عظام كانوا قد أنذروا في الدنيا أنهم ملاقوه ولكن كانوا به يكذبون. وفي هذه الآيات إثبات يوم القيامة، كما أن فيها حض النبي ﷺ بالاستمرار في الدعوة وأن يشتغل بما أمر به ولا يثنيه كلامهم؛ لأنه ﷺ مبلغ رسالة ربه ومبشر المؤمنين ومنذر الكافرين، والهداية بيد رب العالمين.

سورة نوح

سورة نوح مكيّة وآياتها ثمان وعشرون آية.

[١] بدأت السورة بإخبار أن الله بعث نوحًا إلىٰ قومه، وأمره أن يحذرهم من عبادة الأصنام ومن الشرك والذنوب والمعاصي؛ من قبل أن يأتيهم عذاب موجع في الدنيا والآخرة.

ونوح عليه السلام هو أول الأنبياء من ذرية آدم، وهو شيخ الأنبياء لأنه أطولهم عمرًا، وهو من أولي العزم من الرسل وقوله: ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ جعلت بعض المفسرين يقولون: إن نوحًا لم يرسل للبشر كلهم؛ بل أرسل فقط إلىٰ قومه، وقال آخرون: إنه أرسل إلىٰ الناس كلهم؛ لأنه لا يوجد علىٰ الأرض في زمنه غير قومه، واستدلوا بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، قالوا: لو أن هناك أممًا غير أمته لم يَدْعُ عليهم.

[٢-٣-٤] ثم أخبر جل وعلا أن نوحًا ابتدر أمر الله فقال: ياقومي إني نذير لكم بيِّن الإنذار من عقاب الله إن استمررتم علىٰ كفركم وجحودكم، وأطلب منكم: أن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تخافوا عقابه، وأن تطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه، وهذه هي خلاصة الدعوة: عبادة الله وطاعته؛ فإن استجبتم لهذه الأمور فإن الله سبحانه يَمْحُ ذنوبكم ويتجاوز عنها، ويمد في أعماركم إلىٰ الوقت الذي حدده الله، واعلموا أن الموت إذا جاء لا يؤخر أبدًا مهما كان الأمر، ولو كنتم تعلمون ذلك علم يقين لسارعتم إلىٰ الإيمان والطاعة.

[٥-٦] وقال نوح لربه: رب إني دعوت قومي في جميع الأوقات؛ ولم أترك دعوتهم أبدًا لا في ليل ولا في نهار، ومع ذلك لم تزدهم دعوتي لهم إلىٰ الإيمان والحق إلا هربًا وإعراضًا عنه وإصرارًا علىٰ الكفر والعصيان.

[٧] وقال نوح لربه أيضًا: وإني يارب كلما دعوتهم إلىٰ توحيدك والإيمان بك الذي هو سبب لمغفرة ذنوبهم؛ أدخلوا أصابعهم في آذانهم لئلَّا يسمعوا كلامي، وغطوا وجوههم بالثياب مبالغة في الإعراض، وأصرُّوا علىٰ الكفر والشرك، واستكبروا عن قبول التوحيد استكبارًا شديدًا.

[٨-٩-١٠] وقال نوح أيضًا: ثم إني يارب جهرتُ بدعوتهم إلىٰ التوحيد وصدعتُ به بين ظهرانيهم بمسمع منهم كلهم. وجئتهم يارب من كل باب ظننت أن يحصل منه المقصود من استجابتهم للتوحيد، فأعلنت لهم الدعوة بصوتٍ مرتفع أحيانًا، وأسررت لهم بها إسرارًا كثيرًا بصوت خفيٍّ أحيانًا أخرىٰ.

[٨-٩-١٠] ثم قال نوح لقومه: ياقوم اطلبوا المغفرة من ربكم علىٰ ما بدر منكم من شرك وتكذيب ومعاص، واعلموا أن الله كثير المغفرة لعباده الموحدين التائبين المستغفرين.

يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨

[١١-١٢] وقال نوح لقومه: واعلموا ياقوم أن من فوائد اللجوء إلىٰ الله واستغفاره أن الله يرزقكم بأنواعٍ من الرزق؛ فيرسل السماء عليكم بالمطر المتتابع؛ فتحصل لكم المنافع، ويكثّر لكم أموالكم وأولادكم، ويجعل لكم بساتين وحدائق، ويجعل لكم أنهارًا جاريةً حَسَنَةَ المنظر، كثيرة الفائدة.

[١٣-١٤-١٥-١٦] ثم قال نوح لقومه: ما لكم ياقوم لا تخافون من الله وعظمته وكبريائه. وهو الذي أوجدكم من العدم، وقد خلقكم تدرجًا خلقًا من بعد خلق. وقال لهم أيضًا: ألم تنظروا وتشاهدوا يا قوم كيف خلق الله السماوات السبع وأوجدها من العدم، وجعل كل سماءٍ فوق الأخرىٰ. وجعل القمر في هذه السماوات نورًا لأهل الأرض، وجعل الشمس مصباحًا وهّاجًا مضيئًا؟!!

[١٧-١٨-١٩-٢٠] وقال نوح أيضًا: واعلموا أن الله وحده هو الذي خلق وأنشأ أصل أبيكم آدم من الأرض، ثم يعيدكم الله فيها حين تموتون فتدفنون في هذه الأرض، ثم يخرجكم منها مرّةً أخرىٰ يوم البعث والنشور للجزاء والحساب. وقال أيضًا: واعلموا أن الله و حده هو الذي مهّد الأرض وبسطها وفرشها لكم وهيأها لانتفاعكم بها؛ لتستطيعوا السير في طرقاتها الواسعة، وهذا لا ينافي أن تكون الأرض كروية.

[٢١-٢٢] ثم قال نوح: رب إن قومي عصوني فيما أمرتهم به، وأنكروا ما دعوتهم إليه؛ بل إنهم تركوني واتبع الضعفاء منهم رؤساءهم الضالين الذين طغوا بأموالهم واغتروا بأولادهم؛ فلم تزدهم أموالهم وأولادهم إلا ضلالًا علىٰ ضلالهم، وبعدًا من رحمة ربهم، ومكر هؤلاء الرؤساء مكرًا عظيمًا غاية في الخبث.

[٢٣] وقال الرؤساء والقادة للأتباع: لا تتركوا عبادة آلهتكم، ولا يصرفنكم نوح عنها؛ فلا تتركوا عبادة ود ويغوث ويعوق ونسر، وهذه أسماء رجال صالحين؛ لما ماتوا زيَّن لهم الشيطان أن يصوروا صورهم علىٰ هيئة تماثيل ليتذكروهم فينشطوا في العبادة، ثم طال العهد، وتوالت الأجيال، فدعاهم إبليس اللعين إلىٰ عبادتها من دون الله، وقال للأجيال اللاحقة: إن آباءكم ما صوروا تلك الصور، ولا عملوا تلك التماثيل إلا لعبادتها؛ فأطاعوه وعبدوها من دون الله.

[٢٤] وقال نوح لربه: لقد أضلَّ الرؤساء والأتباع كثيرًا من الخلق وصدوهم عن توحيد الله والإيمان به، فلا تزدْ يارب هؤلاء الظالمين المجاوزين حدودهم بالشرك والمعاصي، والصدّ عن سبيل الله إلا ضلالًا وبعدًا عن الحق، وقد دعا نوح عليهم بعد أن قال الله له: ﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾[هود:٣٦].

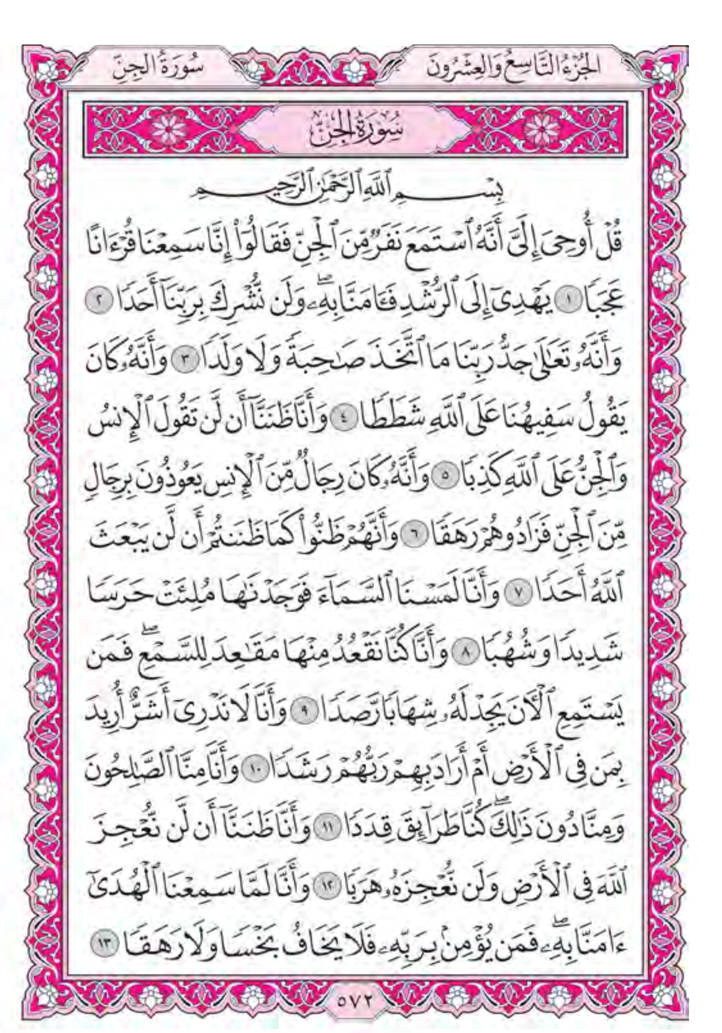
[٢٥] ثم أخبر جل وعلا أنَّه بسبب خطيئة قوم نوح، وتكذيبهم لنبيهم، وإصرارهم علىٰ عبادة غير الله والإشراك به؛ أغرقهم الله بالطوفان الذي لم يبق منهم ولم يذر أحدًا، ثم يوم القيامة يدخلون نار جهنم يعذبون فيها، ويقاسون حرَّها، ولم يكن لهم – حين نزول العذاب بهم – نصيرٌ ينصرهم، ولا معاونٌ يعاونهم ويدفع عنهم ما حلَّ بهم.

[٢٦-٢٧] وبعد أن يئس نوح عليه السلام من إيمانهم وإقلاعهم عن الكفر، دعا عليهم بالهلاك؛ فقال: رب لا تترك علىٰ وجه الأرض من الكفار أحدًا حيًّا؛ فإنك إن أبقيت منهم أحدًا أضلوا عبادك عن توحيدك والإيمان بك، وإنهم لا يلدون إلا الكفرة الفجرة أمثالهم. وقد دعا عليهم نوح بعد أن قال الله له: ﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾[هود:٣٦].

وبعد هذا المشوار الطويل في الدعوة، وبعد أن أخبره ربُّه تعالىٰ بأنه لن يؤمن من قومه إلا العدد القليل الذي آمن، حق لنوح أن ييئس، لأنه لم يترك شيئًا يقربهم إلىٰ الإيمان بالله إلا فعله؟ وهذا الزمن الطويل الذي قضاه نوح في دعوتهم أليس موجبًا لليأس؟.

[٢٨] وبعد أن دعا نوح علىٰ الكفار، دعا لنفسه ولأبويه، ثم دعا لكل من دخل بيته مؤمنًا بالله ورسوله، ثم دعا للمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة والرحمة، ثم عاد إلىٰ الدعاء علىٰ الكافرين؛ فقال: ولا تزد يارب المتصفين بالظلم إلا هلاكًا وخسرانًا ودمارًا في الدنيا والآخرة.

فصلىٰ الله علىٰ نوح وعلىٰ نبينا محمد أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم.


الجزء التاسع والعشرون　سورة الجن

سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

٥٧٢

سورة الجن

سورة الجن مكيّة وآياتها ثمان وعشرون آية.

[١] ابتدأت السورة بأمر الله جل وعلا لنبيه ﷺ أن يقول لقومه: إن الله أوحىٰ إليَّ أن جماعة من الجن استمعوا لتلاوتي للقرآن؛ حيث كان ﷺ يصلي خارج مكة ويجهر بقراءته؛ فمرت جماعة من الجن كانوا سائرين فسمعوه وهو يقرأ القرآن؛ فتواصوا بالتزام الصمت والاستماع حتىٰ انتهت السورة، فلما رجعوا إلىٰ قومهم قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عظيمًا بديعًا لم نسمع بمثله أبدًا، وقد قيل: إن السورة التي استمعوا إليها هي سورة اقرأ، وقيل: سورة الرحمن. والفائدة من إخبار الرسول ﷺ إعلامه أنَّه رسول للثقلين، وإخباره أيضًا أن امتناع الكفار وتمردهم عليه ليس إلا حفاظًا علىٰ زعامتهم وسيادتهم من أن يتبعوا غير كبرائهم الذين ماتوا، كما قال أبو جهل لأبي طالب: أترغب عن ملة عبد المطلب. كما أن الجن لم يُرسل إليهم رُسُلٌ منهم؛ فهم يتبعون الهدي الذي جاء به النبي محمد ﷺ. وقال المفسرون: هؤلاء النفر من الجن كانوا علىٰ الديانة اليهودية، واستدلوا بقوله: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف:٣٠].

[٢] ثم قال هؤلاء النفر من الجن: وهذا القرآن يهدي إلىٰ الحق وإلىٰ الطريق المستقيم؛ فصدقنا به، وآمنا بما اشتمل عليه من الدعوة لإخلاص العبادة لله وحده، ولن نشرك بربنا وخالقنا أحدًا.

[٣] ثم قال هؤلاء النفر من الجن علىٰ سبيل الثناء علىٰ الله: وإنه تعالىٰ وتعاظم جلال ربنا، وتنزه في ذاته وصفاته؛ عن أن يتخذ زوجة، أو يكون له ولد، كما يقول الذين ينسبون إلىٰ الله الزوجة والولد من سفهاء الإنس والجن.

[٤] ثم قال هؤلاء النفر من الجن: وإن السفهاء والجهلاء والحمقىٰ كانوا يقولون علىٰ الله قولًا بعيدًا مجاوزًا للحدّ بادّعائهم أن لله صاحبةً وولدًا.

[٥] ثم قال هؤلاء النفر من الجن: وإننا ما تخيلنا ولا حسبنا أن يفتري أحدٌ علىٰ الله الكذب – من الجن والإنس – بزعمه أن لله صاحبة أو ولدًا أو شريكًا.

[٦] ثم قال هؤلاء النفر من الجن: وإنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال من الجن عند المخاوف والأفزاع، فلما كان الجن يرون أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم خوفًا وإرهابًا، حتىٰ يستمروا في الاستجارة بهم. وذلك أن الأعراب كانوا إذا نزلوا واديًا قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه؛ ظنًّا منهم أن للجن قدرة علىٰ النفع والضر بغير إذن الله وتقديره.

[٧] ثم قال هؤلاء النفر من الجن: وإن سفهاء الجن كانوا يظنون أن الله لن يبعث أحدًا من الخلائق بعد الموت، وهذا هو نفسه الظن والاعتقاد الذي كنتم تعتقدونه أيها الكفار.

[٨] ثم قال هؤلاء النفر من الجن: ولقد أراد الجن بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها فوجدوها بعد نزول القرءان قد ملئت حرسًا شديدًا من الشهب والملائكة الذين يحرسونها من مسترقي السمع.

[٩] ثم قال هؤلاء النفر من الجن: وإن الجن كانوا يتخذون قبل بعثة محمد ﷺ من السماء مواضع ليستمعوا إلىٰ أخبارها ويلقوها إلىٰ الكهان، ولكن من يحاول الآن استراق السمع بعد نزول القران يجد له شهابًا يرصده حتىٰ يُحرقه ويهلكه.

[١٠] ثم قال هؤلاء النفر من الجن: وإنا لا نعلم هل هذه الحراسة المشددة وهذه الشهب التي ترصد من يحاول استراق السمع، هل هو عذاب أراد الله أن ينزله بأهل الأرض، أم أن الله أراد أن يرسل لهم رسولًا يهديهم ويدلهم علىٰ الخير.

[١١] ثم قال هؤلاء النفر من الجن: وإن منا من هو موصوف بالصلاح، ومنا قوم دون ذلك كفار وفساق، ولقد كنا قبل نزول القرآن جماعات متفرقة متعددة، كل فرقة لها طريق خاص في عملها وفي اعتقادها.

[١٢] ثم قال هؤلاء النفر من الجن: ولقد تيقنا بعد أن آمنا أن الله قادر علينا، وأننا في قبضته وسلطانه أينما كنا، ولن نفلت من عقابه هربًا في أي بقعة من بقاع الأرض، أو هربًا إلىٰ السماء إذا أراد بنا سوءًا.

[١٣] ثم قال هؤلاء النفر من الجن: وإنا لما سمعنا القرآن العظيم من النبي ﷺ آمنا به وبمن أنزله، وصدَّقنا أنه من عند الله، ولم نكذب به كما كذب كفار الإنس، واعلموا أيها الناس أن من يصدق بربه وبما أنزله علىٰ رسله فلا يخاف نقصًا ولا طغيانًا ولا أذىٰ يلحقه.

وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥
وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ
فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧ وَأَنَّ
ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ
يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ
بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي
لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا
مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ
مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ
أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ
أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ
يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ
رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨

[١٤-١٥] ثم قالوا: ولقد أصبحنا بعد سماع القرآن فريقين؛ فريق أسلم لله وخضع له بالطاعة، وفريق كفر وجحد دين الله، فمن أسلم وخضع لله بالطاعة فأولئك سلكوا الطريق الموصل إلىٰ السعادة، وقصدوا ما ينجيهم من عذاب الله. وأما الظالمون الجاحدون لدين الله فقد كانوا وقوداً للنار يوقد بهم كما يوقد بكفرة الإنس.

[١٦-١٧] ولو أنكم أيها الكفار استقمتم علىٰ الطريقة التي جاء بها الوحي؛ لفتح عليكم سبحانه أبواب الرزق، ولوسَّع عليكم في الدنيا؛ ليختبركم سبحانه بهذه النعم فينظر من يعترف بالفضل فيشكر الله، ومن تطغيه النعم فيسقط في الاختبار فيهلك، ثم أخبر جل في علاه أن من يُعرض عن القرآن يدخله ربه عذابًا شديدًا. وخص سبحانه الماء بالذكر لأنه لا تقوم الحياة إلا به، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء:٣٠].

[١٨] ثم أخبر جل وعلا أن المساجد المعدة للصلاة بنيت لعبادة الله وتوحيده؛ فلا تعبدوا فيها أحدًا غير الله، ولا تشركوا به فيها شيئًا، لأن الشرك أكبر الكبائر، وهو كفر بالله.

[١٩] ثم بين جل وعلا حال الجن لما قام النبي ﷺ يصلي ويجهر بصوته وهو لا يعلم بوجودهم؛ حيث إنهم تواردوا عليه وكادوا من شدة التزاحم أن يكونوا جماعات متراكمة قد التصق بعضهم ببعض، حرصًا علىٰ سماع القرآن، وليستوعبوا ما يقول.

[٢٠-٢١-٢٢-٢٣] وقل يانبي الله لهؤلاء الكفار: اعلموا أيها الناس أني أعبد الله ربي وحده، ولا أشرك معه في العبادة أحدًا. وذلك أن قريشًا طلبوا منه ﷺ أن يتخلىٰ عن الدعوة إلىٰ الله فأنزل سبحانه هذه الآية. وقل لهم أيضًا: اعلموا أني لا أملك لكم ما يضركم، ولا أملك ما ينفعكم، وإنما الذي يملك ذلك هو الله تعالىٰ وحده. وقل لهم كذلك: اعلموا أني لن ينقذني من عذاب الله أحد من الناس إن عصيته، ولن أجد من دونه ملجأ أو مهربًا من عذاب الله. وإنما الذي أملكه هو تبليغكم رسالات الله، وبعد تبليغكم رسالة الله اعلموا أن من يكفر بالله ورسوله ﷺ ويعرض عن دينه فإن جزاءه نار جهنم لا يخرج منها أبدًا.

وقوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ﴾، المعصية هنا هي الكفر؛ لأن مجرد المعصية مع الإيمان فإنها لا توجب الخلود في النار.

[٢٤] واعلم يانبي الله أن هؤلاء الكفار لا يزالون علىٰ ما هم عليه من الإصرار علىٰ الكفر وعداوة النبي ﷺ والمؤمنين إلىٰ أن يروا الذي يوعدون به من العذاب عيانًا؛ فسيعلمون حينئذ من هم الذين أضعف ناصرًا ومعينًا وأقل جندًا؛ حيث إن الكفار في يوم القيامة سيكونون في غاية الضعف والذلة والهوان.

[٢٥] ثم لما استعجل الكفار النبي ﷺ طلبًا للعذاب: أمره جل وعلا أن يقول لهم: اعلموا أيها الكفار أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا لا ريب في ذلك، ولكن ما أدري هل هذا العذاب الذي وعدتم به سيأتي بعد وقت قريب أم بعد وقت بعيد.

[٢٦-٢٧] واعلموا أيها الناس أن الله عالم بما غاب عن أبصار خلقه، ولا يعلم بغيبه أحد إلا من ارتضاه واختاره سبحانه من رسله؛ فإنه يطلعه سبحانه علىٰ ما شاء منه بحسب ما تقتضيه مصلحة الدعوة وما تقتضيه حكمته؛ ليكون ذلك معجزة لهذا الرسول، ثم يحفظ سبحانه رسوله ﷺ أن يجعل له ملائكة تحيطه من جميع جوانبه يحفظونه من كل سوء.

[٢٨] ثم بين جل وعلا أنه يحفظ رسله بملائكته، ليعلم سبحانه أنهم قد أبلغوا رسالات ربهم، دون زيادة أو نقصان؛ مع العلم أن الله عالم سلفًا بما هم فاعلون؛ لكنه سبحانه لكمال عدله لا يحاسب العباد إلا بعد صدور الفعل من فاعله، كما أنه سبحانه أحاط علمه بما عند الرسل، فلا يخفىٰ عليه شيء من أمورهم، وأحصىٰ جل في علاه كل شيء في هذا الكون إحصاءً تامًّا وعلمًا كاملًا.



سُورَةُ المُزَّمِّلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

سورة المزمل

سورة المزمل مكيّة وآياتها عشرون آية.

[١-٢-٣-٤] جاء في صحيح البخاري[١] أن النبي ﷺ لما جاءه جبريل وهو يتعبد ربه في غار حراء، وأنزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١]؛ رجع إلىٰ زوجه خديجة وهو يرتعد من رهبة الموقف الذي لم يمر بمثله، فقال لها: زملوني زملوني لقد خشيت علىٰ نفسي، ثم أخبرها بالخبر، فكان منها التثبيت والتطمين، ثم غطته بقطيفة، فتزمل بها، أي: التف بها، فناداه سبحانه بهذا النداء الذي فيه تلطف ومؤانسة له، فقال: يا أيها المتغطي بفراشه، دع التغطي والتلفف، وقم بالليل للصلاة إلا وقتًا يسيرًا، ولك أن تقوم نصف الليل، أو انقص من النصف قليلًا حتىٰ تصل إلىٰ الثلث، أو زد علىٰ النصف حتىٰ تصل إلىٰ الثلثين، وأمره أن يقرأ القرآن أثناء قيام الليل قراءة تفكر وتثبت وتؤده وتمهل، ليكون عونًا له علىٰ فهم القرآن وتدبره.

[٥] واعلم يانبي الله أن الله سوف ينزل عليك قرآنًا عظيمًا مشتملًا علىٰ الحلال والحرام والحدود وما يتعلق بالجهاد وأخبار الدنيا والآخرة، وغير ذلك مثل قصص الأنبياء مع أقوامهم.

[٦-٧] ثم اعلم يانبي الله أن الصلاة التي تنشأ في جوف الليل بعد نوم تكون أشد تأثيرًا في القلب، وأقرب إلىٰ تحصيل مقصود القرآن؛ لأن القلب يكون صافيًا من المشاغل الدنيوية. وأما في النهار فإن لك فيه تقلبًا وتصرفًا في أمور حياتك وانشغالًا في طلب الرزق وتبليغ الدعوة فلا تستطيع أن تتفرغ فيه للعبادة.

[٨-٩] واستعن يانبي الله علىٰ دعوتك بذكر الله وتسبيحه ليلًا ونهارًا، وانقطع لعبادة ربك وتبليغ الرسالة انقطاعًا تامًّا، والتمس ما عنده سبحانه، وتوكل عليه؛ لأنه رب المشرق والمغرب ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه لا معبود بحق إلا هو؛ وها أنت قد عرفت ذلك فاعتمد عليه وفوض أمرك إليه.

[١٠] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ بالصبر علىٰ ما يقول هؤلاء الكفار من سبه وسب ما جاء به، وأمره أن يعتزلهم ويبتعد عنهم بعد أن دعاهم فأبوا، وله أن يقاطعهم مقاطعة حسنة جميلة، بأن لا يتعرض لهم ولا ينشغل بهم ولا ينتقم منهم.

[١١-١٢-١٣-١٤] ثم قال جل وعلا علىٰ سبيل التهديد: اترك يانبي الله لي هؤلاء المكذبين بآياتي، الجاحدين لدين الله، أصحاب الأموال والغنىٰ والترف؛ ودعهم في باطلهم وقتًا قليلًا؛ فعقابهم ومحاسبتهم عندي. وليعلم هؤلاء المكذبون بأن لهم عندنا يوم القيامة قيودًا ثقيلة توضع في أرجلهم إذلالًا لهم، وعندنا نارٌ شديدة الاشتعال سوف نلقيهم فيها. وعندنا أيضًا طعامٌ لا يستساغ ولا يُبلع؛ بل ينشب في الحلق لبشاعته وسوئه، كالزقوم والضريع، وأيضًا عندنا عذابٌ أليمٌ موجعٌ. وهذا العذاب يكون يوم القيامة للكافرين المحاربين للدعوة، يوم ترجف الجبال والأرض وتتزلزل وتتحرك وتضطرب، فتصير الجبال الصلبة الجامدة رملًا وهباءً.

[١٥-١٦] واعلموا ياأهل مكة أن الله أرسل إليكم محمدًا ﷺ رسولًا عظيم الشأن رفيع المنزلة؛ وسيشهد عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم رسالة الله أتم تبليغ، كما أرسل موسىٰ عليه السلام رسولًا إلىٰ الطاغية فرعون يدعوه إلىٰ الحق؛ فعصىٰ فرعون موسىٰ فأخذه الله أخذًا شديدًا، وذلك بأن أغرقه الله في الدنيا في البحر، وفي الآخرة هو في أشد العذاب. وفي هاتين الآيتين تحذير وتهديد للمشركين إذا ما استمروا في جحودهم وكفرهم فقد يعاقبهم الله عقابًا شديدًا لا يقل عن عقابه جل في علاه لفرعون وجنوده عندما عصىٰ موسىٰ عليه السلام.

[١٧-١٨] وإذا كان الأمر أيها المشركون كما سمعتم من سوء عاقبة المكذبين والجاحدين؛ فكيف تحصنون أنفسكم من عذاب الله يوم القيامة إن استمررتم علىٰ كفركم وعصيانكم، ذلك اليوم الذي من شدة هوله يشيب فيه شعر الولدان، وتتصدع السماء مع عظمها وصلابتها، وهذا اليوم لا بد من وقوعه، لا شك ولا ريب في ذلك؛ فهو وعد الله الذي لا يخلف الميعاد.

[١٩] واعلموا أيها الناس أن هذه الأخبار والمواعظ التي تقدم ذكرها تذكره وموعظة لأولي الألباب؛ فمن أراد من الغافلين الناسين الاتعاظ والنجاة اتخذ إلىٰ رضا ربه سبيلًا، وذلك بتوحيده وإخلاص العبادة له جل في علاه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).

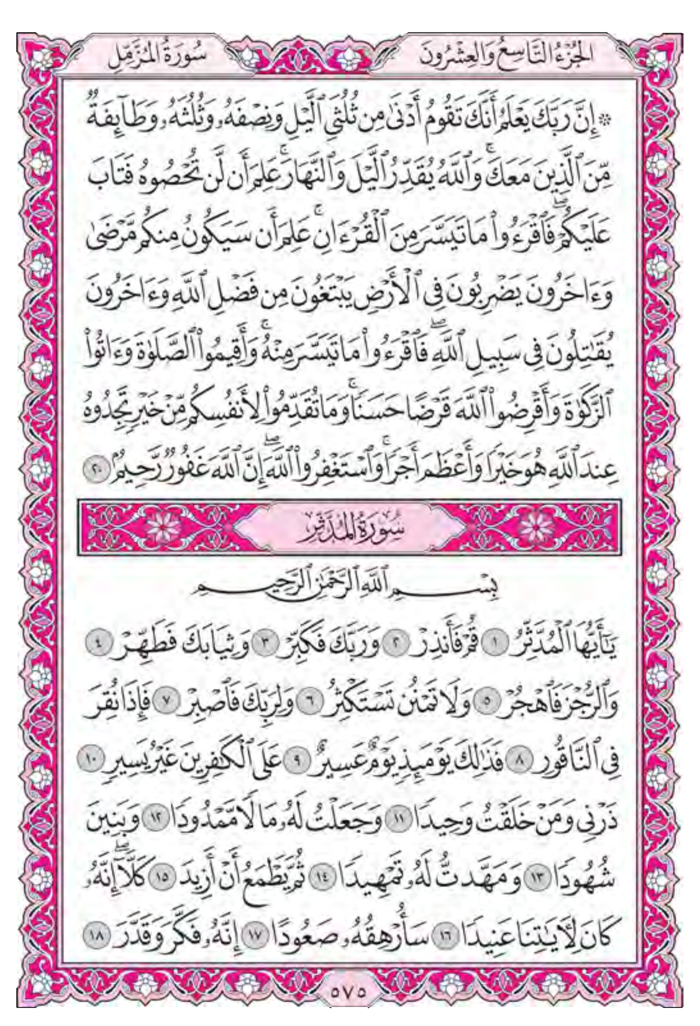
[٢٠] ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أنه يعلم أنه يقوم جزءًا من الليل، أحيانًا يكون أقلّ من ثلثي الليل، وأحيانًا يكون نصف الليل، وأحيانًا يكون ثلث الليل، ويقوم معه طائفة من أصحابه، والله جل وعلا هو العالم بمقادير الليل والنهار، وقد علم سبحانه أنكم لن تطيقوا أيها الناس قيام الليل كله، ولذا تاب عليكم بالتخفيف عنكم، فصلوا ما تيسر لكم في الليل، فقد علم سبحانه أنه سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار لا يستطيعون معها القيام بالليل؛ فهناك من يعجزه المرض عن قيام الليل، وآخرون يتنقلون للتجارة وكسب الرزق، وآخرون يجاهدون الأعداء لإعلاء كلمة الله ونشر دينه، وقَدَّمَ سبحانه السعي في الأرض علىٰ الجهاد في سبيل الله لأن الإنسان يحتاج بل يضطر للنفقة علىٰ نفسه وعلىٰ أسرته، ولأجل ذلك فقد خفف الله عليكم فصلوا في الليل ما تيسر لكم، وأدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها علىٰ الوجه الأكمل، وكذلك أدوا الزكاة الواجبة عليكم إلىٰ مستحقيها، وأنفقوا من أموالكم إنفاقًا حسنًا عن طيب قلب للمجاهدين في سبيل الله وغيرهم، وعبر سبحانه عن الإنفاق بالإقراض لأن المنفق إنما قصد رضا الله والأجر المضاعف فكان شبيها بالإقراض، واعلموا أن ما تقدموا لأنفسكم في الدنيا من صدقة تجدوا ثوابها عند الله يوم القيامة خيرًا مما أبقيتم في الدنيا، ثم أرشد سبحانه إلىٰ الاستغفار لأن الإنسان لا ينجو من السهو والتقصير، واعلموا أن الله ستِّير علىٰ أهل الذنوب والتقصير التي دون الشرك، وأنه ذو رحمة فلا يعاقبهم علىٰ الذنوب بعد توبتهم منها إن أدوا ما عليهم من حقوق للغير.

سورة المدثر

سورة المدثر مكيّة وآياتها ستّ وخمسون آية.

[١-٢-٣-٤-٥-٦-٧] بدأت هذه السورة بتكليف النبي ﷺ بالنهوض بمهمة الدعوة والتبليغ بجد ونشاط، وقد افتتحها جل وعلا بملاطفته ومؤانسته ﷺ كما افتتح سورة المزمل، فقال سبحانه: ياأيها المتغطي أو الملتف بفراشه، قم من مضجعك وحذر الناس من عذاب الله إذا ما استمروا في شركهم، وعظم ربك بالتوحيد والعبادة، وطهر ثيابك من النجاسات والمستقذرات؛ فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن، واستمر في ترك الأصنام والأوثان وأعمال الشرك كلها وتبرأ منها ومن أهلها، ولا تمنن علىٰ الناس بما أسديت إليهم من النصائح والإرشادات، مستكثرًا ذلك عليهم، واجعل عملك خالصًا لوجه الله لا تريد من أحد جزاءً ولا شكورًا، واصبر علىٰ التكاليف والأوامر التي كلفك الله بها؛ فصبر ﷺ حتىٰ فاق كل الصابرين، وكذلك من عمل الصالحات لا يستكثر ففضل الله أكثر.

[٨-٩-١٠] ثم ذكر جل وعلا جانبًا من أهوال يوم القيامة، فقال سبحانه: فإذا نفخ ياnبي الله في القرن نفخة البعث والنشور وهي النفخة الثانية التي يكون بعدها الجزاء والحساب، فاعلم



أن ذلك اليوم سوف يكون يومًا صعبًا علىٰ الكافرين الجاحدين لدين الله، لا يسر فيه ولا فيما بعده. ومن رحمة الله بعباده المؤمنين أن قال: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ففي هذا إيناس وتطمين بأن أهوال يوم القيامة ستتيسر علىٰ المؤمنين.

[١١-١٢-١٣-١٤-١٥-١٦-١٧-١٨] ثم أخبر جل وعلا بقصة ذلك الضال المعاند الوليد بن المغيرة، فقال سبحانه: اترك يانبي الله لي هذا الشقي سأكفيك عقابه، الذي خلقته في بطن أمه وحيدًا فريدًا، وجعلت له مالًا كثيرًا، وكثرتُ أولاده وجعلتهم حضورًا عندَه في مكة لا يفارقونها لكسب العيش، وبسطت له في العيش والجاه، ومكّنتُه من الدنيا وأسبابها، ثم هو مع كلّ ذلك له طمعٌ ورغبةٌ في الزيادة والاستكثار مع بقائه علىٰ الكفر، كلَّا فلن نزيده شيئًا، لأنه كان معاندًا لآياتنا، ومكذّبًا بها - بعد تيقنه بصدقها وصوابها -، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]؛ بل سأمحق هذه النعم من بين يديه ولن يهنأ بها أبدًا، وإنا سنكلفه مشقةً من العذاب ونحمله ما لا يطيق، لأنه فكَّر وتأمَّل في شأن النبي ﷺ، والقرآن الذي جاء به، ثم زور في نفسه كلامًا يريد أن يقوله طعنًا في النبي ﷺ والقرآن الكريم.

فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾

[١٩-٢٠] وبسبب ما قاله هذا المجرم في النبي ﷺ وفي القرآن فقاتله الله ولعنه وأصابه بالهلاك؛ إذ كيف قدَّر هذا الكلام الباطل؟! ثم قاتله الله ولعنه وأصابه بالهلاك مرة ثانيةً؛ إذ كيف يقدر هذا القول الشنيع الباطل؟!

[٢١-٢٢-٢٣] ثم تأمَّلَ فيما سيقول في القرآن، وبماذا سيطعن فيه، ثم قطَّبَ وجهه وكلح وتغير لما ضاقت عليه الحيل ولم يجد ما يطعن به في القرآن. ثم تولَّىٰ وأعرض عن الإيمان والتوحيد واستكبر عن قول الحق، وعن التصديق بالقرآن. وقوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾، هذه أقصر آية في القرآن الكريم.

[٢٤-٢٥] ثم قال هذا المجرم علىٰ سبيل الغرور والجحود: ما هذا القرآن إلا سحرٌ ينقله محمد عن الأولين، وما هو بكلام الله؛ بل هو من كلام المخلوقين تعلمه محمد منهم، ثم ادعىٰ أنه من عند الله.

[٢٦-٢٧-٢٨-٢٩-٣٠] ثم جاء الوعيد الشديد لهذا المجرم المعاند بسبب ما قاله في شأن النبي ﷺ والقرآن؛ فأخبر سبحانه أنه سيدخله نار جهنم يقاسي حرها وعذابها، وما أدراك يامحمد ما نار جهنم؟! اعلم أنها لا تُبقي ولا تترك أحدًا ممن دخلها إلا أحرقته وأنهكته، ثم يعود كما كان ليذوق العذاب مرة أخرىٰ، وهذه النار تسوِّدُ البشرة وتحرقها، وتغير لون الجلد، وعليها من الخزنة تسعة عشر من الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون. وسقر: اسمٌ من أسماء النار.

[٣١] ثم أخبر جل وعلا أنه ما جعل خزنة النار إلا ملائكةً لشدتهم وقوتهم وغلظتهم، وما جعل سبحانه عددهم تسعة عشر إلا اختبارًا ومحنة للكافرين ليتضاعف عذابهم - بتكذيبهم واستهزائهم -، ويكثر غضب الله عليهم إن لم يتوبوا، وليزداد تصديقُ أهلِ الكتاب ويقينهم أن هذا الدين حق حين يجدون ما في القرآن موافقًا لما في التوراة والإنجيل، وليزداد الذين آمنوا إيمانًا مع إيمانهم حين يرون موافقة القرآن للكتب السابقة، ولا يشك أهل الكتاب والمؤمنون في ذلك، وليقول الكافرون الجاحدون ومعهم المنافقون الذين في قلوبهم مرض: ماذا أراد الله بهذا العدد الغريب القليل؟!، وبمثل هذا المثل المضروب يضل الله من يشاء بحكمته وعدله، ويهدي من يشاء برحمته وعدله، وما من أحد يعلم عدد وجنس جنود ربك إلا هو سبحانه، وما هذه النار بخزنتها إلا تذكرة وموعظةً للبشر ليؤمنوا بالله ويوحدوه ويفروا من عذابها.

[٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٦-٣٧] كلا ليس الأمر كما تظنون أيها المشركون، من أنكم قادرون علىٰ أن تغلبوا خزنة جهنم؛ فأقسم بالقمر إذا أضاء نوره الكون، وبالليل إذا ولىٰ وذهب، وبالصبح إذا أشرق؛ إن جهنم لإحدىٰ الرزايا العظيمة والدواهي الكبيرة، التي جعلها الله نذيرًا لمن أراد من العباد أن يتقدم فينجو بتوحيد الله وطاعته وفعل أوامره واجتناب نواهيه، أو يتأخر فيهلك بالشرك والمعاصي. فإن كل ما يحدث يوم القيامة من الأهوال العظيمة يهون عند جهنم في عظم حجمها وشدة حرها، والتي تسعر نيرانها ليلًا ونهارًا، ووقودها الناس والحجارة. وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ﴾ رد علىٰ الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبور ولا مشيئة له.

[٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٢-٤٣-٤٤-٤٥-٤٦-٤٧] ثم أخبر جل وعلا أن كل نفس يوم القيامة مرهونة عند الله بما كسبت؛ سواء كان عملها صالحًا أو غير ذلك، وبما أوجبه الله عليها من التوحيد والعبادة، أما المؤمنون الصادقون الذين فكوا الرهان بأعمالهم الصالحة، فإنهم في بساتين ونعيم مقيم، وهم في الجنات يتساءلون فيما بينهم عن أحوال الكافرين، وذلك قبل أن يروهم، فإذا رأوهم وهم في النار سألوهم علىٰ سبيل التوبيخ والتحقير: ما الذي أدخلكم جهنم؟ فأجابوا بحسرة وندامة: إن الذي أدىٰ بنا إلىٰ هذا المصير السيِّئ أننا لم نكن نؤدي الصلاة في الدنيا ولم نعتقد بفرضيتها، ولم نكن نتصدق فنحسن إلىٰ الفقراء والمساكين، وكنا نتحدث مع أهل الباطل في باطلهم، وكنا نكذب بيوم الحساب والجزاء؛ حتىٰ جاءنا الموت، فمتنا علىٰ هذه الضلالات والمنكرات، ورأينا بأم أعيننا صدق ما كنا نكذب به وننكره؛ فهل لنا من عودة إلىٰ الدنيا فنكون من المحسنين.

[٤٨] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الكفار ليس لهم يوم القيامة من يشفع لهم لينجيهم من عذاب الله، ومعلوم أنه لا يؤذن لأحد أن يشفع لأصحاب الشرك والكفر، وإنما تنفع الشفاعة عصاة المؤمنين.

[٤٩-٥٠-٥١] ثم قال جل وعلا متعجبًا من إصرارهم علىٰ الكفر: فما لكم أيها المشركون عن القرآن وما فيه من المواعظ والتذكير معرضين. ثم وصف سبحانه غرورهم وكرههم للحق وفرارهم من محمد ﷺ ودينه كأنهم الحمر الوحشية التي إذا رأت الأسد هربت منه خوفًا وفزعًا. وقسورة: اسم من أسماء الأسد.

[٥٢-٥٣] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المكذبين يريدون –حسدًا وعنادًا– أن ينزِّل الله علىٰ كل واحد منهم كتابًا خاصًّا من السماء منشورًا فيه أن محمدًا رسول من عند الله، كما أنزل سبحانه القرآن علىٰ نبيه ﷺ، ولكن هيهات أن ينال هؤلاء المجرمون درجة الأنبياء. ثم اعلموا أيها المكذبون أن الأمر ليس كما زعمتم؛ بل الحق أنكم قوم لا تعترفون بالآخرة ولا تصدقون بالبعث والجزاء والحساب، وطلبهم هذا تحَدٍّ لصاحب الرسالة.

[٥٤-٥٥-٥٦] واعلموا أيها الناس حقًّا إن هذا القرآن تذكرة وموعظة كافية لاتعاظكم. فمن شاء النجاة فليتعظ بآياته، وينتفع بهداياته وإرشاداته. ولكن هذا التذكر والاتعاظ لا يتم إلا بمشيئة الله وإرادته، وقد شاء فجعلهم مختارين فاختاروا الضلال علىٰ الهدىٰ، ثم بين سبحانه أنه هو الذي يستحق أن يُتقىٰ وأن تطلب منه المغفرة، فقد فتح بابه للتائبين الذين يسألونه المغفرة والرحمة؛ ويرحب بالمتقين المؤمنين، أما الذين يعرضون ويحاربون الرسل فهم الذين قد طبع الله علىٰ قلوبهم.

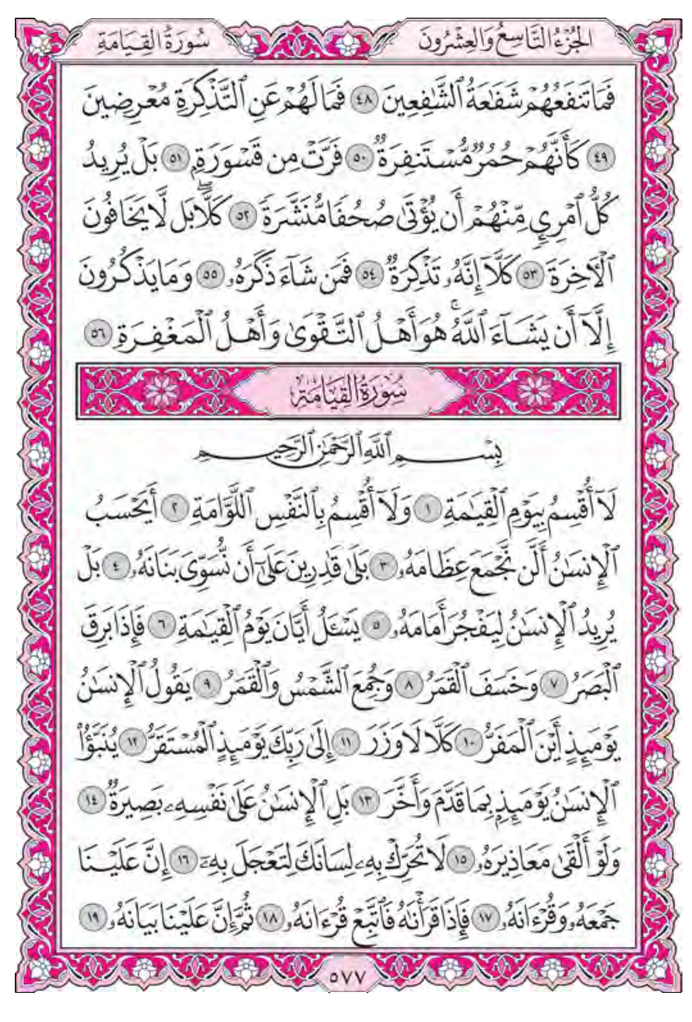
سورة القيامة

سورة القيامة مكيّة وآياتها أربعون آية.

[١-٢-٣-٤] افتتح جل وعلا السورة بالقسم، فقال سبحانه: أقسم بيوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، الذي لا شك في وقوعه. وأقسم بالنفس الطاهرة المؤمنة التواقة للمعالي التي تلوم نفسها علىٰ أخطائها وتقصيرها في حق الله، أنكم أيها الثقلان سوف تبعثون وتحاسبون علىٰ جميع أعمالكم. واعلموا أن هذا الكافر الذي يظن أن الله لا يقدر علىٰ جمع عظامه بعد تفرقها ثم إحيائه مرة أخرىٰ؛ فليعلم أن الله قادر علىٰ جمعها وإعادة تركيبها كما كانت. بل إن الله سبحانه قادر علىٰ ما هو أعجب من ذلك؛ إنه قادر علىٰ إعادة البنان بمفاصلها المتناسقة وبصماتها التي لا يشبه بعضها بعضًا.

[٥] ثم أخبر جل وعلا أن الكافر المنكر للبعث والحساب لا يريد أن يكف عن هذا الإنكار لكي يستمر علىٰ فجورة وشهواته وارتكاب المعاصي كيف يشاء، ولذلك تجده يسأل سؤال سخرية واستهزاء واستبعاد: متىٰ يوم القيامة؟

[٧-٨-٩-١٠] فرد جل وعلا علىٰ هذا الكافر واصفًا له يوم القيامة فقال سبحانه: اعلم أيها المنكر للبعث أنه إذا زاغ البصر وتحير فَزَعًا مما يرىٰ، وانطمس نور القمر، وجمع بين الشمس



فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ القِيَامَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

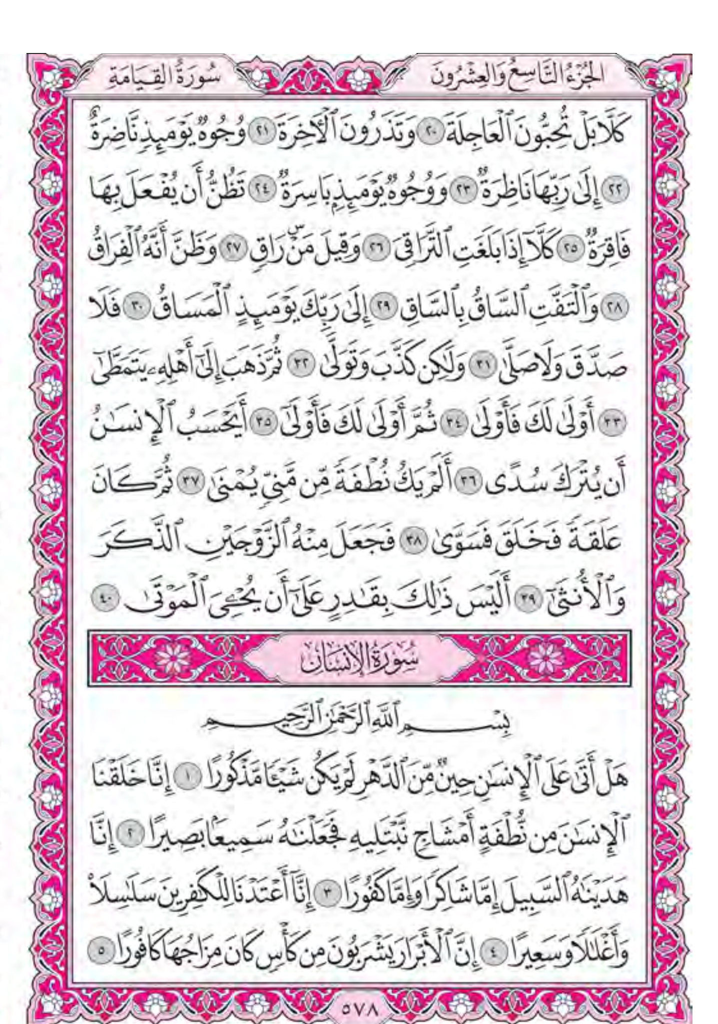
لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

والقمر في انطماس نورهما، حينئذ تقول أيها المنكر للبعث: أين المهرب والنجاة من قضاء الله وقدره وحسابه وعذابه.

[١١-١٢-١٣] فيقال لهذا الكافر: كلا؛ فليس الأمر كما تتمنىٰ، فإنه لا ملجأ لك ولا منجىٰ من الوقوف أمام رب العالمين للحساب والجزاء. ثم إلىٰ الله وحده مصير الخلائق ومستقرهم يوم القيامة الذي لا مهرب منه، ثم يجازىٰ كلٌّ بما يستحق. وفي هذا اليوم العظيم سوف يُخْبَرُ الإنسان بكل ما قدم من أعمال – حسنِها وسيئها –، قديمها وحديثها؛ من أولها إلىٰ آخرها.

[١٤-١٥] ثم أخبر جل وعلا أن الإنسان سوف يرىٰ كل ما عمل في الدنيا بنفسه مُسْتَنْسَخًا أمامه، وحينئذٍ يكون هو الذي يحكم علىٰ نفسه؛ لأنه أعرف بأعماله الحسنة والسيئة، وحينها لا تنفعه معاذيره إذا حاول أن يأتي بالمعاذير، أو حاول أن يجادل أو يخفي أو يبرر.

[١٦-١٧-١٨-١٩] ثم أرشد جل وعلا نبيه ﷺ إلىٰ كيفية متابعة الوحي في قراءة القرآن، فأمره أن لا يحرك لسانه بالقرآن عندما يقرأ جبريل عليه القرءان؛ حيث كان ﷺ يردد القراءة مع جبريل من أجل أن يتعجل بحفظه خشية أن يتفلت عليه، فنهاه سبحانه عن ذلك. ثم أخبر جل شأنه نبيه ﷺ أنه تكفل بجمع القرآن في صدره ﷺ وبقراءته عليه عن طريق الوحي. ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ إذا نزل عليه جبريل أن يستمع لقراءته لكي ينحو نحوه حتىٰ يتقنه. ثم أخبر سبحانه نبيه ﷺ أنه تكفل ببيان ما أشكل عليه فهمه من معاني القرءان وأحكامه.



[٢٠-٢١] كلا أيها المشركون فليس الأمر كما تقولون: من أنكم لن تبعثوا بعد مماتكم، ولكن الذي دعاكم لذلك هو محبتكم للحياة الدنيا وزينتها، وترك العمل للآخرة ونعيمها.

[٢٢-٢٣] ثم أخبر جل وعلا أن وجوه أهل السعادة يوم القيامة حسنة مشرقة، تنظر إلىٰ ربها عيانًا بلا حجاب نظرة سرور وحبور، وهذا أفضل نعيم يتنعم به أهل الجنة يوم القيامة، نسأل الله الكريم من فضله.

[٢٤-٢٥] أما وجوه الفجار فتكون يوم القيامة شديدة العبوس مظلمة، مستيقنة أنها بكربة، وأنها ستصاب بداهية ومصيبة عظيمة تهلكها وتقصم ظهرها من شدتها وقسوتها.

[٢٦-٢٧-٢٨] ثم أخبر جل وعلا عن حالة الإنسان عند الاحتضار، فقال سبحانه: حقًّا أيها المشركون إذا وصلت الروح إلىٰ أعالي الصدر تهيئة لفراق البدن، وقال بعض من حضر احتضاره: هل من معالج يعالجه؟، وتأكد المحتضر وحاضروه أن الذي هو فيه سكرات الموت، وأنه سيفارق الدنيا، لأنه يرىٰ أمامه ملائكة الموت.

[٢٩-٣٠] ثم بين سبحانه أن من علامات خروج روحه ونهاية حياته أن إحدىٰ ساقيه تلتصق بالأخرىٰ فلا يستطيع تحريكهما، وحينئذٍ اعلم أيها الإنسان أن المرجع والمصير يوم القيامة إلىٰ الله وحده، ثم يحاسب الجميع علىٰ أعمالهم، ثم ينتهي بهم الأمر إما إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار.

[٣١-٣٢-٣٣] ثم بين جل وعلا بعض الأسباب التي أدت إلىٰ سوء عاقبة هذا الكافر المعاند المنكر للبعث: فأخبر سبحانه أنه لم يصدق بالقرآن، ولم يصلِّ لله؛ بل إنه كذب بالقرآن، وأعرض عن الإيمان، ثم ذهب إلىٰ أهله فرحًا يمشي بخيلاء افتخارًا أنه لم يتأثر بالدعوة، وأنه ما زال مصرًّا علىٰ كفره وجحوده.

[٣٤-٣٥] ثم هدد سبحانه هذا الكافر المتكبر المتبختر بالهلاك؛ فقال له: هلاكًا لك بعد هلاك، ثم هلاكًا لك بعد هلاك؛ فقد كان الأولىٰ بك الامتثال لأمر الله لتُنجي نفسك من النار وتفوز برضىٰ الله.

[٣٦-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠] ثم ختم جل وعلا السورة ببيان الحكمة من الجزاء والحساب وبيان جانب من جوانب قدرته، فقال سبحانه: هل يظن ذلك الإنسان المنكر للبعث بأن الله خلقه ثم يتركه هملًا لا يؤمر ولا ينهىٰ، ولا يحاسب علىٰ تصرفاته؟ ألم يك هذا الإنسان في أصل خلقته عبارة عن نطفه في صلب أبيه، تُصب في الأرحام، ثم تصير قطعة من دم جامد، ثم يصير بشرًا ناطقًا سميعًا بصيرًا بإذن الله، ثم جعل منه أولادًا ذكورًا وإناثًا، فهل الذي أنشأ هذا الخلق السوي من العدم ومن هذه النطفة والعلقة عاجز أن يعيده كما بدأه؟ أليست الإعادة أيسر من الإنشاء؟ عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ منكم: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فانتهىٰ إلىٰ قوله: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ فليقل: بلىٰ»[1].

سورة الإنسان

سورة الإنسان مكيّة وآياتها إحدىٰ وثلاثون آية. وقد ذكر جل وعلا في هذه السورة مبدأ الإنسان وحياته ونهايته.

[١-٢] يخبر جل وعلا أنه قد مضىٰ علىٰ الإنسان وهو آدم عليه السلام وقتٌ من الزمان وهو جثة جماد لا روح فيه، قيل: إن هذه المدة هي أربعون سنة، ثم نفخت فيه الروح. ثم بين سبحانه بأنه خلق الإنسان من نطفة مختلطة من ماء الرجل وماء المرأة، وهذه الأخلاط هي التي تحمل الصفات الوراثية للجنين، ثم اختبره سبحانه بالتكاليف الشرعية بعد أن أكمل مراحل نموه؛ حيث جعله عاقلًا مميزًا ذا سمع وبصر؛ ليسمع الحجج والبراهين التي تدل علىٰ الخالق جل في علاه. فتبين من هاتين الآيتين معرفة مراحل خلق الإنسان الأولىٰ؛ حيث خلق الله آدم أولًا، ثم خلق النطفة التي خُلِقَ منها سائر البشر.

[٣] ثم بين جل وعلا لهذا المكلف طريق الهدىٰ وطريق الضلال، ثم خيره بعد ذلك، فإما أن يكون شاكرًا لنعم الله معترفًا بفضله عاملًا بما جاءت به رسل الله؛ فيكون قد اختار طريق الهدىٰ، وإما أن يكون جاحدًا وكافرًا لنعم الله؛ فيكون قد اختار طريق الضلال.

[٤] ثم أخبر جل وعلا أنه هيأ ورصد للكافرين الجاحدين سلاسل في نار جهنم يُسلَكون فيها، وأغلالًا تغل بها أيديهم إلىٰ أعناقهم ويوثقون بها، ونارًا مسعَّرةً تحرق أجسامهم.

[٥] ثم أخبر جل وعلا أن الأبرار المخلصين في طاعتهم لله ورسوله ﷺ، المحبين لله ورسوله ﷺ، يشربون يوم القيامة خمرًا لذيذًا ممزوجًا بكافور، فيشربون شرابًا حلو المذاق، طيب الرائحة، لا يحدث غولًا ولا هذيانًا.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٧٣٩١)، و أبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣٣٤٧)، وضعفه الترمذي.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

[٦] ثم بين جل وعلا أن هذا الشراب الممزوج بالكافور هو من عين جارية من عيون الجنة، يشرب منها عباد الله الأبرار ويتصرفون فيها كيفما شاءوا؛ فيجرونها إلىٰ حيث يريدون وينتفعون بها كما يشاؤون. وقوله: ﴿يَشْرَبُ﴾، أي: يروىٰ، وعدَّىٰ فعل يشرب بالباء في قوله: ﴿بِهَا﴾، وتسمىٰ باء الإلصاق؛ ليضمنها معنىٰ الري.

[٧-٨-٩-١٠] ثم بين جل وعلا الأسباب التي أوصلتهم لهذا النعيم، فمن هذه الأسباب: أنهم كانوا في الدنيا يوفون بالنذور التي أوجبوها علىٰ أنفسهم، وأنهم كانوا يخافون أهوال يوم القيامة التي بلغت أقصىٰ درجات الشدة والفزع. وأنهم كانوا يُطعمون الطعام – مع حاجتهم إليه وحبهم له – ويُؤْثرون به علىٰ أنفسهم من يحتاجه من المساكين أو الأيتام أو الأسرىٰ، لا طلبًا للسمعة والشهرة. ثم يقولون في أنفسهم: إنما نكرمكم ونحسن إليكم طلبًا لثواب الله والدار الآخرة، ولا ننتظر من أحد من الناس مكافأةً أو ثناءً علىٰ هذا الكرم والإحسان. ويقولون أيضًا: إنما نقدم لكم هذا الطعام مع حاجتنا إليه؛ لأننا نخاف من ربنا يومًا تعبس فيه الوجوه من شدة هوله، وعظم أمره، وطول بلائه.

[١١-١٢] ثم أخبر جل وعلا أنه نجَّىٰ هؤلاء الذين كانوا يطعمون المساكين والأيتام والأسرىٰ من شر ذلك اليوم، وسلمهم من أهواله، وكافأهم بما ذكر من أنواع النعيم الذي حظوا به عند ربهم، ومن ذلك أن الله أعطاهم نضرةً في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم. وأدخلهم بسبب صبرهم وإخلاصهم جنَّةً جامعةً لكل نعيم، وألبسهم فيها الحرير.

[١٣-١٤] ثم ذكر جل وعلا بعض نعيم أهل الجنة؛ فأخبر أنهم جالسون في الجنة جلسة المرتاح، متكؤون في جلوسهم علىٰ السرر التي عليها اللباس المزيَّن، لا يرون في الجنة حرَّ الشمس الشديد، ولا يعانون من برد الشتاء المؤذي. وأن ظلال أشجار الجنة قريبة منهم، وأن ثمارها اليانعة قُربت لمتناوليها وسُهِّلت لهم تسهيلًا.

[١٥-١٦] ثم بين سبحانه أن الخدم والولدان يدورون علىٰ أهل الجنة بآنية الطعام المصنوعة من الفضة، وأكوابٍ للشراب أيضًا من فضة، لكنها رقيقة شفافة كالزجاج يرىٰ ما بداخلها. وفي هذه القوارير ما يشربونه علىٰ قدر ما تحصل لهم به اللذة بلا زيادة ولا نقص.

[١٧-١٨] ثم بين سبحانه أن أهل الجنة يُسقوْن في الجنة كأسًا من خمرٍ ممزوجةٍ بالزنجبيل. ويسقون أيضًا من عينٍ في الجنة يقال لها: السلسبيل.

[١٩-٢٠] ثم بين سبحانه أيضًا أن من نعيم أهل الجنة أنه يطوف عليهم لخدمتهم ولدانٌ مخلدون وهم غايةٌ في الحسن والنضارة، إذا رأيتهم حسبتهم من حسنهم لؤلؤًا منثورًا. وإذا قلبت بصرك هناك في الجنة؛ رأيت نعيمًا مقيمًا، وملكًا كبيرًا مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

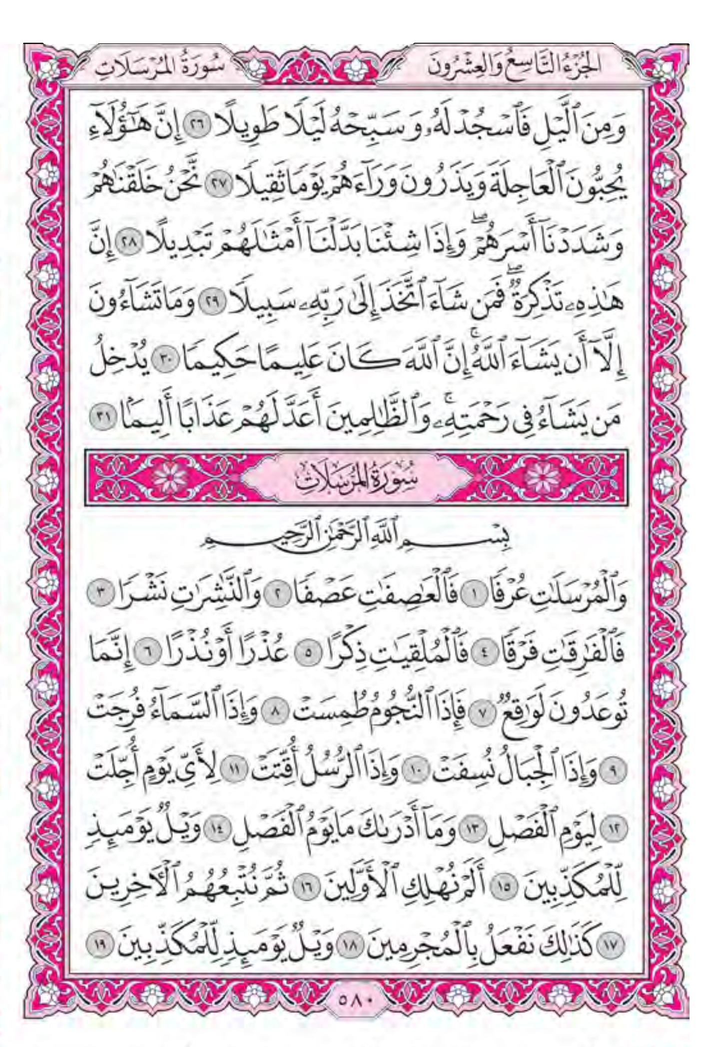
[٢١] ثم بين سبحانه أيضًا أن من نعيم أهل الجنة أن فوق أجسامهم ثيابًا من حرير رقيق، وديباجًا غليظًا أخضر اللون، من أجمل وأرق ما يكون مما يلبَس من الحرير، وتحلِّيهم الملائكة بأساور من فضة – ذكورًا وإناثًا –، ويسقيهم الله شرابًا طهورًا، وهذا الشراب يفوق النوعين السابقين، وهو تكريمٌ خاصٌّ لهم لأجل أنه أُسنِد سقيه إلىٰ الله جل في علاه.

[٢٢] ثم يقال لأهل الجنة علىٰ وجه التكريم: إن هذا النعيم المقيم أُعِدَّ لكم، وهُيِّئَ لأجلكم، وهو جزاءٌ ومكافأةٌ لكم علىٰ ما أسلفتموه من الأعمال الصالحة، إذ كان عملكم مرضيًّا مقبولًا.

[٢٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل علىٰ نبيه ﷺ هذا القرآن، وأنه أنزله مفرقًا بحسب ما تقتضيه كل حالة، ليذكر الناس بما فيه من الوعد والوعيد، وليكون أسهل لحفظه وتفهّمه ودراسته، وليثبت به فؤاد نبيه ﷺ.

[٢٤] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يصبر علىٰ ما يناله من صعوبات وأذىً تقتضي الصبر، وأن ينتظر حكم الله وقضاءَه فيهم، كما أمره أن لا يطيع من هؤلاء المشركين من كان منغمسًا في الآثام والشهوات، ومن كان مبالغًا في الكفر والجحود، قال المفسرون: الآثم والكفور هما عتبه بن ربيعة والوليد بن المغيرة؛ حيث عرضا علىٰ الرسول ﷺ عروضًا كثيرة لكي يتخلىٰ عن دعوته لعبادة الله.

[٢٥] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يداوم علىٰ ذكر اسم الله ودعائه في أول النهار وآخره.



وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴿١﴾ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

[٢٦] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يصلي بالليل، وأن ينزهه سبحانه ويتهجد له زمنًا طويلًا.

[٢٧] ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ أن هؤلاء المشركين يحبون الدنيا ويؤثرونها علىٰ الآخرة، ويتركون خلف ظهورهم العمل ليوم القيامة، ولما فيه نجاتهم في يوم عظيم الأهوال والشدائد.

[٢٨] يخبر جل وعلا أنه خلق هؤلاء المشركين من العدم، وأنه أحكم خلقهم وجعل أعضاءهم طيعة حسب إرادتهم، وجعلهم أقوياء أشداء، ومع ذلك إذا شاء سبحانه أهلكهم وأتىٰ بأشباههم في القوة، ولكنهم مطيعون لله ممتثلون لأوامره، ومع ذلك فأمرهم بيده.

[٢٩] واعلموا أيها الناس أن هذه السورة وما فيها من الآيات موعظة لكم، فمن أراد الانتفاع والاعتبار والنجاة فعليه بالتوحيد والعمل الصالح الذي يوصله إلىٰ مغفرة الله ورضوانه. واعلموا أيضًا أنكم ما تريدون أمرًا من الأمور إلا بتقدير الله ومشيئته؛ ثم أخبر سبحانه أنه عليم بأحوال عباده، حكيم في تدبيره وصنعه. وأخبر أنه يدخل من يشاء من عباده الصالحين الممتثلين لما جاءت به الرسل في جنته، وأما الظالمون المتجاوزون لحدود الله الذين اختاروا طريق الغواية والضلال؛ فقد أعد الله لهم عذابًا شديدًا موجعًا. وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾، أي: إن مشيئتكم هي منحة من الله؛ فهو الذي وهبكم الاختيار ووعدكم بالثواب إن اخترتم هدىٰ الله.

سورة المرسلات

سورة المرسلات مكيّة وآياتها خمسون آية.

[١] افتتحت السورة بهذه الأقسام التي أقسم بها جل وعلا، وله أن يقسم سبحانه بما يشاء من خلقه أو نفسه أو صفة من صفاته، فبدأ سبحانه فأقسم بالرياح التي تهب متتابعة لعذاب الكافرين.

[٢] وأقسم سبحانه بالرياح الشديدة العصف التي تقلع الأشجار وتدمر الديار.

[٣] وأقسم سبحانه بالرياح التي تسوق السحب المحملة بالمطر فتنشر رحمة الله حيث تؤمر.

[٤] وأقسم سبحانه بالملائكة التي تأتي بالوحي الذي يفرق بين الحق والباطل.

[٥] وأقسم سبحانه بالملائكة التي تنزل بالوحي.

[٦] ثم بين سبحانه أن هذه الملائكة تنزل إعذارًا إلىٰ الخلق لئلا يكون للناس حجة علىٰ الله، وإنذارًا لهم بعقاب الله إن هم خالفوا أمره.

[٧] ثم بين جل في علاه أنه أقسم هذه الأقسام ليؤكد أن البعث حق، وأنه نازل بكم لا محالة، وحينئذ تتم المحاسبة، ويأخذ كل واحد منزله حسب عمله.

[٨] ثم بين جل وعلا وقت يوم القيامة، فقال سبحانه: فإذا النجوم طُمستْ وذهب ضياؤها، وانمحىٰ نورُها.

[٨-٩] وكذلك إذا السماء تشققت وتنزلت منها الملائكة.

[١٠] وكذلك إذا الجبال تطايرت وتناثرت وصارت هباء منثورًا.

[١١] وكذلك إذا جاء الوقت المحدد للرسل وأتباعهم وهو يوم القيامة للفصل والقضاء بينهم وبين أقوامهم.

[١٢] ثم قال سبحانه علىٰ سبيل الاستفهام للتهويل: وهذه الأمور التي كانت متعلقة بالرسل من تعذيب الكافرين وإثابة المتقين، لأي يوم أُخِّرت؟

[١٣-١٤] فأجاب سبحانه وتعالىٰ فقال: إنها أُخِّرت لهذا اليوم العظيم، وهو يوم القيامة الذي يفصل فيه جل شأنه بين الخلائق. ثم قال سبحانه: وما أعلمك - أيها الإنسان - بيوم الفصل وشدته وعظيم هوله؟

[١٥] ثم أخبر جل في علاه أن الهلاك والخسار والشقاء في ذلك اليوم العظيم علىٰ الكافرين المكذبين بالله ورسله وكتبه.

[١٦-١٧] ثم وجه جل وعلا الخطاب للمشركين المكذبين بالبعث فقال سبحانه: ألم نهلك أيها الكفار الأقوام السابقين الذين كذبوا برسلهم، كقوم نوح وعاد وثمود. وكذلك ألحقنا بهم في العقاب المتأخرين الذين ساروا علىٰ نهج من قبلهم في التكذيب والعصيان.

[١٨] ثم ذكر سبحانه أنه بمثل هذا العقاب الفظيع يفعل جل في علاه بهؤلاء المجرمين من كفار مكة؛ بسبب تكذيبهم للنبي ﷺ.

[١٩] ثم هدد سبحانه المكذبين بالبعث فقال: إن الهلاك والخسار في ذلك اليوم علىٰ المكذبين بالله ورسله وكتبه.

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

[٢٠-٢١-٢٢-٢٣] ثم امتن جل وعلا علىٰ خلقه بإيجادهم في هذه الحياة الدنيا، فقال: ألم نخلقكم أيها الإنس والجن من ماء ضعيف حقير وهو مني الذكر؟ وبقدرتنا جعلنا هذا الماء في مكان حصين، وهو الرحم الموجود في حوض المرأة المحصن من جهاته الأربع. ثم يبقىٰ هذا الماء في رحم المرأة إلىٰ وقت محدد في علم الله. ثم أثنىٰ سبحانه علىٰ ذاته بما هو أهله، قائلًا: إننا سوينا هذا المخلوق الذي في رحم المرأة في أحسن الصور والهيئات، فنعم المقدر المبدع.

[٢٤] ثم هدد سبحانه المكذبين بالبعث فقال: إن الهلاك والخسار في ذلك اليوم علىٰ المكذبين بالله ورسله وكتبه.

[٢٥-٢٦-٢٧] ثم استدل جل وعلا علىٰ إمكانية البعث بدلائل أخرىٰ، فقال: ألم نجعل أيها الناس هذه الأرض التي تعيشون عليها كالأم التي تحمل البشر في بطنها، فتضمكم أحياءً في الدور، وأمواتًا في القبور، وبعض المعاصرين يقول: المقصود بهذه الآية هو الجاذبية الأرضية، فيكون المعنىٰ: ألم نجعل الأرض جاذبة لكم لتبقوا عليها أحياءً، ثم توضعون في القبور أمواتًا. ثم قال سبحانه: وجعلنا في الأرض جبالًا ثابتة في أعماق الأرض وعالية شاهقة لتكون أوتادًا للأرض، لكي لا تميد بكم، وأسقيناكم ماء عذبًا حلوًا سائغًا للشاربين.

[٢٨] ثم هدد سبحانه المكذبين بالبعث فقال: إن الهلاك والخسار في ذلك اليوم علىٰ المكذبين بالله ورسله وكتبه.

[٢٩-٣٠-٣١-٣٢-٣٣] ثم أخبر جل وعلا عن مصير هؤلاء المكذبين، فقال: اذهبوا أيها الكفار إلىٰ عذاب جهنم الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، ثم اذهبوا فاستظلوا بذلك الظل المتكون من دخان نار جهنم والذي افترق ثلاث فرق. وهذا الظل لا يظل من يكون تحته من شدة الحر، ولا يدفع عنهم ألسنة النار الملتهبة. وإن جهنم ترمي بشرر، كل شررة بحجم القصر الشامخ، وتشبه في لونها وسرعة حركتها الإبل الصُّفر.

[٣٤] ثم هدد سبحانه المكذبين بالبعث فقال: إن الهلاك والخسار في ذلك اليوم علىٰ المكذبين بالله ورسله وكتبه.

[٣٥-٣٦] وفي هذا اليوم – يوم القيامة – لا ينطق المكذبون بالبعث والنشور؛ لما هم فيه من الشدائد والأهوال. بل لا يُسمح لهم في الاعتذار فيعتذرون.

[٣٧] ثم هدد سبحانه المكذبين بالبعث فقال: إن الهلاك والخسار في ذلك اليوم علىٰ المكذبين بالله ورسله وكتبه.

[٣٨-٣٩] ثم يقال للكفار: هذا هو اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، ويحكم فيه جل في علاه بحكمه العادل بين السعداء والأشقياء، ولذلك جمعكم سبحانه أيها الكافرون في هذا اليوم مع أمثالكم من كفار الأمم السابقة ليحكم بينكم جميعًا، ثم يقال لهم: فإن كان لكم مخرج أو حيلة في التخلص من عذاب جهنم فاحتالوا، وهذا يقال لهم علىٰ سبيل التهكم، وإلا فمن أين للمصفدين في نار جهنم اتخاذ الحيل والمخارج.

[٤٠] ثم هدد سبحانه المكذبين بالبعث فقال: إن الهلاك والخسار في ذلك اليوم علىٰ المكذبين بالله ورسله وكتبه.

[٤١-٤٢-٤٣-٤٤] ثم وصف جل وعلا الجنة وأهلها، فقال: إن الذين خافوا ربهم وعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه، سوف يكونون يوم القيامة في ظلال الأشجار يشاهدون عيون الأنهار. ويتنعمون بأنواع كثيرة من الفواكه التي تشتهيها أنفسهم. ثم يقال لهم: كلوا من كل ما لذ وطاب، واشربوا هنيئًا مريئًا؛ جزاءً بما عملتم في الدنيا من الصالحات والطاعات واعلموا أن بمثل هذا الجزاء العظيم نجزي المحسنين ونكرمهم بسبب أعمالهم الصالحة وطاعتهم لربهم.

[٤٥] ثم هدد سبحانه المكذبين بالبعث فقال: إن الهلاك والخسار في ذلك اليوم علىٰ المكذبين بالله ورسله وكتبه.

[٤٦] ثم يقال للكفار علىٰ سبيل التهديد والوعيد في الدنيا: كلوا من لذائذ الدنيا كما تأكل الأنعام، واستمتعوا بشهواتها الفانية؛ فإنكم مجرمون لا تستحقون الإنعام والتكريم في الآخرة.

[٤٧] ثم هدد سبحانه المكذبين بالبعث فقال: إن الهلاك والخسار في ذلك اليوم علىٰ المكذبين بالله ورسله وكتبه.

[٤٨] ثم بين جل وعلا أن من أحد أسباب دخول الكفار جهنم وتعذيبهم فيها: أنهم إذا قيل لهم علىٰ سبيل النصح والإرشاد: أطيعوا الله وصلوا له، فإنهم يرفضون استكبارًا وعنادًا.

[٤٩] ثم هدد سبحانه المكذبين بالبعث فقال: إن الهلاك والخسار في ذلك اليوم علىٰ المكذبين بالله ورسله وكتبه.

[٥٠] ثم ختم جل وعلا السورة متعجبًا من عدم إيمانهم، فقال: فإذا لم يؤمن هؤلاء الكفار بهذا القرآن الواضح البين فإنهم لن يؤمنوا ولن يصدقوا بعده بشيء أبدًا.

سُورَةُ النَّبَإِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

سورة النَّبأ

سورة النبإ مكيّة وآياتها أربعون آية.

[١-٢-٣] بدأ جل وعلا السورة بالإنكار علىٰ المشركين الذين أنكروا البعث؛ حيث إن الكفار لما جاءهم رسول الله ﷺ بالقرآن، وذكر لهم البعث حيرهم وأدهشهم؛ فأصبحوا يسأل بعضهم بعضًا عن هذا الأمر العظيم وهذا الخبر الهام الذي سمعوا عنه، والذي اختلفوا فيه اختلافًا كثيرًا؛ فمنهم: من كذب بالرسول ﷺ وبالبعث وهم الذين يقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩]، ومنهم الشاك الذي يقول: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢]، ومنهم المقر الذي يزعم أن آلهته تشفع له؛ حيث قالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

[٤-٥] ثم توعد جل وعلا المشركين فقال سبحانه: ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذين ينكرون البعث بعد الموت؛ بل الحق أن الرسول ﷺ صادق فيما يبلغه عن ربه، وأن القرآن حق، وسوف يعلم هؤلاء المكذبون سوء عاقبة كذبهم وسيتأكد لهم ذلك عندما يرون النار أمامهم عيانًا بيانًا، ويحل بهم العذاب والنكال.

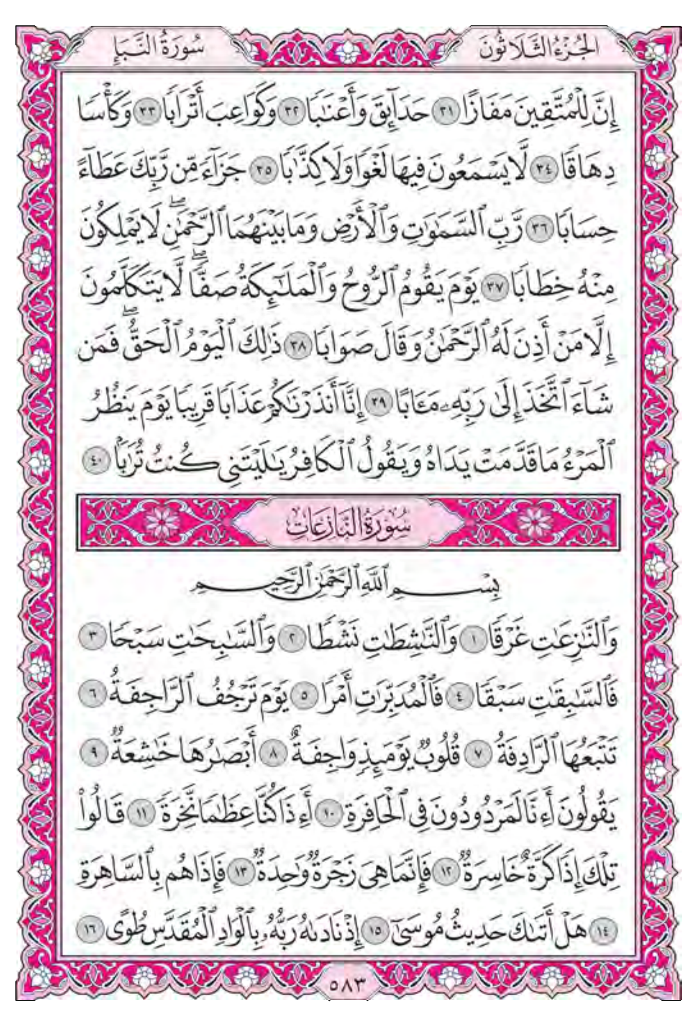
[٦-٧-٨-٩-١٠-١١-١٢-١٣-١٤-١٥-١٦] ثم أورد جل وعلا تسعة أدلة تدل علىٰ قدرته علىٰ البعث والإحياء، فقال سبحانه: ألم نخلق الأرض وجعلناها مهيأة لكم تتقلبون فيها كيف شئتم؟. وخلقنا فيها الجبال وجعلناها مثبتات للأرض حتىٰ لا تميد ولا تضطرب بكم؟. وخلقناكم أصنافًا ذكورًا وإناثًا لتتناسلوا وتتكاثروا؟. وخلقنا لكم النوم ليكون قطعًا لحركتكم وراحة لأبدانكم، وخلقنا الليل بظلامه ليكون سكونًا وراحة للكائنات لتستعيد نشاطها في النهار، فهو يستر الأجسام بظلامه كاللباس الذي يستر به الإنسان جسمه؟. وخلقنا النهار بضوئه لكي تتحركون فيه لتحصيل المعاش؟. وخلقنا فوقكم سبع سماوات محكمة البناء وفي غاية القوة والصلابة والشدة، ليس فيها شقوق ولا صدوع؟. وخلقنا الشمس وجعلنا ضياءَها يجمع بين النور والحرارة؟، فالنور: ليرىٰ المخلوقون بعضَهم وطرقَ كسبهم، والحرارة: لكي تطبخ الثمار لكي يستفاد منها. وأنزلنا من السماء ماءً كثيرًا جدًّا منصبًّا بكثرة؟؛ لنخرج به أنواعًا من الحبوب والنباتات، والحدائق والبساتين الملتفةِ أشجارها علىٰ بعض لتشعب أغصانها. والشاهد من هذه الأدلة أن من قدر علىٰ خلق هذه الأشياء قادر علىٰ أحياء الناس بعد موتهم.

[١٧-١٨-١٩-٢٠] ثم بين جل وعلا جانبًا من يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون به؛ فأخبر أن يوم القيامة له وقت محدد وميعاد للأولين والآخرين لا يُخْلِفُه الله تعالىٰ، وهذا اليوم يثاب فيه الناس أو يعاقبون، كُلٌّ بحسب عمله. ثم بين سبحانه أن ذلك اليوم يكون يوم أن ينفخ الملك في الصور نفخة القيام من القبور، وهي النفخة الثانية، فتحضرون إلىٰ الموقف جماعات كل جماعة مع إمامهم. وفي هذا اليوم تفتح السماء لنزول الملائكة، وتكون ذات أبواب كثيرة. وتنسف الجبال وتقلع من أماكنها قلعًا حتىٰ تكون كالهباء المبثوث، ويعاد إصلاح الآخرة حتىٰ تكون صالحة للحياة السرمدية.

[٢١-٢٢-٢٣-٢٤-٢٥] وبعد أن بين جل وعلا جانبًا من جوانب قدرته في خلقه، بين جزاء الكافرين، فأخبر أن جنهم التي هي دار العذاب في الآخرة أرصدها الله وأعدها يوم القيامة مكانًا يرتقب فيه خزنتها من يستحقها بسوء أعماله. ثم أكد سبحانه أنه هيأ جهنم للمتجاوزين حدود الله. وأنهم ماكثون في النار دهورًا متتابعة لا نهاية لها، ما عدا عصاة المؤمنين فإن بقاءهم في نار جهنم فقط لتطهيرهم ثم يخرجون إلىٰ الجنة. وأنهم لا يذوقون فيها ما يريحهم، ولا ما يروي ظمأهم؛ بل إن شرابهم في ذلك اليوم الماء الحار المغلي، وصديد أهل النار. ثم بين سبحانه أنهم إنما استحقوا هذه العقوبات جزاء لهم علىٰ ما عملوا من الأعمال الموصلة للنار.

[٢٧-٢٨] ثم بين جل وعلا أن هذا الجزاء والعذاب الأليم بسبب أنهم ما كانوا يخافون يوم الحساب ولا يتوقعونه، وكانوا يكذبون بالبعث؛ وكانوا يكذبون بجميع البراهين الدالة علىٰ التوحيد والنبوة والمعاد وبجميع ما جاء في القرآن.

[٢٩-٣٠] ثم أخبر جل وعلا أن كل شيء مما عمله الكفار من قليل وكثير؛ فقد كُتِبَ في اللوح المحفوظ. ثم يقال لهم توبيخا وتقريعًا: فذوقوا – أيها المكذبون الجاحدون – فلن نزيدكم إلا عذابًا فوق عذابكم.



[٣١-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥] ثم بدأ جل وعلا في بيان ما أعد لعباده المتقين، فأخبر أن للمؤمنين الذين أطاعوا ربهم في الدنيا الفوز بالكرامة والثواب العظيم في جنات النعيم. ولهم بساتين كبيرة عظيمة جامعة لكل ما حسُن من الثمار، ولهم فيها أعنابٌ. ولهم زوجات حديثات السن قد استدارت نواهدهن فبرزت وظهرت كالكعب، فلم يتكسر ثديها من شبابها وقوتها، وهنَّ في سن واحدة في أعدل سن الشباب، مع زوجاتهم؛ حيث أعاد الله خلقهن بصورة أحسن من الحور العين. ولهم كأسٌ مملوءة من خمر لذة للشاربين. وأنهم لا يسمعون في الجنة إلا كلّ طيب، ولا يسمعون فيها قولًا باطلًا، ولا قولًا فيه إثم، ولا يسمعون فيها ما لا فائدة فيه.

[٣٦-٣٧] ثم بين جل وعلا أن هذا الجزاء الذي أعطاه للمتقين هو بفضل الله وإحسانه، عطاء كافيًا وافيًا لهم من ربهم. الذي هو رب السماوات والأرض ورب ما بينهما، وهو صاحب الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، وكل ذلك بسبب إيمانهم وعبادتهم، ثم بين أن أهل السماوات والأرض وما بينهما في ذلك اليوم لا يملكون أن يسألوه سبحانه إلا فيما أذن لهم فيه.

[٣٨] ثم بين جل وعلا أن جبريل عليه السلام ومعه جميع الملائكة يوم القيامة مُصْطَفُّون، لا يشفعون إلا لمن أذن له الرحمن في الشفاعة، وقال قولًا صدقًا وصوابًا، أي: آمن بالله وحده وعمل صالحًا.

[٣٩] ثم بين جل وعلا أن يوم القيامة هو اليوم الحق الثابت الذي يستحق العمل له؛ لأنه يوم الجزاء والحساب؛ واعلموا أن الله قد بين لكم ما يهديكم استعدادًا لهذا اليوم، وما دام الأمر كذلك فمن شاء النجاة من أهوال ذلك اليوم فليسلك إلىٰ ربه مرجعًا يقربه منه، ويدنيه من كرامته وثوابه، ويباعد بينه وبين عقابه، وهو الإيمان بالله وحده والعمل الصالح.

[٤٠] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه حذركم عذابًا قد دنا منكم، وهذا العذاب سيكون يوم القيامة، يوم أن يبصر كل إنسان ما قدم من خير أو شر مثبتًا في صحيفته، وفي هذه اللحظة سوف يندم الكافر فيقول من شدة ما يلقىٰ ومن هول ما يرىٰ: ياليتني لم أخلق ولم أبعث؛ بل ليتني أعود ترابًا كالحيوانات بعد أن اقتص بعضهم من بعض ثم يقال لها: كوني ترابًا.

سورة النازعات

سورة النازعات مكية وآياتها ست وأربعون آية.

[١-٢-٣-٤-٥] بدأت السورة بهذه الإقسامات حيث أقسم سبحانه بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار، وأقسم بالملائكة التي تقبض أرواح المؤمنين، وأقسم بالملائكة التي تجوب آفاق السماء كالذي يسبح في الماء وتنزل بأمر الله ووحيه، وأقسم بالملائكة التي يسبق بعضها بعضًا في تدبير أمر الله تعالىٰ، وأقسم بالملائكة التي تدبر شئون الكون بأمر الله تعالىٰ.

وجواب القسم هو: أن يوم القيامة حق، وأنكم يامعشر الناس سوف تبعثون وتحاسبون.

[٦-٧-٨-٩] ثم بين جل وعلا أن يوم القيامة سوف يكون بعد اليوم الذي تضطرب فيه الأرض بالنفخة الأولىٰ وهي نفخة الإماتة التي يموت فيها كل شيء علىٰ وجه الأرض، ثم تتبعها النفخة الثانية التي تحيي الناس وتخرجهم من قبورهم. وحينئذ تضطرب قلوب الكافرين خوفًا، وتخضع أبصارهم لهول ما ترىٰ من أحداث القيامة.

[١٠-١١-١٢] ثم يقول الكافرون المكذبون المستبعدون للبعث والنشور: هل نرد إلىٰ حالتنا الأولىٰ، فنحيا بعد موتنا، بعد أن هلكنا وأدخلنا القبور؟! هل سيحصل ذلك بعد أن صرنا عظامًا بالية متفتتة؟ ثم يقولون علىٰ سبيل الاستهزاء: فإذا صح ما تقولون: إننا سنحيا ونبعث من جديد فسوف نكون من الخاسرين.

[١٣-١٤] ثم يرد سبحانه علىٰ هؤلاء المكذبين فيقول: اعلموا أيها الناس أنما هي صيحة واحدة وهي النفخة الثانية؛ فإذا جميع الخلائق أحياء علىٰ أرض مستوية بعد أن كانوا في بطنها في الدنيا.

[١٥-١٦] ثم يخاطب جل وعلا نبيه ﷺ فيقول: هل أتاك يانبي الله خبر موسىٰ عليه السلام؟ حين كلمه ربه بالوادي المطهر المبارك المسمىٰ (طوىٰ)، وهو الوادي الأيمن من جبل سيناء.

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

سُورَةُ عَبَسَ

[١٧-١٨-١٩] ثم قال جل وعلا لموسىٰ عليه السلام: اذهب ياموسىٰ إلىٰ الطاغية فرعون فإنه قد أجرم وبالغ في العصيان والتكبر. وقل له متلطفًا معه في الحديث: هل لك رغبة يافرعون في أن تطهِّر نفسك من الآثام التي انغمست فيها؛ فأريك السبيل إلىٰ ذلك. وأرشدك إلىٰ طاعة ربك فتحصل علىٰ الخشية التي تنجيك من عذاب الله.

[٢٠] ثم بعد اللقاء وتنفيذ أمر الله طلب فرعون أن يرىٰ المعجزة التي تثبت دعوىٰ موسىٰ فأرىٰ موسىٰ فرعون العلامة العظمىٰ وهي: العصا التي انقلبت أفعىٰ، واليد التي صارت بيضاء.

[٢١] ولكن فرعون ركب رأسه واغتر وكذَّب بهذه الآيات، وعصىٰ ربه ولم يؤمن به.

[٢٢] ثم ولَّىٰ فرعون معرضًا عن الإيمان والتوحيد باذلًا جهده في معارضة موسىٰ ومحاربته، مع تحققه من أن موسىٰ محق فيما قال، كما ذكر ذلك سبحانه وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[النمل:١٤].

[٢٣-٢٤-٢٥] ثم إن فرعون جمع جنوده وأهل مملكته في صعيد واحد وقال لهم: اعلموا أني أنا ربكم الأعلىٰ، وهكذا عميت بصيرته واغتر بقوته ومملكته وجنده. وكانت النتيجة أن الله انتقم من فرعون بالعذاب في الدنيا والآخرة.

[٢٦] واعلموا أيها الناس أن في فرعون وما نزل به من العذاب لموعظة لمن يتقي الله ويخشىٰ عقابه.

[٢٧-٢٨-٢٩] ثم خاطب جل وعلا أولئك المكذبين الجاحدين فقال سبحانه: هل بعثكم يوم القيامة أصعب إبداعًا وإنشاءً في نظركم أم خلق السماء التي أحكم صنعها ورفعها فوقكم كالبناء، لا شقوق فيها ولا صدوع. وجعل ارتفاعها عاليًا شاهقًا، وسوَّاها علىٰ أبدع نظام. وجعل ليلها مظلمًا، ونهارها مشرقًا مضيئًا.

[٣٠-٣١-٣٣] وبعد خلق السماء خلق جل وعلا الأرض التي بسطها ومهدها لساكنيها، وأخرج منها عيون الماء والنباتات التي يأكلها الناس والحيوان. وبعد ذلك خلق الجبال التي ثبت بها الأرض فجعلها كالأوتاد لتستقر وتسكن بأهلها.

[٣٣] وكل هذه الأنعام التي خلقها جل وعلا إنما جعلها سبحانه منفعة لكم ولأنعامكم تستمتعون بما فيها من خيرات.

[٣٤-٣٥-٣٦] ثم أخبر جل وعلا عن حال الأشقياء يوم القيامة؛ فقال سبحانه: فإذا جاءت أيها الناس القيامة الكبرىٰ والداهية العظمىٰ التي تعم بأهوالها كل شيء وهي النفخة الثانية. في ذلك اليوم الرهيب يتذكر الإنسان ما سعىٰ وقدم من خير أو شر، وتُعرَض عليه أعماله ليُجَازَىٰ عليها، وعندئذ يعرف أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم. وفي هذه الحال تظهر النار وتبرز لكلِّ مبصر؛ فيراها المجرمون رأي العين.

[٣٧-٣٨-٣٩] ثم بين سبحانه حال من تجاوز حدود الله وكفر به وعصاه، وآثر الفاني علىٰ الباقي وقدمه عليه؛ فأخبر أن منزله ومسكنه الذي يأوي إليه هو نار جهنم.

[٤٠-٤١] ثم بين سبحانه حال من خاف منه ومن عذابه وعقابه، ونهىٰ نفسه عن هواها الذي يقيدها عن طاعة الله؛ فأخبر أن منزله ومسكنه الذي يأوي إليه هو جنات النعيم.

[٤٢-٤٣-٤٤-٤٥] ثم ختم جل وعلا السورة بالحديث عن الساعة فقال: اعلم يانبي الله أن المشركين المكذبين بالبعث يسألونك علىٰ سبيل الاستهزاء عن وقت قيام الساعة. فأخبرهم أن أمرها ليس إليك؛ بل إن مرد أمرها إلىٰ الله وحده، وإنما واجبك يانبي الله في شأن الساعة أن تخوف وتنذر بها من يخشىٰ مجيئها، ويخاف من الوقوف بين يدي الله جل في علاه.

[٤٦] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار عندما يرون قيام الساعة يتذكرون مكثهم في الدنيا وقصره وكأنه سويعات قليلة بمقدار ما بين الظهر إلىٰ غروب الشمس، أو ما بين طلوع الشمس إلىٰ نصف النهار؛ لعظم ما يرون من أهوالها.

سورة عبس

سورة عبس مكيّة وآياتها ثنتان وأربعون آية.

[١-٢-٣-٤] افتتحت هذه السورة بإرشاد النبي ﷺ إلىٰ كيفية التعامل مع ضعفاء المسلمين. فبين جل وعلا أن الرسول ﷺ ظهر علىٰ وجهه التغير والعبوس عندما جاءه الأعمىٰ عبدالله بن أم مكتوم يسأله عن أمور دينه؛ فأعرض عنه ﷺ لأنه قطع عليه كلامه في حين أنه كان ﷺ منشغلًا بدعوة صناديد قريش، أمثال: عتبة وشيبة وأبي جهل والوليد بن المغيرة؛ طمعًا في إسلامهم. ثم قال جل وعلا معاتبًا نبيه ﷺ: وما يُعلمك ويُخبرك عن حال هذا الأعمىٰ يانبي الله فلعله بسؤاله يتطهر من ذنوبه، أو ينتفع بما يسمعه فيتعظ ويعتبر ويستنير قلبه بنور الإيمان. أما الزعماء الذين عبست في وجه الأعمىٰ لأجلهم فقد وصلتهم الدعوة وليس عليك إلا البلاغ وقد فعلت. ولاحظ أن الله جل وعلا قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، ولم يقل: (عبست وتوليت)؛ وكأن الحديث عن شخص آخر؛ لأن المقصود هو العتاب والإرشاد.

[٥-٦-٧-٨-٩-١٠] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ علىٰ وجه التفصيل: أما من جاءك يانبي الله وهو مستغنٍ بماله معرضٌ عن دين الله فهل يصح أن تتعرض له وتهتم بكلامه. في حين أنه ليس عليك ذنب أو مسئولية إذا لم يتطهر من دنس الكفر والعصيان. وأما هذا الأعمىٰ الذي جاء إليك بنفسه مسرعًا خائفًا من عذاب الله وعقابه، فأنت تتشاغل وتتلهىٰ عنه بالانصراف عنه إلىٰ رؤساء الكفر لدعوتهم.

[١١-١٢-١٣-١٤-١٥-١٦] فاعلم يانبي الله أن الأمر ليس كما فعلت؛ بل الأمر أن مثل هذا الإعراض لا يصح أن يقع مع ملتمس الهدىٰ والرشاد، ولو كان الصارف لك عن ذلك أمر في صالح الإسلام، وما هذه السورة وما فيها من إرشادات إلا موعظة وتذكرة لك، ولمن شاء الاتعاظ من عباد الله، واعلم أن هذه المواعظ مثبتة في صحفٍ معظَّمة موقَّرة، رفيعة القدر عند الله، مطهَّرةٍ مصونة. وإنها بأيدي ملائكة جعلهم الله سفراء بينه وبين رسله، وهؤلاء الملائكة كرام علىٰ الله وأبرار أطهار.

[١٧-١٨-١٩-٢٠-٢١-٢٢-٢٣] ثم دعا سبحانه علىٰ الإنسان الكافر فقال: قاتل الله هذا الكافر ما أشد كفره بالله مع كثرة إحسان الله إليه؟ ثم لام سبحانه الكفرة المعاندين فقال: ألم ينظر هذا الإنسان إلىٰ أصل خلقه من أنه خُلق من نطفة حقيرة حتىٰ يستغني عن الإيمان بربِّه؟ وهذه النطفة جعلها سبحانه مقدرة في رحم أمه أطوارًا حتىٰ تم خلقه، ثم بعد هذه الأطوار التي عاشَها في رحم أمه سهل الله له الخروجَ، ثم هداه النجدين وسهل له الهدىٰ إن رغب والعصيان إن رغب، ثم أنعم الله عليه إذا مات أن يوارىٰ في القبر تكريمًا له، ثم إذا شاء سبحانه أحياه وبعثه بعد موته للحساب والجزاء؛ فليرتدع الكافر وينزجر عن تكبره وتجبره فإنه مع الإحسان إليه وتسويته بأحسن صورة وإبلاغه التكاليف الشرعية فإنه لم يؤد ما فرض الله عليه من الإيمان والعمل الصالح.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠

[٢٤-٢٥-٢٦-٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣١-٣٢] ثم أرشد سبحانه الإنسان إلىٰ التدبر في أمر طعامه وكيف وصل إليه بعد أن مر في مراحل متعددة. فأخبر سبحانه أنه بقدرته أنزل الماء من السحاب علىٰ الأرض. ثم شق الأرض بخروج النبات منها شقًّا بديعًا. ثم أنبت سبحانه في الأرض أنواع الحبوب كالحنطة والشعير. وأنبت فيها أنواع العنب اللذيذ، وأنواع الخضار كالخس والبقدونس والنعنع والجرجير. وأنبت فيها أشجار الزيتون والنخيل. وأنبت فيها البساتين والحدائق ذات الأشجار الكثيرة الملتفَّة. وأنبت فيها أنواع الفاكهة، وهكذا أنبت فيها الأبَّ، وهو التبن وما تأكله البهائم والأنعام. ثم أخبر أنه جعل هذا الطعامَ منفعةً لكم تنتفعونَ به أنتم وأنعامكم.

[٣٣-٣٤-٣٥-٣٦-٣٧] ثم ختم جل وعلا السورة بالحديث عن أهوال يوم القيامة فقال سبحانه: فإذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ الآذان حتىٰ تكاد أن تصمها؛ حينئذ يندم المفرطون. وفي هذا اليوم يفر المرء من أعز الناس عنده وكل يقول نفسي نفسي، فيفرّ من أخيه. وأمه وأبيه. وزوجته وبنيه. لكل واحدٍ منهم في ذلك اليوم همٌّ يشغله عن أقربائه ويصرفه عنهم.

[٣٨-٣٩-٤٠] وفي هذا اليوم العظيم يوم القيامة تبيض وجوه، وتضحك وتستبشر، وهي وجوه أهل التوحيد والإيمان، وهناك وجوه عليها غبار وعبوس لهول ما هم إليه ذاهبون.



[٤١-٤٢] ثم بين جل وعلا أن هذه الوجوه التي عليها غبره تعلوها وتغشاها الذلة والصَّغار والسواد والظلمة، ثم ختم سبحانه الآيات مبينًا أن الوجوه الموصوفة بتلك الأوصاف هي وجوه أولئك الذين جمعوا بين الكفر والفجور؛ فلذلك جمع الله لهم بين السواد والغبار.

سورة التّكوير

سورة التكوير مكيّة وآياتها تسع وعشرون آية.

[١-٢-٣-٤-٥-٦-٧-٨-٩-١٠-١١-١٢-١٣-١٤]

بدأ جل وعلا بهذه الإقسامات حيث أقسم سبحانه بالشمس إذا تدورت وصارت مثل الكرة ومحي ضوؤها، وأخرجت من مسارها ورمي بها في النار. وأقسم بالنجوم إذا وقعت وتهاوت وتناثرت. وأقسم بالجبال إذا قلعت عن الأرض ونسفت عن أماكنها، وتفتتت وسارت في الهواء غبارًا. وأقسم بالنوق التي بطنها أجنتها إذا تركت هملًا، وهي أنفس الإبل عند العرب. وأقسم بالوحوش إذا جمعت وهي في حالة ذهول من شدة الفزع لكي يقضىٰ من بعضها البعض. وأقسم بالبحار إذا تأججت نارًا. وأقسم بالنفوس إذا جمعت بأشباهها، فيجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، وأقسم بالمؤمنين إذا زوجوا بالحور العين. وأقسم بالموءودة إذا سئلت عن السبب الذي لأجله قتلت، فإنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته، ولكن المقصود هو تقريع وتبكيت الوائدين لبناتهم. وأقسم بصحف الأعمال إذا تطايرت لتقع في أيدي أصحابها في موقف الحساب حتىٰ لا يرتابوا فيها؛ المؤمن بيده اليمنىٰ، والكافر بيده اليسرىٰ. وأقسم بالسماء إذا نزعت كما يُنزع الجلد من الذبيحة وصارت كالمهل. وأقسم بالنار إذا أُجّجَتْ وأوقدتْ وأُضرمت. وأقسم بالجنة إذا أدنيت من عباد الله الصالحين: أي أعدت لنزولهم.

[١٤] ثم جاء جواب القسم لكل ما سبق حيث أخبر سبحانه أنه إذا وقعت كل هذه الأحداث فقد تَيَقَّنَتْ وَوَجَدَتْ كل نفس ما قدمت من خير أو شر. **قال الشيخ ابن عثيمين في درس التفسير عندما** سُئل عن قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾[التكوير:١]، فقال: إن الشمس تدنو من الرؤوس قدر ميل، وإن يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة، فتتعدد المواقف والحالات، فيكلم ويختم ويحشر المجرمون زُرْقًا، ثم تَسْوَدُّ وجوههم، وهو وقت يحتمل كل الحالات المذكورة فيه، وقد أخرج أحمد والترمذي عن ابن عمر قال: قال ﷺ: «**من سره أن ينظر إلىٰ يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت**»(١).

[١٥-١٦-١٧-١٨] ثم أقسم سبحانه قسمًا مؤكدًا بالخنس، وهي: النجوم المضيئة التي تختفي بالنهار، وتظهر بالليل. وأقسم بالنجوم التي تسير في أفلاكها ثم تستتر وقت غروبها. وأقسمَ بالليل إذا أقبل أو أدبر. وأقسم بالصبح حين يمتد حتىٰ يصير نهارًا بينًا.

[١٩-٢٠-٢١-٢٢] ثم جاء جواب القسم مؤكدًا بعدة تأكيدات: أن هذا القرآن المنزل علىٰ النبي ﷺ بواسطة جبريل هو كلام الله. وأن جبريل ذو قوة شديدة في القيام بما كلف به، وأنه ذو جاه ومنزلة عند ربه. وهو مطاع في الملأ الأعلىٰ تطيعه الملائكة المقربون، وأنه مؤتمن علىٰ الوحي. وأن صاحبكم محمدًا ﷺ الذي أرسل إليكم أيها العرب في مكة ليس بمجنون.

[٢٣-٢٤-٢٥] ثم أقسم جل وعلا أن النبي ﷺ رأىٰ جبريل علىٰ صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها، وهو مقبل من جهة المشرق بمطلع الشمس قد سد الأفق. وأقسم أن محمدًا ﷺ ليس ببخيل بتبليغ ما أمر بتبليغه، ولا متهم بالتقصير ولا غيره. واعلموا أن هذا الذي يتكلم به محمد ﷺ وهو القرآن الكريم ليس بقول ألقاه الشيطان علىٰ لسانه كما افتريتم وزعمتم.

[٢٦] ثم وبخهم جل وعلا فقال لهم: فأي طريق تسلكون في تكذيبكم لهذا القرآن أيها المشركون؟

[٢٧-٢٨] ثم بين سبحانه أن هذا القرآن موعظة للخلق أجمعين، وتذكير لمن شاء الاستقامة علىٰ الحق والإيمان والطاعة.

[٢٩] واعلموا أنكم لا تقدرون علىٰ فعل أي شيء ومن ذلك الاستقامة إلا بعد أن يأذن الله بذلك، وقد تكرم سبحانه علىٰ عباده وجعلهم مختارين؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٨٠٦، ٤٩٣٤)، و الترمذي (٣٣٣٣)، وصححه الألباني.

سورة الانفطار

سورة الانفطار مكيّة وآياتها تسع عشرة آية.

[١-٢-٣-٤] بدأت السورة بهذه الأيمان حيث أقسم سبحانه بالسماء إذا انشقت وتغير نظامها. وأقسم بالكواكب إذا تساقطت وتفرقت. وأقسم بالبحار إذا انفجر بعضها علىٰ بعض فصارت بحرًا واحدًا، واختلط العذب منها بالمالح. وأقسم بالقبور إذا نُثِرَ تُرابها فخرج منها الموتىٰ للحشر.

[٥] ثم جاء جواب القسم حيث أخبر سبحانه أنه في هذا اليوم سوف تعلم كل نفس ما أسلفت من خير أو شر.

[٦-٧-٨] ثم هدد جل وعلا هذا الإنسان المنكر للبعث فقال له: ياأيها الإنسان أي شيء خدعك وجرأك علىٰ عصيان ربك العظيم. الذي أنعم عليك بنعمة الوجود فخلقك وجعلك سويًّا معتدل القامة تام الخلق. ثم صورك فأحسن صورتك، وركبك في صورة هي من أبهىٰ الصور وأجملها.

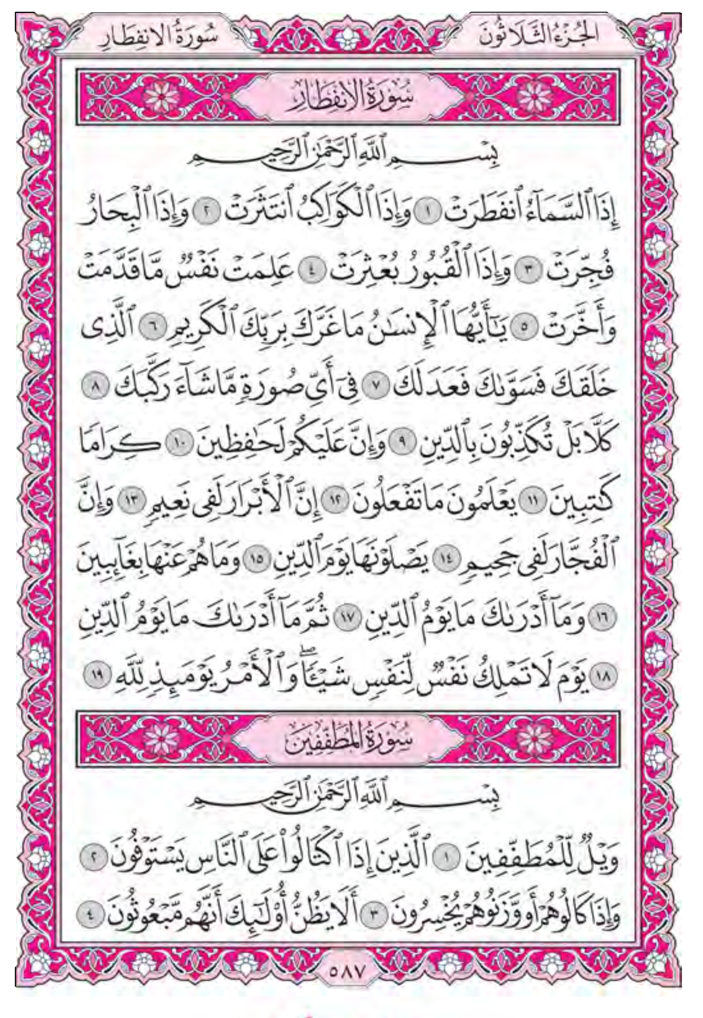
[٩] ثم هدد سبحانه هؤلاء المشركين فقال لهم: ارتدعوا أيها المكذبون بالبعث عن معاداةِ النبي ﷺ ومحاربته، ولا تغتروا بحلم الله عليكم؛ فإن حقيقة أمركم أنكم تكذبون بيوم الحساب والجزاء والبعث.

[١٠ - ١١ - ١٢] واعلموا أن أعمالكم محصاة عليكم، فقد وكل بكم ملائكة حفظة كرامًا كاتبين يحصون كل ما تعملون من خير وشر.

[١٣-١٤] ثم يخبر سبحانه عن نتيجة ما يكتبه الملائكة من أعمال العباد، فالمؤمنون الذين اتقوا ربهم في الدنيا فإنهم في بهجة وسرور. وأما الكفرة الفجار الذين عصوا ربهم في الدنيا فإنهم في نار يحرقون فيها ويعذبون؛ فلا يحيون فيها ولا يموتون.

[١٥-١٦] ثم بين سبحانه أن هذه النار سوف يذوقون حرها ويقاسون سعيرها يوم الحساب والجزاء الذي كانوا يكذبون به في الدنيا. ثم بين أنهم لن يكونوا غائبين عن نار جهنم طرفة عين؛ بل إنهم خالدون فيها أبدَ الآباد.

[١٧-١٨-١٩] ثم تحدث سبحانه عن عظمة يوم القيامة فقال: وما أدراك أيها الإنسان ما أهوال وعظمة يوم الحساب والجزاء. ثم ما أدراك أيها الإنسان ما أهوال وعظمة يوم الحساب والجزاء. واعلموا أيها الناس أنه في ذلك اليوم الرهيب لا يستطيع أحد أن ينفع أحدًا، والأمر في ذلك اليوم لله وحده. اللهم يا من له الأمر كله في كل وقت وكل حين أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.



سُورَةُ الانفِطَارِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾

سورة المطففين

سورة المطففين مكيّة وآياتها ستّ وثلاثون آية.

عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما قدم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلًا فأنزل الله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فَأَحسَنُوا الكيل[1].

[١-٢-٣] بدأت السورة بتهديد المطففين فقال سبحانه: هلاك وعذاب يوم القيامة لمن يطفف المكيال والميزان، وللذين يبخسون حقوق الناس. ثم بين سبحانه أن هؤلاء المطففين إذا اشتروا من الناس مكيلًا أو موزونًا فإنهم يأخذونه وافيًا كاملًا لأنفسهم، وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فإنهم ينقصون الكيل والوزن. وهذا ليس من الإنصاف أو العدل؛ فكما أنك تريد أن تأخذ حقك كاملًا فأيضًا يجب أن تعطي الناس حقوقهم كاملة.

[٤] ثم قال جل وعلا متعجبًا من حال هؤلاء المطففين: ألا يخطر ببال هؤلاء الظلمة أنهم مبعوثون يومَ القيامة؟.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٢٣)، وحسنه الألباني.

لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ
ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾
وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ
بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ
﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ
يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا
ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾
وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾
إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي
وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ
مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن
تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ
مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾
وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ
إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾

[٥] ثم وصف جل وعلا يوم القيامة أنه يوم عظيم رهيب لما فيه من الأهوال الشديدة.

[٦] وهذا اليوم هو اليوم الذي يقف فيه الناس بين يدي الله للعرض والحساب خاضعين لله رب العالمين كل ينتظر ويسأل الله السلامة.

[٧-٨-٩] ثم هدد سبحانه هؤلاء المطففين فقال: ارتدعوا أيها المطففون عن الغفلة عن البعث والجزاء، فإن كتاب أعمال الأشقياء والمنافقين لفي مكان ضيق مظلم في أسفل سافلين، وهل تعلمون ما هو هذا المكان الضيق المظلم؟ إنه سجن عظيم وعذاب أليم، مسطورٌ فيه أسماء الأشقياء.

[١٠ -١١ - ١٢] ثم هدد سبحانه المكذبين فقال: هلاك ودمار يوم القيامة لكم أيها المكذبون، الذين تكذبون بيوم الحساب والجزاء، واعلموا أنه لا يكذب بيوم الحساب والجزاء إلا كل متجاوز الحد في الكفر والضلال.

[١٣] ثم بين جل وعلا صفة هذا المعتدي الأثيم أنه إذا قُرئت عليه آياتُ القرآنِ قال عنها: إنها أقاصيص الأولين، وإنها أخبار الأمم الماضية.

[١٤] واعلموا أن الأمر ليس كما يقول هذا المكذِّب في القرآن، ولكن غلبَ علىٰ قلبه وغطَّاه ما كسَبَه من الذنوب والآثام؛ حتىٰ غطت علىٰ قلوبهم وأفكارهم، قال الحسن: (الرين هو الذنب علىٰ الذنب حتىٰ يعمىٰ القلب فيسود من الذنوب، والطبع علىٰ القلب أشد من الرين).

[١٥] ثم هدد سبحانه المشركين فقال: وارتدعوا أيها المشركون عما تقولون: من أنكم يوم القيامة تكونون مقربين إلىٰ الله؛ بل إنكم في الآخرة محجوبون عن رؤية المولىٰ جل وعلا فلا ترونه. فكما أنكم حجبتم أنفسكم عن توحيد الله في الدنيا فإنكم تحجبون عن رؤية ربكم يوم القيامة.

[١٦-١٧] ثم إن الكفار يقذف بهم في النار التي تشويهم بحرِّها. ثم تقولُ لهم ملائكةُ العذابِ: هذا هو العذابُ الذي كنتم لا تصدِّقونَ به في الدنيا.

[١٨-١٩] ثم أخبر سبحانه أن ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المكذبون، ولكن اعلموا أن كتاب الأبرار المُمْتَثلين لأمر الله ورسوله ﷺ في عليين مودع في أعلىٰ الأمكنة، وما أدراك يانبي الله ما هذه المراتب العالية!

[٢٠-٢١] ثم بين سبحانه أن كتاب الأبرار كتاب مسطر مكتوب فيه أعمالهم، وهو في عليين في أعلىٰ درجات الجنة، يحضره المقربون من الملائكة ويشهدون بما فيه.

[٢٢-٢٣-٢٤] ثم أفاض في ذكر ما يتنعم به الأبرار، وأنهم علىٰ الأسرة المرتفعة العالية ينظرون إلىٰ ما أعدَّ الله لهم من النعيم المقيم، وقيل: ينظرون إلىٰ وجه الله الكريم، نسأل الله الكريم من فضله، تعرفُ - إذا نظرت إليهم - في وجوههم بهاء النعيم، وبهجة ونور ونضارة الوجه.

[٢٥-٢٦-٢٧] ومما يتنعم به الأبرار أنهم يُسقون في الجنة من خمر خالصةٍ صافيةٍ، وهي مختومة محكَمٌ إغلاقها، لا يفكها إلا أَصحابها، فإذا شربوها فاح من آخرها ريح المسك، وليست تحدث غولًا، وفي ذلك النعيم المقيم فليتنافس المتنافسون وليتسابق المتسابقون، بإخلاص العبادة لله، وفعل ما يحبه الله ويرضاه، وترك ما يبغضه الله ويأباه.

[٢٧-٢٨] ثم بين سبحانه أن ذلك الشراب من عينٍ يقال لها: تسنيم، هذه العين يشرب منها المقربون شرابًا صافيًا خالصًا وهو أشرف شراب أهل الجنة.

[٢٩-٣٣] ثم ذكر سبحانه المجرمين في الدنيا وأنهم كانوا يتندرون ويسخرون ويضحكون من الذين آمنوا، وإذا رجع هؤلاء المجرمون لأهليهم تفكهوا وتلذذوا بالطعن والاستهزاء بعباد الله المؤمنين، وإذا شاهدوهم قالوا عنهم: هؤلاء ضلوا الطريق، وتاهوا باتباعهم للهدىٰ، وما بُعث هؤلاء المجرمون علىٰ المسلمين رقباءَ يحفظون عليهم أعمالهم.

[٣٤] ثم بين جل وعلا أن الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ يضحكون يوم القيامة من الكفار، لِما يَرَوْن ما هم فيه من الخزي والعار، والذي يضحك أخيرًا هو الفائز.

[٣٥] ثم أخبر سبحانه أن المؤمنين جالسون علىٰ أسرَّة الدر والياقوت منعمون ينظرون إلىٰ الكفار ويضحكون عليهم، لا شماتة، ولكن مقابلة لضحك الكفار عليهم في الدنيا.

[٣٦] ثم قال سبحانه علىٰ سبيل السخرية والتهكم بهؤلاء الكفار: هل جُوزِيَ الكفارُ بهذا العذابِ بما كانوا يفعلونه في حياتهم الدنيا من الشرك والكفر والظلم والضلال؟ والجواب: نعم جوزوا بعذاب لا يعلمه إلا رب العالمين.

سورة الانشقاق

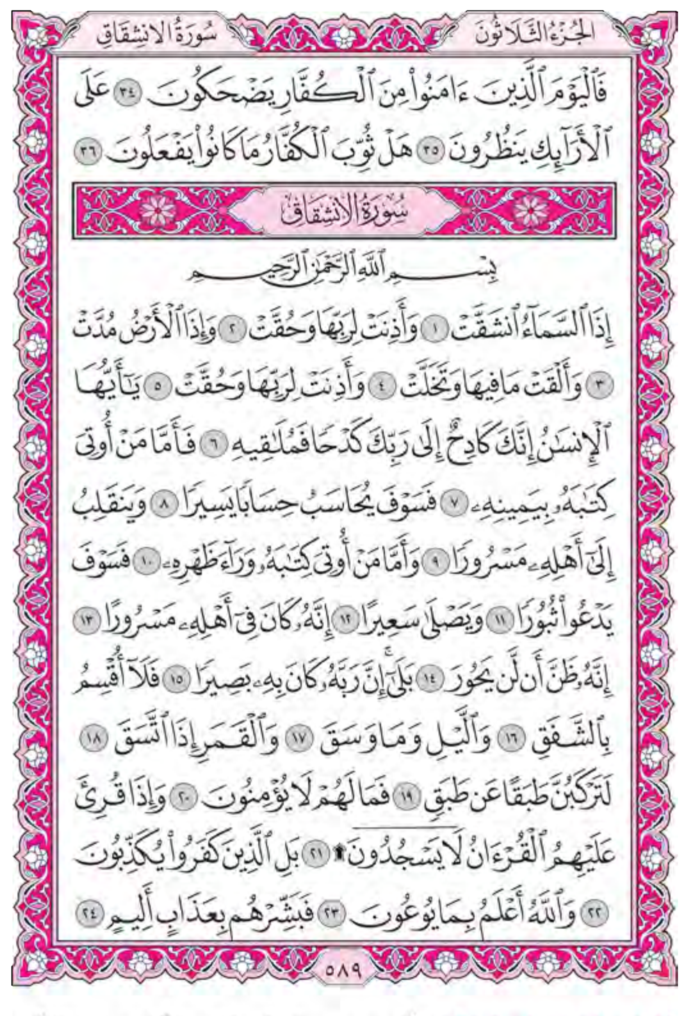
سورة الانشقاق مكيّة وآياتها خمس وعشرون آية.

[١-٢-٣-٤-٥] بدأت السورة ببيان بعض أهوال يوم القيامة فقال سبحانه: إذا تشققت السماء وتصدعت، وسَمِعَت وأطاعَت أمْرَ ربِّها في تصدُّعها وحق لها أن تسمع وتطيع. وإذا الأرض زادت سَعَةً. وأَخرَجتْ ما في بطنها من الموتىٰ وغيرهم، وتبرأت من الأعمال التي ارتكبت فوقها، وسمِعَت وأطاعت أمرَ ربِّها وحق لها أن تسمع وتطيع.

[٦] وهذا نداء من الله لكل مكلف لينظر نتيجة عمله منذ ولادته إلىٰ موته، يخبر فيه سبحانه أنه عامل في هذه الحياة ومجدّ في عمله، ثم في النهاية يلاقي ربه فيكافئه علىٰ عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٧-٨-٩] ثم بين سبحانه أن من أعطي كتاب أعماله بيمينه وهم المؤمنون؛ فإنه يحاسب أيسر الحساب، إذ تعرض عليه أعماله فيعرّف بطاعته وبمعاصيه، ثمَّ ينصرف بعد هذا الحسابِ اليسيرِ إلىٰ أهله في الجنة، وهو فَرِح بما أعطِي.

[١٠-١١-١٢-١٣-١٤-١٥] وأما من أعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره، فأولئك سوف ينادُون بالهلاك علىٰ أنفسِهم، ويدخل نارًا مستعرة يقاسي حرَّها وعذابها. لأنه كان في الدنيا مسرورًا مع أهله في لهو وغفلة. ثم بين سبحانه أن هذ الكافر ظن أن لن يرجع إلىٰ ربه فيحاسب؛ لغرورة وفسقه. فأكد سبحانه أنه سوف يرجع ويحاسَب علىٰ أعماله التي كان الله مطَّلِعًا عليها، لا يخفىٰ عليه شيء منها.



فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ الانشِقَاقِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾

[١٦-١٧-١٨-١٩] ثم أقسم سبحانه قسمًا مؤكدًا بحمرة الأفق بعد غروب الشمس، وأقسمُ بالليل وما جَمَعَ فيه من الخلقِ، وأقسم بالقمر إذا تكامل ضوءه ونوره في نَصف الشهر، أي: صار بدرًا، ثم جاء جواب القسم فقال سبحانه: لتلاقنّ أيها الناس في دنياكم منذ أن تولدوا حتىٰ تموتوا أمورًا بعد أمور، وأحوالًا بعد أحوال، وجيلًا بعد جيل؛ إلىٰ أن تصيروا إلىٰ ربكم.

[٢٠-٢١-٢٢-٢٣-٢٤-٢٥] ثم قال سبحانه: فأي شيء حدث لهؤلاء الكفار حتىٰ جحدوا قدرة الله علىٰ البعث. وإذا قُرِئ عليهم القرآن لا يخضعون له، ولا ينقادون لأوامره ونواهيه. بل طبيعتهم التكذيب. والله أعلم بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب والحقد علىٰ المسلمين. فبشرهم يانبي الله بعذاب مؤلم موجع، جزاء إعراضهم وإصرارهم علىٰ التكذيب.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

سُورَةُ البُرُوجِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

[٢٥] ثم استثنىٰ جل وعلا من العذاب الذين آمنوا بالله ورسوله، فأخبر أن لهم أجرًا لا ينقص ولا ينقطع مدده، ولا يمن به عليهم أحد، ويتنعمون فيه أبد الآبدين.

سورة البروج

سورة البروج مكيّة وآياتها ثنتان وعشرون آية.

[١-٢-٣] بدأ جل وعلا بهذه الإقسامات فأقسم سبحانه بالسماء ذات الكواكب العظيمة، وهي اثنا عشر برجًا، وهي منازل القمر، والتي يعرف بها أصحاب المزارع مواسم الزرع والغرس وجني الثمار، وكذلك أهل الأغنام وأهل الإبل في الصحراء يعرفون بها فصول السنة، الصيف والشتاء والربيع والخريف. ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة، وأقسم بالشاهد والمشهود، وقد اختلف المفسرون في الشاهد والمشهود، وذكروا فيه أقوالًا كثيرة، فقيل: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة، وقيل: الشاهد هو محمد ﷺ والمشهود هو يوم الحساب، وأجمع الأقوال: أنه كل شاهد ومشهود؛ كما قال العلامة السعدي رحمه الله.

[٤] ثم جاء جواب القسم فقال سبحانه: قاتل الله أصحاب الأخدود الذين شقوا الأرض طولًا وجعلوها أخاديد، وأضرموا فيها النار ليحرقوا بها المؤمنين.

ثم وصف سبحانه هذه النار فأخبر أنها نار ملتهبة متأججة موقودة بحطب كثير.

وقصة أصحاب الأخدود ذكرها مسلم في صحيحه(١).

[٥-٦] ثم بين سبحانه أن هؤلاء المجرمين جلسوا حول هذه النار العظيمة المتأججة يشرفون علىٰ المؤمنين وهم يعذبون بها؛ فالذي يمتنع عن الكفر يقذفونه في النار ثم يشاهدونه وهو يقذف، والذي يكفر يفرحون أنه كفر ويتركونه.

[٧-٨-٩] وهؤلاء الكفار يشهدونَ علىٰ أنفسِهم بما فعلوه بالمؤمنين. وما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود في كل حال. الذي له ملك السماوات والأرض يتصرف فيهما كيف يشاء، ويحكم فيهما بما يريد، والله علىٰ كل شيء شهيد، لا يخفىٰ عليه شيء من فعل هؤلاء الطغاة الظالمين بمن آمن بالله واتبع هداه. فكانت جريمتهم وذنبهم فقط هو الإسلام والإيمان بالله، وهكذا تنقلب الموازين عند الفجرة فتكون الصفة الحميدة الحسنة سيئة.

[١٠] واعلموا أيها الناس أن الذين عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ليفتنوهم عن دينهم ثم لم يرجعوا عن كفرهم وطغيانهم فلهم عذاب جهنم المخزي بكفرهم. ومع جرمهم العظيم إن تابوا أدخلهم الله في رحمته، وهذا من لطف الله وعدله وكرمه.

[١١] ثم اعلموا أيضًا أن الذين أقروا بوحدانية الله في عبادته وعملوا صالحًا لهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، وهذا هو الظفر الكبير لهم. وقد شاهد العالم في البوسنة والهرسك وفي الأندلس لما استولىٰ الكفرة صاروا يقتلون الناس بالجملة لا لذنب إلا أنهم مسلمون؛ فنسأل الله أن يعيد للإسلام والمسلمين عزهم ومجدهم.

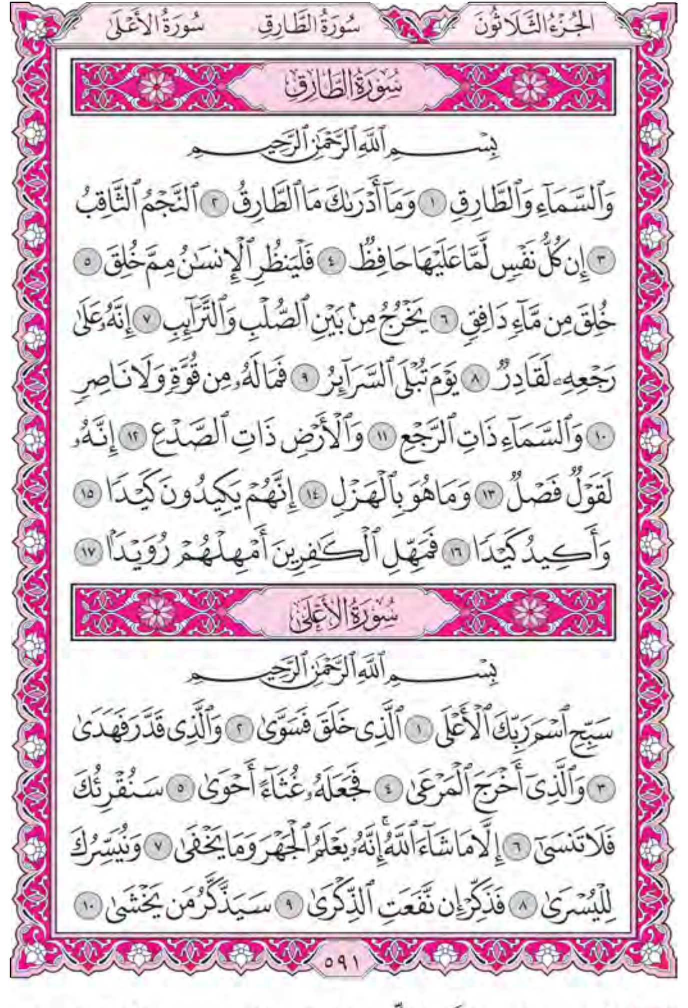
[١٢-١٣-١٤-١٥-١٦] واعلم يانبي الله أن أخذَ ربِّك وانتقامه من الجبابرة والكفرة لغاية في القوة والشدة. ثم اعلم يانبي الله أن الله سبحانه وتعالىٰ هو وحده الذي يبدأ الخلق ويوجدهم من العدم، ثم يميتهم ثم يعيدهم أحياء مرَّةً أخرىٰ، وهو سبحانه الغفور: كثير المغفرة لمن تاب من عباده وأناب، الودود: المتودد لأوليائه المحب لهم حبًّا شديدًا. وهو سبحانه صاحب العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات، وهو سبحانه المجيدُ: المستحق لكمال صفات العلوّ. وهو سبحانه الفعَّال لما يريد، فإذا أراد شيئًا قال له (كُنْ) فيكون.

[١٧-١٨-١٩-٢٠] ثم قال جل وعلا لنبيه ﷺ: هل بلغك يارسول الله خبر كفر وعناد أولئك الجنود، وما حل بهم من العذاب والنكال، وهم فرعون وثمود، أولي البأس والشدة. ومع ذلك فإن كفار مكة مستمرون في التكذيب الشديد لك ولما جئت به، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار، ثم بين سبحانه أنه محيط بهم علمًا وقدرة وأنهم في قبضته لا يفوتونه ولا يعجزونه.

[٢١ - ٢٢] ثم ختم جل وعلا السورة ببيان أن هذا الذي كذبوا به كتاب شريف، محفوظ من التحريف، مكتوب في لوح وهو أم الكتاب محفوظ عند الله. وبذلك يكون نفىٰ سبحانه عن القرآن ما قالوا: من أنه شعر، وأنه أساطير الأولين.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥).



سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧

سُورَةُ الأَعْلَىٰ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠

سورة الطارق

سورة الطارق مكيّة وآياتها سبع عشرة آية.

[١-٢-٣-٤] بدأ جل وعلا بالإقسام بالسماء العظيمة ذات الكواكب الساطعة، وأقسم بالطارق الذي يقدم ليلًا، ثمَّ استفهمَ سبحانه مشوِّقا لهذا الطارقِ فقال: وما أعلمكَ يانبي الله بهذا الطارق. ثم بين سبحانه أن الطارق هو النجم المضيء الذي يثقب ضوءه الظلام فيهتدي به الساري ليلًا، ويختفي نهارًا. ثم جاء جواب القسم وهو أن كل نفس عليها حافظ من الملائكة يحفظها ويكتب كل ما يصدر منها من خير أو شر.

[٥-٦-٧] ثم أمر جل وعلا أن يتفكر الإنسان من أين نشأ؟ وكيف وجد؟ وعليه أن يعرف أنه خلق من ماء خرج من صلب الرجل ودفق في رحم الأنثىٰ، ثم اختلط بماء المرأة الذي نزل من ترائبها فتتكون الأخلاط التي يخلق منها الجنين.

[٨-٩] ثم أخبر جل وعلا أن الذي خلق الإنسان ابتداءً قادر علىٰ إعادته بعد موته، ثم بين أن إعادته وبعثه يكون في يوم القيامة وهو اليوم الذي تختبر فيه القلوب وتمتحن فيعرف ما فيها من الخفايا والأسرار.

[١٠] وفي ذلك اليوم لا يستطيع الإنسان المستحق للعذاب بقوته ومنعته في نفسه أن يمتنع من عذاب الله، وليس له ناصر ينصره مما نزل به من الكرب والبلاء.

[١١-١٢] ثم عاد سبحانه وأقسم بالسماء ذات المطر المتكرر، وأقسم بالأرضِ التي تتشقَّقُ فيخرُج منها النبات.

[١٣-١٤] ثم جاء جواب القسم مبينًا أن هذا القرآن لقول فاصل بين الحق والباطل، وهو جدّ لا لعب فيه ولا هزل؛ لأنه كلام رب العالمين وأحكم الحاكمين.

[١٥-١٦] واعلموا أيها الناس أن هؤلاء المشركين يعملون المكايد لإطفاء نور الله، وصد الناس عن دين الله بإثارة الفتن والقلاقل ونشر الشبهات والشهوات، ولكن الله يكيدهم كما هم يكيدون، وذلك بإمهالهم واستدراجهم ثم مجازاتهم.

[١٧] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن لا يسأل ربه تعجيل العقوبة والهلاك لهؤلاء المكذبين؛ بل أمهلهم قليلًا، وسترىٰ عقاب الله الذي يحل بهم، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ بقرب الفرج والنصر للمؤمنين وتبشيره بقرب هلاك الكافرين.

سورة الأعلى

سورة الأعلىٰ مكيّة وآياتها تسع عشرة آية.

[١] بدأت السورة بأمر النبي ﷺ أن ينزه ربه العلي الكبير عن صفات النقص في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه، والمقصود أن يأمر المؤمنين بذلك.

[٢] ثم بين سبحانه أن هذا التنزيه لله لأنه هو الذي خلق الكائنات جميعًا، وسوىٰ خلقها، وجعلها منسقة محكمة.

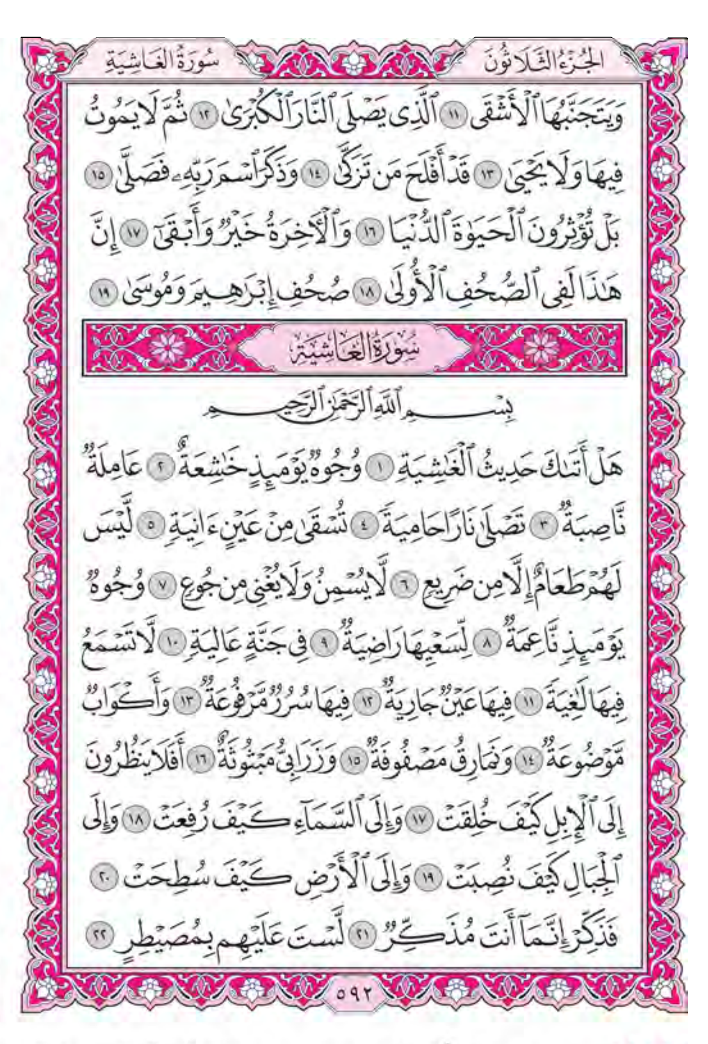
[٣] وأنه هو الذي قدَّر لكلِّ مخلوقٍ مقاديرَه، وهداهُ لإتيانِ هذه الأقدار، ورعاية مصالحه واكتساب مقوماته، كما قال تعالىٰ: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه:٥٠].

[٤-٥] وأنه هو الذي أنبت العشب وما ترعاه الدواب من النبات الأخضر، ثم يجعله بعد الخضرة باليًا يميل إلىٰ السواد.

[٦-٧] ثم أخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أنه سيقرئه هذا القرآن حتىٰ يحفظه في صدره ولن ينساه؛ لأن الله عصمه من نسيان القرآن. ثم استثنىٰ سبحانه ما أراد تبديله من الآيات وذلك بنسخه فحينئذ يجعله ينساه، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾[البقرة:١٠٦]، ثم بين سبحانه أنه يعلم كل ما يجهر به العباد وكل ما يخفونه من الأقوال والأفعال، لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

[٨] ثم أخبر سبحانه نبيه محمدًا ﷺ أنه سيوفقه للشريعة السمحة، ويجعل حفظ الوحي يسيرًا عليه، وكذلك سوف ييسر له القيام بتعاليمه وتبليغه.

[٩-١٠] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يداوم علىٰ تذكير الناس بهذا القرآن، وأن يبلغ رسالة ربه للجميع، مستخدمًا في ذلك الحكمة والموعظة الحسنة. ثم بين له سبحانه أنه سيتعظ بهذا القرآن من يخشىٰ الله ويخاف عقابه.



وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ﴿٣﴾ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ﴿٤﴾ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ﴿٥﴾ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴿٦﴾ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ﴿٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ﴿٨﴾ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿١٠﴾ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴿١٣﴾ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾

[١١] ثم بين سبحانه أن الذي يبتعد عن هذه التذكرة هو ذلك الضال الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، المصرّ على الجحود عنادًا واستكبارًا.

[١٢-١٣] ثم بين جل وعلا مصير هذا المعاند وهو دخول نار جهنم الكبيرة الفظيعة فيقاسي حرَّها وعذابها، ثم بين سبحانه أن هذا الكافر لا يموت في هذه النار فيستريح من شدة العذاب وألمه، ولا هو يحيا حياةً كريمةً ينتفع بها.

[١٤-١٥] ثم أخبر سبحانه أنه قد فاز ونجا من النار من طهر نفسه بالإيمان وصالح الأعمال، وتخلى عن الشرك والمعاصي. وأحضر في قلبه أسماء وصفات ربه وما تتضمنه من الجلال والكمال؛ متذكرًا عظمة الله جل في علاه، ثم أدى ما عليه من الصلوات المفروضة في وقتها بخشوع وخضوع.

[١٦-١٧] ومع أن الله سبحانه بين للناس ما فيه نجاتهم إلا أنهم يؤثرون اللذات الفانية العاجلة الكائنة في الدنيا على الدار الآخرة الآجلة الباقية؛ فلا يفعلون ما فيه فلاحهم، والحال أن الدار الآخرة التي لم يجتهدوا كثيرًا لأجلها وهي الجنة أفضل وأدوم من الدنيا.

[١٨-١٩] ثم ختم جل وعلا هذه السورة مبينًا أن هذه المواعظ الفاضلة السامية المذكورة في هذه السورة، مثبتة في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهي مما توافقت عليه الشرائع، لاشتمالها على مصالح العباد في الدارين.

سورة الغاشية

سورة الغاشية مكيّة وآياتها ستّ وعشرون آية.

[١-٢-٣-٤-٥-٦-٧] بدأت السورة بالحديث عن أهوال يوم القيامة، فقال جل وعلا: هل بلغك يانبي الله خبر الداهية العظيمة وهي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها المفزعة؟. ثم بين سبحانه أن الناس في ذلك اليوم على قسمين: قسم تكون وجوههم ذليلة منكسرة خاضعة مهينة وهي وجوه الكفرة والمشركين، لأنها تنتظر مصيرًا محزنًا. وهذه الوجوهُ التي أوغلت في الضلال كانت في الدنيا تعملُ من الأعمال ما به مشقّةٌ وتعَب، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؛ حيث زين لهم الشيطان أعمالهم الباطلة. ثم بين سبحانه أن هذه الوجوه تدخل نارًا حامية قد اشتدت حرارتها، وإذا عطشوا جيء لهم بماء من ينبوع بلغ من الحرارة غايته. وإذا أحسوا بالجوع أكلوا طعامًا اسمه الضريع، وهو نوع من النبات فيه شوك سيِّئ الطعم تأنف البهائم من أكله. وهذا الطعام يضرهم، ولا ينفعهم بحال، فلا يُسمِنُ أجسادهم، ولا يَسُدُّ جوعهم الشديد.

[٨-٩-١٠-١١-١٢-١٣-١٤-١٥-١٦] ثم جاء الحديث عن القسم الثاني من الناس، وهم الذين تكون وجوههم في ذلك اليوم مسفرة، أي: ذات نعمة وبهجة ونضارة يبدو فيها النعيم، وهي وجوه المؤمنين. وهذه الوجوه لعملها الذي عملته في الدنيا راضية؛ لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها. ثم بين سبحانه بعض أنواع النعيم الذي أنعم الله به على أصحاب هذه الوجوه، فقال سبحانه: واعلموا أن أصحاب هذه الوجوه في جنة عالية المحال والمنازل والدرجات. لا تسمع فيها كلمة لغو وباطل. فيها عيونٌ تجري بالماء يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا وكما أرادوا. وفيها سررٌ مرتفعةٌ يجلسون ويتكؤون عليها. وفيها أكوابٌ وُضعت وهيئت للشاربين وجُهِّزَتْ لهم. وفيها وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مصفوفةٌ بعضها بجانب بعض. وفيها بسطٌ حِسَانٌ كثيرةٌ مفروشة.

[١٧-١٨-١٩-٢٠] وبعد أن ذكر جل وعلا الفريقين السابقين، قال للمنكرين للبعث المستبعدين إيجاد الحياة في العظام البالية المتناثرة والأجسام التي تحولت إلى تراب، فقال لهم: أفلا ينظرُون إلى الإبل وهو هذا المخلوق العجيب فيفكر أحدُهم كيف خَلَقَها الله بما فيها من بديع الصنعة وكبر الجسم؟. وإلى السماء البديعة في منظرها فيفكر كيف رفع الله بناءها، وأعلى سمكها بلا عمد ولا دعائم يرونها؟. وإلى الجبال فيهوله منظرها ويفكر كيف وضعت وضعًا ثابتًا لا اضطراب فيه؟. وإلى الأرض التي يسير عليها فيفكر كيف مهدت على ما يقتضيه صلاح أمور ساكنيها وانتفاعهم بها؟.

[٢١-٢٢] وبعد هذا التوبيخ لأولئك المشركين أمر سبحانه وتعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يداوم على وعظ هؤلاء الضالين وتخوفيهم بالله ومن عذابه الأليم، وبين له أن دوره ووظيفته هو الوعظ والإرشاد وتبليغ الرسالة، وأنه ليس عليهم بمسلَّط وليس له إجبارهم على ما يريد، فأنت يانبي الله عليك البلاغ، والله عليه الحساب.

[٢٣-٢٤] واعلم يانبي الله أن من تولىٰ من هؤلاء المشركين وأعرض عن الذكرىٰ، وجحد الحق المعروض عليه فإن الله سوف يعذبه العذاب الأكبر في الآخرة.

[٢٥-٢٦] ثم ختم جل وعلا السورة ببيان أن مرجع العباد يوم القيامة إلىٰ الله وحده. وأنه هو وحده الذي يتولىٰ حسابهم وعقابهم.

سورة الفجر

سورة الفجر مكيّة وآياتها ثلاثون آية.

[١-٢-٣-٤] بدأ جل وعلا بهذه الإقسامات؛ حيث أقسم بالفجرِ وقت انبلاج الضوء. وأقسم بليالي عشرٍ من ذي الحِجَّة. وأقسم بالعدد المزدوج من كل شيء، وبالعدد الفرد من كل شيء. وأقسم بالليل إذا صار وذهب بظلامه.

[٥] وبعد هذه الإقسامات قال سبحانه: هل فيما ذكر من هذه الأشياء قسم مقنع لذي لب وعقل؟ أما جواب القسم فهو محذوف تقديره: أقسم لكم أن الكفار سوف يعذبون بسبب إصرارهم علىٰ الكفر وعدم الإيمان بالله.

[٦ - ٧ - ٨] ثم أخبر جل وعلا علىٰ سبيل الاستشهاد ما أنزله من العذاب علىٰ الأقوام السابقة المشركة فقال سبحانه: ألم تنظر أيها الإنسان إلىٰ ما فعلَ ربك بعاد. وعاد كانوا يسكنون مدينة (إرم) ذات الأعمدة المحكمة والمحصنة. وبين أن هذه المدينة لم يخلق في البلاد كلها مدينة مثلها. وعاد هم سكان الأحقاف الرملية الواقعة بين حضرموت ونجران بالربع الخالي شرق الجزيرة العربية، ونبيهم هو هود عليه السلام. سئل الشيخ البسام في درسه في الحرم المكي بتاريخ: ٢٣/ ٢/ ١٤١٨هـ: من هم إرم ذات العماد؟ **قال**: هي بلاد عاد قوم هود، وهي في الربع الخالي، قريبًا من حضرموت، والأحقاف هي النفود – أي: الرِّمال – الشبيهة بالجبال المرتفعة المتعرجة.

[٩] وكذلك ألم تنظر أيها الإنسان إلىٰ ثمود الذين قطعوا الصخور ونحتوا الجبال التي في وادي القرىٰ وجعلوها بيوتًا أو قبورًا لموتاهم. وثمود كانوا شمال الجزيرة العربية علىٰ طريق الحج من الشمال إلىٰ مكة في وادي القرىٰ وتسمىٰ الحجر.

[١٠] وكذلك ألم تنظر أيها الإنسان إلىٰ فرعون ذي الأوتاد، أي: الأهرامات، والمباني العظيمة التي شيدها هو ومن قبله.

[١١-١٢-١٣] ثم بين سبحانه أن هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد طغوا وتجبروا وتجاوزوا حدودهم بكفرهم. وبين أن هؤلاء المتجبرين استعملوا سلطانهم في هضم حقوق الناس وظلمهم، فكانوا سببًا في إفساد البلاد. فعاقبهم الله بأن أنزلَ عليهم عذابَه الشديد، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

[١٤-١٥-١٦] واعلم يانبي الله أن ربك ليرقب عمل كل إنسان في الأرض، ويحصيه عليه، ويجازيه به، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. ثم فصل سبحانه فقال: فأما الإنسان الغافل عن ربه إذا اختبره فأنعم الله عليه وأوسع له في الرزق إكرامًا من الله له، فإنه يقول: ربي أكرمن، وما خطر بباله أنه امتحان له هل يشكر؟ وهل يؤدي واجبات النعمة عليه؟. وأما إذا رأىٰ أن رزقه لا يأتيه إلا قليلًا وبتعب، ظن أن ذلك إهانة من


الجُزءُ الثَّلاثُون — سُورَةُ الفَجۡرِ

إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

سُورَةُ الفَجۡرِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

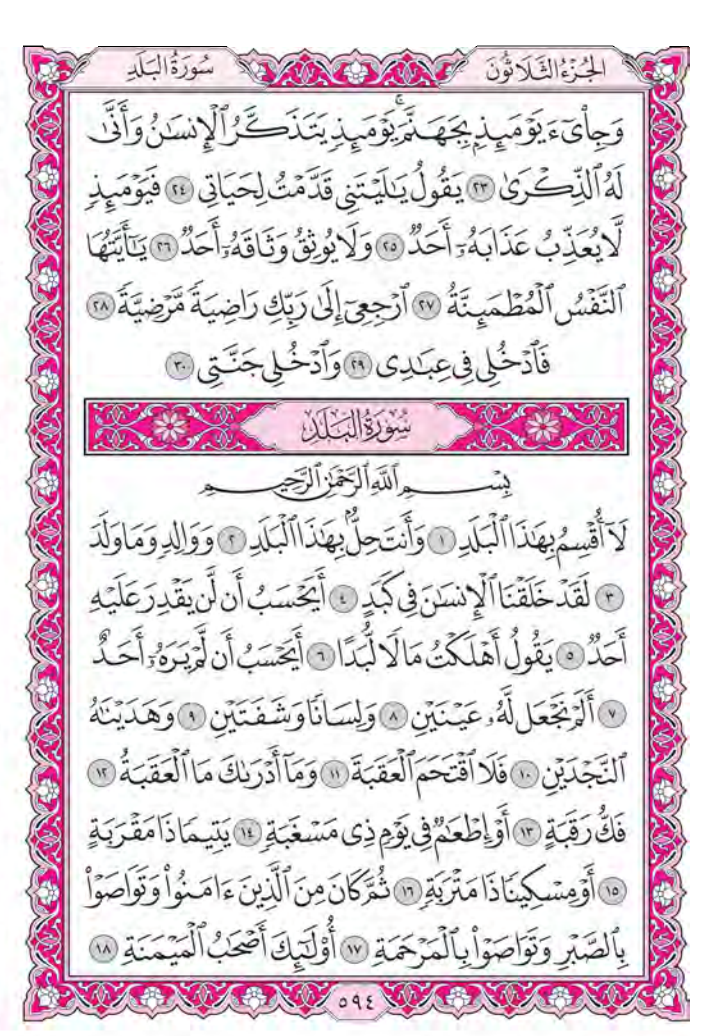
وَٱلۡفَجۡرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾

٥٩٣

الله له وإذلال لنفسه فيتضجر ويتهم ربه بالإساءة إليه ومنع الخير عنه، وغاب عنه أن الحياة كلها ابتلاء وكبد، وأن من ضيق عليه رزقه وصبر واحتسب وشكر الله علىٰ كل حال أنه هو النَّاجي حقًا.

[١٧-١٨-١٩-٢٠] واعلموا أن الأمر ليس كما يعتقدُ هذا الذي ابتلي، أي: اختبر في إكرام الله وإهانته؛ بل أنتم تفعلون ما هو شر من ذلك، وهو أنكم لا تكرمون اليَتيم. ولا يحث بعضكم بعضًا علىٰ إطعام المسكين وإصلاح شأنه. وإنكم تأكلون أموال اليتامىٰ والنساء والضعفاء التي يتركها من يتوفىٰ منكم أكلًا شديدًا؛ فتجمعون بين نصيبكم منه ونصيب غيركم. وتحرصون علىٰ جمع المال حرصًا شديدًا كأنكم مخلدون.

[٢١-٢٢] ثم زجر سبحانه هؤلاء الكفار فقال لهم: إذا أصررتم أيها الكفار علىٰ كفركم وعلىٰ هذه الأعمال السيئة فانتظروا يوم القيامة يوم أن تتحرك الأرض حركةً شديدةً وتتزلزل زلزالًا قويًّا. ويجيء الربُّ سبحانَه مجيئًا يليقُ بجلاله وعَظَمَتِه، والملائكة في هذه الحال يقفونَ صفوفًا تعظيمًا له. وقوله ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، جل الفرق الإسلامية كالأشاعرة والمعتزلة وغيرهما يؤولون بعض صفات الله تعالىٰ، ومن ذلك صفة المجيء لله فيقولون: (وجاء ربك، أي: وجاء أمر ربك). أما أهل السنة والجماعة فيثبتون كل ما أثبته الله لنفسه في كتابه، وأثبته له رسوله ﷺ في سنته؛ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، ومن ذلك صفة المجيء فإنهم يعلمون معناه ويؤمنون به ويثبتونه، ويقولون: وجاء ربك مجيئًا يليق بجلاله لا نعرف كنهه ولا كيفيته، كما لا نعرف كيفية ذاته.



الجُزْءُ الثَّلَاثُونَ — سُورَةُ البَلَدِ

وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرْضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

سُورَةُ البَلَدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٞ فِي يَوْمٖ ذِي مَسْغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينٗا ذَا مَتْرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾

٥٩٤

[٢٣-٢٤] وفي ذلك اليوم العظيم يؤتىٰ بنار جهنم تجرها الملائكة بالسلاسل في مشهدٍ تنخلع له القلوب، وحينها يتذكر الإنسان الكافر ما قدمه من خير وشر، ويتذكر ما وعده به الأنبياء والرسل من البعث والجزاء والحساب، وهذه الذكرىٰ لا تنفعه في هذا الموضع، فقد فات وقت العمل، وجاء وقت الحساب، فيقول حينها – وقد تملكته الحسرة والندامة –: ياليتني قدَّمت في الدنيا ما ينفعني في الحياة الآخرة من الإيمان والعمل الصالح.

[٢٥-٢٦] وفي ذلك اليوم لا أحدَ يُعذِّب في الدنيا كعذابِ اللهِ للكافرِ، ولا يُقَيِّدُ أحد بالسلاسل والأغلال مثل تقييد الله للكافر، أي: أن عذابهم يصل إلىٰ درجة تمني الموت.

[٢٧-٢٨] ثم أمر سبحانه نفس الإنسان الطاهرة الزكية، المطمئنة بوعد الله، أن ترجع إلىٰ ربها راضيةً بما قَسَمَ اللهُ لها من الأجر والثواب، ومرضيًّا عنها من الله.

[٢٩-٣٠] ثم أمر جل علا هذه النفس المطمئنة أن تدخل الجنة مع من يدخلها من عباد الله الصالحين، وأن تدخل في جنة الله التي وعد الله عباده المتقين، وتتمتع فيها بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

سورة البلد

سورة البلد مكيّة وآياتها عشرون آية.

[١-٢-٣] بدأ جل وعلا بالقسم في هذه السورة بهذا البلد وهو مكة المكرمة قسمًا مؤكدًا، وقوله: ﴿لَآ﴾ للتنبيه والتأكيد. ثم قال سبحانه: وأنت يانبي الله ساكن بهذا البلد، وقد استحل المشركون تكذيبك واتهامك بالجنون والسحر والشعر. ثم أقسم سبحانه بآدم وذريته.

[٤] ثم جاء جواب القسم مبينًا أن الله جل في علاه خلق الإنسان وجعله في تعب ومشقة، وأنه لا يزال يقاسي من ضروب المتاعب منذ نشأته في بطن أمه إلىٰ أن يصير رجلًا.

[٥] ثم وبخ جل وعلا ذلك الإنسان الضال المعاند المغتر بقوته فقال: هل يظن هذا الشقي الفاجر أن الله تعالىٰ لا يقدر عليه لشدته وقوته؟ وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في (أبي الأشد بن كلده)، وقد كان رجلًا طاغية جبارًا معاندًا يغتر بقوته.

[٦-٧] ثم أخبر سبحانه أن هذا الفاجر المعاند كان يقول علىٰ سبيل التفاخر: لقد أنفقت مالًا كثيرًا في عداوة محمد وأصحابه. فهل كان يظن هذا الكافر المعاند أنَّ الله لم يطَّلع عليه عندما كان ينفق أمواله، وهل كان يظن أن الله لن يحاسبه أو يسأله عن ماله ممَّ اكتسبه وفيم أنفقه.

[٨-٩-١٠] ثم بدأ جل وعلا بذكر بعض ما أنعم به علىٰ هذا الإنسان الضال المغتر، فقال سبحانه: ألم نجعل له عينين يبصر بهما؟!، ولسانًا وشفتين ينطق بهما؟!. وأرشدناه إلىٰ طريق الخير وطريق الشر.

[١١] وبعد أن أكمل جل وعلا حواس وعقل هذا الفاجر المعاند هلا جاهد النفس والشيطان وأنفق ماله وعمل أعمال البر لاجتياز العقبة، وهي أهوال يوم القيامة العظيمة.

[١٢] ثم قال سبحانه علىٰ سبيل التشويق والتفخيم: وما أعلمك أيها الإنسان شأن هذه العقبة؟ وكيفية النجاة منها، ولا شك أن النجاة من هذه العقبة لا يكون إلا بالإيمان وبالله ورسوله ﷺ والإكثار من العمل الصالح.

[١٣-١٤-١٥-١٦] بعد ذلك بين جل شأنه سبيل النجاة من هذه العقبة؛ فقال سبحانه: إن النجاة من العقبة يكون بعتق الرقبة في سبيل الله، أي: عتقها من الرق أو من الديون والالتزامات الصعبة. وأيضًا يكون بإطعام الفقير في يوم عصيب ذي مجاعة. وهذا الإطعام يكون إما لليتيم الصغير الذي فقد أباه ولم يبلغ الحلم، ويكون من قرابته. أو يكون بإطعام المسكين الذي اشتد به الفقر والحاجة.

[١٧] ثم بين سبحانه أن الواجب علىٰ هذا المعاند إذا أراد أن يكون ممن يقتحم العقبة أن يقوم بهذه الأعمال الصالحة، ويكون أيضًا من الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ؛ لأن العمل الصالح مع عدم الإيمان لا فائدة منه ولا ينفع صاحبه، ويكون أيضًا ممن يصبر ويوصي غيره بالصبر علىٰ طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة، ويكون ممن يتواصىٰ مع غيره برحمة الخلق والإحسان إليهم.

[١٨] ثم بين سبحانه أن أولئك الذين وفقهم الله لاقتحام العقبة وقاموا بهذه الأفعال الحميدة الجليلة هم أصحاب اليمين، أي: الذين يأخذون كتبهم باليمين؛ فهم السعداء أصحاب الجنة الخالدون فيها.



وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠

سُورَةُ الشَّمْسِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩

[١٩] ثم بين جل وعلا أن الذين كذبوا بآيات الله وجحدوا نبوة محمد ﷺ، هم أصحاب الشمال، أي: هم الذين يأخذون كتبهم بالشمال.

[٢٠] ثم بين جل في علاه نهاية أصحاب الشمال؛ فأخبر أن عليهم نارًا مطبقة مغلقة لا يستطيعون الخروج منها أبدًا الآبدين.

سورة الشمس

سورة الشمس مكيّة وآياتها خمس عشرة آية.

[١-٢-٣-٤-٥-٦-٧-٨] بدأ جل وعلا بهذه الأيمان؛ حيث أقسم بالشمس وبضحاها، وهو وقت ارتفاعها بعد طلوعها، وأقسم بالقمر إذا تبع الشمس، فطلع بعد غروبها. وأقسم بالنهار إذا جلَّىٰ وأظهرَ النور والضياء، وكشف الظلمة. وأقسم بالليل إذا غطَّىٰ الأرض، فأظلمَ ما عليها. وأقسم بالسماء وإحكام الله لخلقها وإتقانه لها. وأقسم بالأرض وبسْطِهَا من كل جانب. وأقسم بكلّ نفسٍ خلقها الله وأتمَّ خلقها. فعرَّفها حالها، وما فيها من حُسْنٍ وقُبْحٍ.

[٩-١٠] ثم جاء جواب القسم لهذه الأيمان الأحد عشر مبينًا سبحانه أنه قد فاز ونجا من طهَّر نفسه من الذنوب والعيوب وزكاها، وأنه خاب وخسر من أضلها وأغواها وعمل بما يكرهه الله ويأباه من الذنوب والآثام والمعاصي.

[١١-١٢] ثم أخبر سبحانه أن ثمود كذبت نبيها صالحًا بسبب طغيانها، وذلك حين انطلق أشقىٰ القوم وهو (قدر بن سالف) بسرعة فعقر الناقة. وقال لصالح علىٰ سبيل السخرية: ائتنا ياصالح بعذاب الله إن كنت من الصادقين.

[١٣] ثم بين سبحانه أن نبيهم صالحًا عليه السلام نهاهم عن إلحاق أي أذىٰ بالناقة، وحذَّرهم من الاعتداء عليها وعلىٰ شِربها من الماء، وحذَّرهم عقاب الله وسخطه.

[١٤] ثم بين سبحانه أنهم كذبوا نبيهم صالحًا وقتلوا الناقة؛ فأهلكهم الله بسبب إجرامهم؛ حيث أطبق عليهم قصورهم من فوقهم، وعمهم الله بالهلاك، ولم ينج من العذاب إلا صالحٌ ومن آمن معه بفضل الله و رحمته.

[١٥] ثم ختم جل وعلا السورة ببيان أنه سبحانه لا يخاف من عاقبة إهلاك هؤلاء الكفار وتدميرهم، كما يخاف الحكام من عاقبة ظلمهم وإيذائهم لشعوبهم؛ لأنهم يخافون ثورة هذه الشعوب.

سورة الليل

سورة الليل مكيّة وآياتها إحدىٰ وعشرون آية.

[١-٢-٣-٤] بدأ جل وعلا بهذه الأيمان؛ حيث أقسم بالليل إذا ستر الخلائق بظلامِه، وأقسم بالنهار إذا تجلىٰ وانكشف وأنار العالم. وأقسم سبحانه بنفسه أنه هو الذي خلق الذكر والأنثىٰ. ثم جاء جواب القسم فأخبر سبحانه أن عملَكُم أيها الناس الذي تعمَلونَهُ لمتفرق تفرقًا عظيمًا.

[٥-٦ - ٧] ثم فصَّل جل وعلا فبين أن الناس من حيث الأعمال ينقسمون إلىٰ فريقين، الفريق الأول: وهو من كانت أعماله تهدي إلىٰ الجنة، فقال سبحانه: فأما مَنْ أنفقَ من مالِهِ في سبيل الله، فأعطىٰ الفقراء والمساكين وغيرهم، واتقىٰ الله بفعل أوامرَه واجتناب نواهيه. وصدَّق بالجنة التي أعدها الله للمتقين من عباده. ثم بين سبحانه أن من اتصف بهذه الصفات الجليلة فسوف يهيئه الله لعمل الخير وسيكون من الفائزين.

[٨-٩-١٠] ثم ذكر جل وعلا الفريق الثاني: وهو من كانت أعماله تهدي إلىٰ النار، فقال سبحانه: وأما من بخل بإنفاق المال، ولم يعط الفقراء والمساكين حقهم شحًّا وبخلًا، واستغنىٰ عن الله وعن ثوابه. بل كذب بالجنة ونعيمها، وكذب باليوم الآخر وبالجزاء والحساب، وكذَّب بكل ما أوجب الله علىٰ عباده من الإيمان والعمل الصالح.



[١٠] ثم بين سبحانه أن من اتصف بهذه الأعمال السيئة الآنفة الذكر فسوف يسهل الله له عملَ الشرِ والوقوعَ فيه، والمقصود أن الله سوف يتركه وما اختار هو لنفسه.

[١١] ثم بين سبحانه أن هذا الشقي إذا هوىٰ في نار جهنم وهلك فيها فلن تنفعه أمواله التي بخل بها ولم ينفقها لمستحقيها، ولن تنجيه من عذاب الله. [١٢] ثم أخبر جل وعلا أنه بين للناس طريق الهدىٰ وطريق الضلالة، وبعد ذلك كل له اختياره. [١٣] وبين أنه وحده الذي يملك كل ما في الدنيا وكل ما في الآخرة، وأنه هو المتصرف الوحيد فيهما. [١٤] واعلموا أيها الناس أن الله أنذركم نارًا تلتهب وتتوقد وتتوهج من شدة حرارتها. [١٥] وهذه النار لا يصلاها إلا الشقي الشديد الشقاوة. [١٦] الذي كذب بالرسل وبما جاءوا به من الأدلة والبراهين، وأعرض عن الإيمان وطاعة الله عز وجل، ويصلاها المؤمن العاصي الذي غلبت سيئاته حسناته إن لم يشمله الله برحمته.

[١٧] ثم بين سبحانه أن هذه النار لن ينجو منها إلا من كان من أصحاب التقوىٰ الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

[١٨] وهو أيضًا الذي ينفق ماله ويصرفه في وجوه الخير راجيًا بذلك تطهير ماله ونفسه من الذنوب والمعاصي. [١٩] ثم بين جل وعلا أن هذا التقي الذي ينفق ماله في وجوه الخير ليس لأحد من الفقراء أو المساكين عنده نعمة حتىٰ يكافئه عليها. [٢٠] وإنما ينفق لوجه الله، طلبًا لرضىٰ ربه الأعلىٰ، وعظيم مثوبته.

قيل: إن هذه الآيات نزلت تصور قصة أبي بكر مع مسطح رضي الله عنهما. [٢١] واعلموا أيها الناس أن من اتصف بهذه الصفات الحميدة فسوف يرضيه ربه في الآخرة بثوابه وعظيم جزائه له.

سورة الضّحى

سورة الضحىٰ مكيّة وآياتها إحدىٰ عشرة آية.

[١-٢] بدأ جل وعلا بهذه الأيمان؛ فقال سبحانه: أقسم يانبي الله بوقت الضحىٰ وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس، وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه، وغطىٰ كل شيء في الوجود. [٣] ثم جاء جواب القسم فقال سبحانه: والله ما هجرك يانبي الله ربك منذ أن اختارك لرسالته، ولا أهملك، ولا أبغضك. [٤] ثم بشر جل وعلا نبيه ﷺ أن الجنة خير له من هذه الدنيا الفانية. قال الشيخ ابن عثيمين في درسه في الحرم المكي في صباح الخميس: ١٤١٨/٣/٢٨هـ: وقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، هذا خاص بالنبي ﷺ، أما سائر الناس فقال جل وعلا: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف:٣٥]، ولم يشترط التقوىٰ للنبي ﷺ؛ لأنه إمام المتقين. [٥] ثم بشره سبحانه أنه سوف يعطيه من الإنعام في الدنيا والآخرة ما ترضىٰ به نفسه، وتقر به عينه.

[٦] ثم عدد سبحانه بعض نعمه علىٰ نبيه ﷺ فقال له: ألم يجدك ربك نشأت يتيمًا فآواك وشملك برعايته؟!.

[٧] ووجدك ضالًا لا تدري ما الإيمان والقرآن والشرائع فهداك لذلك؟!. [٨] ووجدك فقيرًا فأغناك الله؟! قال الشيخ ابن عثيمين في درسه في الحرم المكي في صباح الخميس بتاريخ: ١٤١٨/٣/٢٨هـ: وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾: لم يقل: فآواك، وهداك، وأغناك؛ بل عمم؛ لأنه جل وعلا: هداك وهدىٰ بك، وآواك وآوىٰ بك، وأغناك وأغنىٰ بك، والعمومات لا تنطبق علىٰ كل شخص بعينه؛ لأن التعميم للعموم. [٩] وبعد أن عدد سبحانه هذه النعم علىٰ نبيه ﷺ أمره أن لا يقهر اليتيم ولا يستذله. [١٠] وأن لا يزجر السائل المستجدي الذي يسأل عن حاجة وفقر، قال الشيخ ابن عثيمين في درسه في الحرم المكي في صباح الخميس بتاريخ: ١٤١٨/٣/٢٨هـ: السائل في قوله: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ يحتمل أن يكون السائل الفقير، ويحتمل أن يكون السائل للمسائل العلمية، ويحتمل أن يكون السائل للعارية، ثم قال: ويُحمل المعنىٰ علىٰ الجميع. [١١] ثم أمره بالتحدث بنعم الله عليه وإظهارها للناس وإشهارها بينهم.

سورة الشّرح

سورة الشرح مكيّة وآياتها ثمان آيات.

[١] بدأ جل وعلا بالامتنان علىٰ نبيه ﷺ فقال سبحانه: ألم نشرح لك صدرك يانبي الله بالهداية والإيمان، حتىٰ تستوعب الوحي وتتحمل كلام المغرضين وحقد الحاقدين. [٢] وحططنا عنك ما أثقل ظهرك بإعانتك علىٰ تبليغ الرسالة وحمل تبعاتها.

[٣] وبين سبحانه أنه حط عنه هذا الحمل الذي أثقل ظهره وكدر خاطره، فصار بسببه مهمومًا مغمومًا.

[٤] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل نبيه ﷺ عالي الشأن، رفيع المنزلة، وجعل سمعتَه مثالًا يحتذي به الصالحون وأخلاقَه قدوةً يتمثل بها الصالحون. [٥-٦] واعلم يانبي الله أن مع الضيق فرجًا؛ فسيأتي الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر؛ فلا تحزن ولا تضجر. فإن العسر السابق والمصاعب التي قابلتك سيكون بعدها يسر آخر، قال ابن مسعود: لن يغلب عسر يسرين وقرأ الآية.

[٧-٨] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ إذا فرغ من دعوة الناس أن يجتهد في عبادة ربه. وأن يجعل همه ورغبته فيما عند الله، وأن يسأل الله فضله، متوكلًا عليه وحده في جميع شئون حياته؛ فهو نعم المولىٰ ونعم النصير.

سورة التّين

سورة التين مكيّة وآياتها ثمان آيات.

[١-٢-٣] بدأ جل وعلا هذه السورة بالإقسام بثمرة التين وثمرة الزيتون، وهما شجرتان مباركتان مفيدتان مشهورتان في بلاد الشام المباركة. ثم أقسم بجبل الطور وهو الجبل المبارك الذي كلم الله موسىٰ عليه السلام عنده. ثم أقسم بمكة البلد الأمين أشرف البقاع علىٰ وجه الأرض.

[٤] ثم جاء جواب القسم مبينًا فيه سبحانه أنه خلق الإنسان في أبدع صورة، وأحسن شكل، وزينه بالعقل والنطق، وفضله علىٰ كثير ممن خلق.

[٥] ثم بين سبحانه أنه بعد هذا الحسن وبعد هذه النضارة يكون مصير هذا الإنسان إلىٰ النار إذا لم يقم بما أمر به من الإيمان بالله واليوم الآخر وعبادة الله وحده لا شريك له.

[٦] ثم استثنىٰ جل وعلا من هذا المصير السيِّئ أولئك الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعمِلوا الصالحاتِ، وشكروا الله علىٰ نعمه؛ وبسبب إيمانهم وعملهم الصالح فإن لهم ثوابًا دائمًا غير مقطوع.

[٧] وبعد هذه الدلائل والبراهين الواضحة فما الذي يجعلك أيها الإنسان تكذب بالله وباليوم الآخر وبالجزاء والحساب؟.

[٨] ثم ختم جل وعلا السورة بهذا السؤال مبينًا أنه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، ونحن نقول: نعم، وإنا علىٰ ذلك من الشاهدين، وما دام الأمر كذلك أليس من الواجب إخلاص العبادة له وحده، واتباع رسوله ﷺ؟.

سورة العلق

سورة العلق مكيّة وآياتها تسع عشرة آية. والآيات الخمس الأولىٰ هي أول ما نزل من القرآن علىٰ النبي ﷺ.

[١-٢] بدأ جل وعلا السورة بأمر نبيه محمدٍ ﷺ أن يقرأ القرآن مبتدئًا ومستعينًا باسم ربه الذي خلقَ كلَّ شيء. ثم بين سبحانه علىٰ وجه الخصوص أنه خلق الإنسان – وهو من أشرف المخلوقات كلها – من العلق، والعلق: هو دم متجمد متعلق بالرحم، وهذا الدم المتجمد تكون من التقاء الحيوان المنوي الخارج من الذكر



ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥
إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨

سُورَةُ التِّينِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣
لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ
٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦
فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨

سُورَةُ العَلَقِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ
وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ
مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ
٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا
إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢

بالبويضة الخارجة من الأنثىٰ، وبعد الجماع تتكون العلقة منهما معًا.

[٣-٤-٥] ثم كرر جل وعلا الأمر بالقراءة، فقال سبحانه: اقرأ يانبي الله فإن ربك كريم. ومن كرمه أنه علم الإنسان القراءة والكتابة بالقلم. ولا شك أن القلم هو آلة الكتابة الذي نسجل به المعارف بما في ذلك الكتب السماوية؛ فهو الذي تبنىٰ به الحضارات؛ فلذلك هو نعمة من أعظم نعم الله علىٰ البشر. ومن كرمه سبحانه أنه علم الإنسان ما لم يكن يعرف من أنواع الفنون والعلوم، التي كانت سببًا في إخراجه من ظلمة الجهل إلىٰ نور العلم والمعرفة.

[٦-٧-٨] ثم بين جل وعلا الأسباب التي تحمل الإنسان علىٰ الطغيان، فقال سبحانه: حقًّا إن الإنسان الأحمق الجاهل الضال ليتجاوز الحد في الطغيان والفجور. إذا رأىٰ نفسه ذا مال وغنىٰ وجاه وعشيرة. ثم هدد سبحانه هذا الإنسان الذي تجاوز حده وأخبره أن مَرَده ومصيرَه إلىٰ الله، فليس له عن ربِّه مَفَرٌّ ولا ملجأ، وسيجازيه علىٰ أفعاله وأقواله.

[٩-١٠-١١-١٢] ثم قال سبحانه: عجبًا وأي عجب من هذا الأحمق – وهو أبو جهل – الذي كان ينهىٰ النبي ﷺ أن يصلي عند الكعبة. فإذا كان محمدٌ علىٰ الاستقامة، أو كان آمرًا بتقوىٰ الله والخوف منه، فهل يحق لهذا الفاجر أن ينهاه عن ذلك؟

أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

سُورَةُ القَدْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

سُورَةُ البَيِّنَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

[١٣-١٤] ثم خاطب جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ فقال: أخبرني يانبي الله عن حال هذا الشقي الضال الذي كذب بآيات الله وأعرض عنها. ألم يعلم أن الله يراه ويسمعه ويراقب أعماله، وسوف يحاسب عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[١٥-١٦] وليس الأمر كما يظن هذا الشقي؛ فأقسم إن لم ينته هذا الشقي عن غيه وضلاله لنأخذن بناصيته – وهي مقدمة الرأس فوق الجبهة –، ولنذيقنه العذاب الأليم، وذكر الناصية لأنها هي التي تصدر منها التوجيهات. واعلم يانبي الله أن صاحب هذه الناصية كاذب فاجر خاطئٌ.

[١٧-١٨] وحيث إن النبي ﷺ انتهر أبا جهل عندما نهاه عن الصلاة عند الكعبة، فقال هذا الشقي: «علام يتهددني محمد، وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا»، فقال سبحانه: فليدع هذا الشقي عشيرته وأهل ناديه لينقذوه من العذاب الأليم الذي سيقع عليه بسبب كفره وجحوده. فإننا سندعو له ملائكة غلاظًا شدادًا يدفعونه إلىٰ العذاب دفعًا شديدًا.

[١٩] واعلم يانبي الله أن الأمر ليس كما يدعي هذا الشقي المغرور، من أن عشيرته وأهله سينصرونه، فإنه هو وعشيرته أعجز من أن يفعلوا ذلك؛ فلذلك اترك هذا الشقي في غيه وغروره، ولا تُطِعْه في ترك الصلاة، فإنه لا يستطيع أن يستمر في إيذائه، واستمر أنت في نشر الدعوة، وكذلك استمر في المحافظة علىٰ أداء الصلاة التي تقربك من الله جل في علاه، واعلم أن الله حافظك من هؤلاء الكفرة والمشركين.

سورة القدر

سورة القدر مكيّة وآياتها خمس آيات.

[١-٢] يخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أنه أنزل هذا القرآن في ليلة القدر، ثم قال له: وما أعلمك يانبي الله ما ليلة القدر؟؛ وقد ورد أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ كله إلىٰ السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم صار ينزل منجمًا – أي: مقطعًا – علىٰ النبي ﷺ حسب الوقائع وحسب ما يشاء الله علىٰ طول حياته من سنة تكليفه بالرسالة إلىٰ سنة موته ﷺ. وسميت ليلة القدر لأن الله يقدر فيها أحداث السنة كلها.

[٣-٤-٥] ثم أخبر جل وعلا أن العمل في ليلة القدر أفضل من ألف شهر. أي: أفضل من ثلاثٍ وثمانين سنة وأربعة أشهر. وأخبر أن الملائكة ومعهم جبريل عليه السلام ينزلون في ليلة القدر من السماء إلىٰ الأرض بإذن الله ومعهم الأوامر الإلهية. وأخبر أن ليلة القدر تشتمل علىٰ السلام من أولها حتىٰ يطلع الفجر، ليس فيها شر أو غم وهم.

سورة البيّنة

سورة البينة مدنيّة وآياتها ثمان آيات.

[١-٢] ابتدأت السورة ببيان أن الذين كفروا بالله وبرسوله ﷺ من اليهود والنصارىٰ والمشركين عبدة الأوثان والأصنام لن ينتهوا عن كفرهم وضلالهم حتىٰ يتبين لهم الحق وتأتيهم العلامة والحجة الواضحة التي وعدوا بها في الكتب السماوية السابقة. ثم بين سبحانه أن هذه العلامة التي وعدوا بها هي محمد ﷺ الذي يتلو عليهم القرآن الكريم المنزه عن الباطل، والذي يهديهم ويصحح مسارهم.

[٣] ثم بين سبحانه أن هذا القرآن يحتوي علىٰ آيات وأحكام تحمل التعاليم القيمة المستقيمة المحكمة التي لا عوج فيها، والتي تهدي إلىٰ الحق وإلىٰ الطريق المستقيم.

[٤] ثم بين جل وعلا أن اليهود والنصارىٰ ما اختلفوا إلا بعد أن بُعث رسول الله ﷺ للناس أجمعين ليبين لهم ما انطمس من التعاليم السماوية؛ فلما تبين لهم أنه النبي الذي وعدوا به في التوراة والإنجيل اختلفوا فيه ﷺ؛ فمنهم من آمن به، وأكثرهم لم يؤمن؛ لأنهم استعظموا أن تكون النبوة في غيرهم، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[الحديد:٢٩]، وقد آتىٰ جل وعلا محمدًا ﷺ النبوةَ.

[٥] ثم بين جل وعلا أن الأوامر التي حملها القرآن لليهود والنصارىٰ والمشركين هي إخلاص العبادة لله وحده وأن لا يشركوا به شيئًا، وأن يكونوا حنفاء مائلين عن الأديان كلها إلىٰ دين الإسلام، وأمروا أيضًا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وذلك المأمور به هو دين الاستقامة الذي أمر به جميع الرسل.

[٦] ثم أخبر جل وعلا أن الذين كفروا بالله ورسوله ﷺ من اليهود والنصارىٰ والمشركين عبدة الأوثان؛ هؤلاء جميعهم يوم القيامة في نار جهنم، ماكثين فيها أبد الآبدين، لا يخرجون منها أبدًا، لأنهم شر الخلق وأسواهم.

[٧-٨] وبعد أن بين جل وعلا جزاء الكافرين في الآخرة بين جزاء المؤمنين، فأخبر أن الذين صدَّقوا الله واتبعوا رسوله ﷺ وعملوا الأعمال الصالحة أنهم خير الخلائق في الدنيا والآخرة، وهم الذين يستحقون الفضل من الله، ولذلك كان ثوابهم عند خالقهم في الآخرة جناتَ إقامة واستقرار تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، وأنهم ماكثون في هذا النعيم أبد الآبدين، لا ينقطع عنهم أبدًا؛ فالله سبحانه وتعالىٰ رضي عنهم وقبل أعمالهم الصالحة، ورضوا عنه بما أعد لهم من النعيم المقيم، ثم بين سبحانه أن هذا الجزاء والثواب الحسن هو لمن خاف الله وابتعد عما يغضبه من الكفر والشرك والذنوب والمعاصي.

سورة الزّلزلة

سورة الزلزلة مدنيّة وآياتها ثمان آيات.

[١-٢-٣] ابتدأت السورة بالحديث عن الزلزال العظيم الذي سيحدث يوم القيامة، فقال جل وعلا: إذا اضطربت الأرض وارتجفت وتحطم سطحُها. ولفَظَت ما فيها من كنوز وجميع ما انطمر في بطنها، أما الموتىٰ فقد أخرجهم الله منها بالنفخة الثانية. وقال الإنسان منبهرًا بما يرىٰ ويبصر: ما الذي حدث؟

[٤-٥] ثم بين جل وعلا أن الأرض في وقت الزلزال الرهيب سوف تخبر بما كان يُعمل عليها من خير أو شر، وذلك الإخبار بسبب أن الله جلت عظمته أمرها بذلك.

[٦] ثم أخبر جل وعلا أن الناس يوم القيامة سوف يرجعون من موقف الحساب متفرقين جماعات جماعات بعد أن يقضي الله بينهم، بعضهم مطمئن، وبعضهم يرتجف هلعًا وخوفًا؛ ثم يقال لكل جماعة: انظروا أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وانظروا مآلكم في الآخرة.

[٧-٨] ثم بين جل وعلا أن من كان يعمل في الدنيا من الخير أدنىٰ عمل سوف يرىٰ ثوابه. وأن من كان يعمل الشر في الدنيا ولو كان قليلًا سوف يرىٰ عقابه في الآخرة، أي: أنه لا يُفقد شيءٌ مما قدم أي إنسان صغيرًا كان أو كبيرًا من الخير أو الشر.



سورة العاديات

سورة العاديات مكيّة وآياتها إحدىٰ عشرة آية.

[١] أقسم جل وعلا في هذه السورة ببعض مخلوقاته، فأقسم بالخيل التي تعدو في سبيل الله وتجري بسرعة فيُسمع لها عند جريها صوت زفير شديد.

[٢] ثم أقسم سبحانه بالخيل التي تقدح بحوافرها الحجارة عند جريها بسرعة فيتطاير منها الشرر.

[٣] ثم أقسم سبحانه بالخيل التي تغير علىٰ الأعداء وتباغتهم صباحًا.

[٤] ثم بين سبحانه أن من صفات هذه الخيل أنها شديدة العَدْو لدرجة أنها تثير الغبار بقوة.

[٥] ثم بين سبحانه أن من صفات هذه الخيل أنها تتوسط في جموع الأعداء في قلب المعركة.



إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ
ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾
وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

سُورَةُ القَارِعَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ
يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ
كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى
عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ
﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ
كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾
ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

[٦-٧-٨] ثم جاء جواب القسم مخبراً أن الإنسان شديد الجحود والكفر لنعم الله، فهو يكتم النعمة ويظهر الحسرة، وأنه في قرارة نفسه معترف بجحوده وتقصيره، فتراه ينفق ماله في الشهوات والملذات، وليس للفقراء نصيب في ماله. وهذا الإنسان شديد الحب للمال وشديد الحرص علىٰ جمعه، لا يهمه من أين جمعه، من حلال أو من حرام، وهذا العموم لا يشمل الذين اصطفاهم الله كالأنبياء والشهداء والصالحين.

[٩-١٠] ثم هدد جل وعلا هذا الإنسان الكنود فقال سبحانه: ألا يعلم هذا الجاهل المغتر المنكر لنعم الله عليه أن مصيره وعذابه الذي ينتظره يوم القيامة؛ حيث تقلب القبور ويبعثر ما فيها من الموتىٰ؟ ويظهر ما استتر في الصدور والضمائر كل ما احتوته من الخير والشر.

[١١] ثم بين جل وعلا أنه لا يخفىٰ عليه شيء مما قدموا؛ فهو مطلع علىٰ جميع أعمالهم ومجازيهم عليها.

سورة القارعة

سورة القارعة مكيّة وآياتها إحدىٰ عشرة آية.

[١] بدأ جل وعلا بذكر اسم من أسماء يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرع قلوب الناس بأهوالها، ثُمَّ هوَّلَ أمرها مستفهمًا عنها: أيُّ شيءٍ هذه القارعة؟، ثم زاد في تهويلِ أمرها، فقال: وما أعلمك يانبي الله ما هذه القارعة؟

[٤] ثم بين جل وعلا شيئًا من أهوال هذه القارعة؛ فأخبر سبحانه أن الناس في يوم القيامة يخرجون من قبورهم فزعين كأنهم فراش منتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعض، ويسيرون في كل اتجاه بغير انتظام من شدة الفزع، وقد بين سبحانه في آية أخرىٰ أنهم: ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر:٧]، والجراد يسير في اتجاه واحد مثل سرب الطيور، ولعل يوم الحشر لطوله يمر به الخلق في عدة حالات، والمراد هو تشبيه الناس المتجهين إلىٰ الحشر.

[٥] ثم بين جل وعلا أن الجبال الرواسي في يوم القيامة عندما تندك تكون كالصوف الذي مُزِّق وتفرقت أجزاؤه وتطاير في الهواء.

[٦-٧] ثم أخبر سبحانه أن من رجحت موازين حسناته، وزادت حسناته علىٰ سيئاته؛ فهو في حياة مُرضية في الجنة، تقر بها عينه، وتسر بها نفسه.

[٨-٩-١٠-١١] ثم أخبر جل وعلا أن من رجحت موازين سيئاته علىٰ حسناته، ولم تكن عنده حسنات، فمأواه جهنم يهوي في قعرها. ثم سأل سبحانه علىٰ سبيل التهويل والتفظيع: وما أدراك يانبي الله ما هذه الهاوية؟! فأجاب سبحانه أنها نارٌ قد اشتدَّ حرها، وبلغ في الشدة إلىٰ الغاية. اللهم نسألك السلامة نحن وإخواننا المسلمين.

سورة التكاثر

سورة التكاثر مكيّة وآياتها ثمان آيات.

[١-٢] يخبر جل وعلا أن الناس انشغلوا عن طاعة الله بالتفاخر والتباهي بكثرة بالأموال والأولاد؛ حتىٰ انتهت أعمارهم وهلكوا وصاروا إلىٰ المقابر ودفنوا فيها قبل أن يقدموا خيرًا لأنفسهم، وهذه حال كثير من الناس، نسأل الله العافية.

[٣-٤] ثم هدد جل وعلا أولئك الذين انشغلوا بالدنيا وافتخروا بكثرة الأولاد والأموال عن طاعة الله؛ فأخبر سبحانه أنهم إذا بقوا علىٰ هذه الحال فسوف يعرفون سوء عاقبة ذلك. ثم كرر سبحانه التهديد والوعيد لتأكيد الحسرة والندامة التي ستواجههم.

[٥] واعلموا أيها الناس لو كنتم تحققتم مما ينتظركم في الآخرة لشغلكم ذلك عن التفاخر والتكالب في طلب المال.

[٦] ثم أقسم سبحانه وأكد أن الناس سوف يبصرون الجحيم في الآخرة ويعرفونه بقلوبهم.

[٧] ثم أكد سبحانه أنهم سوف يرون الجحيم رؤية حقيقية لا شك فيها ولا ريب. ومراتب اليقين ثلاثة: ذكر هنا اثنتين: الأولىٰ: علم اليقين، ذكرت في الآية رقم (٥)، والثانية: عين اليقين، ذكرت في الآية رقم (٧)، والثالثة: حق اليقين، ذكرت في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة:٩٥].

[٨] ثم إنكم أيها الناس سوف تُسألون في الآخرة عن أنواع النعيم التي أنعم الله بها عليكم في الدنيا، والذي صرفتم حياتكم وجهدكم في تحصيله من غير أن تحسبوا لهذا اليوم حسابًا.



سورة العصر

سورة العصر مكيّة وآياتها ثلاث آيات.

[١-٢] أقسم جل وعلا بالعصر، أي: الدهر، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار، بأن الإنسان في خسران في أعماله طول حياته؛ لأنه يفضل العاجلة علىٰ الآجلة، والإنسان كالتاجر فقوّته وماله إن صرفهما في الملذات والمتع حتىٰ أدركه الموت؛ فهو في الآخرة من الخاسرين.

[٣] ثم بين جل وعلا أن الناجين الفائزين الحقيقيين هم الذين اتصفوا بأربع صفات وهي: الأولىٰ: الذين صدَّقوا الله واتبعوا الرسول ﷺ وعملوا بشرعه، والثانية: الذين عملوا الأعمال الصالحة، والثالثة: الذين تواصوا بالحق، أي: أوصىٰ بعضهم بعضًا بالثبات علىٰ الحق، والرابعة: الذين تواصوا بالصبر علىٰ الشدائد؛ فأسأل الله تعالىٰ أن يجعلنا منهم.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: لو ما أنزل الله علىٰ الناس إلا هذه السورة لكفتهم؛ لأنها شملت جميع علوم القرآن.

سورة الهُمَزَة

سورة الهمزة مكيّة وآياتها تسع آيات. وسبب نزولها أن الأخنس بن شريق أحد صناديد الكفر؛ كان كثير الوقيعة في المؤمنين، وكان كثير الطعن في رسول الله ﷺ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

[١] بدأت السورة بالتهديد بالعذاب الشديد والهلاك والخزي والدمار لكل من يعيب الناس ويغتابهم.

[٢] ثم أخبر جل وعلا أن من صفات هذا الشقي أنه جمع مالًا كثيرًا، وأحصاه وحافظ عليه، فاغتر بنفسه، ولهذا السبب صار ينتقص الناس ويؤذيهم ويغتابهم بسبب كثرة ماله.

[٣] وهل يظن هذا الأحمق الجاهل أن ماله سيبقيه في هذه الدنيا خالدًا مخلدًا فيها، وأنه سوف يفلت من الحساب.

وفي هذا تنبيه للمؤمن أن يحذر من عدم الاستعداد للدار الآخرة.

[٤] وليس الأمر كما يحسبه هذا الشقي الذي جمع المال وعدده، فأُقْسِمُ أنه سيطرح في النار التي تحطم كل ما يلقىٰ فيها

[٥] ثم قال سبحانه لنبيه محمدٍ ﷺ: وما الذي أعلمك يانبي الله ما حقيقة هذه النار العظيمة؟.

[٦] ثم وصف سبحانه هذه الحطمة فبين أنها نار الله المشتعلة الشديدة اللهب، لا تخمد أبدًا.

[٧] ثم بين سبحانه أنه هذه النار تخلص إلىٰ الأعماق فتغشىٰ القلوب.

[٨] ثم بين سبحانه أن هذه النارُ أبوابها مُطْبَقَة علىٰ الكفَّار، وعليها خزنة غلاظ شداد لا يستطيع الخروجَ منها أحد. ثم بين سبحانه أن أبواب جهنم قد شدت بأعمدة محكمة.

[٩] ثم بين سبحانه أن هذه الأعمدة تمتد علىٰ طول الأبواب تمنعهم من الخروج من النار.

سورة الفيل

سورة الفيل مكيّة وآياتها خمس آيات.

[١] بدأت السورة بخطاب النبي ﷺ؛ فقال جل وعلا: ألم تعلم يانبي الله ما فعله ربك بأصحاب الفيل؟. وقصة أصحاب الفيل: أن أبرهة قام ببناء كنيسة عظيمة في صنعاء، وأراد أن تكون هذه الكنيسة مكانًا يحج الناس إليه بدلًا من الكعبة؛ حيث أغاظهم حج الناس إلىٰ مكة؛ ولهذا قام أبرهة بتسيير جيش عظيم إلىٰ مكة؛ فلما وصلوا إلىٰ وادي محسِّر الذي بين مزدلفة ومنىٰ أرسل الله عليهم عذابه المذكور في هذه السورة فأهلكهم جميعًا.

[٢-٣-٤] وهؤلاء الذين أرادوا هدم الكعبة يانبي الله ألم يهلكهم الله ويجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة في ضياع وخسار؟ حيث أرسل الله عليهم طيرًا أتتهم علىٰ شكل جماعات متتابعة بعضها في إثر بعض، مع كل طير ثلاثة أحجار، واحدة في المنقار وفي كل رجل حجر، وكل حجر مكتوب عليه اسم قتيله، وقيل: إن هذه الحجارة مسومة، أي: عليها علامات العذاب.

[٥] ثم بين جل وعلا أن هذه الحجارة لما سقطت علىٰ أفراد الجيش ابتلوا بمرض الجدري وجعلتهم مُحَطَّمين كأوراق الزرع اليابسة التي سقطت علىٰ الأرض، ومن خفتها تقلبها الريح وتنشرها. وقد ولد النبي ﷺ بعد حادثة الفيل بوقت يسير، أي: بنفس العام.



سُورَةُ قُرَيْشٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

سُورَةُ المَاعُونِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سُورَةُ الكَوْثَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

سورة قريش

سورة قريش مكيّة وآياتها أربع آيات.

[١-٢] يخبر جل وعلا أنه فعل ما فعل بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم؛ ومن أجل إيلافهم للرحلتين؛ حيث إن قريشًا ألفت رحلتين رحلة في الصيف للشام، ورحلة في الشتاء لليمن، وهاتان الرحلتان لجلب البضائع التجارية، وكان العرب في ذلك الوقت يعيشون بغير أمان؛ حيث يغير القوي منهم علىٰ الضعيف، أما أهل مكة فكانت تجارتهم في الرحلتين لا يتعرض لهما اللصوص وقطاع الطريق؛ لأنهم سدنة البيت، فكل العرب يحترمونهم لأنهم يعلمون أنهم سيؤخذون عندما يحجون لو أساءوا إليهم.

[٣] ومن أجل هذه المكانة التي جعلها الله لقريش في قلوب العرب؛ فعليهم أن يوحدوا الله رب هذا البيت العظيم، وأن يخلصوا له العبادة. فهو الذي أطعمهم بسبب تلك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، ومن خوف شديد كانوا فيه؛ إذ كان العرب يسبي بعضهم بعضًا.

سورة الماعون

سورة الماعون مكيّة وآياتها سبع آيات.

[١] يخاطب جل وعلا نبيه ﷺ ويقول له: أخبرني يانبي الله هل رأيت أسوأ وأعجب من حال هذا الإنسان الذي يكذب بالدين، أي: يكذب بالجزاء والحساب في الآخرة، وينكر ما جئت به من ربك من حق وهداية للعالمين.

قال الشيخ ابن عثيمين في درسه في الحرم ليلة الخميس بعد المغرب بتاريخ: ٢٧/ ٣/ ١٤١٨هـ: قال العلماء: إذا قال الله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾، فمعناه: أخبرني.

[٢-٣] وإن من صفات هذا المنكر للبعث والجزاء أنه يدفع اليتيم دفعًا عنيفًا بجفوة وغلظة، ويمنعه حقه في الإرث؛ حيث كان العرب لا يورّثون النساء والصبيان، ويقولون: إن الذي يستحق الإرث هو الذي يحمل السلاح ويحمي العشيرة. ومن صفات هذا المنكر: أنه لا يحث غيره علىٰ إطعام المسكين؛ لأن الرحمة نزعت من قلبه، وإذا كان لا يحث غيره علىٰ ذلك ولا يدعو إليه؛ فهو من باب أولىٰ لا يفعله بنفسه.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في نفس الدرس: قال العلماء: من لا يجد أقل من نصف الكفاية فهو المسكين، ومن وجد أكثر من نصف الكفاية لكنه لا يجد الكفاية فهو فقير.

[٤-٥-٦-٧] ثم أخبر جل وعلا أن الهلاك والعذاب للمصلين المضيعين لوقتها، والذين لا يقيمونها علىٰ الوجه المطلوب، والذين يتظاهرون بأعمال الخير مراءاة للناس، ويمنعون ما لم تجر العادة بمنعه من الآنية وغيرها مما لا تضر إعارته.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في نفس الدرس: الحمد لله الذي لم يقل: **(ويل للمصلين، الذين هم في صلاتهم ساهون)**؛ لأنه لا يسلم أحد من السهو في الصلاة؛ بل قد سها النبي ﷺ في الصلاة أكثر من أربع مرات. ثم قال: وإنه لا يُعاب علىٰ من لم يَصِلْ بين الآيتين: الأولىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، والثانية: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؛ لأن العلماء اختلفوا في ذلك، أقصد في الفصل والوصل، ولأن السامع إذا توقف بعد: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ينبهر ويسأل لماذا؟ فيأتيه الجواب من الآية الثانية. وأما من لم يُصَلِّ فليس له ويل واحد؛ بل هو كافر مخلد في النار.

سورة الكوثر

سورة الكوثر مكيّة وآياتها ثلاث آيات.

[١] ابتدأت السورة بخطاب النبي ﷺ بأن الله أعطاه الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة، ومن ذلك نهر الكوثر الذي من شرب منه شربه واحدة لم يظمأ بعدها أبدًا، وهذا تكريم وتشريف لمقامه الرفيع ﷺ.

[٢] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يجعل صلاته لله وحده الذي أنعم عليه بهذا الخير الكثير، وكذلك أمره أن يجعل ذبحه ونحره للإبل وغيرها لله وحده؛ بل أن يجعل جميع أعماله خالصة لله وحده لا شريك له.

[٣] واعلم يانبي الله أن الله رفع ذكرك وأعلىٰ منزلتك، وأن مبغضك هو المنقطع عن كل خير وعن الذكر الحسن.

سُورَةُ الكَافِرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

سُورَةُ النَّصْرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

سُورَةُ المَسَدِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

٦٠٣

سورة الكافرون

سورة الكافرون مكيّة وآياتها ستّ آيات.

[١-٢] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار الذين يدعونه إلىٰ عبادة الأوثان والأحجار: اعلموا أيها الكفار أنني أعبد الله وحده، ولن أعبد آلهتكم وأصنامكم أبدًا، وما دمتم مُصِرِّين علىٰ الكفر فإنني بريء من عبادة آلهتكم. [٣] وأن يقول لهم أيضًا: ولا أنتم أيها المشركون عابدون إلهي الحق الذي أعبده وهو الله وحده، لعدم امتثالكم لأمري بعبادته؛ لأن عبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمىٰ عبادة. [٤] وأن يقول لهم أيضًا: ولا أنا عابد في المستقبل آلهتكم التي تعبدونها من دون الله.

[٥] ويقول لهم: وأنتم كذلك لن تعبدوا في المستقبل إلهي الحق الذي أعبده ما دمتم علىٰ هذه الحال من الإصرار علىٰ الكفر.

[٦] واعلموا أيها المشركون أن لكم جزاءَكم علىٰ أعمالكم ودينكم الذي ارتضيتموه لأنفسكم، ولي جزائي علىٰ عملي وديني الذي ارتضاه الله لي. **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله**: يعني: لكم عملكم ولي عملي الذي أدين الله به؛ فأنتم بريؤون من ديني وأنا بريء من دينكم. وهذه المقاطعة تكون بعد رفض الإيمان؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[يونس:٤١]. والتكرار في سورة الكافرون للتأكيد، والتأكيد في القرآن بالتكرار كثير.

سورة النصر

سورة النصر مدنيّة وآياتها ثلاث آيات. وتسمىٰ سورة التوديع لأن الإمام أحمد وابن جرير أخرجا عن ابن عباس قال: لما نزلت سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ قال رسول الله: «نُعيت إليَّ نفسي»[1].

[١] بدأت السورة ببشارة النبي ﷺ بالفتح الأعظم وهو فتح مكة؛ حيث قال جل وعلا: إذا نصرك الله يانبي الله علىٰ أعدائك، ورأيت انهزام أهل الشرك وخذلانهم، وفتح عليك مكة. [٢] ثم رأيت الكثير من الناس يدخلون في الإسلام جماعات جماعات.

[٣] إذا رأيت ذلك فسبح بحمد ربك وعظمه علىٰ هذه النعم، واطلب منه المغفرة لك ولأمتك، إنه جل وعلا كثير التوبة، عظيم الرحمة لعباده المؤمنين.

وقد كان فتح مكة كسر الطوق الذي منع القبائل من الدخول في الإسلام؛ لأن القبائل العربية تعلم أن من يدخل في الإسلام سوف يعاديه أهل مكة؛ فلما فتح الله مكة لم يَخَفْ أحد من القبائل من معاداةِ قريش؛ ولهذا تتابعت الوفود العربية علىٰ المدينة معلنة إسلامها، ولذلك سمي عام الوفود.

سورة المسد

سورة المسد مكيّة وآياتها خمس آيات. وقد نزلت في حق ذلك الشقي أبي لهب وهو أحد أعمام النبي ﷺ واسمه عبد العزىٰ بن عبد المطلب بن هاشم؛ حيث كان من أشد أعداء الإسلام، وبعد أن نزلت هذه السورة في شأنه سماه الرسول ﷺ: أبا لهب، وكانت زوجة أبي لهب واسمها: أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان تضع الشوك في طريق الرسول ﷺ.

[١-٢] بدأت السورة بذم أبي لهب فقال سبحانه: لقد هَلَكَتْ يدا ذلك الشقي أبي لهب، وخاب وخسر بسبب إيذائه للنبي ﷺ. ومن إيذائه أنه كان يتبع الرسول ﷺ إذا ذهب إلىٰ منًىٰ يدعو الحجاج إلىٰ الإسلام ويقول للناس لا تصدقوه إنه ابننا وإنه صابئٌ. ثم أخبر جل وعلا أن المال الذي جمعه أبو لهب من تجاراته لن يفيدَه، وكذلك ولده الذي كان يفخر به لن يغني عنه من عذاب الله شيئًا.

[٣-٤] ثم أخبر جل وعلا أن أبا لهب سوف يذوق حر النار ويعذب بلظاها هو وامرأته أم جميل جزاء عداوتها وسبها للنبي ﷺ، ووضعها الأذىٰ والشوك في طريقه صلوات ربي وسلامه عليه.

[٥] ثم بين جل وعلا أن أم جميل سوف يُلف حول عنقها حبل من ليف خشن قد فتل فتلًا شديدًا تعذب به يوم القيامة؛ لأنها كانت تحمل حزمة من الشجر والشوك وتربطه بحبل من ليف مفتول، ثم تضعه في طريق الرسول ﷺ؛ فجعل الله لها مثل هذا الحبل تُعذب به في جهنم، والجزاء من جنس العمل.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٨٧٣)، والدارمي (٨٠).


الجُزْءُ الثَّلَاثُونَ سُورَةُ الإِخْلَاصِ سُورَةُ الفَلَقِ سُورَةُ النَّاسِ

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

سُورَةُ الفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّٰثَٰتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

٦٠٤

سورة الإخلاص

سورة الإخلاص مكيّة وآياتها أربع آيات. من فضائل هذه السورة أنها تعدل ثلث القرآن في المعنىٰ والثواب، يعني: أن تلاوتها ثلاث مرات لا يجزي عن تلاوة القرآن، وهذا يعني أن من أقسم أن يقرأ القرآن لابد أن يقرأه من الفاتحة إلىٰ سورة الناس.

[١] أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول للناس: إن الله متفرد بالألوهية ومتفرد بالربوبية ومتفرد بأسمائه وصفاته لا يشاركه فيها أحد، وهذا هو معنىٰ الأحد، وليس كما زعمت المعتزلة والأشاعرة أنه الواحد الذي لا ينقسم ولا يتجزأ، أي: ليس له أجزاء. ويُرد عليهم بقول الله في آخر هذه السورة: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾، وهذا أفضل من قولهم وأشمل. [٢] ثم أمره أن يقول لهم: إن الله وحده هو الذي يجب أن تقصده المخلوقات في قضاء الحوائج لكونه هو القادر علىٰ حلها.

[٣] وأمره أن يقول لهم: إن الله غني عن الولد والصاحبة؛ فليس له والد ولا ولد ولا زوجة. وأنه سبحانه لم يولد؛ لأنه لم يُسبق بشيء، فهو الذي لا شيء قبله. [٤] وأمره أن يقول لهم: إن الله لا يشبهه ولا يساويه أحد؛ فتبارك الله رب العالمين.

سورة الفلق

سورة الفلق مكيّة وآياتها خمس آيات.

[١] أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول للناس: إني أستعيذ برب الصبح الذي يفلق الظلام المغطي علىٰ الأشياء فيعم النور وتُرىٰ الأشياء بوضوح.

[٢] وأمره أن يقول لهم: إني أستعيذ بالله من شرور جميع المخلوقات.

[٣] وأمره أن يقول لهم: إني أستعيذ بالله من شر الليل إذا أقبل بظلامه الكثيف الذي يغطي الأرض. لأنه إذا جاء الليل تنتشر الحيات والشياطين، ويكثر الأشرار والفجار، ولهذا يقال في المثل: الليل أخفىٰ للويل.

[٤] وهكذا أمره أن يقول لهم: إني أستعيذ بالله من شر الإناث السواحر؛ لأن الغالب في جعل السحر مهنة هن النساء في الماضي، أما الآن فالرجال أكثر من النساء، والنفث يكون بعد أن يلفظ التمتمات والألفاظ التي تلقىٰ من الشياطين، ينفث من ريقه علىٰ ما يعقده من شعر المسحور أو ملابسه فيتم بذلك سحر المراد سحره من الناس إن لم يكن قد تحصن بالأدعية المعروفة.

[٥] وأخيرًا: أمره أن يقول لهم: إني أستعيذ بالله من شر كل حاسد يحسد الناس، والاستعاذة من الحسد، أي: الاستعاذة من العين؛ لأن العين حق، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ، قالوا: لأنها تورد الجمل القدر والرجل القبر. والتحصن من السحر والعين مستحب والرسول ﷺ فعله، ولما مرض ﷺ كانت عائشة ترقيه بهاتين السورتين[1].

والحسد: هو تمني زوال النعمة، وهو أعم؛ فقد يأتي من الإعجاب بالمرئي، فإذا لم يقل المعجب: اللهم بارك، ربما يصاب المرئي بالعين، والحسد من صفات اليهود الخبيثة.

سورة النّاس

سورة الناس مكيّة وآياتها ستّ آيات.

هذه السورة تميزت بكثرة الاستعاذة؛ حيث استعاذت بالربِّ والمَلِكِ والإلهِ، والسبب في ذلك: أن وسوسة الشيطان قد تخرج من الملة. أما في سورة الفلق فإن ما ذكر فيها علىٰ فظاعته وسوئه فإنه لا يخرج من الملة.

[١] أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول للناس: إني أستعيذ وأعتصم بخالق الناس ومربيهم؛ لأنه هو الوحيد القادر علىٰ رد كيد الكائدين.

[٢] وأستعيذ بمالك أمر الناس والمتصرف في شؤون حياتهم.

[٣] وأستعيذ بإله الناس ومعبودهم الحق، الذي يصرف السوء من سحر وعين وخبث شياطين الإنس والجن. [٤] ثم بين سبحانه أن المُسْتَعَاذَ منه هو شر الشيطان اللعين، الذي يخنس وينهزم ويولي عند ذكر الله عز وجل.

[٥] وبين سبحانه أن سبب الاستعاذة أن الشيطان يوسوس في صدور الناس؛ فيحبب إليهم الكفر والمعاصي حتىٰ يوقعهم فيها. وللتخلص من هذا الشيطان يجب الاستعاذة منه؛ لأنه إذا لم يستعذ الإنسان منه استولىٰ علىٰ قلبه وألقىٰ فيه وساوسه؛ سواء كانت في العقيدة، أو في التخطيط لارتكاب الجرائم ونحو ذلك. [٦] ثم بين جل وعلا أن الوساوس كثيرًا ما تكون من الجن، وأحيانًا تكون من الناس، والشيطان له أساليب عجيبة في الوسوسة؛ فأحيانًا يأتي بصفة أنه يطمع في شيء، وأحيانًا يأتي بصفة الناصح، وهو يعامل كل شخص بحسب الطريقة التي توصله إلىٰ تحقيق ما يوسوس به؛ فنعوذ بالله منه ومن شر كل ذي شر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨)، والنسائي في الكبرى (٧٨٠٤)، وصححه الألباني.

